

تاريخ الدولة العلية العثمانية

تأليف

الأستاذ محمد فريد بك المحامي



تحقيق: د. إحسان حقي

دار النفائس

تاريخ الدولة العليّة العثمانيّة

تأليف

الاستاذ محمد فريد بك المحامي

تحقيق

الدكتور إحسان حقّي

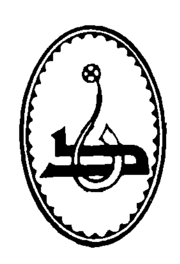
دار النفائس

الطبعة الأولى

١٤٠١هـ - ١٩٨١م

© دار النفائس

بيروت : ص ب ٦٣٤٧ - هاتف ٣٠٢٥٣٨ - برقيًا : دانفايسكو



تاريخ الدولة العلية العثمانية

مقدّمة الناشر

« هؤلاء الذين نُحيي ذكراهم كلَّ عام هم خونة يجب أن نلعنهم . لقد اتصلوا بالإنكليز ، وتآمروا مع الاستعمار لفصل بلاد العرب عن الدولة العثمانية المسلمة ... » .

هكذا بدأ أستاذ التاريخ الذي نسيت اسمه وشكله درس التاريخ ، وكنا سنعطل في اليوم التالي بمناسبة « عيد الشهداء » .

وقال كلاماً كثيراً أهمه : ان أتاتورك من أصل يهودي . وانه نفذ مؤامرة كبرى للقضاء على وَحدة العالم الاسلامي . وهو الذي أبعد تركيا عن العرب وعن الإسلام . وجميع المعجبين به من زعمائنا هم أعداء للإسلام وللمسلمين .. يحاولون أن يجعلوا منه بطلاً قومياً ، بينما هو في حقيقته عميلاً صهيونياً ...

كان كل ما قاله الاستاذ يخالف الكتاب المقرر ، ويناقض ما علينا أن نحفظه ونقدم به امتحاناً رسمياً آخر العام . ومع ذلك فقد أثر كلامه فينا جميعاً .. كانت نبرة صوته تدل على إخلاصه . وشجاعته تشير إلى صدق قوله .. وحرت بينه وبين الكتاب ، حتى وجدت الحل في الإجابة على أسئلة الامتحان كما يقول الكتاب والتفتيش عن الحقيقة الضائعة بين الأستاذ والكتاب في مصادر أخرى ، وعند أشخاص آخرين .

وربما كان الأستاذ قد أثار مشاعرنا بإشارته إلى اتصال الرجال المحتفى بذكراهم بالاستعمار . فنحن الذين أدركنا صغاراً أواخر أيام الاستعمار الفرنسي في دمشق لا يمكن أن ننسى أصوات القنابل تدك أحياء دمشق القديمة ، وهي مبنية من الطين والحجارة أو اللبن ، فتنهار على من فيها من نساء وأطفال وشيوخ وعُجَّز . ولا يمكن أن ننسى الجندي الفرنسي ، يرد بالرصاص على حجارتنا الصغيرة ترميها أيدٍ صغيرة في أي اتجاه ...

قد تتغير السياسات ، ويصبح الأعداء حلفاء ، لكن الصور السوداء ، والأعمال البربرية التي تهز كيان الإنسان لا يمكن أن تمحى من الذاكرة والأعماق ... ومعظم المستعمرين والمحتلين ، وجميع الظلمة لا يدركون الآثار التي تخلفها تصرفاتهم الحمقاء ، وإلا لكانوا أناساً آخرين .. !

وتمر الأيام ، وتتخلص بلادنا من الاستعمار (الاحتلالي) ، وتجلو الجيوش الأجنبية .. ، لكن مناهج التعليم تبقى في معظمها كما هي . أضيفت فصول تهاجم الاستعمار بما يشبه شتائم الأميين . لكن الاستعمار الثقافي بقي مسيطراً على كثير من العقول . ومن يحاول أن يتخلص منه يفر من قدر الله إلى قدره . فالمراجع تتبنى نظريات الغرب، والسينما ترسخ ما يقول به الغرب ، والصحف والمجلات تدور في فلك « الأغراب » . وما أصعب الوصول إلى الحقيقة في خضم من الأباطيل والأكاذيب .

ومما يؤسف له أن التحرر الفكري عندنا لا يخرج عن كونه شعاراً يدعيه بعضنا ويتصرفون بعكس مضمونه ، لصعوبة التحلل من خلفيات موروثة وقناعات بلغت حدَّ القدسية .. وليس أسوأ من الثبات على معتقدات باطلة إلا تركها لاعتناق مبادئ ومعتقدات وأفكار أضلَّ منها .

إن التحرر الفكري مرتبة لا يصل إليها إلا من أنعم الله عليهم بسعة الأفق ورجاحة العقل وصفاء الذهن ، ووهبهم المقدرة على تحليل الأمور بعيداً عن العواطف والرواسب والأهواء والخلفيات .. فإذا ما تبين لهم الخطأ من الصواب من بين جميع المعطيات . كانت لديهم الشجاعة الكافية للمجاهرة بما يرونه صواباً والدفاع عنه ولو خالف آراءهم السابقة ، فالثبات على المبدأ ليس دائماً فضيلة ، كما يعتقد بعض البسطاء ، وإلا لكان أبو جهل أفضل من أبي بكر ، لأن الأول ثبت على المبادئ التي ورثها عن أجداده ، بينما ترك الثاني تلك المبادئ ليعتنق الدين الجديد عندما تبين له وجه الحق فيه .

والتحرر الفكري يتطلب منا دراسة تاريخنا كله دراسة موضوعية ، وتجريده من دسائس المغرضين وعواطف المتحمسين ثم تحليله تحليلاً علمياً . وبذلك نستطيع

استنتاج عوامل النهضة وأسباب الانحطاط ، فنتمكن من بناء مستقبل أفضل بالاستفادة من أخطاء الماضي .

فمنذ قضى المسلمون الأولون على دولة الفرس وأنشأوا دولتهم الأولى انقسم العالم إلى شرق مسلم وغرب مسيحي . والعداء بين الشرق والغرب عداء تقليدي قديم ، زاده حدَّة هذا الانقسام الديني . فالحروب الدينية تكون عادة من أقسى الحروب لاعتقاد كل فريق بأنه ينفذ إرادة الإله على الأرض ويؤدي واجباً مقدساً انتدبه الرب للقيام به .

وربما تكون دوافع الحرب في الأصل دينية ، ولكن لا يلبث الناس أن ينسوا الدين والله ، وتصبح أهداف الحرب السيطرة والاستغلال واستعباد الشعوب .. والذي لا يتغير فقط هو العداء الموروث والجهود المستمرة التي يبذلها كل فريق لإذلال الفريق الآخر .

وقد كان للمسلمين جولة في بداية الإسلام وبلغت حضارتهم أوجها في زمن الأمويين والعباسيين ، بينما كان الغرب يغط في سبات عميق ..

ثم انقسمت بلاد المسلمين إلى طوائف ودويلات .. وجاء دور الغرب فكانت له هجمة أعقبها ظهور دولة العثمانيين الذين فتحوا القسطنطينية ، المدينة التي استعصت على الفتح لغاية عام ١٤٥٣ م ، ووحدوا العالم الإسلامي تحت راية واحدة ، وتقدموا في أوربا يحتلون مدينة تلو أخرى حتى حاصروا فينا عام ١٦٨٣ م واحتلوا بلغراد عام ١٦٨٨ م ..

وكعادة الدول ، بدأت الدولة العثمانية بالانحطاط في حين بدأ الغرب عصر النهضة الحديثة . وعندما أصبح مؤهلاً للقضاء على « الرجل المريض » كما أصبح اسم الدولة العثمانية في أواخر عهدها ، كان هدفه تحطيم العالم الاسلامي تحطيماً كاملاً لا نهوض بعده . لأن وقع حوافر خيول المسلمين ما زال ينبعث من سهول فينا فيتلاطم صداه مع وقع حوافر خيولهم وهم يعبرون جبال البيرنه في تقدمهم لاحتلال فرنسا .

صحيح أن نظام الحكم في الدولة العثمانية كان ملكياً وراثياً ، ولم يكن

إسلامياً ، ولا غرو في ذلك فالنظام الإسلامي في اختيار رئيس الدولة (خليفة المسلمين) لم يطبق إلا في زمن الخلفاء الراشدين . وكان بين سلاطين بني عثمان العادل والظالم ، القوي والضعيف ، المؤمن الملتزم والمسلم المستهتر..وباختصار كانوا كغيرهم من ملوك الزمان ، وإن تجاوز بعضهم الحدود المألوفة في الطغيان ، فقتل إخوته وابناءه ، لمجرد خوفه من منافستهم المحتملة له في الملك والسلطان.

لكن الأسئلة التي تدور حول العثمانيين كثيرة ، لعل أهمها :

هل كان العثمانيون يفضلون العنصر التركي على العربي ؟

هل كانوا يؤمنون بالقومية التركية ؟

هل كانوا مسلمين أم مستغلين للإسلام ؟

هل الهجمة الشرسة على العثمانيين وتاريخهم يقصد بها العثمانيون أم هدف آخر هو الإسلام ، ووحدة العالم الإسلامي ؟

أسئلة كثيرة تدور في الأذهان ، وأجوبة كثيرة في كتب مختلفة ، من بينها كتابنا هذا « تاريخ الدولة العلية العثمانية » تأليف: الأستاذ محمد فريد بك المحامي.

والكتاب في الأصل رديء الطباعة كثير الأخطاء ، خالٍ من الخرائط والمصورات ، تنقصه الفترة الأخيرة من تاريخ الدولة العثمانية كما ينقصه كل شيء عن الثورة الكمالية ، وهو مع ذلك يشد الانتباه ويستوعب تاريخ الدولة العثمانية منذ تأسيسها مع مقدمة جيدة عن التاريخ الإسلامي منذ ظهور الإسلام.. إنه باختصار الكتاب الذي تحتاجه المكتبة العربية .

ولما عزمت على تحقيقه وإعادة طبعه ، لم أجد أفضل من الدكتور« احسان حقي» يتولى هذا العمل الجليل ، فهو ـ أمدَّ الله في عمره ـ أستاذ في التاريخ ، أدرك أواخر العهد العثماني ورافق عدداً كبيراً من رجالاته . هذا بالإضافة إلى جلَده على العمل ، ودقته العلمية ، وثقافته الإسلامية والغربية ومعرفته عدة لغات منها التركية ، لغة العثمانيين الأصلية .

وما كدت أعرض عليه المشروع حتى تحمس له ، وأنجزه في أقل من عام ، وقد ذكر في مقدمته طريقة عمله وإضافاته . مما لا حاجة لاعادته هنا . ولكن لا

يفوتني أن أشير إلى أن القارئ قد يلاحظ ركاكة في أسلوب المؤلف ، مع بعض الأخطاء النحوية ، فضلنا تركها على حالها ، لأن ذلك يعطي القارئ فكرة عما كانت عليه اللغة العربية قبل قرن من الزمان ، علماً بأن ذلك لا يؤثر في الناحية العلمية للكتاب ، كما لا يؤثر فيها تحمس المؤلف لأسرة محمد علي ، وكلمات التفخيم والتعظيم التي يغدقها على السلاطين والخديوية ، مما كان مألوفاً في ذلك الزمان .

وعلى كل حال فإن نشرنا للكتاب لا يعني بالضرورة تبنينا لكل ما جاء فيه .. إنه محاولة متواضعة تكشف لقرائنا ، وللشباب منهم بشكل خاص ، عن جوانب أخرى من تاريخ الدولة العثمانية ، غير تلك التي كتبها الغربيون والمتغربون .. عسى أن يساعدهم ذلك في الوصول إلى الحقيقة .. ضالة كل ذي عقل ، فإن أصبنا فذلك من توفيق الله . وإن أخطأنا فحسبنا قوله عز وجل « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا .. » ، نسأله تعالى شأنه أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم .

بيروت في ٢٥ نيسان ١٩٨٠ — أحمد راتب عرموش



تشريفاتجي قيافتى جاويش باشي : رئيس الرقباء للباس التشريفات

مُقدّمَةُ المحقّق

لقد طلب إليَّ الاستاذ أحمد راتب عرموش ، صاحب دار النفائس في بيروت ، تحقيق هذا الكتاب : « تاريخ الدولة العلية العثمانية » والتعليق عليه ، فاستجبت لهذا الطلب بكل سرور لأنه جاء وفق بغيتي ولأن أبناء الجيل الحاضر بحاجة إلى معرفة الحقائق عن تاريخ هذه الدولة الإسلامية التي يريد أعداء الإسلام تشويه سمعتها وإلصاق التهم بها .

استجبت لهذا الطلب لأني وجدت فيه ضالة كنت أنشدها منذ زمن بعيد مذ رأيت الناس يزيفون التاريخ على هواهم لغايات في نفوسهم أو استجابة لحكامهم أو لجهلهم الحقيقة ، فأدركت أننا بحاجة إلى تاريخ صادق وأمين يعرفنا حقيقة الدولة العثمانية بوجه عام وتاريخ السلطان عبد الحميد الثاني ـ الذي كثرت فيه الأقاويل وسلق بألسنة حداد ـ بصورة خاصة ، من غير محاباة ولا تحامل .

وكان قد اتفق لي أن اجتمعت ، سنة ۱۹۷۲ في بيروت ، بالأمير عابد أفندي أصغر أنجال السلطان عبد الحميد الثلاثة وكان ، آنذاك ، هو الوحيد الذي لا يزال باقياً على قيد الحياة ، وانعقدت بيننا صداقة وفاتحته برغبتي في أن أكتب كتاباً عن المغفور له والده لأن التاريخ قد ظلمه؛ ولكن لم أفعل إلى تلك الساعة بسبب كثرة مشاغلي ، من جهة ، وعدم وجود مراجع أمينة صادقة يعتمد عليها ، من جهة أخرى ، فقال لي : « إني آخذٌ بكتابة كتاب عن والدي باللغة الافرنسية لأني لا أعرف كتابة التركية بالحروف اللاتينية ولا أعرف اللغة العربية » . فقلت له سنتعاون ، إذن ، معاً لإبراز هذا الكتاب باللغتين : الافرنسية والعربية فرحب بالفكرة .

وحدث أن ذهبت في نهاية السنة المذكورة الى باكستان بدعوة من حكومتها فلما

عدت وسألت عن الأمير علمت أنه توفي بسكتة قلبية رحمه الله ، ولست أدري ماذا فعل الله بكتابه ولا الى أين وصل به .

فلما اطلعت على كتاب : « تاريخ الدولة العلية العثمانية » الذي أقدمه إلى القراء وجدت فيه ما كنت أطمع به، إذ أنه يحدثنا عن تاريخ بني عثمان منذ يومه الأول الى منتهاه ، أو بالأحرى الى آخر أيام عبد الحميد وهذا ما كنا بحاجة اليه. وأما ما جاء فيه على ذكر محمد رشاد ، باختصار ، فهو ليس بتاريخ بني عثمان بل هو تاريخ حزب الاتحاد والترقي وقد توليت الإشارة إليه في ملاحقي .

أقول : بعد أن اطلعت على هذا الكتاب ورأيته يغني عن سواه انصرفت الى تحقيقه والتعليق عليه بكل شوق خدمة للعلم وللحقيقة وانصافاً للتاريخ والواقع .

وحيث أن بلادنا ، العربية عامة ، كانت جزءاً من الدولة العثمانية لا بل كانت أكبر أجزائها، وتاريخنا في تلك الحقبة الطويلة هو تاريخها لأننا كنا شركاءها في السراء والضراء وفي الفتوحات والهزائم وفي المغارم والمغانم وفي السلطة والحكم ، كان من واجب كل عربي ، بصورة خاصة ، ومن واجب كل مسلم بصورة عامة أن يطلع على هذا التاريخ، وأن يلم به ليكون على بينة مما فعلته الدولة العثمانية في سبيل نصرة الاسلام وتدعيم أركانه، وفي سبيل رفع شأن المسلمين من غير تفريق بين قوم وقوم ولغة وأخرى وجنس ولون ، وما بذلته من راحة وروح ومال وعيال لهذا الغرض .

وإذا كانت هذه الدولة العظيمة قد زالت من الوجود بفعل تكالب دول الغرب عليها ؛ فما ذلك الا لأنها دولة إسلامية تعمل لنصرة الإسلام وإعلاء كلمته في الخافقين. ولو كانت غير ذلك لما مست بسوء ، بل لكانت وجدت العون والنصرة من الذين عادوها، وأكبر برهان على ذلك هو إمارة موسكو التي قضت على الممالك الاسلامية المجاورة لها، واستعبدت أهلها وسلبتهم دورهم وأراضيهم ، وأقامت على انقاض تلك الشعوب امبراطورية، ولم يتحرك أحد لنصرة أولئك المظلومين . ثم إنها بعد الحرب العالمية الثانية نشرت الشيوعية في دول أوروبا الشرقية وسيطرت عليها بالحديد والنار، وحينما تحركت بعض البلدان طلباً للحرية مثل المجر وتشيكوسلوفاكيا داستهم

الدبابات الروسية فعجنت لحمهم وعظامهم بتراب الأرض .

إن في تاريخ الدولة العثمانية عبراً لمن يريد الاعتبار سواءٌ أكان ذلك في مجال الحرب والقتال أو التضحية والفداء أو في ميادين السلم والمحبة والتسامح والتآخي والكرم والعفو . كما أن في تاريخها دروساً لمن يريد أن يعرف ما تنطوي عليه نفوس الغربيين من حقد وحسد وبغضاء وعداوة للإسلام والمسلمين، وإن الحروب الصليبية التي شنت علينا منذ ظهور الاسلام لم تنته بعد ولن تنتهي ما دام الفرق موجوداً بين النور والظلام. فعلينا أن ندرك ما يُراد بنا وأن نكون حذرين ،وأن نعد عدتنا للدفاع عن أنفسنا مما يراد بنا من مسخ وتضليل، وعلينا أن نعلم بأن الخطر لن يأتينا من الخارج فقط بل إن أعداءنا في الداخل هم أشد خطراً علينا من أعدائنا في الخارج لأن هؤلاء نعرفهم بسيماهم ونعرف أنهم أعداؤنا،وأما اولئك فانهم يأتوننا متلبسين بجلودنا مظهرين حبهم لنا يتكلمون بلغتنا ويتحدثون بمصالحنا ،وألسنتهم معنا وقلوبهم مع أعدائنا ...

فهل يستيقظ المسلمون والعرب قبل أن يأتي يوم يَفقدون فيه كل أمل ؟ .

احسان حقي

ملاحظة

على ما لهذا الكتاب من قيمة علمية جليلة من الناحية التاريخية فهو لا يخلو من نقائص كان من الواجب الآن توجد، لكي يكون نفعه أكمل وفائدته أشمل . وإني إذ أقول هذا لا أقصد أن أبخس الكاتب حقه فيما قدم إلينا من معلومات، بل أشهد أن عمله عملٌ جبار وربما كان هذا الكتاب خير ما كتب عن تاريخ الدولة العثمانية بهذا الحجم الصغير بالنسبة إلى تاريخ ٦٠٠ سنة حافلة بالأحداث ، ولكن عذر المؤلف هو أنه إنسان، والإنسان ناقص، والكمال في كل شيء لا يأتي الّا مع الأيام عبر مراحل متكررة .

ولعل أبرز نقائص كتابة التاريخ باللغة العربية هي عدم كتابة أسماء الأعلام ، من أشخاص وبلدان أجنبية ، بالحروف اللاتينية، لأنّ اللغة العربية على الرغم من أن هجائيتها تزيد على الهجائيات اللاتينية ببضعة حروف إلا أنها تحتاج إلى بضعة حروف إضافية لكي تحكي أصوات بعض الحروف اللاتينية مثل پ چ ژ ڤ گ ، فإذا لم يكن الشخص أو البلد مشهوراً ومعروفاً وكتب اسمه بالحروف العربية فقط استحال على القارىء العادي الاهتداء إلى معرفة الشخص أو الاهتداء إلى المكان واضطر العالم الى جهد كبير لبلوغ هذه الغاية ، لا سيما وأن البلاد التي تكتب لغاتها بالحروف العربية لم تتفق على حروف تقوم مقام الحروف الناقصة في العربية ، فبعض البلدان تستعيض عن حرف (ڤ) بال : (و) أو بال : (ف) أو بال : (ب) وتستعيض عن حرف (گ) بال : (ك) أو بال : (ج) أو بال : (غ) وتجعل ال (پ) (ب) عربية وال : (ژ) (ز) عربية ، والحرف الوحيد الذي تستطيع الاستغناء عنه بحرف عربي هو حرف (چ) إذ تجعله (تش) .

ومما يرتكبه ، الذين يتصدون لكتابة التاريخ ، من أخطاء هو أنهم إذا ذكروا اسم مدينة أو قرية أو جبل أو نهر غير معروفة ، لا يشيرون إلى البلد الأم الذي يوجد فيه ذاك الاسم مثل أن يقولوا : (قرحتا) قرية من قرى دمشق أو انها قرية سورية ، على

أقل تقدير ، لكي يحصر الباحث بحثه عن هذه القرية في منطقة محدودة معينة . وأما أن يقول مثلا : (زومبور) أو (زابادقا) من غير أن يشير إلى البلد الأم فإن العثور عليها أمر عسير إذا لم أقل مستحيلاً وذلك لسببين ، الأول : أنهما قريتان صغيرتان لا يستطيع المرء أن يجدهما في معجم أو موسوعة ولا على خريطة ، والثاني : لأنهما كتبتا بالحروف العربية . وإذا لم يعرف قارئ التاريخ مكان الحادث كان كمن يقرأ رواية خيالية . وأنا لم ابتدع هذين الاسمين بل هما اسما قريتين من قرى المجر . فإذا لم يستطع المرء أن يجد الاسم المطلوب في معجم أو موسوعة ولا يجده على الخريطة فكيف يجده ؟

هذه ملاحظات أبديها لكي أقول للقارئ الكريم : إني بالاضافة الى معلوماتي التاريخية وإلى أسفاري العلمية الكثيرة فقد بذلت جهوداً كثيرة للعثور على أماكن ما عثرت عليه من بلدان وقد استعنت بعدد من الأطالس بعضها انكليزي وبعضها الماني وبعضها إفرنسي مثل :

1 : Modern School Atlas.
2 : Quick Reference World Atlas.
3 : Good's World Atlas.
4 : Westermann Grosser Atlas.
5 : All World Atlas.

واستعنت بأطلسين تركيين صغيرين قديمين هما :

١ ـ مختصر تاريخ عمومي عثماني أطلسي . اي (أطلس مختصر التاريخ العثماني العام) .

٢ ـ مكمل ومفصل جغرافياي عمومي أطلسي . أي (الأطلس المكمل والمفصل للجغرافيا العامة) وكانا أفضل الأطالس بالنسبة إلى عملي هذا .

وقد استعنت أيضاً ببعض الخرائط السياحية وكانت مفيدة جداً . ومن هنا كان اختلاف رسم الأسماء بالحروف اللاتينية بحسب اللغة التي كتبت بها ، ومثال ذلك أن الالماني يقول منشين والافرنسي والانكليزي يقولان مونيك والعربي أو التركي يقول مونيخ وكلها أسماء مختلفة الشكل وتدل على بلد واحد . ولو كان لدينا أطلس واحد يضم كل بلاد العالم لجاء الشرح واحداً ، ولكن هذا لا يمكن أن يكون لأن كل بلد

من بلاد العالم مهما كان صغيراً يحتاج الى أطلس لا يقل عن خمسين خريطة لتضم كل الأسماء، ومعنى ذلك أن المرء يحتاج إلى أن يبحث عن مطلوبه في مئتي كراس أو أطلس وهذا غير ممكن وغير مفيد أيضاً لأن المرء إذا كان بحاجة الى معرفة مكان مئة بلد فإنه لا يحتاج إلى مطالعة كل أطالس العالم.

ولو يعنى كتاب التاريخ العرب بهذه الناحية لوفروا على القارئ جهداً كبيراً وعناء.

هذا وإني قد تركت ما ذكره المؤلف من عدد سكان بعض المدن على حاله لأخذ فكرة عما كانت عليه يوم كتب كتابه هذا، قبل سبعين سنة، بالمقارنة بما هي عليه اليوم.

احسان حقي

مُقدِّمَةُ الطبعَةِ الثَانِيَة

بقلَمِ المؤلِّف محمَّد فرَيد بك المحَامي

الحمد لله الذي عنده الدين الاسلام والصلاة والسلام على من أُرسل لجميع الأنام وعلى آله وصحبه الكرام ﴿وبعد﴾ فالعالم أجيال متعاقبة يخلف اللاحق منها السابق ويرثه معارفه: صحيحها وفاسدها وأخلاقه: حسنها وقبيحها وأعماله: تامها وناقصها. ويضيف إلى ذلك معلوماته الخصوصية وتجاربه الذاتية فيكوّن بذلك مدنيته العصرية. فإذا قام الخلف الشاب بالواجب عليه لعصره واتخذ له من تجارب السلف الشيخ مصباحا استنارت له سبل السعي وانفسح أمامه الأمل فيرقى في درجات المدينة بمقدار ما صرفه من العناء في العمل وما أحرزه من معارف السالفين. لذلك وجب أن تكون الحوادث الماضية وأعمال الأقدمين في العصور الخالية قدوة للمتأخرين في سياستهم وعوناً لهم على أعمالهم وأنى لهم الاقتداء إذا كانوا لا يعلمون بأخبار آبائهم الأوّلين.

يسد هذه الحاجة درس التاريخ العامّ والخاص **فالأوّل**: يوقفنا على أخبار كل أمة في جميع أطوارها كأسباب ظهورها والروابط ومقدارها بين أفرادها والوسائل التي اتخذتها لنموّها وارتقائها وحدود محكوميها وحكامها ووصف وقائعها في غزواتها وتحديد تخومها في كل أزمانها وامتداد أملاكها ونوع سياستها في استعمارها ومقدار نفوذها عند مفضولاتها واحترامها في أعين رصيفاتها ونواياها وأطماعها وأسباب خذلانها وسقوطها وغلبة غيرها على أمرها. **والثاني** بالنسبة لنا معشر المسلمين تاريخ الأمة الإسلامية التفصيلي الذي يرينا كيف أشرق ذلك الدين القويم على قمم تلك الأرض المباركة ـ أرض الحجاز ـ فأنار معظم القارّتين القديمتين آسيا وأفريقية وجزءاً ما كان قليلاً من أوروبا، وكيف كان يسير به رافعو ألويته في الأقطار بالفتح المبين على سرعة لا تفضلها سرعة حتى امتدّ سلطان الخلافة الاسلامية في زمن يسير من تخوم الهند شرقاً إلى مرّاكش غرباً وكيف كان تمدين

هؤلاء المسلمين الصالحين لمن فتحوا بلادهم إذ أصلحوا أمرهم وقوّموا أودهم وحقنوا دماءهم وحفظوا لهم ذمتهم وولاءهم وأباحوا لهم حرية أديانهم بعد أن أثقل ظلم ملوك هاتيك الأزمان ظهورهم، فاسترق أموالهم وأذلهم وأبعد عن طريق الحرية آمالهم وأمثال هذه الفظائع حتى في هذا الزمن لا تكلف غير نظرة بالعين أو إصاخة بالأذن.

تاريخ هذه الأمة الفاتحة الشريفة قد ينحصر على التوسع في فرعين رئيسيين: الخلافة العربية والخلافة التركية. وقد طرق الفرع الأوّل كل مؤرخي الإسلام وأما الفرع الثاني فكاد القلم العربي أن يكون منه أبعد الأقلام، على أن الملك العثماني قد لمّ من شعث الولايات الاسلامية وقطع من تقاطعها مارد على السيطرة الاسلامية كل السيطرة الشرقية. على أثر ذلك قامت قيامة التعصب الديني في الممالك الأوروبية واتفقت على اختلافها وتوحدت على تعددها وانسابت على الملك العثماني فأخذت تحاربه مثنى وثلاث ورباع لتقويض عرشه وردّه إلى مهده الأوّل فحال عزمه بينهم وبين ما يشتهون. فتربص الأوروبيون والحقد يتأجج ناراً في صدورهم والتعصب يورى شرراً في عيونهم حتى الزمن الأخير. وقد استخدمت الدولة العلية دخلاء كانوا عيوناً للأعداء على أعمالها أعواناً عليها لا لها يرون صدق النصح في غشها فأمل فيها الطامع ورادها الرائد ونصب لها الصائد ونال منها الحاسد حتى لقد سلبها التعصب الأوروبي كثيراً من أملاكها إما بحجة الفتح أو بحجة تأييد السلام العام وإما بحجة أن التعصب الديني من قواعد الإسلام، تلك الدعوى التي يدعونها توفيقاً لمصالح المختلفين منهم وجمعاً للمتفرّقين من عصبتهم كأني بهم وما يدعون يحسبون اليهود وقد آواهم المسلمون مسلمين أم يزعمون، وهم مبطلون، أن مسيحيي الدولة، إلّا من أفسدوا، على عهدها غير مقيمين. وكيف يكون ذلك بعد أنهم ومن سواهم لدى قانون الدولة على اختلافهم في الاعتقاد سواء؟ فلما كانت هذه الدولة قد وقفت نفسها للذبّ عن حرية الشرق والذود عن حوضه ولما كانت هي الحامية لبيضة الدين الاسلامي زماناً طويلاً رأت فيه من التعصب الأوروبي الإحن والمحن وجب علينا أن نعلم تاريخها التفصيلي حق العلم لنقف

على ما كان يربطنا بغيرها من الدول من المعاهدات والوفاقات الدولية. لذلك رأيت من الواجب عليّ خدمة للحقيقة ونفعاً لأبناء البلاد أن أدوّن هذا التاريخ متحرياً فيه صدق الأخبار عن صحيح الروايات شارحاً أسباب الوقائع وما جرّت إليه من النتائج معتمداً في ذلك كله على المعاهدات والفرمانات[1] وصحيح المصادر.

هذا ولما نفدت الطبعة الأولى من كتابي تاريخ الدولة العلية أعدت طبعه هذه الدفعة بعد أن أصلحت ما وقع به من غلطات الطبع وهفوات التحرير وأضفت إليه مقدمّة تاريخية ضمنتها تاريخ الخلافة الشريفة الإسلامية من أوّل ظهورها إلى يوم انتقالها لبني عثمان في زمن السلطان سليم الثاني بحيث يحيط المطالع بجميع حلقات سلسلة التاريخ الاسلامي بكل سهولة، لكني اقتصرت على ذكر الحوادث التاريخية لغاية الحرب الروسية التركية الأخيرة التي انتهت بمعاهدة برلين الشهيرة عاقداً العزيمة على جمع ما حدث بعدها من الحوادث التي كانت كلها موجهة لإضعاف الدولة العلية وسلخ أجزائها عنها الواحد بعد الآخر مدوّناً كلاً منها في باب مخصوص باحثاً عن أسباب ما حصل بداخلية الدولة من الفتن واليد أو الأيدي الأجنبية العاملة فيها وما أتاه جلالة السلطان عبد الحميد الثاني من ضروب الحكمة في مقاومة هذه الحركات العدوانية وما أظهره ـ حفظه الله ـ من الحزم والعزم في إطفاء كل فتنة قبل أن يتعاظم شرها ويتطاير شررها راجياً منه تعالى أن يوفقني لخدمة الوطن ونفع بنيه وأن يديم ويؤكد ما بين مصرنا والدولة العلية من روابط التابعية وأن يحفظ خديوينا[2] المعظم عباس باشا حلمي الثاني[3] ملجأً لمصر وأبنائها ومنقذاً لها من ورطتها إنه السميع المجيب.

---

(١) فرمانات: جمع فرمان وهي كلمة فارسية الأصل معناها الأمر، وكانت تستعمل في الدولة العثمانية للأوامر السلطانية أو ما يسمى اليوم بالمراسيم الملكية.

(٢) خديو: كلمة فارسية معناها الأمير وقد يلقب بها كبار رجال الدولة، وخصصت في الدولة العثمانية لأمير مصر فقط على اعتبار انه شبه مستقل ولم تستعمل لغيره من الولاة، وقد أضيف إليها حرف الياء فصارت خديوي تسهيلاً للفظها.

(٣) لم يذكر المؤلف متى كتب كتابه هذا ولكنه يذكر الخديوي عباس حلمي ويشيد بذكر =

خطبة الطبعة الأولى

الحمد لله الذي شاد هذا الدين على أساس مكين متين وأقامه بالبرهان القوي المبين وقيض له في كل زمان من الدولة والسلطان ما يحفظ بيضته ويحمي عزته ويؤيد كلمته، ثم الصلاة والسلام على خلاصة بني الدنيا إمام الأنبياء الذي دانت القبائل لطاعته وانضمت أشتات الأفراد تحت رايته فوحد بين هاتيك الجموع المتكاثرة وألف بين تلك القلوب المتنافرة .فجعل بذلك للاسلام من السطو والصولة ما لم تنله قبله ملة ولا دولة.

وبعد فقد مضى على الشرق أجيال طوال رأى فيها أهلوه من أهوال الأحوال ما تشيب له الأطفال وتندك من وقعه عزائم الرجال بل وشوامخ الجبال، وما كان ذلك إلا بعد أن انفرط عقد بنيه وتناثر نظام أهليه وتشاغل كل بنفسه عن أخيه وذويه، فأغار الدهر بخيله ورجله على الشرق ودوله وقلب لأبنائه ظهر المجن وقلبهم بين الإحن والمحن فتناسوا ما كان لهم من فخامة الاقتدار وجلالة الحضارة وضخامة العمران وأصالة الإمارة وانغمسوا في بحار الكسل والخمول ذاهلين واستكانوا

= السلطان عبد الحميد ، وقد خلع السلطان سنة ١٩٠٩ ولكنه يقول في آخر الكتاب وهو يتكلم عن السلطان محمد رشاد انه قد مضى على خلافته ثلاث سنوات يوم كتب الكتاب ومعنى ذلك انه كتب سنة ١٩١٢ .

أما الخديوي عباس حلمي الثاني فقد تولى امارة مصر بالارث سنة ١٨٩٢ وخلعه الانكليز سنة ١٩١٤ ، في بداية الحرب الكونية الأولى ، لميله الى الدولة العثمانية ، فذهب وعاش في اوربا ولكنه ظل يطالب بالعرش المصري وكان له أنصار يؤيدونه وأخيراً ، وبالوساطة الانكليزية ، تنازل عن العرش لصالح الملك فؤاد الأول لقاء راتب شهري قدره ثلاثون ألف جنيه، وقد زرته في باريس ، سنة ١٩٣٣ ، في دارته في شارع اكتاف فـويّه Octave Feuillet ورأيته قد أحاط نفسه بمظاهر الملك . وتوفي سنة ١٩٤٤ في الثمانين من العمر .

إلى المذلة والهوان صاغرين، حتى باتوا وأصبحوا وهم على شفا جرف هار وقد أوشكوا أن يقضى عليهم بالدمار والاندثار ويكونوا عبرة لأولي البصائر والأبصار .

لكن العناية الصمدانية تداركتهم بلمّ الشعث ورمّ الرث ورتق الفتق ورقع الخرق فأضاءت الأفق الاسلامي بظهور النور العثماني وأمدّته بالنصر اللدنيّ والعون الرباني، فقامت الدولة العلية بحياطة هذا الدين وحماية الشرقيين ودعت إلى الخير وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر فكانت من المفلحين ثم وقفت في طريق أوروبا حاجزاً منيعاً وسوراً حصيناً وحالت دون أطماعها وألزمتها بكف غاراتها بأنواعها .

ثم اهتمت بالإصلاح وسعت في تأييد النظام فصار لها بين الدول المقام الأوّل والرأي الراجح والقول النافذ فكانت لا يضاهيها دولة من الدول بما أحرزته من الأملاك الواسعة في قارات أوروبا وآسيا وأفريقيا، ونالت من العزة والتوفيق ما يجدر بكل شرقي أن يتذكره الآن لتستفزه عوامل الغيرة ودواعي النشاط إلى بذل نفسه ونفيسه في سبيل تقويتها وتعزيز رايتها وتأييد كلمتها لما كان ولا يزال لها من الحسنات الحسان على كافة بني الإنسان من غير نظر إلى الأجناس والمذاهب والأديان مما لا يراه الباحث في أية دولة غيرها قديماً أو حديثاً بل نرى عكس ذلك ونقيضه في الدول ذات الدعاوى الطويلة العريضة التي تتقوّل بأنها عماد المدنية والإنسانية وهي مع ذلك تصدر أوامرها الرسمية بارتكاب الفظائع والبشائع التي لا يكاد يصدّقها السامع[1] مما نمسك اليراع عن تعداده في هذا المقام لعدم دخوله في موضوع

---

(١) لم يعامل أي بلد من البلاد الأوربية وثنية كانت أم مسيحية أي بلد استولوا عليه معاملة انسانية وظل الاوربيون حتى منتصف القرن العشرين في البلاد التي كانوا يستعمرونها ولا يزالون الى اليوم في البلاد التي لم يخرجوا منها طغاة بغاة ؛ فقد كان الانكليزي في الهند اذا أراد أن يركب فرسه يطلب الى أي شخص عبر من امامه من أهل البلاد، أن ينحني له حتى يضع رجله على ظهره ثم يمتطي فرسه، ولم يكونوا يسمحون لعلية القوم من أهل البلاد أن يركبوا معهم في مقصورة واحدة في القطار . وكان الافرنسيون، في مستعمراتهم ، يستعمرون روح المواطن وجسمه . وكان البلجيكيون في الكونگو (زائير) يصيدون الرجل الأسود لكي يطعموا كلابهم أو لكي يتسلوا، وان ما ارتكبه =

الكتاب لا سيما وأن التلغرافات والجرائد تتوارد علينا في كل يوم ببيان هذه الأنباء الشنيعة ، وذلك بخلاف الدولة العلية فإن جميع الناس تعيش فيها بغاية الحرية والسلام، وكل المطرودين من الدول الأوروپية يفدون إلى أراضيها فيرتعون في بحبوحة الراحة والهناء آمنين على أنفسهم وأعراضهم وعروضهم .وقدأصبحت الآن ملجأً وحيداً لكل من تلفظه الدول الأخرى من أبناء الإنسان .فماذايكون حظ هؤلاء المذكورين إذا جارتهنّ في هذا المضمار وناظرتهن في هذه الفعال .

هذه حسنة من أقل حسناتها يحق للعثماني مهما كان جنسه ودينه أن يفاخر بها ويذكرها في كل فرصة وفي كل حين،وفي ذلك أكبر داع وأعظم باعث يدفعه إلى الوقوف على تفاصيل تاريخها والنظر بعين الاعتبار إلى ما جرى لها وعليها من التقدم والتأخر والارتفاع والانحطاط، فإن الوقوف على هذه الماجريات مما يهذب النفوس ويقوّم الأخلاق ويقوي روابط الوطنية ويعزز الجامعة الملية . وبذلك تتماسك أجزاء هذه الدولة الجليلة فيتقوى مجموعها ويتأكد قوامها بل حياتها وأيّ شرقي مسلماً كان أو غير مسلم لا تهزه النخوة القومية والحمية الملية إلى المحافظة على بقائها سعياً في بقاء نفسه وتأييدها بكل ما في وسعه لتأييد بني جنسه. ولذلك دفعتني دواعي الضمير إلى العناية بحوادث هذه الدولة والوقوف على أحوالها،فلما أحطت علماً بما يجب على كل شرقي معرفته من تاريخها حدّثتني نفسي بوجوب تدوين هذا التاريخ ونشره بين أبناء الوطن ونصراء الملة، فشمرت عن ساعد الجد وبذلت غاية الجهد وأوردت في هذا التأليف من مواقف التحقيق ما وصلت إليه الطاقة، وضبطت الأعلام بقدر الإمكان وشرحت في حواشي الكتاب أسماء الملوك والأعيان وبعض البلدان معتمداً في ذلك كله على الأمهات المعتبرة

= الروس مع أهل البلاد التي انتزعوها من أهلها المسلمين واستولوا عليها وما ارتكبه الشيوعيون بعد ذلك من فظائع وجرائم لما تشيب من ذكره الأطفال وقد تسربت أخباره خارج الحدود رغم الستار الحديدي الذي ضربه الشيوعيون على البلاد ولا يزال المسلم في كل البلاد الشيوعية وغير الشيوعية دون المسيحي في المعاملة وان كان القانون ينص على التساوي بينهما .

والأصول الموثوق بها. وقد قصدت بهذه الخدمة أن أقوم بفرض يجب على كل إنسان أداؤه لعرش الخلافة العظمى وملجأ الاسلام في هذا الزمان مولانا أمير المؤمنين السلطان الغازي عبد الحميد خان الثاني أمد الله في عمره وأيده بنصره .

إني ابتهل إلى الله القدير بأن يؤكد العروة الوثقى بين جلالته وولي أمرنا صاحب الحزم والتدبير ، مولانا الجليل النبيل ، صاحب الرأي الأصيل والمجد الأثيل رب الحزم والعزم خديوينا الأفخم عباس باشا حلمي الثاني حفظه الله وأبقاه إعلاء للوطن وإبقاء لجامعة الملة آمين .

الخُلفاءُ الرّاشِدُون

[١١ - ٤٠هـ = ٦٣٢-٦٦١م]

١ ـ أبو بكر
(٦٣٢ ـ ٦٣٤ م)

٢ ـ عمر بن الخطاب
(٦٣٤ ـ ٦٤٤ م)

٣ ـ عثمان بن عفان
(٦٤٤ ـ ٦٥٦ م)

٤ ـ علي بن أبي طالب
(٦٥٦ ـ ٦٦١ م)

مُقدِّمَة تاريخيَّة

فيمن ولي الخلافة الاسلامية قبل ملوك الدولة العلية العثمانية

الخلفاء الراشدون

انتقلت الخلافة إلى بني عثمان سنة **٩٢٣** هجرية[١]، حين فتح السلطان سليم الأوّل العثماني مصر، كما تجده مفصلاً في هذا الكتاب. وأول من وليها بعد موت النبي ﷺ في **١٢** ربيع الأول سنة **١١** من هجرته عليه الصلاة والسلام[٢] أبو بكر الصديق رضي الله عنه، بويع له بالخلافة بعد خُلف طفيف وقع بين الصحابة وتوفي في مساء ليلة الإثنين **٢٢** جمادى الآخرة سنة **١٣**[٣] بعد أن عهد بالخلافة بعده لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه. وفي أيامه كان ظهور مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة فأرسل إليه من حاربه وقتله. وكذلك ادعت سجاح بنت الحارث النبوة وبقيت على غيها وضلالها إلى خلافة معاوية بن أبي سفيان فاسلمت وحسن إسلامها. وفي خلافته فتحت مدينة الحيرة بالأمان على الجزية.

وعمر بن الخطاب أول من سمّي بأمير المؤمنين وكان أبو بكر يخاطب بخليفة رسول الله وامتدت فتوحات الإسلام في أيامه امتداداً عظيماً حتى وصلت جيوشهم إلى بلاد المغرب وإلى حدود الهند شرقاً وإلى بلاد سيبيريا شمالاً ففتحت مصر وبلاد الشام والعراق وإيران وبخارى ومرو وزالت مملكة الأعجام من الوجود السياسي بعد انهزام يزدجرد آخر ملوك بني ساسان[٤]. وفي خلافة سيدنا عمر رضي الله عنه

---

(١) (١٥١٧ م).

(٢) يوم الأحد في (٧ يونيو ٦٣٢).

(٣) في (٢٣ آب ــ أوغست ٦٣٤).

(٤) حكمت الأسرة الساسانية بلاد فارس (ايران) من سنة ٢٢٦ الى سنة ٦٥١ م.

دوّنت الدواوين وانشىء البريد (البوسطة) لنقل المراسلات بكل سرعة ووضع التاريخ الهجري . وفي ٢٤ ذي الحجة سنة ٢٣[١] طعنه أبو لؤلؤة بسكين وقت الصلاة وتوفي رحمه الله في يوم السبت آخر ذي الحجة سنة ٢٣[٢] فكانت مدة خلافته عشر سنين هجرية وستة أشهر وثمانية أيام ودفن في الحجرة الشريفة النبوية .

وبويع بعده عثمان بن عفان رضي الله عنه وأشهر ما حدث في خلافته فتح افريقيا (ويعني بها[٣] تونس والجزائر ومراكش) وغزو بلاد الأندلس وجزيرة قبرص ونسخ القرآن الذي جمع في خلافة أبي بكر وكان مودوعاً عند السيدة حفصة زوجة النبي ﷺ وإرسال نسخ منه إلى جميع البلاد وحرق ما سواه من النسخ ، وبذلك حفظ القرآن من التغيير والتبديل إلى يومنا هذا وسيبقى كذلك إلى آخر الدهر . ثم عزل عثمان أغلب الولاة وعين بدلهم أقاربه ؛ فولى الكوفة الوليد بن عقبة ، وكان أخاه من أمه ؛ وعزل عمرو بن العاص عن مصر وولاها عبد الله بن أبي السرح العامري ، وكان أخا عثمان من الرضاعة ؛ وعزل أبا موسى الأشعري عن البصرة وولاها ابن خاله عبدالله بن عامر ،فنقم عليه كثير من الناس وأتت المدينة وفود من مصر والكوفة والعراق. وبعد مسائل يطول شرحها في هذه المقدمة حصلت فتنة كانت نتيجتها قتل عثمان في داره ليلة ١٨ ذي الحجة سنة ٣٥[٤] فكانت مدة خلافته اثنتي عشرة سنة هجرية إلا أياماً قلائل ودفن مع النبي[٥] ﷺ وعمر رضي الله عنه . وبعد موته حصلت البيعة لسيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وابتدأ

(١) يوم الاثنين في (١ نوفمبر ٦٤٤) .

(٢) (٦ تشرين الثاني ــ نوفمبر ٦٤٤) .

(٣) سها المؤلف عن ذكر ليبيا وهي أول ما فتح المسلمون على اعتبار أنها الطريق المؤدية الى تونس وما بعدها أو لعله أهمل ذكر ليبيا على اعتبار أن جزءاً منها فتح في عهد عمر .

(٤) يوم الجمعة في (١٧ حزيران ــ يونيو ٦٥٦) . اختلفوا في يوم وتاريخ مقتل عثمان ولكن الكل مجمعون على انه قتل في شهر ذي الحجة وأرجح الأقوال انه قتل في اليوم والتاريخ المذكورين في المتن كما روي عن الزهري .

(٥) ان عثمان لم يدفن مع النبي بل اللذان دفنا معه هما أبو بكر وعمر وأما عثمان فقد دفن في البقيع وهي المقبرة التي بجانب الحرم .

الخلف والانقسام في الإسلام. وطلبت السيدة عائشة بنت أبي بكر زوجة النبي ﷺ الأخذ بثار عثمان وانضم إليها طلحة والزبير بن العوام وساروا ومن تبعهم إلى البصرة للاستيلاء عليها فلحقهم علي وحصلت بين الفريقين وقعة الجمل المشهورة في نصف جمادى الآخرة سنة ٣٦[١] فانتصر علي ومن معه وقتل طلحة وولى الزبير ومن بقي معه إلى المدينة وأرسل علي السيدة عائشة إلى المدينة مع أخيها محمد بن أبي بكر، وبذلك انتهت الفتنة في هذه الجهة. وجمع علي جيوشه لمحاربة معاوية ابن أبي سفيان والي بلاد الشام لامتناعه عن مبايعته ومناداته بأخذ ثأر عثمان فحصلت بينهما وقعة صفين الشهيرة في صفر سنة ٣٧، وبعدها اتفق علي مع معاوية على أن يعين كل منهما حكماً من طرفه ليفصلا الخلاف، وتهادنا على ذلك وحررا به عهداً في ليلة الأربعاء ١٣ صفر سنة ٣٧[٢] بين أبي موسى الأشعري بالنيابة عن علي

---

(١) ١٥ جمادى الاخرة سنة ٣٦، ٩ كانون الأول (ديسمبر) ٦٥٦.

(٢) جاء في تاريخ البداية والنهاية لابن كثير، الجزء السابع ما يلي: نشبت حرب صفين في شهر ذي الحجة سنة ٣٦ واستمرت كل الشهر فلما جاء محرم تحاجز الفريقان وسعت الوفود بالصلح بين علي ومعاوية فلم تفلح، واستؤنف القتال يوم الأربعاء في صفر سنة ٣٧ (١٩ تموز - يوليو ٦٥٧).

ثم يقول ان وثيقة التحكيم وقعت يوم الاربعاء في ١٣ صفر كما هو في المتن وهذا خطأ لأن جداول المقارنة بين التاريخين الهجري والغربي تثبت أن أول يوم من صفر سنة ٣٧ كان يوم الاربعاء كما قال ابن كثير أيضاً. فإذا كان التحكيم تم في ١٣ صفر فيكون يومذاك الاثنين وليس الأربعاء وإذا كان تم يوم الأربعاء فيكون التاريخ ١٥ لا ١٣.

وصفين كما جاء في معجم البلدان لياقوت، بكسرتين وتشديد الفاء، وهو موقع في سوريا بقرب مدينة الرَّقَة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس (التي تسمى اليوم مسكنة).

والمسافة ما بين الرقة وبالس نحو مئة كيلومتر مما يجعل من الصعب تحديد المكان بالضبط ولكن قوله: بقرب الرقة يرجح ان المكان كان أقرب الى الرقة منه الى بالس أي في مكان قرية الحمام اليوم. واختلف في عدة أصحاب كل واحد من الفريقين، =

كرم الله وجهه وعمرو بن العاص بن وائل بالنيابة عن معاوية وأجلا القضاء إلى شهر رمضان من هذه السنة بمحل يقال له دومة الجندل(١) . وإن لم يجتمعا فيه اجتمعا في السنة التالية بأذرج(٢) فاجتمع أبو موسى وعمرو بن العاص في الموعد ومع كل منهما أربعة أنفس من أصحابه واتفقا على أن يعزل كل منهم موكله وينتخب المسلمون من يرونه كفؤاً لتولي شؤونهم وعلى هذا الاتفاق قام أبو موسى في الجمع وقال : (قد خلعت علياً ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من

= فقيل : كان مع معاوية مئة وعشرون ألفاً ومع علي تسعون ألفاً . وقيل : كان علي في مئة وعشرين ومعاوية في تسعين ألفاً . وقتل في الحرب من الفريقين سبعون الفاً، خمسة وعشرون من أصحاب علي وخمسة وأربعون من أصحاب معاوية . وقتل خمسة وعشرون صحابياً بدرياً كانوا مع علي . وكانت مدة المقام في صفين مئة يوم وعشرة أيام ، وكانت الوقائع تسعين وقعة.

(١) دومة الجندل : بضم أوله اوفتحه ، وقد انكر ابن دريد الفتح وعده من أغلاط المحدثين . وقد جاء في حديث الواقدي دوماء الجندل وعدها ابن الفقيه من أعمال المدينة المنورة . وقال أبو عبيد السكوني : دومة الجندل حصن وقرىً بين الشام والمدينة قرب جبلي طيّ كانت به بنو كنانة من كلب . وأقول : كانت دومة الجندل من أعمال المدينة المنورة وتبعد عنها نحو ٩٠٠ كم الى الشمال ويفصلها عن جبلي طيّ النفود (وهي صحراء رملية ذات كثبان مرتفعة) وللدومة الآن طريق معبد يبدأ من المدينة المنورة ماراً بتيماء فالقليبة فالدومة سالكاً غرب النفود ثم شمالاً . وهناك طريق آخر يصل الدومة بمدينة عرعر مركز إمارة الحدود الشمالية . وحيث أن الدومة تقع على حد الحماد الجنوبي مباشرة في نقرة الجوف فانها تسمى بالجوف أيضاً كما أنه يطلق لفظ الجوف على المنطقة كلها والجوف امارة (أي محافظة) من امارات المملكة السعودية ولم يكن يوجد سابقاً ولا يوجد الآن طريق مباشر يصل بين دمشق والمدينة ماراً بالدومة . وكانت الدومة عاصمة لمملكة صاحبها الاكيدر الذي أسلم ثم ارتد وفيها قصر مارد الذي لا يزال قائماً كما ان المسجد الذي جرى فيه التحكيم لا زال قائماً .

(٢) قال ياقوت : اذرح بالفتح ثم السكون وضم الراء والحاء المهملة . وقال : وقد وهم قوم فرووه بالجيم .

رأيتموه لهذا الأمر أهلاً) ثم قام عمرو وقال : (إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه وإني أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي فإنه ولي عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه) فقال أبو موسى : مالك لا وفقك الله غدرت وفجرت. وانفض الجمع بعد ذلك وعاد عمرو ومن معه إلى معاوية وسلموا عليه بالخلافة ومن ذلك الحين أخذ أمر علي في الضعف وأمر معاوية في القوة ، فأرسل معاوية عمرو بن العاص في سنة ٣٨ إلى مصر لمحاربة محمد بن أبي بكر المعين عليها من قبل سيدنا علي كرم الله وجهه واستخلاصها منه فأتى إليها وقتل محمد بن سيدنا أبي بكر رضي الله عنه وهو أخي السيدة عائشة زوجة النبي ﷺ وصارت مصر تابعة لمعاوية . ثم بث سراياه في البلاد التابعة لعلي لإكراه سكانها على مبايعة معاوية . واستمر الحال على ذلك إلى سنة ٤٠ وفيها اتفق ثلاثة من الخوارج وهم عبد الرحمن ابن ملجم المرادي وعمرو بن بكر التميمي والبرك بن عبد الله التميمي على قتل معاوية وعلي وعمرو بن العاص وتواعدوا على ليلة سبعة عشر رمضان من هذه السنة ثم سافر كل منهم إلى وجهته . فسافر ابن ملجم إلى الكوفة لقتل علي ومعه وردان بن تيم الرباب وشبيب بن أشجع . وسافر البرك إلى دمشق لقتل معاوية . وعمرو بن بكر إلى مصر لقتل عمرو بن العاص. وفي اليوم المتفق عليه وثب ابن ملجم ومن معه على سيدنا علي عند خروجه لصلاة الغداة في صبيحة ليلة الجمعة ١٧ رمضان[١] سنة ٤٠ وضربه شبيب ضربة لم تصبه ثم ضربه ابن ملجم فأصاب جبهته ومات بعد قليل وضبط ابن ملجم فقط وفرّ الآخران .

هذا أما عمرو بن بكر فترصد لعمرو بن العاص فلم يخرج للصلاة وأمر خارجة ابن أبي حبيبة صاحب شرطته ليصلي بالناس فوثب عليه عمرو بن بكر وقتله ظاناً أنه يقتل عمرو بن العاص. وكذلك لم يقتل البرك بن عبد الله معاوية بل أصابه بجرح غير خطر وقتل هؤلاء الخوارج الثلاثة واختلف في المحل الذي دفن فيه عليّ كرم الله وجهه لكن المجمع عليه والذي ذكره ابن الأثير وأبو الفداء أنه دفن في النجف ببلاد العراق وهذا هو الأصح .

(١) يوم ١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ يكون يوم الأحد في ٢٤ كانون الثاني (يناير) سنة ٦٦١.

الخُلفاء الأَمويُّون

[٤٠ - ١٣٢هـ = ٦٦١ - ٧٥٠م]

١ ـ معاوية بن أبي سفيان
(٦٦١ ـ ٦٨٠ م)

٢ ـ يزيد بن معاوية
(٦٨٠ـ٦٨٣ م)

٣ ـ معاوية بن يزيد
(٦٨٣ـ٦٨٣ م)

٤ ـ مروان بن الحكم
(٦٨٣ـ٦٨٥ م)

٥ ـ عبد الملك بن مروان
(٦٨٥ ـ ٧٠٥ م)

٦ ـ الوليد بن عبد الملك
(٧٠٥ ـ ٧١٥ م)

٧ ـ سليمان بن عبد الملك
(٧١٥ ـ ٧١٨ م)

٨ ـ عمر بن عبد العزيز
(٧١٨ـ٧٢٠ م)

٩ ـ يزيد بن عبد الملك
(٧٢٠ ـ ٧٢٤ م)

١٠ ـ هشام بن عبد الملك
(٧٢٤ ـ ٧٤٣ م)

١١ ـ الوليد بن يزيد
(٧٤٣ ـ ٧٤٤ م)

١٢ ـ يزيد بن الوليد
(٧٤٤ ـ ٧٤٤ م)

١٣ ـ ابراهيم بن الوليد
(٧٤٤ ـ ٧٤٤ م)

١٤ ـ مروان بن محمد
ابن مروان بن الحكم
(٧٤٤ ـ ٧٥٠ م)

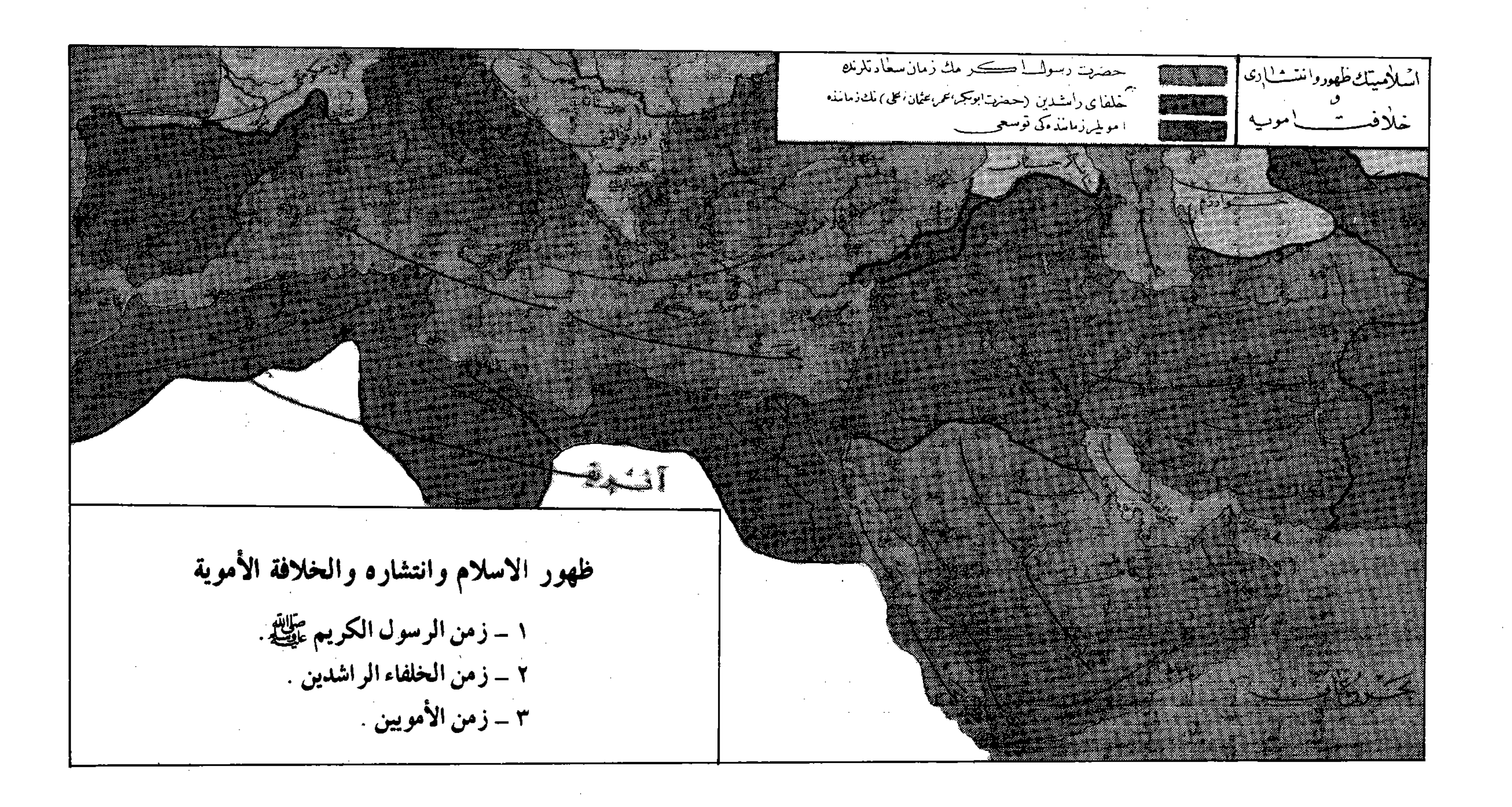
وبعد قتل الإمام علي رضي الله عنه رابع الخلفاء الراشدين بويع لابنه الحسن في العـراق والحجاز وباقي البلاد الإسلامية ما عدا الشام ومصر. ثم جمع معاوية جيشاً لمحاربته واستعد الحسن كذلك للقتال لكن ثارت الفتنة بين عساكره وتسحب كثير ممن كان حوله. فلما رأى ذلك كتب إلى معاوية أنه مستعدّ للتنازل إليه عن حقه في الخلافة بشرط أن يعطيه ما في بيت مال الكوفة وخراج دارا بجرد[1] من فارس وأن لا يسب عليا فأجابه معاوية على الشرطين الأوّلين ولم يقبل الثالث. فطلب منه الحسن أن لا يسبه وهو يسمع فأجابه ولم يف بذلك فيما بعد. وبعد ذلك تنازل الحسن لمعاوية وكتب إلى قيس بن سعد قائد جيوشه بأن يبايع معاوية ودخل معاوية الكوفة وصارت له الخلافة على جميع الأقاليم بدون مشارك أو منازع واستمرت الخلافة في عائلته لسنة ١٣٢ ثم انتقلت لبني العباس. أما سيدنا الحسن فعاد إلى المدينة وأقام بها إلى أن توفي في ربيع الأوّل سنة ٤٩[2] وكانت ولادته في السنة الثالثة من الهجرة قيل إنه مات مسموماً[3]. وأهمّ ما حصل في أيام معاوية حصار

---

(١) دارابجرد : جاء في معجم البلدان : بعد الألف الثانية باء موحدة ساكنة ثم جيم مكسورة ثم راء ثم دال مهملة . ولاية في فارس ينسب اليها كثير من العلماء . وقرية من كورة اصطخر ، وبها معدن الزئبق . ودارابجـرد أيضاً : موضع بنيسابور .

(٢) يقع هذا الشهر بين (٩ نيسان ـ ابريل و ٨ أيار ـ مايو سنة ٦٦٩ م) .

(٣) قصة السم لا أراها واقعية بل اخترعت لأسباب سياسية اذ ليس ما يدعو أحداً الى سمه فالرجل قد تنازل عن الخلافة وكان يعيش عيشة الملوك بما كان يغدقه عليه معاوية من مال فقد جاء في الجزء الثامن من البداية والنهاية : صالح الحسن معاوية على أن يأخذ ما في بيت المال الذي في الكوفة وكان فيه خمسة آلاف ألف (أي خمسة ملايين) وقيل سبعة آلاف ألف وعلى أن يأخذ خراج داربجـرد في كل عام فامتنع أهل تلك الناحية عن اداء الخراج إليه فعوضه معاوية عن كل سنة ستة آلاف ألف درهم ، مع ماله في كل زيارة (يزور بها معاوية) من الجوائز والهدايا والتحف الى أن توفي . وقد تزوج الحسن بأكثر من سبعين حرة عدا الاماء ، ومن هذا =



ظهور الاسلام وانتشاره والخلافة الأموية

١ ـ زمن الرسول الكريم ﷺ .
٢ ـ زمن الخلفاء الراشدين .
٣ ـ زمن الأمويين .

مدينة القسطنطينية في سنة ٤٨ وتأسيس عقبة بن نافع مدينة القيروان[١] بتونس الخضراء سنة ٥٠ ودخول سعد بن عثمان بن عفان مدينة سمرقند[٢] في سنة ٥٦. وفي هذه السنة بايع معاوية الناس لابنه يزيد بولاية العهد فامتنع الحسين بن عليّ ابن أبي طالب وتبعه بعضهم. ولما بويع ليزيد بعد موت أبيه أصرّ الحسين على امتناعه وسار من المدينة إلى الكوفة لمحاربة يزيد فالتقى بعسكره في الموضع المعروف بكربلاء. وقتل الحسين في يوم ١٠ محرم سنة ٦١[٣] وبقي عبد الله بن الزبير بمكة

= يستدل الشيعة على جواز المتعة. والذي أراه انه مات بالقرحة اذ جاء في البداية والنهاية انه كان يوضع تحته طست ويرفع آخر نحواً من أربعين يوماً. وجاء قوله: لقد لفظت طائفة من كبدي أقلبها بهذا العود. أي أنه كان ينفث الدم. والمسموم لا يعيش أربعين يوماً وهو على هذه الحال.

(١) من كبريات مدن البلاد التونسية وتقع في وسط الصحراء الى جنوب مدينة تونس ومن الغرائب التي تروى ما ذكره ياقوت قال: لما أمر عقبة أصحابه ببناء هذه المدينة قال له أصحابه: ان هذه الغياض كثيرة السباع والهوام فنخاف على أنفسنا هنا. وكان عقبة مستجاب الدعوة فجمع من كان في عسكره من الصحابة وكانوا ثمانية عشر ونادى: أيتها الحشرات والسباع نحن أصحاب رسول الله ﷺ فارحلوا عنا فأنا نازلون فمن وجدناه بعد ذلك قتلناه. فنظر الناس يومئذ الى أمر هائل، كان السبع يحمل أشباله والذئب يحمل أجراءه والحية تحمل أولادها وهم خارجون أسراباً اسراباً فحمل ذلك كثيراً من البربر على الاسلام.

(٢) سمرقند مدينة قديمة في الاتحاد السوفييتي في مقاطعة اوزبكستان وكانت عاصمة تيمورلنك.

(٣) هو يوم الأربعاء الموافق ١٠ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ٦٨٠ وقال في البداية والنهاية قتل يوم الجمعة وهذا خطأ. وقصة نزاع الحسين مع يزيد ومطالبته بالخلافة قصة استغلت في غير وجهها ولعبت فيها الغايات ففرقت المسلمين طوائف وشيعاً ابتعدت بعضها عن الاسلام، باسم الاسلام، كل البعد، وهي قصة لا تستحق كل ما حدث اذ ان مثلها يحدث كل يوم.. وقد اضطر تصرف الحسين شيعته الى أن يخترعوا قصصاً ملفقة لاثبات حقه بالخلافة وقد جرت هذه القصص الى طمع كثير من أولاد الحسن وأولاد الحسين بالخلافة، وادعاء حقهم بها. ومما يذكر أن الحسين عمل في الجيش الذي قاده يزيد، زمن معاوية، لغزواستانبول =

ممتنعاً عن مبايعة يزيد ثم اتفق أهل المدينة في سنة ٦٤ على خلع يزيد فخلعوه وطردوا نائبه فأرسل يزيد مسلم بن عقبة فحاربهم ودخل المدينة عنوة وأباحها لعسكره ثلاثة أيام يفعلون بأهلها ما يشاؤن من قتل ونهب وهتك. وبعد أن أكره سكان المدينة الجيش مكانه الحصين بن نمير السكوني فحاصرها ورمى البيت الحرام بالمنجنيق وأحرقه بالنار، ثم أتاه خبر موت يزيد فعاد إلى الشام. وقيل أنه عرض على الزبير أن يبايعه فامتنع الزبير. وتوفي يزيد ليلة ١٤ ربيع الأوّل سنة ٦٤[١] وعمره ثمان وثلاثون سنة وكانت أمه ميسون بنت بحدل الكلبية. وبويع بعده لابنه معاوية بن يزيد بن معاوية، ولم تستمر خلافته إلا بضعة أشهر ثم خلع نفسه واعتكف في منزله حتى مات وسنه إحدى وعشرون سنة وجمع الناس قبل الانعكاف وأوصاهم بأن يختاروا للخلافة من أحبوا.

هذا ولما مات يزيد بن معاوية حصلت البيعة بمكة لعبد الله بن الزبير وبايعه كذلك أهل العراق واليمن وذلك في مدّة خلافة معاوية بن يزيد ولما مات معاوية الثاني بايع أهل الشام مروان بن الحكم ثم بايعه أهل مصر. وتزوّج مروان بأم خالد زوجة يزيد بن معاوية حتى يأمن جانب خالد فأتاه الشرّ من حيث كان يريد النفع وقتلته أم خالد يوم الثالث من رمضان سنة ٦٥[٢] وعمره ثلاثة وستون سنة.

= وأبى أن يكون مواطناً زمن خلافة يزيد. وليس الحسين وحده هو الذي ادعى الحق بالخلافة بل ادعاها ابن الزبير أيضاً مما يدل على أن معظم الناس أصبحوا يفهمون الخلافة ملكا وامرة عن غلب.. (!). وقد خدع أهل العراق الحسين وغرروا به وقادوه الى معركة لم يكن يريدها فقتل على الرغم من أنه كان مستعداً، بعد أن أدرك غدر العراقيين به، لمبايعة يزيد، ومما يثبت أن الأوائل كانوا يفهمون أن الخلافة ملكاً لمن غلب أن العباسيين ظلوا كل مدة ملكهم يقتلون أولاد عمهم أولاد فاطمة كلما قام منهم من يدعي الخلافة، وتقع كربلاء الى الجنوب الغربي من بغداد والنجف الى الجنوب الشرقي من كربلاء، وبالقرب من الكوفة جنوباً وبين بغداد وكربلاء مئة كيلومتر ونيف وبينها وبين النجف نحو ستين كيلومتراً. (المحقق).

(١) الخميس الموافق لـ ١٣ نيسان (ابريل) ٦٨٥.

(٢) الثلاثاء الموافق لـ ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ٦٨٣.

وبويع للخلافة بعده لابنه عبد الملك وفي خلافته خرج المختار بن عبيد الثقفي لأخذ ثأر الحسين وقتل شمر بن ذي الجوشن وعمر بن سعد بن أبي وقاص الذي كان قائد الجيش الذي حارب الحسين وقتل ابن عمر المذكور واسمه حفص ثم حارب عبد الله بن زياد الذي كان والياً على البصرة من قبل معاوية بن أبي سفيان وأمر بقتل الحسين فانتقم الله للحسين.وفي سنة ٦٧ أرسل عبد الله بن الزبير أخاه مصعباً لمحاربة المختار فحاربه وقتله في رمضان وفي سنة ٧١ جهز عبد الملك بن مروان جيشاً وقصد العراق لمحاربة مصعب بن الزبير فانتصر عليه وقتله في جمادى الآخرة فبايعه أهل العراقين. ثم أرسل الحجاج بن يوسف الثقفي إلى مكة في جيش جرار لمحاربة عبد الله بن الزبير فحاصره الحجاج بمكة ورمى البيت الحرام بالمنجنيق وأبى ابن الزبير أن يسلم نفسه واستمر في الدفاع عن مكة حتى قتل في جمادى الآخرة سنة ٧٣[١] ، فبايع أهل الحجاز واليمن عبد الملك بن مروان . وبذلك استتب الأمر لبني أمية وتوحدت الخلافة الإسلامية بعد الانقسام ثم توفي عبد الملك في منتصف شوّال سنة ٨٦[٢] وعمره ستون سنة .

وبويع بعده لابنه الوليد وهو سادس خلفاء بني أمية ومن أهمّ أعماله أنه عين ابن عمه عمر بن عبد العزيز على المدينة وأمره بهدم مسجد رسول الله وبيوت أزواجه وإدخال البيوت في المسجد لتوسيعه وشرع في بناء الجامع الأموي بدمشق . وفي أيامه فتحت بلاد الأندلس غرباً وما وراء نهر جيحون[٣] (سرداريا) شرقاً ودخل محمد بن قاسم الثقفي بلاد الهند. وتوفي الوليد بن عبد الملك في جمادى الآخرة سنة ٩٦[٤] وعمره اثنتان وأربعون سنة ونصف السنة .

---

(١) يقع في شهري تشرين الأول (اكتوبر) وتشرين الثاني (نوفمبر) ٦٩٢ .

(٢) الجمعة في ٩ تشرين الأول (اكتوبر) ٧٠٥ .

(٣) جيحون بفتح الجيم وسكون الياء . وأهل البلاد يسمونه سرداريا Syr-Daria ولم أر هذا الاسم في معجم البلدان لياقوت . ولعل هذا الاسم مركب من لفظين سرد ـ دريا أي النهر البارد لأنه يتجمد بالشتاء فادغمت الدالان .

(٤) يقع في شهري شباط (فبراير) و آذار (مارس) ٧١٥ .

وبويع بعده لأخيه سليمان سابع الخلفاء الأمويين فاتخذ عمر بن عبد العزيز وزيراً له. وفي أيامه أرسل أخاه مسلمة لمحاصرة القسطنطينية فأقام الجيوش حولها حتى أتاه خبر موت سليمان. وفي سنة ٩٨ فتح يزيد بن المهلب والي خراسان[1] بلاد جرجان وطبرستان[2].

وفي صفر سنة ٩٩ توفي سليمان بن عبد الملك وبويع بعده لابن عمه عمر بن عبد العزيز ثامن خلفاء بني أمية ومن أعماله التي يمدح عليها إبطاله لسب سيدنا عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه على المنابر يوم الجمعة وإبدال السب بقراءة قوله تعالى ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾ وتوفي يوم الجمعة ٢٤ رجب سنة ١٠١[3] وكان حسن السيرة متبعاً في أعماله وأوامره خطة الخلفاء الراشدين.

وبويع بعده يزيد بن عبد الملك بن مروان بعهد من سليمان بن عبد الملك إليه بعد عمر بن عبد العزيز وهو تاسع الأمويين. وأهمّ ما حصل في أيامه اقماعه الثورة التي أهاجها يزيد بن المهلب ليستقل بملك خراسان. أرسل إليه أخاه مسلمة فحاربه وقتله هو وجميع من كان معه من آل المهلب.

ثم توفي يزيد بن عبد الملك في ٢٥ شعبان سنة ١٠٥[4] وحصلت البيعة بعده لأخيه هشام بن عبد الملك عاشر خلفاء بني أمية. وفي أيامه غزت قوّاد جيوشه بلاد فرغانة[5] وبلاد الترك النازلين فيما وراء خوارزم[6] وفي سنة ١٢٢ بايع بعض أهل

---

(١) قال ياقوت: خراسان بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق وآخرها مما يلي الهند. أي هي ايران وأفغانستان حالاً.

(٢) جرجان: بضم الجيم وسكون الراء، وطبرستان بفتح الطاء والباء وكسر الراء و(ستان) معناها بلاد، مثل أفغانستان وبلوجستان الخ، وهاتان المقاطعتان تقعان وراء خراسان في جنوب الاتحاد السوفييتي.

(٣) الجمعة في (٩ شباط ـ فبراير) ٧٢٠ م.

(٤) الموافق ليوم الخميس ٢٧ كانون الثاني (يناير) ٧٢٤.

(٥) فرغانة بالفتح ثم السكون، مدينة وكورة في أوزبكستان ومتاخمة لبلاد تركستان.

(٦) خوارزم هي المنطقة التي تلي خراسان الى الشمال وتقع الى الشرق من بحر الخزر.

الكوفة زيد بن عليّ بن الحسن بن علي بن أبي طالب بالخلافة ، فحاربه يوسف بن عمر الثقفي والي الكوفة من قبل هشام وقتله فانتهت الفتنة .

ثم توفي هشام في ٩ ربيع الأوّل سنة ١٢٥[١] وعمره خمس وخمسون سنة وهو الذي بنى مدينة الرصافة[٢] . وبويع بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان وهو حادي عشرهم ولم يلتفت لأمور المسلمين وشؤونهم بل انكب على اللهو والشرب وسماع الغناء ومنادمة العشاق ولذلك هاج عليه بنو أعمامه وقرابته فقتلوه في ٢٧ جمادى الآخرة سنة ١٢٦[٣] وكان عمره اثنتين وأربعين سنة وبلغت مدّة خلافته سنة واحدة وثلاثة أشهر .

ثم بايعوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك ولم تطل مدّته بل توفي في ٢٠ ذي الحجة[٤] من هذه السنة وكانت مدته كلها حروب داخلية وفتن مستمرة وبعده بويع أخوه إبراهيم قاسم فلم يستتب له الأمر بل ظهر مروان بن محمد بن مروان ابن الحكم ودعا الناس لمبايعته فبايعه أهل قنسرين وحمص[٥] وغيرهما ثم سار في جيش عظيم إلى دمشق لمحاربة ابراهيم بن الوليد فهزمه ثم اختفى ابراهيم

---

(١) الموافق ليوم الخميس ١٠ كانون الثاني (يناير) ٧٤٣ .

(٢) قال ياقوت : الرصافة بضم الراء وهو اسم يطلق على أماكن كثيرة منها : رصافة أبي العباس ورصافة البصرة ورصافة بغداد ورصافة الحجاز ورصافة الشام وهي التي بناها هشام بن عبد الملك وتقع جنوب غرب مدينة الرقة وليس عندها نهر ولا عين جارية انما شربهم من صهاريج . وفيها دير عجيب وعليها سور . وربما نضبت الصهاريج أيام الصيف فيذهب الخدم الى الفرات يستقون ويذهب أحدهم العصر فيجيئ بالماء غداة غد .

(٣) الموافق ليوم الخميس ١٦ نيسان (ابريل) ٧٤٤ .

(٤) الموافق ليوم السبت في ٣ تشرين الأول (اكتوبر) ٧٤٤ .

(٥) قنسرين بكسر القاف وفتح النون وتشديدها وقد كسرها قوم ويقول ياقوت انها كانت مع حمص شيئاً واحداً . وتقع حمص على بعد ١٧٠ كيلومتراً شمال دمشق . ويوجد الآن قرية باسم قنسرين على بعد نحو عشرين كيلومتراً جنوب حلب . والى هذه أشار =

ودخل مروان إلى دمشق وبايعه الناس وصار هو الخليفة دون ابراهيم وتم له ذلك في النصف الأوّل من سنة ١٢٧. ولم تعلم مدة خلافة ابراهيم بن الوليد فقيل أربعة أشهر وقيل أقل من ذلك. ثم استأمن ابراهيم فظهر وبايع مروان.

ظهور دولة العباسيين

ومروان هذا هو رابع عشر خلفاء بني أمية وآخرهم إذ ظهرت في أيامه الدعوة للعباسيين في خراسان بمسعى أبو مسلم الخراساني. وذلك أنه كان يوجد بالأقطار الإسلامية أحزاب قوية ضدّ بني أمية فمنها حزب يقول بأحقية أولاد سيدنا علي بن أبي طالب بالخلافة وآخر يقول باستحقاق أولاد العباس عم النبي ﷺ وظهر حزب العلويين أكثر من مرة في مدة الأمويين فعاد بالخيبة لظهوره في أوائل خلافتهم وقوة شوكتهم، فقتل الحسين سنة ٦١ وقتل زيد بن علي بن الحسين سنة ١٢٢. وفي هاتين الواقعتين قتل كثير من أولادهم وأقاربهم حتى ضعف حزبهم وتفرق من حولهم أما بني العباس فاستعملوا التؤدة والصبر ولم يفاجئوا الأمويين في بدء ظهورهم بل بثوا أعوانهم في جميع الجهات لاستمالة الناس إلى بيعتهم ووجهوا همتهم إلى جهات الشرق مثل العراق وايران وخراسان وما جاورها. لبعدها عن مركز خلافة الأمويين وعدم تعلقهم بهم تعلق أهل الشام ومصر. وثابروا على هذه الخطة إلى أن ضعف حال الأمويين وتضعضع شأنهم ووقع الشقاق والانقسام بينهم حتى تولى الخلافة ثلاثة في سنة واحدة وهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك ويزيد بن الوليد بن عبد الملك وأخوه ابراهيم. ولم يقعد العباسيين عن هذا الثبات موت القائم بهذه الدعوة وهو محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بل قام بها بعده ولده ابراهيم الإمام. ولما شاع خبر مساعيهم قبض مروان على ابراهيم المذكور وحبسه في حران حتى مات وكان ذلك في سنة ١٢٩[1] فقام بالدعوة أخوه أبو العباس الذي لقب فيما بعد بالسفاح. وفيها أظهر أبو مسلم الخراساني الدعوة للعباسيين ببلاد خراسان وحارب نصر بن سيار العامل عليها من قبل الأمويين وانتصر عليه

= ياقوت حيث يقول : وكانت قنسرين مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص .

(١) تقع هذه السنة في السنتين ٧٤٦ و٧٤٧م .

ودخل مدينة مرو[١] وفي صفر سنة ١٣٢ أتى أبو العباس إلى الكوفة واختفى بها إلى يوم الجمعة ١٢ ربيع الأوّل[٢] وفيه خرج إلى الجامع وبايعه الناس بالخلافة ثم أتى مروان لمحاربته فهُزم بالزاب[٣] وتبعه عساكر العباسيين إلى أن قتل في بوصير[٤] بمصر في أواخر ذي الحجة سنة ١٣٢[٥] وبذلك تم انتقال الخلافة إلى بني العباس

---

(١) مرو : هي الحجارة البيض تقتدح بها النار . وهناك بلدان باسم مرو الواحدة تعرف باسم (مرو الروذ) ويقول ياقوت في معجمه ان معنى روذ (بالذال المعجمة) هو النهر . وأقول : ان النهر (رود) بالدال المهملة ولكن العرب تعودوا أن يحرفوا الأسماء أو أنهم يكتبونها كما يفهمونها .
والنسبة إليها مَرْوَرُوذي أو مَرُّ وذي أو مروزي وهناك بلد آخر يعرف باسم مَرْوُ الشاهجان وهو أعظم من البلد الأول ومن أشهر مدن خراسان . وهو البلد المقصود هنا .وقد فسر ياقوت كلمة شاهجان بمعنى نفس السلطان وأنا أقول أن هذا التفسير خطأ بل معناها سلطان الروح ولعلها سميت بذلك لجمال موقعها وطيب مناخها ويؤكد ما أقوله ما ذكره ياقوت اذ يقول : سميت بذلك لجلالتها عندهم . وقد اختارها السلطان سنجر بن ملك شاه السلجوقي دار اقامته حتى مات ودفن فيها ، وتقع مرو في الاتحاد السوفييتي بالقرب من الحدود الإيرانية .

(٢) ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٢ يقع يوم الاربعاء وليس يوم الجمعة ويوافق ٢٩ تشرين الأول (اكتوبر) ٧٤٩ م. وجاء في البداية والنهاية قوله : وذلك ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر . وهذا غلط أيضاً والصواب هو ١٤ ربيع الأول ، أو ١٢ ربيع الآخر وهذا ما ذكره أبو الفداء في البداية والنهاية صفحة ٥٢ جزء ١٠ .

(٣) يقول ياقوت : هناك أنهار كثيرة باسم الزاب ويوم الزاب ـ بين مروان الحمار بن محمد وبني العباس ـ كان على الزاب الأعلى بين الموصل وأربيل .

(٤) بوصير : بكسر الصاد . اسم لأربع قرى في مصر . والمقصود هنا بوصير قوريدس وبها قتل مروان بن محمد بن مروان بن الحكم المعروف بالحمار وبه انقرض ملك بني أمية في الشرق . وبوصير السِّدْر : بليدة في كورة الجيزة ، وبوصير دَفَدْنو : من كورة الفيوم . وبوصير بَنَا من كورة السمنودية .

(٥) آخر يوم في ذي الحجة من سنة ١٣٢ هو يوم السبت (٨ آب ـ أوغست ٧٥٠ م) .

ولم يجعلوا مقر ملكهم مدينة دمشق بل أقام أبو العباس بالكوفة وكذلك أخوه أبو جعفر المنصور إلى أن بنى مدينة بغداد وذلك لعدم ثقتهم بأهل الشام لميلهم إلى بني أمية ، لكن انتقال مقر الخلافة إلى العراق كان سبباً في فصم عرى الروابط بين الخلافة والولايات البعيدة مثل الأندلس وأفريقيا (تونس والجزائر) فانفصلت تدريجياً كما ترى .

ولم يهدأ بال العباس من جهة الأمويين إلا بعد أن قتل منهم نحو تسعين رجلاً قتلوا ضرباً بالعمد ثم بسطت عليهم الأنطاع ومدت الموائد وأكل الناس وهم يسمعون أنينهم حتى ماتوا وأمر بنبش قبورهم وإحراق عظامهم. ولم يفلت من بني أمية على ما قيل إلا من هرب إلى الأندلس وكان من ضمنهم عبد الرحمن بن معاويه بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم فاستولى على الأندلس وبقيت في عقبه لسنة ٤٢٠[١] .ولقب العباس بالسفاح لكثرة سفكه الدماء ومات في ذي الحجة سنة ١٣٦[٢] ودفن في الأنبار[٣] وقد عهد بالخلافة بعده إلى أخيه أبي جعفر المنصور ثم من بعده إلى عيسى ابن أخيه موسى. وفي سنة ١٣٧ بايع عم المنصور وهو عبد الله بن علي لنفسه فأرسل إليه المنصور أبا مسلم الخراساني فهزمه وهرب عبدالله وبقي مختفياً إلى سنة ١٣٩ حتى ظفر به المنصور وقتله. وفي شعبان سنة ١٣٧ قتل المنصور أبا مسلم الخراساني ـ مع أنه سبب حصول العباسيين على الخلافة بسعيه واجتهاده ـ قتله لخوفه من امتداد نفوذه والخروج عليه واختلاس الخلافة لنفسه . وفي سنة ١٤١[٤] حصلت فتنة الراوندية الذين قالوا بألوهية أبي جعفر المنصور

---

(١) سنة ١٠٢٩م .

(٢) يقع شهر ذي الحجة سنة ١٣٦ في شهري أيار وحزيران من سنة ٧٥٤ م .

(٣) الأنبار : بفتح أوله يقول ياقوت : مدينة قرب بلخ وبالقرب من مرو الروذ . والأنبار أيضاً مدينة على الفرات غربي بغداد على بعد عشرة فراسخ وهي المقصودة هنا. وكانت الفرس تسميها فيروزسابور عمرها سابور بن هرمز وجددها أبو العباس السفاح .

(٤) الواقعة في سنتي ١٠٤٩ و١٠٥٠ م . اذ توافق غرة محرم ٥ يوليو من سنة ١٠٤٩م و٣٠ ذي الحجة (٢٥ مايو ١٠٥٠ م) .

فحاربهم حتى قتلهم عن آخرهم. وفي سنة ١٤٥ بايع أهل المدينة محمد بن عبد الله ابن الحسن بن الحسين ـ الملقب بالنفس الزكية ـ بالخلافة فارسل إليه أبو جعفر عيسى ابن موسى فحاربه وقتله مع كثير من أهل بيته في رمضان من السنة المذكورة. وفي أثناء ذلك كان أخوه ابراهيم قد قصد البصرة وطلب البيعة من أهلها لأخيه محمد النفس الزكية فبايعوه ثم أرسل من استولى على الأهواز وواسط ولما أتاه خبر قتل أخيه سار بجموعه قاصداً الكوفة فلاقاه عيسى بن موسى وكان قد عاد من المدينة بعد موت محمد فحاربه حتى قتله. وبذلك انتهت هذه الفتنة وأمن المنصور جانب العلويين. وفي أثناء هذه الفتن توفي ببغداد الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان رضي الله عنه. ثم تفرغ المنصور لبناء مدينة بغداد وانتقل إليها وتوفي في ٦ ذي الحجة سنة ١٥٨ [1] وعمره ثلاث وستون سنة ؛ ولم يتبع ما أوصى به العباس بل أوصى بالخلافة لابنه محمد المهدي وخلع عيسى ابن أخيه موسى من ولاية العهد.

ومن أهم أعمال محمد المهدي تنظيمه البريد وتعميمه بين المدائن العظيمة وغزو الروم مرتين بمعرفة ابنه هرون الرشيد. وفي أيامه ظهر بعض الزنادقة في حلب فجمعهم المهدي وقتلهم عن أخرهم ومزق كتبهم. واستمرت خلافته عشر سنين وشهراً وتوفي في ٢٢ محرم سنة ١٦٩[2] بماسندان[3] وعمره ٤٣ سنة فاخذ ولده هرون البيعة لأخيه موسى الهادي الذي كان يحارب بجرجان[4] وفي خلافة موسى الهادي بن محمد المهدي ظهر الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن

---

(١) يوم السبت في (٧ اكتوبر سنة ٧٧٥م).

(٢) يوم الخميس في (٤ أوغست ٧٨٥ م).

(٣) هذا الاسم جاء مصحفاً هنا اذ أصله ، كما جاء في معجم البلدان لياقوت ، ما سَبَذَان بفتح السين والباء والذال المعجمة ويقول : وبها قبر المهدي وليس له أثر الا بناء قد تعفت رسومه ولم يبق منه الا الآثار وتقع الى الشمال من حلب.

(٤) قال ياقوت: جرجان : بضم الجيم وتسكين الراء مدينة بخراسان . وهي مدينتان على ضفتي نهر عظيم تجري فيه السفن الكبيرة واحدى الضفتين تسمى جرجان والأخرى بكرآباذ أقول : تقع جرجان في الجنوب الشرقي من بحر الخزر.

ابن علي بن أبي طالب وأدعى الخلافة بالمدينة فاجتمع عليه كثير وبايعوه فحاربه العباسيون وقتلوه مع كثير من رفقائه وأهل بيته في ذي الحجة سنة ١٦٩ وفر من القتل ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب إلى بلاد المغرب سنة ١٧٠ [١] وعمره أربعة وعشرون سنة على ما قيل وهو مؤسس عائلة الادريسيين بمراكش [٢] . وتوفي موسى الهادي في ١٤ ربيع الأول فتولى بعده أخوه شقيقه هرون الرشيد وعمره ٢٢ سنة وكانت ولادته بالري[٣] في ذي الحجة سنة ١٤٨ وأمهما الخيزران وهي أم ولد .

وهرون الرشيد هو خامس خلفاء بني العباس وفي مدته بلغت دولتهم أعلى درجات الكمال، وفي أيامه ظهر يحيى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب وبايعه خلق كثير في سنة ١٧٦[٤] فأرسل إليه هرون الرشيد الفضل ابن يحيى البرمكي في جيش عظيم ففضل الفضل المسالمة على الحرب وكاتب يحيى وأمنه على نفسه فطلب أن يكتب له الرشيد بالأمان بخطه ففعل، وعلى ذلك حضر يحيى إلى بغداد فاكرمه الرشيد ثم سجنه حتى مات.وفي هذه السنة حصلت بدمشق فتنة عظيمة بين المضرية واليمنية قتل فيها كثيرون.وفي سنة ١٧٩[٥] توفي الإمام مالك رضي الله عنه وهو ثاني الأئمة الأربعة .

وفي سنة ١٨٤ [٦] ولي ابراهيم بن الأغلب على أفريقيا وبقيت له في ذريته

---

(١) قال ياقوت : مراكش بفتح الميم وتشديد الراء وضم الكاف وأقول : هي عاصمة الجنوب المغربي وعروس صحرائه .

(٢) يوم الأربعاء في (١٣ ايلول ـ سبتمبر سنة ٧٨٦ م) .

(٣) الرَيّ : بفتح الراء وتشديد الياء وهي مدينة في ايران على حدود العراق .

(٤) تقع في سنتي ٧٩٢ و ٧٩٣ م اذ يبدأ شهر المحرم يوم السبت في (٢٨ نيسان ـ ابريل من سنة ٧٩٢ م) وتنتهي السنة الهجرية يوم الأربعاء في ١٧ أبريل سنة ٧٩٣ م .

(٥) الموافقة لسنتي ٧٩٥ و ٧٩٦ م اذ يبدأ محرم يوم الجمعة في (٢٧ آذار ـ مارس سنة ٧٩٥ م) وتنتهي السنة الهجرية يوم الثلاثاء في ١٥ مارس .

(٦) الموافقة لسنتي ٨٠٠ و ٨٠١ اذ يبدأ شهر محرم يوم السبت في ١ (فبراير) سنة ٨٠٠ وتنتهي السنة الهجرية يوم الثلاثاء في ١٩ كانون الثاني ـ يناير سنة ٨٠١ .

إلى أن ظهر الفاطميون واستقلوا بملك افريقيا ومصر كما تراه في آخر هذه المقدمة .

وفي سنة ١٨٧ تحول الرشيد عن البرامكة لما رأى امتداد نفوذهم وزيادة أموالهم وأملاكهم وميل الناس إليهم وكثرة عطاياهم فخشي من أن تطمح أنظارهم إلى ما فوق ذلك أو يقصدوه وعائلته بسوء طمعاً في تولي الخلافة فلهذه الأسباب أصر على الإيقاع بهم فقتل جعفر بن يحيى في الانبار عند عودة الرشيد من الحج في أول صفر سنة ١٨٧ [1] وأرسل رأسه وجثته إلى بغداد فنصبت بها أياماً. ثم أرسل من أحاط يحيى البرمكي وولده الفضل وصادرهم في جميع أموالهم من منقول وثابت. وبذلك انقضت وزارة البرامكة بعد أن بقيت فيهم سبع عشرة سنة. وأما ما يذكره بعض المؤرخين ويجعلونه سبباً للإيقاع بالبرامكة فغير صحيح .

وفي سنة ١٩٠ [2] توفي يحيى بن خالد بن برمك بالحبس وكذلك توفي بالحبس ولده الفضل في محرم سنة ١٩٣ وفي ٣ جمادى الثاني من هذه السنة [3] توفي الخليفة هرون الرشيد في مدينة طوس [4] أثناء سفره فصلى عليه ابنه صالح وأخذ البيعة لأخيه محمد الأمين وأرسل يخبره بذلك. وكان الرشيد قد عهد بالخلافة بعده لولده الأمين ثم للمأمون ثم لابنه القاسم ولقبه بالمؤتمن، لكن جعل أمر استمراره في ولاية العهد وعزله في يد المأمون إن شاء استخلفه وإن شاء عهد بالخلافة لغيره. فلم يتبع الأمين هذا العهد بل أبطل ذكر أخيه المأمون في الخطبة في سنة ١٩٥ [5]

(١) يقع أول يوم من صفر سنة ١٨٧ يوم الأحد في (٢٩ يناير سنة ٨٠٢م).

(٢) تقع في ٨٠٥ و ٨٠٦ اذ يبدأ شهر محرم يوم الخميس في ٢٧ نوفمبر وتنتهي السنة الهجرية يوم الاثنين في ١٦ تشرين الثاني ــ نوفمبر .

(٣) يوم السبت في (٢٤ آذار ــ مارس سنة ٨٠٩ م) .

(٤) قال ياقوت : طوس مدينة بخراسان (ايران اليوم) بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ وتشتمل على بلدتين يقال لاحداهما الطابران وللأخرى نوقان ولهما أكثر من ألف قرية. فتحت أيام عثمان بن عفان وفيها قبر عليّ بن موسى الرضا ، وقبر هارون الرشيد . وقال مِسْعَر بن المهلهل : طوس أربع مدن منها اثنتان كبيرتان واثنتان صغيرتان . وتسمى اليوم مشهد .

(٥) تقع في ٨١٠ و ٨١١ اذ يبدأ محرم يوم الجمعة في (٤ تشرين الأول ــ اكتوبر سنة ٨١٠ م) =

وأمر بأن يخطب لابنه موسى ، ولقبه الناطق بالحق . وكان المأمون بخراسان . فلما بلغه خبر هذا التغيير لم يقبله . واجتمع حوله وبايعه كل من تحول عن الأمين ، لانهماكه في الملاذ ، واحتجابه عن الناس ، وصرفه أوقاته فيما لا يعود على الخلافة بخير ؛ فجهز الأمين جيشاً لمحاربة أخيه المأمون ، واستمرت هذه الفتنة الى سنة ١٩٧هـ وفيها تغلبت جيوش المأمون على جيوش الأمين . وحوصر الأمين في بغداد مدة وقتل أخيراً في ٢٥ محرم سنة ١٩٨[(١)] وعمره ثمان وعشرون سنة . وبويع بالخلافة لأخيه المأمون وهو سابع بني العباس .

وكان من أعماله خلع أخيه القاسم من ولاية العهد بما له من الحق بمقتضى عهد أبيه الرشيد وأقام مكانه في سنة ٢١٠[(٢)] عليّ الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب . وخلع شعار بني العباس وهو السواد ولبس الخضرة شعار العلويين وأمر جنده بذلك ، فنقم عليه العباسيون بإخراجهم عن الخلافة وتآمروا على عزله وكان بمرو فعزله أهل بغداد وبايعوا ابراهيم بن المهدي العباسي في محرم سنة ٢٠٢[(٣)] ولما بلغ المأمون خبر خروج أهل بغداد عليه سار إليها من مرو ومعه علي الرضا. وفي صفر سنة ٢٠٣[(٤)] توفي علي الرضا فجأة بالطريق بمدينة طوس فصلى عليه المأمون ودفنه بجوار قبر والده الرشيد. ثم أرسل إلى أهل بغداد يخبرهم بموته وبعودته إلى ما عهد به أبوه فتفرق الناس من حول ابراهيم بن المهدي ودخلها عسكر المأمون لكنهم لم يظفروا به بل اختفى وبقي مختفياً إلى أن ضبط في ربيع الآخر سنة ٢١٠[(٥)] وعفى عنه

= وتنتهي السنة الهجرية يوم الاثنين في (٢٢ ايلول ـ سبتمبر سنة ٨١١ م) .

(١) يوم الأحد في ٢٥ سبتمبر سنة ٨١٣م.

(٢) الصواب هنا ٢٠١ . السنتي ٨١٦ و٨١٧ اذ يبدأ شهر محرم يوم الأربعاء في (٣٠ ز ـ يوليو ٨١٦ م) .

(٣) يقع شهر محرم سنة ٢٠٢ في شهري (تموز ـ يوليو وآب ـ أوغست من سنة ٨١٧ م).

(٤) يقع شهر صفر سنة ٢٠٣ في شهري (أوغست وسبتمبر سنة ٨١٧ م) .

(٥) يقع شهر ربيع الآخر سنة ٢١٠ في شهري (يوليو وأوغست سنة ٨٢٥ م).

المأمون وتوفي في رمضان سنة ٢٢٤[1] وفي أوائل سنة ٢٠٤ عاد المأمون وانقطعت الفتن وترك الخضرة وعاد إلى لبس السواد شعار بني العباس وعادت الأحوال إلى ما كانت عليه. وفي هذه السنة توفي بمصر الإمام محمد بن إدريس الملقب بالشافعي ثالث الأئمة الأربعة. وفي سنة ٢١٢[2] قال المأمون بخلق القرآن وجبر الناس على القول بذلك واضطهد كل من خالفة وهو الذي أمر محمد بن آلوسي بن شاكر وأخويه أحمد والحسين بتحقيق طول خط نصف النهار لمعرفة مقدار محيط الكرة الأرضية بالضبط فقاموا بهذه المأمورية[3] العلمية خير قيام وقاسوا أحد خطوط الطول في سهل سنجار[4] ثم أعادوا المقاس ثانياً في وطئة الكوفة. وهذا دليل على سبق العرب للافرنج في معرفة كروية الأرض. وفي أيامه ترجمت أغلب كتب اليونان العلمية والفلسفية وبلغ التمدن أعلى الدرجات. وفي سنة ٢١٦ زار مصر وتوفي في ١٩ رجب سنه ٢١٨[5] بعد أن أوصى لأخيه أبي إسحق محمد المعتصم بالله ودفن بطرسوس[6]. وسِنُّه سبع وأربعون سنة ومدة خلافته عشرون سنة ونصف تقريباً. فبايع الناس المعتصم إلا بعض الجنود فبايعوا العباس بن المأمون فاستدعى

---

(١) يقع شهر رمضان سنة ٢٢٤ في شهري (يوليو وأوغست سنة ٨٣٩ م).

(٢) أي في ٨٢٧ و٨٢٨م اذ يبدأ محرم يوم الثلاثاء في ٢ ابريل وتنتهي السنة الهجرية يوم السبت في ٢١ آذار ـ مارس.

(٣) لفظ كان يستعمل زمن العثمانيين بمعنى المهمة وسيتكرر كثيراً فيما يلي.

(٤) قال ياقوت : سنجار : بكسر السين وتسكين النون . وقال نقلاً عن ابن الكلبي : انما سميت سنجار وآمد وهيت باسم بانيها . وهي تقع في شمال شرقي سوريا ويقول ياقوت نقلاً عن حمزة الاصبهاني : ان كلمة سنجار تعريب سنكار ولم يفسره. وأقول : ان كلمة سنگ معناها بالفارسية الحجر ، وسنك خارا معناها الحجر الصلد فحرفت وصارت سنكار ثم سنجار ، وهذا ينطبق على حالة سنجار اذ يقول ياقوت : بينها وبين الموصل ثلاثة أيام وهي في لحف جبل عالٍ وبها اصطدمت سفينة نوح .

(٥) الواقع يوم الأحد (١٠ آب ـ أوغست ٨٣٣ م) .

(٦) طرسوس . قال ياقوت : بفتح أولها وثانيها وتقع في جنوب تركيا بين اطنه ومرسين وفيها قبر المأمون ، جاءها غازياً فمات فيها .

المعتصم العباس فبايعه وخرج للجند ونصحهم بمبايعة المعتصم فبايعوه وهي أول مرة تدخل الجند في أمر الخلافة.

ومن أعمال المعتصم بناء مدينة سامراء[١] وفتح عمورية[٢] التي كان يقدسها الروم.وفي أثناء عودته من عمورية بلغه أن العباس بن المأمون يكيد له وينوي قتله فأمر بسجنه فسجن ومات بعد قليل. قيل أن الموكل بحراسته منع عنه الماء حتى مات وأرسل المعتصم أحد قواد جيوشه واسمه الإفشين خيذر لمحاربة بابك المجوسي الذي استولى على جبال طبرستان مدة عشرين سنة تقريباً فحاربه وقبض عليه وأحضره أمام المعتصم فقتله.وفي سنة ٢٢٦[٣] غضب المعتصم على الإفشين فقتله.

وفي ١٨ ربيع الأول سنة ٢٢٧[٤] توفي المعتصم وعمره ثمان وأربعون سنة تقريباً وهو أول من أضيف اسم الله تعالى إلى لقبه.وبويع بعده ابنه الواثق بالله هرون. ولما تولى الواثق حصلت فتنة بدمشق فأرسل إليها جيشاً أعاد السكينة إليها وكان له وزير تركي اسمه أشناس أعطى إليه الواثق علامات الإمارة وهي تاج ووشاحين ومن ثم ابتدأ وفود قبائل الترك إلى بلاد العراق ودخولهم في الوظائف العالية خصوصاً الجندية الأمر الذي أوجب تدخلهم في أمور الخلافة واستيلاءهم على السلطة الفعلية.وتوفي أشناس التركي سنة ٢٢٩ ومما أوجب ضعف دولة العباسيين جعلهم

(١) سامراء. قال ياقوت: لغة في سُرَّ من رأى. وفيها لغات: سامَرَّاء ممدود، وسامرَّا مقصور وسُرَّ من رأ مهموز الآخر، وسُرَّ من را مقصور الآخر،وتقع بين بغداد وتكريت على شاطئ الدجلة. وفيها السرداب المعروف في جامعها الذي تزعم الشيعة أن المهدي سيخرج منه (المحقق).

(٢) عمورية. قال ياقوت: بفتح العين وتشديد الميم. وهي بالقرب من مدينة انقرة وسبب فتحها هو أن استغاثة، على البعد، من سيدة مسلمة اسمها شُراة العلوية، بالمعتصم فأغاثها وانتقم لها من النصارى الذين كانوا يذلون المسلمين ويجبرونهم على التنصر (المحقق).

(٣) سنة ٢٢٦ تقع في سنتي ٨٤٠ و ٨٤١ اذ تبدأ في (٣١ أكتوبر ٨٤٠ م وتنتهي في ٢٠ تشرين الأول ـ أكتوبر سنة ٨٤١م).

(٤) يقع يوم الخميس في (٥ كانون الثاني ـ يناير ٨٤٢ م).

بلاد خراسان وراثية تقريباً في عائلة طاهر بن عبد الله .

وتوفي الواثق في ٢٤ذي الحجة سنة ٢٣٢[١] واختلف فيمن يعين بعده فقال فريق بمبايعة ابنه محمد وقال آخر بعدم صلاحيته لصغر سنه وأخيراً اتفق على مبايعة المتوكل جعفر بن المعتصم وهو عاشر خلفاء بني العباس .وفي مدته توفي الإمام أحمد بن حنبل أحد الأئمة الأربعة في سنة ٢٤١.وشرع المتوكل في نقل مركز حكومته إلى دمشق ونقل إليها دواوينه ولم يقم بها الاشهرين في سنة ٢٤١ ثم عاد إلى سامراء.وقتل المتوكل سنة ٢٤٧ قتله بعض مماليكه باتفاق مع ابنه المنتصر وبغا الصغير الشرابي.وقيل إنه قتل في مجلس شرابه.وقتل معه وزيره الفتح بن خاقان في ليلة الاربعاء ٣ شوال سنة ٢٤٧[٢] ومدة خلافته خمس عشرة سنة تقريباً وعمره نحو أربعين سنة.ثم حصلت البيعة لابنه المنتصر لكن لم تطل مدته بل توفي في يوم الأحد ٤ ربيع الأول سنة ٢٤٨[٣] وعمره خمس وعشرون سنة ونصف. ومدة خلافته ستة شهور .

وبويع بعده أحمد المستعين بالله ابن محمد المعتصم.ولم يرغب رجال الدولة خصوصاً الأتراك مبايعة أحد أولاد المتوكل .وبذلك ازداد تدخلهم في انتخاب الخلفاء وعزلهم بل وقتلهم حتى صار الأمر بيدهم. وزادت الفتن بين العرب والأتراك في خلافة المستعين وتأيد نفوذ عائلة طاهر بن عبد الله بخراسان ولما توفي طاهر بن عبد الله بن طاهر بن عبد الله في رجب سنة ٢٤٨[٤] عين المستعين ولده محمد بن طاهر. وكذلك لما توفي بغا التركي ولى ابنه موسى مكانه فصارت الوظائف وراثية تقريباً في بعض العائلات الأجنبية. وفي خلافة المستعين ظهر يعقوب بن الليث الصفار وتحرك من سجستان قاصداً هرات[٥] للاستيلاء عليها وكذلك ظهر الحسن بن

---

(١) يقع يوم الخميس في (١١ آب ــ أوغست سنة ٨٤٧ م) .

(٢) يوم الأربعاء من ٣ شوال ٢٤٧ يوافق (١٠ كانون الأول ــ ديسمبر سنة ٨٦١ م) .

(٣) يوم الأحد يكون ٦ ربيع الأول سنة ٢٤٨ وهذا يوافق (١٠ أيار ــ مايو سنة ٨٦٢ م).

(٤) يقع هذا الشهر في شهري (آب ــ أوغست وأيلول ــ سبتمبر من سنة ٨٦٢ م) .

(٥) سجستان : قال ياقوت : هي بكسر أوله وثانيه ثم سين مهملة . وتقع في جنوب هرات أي انها في بلاد افغانستان حالاً ، ويبدو من وصف ياقوت انها تقع في افغانستان=

زيد بن محمد بن اسمعيل بن زيد بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بطبرستان واستقل بها إلى أن توفي سنة ٢٨٧[١]. وكان يلقب بالداعي إلى الحق. وحكم بعده الناصر للحق الحسن بن علي وكان يعرف بالأطروش وتوفي سنة ٣٠٤[٢] وانقرض بموته ملك العلويين بطبرستان.

فكانت الأحوال في غاية الاضطراب مدة حكم المستعين وكثر الفساد وسعي كل عامل في الاستقلال بما ولي عليه. وضعفت الحكومة حتى صارت ألعوبة في أيدي أصحاب الدسائس وزادت الفتن بين أحزاب الأتراك في سنة ٢٥١[٣] حتى حاصروا المستعين بقصره بسامراء فهرب منها إلى بغداد فبايع العصاة المعتز بالله بن المتوكل الذي أرسل أخاه أبا أحمد طلحة في خمسين ألف تركي لمحاربة المستعين ببغداد. ثم اتفق كبار الدولة على خلع المستعين حسماً للمشاكل وحقنا للدماء فخلعوه وأخبروه بذلك فقبل وبايع المعتز بالله وخطب له في بغداد يوم الجمعة ٤ محرم سنة ٢٥٢[٤]. ثم قُتل المستعين بأمر المعتز بعد أن مُنع من السفر إلى مكة وحبس. وفي مدة المعتز حصلت جملة فتن بين العسكر الأتراك فقتلوا قائدهم «وصيف» سنة ٢٥٣ ولم يعاقبهم الخليفة بل أعطى كل ما كان له إلى بغا الشرابي ثم أمر بقتله سنة ٢٥٤[٥]. وفي هذه السنة ولى أحمد بن طولون على مصر فاستقل بها مع حفظ السيادة الإسمية للعباسيين إلى أن توفي سنة ٢٧٠[٦] وخلفه ابنه خمارويه الملقب

= عند التقاء حدود باكستان بافغانستان بايران. وقال ياقوت ان سجستان اسم للناحية وان اسم مدينتها زرنج.

وهرات: إحدى مدن أفغانستان الكبيرة وتقع في الشمال الغربي من أفغانستان بالقرب من الحدود الإيرانية والاتحاد السوفييتي. (المحقق)

(١) سنة ٢٨٧ تقع في سنة ٩٠٠ م.

(٢) تقع في سنتي ٩١٦ و٩١٧م.

(٣) تقع في سنتي ٨٦٥ و٨٦٦م.

(٤) يقع يوم الجمعة في (٢٥ يناير ٨٦٦ م).

(٥) تقع في سنة ٨٦٨م.

(٦) تقع في سنتي ٨٨٣ و٨٨٤م.

بأبي الجيوش.وفي سنة ٢٥٥ استولى يعقوب الصفار على كرمان[١] ثم على بلاد فارس ودخل شيراز[٢] وكتب للخليفة يعترف له بالسيادة وأرسل إليه هدايا عظيمة فاكتفى الخليفة، وفقد بذلك جميع أملاكه الواقعة شرق بغداد تقريباً كما فقد مصر وكما استقل الأمويون بالأندلس والإدريسيون بالمغرب الأقصى بحيث صارت الأقاليم التابعة للعباسيين لا تزيد عن ربع ما كان قبلهم لدولة بني أمية .

وفي ٢٦ رجب سنة ٢٥٥[٣] ثار عليه الأتراك من الجند لعدم مقدرته على أداء ما يطلبونه من الأموال فأهانوه وأشهدوا على خلعه وبايعوا المهتدي محمد بن الواثق وهو رابع عشر الخلفاء العباسيين.وفي ٢ شعبان من السنة المذكورة مات المعتز جوعاً بمنع الطعام والشراب عنه.وفي مدته ابتدأ ظهور شخص اسمه علي بن محمد وادعى الانتساب للعلويين وجمع قبائل الزنوج النازلين بالقرب من البصرة وصار يعثو هو ورجاله في الأرض إلى أن قتل سنة ٢٧٠[٤].ولم تطل خلافة المهتدي بل حصلت حروب بينه وبين الأتراك بسبب قتله أحد قوادهم المدعو بايكيال. وظفروا به أخيراً وقتلوه في ١٨ رجب سنة ٢٥٦[٥] وأخرجوا أبا العباس أحمد بن

(١) قال ياقوت : كرمان . بالفتح ثم سكون وربما كسرت والفتح اشهر .وهي ولاية كبيرة ومعمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان وبالتالي فهي بالقرب من حدود باكستان . ويقول ياقوت : وكرمان أيضاً مدينة بين غزنة وبلاد الهند (وأقول وأهل البلاد يكتبون غزنى لا غزنة) . وبنيسابور محلة يقال لها مربَّعة الكرمانية واليها ينسب أبو يوسف بن يعقوب بن يوسف الكرماني النيسابوري الشيباني . وأقول : وفيها قبر عمر الخيام .

(٢) شيراز . بكسر الشين . وهي بلدة كبيرة من بلاد ايران وتقع في الجنوب الغربي من ايران على مسافة نحو مئة كيلومتر من الخليج الفارسي .

(٣) يقع يوم الأحد في (١٠ تموز ـ يوليو ٨٧٠ م) .

(٤) تقع هذه السنة في سنتي ٨٨٣ و٨٨٤م اذ يبدأ محرم في (١ يوليو ٨٨٣م) وتنتهي السنة في (٢٨ حزيران ـ يونيو ٨٨٤ م).

(٥) يوم الأربعاء في (٢١ حزيران ـ يونيو سنة ٨٧٠ م) .

المتوكل من السجن وبايعوه ولقب المعتمد على الله وهو خامس عشرهم.وفي مدته توفي الإمام البخاري في ليلة عيد الفطر سنة ٢٥٦[١] والإمام مسلم في سنة ٢٦١[٢]. واستفحل أمر يعقوب الصفار فاستولى على بلخ[٣] وكابل[٤] والأهواز[٥] ثم توفي في ١٩ شوال سنة ٢٦٥[٦] وخلفه أخوه عمرو وكتب للخليفة بالطاعة فولاه جميع البلاد التي كانت تحت يد أخيه.وعظم شأن الحسن بن زيد العلوي بطبرستان واستولى على جرجان ثم توفي سنة ٢٧٠[٧] .وتولى أخوه محمد بن زيد وعصى العرب في حمص[٨] حاكمهم التركي وقتلوه .واستولى الزنوج على البصرة وقتلوا كثيراً من أهلها ودخلوا مدينة واسط[٩] ووصلت طلائعهم إلى بغداد نفسها فازدادت الخلافة ضعفاً على ضعف وتخللت الفوضى جميع أجزائها واستبدّ القواد والحكام لعدم وجود رادع أو مراقب .

بنو طولون بمصر

وفي خلافته أشهر كذلك أحمد بن طولون استقلاله ومنع ذكر اسم الخليفة في الخطبة وسار إلى بلاد الشام وفتح أكثر مدائنها وعظمت

---

(١) يوم الجمعة في (١ أيلول ـ سبتمبر ٨٧٠) .

(٢) تقع سنة ٢٦١ في سنتي ٨٧٤ و٨٧٥ اذ تبدأ يوم السبت في (١٦ اكتوبر ٨٧٤) وتنتهي يوم الاربعاء في ٥ تشرين الأول ـ أكتوبر .

(٣) بلخ : بفتح الباء وسكون اللام مـدينة في شمال أفغانستان .

(٤) كابل : بفتح الكاف وضم الباء ، هي عاصمة أفغانستان حالا .

(٥) اسم مدينة وناحية ، وتقع في الجنوب الغربي من ايران على حدود العراق ، ويسميها الايرانيون خوزستان .

(٦) يوم الاحد في (١٤ حزيران ـ يونيو ٨٧٩) .

(٧) تقع في سنتي ٨٨٣ و٨٨٤ اذ تبدأ السنة الهجرية يوم الخميس في (١١ يوليو سنة ٨٨٣) وتنتهي يوم الأحد في (٢٨ حزيران ـ يونيو ٨٨٤) .

(٨) من أمهات مدن سوريا وتقع الى شمال دمشق على بعد ١٧٠ كيلومتراً .

(٩) واسط بكسر السين ، وسميت بذلك لتوسطها بين الكوفة والبصرة وتعرف بواسط الحجّاج للتفريق بينها وبين مدن أخرى تعرف باسم واسط مثل واسط الحجاز وواسط الجزيرة وواسط اليمامة .

سطوته ثم مات سنة ٢٧٠ وخلفه ابنه خمارويه وكان أبو أحمد طلحة الموفق أخو الخليفة المعتمد هو قائد جنوده وصاحب الكلمة في البلاد حتى ضيق على الخليفة في المصرف وتوفي في ٢٢ صفر سنة ٢٧٨[1] وحيث كان بويع له بولاية العهد بعد المفوض جعفر بن المعتمد اجتمع القواد وبايعوا أبا العباس المعتضد بولاية العهد مكان أبيه الموفق ثم عزل المعتمد ابنه جعفر قبل وفاته وأوصى بولاية العهد لأبي العباس المعتضد.

وفي آخر خلافة المعتمد ظهر أصحاب مذهب القرامطة بالكوفة[2]. وتوفي

---

(١) يوم السبت في (٥ حزيران - يونيو ٨٩١).

(٢) ويسمون أيضاً الاسماعيلية نسبة لاسماعيل بن جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. ويسمون كذلك بالباطنية لاعتقادهم ببقاء الامامة في العلويين وان الأرض لا تخلو من امام مطلقاً إما ظاهر بذاته أو مستور وان أول الأئمة المستورين هو محمد المنتظر بن حسن العسكري بن علي الزكي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق المتقدم ذكره.ويعتقد الباطنيون أن محمد المنتظر المذكور اختفى وسنه تسع سنوات وينتظر ظهوره ثانياً. وتسمى هذه الطائفة بالاثني عشرية لاعتقادهم أن الأئمة الظاهرية اثنا عشر أولهم الامام علي كرم الله وجهه ثم ولديه الحسن والحسين ثم علي زين العابدين السالف الذكر وآخرهم محمد المنتظر.وهم طائفة من الشيعة امتد نفوذهم الى مشارق الأرض ومغاربها وكانت قاعدة أعمالهم قلعة الموت ويقال لهم كذلك الحشاشين لتعاطيهم الحشيشة.وقد كان لهم شأن يذكر أيام الحروب الصليبية وقتلوا كثيراً من الأمراء والملوك. (انتهت حاشية المؤلف).

لقد خلط المؤلف في حاشيته بين الشيعة الاثني عشرية وبين الشيعة الاسماعيلية. وحقيقة الأمر هي ان الاثني عشرية هم الذين يعتقدون باثني عشر اماماً ظاهراً وهم: علي ابن ابي طالب ثم الحسن ثم الحسين ثم علي زين العابدين ثم محمد الباقر ثم جعفر الصادق ثم موسى الكاظم ثم علي الرضا ثم محمد الجواد ثم علي الزكي ثم حسن العسكري ثم محمد المنتظر الذي يعتقدون بغيبته في جامع سامراء وانه حيّ وسيظهر في آخر الدهر !. وهم أكثر الفرق الشيعية اعتدالاً، الا أنهم يكرهون الخلفاء الثلاثة أبا بكر وعمر وعثمان وأم المؤمنين عائشة ويلعنونهم ويخالفون أهل السنة في =

في ١٩ رجب سنة ٢٧٩[١] بعد أن حكم ثلاثاً وعشرين سنة . وبويع لأبي العباس أحمد المعتضد بالله ابن الموفق بن المتوكل وهو سادس عشر خلفاءهم . وفي مدته زادت شوكة بني سامان المستقلين ببلاد ما وراء النهر مع اعترافهم بالسيادة للخليفة، وسار اسمعيل الساماني إلى خراسان لمحاربة عمرو أخي يعقوب الصفار فهزمه وقبض عليه وحبسه حتى مات.وانقرض بموته ملك الصفار.ثم حارب الساماني محمد بن زيد العلوي صاحب طبرستان فهزمه وجرح العلوي جراحاً بليغة مات بسببها سنة ٢٨٧[٢] وخلفه ابنه الناصر للحق .

وفي أيام المعتضد قتل خمارويه بن طولون صاحب مصر سنة ٢٨٢[٣] وخلفه ابنه جيش الملقب بالأفضل، ثم خلعه الجند وعينوا أخاه هرون. وضعف أمر بني طولون وقارب الزوال .وفي ٢٢ ربيع الآخر سنة ٢٨٩[٤] توفي المعتضد وكانت خلافته عشر سنوات تقريباً وعمره سبع وأربعون سنة وخلفه ابنه المكتفي بالله،

= بعض المسائل الفقهية .

وأما الاسماعيلية أو القرامطة فهم فرقة من الشيعة الغالية وقد ساقوا الخلافة بعد جعفر الصادق الى ابنه إسماعيل. وهم يعتقدون باستمرار الخلافة الظاهرة وإمامهم الحالي هو كريم آغاخان.ومركز الاسماعيلية في سورية هو السلمية وفي الهند مدينة بمبي . وقد سموا بالحشاشين قيل لأن اميرهم كان يسقيهم الحشيش المخدر لكي يصرفهم فيما يريد من أعمال تتطلب الجرأة . وقيل بل ان الأوربيين ، الذي ذاقوا منهم مرَّ العذاب خلال الحروب الصليبية ، وصفوهم بأنهم قتلة (Assassins اساسن) فحرفها العرب وجعلوها حشاشين ولصديقي الدكتور زكي النقاش اجتهاد بهذا الصدد إذيقول : إن اللفظ الصحيح هو (حسّاسين) وليس حشاشين لأن الحسَّ هو القتل اوحيث أنهم اشتهروا بالحروب وبالاغتيالات السياسية فقد سموا بالحساسين ، ويقول الدكتور النقاش أنه ليس من المعقول أن يفعل الحشاش ما كان يفعله القرامطة .

(١) يوم الأحد في (١٥ تشرين الأول ـ اكتوبر ٨٩٢) .
(٢) تقع في سنة ٩٠٠ .
(٣) تقع في سنتي ٨٩٥ و٨٩٦ .
(٤) يوم السبت في (٦ مارس ٩٠٢) .

وهو سابع عشر خلفاء العباسيين.وفي أيامه افتتح العباسيون مصر ثانياً من هرون ابن خمارويه وهزمت القرامطة عدة مرات وتوفي اسمعيل الساماني وتولى بعده ابنه أبو النصر أحمد فأقره الخليفة .ثم توفي في ١٢ ذي القعدة سنة ٢٩٥ [١] فكانت خلافته ست سنوات ونصف وعمره ثلاث وثلاثون سنة .وبويع بعده أخوه أبو الفضل جعفر المقتدر بالله بن المعتضد وعمره ثلاث عشرة سنة وهو الثامن عشر وامتدت مدة خلافته إلى سنة ٣٢٠ [٢] أي بلغت خمساً وعشرين سنة ،إلا أنه خلع في خلالها مرتين : الأولى في سنة ٢٩٦ [٣] خلعه القضاة والقواد لصغر سنه وبايعوا عبد الله ابن المعتز ولقبوه الراضي بالله لكنه لم يلبث إلا ليلة واحدة ثم قتل أثناء الفتن والحروب التي قامت بين أتباع المقتدر وأتباعه وأعيد المقتدر ثانياً. والثانية في سنة ٣١٧ [٤] خلعه الجند والقواد بسبب تسليمه أمور الخلافة للنساء والخدام واشتغاله بمالا يفيد الأمة فحاصروه في داره وحملوه وأولاده ووالدته إلى دار مؤنس الخادم أحد القواد الذي كانت له اليد الطولى في هذه الفتن وأكرهوه على أن يخلع نفسه ففعل وبايعوا أخاه محمد بن المعتضد ولقبوه القاهر بالله ثم أعيد بعد ثلاثة أيام من خلعه وأمن أخاه القاهر بالله وبقي حياً إلى أن خلفه بعد قتله سنة ٣٢٠. ولم يعد المؤرخون عبد الله بن المعتز في عداد الخلفاء لأنه لم يحكم إلا ليلة واحدة لكن اعتبرته تاسع عشر خلفائهم بما أنه حصلت مبايعته وتولى الحكم.وفي أيام المقتدر حصلت عدة حروب بين جنوده وبين القرامطة كان النصر فيها غالباً لجنود الخليفة .

ظهور الدولة الفاطمية بتونس

وابتدأت دولة الفاطميين بتونس في سنة ٢٩٦ وأولهم المهدي أبو محمد عبيد الله .وكان القائم بالدعوة له أبو عبد الله الشيعي فاستقل بافريقيا (تونس والجزائر) بعد ان انتزعهما من بني الأغلب الذين حكموا مدة مائة واثنتي عشرة سنة أولها

(١) يوم السبت في (١٣ أوغست ٩٠٨) .
(٢) تقع سنة ٩٣٢ .
(٣) تقع في سنتي ٩٠٨ و٩٠٩ .
(٤) تقع في سنتي ٩٢٩ و٩٣٠ .

سنة ١٨٤[1] التي ولى فيها هرون الرشيد ابراهيم بن الأغلب على افريقيا. ثم فتح المهدي سجلماسة[2] وتاهرت[3] وبفتح الأولى أي سجلماسة انقرض ملك بني مدرار بعد أن استمر مائة وثلاثين[4] سنة كما انتهى ملك بني رستم بفتح تاهرت بعد أن دام مائة وستين سنة. وبنى مدينة جديدة على البحر وسماها المهدية[5] ونقل مركز حكومته بعد أن حصنها ولما استتب له الحال في أفريقيا حول عبدالله أنظاره إلى مصر وأرسل إليها جملة حملات في أيام المقتدر عادت بالفشل والخيبة. وفي سنة ٣١٧ تعدى القرامطة على الحجاج بالإيذاء الشديد ونقلوا الحجر الأسود من مكانه وقتلوا الحجاج في البيت الحرام. وفي سنة ٣٢٠ حصلت وحشة بين الخليفة ومؤنس الخادم فسار مؤنس الى الموصل فصادره الخليفة في جميع أملاكه ثم جمع مؤنس جيشاً جراراً وقصد بغداد وحارب جند الخليفة وانتصر عليه وقتل الخليفة في المعركة في ٢٨ شوال سنة ٣٢٠ وبويع بعده أخاه محمد القاهر بالله ابن المعتضد الذي بويع وخلع أول مرة في سنة ٣١٧ وهو العشرون من بني العباس.

---

(١) تقع في سنتي ٨٠٠ و٨٠١.

(٢) سجلماسه: بكسر أولها وثانيها وسكون اللام وهي في جنوب المغرب.

(٣) تاهرت تقع اليوم في شمال الجزائر.

(٤) راجع تاريخ بني مدرار في كتابي تاريخ المغرب العربي.

(٥) قال ياقوت: المهدية بالفتح ثم السكون. وهي في موضعين احداهما بالمغرب بالقرب من سلا (الرباط) والثانية وهي المقصودة هنا وتقع في شرق البلاد التونسية على البحر الأبيض المتوسط وهي شبه جزيرة. بناها عبيد الله المهدي ملك الفاطميين أو العبيديين في افريقيا ويقول ياقوت: واختلف في نسبه (أي عبيد الله المهدي) فأكثر أهل السير الذين لم يدخلوا في رعيتهم وبعض رعيتهم يزعمون انه كان ابن يهودي من أهل سلمية الشام وتزوج القداح، الذي كان أصل هذه الدعوة، بامه افرباه الى أن حضرته الوفاة، ولم يكن له ولد فعهد اليه وعلمه الدعوة وكان اسمه سعيداً. فلما صار الأمر اليه سمي عبيدالله. وقد قال قليلون انه ولد القداح نفسه. وقال من صحح نسبه انه أحمد بن اسماعيل الثاني بن محمد بن اسماعيل الأكبر بن جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

دولة بني بويه

وفي أيام القاهر كان ابتداء دولة بني بويه ببلاد فارس واستيلاء عماد الدولة ابن بويه على شيراز .ولم تطل مدة القاهر بل تألب عليه الجند بمسعى الوزير ابن مقلة بسبب قتله مؤنس الخادم وبعض القواد الأتراك، فقتلوا الخليفة في ٥ جمادى الأولى سنة ٣٢٢[1] وأخرجوا أبا العباس أحمد بن المقتدر وبايعوه بالخلافة في ٦ منه ولقبوه الراضي بالله . وهو الخليفة الحادي والعشرون .

الاخشيديون بمصر

وفي خلافته ولي الاخشيد مصر سنة ٣٣٣[2] فاستقل بها واستطال إلى بعض جهات الشام.وكذلك منع ابن رابق عامل واسط والبصرة إرسال الخراج، ومنع البريدي إرساله من الأهواز فضاق الحال ببغداد.ثم عاد ابن رابق إلى طاعة الخليفة فعينه أمير الامراء وهو حارب البريدي وهزمه.وبعد ذلك بقليل ثار بجكم القائد وقصد بغداد وهزم ابن رابق الذي خرج لمحاربته.واستولى بجكم على بغداد فعينه الخليفة أميرالأمراء وصار هو الحاكم فعلاً. ولما هرب ابن رابق قصد الشام واستولى على دمشق وحمص وقصد مصر فحاربه الإخشيد وصده عنها .

ثم توفي الراضي بالله في منتصف ربيع الأول سنة٣٢٩[3] ولم يبايع المتقي بالله ابراهيم بن المقتدر إلا في ٢٠ منه بعد أن أبلغ بجكم الذي كان بواسط موت الخليفة واستصوابه مبايعة المتقي، فكان الحاكم الحقيقي هو أمير الأمراء يعزل ويولي من يريد من الخلفاء.واقتصرت الخلافة مع كونها اسمية فقط على بغداد وبعض البلاد المجاورة لها.وفي أوائل حكمه قتل بجكم أثناء الصيد فقصد ابن البريدي بغداد واستولى عليها وقلده الخليفة إمارة الأمراء فهاجت عليه الأهالي لظلمه وأخرجوه من المدينة.فعين الخليفة كورتكين أحد القواد. ولما بلغ خبر موت

---

(١) يوافق يوم الأربعاء في (٢٣ نيسان ـ إبريل ٩٣٤ م) .

(٢) تقع في سنتي ٩٤٤ و٩٤٥م .

(٣) ١٥ ربيع الأول سنة ٣٢٩ يوافق يوم الجمعة في (١٨ أيلول ـ ديسمبر ٩٤٠م).

بجكم إلى ابن رابق بالشام قصد بغداد وحارب كورتكين فهرب وقلد هو إمارة الأمراء. وفي سنة ٣٣٠ قصد ابن البريدي بغداد ثانياً فهرب الخليفة وابن رابق إلى الموصل فاستقبلهم صاحبها ناصر الدولة بن حمدان وأكرمهما ثم قتل ابن رابق فعينه الخليفة أميراً للامراء وعاد معه إلى بغداد فهرب ابن البريدي. وفي سنة ٣٣٢ ثار قائد تركي اسمه تورون فقلده الخليفة الإمارة في رمضان وبعد مدة ضجر من معاملته وخرج من بغداد قاصداً الموصل ليحتمي ببني حمدان فكاتبه تورون وأغلظ له الأيمان وجدد العهود والمواثيق فعاد الخليفة، وفي أثناء عودته قبض عليه تورون الخائن وسمل عينيه وحبسه، ولما دخل بغداد بايع المستكفي بالله أبا القاسم عبد الله بن المكتفي في صفر سنة ٣٣٣[1] وهو الثالث والعشرون من خلفاء بني العباس.

وفي خلافته استولى سيف الدولة بن حمدان صاحب الموصل على مدينتي حلب وحمص وقصد دمشق، فرده عنها الإخشيد صاحب مصر. وفي محرم سنة ٣٣٤ توفي تورون أمير الأمراء فانتخب الجند أحد القواد المدعو ابن شيرزاد[2] فأقره الخليفة مكانه. ولما بلغ خبر موته معز الدولة بن بويه بالأهواز قصد بغداد للاستيلاء على إمارة الأمراء فهرب ابن شيرزاد ولم تبلغ مدته إلا ثلاثة أشهر وأياماً. ثم دخل معز الدولة بن بويه إلى بغداد في جمادى الأولى سنة ٣٣٤ وقلده الخليفة الإمارة وأمر أن يضرب اسمه على العملة وبعد ذلك بشهر عزل الخليفة بدسيسة ابن بويه في ٢٢ جمادي الآخرة سنة ٣٣٤[3] ثم سملت عيناه وبقي مسجوناً إلى أن مات سنة ٣٣٨، وبويع بعده المطيع لله ابن المقتدر. وفي مدته توفي الإخشيد سنة ٣٣٤ وولي الأمر بعده ابنه الأمير محمود. ولصغر سنه استولى على الأمر كافور السوداني أحد خدم الإخشيد ثم توفي سنة ٣٤٩[4] فأقام كافور أخاه علياً بن الاخشيد

---

(١) يبدأ هذا الشهر يوم الاثنين في (٢٣ سبتمبر ٩٤٤م).

(٢) شيرزاد: فارسية معناها ابن الامد.

(٣) يوم الخميس في (٢٩ يناير ٩٤٦م).

(٤) تقع في سنتي ٩٦٠ و٩٦١م.

فتوفي سنة ٣٥٥[١] واستقل كافور بمصر وملحقاتها من بلاد الشام إلى أن توفي في السنة التالية. وبعد وفاته اختلف فيمن يعين وبقي الخلاف مدة ثم اتفق على تنصيب أبو الفوارس أحمد بن علي بن الأخشيد وخطب له في جمادى الأولى سنة٣٥٧. وفي خلافة المطيع توفي عبد الرحمن الناصر الأموي بالأندلس في رمضان سنة ٣٥٠ وعمره ثلاث وسبعون سنة بعد أن حكم خمسين سنة ونصفاً وهو أول من تلقب بالأندلس بأمير المؤمنين وكانوا قبلاً يلقبون بالأمراء وأبناء الخلفاء واستمر الحال كذلك إلى سنة٣٢٧. وضعف العباسيون ببغداد وظهر الفاطميون في تونس وادعوا الخلافة ولقبوا بامراء المؤمنين فأمر عبد الرحمن الأموي بأن يلقب بالناصر لدين الله ويخطب له بأمير المؤمنين. وفي سنة ٣٥٦ توفي معز الدولة بن بويه وكانت إمارته اثنتين وعشرين سنة. وقبل وفاته عهد بالإمارة إلى ابنه بختيار ولقبه عز الدولة فأقره الخليفة أميراً للامراء. وفي إمارة معز الدولة حصلت عدة حروب بينه وبين ابن المقداد وغيره من الأمراء خصوصاً سيف الدولة بن حمدان صاحب الموصل مما يطول شرحه ويدل على امتداد الفوضى إلى جميع أجزاء الخلافة حتى اجترأت الروم وتعدت الحدود مراراً وسبت ونهبت وقتلت في بلاد الإسلام.

الفاطميون بمصر

وفي سنة ٣٥٨[٢] أرسل المعز لدين الله الفاطمي جوهر القائد الصقلي الأصل بجيش كثيف لفتح مصر لما بلغه خبر الاختلاف الذي وقع بها عقب موت كافور الإخشيدي فوصل إليها جوهر وفتحها وخطب فيها للمعز في شوال من هذه السنة ثم سافر جوهر إلى بلاد الشام ففتح البلاد التي كانت تابعة للإخشيديين وقطعت الخطبة للعباسيين، ثم عاد إلى مصر وشرع في بناء مدينة القاهرة. وفي شوال سنة ٣٦١ سار المعز من تونس إلى مصر فوصل الاسكندرية في شعبان سنة ٣٦٢ ودخل

---

(١) تقع في سنتي ٩٦٥ و٩٦٦م.

(٢) تقع في سنتي ٩٦٨ و٩٦٩م.

القاهرة في ١٥ رمضان سنة ٣٦٢[1] وجعلها مقر خلافته واستعمل بعض عماله على افريقيا وصقلية .

وفي سنة ٣٦٣ سافر بختيار عز الدولة بن بويه إلى الأهواز فثار عليه أحد قواد الأتراك واسمه سبكتگين ونهب داره وأجبر المطيع لله على أن يخلع نفسه فاستقال في منتصف ذي القعدة سنة ٣٦٣[2] ومدة خلافته تسع وعشرون سنة ونصف .وبويع بعده لابنه عبد الكريم أبو بكر ولقب الطائع لله وهو الخامس والعشرون من بني العباس . وفي خلافته حصلت عدة حروب داخلية لا أهمية لذكرها لأن الفتن والحروب وتغلب الولاة بعضهم على بعض واستقلالهم بولاياتهم صار أمراً عادياً حتى يمكننا القول بأن جميع الولايات صارت مستقلة تتوارثها بعض العائلات وتنتقل من عائلة إلى أخرى بدون علم الخليفة .وفي خلافته ملك سبكتگين أحد قواد السامانيين مدينة غزنة ثم سار إلى بلاد الهند واستولى على بعض بلادها . وسبكتگين هذا هو غير سبكتگين التركي الذي كان ببغداد ومر ذكره .

هذا ولما ثار سبكتگين على بختيار واستولى على الإمارة كاتب بختيار الأمير عضد الدولة ابن عمه ركن الدولة المستقل ببلاد فارس يستنجد به ضد الأتراك وقائدهم سبكتگين فأتى عضد الدولة ومعه جيش جرار وحارب الأتراك ففر سبكتگين ودخل عضد الدولة بغداد وعزل عز الدولة بختيار وقبض عليه وصار هو أمير الأمراء .ولما بلغ خبر القبض على بختيار إلى ولده المرزبان[3] بالبصرة كتب إلى ركن الدولة فغضب هذا على ولده عضد الدولة وألزمه بأن يعيد الملك إلى بختيار فأذعن إلى أمر أبيه وأخرجه من سجنه وأعاده إلى ما كان عليه وقفل هو راجعاً إلى بلاد فارس .وفي سنة ٣٦٦ توفي ركن الدولة بن بويه واستخلف على ممالكه ولده

---

(١) يوم الخميس في ١٩ حزيران ــ يونيو ٩٧٣ م.

(٢) ١٥ ذي العقدة سنة ٣٦٣ يوم الجمعة في (٧ آب ــ أوغست سنة ٩٧٤ م) .

(٣) هي تحريف كلمة ميرزا الفارسية ،وميرزا هي اختصار مير زاده أي ابن الأمير وكانت تطلق على الحكام . ومن تلقب بهذا اللقب في الهند وباكستان يدل على أن أصله ايراني . أو من البلاد الاسلامية في الاتحاد السوفييتي مثل بخارى وجنوة وطاشقند الخ .

عضد الدولة وعهد لولده فخر الدولة على همدان[1] وأعمالها ولولده مؤيد الدولة على أصفهان[2] وأعمالها وجعلهما تحت حكم أخيهما عضد الدولة. وفي السنة التالية سار عضد الدولة إلى بغداد ثانياً للانتقام من بختيار عز الدولة الذي استعان عليه بأبيه فحاربه مدة ثم أسره وقتله وصار هو الحاكم ببغداد وخلع عليه الخليفة. وفي سنة **٣٦٩** قصد عضد الدولة بلاد أخيه فخر الدولة فملكها وهرب أخاه والتجأ إلى شمس المعالي صاحب جرجان وطبرستان فتبعه عضد الدولة وملك بلاده ثم غزا بلاد الأكراد وصارت دولته في اتساع ونمو إلى أن توفي في ٨ شوال سنة **٣٧٢**[3]. وبعد وفاته ولي بغداد ولده كاليجار المرزبان ولقبوه صمصام الدولة وكان له ولد آخر اسمه شرف الدولة كان بكرمان فلما بلغه خبر موت أبيه سار إلى فارس وملكها قبل أخيه صمصام الدولة واستقل بها. ثم في سنة **٣٧٦** قصد شرف الدولة بغداد وحارب أخاه وأسره وأرسله مسجوناً إلى بلاد فارس واستبد هو بالأمر إلى أن مات في أول جمادى الآخرة سنة **٣٧٩**[4] فقلد الإمارة بعده أخ له اسمه أبو النصر بهاء الدولة. وكثرت في هذه السنة الفتن بين الأتراك ورجال بني بويه.

وفي سنة **٣٨١** حصلت وحشة بين الأمير والخليفة فقبض الأمير على الطائع لله

---

(١) ذكرها ياقوت بالذال المعجمة بينما يلفظها أهل البلاد بالدال المهملة وقد رأيت العرب يجعلون كل دال فارسية ذالاً معجمة مثل سنجاباذ وحسناباذ وملقاباذ وغيرها كثير والصحيح هو أن تلفظ بالدال لأن كلمة آباد التي تضم الى الأسماء تعني بلدة مثل اسلام آباد وأحمد آباد وحيدر آباد وغيرها .

وهمذان في غرب ايران وعلى الطريق بين طهران وبغداد .

(٢) قال ياقوت : منهم من يفتح همزة اصبهان ومنهم من يكسرها . وأقول : ان أهل البلاد يقولون : إصفهان بكسر الهمزة والفاء بدل الباء . وهي مدينة تاريخية تقع في وسط ايران .

(٣) يوم الاثنين في (٢٦ مارس سنة ٩٨٣ م) .

(٤) أول يوم من جمادي الآخرة يوم الجمعة في (٦ سبتمبر ٩٩٠ م).

وعزله وولى مكانه القادر بالله أبي العباس أحمد بن الأمير إسحق بن المقتدر بالله وهو السادس والعشرين من خلفاء بني العباس. واستمر في الخلافة لسنة ٤٢٢[١] وفي هذه المدة الطويلة انقرضت دولة آل سامان أصحاب ما وراء النهر وملك بلادهم يمين الدولة محمود الغزنوي بن سبكتكين وذلك في سنة ٣٨٩. وكان ابتداء ملكهم سنة ٢٦١، فتكون مدة دولتهم مائة وثماني وعشرين سنة. وكذلك انقرضت دولة بني أمية بالأندلس. انتهى ملكهم أولاً سنة ٤٠٧ بعزل سليمان المستظهر بالله بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر ثم أعيدت لهم الخلافة سنة ٤١٤ وانتخب أهل قرطبة عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر في رمضان وقتلوه في ذي القعدة وبايعوا محمد المستكفي ثم عزلوه وبايعوا هشام بن محمد ابن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ثم عزلوه في سنة ٤٢٢ وبه انتهت دولتهم نهائياً وكان ابتداؤها سنة ١٣٩ فتكون مدتهم بالأندلس مائتين وثلاثاً وثمانين سنة.

ثم امتدت أملاك محمود الغزنوي[٢] وفتح وغزا كثيراً من بلاد الهند وتوفي في ربيع الآخر سنة ٤٢١. وملك بعده ابنه مسعود وكانت السلطة في أثناء خلافة القادر في قبضة بهاء الدولة ابن عضد الدولة ابن بويه إلى أن مات في جمادى الآخرة سنة ٤٠٣[٣] وعمره ست وستون سنة ومدة ملكه أربع وعشرون سنة. وولي الأمر بعده ابنه سلطان الدولة. وفي أواخر سنة ٤١١[٤] ثار الجند على سلطان الدولة فترك بغداد واستخلف أخاه شرف الدولة، فاتحد أخاه مع الجند وحارب سلطان الدولة وانتصر عليه وصار صاحب الأمر في العراق وخطب له بعد أخيه في أوائل محرم سنة ٤١٢[٥] واستمر في الإمارة إلى أن توفي في ربيع الأول سنة ٤١٦[٦]

(١) تقع بين سنتي ١٠٣٠ و١٠٣١م.

(٢) للاطلاع على تاريخ محمود الغزنوي وتاريخ الدولة الغزنوية راجع كتابي: (تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية وكتابي: (باكستان ماضيها وحاضرها).

(٣) (١٠١١ و١٠١٢ م). (٤) (١٠٢١ م).

(٥) أول يوم من محرم سنة ٤١٢ هو يوم الاثنين في ١٧ ابريل ١٠٢٢ م.

(٦) شهر أيار ــ مايو سنة ١٠٢٥ م.

وبموته ضعف أمر آل بويه ببغداد وعظم أمر الأتراك وحصلت فتن كثيرة وعمت الفوضى جميع أنحائها واستمر الحال كذلك إلى أن حضر جلال الدولة بن بهاء الدولة إلى البصرة في رمضان سنة ٤١٨[١] فخرج الخليفة لملاقاته وسلمه قيادة الأمور.

السلجوقيون

وفي ذي الحجة سنة ٤٢٢ توفي القادر بالله وعمره يقرب من سبع وثمانين سنة وخلافته إحدى وأربعين سنة وشهر. وبويع بعده ابنه أبو جعفر عبد الله بعهد منه ولقب القائم بأمر الله، وفي خلافته ابتدأت دولة آل سلجوق وجد هذه العائلة يسمى دقاق من رؤساء قبائل الترك التي كانت تأتي من بلاد كشغر[٢] الواقعة في غرب بلاد الصين تباعاً، وولد له سلجوق، ولنجابته قدمه ملك الترك إذ ذاك واسمه يبغو ثم تركه سلجوق وقصد بلاد الإسلام وأسلم هو وجميع من تبعه من رجال قبيلته ونزل بجنده بقرب بخارى وأخذ في غزو الكفار من الترك فعظم أمره وكثرت جنوده وخلف من الأولاد أرسلان وميكائيل وموسى، قتل منهم ميكائيل في الحرب وخلف يبغو وطغرل بك وجغرو بك ثم حصلت فتن بينهم وبين بغراخان ملك تركستان في ذاك العهد أدت إلى سفك الدماء. ولما عظم أمر السلجوقيين خشى محمود الغزنوي من تعديهم على أملاكه فحاربهم وفرق قبائلهم بين خراسان وأصفهان ثم اجتمعوا ثانياً وحاربوه وانتصروا عليه وعلى ولده مسعود من بعده واستولوا على خراسان وخطب لهم على منابرها في سنة ٤٣١. وفي سنة ٤٣٢ انتهز طغرل بك السلجوقي فرص الحروب الداخلية التي وقعت بين مسعود الغزنوي وأخيه محمد وابنه مودود فاستولى طغرل بك المذكور على جرجان وطبرستان. وفي السنة التالية أي سنة ٤٣٤ ملك خوارزم[٣] وما حولها وفي أثناء ظهور ونمو دولة

---

(١) شهر رمضان يبدأ يوم الخميس في (٥ تشرين الأول ـ أكتوبر ١٠٢٧ م).

(٢) كاشغر شين ساكنة وغين مفتوحة. وهي مدينة اسلامية قديمة وتقع في غرب بلاد الصين بالقرب من الحدود السوفييتية على شاطئ نهر قيزل صو أي الماء الأحمر، وتسمى بالصيني سوفو Sufu .

(٣) خوارزم: قال ياقوت: أولها بين الضمة والفتحة والألف مشرقة مختلسة ليست بألف =



الدولة الغزنوية والدولة السلجوقية الإيرانية اللتان ظهرتا في القرن الخامس الهجري

آل سلجوق بهذه الجهات كانت الفوضى عامة في بغداد لقيام الفتن بين جنود آل بويه من الديلم والجيوش التركية حتى لما توفي جلال الدولة بن بويه في شعبان سنة ٤٣٥ لم يتفق الجند على تعيين خلف له وبقيت دار السلام بلا حكومة (إن صح تسميتها بهذا الإسم) إلى أن قبل أبو كاليجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة الإمارة وأتى إلى بغداد في صفر سنة٤٣٦ [١] .ولم تطل مدة أبي كاليجار بل توفي في جمادى الأولى سنة ٤٤٠[٢] بكرمان وتولى بعده ولده الملك الرحيم.وفي مدته وقعت عدة فتن في بغداد بين السنة والشيعة أدت إلى حرق قبور بعض الخلفاء وأمراء بني بويه وقتل فيها خلق كثير لعدم إمكان الحكومة قمع الفتن.وفي هذه الأثناء عظم أمر طغرل بك السلجوقي فاستولى على أصفهان في محرم سنة ٤٤٣[٣] ودخل تبريز [٤] سنة ٤٤٦ ثم قصد حلوان[٥] ونزل بها سنة ٤٤٧ فراسله قواد الأتراك واستدعوه إلى بغداد باذلين له الطاعة فقبل، وقبل الخليفة ، وخُطب لطغرل بك في ٢٢ رمضان[٦] من هذه السنة ثم دخل بغداد بمن أتى معه من جيوشه بعد أن أقسم للخليفة القائم وللملك الرحيم باحترام حقوقهم لكن لم تلبث جيوشه بالمدينة

= صحيحة والراء مكسورة . وقال انها مركبة من كلمتين وهما خوار ومعناها اللحم ورزم ومعناها الحطب . وأقول أن هذا غير صحيح لأن خوار إذا كانت مفردة فانها تعني : الحقير الذليل ، وإذا كانت مركبة فمعناها آكل مثل : (نان خوار) أي آكل الخبز ورزم معناها القتال والحرب . فإذا كانت هذه الكلمة مركبة فيكون معناها آكل الحرب أي المستميت في الحرب .

(١) ١ صفر ٤٣٦ يوم الثلاثاء في (٢٨ آب ــ أوغست ١٠٤٤ م) .

(٢) ١ جمادي الأولى ٤٤٠ يوم الأربعاء في (١٢ تشرين الأول ــ أكتوبر ١٠٤٨م) .

(٣) ١ محرم ٤٤٣ يوم الأربعاء في (١٥ أيار ــ مايو ١٠٥١ م) .

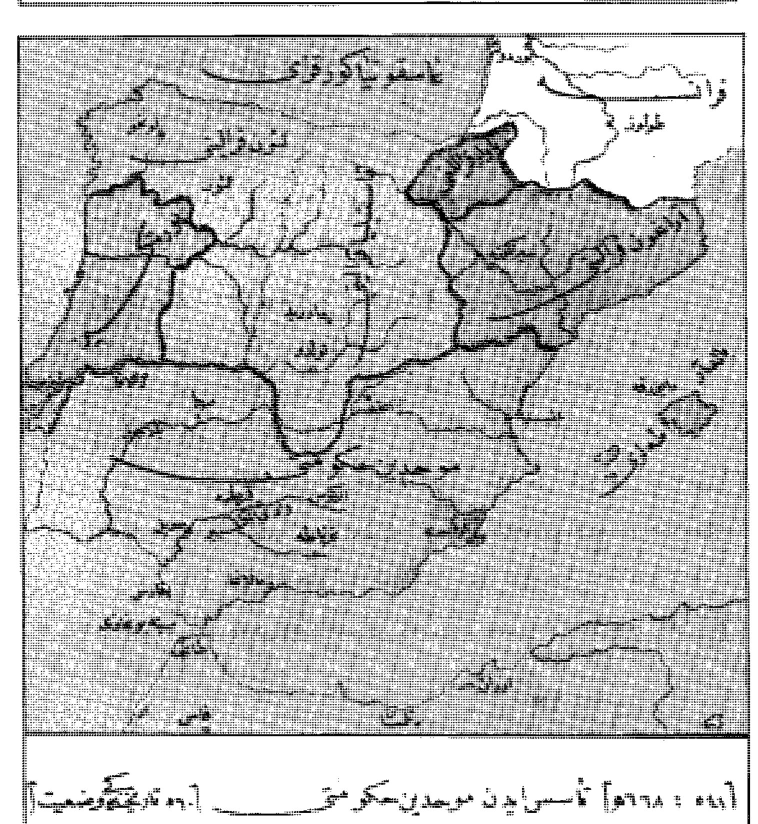
(٤) قال ياقوت : تبريز بكسر أوله وسكون ثانيه وكسر الراء . وتقع في الشمال الغربي من ايران بالقرب من الحدود التركية . وسنة ٤٤٦ تقع في سنتي ١٠٥٤ و ١٠٥٥ م .

(٥) حلوان : بالضم ثم السكون . وهناك عدة مواضع تعرف بهذا الاسم منها حلوان العراق وحلوان مصر وحلوان كوهستان نيسابور وهي المقصود هنا .

(٦) يوم الجمعة في (١٥ كانون الأول ــ ديسمبر ١٠٥٥ ــ و ١٠٥٦ م) .



دولة المرابطين
في المغرب (٤٧٩ الى
٥٤٠ هـ) وانحطاطها :
وظهور دولة البرتغال



دولة الموحدين التي عاشت
من سنة ٥٤١ الى ٦٦٨
(حالتها سنة ٥٦٠ هـ) .

حتى حصلت فتنة بينهم وبين جنود الملك الرحيم كانت نتيجتها القبض على الملك الرحيم وقواد جيوشه. وبذلك انقضت دولة آل بويه بعد أن استمرت مدة ملكهم مائة وثلاث عشرة سنة من تاريخ دخول معز بن بويه بغداد في جمادى الأولى سنة ٣٣٤ (١) ، وابتدأت دولة آل سلجوق ببغداد. ولتوطيد أقدامهم بها زوج طغرل بك ابنة أخيه إلى الخليفة سنة ٤٤٨(٢) وتزوج هو بنت الخليفة في شعبان سنة ٤٥٤(٣) .

هذا وفي سنة ٤٥٠ (٤) ثار ابراهيم أخو طغرل بك على أخيه فحاربه وقتله. وفي أثناء اشتغاله بمحاربة أخيه ثار بعض الجنود ببغداد تحت قيادة من يدعى البساسيري فخرج الخليفة منها وخطب في الجوامع للمستنصر بالله الخليفة الفاطمي. لكن لم تدم هذه الحالة بل عاد طغرل بك إلى بغداد وأعاد الخليفة إليها وحارب البساسيري حتى قبض عليه وقتله في ٨ ذي الحجة سنة ٤٥١ (٥). وفي رجب من هذه السنة توفي داود بن ميكائيل بن سلجوق أخو طغرل بك صاحب خراسان وتولى مكانه ابنه ألب أرسلان ثم توفي طغرل بك في ليلة الجمعة ٨ رمضان سنة ٤٥٥ (٦) عن غير عقب وخلفه الب أرسلان السالف الذكر فصار حاكماً على خراسان والعراق والموصل وأصفهان وتبريز وغيرها من البلاد التي فتحها طغرل بك قبل وفاته. ثم أضاف الب ارسلان إلى أملاكه بلاداً كثيرة، وأطاعه صاحب جند(٧) وبخارى(٨) وكذلك أصحاب ديار بكر * وحلب * وفتح مدينة

(١) أول يوم من هذا الشهر هو يوم الجمعة في (١٧ كانون الأول ـ ديسمبر ١٠٤٣ م) .
(٢) هذه السنة تقع في سنتي ١٠٥٦ و١٠٥٧ م وتبدأ يوم الخميس في ٢١ أذار ـ مارس .
(٣) هذه السنة تقع في سنتي ١٠٦٢ و١٠٦٣ م وتبدأ يوم الثلاثاء في (١٥ كانون الثاني ـ يناير ١٠٦٢ م) .
(٤) هذه السنة تقع في سنتي ١٠٥٨ و١٠٥٩ م وتبدأ يوم السبت في (٢٨ فبراير ـ شباط ١٠٥٨ م) .
(٥) يوم السبت في (١٥ كانون الثاني ـ يناير ١٠٥٩ و١٠٦٠ م) .
(٦) يوم الجمعة يكون في ٩ رمضان (٥ أيلول ـ سبتمبر ١٠٦٣ م) .
(٧) جند بالفتح ثم السكون والدال المهملة يقول ياقوت : بلدة عظيمة في بلاد تركستان بينها وبين خوارزم عشرة أيام . وهي الآن في الاتحاد السوفييتي .
(٨) بخارى . قال ياقوت : هي بضم الباء . وهي من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلها =

الرملة[1] وبيت المقدس وحاصر دمشق ولم يفتحها وحارب قطلومش بن ارسلان ابن سلجوق لعصيانه عليه، وقتل في الحرب ، فخلفه ولده سليمان الذي أسس دولة سلجوقية بقونية استمرت إلى أن فتحها العثمانيون.واستمر ألب أرسلان مالكاً لجميع هذه الجهات المتسعة إلى أن قتل في ١١ ربيع الآخر سنة ٤٥٦ [٢] وولى بعده ابنه ملكشاه ،وفي ١٣ شعبان سنة ٤٦٧ [٣] توفي الخليفة القائم بالله وكانت مدة خلافته خمساً وأربعين سنة تقريباً.وبويع عبد الله ابن ولده محمد ذخيرة الدين لوفاة ذخيرة الدين قبل أبيه القائم ولقب عبد الله المقتدي بأمر الله وهو الثامن والعشرين من خلفاء بني العباس.وساس ملكشاه الأمور بغاية الحكمة وفتح البلاد شرقاً وغرباً وأقام ببغداد مرصداً فلكياً وجامعاً عظيماً سمي جامع السلطان.وعظم في أيامه أمر الاسلام في الشرق حتى خطب باسمه من بلاد الصين إلى الشام ومن أقاصي بلاد الإسلام في الشمال إلى بلاد اليمن في الجنوب،وتوفي في نصف شوال سنة ٤٨٥[٤].وبينما كانت هذه الدولة الإسلامية ترتقي في درجات الكمال كانت الدول الإسلامية في الغرب آخذة في الانحطاط فتفرقت بلاد الأندلس طوائف، وملك الإفرنج مدينة طليطلة[٥] ، وعبر يوسف بن تاشفين من مراكش إلى الأندلس

= وكانت قاعدة ملك السامانية . وهي في وسط الاتحاد السوفييتي .

* ديار بكر : وهي ولاية كبيرة من الولايات التركية وتقع في الجنوب الشرقي من تركيا في شمال سوريا .

* حلب ثاني مدينة في سوريا ويسمونها عاصمة الشمال .

(١) الرملة : قال ياقوت : مدينة عظيمة في فلسطين . وتقع على بعد نحو عشرين كيلومتراً الى الجنوب الشرقي من مدينة يافا .

(٢) هو يوم الأربعاء الموافق (٣ آذار ــ مارس ١٠٦٤ م) .

(٣) هو يوم الجمعة الموافق (٣ نيسان ــ ابريل ١٠٧٥ م) .

(٤) ١٥ شوال ٤٨٥ هو يوم الخميس الموافق (١٨ تشرين الثاني ــ نوفمبر ١٠٩٢ م) .

(٥) طليطلة : بضم الطائين وفتح اللامين . ويقول ياقوت : وأكثر ما سمعناه من المغاربة هو ضم الطاء الأولى وفتح الثانية . ويسميها الاسبان توليدو Toledo وتقع الى الجنوب من مدينة مدريد على نهر تاجو وكانت عاصمة ملوك قرطبة .

وضم إلى رايته بعض ولاياته، وضعف حال المسلمين بجزيرة صقلية[1] وتفرق أهلها واستحكم الشقاق بينهم حتى استعانوا على بعضهم بملوك الإفرنج. ولما توفي ملكشاه أخفت زوجته خبر موته إلى أن استحلفت القواد لابنها محمود وعمره أربع سنين وشهور. فأنكر عليها ذلك ابنه الأكبر بركيارق وحارب جنودها فهزمهم واستقر له الأمر وخطب له في بغداد يوم الجمعة ١٤ محرم سنة٤٨٧ [2]. وفي يوم السبت ١٥ منه توفي الخليفة المقتدي بأمر الله وعمره ثمان وثلاثون سنة ومدته نحو عشرين سنـة، وبويع بعده ابنه أبو العباس أحمد المستظهر بالله، وسنه ست عشرة سنة.

هذا وبعد موت ملكشاه تفرق ملكه ولم يضم شتاته أحد من خلفائه بل ثارت بينهم الحروب الداخلية التي أدت إلى تجزئتها واستحواز كل فرد على جزء منها واستمرار الحروب بين الأمراء السلجوقيين الذين استقلوا ببلاد الشام والموصل[3] والكرد[4] وفارس وغيرها؛ فثار تتش أخو ملكشاه على السلطان بركيارق فقتل

---

(١) صقلية: قال ياقوت: بثلاث كسرات وتشديد اللام والياء. وكانت صقلية بلاداً اسلامية منذ فتحها أسد بن الفرات سنة ٢١٢هـ (٨٢٧ - ٨٢٨م) زمن المأمون يوم كانت البلاد التونسية تحت سيطرة بني الأغلب، وظلت اسلامية الى نهاية القرن الحادي عشر ميلادي. وكان فيها مئات المساجد، وكانت اللغة العربية هي اللغة الرسمية فيها. وصقلية جزيرة تقع في رأس الجزمة الايطالية، وقد تعاقبت عليها ادوار سياسية كثيرة وهي اليوم جزء من ايطاليا.

(٢) يوم الجمعة في (٣ شباط - فبراير ١٠٩٤ م).

(٣) الموصل: بفتح الميم وكسر الصاد. تقع في شمال العراق على الجانب الغربي من نهر دجلة ويقابلها مدينة نينوا. وقال ياقوت: وكثيراً ما وجدت العلماء يذكرون في كتبهم أن الغريب اذا أقام في بلد الموصل سنة تبين في بدنه فضل قوة، وان أقام في بغداد سنة تبين في عقله زيادة، وان أقام في الأهواز سنة تبين في بدنه وعقله نقص، وان اقام بالتبت سنة دام سروره واتصل فرحه. وأقول: وهذا من السخافات.

(٤) بلاد الكرد تشمل الجزء الشرقي الجنوبي من تركيا والجزء الشمالي من العراق والجزء الشمالي الغربي من ايران.

في الحرب في صفر سنة ٤٨٨[١] وبعد وفاته وقع الخلف بين ولديه رضوان ودقاق ببلاد الشام، واستقل أخيراً كل منهما ببعض المدن. وفي محرم سنة ٤٩٠[٢] قتل أرسلان أرغول أخو ملكشاه الذي كان استقل بخراسان بعد موت أخيه، قتله بعض غلمانه، فاستولى بركيارق على بلاده وأقطعها لأخيه سنجر .

الحروب الصليبية

وبسبب هذه الحروب المتواصلة وانقسام الحكومات الإسلامية على بعضها، طمع فيهم الإفرنج وعقدوا النية على محاربتهم محاربة دينية لاستخلاص مدينة القدس منهم، فأتوا براً إلى القسطنطينية[٣] قاعدة مملكة الروم الشرقية واستولوا عليها، ثم عدوا البحر وأتوا إلى بلاد الشام وانتصروا في طريقهم على الأمير السلجوقي الذي كان مستقلاً بقونية[٤] وما جاورها وفتحوا مدينة انطاكية * في جمادى

(١) ١ صفر هو يوم السبت (١٠ شباط ـ فبراير ١٠٩٥ م) .

(٢) ١ محرم هو يوم الجمعة (١٩ كانون الأول ـ دسمبر ١٠٩٦ م) .

(٣) بنى القسطنطينية الملك قسطنطين الأكبر سنة ٣٢٤ م ودشنت سنة ٣٣٠ م وسميت باسمه وكانت من قبل تسمى بيزنطة ومنذ بداية القرن الخامس الميلادي أصبحت مركزاً سياسياً ودينياً وقد حاولت بعض الأقوام الغربية ومنها روسيا الاستيلاء عليها فقاومتهم وسعى العرب منذ زمن معاوية للاستيلاء عليها فلم يقدروا وكانوا يصالحون أميرها ويعودون قانعين بالغنيمة حتى فتحها السلطان العثماني محمد الثاني المعروف بالفاتح في ٢٩ مايو ١٤٥٣م وأصبحت بعد ذلك عاصمة الدولة العثمانية الى سنة ١٩٢٤م يوم نقل الأتراك عاصمتهم الى أنقره وسموا القسطنطينية باسمها التركي وهو استانبول . وتقع استانبول على ضفتي البوسفور الآسيوي والأوربي . ومنذ عام ١٩٧٤م أصبح يصل الضفتين والقارتين جسر عظيم تمر فوقه يومياً عشرات آلاف السيارات وتمر من تحته كل البواخر .

(٤) قونية : بالضم ثم السكون ونون مكسورة . وهي مدينة تركية تقع في وسط تركيا الى الجنوب من انقره والى الشمال من البحر الأبيض المتوسط ويقول ياقوت وفيها قبر أفلاطون الحكيم بالكنيسة التي في جنب الجامع ؟

وأقول : فيها قبر الصوفي والشاعر المشهور جلال الدين الرومي مؤسس الطريقة المولوية =

الأولى سنة ٤٩١[١] ثم دخلوا المعرة[٢] وحمص واستولوا أخيراً على مدينة القدس في ليلة الجمعة ٢٣ شعبان سنة ٤٩٢ (١٥ يوليه سنة ١٠٩٩) وولوا جودفروا[٣] الفرنساوي ملكاً عليها . وفي أثناء ذلك كان ملوك آل سلجوق لاهين عن مقاومة الإفرنج بالحروب الداخلية العائلية، إذ ثار على باركيارق أخ له اسمه محمد وحاربه وهزمه ، فهرب باركياق إلى خراسان فحاربه أخوه سنجر وهزمه أيضاً فارتحل عنها قاصداً جرجان، وكان ذلك في خلال سنتي ٤٩٢ و٤٩٣. ثم في السنة التالية انتصر بركيارق على أخيه محمد في ٣ جمادى الآخرة[٤] فالتجأ محمد إلى أخيه سنجر وحاربا أخاهما بركيارق فهزماه وتبعاه إلى بغداد فدخلاها ، وارتحل هو عنها قاصداً الموصل، والخليفة المستظهر لا هم له إلا الخطبة لمن ينتصر منهم وقطعها عمن يغلب كأن لا ناقة له فيها ولا جمل مع أنه لو اجتهد في التأليف بين هؤلاء الإخوة الثلاثة والاتحاد معهم على محاربة الإفرنج المهاجمين لبلادهم لما تمكنوا

= التي أبطلت اليوم وأهلها متمسكون بدينهم .

* انطاكية : بالفتح ثم السكون والياء مخففة . وتقع في شمال سوريا وكانت من قبل تابعة لها ثم ضمت سنة ١٩٣٦م، وبموجب اتفاقية سابقة بين فرنسا وتركيا ، الى تركيا في نطاق انضمام لواء اسكندرون وما زالت سوريا تطالب بها .

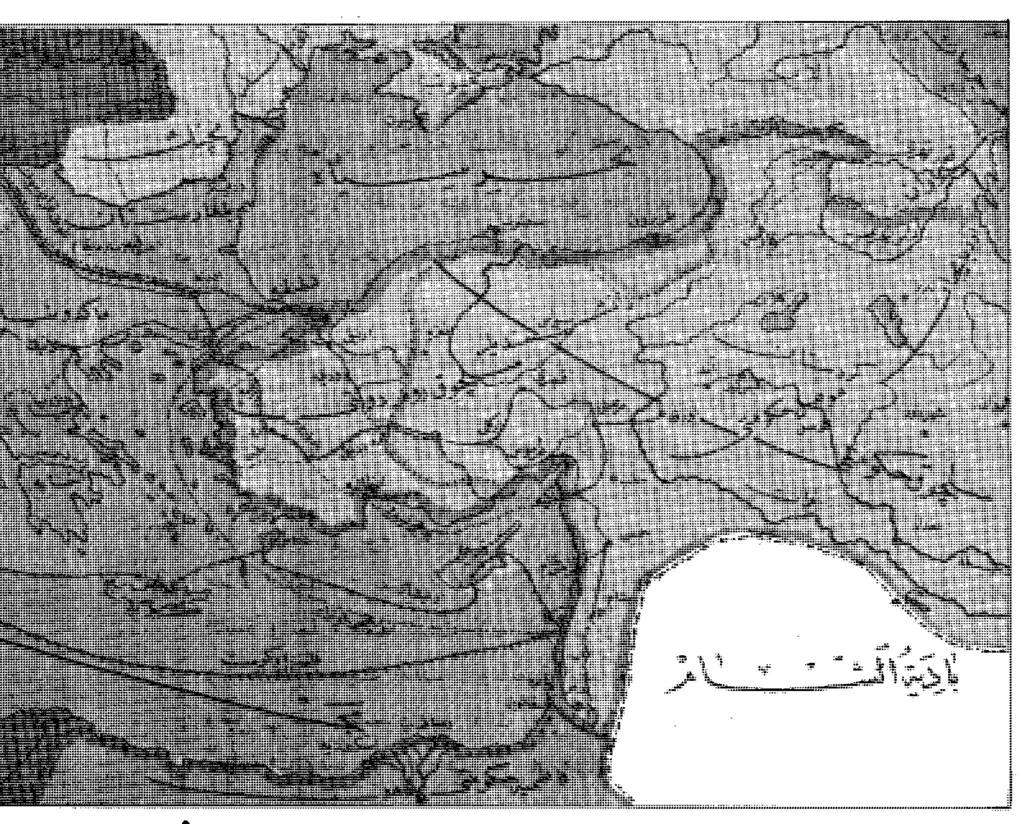
(١) أول هذا الشهر يوم الخميس في (٦ أيار ـ مايو ١٠٩٨م).

(٢) معرة النعمان : بفتح أوله وثانيه وتشديد الراء . وقال ياقوت : من معاني المعرة الشدة وانما سميت بذلك لأن النعمان بن بشير الصحابي اجتاز بها فمات له بها ولد فدفنه فسميت بذلك . وبالمعرة أيضاً قبر عبدالله بن عمار بن ياسر الصحابي . وقيل في سبب تسميتها غير ذلك .وهي بلدة أبي العلاء المعري الأديب الزاهد والشاعر الفيلسوف وفيها قبره . وهي تقع في شمال سوريا الى الشمال من حماة والى الجنوب من حلب .

(٣) گودفروا الرابع Godefroi de Boulogne أو Godefroi de Bouillion وهو دوك (أمير) اللورين السفلى من سنة ١٠٨٩ الى سنة ١٠٩٥ وهو أمير أول حملة صليبية وقد انتخب ملكاً على القدس ولكنه فضل أن يتلقب بلقب : (حارس القبر المقدس).

(٤) يوم الأحد في (١٥ نيسان ـ ابريل سنة ١١٠٠ م) .

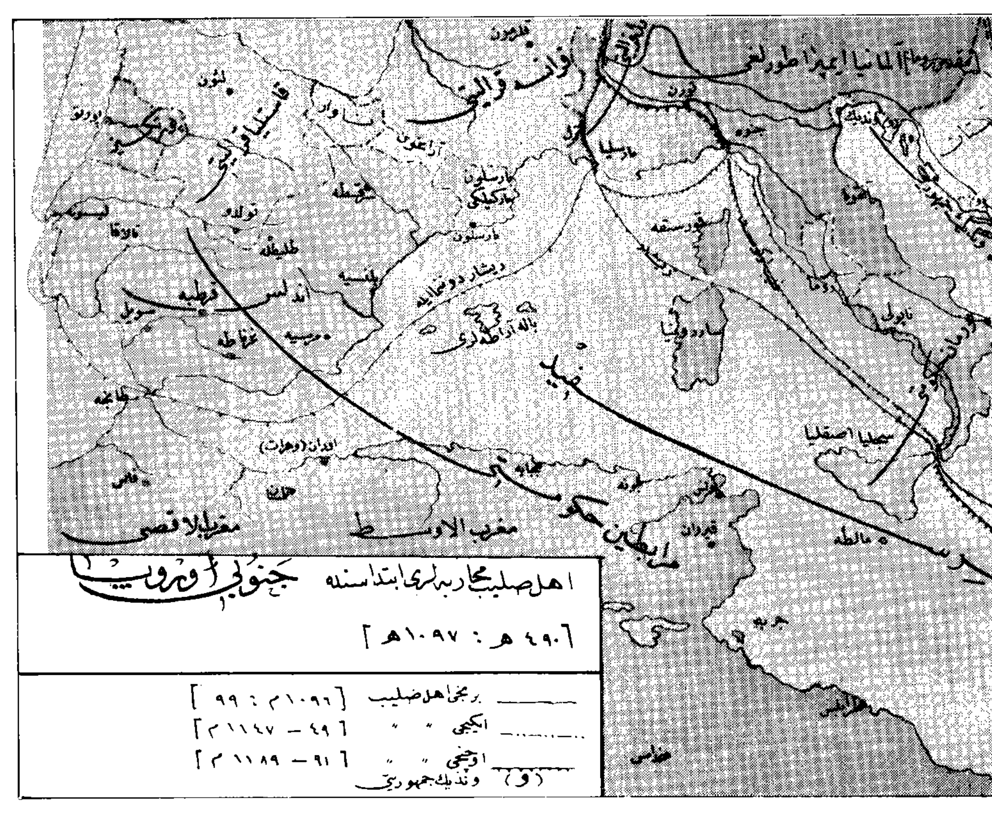
أهل صليب زمانه



جنوب أوربا في بداية الحر

ـ الحروب الصليبية الأولى 1096 ـ 1099 م
ـ الحروب الصليبية الثانية 1147 ـ 1149 م

لدجوارحكومالى



ية (٤٩٠ هـ - ١٠٩٧ م)

- الحروب الصليبية الثالثة ١١٨٩ - ١١٩٢ م
- (و) دولة الڤانديك

من امتلاك قدر ذراع منها . وبقي الحال على هذه الحالة بين أولاد ملكشاه ، تارة يتحاربون وأخرى يتصالحون إلى أن مات باركيارق في ٢ ربيع[١] الأوّل سنة٤٩٨. وقبل وفاته استحلف العسكر لولده ملكشاه الذي كان عمره أربع سنوات وثمانية أشهر فلم يقبل محمد بن ملكشاه أخو باركيارق بذلك، واتفق مع بعض القوّاد فعزلوا ملكشاه بن باركيارق وصارت السلطنة لمحمد بن ملكشاه بن الب أرسلان ابن داود بن ميكائيل بن سلجوق.وفي غضون هذه الحروب الداخلية ملك الافرنج مدينة سروج[٢] من أعمال الجزيرة وعكا[٣] وقنسرين في سنة ٤٩٤[٤].وفتحوا في السنة التالية مدينة طرسوس، وفي سنة ٤٩٦[٥] فتحوا جبيل[٦] وغيرها من بلاد الشام لعدم وجود القوى الكافية لمقاومتهم ثم دخلوا مدينة طرابلس[٧] في ١١ ذي

---

(١) يوم الثلاثاء في (٢٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١١٠٤ م) .

(٢) سروج : بفتح السين وضم الراء . مدينة في شمال العراق .

(٣) عكا . كتبها ياقوت : عكة وقال : هي بفتح أوله وتشديد ثانية وقال : العكة هي الرملة حميت عليها الشمس . وهي على ساحل البحر الأبيض الى شمال حيفا والى جنوب صور . وقد لعبت عكا دوراً كبيراً في التاريخ . فقد فتحها المسلمون سنة ١٥ هجرية واستمرت في ملكهم الى أن غلبت عليها اسرائيل سنة ١٩٤٨م، باستثناء فترات زمن الصليبيين ، وفيها قبر بهاء الله زعيم البهائية المنشقة عن الاسلام .

(٤) تبدأ هذه السنة يوم الثلاثاء في (٦ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١١٠٠ ـ ١١٠١ م) .

(٥) تبدأ هذه السنة يوم الأربعاء في (١٥ تشرين الأول ـ اكتوبر ١١٠٢ ـ ١١٠٣ م) وطرسوس بلدة تقع في جنوب تركيا والبلدة الشامية هي طرطوس وهي في شمال طرابلس وجنوب اللاذقية وأظن انها هي المقصودة هنا .

(٦) قال ياقوت : جبيل تصغير جبل . وأقول : هي بلدة في لبنان على بعد نحو أربعين كيلومتراً الى الشمال من بيروت على شاطئ البحر .

(٧) طرابلس : بفتح الطاء وضم الباء واللام . بلدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط على مسافة ٨٥ كيلومتراً الى الشمال من بيروت وهي ثاني مدن لبنان وتسمى طرابلس الشام للتفريق بينها وبين طرابلس الغرب التي هي عاصمة ليبيا . وقد استولى عليها كونت تولوز في بداية القرن الثاني عشر وأسس فيها امارة صليبية وقضى عليها المماليك في نهاية القرن الثالث عشر .

الحجة سنة ٥٠٣[١] ، ومدينة صيدا في سنة ٥٠٤، وصالحهم أهل حلب وحماه على مقدار معين من المال .

هذا وفي ٢٤ ذي الحجة سنة ٥١١[٢] توفي السلطان محمد السلجوقي وعهد بالسلطنة لابنه محمود.وفي ١٦ ربيع الآخر سنة ٥١٢[٣] توفي الخليفة المستظهر وبويع بعده ابنه أبو منصور فضل، ولقب بالمسترشد بالله، وفي خلافته وقعت عدة حروب بين السلطان محمود السلجوقي وأخيه داود وبعض أعمامه سفكت فيها دماء المسلمين وتوطدت في أثنائها أقدام الافرنج في جهات الشام وأسسوا بها إمارات مسيحية في أورشليم وحمص وانطاكية وطرابلس، ثم وقع الخلف بين الإفرنج لتباين مقاصدهم واختلاف أجناسهم بين نورمانديين وفرنساويين وألمانيين وإيطاليانيين وانكليز، فضعفت سطوتهم رغماً عن توارد الجنود إليهم تقودها سلاطينهم وأعاظم قوّادهم .ومن جهة أخرى ظهر في هذه الظروف عماد الدين زنكي صاحب الموصل وأيد شوكته وسطوته في البلاد المجاورة له واستولى على عدّة إمارات إسلامية ثم عزم على إخراج الإفرنج من بلاد الشام، فقصد أوّلاً مدينة حمص وفتحها عنوة سنة ٥٣٢[٤] ، واستخلص منهم أغلب بلاد الإسلام، ثم أرسل إلى مصر أحد قوّاده واسمه أسد الدين شيركوه[٥] بناء على استنجاد شاور وزير الخليفة العاضد الفاطمي لمساعدته على خصومه الذين كانوا ينازعونه الوزارة، فأتى إليها شيركوه. وبعد أن هزم خصوم شاور قتله في ربيع الآخر سنة ٥٦٤[٦] وتولى هو في الوزارة ثم مات وتولى يوسف صلاح الدين ابن أخيه نجم الدين أيوب .

---

(١) يوم الجمعة في (١ تموز ـ يوليو ١١١٠ م) وصيدا مدينة على شاطئ البحر الى جنوب مدينة بيروت ، وملى بعد ٤٥ كيلومتراً عنها .

(٢) يوم الخميس في (١٨ نيسان ـ ابريل ١١١٨ م) .

(٣) يوم الثلاثاء في (٦ آب ـ أوغست ١١١٨ م) .

(٤) أول سنة ٥٣٢ يوم الأحد في (١٩ أيلول ـ سبتمبر ١١٣٧ م) .

(٥) معناها أسد الجبل .

(٦) أول هذا الشهر يوم الخميس في (٢ كانون الثاني ـ يناير ١١٦٩ م) .

وفي ٥ ربيع الآخر سنة ٥٤١ [١] قتل عماد الدين صاحب الموصل، فخلفه سيف الدين غازي إلى أن توفي في أواخر سنة ٥٤٤ [٢] فتولى بعده أخوه نور الدين محمود .

ولما مات العاضد في ١٠ محرم [٣] سنة ٥٦٧ قطع صلاح الدين خطبة الفاطميين وصار هو سلطاناً على مصر وتلقب بالملك الناصر وخطب للخليفة العباسي. وبذلك انتهت دولة الفاطميين بعد أن مكثت ٢٧١ سنة تقريباً تولى الخلافة في أثنائها أربعة عشر خليفة وهم: المهدي والقائم والمنصور والمعز والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلي والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد. وصارت الخلافة للعباسيين بدون منازع، ولم تفترق الخلافة إلى الآن وستبقى كذلك بفضل الله. ولما توفي نور الدين زنكي في ١١ شوّال سنة ٥٦٩ [٤] خلفه صلاح الدين على الشام والجزيرة وجميع البلاد التي كانت تابعة لنور الدين، واشتغل بمحاربة الإفرنج فانتصر عليهم في عدّة مواقع، وأخذ منهم مدينة القدس، ودخلها في ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ (١٢ اكتوبر سنة ١١٨٧) [٥] .

هذا ولنرجع إلى ذكر آل سلجوق فنقول إن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه توفي في شوال سنة ٥٢٥ [٦] . وعين بعده ابنه محمود فحاربه عمه مسعود، واستمرت الحروب بينهما مدة كان الفوز فيها لمسعود فملك بغداد. وفي ١٧ ذي القعدة سنة ٥٢٩ [٧] قتل جماعة من الباطنية الخليفة المسترشد أثناء محاربة وقعت

(١) يوم السبت في (١٤ أيلول ـ سبتمبر ١١٤٦ م) .

(٢) تبدأ هذه السنة يوم الأربعاء في (١١ أيار ـ مايو ١١٤٩ م) وتنتهي في ٢٩ نيسان ـ ابريل ١١٥٠ م) .

(٣) يقول أبو الفداء في البداية والنهاية : توفي العاضد في أول جمعة من محرم . وأول يوم جمعة يكون في (١٠ أيلول ـ سبتمبر ١١٧١ م) .

(٤) يوم الأربعاء في (١٥ أيار ـ مايو ١١٧٤ م) .

(٥) هو يوم الجمعة في (٢ تشرين الأول ـ أكتوبر ١١٨٧ م) وليس ١٢ أكتوبر .

(٦) تبدأ هذه السنة يوم الخميس في (٤ كانون الأول ـ ديسمبر ١١٣٠ م) وتنتهي في (٢٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١١٣١ م) .

(٧) يوم الخميس في (٢٩ آب ـ أوغست ١١٣٥ م) .

بينه وبين مسعود السلجوقي المتقدم ذكره،وبويع بعده أبو جعفر المنصور ولقب بالراشد بالله ، ولم يمكث في الخلافة الا نحو سنة، ثم عزله السلطان مسعود في منتصف القعدة سنة ٥٣٠[1] وبايع مكانه محمد بن المستظهر ، ولقبوه المقتفي لأمر الله، وهو الثاني والثلاثين من خلفاء بني العباس .

وفي ٢٥ رمضان سنة ٥٣٢[2] ، قتل الخليفة الراشد بن المستظهر[3] ، وكثرت الفتن والقلاقل في خلافة المقتفي، وتفرق ملك السلجوقيين واشتغل أمراؤهم بمحاربة بعضهم، فاستقل الخليفة نوعاً ببغداد والعراق لعدم وجود من يزاحمه من السلجوقيين أو غيرهم . وبقي مرتاح البال بالنسبة لمن سبقه من الخلفاء إلى أن مات في فراشه في ثاني ربيع الأول سنة ٥٥٥[4] ، وبويع بعده ابنه يوسف ولقب المستنجد بالله وفي خلافته وخلافة أبيه علا شأن آل زنكى واستخلصوا أغلب البلاد التي ملكها الإفرنج. وأتى صلاح الدين الأيوبي مصر كما مر وحارب الإفرنج وردهم عن سواحلها. وصار صاحب النفوذ الأوفر فيها .

وفي ٩ ربيع الآخر سنة ٥٦٦[5] توفي المستنجد،وبويع ابنه أبو محمد الحسن، ولقب المستضيء بأمر الله،واشترط عليه عضد الدين أبو الفرج الذي كان أستاذ دار أبيه أن يكون وزيراً له،وابنه كمال الدين استاذ داره والأمير قطب الدين أميراً للعسكر ،فقبل لمستضيء بذلك ووقع في حجرهم ،وفقد ما كان لأبيه المستنجد، وجده المقتفي من بعض الحرية والاستقلال. وفي خلافته انقرضت دولة الفاطميين في مصر بموت العاضد، وخطب للعباسيين بها في ثاني جمعة من محرم سنة ٥٦٧

(١) ١٥ ذي القعدة (١٥ آب ـ أوغست ١١٣٦ م) .
(٢) يوم الاثنين في (٦ حزيران ـ يونيو ١١٣٨ م) .
(٣) قد تولى الخلافة من الأخوة بالتعاقب الهادي والرشيد ولدي المهدي والواثق والمتوكل ولدي المعتصم والأمين والمأمون والمعتصم أولاد هارون الرشيد والمكتفي والمقتدر والقادر أولاد المعتضد والراضي والمتقي والمطيع أولاد المقتدر، وجميعهم من العباسيين. وقد تولى الخلافة أربعة أخوة من الأمويين وهم الوليد وسليمان ويزيد وهشام أولاد عبد الملك بن مروان .
(٤) يوم السبت في (١٢ آذار ـ مارس ١١٦٠ م) .
(٥) يوم الأحد في (٢٠ كانون الأول ـ دسمبر ١١٧٠ م) .

أي في ١٤ منه واستقل بها صلاح الدين بن أيوب ولم يترك للعباسيين سوى الخطبة، وفتح شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو صلاح الدين بلاد اليمن ولما توفي نور الدين في ١١ شوال سنة ٥٦٩[1] استولى صلاح الدين على أغلب بلاده وأقطعها لأخوته وأولاد عمومته. وفتح كثيراً من البلاد التي ملكها الإفرنج حتى لم يبق لهم إلا مدينة القدس وبعض قرى صغيرة. وفي ٢ ذي القعدة سنة ٥٧٥[2] توفي الخليفة المستضيء وبويع ابنه الناصر لدين الله. وفي خلافته استرد صلاح الدين الأيوبي أغلب البلاد التي كانت في يد الإفرنج. واستخلص منهم القدس الشريف ودخله يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ (١٢ اكتوبر سنة ١١٨٧)[3]. واستمر على الفتح والغزو إلى أن مات بدمشق يوم الأربعاء ٢٦ صفر سنة ٥٨٩ (٣ مارس سنة ١١٩٣)، وبموته تفرّقت أملاكه وانفرط عقد انتظامها واستقل كل من أولاده وكانوا سبعة عشر بجزء منها، فاستقل بمصر الملك العزيز عماد الدين عثمان، واستقل الأفضل نور الدين علي بدمشق. فضعف حال الإسلام بعدما بلغه من القوة أيام الناصر صلاح الدين الأيوبي، ثم وقع الخلف بين أولاده وطمع كل منهم فيما في يد أخيه ولو بالحرب والقتال، فاتحد العزيز صاحب مصر مع عمه العادل صاحب الكرك[4] على محاربة الأفضل صاحب دمشق، فحاربوه وأخرجوه منها وبقي فيها العادل وعاد العزيز إلى مصر مكتفياً بالخطبة والسكة. ثم توفي الملك العزيز في محرم سنة ٥٩٥[5] وخلفه ابنه الملك المنصور وكان عمره تسع سنين. ولصغر سنه ارتأى أمراء الدولة استدعاء أحد أمراء بني

---

(١) يوم الخميس في (١٥ أيار ـ مايو ١١٧٤ م).

(٢) يوم الأحد في (٣٠ آذار ـ مارس ١١٨٠ م).

(٣) سبق تصحيحها وهي ٢ اكتوبر.

(٤) كرك. قال ياقوت: بفتح الكاف والراء، كلمة عجمية: اسم لقلعة حصينة جداً. وأقول: هي اليوم مدينة من مدن المملكة الأردنية الهاشمية. وقال ياقوت: والكرك أيضاً قرية كبيرة قرب بعلبك، فيها قبر طويل يزعم أهل تلك النواحي انه قبر نوح. وأقول: وعلى بعد ثلاثين كيلومتراً الى الغرب من دمشق يوجد قبر طويل على هضبة يزعم بعضهم انه قبر هابيل بن آدم.

(٥) أول محرم هو يوم الثلاثاء (٣ نوفمبر ١١٩٨ م).

أيوب ليكون وزيراً له فاختاروا الأفضل الذي كان صاحب دمشق، وكاتبوه فحضر مسرعاً، ثم قصد دمشق للانتقام من عمه الملك العادل واتحد مع أخيه الظاهر صاحب حلب على محاربة العادل، فحاصرا دمشق مدة،ثم وقع الخلف بينهما وعاد كل منهما إلى بلاده فتبع العادل الأفضل وجيوشه إلى مصر وهزمه وأكرهه على الخروج منها وصار هو وزيراً للملك المنصور بن العزيز.ثم غدر بالمنصور وأخرجه من مصر سنة ٥٩٩[١] واستقل هو بمصر ودمشق وماحولها. وصار له أغلب بلاد أخيه الناصر صلاح الدين وبقي ملكه في ازدياد وشأنه في إرتقاء إلى أن توفي في ٧ جمادى الآخرة سنة ٦١٥[٢] وعمره خمس وسبعون سنة قضاها في محاربة الافرنج وصد غاراتهم عن بلاد الإسلام.وخلفه في مصر ابنه الملك الكامل،وفي دمشق الملك المعظم عيسى،وخلف من البنين ستة عشر ولداً غير البنات.

وفي ١٠ رمضان سنة ٦١٥ (٣٠ نوفمبر سنة ١٢١٨) ضايق الافرنج الصليبيون ثغر دمياط[٣] وفتحوه عنوة،وجعلوا الجامع كنيسة.فابتنى الملك الكامل قلعة حصينة بالقرب منها سماها المنصورة (وهي مدينة المنصورة مركز مديرية الدقهلية الآن) ليراقب حركات الافرنج ويمنع تقدمهم داخل الديار المصرية.فلم يجسر الصليبيون على مهاجمتها ولبثوا ينتظرون المدد من بلادهم إلى أن ارتفعت مياه النيل في صيف سنة ٦١٨[٤] فقطع المسلمون جسوره وطغى الماء على معسكر الافرنج وحال بينهم وبين دمياط قاعدة أعمالهم.وصاروا في ضيق شديد فأخذوا يخابرون الملك الكامل على أن يردوا إليه ثغر دمياط بشرط أن لا يفتك بهم،فقبل الكامل بذلك وسلمت إليه مدينة دمياط في ١٩ رجب سنة ٦١٨ (٨ سبتمبر سنة ١٢٢١) وأقيمت شعائر

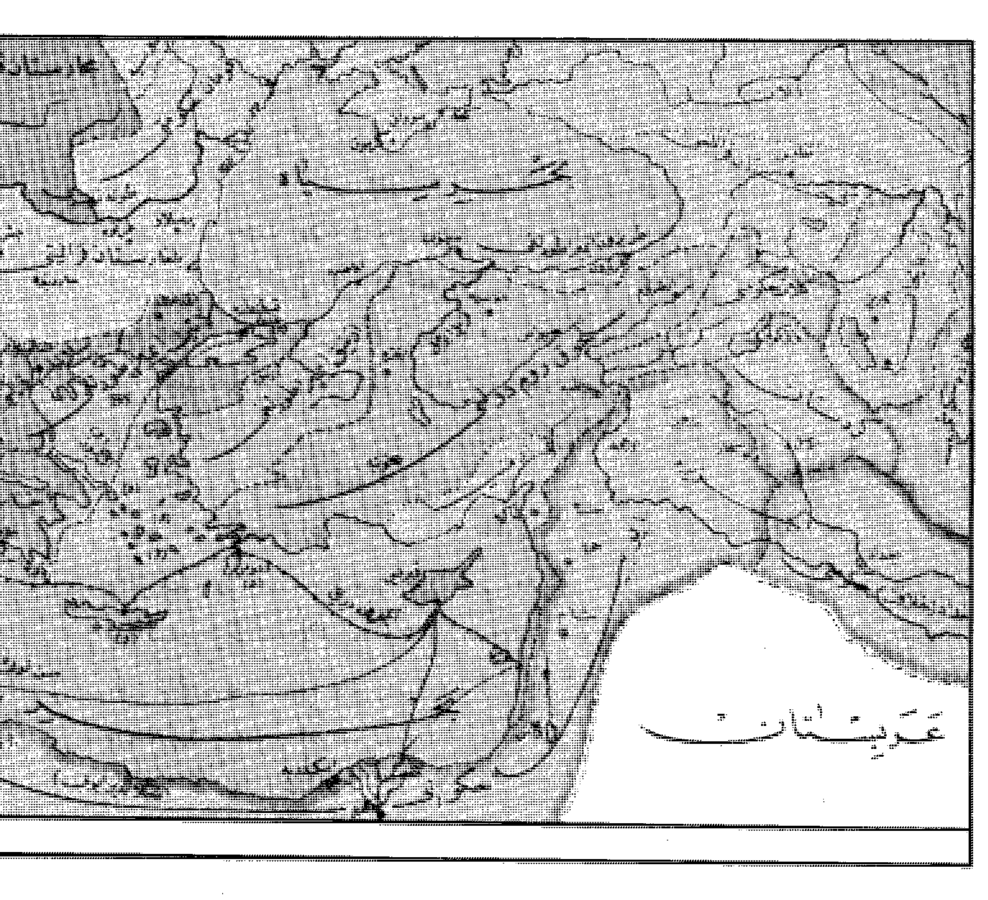
---

(١) أول هذه السنة هو يوم الجمعة (٢٠ أيلول ـ سبتمبر ١٢٠٢ م).

(٢) يوم الجمعة في (٣١ آب ـ أوغست ١٢١٨ م).

(٣) دمياط: قال ياقوت: بكسر الدال وسكون الميم وهي مدينة قديمة تقع في شمال مصر على البحر الأبيض المتوسط وفي شمالها مصب النيل الى البحر.

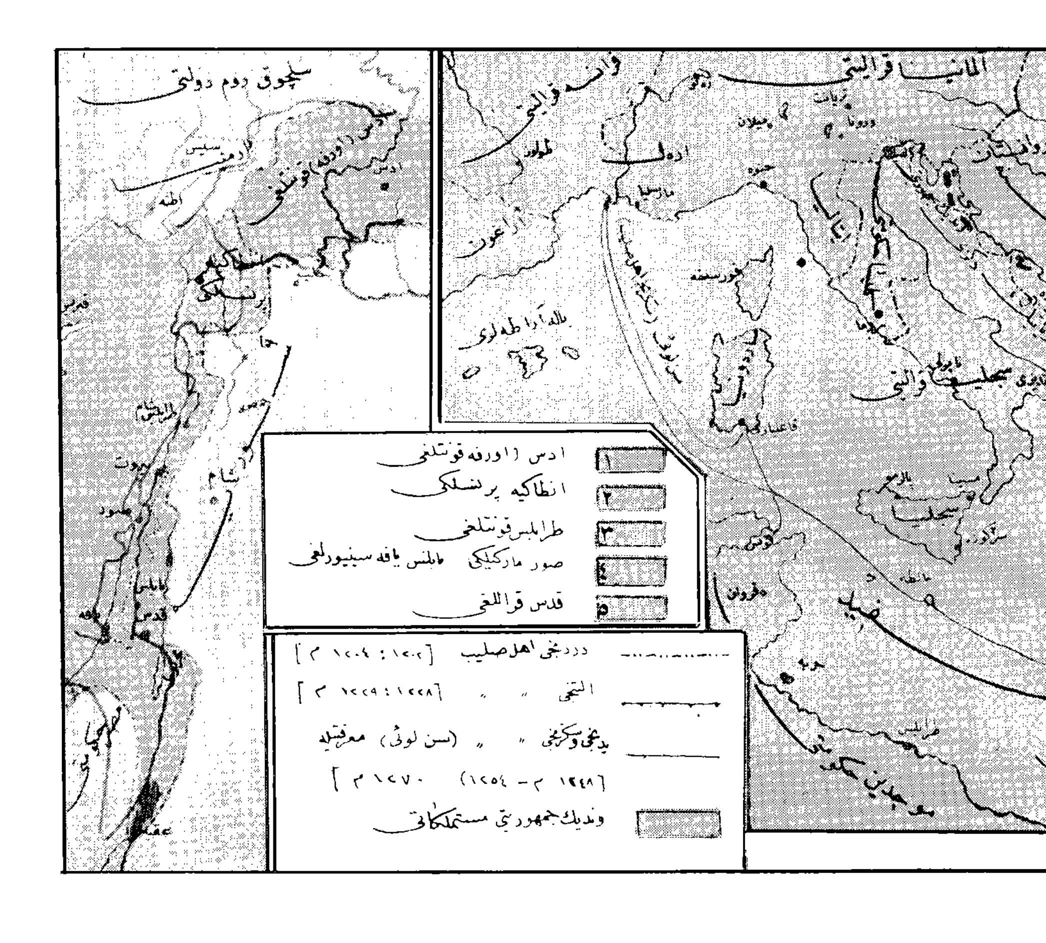
(٤) أول سنة ٦١٨ هو يوم الخميس (٢٥ شباط ـ فبراير ١٢٢١ م).



١ ـ دوقية أورفة ٢ ـ إمارة إنطاكية ٣ ـ كونتية طرابلس ٤ ـ ماركزية صور وسيورية نابلس ويافا ٥ ـ مملكة القدس

ـ المحروب الصليبية الرابعة:
١٢٠٢ ـ ١٢٠٤ م.

ـ الحروب الصليبية الخامسة:
١٢١٧ ـ ١٢٢١ م.



ـ الحروب الصليبية السادسة :
١٢٢٨ ـ ١٢٢٩ م .

ـ الحروب الصليبية السابعة والثامنة
بقيادة الملك القديس لويس
١٢٤٨ ـ ١٢٥٤ م .

الإسلام في جوامعها كما كانت عليه قبل .

هذا وفي أول شوال سنة ٦٢٢[1] توفي الخليفة الناصر لدين الله وكانت مدته نحو سبع وأربعين سنة،وكان مستقلاً بالعراق صارفاً همته للمحافظة عليه ولم يحارب الإفرنج أصلاً.وفي مدته ظهر التتر وخرجوا من بلادهم الواقعة غرب بلاد الصين في سنة ٦١٧[2] هجرية تحت قيادة رئيسهم جنكيزخان، فقصدوا أولاً بلاد خوارزم وفتحوها وملكوا بخارى وسمرقند وغزنة بعد محاربات عنيفة،ثم سارت فرقة إلى بلاد الروس الشمالية وملكوها وبقيت في ملكهم إلى أواخر القرن الخامس عشر للميلاد،ويقال إن الخليفة الناصر هو الذي استدعاهم من بلادهم لمحاربة خوارزمشاه فجرّ بذلك على الاسلام أجمع من المصائب ما لم يطرأ عليه أبداً لأنهم كانوا يقتلون المسلمين ويسبون نساءهم ويخربون الجوامع ويحرقون الكتب النفيسة ويرتكبون أنواع المنكرات جهاراً .

وبعد موت الخليفة الناصر لدين الله بويع ابنه أبو النصر محمد ولقب الظاهر بأمر الله، ولم تطل مدته فإنه توفي في ١٤ رجب سنة ٦٢٣[3] وبويع بعد موته ابنه أبو جعفر المنصور ولقب المستنصر بالله.وفي خلافته أخذ أمر الإسلام في الضعف بعد أن بلغ من القوة مبلغاً عظيماً حتى استخلصوا مدينة القدس من الافرنج،وسبب هذا الضعف انقسام أولاد صلاح الدين الأيوبي وإخوته ومحاربتهم بعضهم بعضاً طمعاً في امتلاك مدينة أو قرية،غير ناظرين إلى الأجانب المحتلين بعض بلاد الشام يتربصون الفرص للانقضاض عليهم واسترجاع مدينة القدس ثانياً.فلما توفي الملك المعظم ابن الملك العادل بن أيوب في ذي القعدة سنة ٦٢٤[4] صاحب دمشق وخلفه ابنه الناصر داود، اتحد الملك الكامل صاحب مصر وأخوه الملك الأشرف على انتزاع دمشق من يد الناصر ابن أخيهما المعظم.وليتمكن الكامل من التفرغ لمحاربة الناصر

---

(١) يوم الاثنين في (٦ تشرين الأول ـ اكتوبر ١٢٢٥ م) .

(٢) أول هذه السنة الأحد في (٨ أذار ـ مارس ١٤٢٠ م) .

(٣) يوم السبت في (١١ تموز ـ يوليو ١٢٢٦ م) .

(٤) أول هذا الشهر يوم الاربعاء في (١٣ تشرين الأول ـ اكتوبر ١٢٢٧ م) .

ويأمن جانب الافرنج في أثناء محاربته له كاتب الامبراطور فريدريك[1] امبراطور الالمان وصاحب صقلية على أن يهادنه ست سنوات ويسلمه مدينة القدس وبعض المدن الأخرى، بشرط عدم التعرّض للجامع الأقصى ولا لجميع المسلمين. واتفق مع الامبراطور على ذلك وسلمه مدينة القدس في ربيع الآخر سنة ٦٢٦ (مارس سنة ١٢٢٩) بدون حرب، مع أن الملك الناصر صلاح الدين بذل النفس والنفيس في استخلاصها منهم سنة ٥٨٣ وسلمها هو إليهم غنيمة باردة ليحارب ابن أخيه وينتزع بعض بلاده منه. وبعد أن تم تسليم القدس إلى الإفرنج بهذه الكيفية التي تلحق العار بالملك الكامل مدى الدهر، وتسود صحائف تاريخه، جمع جيوشه حول مدينة دمشق واستولى عليها في جمادى الأولى فتمت له أمنيته ونال بغيته بعد أن ضحى البلاد التي صرف صلاح الدين عمره في استخلاصها من يد الافرنج، فانظر أيها القاريء إلى نتيجة الانقسام أمام العدو ونبذ الاتحاد والتضافر ظهرياً، ثم قضى الملك الكامل بقية عمره في محاربة اخوته وأقاربه. ومات في ٢١ رجب سنة ٦٣٥[2] فعين الجند والأمراء بعده ابنه الملك العادل. فأتى إلى مصر لكن لم تطل مدته بل قبض عليه في ٨ ذي القعدة سنة ٦٣٧ بدسيسة أخيه الملك الصالح أيوب. ووصل الصالح إلى مصر في ٢٤ منه واستقر بها. واستمرّ الملك العادل مسجوناً إلى أن توفي سنة ٦٤٥[3]. وفي هذه الأثناء تقدم التتر في بلاد الاسلام وامتلكوا جميع بلاد فارس ووصلت طلائعهم إلى العراق. وفي ١٠ جمادى الآخرة سنة ٦٤٠[4] توفي الخليفة المستنصر بالله أبو جعفر المنصور وبويع بعده ابنه أبو أحمد عبد الله ولقب المستعصم

---

(١) هو فريدريك الثاني ولد سنة ١١٩٤م ومات ١٢٥٠م، وكان ملك صقلية منذ ١١٩٧م الى أن مات سنة ١٢٥٠م وامبراطور المانيا من سنة ١٢٢٠م الى يوم موته أيضاً. وكان على خصام مستمر مع البابا، وعلى الرغم من أن البابا حرمه (أي كفّره وأخرجه من الدين) فقد اشترك في الحروب الصليبية بالدبلوماسية وليس بالسلاح. وقد خلعه البابا إنّوسن Innocent في مجمع ليون سنة ١٢٤٥ م.

(٢) يوم الثلاثاء في (٩ آذار ـ مارس ١٢٣٨ م).

(٣) أول هذه السنة يوم الاربعاء (٨ أيار ـ مايو ١٢٤٧ م).

(٤) (٥ كانون الأول ـ ديسمبر ١٢٤٢ م).

بالله وهو الثامن والثلاثين من خلفاء بني العباس بعد عبد الله بن المعتز والسابع والثلاثين لو أسقط ابن المعتز من عدادهم، والمستعصم بالله هو آخر من ولي الخلافة الإسلامية من العباسيين ببغداد، وفي خلافته انتصر الصالح أيوب على الافرنج بقرب غزة سنة ٦٤٢ هجرية (سنة ١٢٤٤ م) واستخلص مدينة القدس التي كان سلمها الملك الكامل إليهم سنة ٦٢٦ فحولوا أنظارهم إلى القطر المصري وأتى إليه لويس التاسع[١] ملك فرنسا ومعه جيش عظيم واحتل ثغر دمياط بدون كثير عناء في ٢١ صفر سنة ٦٤٧ (٥ مايو سنة ١٢٤٩)[٢] فتحصن الصالح أيوب في المنصورة لردهم عن القاهرة. وفي أثناء الاستعداد للقتال توفي الصالح في ليلة الأحد ١٤ شعبان سنة ٦٤٧[٣] فاخفت زوجته شجرة الدر خبر موته إلى أن حضر من الشام ولده توران شاه الذي خلفه في ملك مصر، وفي أوائل محرم سنة ٦٤٨ (ابريل سنة ١٢٥٠) انتصر المسلمون على الافرنج بقرب المنصورة وأخذوا ملك فرنسا أسيراً مع كثير من أمراء الفرنساويين وحجز الملك في دار فخر الدين بن لقمان كاتب الانشاء ووكل به «طواشي» يسمى صبيح.

---

(١) ويسميه الافرنسيون القديس لويس، وقد نصب ملكاً على فرنسا سنة ١٢٢٦م يوم كان عمره اثني عشرة سنة فملك حتى سنة ١٢٣٦ تحت وصاية أمه. وبعد أن انهى مشاكله الداخلية وحروبه مع انكلترا أخذ صليبه وأبحر سنة ١٢٤٩م الى دمياط. ولكنه خسر المعركة وأخذ أسيراً في المنصورة سنة ١٢٥٠هـ فافتدى نفسه وبقي في فلسطين حتى سنة ١٢٥٤م ثم عاد الى فرانسا ونظم أحوالها وبنى الصوربون وأبنية أخرى منها البناء المعروف باسم (خمسة عشر عشرين) Les Quinze-Vingts وهو مشفى بناه للعمي وهو اليوم مشفى عسكري.

وفي سنة ١٢٧٠م نظم الحملة الصليبية الثامنة وأراد أن يقصد فلسطين رغم مخالفة حاشيته له، فاتجه نحو تونس على أمل أن يدخل أميرها بالمسيحية، وكانت تحكم البلاد آنذاك الأسرة الحفصية، ولكنه ما كاد يرسو في ميناء قرطاج حتى أصيب بالطاعون ومات. ويحتفل الكاثوليك بعيده على اعتبار أنه قديس في ٢٥ أغسطس من كل عام.

(٢) ٢١ صفر يقع يوم السبت في (٥ حزيران ـ يونيو ١٢٤٩ م).

(٣) ١٤ شعبان يقع يوم الاثنين في (٢٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٢٤٩ م).

وبعد ذلك بقليل قتل توران شاه بفارسكو[1] في ٢٨ محرم سنة ٦٤٨[2]، قتله ركن الدين بيبرس أحد المماليك الذين جمعهم والده السلطان الصالح لحراسته وسماهم البحرية.واتفقوا على تولية أمه شجرة الدر فخطب باسمها،ثم في صفر حصل الاتفاق بين المسلمين وملك فرنسا على اطلاقه من الأسر بشرط رد مدينة دمياط إليهم فدخلها المسلمون في صفر سنة ٦٤٨ مايو (سنة ١٢٥٠م) ونزل ملك فرنسا إلى البحر مع من بقي من رجاله في اليوم التالي عائدين إلى بلادهم وبذلك انتهت الحروب الصليبية وبقي البيت المقدس في يد المسلمين إلى الآن.

هذا ثم عزلت شجرة الدر وولي مكانها المعز ايبك التركماني مملوك زوجها السلطان الصالح، وهو أول المماليك البحرية، في ٣٠ جمادى الآخرة سنة ٦٤٨[3] وتزوج بشجرة الدر وبذلك انتهى ملك الايوبيين بمصر.ثم قتل بايعاز شجرة الدر في ٢٣ ربيع الأول سنة ٦٥٥[4] فلم يوليها المماليك بل ولوا نور الدين علي بن المعز أيبك وحبسوا شجرة الدر ثم قتلوها في ١٦ ربيع الآخر سنة ٦٥٥[5]،وكانت تركية وقيل أرمنية.

وفي أثناء ذلك تقدم التتر نحو بغداد تحت أمرة هولاكو خان[6] حفيد جنكيزخان ودخلوها عنوة في ٣٠ محرم سنة ٦٥٦[7] وقتلوا الخليفة المستعصم وكل من قبضوا عليه من بني العباس والأمراء والعلماء وكان دخولهم إليها بدسيسة

(١) الفارسكو : قال ياقوت : بفتح الراء وسكون السين . من قرى مصر قرب دمياط

(٢) يقع يوم الاثنين في (٢ أيار ـ مايو ١٢٥٠ م) .

(٣) شهر جمادى الآخرة في سنة ٦٤٨ كان ٢٩ يوماً فقط . هذا اليوم (٢٨ أيلول ـ سبتمبر ١٢٥٠ م) .

(٤) يوم الثلاثاء في (١٠ نيسان ـ ابريل ١٢٥٧ م) .

(٥) يوم الخميس في (٣ أيار ـ مايو ١٢٥٧ م) .

(٦) هو حفيد جنكيزخان ، وهو أول أمبرطور مغولي يحكم ايران ، وهو الذي قضى على الخلافة العباسية في بغداد .

(٧) يوم الأربعاء في (٦ شباط ـ فبراير ١٢٥٨ م) .

الوزير مؤيد الدين بن العلقمي فانتهت دولة العباسيين ببغداد بعد أن استمرت خمسمائة وأربع وعشرين سنة وتشتت من نجا من العباسيين ثم وصل التتر إلى بلاد الشام وأخربوها واضمحل الاسلام وتفرقت أجزاؤه إلى أن ظهرت دولة العثمانيين بالأناضول فاعادت إليه رونقه السابق وضمت ما تفرق من ممالكه وصارت هي الدولة الوحيدة الإسلامية أمام العالم الأوروبي. وسترى في هذا الكتاب ما لاقته في سبيل تقدمها من الموانع وذللته من العقبات مع بيان أسباب إرتقائها وانحطاطها وما وصلت إليه في هذه الأيام من التأخر والتقهقر.

ثم أخذ التتر يتقدمون إلى جهات الشام ففتحوا أغلب مدنه ونهبوها وقتلوا أهلها حتى خيف على مصر من وصول أذاهم إليها ولذلك أجمع الأمراء على عزل سلطانها نور الدين علي لصغر سنه وعدم مقدرته على صد هجمات التتر فعزل في يوم السبت ١٧ ذي القعدة سنة ٦٥٧[1] وولي مكانه المظفر سيف الدين قطز المعزي وهو مملوك المعز أيبك التركماني. ثم قتل قطز المذكور بعدسنة، قتله ركن الدين بيبرس البندقداري في ١٥ ذي القعدة سنة ٦٥٨[2] وخلفه في الملك وتلقب بالظاهر، وهو من مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب. وفي أيامه وفد إلى مصر الإمام أحمد بن الخليفة الظاهر بأمر الله في ١٩ رجب سنة ٦٥٩[3] وأثبت نسبه بحضور الشيخ عز الدين بن عبد السلام شيخ الإسلام فبايعه الظاهر بيبرس بالخلافة ولقب المستنصر بالله وبايعه الخليفة بالسلطنة وفوض إليه أمور البلاد فعادت بذلك الخلافة إلى الإسلام بعد انقطاعها نحو ثلاث سنوات. ثم جمع الظاهر جيشاً وأرسله مع الخليفة المستنصر إلى بغداد فحاربه التتر في الأنبار في أواخر سنة ٦٥٩ وهزموا من كان معه من الجند ولم يوقف للخليفة على أثر بعد ذلك.

وبعد انقطاع خبره أتى إلى مصر في سنة ٦٦٠ الإمام أحمد بن علي بن أبي بكر ابن الخليفة المسترشد ابن الخليفة المستظهر وثبت نسبه بحضور العلماء فبايعه

---

(١) يوم الاربعاء في (٥ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٢٥٨ م) .

(٢) يوم الجمعة في (٢٢ كانون الأول ـ اكتوبر ١٢٦٠ م) .

(٣) يوم الاحد في (١٩ حزيران ـ يونيو ١٢٦١ م).

الظاهر على أن تبقى الأحكام بيده ولقب بالحاكم بأمر الله، ثم أمر الظاهر بأن ينقش اسم الخليفة مع اسمه على العملة ويذكر اسمه في الخطبة قبل اسم السلطان. وأقام الخليفة بمصر وصارت القاهرة مقراً للخلفاء العباسيين إلى أن انتقلت الخلافة إلى العثمانيين في سنة ٩٢٣ كما سيجيء .والحاكم بأمر الله هو أول العباسيين بمصر، لأن أحمد المستنصر لم يقم بها بل كان يقصد إرجاع الخلافة لبغداد كما كانت، فحال التتر دون مشروعه. وطالت خلافة الحاكم بأمر الله بمصر مدة أربعين سنة تقريباً، وتوفي في ١٨ جمادى الأولى سنة ٧٠١ هجرية[١] ودفن بمشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها[٢] .

وبويع بعده ابنه المستكفي بالله أبو الربيع سليمان وهو ثاني العباسيين بمصر، وفي أثناء هذه الأربعين سنة ظهرت الدولة العثمانية ببلاد الأناطول سنة ٦٩٩، وتعاقب ستة سلاطين على مصر وملحقاتها، فتوفي الظاهر بيبرس في ١٨ محرم سنة ٦٧٦ بقرب دمشق[٣] ودفن بها، وتولى بعده ابنه الملك السعيد أبو المعالي محمد، ومما يذكره التاريخ للسلطان الظاهر أنه استردّ أغلب بلاد الشام التي كانت باقية مع الافرنج وأهمها انطاكية ويافة[٤] وحلب وطرسوس وطبرية * وصفد * وغيرها، وضم

(١) يوم الجمعة في (١٩ كانون الثاني – يناير ١٣٠٢ م) .

(٢) وهي السيدة نفيسة بنت الامام حسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، أتت من مكة الى مصر مع زوجها اسحق بن جعفر الصادق، وأخذ عنها الامام الشافعي الحديث وتوفيت في رمضان سنة ٢٠٨ .

(٣) يوم الاثنين في (٢١ حزيران – يونيو ١٢٧٧ م) .

(٤) يافا . مدينة في فلسطين على شاطئ البحر وهي في منتصف الطريق بين غزة جنوباً وحيفا شمالاً والمسافة بينها وبين كل من البلدين نحو مئة كيلومتر وهي من مدن فلسطين الكبيرة الجميلة ، ومعنى يافا بالعبرية الجميل وهي مشهورة بأنواع الحمضيات ، ومتصل بناؤها ببناء تل أبيب . ويقول ياقوت : قال ابن بُطلان في رسالته التي كتبها في سنة ٤٤٢ : ويافا بلد قحط والمولود فيها قل أن يعيش حتى لا يوجد فيها معلم للصبيان . افتتحها صلاح الدين عند فتحه الساحل في سنة ٥٨٣ ثم استولى عليها الافرنج =

لملكه مدائن دمشق وبعلبك[1] وبيت المقدس وكثير غيرها، ثم خلع الملك السعيد في ربيع أوّل سنة ٦٧٨[2] وتولى أخوه الملك العادل سيف الدين ابن الظاهر بيبرس، وكان القائم بتدبير مملكته الواسعة قلاوون الألفي من مماليك الصالح نجم الدين أيوب، فخلع السلطان في ١٢ رجب سنة ٦٧٨[3]، وتقلد هو الملك اغتصاباً وتلقب بالمنصور سيف الدين، واستقامت له الأحوال، ولم يجسر أحد على خلعه كما خلع أولاد الظاهر بيبرس، لاقتنائه عدة آلاف من المماليك واسكانهم في أبراج القلعة ولذلك أطلق عليهم اسم البرجية. وتوفي السلطان قلاوون في ٦ ذي القعدة سنة ٦٨٩[4] وولي بعده ابنه صلاح الدين خليل ولقب بالاشرف وهو الذي هدم قبور الخلفاء الفاطميين وبنى مكانها الخان المسمى الآن بالخان الخليلي بقرب المشهد الحسيني وقتل الأشرف في المحرم سنة ٦٩٣[5] وتولى بعده أخوه الملك الناصر محمد ابن قلاوون في ١٨ منه وعمره تسع سنين وكسور. ثم خلع الناصر بعد سنة في ١١ محرم سنة ٦٩٤[6] وتولى بعده كتبغا أحد مماليك أبيه قلاوون، وتلقّب بالعادل

= في سنة ٥٨٧ ثـم استعادها منهم الملك العادل أبو بكر بن أيوب في سنة ٥٩٣ وخرَّبها.

* طبريا: بلدة فلسطينيـة قديمة جداً وكان لها شأن في التاريخ وفي حياة المسيح، وتقع على الجانب الغربي من بحيرة تعرف باسمها ويصب في هذه البحيرة نهر الأردن ويخرج منها، وهي مشهورة بمياهها الحارة الكبريتية، ويبعد شاطئ البحيرة الشرقي عن مدينة دمشق نحو سبعين كيلومتراً.

* صفد: مدينة في فلسطين مبنية فوق جبل تطل على بحيرة طبريا وتبعد عنها بضعة كيلومترات فقط.

(١) بعلبك: قال ياقوت: بالفتح ثم السكون وفتح اللام والباء وكاف مشددة. فيها آثار رومانية، وتبعد عن دمشق ٦٠ كيلومتراً الى الشمال الغربي، وكانت زمن العثمانيين ملحقة بدمشق فضمها الافرنسيون الى لبنان لكي يصبح (لبنان الكبير).

(٢) أول ربيع الأول هو يوم الاربعاء في (١٢ تموز ـ يوليو ١٢٧٩ م).

(٣) يوم السبت في (١٨ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٢٧٩ م).

(٤) يوم الجمعة في (١٠ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٢٩٠ م).

(٥) أول محرم يقع يوم الاربعاء في (٢ كانون الاول ـ ديسمبر ١٢٩٣ م).

(٦) يوم الاربعاء في (١ كانون الأول ـ ديسمبر ١٢٩٤ م).

وهو العاشر من ملوك الأتراك وخلع في نصف صفر سنة ٦٩٦[١]، وخلفه حسام الدين لاجين ،وهو أيضاً من مماليك قلاوون وتلقب بالمنصور وقتل في ١٠ ربيع الآخر سنة ٦٩٨[٢] وأعيد الناصر محمد بن قلاوون ،واستمر في الملك هذه الدفعة إلى سنة ٧٠٨[٣] وفيها خلع نفسه من المملكة لاستئثار الأمراء بالأحكام قهراً عنه وترك الديار المصرية وأقام بالكرك.وبويع بعده ركن الدين بيبرس وتلقب بالمظفر وذلك في ٢٣ شوّال سنة ٧٠٨[٤] .وفي السنة التالية اتفق باقي الامراء على عزله وإعادة الملك الناصر ثالثاً وكتبوا له بذلك،فعادإلى القاهرة ودخلها في موكب حافل يوم الخميس ٢ شوّال سنة ٧٠٩[٥] واستمر هذه الدفعة في الملك إلى أن توفي ليلة الخميس ٢٠ ذي الحجة سنة ٧٤١[٦] ،وهو الذي أمر بحفر الخليج الناصري الذي يخترق القاهرة للآن،وخلف أحد عشر ولداً غير البنات تولى منهم السلطنة ثمانية وهم: أبو بكر وأحمد وكجك وشعبان واسمعيل وحاجي وحسن وصالح ،وفي آخر مدّته غضب على الخليفة المستكفي ونفاه إلى مدينة قوص[٧] بالصعيد في سنة ٧٣٨[٨] ،وأقام بها إلى أن توفي في شعبان سنة ٧٤٠[٩] موصياً بالخلافة بعده لابنه أبي العباس أحمد،لكن لم يتبع السلطان الناصر هذا العهد بل بايع أبو اسحق ابراهيم ابن أخ المستكفي ولقبه الواثق بالله .ولما توفي الناصر وتولى بعده ابنه الملك

---

(١) ١٥ صفر يوم الخميس في (١٣ كانون الأول ـ ديسمبر ١٢٩٦ م) .

(٢) يوم الخميس في (١٥ كانون الثاني ـ يناير ١٢٩٨ م) .

(٣) تبدأ هذه السنة يوم الجمعة في (٢١ حزيران ـ يونيو ١٣٠٨ م) .

(٤) يوم السبت في (٥ نيسان ـ ابريل ١٣١٠ م) .

(٥) يوم الخميس في (٥ آذار ـ مارس ١٣١٠ م) .

(٦) يوم الأربعاء في (٦ حزيران ـ يونيو ١٣٤١ م) .

(٧) قال ياقوت : قوص بالضم ثم السكون وصاد مهملة ، وهي مدينة كبيرة عظيمة واسعة قصبة صعيد مصر .

(٨) تبدأ هذه السنة يوم الأربعاء في (٣٠ تموز ـ يوليو ١٣٣٧ م) .

(٩) أول شعبان هو يوم الجمعة في (٣١ آذار ـ مارس ١٣٤٠ م) .

المنصور سيف الدين أبو بكر خلع الواثق بالله في المحرم سنة ٧٤٢ [١] ، وبايع أبا العباس أحمد بن المستكفي الذي كان عهد إليه أبوه بالخلافة ولقب الحاكم بأمر الله، وبقي في الخلافة إلى أن مات سنة ٧٥٤ [٢] .

هذا ولنذكر ما حصل في ملك مصر في هذه الأثناء فنقول: ولي مصر وملحقاتها بعد الناصر محمد بن قلاوون ابنه المنصور أبو بكر ثم قتل في صفر سنة ٧٤٣، وتولى بعده أخوه الأشرف علاء الدين كجك، وخلع في هذه السنة وتولى بعده أخوه الناصر شهاب الدين أحمد في شوّال سنة ٧٤٢ وخلع كذلك في محرم سنة ٧٤٢[٣]. وتولى بعده أخوه الملك الصالح علاء الدين أبو الفداء اسمعيل رابع أولاد الناصر ولم يخلع كإخوته بل توفي في ١١ ربيع الأوّل سنة ٧٤٦[٤] وتولى بعده أخوه الملك الكامل شعبان خامس أولاد الناصر وخلع ثم قتل في أوائل جمادى الآخرة سنة ٧٤٧[٥] وتولى بعده أخوه المظفر حاجي ثم قتل كغالب إخوته في رمضان سنة ٧٤٨[٦]. وبويع بعده أخوه الملك الناصر أبو المحاسن حسن في ١٤ رمضان، وهو صاحب الجامع العظيم الكائن بالقرب من القلعة، وعزل أوّلاً في ١٧ جمادي الآخرة سنة ٧٥٢[٧] وبويع أخوه الملك صلاح الدين ثامن أولاد الناصر محمد بن قلاوون في يوم الإثنين ١٨[٨] منه وهو آخر من ولي السلطنة من أولاده، وفي مدّته توفي الخليفة الحاكم سنة ٧٥٤[٩] وحصلت البيعة لابنه أبي بكر المعتضد بالله وهو خامس

---

(١) أول محرم هو يوم الأحد في (١٧ حزيران ـ يونيو ١٣٤١ م) .

(٢) أول هذه السنة يوم الأربعاء في (٦ شباط ـ فبراير ١٣٥٣ م) .

(٣) أول محرم هو يوم الخميس في (٦ حزيران ـ يونيو ١٣٤٢ م) .

(٤) يوم الثلاثاء في (١٢ تموز ـ يوليو ١٣٤٥ م).

(٥) أول هذا الشهر يوم الثلاثاء في (١٩ أيلول ـ سبتمبر ١٣٤٦ م) .

(٦) أول رمضان هو يوم الأربعاء في (٦ كانون الأول ـ ديسمبر ١٣٤٧ م) .

(٧) يوم الخميس في (١١ آب ـ أغسطس ١٣٥١ م) .

(٨) ١٨ جمادى الآخرة سنة ٧٥٢ يكون يوم الجمعة وليس يوم الاثنين .

(٩) أول هذه السنة يوم الأربعاء في (٦ شباط ـ فبراير ١٣٥٣ م) .

الخلفاء العباسيين في مصر، وبقيت خلافته لسنة ٧٦٣[١]، وفي خلالها عزل الملك صلاح الدين صالح في يوم الإثنين ثاني شوّال سنة ٧٥٥[٢] وحجز في دار الحريم إلى أن توفي سنة ٧٦٢ [٣]، وأعيد أخوه الملك الناصر حسن الذي سبق عزله في جمادى الآخرة سنة ٧٥٢، ثم قتل في يوم الأربعاء ٩ جمادى الأولى سنة ٧٦٢ [٤]، وتولى الملك المنصور محمد ابن أخي الملك المظفر حاجي بن الناصر محمد بن قلاوون وهو الحادي والعشرون من ملوك الترك بمصر.

وبعد سنة من توليته توفي الخليفة المعتضد بالله أبو بكر في ليلة الأربعاء ١٨ جمادى الآخرة سنة ٧٦٣ [٥]، وعهد قبل وفاته بالخلافة لولده محمد فبايعه السلطان وتلقب بالمتوكل على الله، وفي خلافته عزل السلطان الملك المنصور محمد في ٤ شعبان سنة ٧٦٤ [٦]، وولي الملك الأشرف أبي المعالي زين الدين شعبان بن مجد الدين حسين بن الناصر محمد بن قلاوون، ثم قتل الملك الأشرف في ذي القعدة[٧] سنة ٧٧٨ وتولى ابنه الملك المنصور علاء الدين عليّ وعمره سبع سنين وأشهر، وتوفي في ٢٣ صفر سنة ٧٨٣[٨] ولم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، وولي بعده أخوه الملك الصالح أمير حاج وهو آخر بني قلاوون خلعه الاتابكي برقوق باتفاق مع الخليفة المتوكل والقضاة وشيخ الإسلام في يوم الاربعاء ١٩ رمضان سنة ٧٨٤[٩].

دولة المماليك الجراكسة

وتولى السلطنة الاتابكي برقوق ولقب بالظاهر سيف الدين أبي سعيد، وبتوليته انتهى

---

(١) أول هذه السنة يوم الأحد في (٣١ تشرين الأول ـ اكتوبر ١٣٦١ م).

(٢) الاثنين في (٢٠ تشرين الأول ـ اكتوبر ١٣٥٤ م).

(٣) أول هذه السنة يوم الاربعاء في (١١ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٣٦٠ م).

(٤) (١٧ آذار ـ مارس ١٣٦١ م).

(٥) ١٨ من هذا الشهر يقع يوم الخميس وليس الأربعاء (١٤ نيسان ـ ابريل ١٣٦٢ م).

(٦) يوم الجمعة في (١٩ أيار ـ مايو ١٣٦٣ م).

(٧) أول هذا الشهر يوم الخميس في (١٢ آذار ـ مارس ١٣٧٧ م).

(٨) يوم الأحد في (١٩ أيار ـ مايو ١٣٨١ م).

(٩) يوم الأربعاء في (٢٦ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٣٨٢ م).

ملك بني قلاوون بعد أن لبثت السلطنة في قلاوون وذرّيته مدّة مائة سنة وثلاث سنوات. وابتدأت دولة المماليك الجراكسة. وفي سلطنته قبض على الخليفة المتوكل في سنة ٧٨٥ [١] وخلعه وسجنه، وبايع الخليفة الواثق بالله عمر ثم عزله في سنة ٧٨٨ [٢] وبايع أخاه زكريا ابراهيم وعزله في يوم الأحد ٥ جمادى الأولى سنة ٧٩١ [٣] وأعاد الخليفة المتوكل ثانياً بعد أن لبث في السجن مقيداً بالحديد نحو خمس سنين وبعد ذلك بشهر خلع الأمراء الظاهر برقوق في ٥ جمادى الثانية [٤]، وأعيد الملك الصالح أمير حاج آخر بني قلاوون ثانياً وتلقب بالمنصور، وبعد بضعة شهور عزل ثانياً في صفر سنة ٧٩٢ [٥]، وبقي محجوزاً في دار الحريم إلى أن مات في ١٩ شوّال سنة ٨١٤ [٦]، وعاد الملك الظاهر برقوق ودخل القاهرة في يوم الأربعاء ١٤ صفر سنة ٧٩٢ [٧] وبقي في السلطنة إلى أن مات في فراشه في ١٥ شوال سنة ٨٠١ [٨]. وتولى بعده ابنه الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج، وفي مدته وصل تيمورلنك [٩] إلى بلاد الشام وفتح حلب ودمشق وارتكب فيهما هو وعسكره ما لا يوصف من أنواع المظالم، وانتصر على السلطان بايزيد العثماني ابن مراد كما ستراه مفصلاً في هذا الكتاب. ثم حصل خلف بين السلطان الناصر وبعض أمرائه فاختفى في سنة ٨٠٨، وولي أخوه الملك المنصور عز الدين أبو العز عبد العزيز

---

(١) تبدأ هذه السنة يوم الجمعة في (٦ آذار ـ مارس ١٣٨٣ م) .

(٢) تبدأ هذه السنة يوم الجمعة في (٢ شباط ـ فبراير ١٣٨٦ م) .

(٣) (٢ أيار ـ مايو ١٣٨٩ م) .

(٤) هو يوم الثلاثاء في (١ حزيران ـ يونيو ١٣٨٩ م) .

(٥) أول صفر هو يوم الأربعاء في (١٩ كانون الثاني ـ يناير ١٣٩٠ م) .

(٦) يوم الأربعاء في (٣ شباط ـ فبراير ١٤١٢ م) .

(٧) ١٤ صفر يكون يوم الثلاثاء وليس الأربعاء (١ شباط ـ فبراير ١٣٩٠ م) .

(٨) يوم الجمعة في (٢٠ حزيران ـ يونيو ١٣٩٩ م) .

(٩) تيمورلنك : من أعاظم قادة العالم العسكريين ، وقد اشتهر بالعنف والتخريب ، ولد سنة ١٣٣٦م بالقرب من سمرقند ، ومات فيها سنة ١٤٠٥م بينما كان ينوي غزو الصين . وذلك بعد أن انبعث من أقاصي الشرق مكتسحاً ايران والعراق وسوريا.

وجلس على سرير الملك في ٢٦ ربيع الأول سنة ٨٠٨[١] وبعد شهرين ظهر أخوه الناصر واستولى على الإمارة ثانياً وقبض على أخيه المنصور عز الدين وسجنه في الحريم، وجلس هو على السرير في ٤ جمادى الآخرة سنة ٨٠٨[٢].

وبعد ذلك توفي الخليفة محمد المتوكل في ٢٨ رجب سنة ٨٠٨[٣] وبويع بعده بكر أولاده أبو العباس وتلقب المستعين بالله،وفي سنة ٨١٥[٤] عصي الأمراء على الملك الناصر ببلاد الشام بزعامة الأمير نوروز [٥] الحافظي والأمير شيخ المحمودي، فسار الناصر لمحاربتهم فانتصروا عليه في محرم وسجنوه ثم قتلوه بدمشق في ليلة السبت ٦ صفر [٦] .ولعدم اتفاقهم على من يعين خلفاً له منهم اتفقوا أخيراً حسماً للنزاع على تعيين الخليفة المستعين بالله سلطاناً ،فجمع بين السلطة الدينية والدنيوية، وبايعوه في ١٧ محرم سنة ٨١٥[٧] بشرط أن يكون الأمير نوروز نائباً على جميع بلاد الشام ،والأمير شيخ المحمودي نائباً بمصر.لكن لم يلبث الأمير شيخ أن طمع في الملك فعزل المستعين من السلطنة وأبقاه في الخلافة فقط كما كان قبلاً ،وتولى الأمير شيخ السلطنة في أول شعبان سنة ٨١٥[٨] وتلقب بالمؤيد أبي النصر ،وهو من مماليك الظاهر برقوق . ثم عزل المستعين من الخلافة وأرسله إلى الاسكندرية فأقام بها إلى أن توفي في ٢١ جمادى الآخرة سنة ٨٣٣[٩] .ولما عزل

---

(١) يوم الاثنين في (٢١ أيلول ـ سبتمبر ١٤٠٥ م) .

(٢) يوم الجمعة في (٢٧ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٤٠٥ م) .

(٣) يوم الثلاثاء في (١٩ كانون الثاني ـ يناير ١٤٠٥ م) .

(٤) هذه السنة تبدأ يوم الأربعاء في (١٣ نيسان ـ أبريل ١٤١٢ م) .

(٥) معناها اليوم الجديد ، ويحتفل الايرانيون بعيد النوروز وهو أول يوم من أيام فصل الربيع .

(٦) ٦ صفر ٨١٥ يكون يوم الأربعاء (١٨ أيار ـ مايو ١٤١٢ م) .

(٧) يوم الجمعة في (٢٩ نيسان ـ ابريل ١٤١٢ م) .

(٨) (٦ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٤١٢ م) .

(٩) يوم الأحد (٢٤ شباط ـ فبراير ١٤٣٢ م) .

بويع بعده أخوه داود ولقب المعتضد بالله .

هذا ولما استبد المؤيد بملك مصر عصاه الأمير نوروز نائب بلاد الشام،فحاربه المؤيد وقبض عليه وقتله، وبذلك صار له ملك مصر والشام معاً كما كان لسلفائه. وتوفي المؤيد في ٩ محرم سنة ٨٢٣ (١٤ يناير سنة ١٤٢١) ودفن بجامعه الذي أنشأه داخل باب زويلة أمام حمام السكرية ،وولي ابنه الملك المظفر أبو السعادات أحمد وعمره سنة واحدة وثمانية أشهر، وعين الأتابكي ططر نائباً عنه فعزله في ٢٩ شعبان سنة ٨٢٤ (٢٩ اغسطس سنة ١٤٢١) وتولى هو مكانه ولقب بالظاهر سيف الدين أبي سعيد ططر وهو من مماليك الظاهر برقوق، ثم سجن الملك المظفر ابن المؤيد بالاسكندرية إلى أن مات سنة ٨٣٣ [١] وعمره نحو إحدى عشرة سنة ولم تطل مدة الظاهر ططر ،بل توفي في ٤ ذي الحجة سنة ٨٢٤ [٢] (٣١ نوفمبر سنة ١٤٢١) ،وتولى بعده ابنه محمد وعمره إحدى عشرة سنة وتلقب بالملك الصالح ناصر الدين،ثم عزله الأمير برسباي الدقماقي أحد مماليك الظاهر برقوق في ٨ ربيع الآخر سنة ٨٢٥ (١ ابريل سنة ١٤٢٢) وسجنه إلى أن مات سنة ٨٣٣ ،وتولى هو مكانه وتلقب بالملك الأشرف أبي النصر وهو الثامن من ملوك الجراكسة والثاني والثلاثين من ملوك الترك ،وهو الذي استخلص جزيرة قبرص من الإفرنج سنة ٨٢٥ وبنى الجامع الكائن بأول الغورية وآخر بجبانة المجاورين وهو الذي دفن به،وأنشأ جامعاً وخانقاه بسرياقوس[٣] وتوفي في ١٣ ذي الحجة سنة ٨٤١ (٧ يونيه سنة ١٤٣٨) وتولى بعده ابنه يوسف وعمره أربع عشرة سنة وتلقب بالملك العزيز أبي المحاسن جمال الدين ،ولصغر سنه تولى إدارة الأمور الاتابكي جقمق[٤] أحد مماليك الظاهر

---

(١) تبدأ هذه السنة يوم الجمعة في (٣٠ أيلول ـ سبتمبر ١٤٢٩ م) .

(٢) ٤ ذي الحجة تكون يوم الأحد في ٣٠ تشرين الثاني ـ نوفمبر وليس ٣١ لأن هذا الشهر لا يكون الا ٣٠ يوماً .

(٣) قال ياقوت : سرياقوس : بفتح السين وتسكين الراء وفتح القاف وتسكين الواو وهي بليدة في نواحي القاهرة .

(٤) جقمق كلمة تركية معناها الصوان . والأتابك كلمة تترية استعملت زمن العباسيين بمعنى الوزير أو القائد .

برقوق،فطمع في الملك وخلع الملك العزيز في ١٩ ربيع الأول سنة ٨٤٢ (٩ ستمبر سنة ١٤٣٨) وتولى هو مكانه وتلقب الملك الظاهر أبي سعيد جقمق وهو عاشر ملك من مماليك الجراكسة .

وفي أيامه توفي أمير المؤمنين المعتضد بالله في ٤ ربيع الأول سنة ٨٤٥[1] وبويع بعده أخوه سليمان، ثالث من تولى الخلافة من أولاد المتوكل، وتلقب بالمستكفي بالله، وقد بايع أمير المؤمنين المعتضد في مدة خلافته وهي ـ ثمانية وعشرون سنة وكسور ـ ستة سلاطين : المظفر أحمد بن المؤيد شيخ، والظاهر ططر، وابنه الأشرف، برسباي، وابنه، والظاهر جقمق ، وتوفي المستكفي في ٢ محرم سنة ٨٥٥[2] وبويع بعده أخوه حمزة رابع أولاد المتوكل ولقب القائم بأمر الله، وفي خلافته مرض الملك الظاهر جقمق، فاستقال من السلطنة في ٢١ محرم سنة ٨٥٧[3] ،وولي ابنه عثمان وتلقب بالملك المنصور أبي السعادات فخر الدين،ثم توفي الظاهر جقمق في ٤ صفر سنة ٨٥٧ (١٤ فبراير سنة ١٤٥٣) ولم تدم سلطنة المنصور عثمان إلا نحو شهر ونصف اذ عزله الاتابك إينال العلائي أحد مماليك الظاهر برقوق في ٨ ربيع الأول سنة ٨٥٧ (١٩ مارس سنة ١٤٥٣) بعد حرب استمرت بين مماليك الطرفين مدة أسبوع ،وتولى اينال مكانه وتلقب بالملك الأشرف أبي النصر سيف الدين .

وفي رجب سنة ٨٥٩ خلع السلطان الخليفة المستكفي[4] وبايع أخاه يوسف خامس أولاد المتوكل في ١٣ [5] من هذا الشهر ولقبه بالمستنجد بالله أبي المحاسن ،وهو ثالث

---

(١) يوم الأحد في (٢٣ تموز ـ يوليو ١٤٤١ م) .

(٢) يوم الخميس في (٤ شباط ـ فبراير ١٤٥١ م) .

(٣) يوم الخميس في (١ شباط ـ فبراير ١٤٥٢ م) .

(٤) الخليفة لم يكن المستكفي بل كان أخوه حمزة القائم بأمر الله لأن المستكفي توفي سنة ٨٥٥ كما ذكر قبل سطور .

لقد حذف اسم الخليفة الأول الامام أحمد بن الظاهر الذي توفي في الحرب فور انتخابه خليفة . ولولا ذلك لكانوا ١٤ خليفة .

(٥) يوم الأحد في (٢٩ حزيران ـ يونيو ١٤٥٥) .

عشر خلفاء العباسيين بمصر ،وفي خلافته توفي السلطان الأشرف اينال في ١٥ جمادى الأولى سنة ٨٦٥ (٢٦ فبراير سنة ١٤٦١)،وتولى بعده ابنه أحمد وتلقب بالملك المؤيد أبي الفتح شهاب الدين وعزل بعد أربعة أشهر،عزله بعض الامراء المماليك في ١٧ رمضان سنة ٨٦٥ (٢٦ يونيه سنة ١٤٦١) وولوا بعده خوشقدم[1] مملوك المؤيد شيخ ،وأصله رومي الجنس وتلقب بالملك الظاهر أبي سعيد سيف الدين،ثم توفي خوشقدم في ١٠ ربيع الأول سنة ٨٧٢ (٩ اكتوبر سنة ١٤٦٧) تاركاً ولدين لكن لم يتفق الامراء على تعيين أحدهما، بل ولوا الأمير بلباي مملوك المؤيد شيخ وتلقب بالملك الظاهر أبي النصر سيف الدين وكان جركسي الأصل ،ولم يمكث في السلطنة إلا نحو شهرين، ثم وقعت فتنة بين مماليك السلطان إينال ومماليك المؤيد شيخ ،الذين منهم بلباي، ادّت إلى خلع بلباي في ٧ جمادى الأولى سنة ٨٧٢ (٤دسمبر سنة ١٤٦٧) وتولية تمربغا الرومي الجنس مملوك الظاهر جقمق، فبايعه الخليفة والقضاة والأمراء، وتلقب بالملك الظاهر أبي سعيد، ثم اختلف طوائف المماليك واقتتلوا، ثم اتفقوا على عزل تمربغا فعزلوه في ٦ رجب سنة ٨٧٢ (٣١ يناير سنة ١٤٦٨) وولوا قايتباي الجركسي الأصل ولقب بالملك الأشرف أبي النصر سيف الدين، فهدأت الأحوال في مدته وانقطعت الفتنة تقريباً ،وطالت مدته نحو ثلاثين سنة أنشأ في أثنائها كثيراً من المدارس والتكايا والجوامع ببلاد مصر والشام ومكة والمدينة، وتوفي في يوم الأحد ٢٧ القعدة سنة ٩٠١ (٧ اغسطس سنة ١٤٩٦) ودفن بالجامع الذي أنشأه بالقرافة ولم يزل موجوداً للآن شهيراً بحسن هندسته ولطافة نقوشه، وفي سلطنته توفي الخليفة المستنجد بالله في يوم السبت ٢٤ محرم سنة ٨٨٤[2] فكانت مدة خلافته خمساً وعشرين سنة تولى السلطنة فيها خمسة سلاطين وهم: المؤيد أحمد بن إينال، والظاهر خوشقدم، والظاهر بلباي، والظاهر تمربغا، والأشرف قايتباي.

وفي يوم ٢٦ محرم سنة ٨٨٤ بويع عبد العزيز بن يعقوب بن محمد المتوكل

---

(١) كلمة فارسية معناها ذو القدم الحسن وتعني الميمون.

(٢) يوم السبت في (١٧ نيسان – ابريل ١٤٧٩ م).

على الله ولقب المتوكل على الله أبو العز، وبقي في الخلافة تسع عشرة سنة وأياماً وتوفي في ٣٠ محرم سنة ٩٠٣[١]، وبويع بعده ابنه يعقوب ولقب المستمسك بالله أبو الصبر. وفي خلافة عبد العزيز بن يعقوب توفي السلطان قايتباي كما مر وتولى ابنه محمد قبل وفاة أبيه بيوم حيث اتفق الأمراء والخليفة والقضاة على عزل أبيه بسبب مرضه وعدم مقدرته على إدارة الأحوال، وتلقب بالملك الناصر أبي السعادات ناصر الدين، وكانت في أيامه فتن وحروب بين طوائف المماليك، كانت نتيجتها قتله في ١٥ ربيع الأول سنة ٩٠٤[٢]، وتولية أحد مماليك أبيه الجراكسة مكانه واسمه قانصوه وكان يدعي أنه أخ إحدى حظيات السلطان قايتباي وأم ولده محمد السلطان السابق، ولما ولي السلطنة بعد قتل ابن سيده وابن أخته حسب دعواه تلقب بالملك الظاهر أبي سعيد، واستمرت الفتن في أيامه مدة سنة وكسور، وأخيراً ثار عليه بعض الأمراء وحاربوه وانتصروا عليه في ٢٩ القعدة سنة ٩٠٥[٣] فهرب واختفى فاتفقوا على خلعه وتولية الأمير جان بلاط[٤] الجركسي مملوك قايتباي وبايعوه في ٢ ذي الحجة سنة ٩٠٥ وتلقب بالملك الأشرف أبي النصر، وفي السنة التالية شق الأمير طومان باي عليه عصا الطاعة، وذهب إلى دمشق واتفق مع بعض الأمراء على خلع السلطان جان بلاط فعملوا بذلك محضراً بحضور علماء وأمراء دمشق وتسمى بالملك العادل، ثم قصد مصر فوصلها في جمادى الأولى سنة ٩٠٦ ودخل القاهرة في ١١[٥] منه فتحصن جان بلاط في القلعة وحاصره العادل سبعة أيام ثم دخلها عنوة في ١٨ منه وقبض على جان بلاط وأحضر الخليفة والقضاة فقرروا بعزل جان بلاط وتجديد البيعة إلى طومان باي[٦] العادل، ثم أرسل جان

(١) يوم الخميس في (٢٨ أيلول ـ سبتمبر ١٤٩٧ م).
(٢) يوم الأربعاء في (٣١ تشرين الأول ـ اكتوبر ١٤٩٨ م).
(٣) يوم الجمعة في (٢٦ حزيران ـ يونيو ١٥٠٠ م).
(٤) وهو جد الأسرة الدرزية اللبنانية، وقد حرفوا الاسم وأصبح جنبلاط. وهو كردي الأصل.
(٥) يوم الخميس في (٣ كانون الأول ـ ديسمبر ١٥٠٠ م).
(٦) هي أصل لفظ (بك) الذي ما زال يستعمل في البلاد العربية، وقد أبطلته تركيا ورجعت الى كلمة باي وتلفظها قبل الاسم فيقولون باي علي، باي مصطفى الخ.

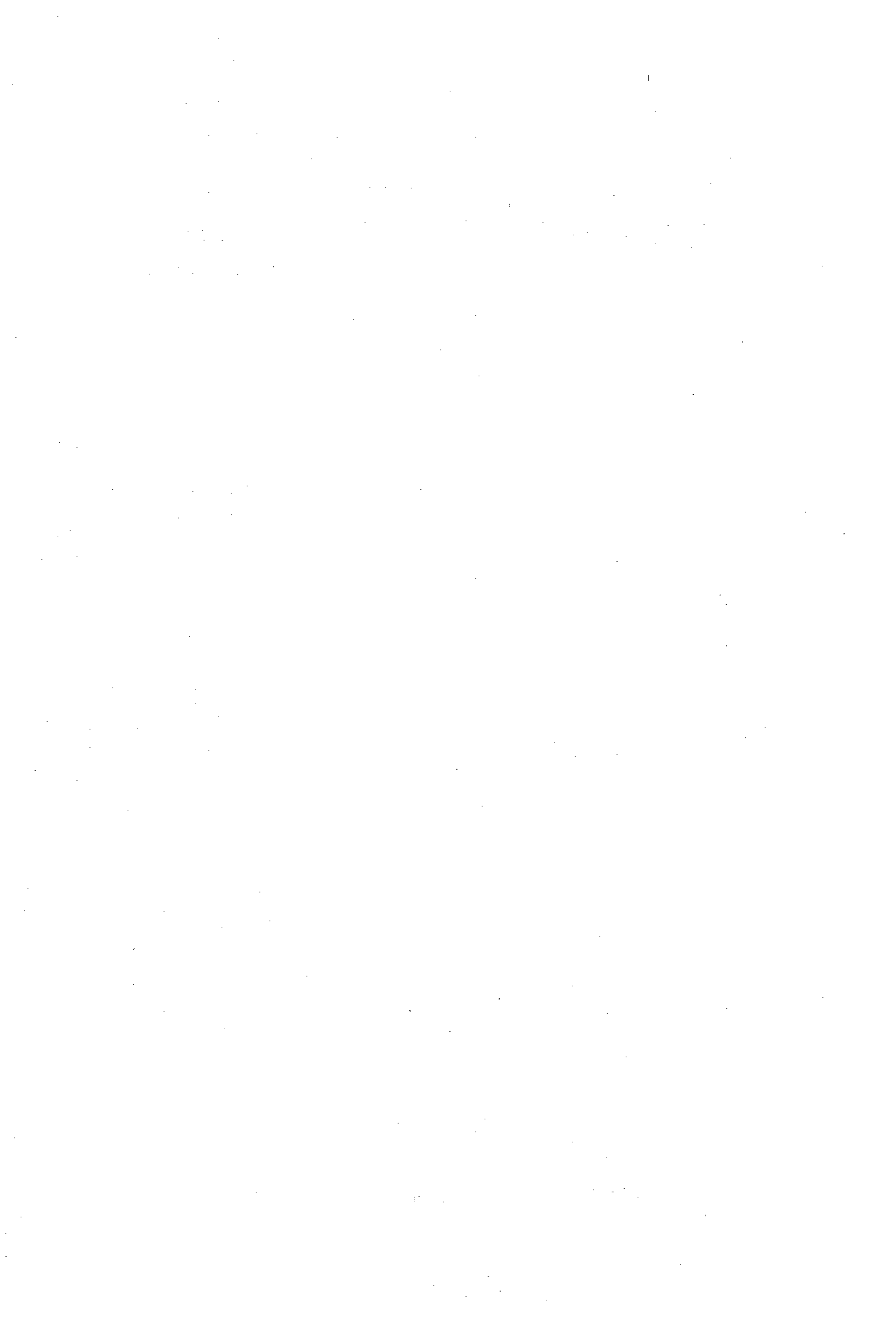
بلاط إلى سجن اسكندرية وأقام به إلى أن خنق بأمر العادل في ٤ شعبان سنة٩٠٦[١].
وفي أواخر رمضان سنة ٩٠٦ حصلت فتنة بين طوائف المماليك، ففرّ طومان باي واختفى ثم ضبط في ذي القعدة وقتل، وعقب فراره تولى الأمير قنصوه الغوري وتلقب بالملك الأشرف في مستهل شوال سنة ٩٠٦[٢]، وفي سلطنته عزل الخليفة المستمسك بالله يعقوب حوالي سنة ٩٢١[٣] وبويع ابنه محمد وتلقب بالمتوكل على الله وهو سادس عشر الخلفاء العباسيين وآخرهم بالديار المصرية وفي خلافته قصد السلطان الغازي سليم العثماني بلاد الشام ومصر ليفتحها بسبب التجاء أخيه كركود إلى مصر واحتمائه عند الغوري، كما تراه مفصلاً في هذا الكتاب وحصلت موقعة هائلة بين عساكر الغوري والعثمانيين بمرج دابق بجوار حلب في يوم الأحد ٢٥ رجب سنة ٩٢٢ (٢٤ اغسطس سنة ١٥١٦)، فانتصر العثمانيون وقتل الغوري في أثناء القتال، ودخل السلطان سليم مصر عقب ذلك في أوائل محرم سنة ٩٢٣. وعقب واقعة مرج دابق أخذ أمير المؤمنين المتوكل ضمن الأسرى، فاكرمه السلطان سليم غاية الإكرام، وبقي معه إلى أن أرسله إلى الاستانة، وهناك حصلت المبايعة منه إلى السلطان سليم العثماني، فانتقلت الخلافة الإسلامية إلى ملوك بني عثمان من ذلك التاريخ، ولما وصل خبر موت الغوري إلى مصر اتفق الأمراء بعد جدال وشقاق على تولية الأمير طومان باي الثاني فبايعوه بالقلعة يوم الخميس ١٤ رمضان سنة ٩٢٢ (١١ اكتوبر سنة ١٤١٦)، وحضر البيعة أمير المؤمنين يعقوب المستمسك بالله المعزول لوجود ابنه الخليفة الحالي بحلب ضمن أسرى السلطان سليم، وكان تولى الخلافة بتوكيل مطلق من ولده المتوكل والقضاة والعلماء، وقام طومان باي بمحاربة العثمانيين عدة أشهر، ثم هرب والتجأ إلى الشيخ حسن بن مرعي أحد مشايخ عربان البحيرة فاظهر له الصداقة ثم سلمه إلى السلطان سليم فشنقه على باب زويله في

---

(١) يوم الثلاثاء في (٢٣ شباط ـ فبراير ١٥٠١ م).
(٢) أول شوال ٩٠٦ يوم الثلاثاء في (٢٠ نيسان ـ ابريل ١٥٠١ م).
(٣) تبدأ سنة ٩٢١ يوم الخميس في (١٥ شباط ـ فبراير ١٥١٥ م).

يوم الاثنين ٢١ ربيع الأول سنة ٩٢٣ (١٣ ابريل سنة ١٥١٧) ،وبذلك استتب الملك لدولة بني عثمان العلية الشان ،حفظها الله ملحوظة بعنايته الصمدانية إلى آخر الزمان .

﴿انتهت المقدّمة﴾



الخُلفاءُ العبّاسيُّون في بَغداد

١ ـ أبو العباس السفاح
٧٥٠ ـ ٧٥٤ م
١٣٢ ـ ١٣٦ هـ

٢ ـ أبو جعفر المنصور
٧٥٤ ـ ٧٧٥ م
١٣٦ ـ ١٥٨ هـ

٣ ـ محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور
٧٧٥ ـ ٧٨٥ م
١٥٨ ـ ١٦٩ هـ

٤ ـ موسى الهادي بن محمد المهدي
٧٨٥ ـ ٧٨٦ م
١٦٩ ـ ١٧٠ هـ

٥ ـ هرون الرشيد بن محمد المهدي
٧٨٦ ـ ٨٠٩ م
١٧٠ ـ ١٩٣ هـ

٦ ـ الأمين بن هرون الرشيد (قتل)
٨٠٩ ـ ٨١٣ م
١٩٣ ـ ١٩٨ هـ

٧ ـ المأمون بن هرون الرشيد
٨١٣ ـ ٨٣٣ م
١٩٨ ـ ٢١٨ هـ

---

(١) أضيفت هذه الجداول من قبل المحقق لتيسير الرجوع الى سنوات حكم كل خليفة أو ملك.

٨ ـ محمد المعتصم بالله بن هرون الرشيد (وهو أول من اضيف اسم الله إلى اسمه)
٨٣٣ ـ ٨٤٢ م
٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ
٩ ـ هرون الواثق بالله بن المعتصم بالله
٨٤٢ ـ ٨٤٧ م
٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ
١٠ ـ جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بالله (قتل)
٨٤٧ ـ ٨٦١ م
٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ
١١ ـ المنتصر بالله بن المتوكل على الله (قتل)
٨٦١ ـ ٨٦٢ م
٢٤٧ ـ ٢٤٨ هـ
١٢ ـ أحمد المستعين بالله بن محمد المعتصم بالله (خلع ثم قتل)
٨٦٢ ـ ٨٦٦ م
٢٤٨ ـ ٢٥٢ هـ
١٣ ـ المعتز بالله بن المتوكل على الله (قتل صبراً)
٨٦٦ ـ ٨٧٠ م
٢٥٢ ـ ٢٥٥ هـ
١٤ ـ محمد المهتدي بن الواثق بالله (قتل)
٨٧٠ ـ ٨٧٠ م
٢٥٥ ـ ٢٥٦ هـ
١٥ ـ أحمد أبو العباس المعتمد على الله بن المتوكل على الله
٨٧٠ ـ ٨٩٢ م
٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ
١٦ ـ أحمد أبو العباس المعتضد بالله بن الموفق بن المتوكل على الله
٨٩٢ ـ ٩٠٢ م ٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ

١٧ ـ علي المكتفي بالله بن المعتضد بالله

٩٠٢ ـ ٩٠٨ م

٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ

١٨ ـ جعفر أبو الفضل المقتدر بالله بن المعتضد بالله (خلع مرتين ثم قتل في الحرب)

٩٠٨ ـ ٩٣٢ م

٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ

١٩ ـ عبد الله بن المعتز الراضي بالله (ولي الخلافة يوماً واحداً)

٩٠٩ م ـ ٢٩٦ هـ

٢٠ ـ محمد القاهر بالله بن المعتضد بالله

٩٣٢ ـ ٩٣٤ م

٣٢٠ ـ ٣٢٢ هـ

٢١ ـ أحمد أبو العباس الراضي بالله بن المقتدر

٩٣٤ ـ ٩٤٠ م

٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ

٢٢ ـ ابراهيم المتقي بالله بن المقتدر بالله

٩٤٠ ـ ٩٤٥ م

٣٢٩ ـ ٣٣٣ هـ

٢٣ ـ عبد الله أبو القاسم المستكفي بالله بن المكتفي (سملت عيناه وسجن حتى مات)

٩٤٥ ـ ٩٤٦ م

٣٣٣ ـ ٣٣٤ هـ

٢٤ ـ المطيع لله ابن المقتدر (خلع نفسه)

٩٤٦ ـ ٩٧٤ م

٣٣٤ ـ ٣٦٣ هـ

٢٥ ـ عبد الكريم أبو بكر الطائع لله بن المطيع

٩٧٤ ـ ٩٩١ م

٣٦٣ ـ ٣٨١ هـ

٢٦ ـ أحمد أبو العباس القادر بالله بن الأمير اسحق بن المقتدر بالله

٩٩١ ـ ١٠٣١ م

٣٨١ ـ ٤٢٢ هـ

٢٧ ـ عبدالله أبو جعفر القائم بأمر الله بن القادر بالله

١٠٣١ ـ ١٠٧٥م

٤٢٢ ـ ٤٦٧ هـ

٢٨ ـ عبد الله المقتدي بأمر الله حفيد القائم بأمر الله لأن أباه مات قبله

١٠٧٥ ـ ١٠٩٤ م

٤٦٧ ـ ٤٨٧ هـ

٢٩ ـ أحمد أبو العباس المستظهر بالله بن المقتدي بأمر الله

١٠٩٤ ـ ١١١٨م

٤٨٧ ـ ٥١٢ هـ

٣٠ ـ أبو منصور فضل المسترشد بالله بن المستظهر بالله (قتله الباطنيون)

١١١٨ ـ ١١٣٥ م

٥١٢ ـ ٥٢٩ هـ

٣١ ـ أبو جعفر المنصور الراشد بالله بن المستظهر بالله (خلعه السلطان مسعود)

١١٣٥ ـ ١١٣٦ م

٥٢٩ ـ ٥٣٠ هـ

٣٢ ـ محمد المقتفي لأمر الله بن المستظهر بالله

١١٣٦ ـ ١١٦٠ م

٥٣٠ ـ ٥٥٥ هـ

٣٣ ـ يوسف المستنجد بالله بن المستظهر بالله

١١٦٠ ـ ١١٧٠ م

٥٥٥ ـ ٥٦٦ هـ

٣٤ ـ أبو محمد الحسن المستضيء بأمر الله بن المستنجد بالله

١١٧٠ ـ ١١٨٠م

٥٦٦ ـ ٥٧٥ هـ

٣٥ ـ الناصر لدين الله بن المستضيء بأمر الله

١١٨٠ ـ ١٢٢٥م

٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ

٣٦ ـ أبو النصر محمد الظاهر بأمر الله بن الناصر لدين الله

١٢٢٥ ـ ١٢٢٦ م

٦٢٢ ـ ٦٢٣ هـ

٣٧ ـ أبو جعفر المنصور المستنصر بالله بن الظاهر بأمر الله

١٢٢٦ ـ ١٢٤٢ م

٦٢٣ ـ ٦٤٠ هـ

٣٨ ـ أبو أحمد عبد الله المستعصم بالله بن المستنصر بالله (قتله التتر)

١٢٤٢ ـ ١٢٥٨م

٦٤٠ ـ ٦٥٦ هـ

الخُلفاءُ العبَّاسِيُّون في مصر

١ ـ الإمام أحمد بن الخليفة الظاهر بالله

١٢٦١ ـ ١٢٦١م

٦٥٩ ـ ٦٥٩ هـ

٢ ـ الإمام أحمد بن علي بن أبي بكر الحاكم بأمر الله ابن الخليفة المسترشد ابن الخليفة المستظهر

١٢٦٢ ـ ١٣٠٢ م

٦٦٠ ـ ٧٠١ هـ

٣ ـ أبو الربيع سليمان المستكفي بالله

١٣٠٢ ـ ١٣٣٧ م

٧٠١ ـ ٧٤٠ هـ

٤ ـ أبو اسحق ابراهيم الواثق بالله وهو ابن أخي المستكفي (خلع)

١٣٣٧ ـ ١٣٤١م

٧٤٠ ـ ٧٤٢ هـ

٥ ـ أبو العباس أحمد الحاكم بأمر الله بن المستكفي

١٣٤١ ـ ١٣٥٣ م

٧٤٢ ـ ٧٥٤ هـ

٦ ـ أبو بكر المعتضد بالله بن المستكفي

١٣٥٣ ـ ١٣٦٢ م

٧٥٤ ـ ٧٦٣ هـ

٧ ـ محمد المتوكل على الله بن المعتضد بالله (خلع وسجن)

١٣٦٢ ـ ١٣٨٣ م

٧٦٣ ـ ٧٨٥ هـ

٨ ـ محمد الواثق بالله عمر (خلع)

١٣٨٣ ـ ١٣٨٦ م

٧٨٥ ـ ٧٨٨ هـ

٩ ـ زكريا ابراهيم أخو الواثق

١٣٨٦ ـ ١٣٨٩ م

٧٨٨ ـ ٧٩١ هـ

ـ محمد المتوكل على الله (ثانية)

١٣٨٩ ـ ١٤٠٥م

٧٩١ ـ ٨٠٨ هـ

(إذا حسبت خلافته الثانية يكون عدد الخلفاء ١٧ خليفة وإذا لم تحسب يكونون ١٦ فقط مع حذف الخليفة الأول أيضاً) .

١٠ ـ أبو العباس المستعين بالله بن محمد المتوكل (خلع)

١٤٠٥ ـ ١٤١٤م

٨٠٨ ـ ٨١٧ هـ

١١ ـ داود المعتضد بالله بن محمد المتوكل

١٤١٤ ـ ١٤٤١م

٨١٧ ـ ٨٤٥ هـ

١٢ ـ سليمان المستكفي بالله أخو المعتضد بالله بن محمد المتوكل

١٤٤١ ـ ١٤٥١م

٨٤٥ ـ ٨٥٥ هـ

١٣ ـ حمزة القائم بأمر الله بن محمد المتوكل

١٤٥١ ـ ١٤٥٥م

٨٥٥ ـ ٨٥٩ هـ

١٤ ـ يوسف المستنجد بالله أبو المحاسن بن محمد المتوكل على الله

١٤٥٥ ـ ١٤٧٩م

٨٥٩ ـ ٨٨٤ هـ

١٥ ـ عبد العزيز ابو المعز المتوكل على الله حفيد المتوكل على الله

١٤٧٩ ـ ١٤٩٨ م

٨٨٤ ـ ٩٠٣ هـ

١٦ ـ يعقوب أبو الصبر المستمسك بالله بن عبد العزيز (خلع)

١٤٩٨ ـ ١٥١٥ م

٩٠٣ ـ ٩٢١ هـ

١٧ ـ محمد المتوكل على الله بن يعقوب ابو الصبر

١٥١٥ ـ ١٥١٦م

٩٢١ ـ ٩٢٢ هـ

دولة المماليك

١ ـ المماليك البحرية

١ ـ عز الدين ايبك (قتل)
١٢٥٠ ـ ١٢٥٧ م

٢ ـ نور الدين علي بن عز الدين (خلع)
١٢٥٧ ـ ١٢٥٨ م

٣ ـ المظفر سيف الدين قطز (قتل)
١٢٥٨ ـ ١٢٦٠ م

٤ ـ الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري
١٢٦٠ ـ ١٢٧٧ م

٥ ـ الملك السعيد أبو المعالي محمد (خلع)
١٢٧٧ ـ ١٢٧٩ م

٦ ـ الملك العادل سيف الدين بن الظاهر (خلع)
١٢٧٩ ـ ١٢٧٩ م

٢ ـ المماليك البرجية

١ ـ قلاوون الالفي المنصور سيف الدين
١٢٧٩ ـ ١٢٩٠ م
٢ ـ صلاح الدين خليل الأشرف بن قلاوون
١٢٩٠ ـ ١٢٩٣ م
٣ ـ الملك الناصر محمد بن قلاوون (خلع)
١٢٩٣ ـ ١٢٩٤ م
٤ ـ الملك العادل كتبغا (خلع)
١٢٩٤ ـ ١٢٩٦ م
٥ ـ المنصور حسام الدين لاجين (خلع)
١٢٩٦ ـ ١٢٩٨ م
٦ ـ الناصر محمد بن قلاوون (ثانية) (خلع ثانية)
١٢٩٨ ـ ١٣٠٨ م
٧ ـ المظفر ركن الدين بيبرس (خلع)
١٣٠٨ ـ ١٣٠٨ م
٨ ـ الناصر محمد بن قلاوون (ثالثة)
١٣٠٨ ـ ١٣٤١ م
٩ ـ المنصور أبو بكر بن قلاوون (قتل)
١٣٤١ ـ ١٣٤٢ م
١٠ ـ الأشرف علاء الدين كجك (خلع)
١٣٤٢ ـ ١٣٤٢ م
١١ ـ الناصر شهاب الدين أحمد الملك الصالح (خلع)
١٣٤٢ ـ ١٣٤٢ م

١٢ ـ الملك الصالح علاء الدين أبو الفداء اسماعيل
١٣٤٢ ـ ١٣٤٥م
١٣ ـ الملك الكامل شعبان (خلع ثم قتل)
١٣٤٥ ـ ١٣٤٦ م
١٤ ـ المظفر حاجي (قتل)
١٣٤٦ ـ ١٣٤٧م
١٥ ـ الملك الناصر أبو المحاسن حسن (خلع)
١٣٤٧ ـ ١٣٥١م
١٦ ـ الملك صلاح الدين صالح (خلع وسجن حتى مات)
١٣٥١ ـ ١٣٥٤ م
١٧ ـ الملك الناصر أبو المحاسن حسن (ثانية)
١٣٥٤ ـ ١٣٦١ م
١٨ ـ الملك المنصور صلاح الدين محمد بن المظفر حاجي (خلع)
١٣٦١ ـ ١٣٦٣ م
١٩ ـ الملك الأشرف أبو المعالي زين الدين شعبان (قتل)
١٣٦٣ ـ ١٣٧٧ م
٢٠ ـ الملك المنصور علاء الدين علي بن الأشرف
١٣٧٧ ـ ١٣٨١م
٢١ ـ الملك الصالح أمير حاج بن الأشرف
١٣٨١ ـ ١٣٨٢ م
وهو آخر سلاطين المماليك الاتراك.

٣ ـ المماليك الشراكسة

٢٢ ـ برقوق الظاهر سيف الدين (خلع)
١٣٨٢ ـ ١٣٨٩ م

٢٣ ـ الملك الصالح أمير حاج (ثانية وتلقب بالمنصور (خلع ثانية وسجن حتى مات)
١٣٨٩ ـ ١٣٨٩ م

٢٤ ـ الملك الظاهر برقوق (ثانية)
١٣٨٩ ـ ١٣٩٩ م

٢٥ ـ الملك الناصر زين الدين أبو السعادات خرج (اختفى ثم ظهر)
١٣٩٩ ـ ١٤٠٥ م

٢٦ ـ الملك المنصور عز الدين أبو العز عبد العزيز (خلع وسجن)
١٤٠٥ ـ ١٤٠٥ م

٢٧ ـ الناصر زين الدين أبو السعادات (ثانية) (قتل)
١٤٠٥ ـ ١٤١٢ م

٢٨ ـ الخليفة المستعين بالله (جمع بين الخلافة والسلطنة)
١٤١٢ ـ ١٤١٢ م

٢٩ ـ الأمير شيخ المؤيد أبو النصر
١٤١٢ ـ ١٤٢١ م

٣٠ ـ الملك المظفر أبو السعادات أحمد (خلع)
١٤٢١ ـ ١٤٢١ م

٣١ ـ الظاهر سيف الدين أبو سعيد ططر
١٤٢١ ـ ١٤٢١ م

٣٢ ـ محمد بن ططر الملك الصالح ناصر الدين (خلع وسجن)
١٤٢١ ـ ١٤٢٢ م

٣٣ ـ الأمير برسباي الدقماقي الملك الأشرف أبو النصر

١٤٢٢ ـ ١٤٣٨م

وهو الثاني والثلاثون من ملوك المماليك الاتراك البرجية إذا استثنينا مدة ملك الخليفة المستعين ،وهو الثامن من ملوك الشراكسة إذا استثنينا الملك أمير حاج البرجي ولم نعتبر الملكية المتكررة .

٣٤ ـ الملك العزيز أبو المحاسن جمال الدين (خلع)

١٤٣٨ ـ ١٤٣٨م

٣٥ ـ الملك الظاهر أبوسعيد جقمق (استقال)

١٤٣٨ ـ ١٤٥٢م

٣٦ ـ الملك المنصور أبو السعادات فخر الدين عثمان (خلع)

١٤٥٢ ـ ١٤٥٣م

٣٧ ـ إينال العلائي الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين

١٤٥٣ ـ ١٤٦١م

٣٨ ـ الملك المؤيد أحمد أبو الفتح شهاب الدين (خلع)

١٤٦١ ـ ١٤٦١م

٣٩ ـ خُوشقدم الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين

١٤٦١ ـ ١٤٦٧م

٤٠ ـ بلباي الملك الظاهر أبو النصر سيف الدين (خلع)

١٤٦٧ ـ ١٤٦٧م

٤١ ـ تمر بغا الملك الظاهر أبو سعيد (خلع)

١٤٦٧ ـ ١٤٩٦م

٤٢ ـ الملك الناصر أبو السعادات ناصر الدين (خلع)

١٤٩٦ ـ ١٤٩٨م

٤٣ ـ قانصوه الملك الظاهر أبو سعيد

١٤٩٨ ـ ١٥٠٠م

٤٤ ـ الأمير جان بلاط الملك الأشرف أبو النصر (خلع وسجن وخنق)
١٥٠٠ ـ ١٥٠١م
٤٥ ـ طومان باي الملك العادل
١٥٠١ ـ ١٥٠٢م
٤٦ ـ قنصوه الغوري الملك الأشرف (قتل في الحرب)
١٥٠٢ ـ ١٥١٦م
٤٧ ـ طومان باي الثاني (شنق)
١٥١٦ ـ ١٥١٧م



١ -

السلطان الغازي عثمان خان الأول[1]

بعد أن بلغت الدولة العباسية أوج التقدّم والتمدن في خلافة هرون الرشيد وابنه المأمون الذي ترجمت في أيامه أغلب كتب اليونان وتقدّمت العلوم تحت وارف ظلها تقدّماً لم تبلغه الدول الإسلامية[2] قبل عصره أخذت الدولة في التقهقر

---

(١) من التقاليد التي يجب أن تعرف والتي طويت مع انتهاء حياة السلطنة العثمانية ولكنها ستظل محفوظة في الكتب هي أن لقب تشريف الملوك وأفراد الأسرة المالكة كان لفظ (أفندي) الذي يعني (السيد) وهذا اللفظ كان يطلق ، زمن الدولة العثمانية ، على كل مواطن لا يحمل ألقاباً تشريفية أخرى مثل لفظ (بك) و(باشا) ولا زال لفظ أفندي مستعملاً ، بصورة غير رسمية، في بعض البلاد العربية التي كانت تشكل جزءاً من الدولة العثمانية . أما السلطان فإنه كان يخاطب أو يذكر في غيبته بلفظ (پادشاه أفندي مز) أي سيدنا السلطان ولكن لقبه الرسمي ولا سيما في المكتبات فهو لفظ (خان) فيقولون : عبد الحميد خان ، ووحيد الدين خان الخ .

ولفظ (خان) لفظ تركي قديم معناه (السيد) ولا يزال هذا اللفظ هو لفظ التشريف الوحيد لكل مواطن في أفغانستان ويتمتع به بقايا من الناس في الهند وباكستان .

وكما كان يوجد في الدولة العثمانية لقب (بكلر بك) ، يلفظ بيلربه ، أي بك البكوات أو سيد السادات ، ويوجد حيّ في استانبول بهذا الاسم ، فإنه كان يوجد في البلاد التي تستعمل لفظ خان لقب (خـانخانان) أي سيد السادات أيضاً . وكان أولاد السلاطين العثمانيين يخاطبون بلفظ أفندي الا اذا منحوا لقباً يوجبه العمل الحكومي الذي انيط بهم .

(٢) قال : الدول الاسلامية ، والحقيقة هي انه لم يكن يوجد قبل العباسيين الا دولة الأمويين ودولة الخلفاء الراشدين من الدول الإسلامية .

شيئاً فشيئاً تبعاً لناموس الحياة الطبيعية القاضي بالهرم بعد الشبيبة ،سنة الله في خلقه[1] ولن تجد لسنة الله تبديلاً .واستمر الانحلال ينخر عظامها حتى أنها سقطت بسقوط دار السلام[2] في قبضة قبائل التتار في ٢٠ محرم سنة ٦٥٦ هجرية ١٢٥٨ م وقتلهم الخليفة المستعصم بالله آخر العباسيين ببغداد بعد أن لبثت دولتهم زيادة عن خمسة قرون دعامة التمدّن الاسلامي .

ومن ثم لم يكن للاسلام بعدها دولة عظيمة تحمي بيضته وتضم أشتاته بل ضاعت وحدته الملكية واستقل كل حاكم بما وكل إليه أمره من العمالات (الأقاليم). واستمر الحال على هذا المنوال إلى أن قيض الله للاسلام تأسيس الدولة العلية العثمانية فجمعت تحت رايتها أغلب البلاد الاسلامية وفتحت كثيراً من الأقاليم التي لم يسبق تحليها بحلية الدين الحنيف ،وأعادت للاسلام قوّته وأعلت بين الأنام كلمته .

---

(١) ان كلمة (ناموس الحياة) الذي يطلقه بعض الناس خطأً على الدول تشبيهاً لها بالكائنات الحية ذات الأعمار المحدودة ، هو تشبيه غير واقعي لأن الدول كالأنهار تستمد حياتها من الأجيال الجديدة المتدفقة في نهر الحياة ، فإذا كانت هذه الأجيال حية جادة نشيطة منصرفة الى العلم والعمل جددت بلادها كما يجدد ماء النهر المتدفق حياة النهر لحظة بعد لحظة ولا يموت النهر الا اذا انقطع الماء،وكذلك لا تموت الدول الا اذا كانت الأجيال المنبعثة أجيالاً غير صالحة للحياة فتموت ليرث الله الأرض أجيالاً صالحة .

فالدول تعيش ما دام الكون قائماً اذا كانت هذه الدول تعمل في نطاق عقيدة سامية ونظام معقول يساير الزمن ويخدم العلم ويماشي العقل والمنطق ولا يموت من الدول الا التي تنحرف عن هذه المبادئ .

(٢) هي مدينة بغداد ولا أزيدك بها علماً ، أسسها الخليفة أبو جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين وشرع في تخطيطها سنة ١٤٥هـ وأتم بناءها سنة ١٤٩هـ، وهي قائمة على ضفتي نهر الدجلة تبعد عن مصب نهر شط العرب المكون من نهري الدجلة والفرات في الخليج الفارسي بنحو خمسمائة ميل. وقد سمي الجانب الشرقي منها بالرصافة والغربي بالكرخ ثم تمت وارتقت في أيام العباسيين خصوصاً هارون الرشيد والمأمون الذي أنشأ فيها مرصداً فلكياً وبلغ عدد سكانها سنة ٢١٦ هـ نحو مليونين من النفوس .

ومؤسس هذه الدولة هو أرطغرل بن سليمان شاه[1] التركماني قائد إحدى قبائل الترك النازحين من سهول آسيا الغربية إلى بلاد آسيا الصغرى ،وذلك أنه كان راجعاً إلى بلاد العجم بعد موت أبيه غرقاً عند اجتيازه أحد الأنهر إذ شاهد جيشين مشتبكين فوقف على مرتفع من الأرض ليمتع نظره بهذا المنظر المألوف لدى الرحل من القبائل الحربية ،ولما آنس الضعف في أحد الجيشين وتحقق انكساره وخذلانه إن لم يمدّ إليه يد المساعدة دبت فيه النخوة الحربية ونزل هو وفرسانه مسرعين لنجدة أضعف الجيشين وهاجم الجيش الثاني بقوّة وشجاعة عظيمتين حتى وقع الرعب في قلوب الذين كادوا يفوزون بالنصر ، لولا هذا المدد الفجائي ، وأعمل فيهم السيف والرمح ضرباً ووخزاً حتى هزمهم شر هزيمة وكان ذلك في أواخر القرن السابع للهجرة .

وبعد تمام النصر علم أرطغرل بأن الله قد قيضه لنجدة الأمير علاء الدين سلطان قونية إحدى الإمارات السلجوقية التي تأسست عقب انحلال دولة آل سلجوق بموت السلطان (ملك شاه) في ١٥ شوال سنة ٤٨٥ (١٨ نوفمبر سنة ١٠٩٢ م)[2] فكافأه علاء الدين على مساعدته له باقطاعه عدة أقاليم ومدن وصار لا يعتمد في حروبه مع مجاوريه إلا عليه وعلى رجاله.وكان عقب كل انتصار يقطعه أراضي جديدة ويمنحه أموالاً جزيلة ثم لقب قبيلته بمقدمة السلطان لوجودها دائماً في مقدمة الجيوش وتمام النصر على يديه.وفي غضون ذلك تزوج عثمان أكبر أولاد أرطغرل ببنت رجل صالح كان رآها مصادفة عند والدها وعلق بها ولكن أبى والدها أن يزوجها له فحزن عثمان لذلك وأظهر الصبر والجلد ولم يرغب الاقتران بغيرها حتى قبل أبوها بعد أن قص عليه عثمان مناماً رآه ذات ليلة في بيت هذا

---

(١) شاه معناه ملك ولكنه اذا جاء بعد الاسم فإنه يعني السيد كما أن مسلمي الهند وباكستان يطلقونه على أولاد فاطمة للتعظيم .

(٢) لما سقطت دولة السلجوقيين تجزأت أملاكهم في بلاد الأناضول الى عشر امارات صغيرة وهي قرەسي وصاروخان وآيدين وتكه والحميد والقرمان وكرميان وقسطموني ومنتشا وقونية، ثم ضمت بالفتح الى مملكة آل عثمان .

الصالح .وهو أنه رأى القمر صعد من صدر هذا الشيخ وبعد أن صار بدراً نزل في صدره أي في صدر عثمان ثم خرجت من صلبه شجرة نمت في الحال حتى غطت الأكوان بظلها ،ونظر أكبر الجبال تحتها، وخرج النيل والدجلة والفرات والطونة[1] من جذعها ورأى ورق هذه الشجرة كالسيوف يحولها الريح نحو مدينة القسطنطينية .

فتفاءل الشيخ من هذا المنام وزوجه ابنته ،ومع اعتقادنا أن هذا المنام لا بد أن يكون موضوعاً كما يضع المؤرخون مثل هذه الاحلام لتعليل ظهور وتقدم كل دولة سواء كان في ممالك الشرق أو الغرب ، فقد ذكرناه تتميماً للفائدة .وقبل أن يبني بها كان طلبها أمير أسكي شهر[2] فرفض والدها طلبه فحنق على عثمان لما تزوجها وأراد أن يفتك به فهاجمه في قصر أحد مجاوريه وطلب من صاحب القصر أن يسلمه إليه فأبى ثم خرج عليه عثمان ومن معه ورده على عقبه، وأسر كوسه ميخائيل أحد من كان معه من الأمراء، ولكثرة إعجاب هذا الأمير بشجاعة عثمان تعلق به وصار من أخصائه ثم أسلم وبقيت ذريته مشهورة في تاريخ الدولة باسم عائلة ميخائيل أوغلى[3] .

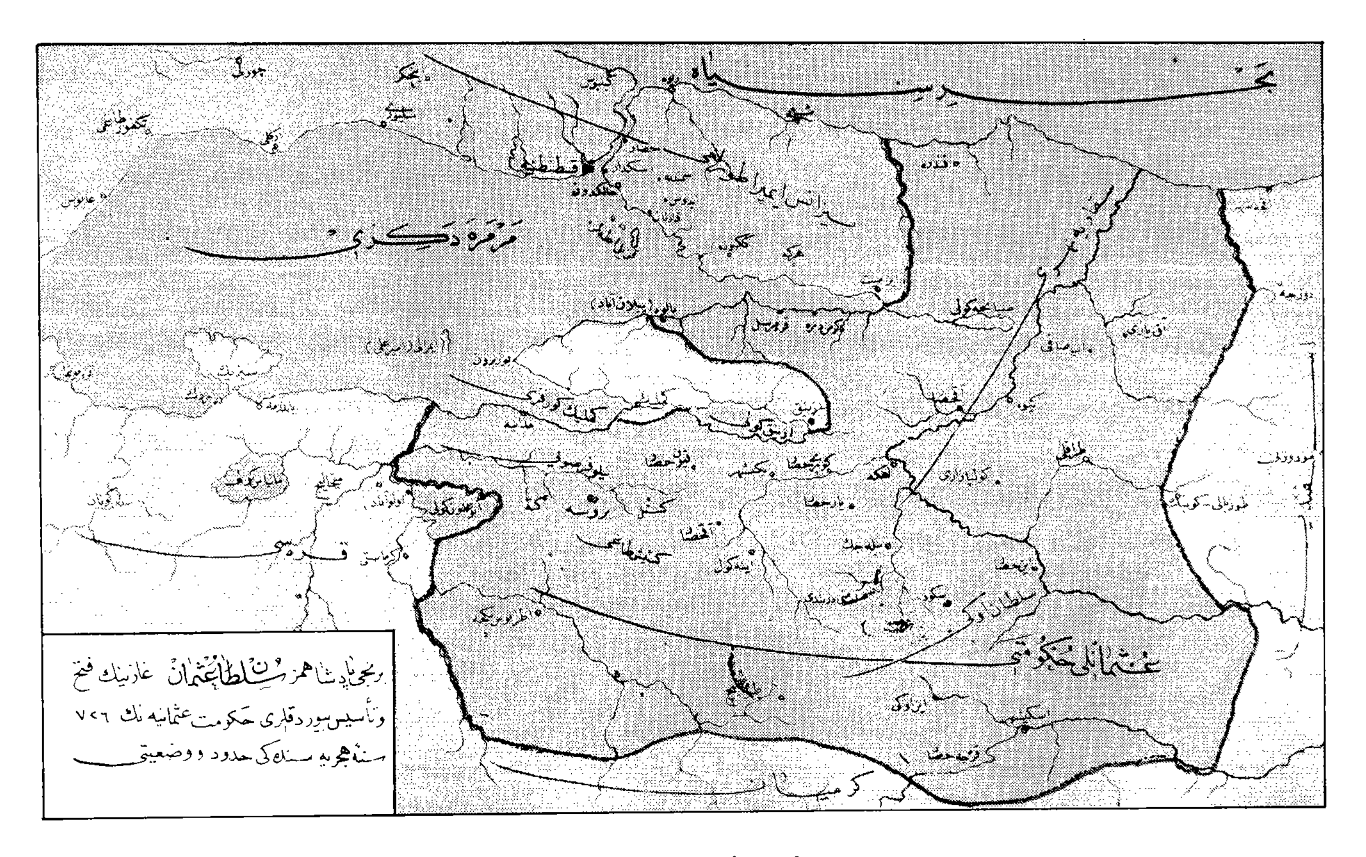
ولما توفي أرطغرل سنة ٦٨٧ ﻫ الموافقة سنة ١٢٨٨ م عين الملك علاء الدين أكبر أولاده مكانه وهو (عثمان) مؤسس دولتنا العلية العثمانية.وفي هذه السنة

---

(١) نهر الطونة ويسمى بالألمانية (دوناو) Danau ويسمى بالافرنسية (دانوب) وهو ثاني انهار أوربا بعد نهر الڤولگا ، اذ يبلغ طوله ٢٨٥٠ كيلومتراً ، وينبعث من المانيا الغربية ويمر بالنمسا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ويوگوسلاڤيا ورومانيا وبلغاريا وروسيا ويصب في البحر الأسود .

(٢) أسكي شهر : معناها البلد القديم ، وهي بلدة قديمة تقع في وسط بلاد الأناضول وعلى مفترق طرق الى غرب أنقره .

(٣) أوغلي : معناها الأبن وحيث أنه لم يكن للعثمانيين أسماء أسر أي ألقاباً فانهم كانوا ينتسبون الى آبائهم مثل: علي أوغلي ،كامل أوغلي أي ابن علي وابن كامل أو ينتسبون الى بلدانهم مثل استانبوللي وأزمير لي، أي استانبولي وازميري . ولا تزال بعض الأسر في البلاد العربية تحتفظ بنسبتها مثل موره لي ، وانلي ، كركوتلي ، اورفلي الخ .



حدود الدولة العثمانية التي أسسها أول ملوك آل عثمان (السلطان عثمان الغازي)

ولدت زوجته مال خاتون[1] ولداً ذكراً وهو أورخان ولم يلبث عثمان أن تحصل على امتيازات جديدة عقب فتحه قلعة (قره حصار)[2] سنة ٦٨٨ هجرية الموافقة سنة ١٢٨٩ ميلادية فمنحه الملك في السنة المذكورة لقب (بك) وأقطعه كافة الأراضي والقلاع التي فتحها وأجاز له ضرب العملة وأن يذكر اسمه في خطبة الجمعة، وبذلك صار عثمان بك ملكاً بالفعل لا ينقصه إلا اللقب.

وفي سنة ١٣٠٠ م تقريباً الموافقة سنة ٦٩٩ هـ أي السنة المتممة للقرن السابع من التاريخ الهجري[3] أغارت جموع التتار على بلاد آسيا الصغرى وفيها كانت وفاة علاء الدين آخر السلجوقيين بقونية، قيل قتله التتر وقيل قتله ولده غياث الدين طمعاً في الملك، ولما قتل التتار غياث الدين أيضاً انفتح المجال لعثمان فاستأثر بجميع الأراضي المقطعة له ولقب نفسه (باد يشاه آل عثمان) وجعل مقرّ ملكه مدينة (يكى شهر)[4] وأخذ في تحصينها وتحسينها ثم أخذ في توسيع دائرة أملاكه أزميد[5] ثم ازنيك *. ولما لم يتمكن من فتحها عاد إلى عاصمته واشتغل في تنظيم

---

(١) خاتون معناها امرأة ولكنه يطلق غالباً على المرأة ذات الشأن أي السيدة كما تطلق على زوجات العظماء.

(٢) يوجد بضعة أماكن في تركيا باسم قره حصار أي القلعة السوداء ولكن القصد هنا بلدة أفيون قره حصار القريبة من قونية.

(٣) من الغريب أنه في رأس كل قرن من الهجرة ظهر رجل كان له شأن في التاريخ الاسلامي ففي رأس القرن الأول كان ظهور الاسلام وانتشاره بين كفار العرب، وفي سنة ٩٩هـ أي في رأس القرن الثاني تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز الأموي المشهور، وفي سنة ١٩٧ بويع بالخلافة للمأمون بن هارون الرشيد، وفي أوائل القرن الرابع أسس عبدالله المهدي عائلة الفاطميين في افريقيا، وكانت الأربعون سنة التي مكثها القادر بالله أبو العباس في الخلافة مشتركة بين القرن الرابع والخامس.

(٤) يكي شهر: تلفظ الكاف هنا نوناً فهي، اذن، ينى شهر ومعناها البلد الحديث ويكتبها الأتراك الآن هكذا Yenisehir وتقع الى الشمال الشرقي من بورصه.

(٥) هي مدينة قديمة يونانية بآسيا الصغرى أصل اسمها (نيكوميدس) كانت تختاً لمملكة (بوثينيا) واقعة على بحر مرمره ويدخل ميناءها أكبر السفن وبها مياه معدنية ومعامل للحرير =

البلاد حتى إذا أمن اضطرابها وتجهز للقتال أرسل إلى جميع أمراء الروم ببلاد آسيا الصغرى يخيرهم بين ثلاثة أمور: الاسلام أو الجزية أو الحرب، فأسلم بعضهم وانضم إليه، وقبل البعض دفع الخراج، واستعان الباقون على السلطان عثمان بالتتار واستدعوهم لنجدتهم لكن لم يعبأ بهم السلطان عثمان بل هيأ لمحاربتهم جيشاً جراراً تحت أمرة ابنه أورخان فسار إليهم هذا الشبل ومعه عدد ليس بقليل من أمراء الروم ومن ضمنهم كوسه ميخائيل صديق عثمان الذي اختار الاسلام ديناً وبعد محاربة عنيفة شتت شمل التتار وعاد مسرعاً لمحاصرة مدينة بورصة[1] فحاصرها سنة ٧١٧ هـ الموافقة سنة ١٣١٧ م. وللتمكن من فتحها بسهولة هاجم

= وأنشئت منها سكة حديدية تصل الى بورصة ويبلغ عدد سكانها أربعين ألف نسمة، أقول:

وكان الأتراك يكتبونها بالتاء أيضاً (أزميت) لأنهم لا يفرقون في اللفظ بين الحرفين ويكتبونها الآن Izmit .

* مدينة يونانية قديمة بآسيا الصغرى أصل اسمها (نيقه) واقعة شرق بورصة بنحو ٨٠ كيلومتر وهي شهيرة بعمل الخزف والسجاجيد المتقنة وأقول:

قال ياقوت هي بالفتح ثم السكون وكسر النون، وهي مدينة على ساحل القسطنطينية وهذا القول غير سليم، اذ ان أزنيك تقع على شاطئ بحيرة تعرف بهذا الاسم وهي الى الشمال من بورصة .

(١) مدينة بآسيا الصغرى شهيرة بجودة هوائها وجمال مناظرها الطبيعية وبها مياه عديدة شافية لكثير من الأمراض ويرحل إليها في زمن الصيف كثير من الأغنياء لترويح النفوس وإراحة الأبدان وأقول :

وفيها تلفريك طوله ثلاثة كيلومترات، على ما أذكر، يصعد من أسفل الجبل الى رأسه ثم يسير الى جبل آخر وراءه، وقد ظلت بورصة عاصمة الدولة العثمانية من سنة ١٣٢٧ الى سنة ١٣٦١ ثم انتقلت العاصمة الى أدرنة ثم الى استانبول سنة ١٤٥٣ .

وأقول: وقد زرت بورصة سنة ١٩٧١ وقضيت في حماماتها المعدنية أسبوعاً. وزرت المسجد الذي دفن في صحنه الخارجي ستة سلاطين من آل عثمان وغيرهم من أفراد الأسرة، فوجدت المسجد خراباً وقبور هؤلاء العظام مهشمة مهملة. وكأن عظمة الجيل الحاضر لا تظهر الا بهدم عظمة الماضي. وكم يأسف المرء الحر حينما يرى هذه القبور وما هي عليه من اهمال متعمد ويرى قبر أتاتورك الذي انفق =

حصن اردنوس الكائن على قمة جبل أولمب[1] فدخله عنوة ثم دخل مدينة بورصة بعد أن فتح كافة ما حولها من القلاع والحصون وحاصرها نحو عشر سنوات من غيرما حرب ولا قتال، إذ أرسل ملك القسطنطينية أوامره لعامله على هذه المدينة بالانسحاب فأخلاها ودخلها أورخان وعساكره ولم يتعرّض لأهلها بسوء مقابل دفع ثلاثين ألف من عملتهم الذهبية، وأسلم حاكمها (افرينوس) وأعطى له لقب بك وصار من مشاهير قوّاد العثمانيين.

= عليه من مال الشعب الفقير ملايين الليرات ويرى ما أحيط به من أبهة وعظمة وشأن، وأين ما فعله أتاتورك مما فعله أولئك السلاطين العظام ؟!

ان الشعب الذي ليس له تراث ليس له شيء يفخر به ، ان الأمم الراقية تحيي الماضي وتبني الجديد وتقول :

نبـنـي كمـا كـانـت أوائـلـنـا　　　تبـنـي ونـفـعـل مـثـلـمـا فعلوا

(المحقق) .

(١) واسمه بالتركية (أناطولي طاغ) أو (كشيش طاغ) وهو غير جبل أولمبوس الذي كان يعتقد اليونان انه مسكن آلهتهم الكائن بتركية أوروبا على حدود بلاد مقدونية .

وأقول طاغ بالتركية معناها الجبل وقد كتب داغ لأن الأتراك يلفظون الطاء بين الضاد والدال . وكشيش لفظ فارسي معناه القسّيس ويسمى هذا الجبل اليوم أولو طـاغ **Ulu Dag** اي الجبل الكبير .

١ ـ الدولة العثمانية في عهد السلطان أورخان سنة ٧٦١ هـ .

٢ ـ الطريق التي سلكها جد الأتراك العثمانيين وسليمان شاه وابنه أرطغرل باتجاه آسيا الصغرى.

٣ ـ البكوية (الامارة) التي أسسها أرطغرل .

٢-



السلطان الغازي
أورخان الأول

وعقب ذلك بقليل استدعي أورخان إلى والده فوجده في حالة النزع ولم يلبث أن أسلم الروح إلى بارىء النسمات ومبدع الكائنات بعد أن أوصى للملك بعده لأورخان ثاني أولاده المولود في سنة ١٢٨١ لا تصافه بعلوّ الهمة والشجاعة والاقدام ولم يوص بها لبكر أولاده علاء الدين لميله إلى الورع والعزلة ،وتوفي رحمه الله في ٢١ رمضان سنة ٧٢٦ [١] هجرية ١٣٢٦ م عن سبعين سنة قضى معظمها في تأسيس هذه الدولة الفخيمة الملحوظة بعين العناية الربانية وتوسيع نطاقها ،ودفن في مدينة بورصة وبلغت مدّة حكمه ٢٧ سنة[٢] .ومن حسن حظ هذه الدولة أن علاء الدين لم يعارض في هذه الوصية التي حرمته من ملك عظيم بل قبلها مقدّماً الصالح العام على الصالح الخاص واكتفى بوزارة المملكة وهي الوظيفة المسماة الآن بالصدارة العظمى التي قلده إياها أخوه أورخان، فاختص علاء الدين بتدبير الأمور الداخلية وتفرّغ أورخان للفتوحات ونشر الراية العثمانية على كل ما وصلت إليه يداه من البلاد المجاورة .

ومن أهمّ أعمال علاء الدين أن أمر بضرب العملة من الفضة والذهب ووضع نظاماً للجيوش المظفرة وجعلها دائمية إذ كانت قبل ذلك لا تجمع إلا وقت الحرب وتصرف بعده ،ثم خشي من تحزب كل فريق من الجند إلى القبيلة التابع إليها وانفصام عرى الوحدة العثمانية التي كان كل سعيهم في إيجادها فأشار عليه أحد

---

(١) ٢١ رمضان (٢١ آب ـ أغسطس ١٣٢٦ م) .

(٢) الصواب هو ٣٧ سنة .

فحول ذلك الوقت واسمه (قره خليل)،وهو الذي صار فيما بعد وزيراً أوّلاً باسم خير الدين باشا ،بأخذ الشبان من أسرى الحرب وفصلهم عن كل ما يذكرهم بجنسهم وأصلهم وتربيتهم تربية اسلامية عثمانية بحيث لا يعرفون أباً إلا السلطان ولا حرفة إلا الجهاد في سبيل الله ولعدم وجود أقارب لهم بين الأهالي لا يخشى من تحزبهم معهم، فأعجب السلطان أورخان هذا الرأي وأمر بانفاذه ولما صار عنده منهم عدد ليس بقليل سار بهم إلى الحاج بكطاش شيخ طريقة البكطاشية بأماسية[1] ليدعو لهم بخير فدعا لهم هذا الشيخ بالنصر على الأعداء وقال فليكن اسمهم (يني تشارى) ويرسم بالتركية هكذا (يكيجارى)[2] أي الجيش الجديد،ثم حرف في العربية فصار انكشاري.

ثم ارتقى هذا الجيش في النظام وزاد عدده حتى صار لا يعوّل إلا عليه في الحروب وكان هو من أكبر وأهمّ عوامل امتداد سلطة الدولة العثمانية ،كما أنهم خرجوا فيما بعد عن حدودهم وتعدّوا واستبدوا بما جعلهم سبباً في تأخر الدولة وتقهقرها.وكان ضباطهم يلقبون بألقاب غريبة في بابها ولكنها تدل على أن أولئك الجنود كانوا عائشين من إنعامات السلطان وأنهم كأولاده فمن ألقابهم شوربجي[3] باشي وعشي باشي وسقا أغاشي وأوده باشي إلى غير ذلك: وهذه الألقاب كانت عندهم بمثابة العنوانات الخاصة بالرتب العسكرية:ثم إنهم كانوا يعظمون ويجلون القدور التي كانت تقدّم إليهم فيها المأكولات فكان الانكشارية لا يفارقون تلك القدور حتى وقت الحرب وكانوا يدافعون عنها دفاع الجنود عن أعلامهم حتى

---

(١) تقع أماسيا في شمال شرق الأناضول جنوب صامسون الكائنة في شمال تركيا على البحر الأسود . وهناك بلدة أخرى باسم أماسيا تقع الى الجنوب الشرقي من أزمير والثانية هي المقصودة هنا لأن أماسيا الأولى لم تكن بعد داخلة في ملك آل عثمان .

(٢) يكي جري : تلفظ الكاف نوناً ، وتكتب الكلمتان معاً هكذا : يكيچري (يني تشري).

(٣) شوربجي باشي : أي رئيس صانعي الحساء، وعلى اعتبار أن الجنود أكثر ما يكون أكلهم الحساء فان هذا اللقب يعني رئيس الطهاة وعشي باشي مثله ، وسقا آغاسي أي آمر السقاة وأوده باشي أي سيد الغرفة أو المكلف بغرفة السلطان .

كان يعتبر ضياعها في القتال أكبر إهانة تلحق بأصحابها العار والفضيحة. وكانوا إذا أرادوا إظهار عدم الرضا من بعض أوامر رؤسائهم يقلبون القدور أمام منازلهم. واستمرت هذه الفئة عوناً للدولة على أعدائها حتى تغيرت أحوالها وازداد طغيانها وانقلبت فوائدها مضرات فأبطلها السلطان محمود الثاني بعد أن قتل أغلبهم في يوم ١٦ يونيو سنة ١٨٢٦ (١٠ ذي القعدة سنة ١٢٤١) لمقاومتهم اجراءات السلاطين وعصيانهم عليهم وتعدّيهم على حقوقهم المقدّسة.

أما أورخان فأول عمل أجراه هو نقل مقر الحكومة إلى مدينة بورصة لحسن موقعها. وأرسل قوّاد جيوشه المظفرة لفتح ما بقي من بلاد آسيا الصغرى ففتحوا أهم مدنها وفتح السلطان بنفسه مدينة أزميد ولم يبق من مدن الروم المهمة ببر آسيا إلا مدينة أزنيك فحاصرها وضيق عليها الحصار حتى دخلها بعد سنتين فسقط بسقوطها نفوذ الروم في بلاد آسيا. ومما جذب إليه قلوب الأهالي أن عاملهم باللين والرفق ولم يعارضهم في إقامة شعائر دينهم وأذن لمن يريد المهاجرة بأخذ كافة منقولاته وبيع عقاراته مع تمام الحرية في إجراءآته وأسس بهذه المدينة عدّة مدارس وتكايا للفقراء والمعوزين وجعل أكبر أولاده المدعو سليمان باشا حاكماً عليها، ولم يلبث في هذا المنصب إلا قليلاً حتى عين صدراً أعظم بعد وفاة عمه علاء الدين واشتهر سليمان باشا بفتح عدّة مدن.

وفي سنة ٧٣٦ هـ (سنة ١٣٣٦ م) ضم السلطان أورخان إلى ممالكه إمارة قره سي[١] لوقوع الخلف بين ولدي أميرها بعد موته، ولولا عدم اتفاق الاخوين لما تمكن أورخان من ضمها إلا بعد معاناة الحرب والكفاح، وفي ذلك موعظة لمن ألقى السمع وهو شهيد. وبعد ذلك اشتغل السلطان أورخان بترتيب داخليته وسنّ النظامات اللازمة لاستتباب الأمن بالداخل وانتشار العمران في البلاد وفتح المدارس وبناء الجوامع والتكايا، فمن آثاره أنه أسس مدرسة عالية في مدينة بورصة وأخرى في مدينة أزنيك وأجزل العطايا للشعراء والعلماء فأضاف بذلك خيرات السلم إلى فتوحات الحرب.

---

(١) إمارة صغيرة تقع في غرب الأناضول جنوب بحر مرمرة وإلى الشرق في بحر إيجة.

وبينما هو راتع في بحبوحة الأمن إذ أرسل إليه ملك الروم بالقسطنطينية[1] وإسمه (جان باليولوج)[2] في غضون سنة ١٣٥٥ وفداً يطلب منه أن يمدّه بالمساعدة لصدّ إغارات (دوشان)[3] ملك الصرب الذي بعد أن جمع تحت سلطانه كافة قبائل الصقالبة الغربية وفتح بمساعدتهم بلاد البلغار زحف على مدينة القسطنطينية. وعرض ملك الروم على السلطان أورخان أن يزوّجه ابنته في مقابلة هذه المساعدة،

---

(١) كانت مدينة رومة وما فتحته من الأقاليم المتسعة مشكلة بهيئة جمهورية من ابتداء وجودها الى سنة ٢٩ قبل المسيح فجعلها القائد الشهير (اكتاڤيوس Ootavius)حكومة امبراطورية وأطلق على نفسه لقب (أوغسطس) أي السامي القدر. واستمرت هذه المملكة الى سنة ٣٩٥ ميلادية حيث قسمها الامبراطور(طيودوس Theodose) بين ولديه الى مملكة رومانية شرقية وجعل مقرها بيزانطه التي سميت فيما بعد بالقسطنطينية وأقام عليها ابنه (اركاديوس Arcadius).ومملكة رومانية غربية جعل عاصمتها مدينة رومة وأقام عليها ابنه الثاني (أنوريوس Honorius) ثم انقرضت الدولة الغربية سنة ٤٧٦م بسبب اغارة المتبربرين عليها واستمرت الشرقية الى أن فتح العثمانيون مدينة القسطنطينية في سنة ١٤٥٣ م .

(٢) أسرة باليولوك Paleologue أسرة بيزنطية خرج منها عدد من الأباطرة ما بين سنتي ١٢٦١ و١٤٥٣ .

(٣) هو اسطفن دوشان الملقب بالقوي، ولد بمدينة اشقودره ببلاد الأرنؤد سنة ١٣٠٨ وصار أميراً لبلاد الصرب وملحقاتها في سنة ١٣٢٢ وكان بعيد الآمال يطمح بنظره الى تكوين مملكة مؤلفة من جميع الصقالبة لفتح القسطنطينية وبقايا مملكة الروم الشرقية فاتحد مع جمهورية البندقية وباقي الامارات الصغيرة المجاورة له وكاد يتم له المقصود لولا أن فاجأته المنية في ٢٠ دسمبر سنة ١٣٥٥ في ابتداء حربه مع الروم فنقلت جثته الى (برزرند) بالقرب من اشقودره حيث دفن في إحدى الكنائس المعتبرة لدى القوم. ومن بعده تشتت شمل هذه المملكة شيئاً فشيئاً وتناوبتها أيدي الفساد حتى أجهز العثمانيون عليها في واقعة (قوص أوه) سنة ١٣٨٩ كما سيجيء .

أقول : تقع أشقودره اليوم في شمال غرب البانيا . دوشان هو ايتين دوشان Etienne Dusan صار ملك الصرب منذ سنة ١٣٣١ ثم صار امبراطوراً بعد سنة ١٣٤٦ وهو من أبطال الصرب .

فأجاب السلطان طلبه وأرسل إليه عدداً عظيماً من جنوده لنجدته . لكن فاجأ الموت الملك دوشان قبل وصوله بجيوشه إلى القسطنطينية وبذلك تخلص الروم من شرّه وعاد العثمانيون إلى بلادهم .

ولما نزل العثمانيون بساحل أوروبا تحققوا ضعف مملكة الروم وما آلت إليه من الانحلال فأخذ السلطان أورخان في تجهيز الكتائب سرّاً لاجتياز البحر واحتلال بعض نقط على الشاطىء الأوروبي تكون مركزاً لأعمال العثمانيين في أوروبا، حتى إذا سنحت الفرص وساعدت المقادير حاصروا مدينة القسطنطينية براً وبحراً ودخلوها فاتحين .

وفي سنة ١٣٥٧ اجتاز سليمان باشا أكبر أولاد السلطان أورخان وولّي عهده وصدر مملكته الأعظم بوغاز الدردنيل ومعه أربعون من أشجع جنوده تحت أستار الظلام حتى إذا وصلوا إلى الضفة الأخرى قبضوا على ما كان بها من القوارب وعادوا بها إلى الضفة المعسكرة عليها جيوشهم فانتقل الجيش إلى ضفة أوروبا، وكان عدده ثلاثين ألفاً ،واحتل ميناء (تزنب) .وساعدتهم المقادير بسقوط جزء من أسوار جاليبولي[1] عقب زلزال شديد فدخلها العثمانيون بدون كبير عناء

= مدينة برزرند هي Prizen وتقع الى الشرق من مدينة اشقودرة وهي اليوم في الأرض اليوگوسلاڤيه .

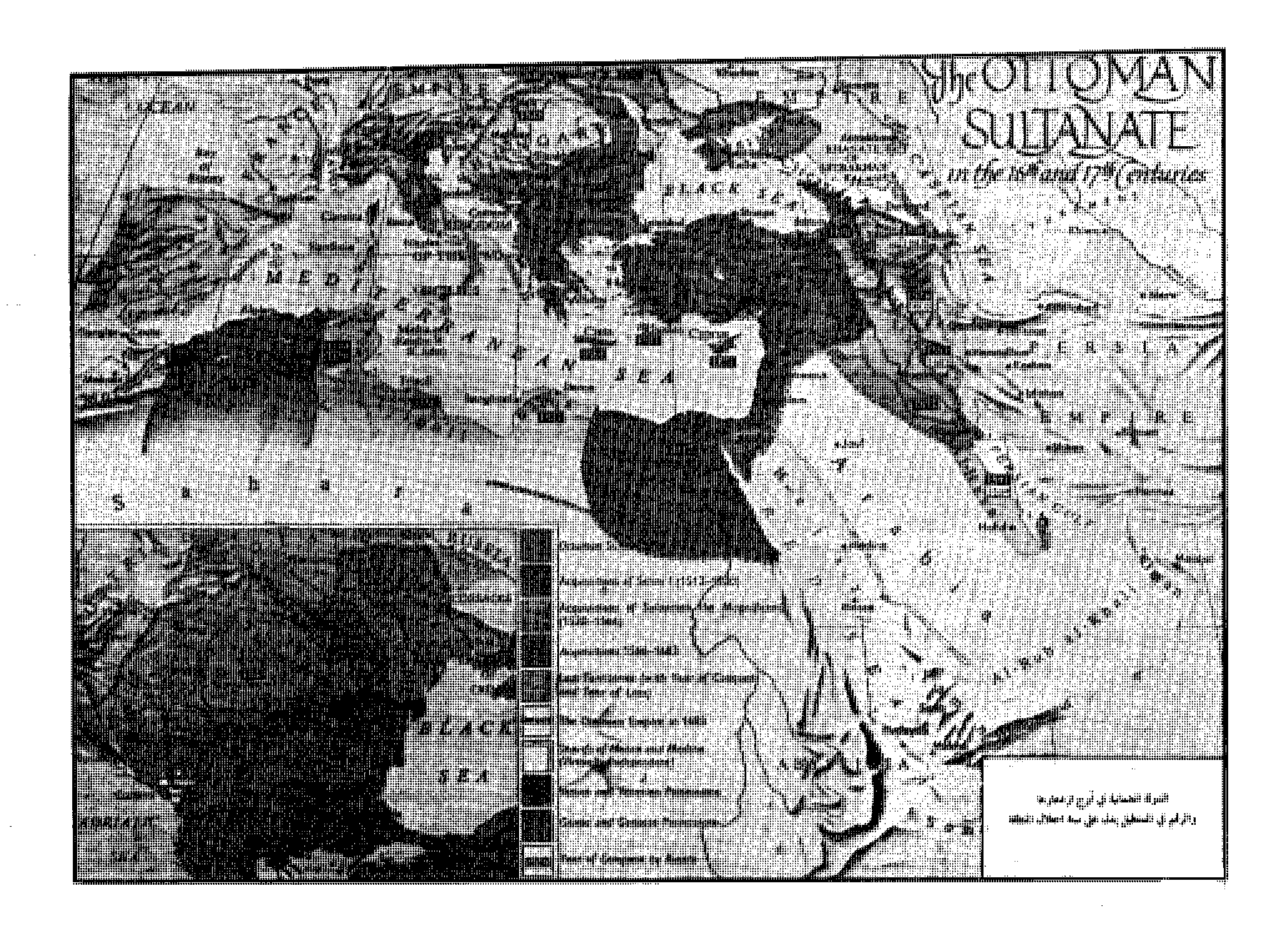
(١) گليبولي : مما يكسب هذه المدينة أهمية عظمى وقوعها على ضفة بوغاز الدردنيل الذي هو الممر الوحيد بين بحار أوروبا وبحر مرمرة، وهي تبعد عن مدينة أدرنة بمائة وأربعين كيلومتر تقريباً . وتقع في آخر مضيق الدردنيل في الجانب الأوربي . وقد كان لها « ولجنا قلعة » الواقعة في أول مضيق الدردنيل في الجانب الشرقي شأن عظيم في الحروب ولا سيما في الحرب العالمية الأولى اذ أراد الحلفاء الثلاثة : انكلترا وفرنسا وروسيا ضرب الدولة العثمانية على رأسها وذلك بالاستيلاء على استانبول ففتحوا عليها ثلاث جبهات برية هي : جبهة القفقاس وجبهة مصر وجبهة العراق ، أما جبهة القفقاس فقد تركتها روسيا ، وأما مصر فقد كان الانكليز نشروا حمايتهم وساقوا إليها آلافاً من الهنود وكان مركزهم في الخليج الفارسي قوياً بفضل الجنود الهندية وبفضل صداقتهم مع شيوخ العرب ولا سيما الكويت ونجد . وتفرغ الأسطولان الانكليزي والافرنسي لجهة الدردنيل =

واحتلوا عدّة مدائن أخرى منها (أبسالا)[1] و(رودستو)[2] وغيرهما .
وفي سنة ١٣٥٩ توفي سليمان باشا وليّ عهد الدولة بسبب سقوطه من على ظهر جواده وصارت ولاية العهد بعده إلى أخيه مراد وتولى منصب الصدارة بعده الوزير خير الدين باشا الذي سبقت الإشارة إليه .

= البحرية ووقعت بين المتخاصمين معركة في البر والبحر لم يشهد مثلها من قبل واستبسل العثمانيون استبسالاً منقطع النظير فصدوا هذه الحملة وأغرقوا بعض القطع البحرية للعدو ، ولكنهم تركوا في ميدان المعركة أكواماً من الجثث الهامدة وكان أخي الملازم محمد الخليل ، الذي تخرج من المدرسة الحربية في تلك السنة ، أحد أولئك الأبطال الذي استشهدوا ورجع عمي سالماً . وقد نظم الأتراك انشودة وطنية تقول : في چنا قلعة وگليبولي أغلقنا الطريق على الأعداء . ولفظها التركي هو : (چنا قلعه كليبولي سد ايتدك د وشمنك يولي) (المحقق) .

(١) ابسالا تقع في شمال مضيق الدردنيل في الجانب الأوربي .

(٢) رودستو Rodosto ويسميها الأتراك تكرطاغ أو تكفور طاغ وتقع على بحر مرمره من الجانب الغربي .


The OTTOMAN
SULTANATE
in the 16th and 17th Centuries

٣-



السلطان الغازي
مُراد خان الأوّل
ووَاقِعة قوص أوه

وفي سنة ٧٦١ هـ (سنة ١٣٦٠ م) انتقل إلى الدار الآخرة السلطان أورخان الغازي وسنه ٨١ سنة ومدة حكمه ٣٥ سنة بعد أن أيد الدولة بفتوحاته الجديدة وتنظيماته العديدة وترتيباته المفيدة ودفن في مدينة بورصة حيث دفن ملوك آل عثمان الستة الأول. وتولى بعده ابنه السلطان مراد[١] الأول المولود سنة (٧٢٦هـ= ١٣٢٦م) وكانت فاتحة أعماله احتلال مدينة (انقرة)[٢] مقرّ سلطنة القرمان .وذلك أن سلطان هذا الاقليم واسمه علاء الدين أراد انتهاز فرصة انتقال الملك من السلطان أورخان إلى ابنه السلطان مراد لإثارة حمية الأمراء المستقلين وتحريضهم على قتال العثمانيين ليدكوا صروح مجدهم ويقوضوا أركان ملكهم الآخذ في الامتداد يوماً فيوماً ، فكانت عاقبة دسائسه أن فقد أهمّ مدائنه. وبعد ضياعها أبرم الصلح مع السلطان مراد ليحفظ ما بقي له من الأملاك وزوّجه ابنته لتمكين عرى الاتحاد بينهما. أما في أوروبا ففتح البكلر بك (لالة شاهين) مدينة أدرنه[٣] في سنة ١٣٦١م، سلمها قائدها الرومي بعد قتال قليل لما داخله من اليأس من استخلاصها .ولأهمية موقعها الجغرافي ووجودها على ملتقى ثلاثة أنهر نقل إليها السلطان تخت المملكة

(١) يلقب بـ خدا وندكَار،أي الله ، فهو مراد الله .

(٢) أنقره مدينة قديمة ذكرها امرؤ القيس في شعره وهي كما يقول ياقوت بالفتح ثم السكون وكسر القاف وفتح الراء . وتقع في قلب البلاد التركية ولذا فقد اتخذت عاصمة للبلاد بعد الحرب العالمية الأولى .

(٣) واسمها بالرومية (أدريانا بوليس) نسبة للامبراطور أدريان الرومي الذي أجرى فيها عدة تحسينات أوجبت إطلاق اسمه عليها وتوفي الامبراطور سنة ١٣٨م .

العثمانية واستمرت عاصمة لها إلى أن فتحت مدينة القسطنطينية سنة ١٤٥٣م.
وفتح أيضاً مدينة (فيلبه)[١] عاصمة الرومللي الشرقية. وفتح القائد (افرينوس بك) مدينتي (وردار) و(كلجمينا)[٢] باسم سلطان العثمانيين وبذلك صارت مدينة القسطنطينية محاطة من جهة أوروبا بأملاك آل عثمان وفصلت عن باقي الإمارات المسيحية الصغيرة التي كانت شبه جزيرة البلقان مجزأة بينها وصارت الدولة العلية متاخمة لامارات الصرب والبلغار وألبانيا المستقلة.

فاضطرب لذلك الملوك المسيحيون المجاورون للدولة العلية وطلبوا من البابا (أوربانوس)[٣] الخامس أن يتوسط لدى ملوك أوروبا الغربيين ليساعدوهم على محاربة المسلمين وإخراجهم من أوروبا خوفاً من امتداد فتوحاتهم إلى ما وراء جبال البلقان إذ لو اجتازوها بدون معارضة ومقاومة في مضايقها لم يقو أحد بعد ذلك على إيقاف تيار فتوحاتهم، ويخشى بعدها على جميع ممالك أوروبا من العثمانيين. فلبى البابا استغاثتهم وكتب لجميع الملوك بالتأهب لمحاربة المسلمين وحرّضهم على محاربتهم محاربة دينية حفظاً للدين المسيحي من الفتوحات الاسلامية.

لكن لم ينتظر (أوروك) الخامس، الذي عين ملكاً على الصرب بعد (دوشان)، القوي وصول المدد إليه من أوروبا بل استعان بأمراء بوسنة[٤] والفلاخ وبعدد

---

(١) اسمها بالرومية فيليبو بوليس أي مدينة فيليب نسبة لمؤسسها فيليب والد الاسكندر الأكبر وأقول : هي Philippopolis وتقع الى الجنوب الشرقي من صوفيا ، بين صوفيا وأدرنة على خط واحد .

(٢) هذا الاسم مصحف والاصل كوملجنه وتسمى Komotini وتقع الى الجنوب الغربي من أدرنه وعلى بعد نحو ٢٥كم شمال بحر ايجه ، وتقع وردار Vardar الى غرب كوملنجه وعلى نهر يعرف بهذا الاسم .

(٣) يلفظ بالافرنسية Urbain واسمه الأصلي قبل أن يكون بابا هو گيوم ده گريموار Guillaume de Grimoare وهو افرنسي المولد ولد سنة ١٣١٠ ومات سنة ١٣٧٠ وانتخب بابا سنة ١٣٦٢ م .

(٤) البوسنة : احدى جمهوريات الاتحاد اليوگوسلافي الآن وعاصمتها سراجيڤو وأكثرية أهلها من المسلمين .

عظيم من فرسان المجر وسار بهم لمهاجمة مدينة (أدرنة) عاصمة الممالك العثمانية معللين النفس بالانتصار على العثمانيين ومؤملين النصر عليهم لاشتغال الملك مراد بمحاصرة مدينة (بيجا)[1] بالقرب من بورصة بآسيا الصغرى. فلما وصل خبر تقدّمهم إلى آذان العثمانيين قابلوهم على شاطيء نهر (ماريتزا)[2] وفاجأوهم في ليلة مظلمة بقوّة عظيمة ألقت الرعب في قلوبهم وأوقعتهم في حيص بيص، ولم يلبثوا إلا قليلاً حتى ولوا الأدبار تاركين الثرى مخضباً بدمائهم. وكان ذلك في سنة ٨٦٦ هـ (سنة ١٣٦٣ م). أما السلطان مراد فكان في هذه الأثناء مشتغلاً بالقتال في بلاد آسيا الصغرى حيث فتح عدّة مدن ثم عاد إلى مقرّ سلطنته لتنظيم ما فتحه من الأقاليم والبلدان كما هو شأن الفاتح الحكيم الذي لا يكتفي بفتح البلاد وضرب الذلة والمسكنة على سكانها بل كان ينسج على منوال أبيه وجدّه، أي يستريح بضع سنين من عناء الفتح ليرتب جيوشه ويكمل من نقص منها مستشهداً في ساحة النصر . ولما عظم شأن الدولة خشيها مجاوروها، خصوصاً الضعفاء منهم، فأرسلت جمهورية (راجوزه)[3] في سنة ١٣٦٥ إلى السلطان مراد رسلاً أمضوا معه

= وأما الفلاخ ، وكان الأتراك يسمونها (أفلاق) أيضاً ، فهي إمارة من إمارات الدانوب ظهرت للوجود في القرن الثالث عشر وأصبحت منذ سنة ١٣٩٦م تابعة للدولة العثمانية واستقلت سنة ١٨٥٦م واتحدت مع مولداڤيا سنة ١٨٥٨م وكونتا معاً الدولة الرومانية الحاضرة .

(١) بيجا Bija تقع الى الجنوب من بحر مرمرة وبالقرب من رأس مضيق الدردنيل .

(٢) نهر ماريتسا Marica أو Maritza ينبع من غرب بلغاريا وبحر اليونان ويصب في بحر ايجه وهناك بلدة في بلغاريا ، للذاهب بطريق البر من تركيا الى صوفيا ، سميت باسمه لقربها منه . وفي وسط غابة جميلة اقيمت استراحة فيها فندق ومخيم ومطعم ومقهى وهي تبعد عن الحدود التركية ١٦٣ كم وتبعد ١٧٠ كم الى الجنوب من صوفيا.

(٣) راگوز Raguse هي الآن بلدة يوگوسلاڤية وتسمى اليوم دوبروڤنيك Dubrounik وتقع على شاطئ البحر الأدرياتيكي ، وكانت هذه المدينة من سنة ١٤٠٣ الى سنة ١٨٠٩م عاصمة لجمهورية أرستقراطية . وقد أثرت ثراء كبيراً من تجارتها مع الدولة العثمانية. وهي شبه قلعة مبنية على شاطئ البحر .

معاهدة ودّية وتجارية تعهدوا فيها بدفع جزية سنوية قدرها ٥٠٠ دوكا ذهب وهذه أول معاهدة أمضيت بين العثمانيين والدول المسيحية وفى سنة ١٣٧٩م اتحد ، لازارجر بلينانوفتش ، الذي تربع على تخت مملكة الصرب بعد قتل أوروك ، مع سيسمان أمير البلغار على مقاتلة العثمانيين ومحاربتهم لكنهما بعد عدّة مناوشات خفيفة ، تحققاً في خلالها عجزهما عن مكافحة العساكر الاسلامية ،أبرما الصلح مع السلطان على أن يتزوّج السلطان بنت أمير البلغار وعلى أن يدفع له الاميران خراجاً سنوياً معيناً .

ولما توفي (البكلر بك) لالة شاهين عين محله ديمورطاش باشا. وينسب إلى هذا الوزير تنظيم فرق الخيالة العثمانيين المسماة (سيباه)[1] على نظام جديد واختار أن تكون أعلامهم باللون الأحمر الذي لا يزال شعار الدولة العثمانية حتى الآن واقطع كل نفر منهم جزءاً من الأرض يزرعه أصحابه الاصليون مسيحيين كانوا أو مسلمين في مقابلة دفع جعل معين لصاحب الاقطاع. وذلك بشرط أن يسكن الجندي في أرضه وقت السلم ويستعد للحرب عند الاقتضاء على نفقته وأن يقدم أيضاً جندياً آخر معه. وكان كل اقطاع لم يتجاوز إيراده السنوي عشرين ألف غرش يسمى تيمار[2] وما زاد ايراده على ذلك يسمى (زعامت)[3] وكانت هذه الاقطاعات لا يرثها إلا الذكور من الأعقاب وإذا انقرضت الذرّية الذكور ترجع إلى الحكومة وهي تقطعها إلى جندي آخر بنفس هذه الشروط .

ولأجل أن يكون للسلطان مراد حلفاء بين من بقي مستقلاً من أمراء آسيا

---

(١) سباهي وليس سيباه ومعناها الفارس .

(٢) تيمار : كلمة فارسية ومعناها الأصلي كل ما يعطى للمريض أو للحيوان أو حتى للأرض والنباتات من مؤونة أو عناية ، وأطلق هذا اللفظ آنذاك على أراضي الدولة التي كانت تعطى للجنود الفرسان ليعيشوا منها .

(٣) ليس عند الأتراك تاء مربوطة ولذا كل تاء مربوطة تكتب مفتوحة وعلى هذا الأساس كتبوا أسماء الأعلام مثل عزة ومدحة وبهجة ورأفة . وما زال كثير من العرب الى اليوم يكتبونها بالتاء المفتوحة .

الصغرى زوّج ولده (بايزيد) الملقب بييلدرم (أي البرق) بنت أمير كرميان[١] . وهو قدّم للسلطان مدينة (كوتاهيه)[٢] الشهيرة بصفة مهر لابنته كما هي عادة الافرنج الآن .وفي ابتداء سنة ١٣٨١م ابتدأت الفتوحات ثانياً وأخذت سيرها الأوّل فألزم السلطان أمير اقليم (الحميد)[٣] بالتنازل له عن بلاده. وحارب ديمورطاش باشا الصرب والبلغار لتأخيرهما في دفع الخراج المتفق عليه وفتح مدائن (موناستر)[٤] و(برلبه)[٥] و(استيب)[٦] .ووقعت مدينة صوفيا[٧] في قبضة العثمانيين بعد محاصرة استمرّت ثلاث سنوات من سنة ١٣٨١ م إلى سنة ١٣٨٣م وعقب ذلك فتح الصدر الأعظم خير الدين باشا مدينة سلانيك الشهيرة[٨] وفي هذه الأثناء تمرّد صاووجي أحد أولاد السلطان على والده بالاتحاد مع اندرونيكوس ابن امبراطور الروم حنا باليولوج الذي كان والده حرمه من الملك بعده وأوصى به إلى ابنه الأصغر أمانويل. وتحزب معهما بعض من أضلهم الطمع والغرور غير ناظرين إلى أن هذا الشقاق الداخلي لا يكون وراءه إلا ضعف الدولة وتمكن أعدائها من الاستظهار عليها. لكن لم يدع السلطان الشفقة

(١) تقع بلاد كرميان في غرب الأناضول ما بين اسكى شهر شمالاً وأفيون قره حصار جنوباً .

(٢) كوتاهية : تقع الى شرق باليقيصر وغرب اسكى شهر .

(٣) إقليم يقع في جنوب غرب الأناضول غرب قرمان وشرق منتشا وشمال تكن .

(٤) موناستر : بلدة يوگوسلاڤية تسمى اليوم بيتولا Bitola وتقع بالقرب من الحدود اليونانية الألبانية . وهناك بلدة في تونس اسمها موناستير .

(٥) برلبه بلدة في يوگوسلاڤيا شمال بيتولا وتكتب هكذا Prilep .

(٦) استيب Stip تقع الى الجنوب الغربي من مدينة اسكوب في وسط يوگوسلاڤيا .

(٧) هي عاصمة امارة البلغار الآن ويبلغ عدد سكانها خمسين ألف نسمة .

(٨) مدينة رومية قديمة جداً واقعة في جنوب بلاد مقدونية على بحر الأرخبيل كان اسمها (ترما) ثم لما تولى (كساندر) المتوفى سنة ٢٩٨ قبل المسيح ملكاً على بلاد مقدونية أطلق عليها اسم زوجته أخت اسكندر الكبير المسماة (تسالونيك) وحرف هذا الاسم على ممر الأجيال فصار سالونيك أو سلانيك ويبتدىء منها الآن طريق حديدي يصل إلى الصرب ومنها الى جميع أوروبا .

الوالدية تتغلب عليه بل أرسل لمحاربة ولده المتمرّد من قهره هو ومحاربيه وقتله وجميع من حازبه من أشراف الروم وطلب من ملك الروم قتل ابنه ففقأ عينيه ونفاه حتى مات[1] .ولما مات القائد خير الدين باشا أشهر قوّاد الدولة ظن متاخموها أنه لم يبق لديها من القوّاد من يرد كيدهم في نحرهم فاتحد علاء الدين ،أمير القرمان[2] الذي سبق ذكره، مع بعض الأمراء المستقلين واستعدوا للقتال وابتدؤوا المناوشات. لكن لم يمهلهم السلطان مراد بل أرسل اليهم ديمورطاش باشا فحاربهم وقهرهم في سهل قونيه وأخذ علاء الدين أسيراً.ولولا توسط ابنته التي كان تزوجها السلطان مراد عقب المحاربة الأولى لجرده من أملاكه ولكن مراعاة لزوجته لم يأخذ منه شيئاً هذه الدفعة بل أقره في أملاكه بشرط دفع الجزية وكان ذلك سنة ١٣٨٦م أما في أوروبا فاتخذ الصرب وجود أعظم قواد السلطنة وجيوشها بالاناطول فرصة لمحاربة العساكر العثمانية ففاز الصرب أولاً في سنة١٣٨٧م وكان سيسمان قرال[3] أي أمير البلغار يتأهب للانضمام إلى لازار ملك الصرب إذ فاجأ الوزير علي باشا جيوش البلغار واحتل ترنوه[4] وشومله[5] وألجأ سيسمان إلى الفرار والاحتماء في مدينة

(١) لا يظن القارىء أن العثمانيين انفردوا بارتكاب هذا الاثم الجسيم فان من يتصفح التاريخ يعلم أن كثيراً من الملوك حاكموا أولادهم وقتلوهم لما تثبت عليهم خيانة الأمة والدولة. فقد سجن بطرس الأكبر الروسي ولي عهده الكسيس ولما تأكد جنايته وعدم استعداده للقيام بأعباء المملكة بعده جمع مجلساً عالياً مركباً من أهم رجال الدولة وحكم عليه هذا المجلس بالاعدام لكن لم ينفذ عليه الحكم جهاراً بل وجد ميتاً في سجنه في صبيحة اليوم المحدد لتنفيذ الحكم عليه ولم تعلم كيفية موته بالضبط لكن من المؤكد أن موته كان بايعاز والده كي لا يشنق أمام الأمة .

(٢) تقع بلاد القرمان ما بين انقره شمالاً والبحر الأبيض المتوسط جنوباً وقيصريه شرقاً وقونيه غرباً ، وكانت عاصمتها قونيه .

(٣) سوف تتردد كلمة قرال كثيراً وهي كلمة تركية معناها ملك . والمؤلف يذكر تارة كلمة ملك أو أمير أو قرال والكل بمعنى واحد .

(٤) ترنوه هي تورنوڤو Turnovo وتقع في الجانب الشرقي من بلغاريا .

(٥) شومله هي شومن Shumen وتقع الى شمال تورنوڤو .

نيكوبلي[١] سنة ١٣٨٨ .وبعد أن جمع شمل ما بقي من جيوشه داخل هذه المدينة أراد محاربة العثمانيين ثانية فخرج من (نيكوبلي) وهاجم الجيوش الاسلامية مهاجمة يائس فانهزم هزيمة لم يقم له بعدها قائمة ووقع أسيراً فضم السلطان مراد نصف بلاده إليه ولم يأمر بقتله بل منحه نعمة الحياة ورتب له ما يقوم بمعاشه مراعياً في ذلك مقامه السابق وعينه حاكماً شبه مستقل على النصف الباقي ١٣٨٩م .ولما علم لازار ملك الصرب بانخذال رفيقه قرال البلغار مال بجيوشه قليلاً جهة الغرب للانضمام إلى أمراء ألبانيا (الارنؤد) فلم يمكنه السلطان مراد من ذلك بل جد السير في طلبه حتى لحقه في سهل (قوص أوه)[٢] سنة١٣٨٩م وانتشب القتال بين الجيشين بحالة يشيب من هولها الولدان دافع في خلاله الصربيون دفاع الأبطال. وبقيت الحرب بينهما سجالا مدة من الزمن تناثرت فيها الرؤوس وزهقت النفوس . وأخيراً فر صهر الملك لازار المدعو (فوك برانكوفتش) ومعه عشرة آلاف فارس والتحق بجيش المسلمين فدارت الدائرة على الصربيين وجرح لازار ووقع أسيراً في أيدي العثمانيين فقتلوه. وبهذه الواقعة المهمة التي بقي ذكرها شهيراً في أوروبا باسرها زال استقلال الصرب كما فقدت البلغار والرومللي والاناطول استقلالها من قبل وكما ستفقد اليونان وغيرها الاستقلال فيما بعد.وبعد تمام النصر والغلبة للعثمانيين كان السلطان مراد يمرّ من بين القتلى اذ قام من بينهم جندي صربي اسمه (ميلوك كوبلوفتش) وطعن السلطان بخنجر طعنة كانت هي القاضية عليه بعد قليل، فسقط القاتل قتيلاً تحت سيوف الانكشارية،لكن لم يفدهم قتله شيئاً إذ أسلم السلطان الروح بعد ذلك بقليل بعد أن ضم كثيراً من البلاد إلى ما تركه

---

(١) اسمها بالرومية نيكوبوليس ومعناها مدينة النصر أسسها الامبراطور الروماني تراجانوس المتوفي سنة ١١٧ بعد المسيح عقب انتصاره على أعدائه .

وأقول نيكوبلي : هي نيكوپول Nikopol وهي في شمال بلغاريا على حدود رومانيا .

(٢) قوص معناها كبير أو واسع واوه معناها السهل ويسمى هذا السهل باليوگوسلاڤي Kosovo Polje ومركزه بلدة پريشتينا Pristina وتقع في جنوب يوگوسلاڤيا بين بلغاريا والبانيا واليونان .

له والده السلطان أورخان مما مر بيانه. وكانت وفاته في ١٥ شعبان سنة ٧٩١هـ (٨ اكتوبر سنة ١٣٨٨)[1] عن خمس وستين سنة وبلغت مدّة حكمه ثلاثين سنة ونقلت جثته إلى مدينة بورصة .

(١) ١٥ شعبان ٧٩١ يقع يوم الاثنين في ٩ أوغسطس ١٣٨٩م ، وهذا هو الأصح اذ جاء في التاريخ الافرنسي ان هذه الوقعة نشبت سنة ١٣٨٩ وليس ١٣٨٨م .



٤ -

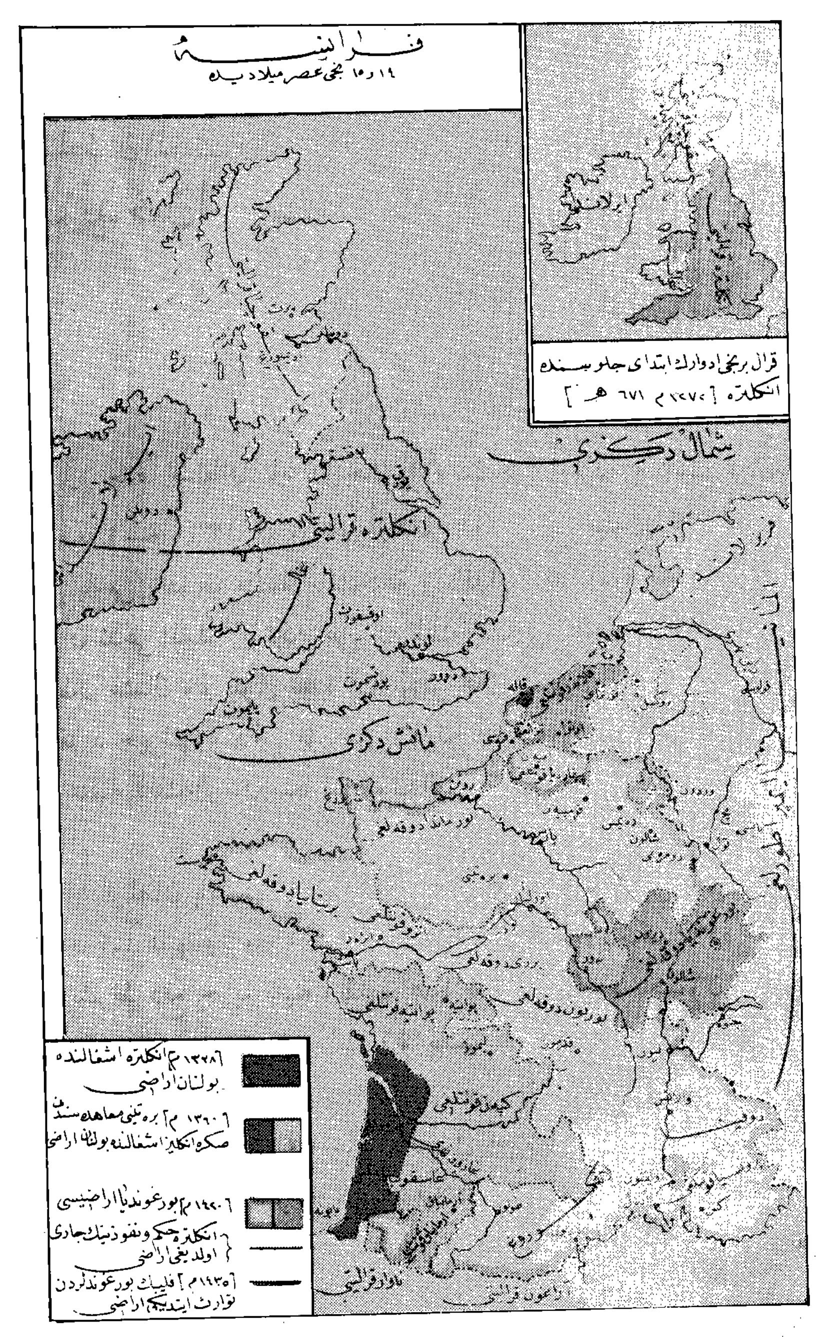
السلطان الغازي
بايزيد خان الأول

وتولى بعده السلطان بايزيد خان الأول بكر أولاده وكانت ولادته سنة ٧٦١ هجرية (سنة ١٣٦٠ م) ، اتفق أركان الدولة على توليته . وكان له أخ أصغر منه بقليل يدعى يعقوب متصفاً بالشجاعة والاقدام وعلوّ الهمة فخيف على المملكة منه،من أن يدّعي الملك ويرتكن على أن الملك انتقل إلى السلطان أورخان بعد وفاة أبيه السلطان عثمان ولم يتولى بعده ابنه البكر علاء الدين،ولذلك قتل باتفاق أمراء الدولة وقواد جيوشها وادعى مؤرخو الافرنج أنّ قتله كان بناء على فتوى شرعية أفتى بها علماء ذلك الزمان منعاً لحصول الفتنة بناء على قوله تعالى: والفتنة أشد من القتل .

وابتدأ السلطان بايزيد الأول أعماله بأن ولى الأمير (اسطفن) بن لازار ملك الصرب حاكماً عليها وتزوج أخته (أوليفيرا) وأجازه بأن يحكم بلاده على حسب قوانينهم بشرط دفع جزية معينة وتقديم عدد معين من الجنود ينضمون إلى الجيوش الشاهانية وقت الحرب، وفعل ذلك ولم يضم بلاد الصرب إلى أملاكه ويجعلها ولاية كباقي الولايات ليسكن بال الصربيين حتى لا يكونوا شغلاً شاغلاً له نظراً لشهامتهم وحبهم الاستقلال.ولما ساد الأمن في أوروبا قصد بلاد آسيا وفتح مدينة (آلاشهر) المعروفة عند الافرنج باسم (فيلادلفيا)[١] سنة١٣٩١م وهي آخر مدينة بقيت للروم في آسيا.وهابه أمير (آيدين)[٢]. فترك له أملاكه وعاش مطمئن

(١) فيلادلفيا : تقع في غرب الأناضول الى الشرق من مدينة أزمير .

(٢) ايدين : تقع في جنوب غرب تركيا جنوب فيلادلفيا .



فرانسا في القرنين ١٤ و ١٥ الميلادي

الخاطر في إحدى المدن الخارجة عن النفوذ العثماني وكذلك ترك أميرا منتشا[1] وصاروخان[2] ولايتيهما واحتميا عند أمير (قسطموني) [3] .

وتنازل الأمير علاء الدين حاكم بلاد القرمان للسلطان عن جزءعظيم من أملاكه ليؤمنه على الباقي .

وبعد هذه الفتوحات التي تم أغلبها بدون حرب عاد السلطان إلى أوروبا وحارب (امانويل باليولوج) ملك الروم وحاصره في القسطنطينية.وبعد أن ضيق عليها الحصار ترك حولها جيشاً جراراً وسافر لغزو بلاد الفلاخ فقهر أميرها المدعو (دوك مانيس) وأكرهه على التوقيع على معاهدة يعترف فيها بسيادة الدولة العلية العثمانية على بلاده ويتعهد لها بدفع جزية سنوية مع بقاء بلاده له يحكمها بمقتضى عوائد وقوانين أهلها وتم ذلك في سنة ١٣٩٣م.

وفي أثناء اشتغال السلطان بمحاربة الفلاخ أراد علاء الدين أمير القرمان أن يستردّ ما تنازل عنه للدولة العلية، فجهز جيشاً عظيماً واستعان ببعض مجاوريه وسار بخيله ورجله قاصداً مهاجمة مدينة انقره بعد أن فاز على ديمورطاش باشا في احدى الوقائع وأخذه أسيراً.فلما بلغ خبره إلى مسامع السلطان قام بنفسه إلى بلاد الأناطول وجدّ في طلب علاء الدين حتى تقابل الجيشان في موضع يقال له (آق جاي) فهزمه السلطان بايزيد وأسره هو وولديه محمد وعلي وضم ما بقي من أملاكه إليه.وبذلك انمحت سلطنة القرمان وصارت ولاية عثمانية ثم فتحت إمارات سيواس وتوقات[4] وكان آخر أمرائها يدعى الغازي برهان الدين .

وبذا لم يبق من الامارات التي قامت على أطلال دولة آل سلجوق إلا إمارة قسطموني خارجة عن أملاك الدولة العثمانية ،وكان أميرها يسمى بايزيد أيضاً، واحتمى ببلاده كثير من أولاد الأمراء الذين فتحت بلادهم فكان ذلك سبب غزو

---

(١) منتشا جنوب آيدين على بحر ايجه .

(٢) صاروخان : شمال أزمير على بحر ايجه .

(٣) قسطموني : في شمال الأناضول على بعد نحو مئة كم عن البحر الأسود .

(٤) سيواس وتوقات : مدينتان تقعان في شمال شرق تركيا .

بلاده ،وذلك أن السلطان أرسل إليه من يطلب منه تسليم أولاد صاحب آيدين وصاروخان فامتنع ،فسار إليه السلطان بايزيد بنفسه وأغار على بلاده وفتح مدائن ساسون وجانك وعثمانجق[1] .وبذلك انقرضت جميع الإمارات الصغيرة القائمة ببلاد الأناطول وصار العلم العثماني يخفق منصوراً فوق صروحها .أما بايزيد صاحب قسطموني فلجأ إلى تيمورلنك سلطان الموغول[2] .

ومع استمرار الحصار حول القسطنطينية ضم السلطان بلاد البلغار إلى الأملاك العثمانية فصارت ولاية عثمانية كباقي الولايات بعد أن قتل أميرها سيسمان وأسلم ابنه وعين حاكماً لسمسون[3] سنة ١٣٩٤م.

واقعة نيكوبلي

فلما علم (سجسمون)[4] ملك المجر خبر ما حلّ ببلاد البلغار خشي على مملكته إذ صار متاخماً في عدّة نقط للدولة العلية، فاستنجد بأوروبا وساعده البابا، وأعلن

(١) آق جاي وساسون وجانك ،لم أجدها في مرجع ولا على الخرائط التي بين يدي بينما عثمانجق تقع الى الجنوب الغربي من صامسون وبالقرينة نستطيع القول أن هذه المدن قريبة من ناحية عثمانجق .

(٢) أي تيمور الأعرج ،ولد سنة ١٣٣٦ ميلادية تقريباً ببلدة بالقرب من سمرقند ويتصل نسبه بجنكيزخان التتري من جهة النساء وخلف عمه سيف الدين في إمارة كيش سنة ١٣٦٠ وأخذ في فتح ما حوله من الامارات والقبائل ثم فتح بلاد خوارزم وكشغر وبلاد إيران ومنها سار الى جنوب الروسية وفتح اقليم آزاق ثم قصد بلاد الهند فانتصر على صاحب (دهلي) وفتح معظم الهند الانكليزية، ومنها عاد الى الغرب ففتح بلاد الشام ومدينة بغداد التي خربها عن آخرها وقبل أن ينظم هذه الفتوحات العديدة قصد بلاد الصين في جيش يجل عن الحصر بعد أن حارب السلطان بايزيد العثماني وأخذه أسيراً فعاجله المنون قبل أن يصل الصين في اقليم خوقندفي ١٧ شعبان سنة ٨٠٧هـ (١٨ فبراير سنة ١٤٠٥م) وبعد موته تفرقت مملكته بين ولده شامرخ وأحفاده وأولاد أحفاده .

(٣) سمسون أو صامسون مدينة تركية في شمال شرق البلاد على البحر الأسود .

(٤) هو Sigis Mond de Luxembourg ملك المجر من ١٣٨٧ الى ١٤٣٧م، ملك رومانيا من ١٤١١ الى ١٤٣٣م، امبراطور المانيا من ١٤٣٣ الى ١٤٣٧م، وملك بوهيميا من =

الحرب الدينية بين أقوام أوروبا الغربية فأجاب الدعوة دوك (بورغونيا)[١] وأرسل ابنه الكونت دي نيفر[٢] ومعه ستة آلاف محارب أغلبهم من أشراف فرانسا وفيهم كثير من أقارب ملك فرانسا نفسه،وانضم إليه حين مسيره إلى بلاد المجر أمـراء (بـافـاريا)[٣] واستيريـا[٤] وشواليـه[٥] القديس حنا الأورشليمي وكثير

= ١٤١٩ الى ١٤٣٧ م وهو تاريخ وفاته . وفي مجتمع كونستنزا سمح بحرق المصلح المجدد التشيكي جان هوس Jean Hus على الرغم من الأمان الذي منحه إياه .

(١) كانت ولاية عظيمة في شرق فرانسا شبه مستقلة لم يكن لملوك فرانسا عليها سوى السيادة وحق طلب الجنود للحرب عند الضرورة ، وأهم أمرائها شارل الجسور الذي توفي سنة ١٤٧٧ عن غير عقـب ذكر وضمت أملاكه الى مملكة فرانسا وصارت كباقي الولايات. وفي سنة ١٧٨٩ قسمـت الى عدة مديريات بمقتضى الترتيب الذي وضع أثناء الثورة الفرانساوية العظمى ويشتهر هذا الاقليم بالنبيذ الجيد . أقول : هي بوركَوني Bourgogne

(٢) نيڤير de Nevers مركز ولاية نيڤر وتقع على جانب نهر لوار وتبعـد ٢٣٢ كم الى الجنوب الشرقي من باريس .

(٣) مملكـة مستقلة بألمانيا يبلغ عدد سكانها خمسة ملايين من النفوس وتختها مدينة (مونيخ) أو (مونكن) كما يسميها الألمان وهي داخلة الآن ضمن الامبراطورية الألمانية التي تشكلت سنة ١٨٧١م عقب تغلب الروسيا على فرانسا مع بقاء استقلالها وحكومتها وملوكها كما كانت وأقول: وهي الآن جزء من جمهورية المانيا الاتحادية.

(٤) أوستريا : هي النمسا .

(٥) هم طائفة من الرهبان الذين ذهبوا الى بلاد فلسطين في القرن الحادي عشر للمسيح أثناء الحروب الصليبية التي أثارها المسيحيون على المسلمين لامتلاك القدس الشريف لخدمة حجاج النصارى .ولما استولى السلطان صلاح الدين الأيوبي على مدينة أورشليم سنة ١١٨٧م انتقلت هذه الطائفة الى عكاثم الى جزيرة رودس واتخذتها مركزاً لمحاربة المسلمين وتعطيل تجارتهم ونهب مراكبهم وأسر من بها. ولما فتح السلطان سليمان القانوني هذه الجزيرة سنة ١٥٢٢م كما سيجيء رحلت هذه الطغمة الى جزيرة مالطة التي أعطاها لهم الامبراطور شارلكان فاحتلوها الى أن فتحها بونابرت سنة ١٧٩٨م أثناء مجيئه الى مصر فانمحت هذه الطائفة تقريباً ولم يبق الا اسمها . =

الدولة العثمانية زمن بايزيد خان (٨٠٤ هـ)

ترجمة بعض معاني كلمات الخريطة ص ١٤٢

تركي	عربي
ارال كَولي	بحيرة أورال
قره بوغاز	خليج قرة (الخليج الأسود)
هامون كَولي	بحيرة هامون
آزاق دكزي	بحر آزاف (أو آزوف)

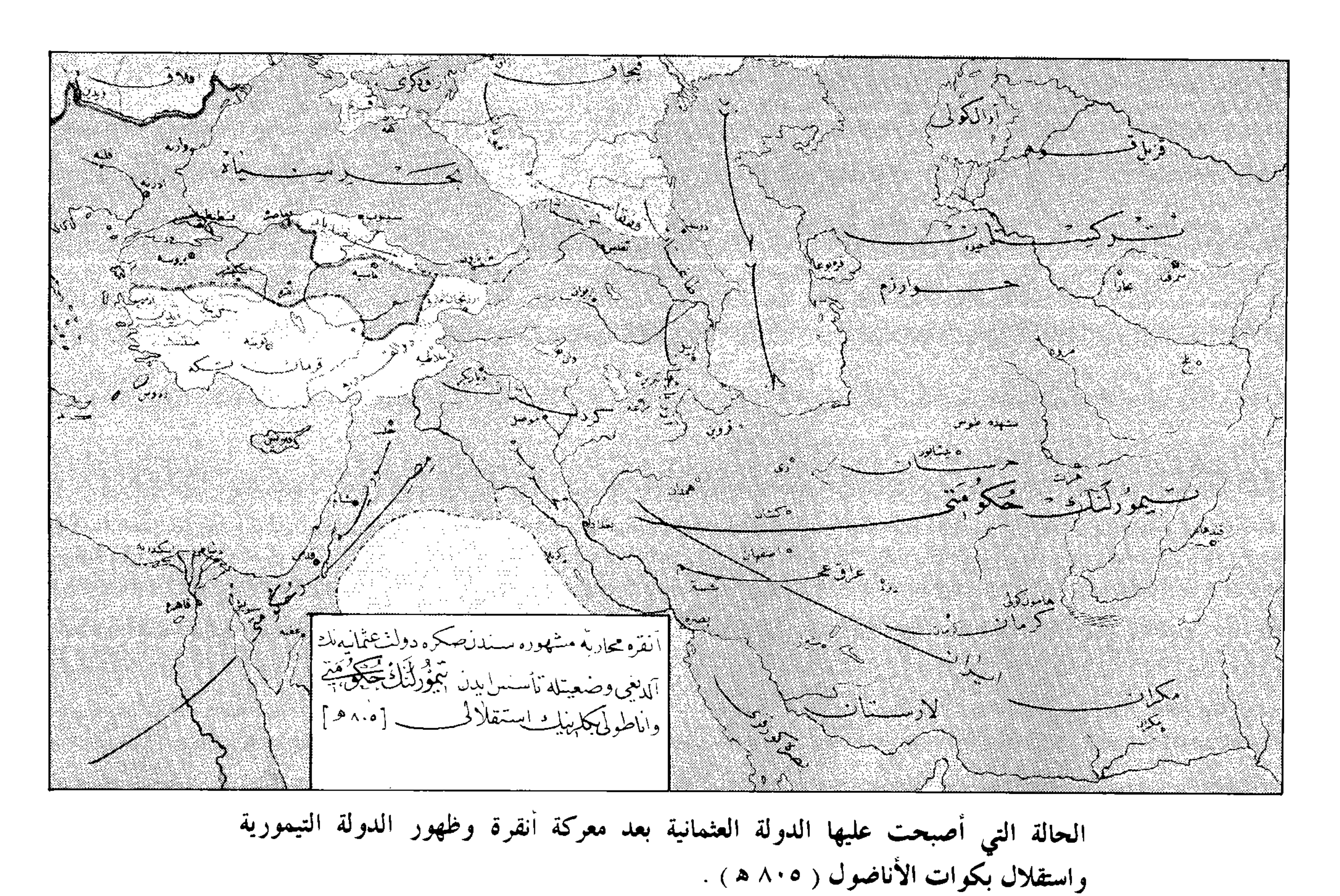
ترجمة الخريطة ص ١٤٥

تركي	عربي
طربزون (يحيراطورلغي)	امبراطورية طربزون
بيزانس ايميراطورلفي	امبراطورية بيزانس
أفلاق برنسلكي	امارة الفلاخ
مجارستان قراليتي	مملكة المجر
صرب قراليتي	مملكة الصرب
بحر سفيد	البحر الأبيض
يونان دكزي	بحر اليونان
اطه لردكري	بحر الجزر
قره داغ	الجبل الأسود
ونديك مستملكاني	ممتلكات الفانديك
جنوين »	ممتلكات الجنويين
ش	شوفالييه (أي الفرسان)

من الالمانيين ثم اجتاز هذا الجيش نهر الدانوب وعسكر حول مدينة نيكوبلي لمحاصرتها فسار إليهم السلطان بايزيد ومعه مائتا ألف مقاتل بهم كثير من أهالي الصرب تحت قيادة أميرهم (اسطفن) بن لازار وغيرهم من الأمم المسيحية الخاضعة لسلطان العثمانيين وقاتلهم قتالاً عنيفاً في يوم ٢٣ ذي القعدة سنة ٧٩٨ (٢٧ سبتمبر سنة ١٣٩٦). كانت نتيجتها انتصار العثمانيين على الجيوش المتألبة عليهم وأسر كثير من أشراف فرانسا منهم الكونت دي نيفر نفسه وقتل أغلبهم وأطلق سراح الباقي والكونت دي نيفر بعد دفع فداء اتفق على مقداره ويقال أن السلطان بايزيد لما أطلق سراح الكونت دي نيفر وكان قد ألزم بالقسم على أن لا يعود لمحاربته قال له اني أجيز لك أن لا تحفظ هذا اليمين فأنت في حلّ من الرجوع لمحاربتي إذ لا شيء أحب إليّ من محاربة جميع مسيحي أوروبا والانتصار عليهم.

هذا وقد شدد الحصار بعد ذلك على مدينة القسطنطينية ولولا إغارة الموغول على بلاد آسيا الصغرى لتمكن من فتحها لكن الأمور مرهونة بأوقاتها فاكتفى بابرام الصلح مع ملكها هذه المرة بشرط دفع عشرة الآف ذهب سنوياً من عملة وقتها وأن يجيز للمسلمين أن يبنوا بها جامعاً لإقامة شعائر الدين الحنيف وأن تقام لهم محكمة شرعية للنظر في قضايا المستوطنين بها منهم.

= أقول القصد من هذا اللفظ المشوه هو (شوڤاليه) Chevalier التي معناها اللغوي الفارس ومعناها الاصطلاحي الزعيم أو البطل، والقصد هنا رئيس طائفة القديس يوحنا.



الحالة التي أصبحت عليها الدولة العثمانية بعد معركة أنقرة وظهور الدولة التيمورية واستقلال بكوات الأناضول (٨٠٥ هـ) .

إغارة تيمورلنك على آسيا الصغرى

وسبب إغارة تيمورلنك التتري الموغولي على الدولة العثمانية أن أمير بغداد والعراق المدعو أحمد جلاير التجأ إلى السلطان بايزيد حينما هاجمه الموغول في بلاده فارسل تيمورلنك إلى السلطان بطلبه فابى تسليمه إليه فأغار تيمور بجيوشه الجرارة على بلاد آسيا الصغرى وافتتح مدينة سيواس بأرمينيا وأخذ ابن السلطان بايزيد المدعو ارطغرل أسيراً وقطع رأسه ولذلك جمع السلطان بايزيد جيوشه وسار لمحاربة تيمور الأعرج فتقابل الجيشان في سهل انقره واستمرت الحرب من قبل شروق الشمس إلى بعد غروبها وأظهر السلطان خلالها من الشجاعة ما بهر العقول وأدهش الأذهان، ولكن ضعف جيشه بفرار فرق آيدين ومنتشا وصاروخان وكرميان وانضمامها إلى جيوش تيمور لوجود أولاد أمرائهم الأصليين في معسكر التتار ولم يبق مع السلطان إلا عشرة آلاف انكشاري وعساكر الصرب فحارب معهم طول النهار حتى سقط أسيراً في أيدي الموغول هو وابنه موسى وهرب أولاده سليمان ومحمد وعيسى، ولم يوقَف لابنه الخامس مصطفى على أثر .وكان ذلك في ١٩ ذي الحجة سنة ٨٠٤ (٢٠ يوليو سنة ١٤٠٢) فعامل تيمورلنك أسيره بايزيد بالحسنى وأكرم مثواه لكنه شدّد في المراقبة عليه نوعاً بعد أن شرع في الهروب ثلاث مرات وضبط .ويقال أنه سجنه في قفص من الحديد حتى مات في ١٥ شعبان سنة ٨٠٥ (١٠ مارس سنة ١٤٠٣) وعمره ٤٤ سنة ومدة حكمه ١٣ سنة وهذه رواية نقلها بعض مؤرخي الإفرنج بدون تروّ وذلك أن بايزيد رغب أن يسير

مع جيش تيمورلنك في تختروان يحمله حصانان ومقفلة شبابيكه بقضبان من حديد[1] ولكون بعض مؤرخي الترك أطلق على التختروان لفظ قفص ظن بعض المترجمين من الافرنج أنه وضعه في قفص كما توضع الوحوش الكاسرة ونقل هذه الرواية على علاتها كثير من المتقدّمين لكن لما تقدّم علم التاريخ وترجمت التواريخ التركية أصلح متأخرو المؤرخين خطأهم وأجمعوا على أنه لم يضعه في قفص مطلقاً (راجع الجزء الثاني من مؤلف همرّ المطبوع بباريس سنة ١٨٣٥ صحيفة ٩٦ وما بعدها).

ومما يؤيد حسن معاملة تيمورلنك للسلطان بايزيد أنه صرّح لابنه موسى بنقل جثته بكل احتفال إلى مدينة بورصة حيث دفن بجانب السلطان مراد (مع بقاء موسى في حالة الأسر وفي حراسة أمير كرميان).

الفوضى بعد موت السلطان بايزيد

وبعد موت السلطان بايزيد تجزأت الدولة إلى عدّة إمارات صغيرة كما حصل بعد سقوط دولة آل سلجوق لأن تيمورلنك أعاد إلى أمراء قسطموني وصاروخان وكرميان وآيدين ومنتشا وقرمان ما فقدوه من البلاد.

واستقل في هذه الفترة كل من البلغار والصرب والفلاخ ولم يبق تابعاً للراية العثمانية إلا قليل من البلدان. ومما زاد الخطر على هذه الدولة الاسلامية عدم اتفاق أولاد بايزيد على تنصيب أحدهم بل كان كل منهم يدّعي الأحقية لنفسه فأقام سليمان في مدينة ادرنه، حيث ولاه الجنود سلطاناً، ولأجل أن يستظهر على إخوته

---

(١) يريد المؤلف أن ينفي عن بايزيد كونه وضع في قفص وسمى القفص تختروان أي محفة وله شبابيك مقفلة بقضبان من حديد، فهل القفص غير هذا؟! ثم ماذا ينتظر من فاتح مثل تيمورلنك أن يعامل خصمه غير هذه المعاملة؟

أما السماح للأمير موسى بالذهاب الى بورصه لدفن والده السلطان فليس ذلك اكراماً للسلطان بل هو اكرام لابنه ومن الغريب أن يذهب المؤلف في دفاعه عن سجن بايزيد في قفص الى أن يقول: وذلك أن بايزيد رغب أن يسير مع الجيش ..... فكأن للأسير رغبة أو ارادة أو كأن تيمورلنك كان ينتظر هذه الرغبة لكي ينفذها!

عقد محالفة مع ملك الروم (ايمانويل الثاني) وتنازل له عن مدينة سلانيك وسواحل البحر الأسود لينجده على اخوته الباقين ولزيادة الوثوق منه تزوج إحدى قريباته .

وكان محمد بن بايزيد يحارب جنود تيمورلنك في جبال الأناطول واستخلص منهم مدينتي توقات وأماسيا ،أما عيسى فلما بلغه خبر وفاة والده جمع ما كان معه من الجند بمدينة بورصه حيث كان مختفياً وأعلن نفسه خليفة آل عثمان بمساعدة القائد (ديمورطاش باشا) .ومما يوجب الأسف والحزن أن استنجد كل من هؤلاء الثلاثة بتيمورلنك، سبب هذه الفتن والمفاسد، فقبل وفودهم بكل ارتياح وشجعهم على المثابرة والثبات في الحرب يريد بذلك إضعافهم ببعضهم حتى لا تقوم للدولة العلية بعدهم قائمة .

فسار محمد لمحاربة أخيه عيسى وهزمه في عدة مواقع وقتله في الأخيرة منها ولم يبق له بعد ذلك منازع من إخوته في آسيا الصغرى واستخلص أخاه موسى بعد ذلك من أمير كرميان وسلمه قيادة جيش جرار أرسله به إلى أوروبا لمحاربة أخيه سليمان فلم يقو عليه بل انهزم أمامه وعاد مقهوراً إلى آسيا ثم جمع جيشاً آخر وعاد به إلى أوروبا وحارب أخاه سليمان وقتله خارج أسوار مدينة أدرنة في سنة ١٤١٠ ،وبعدها أغار على بلاد الصرب وعاقب أهلها على خروجهم عن الطاعة وقاتل سجسمون ملك المجر الذي تصدّى له لردّه عن بلاد الصرب لكن داخل الطمع الأمير موسى فعصى أخاه محمد الذي أمدّه بالجنود لمحاربة أخيهما سليمان وأراد الاستقلال ببلاد الدولة باوروبا وحاصر القسطنطينية ليفتحها لنفسه فاستنجد ملكها بالأمير محمد فأتى إليه مسرعاً لمحاربته وألزمه بعد محاربة شديدة برفع الحصار عنها. ثم حالف الأمير محمد ملك القسطنطينية وأمير الصرب وبثوا الدسائس في جيش موسى حتى خانه أغلب قوّاده ووقع أخيراً بين يدي أخيه محمد فأمر بقتله سنة ٨١٦ هجرية (سنة ١٤١٣ ميلادية) .



٥ -

انفراد السلطان محمد جلبي الغازي بالملك

وبذلك انفرد محمد المولود سنة ٧٨١ هـ ١٣٧٩ م بما بقي من بلاد آل عثمان واشتهر في التاريخ باسم السلطان محمد جلبي[1] الغازي، ويعتبر بعض المؤرخين السلطان محمد الأول خامس سلاطين آل عثمان ولم يعتبروا اخوته لكونهم لم يلبثوا في الملك مدّة طويلة وذلك لعدم الخلط في تعداد ملوك هذه الدولة ولم يراع البعض الآخر هذا الترتيب بل اعتبرهم ملوكاً ولذلك وجد اختلاف بين كتب المؤرخين في عدد سلاطين الدولة العثمانية ،لكن المتفق عليه.هو عدم اعتبار من نازع السلطان محمد جلبي في الملك من إخوته وعدّه هو خامس سلاطين الدولة العلية .

هذا وقد كانت مدة حكم السلطان محمد كلها حروباً داخلية لإرجاع الإمارات التي استقلت في مدة الفوضى التي اعقبت موت السلطان بايزيد في الأسر وحافظ على محالفة ملك الروم ، الذي لولا مساعدته له لخيف على عرى الدولة العلية من الانفصام . وردّ له البلاد التي فتحها أخوه موسى واستمر على محافظته لعهده إلى آخر عمره .

ومما يؤثر عن هذا السلطان أنه استعمل الحزم مع الحلم في معاملة من قهرهم ممن شق عصا طاعة الدولة فإنه لما قهر أمير بلاد القرمان وكان قد استقل عفا عنه بعد أن أقسم له على القرآن الشريف بأن لا يخون الدولة فيما بعد وعفا عنه ثانية بعد أن حنث في يمينه .

---

(١) جلبي : تكتب بالـ چ الفارسية ، وفي البلاد العربية والترك أسر كثيرة تعرف بهذا الاسم الى الآن .

وكذلك لما حارب (قره جنيد) الذي كان حاكم أزمير من قبل السلطان بايزيد وقهره عفا عنه وتناسى كل ما وقع منه وعينه حاكماً لمدينة نيكوبلي .

وظهر في أيام هذا الملك شخص يسمى بدر الدين من العلماء المشهورين في ذاك الوقت وكان معيناً بوظيفة قاضي عسكر في جيش موسى، أخي السلطان محمد ،وبعد انهزام موسى كما سبق ذكره ألزم بالإقامة في مدينة (أزنيك) ثم هرب منها وابتدأ في نشر مذهبه المؤسس على المساواة في الأموال والأمتعة. وهذا المذهب أشبه شيء بآراء بعض اشتراكيي هذا الوقت. فتبعه خلق كثير من المسلمين والمسيحيين وغيرهم لأنه كان يعتبر جميع الأديان على السواء ولا يفرّق بينها، بل كان عنده جميع الناس أخوة مهما اختلفت مذاهبهم وأديانهم. واستعان في نشر مذهبه هذا بشخص يدعى (بيرقليجه مصطفى)[1] وآخر يقال أن أصله يهودي واسمه (طورلاق كمال)[2] .واشتهر أمره بسرعة وكثر عدد تابعيه حتى خيف على المملكة العثمانية من امتداد مذهبه فارسل إليه السلطان محمد القائد سيسمان ابن أمير البلغار الذي دخل في دين الاسلام وعين حاكماً لمدينة سمسون مع جيش جرار لمحاربة أتباع بدر الدين فظهر عليه بيرقليجة مصطفى وقتله .

ولما علم السلطان بذلك جمع الجيوش وأرسل وزيره الأوّل المدعو بايزيد باشا لمحاربة هذه الفئة فصار إليها وقابل مصطفى في ضواحي أزمير فحاربه في موقع يقال له (قره بورنو)[3] وقهره وأخذه أسيراً ثم قتله وكثيراً من أتباعه .

وفي هذه الأثناء ضبط بدر الدين في بلاد مقدونية[4] بعد مقاومة شديدة وشنق

---

(١) بيرقليجه : أي صاحب العلم .

(٢) يبدو ان في اسم (كمال) لغزاً أو سراً يرغب فيه اليهود الذين يتظاهرون باعتناق الاسلام لأنه ليس بالاسم الأصلي بل هو اسم ثانٍ تعود الأتراك أن يضيفوه الى الاسم الأصلي.

(٣) قره بورنو : معناها الأنف الأسود ولكن كلمة بورون تستعمل في الجغرافيا بمعنى الرأس في البحر ، ويقع هذا الرأس في رأس شبه الجزيرة المقابلة لمدينة أزمير الى الغرب .

(٤) كان هذا الاسم يطلق على المنطقة المتوسطة الواقعة في شبه الجزيرة البلقانية ما بين يوكوسلافيا وبلغاريا واليونان .

في سنة ١٤١٧ م وبذلك اطفئت هذه الفتنة ولم يبق لها بعد ذلك من خبر وكان شنق رئيس هذه الفتنة بناء على فتوى[١] أفتى بها مولانا سعيد أحد تلامذة التفتازاني وهذا نصها كما جاء في تاريخ همر : « من أتاكم وأمركم جميعاً على رجل يريد أن يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه ». ولم يهدأ بال السلطان محمد بعد انتصاره على بدر الدين وأشياعه حتى ظهر أخوه مصطفى، الذي لم يوقف له على أثر بعد واقعة انقره التي أسر فيها والدهم السلطان بايزيد الأول، وطالبه بالملك وانضم إليه (قره جنيد) الذي سبق ذكر عفو السلطان عنه وأمدّه بجنود أرسلها إليه أمير الفلاخ سعياً وراء إيجاد الفتن في داخل الممالك العثمانية .فأغار الأمير مصطفى على إقليم تساليا[٢] ببلاد اليونان لكنه لم يقو على مقاومة جنود أخيه السلطان محمد فدخل في مدينة سلانيك، وكانت عادت إلى مملكة الروم بعد موت السلطان بايزيد ،واحتمى عند حاكمها المعين من قبل ملك الروم. فطلب السلطان تسليمه فأبى ملك الروم ذلك ووعده أن يحفظه ولا يطلق سراحه ما دام السلطان على قيد الحياة فقبل السلطان محمد هذا الاقتراح ورتب لأخيه راتباً سنوياً.ولقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن مصطفى هذا لم يكن ابن السلطان بايزيد بل شخص انتحل لنفسه هذه الصفة طمعاً في الملك إلا أن المؤرخ العثماني المدعو نشري وكثيراً من مؤرخي الروم قالوا بصحة نسبه، ومما يؤيد هذا القول تعيين راتب له من قبل السلطان وبلغ من كرم السلطان وحلمه أنه عفا عن قره جنيد نفسه وعدّة من محازبيه في سنة ١٤١٩ وكانت هذه الفتنة آخر الحروب الداخلية التي خضّبت أراضي الدولة العلية بدماء العثمانيين بسبب إغارة تيمورلنك عليها .

وبعد ذلك بذل السلطان محمد جلبي قصارى جهده في محو آثار هذه الفتن باجرائه الترتيبات الداخلية الضامنة لعدم حدوث شغب في المستقبل وبينما كان

---

(١) ان اصدار فتوى من أجل قتل رجل ثائر وخارج عن الدين ، لأكبر دليل على ما كان يتمتع به الناس من حرية في ظل الدولة العثمانية وما كان للنفس الانسانية من حرمة لدى الحكام .

(٢) يقع هذا الاقليم في وسط اليونان الى الجنوب الغربي من سيلانيك .

السلطان مشتغلاً بهذه المهام السلمية فاجأه الموت في سنة ٨٢٤ هـ (سنة ١٤٢١ م) في مدينة أدرنه فأسلم الروح وعمره ٤٣ سنة بعد أن أوصى بالملك لابنه مراد الذي كان حينئذ في أماسيا.

وخوفاً من حصول ما لا تحمد عقباه لو عُلم موت السلطان محمد مع وجود ابنه مراد في بلاد آسيا اتفق وزيراه ابراهيم وبايزيد على اخفاء موته عن الجند حتى يحضر ابنه فأشاعا أن السلطان مريض وأرسلا لابنه فحضر بعد واحد وأربعين يوماً واستلم مقاليد الدولة.

واشتهر السلطان محمد بحبه للعلوم والفنون وهو أول ملك عثماني أرسل الهدية السنوية إلى أمير مكة التي يطلق عليها اسم الصرّة حتى الآن، وهي عبارة عن قدر معين من النقود يرسل إلى الأمير لتوزيعه على فقراء مكة والمدينة لكن لم تكن بالقدر الذي بلغته الآن وقد قال بعض المؤرخين أن السلطان سليمان الأول هو أوّل من أرسل الصرة في سنة ٩٢٣ هـ (سنة ١٥١٧ م) بعد فتح مصر ولكن اتفق من يوثق بهم من المؤرخين خصوصاً (صولاق زاده) على أن السلطان محمد جلبي هو أول من أرسلها. ودفن السلطان بعد موته في مدينة بورصة.

٦-



السلطان
مرادخان الثاني الغازي

ولد السلطان مراد الثاني سنة ٨٠٦ هـ (سنة ١٤٠٣ م) وتولى سنة ٨٢٤هـ (سنة ١٤٢١ م) بعد موت أبيه وعمره ثماني عشرة سنة وافتتح أعماله بابرام الصلح مع أمير القرمان والاتفاق مع ملك المجر على هدنة خمس سنوات حتى يتفرغ لإرجاع ما شق عصا الطاعة من ولايات آسيا، لكن حدث ما شغله عن هذا العمل وذلك أن إيمانويل طلب منه أن يتعهد له بعدم محاربته مطلقاً وأن يسلمه اثنين من اخوته تأميناً على نفاذ هذا التعهد وتَهَدَّدَه باطلاق سراح عمه مصطفى بن بايزيد. ولما لم يجبه مراد الثاني لطلبه أخرج مصطفى من منفاه وأعطاه عشرة مراكب حربية تحت امرة (دمتريوس لاسكاريس) فأتى بها وحاصر مدينة جاليبولي فسلمت إلا القلعة فتركها مصطفى، بعد أن أقام حولها من الجند ما يكفي لمنع وصول المدد إليها، وسار ببقية جيشه قاصداً أدرنه. فخرج الوزير بايزيد باشا لمحاربته فتقدّم مصطفى وخطب في العساكر باطاعته لأنه أحق بالملك من ابن أخيه فأطاعته الجيوش وقتلت بايزيد باشا قائدهم فسار مصطفى بعد ذلك لمقابلة ابن أخيه مراد الثاني الذي كان متحصناً مع من معه من الجنود خلف نهر صغير. وهناك خانه بعض قواده وتركه أغلب جنوده حتى التزم الهروب إلى مدينة جاليبولي فسلمه بعض أتباعه إلى ابن أخيه مراد الثاني فأمر بشنقه.

وبعد ذلك أراد السلطان مراد الانتقام من ملك الروم الذي أطلق سراح عمه مصطفى ليشغله عن فتح القسطنطينية فسار إليه بخيله ورجله وحاصر مدينته ثم هاجمها في يوم ٣ رمضان سنة ٨٢٥ (٢١ أغسطس سنة ١٤٢٢) وبعد قتال عنيف رجع العثمانيون بدون أن يتمكنوا من فتحها. وبعدها رفع عنها الحصار

لعصيان أخ له يقال له مصطفى ، شق عصاه واستعان على أخيه السلطان مراد ببعض أمراء آسيا الصغرى لكن لم تلبث هذه الفتنة أن أخمدت بالقبض على مصطفى وقتله مع كثير من محازبيه فوقع الرعب في قلوب من ساعده من الأمراء وتنازل أمير قسطموني عن نصف أملاكه للسلطان وزوّجه ابنته سنة ١٤٢٣ إظهاراً لاخلاصه وولائه . وفي السنة التالية عصى قره جنيد واستولى على إمارة آيدين لكن قهره حمزة بك أخو الوزير بايزيد باشا وقبض عليه وأمر بخنقه فتخلصت الدولة بذلك من هذا الخائن الذي خان عهدها أكثر من مرة .

وأعاد مراد الثاني إلى أملاك الدولة العلية ولايات آيدين وصاروخان ومنتشا وغيرها من الإمارات التي أعاد تيمورلنك استقلالها إليها وكذلك استرد بلاد القرمان بعد أن قتل أميرها محمد بك وعين ابنه ابراهيم والياً عليها مع بعض امتيازات بشرط أن يتنازل عن إقليم الحميد ، وفي سنة ١٤٢٨ توفي أمير كرميان عن غير عقب وأوْصىّ بما كان باقياً له من بلاده إلى السلطان مراد وبذلك استرد السلطان مراد الثاني جميع ما فصله تيمورلنك عن الدولة العثمانية من البلاد وصار في إمكانه التفرغ لإعادة فتح ما استقل من البلاد باوروبا بعد موت بايزيد الأول ، فابتدأ بأن ألزم ملك المجر، بعد محاربة شديدة كانت نتيجتها افتتاح مدينة (كولمباز)[1] الواقعة على شاطيء نهر الدانوب الأيمن ، بالتوقيع على معاهدة تقضي عليه بالتخلي عما يكون له من البلاد على شاطئ نهر الدانوب الأيمن بحيث يكون هذا النهر فاصلا بين أملاك الدولة العلية والمجر .

ولما رأى أمير الصرب المدعو (جورج برنكوفيتش) أنه لا يقوى على مقاومة الدولة قبل أن يدفع جزية سنوية قدرها خمسون ألف دوكا ذهباً ويقدم للسلطان فرقة من جنوده للمساعدة وقت الحرب وأن يزّوجه ابنته (مارا) وأن يقطع علاقاته مع ملك المجر وأن يتنازل أيضاً للدولة العلية عن بلدة كروشيفاتس[2]

---

(١) كولمباز هي Kucevo كوتشيڤو وتقع الى الجنوب الشرقي من مدينة بلگراد .

(٢) تسمى هذه المدينة في كتب الترك (الاجه حصار) وتبعد ٥٦ كيلومتر عن مدينة نيش بالقرب من ملتقى نهر (موراوا) . أقول : تقع مدينة كروشيفاتس Krsevac الى =

الواقعة في وسط بلاد الصرب لتجعلها حصناً منيعاً تأوي إليه جنودها منعاً لحصول الفتن وفي سنة ١٤٣٠ أعاد السلطان فتح مدينة سلانيك التي كان تنازل عنها ملك الروم إلى أهالي البندقية بعد أن حاصرها خمسة عشر يوماً وبعد ذلك أراد السلطان مراد أن يفتح ما بقي من بلاد الصرب وبلاد ألبانيا (الارنؤد) والفلاخ قبل أن يعيد الكرة على القسطنطينية حتى لا يكون لها من هذه الولايات نصير فوجه اهتمامه أولاً إلى بلاد ألبانيا فأطاعه سكان يانيه[1] وسكان أغلب باقي البلاد بدون كثير عناء مشترطين عدم التعرض لهم في دينهم ولا عوائدهم وألزم (جان كستريو) ، أمير الجزء الشمالي من بلاد ألبانيا ، أن يسلم له أولاده الأربعة رهينة على صدقه وولائه ثم ضم أملاكه إليه بعد وفاته سنة ١٤٣١ .

وفي سنة ١٤٣٣ اعترف (فلاد) أمير الفلاخ الملقب (دره قول) أي الشيطان بسيادة الباب العالي عليه تخلصاً من الحرب التي كان لا يشك في وخامة عاقبتها عليه لكن لم يكن هذا الخضوع إلا ظاهرياً فإنه ما لبث أن ثار هو وأمير الصرب بناء على تحريض ملك المجر لهما فحاربهما السلطان وقهرهما ثم سار إلى بلاد المجر وخرب كثيراً من بلدانها وعاد منها في سنة ١٤٣٨ بسبعين ألف أسير على ما يقال .

وفي السنة التالية عصى جورج برنكوفتش أمير الصرب فكانت عاقبة عصيانه أن فتح السلطان مراد مدينة سمندرية[2] بالقرب من مدينة بلغراد[3] عاصمة بلاد

= الشمال الغربي من مدينة نيش . وقد الغى اسم الآجه حصار وتعرف اليوم باسمها الأصلي وهو كروشيفاتس وتكتب هكذا : Krsevac .

(١) يانيه : تقع على الحدود اليونانية اليوكوسلافية مقابل جزيرة كورفو Korfu الى الشرق وتكتب هكذا : Janina

(٢) ومعناها القديس اندريا مدينة واقعة على نهر الطونة تبعد ٤٥ كيلومتر عن بلگراد عاصمة الصرب ويبلغ عدد سكانها ١٥ ألفاً ولها أهمية عظمى حربية . وأقول : هي تحريف من اندريا .

(٣) ومعناها المدينة البيضاء،مدينة حصينة على نهر الطونه بالقرب من مصب نهر (ساف) وهي عاصمة مملكة الصرب الآن بينها وبين الآستانة طريق حديدي طوله ثمانمائة

الصرب بعد أن حاصرها ثلاثة أشهر . وفر برنكوفتش إلى بلاد المجر محتمياً عند ملكها (آلبير) الذي خلف سجسمون. ثم حاصر السلطان مدينة بلغراد عاصمة الصرب مدة ستة شهور ولم يتمكن من فتحها لشدة دفاع من بها من الجنود .

فتركها وأغار على بلاد (ترنسلفانيا)[1] وحاصر مدينة (هرمان ستاد)[2] التابعة لملك المجر. وكان حاكم هذا الإقليم هونياد[3] قائد عموم جيوش المجر فأتى هذا القائد الشهير على جناح السرعة للدفاع عنها وانتصر على العثمانيين وقتل منهم عشرين ألف نفس وقتل قائدهم وألزم من بقي منهم بالرجوع خلف نهر الدانوب . ولما بلغ السلطان خبر انهزام جيوشه أرسل إليهم ثمانين ألف مقاتل تحت قيادة شهاب الدين باشا فهزمه أيضاً هونياد المجري وأخذه أسيراً في موقعة هائلة

= كيلومتر وأهميتها في التاريخ العثماني عظيمة لتنازعها بين العثمانيين والنمساويين وفي سنة ١٧٣٩ أمضيت فيها معاهدة شهيرة كما سترى ويبلغ عدد سكانها مائة ألف نسمة.
وأقول : هي الآن عاصمة بلاد الاتحاد اليوگوسلافي ويبلغ نفوسها نحو مليون نسمة وتسمى بلغة القوم بيوگراد وهناك مدينة جديدة تنشأ على ضفة نهر سيف باسم نوفي بيوگراد أي بيوگراد الجديدة .

(١) ومعناها البلاد الواقعة في ما وراء الغابات أطلق عليها أهالي النمسا هذا الاسم لوجود غابات كثيفة تفصلها عنها وهي من أهم اقاليم مملكة النمسا لوفرة المعادن بها ويزيد عدد سكانها عن ثلاثة ملايين، ولمجاورتها لبلاد المجر صارت عرضة لكل من أراد الاغارة على بلاد المجر وتبعت مدة للدولة العثمانية .

(٢) تقع هذه المدينة هرمنستاد Hermannstadt في رومانيا الى الشمال الغربي من العاصمة بخارست وفي مكانها أو بالقرب منها مدينة Sibiu .

(٣) ولد هذا القائد في سنة ١٤٠٠ وعينه لادسلاس ملك بولونيا والمجر حاكماً على اقليم ترنسلڤانيا واشتهر بمحاربة العثمانيين ومات سنة ١٤٥٦ اثر جراح اصابته أثناء دفاعه عن مدينة بلگراد عند محاصرة السلطان محمد الفاتح لها .
أقول : هوينادي أسرة مجرية من أشهر أفرادها ، هذا القائد جان هونيادي الذي يقول التاريخ الافرنسي انه ولد سنة ١٣٨٧ ومات ١٤٥٦ . وبعد موت لادسلاس انتخب ابنه ماتياس كورڤن هونيادي Mathias Corvin ملكاً للمجر .

بالقرب من بلدة يقال لها (وازاج)[1] سنة ١٤٤٢ ، وبعد ذلك سار القائد المجرى إلى بلاد الصرب وتغلب على السلطان مراد نفسه في مدينة نيش[2] واقتفى أثره إلى ما وراء جبال البلقان سنة ١٤٤٣ وظهر عليه في ثلاث وقائع أخرى .وأخيراً أبرم السلطان مراد معهم الصلح على أن يتنازل عن سيادته على بلاد الفلاخ ويردّ إلى أمير الصرب مدائن سمندريه وألاجه حصار وأن يهادن المجر مدّة عشر سنوات، وأمضيت هذه المعاهدة في ٢٦ ربيع الأول سنة ٨٤٨ (١٣ يوليو سنة ١٤٤٤) .

وعقب ذلك توفي أكبر أولاد السلطان واسمه علاء الدين، فحزن عليه والده حزناً شديداً وسئم الحياة فتنازل عن الملك لابنه محمد البالغ من العمر أربع عشرة سنة ،وسافر هو إلى ولاية آيدين للإقامة بعيداً عن هموم الدنيا وغمومها .

تنازل السلطان عن الملك وعودته إليه

لكنه لم يمكث في خلوته بضعة أشهر حتى أتاه خبرغدر المجر وإغارتهم على بلاد البلغار غير مراعين شروط الهدنة اعتماداً على تغرير الكردينال (سيزاريني) مندوب البابا وتفهيمه لملك المجر أن عدم رعاية الذمة والعهود مع المسلمين لا تعدّ حنثاً ولا نقضاً .

ولما ورد عليه خبر هذه الخيانة ونكث العهد قام بجيشه لمحاربة المجر فوجدهم محاصرين لمدينة وارنه[3] الواقعة على البحر الأسود وبعد قليل اشتبك القتال بين الجيشين فقتل ملك المجر المدعو (لادسلاس) وتفرق الجند بعد ذلك ولم تفد شجاعة هونياد شيئاً .وفي اليوم التالي هاجم العثمانيون معسكر المجر واحتلوه

(١) الى الشمال الغربي من مدينة بلغراد يوجد مدينة ذكرت في الأطلس التركي باسم نوزاج ولا يوجد في الأطالس الأوربية أي من هذين الاسمين وأنا أرجح أن وازاج هي نوزاج وقد صحفت لا سيما وان المواصفات تنطبق على هذا الموقع .

(٢) ويقال لها نيسا مدينة في جنوب الصرب لا يزيد عدد سكانها عن عشرة آلاف نسمة واقعة على الطريق الموصل الى الاستانة وسلانيك حصلت بها عدة وقائع حربية أهمها انتصار الصربيين على جيوش الدولة سنة ١٨٧٨م أثناء الحرب الروسية الأخيرة .

أقول : تقع نيش Nis الى الشمال الغربي من مدينة صوفيا وهي بلدة يوگوسلافية .

(٣) مدينة وارنه Varna بلدة بلغارية وتقع على شاطئ البحر الأسود ، وقد أصبحت في =

بعد قتال شديد قتل فيه الكردينال (سيزاريني)، سبب هذه الحرب ، وتم للمسلمين هذا الفوز المبين في ٢٨ رجب سنة ٨٤٨ (١٠ نوفمبر سنة ١٤٤٤) .

فتنة اسكندر بك

وبعد تمام النصر واستخلاص مدينة وارنه رجع السلطان إلى عزلته لكنه لم يلبث فيها هذه المرة أيضاً لأن عساكر الانكشارية ازدروا بملكهم الفتى محمد الثاني وعصوه ونهبوا مدينة أدرنة عاصمة الدولة فرجع إليهم السلطان مراد الثاني في أوائل سنة ١٤٤٥ م وأخمد فتنتهم. وخوفاً من رجوعهم إلى إقلاق راحة الدولة أراد أن يشغلهم بالحرب فأغار على بلاد اليونان وساعده على ذلك تقسيم إيمانويل ملك الروم بلاده بين أولاده بأن أعطى مدينة القسطنطينية وضواحيها إلى ابنه حنا وبلاد موره[1] وجزء من تساليا لابنه قسطنطين وهو آخر ملوك الروم. ولما علم قسطنطين بعزم السلطان مراد على فتح بلاده حصن برزخ كورنته[2] وبنى فيه قلاعاً جعلت اجتيازه غير ممكن لكن لم يعق هذا السور المنيع الجيوش العثمانية بل سلط عليه السلطان مدافعه (ذكر المؤرخون أن هذا أوّل استعمال للمدافع في جيوش الدولة العلية) حتى أحدث فيها ثلماً دخلت منه الجيوش إلى مدينة كورنته ففتحها

ولم يتم فتح بلاد موره لازدياد عصيان اسكندر بك وإثارته الفتن في بلاد ألبانيا واكتفى بضرب الجزية على أهلها هذه المرة ولما هدأ باله من جهة اسكندر بك عاود الكرة عليها واسكندر بك هذا هو أحد أولاد جورج كستريو أمير ألبانيا الشمالية الذين سبق ذكر أخذ السلطان لهم رهينة وضم بلاد أبيهم إليه بعد موته. وكان قد أسلم أو بالحري تظاهر بالاسلام لنوال ما يكنه صدره وأظهر الإخلاص للسلطان حتى قربه إليه وفي سنة ١٤٤٣ حينما كان السلطان مشتغلاً بمحاربة

= أيامنا هذه مشهورة جداً لأنها بلد سياحي يقصده الناس من البلاد العربية ومن أوربا أيضاً وهي مقصودة لحسن شاطئها وجماله .

(١) موره : هي شبه الجزيرة الكبيرة التي تشكل الجزء الجنوبي من بلاد اليونان . ويثبه Thebai هي الجزء الجنوبي الشرقي من بلاد اليونان التي توجد فيها مدينة أثينا .

(٢) برزخ كورنته : هو الخليج الذي يحجز بين بري اليونان وعلى شاطئه الجنوبي تقع مدينة كورنته .

هونياد وملك الصرب ألزم كاتب أول الملك على أن يمضي له أمراً بتوجيه إدارة مدينة (آق حصار)[1] من أعمال بلاد ألبانيا إليه،وأخذ هذا الأمر بعد أن قتل ممضيه خوفاً من إفشاء سرّه وسار إلى هذا البلد ودخله .وفي الحال استدعى إليه رؤساء قبائل الارنؤد وأظهر لهم مشروعه وهو استخلاص ألبانيا من يد الأتراك فوافقوه على ما وسوسه لهم وأمدوه بالمال والرجال فسار معهم وطرد العثمانيين من أغلب بلاد أجداده وانتصر على القائد علي باشا سنة ١٤٤٣.وساعده على امتداد نفوذه تنازل السلطان مراد واشتغاله بمحاربة المجر لكن لما تم النصر للسلطان في واقعة وارنه واستتب الأمن في بلاد اليونان أمكنه جمع جيش جرار لقمع هذا الخائن فقصده بمائة ألف مقاتل واسترد منه مدينتين من أهم مدن ألبانيا سنة ١٤٤٧ ثم تركه حين بلغه خبر إغارة هونياد المجري على بلاد الصرب ليعيد لنفسه ما فقد من الشرف في واقعة وارنه. وكان معه في هذه الدفعة أربعة وعشرون ألف رجل منهم عشرة آلاف من الفلاخ فاصطدم الجيش العثماني بقيادة السلطان نفسه مع جيش هونياد في وادي (قوص أوه) فانتصر عليه السلطان نصراً مبيناً في ١٨ شعبان سنة ٨٥٢ (١٧ اكتوبر سنة ١٤٤٨) كما انتصر السلطان مراد الأول على لازار ملك الصرب سنة ١٣٨٩ في هذا الموقع ،ثم عاد السلطان مراد الثاني لمحاربة اسكندر بك بالبانيا وحاصر مدينة (آق حصار) مدة ولما لم يجد سبيلاً إلى فتحها لضعف جيوشه بسبب هذه الحروب المتواصلة أراد أن يتفق مع اسكندر بك على الصلح بأن يقلده السلطان إمارة بلاد البانيا في مقابلة جزية سنوية .ولما لم يقبل اسكندر بك هذا الاقتراح رفع السلطان الحصار عن المدينة وعاد إلى أدرنه عاصمة ممالكه ليجهز جيوشاً جديدة كافية لقمع هذا الثائر لكنه توفي في يوم ٥ محرم سنة ٨٥٥ (٧ فبراير سنة ١٤٥١) وتولى بعده ابنه السلطان أبو الفتح محمد الثاني ونقلت جثته إلى مدينة بورصه وسنّه ٤٩ سنة ومدة حكمه ٣٠ سنة .

(١) آق : ومعناها أبيض وقره ومعناها أسود وتستعمل هاتان الكلمتان كثيراً في اللغة التركية لتسمية الأماكن ، ويوجد في البلاد التي حكمها العثمانيون كثير من الأماكن التي تعرف باضافة آق أو قره إليها. واق حصار معناها القلعة البيضاء .



٧-

السّلطان الغازي محمّد الثاني الفاتح وفتح القسطنطينية

ولد هذا السلطان في ٢٦ رجب سنة ٨٣٣ (٢٠ ابريل سنة ١٤٢٩).وهو سابع سلاطين هذه السلالة الملوكية ولما تولى الملك بعد أبيه لم يكن بآسيا الصغرى خارجاً عن سلطانه الآ جزء من بلاد القرمان ومدينة سينوب[1] ومملكة طرابزون الرومية[2].
وصارت مملكة الروم الشرقية قاصرة على مدينة القسطنطينية وضواحيها. وكان إقليم (موره) مجزأ بين البنادقة وعدة إمارات صغيرة يحكمها بعض أعيان الروم أو الافرنج الذين تخلفوا عن إخوانهم بعد انتهاء الحروب الصليبية،وبلاد الأرنؤد

(١) مدينة حصينة في شمال الأناضول على البحر الأسود بها ميناء متسعة اتخذتها الدولة العلية ملجأ لسفنها الحربية وشهيرة بما ارتكبته الروسيا فيها من تدمير الدونانمة العثمانية سنة ١٨٥٣م قبل إعلان الحرب المعروفة بحرب القرم . وأقول :
كلمة دونانمة التي يستعملها المؤلف كثيراً تعني الأسطول .

(٢) مدينة قديمة بآسيا على البحر الأسود تبعد ١٤٠ كيلومتراً عن مدينة أرضروم ويظن أنها معاصرة لمدينة ترواده الشهيرة واسمها مشتق من لفظة (ترابيزوس) اللاتينية ومعناها الشكل المعين،ولما انقسمت المملكة الرومانية الى شرقية وغربية ظلت تابعة للملكة الشرقية الى سنة ١٢٠٤م حيث فتحها الافرنج الذين أتوا أثناء حرب الصليب،ثم سكنها أحد أعضاء عائلة (الكومين) وأسست بها مملكة طرابزون التي استمرت مستقلة ،ولو أنها تابعة اسما الى مملكة الروم بالقسطنطينية،الى أن فتحها العثمانيون سنة ١٤٦١م، وقتلوا آخر ملوكها المدعو (داود) وستة من أولاده وكان له ولد سابع في اقليم موره ببلاد اليونان ثم هاجر الى جزيرة (كورسيكا).وآخر ذرية هذه العائلة (الدوشيس دي ابرانتيس) التي توفيت سنة ١٨٣٨ .

وايبيروس[1] في حمى اسكندر بك السالف الذكر، وبلاد البشناق (البوسنه) مستقلة والصرب تابعة للدولة العلية تابعية سيادته ، وما بقي من بحيث جزيرة البلقان (شبه جزيرة البلقان) داخلاً تحت سلطة الدولة العلية .

وبعد أن أمر بنقل جثة والده إلى مدينة بورصه لدفنها بها أمر بقتل أخ له رضيع اسمه أحمد وبارجاع الأميرة مارا الصربية إلى والدها.ثم أخذ يستعد لتتميم فتح ما بقي من بلاد البلقان ومدينة القسطنطينية حتى تكون جميع أملاكه متصلة لا يتخللها عدو مهاجم أو صديق منافق.لكنه قبل التعرض لفتح القسطنطينية أراد أن يحصن بوغاز البوسفور حتى لا يأتي لها مدد من مملكة طرابزون وذلك بأن يقيم قلعة على شاطيء البوغاز من جهة أوروبا تكون مقابلة للحصن الذي أنشأه السلطان بايزيد يبلدرم ببر آسيا.ولما بلغ ملك الروم هذا الخبر أرسل إلى السلطان سفيراً يعرض عليه دفع الجزية التي يقررها فرفض طلبه وسعى في إيجاد سبب لفتح باب الحرب ولم يلبث أن وجد هذا السبب بتعدي الجنود العثمانية على بعض قرى الروم ودفاع هؤلاء عن أنفسهم وقتل البعض من الفريقين .

فحاصر السلطان المدينة في أوائل ابريل سنة ١٤٥٣ من جهة البر بجيش يبلغ المائتين وخمسين ألف جندي ومن جهة البحر بعمارة مؤلفة من مائة وثمانين سفينة وأقام حول المدينة أربع عشرة بطارية طوبجية (مدفعية) وضع بها مدافع جسيمة صنعها صانع مجرى شهير اسمه (أوربان) كانت تقذف كرات من الحجر زنة كل واحدة منها اثنا عشر قنطاراً[2] إلى مسافة ميل.وفي أثناء الحصار اكتشف قبر أبي

---

(١) ايبروس Epiros هي المنطقة اليونانية الكائنة في جنوب غرب مقدونيا أو هي الجزء الغربي من اليونان الواقع تحت البانيا . وكانت هذه المنطقة مشهورة بادعاء الخوارق ومن أباطرتها من ادعى انه ابن الآلهة .

(٢) في هذا القول مبالغة كبيرة لأننا لو فرضنا وجود آلة ، في ذلك الزمن ، تستطيع أن تقذف هذا الوزن الكبير فإنه لا يوجد أناس يستطيعون أن يرفعوا حجراً هذا وزنه ليضعوه في المدفع اللهم الا أن نقول ان وزن القذيفة كان ١٢ رطلاً لا قنطاراً لأن القنطار يساوي ٢٥٠ كيلو غراماً فوزن القذيفة على هذا الاعتبار يكون ٣٠٠٠ كيلو غراماً، ولكن المبالغة بالأعداد والأرقام شيء معروف ومألوف في التواريخ القديمة . =

أيوب الانصاري[1] الذي استشهد حين حصار القسطنطينية في سنة ٥٢ هـ في خلافة معاوية بن أبي سفيان الأموي. وبعد الفتح بنى له مسجد جامع وجرت العادة بعد ذلك أن كل سلطان يتولى يتقلد سيف عثمان الغازي الأول بهذا المسجد وهذا الاحتفال يعد بمثابة التتويج عند ملوك الافرنج ولم تزل هذه العادة متبعة حتى الآن. ولما شاهد قسطنطين آخر ملوك الروم هذه الاستعدادات استنجد باوروبا فلبى طلبه أهالي جنوه[2] وأرسلوا له عمارة بحرية تحت أمرة جوستنياني فأتى بمراكبه وأراد

= قال بارون كاراده ڤو Carra de Vaux في كتابه (مفكرو الاسلام) كان وزن الكرة التي استعملها محمد الفاتح ٣٠٠ كيلو غرام وكان مدى مرمى المدفع أكثر من ميل ، وكان جر هذا المدفع يحتاج الى ٧٠٠ شخص وحشوه يحتاج الى ساعتين من الزمن .

(١) مسجد أبي أيوب الأنصاري مبني فوق ربوة ذات طلالة على القرن الذهبي جميلة جداً ولكنه مسجد مهمل ولا يليق بهذا الصحابي الجليل .

(٢) جنوه مدينة قديمة جداً يقال انها انشئت سنة ٧٠٧ قبل الميلاد واستولى عليها الرومانيون سنة ٢٢ قبل الميلاد وظلت تابعة لهم لحين سقوط الدولة الرومانية. ثم تناوبتها أيدي قبائل المتبربرين المختلفة .وأخيراً فتحها شارلمان الفرنساوي المتوفى سنة ٨١٤م واستقلت في القرن العاشر واتخذت التجارة مهنة ونافست جمهوريتي بيشه المسماة الآن (بيز) والبندقية المسماة (فنسيا) . وفي القرن الثالث عشر حاربت بيشه وتغلبت عليها وتلاشت تجارتها وأخذت منها جزيرة (كورسيكا) ثم أعطاها ملوك الروم بالاستانة قريتي بيره وغلطه في ضواحي بيزنطه (القسطنطينية) ومدينة (كافا) ببلاد القرم ومدينة أزمير وغيرها ومن ثم وقعت المنافسة بينها وبين البنادقة بسبب السيادة على البحار وحاربتها وانتصرت عليها مراراً وبقيت سيدة البحار الشرقية الى أواخر القرن الرابع عشر. ثم أخذت في التقهقر شيئاً فشيئاً بسبب عدم انتظام أمورها الداخلية وتفرق كلمة أهلها ففقدت استقلالها وصارت تدخل تارة في حمى اسبانيا وأخرى في حمى فرانسا وطوراً ترجع الى استقلالها الى أن احتلها الفرنساويون سنة ١٧٩٦ وشكلوها بهيئة جمهورية في السنة التالية. وبعد سقوط امبراطورية نابليون الأول في سنة ١٨١٥ ضمت الى لومباردية وهي الآن تابعة لمملكة ايطاليا .

أقول بيز : وتسمى بالتليانية پيزا Pisa وتقع على نهر أرنو بالقرب من البحر =

الدخول إلى ميناء القسطنطينية فعارضته السفن العثمانية وانتشرت بينهما حرب هائلة في يوم ١١ ربيع الثاني سنة ٨٥٧ (٢١ ابريل سنة ١٤٥٣) انتهت بفوز جوستنياني ودخوله الميناء بعد أن رفع المحصورون السلاسل الحديدية التي وضعت لمنع المراكب العثمانية من الوصول إليها ثم أعيدت بعد مروره كما كانت. وبعدها أخذ السلطان يفكر في طريقة لدخول مراكبه إلى الميناء لاتمام الحصار براً وبحراً فخطر بباله فكر غريب في بابه وهو أن ينقل المراكب على البر ليجتازوا السلاسل الموضوعة لمنعه، وتم هذا الأمر المستغرب بأن مهد طريقاً على البر اختلف في طوله والمرجح أنه فرسخان أي ستة أميال ورصت فوقه ألواح من الخشب صبت عليها كمية من الزيت والدهن لسهولة زلق المراكب عليها، وبهذه الكيفية أمكن نقل نحو السبعين سفينة في ليلة واحدة حتى إذا أصبح النهار ونظرها المحصورون أيقنوا أن لا مناص من نصر العثمانيين عليهم، لكن لم تخمد عزائمهم بل ازدادوا إقداماً وصمموا على الدفاع عن أوطانهم حتى الممات. وفي يوم ١٥ جماد أول سنة ٨٥٧ (٢٤ مايو سنة ١٤٥٣) أرسل السلطان محمد إلى قسطنطين يخبره أنه لو سلم البلد

= في شمال غرب ايطاليا ، وكانت في القرن الحادي عشر قوة بحرية مرهوبة فلما غلبت أمام جنوا سنة ١٢٨٤م لم تستعد قوتها بعد ذلك وفي بيزا آثار كثيرة وأهمها البرج المائل .

البندقية : فينيزيا Venezia . تقع في شمال شرقي ايطاليا على البحر الادرياتيكي وهي عبارة عن مجموعة جزر ، وقد امتد سلطانها في القرن العاشر الى الشاطئ الشرقي من البحر الأدرياتيكي فشمل الساحل اليوگوسلافي والبانيا وجزءاً من اليونان وبعض جزر ايجه . ولما استولى المسلمون على استانبول هجرها كثير من العلماء والفنانون وذهبوا الى فينيزيا مما جعلها مركزاً للثقافة والفن اليونانيين . وفي سنة ١٧٩٧م قضى نابليون على استقلال هذه الجمهورية لصالح النمسا ثم ظهرت بشكل جمهورية حرة سنة ١٨٤٨م وأخيراً أصبحت جزءاً من ايطاليا سنة ١٨٦٦م . وفي فينيزيا ٩٠ كنيسة تستحق الزيارة وفيها من الأبنية الأثرية قصر امرائها القدامى .

كورسيكا : جزيرة تقع في جنوب فرانسا وقد تقلبت عليها الأيدي وآخر حكامها كانوا أهل جنوا الذين تنازلوا عنها سنة ١٧٦٨م لفرانسا بموجب معاهدة فرساي .

بيره وغلطه :حيّان من أحياء استانبول

إليه طوعاً يتعهد له بعدم مس حرية الأهالي أو أملاكهم وأن يعطيه جزيرة مورة فلم يقبل قسطنطين ذلك بل آثر الموت على تسليم المدينة .فعند ذلك نبه السلطان على جيوشه بالاستعداد للهجوم في يوم ٢٠ جماد أول سنة ٨٥٧ (٢٩ مايو سنة ١٤٥٣) ووعد الجيوش بمكافأتهم عند تمام النصر وباقطاعهم أراضي كثيرة. وفي الليلة السابقة لليوم المحدّد أشعلت الجنود العثمانية الأنوار أمام خيامها للاحتفال بالنصر المحقق لديهم وظلوا طول ليلهم يهللون ويكبرون حتى إذا لاح الفجر صدرت إليهم الأوامر بالهجوم ، فهجم مائة وخمسون ألف جندي وتسلقوا الأسوار حتى دخلوا المدينة من كل فج وأعملوا السيف فيمن عارضهم ،ودخلوا كنيسة القديسة صوفيا حيث كان يصلي فيها البطريق وحوله عدد عظيم من الأهالي ،ويعتقد الروم حتى الآن أن حائط الكنيسة انشق ودخل فيه البطرق والصور المقدّسة وفي اعتقادهم أن الحائط ينشق ثانية يوم يخرج الأتراك من القسطنطينية[1] ويخرج البطرق منها ويتم صلاته التي قطعها عند دخول العثمانيين عليه عند الفتح .وقد أرخ بعضهم هذا الفتح المبين (بلدة طيبة)[2] سنة ٨٥٧ وسميت المدينة اسلامبول أي تخت الاسلام أو مدينة الاسلام .

أما قسطنطين فقاتل حتى مات في الدفاع عن وطنه. وبعد فتحها جعلت عاصمة للدولة ولن تزال كذلك إن شاء الله .ولنذكر هنا أن المسلمين حاصروا القسطنطينية احدى عشرة مرة قبل هذه المرة الأخيرة منها سبعة في القرنين الأوّلين للإسلام ، فحاصرها معاوية في خلافة سيدنا عليّ سنة ٣٤ هـ (٦٥٤ م).وحاصرها يزيد بن

---

(١) لقد تساوى في هذا الأمر روم استانبول وبعض المسلمين الذين ينتظرون المهدي الذي اختفى في سرداب مسجد سامراء . ولا عجب أن يعتقد النصارى بمثل هذه الأقوال لأن الديانة المسيحية قائمة على المعجزات والخوارق ولا عذر للمسلمين بمثل هذا الاعتقاد.

(٢) بلدة طيبة لا تكون بحساب الأبجدية ٨٥٧ بل تكون ٦٧ فقط ولكي تكون ٨٥٧ لا بد من جعل التاء المربوطة في اللفظين : (بلدة طيبة) تاءً مفتوحة هكذا : (بلدت طيبت) وهذا لا يجوز .

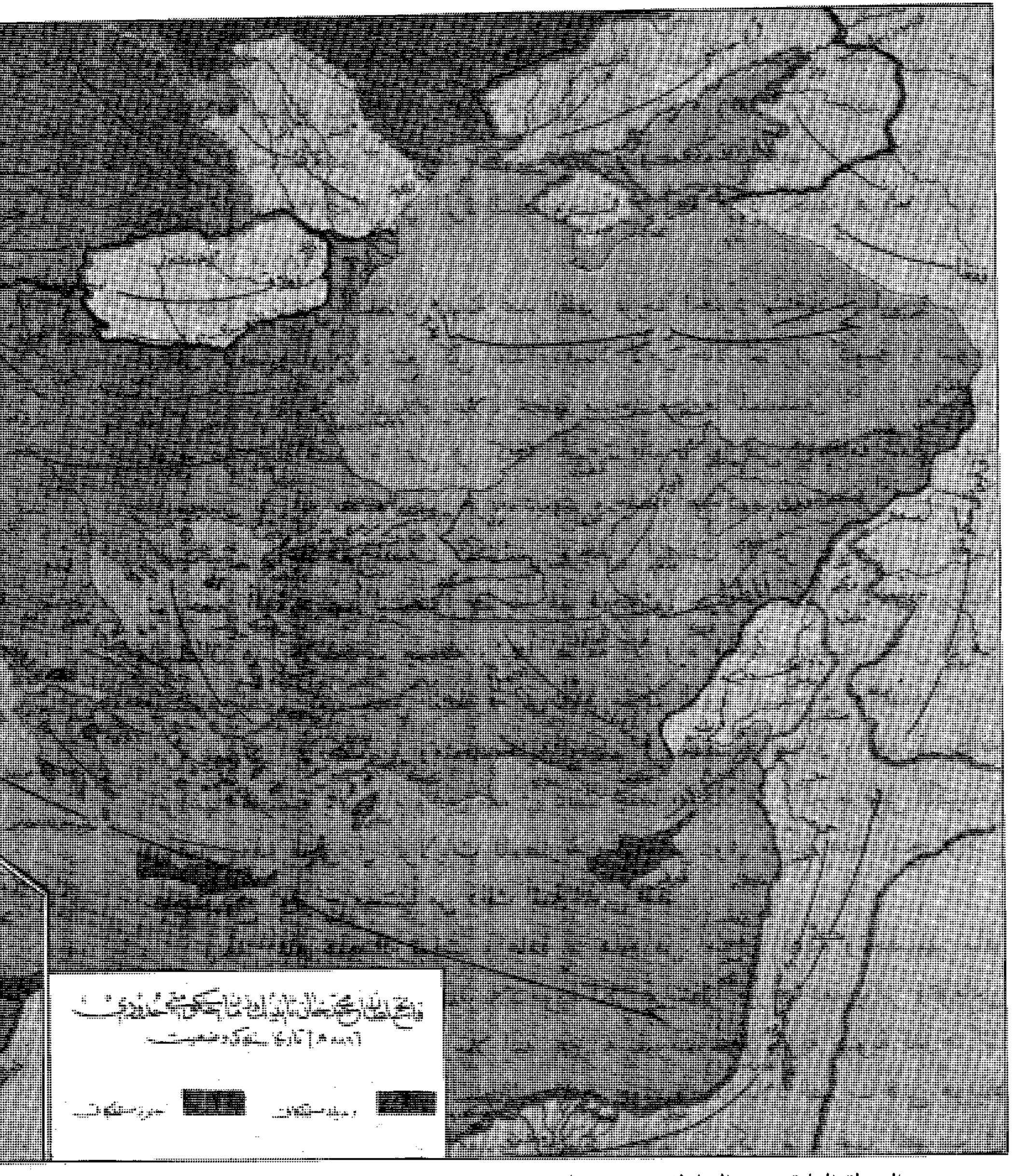
معاوية سنة ٤٧ هـ (٦٦٧ م) في خلافة سيدنا عليّ أيضاً. وحاصرها سفيان بن أوس في خلافة معاوية سنة ٥٢ هـ (٦٧٢ م). وفي سنة ٩٧ هـ (٧١٥ م) حاصرها مسلمة في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز الأموي. وحوصرت أيضاً في خلافة هشام سنة ١٢١ هـ (٧٣٩ م). وفي المرّة السابعة حاصرها أحد قوّاد الخليفة هرون الرشيد سنة ١٨٢ هـ (٧٩٨ م).

هذا ثم دخل السلطان المدينة عند الظهر فوجد الجنود مشتغلة بالسلب والنهب وغيره فأصدر أوامره بمنع كل اعتداء، فساد الأمن حالاً. ثم زار كنيسة أيا صوفيا وأمر بأن يؤذن فيها بالصلاة إعلاناً بجعلها مسجداً جامعاً للمسلمين [1]. وبعد تمام الفتح على هذه الصورة أعلن في كافة الجهات بأنه لا يعارض في إقامة شعائر ديانة المسيحيين بل إنه يضمن لهم حرية دينهم وحفظ أملاكهم فرجع من هاجر من المسيحيين وأعطاهم نصف الكنائس وجعل النصف الآخر جوامع للمسلمين ثم جمع أئمة دينهم لينتخبوا بطريقاً لهم فاختاروا جورج سكولاريوس. واعتمد السلطان هذا الانتخاب وجعله رئيساً لطائفة الأروام واحتفل بتثبيته بنفس الأبهة والنظام الذي كان يعمل للبطارقة في أيام ملوك الروم المسيحيين وأعطاه حرساً من عساكر الانكشارية ومنحه حق الحكم في القضايا المدنية والجنائية بكافة أنواعها المختصة بالاروام وعين معه في ذلك مجلساً مشكلاً من أكبر موظفي الكنيسة، وأعطى هذا الحق في الولايات للمطارنة والقسوس. وفي مقابلة هذه المنح فرض عليهم دفع الخراج مستثنياً من ذلك أئمة الدين فقط.

وبعد إتمام هذه الترتيبات وإعادة ما هدم من أسوار المدينة وتحصينها سافر بجيوشه لفتح بلاد جديدة فقصد بلاد موره لكن لم ينتظر أميراها دمتريوس وتوماس أخوا قسطنطين قدومه بل أرسلا إليه يخبرانه بقبولهما دفع جزية سنوية قدرها إثنا عشر ألف دوكا. فقبل ذلك السلطان وغير وجهته قاصداً بلاد الصرب فأتى هونياد الشجاع المجري وردّ عنهم مقدمة الجيوش العثمانية لكن لم يرغب الصرب في مساعدة المجر لهم لاختلاف مذهبهم حيث كان المجر كاثوليكيين تابعين لبابا

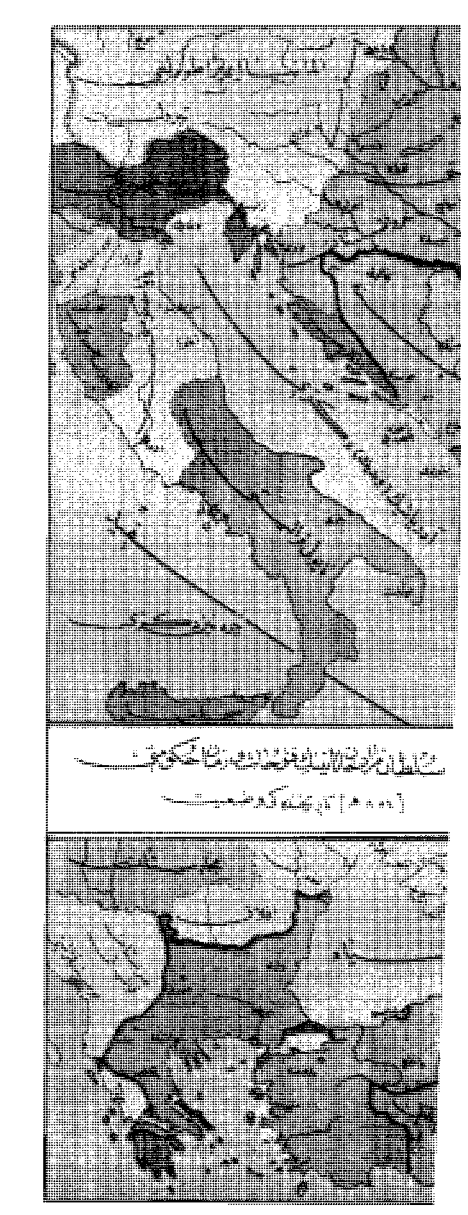
---

(١) لما استولى كمال أتاتورك على الحكم جعل هذا المسجد متحفاً وهو ما زال كذلك.



حدود الدولة العلية زمن السلطان محمد الفاتح (سنة ٨٨٦ هـ)

ممتلكات الفانديك ممتلكات الجنويين



بحر سياه	= البحر الأسود
آق قيونلي حكومتي	= دولة الخروف الأبيض
ونديك جمهورتي	= جمهورية ڤانديك
بابا حكومتي	= دولة البابا
فلورنسة جمهوريتي	= جمهورية فلورنسا
نابولي قراليتي	= مملكة نابولي
قره مان بكلكي	= بكوية القرمان

رومة والصرب أرثوذكسيين لا يذعنون لسلطة البابا بل كانوا يفضلون تسلط المسلمين عليهم لما رأوه من عدم تعرّضهم للدين مطلقاً.ولذلك أبرم أمير الصرب الصلح مع السلطان محمد الثاني على أن يدفع له سنوياً ثمانين ألف دوكا وذلك في سنة١٤٥٤ . وفي السنة التالية أعاد السلطان عليها الكرة بجيش مؤلف من خمسين ألف مقاتل وثلاثمائة مدفع ومر بجيوشه من جنوب بلاد الصرب إلى شمالها بدون أن يلقى أقل معارضة حتى وصل مدينة بلغراد الواقعة على نهر الدانوب وحاصرها من جهة البر والنهر . وكان هونياد المجري دخل المدينة قبل إتمام الحصار عليها ودافع عنها دفاع الأبطال حتى يئس السلطان من فتحها ورفع عنها الحصار سنة ١٤٥٥ لكن وإن لم يتمكن العثمانيون من فتح عاصمة الصرب إلا أنهم ربحوا أمراً عظيماً وهو إصابة هونياد بجراح بليغة مات بسببها بعد رفع الحصار عن المدينة بنحو عشرين يوماً وأراح المسلمين منه.ولما علم السلطان بموته أرسل الصدر الأعظم محمود باشا لإتمام فتح بلاد الصرب فأتم فتحها من سنة ١٤٥٨ إلى سنة ١٤٦٠ وبذلك فقدت الصرب استقلالها نهائياً بعد أن أعيت الدولة العلية أكثر من مرة .

وفي هذه الأثناء تم فتح بلاد موره .ففي سنة ١٤٥٨ فتح السلطان مدينة كورنته وما جاورها من بلاد اليونان حتى جرد توماس باليولوج أخا قسطنطين من جميع بلاده ولم يترك إقليم موره لأخيه دمتريوس إلا بشرط دفع الجزية .

وبمجرّد ما رجع السلطان بجيوشه ثار توماس وحارب الأتراك وأخاه معاً فاستنجد دمتريوس بالسلطان فرجع بجيش عرمرم ولم يرجع حتى تم فتح إقليم موره سنة ١٤٦٠ وهرب توماس إلى إيطاليا ونفي دمتريوس في إحدى جزائر الأرخبيل .

وفي ذلك الوقت فتحت جزائر تاسوس[١] والبروس وغيرها من جزائر بحر الروم .

---

(١) تقع هاتان الجزيرتان Thasus و Imbrus في بحر إيجه الى الغرب من مضيق الدردنيل .

وبعد عودة السلطان من بلاد اليونان أبرم صلحاً مؤقتاً مع اسكندر بك وترك له إقليمي ألبانيا وإيبيروس ثم حوّل أنظاره إلى آسيا الصغرى ليفتح ما بقي منها فسار بجيشه بدون أن يعلم أحداً بوجهته في أوائل سنة ١٤٦١ وهاجم أوّلاً ميناء أماستريس[١]، وكانت مركز تجارة أهالي جينوه النازلين بهذه الأصقاع. ولكون سكانها تجاراً يحافظون على أموالهم ولا يهمهم دين أو جنسية متبوعهم ما دام غير متعرّض لأموالهم ولا أرواحهم فتحوا أبواب المدينة ودخلها العثمانيون بغير حرب. ثم أرسل إلى اسفنديار أمير مدينة سينوب يطلب منه تسليم بلده والخضوع له. ولأجل تعزيز هذا الطلب أرسل أحد قوّاده ومعه عدد عظيم من المراكب لحصر الميناء فسلمها إليه الأمير وأقطعه الملك أراضي واسعة باقليم بيثينيا[٢] مكافأة له على خضوعه. ثم قصد بنفسه مدينة طرابزون ودخلها بدون مقاومة شديدة وقبض على الملك وأولاده وزوجته وأرسلهم إلى القسطنطينية .

ولما عاد إليها جهز جيشاً لمحاربة أمير الفلاخ المدعو فلاددره قول، أي الشيطان لمعاقبته على ما ارتكبه من الفظائع مع أهالي بلاده والتعدّي على تجار العثمانيين النازلين بها. فلما قرب منها أرسل إليه هذا الأمير وفداً يعرض على السلطان دفع جزية سنوية قدرها عشرة آلاف دوكا بشرط أن يصادق على جميع الشروط الواردة بالمعاهدة التي أبرمت في سنة ١٣٩٣ بين أمير الفلاخ إذ ذاك والسلطان بايزيد، فقبل السلطان محمد الثاني هذا الاقتراح وعاد بجيوشه ولم يقصد أمير الفلاخ بهذه المعاهدة إلا التمكن من الاتحاد مع ملك المجر ومحاربة العثمانيين، فلما علم السلطان باتحادهما أرسل إليه مندوبين يسألانه عن الحقيقة فقبض عليهما وقتلهما بوضعهما على عمود محدّد من الخشب (خازوق). وأغار بعدها على بلاد بلغاريا التابعة للدولة العلية وعثا فيها الفساد ورجع بخمسة وعشرين ألف أسير فأرسل إليه

---

(١) تقع بلدة Amastris على شاطئ البحر الأسود في منتصف الطريق بين سينوب واستانبول.

(٢) بيثينيا Bithynia اسم قديم لاقليم من أقاليم الأناطول، ويقع هذا الاقليم في الطرف الغربي الشمالي من الأناطول، أي انه يبدأ من شرق أزميت وينحدر حتى مدينة اسكي شهر ومنها يسير بشريط على شاطئ البحر الأسود الى قرب سينوب .

السلطان يدعوه إلى الطاعة وإخلاء سبيل الأسرى فلما مثل الرسل أمامه أمرهم برفع عمائمهم لتعظيمه وعند إبائهم طلبه لمخالفته لعوائدهم أمر هذا الظالم بأن تسمر عمائمهم على رؤسهم بمسامير من حديد .

فلما وصلت هذه الأخبار إلى السلطان محمد استشاط غضباً وسار على الفور بمائة وخمسين ألف مقاتل لمحاربة هذا الشقي الظلوم فوصل في أقرب وقت إلى مدينة بخارست[1] عاصمة الأمير بعد أن هزمه وفرّق جيوشه لكنه لم يتمكن من القبض عليه لمجازاته على ما اقترفه من المظالم والمآثم لهروبه والتجائه إلى ملك المجر فنادى السلطان بعزله ونصب مكانه أخاه راوول لثقته به بما أنه تربى في حضانة السلطان منذ نعومة أظفاره وبذا ضمت بلاد الفلاخ إلى الدولة العلية .ويقال أن عند وصول السلطان محمد إلى ضواحي بخارست وجد حول المدينة جثث الأسرى الذين أتى بهم أمير الفلاخ من بلاد بلغاريا وقتلهم عن آخرهم بما فيهم الأطفال والنساء وكان عددهم جميعاً عشرين ألفاً .

وفي سنة ١٤٦٢ حارب السلطان بلاد بوسنة لامتناع أميرها عن دفع الخراج وأسره بعد محاربة عنيفة هو وولده وأمر بقتلهما فدانت له جميع بلاد البشناق (أهالي بوسنة). وفي سنة ١٤٦٤ أراد متياس كرفن[2] ملك المجر استخلاص بوسنة من العثمانيين فهزم بعد أن قتل معظم جيشه وكانت عاقبة تدخله أن جعلت بوسنة ولاية كباقي ولايات الدولة وسلبت ما كان منح لها من الامتيازات ودخل في جيش الانكشارية ثلاثون الفاً من شبانها وأسلم أغلب اشراف أهاليها .

هذا وكانت ابتدأت حركات العدوان في سنة ١٤٦٣ بين العثمانيين والبنادقة[3]

---

(١) وتسمى في الكتب التركية (بكرش) بلدة جميلة جداً قديمة العهد ولم تشتهر الا بعد المعاهدة التي أبرمت فيها بين الدولة العلية والروسية سنة ١٨١٢ وهي الآن عاصمة مملكة رومانيا المكونة من إمارتي الأفلاق والبغدان . أقول : هي الآن جمهورية اشتراكية .

(٢) هو ابن هونياد المجرى ولد سنة ١٤٤٣ وانتخب ملكاً على بلاد المجر سنة ١٤٥٨ وسنه خمس عشرة سنة واشتهر بمحاربة كافة جيرانه دفاعاً عن استقلال المجر وأسس مدرسة جامعة بمدينة (بود) ومكتبة عمومية وبنى فيها مرصداً فلكياً وتوفي سنة ١٤٩٠ .

(٣) هم سكان مدينة البندقية الواقعة على البحر الادرياتيكي وهي أهم الثغور التجارية. =

بسبب هروب أحد الرقيق إلى كورون[1] التابعة لهم وامتناعهم عن تسليمه بحجة أنه اعتنق الدين المسيحي فاتخذ العثمانيون ذلك سبباً للاستيلاء على مدينة أرجوس[2] وغيرها. فاستنجد البنادقة بحكومتهم وهي أرسلت إليهم عمارة بحرية أنزلت ما بها من الجيوش إلى بلاد موره فثار سكانها وقاتلوا الجنود العثمانية المحافظة على بلادهم وأقاموا ما كان تهدّم من سور برزخ كورنته لمنع وصول المدد من الدولة العلية وحاصروا مدينة كورنته نفسها واستخلصوا مدينة أرجوس من الأتراك، لكن لما علموا بقدوم السلطان مع جيش يبلغ عدده ثمانين ألف مقاتل تركوا البرزخ راجعين على أعقابهم فدخل العثمانيون بلاد موره بدون كبير معارضة واسترجعوا كل ما أخذوه وأرجعوا السكينة إلى البلاد. وفي السنة التالية أعاد البنادقة الكرة على بلاد موره بدون فائدة.

وبعد ذلك أخذ البابا بيوس الثاني يسعى في تحريض الأمم المسيحية على محاربة

= فانها فازت في مسابقة جمهورية بيشه ولم تقو على مجاراة جينوه الا لما استولى عليها الاحتلال وصارت هي سيدة البحار الى أن اكتشف طريق رأس الرجا الصالح بطرف افريقيا الجنوبي الموصل الى الهند واكتشفت قارة أمريكا فتحولت التجارة الى هذا الطريق الجديد وضعفت البندقية. واشتهرت هذه الجمهورية بمحاربة العثمانيين الذين جردوها من جميع أملاكها شيئاً فشيئاً فأخذ منها السلطان محمد الفاتح جزائر اليونان وما كان لها في بلاد موره. وفي سنة ١٥٧١ استولى السلطان سليم الثاني على جزيرة قبرص. وفي سنة ١٦٦٩ فتح السلطان محمد الرابع جزيرة كريد، وكانتا تابعتين لها. وفي سنة ١٧٩٧ احتلها الفرنساويون ثم ضمت الى النمسا وفي سنة ١٨٠٥ ضمت الى إيطاليا وفي سنة ١٨١٥ عادت الى النمسا، وفي سنة ١٨٤٨ ثارت عليها وتشكلت بهيئة جمهورية. وفي السنة التالية أخضعتها النمسا ثانية لسلطانها. وفي سنة ١٨٥٩ تنازلت عنها النمسا الى نابليون الثالث امبراطور فرانسا وهو تنازل عنها الى فكتور امانويل ملك بيمونتي الذي صار فيما بعد ملك ايطاليا. ولم تزل تابعة لايطاليا حتى الآن وقد زرتها في شهر يونيو سنة ١٨٩٥ أثناء سياحتي بأوروبا.

(١) كورون: تقع في الناحية الشرقية من الرأس الجنوبي الغربي داخل الخليج.

(٢) اركوز Arguse يكتبها المؤلف مرة ارجوزه ومرة ارجوس وكلاهما غلط.

المسلمين حرباً دينية لكن عاجله المنون قبل إتمام مشروعه إلا أن تحريضاته هاجت اسكندر بك الالباني فحارب الجنود العثمانية وحصل بينهما عدّة وقائع أهرق فيها كثير من الدماء وكانت الحرب فيها سجالا. وفي سنة ١٤٦٧ توفي اسكندر بك بعد أن حارب الدولة العلية خمساً وعشرين سنة بدون أن تقوى على قمعه فكان من أشدّ خصوم الدولة وألد اعدائها .

ثم بعد هدنة استمرّت سنة واحدة عادت الحروب بين العثمانيين والبنادقة وكانت نتيجتها أن افتتح العثمانيون جزيرة نجر بونت وتسمى في كتب التراك اجريبوس[١] مركز مستعمرات البنادقة في جزائر الروم وتم فتحها في سنة ١٤٧٠. وبعد أن ساد الأمن في أنحاء أوروبا حوّل السلطان أنظاره إلى بلاد القرمان بآسيا الصغرى ووجد سبيلاً سهلاً للتدخل وهو أن أميرها المدعو إبراهيم أوصى بعد موته بالحكم إلى أحد أولاده واسمه الأمير اسحق ولكون أمه أم ولد نازعه الحكم أخوته من أبيه الذين من الزوجات، فتداخل السلطان محمد الثاني وحارب اسحق وهزمه وولى محله أكبر اخوته، وعاد إلى أوروبا لمحاربة اسكندر بك، كما مر فانتهز الأمير اسحق غيابه وعاود الكرّة على قونية لاسترداد ما أوصى به إليه أبوه من البلاد فرجع إليه السلطان وقهره. وليستريح باله من هذه الجهة أيضاً ضم إمارة القرمان إلى بلاده وغضب على وزيره محمود باشا الذي عارضه في هذا الأمر .

وبعد ذلك بقليل زحف (أوزون حسن)[٢] أحد خلفاء تيمورلنك الذي كان سلطانه ممتداً على كافة البلاد والأقاليم الواقعة بين نهري آموداريا[٣] والفرات

---

(١) هذه الجزيرة هي الجزيرة التي تمتد أمام الشاطئ اليوناني الشرقي، أي بمحاذاة أثينا فما فوق، ويكتبها الأتراك أغريبوز. وحيث أن المصريين يلفظون الجيم (گ) فقد كتبها المؤلف بهذا الشكل ، وهذا الاسم قد أبطل منذ زمن بعيد واسمها اليوناني هو ايبيويا Euboia . وفي دمشق أسرة تعرف بلقب أغريبوز وهي ولا شك ممن هاجر من اليونان الى سوريا واستوطنها .

(٢) أوزون : معناها الطويل .

(٣) أمو داريا : هو أمودريا من غير ألف أي نهر امو وهو ينبع بالقرب من بلخ في أفغانستان ويصب في بحر أورال .

وفتح مدينة توقات عنوة ونهب أهلها، فأخذ السلطان في تجهيز جيش جرار وأرسل لأولاده داود باشا بكلر بك الأناطول ومصطفى باشا حاكم القرمان يأمرهما بالمسير لمحاربة العدوّ فسارا بجيوشهما إليه وقابلا جيش أوزون حسن على حدود إقليم الحميد وهزماه شرّ هزيمة سنة (١٤٧١) .

وبعدها بقليل سار إليه السلطان نفسه ومعه مائة ألف جندي وأجهز على ما بقي معه من الجنود بالقرب من مدينة اذربيجان[1] التي لا تبعد كثيراً عن نهر الفرات ولم يعد أوزون حسن لمحاربة الدولة بعد ذلك. وفي هذه الأثناء كانت الحرب متقطعة بين العثمانيين والبنادقة الذين استعانوا ببابا رومه وأمير نابولي ومع كل فكان النصر دائماً للعثمانيين ولم يتمكن البنادقة من استرجاع شيء مما أخذ منهم. وفي سنة ١٤٧٥ أراد السلطان فتح بلاد البغدان[2] فأرسل إليها جيشاً بعد أن عرض دفع الجزية على أميرها المسمى اسطفن الرابع ولم يقبل .

وبعد محاربة عنيفة قتل فيها كثير من الجيشين المتحاربين عادت الجيوش العثمانية بدون فتح شيء من هذا الإقليم. ولما بلغ خبر هذا الانهزام آذان السلطان عزم على فتح بلاد القرم حتى يستعين بفرسانها المشهورين في القتال على محاربة البغدان. وكان لجمهورية جنوا مستعمرة في بحيث (شبه) جزيرة القرم، في مدينة كافا، فأرسل السلطان إليها عمارة بحرية ففتحتها بعد حصار ستة أيام وبعدها سقطت جميع الأماكن التابعة لجمهورية جنوا. وبذلك صارت جميع شواطيء القرم تابعة للدولة العثمانية ولم يقاومها التتار النازلون بها، ولذلك اكتفى السلطان بضرب الجزية عليها .

---

(١) اذربيجان : مدينة في أرمينيا في الاتحاد السوفييتي ويسمونها اليوم كيروف آباد Kirovabad وبينها وبين أقرب نقطة اليها من نهر الفرات أكثر من ثلاثمئة كم .

(٢) البغدان : هي المنطقة الشرقية من رومانيا المتاخمة لحدود الاتحاد السوفييتي والكائنة بين نهري بروت Prut وسيرت Siret وكانت هذه المنطقة تصغر أو تكبر حسب ارادة الفاتح .

وبعد ذلك فتحت العمارة العثمانية ميناء آق كرمان[1] ومنها أقلعت السفن الحربية إلى مصاب نهر الدانوب لإعادة الكرة على بلاد البغدان بينما كان السلطان يجتاز نهر الدانوب من جهة البر بجيش عظيم فتقهقر أمامه جيش البغدان لعدم إمكانه المحاربة في السهول وتبعه الجيش العثماني حتى إذا أوغل خلفه في غابة كثيفة يجهل مفاوزها انقض عليه الجيش البغداني وهزمه (١٤٧٦) وبذلك اشتهر اسطفن الرابع أمير البغدان بمقاومة العثمانيين، كما اشتهر هونياد المجري واسكندر بك الألباني من قبل، وسماه البابا شجاع النصرانية وحامي الديانة المسيحية .

وفي سنة ١٤٧٧ أغار السلطان على بلاد البنادقة ووصل إلى اقليم الفريول[2] بعد أن مر باقليمي كرواسيا ودلماسيا[3] (وهما تابعان الآن لمملكة النمسا والمجر) فخاف البنادقة على مدينتهم الأصلية وأبرموا الصلح معه تاركين له مدينة كرويا[4] ، التي كانت عاصمة اسكندر بك الشهير، فاحتلها السلطان ثم طلب منهم مدينة

---

(١) ميناء في رأس خليج صغير مقابل شبه جزيرة القرم يصب فيه نهر دنييستر Dniestr واسم هذا الميناء اليوم ديسترو فسكي Dhestrovsky .

(٢) اقليم الفريول Friaul يقع الى الشمال من الخليج الواقع في رأس بحر الأدرياتيكي .

(٣) كرواسيا : وهي الآن احدى الجمهوريات الاتحادية التي تتألف منها جمهورية يوگوسلاڤيا وعاصمتها زغريب . ومنذ القرن الثاني عشر أصبحت تابعة للمجر في نطاق نظام خاص . وانضمت كرواسيا سنة ١٩١٨م الى صربيا وسلوڤانيا وغدت جميعاً المملكة الكرواسيه الصربية السلوڤانية التي أصبحت بعد ذلك يوگوسلاڤيا . وخلال الحرب العالمية الثانية أصبحت كرواسيا دولة مستقلة تحت الحماية الألمانية الايطالية . وفي سنة ١٩٤٥م رجعت الى يوگوسلاڤيا .

دلماسيا : هي الجزء الغربي من يوگوسلاڤيا أو كرواسيا الواقع على الشاطئ الأدرياتيكي ، وأمامه جزر كثيرة وهو مركز سياحي جميل جداً . وقد خضعت دلماسيا لأهل جنوا من سنة ١٤٢٠ الى سنة ١٧٩٧م ثم أصبحت جزءاً من ايليريا Illyrie وهي المنطقة الجبلية القريبة من الأدرياتيكي وعاصمتها ليوبيانا Liubliana وهي اليوم مقسمة بين يوگوسلاڤيا والنمسا وايطاليا .

(٤) تقع الى الجنوب من مدينة اشقودره وشمال مدينة تيرانا وتكتب هكذا Kruja .

اشقودره[1] ولما رفضوا التنازل عنها إليه حاصرها وأطلق عليها مدافعه ستة أسابيع متوالية بدون أن يضعف قوة سكانها وشجاعتهم فتركها لفرصة أخرى وفتح ما كان حولها للبنادقة من البلاد والقلاع حتى صارت مدينة اشقودره منفصلة بالكلية عن باقي بلاد البنادقة وكان لا بد من فتحها بعد قليل لعدم إمكان وصول المدد إليها ولذا فضل البنادقة أن يبرموا صلحاً جديداً مع السلطان ويتنازلوا عن اشقودره في مقابلة بعض امتيازات تجارية. وتم الصلح بين الفريقين على ذلك وأمضيت به بينهما معاهدة في يوم ٥ ذي القعدة سنة ٨٨٣ (٢٨ يناير سنة ١٤٧٩) وكانت هذه أول خطوة خطتها الدولة العثمانية للتدخل في شؤون أوروبا إذ كانت جمهورية البنادقة حين ذاك أهم دول أوروبا لا سيما في التجارة البحرية ،وما كان يعادلها في ذلك إلا جمهورية جنوا .

فتح جزائر اليونان ومدينة اوترانت

وبعد أن تم الصلح مع البنادقة وجهت الجيوش إلى بلاد المجر لفتح إقليم ترنسلفانيا فقهرها كينيس كونت مدينة تمسوار [2] .بالقرب من مدينة كرلسبرج في ١٣ اكتوبر سنة ١٤٧٦ وقتل في هذه الموقعة كثير من العثمانيين وارتكب المجر فظائع وحشية بعد الانتصار فقتلوا جميع الأسرى ونصبوا موائدهم على جثثهم. وفي سنة ١٤٨٠ فتحت جزائر اليونان الواقعة بين بلاد اليونان وإيطاليا

---

(١) مدينة قديمة يقال أن مؤسسها اسكندر المقدوني ، تبعت بلاد ألبانيا (الأرنؤود) في تقلباتها السياسية فملكها الصرب ثم استقلت مدة ثم امتلكها البنادقة مدة،ثم العثمانيون ولم تزل تابعة لهم حتى الآن. ويبلغ عدد سكانها خمسة وعشرين ألفا وهي عاصمة ولاية اشقودره .

(٢) مدينة ببلاد المجر شهيرة بحصانتها وقوتها امتلكها العثمانيون من سنة ١٥٥٢ الى سنة ١٧١٦ وفي سنة ١٦٦٢ أبرمت بها معاهدة بين العثمانيين وامبراطور النمسا سيأتي ذكرها .

أقول : وتمسوار Timisoara هي اليوم بلدة رومانية وتقع بالقرب من الحدود اليوگوسلافية شمال بلگراد .

وبعدها سار القائد البحري كدك أحمد باشا بمراكبه لفتح مدينة أوترانت [١] بايطاليا التي كان عزم السلطان على فتحها جميعها . ويقال أنه اقسم بان يربط حصانه في كنيسة القديس بطرس بمدينة رومه ، مقر البابا، ففتحت مدينة أوترانت عنوة في يوم ٤ جمادي الثانية سنة ٨٨٥ (١١ أغسطس سنة ١٤٨٠) .

حصار مدينة رودس

وفي هذا الحين كانت أرسلت عمارة بحرية أخرى لفتح جزيرة رودس[٢]، التي كانت مركز رهبنة القديس حنا الأورشليمي وكان رئيسها إذ ذاك بيير دوبوسون الفرنساوي الأصل وكانت الحرب قائمة بينه وبين سلطان مصر وباي تونس فاجتهد في إبرام الصلح معهما ليتفرغ لصدّ هجمات الجيوش العثمانية.وكانت هذه الجزيرة محصنة تحصيناً منيعاً وابتدأ العثمانيون في حصارها في يوم ١٣ ربيع الأوّل سنة ٨٨٥ (٢٣ مايو سنة ١٤٨٠) وظلت المدافع تقذف عليها القنابل الحجرية تهدّم أسوارها لكن كان يصلح سكانها في الليل كل ما تخربه المدافع بالنهار ولذلك استمر حصارها ثلاثة أشهر حاول العثمانيون في خلالها الاستيلاء على أهمّ قلاعها واسمها قلعة القديس نيقولا بدون نتيجة.وفي يوم ٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٨٥ (٢٨ يوليو سنة ١٤٨٠) أمر القائد العام بالهجوم على القلعة ودخولها من الفتحة التي فتحتها المدافع في أسوارها فهجمت عليها الجيوش وقاومها الأعداء بكل بسالة وإقدام.وبعد أخذ وردّ تقهقر العثمانيون بعد أن قتل وجرح منهم كثيرون ورفع الباقون عنها الحصار .

وفي يوم ٤ ربيع الأوّل سنة ٨٨٦ هـ (٣ مايو سنة ١٤٨١ م) توفي أبو الفتح

---

(١) مدينة قديمة بجنوب بلاد ايطاليا شهيرة باستخراج زيت الزيتون وسكانها قليلون وامتلكها العرب مدة .

(٢) جزيرة بالقرب من شاطىء آسيا الصغرى طيبة الهواء حسنة التربة كثيرة الفواكه والأزهار يشتق اسمها من لفظة (رودون) اليونانية ومعناها الورد، ولحسن مناخها واعتدال طقسها ينتقل اليها كثير من أمراء الأستانة ومصر للتنعم بمعتدل هوائها خصوصاً في فصل الصيف.فتحها السلطان سليمان الأول الغازي سنة ١٥٢٢ ولم تزل تابعة للدولة العلية.وكان بها تمثال عظيم الجثة يقال ان ارتفاعه كان يبلغ ثلاثة وثلاثين متراً هدمته =

السلطان محمد الثاني الغازي عن ثلاث وخمسين سنة ومدة حكمه ٣١ سنة تمم في خلالها مقاصد أجداده، ففتح القسطنطينية وزاد عليها فتح مملكة طرابزون الرومية والصرب والبوشناق وألبانيا (الأرنؤود) وجميع أقاليم آسيا الصغرى ولم يبق في بلاد البلقان إلا مدينة بلغراد التابعة للمجر وبعض جزائر تابعة للبنادقة. ودفن في المدفن المخصوص الذي أنشأه في أحد الجوامع التي أسسها في الأستانة.

ترتيباته الداخلية

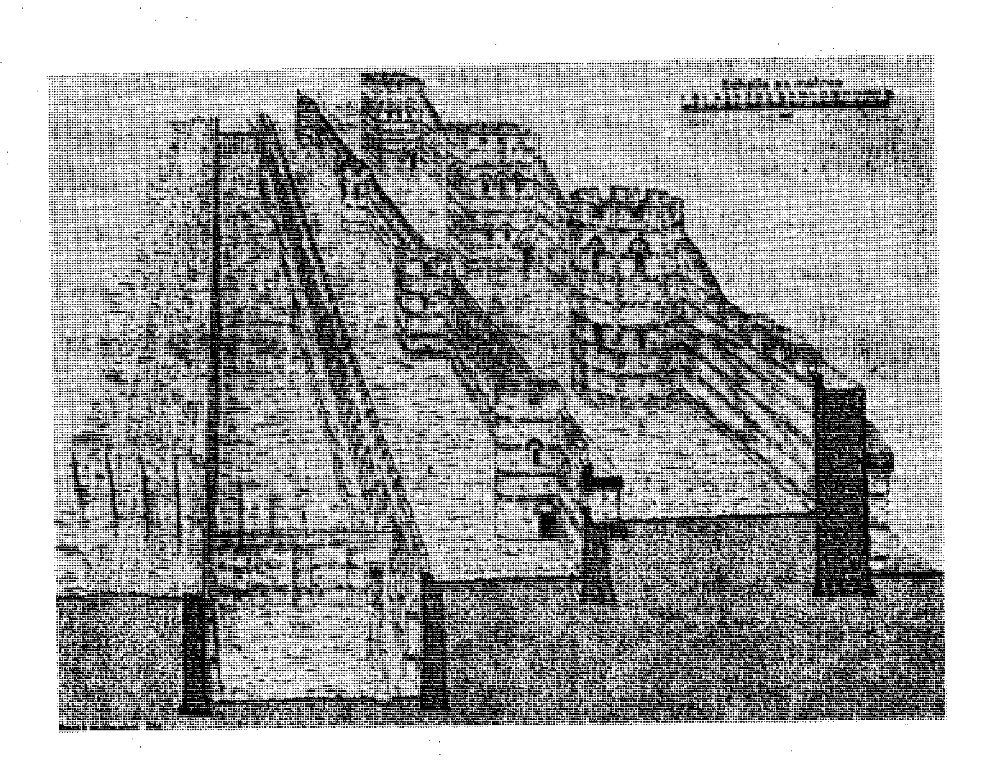
وكانت مهارة هذا السلطان في الأعمال المدنية تعادل خبرته في الأعمال الحربية، فإليه ينسب ترتيب الحكومة على نظامات جديدة. فسمى نفس الحكومة العثمانية بالباب العالي، وجعل لها أربعة أركان وهي: الوزير وقاضي عسكر والدفتردار (وتعادل اختصاصاته اختصاصات ناظر المالية الآن) والرابع يسمى نيشانجى (وهو عبارة عن كاتب سرّ السلطان). ثم بعد امتداد سلطة الدولة العلية في جهة أوروبا جعل لها قاضي عسكر مخصوص اسمه قاضي عسكر الروملي وقاضي عسكر آخر للاناطول وكان اختصاصهما التعيين في وظائف القضاء ما عدا بعض وظائف خصوصية، يختص بها الوزير الأكبر. ثم رتب وظائف الجند فجعل للانكشارية رئيساً مخصوصاً (أغا)[1] وناطه باشغال الضبط والربط بمدينة القسطنطينية ورئيساً آخر للطوبجية وثالثاً لما يختص بذخائر ومؤنة الجيوش. وكذلك وضع ترتيباً لداخليته الخصوصية وأهمّ أعماله المدنية ترتيب وظائف القضاء من أكبر وظيفة وهي قضاء الروملي إلى أقل وظيفة. ووضع أوّل مبادىء القانون المدني

= الزلازل في القرن الثالث قبل المسيح.

(١) آغا: كلمة فارسية ويلفظها الإيرانيون آقا ولكن القاف تكون بين القاف والغين في اللفظ وهي تعني السيد وقد استعمل الأتراك هذه الكلمة لدلالات كثيرة منها انها كانت تطلق على الضباط الأميين وعلى موظفي الدولة الاميين الذين لا يحتاج عملهم الى معرفة القراءة والكتابة مثل المحصلين وأفراد الدرك. وكانت تطلق على بعض الأسر الوجيهة وعلى وجهاء الأكراد بصورة خاصة كما هي الحال الى اليوم. وهي اللفظ الوحيد الذي يستعمله الايرانيون اليوم. كما كانوا من قبل، بمعنى سيد.

وقانون العقوبات فأبدل العقوبات البدنية،أي السنّ بالسنّ والعين بالعين، وجعل عوضها الغرامات النقدية بكيفية واضحة أتمها السلطان سليمان القانوني الآتي ذكره.

ومن مآثره أيضاً عدة جوامع في القسطنطينية وغيرها، وله اليد البيضاء في إنشاء كثير من المكاتب الابتدائية والمدارس العالية مما يطول شرحه.



سور القسطنطينية بأقسامه الثلاث وقد ظهرت فيه الأبراج



٨-

السلطان الغازي
بايزيد خان الثاني
واخوه الامير جم

توفي السلطان أبو الفتح محمد الثاني عن ولدين أكبرهما بايزيد المولود سنة ٨٥١ (سنة ١٤٤٧ م) وكان حاكماً باماسيا ،وثانيهما جم المشهور في كتب الافرنج باسم البرنس (زيزيم) Zizim وكان حاكماً في القرمان، فأخفى الصدر الأعظم قرماني محمد باشا موت السلطان محمد حتى يأتي بكر أولاده بايزيد.ولكنه لشدّة ارتباطه ومودّته بالأصغر أرسل إليه سراً يخبره بموت أبيه كي يحضر قبل أخيه الأكبر ويستلم مقاليد الدولة. ولما أذيع هذا الخبر ثار الانكشارية على هذا الوزير وقتلوه وعثوا في المدينة سلباً ونهباً وأقاموا ابن السلطان بايزيد واسمه (كركود) نائباً عاماً عن أبيه لحين حضوره وذلك في يوم ٥ ربيع الأوّل سنة ٨٨٦ (٤ مايو سنة ١٤٨١).وفي يوم ١٣ ربيع الأوّل وصل الرسول إلى بايزيد فسافر في اليوم التالي بأربعة آلاف فارس ووصل القسطنطينية بعد مسير تسعة أيام مع أن المسافة تبلغ ١٦٠ فرسخاً تقطع عادة في نحو ١٥ يوماً فقابله أمراء الدولة وأعيانها عند بوغاز (مضيق) البوسفور. وفي أثناء اجتيازه البوغاز أحاطت به عدّة قوارب ملأى بالانكشارية وطلبوا منه عزل أحد الوزراء المدعو مصطفى باشا وتعيين اسحق باشا ضابط القسطنطينية مكانه فأجاب طلبهم. وكذلك عند وصوله إلى السراي الملوكية وجدهم مصطفين أمامها طالبين العفو عنهم فيما وقع من قتل الوزير ونهب المدينة وأن ينعم عليهم بمبلغ سروراً بتعيينه فأجابهم إلى جميع مطالبهم وصارت هذه سنّة لكل من تولى بعده إلى أن أبطلها السلطان عبد الحميد خان الأوّل سنة ١٧٧٤.أما الرسول الذي كان أرسله الوزير محمد إلى الأمير جم فقبض عليه سنان باشا حاكم الأناطول وقتله حتى لا يصل خبر موت السلطان محمد إليه .

وكان السلطان بايزيد الثاني ميالاً للسلم أكثر منه إلى الحرب محباً للعلوم الأدبية مشتغلاً بها ولذلك سماه بعض مؤرخي الترك بايزيد الصوفي. لكن دعته سياسة الدولة إلى ترك أشغاله السلمية المحضة والاشتغال بالحرب وكانت أول حروبه داخلية وذلك أن أخاه جما لما بلغه خبر موت أبيه سار على الفور مع من حاز بـه ولاذ به قاصداً مدينة بورصه فدخلها عنوة بعد أن هزم ألفي انكشاري. ثم أرسل إلى أخيه يعرض عليه الصلح بشرط تقسيم المملكة بينهما فيختص جم بولايات آسيا وبايزيد باوروبا فلم يقبل بايزيد بل أتى إليه وقهره بالقرب من مدينة (يكى شهر)[1] في يوم ٢٣ جمادي الأولى سنة ٨٨٦ (٢٠ يوليو سنة ١٤٨١) وتبعه حتى أوصله إلى تخوم البلاد التابعة لمصر. وفي عودته إلى عاصمته طلب منه الانكشارية أن يبيح لهم نهب مدينة بورصة مجازاة لها على قبولها الأمير جما فلم يوافقهم على ذلك وخوفاً من حصول شغب منهم دفع إلى كل نفرمنهم قرشين. فأقام جم هذه السنة بالقاهرة ضيفاً عند السلطان قايدباي (ويكتبها بعضهم قايتباي) ثم عاد في السنة الثانية إلى حلب ومنها راسل قاسم بك آخر ذرية أمراء القرمان ووعده أنه لو أنجده وساعده للحصول على ملك آل عثمان يردّ له بلاد أجداده فاغترّ قاسم بك بهذه الوعود وجمع أحزابه وسار مع الأمير جم لمحاصرة مدينة قونيه عاصمة بلاد القرمان فصدهم عنها القائد العثماني كدك أحمد باشا فاتح مدينتي كافا[2] واوترنت وألزم الأمير جما بالفرار.

ثم حاول هذا الأمير الصلح مع أخيه بشرط إقطاعه بعض الولايات، ولما رفض السلطان هذا الطلب الذي لا يكون وراءه الا انقسام الدولة أرسل الأمير جما رسولاً من طرفه إلى رئيس رهبنة القديس حنا الأورشليمي برودس[3] يطلب منه مساعدته

---

(١) يكي شهر – Yenisehir – يني شهر : تقع الى الجنوب من بحيرة أزنيك في شمال غرب الأناطول.

(٢) كافا Kafa : ثغر في شرق شبه جزيرة القرم.

(٣) رودس Rodhos : جزيرة صغيرة تقع في البحر الأبيض المتوسط عند مدخل بحر ايجه جنوب غرب بلاد الأناطول.

على أغراضه فقبلوه عندهم بالجزيرة ووصل إليها في ٦ جمادى الثانية سنة ٨٨٧ (٢٣ يوليو سنة ١٤٨٢) وقابله أهلها بكل تجلة واحترام، وبعد قليل وصلت إلى الجزيرة وفود من السلطان بايزيد لمخابرة رئيس الرهبنة على إبقاء أخيه جما عندهم تحت الحفظ ،وفي مقابلة ذلك يتعهد لهم السلطان بعدم التعرّض لاستقلال الجزيرة مدّة حياته ويدفع مبلغاً سنوياً للرهبنة المذكورة قدره ٤٥ ألف دوكا فقبل رئيسهم ذلك وأوفوا بوعدهم ولم يقبلوا تسليمه إلى ملك المجر أو امبراطور ألمانيا اللذين طلبا اطلاق سراحه ليستعملاه آلة في إضعاف الدولة العثمانية بل أرسله رئيس الرهبنة إلى فرانسا ووضع تحت الحفظ أولاً في مدينة نيس[1] ثم في شمبري[2] وبقي ينقل من بلدة لأخرى مدة سبع سنوات. وفي سنة ١٤٨٩ سلمه رئيس الرهبنة إلى البابا أنوسان الثامن وهو خابر السلطان بايزيد طالباً أن يحفظه عنده وتدفع إليه الدولة ما كانت تدفعه إلى رهبنة رودس فقبلت ،ثم مات هذا البابا وخلفه آسكندر بورجيا Borgia الشهير[3] ويقال أن هذا البابا عرض على السلطان

(١) مدينة لطيفة في جنوب فرانسا على البحر الأبيض المتوسط معتدلة الهواء ولقلة البرد فيها عن الجهات الشمالية يقصدها السياح في زمن الشتاء من جميع جهات الدنيا لترويح النفوس والأجسام من عناء الاشغال. كانت تابعة لايطاليا ثم فتحها الفرانساويون سنة ١٧٩٢. وفي سنة ١٨١٤ ردت لايطاليا وهي أعطتها لفرانسا ثانية مع مقاطعة السافوا في سنة ١٨٦٠ مكافأة لها على مساعدتها في محاربة النمسا والحصول على الاستقلال وتكوين الوحدة لايطاليا .

(٢) بلدة شمبري Chambéry تقع الى الجنوب من بحيرة اكس لبين Aix-Les-Bains وهي مركز مقاطعة سافوا Savoie وتبعد ٥٥٣ كم الى الجنوب الشرقي من باريس ،وهي بلد جميل وفيه آثار قديمة .

(٣) هو اسكندر السادس ولد سنة ١٤٣١ باسبانيا وانتخب لرياسة المذهب الكاثوليكي سنة ١٤٩١م وخلف عدة أولاد أشهرهم في التاريخ ابنه سيزاربورجا وابنته لوكريس التي أنشأ (فكتور هوجو) الشاعر الفرانساوي الذائع الصيت رواية محزنة باسمها شرح فيها ما ارتكبته هي وأبوها من فظائع الأمور. وينسب لهذا البابا ارتكاب جميع الآثام والمحرمات.وتوفي سنة ١٥٠٣ ،قيل انه سم نفسه غلطاً بسم كان جهزه لاعـدام أحد أعدائه .

بايزيد أن يخلصه من أخيه وبعبارة أخرى يقتله لو دفع إليه ثلثمائة ألف دوكا .

وفي أثناء هذه المخابرات أغار شارل الثامن ملك فرنسا على بلاد ايطاليا لتنفيذ مشروعه الوهمي وهو فتح مدينة القسطنطينية والوصول إليها عن طريق بلاد البنادقة فالبانيا، ولذلك كان أرسل دعاة الفتنة والفساد إلى بلاد مقدونيا واليونان لإثارة الأفكار ضدّ العثمانيين لكن خشى ملك نابولي وجمهورية البنادقة من تعاظم شأن الدولة الفرانساوية فوضعوا العراقيل أمامه وأرسلوا إلى السلطان بايزيد يخبرونه بمشروع ملك فرانسا ودسائسه وطلبوا منه أن يرسل جيوشه إلى بلاد إيطاليا وأن يأخذ حذره في داخليته .

وفي هذه الأثناء حاصر ملك فرانسا مدينة رومه وطلب من البابا أن يسلمه الأمير جما العثماني فسلمه إليه. ويقال أنه دس له السم قبل تسليمه إليه وما فتيء هذا الأمير مصاحباً لجيوش فرانسا حتى توفي في يوم ١٨ جمادي الأوّل سنة ٩٠٠ (١٤ فبراير سنة ١٤٩٥) في مدينة نابولي ودفن في بلدة (جاييت)[1] بايطاليا ثم نقلت جثته بعد ذلك بمدّة إلى البلاد العثمانية ودفن في مدينة بورصة في قبور أجداده. وتوفي رحمه الله عن ٣٦ سنة قضى منها ١٣ في هذه الحالة الشبيهة بالأسر خارجاً عن بلاده .

هذا ولنأت على ذكر ما حصل في مدة سلطنة بايزيد الثاني من الحروب بطريق الايجاز لعدم حصول فتوحات في أيامه تقريباً فكانت أغلبها على التخوم لصدّ هجمات المتاخمين ومجازاتهم على ما يرتكبونه من السلب، لكن في سنة ١٤٨٧ كانت الحروب تنتشب بين العثمانيين وملوك مصر لمتاخمة بلادهم عند اطنه[2] وطرسوس[3] . فبعد مناوشات خفيفة بين الطرفين على الحدود توسط بينهما باي

---

(١) جاييت هي كَاييتا Gaeta وتقع في خليج صغير على الساحل الغربي من شبه جزيرة ايطاليا.

(٢) وتكتب ادنه أيضاً Adana وتقع في جنوب الأناطول الى الشمال الغربي من خليج اسكندرونه .

(٣) تقع الى الجنوب الغربي من اطنه .

تونس لعدم حصول الحرب بين أميرين مسلمين. فاتفقا على حل مرض للطرفين، وساعد على ذلك حب السلطان بايزيد للسلم كما سبق الذكر، وكان ذلك في سنة ١٤٩١. وفي السنين التالية حصلت عدة وقائع ذات شأن لم تحصل منها الدولة على نتائج تذكر إذ لم تفتح مدينة بلغراد التي كانت مطمح أنظار الدولة لبقائها كنقطة سوداء على شاطىء نهر الدانوب الأيمن الفاصل بين أملاك الدولة والمجر.

ابتداء العلاقات مع دول أوروبا

وفي عهد هذا السلطان ابتدأت علاقات الدولة العلية مع مملكة الروس. وذلك أنه بعد تفرق مملكة الروس الأولى عقب إغارة المغول على بلادهم وتسلطهم عليها مدة استخلصها ايوان الثالث Ivan وكان يلقب (دوق موسكو)[1] وأعاد لها بعض مجدها السابق في سنة ١٤٨١م وابتدأت العلاقات بينها وبين الدولة في سنة ١٤٩٢ حيث وصل إلى القسطنطينية أول سفير روسي ومعه جملة هدايا للسلطان. وبعد ذلك بأربع سنوات أتى إليها سفير آخر واستحصل من الدولة على بعض

---

(١) موسكو مدينة عظيمة في وسط بلاد الروسيا كانت عاصمة لها الى أن نقل بطرس الأكبر تخت الحكومة الى مدينة سان بطرسبورج التي أسسها على خليج فنلاندا الخارج من بحر البلطيق سنة ١٧٠٣م وبقربها انتصر نابليون الأول امبراطور فرانسا على الروسيا سنة ١٨١٢م فدخلها بعد أن أحرقوها عن آخرها حتى لا يمكن العدو المكث بها ولذلك اضطر نابليون الى العودة الى بلاده، وفي هذا التقهقر هلك أغلب جيشه مما هو مشهور ومسطور.

وأقول ان الاتحاد السوفييتي الذي يمتد اليوم على جزء كبير من الأرض باسم الاتحاد السوفييتي، كما انه يسيطر سيطرة غير شرعية على أوروبا الشرقية كلها انما انبثق من امارة صغيرة هي امارة موسكو وكانت باقي بلاد الاتحاد السوفييتي بلاداً اسلامية مستقلة ذات حضارة عظيمة فأخذ المسيحيون يعتدون عليها حتى قضوا على استقلالها واستعبدوها. للمزيد من المعلومات راجعوا كتاب: المسلمون في الاتحاد السوفييتي. ويكتب المؤلف كلمة دوك التي تعني أمير بالكاف مرة وبالقاف مرة وذلك لأن الأتراك مثل الغربيين لا يميزون بين الحرفين.

امتيازات لتجار الروس .

وكذلك ابتدأت في عهده المواصلات الحبية مع مملكة (بولونيا)[1] فعقدت معاهدة بين المملكتين في سنة ١٤٩٠ وتجددت في سنة ١٤٩٢ ، لكن لم يلبث هذا الوفاق أن تكدّر صفاؤه بسبب ادعاء كل من الدولتين حق السيادة على بلاد البغدان وإغارة ملك بولونيا عليها فالتزم العثمانيون بطرد المجر منها والإغارة على حدود بولونيا بمساعدة أمير بغدان نفسه الذي قبل حماية الباب العالي عليها .

وكذلك ابتدأت المخابرات بين الدولة العلية في ذلك الحين وبين البابا اسكندر السادس (بورجيا) وملك نابولي ودوك ميلانو وجمهورية فلورنسا[2] فكان كل منهم يجتهد في محالفة الدولة العلية والاستعانة بجنودها البرية ومراكبها

(١) وتسمى في كتب الترك (لهستان)، كانت مملكة قوية يبلغ عدد سكانها خمسة عشر مليوناً من النفوس وتختها مدينة وارسوفيا وكانت حكومتها ملوكية مقيدة انتخابية أي أن الملك يعين بالانتخاب ويكون انتخابه من أمراء الأجانب واستمرت محترمة الى سنة ١٧٧٣ حيث اتفقت الروسيا والنمسا والبروسيا على تجزئتها فاقتسموا أغلب بلادها غير تاركين الا جزءاً قليلاً . وفي سنة ١٧٩٣ قسم أغلب ما بقي منها بين النمسا والروسيا . وفي سنة ١٧٩٥ قسم ما بقي منها وأعدمت هذه المملكة من الوجود ، ثم لما قامت دولة نابوليون الأول جمع منها نحو خمسها وسماها (امارة فارصوفيا الكبرى) غراندوقية وارسوفيا وفي سنة ١٨١٥ جزئت هذه الغراندوقية بين البروسيا والروسيا لكن حفظت الروسيا لما أخذته استقلاله الاداري ، وفي سنة ١٨٣٠ ثار البولونيون طلباً للاستقلال السياسي فحاربتهم الروسيا مدة عشرة أشهر وانتصرت عليهم وسلبت منهم جميع امتيازاتهم ولم يزالوا حتى الآن يسعون وراء الاستقلال بهمة لا تقعدها الصعوبات ولا تضعفها الاضطهادات .

(٢) مدينة بايطاليا من أجمل مدن الدنيا وبها كثير من العمارات الشائقة والتماثيل المفتخرة والتحف والصور الجميلة والمنتزهات العمومية . كانت في القرون الوسطى جمهورية مستقلة ثم امتلكتها عائلة (مديسي) Médicis الشهيرة وأخيراً صارت عاصمة لمملكة ايطاليا بعد انتصار الفرانساويين والايطاليين على النمسا ١٨٥٩ الى أن انتقلت الحكومة الى مدينة رومة بعد أن دخلها الايطاليون في ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٧٠ أثناء حرب فرانسا والروسيا .

البحرية لمحاربة من عاداه وفي قطع علائق الاتحاد بينها وبين من خالفه. وبتلك المساعي تمكن الإيطاليون من إيجاد النفرة بين الدولة وبين جمهورية البنادقة حتى تسبب عنها حرب عوان بينهما فأرسل السلطان جيوشه من البر والبحر لفتح مدينة ليبنته[1] من بلاد اليونان وكانت تابعة للبنادقة ففتحت بكل سهولة عقب انتصار العمارة العثمانية على مراكب البنادقة التي اعترضتها عند مدخل الخليج المسمى باسم هذه المدينة. وفي الوقت نفسه أغار والي بلاد البشناق على إقليم فريول ثم اجتاز نهر ايزونطو ووصلت طلائعه إلى أرباض مدينة فيشنسا[2] وأوقف القتال بسبب اشتداد البرد. وفي السنة التالية احتل العثمانيون ثغور مودون وكورون[3] وناورين[4] من بلاد اليونان وكانت من أملاك البنادقة في هذه البحار.

فخافت جمهورية البندقية من تقدم الأتراك إلى مركز حكومتها من ضياع استقلالها واستغاثت بممالك أوروبا المسيحية فانجدها البابا وملك فرانسا ببعض مراكب حربية وساعدوها على محاصرة جزيرة ميدللي[5] لاشغال الدولة عن بلادها فلم تنجح بل فتح العثمانيون مدينة (رودتسو) الواقعة على بحر الادرياتيك، ولولا عصيان أولاد السلطان عليه ببلاد الاناطول كما سيجيء لفتحت باقي بلاد البنادقة لكن اضطرت أحوال المملكة الداخلية السلطان إلى ابرام الصلح مع محاربيه باوروبا وهم المجر والبنادقة، فتم الصلح بينه وبين الجمهورية سنة ١٥٠٢ وفي السنة التالية تم الصلح كذلك مع ملك المجر.

---

(١) ليبنته: هي ليبانت Lepante وتقع على جانب مضيق ليبانت الذي يصل بين خليج باتراس Patras وخليج كورنته Korinth في بلاد اليونان.

(٢) ڤيشنتسا Vicenza مدينة في شمال ايطاليا الى الغرب من مدينة تريستا.

(٣) مودون Modon تقع في الرأس الجنوبي الغربي من شبه جزيرة موره. كورون مر ذكرها.

(٤) وناڤارن Navarin، التي كتبها في المتن ناورين، على الطريقة التركية، تقع شمال مودون. وهي ميناء بحرية في بلاد اليونان شهيرة بتعدي مراكب فرانسا وانكلترا والروسيا معاً على الدونانمة التركية المصرية وحرقها عن آخرها في ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧ بدون اعلان حرب مساعدة لليونان على الاستقلال كما ستراه في موضعه.

(٥) ميدللي: جزيرة كبيرة تقع في بحر ايجه أمام بر الأناطول وتسمى اليوم Mitilini

عصيان أولاد السلطان عليه وتنازله عن الملك لابنه سليم

ولقد تكدّر صفاء حياة الملك في سني حكمه الأخيرة بعصيان أولاده عليه واضرامهم نار الحروب الداخلية التي لولا ما وقع في قلوب أعدائها من الرعب لكانت هذه الحروب العائلية فرصة عظيمة لهم ، وذلك أن السلطان بايزيد الثاني كان له ثمانية أولاد ذكور توفي منهم خمسة في صغرهم وبقي ثلاثة وهم كركود وأحمد وسليم وكان أوّلهم مشتغلاً بالعلوم والآداب ومجالسة العلماء ولذا كان يمقته الجيش لعدم ميله للحرب ، والثاني كان محبوباً لدى الأعيان والأمراء وكان علي باشا أكبر الوزراء مخلصاً له. وكان ثالثهم وهو سليم محباً للحرب ومحبوباً لدى الجند عموماً والانكشارية خصوصاً .

ولاختلافهم في المشارب والآراء خشي والدهم وقوع الشقاق بينهم ففرق بينهم وعين كركود والياً على إحدى الولايات البعيدة وأحمد على أماسيا وسليماً على طرابزون. وعين أيضاً سليمان بن ابنه سليم والياً على كافا من بلاد القرم فلم يرض سليم بهذا التعيين بل ترك مقر وظيفته وسافر إلى كافا بالقرم وأرسل إلى أبيه يطلب منه تعيينه في إحدى ولايات أوروبا فلم يقبل السلطان بل أصر على بقائه بطرابزون فعصى سليم والده جهاراً وسار بجيش جمعه من قبائل التتر إلى بلاد الروملي وأرسل والده جيشاً لإرهابه ولما وجد من ابنه التصميم على المحاربة قبل تعيينه باوروبا حقناً للدماء وعينه والياً على مدينتي سمندريه وودين[1] سنة ١٥١١ .

ولما وصل إلى كركود خبر نجاح أخيه سليم في مقاومته انتقل إلى ولاية صاروخان واستلم ادارتها بدون أمر أبيه ليكون قريباً من القسطنطينية عند الحاجة .

---

(١) مدينة حصينة ببلاد البلغار على نهر الدانوب على جانب عظيم من الأهمية الحربية تبعد ٢٢٥ كيلومتر عن بلگراد سكانها خمسون ألفا شهيرة بعصيان حاكمها (بازوان أوغلي) سنة ١٧٩٨ واستقلاله بها . وهي الآن داخلة ضمن حدود مملكة الصرب بمقتضى معاهدة برلين الأخيرة المبرمة سنة ١٨٧٨ .

أقول : هي الآن في بلغاريا وتقع في الشمال الغربي منها قرب الحدود اليوگوسلافية وتكتب Vidin

ثم سار سليم إلى أدرنه وأعلن نفسه سلطاناً عليها فأرسل والده إليه من هزمه وألجأه إلى الفرار ببلاد القرم. وأرسل جيشاً آخر لمحاربة كركود بآسيا فهزمه أيضاً. لكن التزم السلطان بايزيد بالعفو عن ابنه سليم بناء على إلحاح الانكشارية لتعلقهم به وإعادته إلى ولاية سمندرية. وفي أثناء توجه سليم إليها قابله الانكشارية وأتوابه إلى القسطنطينية باحتفال زائد وساروا به إلى سراي السلطان وطلبوا منه التنازل عن الملك لولده المذكور فقبل واستقال في يوم ٨ صفر سنة ٩١٨ (٢٥ ابريل سنة ١٥١٢) وبعد ذلك بعشرين يوماً سافر للإقامة ببلدة ديموتيقا[1] فتوفي في الطريق يوم ١٠ ربيع الأول سنة ٩١٨ (٢٦ مايو سنة ١٥١٢) عن ٦٧ سنة ومدة حكمه ٣٢ سنة ويدعى بعض المؤرخين أن ولده دس إليه السم خوفاً من رجوعه إلى منصة الملك، كما فعل السلطان مراد الثاني الذي سبق ذكره. ولم تزد أملاك الدولة العلية في زمن السلطان بايزيد الثاني إلا قليلاً لحبه السلم وحقن الدماء فكانت حروبه الخارجية اضطرارية للمدافعة عن الحدود حتى لا يستخف بها أعداؤها. وكان سلمي الطباع كارهاً للقتل، وكان أشهر وزرائه داود باشا الذي تولى الوزارة بعد كدك أحمد ومكث بها أربع عشرة سنة واستقال منها باختياره سنة ١٤٩٧ وقضى باقي عمره في عمل الخيرات والمبرّات.

(١) ديموتيقا Dimotikhom تقع الى الجنوب من أدرنه في اليونان على الحدود التركية.

٩-

السّلطان سَليمُ الأول الغَازي
الملقب بـ «ياوز» اي القاطع



لما كان تعيينه بمساعي الانكشارية يقتضي توزيع المكافآت عليهم حسب المعتاد أعطى لكل نفر منهم خمسين دوكا، ثم عين ابنه سليمان حاكماً للقسطنطينية وسافر بجيوشه إلى بلاد آسيا لمحاربة اخوته وأولاد اخوته حتى يهدأ باله بداخليته ولم يبق له منازع في الملك، فاقتفى أثر أخيه أحمد إلى أنقرة ولم يتمكن من القبض عليه لوجود علاقات بينه وبين الوزير مصطفى باشا الذي كان يخبره بمقاصد السلطان. لكن علم السلطان بهذه الخيانة فقتل الوزير شر قتلة جزاء له وعبرة لغيره ثم ذهب إلى بورصة حيث قبض على خمسة من أولاد اخوته وأمر بقتلهم. وبعدها توجه بكل سرعة إلى صاروخان مقر أخيه كركود ففر منه إلى الجبال وبعد البحث عليه عدّة أسابيع قبض عليه وقتل.

أما أحمد فجمع جيشاً من محازبيه وقاتل العساكر العثمانية فانهزم وقتل بالقرب من مدينة يكى شهر في يوم ١٧ صفر سنة ٩١٩ (٢٤ ابريل سنة ١٥١٣).

ولما اطمأن خاطره من جهة داخليته عاد إلى مدينة ادرنه حيث كان بانتظار سفراء من قبل البندقية والمجر والموسكو وسلطنة مصر فابرم مع جميعهم هدنة لمدد طويلة بما أن مطامعه كانت متجهة إلى بلاد الفرس التي كانت أخذت في النموّ والارتقاء في عصر ملكها شاه اسمعيل الشيعي[1] فإنه فتح ولاية شيروان * وجعل

(١) هو إسمعيل ابن الشيخ حيدر، وينتهي نسبه إلى الشيخ صفي الدين ابن جبرائيل العلوي الحسني واسمعيل هذا هو مؤسس الدولة الصفوية الفارسية وكان أبوه حيدر قد حارب صاحب شيروان فانهزم وقتل صاحب شيروان أولاده الا اسمعيل وأخاه بار علي فاستمر اسمعيل مختفياً عند الأمراء المحاز بين لابيه حتى اجتمع لنجدته كثير فظهر =

مركزه مدينة تبريز [1] سنة ١٥٠١ . وبعدها فتح العراق العربي وبلاد خراسان وديار بكر [2] سنة ١٥٠٨ وأرسل أحد قوّاده فاحتل مدينة بغداد .وفي سنة ١٥١٠ ضم إلى املاكه بلاد فارستان [3] واذربيجان [4] وبذلك امتدّت مملكته من الخليج الفارسي إلى بحر الخزر ومن منابع الفرات إلى ما وراء نهر امو داريا .

محاربة العجم ودخول العثمانيين مدينة تبريز

ولما عصى السلطان سليم واخوته والدهم السلطان بايزيد الثاني ساعد الشاه اسمعيل الأمير أحمد على والده ثم على أخيه من بعده وقبل من فرّ من أولاده عنده ، وزيادة على ذلك أرسل وفداً إلى سلطان مصر يطلب منه التحالف لإيقاف سير الدولة العثمانية مبيناً له أنه إن لم يتفقا حاربت الدولة كلا منهما على حدته وقهرته وسلبت أملاكه ولايجاد سبب للحرب أمر السلطان سليم بحصر عدد الشيعة المنتشرين في الولايات المتاخمة لبلاد العجم بطريقة سرّية ثم أمر بقتلهم جميعاً . ويقال أن عددهم كان يبلغ نحو الأربعين ألفاً وهذه المذبحة كالمذبحة التي حصلت بباريس في ٥ جماد أوّل سنة ٩٨٠ (٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢) المشهورة في التواريخ

= وحارب صاحب شيروان وقتله واستمر في فتوحاته حتى هزمه السلطان ياوز سليم الغازي،وتوفي اسمعيل شاه الصفوي سنة ٩٣٠ هجرية عن ٣٨ سنة وأربعة شهور وملك أربعاً وعشرين سنة .

* شيروان : ضبطها ياقوت بكسر السين ونصب الراء وهي في المنطقة الشمالية الغربية من ايران المتاخمة للاتحاد السوفييتي .

(١) تبريز : ضبطها ياقوت بكسر التاء وسكون الباء وكسر الراء ، وتقع في الشمال الغربي من ايران بالقرب من الحدود التركية .

(٢) دياربكر : اليوم ولاية من ولايات الأتراك وتقع الى الشمال من الحدود السورية وفي القديم كانت تطلق على منطقة واسعة مركزها دياربكر .

(٣) لعله يقصد فارس ستان أي بلاد فارس أو ايران اليوم إذ لا يوجد بلد اسمه فارستان .

(٤) هي المنطقة التي تشترك فيها بالاسم ايران والاتحاد السوفييتي وتقوم فيها مدينة اذربيجان وهي في الاتحاد السوفييتي .

بمذبحة سان برتليمي[1] .

وبعد ذلك أعلن السلطان سليم الشاه اسمعيل بالحرب وسافر بجيوشه من مدينة أدرنه في ٢٢ محرّم سنة ٩٢٠ (١٩ مارس سنة ١٥١٤) وفي أثناء مسيره تبادل مع الشاه اسمعيل رسائل مفعمة بالسباب. وسار الجيش العثماني تحت قيادة السلطان سليم نفسه كما جرت به العادة قاصداً مدينة تبريز عاصمة العجم وكانت الجيوش الفارسية تتقهقر أمامه خدعة منهم لينهك التعب الجيوش العثمانية فينقضوا عليهم. واستمروا في تقهقرهم إلى أرباض تبريز فوقع القتال بين الجيشين في وادي جال دران[2] في ٢ رجب سنة ٩٢٠[3] (٢٤ اغسطس سنة ١٥١٤) فانتصرت الجيوش العثمانية نصراً مبيناً لمساعدة الطوبجية لها وفرّ الشاه. بما بقي من جيوشه ووقع كثير من قواده في الأسر وأسرت أيضاً إحدى زوجاته ولم يقبل السلطان أن يردّها لزوجها بل زوجها لأحد كاتبي يده انتقاماً من الشاه. وفتحت المدينة أبوابها ودخلها السلطان منصوراً في يوم ١٤ رجب سنه ٩٢٠ (٤ سبتمبر سنة ١٥١٤) واستولى على خزائن الشاه وأرسلها إلى القسطنطينية، وكذلك أرسل إليها أربعين شخصاً من أمهر صناع هذه المدينة الأمر الذي يدل على عدم إغفاله تقدّم الصنائع أثناء اشتغاله بالحروب. وبعد أن استراح ثمانية أيام قام بجيوشه وأخلى مدينة تبريز لعدم وجود المؤونة الكافية لجيوشه بها مقتفياً أثر الشاه اسمعيل حتى وصل إلى

---

(١) هي مذبحة البروتستانت بجميع انحاء فرنسا، ذبحهم الكاثوليك بأمر ملك فرنسا شارل التاسع بناء على ايعاز والدته كاترين دي مديسي في يوم ٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢م واختلف في عدد من قتل في هذا اليوم فأبلغه بعضهم الى ستين ألفاً منهم كثير من الأشراف والأميرال كوليني الشهير وغيره ويقال ان بعض الحكام امتنع عن تنفيذ هذا الأمر فاستحقوا السخط والعقوبة من الملك وحفظ التاريخ أسماءهم محفوفة بكل تكريم وتبجيل .

أقول : مذبحة سان برتيلمي Barthélemy وقعت في ٢٣ أغسطس ١٥٧٢ م كما تقول كتب التاريخ الافرنسية ، وهذا اليوم يوافق ١٣ ربيع الثاني ٩٨٠ .

(٢) چالدران وليس جال‌دران وهناك مدينة بهذا الاسم وتقع في شرق الأناطول الى الجنوب من مدينة قارص .

(٣) ٢ رجب سنة ٩٢٠ هو (٢٣ آب ـ اغسطس ١٥١٤ م) .

شاطىء نهر الرس[1] وعندها امتنع الانكشارية عن التقدم لاشتداد البرد وعدم وجود الملابس والمؤونة اللازمة لهم فقفل راجعاً إلى مدينة أماسيا بآسيا الصغرى للاستراحة زمن الشتاء والاستعداد للحرب في أوائل الربيع، ومر في عودته من بلاد أرمينيا لكنه لم يفتحها لعدم وجود الوقت الكافي لذلك .

وعندما أقبل الربيع بنضارته رجع السلطان إلى بلاد العجم ففتح قلعة كوماش الشهيرة وإمارة ذي القدر سنة ١٥١٥[2] ، ثم رجع إلى القسطنطينية تاركاً قوّاده لإتمام فتح الولايات الفارسية الشرقية . ولما وصل إليها أمر بقتل عدد عظيم من ضباط الانكشارية الذين كانوا سبب الامتناع عن التقدم في بلاد فارس ، كما سبق الذكر ، خشية من امتداد الفساد وعدم الاطاعة في الجيوش وأمر بقتل قاضي عسكر هذه الفئة واسمه جعفر جلبي لأنه كان من أكبر المحركين لهذا الامتناع . وخوفاً من حصول مثل ذلك في المستقبل جعل لنفسه حق تعيين قائدهم العام ولم يكن من بينهم ليكون له بذلك السيطرة عليهم وكان النظام السابق يقضي بتعيينه من أقدم ضباط الانكشارية .

وبعد عودة السلطان إلى القسطنطينية فتحت الجيوش العثمانية مدائن ماردين[3] واورفه[4] والرقة[5] والموصل[6] وبذا تم فتح أقليم ديار بكر وأطاعت كافة قبائل الكرد بدون كثير عناء بشرط بقائهم تحت حكم رؤساء قبائلهم .

---

(١) هو نهر اراس Aras وهو ينبع من جنوب شرق تركيا ويمر بشمال ايران ثم الاتحاد السوفييتي ويصب في بحر الخزر .

(٢) امارة ذي القدر أو ذي القدرية : هي امارة صغيرة تقع في شرق الأناطول الى الجنوب إذ تبدأ حدودها من غرب مدينة مرسين وتذهب بخط صاعد ومائل فتمر من أمام قيصري وتنتهي خلف ملاطيه ثم تنحدر حتى تصل الى البحر الأبيض المتوسط مشتملة على خليج الاسكندرونه .

(٣) ماردين : بلدة تركية في جنوب شرق الأناطول قريبة من الحدود السورية .

(٤) أورفه : بلدة تركية في جنوب شرق الأناطول قريبة من الحدود السورية .

(٥) الرقة : ضبطها ياقوت بفتح الراء والقاف المشددة ، بلدة سورية في الشمال الشرقي منها .

(٦) الموصل : ضبطها ياقوت بفتح الميم وكسر الصاد ، مدينة عراقية في شمال غرب البلاد .

فتح مصر ودخولها ضمن الممالك المحروسة

ولم ينته السلطان سليم من محاربة الشيعة وفتح بلاد ديار بكر والموصل حتى أخذ في الاستعداد لفتح سلطنة مصر بما أن سلطانها قانصوه الغوري[1] كان تحالف مع الشاه اسماعيل لمحاربة الدولة العلية. ولما علم سلطان مصر بتأهب سلطان آل عثمان لمحاربته أرسل إليه رسولاً يعرض عليه أن يتوسط بينه وبين العجم لابرام الصلح فلم يقبل بل طرد السفير بعد أن أهانه وسار بجيشه إلى بلاد الشام قاصداً وادي النيل، وكان قانصوه الغوري استعد أيضاً لمحاربته فتقابل الجيشان بقرب حلب الشهباء في واد يقال له مرج دابق[2] وهزم الغوري بسبب وقوع الخلاف بين فرق جيشه المؤلف من المماليك وساعدت المدافع العثمانيين على النصر وقتل الغوري في أثناء انهزام الجيش وسنه ثمانون سنة. وكان ذلك في يوم الأحد ٢٥ رجب سنة ٩٢٢ (٢٤ اغسطس سنة ١٥١٦).

وبعد هذه الموقعة احتل السلطان سليم بكل سهولة مدائن حماه وحمص ودمشق وعين بها ولاة من طرفه وقابل من بها من العلماء فأحسن وفادتهم. وفرّق الانعامات على المساجد وأمر بترميم الجامع الأموي بدمشق. ولما صلى السلطان الجمعة به

(١) هو الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين قانصوه الغوري الظاهري الأشرفي، أصله من مماليك الأشرف الظاهر خشقدم، ثم انتقل إلى الأشرف قائد باي. بويع له بالملك سنة ٩٠٦ هجرية ومن آثاره انه بنى سور مدينة جدة ودائر الحجر الأسود وبعض أروقة المسجد الحرام وباب ابراهيم وعدة خانات وآبار في طريق الحج المصري وأجرى الماء من مصر العتيقة الى قلعة الجبل وعمر بعض أبراج الاسكندرية.

(٢) دابق: ضبطها ياقوت بكسر الباء، وقال: وقد روى بفتحها. ودابق قرية بين عزاز وحلب أو الى الشمال الغربي من حلب، ومرج دابق مرج معشب كان ينزله بنو مروان إذا غزوا الصائفة، وفيه قبر سليمان بن عبد الملك بن مروان وكان عسكر بدابق وعزم على ألا يرجع حتى يفتح القسطنطينية أو تؤدي الجزية فشتى بدابق شتاءً بعد شتاء. ومر ذات يوم بقبر فسأل: لمن هذا القبر؟ قالوا: قبر فلان وسموه له. فقال سليمان: يا ويحه لقد أمسى قبره بدار غربة. ومات بعدها سليمان ودفن بجانبه فوق تل يعرف باسم تل سليمان.

أضاف الخطيب عندما دعا له هذه العبارة (خادم الحرمين الشريفين) وهي مستعملة في الخطبة إلى الآن .

هذا ولما وصل خبر موت السلطان الغوري إلى مصر انتخب المماليك طومان باي خلفاً له، وأرسل إليه السلطان سليم يعرض عليه الصلح بشرط اعترافه بسيادة الباب العالي على القطر المصري، فلم يقبل بل استعدّ لملاقاة الجيوش العثمانية عند الحدود . فالتقت مقدمتا الجيشين عند حدود بلاد الشام وهزمت مقدمة المماليك، واحتل العثمانيون مدينة غزة على طريق مصر وساروا نحو القاهرة حتى وصلوا بالقرب منها، وعسكر السلطان بجيشه في أواخر ذي الحجة سنة ٩٢٢ بالخانقاه المعروفة بالخانكة. وفي ٢٩ ذي الحجة سنة ٩٢٢ (٢٢ يناير سنة ١٥١٧) [١] انتشب القتال بين الطرفين بجهة العادلي (جهة الوايلي) ، وفي أثناء القتال قصد طومان باي وبعض الشجعان مركز السلطان سليم وقتلوا من حوله وأسروا وزيره سنان بك وقتله طومان باي بيده ظناً منه أنه هو السلطان سليم نفسه ،ولم تنفع شجاعتهم شيئاً بل تغلب عليهم بمدافعه ومدافعهم التي استولى عليها وقت الحرب .

وبعد ذلك بثمانية أيام ،أي في يوم ٨ محرم سنة ٩٢٣ [٢] دخل العثمانيون مدينة القاهرة رغماً عن مقاومة المماليك الذين حاربوهم من شارع لآخر ومن منزل لآخر ،حتى قتل منهم ومن أهالي البلد ما يبلغ خمسين ألف نسمة .

أما طومان باي فالتجأ ومن بقي معه إلى برِّ الجيزة وصار يناوش العثمانيين ويقتل كل من يأسره منهم ،لكنه لم يلبث أن وقع في أيدي العثمانيين بخيانة بعض من معه وشنق بأمر السلطان سليم في ١٣ ابريل سنة ١٥١٧ (٢١ ربيع الأول سنة ٩٢٣) بباب زويله ، ودفن بالقبر الذي كان أعده السلطان الغوري لنفسه. وبعد أن مكث السلطان سليم بالقاهرة نحو شهر أقام في منيل الروضة وأخذ في زيارة جوامع المدينة وكل ما بها من الآثار ، ووزع على أعيان المدينة العطايا والخلع السنية وحضر الاحتفال الذي يحصل بمصر سنوياً لفتح الخليج الناصري عند بلوغ

---

(١) ٢٩ ذي الحجة سنة ٩٢٢ (٢٣ يناير سنة ١٥١٧ م) .

(٢) (٣١ كانون الثاني ـ يناير ١٥١٨ م) .

النيل الدرجة الكافية لري الأراضي المصرية، ثم حضر احتفال سفر المحمل الشريف وقافلة الحجاج التي ترسل معها الكسوة الشريفة إلى الأراضي الحجازية وأرسل الصرة المعتاد إرسالها إلى الحرمين الشريفين بقصد توزيعها على الفقراء من عهد السلطان محمد جلبي العثماني وأبلغها إلى ثمانية وعشرين ألف دوكا .

ومما جعل لفتح وادي النيل أهمية تاريخية عظمى أن محمد المتوكل على الله ، آخر ذرية الدولة العباسية الذي حضر أجداده لمصر بعد سقوط مدينة بغداد مقر خلافة بني العباس في قبضة هولاكو خان التتري سنة ٦٥٦ هـ (سنة ١٠٩١)[١] وكانت له الخلافة بمصر اسماً، تنازل عن حقه في الخلافة الاسلامية إلى السلطان سليم العثماني وسلمه الآثار النبوية الشريفة وهي البيرق والسيف والبردة. وسلمه أيضاً مفاتيح الحرمين الشريفين، ومن ذلك التاريخ صار كل سلطان عثماني أميراً للمؤمنين وخليفة لرسول رب العالمين اسماً، وفعلاً .

هذا وقد جاء بالجزء السابع من الخطط الجديدة التوفيقية للمرحوم علي باشا مبارك بخصوص ما أجراه السلطان سليم الغازي من الترتيبات بمصر ما يأتي :

« لما أخذ مصر ورأى غالب حكامها من المماليك الذين ورثوها عن ساداتهم رأى أن بعد الولاية عن مركز الدولة ربما أوجب خروج حاكمها عن الطاعة وتطلبه الاستقلال فجعل حكومة مصر منقسمة إلى ثلاثة أقسام وجعل في كل قسم رئيساً وجعلهم جميعاً منقادين لكلمة واحدة هي كلمة وزير الديوان الكبير وجعله مركباً من الباشا، الوالي من قبله، ومن بيكوات السبع وجاقات[٢]. وجعل للباشا مزية توصيل أوامر السلطان إلى المجلس وحفظ البلاد وتوصيل الخراج إلى القسطنطينية. ومنع كلاً من الأعضاء العلوّ على صاحبه وجعل لأعضاء المجلس مزية نقض أوامر الباشا بأسباب تبدو لهم وعزله إن رأوا ذلك والتصديق على جميع الأوامر التي تصدر منه في الأمور الداخلية. وجعل حكام المديريات الأربع والعشرين من

(١) سنة ٦٥٦ هجرية هي سنة ١٢٥٨ م .
(٢) أوجاق : كلمة تركية بمعنى المركز أو المقر . وقد جمعها على وجاقات .

المماليك وخصهم بمزية جمع الخراج في البلاد وقمع العربان[1] وصدّهم عنها والمحافظة على ما في داخلها وكل ذلك بأوامر تصدر لهم من المجلس وجرّدهم عن التصرف من أنفسهم، ولقب أحدهم المقيم بالقاهرة بشيخ البلد. ثم رتب الخراج وقسمه أقساماً ثلاثة، وجعل من القسم الأول ماهية عشرين ألف عسكري بالقطر من المشاة واثني عشر ألفاً من الخيالة، والقسم الثاني يرسل إلى المدينة المنورة ومكة المشرفة، والقسم الثالث يرسل إلى خزينة الباب العالي. ولم يلتفت إلى راحة الأهالي بل تركها عرضة للمضار كما كانت، ومن هذا الترتيب تمكنت الدولة العلية من إبقاء الديار المصرية تحت تصرفها نحو مائتي سنة ثم أهملت بعد ذلك القوانين التي وضعها السلطان سليم من حين استيلائه عليها وكانت هي الأساس ولم تلتفت الدولة لما كان يحصل من المماليك من الأمور المخلة بالنظام فضعفت شوكة الدولة وهيبتها التي كانت لها على مصر وأخذ البكوات تكثر من المماليك وتتقوى بها حتى فاقت بقوتها الدولة العثمانية في الديار المصرية فآل الأمر والنهي لهم في الحكومة وصارت الدولة صورية غير حقيقية وسبب ذلك إكثارهم من شراء المماليك. ولو كانت الدولة العلية تنبهت لهذا الأمر ومنعت بيع الرقيق لكانت الأمور باقية على ما وضعها السلطان سليم ولكن غفلت عن هذا الأمر كما غفلت عن أمور كثيرة ومن ذلك لحق الاهالي الذل والاهانة وهاجر كثير منهم إلى الديار الشامية والحجازية وغيرهما وخربت البلاد وتعطلت الزراعة من قلة المزارعين وعدم الاعتناء بتطهير الجداول والخلجان التي عليها مدار الخصب، ونتج من ذلك ومن خوف الدولة العلية من تمكن الباشا في الحكومة أن تغلبت البكوات وصارت كلمتهم هي النافذة وانفردوا بالتصرف اهـ».

وفي أوائل شهر سبتمبر سنة ١٥١٧ سافر السلطان سليم من القاهرة عائداً إلى القسطنطينية التي صارت من ذلك الوقت مقر الخلافة الاسلامية العظمى وكان سفره عن طريق بلاد الشام مستصحباً معه آخر بني العباس وعين خير بك والياً على مصر، وهو أحد أمراء المماليك الذين خانوا طومان باي وانضموا إليه، وترك

---

(١) يقصد بالعربان البدو.

بالقاهرة حامية كافية لحفظ الأمن تحت قيادة خير الدين آغا الانكشاري. وفي أثناء مروره بصحراء العريش التفت لوزيره الأكبر يونس باشا، الذي كان فتح مصر على غير رأيه، وقال له ما معناه أنه قد أتم فتحها خلافاً لرأيه، فجاوبه يونس باشا بأن فتحها لم يعد عليه بشيء إلا قتل نحو نصف الجيش بما أنه سلمها لخائن كان غرضه التملك عليها لنفسه فلا يؤمن ولاؤه للدولة فغضب السلطان من هذا الكلام الموجه إليه بصفة لوم وأمر بقتله في الحال فقتل. وكان ذلك في ٦ رمضان سنة ٩٢٣ [١] وعين مكانه بير [٢] محمد باشا، الذي كان معيناً قائم مقام السلطان في القسطنطينية أثناء تغيبه في فتح مصر لثقته به بناء على ما أظهره من أصالة الرأي في محاربة الشاه اسمعيل.

وفي ٢٠ رمضان سنة ٩٢٣ [٣] وصل السلطان إلى مدينة دمشق ومكث بها إلى ٢٢ صفر سنة ٩٢٤ [٤]. ثم سافر إلى مدينة حلب بعد أن حضر الاحتفال باقامة الصلاة أوّل مرة في الجامع الذي أقامه بدمشق على قبر محيي الدين بن العربي في ٢٤ محرم سنة ٩٢٤ [٥]. وبعد أن أقام بحلب مدّة شهرين سافر قاصداً عاصمة ملكه فوصلها في ١٧ رجب سنة ٩٢٤ (٢٥ يوليه سنة ١٥١٨) ثم ارتحل عنها إلى مدينة أدرنه بعد عشرة أيام قضاها في الاستراحة من أتعاب السفر، وكان ولده سليمان معيناً حاكماً لها مدّة غياب والده وبعد وصول أبيه بتسعة أيام استأذنه الأمير سليمان في السفر إلى ولاية صاروخان المعين والياً عليها.

وفي أثناء إقامة السلطان بمدينة أدرنه وصل إليه سفير من قبل مملكة اسبانيا ليخابره بشأن حرية زيارة المسيحيين للقدس الشريف، الذي كان قبلاً تابعاً لسلطنة مصر وتبعها في دخولها تحت ظل الدولة العلية، في مقابلة دفع المبلغ الذي كان يدفع

---

(١) (٢٢ أيلول ـ سبتمبر ١٥١٧ م).

(٢) پير: كلمة فارسية معناها المسن والمرشد وتستعمل في باكستان والهند لمشايخ الطرق.

(٣) (٦ تشرين أول ـ اكتوبر ١٥١٧ م).

(٤) (٥ آذار ـ مارس ١٥١٨ م).

(٥) (٥ شباط ـ فبراير ١٥١٨ م).

سنوياً للمماليك.فأحسن السلطان مقابلته وصرّح بقبوله ذلك إذا أرسل ملكه رسولاً آخر مخوّلاً له حق ابرام معاهدة مع الباب العالي وكذلك أتى إليه فيها سفير من قبل جمهورية البندقية ليدفع له خراج سنتين. متأخر الخراج المقرر عليها نظير بقائها في جزيرة قبرص .

وكان في هذه المدة مشتغلاً بتجهيز عمارة بحرية لمعاودة الكرة على جزيرة رودس بحراً وكان يستعد أيضاً لمحاربة شاه العجم ثانياً فجمع خمسة عشر ألف فارس بمدينة قيصرية [1] وضم إليهم ثلاثين ألف جندي من المشاة تحت قيادة فرحات باشا بيلر، بك الأناطول، وأرسل إليهم عدداً عظيماً من المدافع والذخائر. لكن لم يمهله المنون ريثما يتم مشروع فتح جزيرة رودس بل عاجله في رحلته من القسطنطينية إلى أدرنه فتوفي في يوم ٩ شوال سنة ٩٢٦ (٢٢ سبتمبر سنة ١٥٢٠) في السنة التاسعة من حكمه والحادية والخمسين من عمره إذ كانت ولادته في سنة ٩٧٥ .

وأخفى طبيبه الخصوصي خبر موته عن الحاشية ولم يبلغه إلا للوزراء فاجتمع كل من بير محمد باشا وأحمد باشا ومصطفى باشا وقرروا اخفاء هذا الأمر حتى يحضر ولده سليمان من إقليم صاروخان خوفاً من أن تثور الانكشارية كما هي عادتهم .

فكانت مدة حكمه كمدة حكم جدّه محمد الفاتح، أيام فتوحات خارجية وتنظيمات داخلية، إلا أنه كان ميالاً لسفك الدماء فقتل سبعة من وزرائه لأسباب واهية .

وكان كل وزير مهدّد بالقتل لأقل هفوة حتى صار يُدعى على من يرام موته بأن يصبح وزيراً له. وبنى كثيراً من الجوامع وحوّل أجمل كنائس القسطنطينية إلى مساجد، مع سبق الوعد من السلطان محمد الثاني الفاتح لبطريق الروم بعدم مس نصف الكنائس الثاني الذي تركه لهم بعد فتح المدينة كما مر .

---

(١) قيصرية Kaysari تقع في وسط الأناطول بين أنقره وملاطيه .

-١٠



السّلطان الغـازي
سليمان خان الأول القانوني

ولد هذا الملك الذي بلغت الدولة العلية في مدته أعلى درجات الكمال في غرة شعبان سنة ٩٠٠ هجرية (٢٧ ابريل سنة ١٤٩٥ م) وهو عاشر ملوك آل عثمان ولو عدّه بعض المؤرخين حادي عشرهم، باعتبار سليمان الذي نازع أخاه محمد جلبي المُلْكَ سلطانا فذلك خطأ لأنه لم يحكم بصفة قانونية. ولذلك أجمع المؤرخون على تسمية السلطان سليمان بالأوّل واعتباره عاشر ملوك هذه الدولة وهو الأصح.

وبمجرد وصول خبر موت أبيه قام قاصداً القسطنطينية ودخلها في يوم ١٦ شوّال سنة ٩٢٦ (٢٩ سبتمبر سنة ١٥٢٠) وكان في انتظاره على افريز السراي جنود الانكشارية فقابلوه بالتهليل وطلب الهدايا المعتاد توزيعها عليهم عند تولية كل ملك، وبعد ظهر ذلك اليوم حضر بير محمد باشا من أدرنه وأخبر عن وصول جثة المرحوم السلطان سليم في اليوم التالي.

وفي صبيحة ١٧ شوّال جرت رسوم المقابلات السلطانية فوفد الأمراء والوزراء والأعيان يعزون السلطان بموت والده ويهنؤنه بالخلافة في آن واحد وهو يقابلهم بملابس الحداد. وعند الظهر وصل إليه خبر قدوم الجثة فخرج لمقابلة النعش خارج المدينة وسار في الجنازة حتى واروها التراب على أحد مرتفعات المدينة وأمر ببناء جامع شاهق وهو جامع سليمية ومدرسة في المحل الذي دفن فيه.

وكانت باكورة أعماله بعد توزيع النقود على الانكشارية تعيين مربيه قاسم باشا مستشاراً خاصاً وإبلاغ توليته على عرش الخلافة العظمى إلى كافة الولاة وأشراف مكة والمدينة بخطابات مفعمة بالنصايح والآيات القرآنية المبينة فضل العدل والقسط في الأحكام ووخامة عاقبة الظلم وكان يستهل خطاباته بالآية الشريفة (إنه من سليمان

وإنه بسم الله الرحمن الرحيم) .

ولما وصل خبر توليته إلى حاكم الشام . واسمه الغزالي وهو من أصحاب قانصوه الغوري الذين خانوه في واقعة مرج دابق . تمرّد وأشهر العصيان واستولى على قلعة دمشق وأرسل أحد أتباعه لاحتلال مدينة بيروت واجتهد في استمالة خير بك العامل على مصر إليه وأرسل إليه جواباً يحثه فيه على العصيان مبيناً له سهولة النجاح بالنظر إلى بعدهم عن مقرّ الخلافة وحداثة سنّ السلطان . فجاوبه خير بك بأنه لا يشترك معه إلا إذا استولى على مدينة حلب. ولم يكن جوابه هذا الا مداهنة وخداعاً فإنه أرسل خطابات الغزالي إلى السلطان فعين السلطان فرحات باشا أحد وزرائه لقمع هذا المتمرد ومعه جيش كاف لإخماد هذه الثورة قبل امتدادها .

فسار فرحات باشا بكل همة في أواخر ذي الحجة سنة ٩٢٦ (نوفمبر سنة ١٥٢٠) ووصل إلى حلب في ٢٢ دسمبر . وكان الغزالي إذ ذاك محاصراً لها فارتد على عقبيه بدون قتال عائداً إلى دمشق وتحصن فيها . فتأثره فرحات باشا بجنوده وحاصره فيها. وفي يوم ١٧ صفر سنة ٩٢٧ (٢٧ يناير سنة ١٥٢١) خرج الغزالي من المدينة طلباً للقتال فهزم ،وقتل أغلب من كان معه وفر هومتنكراً ، لكن خانه بعض أتباعه وسلمه إلى فرحات باشا فقتله في ٨ صفر [1] وأرسل رأسه إلى القسطنطينية .

فتح مدينة بلغراد :

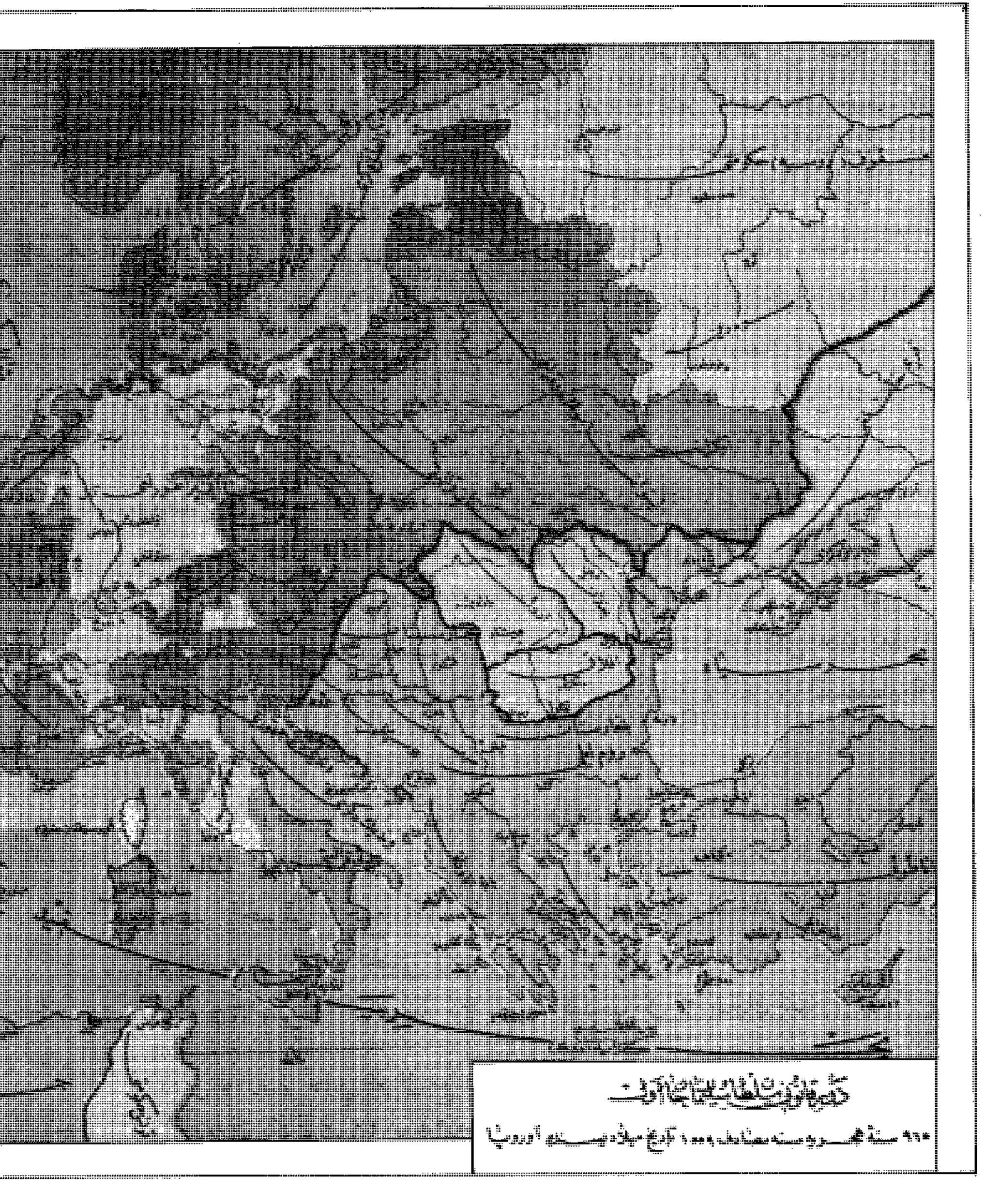
وعند وصول رأسه إلى العاصمة ورد خبر قتل السفير الذي أرسله السلطان إلى ملك المجر يطلب منه دفع الجزية أو الحرب فاستشاط السلطان غضباً وأمر بتجهيز الجيوش وجمع كل ما يلزمهم من المؤنة والذخائر لمحاربة المجر وسار هو بنفسه في مقدمة الجيش وأرسل أحد مشاهير قواده واسمه أحمد باشا لمحاصرة مدينة (شابتس) [2] القريبة من بلغراد ففتحها في ٢ شعبان سنة ٩٢٧ [3] ووصل

---

(١) في ١٧ صفر تقاتل الغزالي مع فرحات باشا فيجب أن يكون مقتل الغزالي بعد هذا التاريخ فاما ان يكون في ١٨ أو ٢٨ صفر .

(٢) تقع الى الشمال من بلكَراد وتسمى اليوم Sabotica .

(٣) (٨ تموز – يوليو ١٥٢١ م) .



المتلكات الأوربية زمن السلطان سلي



تركي	عربي
هابسبورغ خانداني	اسرة هابسبورغ
مسقوف حكومتي	دولة موسكو
قريم خانلغي	خانية (إمارة) القرم
ليتوانيا بيوك دوقة لغي	دوكية (إمارة) ليتوانيا العظمى
لهستان قراليتي	مملكة بولونيا
لادوغا كولي	بحيرة لادوغا
اسوج قراليتي	مملكة السويد
يالطق دكزي	بحر البلطيق
بروسيه دوق لغي	إمارة بروسيا

القانوني سنة ٩٦٥ هـ الموافق ١٥٥٩ م .

إليها السلطان في اليوم التالي ثم سافر بالجيوش التي كانت مشتغلة بحصار هذه المدينة لمساعدة وزيره بير محمد باشا على تضييق الحصار على مدينة بلغراد ففتحت بعد دفاع شديد وأخلت الجنود المجرية قلعتها في ٢٥ رمضان سنة ٩٢٧ (٢٩ أغسطس سنة ١٥٢١) ، ودخلها السلطان وصلى الجمعة في إحدى كنائسها التي حولت مسجدا. وصارت هذه المدينة التي كانت أمنع حصن للمجريين ضد تقدم الدولة العلية أكبر مساعد لها على فتح ما وراء نهر الدانوب من الأقاليم والبلدان وأعلن السلطان هذا الانتصار إلى جميع الولاة وملوك أوروبا ورئيس جمهورية البنادقة ثم عاد إلى القسطنطينية مكللاً بالنصر والظفر على الأعداء، وأرسل إليه قيصر الروس يهنئه بالفوز والظفر وكذلك رؤساء جمهوريتي البندقية وراجوزة[1] .

وفي أول محرم سنة ٩٢٨[2] أمضيت بين الدولة العثمانية وجمهورية البنادقة معاهدة تجارية تؤيد المعاهدات السابقة وزيد عليها أن وكيل الجمهورية في الأستانة (قنصلها) يجب تغييره كل ثلاث سنوات، وأن قضايا التركات تنظر بطرفه وأن يكون له الحق في إرسال ترجمان لحضور المرافعة في القضايا التي تقام ضد رعايا حكومته أمام المحاكم العثمانية، وأن يكون الخراج الذي يدفع منها إلى الدولة نظير احتلالها جزيرتي قبرص وزانطة[3] عشرة آلاف دوكا عن الأولى وخمسمائة

---

(١) ميناء تجاري ببلاد دلماسيا على الساحل الشرقي للبحر الادرياتيكي أسست حوالي القرن السابع للمسيح وأقام بها أهلوها حكومة جمهورية مستقلة دفعت الجزية للدولة العثمانية وأبرمت معها عدة معاهدات تجارية مشابهة لما أبرم مع جمهوريتي البندقية وجينوا واستمرت متمتعة بالحرية مستقلة تمام الاستقلال حتى احتلها نابليون الأول سنة ١٨٠٦ وظلت تابعة لفرنسا الى أن سقطت حكومة نابليون نهائياً سنة ١٨١٥ وأضافها مؤتمر ويانة الذي انعقد بعد سقوطه لتسوية حالة أوروبا إلى مملكة النمسا ، ولم تزل تابعة لها حتى الآن . ويبلغ عدد سكانها عشرين ألف نسمة . أقول : يكتب الأتراك ڤينا (ويانة) لأنهم يلفظون الواو ڤا وستتكرر كثيراً في المتن فيجب الإنتباه ، وقد مر ذكر أركوز ولكن المؤلف كتبها أرجوس .

(٢) (١ كانون الأول ـ دسمبر ١٥٢١ م) .

(٣) جزيرة صغيرة تقع الى الغرب من الجزء السفلي من اليونان بالقرب من مدخل خليج =

عن الثانية .ولهذه المعاهدة أهمية عظمى لأنها أساس الامتيازات القنصلية ببلاد الدولة العلية .

فتح جزيرة رودس

وبعد ذلك أخذ السلطان في الاستعداد براً وبحراً لفتح جزيرة رودس التي لم يتمكن السلطان محمد الفاتح من فتحها لتكون حلقة اتصال بين القسطنطينية ومصر من جهة البحر ولكي لا يكون للمسيحيين مركز حصين في وسط بلاده تلجأ إليه عمارات الدول المعادية للدولة وقت الحرب ، وأراد الاسراع في تتميم هذا العمل العظيم الذي عجز أسلافه عنه لوجود ملوك أوروبا مشتغلين في جهات أخرى لا يمكنهم مساعدة الرهبنة المحتلة لها ، فكان ملك فرنسا (فرانسوا)[1]

= كورنتوس وتسمى باليونانية Zakinthos . وقد يأتي ذكر هذه الجزيرة ولكن المؤلف يكتبها بالظاء : (ظنته) .

(١) ولد هذا الملك سنة ١٤٩٤ وتولى الملك سنة ١٥١٥ وكانت كل حروبه بسبب ادعائه أن له حقوقاً على ولاية ميلان بايطاليا من جهة جدته ، فسار عقب توليه الملك إلى هذه الجهة لفتحها ، وفتحها بعد أن انتصر على السويسريين في واقعة مارينيان ثم لما انتخب شارلكان ملك اسبانيا امبراطوراً لألمانيا وما يتبعها بعد موت مكسمليان جده لأبيه . في سنة ١٥٢٠ ابتدأت الحروب بينه وبين فرانسوا ملك فرنسا بسبب ادعاء كل منهما الا حقية في ولاية ميلان وكانت الدائرة فيها على فرانسا فانتصر عليها شارلكان عدة كرات وأخيراً في بافيا سنة ١٥٢٥ حيث أخذ فرانسوا أسيراً وسيق الى اسبانيا ولم يفرج عنه الا بعد أن أمضى معاهدة بكل ما طلبه منه شارلكان . ولما خرج من السجن لم يعمل بما تعهد به بل رجع الى المحاربة واستمرت الحرب بينهما بدون انقطاع تقريباً الى سنة ١٥٤٤ وفيها تصالحا على أن تكون ولاية ميلان لدوك أورليان ثاني أولاد فرانسوا ملك فرنسا وتوفي بعد ذلك بثلاث سنوات في ١٨٤٧ . واشتهر هذا الملك بالتعصب الديني واضطهاد البروتستانت .

أقول : ميلانو Milano مدينة في شمال ايطاليا وهي مدينة صناعية كبيرة وفيها آثار عمرانية كثيرة وفيها قتل الشيوعيون موسوليني سنة ١٩٤٥ وعلقوه من رجليه في احدى الساحات .

الأول وشارل الخامس الشهير بشارلكان[1] ملك اسبانيا وألمانيا معاً مشتغلين بمحاربة بعضهما والبابا (لاون) العاشر [2] مشتغلاً بمجادلة ومقاومة الراهب الالماني (لوثر)[3] مؤسس مذهب البروتستانت، وبلاد المجر مضطربة في الداخل بسبب

= ومارينيان Marignane هي مطار مرسيليا الآن .
وبافيا Pavia تقع في جنوب ميلانو .

(١) ولد هذا الملك الشهير سنة ١٥٠٠ وورث ملك اسبانيا عن والدته جان ابنة فردينان وايزابلا من ملوك اسبانيا اللذين أخرج المسلمون في أيامهم من الأندلس وانتخب أميراً لالمانيا بعد موت جده لأبيه الامبراطور مكسمليان وقضى أيامه في محاربة فرنسوا الأول كما مر في ترجمة هذا الملك . وبعد موت فرنسوا الأول رجع إلى محاربة الفرانساويين وحاصر مدينة متس الشهيرة بدون أن يتمكن من فتحها سنة ١٥٥٢ وحارب خير الدين باشا أمير البحر العثماني الشهير باربروس وقصد الاستيلاء على مدينة الجزائر فلم يفلح واضطهد البروتستانت الا أنه اضطر أخيراً في سنة ١٥٤٧ أن يمنحهم الحرية الدينية بعد أن حاربوه وانتصروا عليه.وفي سنة ١٥٥٦ سئم الملك فتنازل عن اسبانيا لابنه فيليب الثاني وعن ألمانيا وما بها لأخيه فردينان واعتزل في أحد الأديرة حتى توفي سنة ١٥٥٨ .

أقول : مدينة متس Metz مدينة افرنسية كبيرة تقع على بعد ٣١٢كم الى الشرق من باريس فيها خرابات رومانية .

أطلق هذا اللفظ باربروس (اللحية الشقراء) على فريدريك الأول امبراطور الجرمان الرومان الذي ولد سنة ١١٢٢ ومات سنة ١١٩٠ . ولكن اشتهر بهذا اللقب خير الدين باشا الذي أسس مملكة الجزائر باسم الدولة العثمانية ثم أصبح قائد البحرية العثمانية ، وكان اسمه يرعب الغرب وسفن الغرب لا بل وكانت الأمهات في أوروبا ، ترعب أولادها باسمه .

(٢) ليون Léon واسمه قبل أن يكون بابا هو جان ده ميدسي Jean de Médicis ولد في فلورنسا سنة ١٤٧٥ وانتخب بابا سنة ١٥١٣ ومات سنة ١٥٢١ .

(٣) هو راهب كاثوليكي المذهب ألماني الجنس أراد اصلاح المذهب الكاثوليكي وقال بعدم مشروعية النظام الكنائسي والرهبنة على الاطلاق والاعتراف وتجسد القربان وغير ذلك من الأمور التي أقر عليها أئمة المذهب الكاثوليكي منذ أجيال فحرمه البابا وحكم =

عدم اتفاق أمرائها وأعيانها وصغر سنّ ملكها لويس[1] الثاني ، كل هذه الأسباب حملت السلطان على انتهاز هذه الفرصة لفتح هذا الحصن المنيع لكن اقتضت شفقته أن يرسل إلى رئيس الرهبنة قبل الشروع في الحرب كتاباً يعرض عليه اخلاء الجزيرة والانسحاب منها بكل من معه من المسيحيين الذين يؤثرون المهاجرة على البقاء متعهداً له بعدم التعرض لأنفسهم ولأموالهم ، ولما لم يقبل رئيسهم هذا الاقتراح أمر السلطان العمارة البحرية فأقلعت قاصدة رودس وسافر هو من طريق البر إلى خليج (مرمورا)[2] المقابل للجزيرة من جهة آسيا فوصلتها الدونانمة في ٢٦ يونيه سنة ١٥٢٢ وأرسلت إلى البر مدافع الحصار والمؤنة والذخائر . ووصل إليها السلطان في ٢٨ يوليه وبمجرد وصوله ابتدأ الحصار بغاية الشدة ودافع من بها دفاع الأبطال خصوصاً الرهبان . ويقال أن النساء كانت تساعد الرجال في الدفاع بالقاء الاحجار على المحاصرين وصب الزيوت الحارة على رؤسهم لكن لم يجد كل ذلك شيئاً أمام المدافع العثمانية التي توجد بعض قللها إلى الآن في الجزيرة يستغرب رائيها من ضخامتها . ولما أعيت الحيل رئيس هذه الرهبنة واسمه (فيليه

= بمروقه عن الدين بعد أن كلفه بالتوبة والرجوع عن طريقته وحرم مطالعة تآليفه ، ولكن لم يكترث لوثر بهذه الاجراءات بل استمر ينشر مذهبه ويؤيده بالبراهين حتى انتشر في جميع الأطراف وتبعه كثير من أمراء ألمانيا . وتوفي سنة ١٥٤٦ وكانت ولادته سنة ١٤٨٣ بعد أن تزوج راهبة اتبعته وأتت منه بعدة أولاد . وهو مؤسس المذهب البروتستانتي المشتق من لفظة بروتستو أي إقامة الحجة وهو المذهب السائد الآن في شمال ألمانيا والدانمرك والسويد والفلمنك وانكلترا وأمريكا الشمالية ومنتشر في غالب الجهات الأخرى واتبعه بعض أقباط مصر وانتشبت بسببه عدة حروب في ألمانيا وفرانسا أهمها الحرب المعروفة بحرب الثلاثين سنة التي استمرت من سنة ١٦١٨ إلى سنة ١٦٤٨ وانتهت باستحصال البروتستانت على الحرية الدينية . (الفلمنك هي هولاندا) .

(١) لويس الثاني ولد في بودا سنة ١٥٠٦ ومات سنة ١٥٢٦ وتولى عرش المجر وبوهيميا من سنة ١٥١٦ إلى يوم موته .

(٢) ويسمى مارماريس Marmaris .

دي ليل ادام)[1] الفرنساوي الأصل ونفدت مؤنته وذخائره أرسل اثنين من رهبانه إلى السلطان في ٢ صفر سنة ٩٢٩ (٢١ دسمبر سنة ١٥٢٢) يطلب منه السماح لهم باخلاء الجزيرة في مدة اثني عشر يوماً بشرط أن تبتعد الجيوش العثمانية عن المدينة المحصورة مسافة ميل من كل جهاتها حتى لا يحصل للمحصورين ضرر عند خروجهم فقبل السلطان ذلك ،لكن في ٥ منه دخل المدينة فريق من الانكشارية رغم أوامر السلطان واحتلوا المدينة، وارتكبوا كافة أنواع القبائح حسب عادتهم، فغضب السلطان وأمر بمراعاة شروط التسليم وعاقب المفسدين فأعيد الأمن وسادت السكينة، وفي اليوم التالي قابل السلطان رئيس الرهبنة وأنعم عليه بخلعة سنية. وفي يوم ١٣ صفر سنة ٩٢٩(أوّل يناير سنة ١٥٢٣) سافرت هذه الفئة الممحضة نفسها للدفاع عن الدين المسيحي ومحاربة المسلمين قاصدة جزيرة مالطة[2] التي تنازل لها عنها الملك شارلكان[3]. واستمرت هذه الرهبنة نازلة بها حتى احتلها بونابرت عند قدومه مصر سنة ١٢١٣ هـ (سنة ١٧٩٨ م) .

وبعد ذلك عاد السلطان إلى القسطنطينية ووفد إليها سفراء من قبل الروسيا والبندقية لتهنئته بالنصر ، وأرسل إليه أيضاً ملك العجم سفيراً لهذا الغرض وأرسل معه خمسمائة فارس ، ولما وصل إلى الاستانة أمر السلطان أن لا يدخلها معه الا عشرون فقط. وفي شهر يونيه سنة ١٥٢٣عزل الوزير الأوّل أي الصدر الأعظم بير محمد باشا بناء على دسائس الوزير أحمد باشا طمعاً في وظيفته لكن خاب مسعاه فقد عين

---

(١) لقبه Villiers de Lisle Adam واسمه فيليب ، ولد سنة ١٤٦٤ ومات سنة ١٥٣٤

(٢) جزيرة صغيرة في البحر الأبيض المتوسط بالقرب من ساحل ايطاليا وأفريقيا ، ولأهميتها الحربية العظمى تنازعتها الملوك والأمم المختلفة من فينيقيين ورومانيين وغيرهم واحتلها المسلمون مدة من السنين وأخيراً تبعت شارلكان وهو تنازل عنها لرهبنة رودس ،كما رأيت ، وظلت في حوزتهم إلى سنة ١٧٩٨ حيث احتلها بونابرت أثناء مجيئه لفتح مصر وفي سنة ١٨٠٠ احتلها الانكليز ليسودوا على البحر الأبيض كما احتلوا بوغاز جبل طارق من قبل وفي سنة ١٨١٥ أيد مؤتمر ويانة احتلالها لها .

(٣) أقول : وقد تنازل شارلكان أيضاً عن جزيرة كَوزو Gozzo بالاضافة الى جزيرة مالطه ، وهي جزيرة صغيرة تابعة لمالطه .

السلطان مكانه أحد خواصه ابراهيم باشا وعين أحمدباشا والياً على مصر لوفاة خير بك في الوقت الذي كان فيه السلطان محاصراً لجزيرة رودس. ولما وصل أحمد باشا إلى القاهرة أخذ في استمالة من بقي من أمراء المماليك إليه باقطاعهم الأراضي وإغضائه عما يرتكبونه من أنواع الآثام والمظالم. ولما تحقق من إخلاصهم أعلن العصيان مرة واحدة واستولى على القلعة بعد قتل حاميتها، فارسل إليه السلطان أمراً بعزله من ولاية مصر وبالعود إلى الاستانة وتسليم الولاية لخلفه (قره موسى) فقتل الرسول وقره موسى الوالي الجديد ثم خانه أحد وزرائه واسمه محمد بك وأراد القبض عليه فهرب واختفى عند عرب البادية فاقتفى أثره حتى ضبطه وقتله وأرسل رأسه إلى الأستانة فعين بدله قاسم باشا الوالي الأسبق وكوفىء محمد بك بتقليده وظيفة دفتردار الولاية سنة ١٥٢٤ .

وفي ٢٤ رجب سنة ٩٣٠ (٢٨ مايو سنة ١٥٢٤) ولد للسلطان غلام سمي سليماً وهو الذي خلفه باسم سليم الثاني ،وفي ٢ شعبان (٥ يونيه) احتفل بالاستانة بزواج الصدر الأعظم ابراهيم باشا باحدى أخوات السلطان ثم أرسله إلى مصر مع عدد عظيم من الانكشارية والسيباه(الفرسان السواري) لإرجاع الأمن إلى ربوعها وترتيب ماليتها وتنظيم أمورها فسافر ووصل إليها في ٢٤ مارس سنة ١٥٢٥ وأقام بالقاهرة حتى أتم مأموريته ، وغادرها في ٢٢ شعبان سنة ٩٣١ (١٤ يونيه سنة ١٥٢٥) قاصداً الاستانة عن طريق البرّ ماراً بدمشق وقيصرة ووصل القسطنطينية في ٧ سبتمبر من السنة نفسها وقوبل بكل إجلال واحترام لعلو منزلته عند السلطان .

تداخل الدولة العلية في بلاد القرم والفلاخ وفتنة الانكشارية

وفي هذه الأثناء حصلت بعض فتن داخلية في بلاد القرم وذلك أن غازي وبابا ولدي محمد كراي ، خان القرم ، ثارا على والدهما وعمهما فقتلاهما سنة ٩٢٩ (سنة ١٥٢٢ م) وتقلد غازي كراي أكبرهما الإمارة وجعل أخاه وزيراً له لكن لم يقبل السلطان ذلك بل عين عمهما سعادت كراي خانا بدل أخيه محمد كراي المقتول وأمدّه بجيش من الانكشارية ، فقبل غازي تعيين عمه وصار هو وزيراً له . وبعد ذلك بستة أشهر قتل غازي وأخوه بابا بأمر عمهم سعادت. وفي سنة

٩٣٨ (سنة ١٥٣١) قام أخوهما اسلام كراي واستولى على الإمارة وفرّ سعادت إلى القسطنطينية ومكث بها حتى توفي سنة ٩٤٤ (سنة ١٥٣٧) ودفن بجامع أبي أيوب بالأستانة وكانت نتيجة هذه الفتن زيادة تدخل الدولة العلية في أمور بلاد القرم حتى في تعيين أمرائها، وصارت بذلك ولاية عثمانية تقريباً.

وفي سنة ١٥٢٤ أراد السلطان أن يجعل إقليم الفلاخ ولاية عثمانية ولم يكن للدولة عليه إذ ذاك إلا السيادة والجزية فسير إليه جيشاً استولى على عاصمتها وعلى أميرها وأرسلوه إلى الأستانة، فثار الأعيان وعينوا خلفاً له وساعدهم على ذلك أمير إقليم ترنسلفانيا المجاور له، فقبل السلطان من عينوه في مقابلة زيادة الجزية عما كانت عليه.

هذا وفي ٢٥ مارس سنة ١٥٢٥ تذمر الانكشارية بعد عودة السلطان من مدينة أدرنة التي كان توجه إليها للإقامة بها في فصل الشتاء ونهبوا سراي ابراهيم باشا، الصدر الأعظم الذي كان إذ ذاك بمصر، ومحل الجمرك وعدّة أماكن أخرى من منازل الأعيان وحارة اليهود ولولا أن تدارك السلطان الخطب بنفسه لامتدّ العصيان لكنه أسكتهم عن السلب والنهب بتوزيع ألف دوكا عليهم، ثم بعد ذلك عزل بعض رؤسائهم الذين كانوا سبب هذا العصيان وقتل بعضهم.

ابتداء المخابرات والمراسلات بين الدولة العلية وملك فرانسا

وفي ذلك العهد ابتدأت المخابرات بين ملك فرانسا والدولة العلية وذلك أن شارلكان ملك النمسا كان في آن واحد ملكاً لاسبانيا والبلاد المنخفضة (هولاندا) وامبراطوراً لألمانيا وحاكماً لجزء عظيم من إيطاليا الجنوبية، وكانت جمهوريتا جنوا وفلورنسا تابعتين إليه وجمهورية البنادقة طوع أمره ومدينة وهران[1] باقليم جزائر الغرب تابعة له وكذلك جريرة مينورقة[2] وجزيرة صقلية، فكانت

(١) وهران من أكبر مدن الجزائر بعد العاصمة وتقع بالقرب من حدود المغرب وفيها حتى اليوم كثير من الاسبان ويتكلم أكثر الناس فيها اللغة الاسبانية كما كان شأنهم دائماً حتى أيام الاستعمار الافرنسي وتسمى بالافرنسية Oran .

(٢) مينورقه Menorca وهي احدى الجزر التي تؤلف جزر الباليار الواقعة الى الشرق من اسبانيا .

أملاكه محيطة بمملكة فرانسا من جميع الجهات إلّا من جهة البحر .

ولذلك سعى فرنسيس الأوّل ملك فرانسا في التحالف مع دولة آل عثمان والاتحاد معها على محاربة شارلكان لتحاربه الدولة العلية من جهة المجر والنمسا وتشغله عن جيوش فرانسا من جهة الغرب فيتمكن ملك فرانسا بذلك من الأخذ بثأر واقعة (بافيا) [1] بإيطاليا التي أخذ فيها فرنسيس الأوّل أسيراً .

ويظهر من سعي فرانسا في استمالة الدولة العلية الإسلامية إليها وبذل الجهد في محالفتها مع كون فرانسا معتبرة لدى البابا أوّل الدول الكاثوليكية وأهمها محافظة على عدم تقدم الاسلام باوروبا، أن الدولة العثمانية بلغت في ذلك الوقت شأناً عظيماً لم تبلغه من قبل وصار وجودها ضرورياً لحفظ التوازن السياسي باوروبا .

وأوّل سفير أرسل من قبل فرانسا إلى الباب العالي أرسلته الملكة لويز زوجة فرنسيس الأوّل، حالة وجوده مأسوراً في بلاد اسبانيا، لكن لم يصل هذا السفير إلى الباب العالي بل قبض عليه حاكم بوسنه أثناء مروره قاصداً القسطنطينية وقتله هو وأتباعه. وفي أواخر سنة ١٥٢٥ أرسل سفير آخر وهو جان فرنجباني ووصل القسطنطينية ومعه جواب من ملك فرانسا إلى جلالة السلطان الأعظم يطلب منه بكل تواضع أن يهاجم ملك المجر أحد حلفاء شارلكان حتى يمنعه من مساعدته ويمكن فرانسا بذلك أن تنتصر على شارلكان وتستردّ ما سلبه منها من الشرف في واقعة بافيا .

وقابل السلطان سليمان السفير الفرانساوي في ٦ دسمبر سنة ١٥٢٥ باحتفال زائد وأجزل له العطايا وبعد أن عرض عليه السفير مطالب ملكه وعده السلطان بمحاربة المجر، لكن لم تمض بينهما معاهدة بل اكتفى السلطان بأن كتب لملك فرانسا بتاريخ أوائل ربيع الثاني سنة ٩٣٢ جواباً يظهر له فيه استعداده لمساعدته وهذه صورته نقلاً عن ترجمة الجزء الأول من تاريخ جودت باشا :

الله العليّ المعطي المغني المعين .

بعناية حضرة عزة الله جلت قدرته وعلت كلمته وبمعجزات سيد زمرة الأنبياء

---

(١) بافيا Pavia مدينة في الشمال الغربي من ايطاليا تقع جنوب ميلانو.

وقدوة فرقة الأصفياء محمد المصطفى ﷺ الكثيرة البركات ،وبمؤازرة قدس أرواح حماية الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، وجميع أولياء الله ، أنا سلطان السلاطين وبرهان الخواقين متوّج الملوك ظل الله في الأرضين سلطان البحر الأبيض والبحر الأسود والأناضول والروملي وقرمان الروم وولاية ذي القدرية وديار بكر وكردستان واذربيجان والعجم والشام وحلب ومصر ومكة والمدينة والقدس وجميع ديار العرب واليمن وممالك كثيرة أيضاً ، التي فتحها آبائي الكرام وأجدادي العظام بقوّتهم القاهرة أنار الله براهينهم ، وبلاد أخرى كثيرة افتتحتها يد جلالتي بسيف الظفر ، أنا السلطان سليمان خان بن السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان ، إلى فرنسيس ملك ولاية فرنسا : وصل إلى أعتاب ملجأ السلاطين المكتوب الذي أرسلتموه مع تابعكم فرانقبان النشيط مع بعض الأخبار التي أوصيتموه بها شفاهياً وأعلمنا أن عدوّكم استولى على بلادكم وأنكم الآن محبوسون وتستدعون من هذا الجانب مدد العناية بخصوص خلاصكم . وكل ماقلتموه عرض على أعتاب سرير سدّتنا الملوكانية وأحاط به علمي الشريف على وجه التفصيل فصار بتمامه معلوماً ، فلا عجب من حبس الملوك وضيقهم فكن منشرح الصدر ولا تكن مشغول الخاطر فإن آبائي الكرام وأجدادي العظام نور الله مراقدهم لم يكونوا خالين من الحرب لأجل فتح البلاد وردّ العدو ونحن أيضاً سالكون على طريقتهم وفي كل وقت نفتح البلاد الصعبة والقلاع الحصينة وخيولنا ليلاً ونهاراً مسروجة وسيوفنا مسلولة فالحق سبحانه وتعالى ييسر الخير بارادته ومشيئته وأما باقي الأحوال والأخبار تفهمونها من تابعكم المذكور فليكن معلومكم هذا تحريراً في أوائل شهر آخر الربيعين سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة

بمقام دار السلطنة العلية

القسطنطينية المحروسة المحمية

فتح بلاد المجر وعاصمتها

وفي ٢٥ ابريل سنة ١٥٢٦ سافر السلطان سليمان من القسطنطينية لمحاربة المجر الذين كانت الحرب غير منقطعة بينهم وبين العثمانيين على التخوم ، وكان الجيش

العثماني مؤلفاً من نحو مائة ألف جندي و٣٠٠ مدفع و٨٠٠ سفينة في نهر الطونة لنقل الجيوش من بر إلى آخر. فسار الجيش تحت قيادة السلطان ووزرائه الثلاثة إلى بلاد المجر من طريق الصرب مارين بقلعة بلغراد التي جعلت قاعدة لأعمالهم الحربية .

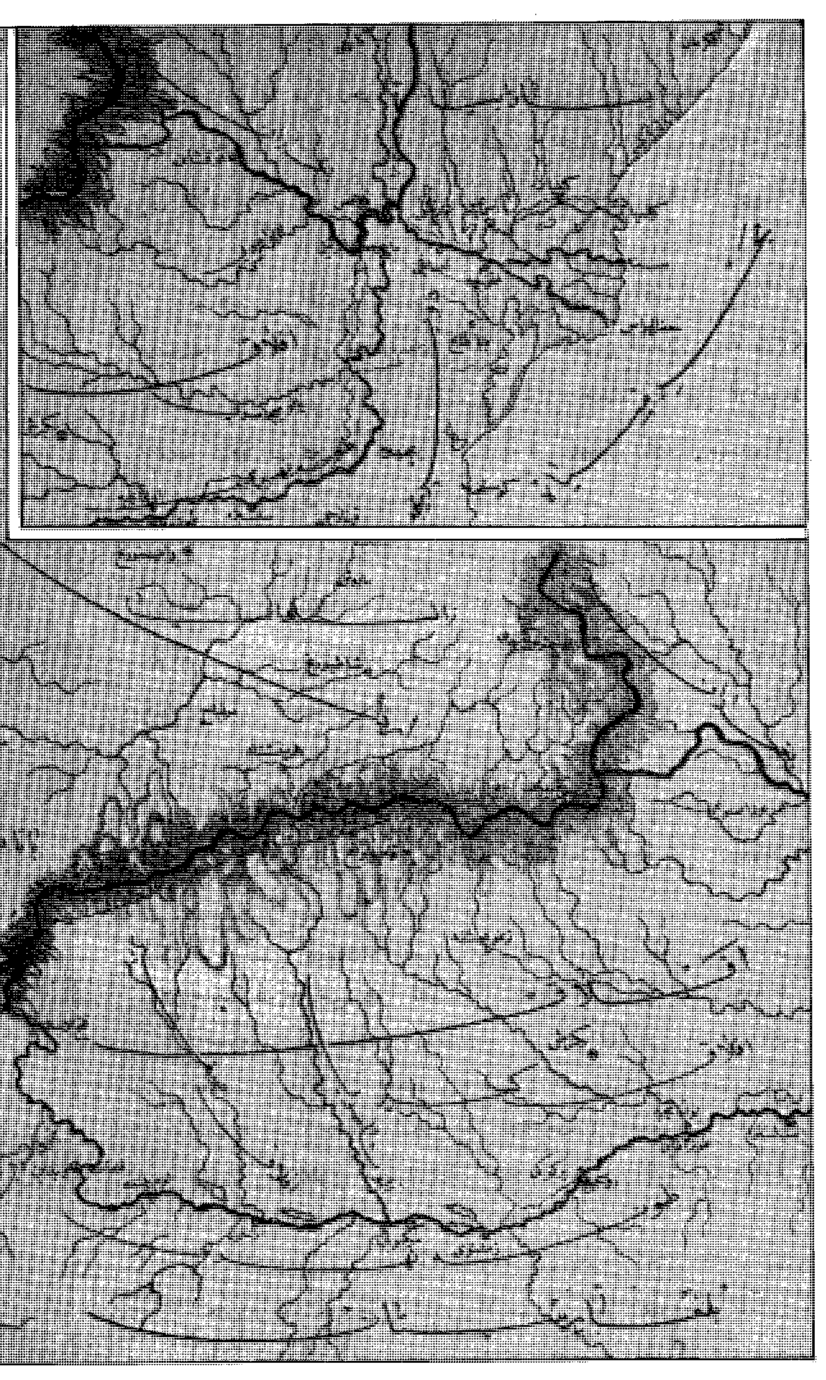
وبعد أن افتتح الجيش عدة قلاع ذات أهمية حربية على نهر الطونة وصل باجمعه إلى وادي موهاكس[١] في ٢٠ ذي القعدة سنة ٩٣٢ (٢٨ أغسطس سنة ١٥٢٦). وفي اليوم الثاني اصطفت الجنود العثمانية على ثلاثة صفوف وكان السلطان ومعه كافة المدافع وفرقة الانكشارية في الصف الثالث فهجم فرسان المجر المشهورون بالبسالة والإقدام تحت قيادة السلطان لويس على صفوف العساكر العثمانية الأول فتقهقر أمامهم العثمانيون خلف المدافع. ولما وصلت فرسان المجر بالقرب من المدافع أمر السلطان باطلاقها عليهم فاطلقت تباعاً وتوالى اطلاقها بسرعة غريبة أوقعت الرعب في قلوب المجر فأخذوا في التقهقر تتبعهم العساكر المظفرة حتى قتل أغلب الفرسان المجرية وقتل ملكهم ولم يعثر على جثته فكانت هذه الواقعة سبب ضياع استقلال بلاد المجر بأسرها لعدم وجود جيش آخر يقاوم العثمانيين في مسيرهم ولحصول الفوضى في البلاد بسبب موت سلطانهم ، ولذلك أرسل أهالي مدينة بود[٢] عاصمة المجر مفاتيح المدينة إلى السلطان فاستلمها وسار يحف

---

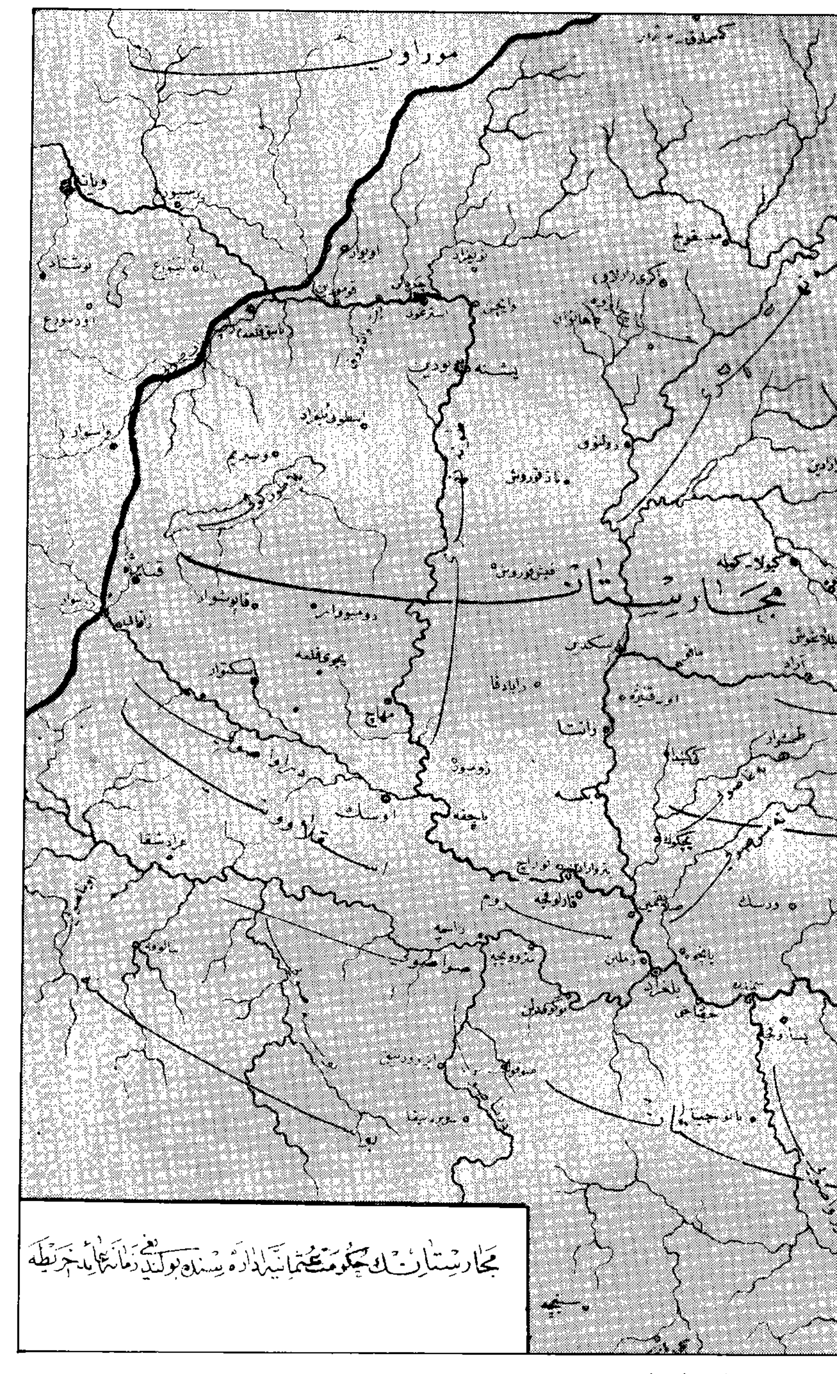
(١) موهاكس Mohacs تقع اليوم في جنوب بلاد المجر بالقرب من الحدود اليوگوسلافية .

(٢) مدينة قديمة على نهر الطونة في مقابل مدينة بوست وتبعد عن مدينة ويانه نحو مائتي كيلومتر وكان بينها وبين بوست كوبري أقيم على عدة مراكب ثم أُنشئ مكانه كوبري حديد على الطراز الجديد ، وهي في غاية الرونق والجمال وبها كثير من المدارس وهي معتبرة تخت مملكة المجر مع انضمامها في العموميات الى امبراطورية النمسا ولذلك يلقب امبراطور النمسا بملك المجر ويسمى بالنمساوية (أوفن) ، ويبلغ عدد سكانها مائة وخمسين ألف نسمة أو يزيدون .

أقول : قبل أن تكون بودابست بلدة واحدة كانت بلدتين بود التي معناها البلد العالي والتي تقع على الشاطئ الأيمن من نهر الطونه أو الدانوب ، وبلدة بست الكائنة على الشاطئ الأيسر من النهر ثم انضمت المدينتان فكانتا مدينة واحدة هي عاصمة =



خريطة الفترة التي ك



... فيها تابعة للدولة العثمانية

به النصر ويحدوه الجلال حتى وصل إلى مدينة بود ودخلها في ٣ ذي الحجة سنة ٩٣٢ (١٠ سبتمبر سنة ١٥٢٦) مشدّداً الأوامر على الجنود بعدم التعرّض للأهالي والمحافظة على النظام لكن لم تجد تنبيهاته شيئاً بل انتشرت الجنود في جميع أنحاء المدينة وفي جميع أرجاء بلاد المجر ناهبين قاتلين مرتكبين كل الفظائع التي ترتكبها الجيوش الغير منتظمة عقب الانتصار كما شوهد ذلك في جميع البلاد حتى في هذا العصر الموسوم بعصر التمدن .

وبعد دخول السلطان إلى مدينة بود جمع أعيان القوم وأمراءهم ووعدهم بأن يعين جان زابولي أمير ترانسلفانيا ملكاً عليهم ثم غادر رحمه الله إلى مقرّ خلافته مستصحباً معه كثيراً من نفائس البلاد وأهمها الكتب التي كانت موجودة في خزائن متياس[1] كورفن . وكذلك فعل نابليون الشهير حينما دخل مصر في أوائل القرن الثالث عشر من الهجرة فإنه أخذ كثيراً من كتب الفقه وأحكام الشريعة الغرّاء وتلك كانت عادته عند دخوله أي مملكة من ممالك أوروبا فإنه كان يحمل إلى فرانسا كل ما بها من التحف كالصور والتماثيل والكتب والآثار ولولا هذه العادة لما أفعمت متاحفها بالآثار والنفائس .

وفي أثناء عودته أقام أسبوعاً في مدينة أدرنه ووصل إلى مدينة القسطنطينية المحمية في ١٧ صفر سنة ٩٣٣ (٢٣ نوفمبر سنة ١٥٢٦) .

= المجر اليوم وهي مدينة جميلة جداً وأهلها أهل رقة ودعة وجمال ولطف وعراقة لأن البلاد كانت جزءاً من الامبراطورية النمسوية .

(١) هي كنيسة ماتياس Matyas وتسمى كنيسة التتويج لأن الملوك كانوا يتوجون فيها ولما استولى الأتراك على المجر جعلوها مسجداً وزينوها بنقوش عربية . فلما خرج الأتراك أعيدت كنيسة وما زالت النقوش العربية فيها كما كانت وقد زرت هذه الكنيسة سنة ١٩٧١ كما زرت المعالم الاسلامية في كل أوربا الشرقية التي أخذت المسيحية من قبل ، والشيوعية بعد ذلك ، على عاتقها محوها ولكنهم لم يستطيعوا طمسها وما زال كثير منها قائماً شاهداً على امتداد الساحة الاسلامية في العالم .

إغارة ملك النمسا على المجر وفتحه مدينة بود وانتصار العثمانيين عليه واسترجاع المجر

وفي أواخر سنة ١٥٢٧ ادعى فردينان ملك النمسا (وهو أخو شارلكان الشهير) الأحقية في أن يكون ملكاً على بلاد المجر بسبب قرابته مع الملك لويس الذي قتل في واقعة موهاكس وسار بجنوده لمحاربة جان زابولي أمير ترنسلفانيا الذي عينه السلطان سليمان ملكاً على بلاد المجر وهزمه، فارسل زابولي إلى السلطان سليمان يستنجده على منازعه في الملك، ووصل رسوله إلى الباب العالي وقابل السلطان في ٣ فبراير سنة ١٥٦٨ فوعده السلطان بمساعدته وأمضيت معاهدة بذلك بتاريخ ٢٩ فبراير سنة ١٥٢٨م. وبناء على هذا الاتفاق أصدر السلطان الأوامر إلى جميع الجهات بالاستعداد للحرب وجمع الجيوش والذخائر وعين وزيره الأوّل ابراهيم باشا السابق ذكره مراراً سر عسكر للجيش، أي قائداً عاماً له، مكافأة له على خدماته الجليلة في مصر حين أرسل إليها لترتيب أحوالها ولما أظهره من المعلومات العسكرية في واقعة موهاكس الأخيرة. وبعد ذلك بسنة تقريباً سافر السلطان سليمان من الأستانة قاصداً محاربة المجر في ١٠ مايو سنة ١٥٢٩ يقود جيشاً مؤلفاً من مائتين وخمسين ألف جندي ونحو ثلاثمائة مدفع ووصل إلى مدينة فيليبه في ١٢ شوّال سنة ٩٣٦ (٩ يونيه سنة ١٥٢٩) ومنها إلى مدينة (موهاكس) حيث أتى (زابولي) لمقابلة السلطان فقابله في ١٦ ذي الحجة سنة ٩٣٦[1] (٢٠ يوليه سنة ١٥٢٩) محاطاً بوزرائه الثلاثة ابراهيم باشا واياس باشا وقاسم باشا وبكافة القوّاد. وبعد أن مكث زابولي ملك المجر بحضرته العلية وقتاً قليلاً أذن له السلطان بالانصراف بعد أن أعطاه ثلاثة من الخيول المطهمة وثلاث خلع سنية.

ابتداء الحروب مع النمسا وحصار ويانه عاصمتها أول دفعة

ثم سار الخليفة الأعظم إلى مدينة (بود) عاصمة المجر، التي كان فردينان ملك النمسا محتلاً لها، فوصلها في ٣ سبتمبر وابتدأ الحصار، لكن لم يلبث فردينان

---

(١) ١٦ ذي الحجة ٩٣٦ (١١ آب ـ أغسطس ١٥٣٠ م).

أن فرّ هارباً من بود قاصداً مدينة (ويانه) عاصمة النمسا[1] ، وفي ٨ منه طلب قائد الحامية النمساوية بمدينة بود تسليم المدينة وقلاعها إذا وعدهم السلطان بالسماح لهم بالخروج بدون تعرّض لحياتهم ولما أجابهم السلطان لذلك أخلوا المدينة وفي حال خروجهم منها انقض عليهم الانكشارية وقتلوا أغلبهم غير طائعين لأوامر رؤسائهم مهدّدين من رغب في منعهم من القوّاد والضباط . وبعد ذلك بسبعة أيام أي في يوم ١٥ منه أرسل السلطان أحد قوّاد الانكشارية ليرافق (زابولي) إلى القصر الملوكي ويقلده تاج الملوكية .

وبعد إعادة زابولي إلى عرش ملك بلاد المجر بمساعدة الجيوش العثمانية قام السلطان بجيوشه قاصداً مدينة (ويانه) لغزوها مستصحباً معه الملك زابولي تاركاً في مدينة بود حامية عثمانية تحت قيادة أحد أغاوات (ضباط) الانكشارية لحفظ الأمن بها وتوطيده في جميع أنحائها إلى أن يعود الملك زابولي إليها . وفي ٢٧ سبتمبر من السنة المذكورة وصل السلطان سليمان بجيوشه أمام عاصمة بلاد النمسا ووضع الحصار حولها وسلط مدافعه على أسوارها فهدم جزءاً منها وفتح بها ثلما صار توسيعه بألغام البارود حتى صار يمكن الجيوش الهجوم منه بكل سهولة . ثم أمر الجنود بالهجوم فهجمت كالأسود في أيام ١٠ و١١ و١٢ أكتوبر وأخيراً في يوم ٢٠ صفر سنة ٩٣٧ هـ (١٣ اكتوبر سنة ١٥٣٩) وبعد أن استمر القتال طول

---

(١) هي عاصمة امبراطورية النمسا ومملكة المجر معاً قائمة على نهر الطونة وكانت عاصمة الامبراطورية الألمانية الى أن سقطت سنة ١٨٠٩ وحاصرها العثمانيون مرتين الأولى سنة ١٥٢٩ والثانية في سنة ١٦٨٣ كما سترى . ودخلها نابليون الأول فاتحاً مرتين في سنة ١٨٠٥ وسنة ١٨٠٩ وفي هذه المرة تزوج نابليون بابنة الامبراطور فرنسوا المسماة (ماري لويز) وفي سنة ١٨٤٨ حصلب بها ثورة عظيمة أفضت الى اطلاق المدافع عليها وتدمير جزء عظيم منها ثم أعيد بناؤها أحسن مما كانت . وبها كثير من المنتزهات الجميلة ويعدها البعض أجمل مدينة في العالم بعد باريس الغناء الملقبة بجنة الفردوس الأرضية .

يكتب المؤلف فينا ويانه على الطريقة التركية لأن الأتراك يلفظون حرف الواو أقرب إلى الفاء منه إلى الواو وسوف يتكرر هذا الإسم كثيراً .

يومه عادت الجنود العثمانية إلى معسكرها بدون أن تقوى على الدخول في المدينة. ولما رأى السلطان أن ذخيرة الطوبجية التي عليها المعول في الحصار قد نفدت والشتاء قد أقبل بشدته وثلوجه المعهودة في هذه الجهات الشديدة البرودة أصدر أوامره بالرجوع عن ويانه هذه السنة وإعداد الجيوش لمعاودة الكرة عليها في أقرب وقت. وكانت هذه هي المرة الأولى التي لم يفز السلطان سليمان بالنصر فيها. ومر في عودته على مدينة (بود) عاصمة المجر وبعد أن ودّع ملكها زابولي عاد إلى القسطنطينية من طريق بلغراد.

وفي ربيع سنة ١٥٣١ أرسل ملك النمسا جيشاً لمحاصرة مدينة (بود) واستخلاصها من قبضة (زابولي) خليفة العثمانيين وحليفهم فصدوا عنها بقوة الحامية الاسلامية المعسكرة فيها. وفي ١٩ رمضان سنة ٩٣٨ (٢٥ ابريل سنة ١٥٣٢) سار السلطان سليمان قاصداً مدينة ويانه ثانية لفتحها ومحو ما لحقه من الفشل أمامها في المرة الأولى بعد أن رفض ما عرضه عليه فردينان أرشيدوق النمسا من الصلح، ولما وصل إلى مدينة نيش[1] ببلاد الصرب وجد في انتظاره سفراء من قبل أرشيدوق النمسا النمسا ووجد بمدينة بلغراد سفيراً جديداً من قبل ملك فرانسا (فرنسوا الأول) وهو المسيو (رنسون)، فقابله السلطان في أول ذي الحجة سنة ٩٣٨ (٥ يوليو سنة ١٥٣٢) باحتفال فائق لم يسبق مثله لأي سفير غيره، وذلك أنه صف لاستقباله عدد عظيم من الجنود وأطلقت المدافع تحية لقدومه وقابله السلطان مقابلة خصوصية محاطاً بوزرائه وقوّاد جيوشه على ضدّ ما حصل لمرسلي فردينان الذين قوبلوا بكل تحقير وامتهان. وبعد المقابلة وتبادل عبارات السلام بين السفير الفرنساوي وجلالة الخليفة الأعظم عاد السفير لملكه حاملاً خطاباً لمرسله يؤكد السلطان فيه اتحادهما على محاربة شارلكان ووعده بامداده بالعمارة العثمانية إذا مست الحاجة.

ثم سار السلطان بجيوشه التي كان يبلغ عددهم مائتي ألف مقاتل وانضم إليهم بعد مزاولتهم مدينة بلغراد خمسة عشر ألف فارس من تتر القرم تحت قيادة صاحب كراي، أخي خان القرم. وفي أثناء المسير نحو مدينة ويانه فتح الجيش عدة قلاع

---

(١) نيش Nis بلدة يوگوسلافية تقع بالقرب من الحدود البلغارية.

وحصون بدونمقاومة تذكر إلا أن مدينة (جانز)[1] أبدت من الدفاع أكثر مما كان يتوقع منها لقلة حاميتها. لكن لم تجد مدافعتها شيئاً بل سلم قائدها القلعة في ٢٦ محرم سنة ٩٣٩ (٢٨ اغسطس سنة ١٥٣٢) بشرط عدم دخول الجنود العثمانية المدينة فقبل السلطان هذا الشرط مكافأة لأهاليها على ما أبدوه من حب الوطن والشهامة والإقدام في الدفاع عنه .

ثم سار الجيش الهوينا إلى عاصمة النمسا ولما اقترب منها مال إلى جهة اليسار قاصداً اقليم (استيريا) ومنها عاد إلى بلغراد ثانياً بدون أن يحاصر مدينة ويانه لما بلغه من استعداد شارلكان للدفاع عنها وجمع الجيوش فيها بين نمساويين وألمان واسبانيول وغيرهم، وعدم وجود مدافع حصار معه ولاقتراب فصل الشتاء بزمهريره وجليده اللذين لا يمكن معهما استمرار الحصار بكيفية ضامنة لفتحها وادخالها في حوزة الاسلام كما فتحت بلاد المجر وعاصمتها من قبلها .

ولما وصل السلطان في إيابه إلى مدينةفيليبه عين (صاحب كراي) التري خانا لبلاد القرم بدل أخيه مكافأة له على خدماته أثناء مرور الجيش باراضي النمسا ورتب لأخيه سعادت كراي معاشاً سنوياً يليق بمقامه. وفي ١٩ ربيع آخر سنة ٩٣٩ (١٨ نوفمبر سنة ١٥٣٢) عاد السلطان إلى مدينة القسطنطينية وزينت المدينة وضواحيها عدّة ليال متواليات احتفالاً بعودة جلالته .

وفي أثناء انتشاب هذه الحروب من جهة البر أتت تحت أمرة الأميرال (اندري دوريا)[2] عمارة بحرية مؤلفة من سفن شارلكان الحربية ومعها عدّة

---

(١) قرية ببلاد المجر على نهر بهذا الاسم ويسميها المجريون كزج ولم يزد عدد سكانها على سبعة آلاف نسمة ولولا الشهامة التي أبدتها في الدفاع عن نفسها عندما حاصرها العثمانيون في سنة ١٥٣٢ لما ذكر لها اسم في التاريخ .

(٢) هو قائد بحري شهير من عائلة جنوية الأصل عريقة في المجد والشرف كان ضد الفرنساويين في حروب ايطاليا التي أثارها شارلكان وفرانسوا الأول ملك فرانسا ثم انحاز الى فرانسا وحارب سفن شارلكان وانتصر عليها. وحصلت بينه وبين مراكب العثمانيين عدة وقائع ثم ترك فرانسا وانحاز الى شارلكان مقابلة ارجاعه مدينة جنوا الى استقلالها الأصلي في سنة ١٥٢٨ وحارب مراكب فرانسا والدولة العثمانية. وأخيراً =

من سفن البابا بقصد محاربة العثمانيين من جهة البحر فاحتل (اندرى دوريا) المذكور مينائي كورون وباتراس[1] ببلاد موره بعد قتل من كان بها من الجنود الانكشارية وتدمير القلعتين، اللتين أقامهما السلطان بايزيد الثاني على ضفتي خليج ليبالت[2] ببلاد اليونان. وتهديد جزائر الروم الخاضعة لسلطان الدولة العلية.

وفي أوائل سنة ١٥٢٣ أرسل فردينان أرشيدوق النمسا سفيراً من قبله يدعى جيروم دي زار إلى الأستانة يعرض طلب الصلح على جلالة السلطان فقابل الصدر الأعظم ابراهيم باشا وتباحثا في شروط الصلح. وفي يوم ١٤ يناير سنة ١٥٣٣ قابل السلطان السفير ولم يقبل السلطان الصلح بل قبل المهادنة مؤقتاً حتى تسلم إليه مفاتيح مدينة (جران)[3] وبعدها تحوّل الهدنة إلى صلح. فأرسل السفير ابنه فسبازيان دي زارا في أوّل فبراير إلى ويانه يصحبه رسول من قبل السلطان لعرض هذه الشروط على فردينان، .فعرضها فردينان على أكابر الدولة وأعيانها فقبلوها وأرسل إلى الأستانة خطاباً بذلك على يد الرسول العثماني في ٢٩ مايو سنة ١٥٣٣. وبعد ذلك تحررت بين الطرفين معاهدة الصلح في ٢٢ يونيو سنة ١٥٣٣ (٢٨ القعدة سنة ٩٣٩) وأهم ما فيها أن يردّ النمساويون مدينة كورون للدولة العلية ولا يردّوا شيئاً مما فتحوه من بلاد المجر وأن ما تتفق عليه النمسا مع زابولي صاحب بلاد المجر لا ينفذ ما لم يعتمده جلالة السلطان العثماني وهي أوّل معاهدة صلح بين النمسا والباب العالي.

= اشتغل بتنظيم جمهورية جنوا حتى استحق أن يلقب بأبي الوطن. وأقيم له بها تمثال عظيم كتت عليه (إلى أبي الوطن). وكانت ولادته سنة ١٤٦٨ ووفاته سنة ١٥٦٠ بعد أن عمر نحو قرن كامل.

وأقول : أسرة دوريا Doria أسرة جنوية عريقة ظهر منها عدد من القادة البحريين وأشهرهم هو اندرس Andres المذكور، وقد كتب اسمه في المتن على الطريقة الافرنسية والصواب هو اندرس وليس اندري.

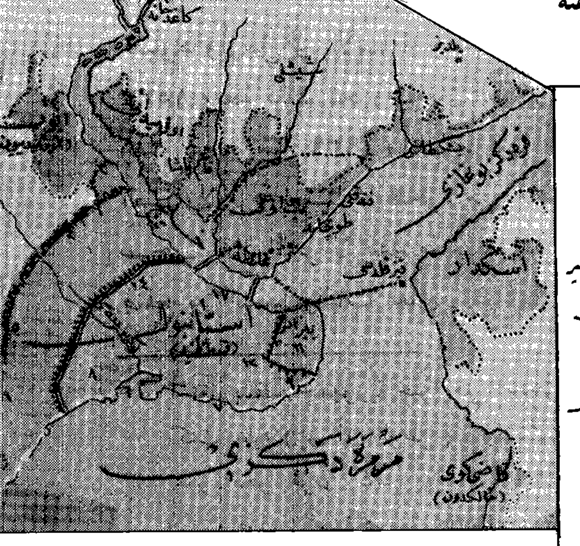
(١) باتراس Patras تقع في شمال شبه جزيرة مورا إلى الغرب، وكورون مر ذكرها.

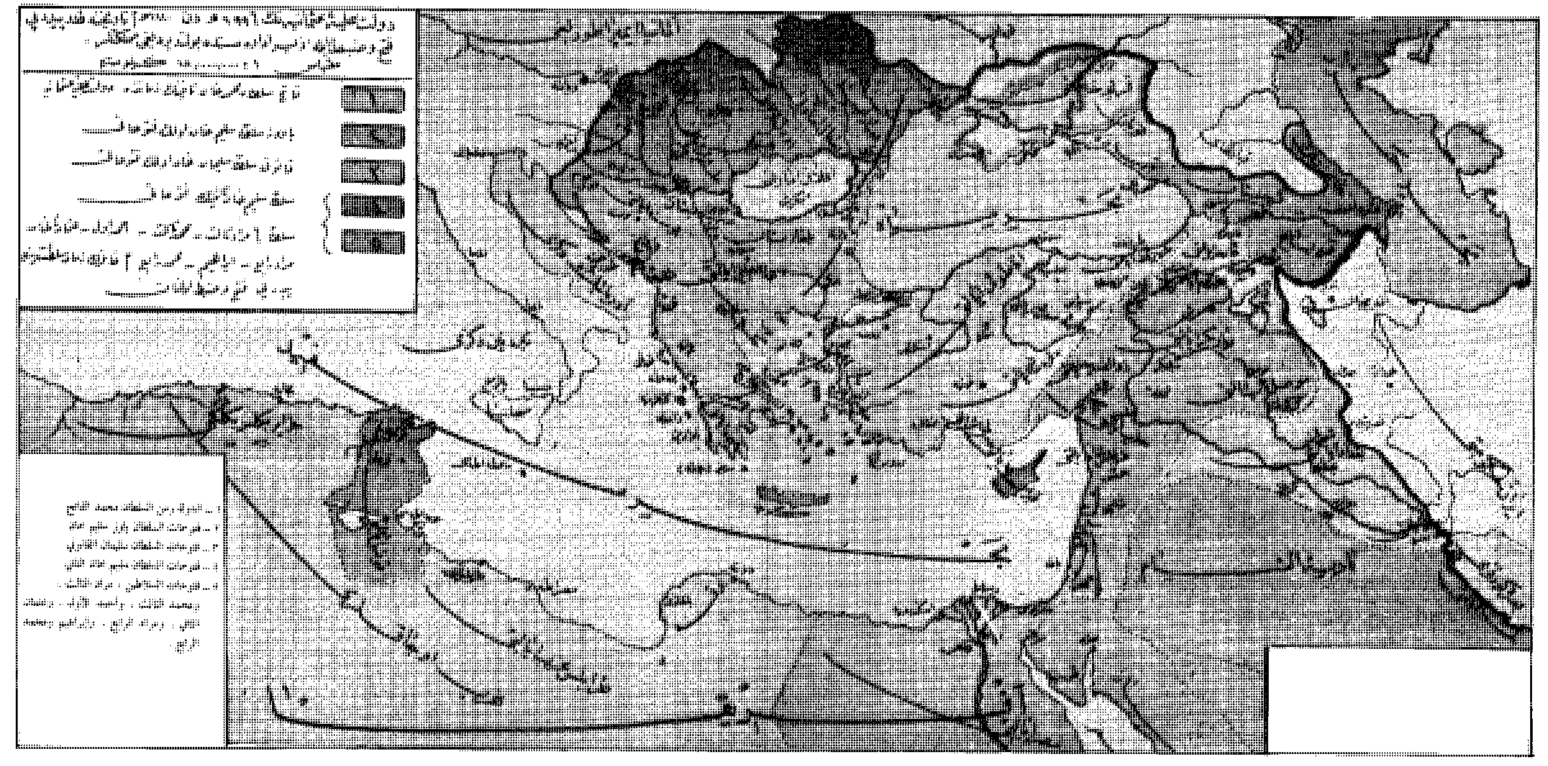
(٢) هو مضيق ليبانت الذي مر ذكره من قبل.

(٣) گران Gran مدينة على نهر الدانوب الى الشرق من مدينة ڤينا.

خريطة القسطنطينية (اسمانبول) ويظهر عليها

١ - السور القديم
٢ - سور قسطنطين (٣٣٠ م)
٣ - سور نيودوس الثاني (٤٠٨ - ٤٥٠ م)
٤ - سور هرقل
٥ - سور غلطة القديم
٦ - السلسلة التي سد بها المضيق
٧ - الطريق التي أزلق عليها الفاتح سفنه





البلاد التي فتحتها الدولة العثمانية من سنة ٦٩٩ هـ إلى سنة ١١١٠ هـ
في الجزيرة العربية وشمال افريقيا والسودان والحبشة

دخول العثمانيين مدينة تبريز ثاني دفعة

هذا وقد حصل في أثناء اشتغال السلطان بمحاربة النمسا بعض اضطرابات على حدود بلاد العجم وساعد على ذلك خيانة شريف بك ، خان مدينة بدليس[(١)] . الواقعة على حدود المملكتين وانحيازه إلى مملكة العجم. ولذلك أرسل السلطان وزيره الأول ابراهيم باشا لمحاربة هذا العاصي والسير بعد ذلك إلى مدينة تبريز عاصمة العجم لفتحها ، فسافر ابراهيم باشا وقبل وصوله إلى قونية وصل إليه في ٢ ربيع الآخر سنة ٩٤٠ (٢١ اكتوبر سنة ١٥٣٣) شمس الدين ابن حاكم أذربيجان ، الذي كان تابعاً لملك العجم ، وانضم إلى السلطنة العثمانية ومعه رأس شريف بك الذي حاربه والده وقتله ولذلك سار ابراهيم باشا إلى مدينة حلب لإمضاء فصل الشتاء بها. وفي أوائل ربيع سنة ١٥٣٤ قام منها بجيوشه قاصداً مدينة تبريز ففتح في طريقه جميع الحصون والقلاع المجاورة لبحيرة (وان) ووصل بدون كبير معارضة إلى تبريز ودخلها بسلام في غرة شهر محرم الحرام سنة ٩٤١ هـ (١٣ يوليو سنة ١٥٣٤ م) وبنى بها قلعة وجعل في وسطها حامية عثمانية لمنع السكان عن اتيان كل ما يمكن أن يكدر صفو الراحة العمومية .

فتح مدينة بغداد

وفي ٢٧ سبتمبر من السنة المذكورة (١٦ صفر سنة ٩٤١) وصل السلطان سليمان الغازي إلى تبريز فقابله الأهالي بكل تبجيل وتعظيم. وبعد أن عين السلطان ابن الأمير شيروان قائداً لحامية مدينة تبريز وقبل خضوع أمير كيلان[(٢)] المدعو ملك مظفر خان وغيره من أمراء الفرس. الذين تركوا لواء شاه طهماسب ملك العجم وانحازوا إلى ظل الخليفة الأعظم. سار السلطان بجيوشه إلى مدينة سلطانية[(٣)]

---

(١) هي بتليس Bitlis الواقعة جنوب بحيرة وان في شرق الأناطول .

(٢) گيلان وأصلها گيلان ويكتبها العرب جيلان أيضاً ومنها الشيخ الصوفي عبد القادر ، وهي بلدة في ايران تقع في جنوب بحر الخزر .

(٣) سلطانية تقع الى الشرق من گيلان .

التي تقهقر إليها الشاه بجيوشه لكن لصعوبة الطرق واستحالة مرور المدافع الضخمة وعربات النقل بها لكثرة الأمطار والأوحال تركها السلطان وقصد مدينة بغداد لفتحها. فلما اقترب منها تقدّم ابراهيم باشا الصدر الأعظم وسر عسكر الجيوش العثمانية لاحتلالها قبل قدوم السلطان فدخلها في يوم ٢٤ جمادى الآخرة سنة ٩٤١ (٣١ دسمبر سنة ١٥٣٤) ووجدها خاوية من الجنود اذ تركها حاكمها بكل جنوده هرباً من الوقوع في قبضة الجنود العثمانية فيذيقونه الحمام. وبعد أن أقام السلطان في مدينة بغداد مدة أربعة أشهر رتب الإدارة الداخلية في خلالها وزار قبور الأئمة العظام وقبر الإمام عليّ رابع الخلفاء الراشدين كرم الله وجهه في مدينة النجف وقبر ابنه الحسين في كربلا وأرسل الخطابات إلى البندقية وويانه إعلاناً بانتصاره على الشاه طهماسب وافتتاحه مدائن تبريز وبغداد.

وفي ٢٨ رمضان سنة ٩٤١ الموافق ٢ ابريل سنة ١٥٣٥ سافر السلطان بجيوشه عائداً إلى مدينة تبريز ماراً ببلاد الأكراد وإقليم المراغه[١] وولى سليمان باشا أحد قوّاد جيوشه على مدينة بغداد ومعه ألفا جندي لحمايتها. وفي أثناء مسيره وصل إلى معسكره سفير فرنساوي اسمه مسيو (لافوري) أرسل لتهنئته على فتوحاته الأخيرة. ثم وصل إلى مدينة تبريز رابع المحرم سنة ٩٤٢[٢] وأقام بها ١٥ يوماً قضاها في تعيين الولاة على المدائن المفتتحة حديثاً وترتيب شؤون الداخلية. ثم قفل راجعاً إلى الأستانة فوصلها في ١٤ رجب سنة ٩٤٢ (٨ يناير سنة ١٥٣٦).

الامتيازات القنصلية

وفي أوائل شهر فبراير سنة ١٥٣٦ تم الاتفاق بين المسيو لافوري سفير فرنسا والباب العالي وصدر به خط شريف[٣] يمنح بعض امتيازات لرعايا ملك فرنسا النازلين بأراضي الممالك المحروسة. وهذا نص هذه المعاهدة مترجماً من مجموعة

---

(١) اقليم المراغة يقع في الشمال الغربي من ايران الى الشمال الغربي من قزوين وهناك مدينة بهذا الاسم.

(٢) (٥ تموز - يوليو ١٥٣٥ م).

(٣) خط شريف أي مرسوم ملكي أو سلطاني.

البارون دي تستا الموجودة في الكتبخانة الخديوية :

ليكن معلوماً لدى العموم أنه في شهر... [1] سنة ٩٤٢ من الهجرة المحمدية (شهر فبراير سنة ١٥٣٦) من الميلاد قد اتفق بمدينة الأستانة العلية كل من المسيو جان دي لافوري، مستشار وسفير صاحب السعادة الأمير فرنسوا المتعمق في المسيحية ملك فرنسا، المعين لدى الملك العظيم ذي القوة والنصر السلطان سليمان خاقان [2] الترك إلى آخر ألقابه والأمير الجليل ذي البطش الشديد سر عسكر السلطان بعد أن تباحثا في مضار الحرب وما ينشأ عنه من المصائب وما يترتب على السلم من الراحة والطمأنينة على البنود الآتية :

البند الأول : قد تعاهد المتعاقدان بالنيابة عن جلالة الخليفة الأعظم وملك فرانسا على السلم الأكيد والوفاق الصادق مدّة حياتهما وفي جميع الممالك والولايات والحصون والمدن والموانىء والثغور والبحار والجزائر وجميع الأماكن المملوكة لهم الآن أو التي تدخل في حوزتهم فيمابعد، بحيث يجوز لرعاياهما وتابعيهما السفر بحراً بمراكب مسلحة أو غير مسلحة والتجول في بلاد الطرف الآخر والمجيء إليها والإقامة بها أو الرجوع إلى الثغور والمدن أو غيرها بقصد الاتجار على حسب رغبتهم بكمال الحرية بدون أن يحصل لهم أدنى تعد عليهم أو على متاجرهم .

البند الثاني : يجوز لرعايا وتابعي الطرفين البيع والشراء والمبادلة في كافة السلع الغير ممنوع الاتجار فيها ولسيرها ونقلها براً وبحراً من مملكة إلى أخرى مع دفع العوائد والضرائب المعتادة قديماً بحيث يدفع الفرنساوي في البلاد العثمانية ما يدفعه الأتراك ويدفع الأتراك في البلاد الفرنساوية ما يدفعه الفرنساويون بدون أن يدفع أي الطرفين عوائد أو ضرائب أو مكوساً أخرى .

البند الثالث : كلما يعين ملك فرنسا قنصلاً في مدينة القسطنطينية أو في بيرا [3] أو غيرهما من مدائن المملكة العثمانية كالقنصل المعين الآن بمدينة الاسكندرية

---

(١) يبدأ شهر شباط ـ فبراير سنة ١٥٣٦ في ٨ شعبان وينتهي في ٧ رمضان ٩٤٢ .

(٢) خاقان : ملك الملوك .

(٣) پيره Pirée هي ميناء مدينة أثينا .

يصير قبوله ومعاملته بكيفية لائقة ويكون له أن يسمع ويحكم ويقطع بمقتضى قانونه في جميع ما يقع في دائرته من القضايا المدنية والجنائية بين رعايا ملك فرنسا بدون أن يمنعه من ذلك حاكم أو قاضي شرعي أو (صوباشي)[1] أو أيّ موظف آخر ولكن لو امتنع أحد رعايا الملك عن إطاعة أوامر أو أحكام القنصل فله أن يستعين بموظفي جلالة السلطان على تنفيذها وعليهم مساعدته ومعاونته وعلى أي حال ليس للقاضي الشرعي أو أي موظف آخر أن يحكم في المنازعات التي تقع بين التجار الفرنساويين وباقي رعايا فرنسا حتى لو طلبوا منه الحكم بينهم وأن أصدر حكماً في مثل هذه الأحوال يكون حكمه لاغياً لا يعمل به مطلقاً.

البند الرابع: لا يجوز سماع الدعاوى المدنية التي يقيمها الأتراك أو جباة الخراج أو غيرهم من رعايا جلالة السلطان ضدّ التجار أو غيرهم من رعايا فرنسا أو الحكم عليهم فيها ما لم يكن مع المدّعين سندات بخط المدّعي عليهم أو حجة رسمية صادرة من القاضي الشرعي أو القنصل الفرنساوي وفي حالة وجود سندات أو حجج لا تسمع الدعوى أو شهادة مقدّمها إلا بحضور ترجمان القنصل.

البند الخامس: ولا يجوز للقضاة الشرعيين أو غيرهم من مأموري الحكومة العثمانية سماع أي دعوى جنائية أو الحكم ضد تجار ورعايا فرنسا بناء على شكوى الأتراك أو جباة الخراج أو غيرهم من رعايا الدولة العلية بل على القاضي أو المأمور الذي ترفع إليه الشكوى أن يدعو المتهمين بالحضور بالباب العالي محل إقامة الصدر الأعظم الرسمي.

وفي حالة عدم وجود الباب المشار إليه (أي إذا حصلت الواقعة في محل غير الاستانة) يدعوهم أمام أكبر مأموري الحكومة السلطانية وهناك يجوز قبول شهادة جابي الخراج والشخص الفرنساوي ضد بعضهما.

البند السادس: لا يجوز محاكمة التجار الفرنساويين ومستخدميهم وخادميهم فيما يختص بالمسائل الدينية أمام القاضي أو السنجق[2] بيك * أو الصوباشي أو غيرهم

---

(١) صوباشي: هو المحتسب أو مدير الشرطة.

(٢) السنجق: هو الحاكم المدني لمركز اداري هو دون الولاية وفوق القضاء. والسنجق =

من المأمورين بل تكون محاكمتهم أمام الباب العالي. ومن جهة أخرى يكون مصرح لهم باتباع شعائر دينهم ولا يمكن جبرهم على الإسلام أو اعتبارهم مسلمين ما لم يقروا بذلك غير مكرهين.

البند السابع : لو تعاقد واحد أو أكثر من رعايا فرانسا مع أحد العثمانيين أو اشترى منه بضائع أو استدان منه نقوداً ثم خرج من الممالك العثمانية قبل أن يقوم بما تعهد به فلا يسأل القنصل أو أقارب الغائب أو أي شخص فرنساوي آخر عن ذلك مطلقاً. وكذلك لا يكون ملك فرانسا ملزماً بشيء بل عليه أن يوفي طلب المدعي من شخص المدعى عليه أو أملاكه لو وجدت باراضي الدولة الفرنساوية أو كان له أملاك بها.

البند الثامن : لا يجوز استخدام التجار الفرنساويين أو مستخدميهم أو خدامهم أو سفنهم أو (قواربهم) أو ما يوجد بها من اللوازمات أو المدافع والذخائر أو التجارة جبراً عنهم في خدمة جلالة السلطان الأعظم أو غيره في البر والبحر ما لم يكن ذلك بطوعهم واختيارهم.

البند التاسع : يكون لتجار فرانسا ورعاياها الحق في التصرف في كافة متعلقاتهم بالوصية بعد موتهم، وعند وفاة أحد منهم وفاة طبيعية أو قهرية عن وصية فتوزع

= هو العلم ، والسنجق بك معناها هنا : السيد السنجق . والسنجق مركز اداري كان يسمى متصرفية أيضاً ، فقد كان العثمانيون يقسمون المراكز الادارية المدنية الى أربع مراتب الأولى هي رتبة الوالي ومركزه الولاية ، والثانية هي رتبة المتصرف ومركزه المتصرفية أو السنجق ، والثالثة هي رتبة القائم مقام ومركزه القضاء ، والرابعة هي رتبة مدير الناحية ومركزه الناحية وهؤلاء الموظفون الاداريون يرتبط الأصغر منهم بالأكبر بحسب الترتيب المذكور ويرتبط الوالي بوزير الداخلية .

وهناك مراكز كانت تسمى سنجق مستقل أو متصرفية مستقلة وهي مثل الولاية يرتبط حاكمها بوزير الداخلية وكانت القدس كذلك ، وكان هناك أقاليم شبه مستقلة يسمونها إيالة مثل مصر وتونس ..

* لفظ بك يكتبه الأتراك من غير ياء ، ولكن المغول الذي حكموا الهند وباكستان يكتبونه بيگ ومؤنثه بيگم بالكاف الفارسية .

أمواله وباقي ممتلكاته على حسب ما جاء بها، ولو توفي ولم يوص فتسلم تركته إلى وارثه أو الوكيل عنه بمعرفة القنصل لو كان في محل وفاته قنصل وإلا فتحفظ التركة بمعرفة قاضي الجهة بعد أن تعمل بها قائمة جرد على يد شهود. أما لو كانت الوفاة في جهة بها قنصل فلا يكون للقاضي أو مأمور بيت المال أو غيرهما حق في ضبط التركة مطلقاً، ولو سبق ضبطها بمعرفة أحد منهم يصير تسليمها إلى القنصل أو من ينوب عنه لو طلبها قبل الوارث أو وكيله وعلى القنصل توصيلها وتسليمها إلى صاحب الحق فيها .

البند العاشر: بمجرد اعتماد جلالة السلطان وملك فرانسا لهذه المعاهدة فجميع رعاياهما الموجودين عندهما أو عند تابعيهما أو على مراكبهما أو سفنهما أو في أي محل أو اقليم تابع لسلطتهما في حالة الرق. سواء أكان ذلك بشرائهم أو بأسرهم وقت الحرب، يصير إخراجهم فوراً من حالة الاسترقاق إلى بحبوحة الحرية بمجرد طلب وتقرير السفير أو القنصل أو أي شخص آخر معين لهذا الخصوص ولو كان أحدهم قد غير دينه ومعتقده فلا يكون ذلك مانعاً لاطلاق سراحه .

ومن الآن فصاعداً لا يجوز لجلالة السلطان أو ملك فرنسا ولا لقبودانات[١] البحر ورجال الحرب أو أي شخص آخر تابع لأحدهما أو لمن يستأجرونهم لذلك سواء في البر والبحر أخذ أو شراء أو بيع أو حجز أسراء الحرب بصفة أرقاء ولو تجاسر قرصان أو غيره من رعايا إحدى الدولتين المتعاقدتين على أخذ أحد رعايا الطرف الآخر أو اغتصاب أملاكه أو أمواله يصير إخبار حاكم الجهة وعليه ضبط الفاعل ومعاقبته على مخالفته شروط الصلح عبرة لغيره وردّ ما يوجد عنده من الأشياء المغتصبة إلى من أخذت منه. وإذا لم يضبط الفاعل فيمنع هو وجميع شركائه من الدخول في البلاد وتضبط ممتلكاته لجانب الحكومة التابع إليها ويصير التعويض على ما حصل له من الضرر مما يصادر من أملاك الجاني. وهذا لا يمنع من مجازاته لو صار ضبطه فيما بعد. وللمجني عليه أن يستعين على الحصول على

(١) قبودان : ويقولون أحياناً قبطان هي تحريف كلمة كبتين Capitaine الافرنسية التي معناها قائد السفينة اذا جاءت لأمور تتعلق بالبحر .

ذلك بضامني هذا الصلح وهم السر عسكر عن الجناب السلطاني وأكبر القضاة عن ملك فرانسا .

البند الحادي عشر: لو تقابلت دونانمات[1] إحدى الدولتين المتعاقدتين ببعض مراكب رعايا الدولة الأخرى فعلى هذه المراكب تنزيل قلوعها ورفع أعلام دولتها حتى إذا علمت حقيقتها لا تحجزها أو تضايقها السفن الحربية أو أي تابع آخر للدولة صاحبة الدونانمة. وإذا حصل ضرر لأحدهما فعلى الملك صاحب الدونانمة تعويض هذا الضرر فوراً. وإذا تقابلت سفن رعايا الدولتين فعليهما رفع العلم وإبداء السلام بطلقة مدفع والمجاوبة بالصدق لو سئل ربانها عن الدولة التابع إليها ولما تُعلم حقيقتها لا يجوز لأحداها أن تفتش الأخرى بالقوة أو تسبب لها أي عائق كان .

البند الثاني عشر: إذا وصلت إحدى المراكب الفرنساوية سواء بطريق الصدفة أو غيرها إلى إحدى موانىء أو شطوط الدولة العلية تعطى ما يلزمها من المأكولات وغيرها من الأشياء مقابل دفع الثمن المناسب بدون إلزامها تفريغ ما بها من البضائع لدفع الأثمان ، ثم يباح لها الذهاب أينما تريد. وإذا وصلت إلى الأستانة وأرادت السفر منها بعد الاستحضار على جواز الخروج من أمين الجمرك ودفع الرسم اللازم وتفتيشها بمعرفة الأمين المشار إليه فلا يجوز ولا يمكن تفتيشها في أي محل آخر إلا عند الحصون المقامة بمدخل بوغاز جاليبولي (الدردنيل) بدون دفع شيء مطلقاً لا عند هذا البوغاز ولا في أي مكان آخر عند خروجها خلاف ما صار دفعه سواء كان الطلب باسم جلالة السلطان أو أحد مأموريه .

البند الثالث عشر: لو كسرت أو اغرقت مراكب إحدى الدولتين بالصدفة أو غيرها عند البلاد التابعة للطرف الآخر فمن ينجو من هذا الخطر يبقى متمتعاً بحريته لا يمانع في أخذ ما يكون له من الأمتعة وغيرها أما لو غرق جميع من بها فما يمكن تخليصه من البضائع يسلم إلى القنصل أو نائبه لتسليمها لأربابها بدون أن يأخذ القبودان باشا أو السنجق بيك أو الصوباشي أو القاضي أو غيرهم من

---

(١) تكررت كلمة دوننمة أودونانمة ويجمعها على دونمات ومعناها الأسطول .

مأموري الدولة أو رعاياها شيئاً منها ، وإلا فيعاقب من يرتكب ذلك باشدّ العقاب . وعلى هؤلاء المأمورين أن يساعدوا من يخصص لاستلام الأشياء المذكورة .

البند الرابع عشر : لو هرب أحد الأرقاء المملوكين لأحد العثمانيين واحتمى في بيت أو مركب أحد الفرنساويين فلا يجبر الفرنساوي إلّا على البحث عنه في بيته أو مركبه ولو وجد عنده يعاقب الفرنساوي بمعرفة قنصله ويردّ الرقيق لسيده . وإذا لم يوجد الرقيق بدار أو مركب الفرنساوي فلا يسأل عن ذلك مطلقاً .

البند الخامس عشر : كل تابع لملك فرانسا إذا لم يكن أقام بأراضي الدولة العلية مدّة عشر سنوات كاملة بدون انقطاع لا يلزم بدفع الخراج أو أي ضريبة أياً كان اسمها ولا يلزم بحراسة الأراضي المجاورة أو مخازن جلالة السلطان ولا بالشغل في الترسانة أو أي عمل آخر . وكذلك تكون معاملة رعايا الدولة في بلاد فرانسا .

وقد اشترط ملك فرانسا أن يكون للبابا وملك انكلترا أخيه وحليفه الأبدي وملك ايقوسيا[1] الحق في الاشتراك بمنافع هذه المعاهدة لو أرادوا بشرط أنهم يبلغون تصديقهم عليها إلى جلالة السلطان ويطلب منه اعتماد ذلك في ظرف ثمانية شهور تمضي من هذا اليوم .

البند السادس عشر : يرسل كل من جلالة السلطان وملك فرانسا تصديقه للآخر على هذه المعاهدة في ظرف ستة شهور تمضي من تاريخ امضائها مع الوعد من كليهما بالمحافظة عليها والتنبيه على جميع العمال والقضاة والمأمورين وجميع الرعايا بمراعاة كامل نصوصها بكل دقة . ولكي لا يدعي أحد الجهل بهذه المعاهدة يصير نشر صورتها في الأستانة والاسكندرية ومصر ومرسيليا وناربونة[2] وفي جميع الأماكن الأخرى الشهيرة في البر والبحر التابعة لكل من الطرفين . انتهت المعاهدة[3] .

---

(١) هي ايكوسيا Ecosse ويسميها الانكليز سكوتلاند Scotland ، وهي الجزء الشمالي من أراضي المملكة المتحدة ـ انكلترا ـ وقد كانت آنذاك دولة مستقلة .

(٢) هي نوربون Norbonne : ميناء على البحر الأبيض المتوسط جنوب غرب فرانسا .

(٣) من الغريب جداً أن تعقد الدولة العثمانية ، وهي في أوج عظمتها وقوتها ، معاهدة مع =

وبذلك صارت فرانسا الدولة الأوروباوية الوحيدة الحائزة امتيازات لرعاياها. ولكن كان هذا الاتفاق سبباً في تدخل فرانسا وباقي دول أوروبا في شؤون المملكة الداخلية خصوصاً في هذا القرن الأخير كما سيجيء. وكانت هي آخر أعمال الصدر الأعظم إبراهيم باشا فإن السلطان توجس منه خيفة لازدياد نفوذه على الجنود والقوّاد وازداد تحذره منه بعد محاربته العجم الأخيرة التي كان فيها إبراهيم باشا المذكور سر عسكر لجميع الجيوش فإنه أمضى بعض الأوامر العسكرية بلقب سر عسكر سلطان، وخشي السلطان أن تكون تلك الأعمال مقدّمات لاغتصابه الملك لنفسه فأمر بقتله في ٢٢ رمضان سنة ٩٤٢ (١٥ مارس سنة ١٥٣٦) فقتل. وخلفه في مركز الصدارة إياس باشا بدسيسة روكسلان الروسية إحدى حظيات السلطان وسيأتي ذكر ما أتته من الدسائس والمفاسد عند الكلام على قتل السلطان لابنه مصطفى.

خير الدين باشا البحري وفتح اقليمي الجزائر وتونس

ولنأت ههنا على ملخص تاريخ خير الدين باشا البحري الذي اشتهر في كتب الافرنج باسم (بارب روس) أي ذي اللحية الصهباء، وما فتحه من البلاد في سواحل بلاد الغرب وجنوب إيطاليا وانا لم نذكر حوادثه حسب ترتيبها لعدم الفصل بها بين أعمال السلطان سليمان الحربية في جهات النمسا غرباً وبلاد العجم شرقاً خوفاً من تشتيت فكر المطالع فنقول: إن أصل خير الدين باشا من أروام جزيرة (مدللي) إحدى جزائر الروم وكان هو وأخ له يدعى (أوروج)[1] يشتغلان بحرفة القراصنة ببحر الروم ثم أسلما ودخلا في خدمة السلطان محمد الحفصي صاحب تونس واستمرّا في حرفتهما وهي أسر مراكب المسيحيين التجارية وأخذ كافة ما بها من البضائع وبيع ركابها وملاحيها بصفة رقيق. وفي

= دول الغرب بمثل هذا التسامح الذي بلغ حد الذل والضعف. والذي اعتقده هو اما أن يكون المفاوض الافرنسي قوي الحجة والمنطق لا بل والمكر، أو أن تكون هنالك أسباب أخرى غامضة لعبت دوراً كبيراً في صوغ هذه المعاهدة واخضاع الدولة الى هذا الحد.

(١) يكتبه العرب عرّوج.

ذات يوم أرسلا إلى السلطان سليم الأوّل إحدى المراكب المأسورة إظهاراً لخضوعهم لسلطانه فقبلها منهما وأرسل لهما خلعاً سنية وعشر سفن ليستعينوا بها على غزو مراكب الإفرنج، فقويت شوكتهما وأشرأبت أعناقهما لاحتلال بعض سواحل الغرب باسم سلطان آل عثمان، فاستولى خير الدين على ثغر (شرشل)[1] باقليم الجزائر ثم عاد إلى تونس ومنها أرسل إلى السلطان سليم الذي كان إذ ذاك بمصر رسولاً يدعي (كرداوغلى) يؤكد لديه إخلاصه وولاءه للسدّة السلطانية العثمانية.
أما أوروج فبعد أن استولى على مدينة الجزائر نفسها وهزم الجيوش الإسبانية التي أرسلها شارلكان لمساعدة الجزائريين على محاربة أوروج.فتح أيضاً مدينة تلمسان، وقُتل بعدها بقليل في محاربة الاسبانيين لكن لم يتمكن هؤلاء من استخلاص تلمسان والجزائر بل حفظهما خير الدين وقتل أمير الجزائر وأرسل من قبله أحد أتباعه واسمه الحاج حسين إلى السلطان سليم (وقد كان أتم فتح مصر) ليخبره بفتح مدينة الجزائر[2] باسمه الشريف فقابله السلطان وعين خير الدين باشا بكلر بك على إقليم الجزائر، وبذا صار هذا الإقليم ولاية عثمانية يدعى فيه في خطبة الجمعة باسم السلطان سليم وتضرب النقود باسمه.

وبعد ذلك استمرّ خير الدين باشا في غزو مراكب الإفرنج والنزول على بعض شواطىء إيطاليا وفرنسا وإسبانيا وأخذ كل ما تصل إليه يده من أموال وأهالي وفتح الحصن الذي أقامه الإسبانيول في جزيرة صغيرة أمام مدينة الجزائر ثم أرسل إليه السلطان سليمان بعد تحالفه مع فرانسا أن يكف عن مراكب الفرنساويين وشواطئهم فحوّل كل قوّاده على شاطىء إسبانيا وانتقم من أهلها على ما ارتكبوه من الفظائع والمنكرات مع المسلمين بعد سقوط غرناطة[3] في أيديهم وساعد كثيراً

---

(١) على بعد نحو ١٠٠ كم الى الغرب من مدينة الجزائر.

(٢) راجع كتابي: (الجزائر العربية أرض الكفاح المجيد) للاطلاع على تاريخ الجزائر منذ العهد الفينيقي والى يوم استقلالها.

(٣) غرناطة وتسمى بالاسبانية Granada وفيها قصر الحمراء. وقد ظهرت فيها مملكة اسلامية في القرن الحادي عشر وكانت هي المملكة الاسلامية الوحيدة في اسبانيا بعد سقوط قرطبة بيد المسيحية سنة ١٢٣٦ وعاشت مملكة غرناطة حتى سنة ١٤٩٢ يوم استولت =

ممن بقي ببلاد الأندلس من المسلمين على الرجوع إلى بلاد الغرب والاستيطان بها فراراً من اضطهاد الاسبانيول وإجبارهم لهم على الخروج من دين الاسلام واعتناق الدين المسيحي مما لا يدخل في موضوع هذا الكتاب.

وفي أوائل سنة **١٥٣٣** استدعاه السلطان سليمان إلى الأستانة ليتفق معه على ما يلزم اتخاذه من الاحتياطات لصدّ هجمات الأميرال (اندري دوريا) الجنوي أجير شارلكان، فسافر ببعض المراكب ووصل القسطنطينية بعد سفر الصدر الأعظم إبراهيم باشا لمحاربة العجم بقليل، فقابله الملك وأحسن وفادته وأمره بالاستعداد وانشاء المراكب الكافية لفتح إقليم تونس فاشتغل خير الدين باشا طول الشتاء بإنشاء المراكب.

وفي أوائل صيف سنة **١٥٣٤** بعد ما سافر السلطان سليمان قاصداً مدينة تبريز كما مرَّ خرج خير الدين بمراكبه من بوغاز الدردنيل غير قاصد تونس مباشرة بل عرج في طريقه على جزيرة مالطة وبعض موانيء جنوب إيطاليا لغزو مراكبها وأهلها بدون احتلالها حتى لا يعلم قصده الاصلي وهو فتح تونس. ثم قصد مدينة تونس في أوائل سنة **١٥٣٥** وأعلن الأهالي أنه آت لعزل السلطان مولاي حسن آخر سلالة بني حفص[١]، وكان الأهالي ناقمين عليه لميله لشارلكان، وتنصيب أخيه حسن الرشيد مكانه وبذلك احتل مدينة تونس وثغرها المسمى حلق الوادي بدون كثير عناء باسم السلطان سليمان العثماني.

ولما وصل الامبراطور شارلكان خبر سقوط تونس اتحد مع رهبنة القديس حنا الاورشليمي التي نزلت بجزيرة مالطة بعد فتح جزيرة رودس على استرجاع

= عليها المسيحية. وتقع غرناطه في الجنوب الشرقي من شبه جزيرة اسبانيا.

(١) أولهم أبو محمد عبد الواحد بن أبي بكر بن الشيخ أبي حفص ولي امارة تونس في ١٠ شوال سنة ٦٠٣ ولما توفي سنة ٦١٨ خلفه ابنه زكريا يحيى. وفي سنة ٦٤٧ ملك بعده ابنه أبو عبدالله محمد ولقب بالمستنصر ودعي بأمير المؤمنين واستمرت هذه العائلة مالكة على اقليم تونس الى أن فتحها العثمانيون نهائياً في سنة **٩٨١** فتكون مدة حكمهم ٣٧٨ سنة. وأقول: راجع تاريخ تونس في كتابي: تونس العربية.

تونس وإعادة مولاي حسن إلى تخت ملكه، وجهز عمارة قوية قادها هو بنفسه ونزل مع أشراف إسبانيا من ثغر برشلونة[1] في ٢٩ مايو سنة ١٥٣٥ ووصل إلى حلق الوادي[2] في ١٦ يونيه وحاصرها هي ومدينة تونس مدّة شهر تقريباً وفتحها في ١٤ يوليو واستولى على ما بقلعتها وثغرها من المدافع والمراكب. وفي يوم ٢١ يوليو دخلت جيوش شارلكان المدينة وصرّح لهم بنهبها فقتلوا ونهبوا وفسقوا وارتكبوا كل أنواع المحرّمات وهدموا المساجد وحرقوا ومزقوا أغلب الكتب النفيسة وفي أول أغسطس دخلها شارلكان ومنع الجيش عن هذه الأعمال فاستتب الأمن وسادت السكينة. وفي ثمانية منه أمضيت معاهدة بين شارلكان ومولاي حسن الذي أعيد إلى ملكه تقضي عليه بإخلاء سبيل الإرقاء المسيحيين والإباحة لجميع المسيحيين بالاستيطان في إقليم تونس وإقامة شعائر دينهم بدون معارضة وأن يتنازل لشارلكان عن مدائن بونه[3] وبني زرت[4] وحلق الوادي وأن يدفع له مبلغ اثني عشر ألف دوكا مصاريف الحرب وأن يقدّم له سنوياً إثني عشر حصاناً وقدرها من المهارة العربية علامة امتنانه بشرط أنه لو خالف إحدى هذه الشروط يدفع أوّل مرة خمسين ألف دوكا وفي الثانية مائة ألف وفي الثالثة يسقط حقه في الملك. وفي ١٧ اغسطس سافر الامبراطور شارلكان تاركاً في حلق الوادي ألف جندي اسبانيولي وعشرة مراكب حربية أما خير الدين باشا فإنه لما رأى تحزب الأهالي وميلهم لسلطانهم المعزول وعدم وجود الجنود الكافية معه وبعده عن مركز السلطنة لإمداده في الوقت اللازم ارتحل بجنوده على مراكبه.

---

(١) برشلونه Barcelona وتقع في الشمال الشرقي لشبه جزيرة اسبانيا على شاطئ البحر الأبيض المتوسط.

(٢) حلق الوادي : هو ميناء تونس العاصمة.

(٣) هي بون Bône وتسمى بالعربية عُنَّابه وهي الآن في بلاد الجزائر، وهي ميناء مهم.

(٤) هي بنزرت وتسمى بالافرنسية Bizerte وتقع في شمال البلاد التونسية وهي ميناء حربي عظيم.

اتحاد فرنسا والدولة العلية على محاربة النمسا وبعض وقائع أخرى

ولنرجع إلى ذكر محالفة فرنسا مع الدولة العلية ونتائجها فنقول: إن اتفاقهما كان قاضياً بأن الدولة العلية تجعل وجهة حروبها بلاد نابولي[1] وجزيرة صقلية وإسبانيا عوضاً عن مهاجمة النمسا التي تتحد جميع إمارات وممالك ألمانيا للمدافعة عنها اذّ هي مع استقلالها جزء من التحالف الالماني، وأن جيوش فرنسا تدخل بلاد إيطاليا من جهة (اقليم بيمونتي) بشمال غرب إيطاليا حينما تدخلها الجيوش العثمانية من جهة مملكة نابولي.

لكن عدم دخول جمهورية البندقية في هذا التحالف وإظهارها العدوان لهم كان سبباً في عدم نجاح كل هذه التدبيرات، وساعد على ذلك هياج الرأي العام المسيحي ضد التحالف الفرنساوي العثماني وإحجام فرنسوا الأوّل أمام النفور العام خشية أن يرمى بالمروق عن دينه المسيحي باتحاده مع دولة إسلامية لمحاربة دولة تدين بدينه.

فأراد السلطان سليمان الانتقام من جمهورية البنادقة على عدم انحيازها لتحالفه، مع أنه راعى جوارها ولم يغز بلادها، فأرسل خير الدين باشا الذي ترقى إلى رتبة قبودان[2] باشا جميع الدوننمات العثمانية ومعه نحو ألف سفينة لمحاصرة جزيرة كورفو[3] فحاصرها في شهر سبتمبر سنة ١٥٣٧ وأتى السلطان بنفسه لمناظرة الحصار لكنه أمر برفعه عنها لشدّة دفاع أهلها وعدم ضياع وقته النفيس حول هذه الجزيرة وعاد هو إلى القسطنطينية فوصلها أول نوفمبر من السنة المذكورة. وأرسل خير الدين باشا لفتح ما بقي من جزائر الروم ففتح أغلبها وغـزا جزيرة كريد[4]، وفي عودته قابل دونانمة مؤلفة من مائة وسبعين سفينة تقريباً يقودها اندري روبا أمير ال شارلكان فحاربها وانتصر عليها في ٢٥ سبمتبر سنة ١٥٣٨.

---

(١) نابولي Napoli مدينة في جنوب غرب ايطاليا.

(٢) قبودان باشا: أي أمير البحر أو ما يسمى بـ (أميرال).

(٣) تقع على مستوى جنوب البانيا وشمال اليونان.

(٤) جزيرة شهيرة بالبحر الأبيض المتوسط ذات موقع حربي من الأهمية على جانب عظيم لوجوده عند مدخل أرخبيل اليونان. بحيث يكون المحتل لها كالقابض على بوغاز =

وفي مايو سنة ١٥٣٨ جمع السلطان سليمان ببلاد الارنؤود جيشاً عظيماً مؤلفاً من مائة ألف مقاتل لشنّ الغارة على بلاد ايطاليا وكان معه ولداه محمد وسليم وسفير فرانسا المسيو (دولا فوري) وفي الوقت نفسه نزل خير الدين باشا بميناء اوترانته بجنوب ايطاليا استعداداً لمهاجمتها من جهة الجنوب بينما يهاجمها السلطان سليمان من جهة الشرق وملك فرانسا من جهة الغرب لكن إحجام فرانسا عن التقدّم إطاعة للرأي العام كما ذكرنا كان السبب في عدم نجاح هذا المشروع الذي لو تم لكانت نتيجته دخول بلاد ايطاليا باسرها تحت ظل الدولة العلية. وانتهى الأمر بأن تهادن ملك فرانسا مع الامبراطور شارلكان وأمضيا مهادنة نيس سنة ١٥٣٨، أما من جهة البندقية فاستمرت الحرب بينها وبين الدولة العلية. سجالاً انتهت بالصلح في أواخر سنة ١٥٣٨ بتنازل البندقية عن ملفوازي ونابولي دي رومانيا من بلاد موره.

هذا أما من جهة بلاد المجر فابتدأت الحروب ثانية سنة ١٥٣٧ وانتهت بانهزام جيش ألماني مرسل من قبل شارلكان تحت رياسة أشهر قوّاده في ٢ دسمبر سنة ١٥٣٧، وفي سنة ١٥٣٨ عصى أمير البغدان بناء على تحريض فردينان ملك النمسا فقهر وولي مكانه أخوه اسطفن وعززت الحامية العثمانية منعاً لحصول مثل ذلك.

وفي هذه الأثناء اتفق فردينان وزابولي ملك المجر على اقتسام البلاد أولى من تدخل العثمانيين في شؤونهم كما سبق ووجود المجر تحت حمايتهم الأمر المشين لكافة الممالك المسيحية. وكانت هذه دسيسة من فردينان للايقاع بزابولي الذي قبل حماية العثمانيين له مدّة من الزمن فأرسل صورة هذا الاتفاق إلى الباب العالي ليعلمه بعدم ولاء زابولي له.

= الدردنيل. احتلها العرب مدة من الزمن ثم استرجعها الروم سنة ٩٦١ ميلادية وفي سنة ١٢٠٤ أخذها البنادقة لما فتح الصليبيون مدينة الاستانة. وفتحها العثمانيون ولم تزل تابعة لهم حتى الآن الا أنها لا تخلو دائماً من الاضطرابات بسبب الدسائس ولها بعض امتيازات وتبذل مملكة اليونان وسعها لضمها اليها الا أن بعض الدول ذوات الصالح في البحر المتوسط لا تسمح لها بذلك خوفاً من ازدياد نفوذ اليونان في هذا البحر، وأقول: هي الآن تابعة لليونان.

موت زابولي ملك المجر وسفر السلطان إلى بود لمحاربة النمساويين

ثم مات زابولي سنة ١٨٤٠ قبل أن تقتص الدولة العلية منه على خيانته تاركاً طفلاً صغيراً ولد قبل موته بخمسة عشر يوماً فاغارت على الفور جيوش النمسا على المجر منتهزين هذه الفرصة لنوال مآربهم، أي استخلاص بلاد المجر من حماية وتابعية الدولة العلية، وحاصروا أرملة زابولي وابنها في مدينة بود واحتلوا مدينة بيست[1] المقابلة لها على نهر الطونة وعدّة قلاع بالقرب منها وبمجرّد وصول هذا الخبر للدولة العلية قام السلطان بنفسه قاصداً بلاد المجر في شهر يوليو سنة ١٥٤١ ووصل في ٢٩ أغسطس إلى مدينة بود التي رفع النمساويون عنها الحصار بمجرّد سماعهم خبر قدوم السلطان وجيوشه. واشتدّ يأس الجنود المجرية المحصورة داخلها خشية من وقوعهم بين نارين. وفي اليوم التالي قدم إلى السلطان سليمان ولد زابولي وفي أثناء الاحتفال بقدومه احتل الانكشارية المدينة ثم دخلها السلطان باحتفال زائد وجعل بلاد المجر ولاية عثمانية وحول أكبر كنائسها إلى مسجد جامع وتعهد جلالة السلطان كتابة إلى أرملة زابولي بأنه لا يحتل بلاد ولدها إلا مدّة طفولته ويعيدها له متى بلغ رشده.

وعقب ذلك بقليل وصل إلى معسكر السلطان سليمان وفد من قبل ملك النمسا يحمل إليه كثيراً من الهدايا النفيسة منها ساعة تدل على الأيام والشهور وسير الكواكب، وعرض عليه هذا الوفد دفع مائة ألف فلورين سنوياً جزية عن جميع بلاد المجر لو تركها له السلطان أو أربعين ألفاً فقط عن الجزء المحتلة له جيوش النمسا، فأجابه السلطان أن لا يتخابر معهم بخصوص الصلح إلا من بعد أن يخلي فردينان القلاع المجرية التي بيده. ولذا لم يتم الصلح وبقي العدوان مستمرّاً. وبعد ذلك بأيام قلائل وصل إلى السلطان سفير فرنساوي يخبره باستئناف الحروب بين فرانسا وشارلكان وأنه يسعى في تجديد التحالف بين الدولة والباب العالي لمحاربة شارلكان، ومما يدل على ضعف سياسة فرانسوا الأوّل وعدم ثباته أنه

---

(١) مدينة شهيرة ببلاد المجر على نهر الطونة أمام مدينة بود كانت بمعزل عنها ثم صارتا مدينة واحدة بعد بناء الكوبري الجسر الموصل بينهما وأطلق عليها اسم (بودابست).

بعد أن أمضى مع شارلكان هدنة (نيس) ساعده أيضاً لدى الدولة العثمانية للحصول على هدنة بينها وبينه. وكتب في سنة ١٥٣٩ بذلك خطابا للسلطان سليمان فجاوبه السلطان لا يهادنه إلا إذا ردّ له (لملك فرانسا) جميع القلاع والحصون التي فتحها. ولما لم يقبل شارلكان ذلك فترت العلاقات بينهما وصارت الحرب قاب قوسين أو أدنى (سنة ١٥٤١) وأرسل المسيو (رنسون) إلى القسطنطينية ليتفق مع السلطان على الترتيبات الحربية اللازمة .

وفي أثناء مسير هذا السفير من إقليم ميلان قتله أحد أعوان حاكم هذا الاقليم التابع لشارلكان وبناء على أوامره طمعاً في العثور على أوراق معه للسلطان يوجد بها ما يمس الدين المسيحي فينشرها بين ملوك وأمراء أوروبا ليوغر صدورهم عليه ويتركوه بلا مساعدة فيفوز هو بالغلبة عليه لكن خاب مسعاه حيث لم يجد معه أوراقاً من هذا القبيل بل أهرق دم السفير هدراً .

سفر الدونانمة العثمانية إلى فرانسا وفتح مدينة نيس

ولما بلغ فرانسوا الأوّل خبر قتل سفيره أرسل بدله أحد ضباطه المسيو بولان إلى السلطان سليمان يطلب منه مساعدته على محاربة شارلكان بسفنه وقائدها خير الدين باشا، فتردّد السلطان أوّلاً لعدم ثبات ملك فرنسا وضعف عزيمته، وقبل أخيراً بناء على إلحاح السفير وتعضيد خير الدين باشا له لاسيما وقد وصل إليه خبر مهاجمة شارلكان بجيوشه لمدينة الجزائر وارتداده عنها خائباً في ٣١ أكتوبر سنة ١٥٤١ . وفي ربيع سنة ١٥٤٣ سافر السلطان بجيوشه إلى بلاد المجر لاستئناف المحاربات . وفي الوقت نفسه أقلع خير الدين باشا من مياه الأستانة بمراكبه ومعه السفير الفرنساوي بولان قاصداً مرسيليا إحدى موانيء فرانسا الجنوبية فوصلها بعد أن غزا في طريقه سواحل جزيرة صقلية وقوبل من الفرنساويين بكل تجلة وإكبار وانضمت سفنه إلى سفنهم ومنها أقلعوا إلى مدينة نيس فحاصروها من جهة البحر وفتحوها عنوة في ٢١ جمادى الأولى سنة ٩٥٠ (٢٢ أغسطس سنة ١٥٤٣) ، ولوقوع الشحناء بين العسكرين لم يتم احتلالها .

ثم أذن لخير الدين باشا ومراكبه بتمضية فصل الشتاء في ميناء طولون[1] بفرنسا وأعطى له ثمانمائة ألف ريال فرنساوي للصرف على جنوده.

وفي ربيع السنة التالية سنة ١٥٤٤ رفض فرانسوا الأوّل مساعدة العمارة العثمانية له لهياج جميع المسيحيين عليه ونسبتهم إياه للمروق عن دينه لاستعانته بالمسلمين وأبرم مع شارلكان في مارس سنة ١٥٤٤ معاهدة (كريسي) القاضية بالصلح فعاد خير الدين باشا إلى القسطنطينية وتوفي سنة ٩٥٣ هـ (سنة ١٥٤٦ م) ودفن بجهة بشكطاش[2] على شاطىء البوسفور في المحل المعدّ لمرسى الدونانمات العثمانية.

إبرام الصلح مع النمسا

أما من جهة النمسا فاستمرّ القتال بينها وبين العثمانيين مدة من الزمن كان النصر فيها غالباً في جانب الجنود المظفرة الإسلامية وأخيراً ابتدىء في المخابرات بين الطرفين للتوصل إلى عقد صلح مرضى لكل منهما. واستمرت المخابرات جارية إلى سنة ١٥٤٧ لعدم اتفاقهما. وسعى سفير فرنسا المسيو جبريل درامون في عدم الوصول إلى الوفاق طمعاً منه في تجديد علائق الإلفة بين دولته والدولة العلية. لكن وفاة فرانسوا الأوّل في شهر مارس سنة ١٥٤٧ ساعدت على إتمام الصلح، فتم الأمر بينهما في ١٩ يونيه (أول جمادي الأولى سنة ٩٥٤) على هدنة خمس سنوات بشرط أن يدفع فردينان ملك النمسا جزية سنوية مقدارها ثلاثون ألف دوكا نظير ما بقي تحت يده من بلاد المجر[3] وأن تبقى بـلاد المجر تابعة لابن

---

(١) مدينة شهيرة في جنوب فرانسا على البحر الأبيض المتوسط بها مرسى سفنها الحربية. وفي سنة ١٧٩٣ سلمها المحازبون للملوك الى الانكليز ثم استردها الفرنساويون في دسمبر من السنة المذكورة بهمة واستعداد نابليون بونابرت التي كانت هذه الواقعة فاتحة أعماله ومقدمة انتصاراته.

(٢) بشكطاش: حيّ من أحياء استانبول على مضيق البوسفور وفيه قصر طولمه باغچه ويلديز.

(٣) قد استمرت النمسا على دفع الجزية للدولة العلية الى سنة ١٦٩٩ فابطلت بمقتضى معاهدة كارلوفتس.

زابولي أميرها الأخير تحت وصاية أمه (ايزابلا) ورعاية الدولة العلية .

هذا ولنذكر ما حصل في هذه المدّة من الحروب في جهات آسيا فنقول: إنه حضر إلى دار الخلافة العظمى سنة ١٥٣٧ سفير من قبل صاحب دهلي بالهند يستنجده ضدّ همايون بن ظاهر الدين محمد الشهير ببابر صاحب دهلي، وآخر من قبل صاحب الجوزرات[١] ، بالهند أيضاً يطلب منه المساعدة ضدّ البرتغاليين الذين أغاروا على بلاده واحتلوا أهم ثغورها .

فتح عدن

فأرسل السلطان أوامره إلى من يدعى سليمان باشا والي مصر إذ ذاك بتجهيز عمارة بحرية بثغر السويس على البحر الأحمر لمحاربة البرتغاليين وفتح عدن[٢] وبلاد اليمن حتى لا تستولي عليها البرتغال أو أي دولة أوروبية أخرى فتصير حجر عثرة في سبيل تقدّم الدولة العلية في جهات الشرق وقاعدة لأعمال الدولة التي تحتلها ضدّ مصر، فصدع سليمان باشا بأمره وشيد عمارة بحرية هائلة مؤلفة من سبعين سفينة في أقرب وقت وسلحها بالمدافع الضخمة وسار بها في يونيو سنة ١٥٣٨ ومعه عشرون ألف جندي وفتح مدائن عدن ومسقط وحاصر جزيرة هرمز عند مدخل

(١) هي كَجرات وليس الجوزرات وهي المنطقة الكائنة على شاطئ بحر الهند شمال بمبي وعاصمتها أحمد آباد وهي اليوم تابعة لهندوستان . وصاحب دهلي آنذاك هو آخر سلاطين الأسرة اللودهية ، وهمايون هو ثاني أباطرة الأسرة المغولية التي حكمت شبه الجزيرة الهندية الباكستانية من سنة ١٥٢٦ الى سنة ١٨٥٨ . راجع تاريخ هذه البلاد في كتابي: (تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية) طبع مؤسسة الرسالة ـ بيروت .

(٢) بحيث (شبه) جزيرة بجنوب بلاد اليمن وبها مدينة مهمة بالنسبة لمركزها المتوسط بين مصر والهند ولقربها من بوغاز باب المندب ولذلك تنازعها الفاتحون وأخيراً فتحها العثمانيون كما رأيت ، ثم خرجت من تحت سلطتهم وتناوبتها أيدي كل من تغلب على اليمن من العرب وغيرهم . وفي سنة ١٨٣٩ احتلها الانكليز وأقاموا بها مستودعاً للفحم الحجري وزادت أهميتها بالنسبة لهم بعد فتح بوغاز السويس واتخاذ مراكبهم هذه الطريق لأنها أفضل الطرق الى هندهم التي هي لهم بمثابة الروح من الجسد .

يقول المؤلف (بحيث جزيرة) وقد تكرر هذا اللفظ ولعله يعني به شبه جزيرة .

العجم ثم قصد سواحل الجوزرات وفتح أغلب الحصون التي أقامها البرتغاليون هناك لكن أخفق أمام ثغر (ديو)[1] بعد أن حاصره مدة ثم قفل راجعاً بالغنائم . وفتح في أيامه باقي اقليم اليمن وجُعل ولاية عثمانية .

وفي سنة ١٥٤٧ قبل إتمام الصلح مع النمسا أتى إلى الباب العالي أخ لشاه العجم يدعى (القاصب مرزا) وطلب من السلطان انجاده ضدّ أخيه الذي اهتضم له حقوقاً فانتهز السلطان هذه الفرصة لتجديد الإغارة على بلاد العجم وانتظر ريثما يتم الصلح باوروبا ويهدأ باله من جهتها .

دخول العثمانيين مدينة تبريز ثالث دفعة

وفي أوائل سنة ١٥٤٨ سار بجيوشه قاصداً مدينة تبريز فدخلها ثالث دفعة وفتح في طريقه الجزء التابع للعجم من بلاد الكرد وقلعة (وان) الشهيرة وعاد يحف به النصر والظفر إلى القسطنطينية في دسمبر سنة ١٥٤٩ ، أما القاصب مرزا فأخذ أسيراً في إحدى الوقائع الحربية بعد أن سار مع جيش من الأكراد إلى قرب مدينة أصفهان .

ولم تدم السكينة في ربوع بلاد المجر والنمسا بدسيسة راهب يدعى مارتنوزي كانت قرّبته إليها الملكة (ايزابلا) بناء على وصية زوجها لها قبل موته ، فإنه سعى في التوفيق بين الملكة وفردينان ملك النمسا حتى إنه تحصل بقوة دهائه وسلطته الدينية على أن تنازلت الملكة إلى فردينان عن إقليم ترانسلفانيا ومدينة تمسفار[2] خلافاً لشروط الهدنة. وسير فردينان جيشاً نمساوياً لاحتلالهما. وفي أثناء هذه المخابرات كان الراهب يكاتب السلطان سليمان ويظهر له الاخلاص وصدق الولاء لكن لم تخف حقيقة الأمر على السلطان بل علم بهذا التنازل المخالف للعهود وأرسل على الفور جيوشه المظفرة للمحافظة على نفاذ شروط الهدنة وإرجاع النمساويين إلى حدودهم فأرسل جيشاً مؤلفاً من ثمانين ألف جندي إلى بلاد المجر في شهر سبتمبر سنة ١٥٥١ ولم يقابل هذا الجيش في طريقه مقاومة تذكر بل فتح بكل

---

(١) ثغر ديو Diu يقع في رأس شبه جزيرة كجرات الى الشمال الغربي من بمبي .
(٢) تمسفار : مر هذا الاسم مع شرحه وقد كتب هناك تمسوار .

سهولة القلاع والحصون المحتلة لها جيوش النمسا لإخلاء النمساويين لها عند اقتراب الجنود العثمانية إليها ودنوها منها . ولما رأى الراهب مارتينوزي أفول نجمه وعدم نجاحه في الحصول على مرغوبه أراد السعي لدى السلطان سليمان مظهراً له ميله لمساعدته في إخضاع اقليم ترنسلفانيا الذي قاوم الجيوش العثمانية مقاومة شديدة طمعاً في أن يعين هو والياً عليها فأحس فرديناند بخيانته ودس عليه من قتله في دسمبر سنة ١٥٥١.

وفي سنة ١٥٥٢ انتصر العثمانيون على النمساويين في عدة وقائع وفتح الوزير الثاني أحمد باشا مدينة (تمسفار) وحاصرت الجيوش بعد ذلك مدينة (ارلو) [1] ببلاد النمسا الحصينة مدة من الزمن ثم رفع عنها الحصار لمنعتها وعدم وجود الوقت الكافي لتشديد الحصار عليها وإجبارها على التسليم بمنع المؤونة عنها لاقتراب فصل الشتاء وشدّته في هذه الأقاليم .

وفي أثناء ذلك كان القبودان (طرغول) الذي خلف القبودان الشهير خير الدين باشا في غزو مراكب الإفرنج وشواطىء بلادهم قد حاز شهرة عظيمة في الحروب البحرية وخافت بأســه جميع دول الإفرنج المعادية للدولة العلية وحفظ اسم البحرية العثمانية من السقوط بموت رئيسها بل ومؤسسها الأكبر خير الدين باشا .

معاهدة سنة ١٥٥٣ بين الدولة العلية وفرنسا

وبعد موت السلطان فرانسوا الأوّل ملك فرنسا حذا ولده هنري الثاني حذوه ونسج على منواله في موالاة الدولة العلية والمحافظة على محبتها وتوثيق عرى

---

(١) مدينة صغيرة ببلاد المجر واقعة في الشمال الشرقي لمدينة بود على مسافة مائة كيلومتر وثمانين اشتهرت في التاريخ بصد هجمات العثمانيين والزامهم رفع الحصار عنها في سنة ١٥٥٢ لكن فتحها العثمانيون عنوة سنة ١٥٩٦ وبعد صلح سنة ١٦٠٦ صارت تتبع النمسا تارة وامارة ترنسلفانا تارة أخرى وتسمى بلغة المجر إيجر .

واقول : تسمى الآن ايكير Eger وقد زرتها ورأيت فيها مأذنة في جانب طريق وقد سرق الناس المسجد وتركوا المأذنة في الشارع شاهدة على سرقتهم ، وقد أحاطتها البلدية بقفص من الحديد ارتفاعه نحو مترين . وهي الآن من بلاد المجر .

الإلفة والاتحاد معها للاستعانة ببحريتها عند الحاجة، فأبقى المسيو جبريل درامون سفيراً له بدار السعادة وأمره بمرافقة السلطان في حملته الأخيرة على بلاد العجم فرافقه. وفي عودته زار بيت المقدس فقابله الرهبان والقسوس بكل احتفال لتأييد المعاهدات السابقة القاضية بجعل جميع الكاثوليك المستوطنين بأراضي الدولة العلية تحت حماية فرنسا. ثم عاد إلى فرنسا فوجد نيران الحرب قد اشتعلت ثانياً بينها وبين النمسا فعاد إلى القسطنطينية واتفق مع الباب العالي على أن تتحد الدونانمة التركية مع العمارة الفرنساوية لفتح جزيرة كورسيكا[1] مجازاة لأهالي جنوه المحتلين لها على مساعدتهم لشارلكان ولتكون مركزاً لأعمال الدونانمتين في غزو سواحل اسبانيا وإيطاليا، وأبرمت بذلك معاهدة بتاريخ ١٦ صفر سنة ٩٦٠ (أوّل فبراير سنة ١٥٥٣) وهذا نصها مترجمة عن مجموعة البارون دي تستا السابق ذكرها:

إن جلالة السلطان سليمان وهنري دي فالوا الثاني ملك الفرانك قد أبرما اتحاداً مشتملاً على العبارة الآتية بخصوص الحرب البحري (جعله الله حميد العاقبة) الذي سيشرعان فيه ضدّ الامبراطور شارلكان.

البند ١: بما أن جلالة السلطان سليمان سلطان الترك بإرساله عمارة بحرية في بحر التوسكان[2] ضدّ الامبراطور شارل الخامس قد أعان بذلك هنري دي فالوا مدّة سنتين بناء على طلبه المتكرر في باديء الأمر وبالخصوص بناء على ترجياته البالغة أقصى درجات الحض فقد اتفق بأن الملك هنري يدفع ثلاثمائة ألف قطعة

---

(١) احدى جزائر البحر الأبيض الكبيرة وأقر بها لفرانسا احتلها المسلمون مدة وصارت أخيراً تابعة لجمهورية جنوا. وفي سنة ١٧٦٨ تنازلت عنها هذه الجمهورية للويز الخامس عشر ملك فرنسا. وفي سنة ١٧٩٣ احتلها الانجليز ثم استردتها فرانسا سنة ١٨٠٦ ولم تزل تابعة لها حتى الآن وبها ولد نابليون الأول امبراطور فرانسا في سنة ١٧٦٩ أي بعد تنازل جنوا عنها لفرانسا بسنة واحدة.

(٢) كان اسم توسكان يطلق على المناطق الكائنة في وسط ايطاليا يوم كانت ايطاليا مقسمة الى امارات وقد أطلق تجوزاً على البحر الكائن ما بين كورسيكا والبر الايطالي اسم: بحر التوسكان بينما هو البحر الأبيض المتوسط.

من الذهب بصفة متأخر مرتب الدونانمة، وذلك حين ما تصير الملاحة مأمونة لنقل النقود بالعمارة، وأن السفن الحربية التابعة للملك هنري لا تتباعد عن العمارة المذكورة وتعتبر كأنها مرهونة نظير المبلغ المذكور حتى يدفع لأميرال عمارة السلطان سليمان .

البند ٢ : متى توفر هذا الشرط بوجه العدالة فإن جلالة سلطان الترك سليمان يقوم بتجهيز ستين مركباً حربياً ذات ثلاثة صفوف و٢٥ قرصاناً بحرياً ويرسلها للملك هنري في مدة أربعة شهور متوالية من ابتداء أوّل مايو القابل .

البند ٣ : أما في حالة ما إذا أراد هنري دي فالوا أن يستعمل العمارة المذكورة في أثناء هذه المدة للاستعانة بها على الجهات الغربية، أي الجهات الواقعة من ابتداء كروتون لغاية (جائت)[1]، فإنه يقوم بدفع مائة وخمسين ألف قطعة من الذهب إلى جلالة سلطان الترك سليمان بغاية من الضبط .

البند ٤ : كل سفينة تابعة للامبراطور أو للمتحالفين معه سواء أكانت معدة للنقل أو كانت من المراكب الخفيفة وسواء أكانت سفناً حربية صغيرة أو كبيرة فبمجرّد وقوعها أسيرة لدى العمارة العثمانية تصير من تلك اللحظة ملكاً للسلطان سليمان ملك الترك .

البند ٥ : المدن والقصبات والقرى والكفور التي تتغلب عليها هذه العمارة تكون مباحة غنيمة للترك وجميع سكانها راشدين أو قاصرين رجالاً كانوا أو نساء ولو أنهم معتنقون الديانة المسيحية ويكونون قد سلموا أنفسهم باختيارهم فإنه لا بد من تركهم أسراء وعبيداً للترك بمقتضى واجبات الاتفاق الصريحة بهذا الصدد التي قرّ عليها الأمر بين السلطان سليمان وبين فرانسوا أبي هنري من منذ سبع عشرة سنة، إلا أن امتلاك هذه المدن والقصبات والقرى والكفور والمؤن والذخائر وكذلك مدافع البرونز صغيرة كانت أو كبيرة مع جميع متعلقاتها من حيوانات وغيرها التي توجد فيها فإنها تترك للملك هنري بموجب هذه المعاهدة .

---

(١) جاءت من قبل جاييت والحقيقة هي گايت أو گايتا Gaeta .
وأما كروتون Croton فانها تقع في أسفل نعل الجزمة الايطالية .

البند ٦ : إذا أصدر الملك هنري أمره إلى عمارة جلالة السلطان سليمان بأن تحارب شارل ملك النمسا غير متجهة نحو الغرب بل نحو الشرق والجنوب، ويقصد بذلك مسيرها في الشواطيء من عند مصب نهر ترونتو[١] لغاية كروتون، بحيث أن هذه العمارة تقوم باعباء أوامر هنري بدون مقابل فقد اتفق على أن المواد الحربية ومؤنات المدن والقصبات التي تقع تحت يد الترك يتنازل عنها للملك هنري، ولكن المدن والقصبات والقرى والكفور فإنها تترك غنيمة للترك كما تقرّر ذلك بالبند السابق. وأما الوطنيون والمزارعون والقاطنون البالغون والقاصرون الرجال منهم والنساء فإنهم يسلمون للأسر بدون معارضة حتى ولو كانوا ممن يعتنقون الديانة المسيحية بل ولو كانوا ممن أسلم نفسه بمحض إرادته.

البند ٧ : يمكن لأميرال جلالة الملك سليمان أن يستولي ويأسر باسم مليكه الأفخم كل مكان تقدم عليه العمارة التركية المظفرة متى رأى ثمة من فائدة ، وذلك من ابتداء حدود نهر ترونتو لغاية أوترانت وكروتون ومن ثم لغاية صقلية ونابولي وعموماً جميع الأقاليم المملوكة للامبراطور شارل الخامس ملك النمسا سواء أكان ذلك المكان داخل الأراضي أو سواء أكان مدينة أو قصبة أو قرية أو كفراً أو ميناء أو خليجاً، وله الحق في الاستيلاء على أيّ سفينة يصادفها وله أن يغزو بل وأن ينهب ويأسر الرجال والنساء البالغين أو القاصرين حتى أنه يمكنه متى شاء أن يحافظ ويتملك جميع ما يغتنمه سواء أكان من بني الإنسان أو المدن أو البيوت الخلوية وأن يعدها ويستعملها لاحتياجاته ولو ضدّ رغبة الفرنك وبالرغم عن مضادتهم الشديدة في ذلك.

البند ٨ : إذا تحصل جلالة السلطان سليمان على تملك إحدى الأربع[٢] مدن

---

(١) نهر ترونتوس Truentus يصب في الجانب الشرقي من ايطاليا في البحر الادرياتيكي ويقع الى جنوب خط العرض ٤٣ .

(٢) لم يذكر اسماء المدن الأربعة ولكن يبدو انه يقصد بها ما جاء في البند السادس وهي : المدن والقصبات والقرى والكفور ، واقليم البوي هو اقليم ابوليا Apulia الواقع في الجزء الشرقي من جنوب ايطاليا .

حصنها في إقليم (البوي) بواسطة مساعي فردينان سنسيفرن برنس دي سالرنيتين بمقتضى تعهد هذا الأمير فجلالة السلطان سليمان يعيد إلى هنري مبلغ الثلاثمائة ألف قطعة من الذهب التي ضمن له كما تقدّم دفعها ، وذلك في حالة ما إذا كانت دفعت إليه .

البند ٩ : جلالة السلطان سليمان يسلم عدا عن ذلك الثلاثين سفينة حربية وبحارتها بدون أدنى فدية وكذا المدافع والمؤن وجميع المواد، ويستثنى من ذلك رجال بحريته الخصوصيون وعساكره كما وأنه يدفع في أقرب وقت لبرنس سالرن، الذي بذل نفسه وكل ما في وسعه للحصول عليها وكان نصيبه أن حرم من منصبه وطرد من وطنه وبيته،مبلغ الثلاثين ألف قطعة من الذهب التي صرفها بكل ارتياح وكرم .

فهذه البنود بالحالة التي هي مكتوبة بها أعلاه قد وضحت بحسب ما جرت به العادة بكلام مضبوط لا يقبل التأويل بواسطة أرامونت سفير هنري لدى جلالة السلطان سليمان الذي أضاف إليها قسماً صريحاً بحضور برنس سالرنيتين بصفة كونه نائباً أميناً ومن جهة أخرى فقد تصدّق عليها من رستم باشا بموجب السلطة الممنوحة له من لدن جلالة السلطان سليمان .

وقد أبرم جميع ذلك واتفق عليه بالقسطنطينية في أوّل فبراير سنة **١٥٥٣**.

فسارت مراكب الدولتين وفتحت جزيرة كورسيكا بعد شنّ الغارة على بلاد كلابريا [١] وجزيرة صقلية [٢] من أعمال إيطاليا . لكن لوقوع النفرة بين القائدين لم يستمر احتلالها بل افترقت العمارتان ورجع القبودان العثماني إلى الأستانة .

= وأما سالرن Salerna فانها تقع الى الجنوب من نابولي في الجزء الغربي من جنوب ايطاليا .

(١) بلاد كلابريا Calabria هي بلاد رأس الجزمة الايطالية .

(٢) هي أكبر جزائر البحر المتوسط وواقعة في طرف مملكة ايطاليا وعاصمتها مدينة بالرمه واحتلها العرب عدة قرون في أيام دولة بني الأغلب والفاطميين بتونس ثم استقلت وهي الآن تابعة لمملكة ايطاليا وبها ولد المؤرخ الشهير ديودور الصقلي وغيره من فحول الرجال .

وكانت هذه آخر دفعة حارب فيها العثمانيون والفرنساويون كتفاً لكتف لتغير الظروف والأحوال حتى أتت حرب القرم الأخيرة، التي حصلت في أواسط هذا القرن، وحاربت فيها فرنسا وانكلترة مع الدولة العلية دولة الروس لا دفاعاً عن الدولة العثمانية بل لإضعاف الروسيا حتى لا تتمكن من الاستيلاء على بوغاز البوسفور كما سيأتي مفصلاً.

ولنذكر هنا حادثة شنيعة وهي قتل السلطان لولده الأكبر مصطفى بناء على دسيسة إحدى زوجاته المسماة في كتب الإفرنج روكسلان، أما في كتب الترك فاسمها (خورّم)[1] أي الباسمة، ذلك حتى يتولى بعده ابنها سليم. ولمالها من الثقة بالصدر الأعظم رستم باشا إذ كان تعيينه بمساعيها لدى السلطان بعد موت إياس باشا وما زالت تساعده حتى زوجه السلطان ابنته منها فكاشفته بمرغوبها، وهو تمهيد الطريق لتولي ابنها سليم، فانتهز هذا الوزير فرصة انتشاب الحرب بين الدولة ومملكة العجم في سنة ١٥٥٣ ووجود مصطفى ضمن قوّاد الجيش، وكتب إلى أبيه بأن ولده يحرض الانكشارية على عزله وتنصيبه كما فعل السلطان سليم الأول مع أبيه السلطان بايزيد الثاني. فلما وصل هذا الخبر إلى السلطان وكانت والدة سليم قد تمكنت من تغيير أفكاره نحوه قام في الحال قاصداً بلاد العجم متظاهراً بأنه يريد أن يتولى قيادة الجيش. ولما وصل إلى المعسكر استدعى ولده المسكين إلى سرادقه في يوم ١٢ شوال سنة ٩٦٠ هـ (٢١ سبتمبر سنة ١٥٥٣) وبمجرد وصوله إلى الداخل خنقه بعض الحجاب المنوطين بتنفيذ مثل هذه الأوامر، فقتل رحمه الله شهيد دسائس زوجة والده وعدم تثبت أبيه مما نسب إليه. وكانت هذه الفعلة الشنعاء نقطة سوداء في تاريخ السلطان سليمان الذي اتسعت دائرة السلطنة في أيامه. ولولا دسيسة هذه المرأة الأجنبية التي ربما كانت مؤجرة لهذه الغاية لبقي اسمه لا تشوبه شائبة ثم نقلت جثة هذا الشهيد إلى مدينة بورصه ودفنت مع جثث أجداده. ولم تكتف هذه المرأة البربرية الطباع بقتل مصطفى سلطان بل أرسلت إلى مدينة بورصة

---

(١) اللفظ الصحيح هو خُرَّم ومعناه السعيد أو المسرور وليس الباسمة. وفي اقليم كردستان من ايران بلد باسم خُرَّمْ شهر أي البلد السعيد.

من قتل ابنه الرضيع وقال في ذلك بعض الشعراء .

يا دهر ويحك ما أبقيت لي جلداً وأنت والد سوء تأكل الولـدا

وكان رحمه الله محبوباً لدى الانكشارية لشجاعته ولدى العلماء والشعراء لاشتغاله بالأدب وميله إلى الشعر فرثاه كثير من الشعراء بقصائد رنانة ولم يخشوا سطوة أبيه .

أما الإنكشارية فثاروا وطلبوا من السلطان قتل الوزير رستم باشا المدبر لهذه المكيدة حباً في حفظ منصبه ، فعزله السلطان تسكيناً لخاطرهم وولى مكانه الوزير أحمد باشا ، لكن لم يهدأ بال زوجة السلطان حتى أغرت زوجها على قتل هذا الوزير وإرجاع رستم باشا مكافأة له على تنفيذ سيء أغراضها .

وبعد قتل هذا البريء توجهت الجيوش إلى بلاد العجم ولم يحصل في هذه المرة وقائع مهمة ، بل بعد أن غزت الجيوش العثمانية بلاد شيروان بدون فائدة تذكر مال الفريقان للصلح ، فتم بينهما في ٨ رجب سنة **٩٦٢** (**٢٩** مايو سنة **١٥٥٥**) على أن يباح للأعاجم الحج إلى بيت الله الحرام ويزاولوا مذهبهم بدون تعرض. وكان للسلطان سليمان ابن آخر اسمه (جهانكَير)[1] حزن حزناً شديداً على قتل أخيه مصطفى حتى توفي شهيد المحبة الأخوية بعد موت أخيه بقليل ، واختلف في موته أنه قتل نفسه أمام والده بعد أن بكَّته على قتل أخيه وقيل غير ذلك .

وبعد ذلك بقليل توفيت هذه المرأة التي سودت بدسائسها آخر سني حكم السلطان سليمان الذي اشتهر قبل ذلك بكل الكمالات .

ولم تكن هذه الحادثة خاتمة الفظائع بل أعقبها بقتل ابنه الثاني بايزيد وأولاده الخمسة ، وذلك أن مربي بايزيد المدعو (لا له مصطفى) عين ناظر خاصة سليم سلطان ، ولكون هذا الأمير كان يخشى مزاحمة أخيه بايزيد له في الملك بعد موت أبيهما كاشف لاله مصطفى بأنه يريد إيغار صدر أبيه على بايزيد ليقتله ويكون هو (سليم) الوارث الوحيد لملك آل عثمان ، فأخذ مصطفى يبحث عن الطريقة الموصلة

---

(١) جهان كَير معناها مالك العالم ، وكثير من الملوك تلقبوا بهذا اللقب وأشهرهم أحد أباطرة الهند الذي تولى العرش سنة ١٦٠٥ .

لهذه الغاية المشؤمة حتى هداه شيطان عقله وإبليس سريرته إلى أن يكتب لبايزيد يقول له إن سليماً منهمك في الشهوات ولا يليق أن يخلف والده ومع ذلك فوالده مصمم على استخلافه مع عدم أهليته للملك وعدم استعداده للخلافة فتبادلت بينهما المكاتبات بشأن ذلك وأخيراً كتب بايزيد إلى أخيه سليم خطاباً به بعض عبارات تمس كرامة والدهما، فأرسل سليم الخطاب لأبيه ولما اطلع السلطان سليمان على هذا الخطاب غضب غضباً شديداً وكتب لبايزيد يوبخه على ما أتاه ويأمره بالانتقال من قونيه التي كان معيناً والياً عليها إلى مدينة أماسيا فخشي بايزيد أن يكون قصد أبيه الغدر به وامتنع عن التوجه إلى أماسيا، وجمع جيشاً يبلغ عدده عشرين ألف نسمة وأظهر التمرد فأرسل إليه أبوه الوزير محمد باشا الملقب بصقللي[1] لمحاربته، فتقابل الجيشان بقرب قونيه واستمرّ القتال يومي ٣٠ و٣١ مايو سنة ١٥٦١ وأخيراً هزم بايزيد وتقهقر إلى أماسيا ومنها إلى بلاد العجم حيث التجأ هو وأولاده إلى الشاه طهماسب، فقابله وأظهر له الاخلاص والاستعداد لحمايته لكنه كاتب السلطان سليمان وابنه سليماً سرّاً على تسليم بايزيد وأولاده إليهما مع أنهم احتموا بحماه ولم يرع ذمتهم بل خانهم وسلمهم إلى رسل السلطان فقتلوهم جميعاً وهم بايزيد وأولاده الأربعة أورخان ومحمود وعبدالله وعثمان في مدينة قزوين[2] ببلاد العجم في ١٥ محرم سنة ٩٦٩ (٢٥ سبتمبر سنة ١٥٦١) ونقلت جثتهم إلى مدينة سيواس حيث واروها الثرى وكان لبايزيد ابن صغير في مدينة بورصه فخنق أيضاً ودفن في جانب والده وإخوته.

هذا أما من جهة المجر فلم تنقطع الحروب بينها وبين الدولة العلية، وكذلك المخابرات كانت غير منقطعة للوصول إلى الصلح ولا حاجة لنا في تفصيل الوقائع التي حصلت بين الجيشين لعدم وجود فائدة في ذلك سوى ملال المطالع، بل نكتفي

---

(١) صقللي معناها ذو اللحية.

(٢) قزوين ضبطها ياقوت بفتح أوله وسكون ثانيه وكسر الواو، وهي في وسط بلاد ايران الى الشمال وتقع تحت بحر الخزر وقد سمي هذا البحر ببحر قزوين أيضاً ومنه أخذ الاوربيون هذا الاسم وسموا البحر Caspian.

بالقول إنه في سنة ١٥٥٥ حصلت هدنة بين الطرفين لستة أشهر ومثلها في سنة ١٥٥٧. وفي شهر يونيه سنة ١٥٦٢ تم الصلح بينهما لمدة ثماني سنوات بشرط استمرار النمسا على دفع الجزية السنوية التي قررتها المعاهدات السابقة وساعد على ذلك حب سميز علي باشا، الذي خلف رستم باشا بعد موته في منصب الصدارة العظمى، للسلم وعدم ميله لسفك الدماء.

ومع ذلك فلم تنقطع المناوشات بالمرة على حدود النمسا والمجر بل استمرت بنوع غير رسمي. وبعد هذا الصلح الأوهى من بيت العنكبوت لما بين العنصرين المتجاورين من عوامل البغضاء، تمكن السلطان من توجيه اهتمامه إلى تعزيز سفنه الحربية لحماية الجزائر وطرابلس الغرب التي افتتحها طرغول في غضون سنة ١٥٥١ (سنة ٩٥٨) لبعدها عن مقر الخلافة العظمى وطموح أنظار اسبانيا إلى إرجاعها إذ أن محتلها يكون دائماً مهدّداً لسواحل اسبانيا ونابولي التي كانت تابعة لاسبانيا في هذا الحين.

حصار جزيرة مالطه

فعززت الدونانمات العثمانية، وفي أوائل سنة ١٥٦٥ أرسلت عمارة بحرية مؤلفة من نحو مائتي سفينة لفتح جزيرة مالطه مقر رهبنة القديس حنا الأورشليمي، لأهمية هذه الجزيرة الواقعة بين اقليم تونس وجنوب إيطاليا وضرورة احتلالها لكل دولة تريد أن تكون لها اليد الطولى على البحر الأبيض المتوسط، فابتدىء حصارها في شهر مايو من السنة المذكورة واستمر نحو الأربعة شهور بدون أن يكون موت القبودان الشهير طرغول المعروف عند الإفرنج باسم دراجوت[١] في أثناء الحصار سبباً في عدم استمراره. ولما قرب فصل الشتاء الذي تكثر فيه الزوابع البحرية رفع الحصار عنها في ١١ سبتمبر سنة ١٥٦٥ وعادت السفن بجيوشها إلى دار السعادة.

---

(١) هو الربان الشهير درغوث وقبره في مسجد في بلدة تاجورا من أعمال ليبيا. ويوجد حتى اليوم أسرة من أحفاده تسكن لبنان وتحتفظ بهذا الاسم لقباً لها.

فتح مدينة سكدوار

وفي أثناء ذلك قامت الحرب على قدم ببلاد المجر لأن مكسمليان[1]، الذي خلف والده فردينان ملك النمسا بعد موته سنة ١٥٦٤، احتل مدينة توكاي[2] من أعمال المجر مقابلة احتلال اسطفن زابولي ملك المجر لإحدى مدائنه ولأن الصدر الأعظم الطويل محمد باشا الذي تولى منصب الصدارة عقب موت سميز علي باشا كان محباً للحرب لأنه من صقالبة البشناق الميالين للقتال والجلاد.

ومع أن السلطان كان يتألم من داء النقرس تقلد بنفسه رياسة الجيش في تاسع شوّال سنة ٩٧٣ (٢٩ ابريل سنة ١٥٦٦ م) وسار لصدّ هجمات النمسا عن بلاد المجر التابعة له سيادة. وعندما وصل إليها قابله ملكها الشاب اسطفن فأحسن إليه وأكرم مثواه ووعده أنه لن يبرح حتى يعيد له ما اغتيل من بلاده ثم قام بصحبته قاصداً قلعة (ارلو) الشهيرة، التي عجز عن فتحها قبل ذاك التاريخ بأربع عشرة سنة كما سبق ذكره، لكن بلغه في أثناء الطريق أن أمير سكدوار[3] تغلب على فرقة من جيوشه فأراد أن يغزو بلاده قبل محاصرة قلعة (ارلو) فسار إلى مدينة سكدوار وابتدأ في حصارها وفي أقل من أسبوعين احتل معاقلها الأمامية. وبعد ذلك أخلى المحصورون المدينة خفية واحتموا بقلعتها مصرين على الدفاع عنها لآخر رمق.

---

(١) هو مكسمليان الثاني ابن فردينان الأول، ولد سنة ١٥٢٧ واخلف والده سنة ١٥٦٨ وتوفي سنة ١٥٧٦. ولم يحصل في أيامه شيء يذكر سوى محارباته مع الدولة العلية المفصلة في هذا الكتاب.

(٢) مدينة صغيرة ببلاد المجر شهيرة بما يعصر فيها من النبيذ الذي يصدر منها الى جميع جهات الدنيا.

وأقول: تقع توكاي Tokaj على نهر تيتسا Tizsa الى الشمال الشرقي في بلاد المجر.

(٣) مدينة ببلاد المجر تسمي (زيجت) وذكرت في تاريخ القرماني باسم سكدوار، أقول إنها مدينة تسيگيد Szeged الكائنة في جنوب المجر على الحدود اليوگوسلافية.

موت السلطان سليمان

وفي أوائل شهر سبتمبر اشتد مرض السلطان وتوفي في ٢٠ صفر سنة ٩٧٤ (٥ سبتمبر سنة ١٥٦٦) عن أربع وسبعين سنة قمرية أي بعد حصار المدينة بنحو خمسة شهور . وكانت مدة ملكه ثمانية واربعين سنة[1] قضاها في توسيع نطاق الدولة وإعلاء شأنها حتى بلغت في أيامه أعلى درجات الكمال ، وأخفى الوزير خبر موته خوفاً من وقوع الفشل في المعسكر وأرسل لولده سليم بمدينة كوتاهية يخبره بذلك ويطلب منه الحضور على جناح السرعة إلى الأستانة منعاً للقلاقل. وفي يوم ٨ سبتمبر هجم العثمانيون على القلعة واحتلوها عنوة وفي انتهاء القتال حصلت فرقعة عظيمة انفجرت بسببها أرض القلعة وانهدم بناؤها على من بها من طرفي المتحاربين، وذلك أن المحصورين لما رأوا أن لا مناص لهم من الانهزام أو الموت دبروا هذه المكيدة بأعمال عدّة ألغام أشعلوها بعد احتلال العثمانيين إياها حتى يموتوا ويهلك كافة من دخلها من جنود العثمانيين. وأعلن الوزير هذا الانتصار لكافة الجهات باسم الملك حرصاً على عدم إذاعة موته الذي لم يذعه إلا بعد أن أتت إليه أخبار أكيدة من الأستانة بوصول ولده سليم إليها واستلامه مهام الأعمال بها .

واشتهر المرحوم السلطان سليمان بالقانوني لما وضعه من النظامات الداخلية في كافة فروع الحكومة، فأدخل بعض تغييرات في نظام العلماء والمدرّسين الذي وضعه السلطان محمد الفاتح وجعل أكبر الوظائف العلمية وظيفة المفتي، وقسم جيش الانكشارية إلى ثلاث فرق بحسب سني خدمتهم وجعل مرتب كل نفر من الفرقة الأولى من ثلاثة غروش إلى سبعة غروش يومياً والثانية من ثمانية غروش إلى تسعة غروش يومياً للنفر الواحد وفي الثالثة المؤلفة ممن أصيبوا بعاهات دائمية جعل مرتب النفر منهم ثلاثين غرشاً إلى مائة وعشرين غرشاً شهرياً. وكان عدد الجيش عند وفاته ثلاثمائة ألف منها خمسون ألفاً من الجيوش المنتظمة والباقية غير منتظمة ، وعدد المدافع ثلاثمائة ، والسفن الحربية ثلاثمائة أيضاً .

---

(١) مدة ملكه أقل من ٤٨ سنة حتى ولو حسبت بالسنين الهجرية ، بل هي ٤٦ سنة .

أسباب الانحطاط

وتقدّمت الفتوحات في أيامه تقدّماً عظيماً لم تصل إليه بعده، وبلغت الدولة أوج سعادتها وأخذت بعده في الوقوف تارة والتقهقر أخرى، حتى وصلت إلى الحالة التي عليها الآن لجملة أسباب، منها زيادة الثروة بسبب الفتوحات العديدة والغنائم الكثيرة، ولا يخفى أن الثروة تورث غالباً المفاخرة في المصرف والتغالي في الزهو والترف وكل أمة سادت فيها هذه الخصال لا بدّ لها من التأخر، ومنها أن الانكشارية كانوا لا يخرجون إلى الحرب إلا إذا كان السلطان معهم ولذا كانت أهم الحروب والغزوات تحت أمرة السلطان وقيادته لأنه إن لم يخرج بنفسه لما حاربت الانكشارية التي عليها المدار الأوّل في الحروب، فغير السلطان سليمان هذه السنة الحميدة وأجاز للإنكشارية القتال تحت أمرة قائدهم الأكبر ولو لم يكن السلطان موجوداً، فكان هذا التغيير سبباً في تقاعس أغلب من خلفه من السلاطين عن الخروج من قصورهم الباذخة وتفضيلهم البقاء بين غلمانهم وجواريهم المختلفات الأجناس على الخروج للقتال وتكبد مشاقه، ومنها أن كافة أمور الدولة المهمة كانت تنظر في ديوان الوزراء تحت رئاسة السلطان فأبطل السلطان سليمان هذه العادة وصار الديوان ينعقد تحت رئاسة أكبر الوزراء وهو الصدر الأعظم والسلطان لاه عن ذلك معرض عن دسائس الوزراء ومن يستعينون بهم من جواريه وأزواجه، وترتب على ذلك، أن صارت الأمور بيد الوزراء المغايرين للجنس العثماني أصلاً ونسباً، إذ أن أغلبهم ممن أسلم أو تظاهر بالإسلام من النصارى أو من غلمان وخدم السلاطين، ونتيجة ذلك واضحة كما ظهر للقارىء عند مطالعة أسباب قتل مصطفى ابن السلطان سليمان بناء على دسائس زوجته والوزير رستم باشا، ومنها الإباحة للإنكشارية بالتزوّج والإقامة خارج ثكناتهم مع إعطائهم بعض امتيازات وقبول الأخلاط ضمن زمرتهم مما جعلهم من أكبر موجبات تأخر الدولة بعد أن كانت من أعظم عوامل تقدمها، إلى غير ذلك من الأسباب التي سنوردها تباعاً بحسب مقتضيات الأحوال.



١١- السلطان الغازي سليم خان الثاني

ولد السلطان سليم الثاني في ٦ رجب سنة ٩٣٠ هجرية (١٠ مايو سنة ١٥٣٣م)، وهو ابن روكسلان الروسية سابقة الذكر،وتولى الملك بعد موت أبيه ووصل إلى القسطنطينية في ٩ ربيع أول سنة ٩٧٤ (٢٤ دسمبر سنة ١٥٦٦م)، وبعد أن مكث بها يومين سار على عجل إلى مدينة سكدوار للاحتفال بإرجاع جثة والده المرحوم إلى القسطنطينية فقابله خارج المدينة سفراء فرنسا والبندقية القادمين لتهنئته بالملك. ولما وصل مدينة صوفيا في ٦ اكتوبر أرسل الرسل إلى كافة الممالك الخارجية والولايات الداخلية يخبرهم بموت أبيه وتوليته على عرش آل عثمان ومنها قصد مدينة بلغراد ومكث فيها حتى أتى الوزير محمد باشا صقللي بجثة والده المرحوم. وذلك أن الوزير محمد باشا لم يعلن بوفاة السلطان سليمان إلا في أثناء عودته من مدينة سكدوار إلى بلغراد، بل أوهم الجند أن السلطان مريض ولا يمكن لأحد مقابلته ولما أعلن موته إلى الجنود بعد موته بنحو خمسين يوماً لبست الجيوش عليه الحداد وساروا إلى بلغراد حيث كان سليم الثاني في انتظارهم،فطلبت الجنود منه أن يوزع عليهم العطايا المعتادة، فأبى ثم أذعن لطلباتهم لإظهارهم العصيان والتمرد وعدم إطاعتهم أوامر ضباطهم وامتهانهم لهم بحضور السلطان.

ولم يكن السلطان متصفاً بما يؤهله للقيام بحفظ فتوحات أبيه فضلاً عن إضافة شيء إليها،ولولا وجود الوزير الطويل محمد باشا صقللي المدرب على الأعمال الحربية السياسية للحق الدولة الفشل، لكن حسن سياسة هذا الوزير وعظم اسم الدولة ومهابتها في قلوب أعدائها حفظتها من السقوط مرة واحدة،فتم الصلح بينها وبين النمسا بمعاهدة تاريخها ١٧ فبراير سنة ١٥٦٨ من شروطها حفظ النمسا

أملاكها في بلاد المجر ودفعها الجزية السنوية المقررة بالعهود السابقة واعترافها بتبعية أمراء ترانسلفانيا والفلاخ والبغدان إلى الدولة العلية، وتجدّدت أيضاً الهدنة مع ملك بولونيا باعتراف الباب العالي بالتحالف الذي حصل ما بين ملك بولونيا وأمير البغدان، وكذلك جددت مع شارل التاسع[1] ملك فرنسا في سنة ١٥٦٩ الاتفاقيات التي تمت بين الدولتين في عصر السلطان سليمان. وأيد السلطان سليم الامتيازات القنصلية وزاد عليها امتيازات أخرى أهمها، معافاة كل فرنساوي من دفع الخراج الشخصي وأن يكون للقناصل الحق في البحث عمن يكون عند العثمانيين من الفرنساويين في حالة الرق وإطلاق سراحهم والبحث عمن أخذهم بصفة رقيق لمجازاته، وان يردّ السلطان كافة الأشياء التي تأخذها قراصنة البحر من المراكب الفرنساوية ومعاقبة الآخذ لها وأن تكون المراكب العثمانية ملزمة بمساعدة ما يرتطم من السفن الفرنساوية على شواطيء الدولة وبحفظ ما بها من الرجال والمتاع وأن يكون لفرنسا كل الامتيازات الممنوحة لجمهورية البنادقة.

ولزيادة توثيق عرى الاتحاد بين الدولة وفرنسا وزيادة نفوذ اتحادهما اتفقت الدولتان على ترشيح (هنري دي فالوا) أخي ملك فرنسا لعرش بولونيا ليكون لهم ظهيراً ضدّ النمسا من جهة والروسيا من أخرى. وقد تم ذلك فعلاً وصارت بولونيا تحت حماية الدولة العلية حماية فعلية وإن لم تكن اسمية، وبذلك صارت فرنسا ملكة التجارة في البحر الأبيض المتوسط وجميع البلاد التابعة للدولة وأرسلت

---

(١) هو ثاني أولاد هنري الثاني وكاترين دي مديسي، ولد سنة ١٥٥٠ وتولى سنة ١٥٦٠ بعد موت أخيه فرانسوا الثاني ولعدم بلوغه سن الرشد عينت والدته وصية عليه. وفي أيامه استمرت الحروب الداخلية بين الكاثوليك والبروتستانت الى أن تم بينهما الصلح سنة ١٥٧٣ واتفق الفريقان على أن يزوج الملك أخته للملك (نافار) الذي صار فيما بعد ملكاً لفرنسا باسم هنري الرابع أحد زعماء البروتستانت لكن لم ترتح والدته كاترينه لهذا الزواج بل دبرت مذبحة سان برتلمي وأثرت على فكر ولدها فأمر بقتل جميع البروتستانت في كافة أنحاء المملكة وفي مدينة باريس أثناء الاحتفال بزواج أخته ونفذ هذا الأمر الوخيم في مساء ٢٣ أغسطس سنة ١٥٧٢ وتولى هذا الملك بعد ذلك بسنتين أي سنة ١٥٧٤.

تحت ظل هذه المعاهدات عدّة إرساليات دينية كاثوليكية إلى كافة بلاد الدولة الموجودة بها مسيحيون خصوصاً في بلاد الشام لتعليم أولادهم وتربيتهم على محبة فرنسا. وكانت هذه الامتيازات الموجبة لضعف الدولة بسبب تدخل القناصل في الإجراءآت الداخلية بدعوى رفع المظالم عن المسيحيين واتخاذها لها سبيلاً لامتداد نفوذها بين رعايا الدولة المسيحيين. وأهم نتائج هذا التدخل وأضرّه مآ لا وأوخمه عاقبة استعمال هذه الارساليات الدينية في حفظ جنسية ولغة كل شعب مسيحي حتى إذا ضعفت الدولة أمكن هذه الشعوب الاستقلال بمساعدة الدول المسيحية أو الانضمام إلى إحدى هاته الدول، كما شوهد ذلك في هذا القرن الأخير مما سيأتي مفصلاً بالشرح الكافي والبيان الوافي.

ومن أعمال الوزير محمد باشا صقللي أن أرسل جيشاً عظيماً إلى بلاد اليمن في سنة ٩٧٦ (سنة ١٥٦٩ م) تحت قيادة عثمان باشا الذي عين عاملاً عليها لقمع ثورة أهاليها الذين عصوا الدولة اتباعاً لأمر سلطانهم الشريف مطهر بن شرف الدين يحيى فانتصر عثمان باشا عليهم بمساعدة سنان باشا والي مصر ودخلت الجيوش المظفرة بمدينة صنعاء بعد أن فتحت جميع القلاع.

فتح جزيرة قبرص

وفي أوائل السنة التالية اعترف الشريف مطهر بسيادة الباب العالي على بلاده. ومن أعماله أيضاً فتح جزيرة قبرص[1] التي كانت تابعة للبندقية، فأرسلت إليها المراكب الحربية في سنة ٩٧٨ (سنة ١٥٧٠) تحت أمرة بيالي باشا تحمل مائة ألف جندي يقودها لاله مصطفى باشا، الذي كانت له اليد الطولى في عصيان وقتل بايزيد

(١) قبرص جزيرة صغيرة مهمة لمركزها الجغرافي بالقرب من سواحل الشام ومصر واحتلالها ضروري لمن يريد بقاء هاتين الولايتين في حوزته، ومع ضرورتها للدولة العلية سلمتها لانكلترة بمقتضى معاهدة بتاريخ ٤ يونيه سنة ١٨٧٨ حينما كان الروس محتلين ضواحي الأستانة وتعهدت بالخروج منها لو خرجت الروسيا من مدائن قارص وباطوم واردهان التي فتحتها أثناء الحرب الروسية التركية الأخيرة وامتلكتها بمقتضى معاهدة برلين.

أخي السلطان سليم، فرست السفن أمام مدينة ليمازون[١] (لفقوسه كذا ذكرها القرماني) في أوّل أغسطس وفتحت في ٨ ربيع الآخر سنة ٩٧٨ (٩ سبتمبر سنة ١٥٧٠) ثم وضع الحصار أمام مدينة فاجوست[٢] (ماغوسه كذا ذكرها القرماني). ولاقتراب فصل الشتاء أمهل فتحها إلى أوائل الربيع. وابتدأت أعمال الحصار ثانياً في ابريل سنة ١٥٧١ وفتحت في ١٠ ربيع الأوّل سنة ٩٧٩ (٢ أغسطس من السنة المذكورة) وبذلك تم فتح جزيرة قبرص وصارت من ذلك العهد تابعة للدولة العثمانية إلى أن احتلها الانكليز بكيفية غريبة سنة ١٨٧٨ كما ترى في أواخر هذا الكتاب.

واقعة ليبانت البحرية

وفي هذه الأثناء غزت المراكب العثمانية جزيرة كريد وظنته[٣] وغيرها بدون أن تفتحها واحتلت مدائن دلسنيو وانتيباري[٤] على البحر الادرياتيكي.

---

(١) هي ميناء ليماسول Limasol

(٢) ماغوشه Magusa ويسمونها اليوم Famagusta .

(٣) احدى جزائر الروم الكائنة غرب اليونان ولا تبعد عن ساحل موره الا بعشرين كيلومتراً وهي جيدة الهواء تنتج كافة أنواع الفواكه ويصنع بها الزيت ويبلغ عدد سكانها خمسين ألف نسمة وتكثر بها الزلازل الشديدة.

ان عبارة المؤلف غامضة جداً اذ يفهم منها أن كريد اسمها (كريد وظنته) لأنه يتكلم عن اللفظين بالمفرد ولكن يبدو من الشرح أن كريد هي غير وظنته لأن كريد تقع الى الجنوب الشرقي من بلاد اليونان وأما الذي يقع الى الجهة الغربية من شبه جزيرة مورا هي جزيرة (ظنته) التي تسمى Zante أو Zakinthos التي مر ذكرها من قبل وهي التي تنطبق عليها الصفات التي ذكرها في الحاشية، وكان واجب المؤلف لكي يستقيم المعنى أن يقول : جزيرتي كريد وظنته وغيرهما من غير أن تفتحهما ....

(٤) هما بلدتان باقليم الجبل الأسود ثانيتهما على البحر الأدرياتيكي وأضيفتا الى امارة الجبل بمقتضى معاهدة برلين الرقيمة ١٣ يوليو سنة ١٨٧٨ .

وانتيفاري Antivari هي الميناء الكائنة بالقرب من الحدود الألبانية ودلسينو Dulcigno جنوب انتيفاري.

ولما رأت البندقية تغلب العثمانيين عليها وفتح كثير من بلادها استعانت باسبانيا والبابا وتم بينهم الاتفاق على محاربة الدولة بحراً خوفاً من امتداد سلطتها على بلاد إيطاليا فجمعوا مراكبهم وجعلوا دون جوان[1]، ابن شارلكان سفاحاً من إحدى خليلاته، أميراً عليها. فسارت سفن المسيحيين إلى شواطىء الدولة وكانت تلك الدونانمة المختلطة مؤلفة من ٧٠ سفينة اسبانيولية و ١٤٠ من سفن البنادقة و١٢ للبابا و٩ من سفن رهبنة مالطه.

وقابلت هذه الدونانمة العمارة العثمانية مؤلفة من ٣٠٠ سفينة في ١٧ جمادى الأولى سنة ٩٧٩ (٧ اكتوبر سنة ١٥٧١) بالقرب من ليبنته واشتبك بينهم القتال مدّة ثلاث ساعات متوالية انتهى الأمر بعدها بانتصار الدونانمة المسيحية، فأخذت ١٣٠ سفينة عثمانية وأحرقت وأغرقت ٩٤ وغنمت ٣٠٠ مدفعاً و٣٠ ألف أسير وهذه أوّل واقعة حصلت بين الدولة من جهة وأكثر من دولتين مسيحيتين من جهة أخرى. واشتراك البابا فيها يدل على أن المحرّك لهذه التألبات ضدّ الدولة الإسلامية الوحيدة هو الدين كما أيدته الحوادث والحروب فيما بعد لا السياسة كما يدّعون.

وكان لهذا الفوز رنة فرح في قلوب المسيحيين أجمع حتى أن البابا خطب في كنيسة ماري[2] بطرس برومه وشكر دون جوان على انتصاره على السفن الإسلامية،

(١) ولد هذا الأمير من سفاح شارلكان بمدينة راتسبون سنة ١٥٤٥ وبعد موت أبيه أراد فليب الثاني ادخاله ضمن احدى الرهبنات ولما لم يقبل عينه قائداً في جيشه وفي سنة ١٥٧٠ كلفه باذلال من بقي من المسلمين باقليم غرناطة فأذاقهم أنواع الذل والعذاب حتى هاجروا الى أفريقيا ولم يبق منهم أحد وفي سنة ١٥٧٦ كلفه بمحاربة أهالي الفلمنك فقهرهم في سنة ١٥٧٨ وتوفي بعد ذلك ببضع أشهر.

(٢) لعله يريد أن يقول مار بطرس أي القديس بطرس اذ لا يوجد كنيسة لا في روما ولا في غيرها باسم ماري بطرس. وكنيسة القديس بطرس هذه هي كنيسة الفاتيكان وقد بناها الملك قسطنطين سنة ٣٢٦ ثم أعيد بناؤها ابتداء من سنة ١٥٠٦ بموجب مخططات وضعها فنانون عظام امثال روسيلينو Roselino ورفائيل Raphael وميشيل أنج Michel Ange وكارلو مادرنو Carlo Maderno وله برنن Le Bernin وارتفاع قبة هذه الكنيسة ١٣٢ متراً.

وذلك مما لا يجعل عند المطالع أقل ريبة أو شك في أن المسألة الشرقية مسألة دينية لا سياسية كما ادّعاه ويدعيه الأوروبيون ويغترّ به السذج الغير المطلعين.

ولما وصل خبر هذه الحادثة إلى الاستانة هاج المسلمون على المسيحيين وهموا بقتل المرسلين الكاتوليك لولا تدارك الوزير محمد باشا صقللي الأمر بأن حجز هؤلاء المرسلين تحت الحفظ حتى تعود السكينة إلى ربوعها وقد أخرجهم بناء على الحاح سفير فرنسا. ولم تقعد هذه الحادثة المشؤمة همة هذا الوزير بل انتهز فرصة الشتاء وعدم إمكان استمرار الحرب لتشييد دونانمة أخرى وبذل النفس والنفيس في تجهيزها وتسليحها حتى إذا أقبل صيف سنة ١٥٧٢ كان قد تم استعداد ٢٥٠ سفينة جديدة. وفي هذه السنة لم تحصل وقائع بحرية مهمة لوقوع الشقاق بين القبودان البندقي والقبودان الاسبانيولي حتى أن جمهورية البندقية سعت في التقرب إلى الدولة العلية فعرضت عليها الصلح واستمرت بينهم المخابرات مدّة. وفي ٣ ذي القعدة سنة ٩٨٠ (٧ مارس سنة ١٥٧٣) تم الصلح على أن تتنازل البندقية للدولة عن جزيرة قبرص وأن تدفع لها غرامة حربية قدرها ٣٠٠ ألف دوكا.

أما من جهة اسبانيا فقد قصد دون جوان مدينة تونس في أواخر سنة ١٥٧٢ واحتلها بدون مقاومة لارتحال من كان بها من العثمانيين عند قدوم السفن الإسبانيولية وتحققهم من أن الدفاع لا يجدي نفعاً لقلة عددهم بالنسبة للاسبانيول فاحتلها دون جوان وأعاد إليها سلطانها مولاي حسن الذي التجأ إليهم عند احتلال العثمانيين لبلاده لكن لم يلبث إلا نحو ٨ أشهر لاسترجاعها ثانية إلى أملاك الدولة بمعرفة سنان باشا في أغسطس سنة ١٥٧٥. وفي جهة بلاد البغدان انتصر العثمانيون بعد موقعة هائلة أهرقت فيها الدماء كالسيول المنهمرة في ٩ يونيو سنة ١٥٧٤ على الأمير (ايوونيا) الذي تمرّد على الدولة طلباً للاستقلال وصلب جزاء عصيانه وعبرة لغيره.

وفي ٢٧ شعبان سنة ٩٨٢ (١٢ دسمبر سنة ١٥٧٤) توفي السلطان سليم الثاني وعمره اثنين وخمسون سنة قمرية ومدة حكمه ثماني سنين و٥ أشهر، وتوفي عن ستة أولاد وهم: مراد ومحمد وسليمان ومصطفى وجهانكير وعبد الله وثلاث بنات تولى بعده ابنه السلطان مراد الثالث.

١٢-



السلطان الغازي
مراد خان الثالث

وضع الحماية على بولونيا

ولد هذا السلطان بالقسطنطينية في ٥ جمادى الأولى سنة ٩٥٣ هـ (٤ يوليه سنة ١٥٤٦) وكانت فاتحة أعماله أن أصدر أمراً بعدم شرب الخمر الذي شاع استعماله أيام السلطان السابق وأفرط فيه الجنود خصوصاً الانكشارية، فثار الانكشارية لذلك واضطروه لإباحته لهم بمقدار لا يترتب منه ذهول العقل وتكدير الراحة العمومية. وأمر بقتل أخوته وكانوا خمسة ليأمن على الملك من المنازعة اذ صار قتل الأخوة عادة تقريباً. وفي أوائل سنة ١٥٧٥ ترك (هنري دي فالوا) ملك بولونيا مقرّ حكومته عائداً لفرانسا. ولما بلغ الباب العالي خبر سفره أوصى أشراف بولونيا بانتخاب (باتوري) أمير ترنسلفانيا التابع للدولة العلية ملكاً عليهم فانتخبوه في أواخر السنة المذكورة، وبذلك صارت بولونيا نفسها تحت حمايتها.

هذا وحصلت على حدود النمسا عدّة مناوشات سال فيها الدماء بين الطرفين بدون إشهار حرب. وفي أواخر سنة ١٥٧٦ أمضيت هدنة سلم بين الباب العالي والامبراطور (رودلف)[١] الذي خلف (مكسمليان الثاني) لمدّة ثماني سنوات تبتدىء من أوّل يناير سنة ١٥٧٧. وعند بيان أملاك الدولة العلية بهذه المعاهدة

(١) هو ابن مكسمليان ولد في مدينة ويانة سنة ١٥٥٢ وتعين ملكاً لبلاد المجر سنة ١٥٧٦ ثم ملكاً للنمسا ثم انتخب امبراطوراً لالمانيا سنة ١٥٧٦ وكان ضعيفاً مشتغلاً بالكيميا والفلك قهره الترك أكثر من مرة. وفي سنة ١٦١١ عزله أخوه ماتياس الذي انتخب امبراطوراً بعده، وتوفي رودلف سنة ١٦١٢.

ذكرت بولونيا ضمن الأقاليم التي للدولة حق السيادة عليها. ومما يؤيد أن مملكة بولونيا كانت تحت حمايتها استنجاد (باتوري) بها ضدّ إغارات التتار على حدوده الشرقية، وتعهد الباب العالي بحمايتها بمعاهدة رسمية تاريخها ٣٠ يوليو سنة ١٥٧٧.

وكانت علاقات هذا السلطان مع فرنسا حسنة جداً وكذلك مع جمهورية البندقية فجدد لهما الامتيازات القنصلية والتجارية مع زيادة بعض بنود في صالحهما أهمها أن يكون سفير فرنسا مقدّماً على كافة سفراء الدول الأخرى في المقابلات والاحتفالات الرسمية حيث كثر توارد السفراء على بابه العالي للسعي في إبرام معاهدات تجارية تكون ذريعة في المستقبل للتدخل الفعلي، وفي أيامه تحصلت إيزابلا ملكة الانكليز على امتياز خصوصي لتجار بلادها وهي أن مراكبها تحمل العلم الانكليزي وكان لا يجوز لها ذلك قبلاً بل كانت السفن على اختلاف أجناسها ما عدا سفن البندقية لا تدخل إلى موانىء الدولة العلية إلا تحت ظل العلم الفرنساوي ليس إلا كما قضت بذلك العهود التي أبرمت مع السلطان سليمان وابنه السلطان سليم الثاني وتجدّدت في أوائل حكم هذا السلطان.

وفي سنة ١٥٧٨ حصلت فتنة داخلية في مملكة مراكش بالمغرب الأقصى ونازع زعيمها السلطان في الملك وحصلت بينهما عدّة وقائع مهمة وأخيراً استنجد سلطانها بالعثمانيين واستعان مدّعي الملك بالبرتغاليين فاوعزت الدولة أو بالحري محمد باشا صقللي لوالي طرابلس بإنجاد سلطانها الشرعي فأسرع بمساعدته. والتقى الترك والبرتغال بالقرب من محل يقال له القصر[1] الكبير، وكان يوماً مشهوداً دارت فيه الدائرة على البرتغال وقتل فيه رئيس الثائرين المستنجد بهم. وبعد تمام النصر وإعادة الأمن والسكينة إلى ربوع مراكش عادت الجيوش العثمانية حاملة ما أغدق عليها من الهدايا. وبذلك دخلت مملكة مراكش ضمن دائرة نفوذ الدولة وصار شمال أفريقيا بأجمعه تابعاً لها تماماً أو خاضعاً لنفوذها، ولم يبق لها في عصرنا هذا إلا ولاية طرابلس والسيادة الإسمية على مصر، واستولت فرنسا على تونس

---

(١) يقع القصر الكبير في الشمال الغربي من بلاد المغرب جنوب مدينة طنجه.

والجزائر وصارت مراكش ميدان مسابقة لدسائس الأجانب تسعى كل دولة في ازدياد نفوذها بها وبعبارة أخرى لابتلاعها فلا حول ولا قوّة إلا بالله .

وفي هذه السنة ابتدأت المخابرات بين الدولة واسبانيا للوصول إلى الصلح . وبعد أن استمرت نحو خمس سنين تم الصلح بينهما لكن لم يمنع ذلك القراصنة من الطرفين على نهب السفن التجارية وسبي واسترقاق من بها من النساء والرجال حتى كان يستعدّ للسفر في البحر الأبيض المتوسط كما يستعدّ لرحلة حربية لعدم الأمن وكثرة القراصنة بما لم يسبق له مثيل لأن كلاً من الطرفين كان يعتبر غزو سفن الطرف الآخر من الواجبات الدينية والقربات المشروعة .

محاربة العجم ودخول العثمانيين مدينة تبريز رابع دفعة

هذا وأهمّ ما حصل في أيام السلطان مراد الثالث محاربة بلاد العجم بناء على إيعاز الصدر الأعظم محمد باشا صقللي وانتهاز فرصة الاضطرابات الداخلية بها، وذلك أنه لما توفي الشاه طهماسب سنة ٩٨٤ هـ (سنة ١٥٧٦ م) تولى بعده ابنه حيدر وقتل بعد بضع ساعات قبل دفن أبيه ودفنا معاً، ثم تولى بعده اسمعيل ابن طهماسب وتوفي مسموماً سنة ٩٨٥ وخلفه أخوه محمد خدابنده [١]، وكانت البلاد منقسمة عليه فأرسلت الجيوش السلطانية لمحاربته وفتح ما تيسر من بلاده وجعل لاله مصطفى باشا قائداً لها . فسار بجيوشه قاصداً اقليم الكرج [٢] من بلاد الجركس في أواخر سنة ١٥٧٧ م وكانت تابعة إلى مملكة العجم وفتحها واحتل مدينة تفليس [٣] عاصمة الكرج بعد أن انتصر على جنود الشاه وتغلب على قائدهم

---

(١) خدابنده : معناها عبدالله .

(٢) الكرج أو بلاد كرجستان اقليم واقع في جنوب جبال القوقاز ويحده غرباً البحر الأسود وشرقاً اقليم طاغستان وجنوباً بلاد أرمينيا وتغلبت عليها أيدي جميع الفاتحين بآسيا ففتحها العرب في خلافة مروان الثاني ثم قامت بها حكومة مستقلة ثم أغار عليها جنكيزخان وتيمور الأعرج ، واستولى عليها العثمانيون مدة ، وأخيراً ألحقت بمملكة الروس ولم تزل تابعة لها حتى الآن .

(٣) تفليس : قال ياقوت : بفتح أوله وبكسره Tiflis وهي الآن في الاتحاد السوفييتي .

المسمى دقماق بالقرب من حصن (جلدر) في ٨ أغسطس سنة ١٥٧٨ وعين أمراء الكرج حكاماً (سناجق) من قبل الدولة. وبعد أن قهر ثانياً جيوش العجم في ٨ سبتمبر من السنة المذكورة عاد مصطفى باشا وجيوشه إلى مدينة طرابزون[١] لتمضية فصل الشتاء الذي لا يمكن استمرار القتال في غضونه لشدة البرد وتراكم الثلوج في هذه الأصقاع. وقسمت بلاد الكرج إلى أربعة أقسام وهي شيروان وتفليس، وتكوّن القسمان الباقيان من بلاد الكرج الأصلية. وحصنت مدينة قارص[٢] بكيفية جعلتها أمنع معاقل الدولة على الحدود وما فتئت كذلك حتى احتلها الروس سنة ١٨٧٧ وعين لكل منها حاكم عام (بكلر بك). وفي أواسط الشتاء أتت أربعة جيوش جرارة تحت أمرة الأمير حمزة ميرزا وهاجمت بلاد شيروان من كل فج حتى اضطر حاكمها عثمان باشا إلى إخلاء مدينة شيروان والاحتماء بمدينة (دربند)[٣]. وكذلك حاصر الأعجام مدينة تفليس نفسها ولم يقووا على استرجاعها لثبات حاميتها العثمانية حتى أتى إليها المدد ورفع عنها الحصار عنوة سنة ١٥٧٩.
وفي غضون ذلك قتل الصدر الأعظم محمد باشا صقللي الذي حافظ على نفوذ الدولة بعد موت السلطان سليمان وتمكن بسياسته ودهائه من ابرام الصلح مع دول أوروبا المعادية لها وأنشأ عمارة بحرية بعد واقعة (ليبنته) وفتحت جزيرة قبرص بتعليماته وإرشاداته وكوفىء على خدماته الجليلة بالقتل لا لذنب جناه أو جناية ارتكبها بل هي دسائس حاشية السلطان قضت عليه بالموت غدراً تبعاً لدسائس الأجانب الذين لا يروق في أعينهم وجود مثل هذا الوزير يدير دولاب الأعمال على محور الاستقامة، فدسوا إليه من قتله تخلصاً من صادق خدمته للدولة. فكان موته ضربة شديدة ومحنة عظيمة لا سيما وقد كثر بعده تنصيب وعزل

---

(١) طرابزون Trabzon مدينة تركية كبيرة على شاطئ البحر الاسود بالقرب من الحدود السوفييتية.

(٢) قارص ـ Kars : الى الشمال الشرقي من الأناطول.

(٣) دربند ـ Derbent تقع في طاغستان على بحر الخزر. وتسمى هذه المدينة أيضاً : باب الأبواب.

الصدور فعين أوّلاً من يدعى أحمد باشا ثم عزل في أغسطس سنة ١٥٨٠، وعين بعده سنان باشا أحد القوّاد المشهورين وأحد رؤساء الجيش المحارب في بلاد الكرج وتولى قيادة هذا الجيش بعد موت قائده العام مصطفى الذي قيل إنه انتحر مسموماً لعدم حصوله على منصب الصدارة، ولكنه عزل من منصبه بعد قليل ونفي إلى خارج البلاد وتولى مكانه (سياوس باشا) المجري الأصل في الصدارة العظمى وفرهاد (أو فرحات) باشا أحد القوّاد العظام قائداً عاماً للجيش المحارب في الكرج، ولم يأت هذا القائد بأعمال تذكر لعدم انقياد الانكشارية وامتثالهم لأوامر رؤسائهم .

أما عثمان باشا حاكم إقليم شيروان فسار إلى فتح بلاد (طاغستان)[1] على شاطىء بحر الخزر. وبعد أن أتم فتحها عقب موقعة عظيمة انتصر فيها على الأعجام نصراً مبيناً في ٩ مايو سنة ١٥٨٣ سار بطريق البر إلى بلاد القرم مخترقاً جبال (قاف) أو القوقاز وسهول روسيا الجنوبية لعزل خانها عقاباً له على امتناعه عن إرسال المدد إلى الدولة العلية لمحاربة العجم فوصل إليها بعد أن عانى من المشقات أقصاها ومن الصعوبات منتهاها لوعورة الطريق ومناوشة الروس له إلى مدينة (كافا) عاصمة الخان محمد كراي . فجمع الخان جيشاً عظيماً من الفرسان القوزاق المشهود لهم بالبسالة والاقدام وحاصر عثمان باشا وجيوشه التي أضناها التعب وأنهكها السير. ولولا عصيان أخيه إسلام كراي عليه لوعده بالإمارة من قبل الدولة العلية وتفرّق جيوشه من حوله وقتله غدراً بدسيسة أخيه لانتصر على العثمانيين لكن خانه أخوه ودس إليه من قتله طمعاً في الإمارة سنة ١٥٨٤، وبعد ذلك رجع عثمان باشا إلى الأستانة براً وقوبل بكل تكريم وإعظام. وبعد أيام

---

(١) طاغستان : ومعناها البلاد الجبلية . اقليم بآسيا واقع شرقي بلاد كرجستان ومحصور بين بحر الخزر وجبال القوقاز كان تابعاً للعجم ثم تنازلوا عنه لحكومة الروسيا سنة ١٨١٦ ، أهم مدنه مدينة ياكو الواقعة على بحر الخزر والشهيرة بمعادن زيت البترول وقد أنشئت منها حديثاً طريق حديدية تصل الى ثغر باطوم على البحر الاسود مارة على مدينة تفليس لتسهيل نقل البترول وتصديره الى جميع جهات الدنيا .

قلائل عين صدراً أعظم بدل سياوس باشا المجري وسر عسكر الجيش الكرج وكان تعيينه في سنة ٩٩٢ هـ (١٥٨٤ م).

فسار في جيش عرمرم مؤلف من مائتين وستين ألف مقاتل قاصداً بلاد أذربيجان فاخترقها بدون كثير مقاومة، ثم قصد مدينة تبريز عاصمة العجم فدخلها بعد أن انتصر على حمزة ميرزا وترك فيها حامية قوية. وبعد أن استمرت الحرب سجالا بين الدولتين نحو ست سنوات توفي في خلالها الصدر الأعظم عثمان باشا سر عسكر الجيش تم الصلح وأمضي بينهما في ٢١ مارس سنة ١٥٨٥ على أن تتنازل العجم للدولة العثمانية عن اقليم الكرج وشيروان ولورستان(١) وجزء من أذربيجان ومدينة تبريز وتولى بعده خادم مسيح باشا صدراً أعظم سنة ٩٩٣. وفي السنة التالية أعيد سياوس باشا إلى هذا المنصب الخطير وبذلك هدأت الأحوال وانقطعت الحروب على سائر حدود المملكة تقريباً.

إلا أن هذه السكينة لم تكن لترضي الانكشارية الذين كانوا يفضلون استمرار الحروب للنهب والسلب وارتكاب مالا خير فيه فكانت إذا انقطعت الحروب تمرّدوا وارتكبوا هذه القبائح في بلاد الدولة المعسكرين بها بل وفي نفس الأستانة. فلما بلغهم أن المخابرات سائرة بين الدولة والعجم للوصول إلى الصلح ثاروا بالقسطنطينية وطلبوا تسليم الدفتردار (ناظر المالية) ومحمد باشا بكلر بك الروملي لقتلهما بدعوى أنهما أرادا أن يصرفا إليهم نقوداً ناقصة العيار وحاصروهما في منزلهما إلى أن قتلوهما شر قتلة ولم يقو السلطان على منعهم. وتمرّدوا مرة أخرى سنة ١٥٩٣ في الأستانة وأخرى في مدينة بود وقتلوا واليها. وفي القاهرة وفي تبريز مما يطول شرحه. ووصلت بهم القحة إلى آخرها ولذلك أشار سنان باشا الذي أعيد إلى منصة الوزارة في سنة ٩٩٧ باشغالهم بمحاربة بلاد المجر وأوعز إلى حسن باشا والي بلاد البشناق (بوسنه) أن يجتاز حدود بلاد المجر إعلاناً للحرب لكن هل يرجى نجاح أو فلاح حقيقي من جيوش بلغ عندها عدم النظام الدرجة القصوى

---

(١) لور: قال ياقوت هي بضم اللام ثم سكون وهي كورة واسعة بين خوزستان وأصفهان معدودة من عمل خوزستان: وأقول هي القسم الجنوبي الغربي من بلاد ايران.

حتى استطالت لقتل الولاة وعزل الحكام؟ كلا ولو كان قائدها الإسكندر المقدوني أو ابراهيم باشا المصري أو نابليون الفرنساوي (ورب معترض يعترض علينا في تسمية ابراهيم باشا بالمصري مع أنه لم يولد بها فنجاوبه أن ابراهيم باشا نشر الراية المصرية في بلاد العرب والشام وجنوب الأناطول والسودان وانتصر بالمصريين لا بغيرهم ولم يكن ذلك منه إلا لإعلاء شأن الوطن المصري واستقلاله في الداخل ونشر نفوذه في الخارج، ولذلك حق لنا أن نسميه المصري بل المصري الوحيد بعد والده محمد علي باشا الكبير) ولنرجع إلى ذكر حروب الدولة مع المجر فنقول إن الحرب كانت تارة لأحد الفريقين وطوراً للآخر، فقتل حسن باشا والي الهرسك وانهزم والي (بود) وفتحت جيوش النمسا التي انحازت إلى المجر عدّة قلاع عثمانية ثم استردها سنان باشا الصدر الأعظم سنة ١٥٩٥. وفي هذا الموقع يجب علينا وعلى كل عثماني التأسف والتحسر على عدم خروج السلطان بنفسه إلى الحرب وتحجبه عن أعين جيوشه وعدم قيادتهم بذاته الشريفة إلى ساحات النصر، فلولا ذلك لكانت الغلبة دائماً لهم بإذنه تعالى فقد عوّدهم عز وجل النصر على الأعداء في زمن أجداده سليمان وسليم الأول ومن قبلهم، لأن وجود الخليفة الأعظم في رأس جيوشه يبث فيهم روحاً جديدة فيتحدون معه قلباً وقالباً ويسيرون معه إلى النصر المبين والفوز العظيم، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله. ومما زاد أحوال المملكة ارتباكاً إشهار الفلاخ والبغدان وترنسلفانيا العصيان بالاتحاد وتحالفهم مع رودلف الثاني ملك النمسا وامبراطور ألمانيا على محاربة الدولة والحصول على الاستقلال، فسار إليهم الصدر الأعظم سنان باشا في سنة ١٥٩٥ ودخل مدينة بوخارست عاصمة الفلاخ عنوة، ثم انتصر عليه (مخائيل) أمير الفلاخ الملقب في كتب الإفرنج بالشجاع ودخل مدينة (ترجوفتس)[١] وقتل حاميتها ورئيسها، فأخذ العثمانيون في الانسحاب والتقهقر خلف نهر الدانوب وتبعهم مخائيل الفلاخي وانتصر عليهم مرة ثانية بالقرب من مدينة (جورجيوا)[٢]

(١) هي تركوفيشت Tirgoviste وتقع شمال بخارست الى الغرب قليلاً .

(٢) جورجيو Giurgiu : تقع في الجنوب الشرقي من المجر على حدود بلغاريا الى الجنوب من بخارست .

عند عبورهم النهر وفتح المدينة وعدة مدائن أخرى أهمها مدينة (نيكوبلي)[1] .

وفي هذه الأثناء ولي فرهاد باشا منصب الصدارة في سنة ٩٩٩ ، ثم أعيد سياوس باشا ثالثاً إليها سنة ١٠٠٠ ،ثم أصيب السلطان بداء عياء وتوفي مساء ٨ جمادى الأولى سنة ١٠٠٣ (١٩ يناير سنة ١٥٩٥) وله من العمر خمسون سنة وكانت مدة ملكه إحدى وعشرين سنة تقريباً .وكان شاعراً مجيداً فطناً لبيباً ،إلا أنه كان كثير الميل لاقتناء الجواري الحسان عاملاً بمشورتهن ،وكان من ضمن حظياته جارية بندقية الأصل من عائلة شهيرة بها اسمها (بافو) سباها قراصين البحر وبيعت في السراي السلطانية وسميت صفية ، اصطفاها السلطان لنفسه وتدخلت كثيراً في السياسة الخارجية وساعدت بلادها الأصلية كثيراً وهي والدة السلطان محمد الثالث .

---

(١) نيكوبلي : هي Nikopol تقع على نهر الدانوب الى الجنوب الغربي من بودابست .



١٣-

السلطان الغازي محمد خان الثالث

ولد هذا السلطان في ٧ ذي القعدة سنة ٩٧٤ هـ (١٦ مايو سنة ١٥٦٦ م) وتولى بعد موت أبيه مراد الثالث ابن صفية الإيطالية الأصل وكان له تسعة عشر أخاً غير الأخوات فأمر بخنقهم قبل دفن أبيه ودفنوا معاً تجاه أيا صوفيا.

وفي أوائل حكمه سار على أثر سلفه في عدم الخروج إلى الحرب وترك أمور الداخلية في أيدي وزرائه الذين منهم سنان باشا وجفالة زاده (هو ابن القائد جفالة باشا الجنوي الأصل الذي قتل في محاربة العجم الأخيرة وصحة اسمه سيكالا ثم حرّف فصار جفالة) وآخر يدعى حسن باشا. ففسدوا في الأرض وباعوا المناصب الملكية[1] والعسكرية وقللوا عيار العملة حتى علا الضجيج من جميع الجهات وتعاقب انهزام الجيوش العثمانية أمام مخائيل الفلاخي، فضم لسلطانه بمساعدة الجيوش النمساوية إقليم البغدان وجزءاً عظيماً من ترنسلفانيا لعدم وجود القوّاد الأكفاء لصدّهم.

ومما يخلد للسلطان الغازي محمد الثالث الذكر ويجعله رصيفاً لأجداده الأوائل أنه لما تحقق أن هذا الانحلال ناشيء من تحجبه عن الأعمال وعدم قيادته الجيوش برز بنفسه وتقلد المركز الذي كان ترك مراد الثالث وسليم الثاني له من دواعي تقهقر الدولة أمام أعدائها ألا وهو مركز قيادة عموم الجيوش. فسار إلى بلغراد ومنها إلى ميدان الحرب والنزال وبعد قليل دبت في الجيوش الحمية الدينية والغيرة

(١) يقصد بها المدنية.

العسكرية ففتح قلعة (أرلو) الحصينة التي عجز السلطان سليمان عن فتحها في سنة ١٥٥٦ ودمر جيوش المجر والنمسا تدميراً في سهل (كرزت)[١] بالقرب من هذه القلعة في ٢٦ اكتوبر سنة ١٥٩٦ حتى شبهت هذه الموقعة بواقعة (موهاكز)[٢] التي انتصر فيها السلطان سليمان سنة ١٥٢٦ وبعد هذه الموقعة استمرت الحرب سجالاً بدون أن تحصل بين الطرفين وقائع حاسمة .

وفي ابتداء القرن السابع عشر للميلاد حصلت في بلاد الأناطول ثورة داخلية كادت تكون وخيمة العاقبة على الدولة خصوصاً ونيران الحروب مستعر لهيبها على حدود المجر والنمسا . وذلك أن فرقة من الجيوش المؤجرة (ويسمونها بالتركية علوفه جي)[٣] التي هي بالنسبة للإنكشارية كنسبة الباشبوزق[٤] للجيوش المنتظمة ، لم تثبت في واقعة (كرزت) المتقدّم ذكرها بل ولت الأدبار وركنت إلى الفرار فنفيت إلى ولايات آسيا وأطلق عليها اسم (فراري) تحقيراً لهم وعبرة لغيرهم. وهناك ادّعى أحد رؤسائهم واسمه (قره يازيجي) أن النبي ﷺ جاءه مناماً ووعده بالنصر على آل عثمان وفتح ولايات آسيا فتبعه كثير من هذه الفئة وشق عصا الطاعة وتغلب على والي القرمان ودخل مدينة (عين تاب)[٥] عنوة فأرسلت إليه الجيوش وحاصرته فيها . ولما رأى أن لا مناص له من التسليم أو الموت عرض على الوزير المحاصر له الطاعة للسلطان بشرط تعيينه والياً لأماسيا فقبل شرطه ورفع عنه الحصار لكن بمجرّد ابتعاد الجيوش عنه رفع راية العصيان ثانياً واتحد مع أخيه المسمى (دلي حسن)[٦] والي بغداد فاتبع وسوسة أخيه وكفر

---

(١) كرزت : سهل بالقرب من موهاكس .

(٢) موهاكز : هي موهاكس التي مر ذكرها .

(٣) وهم ما يسمى اليوم بالمرتزقة .

(٤) باشبوزق : معناها المدني غير العسكري ، ولكنها تحمل معنى الاهانة لأن معناها اللغوي : ذو الرأس الفاسد .

(٥) عين تاب : وتسمى اليوم غازي عنتاب وهي في جنوب الأناطول وقريبة من الحدود السورية .

(٦) دلي حسن : معناها حسن المجنون .

بنعمة الدولة وجاهر بعصيانها .

فأرسل صقللي حسن باشا مع جيش جرار لمحاربتهما وانتصر على قره يازيجي والجأه إلى الاحتماء بجبال جانق[1] على البحر الأسود حيث توفي من الجراح التي أصابته في الحرب تاركاً أخاه للأخذ بثأره. وفعلا فاز الدلي حسن على صقللي حسن باشا وقتله على أسوار مدينة (توقات)[2] ثم هزم ولاة ديار بكر وحلب ودمشق وحاصر مدينة (كوتاهية)[3] في سنة ١٦٠١ واستفحل أمره حتى خيفت العاقبة. ولما رأت الدولة تجسم هذه النازلة أخذت في استعمال طرق السلم والتودّد فأجزلت إليه العطايا وأغدقت عليه الهبات ثم عرضت عليه ولاية بوسنه فقبل بعد تعللات كثيرة ووضع السلاح وأعلن بإخلاصه للدولة العلية سنة ١٦٠٣ وسافر بجنوده ومن انضم إليها من أخلاط الأكراد وأوباش القرمان واستعمل قوّته لمحاربة الإفرنج على حدود الدولة من جهة أوروبا حتى هلكت جيوشه عن آخرها في المناوشات المستمرة بينها وبين عساكر المجر والنمسا واستراحت الدولة من شرها .

وأعقبت هذه الثورة العظيمة ثورة أخرى في نفس الأستانة العلية كاد شرّها يتعدّى إلى نفس الخليفة الأعظم. وذلك أن جنود السباه أي الخيالة طلبوا من الدولة أن تعوّض عليهم ما فقدوه من ريع الاقطاعات المعطاة لهم في بلاد آسيا التي كانوا يسمونها (تمارا) بسبب فتنة قره يازيجي ودلي حسن بآسيا الصغرى. ولما لم يكن في وسع الدولة تلبية طلبهم لنقص دخلها هي أيضاً بسبب هذه الفتنة تمرّدوا وثاروا وطلبوا نهب ما في المساجد من التحف الذهبية والفضية فاستعانت الدولة عليهم بجنود الانكشارية وأدخلتهم في طاعتها بعد سفك الدماء ولو اتحد الانكشارية معهم وساعدوهم على مطالبهم لخيف على حياة الدولة من الداخل والخارج .

---

(١) جاءت من قبل : جانك . وذلك لأن الأتراك لا يفرقون كثيراً بين القاف والكاف في اللفظ ، فهم يلفظون القاف مخففة كالكاف ويكتبون امريكا بالقاف هكذا امريقا .

(٢) تقع توقات Tokat في شرق الأناطول الى الشمال والى الجنوب الشرقي من أماسيا .

(٣) كوتاهية Kütahya تقع في غرب الأناضول الى الجنوب من باليقيصر واسكي شهر .

ومن ذلك يظهر جلياً اختلال النظام العسكري وعدم صلاحيته لحفظ اسم الدولة وشرفها بين أعدائها. وفي هذه السنة توفي السلطان وكانت وفاته رحمه الله في ١٢ رجب سنة ١٠١٢ (١٦ دسمبر سنة ١٦٠٣) وعمره ٣٧ سنة ومدّة حكمه ٩ سنين وخلفه ابنه أحمد الأوّل .



-١٤

السلطان الغازي أحمد خان الأول وانتصار الشاه عبّاس

ولد هذا السلطان في ١٢جمادى الثانية سنة ٩٩٨ (١٨ ابريل سنة ١٥٩٠) فتولى الملك ولم يتجاوز سنه الرابعة عشر إلا بقليل ولم يأمر بقتل أخيه مصطفى بل اكتفى بحجزه بين الخدم والجواري. وكانت أركان الدولة غير ثابتة في كافة بلاد آسيا ونار الحرب مستعرة على حدود العجم شرقاً والنمسا غرباً، وكانت الحرب مع العجم شديدة الوطأة في هذه المرة لتولي الشاه عباس[1] الشهير قيادتها. ومما جعل لها أهمية أعظم من كافة الحروب السابقة اضطراب الأحوال في الولايات الشرقية عموماً وسعي كل أمة من الأمم المختلفة النازلة بها للحصول على الاستقلال. وكان أهم رؤساء هذه الحركة رجلاً كردياً لقب بجان بولاد (ومعناها بالعربية من نفسه كالبولاد)[2] لشدة بأسه وقوّة إقدامه والأمير فخر الدين الدرزي وغيرهما. لكن قيض الله للدولة في هذه الشدة الوزير مراد باشا الملقب بقويوجي الذي عين صدراً أعظم وكان قد تجاوز الثمانين ليكون عوناً وعضداً للسلطان الفتى فتقلد

(١) لقب هذا الشاه بالكبير وخلف محمد مرزا في الملك سنة ١٥٨٥ ونودي به ملكا في خراسان ثم سار الى مدينة مشهد التي كانت قد احتلتها قبائل الأزبك فاستخلصها منهم وانتصر عليهم بقرب مدينة هرات سنة ١٥٩٧ ثم حارب الترك واستخلص منهم الولايات التي سبق أخذها من مملكة العجم واحتل مدائن بغداد والموصل ودياربكر ثم اتحد مع شركة الهند الانكليزية وطرد البرتغاليين من ثغر هرمز، وتوفي سنة ١٠٣٧هـ الموافقة سنة ١٦٢٨م بعد أن حكم البلاد بغاية الحكمة والسداد مدة ثلاث وأربعين سنة.

(٢) جان بولاد معناها ذا الروح الفولاذية.

مع كبر سنه ووهن قواه قيادة الجيوش وحارب الثائرين بهمة ونشاط زائدين فانتصر على فخر الدين وجان بولاد واقتفى أثرهم حتى اختفيا في بادية الشام واستمال (قلندر أوغلى) أحد زعماء الثورة في الأناطول وعينه والياً على أنقرة وقبض على آخر يدعى أحمد بك وقتله بعد أن فرق جنده بالقرب من قونية. ولما رأى جان بولاد الكردي عدم نجاح الثورة سافر للاستانة وأظهر الطاعة للسلطان فعفا عنه وعينه والياً لتمسوار.

وفي سنة ١٦٠٨ انتصر على من بقي من العصاة بقرب (وان)[1]، وفي السنة التالية قتل آخر زعمائهم المدعو يوسف باشا الذي كان استقل بأقاليم صاروخان ومنتشا وآيدين. وبذلك عادت السكينة وساد الأمن بهمة هذا الشجاع الذي لقب بسيف الدولة عن استحقاق.

هذا وانتهز الشاه عباس هذه الفرصة لاسترجاع بلاد العراق العجمي واحتل مدائن تبريز ووان وغيرهما. ولمناسبة اضمحلال جيوش الدولة في هذه الحروب، التي استمرت عدّة سنوات متوالية وموت أهمّ قوّادها خصوصاً الصدر الأعظم قويوجي يوم ٥ أغسطس سنة ١٦١١، تراسلت الدولتان على الصلح وتم الأمر بينهما في سنة ١٦١٢ بمساعي نصوح باشا الذي تولى منصب الصدارة بعد موت قويوجي مراد باشا على أن تترك الدولة العلية لمملكة العجم جميع الأقاليم والبلدان والقلاع والحصون التي فتحها العثمانيون من عهد السلطان الغازي سليمان الأوّل القانوني بما فيها مدينة بغداد. وهذه أوّل معاهدة تركت فيها الدولة بعض فتوحاتها ويمكننا القول بكل أسف وحزن أنها كانت فاتحة الانحطاط وأوّل المعاهدات المشؤومة التي ختمت بمعاهدة برلين الشهيرة.

أما من جهة المجر والنمسا ففي أثناء اشتغال الدولة بحروبها الداخلية استبد النمساويون ببلاد المجر وأساؤوا معاملة أشرافها نظير إخلاصهم للدولة العلية حتى رفضوا نير النمسا المسيحية وطلبوا من الدولة أن ترمقهم بعين حمايتها وتخلصهم من استرقاق النمسا لهم وانتخبوا الأمير (بوسكاي) ملكاً عليهم سنة ١٦٠٥

---

(١) مدينة وان Van : قائمة على بحيرة وان الواقعة في الجنوب الشرقي من الأناطول.

فانشرحت الدولة لهذه النتيجة التي ما كانت تنتظرها من أمة مسيحية لا سيما وهي في حالة كربة لكثرة الحروب الداخلية وتقهقر جيوشها أمام الشاه عباس فقبلت هذا الاسترحام واعتمدت انتخاب (بوسكاي) وأمدته بجيوشها ففتحت في زمن يسير حصون (جران) و(يسجراد) و(سيريم)[1] وغيرها .

وفي سنة ١٦٠٦ خشيت النمسا من امتداد الفتوحات العثمانية فسعت في سلخ بوسكاي عن الدولة فاعترفت بانتخابه ملكاً للمجر وأميراً لإقليم ترنسلفانيا وتنازلت عن كافة الأقاليم المجرية التي كانت للسلطان (باتوري) بشرط رجوع ما يكون منها ألمانيا وخصوصاً إقليم ترنسلفانيا إلى امبراطور ألمانيا بعد موت بوسكاي. ولزيادة اضطراب أحوال الدولة بآسيا وتعسر استمرار الحرب مع النمسا بدون مساعدة جيوش المجر لها أبرمت الصلح مع امبراطور النمسا في سنة ١٦٠٦ عينها على أن لا تدفع النمسا الجزية السنوية التي قدرها ثلاثون ألف دوكا في المستقبل مقابل التعويض عنها للدولة بدفع مبلغ مائتي ألف دوكا وأن تضم الدولة العلية لأملاكها حصون (جران) و(ارلو) و(كانيشا)[2]. وفي سنة ١٦٠٨ اجتمع نواب النمسا والمجر في مدينة برسبورج[3] وصدّقوا على هذا الاتفاق. وكذلك صدّق عليه لمدة عشرين سنة من تاريخ التصديق مندوبو مملكة ألمانيا مجتمعين بهيئة مؤتمر بمدينة (ويانه) سنة ١٦١٥. أما بلاد المجر فبقيت تابعة للدولة بعضها تبعية فعلية والبعض تبعية حماية وسميت هذه المعاهدة بمعاهدة (ستواتوروك) .

وبعد التصديق نهائياً على هذا الاتفاق من جميع أولي الشأن توفي (بوسكاي)

---

(١) يسكراد هي فيسگراد Visegrad وتقع في وسط بلاد المجر على نهر الدانوب الى الشرق من مدينه گراان .
وسيريم هي فيسپريم Viszprem وتقع في الجنوب الغربي من بلاد المجر الى الشمال من بحيرة بالاتون . Balaton

(٢) گران ووارلو مر ذكرهما وحدد موضع كل منهما ، وأما كانيشا Kanischa فانها تقع الى الجنوب من بحيرة بالاتون .

(٣) پرسبورگ Presburg بلدة مجرية قائمة على نهر الدانوب على الحدود المجرية النمساوية الى الشرق من ڤينا .

وامتنع أهالي إقليم ترنسلفانيا عن الدخول ضمن أملاك الامبراطورية مفضلين البقاء تحت حماية الدولة العثمانية الإسلامية التي لم تتعرّض لهم لا في دينهم ولا في عوائدهم اكتفاء بالجزية السنوية، فعينت لهم الدولة (سجسمون راجوتسكي) ثم (جبرائيل باتوري) ثم (بتلن جابور) وهو من أشد خصوم دولة النمسا وألد أعدائها. وتعهد هذا الأمير بمنع أمراء الفلاخ والبغدان من اقتناء الأراضي والقصور في إمارته حتى لا يلتجؤا إليها لو تمردوا على الدولة وبتسليمهم لها لو فرّوا إليها. وبذلك صارت ترنسلفانيا حائلاً بين الامارتين وبلاد المجر.

هذا ولو أن الحروب انقطعت على كافة حدود الدولة تقريباً إلا أنه قد حصلت ما بين سنة ١٦١١ وسنة ١٦١٤ بعض مناوشات بحرية بين مراكب الدولة وسفن رهبان مالطه وملك اسبانيا وولايات إيطاليا كان الفوز فيها غالباً لمراكب الأعداء ولذلك أمر الصدر نصوح باشا بجمع جميع سفن الدولة في مياه البحر الأبيض المتوسط لصدّ تعدّيات مراكب الافرنج وحفظ طريق البحر بين الأستانة وولايات الغرب، فانتهز بعض أخلاط القوزاق انسحاب السفن الحربية من البحر الأسود وأغاروا على ثغر سينوب ونهبوا ما به. ولما علم السلطان بذلك غضب على الصدر الأعظم وسعى به بعض مبغضيه طمعاً في نوال منصبه وما فتئوا يوغرون صدر سيده عليه حتى أمر بقتله في ١٤ اكتوبر سنة ١٦١٤ فخنق في قصره.

هذا وازدادت في أيام السلطان أحمد الأوّل العلاقات السياسية مع دول الافرنج، فجدّدت مع فرانسا العقود والعهود القديمة في سنة ١٦٠٤ مع بعض زيادات طفيفة. وفي سنة ١٦٠٩ جدّدت مع مملكة بولونيا الاتفاقات التي أبرمت معها في زمن السلطان محمد الثالث وأهمّ ما بها تعهد بولونيا بمنع قوزاق الروسية من الإغارة على اقليم البغدان وتعهد الدولة العلية بمنع تتار القرم من التعدّي على حدودها. وفي سنة ١٦١٢ تحصلت ولايات الفلمنك[1] على امتيازات تجارية تضارع ما منحته

---

(١) بلاد الفلمنك أو البلاد الواطئة المشهورة الآن باسم هولاندا مكونة من عدة ولايات كانت في الأصل تابعة لمملكة النمسا ثم استقلت سبعة من الولايات الشمالية في أواخر القرن السادس عشر وشكلت بهيئة جمهورية سميت بالولايات المتحدة، واستمرت =

كل من فرنسا وانكلترا، وهم أي الفلمنك الذين أدخلوا في البلاد الإسلامية استعمال التبغ أي تدخين الدخان فعارض المفتي في استعماله وأصدر فتوى بمنعه فهاج الجند واشترك معهم بعض مستخدمي السراي السلطانية حتى اضطروه إلى إباحته. وفي ٢٣ ذي القعدة سنة ١٠٢٦ (٢٢ نوفمبر سنة ١٦١٧م) توفي السلطان أحمد الأوّل وعمره ٢٨ سنة ومدّة حكمه ١٤ سنة تقريباً ولصغر سنّ ولده عثمان الذي كان لم يتجاوز ثلاثِ عشرة سنة من عمره خالف العادة المتبعة من ابتداء الغازي السلطان عثمان الأوّل، أي تنصيب أكبر الأولاد أو أحدهم مكان والده، وأوصى بالملك بعده لأخيه.

= الباقية تابعة لملك اسبانيا لانتقالها إليه بالارث. وفي سنة ١٧١٤ أعطيت الى النمسا وبقيت في حيازتها الى سنة ١٧٩٠ تقريباً حيث فتحتها فرانسا. وفي سنة ١٨١٤ شكلت جميع البلاد الواطئة بما فيها الولايات التي كانت متحدة والأراضي المكونة لمملكة بلجيكا الآن بهيئة حكومة ملوكية مستقلة. وفي سنة ١٨٣٠ انقسمت هذه المملكة الى قسمين سُمّي الجزء الشمالي منها بمملكة هولاندا والجنوبي باسم مملكة البلجيكا وهي مكونة من الولايات التي كانت تابعة لاسبانيا والنمسا أما هولاندا فمكونة من الولايات التي كانت مشكلة بهيئة جمهورية مستقلة.



-١٥

السلطان مصطفى خان الأول

ولد هذا السلطان سنة ١٠٠١ هـ وقضى طول عمره داخل محلات الحرم ولم يتعاطى أشغالاً مطلقاً، بل ولم يعلم من أمور المملكة شيئاً كما كانت عادة بعض ملوك بني عثمان، وهي أن كل سلطان يتولى يأمر بقتل أخوته أو يحجزهم في السراي كي لا يكون منهم منازع في الملك. وهي عادة مستقبحة جدّاً لما فيها من قتل أقرب الناس بلا ذنب أو جرم إلا ما يخيله لهم الوهم من الخوف على الملك والاستئثار به، مع أنهم لو استخدموا اخوتهم في المناصب العالية لا سيما قيادة الجيوش كما يفعل ملوك أوروبا الآن لحفظوا ذمار الدولة وأخلصوا في خدمتها أكثر من الذوات الذين أغلبهم (كما رأيت وترى في سياق هذا الكتاب) من غير الجنس التركي، بل من المماليك الجركس أو الإفرنج الذين ربما اعتنقوا الدين الإسلامي ودخلوا في خدمة الدولة أعداء في لباس أصدقاء لتنفيذ أغراض دولهم. وكادت تقوم الحرب بين الدولة وفرنسا عند توليته، وذلك أن كاتم أسرار السفارة الفرنساوية ساعد أحد أشراف بولونيا وكان مسجوناً بالاستانة على الهروب منها فسجن كاتم السرّ والمترجم والسفير. ولم يلبث هذا السلطان على سرير الملك إلا ثلاثة أشهر تقريباً ثم عزله أرباب الغايات وفي مقدمتهم المفتي وقيز لر أغاسي[1] أي آغا السراي، وساعدهم الانكشارية على ذلك لتوزيع الهبات عليهم عند تولية كل ملك جديد فعزل في أوّل سنة ١٠٢٧ (٢٦ فبراير سنة ١٦١٨ م) وأقاموا مكانه السلطان عثمان الثاني المولود في غضون سنة ١٠١٣ هـ.

---

(١) قيز : معناها بنت وقيزلر بنات والأصح أن تترجم هذه الكلمة بـ آغا المخطيات.



١٦-

السلطان عثمان خان الثاني وخلعه ثم قتله

(وإرجاع السلطان مصطفى ثم عزله)

هو ابن السلطان أحمد الأوّل وأمر باطلاق قنصل فرنسا وكاتبه ومترجمه وأرسل مندوباً لملك فرنسا لويس الثالث عشر يسمى حسين جاووش بجواب اعتذار عما حصل من الإهانة لسفيره وبذلك انحسمت هذه المشكلة .

وحدث في هذه الأثناء أن تدخلت بولونيا في شؤون إمارة البغدان لمساعدة (جراسياني) الذي عزل بناء على مساعي بتلن جابور أمير ترنسلفانيا واضيفت إمارته إلى اسكندر شربان أمير الفلاخ وصارت الإمارتان تابعتين له فاتخذ السلطان عثمان هذا التدخل سبباً في إشهار الحرب على مملكة بولونيا وتحقيق أمنيته وهي فتح هذه المملكة وجعلها فاصلاً بين أملاك الدولة ومملكة الروسيا التي ابتدأت في الظهور ، وقبل الشروع في الحرب أمر بقتل أخيه محمد تبعاً للعادة المشروعة فقتل في ١٢ يناير سنة ١٦٢١ مأسوفاً عليه .

ثم أصدر أمراً بتقليل اختصاصات المفتي ونزع ما كان له من السلطة في تعيين وعزل الموظفين وجعل وظيفته قاصرة على الافتاء حتى يأمن شرّ دسائسه التي ربما تكون سبباً في عزله كما كانت سبب عزل سلفه ، لكن أتى الأمر على الضدّ بما كان يؤمل كما سيجيء . وبعد أن أتم هذه التمهيدات الداخلية سير الجيوش والكتائب لمحاربة مملكة بولونيا فالتقت بجيشهم تحت قيادة أمير (ولنا)[1] وكان متحصناً

(١) تقع ويلنا في الاتحاد السوفييتي الى الشرق من أستونيا الواقعة على بحر البلطيك

في محل منيع بالقرب من بلدة يقال لها (شوك زم)[1] فهاجم العثمانيون في حصونهم عدّة دفعات متوالية بدون أن يزحزحوهم عن معاقلهم فطلبت الانكشارية الكف عن الحرب وطلب البولونيون الصلح لفقد قائدهم وتبادلت بينهما المخابرات وتم الصلح وأمضي من الطرفين في ٦ اكتوبر سنة ١٦٢٠، فحنق السلطان على الانكشارية من طلبهم الراحة وخلودهم إلى الكسل والزامه على الصلح مع بولونيا بدون تتميم قصده أي ضمها إلى أملاكه وعزم على إبطالها وإفنائها عن آخرها. ولأجل التأهب لتنفيذ هذا الأمر الخطير أمر بحشد جيوش جديدة في ولايات آسيا وتنظيمها وتدريبها على القتال حتى إذا كملت عدة وعدداً استعان بها على إبادة هذه الفئة الباغية. وشرع فعلاً في إنفاذ هذا المشروع لكن أحس الانكشارية بذلك فهاجوا وماجوا وتذمروا واتفقوا على عزل السلطان وتم لهم ذلك في يوم ٩ رجب سنة ١٠٣١ (٢٠ مايو سنة ١٦٢٢) وأعادوا مكانه السلطان مصطفى الأوّل. ولم يكتفوا بعزله بل هجموا عليه في سرايه وانتهكوا حرمتها وقبضوا عليه بين جواريه وزوجاته وقادوه قهراً إلى ثكناتهم موسعيه سباً وشتماً وإهانة مما لم يسبق له مثيل في تاريخ دولتنا العلية، وزيادة على ذلك أنهم نقلوه من هناك إلى القلعة المعروفة بذات السبع قلل (يدي قله) حيث كان بانتظاره كل ممن يدعى داود باشا وعمر باشا الكيخيا وقلندر اوغلي وغيرهم فأعدموا السلطان عثمان الحياة غير مبالين بهذا الجرم العظيم والإثم الذي ما بعده إثم إلا الكفر المبين. فإنه إن كانت مخالفة أوامر الخليفة الأعظم تعدّ كفراً بنص الكتاب الشريف فما بالك بقتله، وهنا يقف القلم ويكف المداد عن وصف هذه الفعلة الشنعاء والكبيرة الشعواء تاركاً وصفها للقارىء اللبيب والمطلع الأديب لعجزي عن هذا المقام العالي وتقصيري عن هذه المراتب العوالي وقلة بضاعتي وقصور قريحتي مكتفياً بنقل أسماء مرتكبها إلى الخلف لتكون هدف سخطتهم ومرمى سهام فضيحتهم. وقتل رحمه الله ولم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ومدّة حكمه أربع سنين وأربعة أشهر .

(١) شوك زم : قلعة قريبة من ويلنا وقد تغير اسما هذين البلدين كما تغيرت أكثر الأسماء بين تداول أيدي الأقوام هذه الأماكن .

وبعد ذلك صارت الحكومة ألعوبة في أيدي الانكشارية ينصبون الوزراء ويعزلونهم بحسب أهوائهم ، فعزلوا داود باشا قاتل السلطان بعد بضع أيام وصاروا يمنحون المناصب لمن يجزل إليهم العطايا فكانت الوظائف تباع جهاراً وارتكبوا أنواع المظالم في القسطنطينية. ولما بلغ خبر قتل السلطان إلى الولاة وانتشرت بينهم أخبار الفوضى السائدة في الأستانة وسوس لهم ابليس الطمع فأطاعوه وسرى في عروقهم شيطان الغواية فاتبعوه، فأشهر والي طرابلس الشام استقلاله وطرد الانكشارية من ولايته. واقتفى أثره والي أرضروم المدعو أباظة باشا مدّعياً أنه يريد الانتقام للمرحوم السلطان عثمان شهيد الإنكشارية ،وسار بمن تبعه إلى سيواس وانقره ففتحهما مصادراً التزامات الانكشارية وإقطاعاتهم قاتلاً كل من وقع في مخالبه من هذه الفئة التي تلوّثت بدم سلالة سلاطينهم ، وتبعه والي سيواس وسنجق قره شهر[1]. ثم سار إلى مدينة بورصه فحاصرها ودخلها بعد ثلاثة أشهر إلا قلعتها فلم تسلم .

واستمرّت الاضطرابات الداخلية في نفس كرسي الخلافة العظمى ولا أمن ولا سكينة مدة ثمانية عشر شهراً متوالية ، حتى إذا شعر العموم بما وراء هذه الفوضى من الدمار والخراب وشبع الإنكشارية نهباً وسلباً وقتلاً في نفوس الأهالي وأموالهم عينوا من يدعى (كمانكش علي باشا)[2] صدراً أعظم لتوسمهم فيه الخبرة والاستعداد ، فأشار عليهم بعزل السلطان مصطفى ثانياً لضعف عزيمته ووهن قواه العقلية فعزلوه في ١٥ ذي القعدة سنة ١٠٣٢ (١١ سبتمبر سنة ٦٢٣) ،وولوا مكانه السلطان مراد الرابع وبقي في العزل إلى أن توفي في غضون سنة ١٠٤٩ ﻫ (سنة ١٦٣٩ م) .

---

(١) قره شهر : مدينة تقع في وسط الأناطول بين أنقره وقيصرى .

(٢) كما نكش : معناها اللغوي : الماهر بالرمي عن القوس ، واصطلاحاً تعني الماهر الحاذق.



١٧-

السّلطان الغازي
مرادخان الرابع

هو ابن السلطان أحمد الأوّل ابن السلطان محمد الثالث ولد في ٢٨ جمادى الأولى سنة ١٠١٨ (٢٩ أغسطس سنة ١٦٠٩ م) وولاه الإنكشارية بعد عزل عمه السلطان مصطفى الأوّل ابن السلطان محمد الثالث مع حداثة سنه كي لا يكون معارضاً لهم في أعمالهم الاستبدادية ولا مضعفاً لنفوذهم الذي اكتسبوه بقتل سلطان وعزل غيره ، واستمروا مدّة العشر سنين الأولى من حكمه على غيهم وطغيانهم .

محاربة العجم واستيلائهم على بغداد

وانتهز الشاه عباس ملك العجم هذا الاختلال فرصة لتوسيع أملاكه من جهة حدود الدولة العلية فكان الأمر حينئذ بعكس ما كان عليه أيام المرحوم الغازي السلطان سليمان القانوني. وذلك أن رئيس الشرطة في مدينة بغداد واسمه بكير آغا ثار على الوالي وقتله واستبدّ في الأحكام فأرسلت له الدولة قائداً يدعى حافظ باشا حاربه وحصره في دار السلام فسولت لبكير آغا نفسه الخبيثة أن يخون الدولة وراسل الشاه عباساً وعرض عليه تسليم المدينة، فسار الشاه بجنوده لاحتلالها. وفي الوقت نفسه عرض بكير آغا على القائد العثماني أن يرد المدينة للعثمانيين لو أقرته الدولة على ولايتها فقبل ذلك واحتلتها الجنود المظفرة قبل وصول شاه العجم، وهو لما وصلها حاصرها ثلاثة أشهر ثم فتحها بخيانة ابن بكير آغا الذي سلمها له بشرط تعيينه حاكماً عليها من قبلهم لكن خاب سعيه فقد قتله الشاه جزاء خانته كما قتل أباه . وفي ذلك عبرة لكل جاهل خائن يظن أن الأجنبي يعتقد فيه الإخلاص ويكافئه لو ساعده على ابتلاع وطنه فهل يرجو من باع وطنه

العزيز بيع المتاع خيراً من تلك الدولة؟ كلا فإنها تستعمله آلة لنوال غرضها ثم تلفظه لفظ النواة فيرجع يعض بنان الندم على ضياع شرفه وتسويد صفحات تاريخه حيث لآ ينفع الندم وينكص على عقبيه مذموماً مدحوراً. وبمناسبة سقوط بغداد في أيدي العجم وعدم إخباره السلطان بذلك سعى المنافقون بالصدر الأعظم كمانكش علي باشا لدى السلطان وأفهموه أنها لم تسقط إلا لخيانته فحنق عليه وأمر بقتله وولى مكانه جركس محمد باشا. ولم يلبث هذا الأخير أن توفي وعين بعده حافظ أحمد باشا سنة ١٠٣٣ هجرية (سنة ١٦٢٤ م) وهو الذي اشتهر في مكافحة أباظة باشا والفوز عليه في واقعة قيصرية[١] ومحاصرته في أرضروم[٢] حتى التزم بالخضوع للدولة وإظهار الولاء لها فعفت عنه عفو كريم مقتدر وأقرته في ولايته سنة ١٦٢٤ م فسار حافظ باشا الصدر الجديد إلى مدينة بغداد لاستردادها. وحاصرها في أوائل سنة ١٦٢٤ وضيق عليها الحصار، ولما استمر الحصار مدة بدون أن تنثني عزيمة المحصورين تذمر الانكشارية وأظهروا عدم الرغبة في الحرب بكيفية اضطرته لرفع الحصار عن المدينة والرجوع إلى الموصل، ومنها إلى ديار بكر حيث ثار الجند مرة ثانية فعزل السلطان حافظ باشا سنة ١٠٣٤ هجرية (سنة ١٦٢٤) وعين بدله من يدعى خليل باشا الذي سبق تقلده هذا المنصب في عهد السلاطين أحمد الأول ومصطفى الأول وعثمان الثاني شهيد الانكشارية. وكانت فاتحة أعماله أنه استدعى أباظه باشا إلى معسكره فظن أنه يريد الغدر به فرفع راية العصيان ثانياً وقتل حامية أرضروم من الانكشارية وانتصر على القائد حسين باشا وجيشه. فسار إليه الصدر خليل باشا بنفسه وحصره ثم رفع عنه الحصار بعد شهرين (نوفمبر سنة ١٥٢٧). فعزل من الصدارة سنة ١٠٣٥ هجرية وولى مكانه خسرو باشا وهو عاود الكرة على أرضروم وأدخل أباظه باشا في طاعة الدولة

---

(١) قيصرية ويسميها الأتراك قيصري Kayseri وتقع في وسط الأناطول الى الجنوب الشرقي من أنقره.

(٢) أرضروم: ويلفظها الاتراك ارز روم Erzurum وتقع في شرق الأناطول والى الجنوب الشرقي من طرابزون.

وعينه والياً على البشناق (بوسنة) سنة ١٠٣٧ هـ (سنة ١٦٢٨ م). وفي هذه الأثناء كانت ثورات الجنود متتابعة بالاستانة وفي كل مرة يطلبون قتل من يشاؤن من رؤساء الحكومة المخالفين لهم في الرأي ولا يرى السلطان مندوحة من أجابة طلباتهم إسكاتاً لهم وخوفاً من أن يصل إليه أذاهم. ثم توفي الشاه عباس وتولى ابنه شاه ميرزا وكان حديث السن فدخل العشم في أفئدة القواد العثمانيين وسار خسرو باشا من حينه إلى بلاد العجم رغماً عن تذمر جنوده ووصل بعد العناء الشديد إلى مدينة همذان[1] فدخلها فجأة في ٢٦ شوّال سنة ١٠٣٩ (١٨ يونيو سنة ١٦٣٠) ثم قصد مدينة بغداد وانتصر أثناء عودته إليها ثلاث دفعات متواليات على جيوش العجم. ووصل إليها وابتدأ في محاصرتها في شهر سبتمبر من السنة المذكورة فدافع عنها قائد حاميتها دفاعاً شديداً وصد هجوم العثمانيين عنها في ٧ ربيع الثاني سنة ١٠٤٠ (١٤ نوفمبر سنة ١٦٣٠). ولهجوم الشتاء رفع خسرو باشا عنها الحصار ورجع إلى مدينة الموصل لقضاء فصل الشتاء. وفي الربيع التالي أراد معاودة الكرة على مدينة بغداد فلم تمتثل الجنود أوامره ولذلك اضطر إلى التقهقر إلى مدينة حلب خوفاً من وصول العدوّ إليه بالموصل وهو غير واثق من جنوده.

ثورة الانكشارية وقتلهم الصدر الأعظم حافظ باشا وثورة فخر الدين الدرزي

وفي غضون ذلك أصدر السلطان أمره بعزل خسرو باشا وإعادة حافظ باشا إلى منصب الصدارة فسعى المعزول لدى الجند وأفهمهم أنه لم يعزل إلا لمساعدته لهم فثاروا وأرسلوا إلى الاستانة يطلبون إرجاعه. ولما لم يجب السلطان طلبهم ساروا إلى القسطنطينية وقاموا بثورة عظيمة خيف منها على حياة الملك فإنهم دخلوا السراي السلطانية في ١٨ رجب سنة ١٠٤١ (٩ فبراير سنة ١٦٣٢) وقتلوا حافظ باشا رغماً عن تدخل السلطان ومنعهم عنه. فاغتاظ السلطان وأمر بقتل خسرو باشا محرّك هذه الفتنة فقتل ولم ينل بغيته من البقاء في الصدارة وعين من يدعى

(١) همذان ويلفظها الايرانيون همدان بالدال المهملة وهي تقع الى الجنوب الغربي من العاصمة طهران.

بيرام[1] محمد باشا صدراً أعظم. ومن ذلك الحين أظهر السلطان عزماً شديداً قوياً في مجازاة رؤس الانكشارية وغيرهم ممن كان يهيج الخواطر ويقلق الراحة العمومية وصار يأمر بقتل كل من ثبت عليه أقل اشتراك في الحركات الأخيرة. وبذلك داخلهم الرعب ووقعت مهابته في قلوبهم وخشيه الصغير والكبير والأمير والحقير وسار كل في طريقه مكباً على عمله بدون أن يأتي ما يكدّر صفو كأس الراحة العمومية، وأمن الناس على أموالهم وأعراضهم من التعدّي وسادت السكينة في القسطنطينية وضواحيها وجميع أنحاء المملكة. وكانت آخر ثورة للانكشارية في آخر شوّال سنة ١٠٤١ (١٩ مايو سنة ١٦٣٢) حركها من يدعى رجب باشا لغاية في النفس فأمر السلطان بقتله وإلقاء جثته من شبابيك[2] السراي حتى يراها المتجمهرون فسكنت الخواطر ولم يحصل ما يعبث بالأمن بعد ذلك في مدّته.
وبعد كسر شوكة الانكشارية أراد السلطان أن يعيد للدولة ما فقدته من النفوذ بسبب إهمال بعض أسلافه وعدم إطاعة الإنكشارية وامتناعهم عن الحرب عند الحاجة القصوى فأرسل إلى والي دمشق بمحاربة فخر الدين أمير الدروز وأدخله في طاعة الدولة فقام الوالي بالمأمورية خير قيام وهزم فخر الدين وأسره هو وولديه وأرسلهم إلى القسطنطينية حيث عاملهم السلطان بكل احتفاء وإكرام ولكن لما بلغ السلطان أن أحد أحفاده ثار ثانياً ونهب بعض مدائن الشام أمر بقتله وولده الأكبر فقتلا في ذي القعدة سنة ١٠٤٤ (ابريل سنة ١٦٣٥)، فاطاع الدروز وبقيت الإمارة في ذرية فخر الدين المذكور نحو مائة سنة ثم انتقلت إلى عائلة شهاب، التي منها الأمير بشير، في حروب إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا والدولة في النصف الأوّل من هذا القرن المسيحي.

---

(١) بيرم وليس بيرام: كلمة تركية ومعناها اللغوي عيد فكما أن الناس يسمون شعبان ورمضان ورجب وغيرها من أسماء الشهور فكذلك يسمون عيداً.

(٢) لا تلقى من الشبابيك الا إذا كانت قطعاً وهذا لم يحدث والصواب ان يقال: القاء جثته من شباك السراي.

فتح اريوان واسترجاع بغداد

ثم سار السلطان بنفسه الشريفة إلى بلاد العجم لاسترجاع فتوحات السلطان الغازي سليمان الأول القانوني ففتح مدينة اريوان[1] في ٢٥ صفر سنة ١٠٤٥ (١٠ اغسطس سنة ١٦٣٥) وأرسل السلطان رسولين إلى الأستانة لتزيين المدينة مدة سبعة أيام وقتل أخويه بايزيد وسليمان لبلوغه عنهما ما كدر خاطره واتباعاً للعادة المذمومة. وبعد ذلك قصد السلطان مدينة تبريز ففتحها عنوة في ٢٨ ربيع الأول سنة ١٠٤٥ (١٠ سبتمبر سنة ١٦٣٥) المذكورة. ثم عاد إلى الاستانة للاستراحة من عناء السفر ومشقات الحرب. ومما يدل على أن وجود السلطان مع جيوشه له أهمية عظمى ويبعث فيهم روحاً جديدة أنه بمجرد رجوع السلطان اشتد عزم العجم ووقفوا أمام الجيوش العثمانية بعد أن كانوا يفرون من أمامهم أينما التقوا بهم والسلطان قائدهم ثم تغلبوا عليهم واستردّوا مدينة (اريوان)[1] وفازوا بالغلبة في واقعة منتظمة في وادي مهربان سنة ١٦٣٦.

فلما وصل خبر انتصار العجم على الجنود العثمانية إلى مسامع السلطان أراد اذلالهم وكسر شوكتهم فسار بجيش عظيم كامل العدة والعدد إلى مدينة دار السلام وابتدأ حصارها بكيفية منتظمة في ٨ رجب سنة ١٠٤٨ (١٥ نوفمبر سنة ١٦٣٨) وكان يشتغل بنفسه في أعمال الحصار الشاقة تنشيطاً للجند، وسلط على أسوارها المدافع الضخمة التي نقلها إليها. ولما فتحت المدافع فيها فتحة كافية للهجوم أصدر السلطان أوامره بذلك فهجمت الجيوش كالليوث الكواسر في صبيحة ١٨ شعبان سنة ١٠٤٨ (٢٥ دسمبر سنة ١٦٣٨) ولم يثنها قتل الصدر الأعظم طيار محمد باشا، الذي تولى بعد موت بيرام محمد باشا المتوفي في ٦ ربيع الآخر سنة ١٠٤٨ (١٧ أغسطس سنة ١٦٣٨)، بل استمرت الحرب ٤٨ ساعة متوالية ختمت بانتصار الجنود العثمانية نصراً مبيناً ودخولهم المدينة وإرجاعها إلى المملكة العثمانية ولم تزل تابعة إليها حتى الآن.

---

(١) اريوان Yerevan تقع في الشمال الغربي من ايران داخل حدود الاتحاد السوفييتي الآن.

وبعد ذلك رغب شاه العجم عدم استمرار القتال وعرض الصلح على الدولة العلية بأن يترك لها مدينة بغداد بشرط أن تترك هي إليه مدينة (اريوان)، ودارت المخابرات بين الدولتين نحو عشرة أشهر كاملة. وفي ٢١ جمادى الأولى سنة ١٠٤٩ (١٩ سبتمبر سنة ١٦٣٩) تم الصلح على ذلك وانقطعت أسباب العدوان من بينهما.

وكان يؤمل في السلطان مراد الرابع أن يضارع السلطان الغازي سليمان الأوّل القانوني في الفتوحات وبعد الصيت لولا أن قصفت المنون عود حياته الرطيب وهو في مقتبل الشباب، فتوفي رحمه الله عن غير عقب في ١٦ شوّال سنة ١٠٤٩ هجرية (فبراير سنة ١٦٤٠ م) وسنّه ٣١ سنة ومدّة حكمه ١٦ سنة و١١ شهراً، وتولى بعده أخوه إبراهيم.



١٨-

السلطان الغازي
ابراهيم خان الأول
وفتح جزيرة كريد

هو ابن السلطان أحمد الأوّل ولد في ١٢ شوّال سنة ١٠٢٤ (٤ نوفمبر سنة ١٦١٥) وكان غير ميال لمحاربة النمسا فاطمأن خاطرها وأوعز لامير ترنسلفانيا بكف العدوان عنها، لكن كان من جهة أخرى محافظاً على كرامة الدولة غير متراخ في معاقبة من يمسها بسوء أو يتعدّى حدودها ولذلك افتتح حروبه الخارجية بإرسال جيش جرار إلى بلاد القرم لمحاربة القوزاق الذين احتلوا مدينة آزاق[1]، فحاربهم العثمانيون وأبلوا فيهم بلاء حسناً واستردوا المدينة منهم بعد أن أحرقوها وذلك سنة ١٦٤٢ ومن أعماله أيضاً فتح جزيرة كريد وكانت تابعة لجمهورية البندقية وحصل فتحها بسبب حكاية غريبة تكاد تقرب من الروايات الموضوعة. وذلك أن آغا السراري (قيزلر أغاسي) كان عنده جارية حسناء وضعت حديثاً فأعجبت السلطان واختارها لأن تكون ظئراً (أي مرضعة) لابنه الوحيد محمد، ولشغف السلطان بالجارية ومحبته لابنها حصلت بعض أمور داخلية مكدرة، فأراد آغا السراري ملافاة لهذه الشقاقات العائلية أن يبتعد عن الاستانة بحجة زيارة بيت الله الحرام ويستصحب الجارية وابنها معه، ولما أذن له السلطان بذلك سافر. وبينما هو في الطريق إذ هاجمته مراكب رهبان مالطه وقتلوه وأخذوا الولد ظناً منهم أنه ابن السلطان. ولما تحققوا من غلطتهم ربوا الولد على الدين المسيحي وأدخلوه طائفتهم

(١) آزاق هي آزوف Azov وتقع في الشمال الشرقي من بحر آزوف، ويطلق اسم (بحر آزوف) على الخليج الكبير الواقع شمال البحر الأسود.

واشتهر عند الإفرنج باسم (بدري أوتوماتو)[1] أي الأب العثماني، وبعد ذلك نزل الرهبان إلى جزيرة كريد وأحسن البنادقة وفادتهم فاغتاظ السلطان من ذلك غيظاً شديداً وحبس قناصل البندقية وانكلترا وهولاندا ولم يفرج عنهم إلا بعد أن أقنعه وزيره الأوّل بأن أغلب هؤلاء الرهبان بل كلهم من الفرنساويين، ومع ذلك فإنهم غير تابعين للحكومة الفرنساوية ولا لغيرها فهدأ باله، لكنه أمر بتجهيز عمارة بحرية قوية لفتح جزيرة كريد لأهمية موقعها الجغرافي الحربي عند مدخل بحر أرخبيل اليونان ولتوسطها في الطريق بين الأستانة وولاية الغرب، فجهزت الدونانمه وسارت باحتفال زائد تحت قيادة من يدعى يوسف باشا إلى أن ألقت مراسيها أمام مدينة خانية[2] أهم ثغور الجزيرة في ٢٩ ربيع الآخر سنة ١٠٥٥ (٢٤ يونيه سنة ١٦٤٥) وافتتحها بدون حرب تقريباً لعدم وصول الدونانمه البندقية إليها في الوقت المناسب، فانتقم البنادقة بحرق ثغور بتراس وكورون ومودون من بلاد موره. ويقال أن السلطان أراد في مقابلة ذلك قتل المسيحيين أجمع ولولا معارضة المفتي أسعد زاده أبي سعيد أفندي لتم هذا الأمر وربما كانت هذه دسيسة في كتب الافرنج إلا أنها تشهد على أيّ حال بحسن سياسة هذا المفتي لسعيه في منع هذا الأمر الذي لو تم كان يلحق بالدولة عاراً عظيماً كما لحق بمسيحي اسبانيا لما ارتكبوه من القتل والفتك بالمسلمين بعد فتح مدينة غرناطة[3]. وفي سنة

---

(١) بدرى هي پدر بمعنى (اب) وهي بكسر الپاء الفارسية والراء أيضاً عند الاضافة فكتبها المؤلف : (بدري اتوماتو) ومن حقها أن تكتب : (پدر اتوماتو) وأرى أنه يجب أن يكون أوتومانو بالنون لا بالتاء ، لأن أتومان معناها عثماني .

(٢) خانيه اوكانيه Canea تقع في الشمال الغربي من الجزيرة .

(٣) هي مدينة ببلاد الأندلس كانت مقراً لمملكة بني أمية الغربية ودخلها الافرنج سنة ١٤٩٢ في خلافة أبي عبدالله محمد ومن بقي بها من المسلمين أجبر على الردة أو المهاجرة مع مصادرة أموالهم فهاجر أغلبهم واضطهد من تخلف منهم اضطهاداً شديداً لم يسمع مثله في التاريخ حتى لم يبق بها ولا بجميع بلاد الأندلس مسلم واحد وحولت جميع مساجدهم الى كنائس وبددت كتبهم العلمية ويوجد بها كثير من الأبنية العربية محفوظ حتى الآن وخصوصاً قصر الحمراء الشهير .

١٦٤٦ فتح أغلب الجزيرة .وفي السنة التالية وضع الحصار أمام مدينة (كنديا)[١] عاصمة الجزيرة لكن حال دون إتمامه وفتح المدينة عصيان الجنود في الاستانة .

وتفصيله أن السلطان ابراهيم أراد أن يفتك برؤوس الإنكشارية في ليلة زفاف إحدى بناته على ابن الصدر الأعظم لتذمرهم وانتقادهم على أعماله ورغبتهم في التداخل في شؤون الدولة والخروج عن حدودهم فعلموا بقصد السلطان وتآمروا على عزله واجتمعوا بمسجد يقال له (أورطه جامع)[٢] وانضم إليهم بعض العلماء والمفتي عبد الرحيم أفندي وأهاجوا عساكر الانكشارية والسباه وقرّر الجميع بعزله وتولية ابنه محمد الرابع المولود في ٢٩ رمضان سنة ١٠٥١ (أوّل يناير سنة ١٦٤٢ م) أي الذي لم يتم السابعة من عمره . وتمت هذه الثورة يوم ١٨رجب سنة ١٠٥٨ (٨ أغسطس سنة ١٦٤٨) . وبعد ذلك بعشرة أيام أظهر السباه عدم ارتياحهم من الملك الفتي وطلبوا إعادة السلطان ابراهيم إلى عرش الخلافة فخشي رؤساء العصابة التي عزلته من تغلب السباه وإرجاعه رغم أنفهم وصمموا على قتله فساروا إلى السراي ومعهم الجلاد (قره علي) وقتلوه خنقاً كما قتلوا السلطان عثمان الثاني من قبله فكانت مدّة حكمه ٨ سنين و٩ شهور ، وسنه ٣٤ سنة وبذلك ارتاح خاطرهم واطمأن بالهم .

---

(١) كنديا Candia تقع في منتصف الجزيرة من الجهة الشمالية .

(٢) أورطه جامع أي المسجد الوسط .



١٩-

السلطان الغازي محمد خان الرابع

انفرد بالملك ولصغر سنه وقعت المملكة في الفوضى وصارت الجنود لا ترحم صغيراً ولا توقر كبيراً وسعوا في الأرض فساداً ورجعت الحالة إلى ما وصلت إليه قبل تولي السلطان مراد الرابع بل إلى أتعس منها . وسرى عدم النظام إلى الجنود المحاصرة (كنديا) بكيفية اضطرت قائدهم السر عسكر حسين باشا لرفع الحصار عنها، وكذلك كان سريان هذا الداء العضال إلى الجنود البحرية سبب انهزام الدونانمه العثمانية أمام دونانمة العدوّ أمام مدينة فوقيه[١] سنة ١٦٤٩ ثم ثار بآسيا الصغرى في هذه السنة أيضاً رجل يدعى (قاطرجي أوغلي)[٢] وانضم إليه آخر يدعى (كورجي يني) وهزما أحمد باشا والي الأناطول وسارا إلى القسطنطينية، ولولا وقوع الشقاق بينهما لخيف على العاصمة من وقوعها في قبضتهما لكن وقع الخلف بينهما وافترقا فحاربهما الجند وهزم الثاني وقتل وأرسل رأسه إلى السلطان. وتمكن الآخر وهو قاطرجي أوغلي من الحصول على العفو عنه وتعيينه والياً للقرمان. وبذلك انتهت هذه الثورة. ولولا اشتغال النمسا بالحرب الهائلة الدينية المعروفة

---

(١) مدينة يونانية قديمة اسمها (فوسه) على ساحل البحر المتوسط وتبعد عن مدينة أزمير بنحو ٤٢ كيلومتر وكانت في أيام اليونان القدماء زاهرة متقدمة ويقال ان مؤسسي مدينة مرسيليا بفرنسا من سكانها وهي الآن منحطة وتجارتها لا تذكر بسبب وقوعها بالقرب من أزمير ولا يزيد عدد سكانها عن أربعة آلاف نسمة .

أقول : هي مدينة Fuça وتقع الى شمال أزمير وفي شمالها مدينة أخرى تسمى فوسه الجديدة Yeni Fuça يني فوسه .

(٢) قاطرجي أوغلي أي ابن سائق البغال .

بحرب الثلاثين سنة [1] لانتهزت هذه الفرصة وفتحت بلاد المجر بدون مقاومة. ومن جهة أخرى لولا ولاء المجر وتفضيلهم الحكومة العثمانية على حكومة النمسا لثاروا طلباً للاستقلال. وبعد ذلك توالت الثورات تارة من الانكشارية، وطوراً من السباه، وآونة من الأهالي لما يثقل عليهم نير استبداد الجنود وتعاقب عزل وتنصيب الصدور بسرعة غريبة لم تسبق في الدولة ولا في أيام حكم السلطان سليم تبعاً للأهواء والغايات ، واختل النظام أو بعبارة صريحة صار عدم النظام نظاماً للدولة .

وفي هذه الأثناء تغلبت مراكب جمهورية البندقية على عمارة الدولة عند مدخل الدردنيل واحتلت (تنيدوس)[2] وجزيرة لمنوس[3] وغيرهما ومنعت بذلك المراكب الحاملة للقمح وأصناف المأكولات عن الوصول إلى القسطنطينية من هذا الطريق حتى غلت جميع الأصناف. واستمرّ الحال على هذا المنوال ولا نظام ولا أمن ولا سكينة، وبالاختصار لا حكومة ثابتة إلى أن قيض لها الوالي سبحانه وتعالى الوزير محمد باشا الشهير بكوبريلي[4] الذي تولى منصب الصدارة سنة ١٠٦٧ (سنة ١٦٥٦)، فعامل الإنكشارية معاملة من يريد أن يطاع إطاعة عمياء وقتل منهم خلقاً كثيراً عندما ثاروا كعادتهم لما رأوه رجلاً خبيراً بدخائل الأمور قادراً على قمعهم وإلزامهم العود إلى السكينة، وأمر بعد تعيينه بقليل بشنق بطريرك الأروام لما ثبت له تدخله في الدسائس والفتن الداخلية .

ومما يؤثر عن هذا الوزير الجليل أنه استصدر أمراً من السلطان بمنع قتل سلفه، وكان قد أمر بقتله ، وتعيينه والياً على (كانيشا)[5]. وفي أواسط يوليه سنة

---

(١) هي الحرب التي تأجج سعيرها بين الكاثوليك والبروتستانت من سنة ١٦١٨ الى سنة ١٦٤٨ وانتهت بمعاهدة وستفاليا التي تعتبر أساس التوازن الدولي في أوربا .

(٢) تنيدوس Tenedos جزيرة صغيرة تقع أمام بر الأناطول عند مدخل الدردنيل .

(٣) لمنوس Lemnos تقع الى الغرب من جزيرة تنيدوس وتشكلان معاً قلاعاً لحماية الدردنيل .

(٤) الكوپرو : هو الجسر ومعناها صاحب الجسور أو صانع الجسور ، وما زال المصريون الى اليوم يسمون الجسر كوبري ، وقد كان لاسرة كوپرولي شأن في التاريخ العثماني .

(٥) كانيشا Kaniza في شمال يوگوسلافيا .

١٦٥٧ أرسل المراكب لمحاربة سفن البنادقة المحاصرة لمدخل الدردنيل فحاربتها ولم تساعدها الظروف على نوال النصر، ثم بعد موت القائد البحري البندقي الشهير (موشنجو)[١] بنحو ستة أسابيع انتصرت العمارة العثمانية على البنادقة واستردّت منهم ما احتلوه من الثغور والجزائر.

وفي أثناء ذلك كانت نيران الحروب متأججة بين مملكة بولونيا وشارل جوستاف[٢] ملك السويد فأرسل هذا سفراء إلى الباب العالي يطلبون منه إبرام معاهدة هجومية ودفاعية لمحاربة بولونيا وتكون هذه المملكة تحت حماية الدولة بالفعل فامتنعت عن قبول هذا الوفاق. ولما علمت أن (راكوكسي) أمير ترنسلفانيا اتحد مع السويد على قتال بولونيا باتحاده مع قرال الفلاخ والبغدان أمرت بعزله وعزل قرال الفلاخ المدعو قسطنطين الأوّل وتعيين (ميهن) الرومي مكانه، فقابل راكوكسي الإرادة السلطانية بالعصيان وانتصر على العثمانيين بالقرب من (ليبا)[٣] سنة ١٦٥٨ لحصول عصيانه فجأة وعدم الاستعداد لصدّه. ثم سار كوبريلي لقمعه وضم إلى جنوده جيوش ميهن أمير الفلاخ الجديد الذي كان يريد مساعدة راكوكسي، لكنه لم ير بدّاً من مرافقة كوبريلي خوفاً من ظهور خيانته في وقت غير مناسب وباتحاد الجيشين تمكن كوبريلي من قهر هذا العاصي وطرده من البلاد وتعيين من يدعى (اشاتيوس بركسي) قـرالا على ترنسلفانيا بشرط أن يدفع خراجاً سنوياً قدره أربعون ألف دوكا. وبعد استتباب الأمن عاد الصدر إلى الأستانة وبمجرّد

---

(١) قائد بحري من عائلة قديمة جداً بالبندقية نبغ منها عدة رؤساء لهذه الجمهورية وأقول: هو : Mocenigo .

(٢) ولد هذا الملك الشهير في سنة ١٦٢٢ وتولى ملك السويد سنة ١٦٥٤ وكان ميالاً للحرب لتوسيع نطاق مملكته والسيادة على شمال أوروبا فحارب بولونيا سنة ١٦٥٥ وقهر جيوشها في واقعة وارسوفيا وفتح معظم ولاياتها. ثم حارب الدانمرك في شتاء سنة ١٦٥٧ ولشدة البرد وتجمد مياه البحر بين سواحل السويد ومدينة كوبنهاج عاصمة الدانمرك مر بجيوشه على البحر وهاجم المدينة ودخلها وألزم ملكها أن يتنازل له عن عدة مقاطعات مهمة. ثم عاد عليها الكرة، وفي أثناء حصارها توفي في سنة ١٦٦٠ ونجت الدانمرك منه

(٣) ليبا Leba : في بلاد المجر الى الشمال الشرقي من العاصمة بودابست بالقرب من مدينة ايگير.

عودته أظهر ميهن قرال الفلاخ العصيان واضطهد المسلمين وقتل منهم خلقاً كثيراً وصادرهم في أموالهم وأملاكهم واستدعى راكوكسي المعزول لمساعدته واعداً له بإرجاعه إلى ولايته بعد النصر على العثمانيين وأرسلوا إلى (غيكا) قرال البغدان يوسوسون له بالانضمام إليهما فلم يصغ إلى وساوسهم ، ولذلك ساروا إليه وانتصروا عليه بالقرب من مدينة (ياسى)[1] عاصمة إمارته. ولما وصل خبر تمرّدهم إلى الأستانة رجع كوبريلي على جناح السرعة لمحاربتهما قبل اشتداد الخطب واتساع الخرق على الراقع وانتصر عليهما نصراً مبيناً ثم عزل ميهن جزاء خيانته وعين (غيكا) قرال البغدان قرالاً على الفلاخ أيضاً سنة ١٦٥٩. وفي السنة التالية احتلّ والي بود عاصمة المجر مدينة (جروس واردين)[2] التابعة للنمسا بعد مناوشات خفيفة فاعتبرت النمسا ذلك إعلاناً للحرب وابتدأت الحركات العدوانية بين الطرفين .

هذا ولنذكر شيئاً من علاقات الدولة مع فرنسا أثناء هذه الاضطرابات الداخلية التي جرت فيها الدماء وقتل فيها ملكان كما مر فنقول: إنه لم يحصل تغير في هذه العلاقات إلا في وقت اشتغال فرنسا في محاربة النمسا أيام وزارة (الكاردينال ريشليو)[3] الذي كان عاملاً على اذلالها إعلاء لشأن فرنسا ، فأخذ نفوذ فرنسا لدى

---

(١) تسمى هذه المدينة ياش عند الترك وهي مدينة رومانية قديمة وعاصمة ولاية البغدان وأطلق اسمها على معاهدة أمضيت فيها بين الروس والدولة العلية في ٩ يناير سنة ١٧٩٢م.
وأقول : هي ياسي Jasi وتقع في الشمال الشرقي من رومانيا بالقرب من الحدود الرومانية الروسية . وفي كثير من اللغات تلفظ ال j مثل i كما هي الحال هنا .

(٢) جروس واردين هي : گروس واردين وتسمى باللغة الالمانية Peterwardein وتقع هذه المدينة في الشمال الغربي من يوگوسلاڤيا على خط مستقيم شمال بلگراد .

(٣) اشتهر هذا الكردينال في تاريخ العالم الأوربي بالسياسة والتدبير ويسميه البعض بسمارك زمانه وكانت كل مساعيه موجهة نحو أمرين ، أولهما : اذلال أشراف فرنسا لتقوية سلطة الحكومة ، وثانيهما : اضعاف مملكة النمسا حتى لا يخشى منها على فرنسا فساعد جوتساف ادولف ملك السويد على محاربتها ثم حاربتها فرنسا جهاراً وبسبب سياسته هذه أمضيت معاهدة وست فاليا الشهيرة سنة ١٦٤٨ بعد موته بست سنوات . واضطهد البروتستانت =

الباب العالي في الضعف شيئاً فشيئاً حتى تقاسمت معها البندقية حق حماية الكنائس المسيحية في غلطة أيام السلطان مراد الرابع الذي طرد طغمة اليسوعيين من الأستانة سنة ١٦٢٨ بناء على الحاح سفراء انكلترا وهولاندا سعياً وراء إضعاف نفوذ الكاتوليك وتقرير نفوذ البروتستانت بما أن دولتي انكلترا وهولاندا كانتا في ذلك العصر بروتستانتيين دون باقي الدول الأوروبية ولعدم مدافعة فرانسا عن امتيازاتها اختص اليونانيون بخدمة بيت المقدس مع أن ذلك كان منوطاً بالرهبان الكاتوليك بمقتضى المعاهدات المبرمة مع سليمان الأوّل وتجدّدت أيام محمد الثالث وأحمد الأوّل كما مر. ومما زاد علاقات الدولتين فتوراً وجعل الحق بجانب الدولة العثمانية تدخل فرنسا سرّاً بمساعدة البنادقة على الدفاع عن جزيرة كريد وإمدادها لهم بالسلاح وضبط عدّة مراسلات رمزية كانت مرسلة إلى المسيو (دي لاهي) مع شخص فرنساوي موظف في بحرية البندقية وهو سلمها بنفسه إلى الوزير (كوبريلي) سنة ١٦٥٩ طمعاً في المال وكان إذ ذاك بمدينة أدرنه. ولما لم يمكنه حلّ رموزها أرسل إلى الأستانة يستدعي السفير الفرنساوي، ولتمرّضه أرسل ولده إلى أدرنه مكانه، فلما مثل بين يدي الصدر الأعظم وسأله عن معنى هذه الرموز لم يراع في جوابه آداب المخاطبة، فأمر بسجنه في الحال. ولما بلغ خبر سجنه إلى والده سافر إلى أدرنه خوفاً على حياة ولده ولم يمنعه اشتداد مرضه عن السفر وقابل الوزير كوبريلي محمدباشا، ولما لم يرشده السفير عن معنى الجوابات المرموزة لم يقبل

= وفتح مدينة لاروشيـل التي احتموا بها سنة ١٦٢٨. وكان محباً للانتقام لا يتأخر أمام أي أمر لنفاذ أغراضه لكنه أفاد فرنسا في الداخل والخارج ولولاه لسقطت بسبب ضعف ملكها لويز الثالث عشر ووهن عزيمته. ولهذا الكردينال الفضل في تأسيس مجلس العلوم الفرنساوي (اكاديمي) سنة ١٦٣٥ وتأسيس حديقة النباتات وعدة مدارس أخرى وكانت ولادته سنة ١٥٨٥ ووفاته سنة ٦٤٢.

أقول لا روشيل La Rochelle : مدينة سياحية غرب فرانسا على ساحل الأطلسي.

وست فاليا أو وست فالي بالافرنسية أو وست فالن بالالمانية Westfalen : ولاية من ولايات المانيا الغربية عاصمتها مونستر Münster.

اخلاء سبيل ابنه بل سافر إلى ولاية ترنسلفانيا ولم يطلق سراحه إلا بعد عودته في سنة ١٦٦٠. ولما علم الكردينال مازرين[1] بحبس ابن السفير أرسل إلى الاستانة سفيراً فوق العادة اسمه المسيو دي بلندل ومعه جواب من سلطان فرنسا يطلب فيه الاعتذار عما حصل وعزل الصدر الأعظم، لكن لم يسمح لهذا السفير بالوصول إلى السلطان بل قابله الصدر الأعظم بكل تعاظم وكبرياء. ولذلك ساعدت فرنسا كريد جهاراً وأرسلت إليها أربعة آلاف جندي وأجازت إلى البندقية جمع عساكر متطوّعة من فرنسا وأمدّت النمسا بالمال طمعاً في إشغال الدولة وانتقاماً منها لكن لم تثن هذه الاجراءآت عزيمة كوبريلي محمد باشا بل ما لبث يقاوم أعداء الدولة في الداخل والخارج حتى أعاد لها سالف مجدها وجعلها محترمة في أعين الدول أجمع بعد أن كادت تؤدي بها الفتن الداخلية إلى الدمار ولما أحس باقتراب أجله لاشتداد المرض عليه طلب منه السلطان محمد الرابع أن يدله على من يعينه خلفاً له بعد وفاته فأوصاه بتولية ابنه أحمد ثم توفي سنة ١٠٧٢ (سنة ١٦٦١) وخلفه ابنه كوبريلي زاده أحمد باشا.

فتح قلعة نوهزل

وكان خير خلف لخير سلف فإنه كان متصفاً بالشجاعة والإقدام وحسن الرأي وأصالة التدبير واستمر على خطة أبيه من عدم التساهل مع الجندية ومجازاة من يقع منه أقل أمر مخل بالنظام باشدّ العقاب ومحاربة أعداء الدولة بدون فتور أو ملال حتى يزيل من أذهانهم ما خامرها من تضعضع أحوال الدولة وقرب زوالها. ولذلك لم يقبل ما فاتحته به دولة النمسا وجمهورية البندقية من الصلح

(١) ولد هذا الكردينال باحدى مدن ايطاليا سنة ١٦٠٢ واستدعاه ريشليو الى فرنسا ليرشحه لمنصب الوزارة ولما قرب موته أوصى الملك لويز الثالث عشر بتنصيبه بعده فعينه وزيراً بعد وفاته سنة ١٦٤٣ ثم عضواً في مجلس الوصاية على ولده لويز الرابع عشر وبحسن سياسته أمضيت معاهدة وست فاليا ومعاهدة البيريني. وتوفي سنة ١٦٦١ بعد أن سهل سبل ارتقاء فرنسا الى أوج عظمتها في عهد لويز الرابع عشر الملقب بالكبير.

وقاد الجيوش بنفسه وعبر نهر الطونة لمحاربة النمسا ووضع الحصار أمام قلعة (نوهزل)[1] في يوم ١٣ محرم سنة ١٠٧٤ (١٧ أغسطس سنة ١٦٦٣).ومع أن هذه القلعة كانت مشهورة في جميع أوروبا بالمناعة وعدم إمكان أي أحد التغلب عليها وفتحها فقد اضطر كوبريلي أحمد باشا حاميتها إلى التسليم بشرط خروج من بها من الجنود بدون أن يمسهم ضرر تاركين ما بها من الأسلحة والذخائر وأخلوها فعلاً في ٢٥ صفر سنة ١٠٧٤ (٢٨ سبتمبر سنة ١٦٦٣) بعد البدء في حصارها بستة أسابيع. ولذلك اضطربت أوروبا باجمعها لهول هذا الخبر الذي دوّى في آذان ملوك أوروبا ووزرائها كالرعد حتى وضعوا أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت. وكان هذا الفتح المبين أشد تأثيراً على ليوبولد[2] امبراطور النمسا أكثر من غيره لدخول الجيوش العثمانية في بلاده وانتشارها في اقليمي مورافيا[3] وسيليزيا[4] فاتحين غازين حتى خيل له أن السلطان سليمان قد بعث من رمسه لفتح

---

(١) نوهزل Nevhäusel وتقع الى الشرق من ڤينا في تشيكوسلوفاكيا .

(٢) هوليوبولد الأول امبراطور ألمانيا ولد سنة ١٦٤٠ وتولى بعد موت أبيه فردينان الثالث سنة ١٦٥٨ وحارب الترك وقاومهم مقاومة شديدة في واقعة سان جوتار حيث كانت جيوشه تحت قيادة الجنرال منت كوكللي في سنة ١٦٦٤ . وفي عهده ضمت بلاد الألزاس إلى فرنسا . وفي سنة ١٦٨٣ قصد العثمانيون مدينة ويانه عاصمة بلاده وحاصروها بالاتحاد مع المجر ولولا مساعدة جميع الممالك المسيحية تقريباً لسقطت في قبضتهم . وفي سنة ١٦٩٩ أمضى مع الباب العالي معاهدة كارلوفتس الشهيرة التي سيأتي ذكرها في صلب هذا الكتاب . وفي أواخر حكمه ابتدأت بينه وبين فرنسا الحرب بسبب ملك اسبانيا الذي كان يريد لويز الرابع عشر اقامة حفيده فيليب الخامس ملكاً عليها وتوفي سنة ١٧٠٥ قبل انتهاء هذه الحروب .

(٣) موراڤيا Moravie . منطقة من تشيكوسلوفاكيا تقع الى الشرق من بوهيميا ، وقد سميت بهذا الاسم تبعاً لمجموعة الأنهار المعروفة باسم موراڤا وعاصمتها برنو Brno . وكانت موراڤيا مركزاً لامبراطورية عظيمة قضي عليها سنة ٩٠٨ . وفي سنة ١٢٠٩ انضمت نهائياً الى مملكة بوهيميا .

(٤) سيليزيا Silésie منطقة في أوروپا الوسطى يخترقها نهر أودير Oder . في سنة ١٩٢١ استولت پولونيا على الجزء الجنوبي منها حيث مناجم الفحم . ثم استولى عليها الالمان =

ويانه عاصمة دولته. ولذلك وسط البابا اسكندر السابع في طلبه المساعدة له من لويز الرابع عشر[1] ملك فرنسا وكان قد عرض عليه في ابتداء الحرب امداده باربعين ألفاً من الالمانيين المحالفين له فأبى خوفاً من إظهار الضعف، فسعى البابا جهده لدى ملك فرنسا حتى قبل بإرساله ستة آلاف جندي فرنساوي وأربعة وعشرين ألفاً من محالفيه الالمانيين تحت قيادة الكونت دي كوليني .

وانضم هذا الجيش إلى الجيش النمساوي القائد له الكونت دي ستروتزي وابتدأت المناوشات بين الجيشين المتحاربين فقتل القائد العام النمساوي وخلفه القائد الشهير (مونت كوكوللي). وكان قد انضم إلى الجيش الفرنساوي عدد عظيم من شبان الأشراف تحت رئاسة الدوك دي لافوياد . وفي الأوائل كان النصر في جانب العثمانيين فاحتل كوبريلي أحمد باشا مدينة (سرنوار)[2] وعسكر على شاطىء نهر يقال له نهر (راب) والأعداء معسكرون أمامه. وبعد أن حاول عبوره وصدّه النمساوي الفرنساوي جمع كل قواه في يوم ٨ محرم سنة ١٠٧٥ (أوّل

= وفي سنة ١٩٤٥ أعيدت الى پولونيا ما عدا الجزء التشيكي فطردت پولونيا الألمان الذي استوطنوها وأصبحت جزءاً من پولونيا .

(١) ولد هذا الملك العظيم الشأن سنة ١٦٣٨ وتولى الملك بعد موت أبيه لويز الثالث عشر وسنه خمس سنوات وكانت أيامه أيام حروب مع اسبانيا والنمسا وغيرهما وتألبت عليه أغلب الدول أكثر من مرة وتاريخه مشحون بالوقائع الشهيرة التي امتاز فيها كثير من القواد البرية والبحرية مما يطول شرحه. وفي عصره تقدمت جميع العلوم ونمت التجارة والزراعة لكن تضعضعت الأحوال في آخر حكمه بسبب استمرار الحروب ومما يجعل في تاريخه نقطة سوداء اضطهاد البروتستانت والغاؤه ما منحه لهم هنري الرابع من الحرية الدينية بمقتضى الأمر السامي الصادر في مدينة (نانت) حتى هاجر كثير من الأشراف والمزارعين والصناع الى البلاد الخارجية للتمتع بالحرية الدينية. وتوفي في أول سبتمبر سنة ١٧١٥ عن ٧٧ سنة وكانت مدة حكمه ٧٢ سنة وخلفه في الملك لويز الخامس عشر ابن أحد أحفاده .

(٢) سرنوار : هي مدينة Sarvar وتقع الى الشرق من نهر راب . والى الجنوب الشرقي من ڤينا .

أغسطس سنة ١٦٦٤) وعبر النهر عنوة. وبعد قليل انتصر على قلب جيش العدوّ ولولا تدخل الفرنساويين وخصوصاً الأشراف منهم لتم للعثمانيين النصر. لكن لم يمكن الإنكشارية الثبات أمام جنود العدوّ الأكثر منهم عدداً فإنهم كلما قتل منهم صف تقدّم الآخر وبذلك انتهى اليوم بدون انتصار تام لأحد الفريقين، فإن العثمانيين حافظوا على مراكزهم بدون تقدم للأمام ـ وسميت هذه الواقعة بواقعة (سان جوتار)[1] نسبة لكنيسة قديمة حصلت الحرب بالقرب منها. وبعد ذلك تبادلت المخابرات توصلاً للصلح ـ وبعد عشرة أيام أبرمت بين الطرفين معاهدة أهم ما بها إخلاء الجيش لإقليم ترنسلفانيا وتعيين (أبافي) حاكماً عليها تحت سيادة الدولة العلية وتقسيم بلاد المجر بين الدولتين بأن يكون للنمسا ثلاث ولايات وللباب العالي أربعة مع بقاء حصني (نوفيجراد)[2] (ونوهزل) تابعين للدولة العلية.

هذا ولو أن الحرب انتهت على حدود النمسا إلا أن فرنسا ما زالت مراكبها تطارد سفن المغرب بحجة أنها تغزو سفنها. وما زالت هذه حجتهم حتى استولوا على إقليمي الجزائر وتونس في هذا القرن واستمر هذا الحرب مدّة بغير صفة رسمية. وفي سنة ١٦٦٦ أرسل الوزير الفرنساوي (كولبر)[3] الذي خلف (مازارين) سفيراً للدولة لإصلاح ذات بينهما لكن لم يصب في الإنتخاب فإنه أرسل ابن المسيو دي لاهي الذي حبسه الوزير كوبريلي أحمد باشا في أدرنه كما سبق ذكره

---

(١) سان كَوتار Gotar : مدينة نمسوية تقع على الجانب الغربي من نهر الراب.

(٢) نوفيكراد Novegrad : تقع اليوم في المجر الى الشمال من بودابست والى الشمال من نهر الدانوب

(٣) اقتصادي شهير ولد سنة ١٦١٩ فتدرب على الأعمال في وزارة الكردينال مازرين وفي سنة ١٦٦٢ عين مراقباً عاماً للمالية فأجرى بها عدة اصلاحات وسوى كافة ديوان الحكومة وانقص الضرائب حتى عمت الرفاهية والثروة. وإليه يرجع فضل تأسيس المرصد الفلكي وفتح خليج لانج دوك الموصل بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الاطلانطيقي لسهولة الملاحة وله عدة مآثر أخرى يضيق المقام عن حصرها. وفي سنة ١٦٦٩ أضاف اليه الملك نظارة البحرية فرتبها أحسن ترتيب وأنشأ عدة سفن. وتوفي سنة ١٦٨٣ بعد أن خلد اسمه في تاريخ فرنسا باعماله التي لم يزل كثير منها باقياً الى الآن.

ولذلك لم تفد مأموريته شيئاً بل أبى الصدر تجديد الامتيازات الفرنساوية التجارية وحرمها حق إمرار بضائعها من مصر فالسويس إلى الهند. وزيادة على ذلك منحت إلى جمهورية (جنوا) امتيازات خصوصية شبيهة بامتيازات انكلترا، ولذلك جاهرت فرنسا بمساعدة مدينة (كانديا)[1] على محاربة العثمانيين. فسار الصدر سنة ١٦٦٧ بنفسه لتتميم فتح هذه المدينة الحصينة التي كادت تعيي الدولة. واستمر الحصار والقتال مدّة أكثر من سنتين لإمداد فرنسا لها بالمال والرجال والسفن الحربية وأخيراً اضطرت الحامية إلى التسليم فسلمها قائدها (موروزيني) في ٢٩ ربيع الثاني سنة ١٠٨٠ (٢٦ سبتمبر سنة ١٦٦٩) بعد أن أمضى مع الصدر معاهدة بالنيابة عن جمهورية البندقية تقضي بالتنازل للدولة العلية عن جزيرة كريد ما عدا ثلاث قرى وهي: (قره بوزا) و(سودا) و(سبينا لونجا)[2] وصدّقت البندقية عليها في فبراير سنة ١٦٧٠ وفي هذه الأثناء كان المسيو دي لاهي سفير فرنسا مقيماً بالأستانة يسعى جهده في الحصول على تجديد الامتيازات فلم يفلح.

وفي سنة ١٦٧٠ أرسل لويز الرابع عشر سفيراً غيره يدعى الماركي دي نوانتل بعمارة بحرية حربية بقصد إرهاب الصدر وتهديده بالحرب إذا لم يذعن لطلبات فرانسا لكن لم ترهبه هذه التظاهرات بل قابل السفير بكل سكون وقال له أن تلك المعاهدات لم تكن إلا منحاً سلطانية لا معاهدات اضطرارية واجبة التنفيذ وأنه إن لم يرتح لهذا الجواب فما عليه إلا الرحيل. ولما وصل هذا الجواب إلى ملك فرنسا أراد اعلان الحرب على الدولة ولولا نصائح الوزير (كولبر) لركبت فرانسا هذا المركب الخشن وجلبت لنفسها ضرراً فادحاً بقفل أبواب الشرق أمام مراكبها بل تمكن كولبر بحكمته وسياسته ومعاملة الدولة العلية باللين والخضوع من تجديد المعاهدات القديمة في سنة ١٦٧٣ وفوّض ثانياً إلى فرنسا حق حماية بيت المقدس كما كان لها ذلك من أيام السلطان سليمان، وبذلك عادت العلاقات إلى سابق صفائها بين الدولتين. ومما زاد حدود الدولة اتساعاً ومنعة من جهة الشمال خضوع

---

(١) كانديا جاءت من قبل كنديا.

(٢) هذه القرى الثلاث موجودة في شمال الجزيرة.

جميع القوزاق الساكنين بالجزء الجنوبي من بلاد الروسيا إلى الخليفة الأعظم محمد الرابع بدون حرب بل حباً في الدخول في حمى حامي دولة الإسلام. ولذلك أغارت بولونيا على ولاية (أوكرين)(١) فاستنجد حاكمها الأكبر بالعثمانيين فانجده السلطان وسار بنفسه في جيش جرار، ووصل في قليل من الزمن إلى حصن رامنيك(٢) في ٢٣ ربيع آخر سنة ١٠٨٣ (١٨ أغسطس سنة ١٦٧٢) واحتل هذا الحصن عنوة بعد محاصرة استمرت عشرة أيام. وكذلك احتل مدينة لمبرج الشهيرة(٣)، فطلب سلطانهم (ميشل) الصلح على أن يترك اقليم أوكرين للقوزاق وولاية (بودوليا)(٤) للدولة العلية ويدفع لها جزية سنوية قدرها مائتان وعشرون ألف بندقي(٥) ذهبا، فقبل السلطان هذه الشروط وأمضيت بينهما في ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٠٨٣ (١٨ سبتمبر سنة ١٦٧٢) أي بعد إعلان الحرب بشهر واحد وسميت هذه المعاهدة بمعاهدة بوزاكس.

لكن لم تقبل الأمة البولونية بهذا الوفاق بل أصرّت على استمرار القتال وأرسلت قائدهم الشهير سوبيسكي بجيوش جرارة لمحاربة العثمانيين فاستردّ مدينة لمبرج.

---

(١) أوكرين Ukraine هي الآن جمهورية من جمهوريات الاتحاد السوفييتي عاصمتها كييف Kiev وتقع الى الشمال من البحر الاسود وبحر آزوف Azov . وقد استولى عليها الالمان سنة ١٩٤١ فلما عاد الروس واستولوا عليها سنة ١٩٤٢ هجروا أهلها المسلمين بالملايين الى سيبيريا وأماتوا أكثر من مليون منهم في الطريق.

(٢) رامنيك: في الاتحاد السوفييتي بالقرب من لمبرك.

(٣) هي عاصمة ولاية غاليسيا التابعة مملكة النمسا ويبلغ عدد سكانها ١٢١ ألف نسمة وتبعد عن مدينة ويانه بمسافة ٥٨٠ كيلو متراً في الاتجاه الشمالي الشرقي. واشتهرت في التاريخ بدخول شارل الثاني ملك السويد بها عنوة سنة ١٠٧٤ وتنصيبه ستانسلاس ملكاً على بولونيا ضد رغائب الدول. وهي تابعة للنمسا من عهد تقسيم بولونيا سنة ١٧٧٣.
أقول ان لمبرگ Lemberg هي اليوم في الاتحاد السوفييتي بالقرب من الحدود الجنوبية الشرقية من پولونيا.

(٤) بودوليا Podolie هو اقليم يقع في غرب أوكرانيا ويحده من الجنوب نهر دينيستر.

(٥) نوع من العملة الذهبية ينسب الى مدينة البندقية وكان يعتبر من أجود الذهب.

وإظهاراً لممنونية الأمة انتخبته ملكاً عليها بعد موت ميشل سنة ١٦٧٣، واستمرّت الحرب بين الدولتين سجالاً إلى سنة ١٦٧٦، وفيها جدّد الملك سوبيسكي الصلح بعد أن فقد معظم جيوشه في هذه الحروب المستمرّة وتنازل للدولة العلية عما كان تنازل لها عنه الملك ميشل إلا بعض مدن قليلة الأهمية وكانت هذه المعاهدة خاتمة أعمال كوبريلي أحمد باشا الذي توفي بعد إتمامها بقليل في ٢٤ رمضان سنة ١٠٨٧ (٣٠ اكتوبر سنة ١٦٧٦) عن واحد وأربعين سنة قضي منها خمس عشرة سنة في منصب الصدارة العظمى بكل أمانة وصداقة سائراً في ذلك على خطة والده المرحوم كوبريلي محمد باشا. وتقلد منصب الصدارة بعده زوج أخته قره مصطفى ولم يكن كفؤاً للسير في الطريق الذي رسمه كوبريلي الكبير وولده بل اتبع مصلحته الذاتية وباع المناصب العالية والمعاهدات والامتيازات المجحفة بالدولة حالاً واستقبالاً بدراهم معدودة. وبسوء سياسته كدّر خواطر القوزاق وأبعدهم عن الدولة حتى إن خان إقليم (أوكرين) عصاها جهاراً في فبراير سنة ١٦٧٧ واستنجد بالروسيا التي كانت آخذة إذ ذاك في تنظيم داخليتها وتقدّم أمتها وكانت تتوق للدخول ضمن المجتمع الأوروبي فامدّته بالرجال وحاربت عساكر الدولة واستمرّ الحرب بين القوزاق والروس من جهة والعثمانيين من جهة أخرى بين أخذ وردّ حتى سنة ١٦٨١ حيث تم الصلح بينهم على بقاء الحالة على ما كانت عليه قبل ابتداء الحرب، وسميت هذه المعاهدة بمعاهدة رادزين[1].

وفي هذه السنة سار قره مصطفى باشا إلى بلاد المجر لمحاربة النمسا بناء على استدعاء (تيليكي) أحد أشراف المجر الذي أثار الايـالات المجرية التابعة للنمسا للتخلص من استبدادها الديني، فان الامبراطور ليوبولد لكونه كاتوليكياً كان يأمر بقتل كل من يلوح عليه أدنى ميل إلى مذهب البروتستانت.

حصار مدينة ويانه أخر دفعة

وبعد أن انتصر عدّة مرات على النمساويين قصد مدينة ويانة عاصمة النمسا فحاصرها سنة ١٦٨٣ مدّة شهرين واستولى على كافة قلاعها الأمامية وهدم أسوارها

(١) رادزين Radzyn بلدة بولونية تقع الى الجنوب الغربي من العاصمة ڤارسو.

بالمدافع وألغام البارود، ولما لم يبق عليه إلا المهاجمة الأخيرة المتممة للفتح أتى سوبيسكي ملك بولونيا ومنتخبي (ساكس)[1] و(بافيرا)[2] بجيوشهم بناء على إلحاح البابا عليهم واستنهاضه هممهم لمحاربة المسلمين حتى أضرم في قلوبهم نار التعصب الديني. وفي يوم ٢٠ رمضان سنة ١٠٩٤ (١٢ سبتمبر سنة ١٦٨٣) هاجم سوبيسكي ومن معه العثمانيين في المرتفعات المتحصنين بها، وبعد أن استمر القتال طول النهار فاز المسيحيون بالنصر وانهزم قره مصطفى باشا وجيوشه أمامهم تاركاً كافة المدافع والذخائر والمؤن. فكان يوماً مشهوداً يجعل الولدان شيباً، ثم جمع قره مصطفى باشا ما بقي من جنوده ولمَّ شعثهم على نهر (راب) ومن هناك قفل راجعاً إلى مدينة بود والملك سوبيسكي سائر خلفه يقتل كل من يتخلف في السير، وفتح مدينة جران بكل سهولة. ولما وصل خبر هذا الخذلان الذي لم يسبق لجيوش الدولة أمر السلطان محمد الرابع بقتل الصدر قره مصطفى باشا وأرسل أحد رجال حاشيته فقتله وأرسل برأسه إلى القسطنطينية وعين مكانه ابراهيم باشا سنة ١٠٩٥.

وبعد استخلاص مدينة ويانه تألبت كل من النمسا وبولونيا والبندقية ورهبنة مالطه والبابا ومملكة الروسيا على محاربة الدولة الإسلامية الوحيدة لمحوها من العالم السياسي. والذي يدل على أن هذا التحالف كان دينياً محضاً تسميته بالتحالف المقدّس. ومما زاد أحوال هذه الدولة القائمة بمفردها أمام جميع الدول المسيحية ارتباكاً قطع العلاقات بينها وبين فرنسا بسبب المناوشات البحرية المستمرة بين مراكبها وقراصنة المغرب. فإن الأميرال دوكين[3] تبع ثماني مراكب من ميناء طرابلس الغرب إلى جزيرة

---

(١) ساكس Saxe اقليم يقع الآن في الجزء الشرقي الجنوبي من المانيا الديمقراطية الشيوعية
(٢) بافيرا Bavière اقليم يقع الى الجنوب من المانيا الاتحادية وعاصمته ميونخ.
(٣) ولد هذا الاميرال بمدينة (دييب) من أعمال فرنسا سنة ١٦١٠ من عائلة شريفة واتخذ الملاحة مهنة ونبغ فيها بسرعة غريبة حتى صار رباناً لسفينة وسنه سبعة عشر سنة ولما حصلت الاضطرابات في صغر لويس الرابع عشر هاجر الى بلاد السويد وعين بها (فيس أميرال) وانتصر على دونانمة الدانيمارك. وفي سنة ١٦٤٧ رجع الى فرنسا واشتهر =

ساقز [1] ولما التجأت إلى فرضتها وأراد الأميرال الدخول إلى الميناء خلفها ومنعه حاكم الجزيرة أطلق مدافعه على المدينة بدون إعلان حرب وجاوبته قلاعها ولم يمتنع عن القاء القنابل على بيوت السكان حتى دمر المدينة. وفي سنة ١٦٤٨ أطلق دوكين أيضاً المدافع على مدينة الجزائر بالغرب مدّة ولم يكف عن إلقاء المقذوفات النارية عليها حتى دفع إليه أهلها مليونين ومائتي ألف قرش غرامة حربية وأطلقوا سراح من عندهم من أسرى الفرنساويين. وفي السنة التالية فعل هذا الأمر الشنيع أيضاً في ميناء طرابلس الغرب. ولاشتغال الدولة بمحاربة التحالف المقدّس ضربت كشحاً عن هذه التعدّيات المخالفة لقوانين الحرب ووجهت اهتمامها إلى الجيوش المتعددة التي زحفت على بلادها من كل حدب، فإن جيوش الملك سوبيسكي كانت تهدد بلاد البغدان وسفن البنادقة تهدد سواحل اليونان وبلاد موره ولعدم وجود المراكب الكافية لصدّ هجمات سفن البنادقة التي كانت تعززها مراكب البابا ورهبنة مالطه احتلت جيوش البنادقة في سنة ١٦٨٦ أغلب مدن اليونان حتى كورنته واتينا، أما النمسا فأغارت جيوشها على بلاد المجر واحتلوا مدينة يست الواقعة أمام مدينة بود وحاصروا هذه المدينة أيضاً ولولا مدافعة حاكمها وحاميتها دفاع الأبطال لسقطت في أيديهم.

وفي سنة ١٦٨٥ احتل النمساويون عدّة حصون وقلاع شهيرة أهمها قلعة نوهزل. وبسبب هذه الانهزامات المتعاقبة عزل الصدر ابراهيم باشا ونفي في جزيرة رودس ولم يلبث في منصب الصدارة إلا سنتين وتعين مكانه السر عسكر سليمان باشا وكان مشهوراً بحسن التدبير والشجاعة والإقدام لكن كانت الدولة

= في عدة وقائع شهيرة وبسبب اتباعه لمذهب البروتستانت لم يعين أميرالاً ولم يمنح ما كان يستحقه من ألقاب الشرف وتوفي سنة ١٦٨٨.

أقول: وقد عرض لويس الرابع عشر على دوكين Duquesne عصا الماريشالية بشرط أن يترك البروتستانتية ويعود الى الكاثولية فرفض ولكنه كوفئ على أعماله الحربية بأن تركت له حياته ولم يقتل كما قتل غيره من أتباع المذهب البروتستانتي.

(١) جزيرة ساقز وتسمى اليوم Chios تقع في بحر ايجه الى الجنوب من جزيرة ميدللي أمام بر الأناطول.

قد وصلت إلى درجة من التقهقر أمام هذه القوى المتألبة عليها صار معها الخلاص صعباً لا سيما وقائد الجيوش النمساوية كان الدوك دي لورين الشهير .

وكان أول أعمال سليمان باشا الإسراع إلى إنجاد مدينة بود التي كان يحاصرها الدوك دي لورين بتسعين ألف جندي لكن لم تجد مساعدته شيئاً فإن القائد المذكور دخلها عنوة في يوم ١٣ شوال سنة ١٠٩٧ (٢ سبتمبر سنة ١٦٨٦) بعد أن قتل حاكمها عبدي باشا وأربعة آلاف من جنوده في الدفاع عنها ولم تدخل هذه المدينة ثانياً في حوزة العثمانيين إلى الآن .

وبعد سقوط هذه المدينة في قبضة النمساويين ومحالفيهم أراد الصدر سليمان باشا أن يأتي عملاً يكفر عنه عند الأمة ما أتاه من التهاون في مساعدة مدينة بود لكن أتاه الضرر من حيث كان يريد النفع لنفسه ، فإنه جمع من بقايا كتائبه جيشاً مؤلفاً من ستين ألف مقاتل يعززهم سبعون مدفعاً وانتظر انقضاء الشتاء والربيع لشدة بردهما وكثرة ما يسقط فيهما من الثلوج في هذه الجهات باذلاً جهده في جمع الذخيرة الكافية وفي تدريب جنوده خيفة الفشل والتصاق الهوان باسمه ثم هاجم جيوش التحالف المقدّس في سهل موهاكز الذي سبق انتصار العثمانيين فيه على المجر نصراً عزيزاً قبل هذا التاريخ بمائة وستين سنة فالتحم الجيشان في ٣ شوال سنة ١٠٩٨ (١٢ أغسطس سنة ١٦٨٧) وبعد قتال شديد دارت الدائرة على الجيوش العثمانية فانهزموا عن آخرهم وأخذ العدوّ في جمع ما معهم من المدافع والسلاح والمؤن والذخائر واحتلت جيوشه اقليم ترنسلفانيا وعدّة قلاع من (كرواسيه)[1]. ولما ذاع خبر هذا الانكسار بين الجيوش الموجودة بالاستانة هاجوا وماجوا وأرسلوا للجيوش الباقية مع الصدر سليمان باشا فاشهروا عليه العصيان ولولا فراره إلى بلغراد لأعدموه الحياة ثم أرسل الإنكشارية والسباه وفداً للأستانة يطلب من السلطان الأمر بقتل الصدر فلم ير بدّا من ذلك وأمر بقتله تسكيناً لثورة غضب الجند. ولما لم يفد شيئاً ولم تعد السكينة بين الجيوش وخيف

---

(١) كرواسيا Croitie / هي احدى/جمهوريات يوگوسلافيا الاتحادية وعاصمتها زغريب وأكثرية أهلها من المسلمين وأهلها هم الكروات ويلفظ أهل البلاد هذا الاسم : خروات.

على المملكة العثمانية من الداخل، قرر الوزير الثاني (القائممقام) قره مصطفى باتحاده مع العلماء عزل السلطان محمد الرابع فعزلوه في ٢ محرم سنة ١٠٩٩ (٨ نوفمبر سنة ١٦٨٧ م) بعد أن حكم أربعين سنة وخمسة أشهر وبقي في العزلة إلى أن توفي في ٨ ربيع الآخر سنة ١١٠٤ (١٧ دسمبر سنة ١٦٩٢ م) بالغاً من العمر ٥٣ سنة ودفن في تربة والدته ترخان سلطان وولوا بعد عزله أخاه.

-٢٠



السلطان الغازي
سليمان خان الثاني

هو ابن السلطان إبراهيم الأوّل ولد في ١٥ محرم سنة ١٠٥٢ (١٥ أبريل سنة ١٦٤٢) فأغدق العطايا على الجنود ولم يعاقبهم على عصيانهم الذي كانت نتيجته عزل خلفه. ولذلك ما لبث أن تمرّدت ثانياً وقتلت قوّادها وحاصرت الصدر الجديد سياوس باشا في سرايه وقتلوه وسبوا أزواجه فكانت الأستانة فوضى وانتهز الأعداء هذه الاختلالات والاضطرابات المستمرّة لفتح الحصون العثمانية فاحتل النمساويون قلاع (ارلو) و(لبا)[1] وغيرها واحتل (موروزيني) البندقي مدينة ليبه من بلاد اليونان وكافة سواحل دلماسيا سنة ١٦٨٧ وفي السنة التالية أي سنة ١٦٨٨ سقطت مدائن سمندريه وقلومباز[2] وبلغراد في أيدي النمساويين ثم فقدت الدولة العثمانية في سنة ١٦٨٩ مدائن نيش وودين من بلاد الصرب وذلك لعدم كفاءة الصدر مصطفى باشا الذي خلف سياوس باشا قتيل الإنكشارية. ولما رأى السلطان توالي المصائب عزل هذا الصدر وعين مكانه كوبريلي مصطفى باشا ابن كوبريلي محمد باشا الكبير ولم يكن أضعف همة من والده بل كان يشبهه في علوّ المكانة ومضاء العزيمة فبذل جهده في بث روح النظام في الجنود باللين طوراً وبالشدة أخرى ومنعهم عن اغتيال حقوق الأهالي وصرف لهم متأخراتهم من مال الأوقاف حتى لا يكون لهم حجة في اختلاس شيء من الأهالي فانتظم حال الجيش وصار يمكن التعويل عليه في الحروب. ومن جهة أخرى أباح للمسيحيين بناء ما تهدّم من كنائسهم في الأستانة وعاقب بأشد العقاب كل من تعرّض لهم في

(١) جاءت من قبل ليبا.

(٢) كتبت من قبل كولمباز.

إقامة شعائر دينهم حتى استمال جميع مسيحيي الدولة . وكانت نتيجة معاملته المسيحيين بالقسط أن ثار أهالي موره الأروام على البنادقة فطردوهم من ديارهم، لتعرّضهم لهم في إقامة شعائر مذهبهم الارثوذكسي وإجبارهم على اعتناق المذهب الكاتوليكي، ودخلوا في حمى الدولة العلية طائعين مختارين لعدم تعرّضها لديانتهم مطلقاً .

ولما انتظم الجيش وطهر من الادران التي كادت تؤدي به إلى الدمار وساد الأمن داخل البلاد سار بنفسه لمحاربة الأعداء فاستردّ في قليل من الزمن مدائن نيش وودين وسمندريه وبلغراد في سنة ١٦٩٠، بينا كان سليم كراي خان القرم يخضع ثائري الصرب، وتيكلي المجري يرجع إقليم ترنسلفانيا إلى أملاك الدولة . وبذلك أعاد كوبريلي مصطفى باشا بعض ما فقدته الدولة من المجد والسؤدد بسبب ضعف الوزراء وعدم إطاعة الإنكشارية . وفي ٢٦ رمضان سنة ١١٠٢ (٢٣ يونيه سنة ١٦٩١) توفي السلطان سليمان الثاني عن غير عقب وعمره ٥٠ سنة بعد أن حكم ثلاث سنوات وثمانية أشهر ودفن في تربة جدّه السلطان سليمان الأول وتولى بعده أخوه .



٢١-

السلطان الغازي
أحمد خان الثاني

المولود في ٦ الحجة سنة ١٠٥٢ (٢٥ فبراير سنة ١٦٤٣) فابقى الصدر الأعظم اعتماداً عليه في الحرب والسلم لكن لم تمهل المنية هذا الوزير الشهير بل قصفت عوده الرطيب وهو في عنفوان شبابه فتوفي في ٢٤ ذي القعدة سنة ١١٠٢ (١٩ أغسطس سنة ١٦٩١) في ساحة القتال عند مهاجمة الجيوش النمساوية القائد لها لويز دي باد ، فكان موته ضربة على الدولة لعدم كفاءة عربه جي علي باشا الذي خلفه في منصب الصدارة. ولم تحصل أمور ذات بال في أيام هذا السلطان بل اقتصرت الحرب على بعض مناوشات ليس لها من الأهمية شأن يذكر غير أن البنادقة احتلت في سنة ١٦٩٤ جزيرة ساقز ثم انتقل إلى رحمة مولاه في ٢٢ جمادى الثانية سنة ١١٠٦ (٧ فبراير سنة ١٦٩٥) وعمره ٥٤ سنة قمرية تقريباً بعد أن حكم ٤ سنين و٨ أشهر ودفن في تربة جدّه سليمان الأوّل مع أخيه سليمان الثاني وتولى بعده السلطان الغازي مصطفى خان الثاني .



٢٢-

السلطان الغازي
مصطفى خان الثاني

ابن السلطان محمد الرابع المولود في ٨ ذي القعدة سنة ١٠٧٤ (٢ يونيه سنة ١٦٦٤) وكان متصفاً بالشجاعة وثبات الجأش ولذلك أعلن بعد توليته بثلاثة أيام رغبته في قيادة الجيوش بنفسه فسار إلى بلاد بولونيا مستعيناً بفرسان القوزاق وانتصر على البولونيين عدّة مرات ولولا ما لاقاه من الدفاع أمام مدينة لمبرج لتقدّم كثيراً لكن كان هذا الحصن المنيع من أكبر العوائق لاستمرار فتوحاته ومن جهة أخرى حارب الروس واضطرهم لرفع الحصار عن مدينة أزاق ببلاد القرم التي حاصرها بطرس الأكبر[١] لتكون ثغراً لبلاده على البحر الأسود إذ كانت قبائل القوزاق تحول بين هذا البحر وبين بلاده فرفع الحصار عنها رغم أنفه في اكتوبر سنة ١٦٩٥ معللاً نفسه بمعاودة الكرة عليها عند تهيؤ الأسباب. وبعد ذلك أغار السلطان بجيوشه ثانياً على بلاد المجر وفتح حصن (لبا) عنوة وهزم الجنرال (فتراني) في موقعة لوجوس[٢] وقتل من عساكره ستة الآف جندي

(١) ولد هذا الامبراطور الشهير ممدن الروسيا سنة ١٦٧٢ وتولى الملك ١٦٨٢ فنازعه أخوه الأكبر (ايوان) وأخته صوفيا وفي سنة ١٦٨٩ استقل بالملك بعد استقالة أخيه وحجز أخته في أحد الأديرة. ومن ذلك الحين أخذ في اصلاح داخليته ثم سافر الى ممالك أوربا سنة سنة ١٦٩٧ للنظر في نظاماتها وتقليد ما ينطبق منها على عوائد بلاده وعاد الى موسكو بعد سنة وأبطل جيش (الاسترلتز) الذي كان أشبه بعساكر الانكشارية وجماعات المماليك بمصر وأسس مدينة سان بطرسبورج ونقل اليها عاصمة أملاكه، وحارب شارل الثاني عشر ملك السويد ومملكة العجم وأخذ منها عدة ولايات مهمة وتوفي في ٨ فبراير سنة ١٧٢٥ وخلفته زوجته كاترينه الأولى.

(٢) تقع في الجنوب الغربي من رومانيا والى الشرق من تمسوار.

وأخذه أسيراً وقتله في ٢٢ سبتمبر سنة ١٦٩٥ (١٢ صفر سنة ١١٠٧) وفي سنة ١٦٩٦ فاز السلطان فوزاً مبيناً على منتخب (ساكس) في موقعة أولاش[١] . وبعد ذلك تقلد البرنس (أوجين دي سافوا) القائد الشهير قيادة الجيش النمساوي فأعمل الفكرة في عدم ملاقاة الجيش العثماني في الأراضي السهلة بل حاوله مدّة بدون أن يمكن السلطان من مهاجمته حتى فاجأه هو أثناء عبور الجنود العثمانية لنهر (تيس)[٢] وعدم استعدادها للدفاع بالقرب من قرية صغيرة اسمها زينتا[٣] فقتل منهم عدداً عظيماً من ضمنهم الصدرَ الأعظم الماس محمد باشا وغرق منهم في النهر أكثر ممن قتل، ولولا وجود السلطان على الضفة الأخرى لسقط في أيديهم أسيراً. وكان ذلك في ٢٥ صفر سنة ١١٠٩ (١٢ سبتمبر سنة ١٦٩٧) ثم تبعهم البرنس أوجين ودخل بلاد البوسنه فاتحاً. وعين بعد ذلك عموجه ز اده حسين باشا كوبريلي صدراً أعظم .

وفي أثناء اشتغال السلطان ببلاد المجر عاد بطرس الأكبر الروسي لفتح ميناء أزاق لأهميتها لمملكته، فدخلها في خلال سنة ١٦٩٦ ولم تزل تابعة للروسيا حتى الآن فكانت الدولة في خطر شديد من جهتي الروسيا والنمسا. لكن أوقف الصدر الأعظم كوبريلي حسين باشا البرنس أوجين في سيره وألزمه التقهقر أمامه حتى أخلى بلاد البوسنه ورجع إلى ما وراء نهر (ساف)[٤]. واستردّ الأميرال البحري العثماني الملقب (مزومورتو) جزيرة ساقز بعد أن انتصر دفعتين على مراكب البندقية ثم ابتدأت المخابرات للوصول إلى الصلح فتدخل ملك فرنسا لويس الرابع عشر وأراد أن يدخل الدولة في معاهدة (ريسويك)[٥] فلم تقبل ، لعلمها أن جميع

---

(١) أولاش . لم أعثر عليها ، وهي على كل حال في رومانيا .

(٢) تيس Thiess نهر في المجر ينبع من أوكرانيا ويتحد مع الدانوب في يوگوسلاڤيا .

(٣) زينتا Senta : بلدة في الشمال الشرقي من يوگوسلاڤيا بالقرب من الحدود الرومانية .

(٤) نهر ساف Save من أنهار يوگوسلاڤيا وينبع من جبال الألب الشرقية وهو أحد روافد الدانوب .

(٥) قرية ببلاد هولانده أمضيت فيها في ٢٠ سبتمبر سنة ١٦٩٧ معاهدة بين فرنسا من جهة وألمانيا واسبانيا وانكلترا وهولانده من جهة أخرى وبمقتضاها اعترفت الدول بامتلاك =

الدول يد واحدة عليها ولو أظهرت لها إحداها التودّد فذلك لم يكن إلا لغاية كامنة في النفس والتاريخ الحالي شاهد عدل .

وبعد مخابرة طويلة أمضيت بين الدولة العلية والنمسا والروسيا والبندقية وبولونيا معاهدة كارلوفتس[1] في ٢٤ رجب سنة ١١١٠ (٢٦ يناير سنة ١٦٩٩) .

فتركت الدولة بلاد المجر بأجمعها وإقليم ترنسلفانيا لدولة النمسا وتنازلت عن مدينة أزاق وفرضتها للروسيا، فصار لها بذلك يد على البحر الأسود وزادت أهمية جوارها للدولة العلية أضعاف ما كانت عليه من قبل وردّت لمملكة بولونيا مدينة (كامينك)[2] وإقليمي (بودوليا) واوكروين وتنازلت للبندقية عن بحيث جزيرة مورا إلى نهر (هكساميلون) وإقليم دلماسيا على البحر الادرياتيكي بأجمعه تقريباً واتفقت مع النمسا على مهادنة خمس وعشرين سنة وأن لا تدفع هي أو غيرها شيئاً للدولة العلية على سبيل الجزية أو مجرّد الهدية . وبهذه المعاهدة فقدت الدولة جزأ ليس بقليل من أملاكها باوروبا وزادت أطماع الدول في بلادها كما سيأتي مفصلاً .

ويمكننا القول بان الاتفاق قد تم من ذلك التاريخ بين جميع الدول، إن لم يكن صراحة، فضمنا على الوقوف أمام تقدّم الدولة العلية أولاً ثم تقسيم بلادها بينهم شيئاً فشيئاً، وهو ما يسمونه في عرف السياسة بالمسألة الشرقية المبنية على الخوف من انتشار الدين الإسلامي وحلوله محل الدين المسيحي ليس إلا .أما ما يسترون خلفه غاياتهم من الدفاع عن حقوق الأمم المسيحية الضعيفة الخاضعة للدولة فما لم يعد أحد يغتر به .

وبعد إتمام هذه المعاهدة التي ربما كانت أوخم عاقبة لولا استظهار كوبريلي حسين

= فرنسا لمدينة ستراسبورج وبلاد الألزاس ، أقول : انها تقع في الخليج الهولندي الذي يلي البلجيك الى الشمال وتكتب بالهولندية هكذا Rijswyk .

(١) كارلوفتش Carlovitz بلدة يوگوسلافية واقعة على نهر الدانوب الى الجنوب الغربي من زغريب .

(٢) كامينك Kamenets وتقع في جنوب بلاد اوكرانيا على حدود رومانيا .

باشا على البرنس أوجين قائد الجيوش النمساوية في بلاد البوسنة وجه هذا الوزير اهتمامه إلى الأمور الداخلية والشؤون المالية والأحوال العسكرية مما لا قوام لأيّ دولة إلا بانتظامها وتقويم المعوج منها، فأتى لكل منها بالدواء الكافي والعلاج الشافي وترك كثيراً من الأموال المتأخرة على الأهالي لا سيما المسيحيين منهم حتى لا يجد منهم المفسدون المضلون نصراء الأجانب وسماسرتهم أذناً صاغية لدسائسهم الإيهامية ووساوسهم الشيطانية التي يسلمون بها بلادهم للأجانب طمعاً في مال أو جاه لن يكونوا بالغيه، ولله في خلقه آيات. ثم استقال هذا الوزير المصلح في ١٢ ربيع الآخر سنة ١١١٤ (٥ سبتمبر سنة ١٧٠٢) وعين مكانه في منصب الصدارة (دال طبان مصطفى باشا) وكان جندياً ميالاً للحرب ولذلك لم يسر على خطة سلفه من إصلاح الشؤون الداخلية وتنظيم البلاد وإنشاء الطرق العمومية وغيرها من الأعمال والأشغال العمومية وعدم إضاعة النفوس والأموال في الحروب وإضافة البلاد لبعضها بدون إصلاح أو تنظيم اكتفاء بما يؤخذ من الغنائم وقت الحرب بل أراد أن يخرق عهدة كارلوفتس مع حداثتها ويثير الحرب على النمسا ولشعور الأهالي والجنود بمضارّ هذه السياسة على الدولة لما وراءها من تألب الدول عليها ثانياً، وأخذ بعض بلادها، تذمروا ضدّ الوزير واشترك معهم بعض الجنود وطلبوا من السلطان عزله فأقاله في ٦ رمضان سنة ١١١٤ (٢٤ نوفمبر سنة ١٧٠٢) وتعين محله (رامي محمد باشا) فسار على أثر كوبريلي حسين باشا وشرع في إبطال المفاسد ومعاقبة المرتشين ومنع المظالم فأهاج ضده أرباب الغايات، وكثير عدادهم، وأثاروا عليه الانكشارية لميلهم بالطبع إلى الهياج للسلب والنهب وهتك الأعراض فطلبوا عزله من السلطان فامتنع وأرسل لقمعهم فرقة من الجنود فانضمت إلى الثائرين وعزلوا السلطان مصطفى الثاني في ٢ ربيع الآخر سنة ١١١٥ (١٥ أغسطس سنة ١٧٠٣) بعد أن حكم ٨ سنوات و٨ شهور وبقي معزولاً إلى أن توفي في ٢٢ شعبان من السنة المذكورة (٣١ دسمبر سنة ١٧٠٣ م) وعمره أربعون سنة تقريباً، وأقاموا مكانه بعد عزله أخاه.



-٢٣

السّلطان الغـازي
أحـمد خان الثالث

ابن السلطان الغازي محمد الرابع المولود في ٣ رمضان سنة ١٠٨٣ (٢٣ دسمبر سنة ١٦٧٣) وعند تعيينه وزع أموالاً طائلة على الانكشارية وسلم لهم في قتل المفتي فيض الله أفندي لمقاومته لهم في أعمالهم،ثم لما قرّت الأحوال وعادت السكينة اقتص من رؤس الانكشارية فقتل منهم عدداً ليس بقليل وعزل في ٦ رجب سنة ١١١٥ (١٥ نوفمبر سنة ١٧٠٣) الصدر الأعظم نشانجي أحمد باشا الذي انتخبه الانكشارية وقت ثورتهم وعين في هذه الوظيفة المهمة زوج أخته داماد[١] حسن باشا. لكن لم تحمه مصاهرته للسلطان ولا ما أتاه من الأعمال النافعة،كتجديد الترسانة،وإنشاء كثير من المدارس من أن يكون هدفاً لدسائس المفسدين أرباب الغايات الذين لا يروق في أعينهم وجود أعنة الأمور في قبضة رجل حازم يحول بينهم وبين ما يشتهون،فاعملوا فكرهم وبذلوا جهدهم حتى تحصلوا على عزله في ٢٨ جمادى الأولى ١١١٦ (٢٨ سبتمبر سنة ١٧٠٤) ومن بعده كثر تغيير الصدور تبعاً للاهواء. وكانت نتيجة ذلك أن الدولة لم تلتفت لإجراءات بطرس الأكبر ملك الروسيا في داخلية بلاده ولم تدرك كنه سياسته الخارجية المبنية على إضعاف الأقوياء من مجاوريه أي السويد وبولونيا والدولة العثمانية وأنه قد ابتدأ في تنفيذ مشروعه هذا بأن حارب شارل الثاني عشر[٢]

---

(١) داماد : لفظ فارسي استعمل في التركية ومعناه الصهر وكان هذا اللفظ يستعمل مضافاً الى الاسم بمعنى التشريف لمن كان متزوجاً من بنت السلطان أو من أخته .

(٢) هو ابن شارل الحادي عشر ولد سنة ١٦٨٢ وتولى الملك سنة ١٦٩٧ ولصغر سنه تألب ضده ملك الدانيمرك وملك بولونيا وقيصر الروسيا فحارب الدانيمرك أولاً وانتصر عليها =

السويدي وانتصر عليه أخيراً نصراً عظيماً في واقعة (بولتاوا)[1] في سنة ١٧٠٩.
ولو فطنت الدولة ووزراؤها إلى ما انطوت عليه هذه السياسة للزمها مساعدة السويد على الروسيا حتى يكونا مع بولونيا حاجزاً ضدّ أطماعها، لكنها لم تفقه لهذا السرّ السياسي فقلبت لشارل الثاني عشر ظهر المجن حتى لما التجأ بعد واقعة بولتاوا إلى مدينة (بندر)[2] وأخذ في استمالة الدولة لمحاربة الروسيا، ولكن لم ينجح في مسعاه لمعارضة الوزير نعمان باشا كوبريلي للحرب.

ثم لما عزل الوزير وتولى بعده (بلطه جي محمد باشا) مال لإثارة الحرب على الروسيا فأشهر عليها الحرب وقاد الجيوش بنفسه، وبعد مناورات مهمة حصرت الجيوش العثمانية البالغ قدرها مائتي ألف جندي قيصر الروسيا وخليلته كاترينا[3]، ولو استمر عليهم الحصار قليلاً لأخذ أسيراً هو ومن معه وانمحت الدولة الروسية كلية من العالم السياسي أو بالأقل بقيت في التوحش والهمجية عدّة أجيال لكن

= ثم حارب الروسيا فقهرها ثم سار إلى بلاد بولونيا وانتصر عليها وعزل ملكها وأقام مكانه أحد محالفيه. وفي سنة ١٧٠٩ قصد مدينة موسكو فانتصر عليه بطرس الأكبر في واقعة بولتاوا واحتمى هو بمدينة بندر ببلاد الترك حيث أقام عدة سنين. وفي أثناء غيابه عن بلاده عاد ملك بولونيا إليها واستولى الروس على عدة ولايات من أملاكه. وأخيراً خرج من بلاد الترك قهراً عنه بعد أن قاوم مقاومة شديدة وقتل سنة ١٧١٨ عند حصاره إحدى بلاد النرويج.

(١) بولتافا Poltava تقع في الجنوب الغربي من مدينة خركوف Kharkov من اقليم أوكرانيا في الاتحاد السوفييتي. أو الى الجنوب الشرقي من كييف Kiev.

(٢) بندر Bendery في الاتحاد السوفييتي على نهر دينيستر شرق رومانيا والى الشمال الغربي من أوديسا.

(٣) هي كاترينا الأولى وأصلها من عائلة فقيرة باحدى ولايات ليفونيا تزوجت أولاً بعسكري سويدي ثم أخذت أسيرة سنة ١٧٠٢ عند دخول الروس مدينة مريم بورج. ولفرط جمالها اتخذها البرنس منشكوف خليلة له. وفي سنة ١٧١١ أعجبت بطرس الأكبر فاتخذها لنفسه ورافقته في أغلب حروبه وبعد أن أتت منه بعدة أولاد أعلن تزوجها وتوجها امبراطورة في سنة ١٧٢٤. ولما توفي في السنة التالية خلفته على سرير الامبراطورية واتبعت خطته في الاصلاحات وتوفيت سنة ١٧٢٧.

استمالت كاترينا بلطه جي محمد باشا إليها وأعطته كافة ما كان معها من الجواهر الكريمة والمصوغات الثمينة فخان الدولة ورفع الحصار عن القيصر[1] وجيشه مكتفياً بإمضاء القيصر لمعاهدة (فلكزن) المؤرخة ٩ جمادى الآخرة سنة ١١٢٣ (٢٥ يوليه سنة ١٧١١) الذي أخلى بمقتضاها مدينة ازاق وتعهد فيها بعدم التدخل في شؤون القوزاق مطلقاً ، لكن لا يخفى على كل مطلع له ذرّة من العقل أن هذه المزية لم تكن شيئاً مذكوراً في جانب ما كان يمكن الدولة أن تناله من القيصر لو أهلكت جيشه واستولت عليه أسيراً ، ولذلك احتدم شارل الثاني عشر السويدي نزيل بندر غيظاً وسعى لدى السلطان بمساعدة خان القرم دولت كراي حتى تحصل على عزله وإبعاده إلى جزيرة لمنوس .

وتولى بعده يوسف باشا وكان محباً للسلم فامضى مع الروسيا معاهدة جديدة تقضي بعدم المحاربة بينهما مدّة ٢٥ سنة، لكن لم تمض على هذه المعاهدة بضعة أشهر حتى قامت الحرب ثانية بين الدولتين بسبب عدم قيام بطرس الأكبر بأحد شروط معاهدة فلكزن القاضي بتخريب فرضة تجانزك[2] الواقعة على بحر آزاق فتدخلت انكلترا وهولاندا في منع الحرب لإضراره بتجارتهما .وبعد مخابرات طويلة أمضيت بينهما معاهدة جديدة سميت بمعاهدة أدرنه في ٢٤ جمادى الأولى سنة ١١٢٥ (١٨ يونيو سنة ١٧١٣) تنازلت الروسيا بمقتضاها عما لها من الأراضي على البحر الأسود حتى لم يبق لها عليه موانىء أو ثغور وفي مقابلة ذلك أبطل ما كانت

---

(١) ان قصة المجوهرات هذه لا تقوم على ساق وما أظن أن الوزير العثماني كان يجهل أن كاترينا ستكون له سبية وان كل جواهرها وجواهر بلادها ستكون ملك دولته اذا غلب بلادها . فلو كان يطمع بجسم المرأة فهي له بعد النصر ،وإن كان يطمع بالجواهر فهي له أيضاً . ولذا فإني أرى أن هذه القصة ملفقة وأعتقد أن محمد باشا لم يمض هذه المعاهدة الّا لأنه أدرك أن هناك أمراً قد يخسره حتى فتوحاته لو استمر الحصار أو انه اجتهد فأخطأ ، فرضي بأخف الضررين . ثم هل كان الجند يسلمون للباشا ويوافقونه على هواه بهذه السهولة اذا عرفوا أن في الأمر خيانة وهم الذين يعزلون ويقتلون السلاطين والوزراء لأتفه الأسباب ؟! (المحقق) .

(٢) تجانزك : هذا الاسم غير موجود الآن .

تدفعه سنوياً إلى أمراء القرم بصفة جزية كي لا يتعدّوا على قوافلها التجارية. وعند ذلك يئس شارل السويدي من نوال غرضه وهو مساعدة الدولة العلية على الروسيا فبارح بلاد الدولة في أوّل اكتوبر سنة ١٧١٣ بعد أن أقام فيها نحو سنتين .

ثم تولى منصب الصدارة علي باشا داماد بعد يوسف باشا وكان ميالاً للحرب غيوراً على صالح الدولة ميالاً لاسترجاع ما ضاع من أملاكها خصوصاً بلاد موره. ولذلك أعلن الحرب على جمهورية البندقية وفي قليل من الزمن استردّ البحيث[١] جزيرة باجمعها والمدن التي كانت باقية للبنادقة بجزيرة كريد حتى لم يبق لهم ببلاد اليونان إلا جزيرة كورفو، فاستعانت البندقية بشارل الثالث امبراطور النمسا أحد الماضين على معاهدة كارلوفتس. ولكون الحرب كانت قد انقضت ووضعت أوزارها بين النمسا وفرنسا وتم الصلح بينهما بمعاهدتي أوترك[٢] ورستاه أسرع الامبراطور لمدّيد المساعدة إلى البنادقة بأن أرسل إلى السلطان بلاغا يطلب منه فيه إرجاع كل ما أخذه من البنادقة وكان أعطى لهم بمقتضى معاهدة كارلوفتس، وإلا فيكون امتناعه بمثابة إعلان للحرب. فلم تقبل الدولة هذا الطلب وفضلت الحرب في هذا الوقت الغير مناسب بعدم تبصر وزيرها فإنه كان من الواجب عليه عدم عمل ما يسبب هذه الحروب مع عدم اشتغال النمسا بمحاربة فرنسا وإمكانها توجيه كل قواها وأمهر قوّادها إلى ساحة القتال، خصوصاً القائد الذائع الصيت البرنس (أوجين دي سافوا) الذي سبق ذكره أكثر من مرة فكان من المحقق تقريباً فوزه على العثمانيين لتضلعه من فنون الحرب التي لا تقوى عليها شجاعة العثمانيين وما اتصفوا به من الثبات .

---

(١) البحيث جزيرة : يقصد بها شبه الجزيرة .

(٢) أوترك Utrecht . بلدة في الجنوب الغربي من هولاندا في منتهى خليج على المحيط الأطلسي . ولعله يقصد ب ورستاه نيستاد .

معاهدة بسار وفتس

ومما يؤيد ذلك أن البرنس أوجين انتصر عليهم في موقعة بتروواردين[1] في يوم ٥ أغسطس سنة ١٧١٦، وفيها قتل الصدر الأعظم علي باشا داماد لاقتحامه مواقع الخطر حتى لا يعيش بعد الانهزام. وبعد ذلك فتح النمساويون مدينة (تمسوار) بعد أن حاصروها أربعة وأربعين يوماً ووضعوا الحصار أمام مدينة بلغراد ودخلوها في ١٩ أغسطس سنة ١٧١٧ بعد أن تغلبوا على الصدر الجديد خليل باشا الذي أتى لمساعدة المدينة، ثم ابتدأت المخابرات للصلح فتم بينهما في ٢٢ شعبان سنة ١١٣٠ (٢١ يوليو سنة ١٧١٨) على أن تأخذ النمسا ولاية تمسوار ومدينة بلغراد مع جزء عظيم من بلاد الصرب وآخر من بلاد الفلاخ وأن تبقى جمهورية البندقية محتلة ثغور شاطىء دلماسيا، أما بلاد موره فترجع إلى الدولة وسميت هذه المعاهدة معاهدة (بسار وفتس)[2] . وعقب ذلك طلبت الروسيا من الدولة تحوير المعاهدة السابقة بكيفية تبيح لتجارها المرور من أراضي الدولة وبيع سلعهم فيها ولحجاجها التوجه لبيت المقدس وغيره من الأماكن والأديرة المقدّسة عندهم بدون دفع خراج مدّة إقامتهم أو رسوم على جوزات المرور، فقبلت الدولة وأضافت إلى هذه المعاهدة الجديدة المؤرخة ٩ نوفمبر سنة ١٧٢٠ شرطاً من الأهمية السياسية بمكان عظيم وهو تعهد كل من الروسيا والباب العالي بمنع زيادة نفوذ الملك المنتخب ببولونيا على نفوذ الاشراف وعدم تمكينه من جعل منصبه وراثياً في عائلته ومنع حصول هذين الأمرين بكل الوسائط الممكنة بما فيها الحرب .

ولا تخفى أهمية هذا الشرط الأخير الذي لم يقصد به بطرس الأكبر إلا إيجاد النفرة بين ملوك بولونيا والدولة إنفاذاً لما كان ينويه لها كما سنشرحه في موضعه فإن جل مقاصد هذا القيصر المؤسس الحقيقي للمملكة الروسية وواضع دعائمها كان التفريق بين مجاوريه الثلاثة (السويد وبولونيا والدولة العثمانية)

---

(١) جاء ذكر هذه المدينة من قبل باسم كروس واردين والمعنى واحد لأن كروس وبتر تعني الكبير .

(٢) بيساروفتش : تقع الى الجنوب الشرقي من مدينة بلگراد .

وإضعافهم الواحد بعد الآخرفتزيد قوّته بنسبة تأخرهم وتقهقرهم . وقد نجح تماماً بما يتعلق بالسويد بجهل بعض وزراء الدولة العلية ضروب السياسة وعدم اطلاعهم على دخائل علاقات الدول ببعضها .ثم شرع في تنفيذ ما ينويه ضدّ بولونيا والدولة العلية.وكان قد سافر إلى باريس سنة ١٧١٧ وقابل ملكها الفتي لويس الخامس عشر[1] ووصيه ليستميلهما لسياسته فأخفق مسعاه ولذلك استعان بوزراء الدولة العلية نفسها ووضع أوّل حجر لهذا المشروع بإضافة البند المتعلق ببولونيا في المعاهدة الجديدة .

تقسيم مملكة العجم بين العثمانيين والروس وعزل السلطان الغازي أحمد الثالث

هذا ولما تولى من يدعى داماد ابراهيم باشا منصب الصدارة سنة ١١٣٠ﻫ (١٧١٨م) أراد أن يستعيض عما فقدته الدولة من ولايات بفتح بلاد جديدة في جهة آسيا.ولقد أتاح له الحظ حصول انقلابات ببلاد العجم بسبب تنازل الشاه

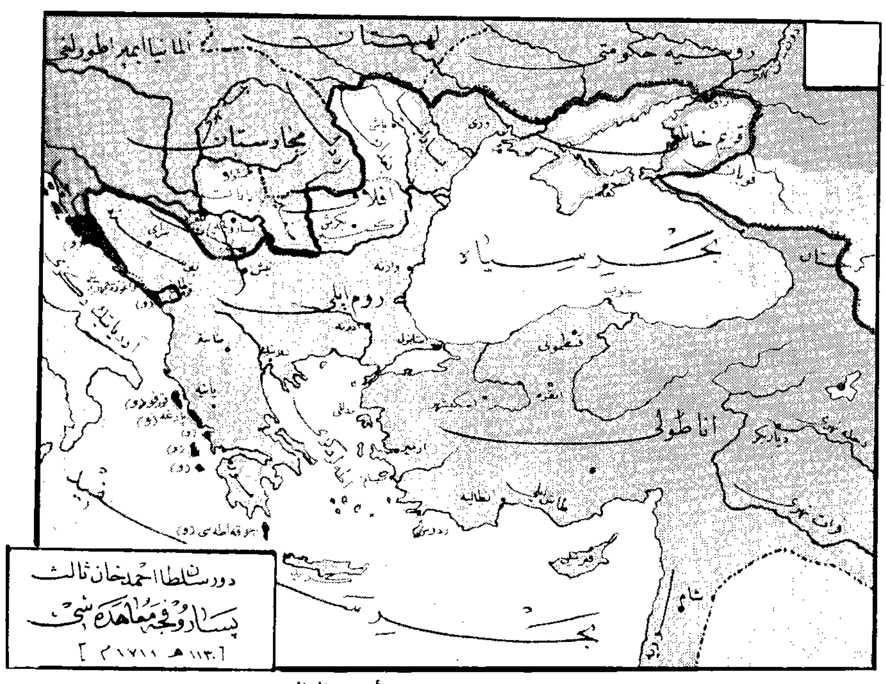
(١) ولد هذا الملك في سنة ١٧١٠ وتولى سنة ١٧١٥ بعد موت لويس الرابع عشر جد أبيه ولصغر سنه عين فيليب دوك أورليان وصياً عليه . ولما بلغ الرشد في سنة ١٧٢٣ أبقى وصيه وزيراً له . ولما توفي هذا الوزير عين بعده الدوك دي بوربون وفي وزارته تزوج السلطان بابنة ملك بولونيا ثم خلفه في الوزارة مربي الملك المدعو (فلوري) . ولما توفي شارل السادس امبراطور النمسا عن غير وارث ذكر وقبضت ابنته (ماريه تريزه) على أعنة الملك فعارض ملك فرنسا وساعد ملك بافيير على أن ينتخب امبراطوراً وانتخب فعلاً فشبت نار الحرب بين فرنسا والامبراطورة شبوباً هائلاً انتهى بفوز ماريه تريزه وأمضيت بذلك معاهدة (اكس لا شابيل) سنة ١٧٤٨.وفي سنة ١٨٥٦ ابتدأت الحرب المعروفة بحرب السبع سنين التي أخذت انكلترا في خلالها اقليم كندا بامريكا وغيرها من المستعمرات الفرنساوية وانتهت بمعاهدة باريس سنة ١٧٦٣.واشتهر هذا الملك بعدم الاهتمام بامور الدولة والاسترسال في الشهوات واتخاذ الخليلات العديدات حتى أثقل كاهل الحكومة بالديون وأضاع المستعمرات وتوفي سنة ١٧٧٤ .وكانت ادارته السيئة من أقوى الأسباب التي أدت الى الثورة الفرنساوية العظمى في أواخر الجيل الثامن عشر .

حسين عن الملك جبراً إلى مير محمد أمير أفغانستان ،فأسرع الصدر ابراهيم باشا باحتلال أرمينيا وبلاد الكرج لكن كان سبقه بطرس الأكبر واجتاز جبال القوقاز التي كانت تحد بلاده من جهة الجنوب واحتل اقليم طاغستان مع كافة سواحل بحر الخزر الغربية فكادت الحرب تقوم بين الدولة والروس،ولعدم إمكان الروس مقاومة الجيوش العثمانية وتحقق بطرس الأكبر من عدم اقتداره على محاربتها طلب من سفير فرنسا بالأستانة المسيو (دوبو) أن يتوسط بينهما فقبل هذه المأمورية ووفق بين الطرفين بان يمتلك كل منهما ما احتله من البلاد وقبلت الدولتان بذلك وأمضيتا بهذه الشروط معاهدة بتاريخ ٢ شوّال سنة ١١٣٦ (٢٤ يونيو سنة ١٧٢٤) .

أما الفرس فلم يقبلوا هذا التقسيم المزري بشرفهم والقاضي بضياع جزء ليس بقليل من بلادهم بل قاموا كرجل واحد لمحاربة الأجانب وإخراجهم من ديارهم لكن لم تكن شجاعتهم كافية لصدّ هجمات العثمانيين الذين فتحوا في سنة ١٧٢٥ عدّة مدن وقلاع أهمها مدائن همذان واريوان وتبريز ،وساعد ذلك تسلط الفوضى في داخلية إيران وتنازع كل من الشاه أشرف الذي قتل مير محمد أمير أفغانستان والشاه طهماسب ملك ساسان ،وانتهت هذه الحرب بالصلح مع الشاه أشرف في في ٢٥ صفر سنة ١١٤٠ (١٢ اكتوبر سنة ١٧٢٧) ،إنما لما مات الشاه أشرف وانفرد طهماسب بالملك،طلب من الدولة العلية أن تردّ إليه كل ما أخذته من بلاد أجداده فلم تجبه الدولة ولذا أغار على بلادها. ولعدم ميل السلطان إلى الحرب ورغبته في الصلح ثار الانكشارية وأهاجوا الأهالي فأطاعوهم طلباً للسلب والنهب في ١٥ ربيع الأوّل ١١٤٣ (٢٨ سبتمبر سنة ١٧٣٠) وطلب زعيم هذه الثورة المدعو (بترونا خليل) من السلطان قتل الصدر الأعظم والمفتي وقبودان باشا أي أميرال الأساطيل البحرية بحجة أنهم مائلون لمسالمة العجم فامتنع السلطان عن إجابة طلبهم.ولما رأى منهم التصميم على قتلهم طوعاً أو كرهاً ،فخوفاً من أن يتعدّى أذاهم إلى شخصه سلم لهم بقتل الوزير والأميرال دون المفتي فقبلوا وألقوا جثثهم إلى البحر ، لكن لم يمنعهم انصياع السلطان لطلباتهم من التطاول إليه بل جرّأهم تساهله معهم على العصيان عليه جهاراً فأعلنوا باسقاطه في مساء اليوم المذكور

عن منصة الأحكام ونادوا بابن أخيه السلطان محمود الأوّل خليفة للمسلمين وأميراً للمؤمنين فأذعن السلطان أحمد الثالث وتنازل عن الملك بدون معارضة وكانت مدّة حكمه ٢٧ سنة و١١ شهراً .

ومما يذكر في التأريخ لهذا الملك إدخال المطبعة في بلاده وتأسيس دار طباعة في الأستانة العلية بعد إقرار المفتي وإصداره الفتوى بذلك مشترطاً عدم طبع القرآن الشريف خوفاً من التحريف واسترجاع إقليم موره وقلعة آزاق وفتح عدّة ولايات من مملكة العجم وبقي معزولاً إلى أن توفي في سنة ١١٤٩ .



الدولة العثمانية في عهد أحمد الثالث



-٢٤

السلطان الغازي محمود خان الاول وظهور نادر شاه

هو ابن السلطان مصطفى الثاني ولد في ٤ محرم سنة ١١٠٨ (٣ اغسطس سنة ١٦٩٦) ولما تولى لم يكن له إلا الإسم فقط وكان النفوذ لبطرونا خليل، يولي من يشاء ويعزل من يشاء تبعاً للأهواء والأغراض، حتى عيل صبر السلطان من استبداده وتجمهر حوله رؤساء الانكشارية لتعدّي هذا الزعيم على حقوقهم واتفقوا على الغدر به تخلصاً من شرّه فقتلوه ولم يقو محازبوه على الأخذ بثأره بل اطفئت ثورتهم في دمائهم وبذلك عادت السكينة للمدينة وأمن الناس على أموالهم وأرواحهم.

وبعد أن استتب الأمن استأنفت الدولة الحرب مع مملكة الفرس وتغلبت الجيوش العثمانية على جنود الشاه طهماسب في عدّة وقائع اهرقت فيها الدماء مدراراً فطلب الشاه الصلح وتم بين الدولتين الأمر في ١٢ رجب سنة ١١٤٤(١٠ يناير سنة ١٧٣٢) على أن تترك مملكة العجم للدولة العلية كل ما فتحته ما عدا مدائن تبريز وأردهان وهمذان وباقي إقليم لورستان، لكن عارض نادرخان[1] أكبر ولاة للدولة في هذه المعاهدة وسار بجيوشه إلى مدينة أصفهان وعزل الشاه طهماسب

(١) لم يكن هذا القائد من احدى العائلات المعلومة بل غاية ما يعلم عنه انه ولد في بلاد خراسان سنة ١٦٨٨ م تقريباً وبعد أن اشتغل في مهن كثيرة مختلفة ألف عصابة مسلحة للسلب والنهب واستولى على خراسان واستبد بها أثناء الاضطرابات التي أعقبت موت الشاه حسين في سنة ١٧٢٢ ثم دخل في خدمة الشاه طهماسب وحارب معه مغتصبي الملك من الأفغان، ثم لما قبل الشاه المذكور معاهدة ١٢ رجب سنة ١١٤٤ عزله نادرخان وأقام مكانه ابنه الرضيع عباساً. وبعد أربع سنوات توفي عباس هذا واغتصب نادر الملك وحارب الموغول في الهند وفتح مدينة دهلي وأخيراً قتله قواد جيوشه سنة ١٧٤٧ لظلمه واعتسافه.

وولى مكانه ابنه القاصر عباساً الثالث وأقام نفسه وصياً عليه ثم قصد البلاد العثمانية وبعد أن انتصر على جنود الدولة حصر مدينة بغداد فأسرع الوزير طوبال (أي الأعرج) عثمان باشا إلى محاربته ،وجرت بينهما عدّة وقائع قتل فيها عثمان باشا المذكور فطلبت الدولة الصلح. وبعد مخابرات طويلة اتفق مندوب الدولة مع نادرخان في ١٨ جمادى الأولى سنة ١١٤٩ (٢٤ سبتمبر سنة ١٧٣٦م) في مدينة تفليس حيث نودى بنادرخان ملكاً على العجم على أن تردّ الدولة إلى العجم كل ما أخذته منها وأن تكون حدود الدولتين كما تقرر بمعاهدة سنة ١٦٣٩ المبرمة في زمن السلطان الغازي مراد الرابع .

معاهدة بلغراد

وفي غضون ذلك قامت الحرب بين الدولة والروسيا بسبب مملكة بولونيا وذلك أن كل من الروسيا والنمسا والبروسيا اتفقت في سنة ١٧٢٢ بمقتضى اتفاق سرّي على أن لا يجوز تعيين ملك وطني على بولونيا خوفاً من اتحاده مع الأهالي الأمر الذي يكون من ورائه استقامة أحوال هذه المملكة الداخلية مع أن قصد الروسيا وجود الاضطرابات بها دائماً حتى تضعف كلية فتستولي عليها بأجمعها أو تقسمها مع مجاوريها تبعاً لسياسة بطرس الأكبر القاضية بالسعي في تلاشي دولتي السويد وبولونيا فالدولة العلية. فلما توفي أوغست الثاني ملك بولونيا انتخب الأهالي في سنة ١٧٣٣ ستانسلاس لكزنيسكي ملكاً عليهم بسعي فرنسا التي كان من صالح سياستها بقاء بولونيا في العالم السياسي عزيزة الجانب يحكمها ملك من أهلها .

فأعلنت الروسيا والنمسا الحرب على بولونيا ونادوا بآغوست الثالث ابن آغوست الثاني ملكاً عليها ولو لم ينتخبه الأهالي. ومن جهة أخرى أشهرت فرنسا الحرب على النمسا دفاعاً عما لبولونيا من الحق الصريح في انتخاب من تريد وسعت لدى الباب العالي بواسطة المسيو دي بونفال ،الذي خدم الدولة بعد أن أسلم واشتهر فيها باسم أحمد باشا قائد الطوبجية ،لاستمالته للدفاع عن استقلال بولونيا ،الحاجز الحصين بينها وبين الروسيا، موضحة لها سياسة هذه الدولة الطامحة أنظارها لامتلاك

القسطنطينية كما أوصى لها بذلك بطرس الأكبر فلم يصغ وزراء الدولة لندائها لجهل في السياسة أو لأسباب أخرى. ولذلك تغلبت الروسيا على ستانسلاس واحتلت جنودها مملكة بولونيا بأسرها ووزراء الدولة لاهون عن نتائج هذه السياسة الوخيمة التي ربما كانت السبب في وصول الدولة إلى الدرجة التي هي عليها الآن.

ولما أحست النمسا أن فرنسا تسعى وراء التحالف مع الدولة فخشيت من حصول هذا الإتفاق الذي يكون نتيجته عدم نجاح مسعاها مع الروسيا في بولونيا أسرعت في إرضاء فرنسا، فأبرمت معها معاهدة ويانة في سنة ١٧٣٥ وأخذت في التأهب والاستعداد للاشتراك مع الروسيا في محاربة الدولة وأوعزت إلى الروسيا بافتتاح القتال فاتخذت هذه الأخيرة مرور بعض قوزاق القرم من أراضيها في مارس سنة ١٧٣٦ متجهين إلى بلاد الكرج لمساعدة الدولة ضدّ العجم حجة لإعلان الحرب وأغارت بكل قواها على بلاد القرم واحتلت مينا آزاق وغيرها من الثغور البحرية، وهو ما حدا بالدولة إلى إبرام الصلح مع نادر شاه بالكيفية التي سبق شرحها لتتفرّغ لصدّ هجمات الروس.

ولحسن حظ الدولة كان قد تقلد منصب الصدارة رجل محنك اشتهر بحسن السياسة وسموّ الإدراك وهو الحاج محمد باشا فلم يغفل طرفة عين عن جمع الجيوش وتجهيز المعدّات حتى أمكنه في أقرب وقت إيقاف تقدّم الروس الذين كانوا قد احتلوا اقليم البغدان ودخلوا مدينة ياسي عاصمة هذا الإقليم. ومن جهة أخرى انتصرت الجيوش العثمانية على جيوش النمسا التي أغارت على بلاد البوسنة والصرب والفلاخ فانتصر المسلمون في الصرب وألجاؤوا النمساويين على الجلاء عنها تاركين في كل موضع قدم جثث رجالهم، وتقهقروا إلى ما وراء نهر الدانوب في سنة ١٧٣٧. واستمرّ الحال على هذا المنوال مما تنوسى عهده في الدولة من النصر والفوز على الأعداء حتى طلبت النمسا الصلح بواسطة المسيو (فلنوف) سفير فرنسا، فقبل التوسط بكل ارتياح وسار إلى معسكر الصدر الأعظم وعرض عليه الصلح بالنيابة عن النمسا فاشترط شروطاً ما كانت لتقبلها لولا انتصار المسلمين على قائدها الشهير (وليس) في يوم ٢٣ يوليو سنة ١٧٣٩ فكان هذا الفوز الأخير أكبر مساعد للوصول إلى الصلح الذي تم بينهما وبين الروسيا في ١٤ جمادى

الآخرة سنة ١١٥٢ (١٨ سبتمبر سنة ١٧٣٩ م) على أن تتنازل النمسا للدولة العلية عن مدينة بلغراد وما أعطي لها من بلاد الصرب والفلاخ بمقتضى معاهدة بساروفتس. أما الروسيا فتعهدت قيصرتها (حنه)[1] بهدم قلاع ميناء آزاق وعدم تجديدها في المستقبل وبعدم إنشاء سفن حربية أو تجارية بالبحر الأسود أو ببحر آزاق بل تكون تجارتها على مراكب أجنبية وبأن تردّ للدولة كل ما فتحته من الأقاليم والبلدان وسميت هذه المعاهدة معاهدة بلغراد ،وبذلك انتهت هذه الحرب باسترداد جزء عظيم مما فقدته الدولة من ممالكها بمقتضى معاهدة كارلوفتس بضعف وعدم كفاءة أو عدم صداقة وإخلاص بعض الوزراء مما جعل الدولة على شفا جرف هار ،ولوأخلص هؤلاء الوزراء وجعلوا ترقية شأن الدولة نصب أعينهم ونبذوا الغايات الشخصية ظهرياً لما فقدت شبراً من أرضها ولكن ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ وبعد ذلك بذل المسيو (فلنوف) سفير فرنسا جهده في إقناع الباب العالي بضرورة الإتحاد مع السويد لمحاربة الروسيا لو تعدّت على أحدهما خوفاً من أن يلحق بهما تباعاً ما أودى ببولونيا وجعلها خاضعة فعلاً لأوامر الروسيا، فاقتنعت الدولة وأبرمت مع السويد محالفة هجوم ودفاع ضدّ الروسيا في سنة ١٧٤٠.وفي هذه السنة تحصل سفير فرنسا على تجديد الامتيازات القنصلية وكافة المزايا الممنوحة للتجار الفرنساويين وأمضى الطرفان هذه المعاهدة الجديدة في ١٧ سبتمبر سنة ١٧٤٠ وهي عبارة عن معاهدة سنة ١٦٧٣ مع بعض تسهيلات جديدة لفرنسا وتجارتها. وأرسل السلطان سفيراً من طرفه اسمه سعيد ليقدّم صورة المعاهدة إلى ملك فرنسا لويس الخامس عشر مع كثير من الهدايا الثمينة، فقابله الملك بالاحتفاء والإكرام اللائق

---

(١) حنة ايوانوفنا امبراطورة الروسيا هي بنت (ايوان) أخي بطرس الأكبر ولدت سنة ١٦٩٢ وتوفيت سنة ١٧٤٠. تزوجت بدوك كوسلاند وتولت ملك الروسيا سنة ١٧٣٠ عقب موت بطرس الثاني واتحدت مع النمسا في مسألة وراثة بولونيا ونجحت في انتخاب أوغست الثالث ملكا لها وحاربت الترك من سنة ١٧٣٥ الى سنة ١٧٣٩ بدون فائدة تذكر. وكانت سياسة ألمانيا سائدة في بلادها بمساعي ودسائس خليلها الألماني المدعو (جان بيرن) .

بمقام مرسله السامي. وعند عودته شيعه بالتبجيل والإجلال وأرسل معه مركبين حربيين وجملة من المدفعية الفرنساويين هدية منه للخليفة الأعظم ليكونوا معلمين في الجيوش العثمانية فيمرّنوا الجنود المظفرة على النظامات الجديدة التي أدخلها (لوفوا) الشهير في الجيوش الفرنساوية .

وبعد ذلك بقليل توفي شارل السادس امبراطور النمسا في ٢٠ من شهر اكتوبر سنة ١٧٤٠ وتولت بعده ابنته (ماريه تيريزه)[1] فاتحدت فرنسا مع بعض الدول على محاربة هذه الملكة واقتسام أملاكها لما بين فرنسا والعائلة الحاكمة في النمسا من الضغائن القديمة وسعي فرنسا دائماً في إذلال النمسا وهدم أركان سلطانها. وبسبب موت هذا الملك حصلت الحرب الشهيرة بين فرنسا والنمسا المعروفة في التاريخ بمحاربة إرث ملك النمسا التي استمّرت عدَّة سنين وانتهت بفوز « ماريه تريزه» على فرنسا مما لا يدخل في موضوع هذا الكتاب .ولما ابتدأت هذه الحرب أظهرت فرنسا للدولة العلية بواسطة سفيرها لدى الباب العالي ما يعود عليها من الفوائد لو اتحدت معها على محاربة النمسا وعرضت عليها احتلال بلاد المجر واسترجاعها إلى أملاكها بحيث ترجع الدولة إلى ما كانت عليه من الاتساع أيام سليمان الأوّل القانوني، ويمكنها بعد ذلك مقاومة الروسيا والوقوف في طريق تقدمها. وأبانت لها أنها إن لم تفعل ذلك تقدّمت الروسيا شيئاً فشيئاً وقويت شوكتها

---

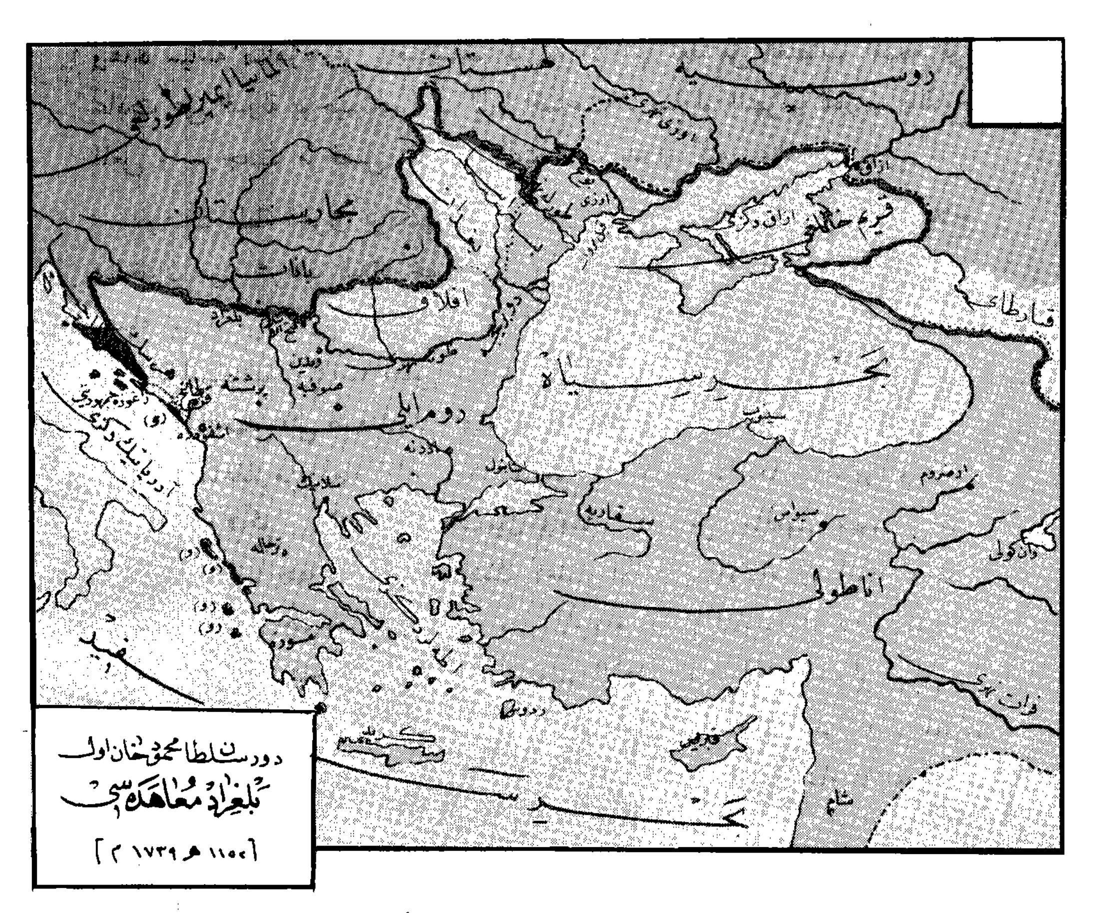
(١) ولدت في سنة ١٧١٧ وتزوجت بالدوك دي لورين سنة ١٧٣٦. ولعدم وجود أخوة لها أوصى لها والدها شارل السادس بالملك. لكن لما توفي في سنة ١٧٤٠ لم يعترف ملكا روسيا وفرنسا بهذه الوصية بل أغار ملك بروسيا على إقليم سيليزيا وادعى أمير بافاريا الأحقية في الملك وساعدته فرنسا على ذلك وتوجته امبراطوراً باسم شارل السابع. ثم تركت بلاد النمسا والتجأت الى بلاد المجر حيث أقسم لها أشرافها بمساعدتها حتى الممات، فجمعت الجيوش وبعد أن استمر الحرب خمس سنين توفي شارل السابع منازعها في الملك وانتخب زوجها امبراطوراً باسم فرانسوا الأول. وفي سنة ١٧٤٨ فازت بالنصر بمساعدة انكلترا وأمضت معاهدة (اكس لا شابيل) ثم حاربت البروسيا بمساعدة فرنسا لاسترجاع اقليم سيليزيا وهي الحرب المعروفة بحرب السبع سنين فلم تفلح. وفي سنة ١٧٧٢ شاركت الروسيا والبروسيا في تقسيم بولونيا وتوفيت سنة ١٧٨٠ .

تدريجياً حتى يخشى منها على وجود الدولة. ولا يخفى أنها ملاحظات صادقة ولو أنها صادرة من فرنسا طمعاً في نوال غايتها وهي إذلال النمسا، إلا أنه كان يجب على رجال الدولة النظر إليها بعين الاعتبار. فإن هذه فرصة لم تتجدّد بعد. لكن قضت التقادير الإلهية أن لا تصغي إلى هذه النصائح حباً في السلم وعدم إراقة دماء العباد والاشتغال بالإصلاحات الداخلية وكتبت إلى الدول ذات الشأن تدعوهم للتصالح. وهذه سياسة صادرة عن إحساسات شريفة إلا أنها تعدّ من الغلطات المهمة التي عادت على الدولة بوخيم العواقب لأنها أضاعت فرصة لو انتهزتها لفازت بالقدح المعلى واسترجعت ما فصل عنها من الفتوحات بدون كثير عناء.

وهناك غلطة أخرى ارتكبها رجال الدولة وهي نزع السلطة في إقليمي الفلاخ والبغدان من أشراف البلاد خوفاً من تمرّدهم وطلبهم الإستقلال وتعيين بعض أغنياء الروم من تجار الأستانة قرالات ممتازين فيهما في مقابل جعل سنوي يدفع للخزانة السلطانية، وكانت تعطى لمن يدفع خراجاً أكثر من غيره. وظاهر أن من يقدم على التعهد بمثل هذه المبالغ الطائلة عازم ولا شك على الحصول على ما يدفعه أضعافاً مضاعفة من دماء الأهالي. فاستبدّ هؤلاء المعينون بالسكان وساموهم الذل والخسف وفتكوا بالأشراف الأصليين وقتلوا كل من خالفهم منهم وباعوا ألقاب الشرف جهاراً حتى انقرضت أغلب العائلات الأثيلة في المجد وحلت محلها عائلات جديدة أغلبها من تجار الأروام الذين اشتروا الألقاب بدراهم معدودة. وكانت نتيجة هذه السياسة أن سئم الأهالي هذه السلطة ومالوا بكلياتهم إلى الروسيا ووجهوا أنظارهم لها معتقدين أنها ستكون منقذتهم من هذه المظالم المستمرة، ولو أنصفت الدولة لجعلتها ولايتين بدون امتيازات تتناوبها الولاة فما كانت تطمح إلى الاستقلال الإداري فالسياسي.

وفي يوم الجمعة ٢٧ صفر سنة ١١٦٨ (١٣ دسمبر سنة ١٧٥٤) توفي السلطان محمود الأوّل بالغاً من العمر ستين سنة مأسوفاً عليه من جميع العثمانيين لاتصافه بالعدل والحلم وميله للمساواة بين جميع رعاياه بدون نظر لفئة دون أخرى. وكانت مدّة حكمه ٢٥ سنة. وفي أيامه السعيدة اتسع نطاق الدولة بآسيا وأوروبا

ومحت معاهدة بلغراد ما لحق بالدولة من العار بسبب معاهدة كارلوفتس . ومن آثاره الحسان تأسيس أربع كتبخانات ألحقها بجوامع آيا صوفيا ومحمد الفاتح والوالدة وغلطه سراي،ومن وزرائه الذين تركوا لهم في التاريخ اسماً. طوبال عثمان باشا وحكيم زاده علي باشا .



الدولة العثمانية في عهد السلطان محمود الأول

١١٥٢ هـ - ١٧٣٩ م



٢٥-

السّلطان الغازي عثمان خان الثالث

ولد هذا السلطان في سنة ١١١٠ هـ (سنة ١٦٩٦ م)، وبعد أن تقلد السيف في جامع أبي أيوب الانصاري على حسب العادة القديمة وأبقى كبار الموظفين في وظائفهم، عين في منصب الصدارة العظمى نشانجي علي باشا بدل محمد سعيد باشا الذي سبق تعيينه صدراً بعد عودته من مأموريته في فرنسا. فاعتمد علي باشا هذا على ميل السلطان إليه وسار في طريق غير حميد حتى أهاج ضدّه الأهالي أجمع ولكون السلطان كان من عادته المرور ليلاً في الشوارع والأزقة متنكراً لتفقد أحوال الرعية والوقوف على حقيقة أحوالهم سمع أثناء تجواله بما يرتكبه وزيره من أنواع المظالم والمغارم، وبعد أن تحقق ما نسب إليه بنفسه أمر بقتله جزاء له وبوضع رأسه في صحن من الفضة على باب السراي عبرة لغيره، فقتل في ١٦ محرم سنة ١١٦٩ (٢٢ اكتوبر سنة ١٧٥٥) وعين مكانه من يدعى مصطفى باشا، ثم عزله في ٢٠ ربيع الأوّل سنة ١١٧٠ (١٣ دسمبر سنة ١٧٥٦) وعين مكانه محمد راغب باشا الشهير [1] وكان من فحول الرجال الذين تقلبوا في المناصب على اختلافها.

(١) محمد راغب باشا صاحب السفينة المشهورة هو ابن رجل من كتاب المالية اجتهد في تحصيل العلوم والمعارف حتى نبغ فيها وعين في عدة وظائف حسابية وكتابية مهمة في الجيوش المحاربة في بلاد العجم ثم عاد الى الاستانة ووظف مأموراً لادارة الخراج ثم بعد أن انتقل الى وظائف أخرى تدل على ثقة الحكومة به واعتمادها على أمانته عين بوظيفة كاتب يد بالصدارة العظمى، فحضر المخابرات التي دارت مع مندوبي نادرشاه للوصول الى الصلح، وكذلك كانت له اليد الطولى في ابرام معاهدة بلغراد. وبعدها عين بوظيفة رئيس أفندي التي تعادل وظيفة ناظر الخارجية الآن ثم عين والياً على مصر فولاية آيدين فحلب. وأخيراً عين صدراً أعظم سنة ١١٧٠ واستمر في الصدارة =

ومما زاده خبرة في أمور السياسة الأوروباوية واطلاعاً على دقائقها مباشرته تحرير معاهدة بلغراد بصفة مكتوبجي (أمين سر ولاية) واطلاعه على كافة المخابرات التي دارت بين الدولة والدول ذات الشأن للوصول إلى إبرامها. ثم توفي السلطان عثمان الثالث في ١٦ صفر سنة ١١٧١ (٣٠ اكتوبر سنة ١٧٥٧) بدون أن يحصل في أيام حكمه القلائل ما يستحق الذكر، وكانت مدّة حكمه ٣ سنين و١١ شهراً وعمره ستون سنة وخلفه مصطفى الثالث.

= ست سنوات حتى توفي في ٢٤ رمضان سنة ١١٧٦. وله عدة تآليف مهمة في السياسة وديوان مشهور وكان محباً لتقدم العلوم وأسس بالاستانة مدرسة عالية ألحق بها مكتبة جمعت أنفس الكتب وأندر المؤلفات.



-٢٦

السلطان الغازي
مصطفى خان الثالث

ابن السلطان أحمد الثالث المولود سنة ١١٢٩، وكان ميالاً للإصلاح محباً لتقدّم بلاده خصوصاً وزيره الأوّل راغب باشا الذي مرّ ذكره، فأخذ هذا الوزير في إصلاح بعض الشؤون بمساعدة السلطان وتعضيده له ، فعهد بإدارة الأوقاف العمومية إلى أحد أغوات السراري (قيزلر أغاسي) وأسس مستشفيات للحجر على الواردات الخارجية إذا كانت الأوبئة منتشرة في الخارج لعدم تعدّيها إلى الممالك المحروسة، وأنشأ مكتبة عمومية على مصاريفه الخاصة وفكر في طريقة غريبة لتسهيل المواصلات داخل المملكة منعاً لحصول الغلاء والمجاعات في إحدى الولايات، وذلك أن يصل بين نهر الدجلة وبوغاز الأستانة بخليج عظيم تستعمل الأنهار الطبيعية مجرى له على قدر الإمكان فيسهل نقل الغلال من أطراف المملكة إلى الأستانة فيمتنع عنها الغلاء كلية. وهو مشروع جليل يقدره العارفون حق قدره ولو أمهله المنون لأتمه وسبق المسيو دي لسبس إلى إيصال بحر الروم بخليج فارس فالمحيط الهندي، لكنه توفي رحمه الله في ٢٤ رمضان سنة ١١٧٦ (٨ أبريل سنة ١٧٦٢ م) ولم يجد مشروعه منفذاً حتى الآن .

وبعد موت هذا الوزير الجليل انتشب الحرب بين الدولة العلية والروسيا وذلك أنه لما توفي أوغست الثالث ملك بولونيا سعت كاترينه الثانية امبراطورة الروسيا[1]

---

(١) هي بنت البرنس (انهلت زربست) الألماني، ولدت سنة ١٧٢٩ وتزوجت بالأمير الألماني الذي عينته الامبراطورة اليزابيت وارثاً لها في الملك. ثم لما تولى زوجها الملك باسم بطرس الثالث استمالت كاترينه أهالي الروسيا إليها وعزلته في سنة ١٧٦٢. بعد موته توجت هي امبراطورة للروسيا، واشتهرت بالسير على خطة بطرس الأكبر، فاستولت =

التي تولت عقب قتل بطرس الثالث في تعيين عاشقها ستانسلاس بونياتوسكي ملكاً عليها باستعمال نفوذها في مجلس الأمة عند الانتخاب خلافاً لما تعهدت به للدولة العلية. وما ذلك إلا نفاذاً لسياسة بطرس الأكبر القاضية بإزالة الحواجز الثلاثة الحائلة بينها وبين أوروبا الغربية وهي: السويد وبولونيا والدولة العلية. وقد أزيل الحاجز الأوّل باستيلاء الروسيا على جميع الولايات السويدية الفاصلة بينها وبين ألمانيا بحيث لم يبق للسويد أملاك خارجة عن بلادها الأصلية بمقتضى معاهدة (ني ستاد)[1] المبرمة بينهما سنة ١٦٧٢ وأزيل الثاني تقريباً بتعيين أحد أتباع الامبراطورة كاترينة ملكاً على بولونيا.

ولذلك تنبهت الدولة إلى نتيجة هذه السياسة وعلمت أنها إن لم تضع حدّاً لتقدم نفوذ الروسيا في بولونيا فلا تلبث هذه المملكة أن تمحى من العالم السياسي بانضمامها للروسيا أو بتجزئتها بينها وبين مجاوريها، لكن كان تنبهها هذا بعد فوات الوقت المناسب، فإنه كان يجب عليها مساعدة السويد وبذل النفس والنفيس في حفظ ولاياتها الواقعة على بحر بلطيق من الوقوع في أيدي الروسيا أولى من تركها غنيمة باردة لها مما يطمعها في الاستمرار في تنفيذ وصية بطرس الأكبر. ويجمل بنا في هذا الموقع أن نأتي للمطالع بنص الوصية المذكورة وهاهي منقولة بحروفها من الجزء الأوّل من تاريخ جودت باشا.

وصية بطرس الأكبر

البند الأوّل: من اللازم أن تقاد العساكر دائماً إلى الحرب وينبغي للأمة الروسية أن تكون متمادية على حالة الكفاح لتكون أليفة الوغاء وترك وقت لراحة العساكر أو لأجل إصلاح المالية وتوفيرها وإن كان ضرورياً يلزم أن يكون تنظيم المعسكرات متعاقباً وتكون مراقبة الوقت الموافق للهجوم متصلة آناً بآن. وعلى هذه الصورة

= على بلاد القرم وقلعة ازاق وغيرها واقتسمت مملكة بولونيا مع النمسا والبروسيا وتوفت سنة ١٧٩٧. وكانت محبة للعلوم مساعدة للعلماء على بث معارفهم في بلادها لكن دنست اسمها باتخاذها الاخلاء العديدين من رجال حكومتها بل ومن خدمها.

(١) نيستاد هي نيوشتاد Neustadt وتقع الى الجنوب الغربي من فينا.

ينبغي لروسيا أن تتخذ زمن الصلح والأمان وسيلة قوية للحرب. وهكذا زمن الحرب للصلح ، وذلك لأجل زيادة قوّتها وتوسيع منافعها .

البند الثاني : في وقت الحرب ينبغي اتخاذ جميع الوسائل الممكنة لاستجلاب ضباط للجنود من بين الملل والأقوام الذين هم أكثر معلومات في أوروبا وكذلك في زمن الصلح يتعين استجلاب أرباب العلم والمعارف منهم أيضاً ويلزم الاعتناء بما يجعل الأمة الروسية تستفيد من منافع سائر الممالك ومحسناتها بحيث أنها لا تضيع سعياً أصلاً في تحسين المحسنات المخصوصة بمملكتها .

البند الثالث : عند سنوح الفرصة ينبغي وصع اليد والمداخلة في جميع الأمور والمصالح الجارية في أوروبا وفي اختلافاتها ومنازعاتها وعلى الخصوص في وقوعات ممالك ألمانيا الممكن الاستفادة منها بلا واسطة بسبب شدّة قربها .

البند الرابع : ينبغي استعمال أصول الرشوة لأجل إلقاء الفساد والبغضاء والحسد دائماً في داخلية ممالك (له) ـ أي بولونيا ـ وتفريق كلمتهم واستمالة أعيان الأمة ببذل المال واكتساب النفوذ في مجلس الحكومة حتى نتمكن من المداخلة في انتخاب الملك. وبعد الحصول على انتخاب من هو من حزب روسيا من تلك الأمة ينبغي حينئذ دخول عساكر روسيا الى داخل البلاد لأجل حمايتهم والتعصب لهم باقامة العساكر المذكورة مدّة مديدة هناك الى أن تحصل الفرصة لاتخاذ وسيلة تمكننا من الاقامة. وعندما تظهر مخالفة في ذلك من طرف الدول المجاورة فلأجل إخماد نار الفتنة مؤقتاً ينبغي أن نقاسم المخالفين في ممالك (له) ثم نترقب الفرص لاسترجاع الحصص التي تكون قد أعطيت لهم .

البند الخامس : ينبغي الاستيلاء على بعض الجهات من ممالك أسوج بقدر الامكان ثم نسعى في اغتنام وسيلة لاستكمال الباقي منها. ولا نتوصل الى ذلك الا بوجه تضطر فيه تلك الدولة الى أن تعلن الحرب على دولة الروسيا وتهاجمها والذي يلزم أوّلاً هو أن نصرف المساعي والهمة لالقاء الفساد والنفرة دائماً بين أسوج والدانمرك بحيث أن يكون الاختلاف والمراقبة بينهم دائمين باقيين .

البند السادس : يجب على الأسرة الامبراطورية الروسية أن يتزوّجوا دائماً من بنات العائلة الملوكية الألمانية وذلك لتكثير روابط الزوجية والاتحاد بينهم

واشتراكهم في المنافع اذ بهذه الصورة يمكن إجراء نفوذهم في داخل ألمانيا ويربطون أيضاً الممالك المذكورة لجهة منافعنا ومصالحنا .

البند السابع : ان دولة انكلترة هي الدولة الأكثر احتياجاً إلينا في أمورها البحرية ولهذه الدولة فائدة عظيمة جدّاً أيضاً في أمر زيادة قوّتنا البحرية فلذلك من الواجب ترجيح الاتفاق معها في أمر التجارة على سائر الدول وبيع محصولات ممالكنا كالأخشاب وسائر الأشياء الى انكلترة وجلب الذهب من عندهم الى ممالكنا واستكمال أسباب الروابط والمناسبات متمادياً بين تجار وملاحي الطرفين فيتوسع بهذه الوسيلة أمر التجارة وسير السفن في ممالكنا .

البند الثامن : على الروسيين أن ينتشروا يوماً فيوماً شمالاً في سواحل بحر البلطيق وجنوباً في سواحل البحر الأسود .

البند التاسع : ينبغي التقرّب بقدر الامكان من استانبول والهند وحيث أنه من القضايا المسلمة أن من يحكم على استانبول يمكنه حقيقة أن يحكم على الدنيا بأسرها فلذلك من اللازم إحداث المحاربات المتتابعة ،تارة مع الدولة العثمانية وتارة مع الدولة الايرانية ،وينبغي ضبط البحر الأسود شيئاً فشيئاً وذلك لأجل انشاء دار صناعات بحرية فيه والاستيلاء على بحر البلطيق أيضاً ،لأنه ألزم موقع لحصول المقصود وللتعجيل بضعف بل بزوال دولة ايران لنتمكن من الوصول الى خليج البصرة وربما نتمكن من إعادة تجارة الممالك الشرقية القديمة الى بلاد الشام والوصول منها الى بلاد الهند التي هي بمثابة مخزن للدنيا ،وبهذه الوسيلة نستغني عن ذهب انكلتره .

البند العاشر : ينبغي الاهتمام بالحصول على الاتفاق والاتحاد مع دولة أوستريا (النمسا) والمحافظة على ذلك. ومن اللازم التظاهر بترويج أفكار الدولة المشار إليها من جهة ما تبتغي إجراؤه من النفوذ في المستقبل في بلاد ألمانيا. وأما باطناً فينبغي لنا أن نسعى في تحريك عروق حسد وعداوة سائر حكام ألمانيا لها وتحريك كل منهم لطلب الاستعانة والاستمداد من دولة روسيا. ومن اللازم إجراء نوع حماية للدول المذكورة بصورة يتسنى لها فيها الحكم على تلك الدول في المستقبل .

البند الحادي عشر : ينبغي تحريض العائلة المالكة في أوستريا على طرد الاتراك وتبعيدهم من قطعة الروملي[1] وحينما نستولي على استانبول علينا أن نسلط دول أوروبا القديمة على دولة أوستريا حرباً أو نسكن حسدها ومراقبتها لنا باعطائها حصة صغيرة من الأماكن التي نكون قد أخذناها من قبل وبعده نسعى بنزع هذه الحصة من يدها .

البند الثاني عشر : ينبغي أن نستميل لجهتنا جميع المسيحيين الذين هم من مذهب الروم المنكرين رياسة البابا الروحية والمنتشرين في بلاد المجر والممالك العثمانية في جنوبي ممالك (له) ونجعلهم أن يتخذوا دولة روسيا مرجعاً ومعيناً لهم. ومن اللازم قبل كل شيء إحداث رياسة مذهبية حتى نتمكن من إجراء نوع نفوذ وحكومة رهبانية عليهم فنسعى بهذه الواسطة لاكتساب أصدقاء كثيرين ذوي غيرة نستعين بهم في ولاية كل من أعدائنا .

البند الثالث عشر : حينما يصبح الأسوجيون متشتتين والايرانيون مغلوبين واللاهيون محكومين والممالك العثمانية مضبوطة أيضاً حينئذ نجمع معسكراتنا في محل واحد مع المحافظة على البحر الأسود وبحر البلطيق بقوّتنا البحرية. وعند ذلك نظهر أوّلاً لدولة فرنسا كيفية مقاسمة حكومات الدنيا بأسرها بيننا ،ثم لدولة أوستريا. ويعرض ذلك على كل من الدولتين المشار اليهما كل منهما على حدة بصورة خفية جدّاً لقبول ذلك. وحيث أنه لا بدّ من أحداهما تقبل بهذه الصورة فعند ذلك ينبغي مداراة واحترام كل منهما ونجعل من كان منهما قابلاً بما عرضناه عليهما واسطة لتنكيل الأخرى ،وإذ تكون دولة روسيا حينئذ قد ضبطت جميع الممالك الشرقية ويكون مثل ذلك أعظم قطع أوروبا حديثة الدخول في يد تصرفها فعنده يسهل عليها أن تقهر وتنكل فيما بعد أية دولة بقيت في الميدان من الدولتين المذكورتين .

البند الرابع عشر : على فرض المحال أن كلا من الدولتين المشار اليهما لم

---

(١) الروملي : كانت تشمل بلغاريا ورومانيا وجزءاً كبيراً من يوكوسلافيا وجزءاً من شمال اليونان .

تقبل بما عرضته عليهما روسيا فينبغي حينئذ لروسيا أن تصرف الأفكار لمراقبة ما يحدث من النزاع والخلاف بينهما فإذا وقع ذلك فلا بد أن يحصل تعب للطرفين ويشتبك هذا مع الآخر، وفي ذلك الوقت يجب على روسيا أن تنتظر الفرصة العظيمة وتسوق حالاً معسكراتها المجتمعة أوّل بأوّل على ألمانيا فتهجم في تلك الجهات ثم تخرج قسمين كليين من السفن أحدهما من بحر أزاق المملوء بالعساكر الوافرة المجتمعة من أقوام الأناضول المتنوّعة، والثاني من ليمان (خليج) أرخانكل[1] الكائنة في البحر المتجمد الشمالي، فتسير هذه السفن وتمرّ في البحر الأبيض والبحر المحيط الشمالي مع الأسطول المرتب في البحر الاسود وبحر البلطيق وتهجم كالسيل على سواحل فرنسا. وأما ألمانيا فانها تكون إذ ذاك مشغولة بحالها. وبما ذكرناه تصبح المملكتان الواسعتان المذكورتان مغلوبتين على هذه الصورة فالقطعة التي تبقى من أوروبا تدخل بالطبع تحت الانقياد بسهولة وبدون محاربة وتصير جميع قطعة أوروبا قابلة للفتح والتسخير اه .

ومع كل هذا فقد أرادت الدولة استدراك ما فات وأوعزت الى (كريم كراي) خان القرم أن يفتح باباً للحرب فصدع بالأمر. ولكي يجعل الحق من جهة الدولة احتال على بعض القوزاق التابعين للروسيا حتى أوقعهم في حبالة نصبها لهم وأدّت بهم الى التعدّي على حدود الدولة العلية والاغارة على إحدى المدن التابعة لها وقتل بعض سكانها فأشهرت الدولة الحرب على الروسيا. وافتتحها كريم كراي بأن أغار بخيله ورجله على اقليم سربيا الجديدة الذي عمرته الروسيا، مع أن المعاهدات التي بينها وبين الدولة كانت تقضي عليها بتركه صحراء بدون استعمار ليكون فاصلاً بين أملاك الدولتين وعمرته الروسيا لمنع وصول المساعدة من خان القرم الى بولونيا عند مسيس الحاجة .

وكانت نتيجة إغارة كريم كراي على هذه الولاية خراب كثير من المستعمرات الروسية وعودته بكثير من الأسرى وتوفي قبل أن تنتهي الحرب .

---

(١) أرخانكل Archangel ويسمى بالروسية أرخانكسك Arklangelsk ويقع هذا الخليج ، في الشمال الغربي من روسيا ، يسمونه البحر الأبيض .

ثم سار الوزير نشانجي محمد أمين باشا الذي تولى الصدارة في جمادى الآخرة سنة ١١٨٢ [١] بجيوشه للدفاع عن مدينة (شوكزيم) التي حاصرها البرنس جالتسين الروسي فلم ينجح لعدم اتباعه الأوامر العسكرية الواردة اليه من السلطان المهتم بنفسه بأمور الحرب ولو لم يقد الجيوش بذاته الشريفة. وكان جزاء القائد المذكور أن قتل بأمر السلطان في ٩ ربيع الآخر سنة ١١٨٣ [٢] وأرسل رأسه الى الاستانة عبرة لغيره من القوّاد وعين مكانه في الوزارة والسر عسكرية مولدواني علي باشا، وكان أشدّ اهتماماً من سلفه بأمور الجند وأكثر اطلاعاً على ضروب القتال لكن عاكسته الطبيعة وكانت هي السبب في تقهقره. فانه حين كان يعبر مع جيوشه نهر (دينستر) [٣] على جسر من المراكب ليهاجم الجيش الروسي المعسكر على الضفة الأخرى زادت مياه النهر بغتة وفاضت على شواطئه بكيفية مريعة حتى استولى الجزع على العساكر المارّين فوقه وهموا بالرجوع الى معسكرهم وتبعهم بعض من كان قد وصل الى الشاطئ الآخر فغرقت المراكب واستشهد نحو ستة آلاف جندي وصار من بقي منهم على الشاطئ الروسي هدفاً لمدافعهم وبنادقهم التي صوّبت إليهم من كل فج حتى قتلوا عن آخرهم في ١٧ جمادى الأولى سنة ١١٨٣ (١٨ سبتمبر ١٧٦٩ م).

وبعد هذا الانهزام الذي لم يكن فيه للروس من فخر التزم مولود واني باشا بالتقهقر بعد إخلاء مدينة شوكزيم فدخلها البرنس جالتسين واحتل على الفور أيالتي الفلاخ والبغداد.

وفي هذه الأثناء كانت رسل الروس تعمل على اثارة الخواطر في بلاد موره حتى اذا استعدّ الأهالي للثورة خرجت بعض المراكب الروسية من بحر بلطيق قاصدة بلاد اليونان بعد الطواف حول أوروبا الغربية واستولت على مدينة كورون لتشجيع الأروام على العصيان، لكن لم تلبث هذه الفتنة أن اطفئت وخرجت

(١) يبدأ هذا الشهر في ١٣ تشرين الأول ـ اكتوبر ١٧٦٨.

(٢) (١٢ آب ـ أوغست ١٧٦٩ م).

(٣) دينيستر Dniestr نهر يفصل بين أوكرانيا ومولداڤيا ويصب في البحر الأسود.

مراكب الروس، من ميناء كورون قاصدة جزيرة ساقز فالتقت بالمراكب العثمانية في المضيق المارّ بين الجزيرة وساحل آسيا. وبعد أن استمر القتال عدّة ساعات انتصر العثمانيون ورجعوا بعد تمام النصر إلى ميناء جشمه[1] فتبعهم حراقتان من مراكب الروس، ظنّ العثمانيون انهم فارّون من دونانمة العدوّ وآتون للانضمام اليهم فلم يعارضوهم في الدخول الى الميناء، فبمجرد دخولهم ألقوا النيران على المراكب العثمانية فاشتعلت واحترقت عن آخرها باشتعال ما كان بها من البارود في يوم ١١ ربيع الأوّل سنة ١١٨٤ (٥ تموز - يوليو ١٧٧٠ م).

وبعد ذلك قصد الأميرال الروسي (الفنستون) الهجوم على مدينة القسطنطينية لعدم وجود ما يمنعه من الاستحكامات من المرور في بوغاز الدردنيل ولكن لم يوافقه القائد (ارلوف) على ذلك ففضل احتلال جزيرة لمنوس قبل ذلك لتكون قاعدة لأعمالهم الحربية فحاصرها، وتمكن في أثناء ذلك (البارون دي توت)[2] المجري الذي دخل في خدمة الدولة العلية، من تحصين مضيق الدردنيل وبناء القلاع فيه على ضفتيه وتسليحها بالمدافع الضخمة حتى صار المرور منه من رابع المستحيلات. ثم حوّل عدّة مراكب تجارية الى سفن حربية بوضع المدافع فيها. وزيادة على ذلك كلفه السلطان مصطفى الثالث بانشاء مسبك لصب المدافع بالاستانة وبترتيب الطوبجية على النظامات الجديدة فقام بالأمر خير قيام وأسس مدرسة لتخريج ضباط للطوبجية وأركان حرب متعلمين الفنون العسكرية الحديثة وأخرى لتربية ضباط للبحرية، كان مركزها بالترسانة، تخرج منها في قليل من

---

(١) هي چشمه: بالجيم الفارسية ومعناها اللغوي عين الماء وتقع هذه المدينة في الرأس الممتد من بر الأناضول الى الغرب من أزمير.

(٢) ولد بفرنسا سنة ١٨٣٣ وتجنس بالجنسية الفرنساوية واستخدم في سفارة فرانسا بالأستانة. وفي سنة ١٧٦٧ عين قنصلا لها في القرم ثم استخدمه السلطان مصطفى الثالث فأخلص في خدمته وأصلح الطوبجية وحصن الدردنيل حتى صار من أحسن المعاقل البحرية ثم عاد الى فرنسا وعين مفتشاً عاماً لمراكزها القنصلية بالشرق وبلاد المغرب. ولما حصلت الثورة الفرنساوية الشهيرة هاجر سنة ١٧٩٠ وأقام في بلاد المجر الى أن توفي سنة ١٧٩٣.

الزمن عدة قباطين قادرين على أخذ الارتفاعات ورسم بعض الشواطئ بالطرق الهندسية المضبوطة .

وكانت نتيجة هذه الاصلاحات التي تمت بسرعة غريبة ان هاجم القبطان حسن بك مع بعض السفن الحربية سفن الروس المحاصرة لجزيرة لمنوس سنة ١٧٧١ وألزمها رفع الحصار عنها بعد مقاتلة خفيفة . وكوفيء حسن بك على هذا الانتصار بتعيينه قبطان باشا الدونانمات العثمانية ورقي الى رتبة باشا ، ومن جهة أخرى لم يفلح الروس في طرابزون التي أرادوا الاستيلاء عليها . وبالاختصار كان النصر حليف الجنود العثمانية براً وبحراً الا في بلاد القرم فقد احتلها البرنس (دلجوروكي) الروسي ثم أعلن بانفصالها عن الدولة واستقلالها تحت سيادة وحماية الروسيا وأقام من يدعى جاهين كراي خاناً عليها باسم كاترينه الثانية.

وفي ٩ ربيع الأوّل سنة ١١٨٦ (١٠ يونيو سنة ١٧٧٢ م) تهادن الفريقان بناء على توسط النمسا والروسيا وأمضيت الهدنة في مدينة (جورجيو) من مدن البلغاريا وأرسل كل منهما مندوبيه للمخابرة في شأن الصلح الى مدينة فوكشان [١] بولاية البغدان ، فاجتمع المؤتمر أوّل اجتماع في ٩ جمادى الأولى سنة ١١٨٦ (٨ أغسطس سنة ١٧٧٢) وبعد أن اتفق الجميع على مدّ أجل المهادنة الى ٢٣ جمادى الثاني سنة ١١٨٦ (٢١ سبتمبر سنة ١٧٧٢) طلب مندوبو كاترينه الاعتراف باستقلال تتار القرم وحرية الملاحة لسفن الروسيا التجارية في البحر الأسود وجميع بحار الدولة العلية ، ولما لم تقبل الدولة هذه الشروط انفض الجمع على غير جدوى ثم مدّت المهادنة سبعة أشهر . واجتمع المؤتمر ثانياً في مدينة بخارست في ١٣ شعبان سنة ١١٨٦ (٩ نوفمبر سنة ١٧٧٢) وفيه طلبت كاترينه بلسان مندوبها طلبات أكثر اجحافاً بحقوق الدولة وأرسلت بها بلاغاً نهائياً في ٢٣ ذي القعدة سنة ١١٨٦ (١٥ نوفمبر سنة ١٧٧٣ م) وهي :

أولاً : أن تتنازل الدولة للروسيا عن حصن (كريش)[٢] ويكي[٣] قلعه

---

(١) فوكشان : تقع الى الجنوب الغربي من ياسي في رومانيا .

(٢) كريش : في أوكرانيا . (٣) يكي قلعه (يني قلعه) في جزيرة القرم .

حفظاً لاستقلال التتار .

ثانياً : أن تمنح المراكب الروسية تجارية كانت أو حربية حرية الملاحة في البحر الاسود وبحر جزائر اليونان .

ثالثاً : تسليم ما بقي من حصون القرم مع الدولة العلية الى التتار .

رابعاً : إعطاء جرجوارغيكا ، والي الفلاخ (وكان أسيراً في الروسيا) ، هذه الولاية له ولورثته الشرعيين بشرط دفع جزية معينة كل ثلاث سنوات مرة .

خامساً : التنازل عن مدينة (قلبورن) [1] للروسيا وهدم حصون مدينة أوكزاكوف [2] (أوزي) .

سادساً : أن يعطى لقب باديشاه الى قيصر أو قيصرة الروسيا في المعاهدات والمخاطبات السياسية .

سابعاً : أن يكون للروسيا حق حماية جميع المسيحيين الأرثوذكسيين في بلاد الدولة .

فيظهر للمطلع على هذه الشروط أن كاترينه ما كانت تظن قبول الدولة لها بل جعلتها طريقة لاستمرار الحرب،ولذلك رفضتها الدولة بكل شمم في ٢٨ ذي الحجة سنة ١١٨٦ (٢٢ مارس سنة ١٧٧٣) وأصدرت أوامرها للجيوش باستئناف القتال بكل شدّة خصوصاً في بلاد الطونه . فانهزم الروس أمام مدينة روستجوق [3] وكذلك أمام مدينة سلستيريا [4] التي حاولوا الاستيلاء عليها في (٣٠ مايو سنة ١٧٧٣) بعد أن قتل منهم ثمانية آلاف جندي . وبمناسبة هذا الانتصار منح السلطان لقب غازي للقائد عثمان باشا الذي حمى المدينة فتقهقر الروس ،

---

(١) قلبورن : قلعة في مضيق أوزي .

(٢) أوكزاكوف أو أوزي : ثغر في الشمال الغربي من البحر الأسود وهو الى الشمال من أوديسا .

(٣) روستجوق : اسم تركي الغي وتسمى اليوم **Razgard** وتقع الى الجنوب الغربي من سيلستريا على نهر الطونة .

(٤) سلستريا **Silistra** تقع الى الجنوب الشرقي من مدينة بخارست على نهر الطونه .

وفي رجوعهم مروا بمدينة بازارجق [1] ولما لم يجدوا بها حامية قتلوا جميع من فيها من شيوخ ونساء وأطفال. وبمجرد ما شعروا بقدوم الجنود المظفرة انسحبوا منها بكل سرعة تاركين أمتعتهم، حتى قال المؤرخ (همر): ان العثمانيين وجدوا اللحم في القدور على النار. وهذا مما يدل على ما وقع في قلوب الجنود الروسية من الرعب من الاسود العثمانية التي لولا عدم كفاءة أو قلة صداقة بعض قوّادهم لما علموا للتقهقر أو الهزيمة اسما .

عصيان علي بك بمصر

وفي ذلك الوقت كان علي بيك الملقب بشيخ البلد الذي استقل تقريباً بشؤ ن مصر ، تخابر مع قائد الدونانمة الروسية بالبحر الأبيض المتوسط ليمدّه بالذخائر والأسلحة حتى يتم استقلال مصر فساعده القائد الروسي رغبة في وجود الحروب الداخلية في الدولة. وبذلك أمكن علي بيك فتح مدائن غزة ونابلس وأورشليم ويافا ودمشق. وكان يستعدّ للسير الى حدود بلاد الأناطول إذ ثار عليه أحد بيكاوات المماليك وهو محمد بيك الشهير بأبي الذهب، فعاد علي بيك الى مصر لمحاربته فانهزم.

وبعد أن تحصن في القلعة التجأ الى الشيخ طاهر، الذي كان عاملاً على مدينة عكة من قبل الدولة العلية واستأثر بها واتحد معه على محاربة العثمانيين بالاتحاد مع الروس وتخليص مدينة صيدا التي كانوا يحاصرونها فسارا الى هذه المدينة والتقيا بالعثمانيين خارجها وانتصرا عليهم بمساعدة المراكب الروسية التي كانت ترسل مقذوفاتها على الجيش العثماني. ثم أطلقت السفن الروسية قنابلها على مدينة بيروت فأخربت منها نحو ثلاثمائة بيت. وبعد ذلك عاد علي بيك الى مصر في محرم سنة ١١٨٧ (ابريل سنة ١٧٧٣) لمحاربة محمد بيك أبي الذهب، وانضم الى جيوشه أربعمائة جندي روسي فقابلهم أبو الذهب عند الصالحية بالشرقية وفاز عليهم بالنصر وأسر علي بيك وأربعة من ضباط الروس بعد أن قتل كل من

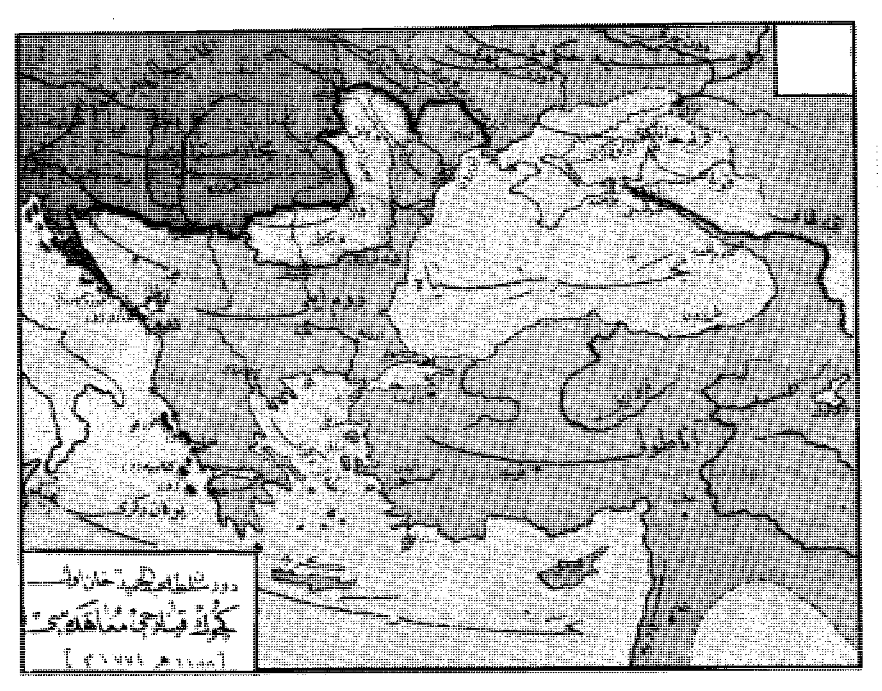
---

(١) بازارجق وكانت تسمى حاجي أوغلي بازاري وتسمى اليوم توبولخين Tobulkhin وهي الى الجنوب من سيلستريا .

كان معهم ورجعا الى مصر حيث تو في علي بيك مما أصابه من الجراح فقطع رأسه وسلم مع الأربعة ضباط الروسيين الى الرالي العثماني خليل باشا وهو أرسلهم الى القسطنطينية .

ثم توفي السلطان مصطفى الثالث في ٨ ذي القعدة سنة ١١٨٧ (٢١ يناير سنة ١٧٧٤) وبلغت مدّة حكمه ست عشرة سنة وثمانية شهور. وكان رحمه الله عادلاً محباً للخير وله عدّة مآثر خيرية كالمدارس والتكايا .

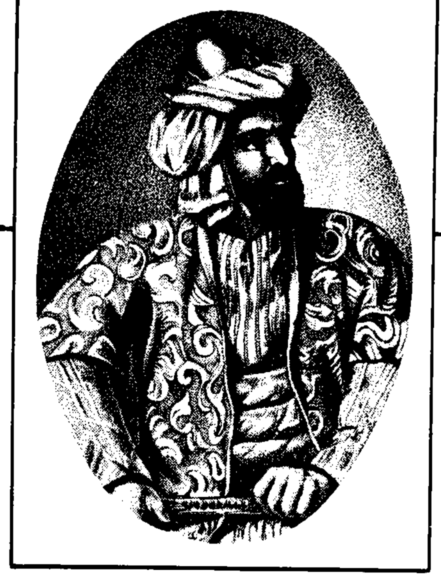
ومن آثاره أن أنشأ في اسكدار [1] جامعاً على قبر والدته ووقف عليه خيرات كثيرة وأصلح جامع السلطان محمد الفاتح التي زلزلت أركانه زلزلة شديدة وتولى بعده أخوه .



الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الأول

١١٨٨ هـ - ١٧٧١ م

(١) اسكدار هي الضفة الشرقية من استانبول .



-٢٧

السلطان الغازي
عبد الحميد خان الأول

ابن السلطان أحمد الثالث ولد سنة ١١٣٧هـ (سنة ١٧٢٤م) وقضى مدّة حكم أخيه مصطفى الثالث محجوزاً في سرايته كما جرت به العادة. وفي اليوم الثالث من توليته توجه في موكب حافل الى جامع أبي أيوب لتقلد سيف السلطان عثمان مؤسس هذه الدولة ولم يوزع على الجنود الانعامات المعتادة لنضوب خزائن الدولة التي استنزفتها الحرب الأخيرة. ثم أقرّ الصدر الأعظم محسن زاده وأغلب كبار الموظفين والقوّاد البرية والبحرية في مناصبهم لعدم وقوع الخلل في الأعمال. أما الروسيا فكانت تستعدّ استعداداً هائلاً لرد ما فقدته من الاسم والشرف في أواخر أيام المرحوم مصطفى الثالث. ولم يأت شهر يونيو سنة ١٧٧٤ الا وقد زحف الفلد مارشال رومانزوف الروسي بعد أن انضم اليه ما جمع من الجيوش تحت قيادة (سواروف) وكرامنسكي. وبعد عدّة مناورات ومناوشات اجتاز الفلدمارشال نهر الطونة وسار قاصداً مدينة وارنه [١] فالتقى مع الجيش الذي أرسله الصدر الأعظم من معسكره بمدينة (شوملا) [٢] تحت قيادة الرئيس أفندي عبد الرزاق وهزمه بالقرب من مدينة يقال لها (قوزليجق) [٣] في (١٤ يوليو ١٧٧٤) وسار قاصداً معسكر محسن زاده الصدر الأعظم فطلب الصدر من رومانزوف المهادنة وتوقيف القتال وأرسل اليه مندوبين للاتفاق على عقد الصلح وقبول الشروط التي رفضتها الدولة عند اجتماع مؤتمر بوخارست، فاجتمع المندوبان العثمانيان مع

(١) وارنه هي ڤارنه Varna وهي بلد بلغاري سياحي يقع على البحر الاسود.

(٢) شوملا هي Shumen وتقع الى الغرب من مدينة ڤارنه. ويكتبها أحياناً شومله.

(٣) قوزليجق : لم أهتد الى اسمها الحالي لأعرف موقعها بالضبط غير أنها في بلاد رومانيا ولا شك.

البرس رابنين سفير الروسيا في مدينة قينارجه [1] ،وبعد مخابرات طويلة وأخذ ورد بين الطرفين قبل الصدر المعاهدة التي تم الاتفاق عليها في (٢١ يوليو سنة ١٧٧٤) وهي مكونة من ثمانية وعشرين بنداً أهمها استقلال تتار القرم وبسارابيا [2] وقوبان [3] ،مع حفظ سيادة الدولة العلية فيما يتعلق بالأمور الدينية وتسليم كافة البلاد والأقاليم التي احتلتها الروسيا الى خان القرم ،ما عدا قلعتي كريش ويكي قلعه ،وردّ ما أخذ من أملاك الدولة بالفلاخ والبغدان وبلاد الكرج ومنكريل [4] وجزائر الروم ما عدا قبرطه الصغيرة وقبرطه [5] الكبيرة وآزاق وقلبورن وأن يعطى الى امبراطور الروسيا لقب پاديشاه في المعاهدات والمحررات الرسمية، وأن يكون للمراكب الروسية حرية الملاحة في البحر الأسود والبحر المتوسط وأن تبني الروسيا كنيسة بقسم بيرا بالاستانة ويكون لها حق حماية جميع المسيحيين التابعين للمذهب الأرثوذكسي من رعايا الدولة ،وأن تكون كافة المعاهدات السابقة لاغية وغير ذلك. ومن الغريب انه لم يذكر شيء فيها عن مملكة بولونيا (لهستان) سبب هذه الحرب التي عادت على الدولة بأوخم العواقب.

وأضيف الى هذه المعاهدة بندان سريان جاء في أحدهما أن الدولة تدفع الى الروسيا مبلغ خمسة عشر ألف كيسة بصفة غرامة حربية على ثلاثة أقساط متساوية في (أول ينايّر سنة ١٧٧٥ وسنة ١٧٧٦ وسنة ١٧٧٧).

وفي الثاني انها تقدّم للروسيا المساعدات المقتضية للجلاء عما احتلته من جزائر الروم وسحب دونانمتها منها. وهذا نص معاهدة قينارجه Kainarja نقلاً عن ترجمة الجزء الأوّل من تاريخ جودت باشا.

المادة الأولى : كل ما سبق وقوعه بين الدولة العلية ودولة الروسيا من عداوة

---

(١) قينارجه Kajnarja وتقع الى الجنوب الشرقي من سيلستريا في بلغاريا.

(٢) بسارابيا Basarabi تقع الى الغرب من مدينة كونستنزا الرومانية على البحر الاسود.

(٣) قوبان : اقليم في القفقاس يحده من الغرب بحر آزوف ومن الجنوب البحر الاسود.

(٤) الكرج ومنكريل في جزيرة القرم.

(٥) قبرطه : هي الاقليم الواقع في شمال شرق البحر الأسود من بلاد القفقاس.

ومخاصمة قد مُحي وأزيل من الآن الى الأبد ،وكل الأضرار والتعدّيات التي صار الشروع في استعمالها وإجرائها من الطرفين بالآلات الحربية وبغيرها صارت نسياً منسياً الى الأبد ولا يجري بعد الآن ولا في وقت ما انتقام بل صار الصلح براً وبحراً عوضاً عن العدوان بوجه لا يعتريه التغير، بل يراعى ويصان من طرفي الهمايوني ومن طرف خلفائي الأماجد. وكذلك يحفظ ويصان ما جرى تمهيده مع ملكة الروسيا المشار إليها وحلفائها من الاتفاق والموالاة الصافية المؤبدة والسالمة من التغيير. وتستمرّ هذه المواد جارية ومعتبرة بكمال الدقة والاهتمام. وتكون قضية الموالاة مرعية بهذه الصورة بين الدولتين وفي أملاكهما وبين رعاياالطرفين، بحيث لا تقع فيما بعد ضدّية بين الفريقين لا سراً ولا جهراً ولا نوع من أنواع البغضاء والأضرار. وبحسب الموالاة والمصافاة المتجدّدتين تكون جرائم جميع الرعايا المتهمين لدى الدولتين وكيفما كانت تهمتهم بلا استثناء نسياً منسياً ويعرض عنها بالكلية من الجهتين. والذين أخذوا منهم ووضعوا في السجون يطلق سبيلهم وتعطى الرخصة برجوع الأشخاص الذين نفوا الى الجهات وبعد إمضاء المصالحة يردّ إليهم ما كانوا أحرزوه من الرتب والأموال والذين استحقوا منهم عقاباً من أيّ نوع كان لا يتعرّض لهم بسبب ما أصلا أو بوسيلة ما أصلا ولا بضرر وتأديب، واذا تصدّى أحد لضررهم والتعرّض لهم يصير تأديبه. وكل من المذكورين يكون تحت حماية ومحافظة القوانين ومن الواجب معاشرتهم بحسب عادات الولايات قياساً على الولايات المتاخمة .

المادة الثانية : بعد تنقيح هذه العهدة المباركة ومبادلة صكوك التصديق اذا ظهر من بعض رعايا الدولتين عدم الطاعة أو خيانة أو اتهموا بتهمة أخرى ووجدوا في بلاد إحدى الدولتين لقصد الاختفاء أو الالتجاء فهؤلاء، ما عدا الذين دخلوا منهم في الدين الاسلامي في دولتي العلية والذين تنصروا في دولة الروسيا، لا يقبلون أصلاً ولا تجري لهم الحماية بل بالحال يردّون الى بلادهم أو يطردون من بلاد الدولة التي التجأوا اليها وذلك حتى لا يحصل بين الدولتين بسبب أشخاص لا نفع فيهم أمر يفضي الى البرودة بين الطرفين أو يكون باعثاً لبحث لا طائل تحته. كذلك اذا حصل من أحد رعايا الطرفين، سواء كان من الاسلام أو من زمرة المسيحيين

ذنب أو تقصير وعلى أيّ ملاحظة كانت، التجأ لاحدى الدولتين فانه ينبغي ردّه عند طلبه بلا تأخير .

المادة الثالثة : جميع قبائل القريم وطوائف بوجاق وقوبان وبديسان وجانبويق ويديجكول التاتارية يصير قبولها والاعتراف بحريتها بلا استثناء من طرف الدولتين بشرط أن لا تكون تلك القبائل تابعة لدولة أجنبية بوجه ما . والخانات [1] المنتخبون من نسل آل جنكيز المستقلون في حكوماتهم باتفاق جميع طوائف التاتار يبقون على ما هم عليه يحكمون في الطوائف المرقومة بحسب قانونهم وعاداتهم القديمة، بشرط أن لا يؤدّوا ضريبة من مادة ما لدولة من الدول الأخرى. ودولتنا العلية ودولة الروسيا لا يتدخلان في أمر انتخاب الخانات الموما إليهم ونصبهم ولا فيما يحدث من أمورهم المخصوصة في أمور حكومتهم بوجه ما بل يكون حكمهم نافذاً في حكومتهم وفي الأمور الخارجية كدولة مستقلة مثل سائر الدول المستقلة. وطائفة التاتار المرقومة تكون مقبولة ومعترفاً بكونها غير تابعة لأحد سوى الحق سبحانه وتعالى، وحيث أن الطائفة المذكورة هي من أهل الاسلام، وكون ذاتي السلطانية الموسومة بالعدالة هي إمام المسلمين وخليفة الموحدين، فانها توجب على الطائفة المرقومة أن لا تلقى خللاً في الحرية الممنوحة لدولتهم وبلادهم بل يجب أن تنظم أمورها المذهبية من طرفي الهمايوني بمقتضى الشريعة الاسلامية. وأراضي كرش وأراضي القلعة المسماة بالقلعة الجديدة التي خصصت لدولة الروسيا والقصبة الواقعة بجانب قريم وقوبان ما عدا ثغورها والقلاع والأماكن والأراضي التي وقع الاستيلاء عليها وجميع الأراضي الواقعة بين مياه برادونسكي ودي دادزي ومياه نهري آقصو [2] وطور له حتى حدود مملكة (له) ، فهذه جميعها تردّللطوائف

---

(١) الخانات جمع خان وهم أمراء التتر والتركمان وكل الامارات الكائنة أو التي كانت في الاتحاد السوفييتي .

(٢) نهر آقصو أي الماء الأبيض يسمى بوكَ Bug ، وهو في أوكرانيا ويصب في البحر الاسود ونهر(طور له)هو نهر دينستر ويمر بشمال رومانيا ويصب في البحر الأسود. ولم أهتد الى النهرين الأولين لاختلاف اسمهما بين التسمية التركية والتسمية الروسية وهما لا شك من أنهار أوكرانيا .

المرقومة. وقلعة أوزي مع قطعتها القديمة تبقى تحت تصرف دولتي العلية كالسابق. وبعد تكميل عهدة المصالحة تتعهد دولة الروسيا باخراج جميع عساكرها من الممالك التاتارية، وتتعهد دولتي العلية أيضاً بكف يدها عما هو لها، كلياً كان أو جزئياً، من جميع أنواع القلاع والقصبات والمساكن وسائر الأشياء الواقعة في جزيرة القريم وشبه جزيرة قوبان وطمان وأن لا ترسل فيما يأتي محافظاً عسكرياً للمحل المرقوم أو عساكر يل ترد الممالك المذكورة لطوائف التاتار المرقومة بالوجه المحرر. وكما أن دولة الروسيا جعلت الطوائف المرقومة غير تابعة لأحد ومستقلة في حكومتها على وجه أن تكون الحرية المطلقة معمولاً بها فيها، كذلك دولتنا العلية تتعهد بأن لا ترسل فيما يأتي للقصبات والقلاع والأراضي والمساكن المذكورة محافظاً عسكرياً ولا غيره من زمرة عساكر السكبان أو غيرها كيفما كان اسمهم ونوعهم. والحرية الممنوحة للطوائف المرقومة من طرف دولة الروسيا تمنحها لها أيضاً دولتنا مع الاستقلال بحيث لا تكون الطوائف المذكورة تابعة لأحد.

المادة الرابعة: لما كان بمقتضى القواعد الأصلية المخصوصة بجميع الدول، يجوز لكل دولة أن تجري في ممالكها ما تراه مناسباً من النظام، فللدولتين المتعاقدتين الرخصة الكاملة المطلقة بدون تقييد أن تبنيا ما تستنسبه من القلاع والمدن والقصبات والأبنية وأن يصلح كل منهما ويجدّد ما يكون قديماً من قلاعهما وقصباتهما وسائر أملاكهما.

المادة الخامسة: وحيث أنه قد تيسر تجديد ما للجوار من حقوق الموالاة والمصافاة بانعقاد هذه المصالحة المباركة فلدولة الروسيا أن تعين من طرفها في الأستانة (أنوبياتو) - يعني سفيراً متوسطاً أو مرخصاً من الدرجة الثانية - فيقيم دائماً لدى دولتنا العلية وعلى الدولة العلية أن تجري للسفير المومأ إليه، بالنظر لرتبته، مراسم الاعتبار والرعاية الجارية منها لسفراء الدول الأوفر اعتباراً. وإذا وقع احتفال رسمي عمومي وكان سفير امبراطور الألمان في رتبة رفيعة أو صغيرة فإنه يكون بعد سفير «ندرلاند» (أي هولاندا أو الفلمنك) الكبير، وإذا لم يكن لدولة اندرلاند سفير كبير فإنه يكون بعد سفير ونديك الكبير (أي البندقية).

المادة السادسة : اذا وقعت سرقة أو تهمة عظيمة أو أمر غير لائق يستوجب التعزير من الذين هم بالفعل في خدمة سفير دولة الروسيا ، فبعد التقرير يجب استرداد تلك الأشياء المسروقة بالتمام على الوجه الذي يبينه السفير. والذين يتصوّرون قبول الدين المحمدي وهم في حالة السكر فلا يقبلون في الدين المحمدي ، بل بعد زوال السكر ورجوعهم الى حالتهم الأصلية بعود عقولهم لرؤوسهم ، يطلب منهم بيان اقرارهم واعترافهم في مواجهة من يرسله السفير أيضاً وأمام بعض المسلمين ممن ليس لهم غرض ، ثم يصير قبولهم على هذا الوجه .

المادة السابعة : تتعهد دولتنا العلية أن تصون حق الديانة المسيحية وكنائس المسيحيين صيانة قوية ، وتمنح سفراء دولة الروسيا الرخصة بإبراز التفهيمات المتنوّعة عند كل احتياج سواء أكان متعلقاً في الكنيسة المذكورة في المادة الرابعة عشرة الكائنة في محروسة القسطنطينية أو في صيانة خادميها. وإذا عرض السفير المومأ إليه شيئاً ما بواسطة معتمد له يتعلق بدولة مصافية ومجاورة لدولتي العلية فتتعهد دولتنا العلية بقبول المعروض والمعتمد .

المادة الثامنة : تعطى الرخصة التامة لرهبان دولة الروسيا ولسائر رعاياها بزيارة القدس الشريف وسائر الأماكن التي تستحق الزيارة ولا يتكلف المسافرون ولا السائحون لدفع نوع من أنواع الجزية والخراج والويركو أصلاً ، ولا يطلب ذلك منهم أثناء الطريق لا في القدس الشريف ولا في سائر الأماكن. وتعطى لهم الفرمانات بالوجه اللائق مع أوامر الطريق التي تعطى الى رعايا سائر الدول والذين يقيمون منهم في أراضي دولتي العلية لا يمكن أن يحصل لهم تعرض ومداخلة بوجه من الوجوه بل تصير حمايتهم وصيانتهم تماماً بمقتضى قوّة أحكام الشريعة .

المادة التاسعة : المترجمون الموجودون في خدمة سفراء الروسيا المقيمين في محروسة القسطنطينية من أيّ ملة كانوا حيث خدموا أمور الدولة وخدمتهم هذه راجعة للدولتين فانهم يعاملون بكمال المروءة والاعتبار ولا تجوز مؤاخذتهم في الأمور المكلفين بها من طرف من هم بخدمته .

المادة العاشرة : لحين إمضاء هذه المصالحة المباركة وايصال التنبهات اللازمة

من طرف سر دارية عساكر الطرفين للمحلات المقتضية إذا حدثت خلال ذلك مخاصمة في أيّ محل كان لا يعدّ ذلك تعرّضاً ،وما يحصل بسبب ذلك من الفتوحات والاستيلاء لا يعتبر ،ويكون كأنه لم يكن ولا أحد من الدولتين يستفيد من مثل هذا شيئاً .

المادة الحادية عشرة : قد تقرّر لأجل منفعة الدولتين سير سفنهما وسفن تجارهما بلا مانع في جميع بحارهما وتعطى الرخصة من جانب دولتي العلية الى سفن روسيا وسفن تجارها بأن تتمتع بالتجارة في كل الاساكل[1] وكل محل بالوجه الذي أجازته دولتي العلية فيها لسائر الدول وأن يمكثوا في المعابر والثغور المتصلة بالبحار المذكورة وفي عموم المرافىء والشطوط الساحلية ،من البحر الأبيض الى البحر الأسود ومن البحر الأسود إلى البحر الأبيض.وكما صار البيان أعلاه بحق هذه المادة قد أعطيت الرخصة من جانب دولتي العلية الى رعايا دولة الروسيا بأن يتجروا براً مع أهالي ممالك دولتنا العلية ويكون لهم ما حصلت به المساعدة والمسألة والمعافيات في التجارة البحرية الى أحب أصدقائنا فرنسا وإنكلترة ويسيرون على هذا المنوال في نهر الطونة.وعند ظهور أي نوع كان من الاحتياج سواء أكان في أمر التجارة أو فيما يتعلق بنفس التجار أو بالجميع تراعى شروط الملتين المذكورتين وتعتبر على الوجه المحرر لفظاً بلفظ في هذه المادة.ولتجار الروسيا أن ينقلوا ويخرجوا كل نوع من الأمتعة،بعد أن يؤدّوا الرسومات التي يعطيها غيرهم من الملل المذكورة، ويجوز لهم أن يصلوا الى سواحل ومرافىء البحر الأسود وسائر البحار وإلى محروسة القسطنطينية.وقد رخص لرعايا الطرفين بالتجارة وتسيير السفن في عموم مياه المواضع المذكورة بلا استثناء وأعطيت لهم الرخصة من جانب الدولتين بالاقامة في بلادهما المدّة اللازمة لادارة مصالحهم وتجارتهم وحصل التعهد بذلك من الطرفين بهذا الباب بأن يكون لتجار روسيا أيضاً ما لرعايا سائر الدول المتحابة من الحرية والمسالمة.ولكون المحافظة على النظام في كل المواد هي من ألزم الأمور أعطيت الرخصة من جانب دولتنا العلية بتعيين

(١) الاساكل جمع اسكلة،وهي كلمة أجنبية تعني المرفأ .

قناصل ووكلاء قناصل من طرف دولة روسيا في عموم المواقع التي ترى أنها لازمة لذلك ويعتبرون في سائر الأمور مثل قناصل سائر الدول المتحابة. وقد رخص لهؤلاء القناصل ووكلاء القناصل بأن يستخدموا في معيتهم مترجمين من المسلمين الحائزين براءتي الشاهانية المعبر عنها (ببرأتلي)[1]. ويكون لهؤلاء المترجمين ما لامثالهم الموجودين في خدمة انكلترا وفرنسا وسائر الملل من المعافيات. وأعطيت الرخصة من جانب دولة الروسيا الى رعايا دولتي العلية بأن يتاجروا براً وبحراً في ممالك روسيا ويكون لهم ما لسائر الملل المتحابة مع روسيا من الامتيازات والمعافيات وذلك بعد أداء الرسوم المعتادة، وتجري المساعدة بكل وجه لسفن الدولتين التي تطرأ عليها الطواريء في أثناء سيرها في البحر، يعني عند وقوع حوادث تلزم لها الاعانة بما يلزم لجانب سائر الدول الأوفر صداقة ويؤخذ لهذه السفن ما يلزمها من الأشياء بالأسعار الجارية.

المادة الثانية عشرة : اذا رغبت دولة الروسيا أن تعقد معاهدة تجارية مع الافريقيين، أي حكومات طرابلس الغرب وتونس والجزائر، فدولتنا العلية تتعهد ببذل اعتبارها وجهدها لحصول دولة روسيا على مرغوبها وتكفل حكومات الايالات المذكورة بأنها تحافظ على العهود المرسومة.

المادة الثالثة عشرة : يلزم استعمال هذه العبارة في اللسان التركي (تماماً روسيه لولرك بادشاهي) يعني (امبراطور جميع بلاد الروسيا) من طرف دولتنا العلية في جميع السندات وعامة المكاتيب وفي كل خصوص اقتضى وضع هذا اللقب المعتبر أعني (تماماً روسيه لولرك امبراطور يجه سي) (امبراطور عموم روسيا).

المادة الرابعة عشرة : يجوز لدولة روسيا أن تبنى كنيسة على الطريق العام في محلة (بك أو غلي) في جهة غلطة، غير الكنيسة المخصوصة، قياساً على سائر الدول. هذه الكنيسة هي كنيسة العوام وتسمى كنيسة (دوسوغرنه) وتكون تحت

---

(١) براءتلي : كلمة تركية معناها حامل البراءة.

صيانة سفير دولة روسيا الى الأبد وتكون أمينة من كلّ تعرّض ومداخلة وتصير حراستها .

المادة الخامسة عشرة : انه بمقتضى النظام الذي به تعينت وتحدّدت حدود الدولتين يبعد عن الملاحظة وجود أمر يستوجب نزاع جسيم يوجب المباحثة لرعايا الطرفين، لكن لأجل دفع أسباب المضار والخسائر المحتمل ظهورها من عوارض غير مأمولة قد وقع القرار بالاتفاق بين الدولتين انه عند حدوث أمر كهذا يجب على الحاكم الموجود على طرف الحدود أن يفتش على المادّة التي حدثت،أو أنه يجري فحصها بمعرفة مأمورين يتعينون لذلك وبعد تفتيش المادة كما ينبغي يجرون إحقاق الحق لصاحبه بلا تأخير. وحصل التعهد الصافي بأن مادة حسن النظام والموالاة التي تمهدت حديثاً وانعقدت بهذه العهدة المباركة لا تتغير أصلاً بحدوث قضايا كهذه .

المادة السادسة عشرة : تردّ دولة روسيا لدولتي العلية مملكة البوجاق مع قلاع اقكرمان وكلي واسماعيل وسائر القصبات والقرى بما فيها من جميع الأشياء، وتردّ لدولتي العلية قلعة بندر أيضاً وكذلك تردّ لدولتي العلية أيالتي الأفلاق والبغدان مع كافة قلاعها ومدنها وقصباتها وقراها وما هو داخلها من جميع الأشياء. وقد قبلت دولتي العلية الممالك المرقومة على الشروط الآتي بيانها وتعهدت بحفظ الشروط المذكورة تماماً ووعدت بذلك وعداً معمولاً به. (أوّلاً) يجري العفو عن أهالي هاته الحكومات الجديدة جميعاً من أيّ قسم كانوا من المراتب والكيفيات والحال والاسم والوجاهة بلا استثناء وأن تغضي عما ظنّ فيهم من الأعمال المغايرة. وكل تهمة تتعلق بهم من الحركات التي كانت مخالفة لأمور دولتي العلية تكون نسياً منسياً الى الأبد وعلى موجب مضمون المادة الأولى يصير إعادتهم الى مناصبهم ورتبهم وتردّ أملاكهم السابقة ويعودون الى ما كانوا يملكونه من الأملاك قبل الحرب وتجدّد أمورهم. (ثانياً) الديانة المسيحية تكون من كل الوجوه حرّة كالأوّل ولا يحصل ممانعة لاجرائها قط ولا يمنع إحداث كنائس جديدة ولا ترميم الكنائس القديمة. (ثالثاً) الأراضي والأملاك الموجودة ضمن دائرة إبرائل

وخوتين وفي سائر المواضع المأخوذة بغير حق المتعلقة من القديم بالأديرة وبسائر الأشخاص ، فهذه جميعاً تردّ للمرسومين المعبر عنهم الآن بالرعايا . (رابعاً) يكون لجماعة الرهبان الاعتبار بما يناسبهم من الامتياز . (خامساً) يرخص للأعيان الذين يرغبون التوجه الى محل آخر بترك الوطن أن ينقلوا أشياءهم بالحرّية وأن يمهلوا مدة سنة للانتقال من وطنهم وذلك ليكون لهم وقت كاف لتنظيم مصالحهم، وتعتبر هذه المهلة من تاريخ التصديق على الصك . (سادساً) لا يصير تحصيل شيء لا نقود ولا خلاف ذلك من المحاسبات القديمة مهما كانت. (سابعاً) لا يصير تكليفهم ولا مطالبتهم بشيء عن مدّة الحرب بتمامها بل نظراً لما صادفوه بأثناء امتداد الحرب من المضرّات والتخريب قد أعطي بعد ذلك للمذكورين أيضاً مهلة سنتين تعتبر من تاريخ مبادلة صك التصديق الهمايوني .(ثامناً) بعد انقضاء هذه المهلة تتعهد دولتنا العلية بمعاملتهم بالمروءة الكلية في أمر تعيين الجزية وتحافظ على سخائها الجليل على قدر الامكان ويصير تأدية جزيتهم بواسطة مبعوثيهم مرة في كل سنتين. وبعد أداء هذه الجزية بتمامها فلا يتعرض لهم أحد أصلاً كائناً من كان من باشا أو حاكم ولا يطالبون بشيء ما من اقتراحات الضرائب بأي اسم كانت بل يكونون متمتعين بالامتيازات التي تمتعوا بها في الزمن السعيد أيام سلطنة جدّي الأمجد السلطان محمد خان الرابع . (تاسعاً) يرخص لامراء هذه الحكومات أن يقيم من طرفه وكيلاً لدى دولتي العلية باسم: مصلحتكدار[1] ويكون هؤلاء الوكلاء نصارى من ملة الروم بدلاً عن القبوكتخدايات [2] الذين كانوا يتعاطون رؤية أمور الملك وتجري في حقهم من جانب دولتي العلية المعاملة بكمال المروءة وينالون ما يستحقونه بحسب قواعد الملل، أي أنهم يكونون معتبرين ومن كل تعرّض آمنين ومصانين . (عاشراً) تعطى الرخصة وتحصل الموافقة من جانب

---

(١) مصلحتكدار : هي لفظ من كلمتين وهما : مصلحة وكَدار وتكتب مصلحتكذار أي صاحب المصلحة ، أو الوكيل .

(٢) قبـوكتخدا : قبو معناها الباب ، وكتخدا بمعنى المشرف أي المشرف على أمور الباب أو المشرف على الأمور اطلاقاً .

الدولة العلية الى سفراء امبراطورية الروسيا بأن يتذاكروا عند الاقتضاء فيما يتعلق بصيانة ومساعدة الحكومتين المذكورتين وتتعهد الدولة العلية برعاية ما يعرضه سفراء الروسيا من المواد بحسب اعتبار الصداقة اللائقة بالدولتين .

المادة السابعة عشرة : (أولاً) يـلـزم دولة الروسيا أن تردّ الى دولتي العلية جزائر البحر الأبيض التي هي الآن تحت حكمها وتتعهد دولتي العلية بأن تجري في حق أهل الجزائر المذكورة كمال الرعاية والعدل وتعاملهم بالعفو عن جميع أنواع القباحات المصرّح بها في المادة السالفة وعموم الأفعال التي جرت بمظنة المخالفة لأمور دولتي العلية فهذه جميعها تكون نسياً منسياً ومعفي عنها بالكلية. (ثانيــاً) لا يصير أدنى تعرّض وتضييق على ديانة المسيحيين ولا يحصل ممانعة بوجه ما في أمر تعيين وتجديد الكنائس ولا يصير التعرض والمداخلة أصلاً في حق الأشخاص الذين يخدمون الكنائس المذكورة . (ثـالثـاً) بسبب التكديرات والتخريبات التي أورثتهــا لهم هذه المحاربة من تاريخ وجودهم تحت حكومة دولة الروسيا وبعد مرور سنتين من تاريخ استرداد الجزائر المذكورة لدولتي العلية لا يستحصل من أهالي الجزائر المذكورين رسم سنوي من أي نوع كان أصلاً . (رابـعـاً) الذين يرغبون في ترك الوطن ويريدون التوجه الى بلاد أخرى تعطى لهم الرخصة من جانب دولتي العلية بنقل أموالهم وأشيائهم. ولكي يكون لهم وقت كافي لتنظيم مصالحهم يمهلون مدّة سنة كاملة اعتباراً من تاريخ مبادلة التصديق على صك المعاهدة . (خـامساً) يلزم رجوع اسطول روسيا من مياه الدولة العلية في مدّة ثلاثة أشهر من بعد مبادلة التصديق على هذا الصك ،وإذا احتاج الاسطول لشيء فعلى دولتي العلية أن تعينه على قدر الامكان .

المادة الثامنة عشرة : قلعه قلبرون [1] الواقعة في بوغاز أوزي صوي مع مقدار كاف من الأراضي الكائنة في ساحل الطرف الشمالي من النهر المذكور مع الصحراء الخالية الواقعة بين آق صووأوزي [2] صو ، تبقى مستقلة على الدوام

(١) قلبرون : كتبها في أماكن أخرى قلبورن فيجب الانتباه .

(٢) أوزي صو هو نهر دنيبر Dnieper وينبع من أوكرانيا ويصب في خليج أوزي في شمال البحر الاسود بعد أن يروي مدينة كييف وغيرها .

تحت تصرّف روسيا بلا معارضة .

المادة التاسعة عشرة : يكي قلعه، الواقعة في جزيرة القريم وجميع ما هو موجود داخل كرش وثغورها مع أراضيها من البحر الأسود الى حدود كرش القديمة طولاً لحدّ المحل المسمى بوخارجه وسن بوخارجه على خط مستقيم من الأعلى الى بحر أزاق يبقى تحت تصرف روسيا على الدوام بلا معارضة .

المادة العشرون : بحسب مفهوم السندات التي عقدت بين الحاكم تولستوي وبين حسن باشا محافظ آجو [1] بتاريخ سنة ١٧٠٠ ميلادية وسنة ١١٠٠ [2] هجرية خصصت قلعة آزاق بحدودها الأولى الى دولة الروسيا للأبد .

المادة الحادية والعشرون : وحيث أن القبارطتين أي القبارطة الكبيرة والقبارطة الصغيرة لهما تعلق مع خانات القريم بسبب وقوعهما في جوار طائفة التاتار قد أحيلت مادة تخصيصها لدولة الروسيا الى خانات القريم ومشورتهم والى رأي رؤساء التاتار .

المادة الثانية والعشرون : قد تقرر بالاتفاق بين الدولتين محو وإزالة جميع الشروط والعهود السابقة والعهدة الواقعة في قلعة بلغراد المنعقدة بينهما وما حدث بعدها من كافة الشروط محواً أبدياً وهو ان كلا من الدولتين المتعاقدتين لا يقوم بداعية ما من حيث العهود المذكورة. ويستثنى من تلك الشروط الواقعة في سنة ١٧٠٠ ميلادية بين الحاكم تولستوي وبين حسن باشا محافظ قلعة آجو فيما يتعلق بتعيين وتحديد حدود القلعة المذكورة وحدود قوبان، فان الشروط المذكورة تبقى كالأوّل بلا تغيير .

المادة الثالثة والعشرون : ان قلاع بغدانجق وكونانسي (وشهر بان) الكائنة في حوالي كورجي ومكريل [3] المستولية عليها عساكر الروسيا تقبلها دولة الروسيا على أن تكون هذه القلاع لأصحابها الأصليين وذلك انه بعد التحقيق

---

(١) اكَو : في اقليم قوبان على الشاطئ الشرقي لبحر آزوف .

(٢) ١٧٠٠ ميلادية تكون ١١١١ هجرية .

(٣) كل هذه القلاع في القرم .

اذا تبين ان دولتي العلية كانت مالكة لها منذ القديم أو منذ مدّة مديدة حينئذ تكون عائدة لدولتي العلية. وبعد مبادلة التصديق على هذا الصك المبارك تخلي عساكر الروسيا القلاع المذكورة في الوقت المعين. ودولتي العلية تتعهد أيضاً بحسب مضمون المادّة السابقة بأن تشمل بالعفو جميع الذين صدرت منهم حركات ضدّ دولتي العلية في أثناء امتداد المحاربة، وأن تكف يدها الى الأبد عن أخذ الويركو عن الصبيان والبنات وعن طلب أيّ نوع كان من الجزية، وانه ما عدا الذين لهم تعلق بها من القديم لا تدعي على فرد واحد من الطوائف المذكورة بكونه من رعاياها وانها تترك مرة أخرى جميع الأراضي وسائر الاستحكامات التي ضبطها الكرجيون والمكريون لحكومتهم ولمحافظتهم المطلقة، وانها لا تتعرّض ولا تجري تضييقاً على أديرة وكنائس الديانة بوجه ما ولا تمنع ترميم القديم ولا بناء الجديد منها وبأن تمنع باشا جلدر [(١)] وجميع رؤساء الجيوش والضباط من التعرّض بأيّ داع كان لأموال الأديرة والكنائس المذكورة واضاعتها ولا تتعرّض دولة الروسيا للطوائف المذكورة ولا تتدخل في أمورهم لأنهم من رعايا دولتي العلية .

المادة الرابعة والعشرون : بعد امضاء المواد والتصديق عليها تتهيأ بالحال جميع عساكر الروسيا الموجودة في الجهة اليمنى من نهر الطونة للعودة والرجوع بحيث في ظرف شهر واحد تقطع الضفة اليسرى من نهر الطونة المذكور . وبعد مرور العساكر المذكورة تماماً الى الضفة اليسرى المرقومة يصير إخلاء قلعة حرسوه [(٢)] وتسلم لعساكر الاسلام وبعده تحصل المبادرة دفعة وفي آن واحد لتخلية مملكتي الأفلاق والبوجاق وقد تعين لهذا الاخلاء مهلة شهرين وبعد انسحاب كافة عسكر روسيا من المملكتين المذكورتين تترك عساكر روسيا

---

(١) جلدر : تقع في كرجستان ولكن لا أعرف موقعها بالضبط ، مثلها مثل كثير من القلاع التي مر ذكرها أو التي سيأتي ذكرها. وذلك لأن القلاع زالت وأسماء أماكنها تغيرت. ولكن القارئ يستطيع من سياق الحديث أن يعرف الاقليم الذي كانت فيه

(٢) هي قلعة خرسون Kherson وتقع عند مصب الطونه .

من الجهة الواحدة قلعة يركوك[١] وبعده قلعة ابرائل [٢] ومن الجهَة الأخرى قصبة اسمعيل [٣] وقلاع كلي [٤] واقكرمان [٥]،وتسير متوجهة لتلتحق بسائر عساكرها تاركة القلاع المذكورة للعساكر الاسلامية. وقد خصص لتخلية المملكتين المذكورتين مهلة ثلاثة أشهر وبعد ذلك تترك عساكر روسيا مملكة بغدان وتمرّ في الجهة اليسرى من نهر طورله،وعلى هذه الصورة تحصل تخلية المواضع والممالك السابق ذكرها، يعني في مدة خمسة أشهر بعد امضاء المعاهدة والمصالحة المؤبدة بين الدولتين . وعند مرور كافة عساكر روسيا للضفة اليسرى من نهر «طور له» حينئذ يصير تسليم قلاع خوتين [٦] وبندر [٧] للعساكر الاسلامية وأما أراضي قلبرون التي سبق التصريح عنها وزاوية الصحراء الواقعة بين آق صو وأوزي صو، يصير تسليمها على الوجه الموضح في المادة الثامنة عشرة بهذه الشروط وفي الوقت المذكور لدولة الروسيا وتكون الى الأبد مصونة من التعرّض ،وعلى عساكر روسيا الموجودة في جهات جزائر البحر الأبيض أن تجري السرعة الممكنة ما يتعلق بأسطول الجزائر المذكورة من المصالح والتنظيمات الداخلية وترد الجزائر المذكورة كالأوّل لتضبطها دولتي العلية مصونة من التعرّض ،لأنه نظراً لبعد المسافة لا يمكن تعيين وقت لذلك ونظراً لاستعجال عزيمة اسطول روسيا ولكونها دولة مصافية فدولتي العلية تتعهد باعانة الاسطول المذكور في إيفاء لوازمه وباعطائه كل شيء في الوسع والامكان وما دامت عساكر روسيا موجودة في الممالك المستردة لدولتي العلية على الصورة المذكورة فحكومتها وما يتعلق بها من النظامات تستمر جارية فيها كما كانت في الوقت الذي كانت فيه بيدها

---

(١) يركوك تقع على نهر الطونه الى جانب روستجق .

(٢) ابرائيل Braila : في رومانيا الى الغرب من كونستنزا .

(٣) اسماعيل Izmail الى غرب ابرائيل .

(٤) كلي الى الشرق من ابرائيل . (٥) آقكرمان : في خليج غرب البحر الاسود .

(٦) خوتين Khotin : تقع في أوكرانيا الى الشمال الشرقي من رومانيا .

(٧) بندر : مر ذكرها .

والى حين خروج جميع عساكر روسيا من الممالك المذكورة لا تقع مداخلة من جانب دولتي العلية في أمورها ويبقى العمل في كيفية تناول ما يلزم من المأكولات ومداركة سائر لوازم عساكر روسيا في الممالك الموجودة فيها على ما هو الآن الى حين خروجها منها تماماً، ولا تضع دولتي العلية قدماً في القلاع المستردّة المذكورة ما لم يرسل سر عسكر روسيا الأوّل الخبر الى مأموري دولتي العلية الذين عينوا لهذا الأمر بتخلية وفراغ كل محل من الممالك المذكورة وبعدم إجراء حكومتها فيها. والذخائر والمهمات التي للروسيا في هذه القلاع والقصبات يصير إخراجها من طرف عساكر روسيا بالوجه الذي تريده وتترك مدافع دولتي العلية التي وجدت في القلاع المستردّة لدولتي العلية والذين استعملوا في خدمة دولة روسيا من أهالي الولايات المستردّة لدولتي العلية من أيّ جنس، وفي في أيّ حال وكيفية كانوا إذا رغبوا في الانسحاب والانتقال بأهلهم وعيالهم وأموالهم مع عساكر روسيا في المدّة السنوية المنعقدة لا يمنعون. وتتعهد دولتي العلية بعدم ممانعتهم بأيّ وجه كان بموجب الشروط المذكورة سواء خرجوا في ذلك الزمن أو في مدّة سنة كاملة .

المادة الخامسة والعشرون : جميع أسرى الحرب من ذكور وأناث من أيّ درجة ورتبة كانوا يسرحون ويردون الى أوطانهم ما عدا المسيحيين الذين دخلوا في الدين المحمدي بارادتهم في دولتي العلية والمسلمين الذين تنصروا بارادتهم في أثناء وجودهم في أراضي روسيا. وهذا كله بعد مبادلة التصديق على صكوك هذه العهدة المباركة حالاً بلا عذر أصلاً وبلا عوض وبغير فدية وكذلك جميع المسيحيين الذين وقعوا في الاسترقاق من لهيين [1] وبغدانيين وأفلاقيين ومن أهالي الموره والجزائر والكرجيين كافة بلا استثناء يعتقون بلا ثمن وبغير عوض، وكذلك الذين استرقوا من رعايا روسيا ووجدوا في ممالكي المحروسة يصير تسليمهم وردّهم الى مواطنهم وذلك بعد انعقاد المصالحة المباركة، وكذلك تجري هذه الأمور أيضاً بهذه الصورة عينها في حق رعايا دولتي العلية .

---

(١) لهيين : أي بولونيين لأن الأتراك كانوا يسمون بولونيا لهستان أو «له» فقط، من غير ستان.

المادة السادسة والعشرون : لأوّل وصول الخبر عن إمضاء هذه المواد الى القرم وأوزي، يخابر سر عسكر روسيا الموجود في القرم بالواقع محافظ أوزي، وفي مدّة شهرين يرسلان مأمورين معتمدين لأجل تسليم قلعة قلبرون مع الصحارى المصرحة في المادة الثامنة عشرة التي مرَّ ذكرها، والمعتمدون المذكورون يجرون تمام المادة المذكورة في مدة شهرين من تاريخ مقابلتهم واجتماعهم، يعني ان المادة المذكورة تجري بتمامها في مدة أربعة أشهر من تاريخ يوم امضاء هذه المعاهدة وان أمكن ففي أقل من ذلك بدون تأخير يخبرون الصدر الأعظم والفلد مارشال عن إكمال مأموريتهم .

المادة السابعة والعشرون : لأجل زيادة تأكيد وتمهيد وتقوية هذه المصالحة المباركة والموالاة والمصافاة بين الدولتين يصير بعث وتسيير سفيرين كبيرين فوق العادة حاملين صكوك التصديق لهذه المصالحة الخيرية، ويكون ذلك في الوقت الذي يتعين برضا الطرفين، فيتقابل السفيران في رأس الحدود بمعاملة متماثلة ويراعى بحق السفيرين المومأ إليهما الرسم المعتاد المرعي بحق سفراء دول أوروبا الأوفر اعتباراً لدى دولتي العلية، وترسل هدايا بواسطة السفيرين المومأ إليهما لائقة بشأن دولتيهما ليكون ذلك دليلاً على صفاء الجهتين .

المادة الثامنة والعشرون : بعد إمضاء مواد هذه المصالحة المؤيدة من معتمدي دولتي العلية وهما الموقع الرسمي أحمد ورئيس الكتاب ابراهيم منيب دام مجدهما ومن مرخص دولة الروسيا البرنس ربنين جنرال لفونيا ختمت عواقبه بالخير، تصدر التنبهات من جانب الصدر الأعظم والجنرال فلد مارشال الى جميع عساكر الدولتين الموجودة براً وبحراً في كل جهة لمنع كل نوع من معاملة خصامية بينهم، ويرسل أيضاً في الحال من جانب الصدر الأعظم والجنرال فلد مارشال معاونان الى أساطيلهم الموجودة في البحر الأبيض والبحر الاسود وتجاه بلاد القرم والى جميع المواقع الحربية لمنع العدوان وأسباب القتال في كل محل بعد انعقاد المصالحة، والمعينان المرسلان من طرف الصدر الأعظم والجنرال فلد مارشال لا بد أن يكونا بحسب التنبيهات مصونين ومأمونين من كل وجه. وإذا سبق وصول معاون روسيا الى سر عسكرها فالمومأ إليه يبعث الى سر عسكر

دولتي العلية أمر الصدر الأعظم الحاوي على التنبيه وان سبق وصول معاون الصدر الأعظم يبعث سر عسكر الدولة العلية الى سر عسكر الروسيا أمر الفلد مارشال الحاوي كذلك على التنبيه. وبما أن الصدر الأعظم وفلد مارشال دولة روسيا (بتروقونت رومانجوف) قد فوّض إليهما، من طرفي الهمايوني ومن طرف امبراطورية روسيا المشار إليها، أمر تمهيد عقود وعهود عهدة الصلح المباركة المنعقدة فجميع مواد الصلح المؤبد المسطورة في العهدة المذكورة يصير إمضاؤها من طرف الصدر الأعظم والفلدمارشال وختمها بأختامهما للتصديق كما لو كانت جرت بحضورهما. والمواد المنعقدة التي تمهدت وصار الوعد بها تراعى مراعاة قوية بدون تغيير ولا تبديل وتجري بالدقة بحسب منطوقها ولا يفعل شيء مخالف لها قطعياً ويحرر في المواد المذكورة التي تقررت وجرى التصديق عليها من طرف الصدر الأعظم والفلدمارشال المومأ اليهما سندان ممضيان بامضائهما ومختومان بختميهما، أحدهما: وهو سند الصدر الأعظم يتحرر بالتركية والايطاليانية. وسند الفلدمارشال يكتب بالروسية والايطاليانية أيضاً. وبمقتضى الرخصة المعطاة الى المرخصين من طرف الدولتين ينبغي أن يوصلوا الى الفلدمارشال السند الواحد باعتبار كونه صادراً من جانب دولتي العلية. وبعد امضاء المواد بخمسة أيام وان أمكن في مدّة أقل من ذلك تجري مبادلة السندات. وحالما يسلم المرخصون سندات الصدر الأعظم يأخذون سندات الفلدمارشال القونت رومانجوف.

الخاتمة: ان ما جرى تحديده وتمهيده بحسب المواد المذكورة من الصلح والصلاح المبطل للحرب والكفاح يكون مقرراً ومعتبراً من بعد الآن وبحسب ما اعتادت عليه سلطنتي من شيم الصداقة الكريمة ومن الوفاء بالعهود فاننا نجري العهد والميثاق والتصديق تماماً ونراعي حق الرعاية جميع ما وقع من قيود وشروط في الثمان والعشرين مادة المذكورة ونجري جميع عهود ومواثيق الصلح والصلاح وكذلك شرط المادّتين المحررتين في نيشانيّ الهمايونيين اللذين صار إعطاؤهما. ويكون ذلك مدّة دوام واستمرار المواد التي صار تأييدها والتصديق عليها من مرخص دولة روسيا ومرخصنا بحيث انه لا يحصل فيها خلل ولا مخالفة من

طرفها ولا من طرفنا السلطاني الهمايوني ولا من طرف أخلافنا ووكلائنا ذوي المقام المتصفين بالانصاف والميرميرانيين [١] أصحاب الاحتشام والأمراء ذوي الاحترام وعموم عساكرنا المنصورة وكافة المتشرّفين بشرف العبودية من صنوف الخدمة (تمت) .

* * *

ذكر مادتان في خاتمة العهدة إحداهما تتضمن المصاريف الحربية وذلك لأن الدولة العلية كانت تعهدت بتأدية خمسة عشر ألف كيس للروسيا في مدة ثلاث سنين يدفع منها في كل سنة قسط، وهو خمسة آلاف كيس. والمادة الثانية سرعة تخلية جزائر البحر الأبيض تأييداً لما هو مذكور في المادة السابعة عشرة من العهدة المذكورة،وأسطول روسيا الموجود في البحر الأبيض وان كان مشترطاً في المادة المذكورة انه يخرج في مدّة ثلاثة أشهر فدولة روسيا قد تعهدت بإخراجه قبل المدّة المذكورة إذا أمكن .

وبذلك انتهت هذه الحرب ونالت الروسيا أقوى أمانيها بعد إذلال مملكة أسوج ومحوها من العالم السياسي تقريباً بحصرها ضمن حدودها الطبيعية،وهي طمس آثار مملكة بولونيا من الوجود كلية تقريباً وتجزئة معظمها بينها وبين النمسا والبروسيا بمقتضى معاهدة بين الروسيا والبروسيا في ١٧ فبراير سنة ١٧٧٢ وقبلتها النمسا في إبريل وأعلنت لملك بولونيا في ١٨ سبتمبر سنة ١٧٧٢ وبذلك سقط الحاجزان الأوّلان من الحواجز الثلاثة الحائلة بين تقدّم الروسيا من جهة أوروبا وأمكنها أن توجه كل قواها لمكافحة الدولة العلية التي عملت بجهل بعض وزرائها ومحاباة البعض الآخر على تقدّم الروسيا بدون تبصر في نتائج هذه السياسة،ولو أصغت الى طلبات شارل الثاني عشر السويدي وساعدته على محاربة بطرس الأكبر في بدء ظهوره وسعت معه على إطفاء هذه الشرارة التي امتدّ لهيبها وكادت

---

(١) الميرميران : أي أمير الأمراء .

تلتهبها، ولو لم يرفع الوزير بلطه جي محمد باشا الحصا عن بطرس الأكبر لما أحاط به وخليلته وجيوشه احاطة السوار بالمعصم على ن. البروت [1] ،لما وصلت دولتنا العلية ما وصلت اليه بمعاهدة قينارجه التي ما لبثت ان ظهرت نتائجها في العالم. وبعد ذلك أخذت الدولة في إصلاح بعض الشؤون ، وبذل القبطان باشي حسن باشا جهده في إنشاء المراكب الحربية بدل ما فقد في محاربة الروسية الأخيرة. ومن جهة أخرى استعانت بمحمد بيك أبي الذهب على طاهر عمر فأتى لمحاصرته بمدينة عكا[2] من جهة البر وحاصرها حسن باشا البحري من جهة البحر وضايق عليه الحصار حتى فرّ هارباً من العقاب على عصيانه قاصداً جبال (صفد) ، فقتل في أثناء هروبه وتخلصت الدولة من شرّه وكذلك قتل أبو الذهب أثناء محاصرة عكا ثم سقطت المدينة في أيدي العثمانيين وانتهت الفتنة بسلام .

استيلاء الروسيا على بلاد القرم

أما الروسيا فأخذت تبث رجالها في بلاد القرم لإيجاد المشاغب الداخلية بها وبالتالي لابتلاعها وضمها الى أملاكها حيث لم يكن قصدها من استقلالها السياسي وقطع روابط تبعيتها للدولة الا الوصول لهذه الغاية، وما زالت مستمرة في إلقاء الدسائس ونشر الفتن بين الأهالي حتى عزلوا أميرهم دولت كراي الذي انتخبه الأهالي بمقتضى نصوص معاهدة قينارجه وأقاموا جاهين كراي مكانه فلم يقبل تعيينه فريق عظيم من الأعيان وخيف من وقوع حروب داخلية ولذا أمرت الروسيا الجنرال بوتمكين باحتلالها، فدخلها بسبعين ألف جندي كانوا منتظرين على الحدود لهذه الغاية فتم لها مقصدها الذي كانت تسعى وراءه من مدة وهو امتلاك كافة سواحل البحر الأسود الشمالية في غضون سنة ١٧٧٣ فهاجت الدولة وأرادت إشهار الحرب على الروسيا لالزامها باحترام معاهدة قينارجه القاضية باستقلال بلاد القرم استقلالاً سياسياً تاماً لكن حوّلت أنظارها ثانياً عن الحرب بمساعي فرنسا التي اقنعتها بأن هذه الحرب مع استعداد كاترينه وتأهبها لها لا

(١) نهر البروت Brut هو النهر الذي يحد رومانيا من شرقها ويصب في البحر الاسود .
(٢) عكا : كتبها من قبل عكة والصواب هو عكا .

يكون وراءها الا الخراب والدمار ولعلمها أن الروسيا أبرمت مع النمسا وفاقاً سرّياً تمَّ بين كاترينه الثانية وبين الامبراطور يوسف الثاني عند مقابلتهما بمدينة (كرزن)[1] قاضياً بمحاربة الدولة لانشاء حكومة مستقلة تكون حاجزاً بينهما وبين الدولة ومكوّنة من الفلاخ والبغدان واقليم بساربيا يكون اسمها مملكة (داسي)[2] ويعين لها ملك من المذهب الأرثوذكسي ،وبأن تأخذ الروسيا ميناء (أوتشـــاكوف) التي تسمى في كتب الترك بمدينة أوزي ،وبعض جزائر الروم. وتأخذ النمسا بلاد الصرب وبوسنه وهرسك من أملاك الدولة وبلاد دلماسيا من أملاك البندقية وتعطيها عوضاً عن ذلك بلاد موره وجزيرتي كريد وقبرص وأن تعطى باقي دول أوروبا أجزاء أخرى يتفق عليها فيما بعد .

أما ان أتيح لهم النصر ودخلوا مدينة الاستانة فيعيدون مملكة بيزانطه الأهلية كما كانت قبل الفتح العثماني ويعين الغراندوق الروسي قسطنطين بن بولص ملكاً عليها بشرط أن يتنازل عن حقوقه في مملكة الروسيا حتى لا يتفق وجود المملكتين الروسية والبيزانطية (الوهمية) في قبضة ملك واحد .

فخوفاً من وقوع الحرب بسبب القرم مع عدم استعداد الدولة وقدرتها في ذاك الوقت على مقاومة الروسيا فضلت قبول مشورة فرنسا والاعتراف بضم القرم للروسيا على أن تتعرض لحرب تكون عاقبتها وخيمة واعترفت بذلك في سنة ١٧٧٤ ،لكن لم يكن قصد الروسيا ومساعديها الا انتشاب القتال ليحظى كل منهم بامنيته.لذلك عملوا على إثارة خاطر الدولة وايقاعها في الحرب فأخذوا في تحصين مينا (سباستوبول)[3] وأقاموا ترسانة عظيمة في ميناء (كرزن)

---

(١) كرزن Karson ميناء غرب شبه جزيرة القرم على البحر الاسود .

(٢) اسم كان يطلق قديماً في أيام الرومانيين على اقليم متسع واقع على الشاطئ الأيسر لنهر الطونة ويشمل البلاد المسماة الآن رومانيا وترانسلفانيا والجزء الشرقي من بلاد المجر فتحه الامبراطور الروماني تراجان حوالي سنة ١٠٠ ميلادية،ثم لما تولى الامبراطور أوريليان أطلق هذا الاسم على الاقليم المكون الآن للرومللي الشرقية وجزء من بلاد مقدونيه .

(٣) سيباستوپول Sebastopol ثغر يقع جنوب شبه جزيرة القرم . انتزعه الانكليز والافرنسيون من الأتراك سنة ١٨٥٥ واستولى عليه هتلر سنة ١٩٤٢ ورجع بعد ذلك الى روسيا.

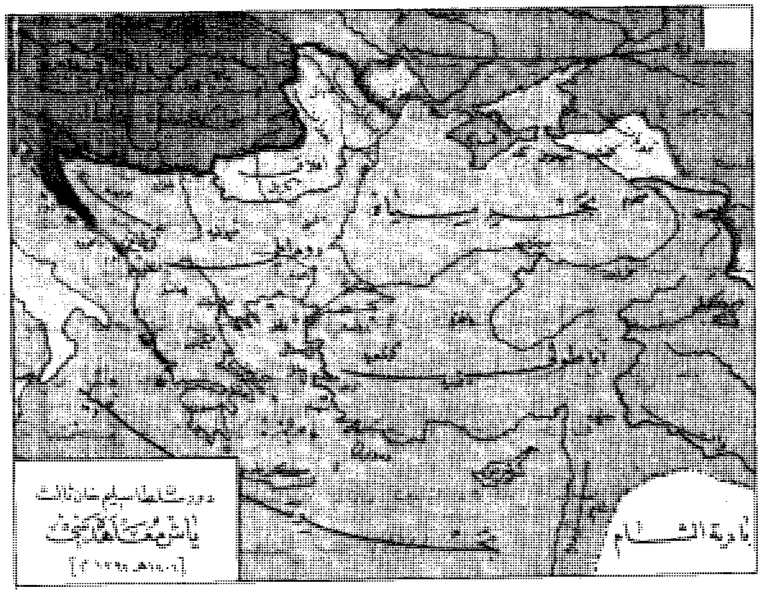
وأنشأوا عمارة بحرية من الطراز الأوّل في البحر الاسود وأرسلوا جواسيسهم الى بلاد اليونان وولايتي الفلاخ والبغدان لتهييج المسيحيين على الدولة، ثم توصلت كاترينه الى إدخال هرقل ملك الكرج تحت حمايتها مقدّمة لفتح بلاده نهائياً .

وأخيراً في سنة ١٧٨٧ ساحت كاترينه في البلاد الجنوبية وبلاد القرم بأبهة واحتفال زائد، وأقام لها القائد بوتمكين أقواس نصر كتب عليها (طريق بيزانطه). فعلمت الدولة من كل هذه الأحوال أنها تقصد محاربتها ثانياً وتأكد لها هذا العزم لما تقابلت كاترينه في سياحتها هذه مع ملك بولونيا وامبراطور النمسا، ولذلك أرادت هي المبادرة باعلان الحرب قبل تمام استعداد أعدائها. ولايجاد سبب له أرسلت بلاغاً الى سفير الروسيا بالأستانة المسيو (جولغاكوف) في صيف سنة ١٧٨٧ تطلب منه تسليم (موروكرداتو) حاكم الفلاخ الذي كان عصى الدولة والتجأ الى الروسيا والتنازل عن حماية بلاد الكرج، بما أنها تحت سيادة الدولة، وعزل بعض قناصلها المهيجين للأهالي وقبول قناصل للدولة في موانئ البحر الاسود وأن يكون لها الحق في تفتيش مراكب الروسيا التجارية التي تمرّ من بوغاز الاستانة للتحقيق من أنها لا تحمل سلاحاً أو ذخائر حربية .

فرفض السفير هذه الطلبات باذن دولته، فأعلن الباب العالي الحرب عليها فوراً وسجن سفيرها في أغسطس سنة ١٧٨٧ .

ولما كان الجنرال بوتمكين لم يتم معدّات الحرب وقع في حيص بيص وكتب الى كاترينه يخبرها بعدم صلاحية البقاء في القرم ناصحاً لها باخلائها في أقرب وقت، لا سيما وأن ملك السويد (جوستاف الثالث) أراد انتهاز هذه الفرصة لاسترجاع ما فقدته دولته من المقاطعات والبلاد التي أخذتها منها الروسيا ، لكن لم تثن هذه الحوادث همة هذه الامبراطورة التي أعانتها الأيام، بل كتبت للجنرال بوتمكين بعدم انتظار العثمانيين والسير بكل شجاعة وإقدام على مدينتي بندر وأوزي، فصدع بأمرها وسار نحو (أوزي) فحاصرها مدّة ثم دخلها عنوة في ٣٠ ربيع الآخر سنة ١٢٠٣ (١٩ نوفمبر سنة ١٧٨٨). وفي هذه الأثناء كانت النمسا أعلنت الحرب على الدولة مساعدة للروسيا وحاول امبراطورها يوسف

الثاني[1] الاستيلاء على مدينة بلغراد فعاد بالخيبة إلى مدينة تمسوار حيث اقتفى أثره الجيش العثماني وانتصر عليه نصراً مبيناً ،ولذلك ترك الامبراطور قيادة جيوشه إلى القائد (لودن)،ثم بعد ذلك بقليل توفي السلطان عبد الحميد الأوّل في ١٢ رجب سنة ١٢٠٣ (٨ ابريل سنة ١٧٨٩) بالغاً من العمر ٦٦ سنة ومدّة حكمه ١٥ سنة وثمانية شهور وتولى بعده سليم الثالث .



الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الثالث
بموجب معاهدة ياش ١٢٠٦ هـ - ١٧٩٢ م

---

(١) هو ابن الامبراطورة ماريه تريزه من زوجها الدوك دي لورين الذي تسمى فيما بعد فرنسوا الأول،ولد سنة ١٧٤١ وتولى سنة ١٧٦٥ لكن لم يصر ملكاً حقيقياً الا بعد موت أبيه سنة ١٧٨٠ ومن ثم أخذ في تنفيذ أفكاره فالغى استعباد الفلاحين وأبطل التعذيب، وأجاز الطلاق والزواج المدنيين ومنح الحرية الدينية لجميع رعاياه رغماً عن معارضة الاشراف والقسوس، وسفر البابابيوس السادس الى ويانه للحصول على ابطال التساهل في أمر الدين وتوفي سنة ١٧٩٠ ،وهو أخو الملكة ماري انطوانيت زوجة لويس السادس عشر ملك فرنسا التي قتلها الفرنساويون في أكتوبر سنة ١٧٩٣ كما قتلوا زوجها وأخته ايليزابيت وغيرهما أثناء الثورة.



٢٨-

السلطان الغازي
سليم خان الثالث

ابن السلطان مصطفى الثالث المولود سنة ١١٧٥ هـ (سنة ١٧٦٢ م) ، [تولّى] وجوّ السياسة مكفهر ورحى الحرب دائرة بلا انقطاع فبذل جهده في تقوية الجيوش وإرسال المؤن والذخائر لكن كان اليأس قد استولى على الجنود وغادر كثير منهم مراكزهم : وفي هذه السنة اتحد القائد الروسي مع قائد الجيوش النمساوية في الأعمال الحربية وضما جيوشهما لبعضهما فاستظهرا على العثمانيين في (٣١ يوليو وفي ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٨٩).وكانت عاقبة ذلك أن استولى الروس على مدينة بندر الحصينة واحتلوا معظم بلاد الفلاخ والبغدان وبسارابيا ودخل النمساويون مدينة بلغراد وفتحوا بلاد الصرب .

معاهدتي زشتوي وياش

فكانت الدولة في خطر عظيم ولو استمر اتحاد النمسا والروسيا لفقدت أغلب أملاكها لكن من حسن حظها توفي الامبراطور يوسف الثاني في ٢٠ فبراير سنة ١٧٩٠ وخلفه ليوبولد الثاني [١] فشغلته الثورة الفرنساوية التي قامت على الملك لويس السادس عشر [٢] خوفاً من امتداد لهبها وسعت في مصالحة الدولة

(١) ولد هذا الامبراطور سنة ١٧٤٧ وكان أميراً لتسكانا بايطاليا ثم تولى الامبراطورية بعد موت أخيه يوسف الثاني سنة ١٧٩٠ ، وأهم أعماله اخضاع ولايتي المجر والبلاد الواطئة الى سلطته وكانتا قد اشهرتا العصيان طلباً للاستقلال ثم اتحد مع الروسيا على محاربة فرنسا ،وتوفي سنة ١٧٩٢ قبل اشهار الحرب وخلفه ابنه فرانسوا الثاني .

(٢) هو حفيد لويس الخامس عشر تولى سنة ١٧٧٤ بعد موت جده وكان ميالاً للحرية الا أن ضعفه أضرَّ به كثيراً.وحارب انكلترا وساعد الامريكانيين على الاستقلال إضعافاً =

بتوسط بعض الدول المعادية لفرنسا وأمضى معها في سبتمبر سنة ١٧٩٠ شروط صلح ابتدائية صارت نهائية بمقتضى معاهدة أبرمت بينهما في ٢٢ ذي الحجة سنة ١٢٠٥ (٢٢ أغسطس سنة ١٧٩١) بمدينة (ستووا) التي تسمى في كتب الترك (زشتوي) [٢] ،ولم تترك الدولة بمقتضاها الا ما لا يذكر من بلادها وردّت اليها النمسا بلاد الصرب ومدينة بلغراد وجميع فتوحاتها تقريباً وهذا نص معاهدة زشتوي مترجمة عن إحدى المجموعات السياسية المحفوظة بالكتبخانة الخديوية :

البند الأول : سيكون الصلح من الآن بين الدولة العلية وامبراطورية النمسا صلحاً أبدياً براً وبحراً، بينهما وبين متبوعيهما ومن يكون لهما حق السيادة عليهم، ويكون الاتحاد بينهما في غاية الاحكام ويمنع كل من الطرفين حصول التعدّي والإهانة على الآخر ، ويعفو عمن اشترك في الحرب من رعايا أحد الطرفين ضدّ الآخر وعلى الأخص جميع صنوف أهالي الجبل الأسود والبوسنه والصرب و الأفلاق والبغدان بحيث يكون لهم الحق بمقتضى هذا العفو العمومي في الرجوع الى أوطانهم والتمتع بجميع أملاكهم وحقوقهم أيا كانت بدون أن يسألوا أو يحاكموا أو يعاقبوا على عصيانهم ضدّ ملكهم صاحب السيادة عليهم (الخليفة الأعظم)، أو لاظهار ولائهم للحكومة الامبراطورية الملوكية (النمسا) .

= لشوكتها ثم ابتدأت الثورة الفرنساوية سنة ١٧٨٩. ولعدم ثباته صار يتبع رأي الأعيان تارة ويميل الى رجال الثورة تارة أخرى حتى أغضب الجميع بتردده وعدم ثباته.وبعد ان اعترف بالقانون الأساسي الذي سنته جمعية النواب للمملكة أراد الهروب من فرنسا والالتجاء الى الأجانب فضبط في مدينة رافين في ٢٠ يونيو سنة ١٧٩١.ومن ذلك الوقت توالت عليه المصائب وأهين عدة مرات ثم حصلت حادثة عشرة أغسطس سنة ١٧٩٢ التي أفضت الى إسقاط الملوكية.ولما اجتمع مجلس الأمة المعروف بالكونفانسيون في ٢١ سبتمبر التالي قرر إبطال الملوكية وإقامة الجمهورية ومحاكمة الملك على التجائه الى الأجانب وحبسه مدة المحاكمة هو وزوجته وولده وابنته وأخته وكثير من الأعيان وفي ١٩ يناير سنة ١٧٩٢ حكم عليه مجلس الأمة بالاعدام ونفذ هذا الحكم في ٢١ منه فقتل الملك مأسوفاً عليه لأنه لم يكن جانياً فعلاً بل أطاع زوجته عن غير ترو(!) .

(١) تقع الى الشرق من نيكبولي على نهر الطونة .

البند الثاني : يتخذ كل من الطرفين العاليين المتعاقدين ما كانت عليه الحالة العمومية قبل إشهار الحرب في (٩ فبراير سنة ١٧٨٨) أساساً للمعاهدة الحالية، ولذلك فانهما يجددان ويؤيدان بتمامها مع مراعاة معناها ومبناها بغاية الضبط والدقة بدون أدنى تغيير فيها أو عمل أو اتيان أيّ أمر مناقض لما جاءت به معاهدة بلغراد الرقيمة (١٨ سبتمبر سنة ١٧٣٩) واتفاق (٥ نوفمبر) من السنة المذكورة واتفاق (٢ مارس سنة ١٧٤١) المفسر لمعاهدة بلغراد واتفاق (٥ مايو سنة ١٧٤٧) الذي جعل الصلح المبرم في بلغراد دائم الوجود واتفاق (٧ مايو سنة ١٧٧٥) الخاص بالتنازل عن اقليم (بوكووين)[1] واتفاق (١٢ مايو سنة ١٧٧٦) المبين لحدود هذا الاقليم بحيث أن جميع المعاهدات والاتفاقات السالف بيانها يكون معمولاً بها والاجراء على موجبها الى ما شاء الله كما لو كانت مسطرة حرفياً في هذه المعاهدة

البند الثالث : إن الباب العالي يجدّد ويؤيّد بالصفة المشروعة أعلاه الاتفاق الرقيم (٨ أغسطس سنة ١٧٨٣) الذي تعهدت الدولة العلية بمقتضاه بحماية جميع المراكب الألمانية التجارية المختصة بأحد ثغور ألمانيا من تعدّيات قراصين بلاد المغرب وباقي رعايا الدولة وأن تعوّض على أصحابها كل ما يعود عليهم من الضرر، وكذا يجدّد الاتفاق الرقيم (٢٤ فبراير سنة ١٧٨٤) الخاص بمنح تجار الحكومة الامبراطورية الملوكية حرية التجارة والملاحة في جميع بلاد الدولة وبحارها وأنهارها وفرمان (٤ ديسمبر ١٧٨٨) الخاص بمرور وإقامة وعودة الماشية ورعاتها من اقليم ترنسلفانيا إلى ولايتي الأفلاق والبغدان وجميع الفرمانات والاتفاقيات واللوائح الوزارية التي كانت معتبرة لدى الطرفين ومعمولاً بها قبل (٩ فبراير سنة ١٧٨٨) لوجود الراحة واستتباب الأمن على الحدود والخاصة بصالح وراحة وفائدة رعايا النمسا وتجارتها وملاحتها بحيث أن جميع هذه الاتفاقات والفرمانات واللوائح تكون معمولاً بها كما لو كانت منسوخة حرفياً في هذه المعاهدة .

(١) بوكووين : هو بوكوڤين Bukovine ويقع هذا الاقليم في أوكرانيا ورومانيا وقد انتزع من النمسا سنة ١٩١٩ إثر الحرب العالمية الأولى التي خرجت النمسا منها خاسرة .

البند الرابع : ان الحكومة الامبراطورية الملوكية تتعهد بأن تردّ الى الباب العالي العثماني جميع ما احتلته من الأقاليم والأراضي والمدن والقلاع والحصون التي احتلتها جيوش الامبراطور أثناء هذه الحرب بما فيها إمارة الافلاق والأجزاء المحتلة من بلاد البغدان حتى تعود الحالة وحدود المملكتين الى ما كانت عليه يوم (٩ فبراير سنة ١٧٨٨) ولمقابلة تساهل الباب العالي وإجرآته المبنية على المحبة والعدالة بمثلها .

وتتعهد الحكومة المذكورة برد القلاع والحصون بالحالة التي كانت عليها وقت احتلالها مع المدافع العثمانية التي كانت بها اذ ذاك .

البند الخامس : أما قلعة (شوتيم) [١] واقليمها المسمى على لسان العوام باسم (ريا) فيصير إخلاؤها وتسليمها للدولة العثمانية بالشروط السابقة المختصة بباقي القلاع لكن لا يكون تسليمها الا بعد أن يتم الصلح بينها وبين امبراطور جميع الروسيا. وفي الوقت الذي يعين لأخلاء جنود الروسيا لما فتحته في هذه الحروب والى هذا الوقت تبقى الجيوش الامبراطورية الملوكية محتلة لهذه القلعة واقليمها بصفة وديعة حرّة بدون أن تشترك في الحرب الحاضرة أو تقدّم أي مساعدة لحكومة الروسيا ضدّ الباب العالي العثماني بأي كيفية كانت .

البند السادس : بعد مبادلة التصديق على هذه المعاهدة يبتدىء الفريقان في إخلاء وتسليم ما تعاهدا باخلائه وتسليمه الى الفريق الآخر لارجاع الحدود الى ما كانت عليه في المواعيد المحدودة بعد،ثم يعين كل منهما مندوبين كما جاء في المادة الثالثة عشرة من معاهدة بلغراد، يخصص بعضهم بما يتعلق بالفلاخ وأقاليم البغدان الخمسة.وعليهم انهاؤها في ظرف ثلاثين يوماً تمضي من تاريخ التوقيع على المعاهدة، ويخصص الباقون لارجاع حدود البوسنه والصرب وقرية حرصو [٢] القديمة وضواحيها الى الحالة التي كانت عليها قبل (٩ فبراير سنة ١٧٨٨) ويعطى للفريق الآخر مدّة شهرين من التاريخ السابق ذكره لضرورة هذا الميعاد لتدمير

---

(١) شوتيم ، لا أعرف موقعها بالضبط .

(٢) لعل حرصوه هذه هي خرسوه التي مر ذكرها .

ما أنشيء من الاستحكامات الجديدة في القلاع المراد ارجاعها وتسليمها في الحالة التي كانت عليها وقت فتحها ولنقل ما بها من المدافع والمؤن والذخائر .

البند السابع : حيث أن الحكومة الامبراطورية الملوكية قد أخلت سبيل كل من أسر من رعايا الدولة العلية الملكيين[1] والعسكريين في الحرب الأخيرة وسلمتهم الى المندوبين العثمانيين في روستجق وودين وبوسنه ولم تسلمها الحكومة العثمانية في مقابل ذلك الا رعايا الحكومة الامبراطورية وعساكرها الذين كانوا موجودين في السجون العمومية أو في حوزة بعض أمراء البشناق .

وحيث أنه يوجد منهم عدد عظيم في حالة الرق بالممالك المحروسة فيتعهد الباب العالي اتباعاً لقاعدة إرجاع كل شيء الى ما كان عليه قبل الحرب ولمحو كل ما نشأ عنها من المصائب بأن يردّ الى الحكومة الامبراطورية الملوكية في ظرف شهرين من تاريخ التوقيع على المعاهدة كل من يوجد من رعاياها في حالة الرق أو أخذ أثناء الحرب ذكراً كان أو أنثى أيا كان سنه أو حالته وفي حوزة من كان وفي أي جهة من أملاك الدولة، يكون مجاناً بدون دفع فدية أو غيرها بحيث لا يوجد من الآن فصاعداً رعايا لأحد الطرفين تحت حكم الآخر الا الذين يدخلون في الدين الاسلامي من جهة وفي الدين المسيحي من جهة أخرى باختياره وبعد الإثبات بالطرق المقررة لمثل هذه الحالة .

البند الثامن : ومع ذلك فان الرعايا الذين يكونون قد تركوا الدولة التابعين اليها قبل هذه الحرب أو في أثنائها وأقاموا بأراضي الدولة الأخرى ولا يزالون مقيمين بها باختيارهم، لا يجوز لحاكمهم الأصلي طلبهم بل يبقون تابعين لحاكم البلاد التي هاجروا اليها يعاملون كباقي رعاياه، ومن جهة أخرى فان من يكون له عقارات في كل من الدولتين يكون له الخيار في الاقامة في ظل الدولة التي يريدها بشرط أن لا يكون لهم الا حاكم واحد . ولذا فيجب عليه بيع عقاراته الكائنة في الدولة التي لا يروم البقاء تحت لوائها .

البند التاسع : قد تعاهد الفريقان المتعاقدان رغبة منهما في إحياء التجارة التي

---

(١) أي المدنيين .

هي ثمرة السلم في أقرب وقت وفي معاملة التجار الذين لا تخفى منفعتهم على العمران بقاعدة إرجاع كل شيء لأصله المقررة في البندين الثاني والثالث على أن لا يلحق برعاياهما ضرر بسبب هذه الحرب بل يكون لهم الحق في العودة إلى أعمالهم في النقطة التي كانت عليها وقت اعلان الحرب والتمسك بما لهم من الحقوق والطلبات السابقة للحرب أيا كانت والمحافظة على ديونهم ومطالبة مديونيهم والمطالبة بالتعويضات التي تستحق لهم بسبب عدم دفع بعض ديونهم أو الضرر الذي لحق بهم عند إعلان الحرب خلافاً لما جاء بالمادة السابعة عشرة من معاهدة بلغراد والثامنة عشرة من معاهدة بساروفتس التجارية وأن يستعينوا في جميع الأعمال بالمحاكم والحكومات المختصة وعليها أن تنصفهم بالسرعة وبدون محاباة وبدون أن تعتبر مدّة الحرب وجهاً شرعياً لردّ طلباتهم .

البند العاشر : تعطى الأوامر المشدّدة الصارمة في أقرب وقت الى حكام وولاة الدولتين المتعاقدتين العاملين على المقاطعات الواقعة على تخوم الدولتين باعادة السكينة والطمأنينة العمومية ومراعاة حقوق الجوار على جميع الحدود، واحترام ما وضعته لجان التحديد من الحدود وعدم تعدّيها وارتكاب السلب والنهب فيما وراءها، والتعويض عما ينشأ عنها من الضرر ومجازاة المخالفين لذلك والمذنبين بنسبة ذنوبهم وجرائمهم ،مع مراعاة القواعد والمبادىء المقرّرة لذلك في المعاهدات والاتفاقات السابقة بين الطرفين المتعاقدين وبالاختصار ترسل إليهم الأوامر بارجاع الحالة الى ما كانت عليه من النظام والهدوء قبل الحرب وجعلهم مسؤولين عن جميع ذلك شخصياً .

البند الحادي عشر : ويصير التنبيه أيضاً على الولاة المذكورين والتأكيد عليهم بحماية رعايا الطرف الآخر الذين تضطرهم تجارتهم أو أشغالهم الى اجتياز الحدود أو السفر في داخل الولايات وأن يساعدوهم على السفر في الأنهر ذهاباً أو إياباً بكمال الحرية مراعين وملزمين غيرهم بمراعات واجبات الوفادة والضيافة وجميع بنود ومواد المعاهدات والاتفاقات وغيرها ،المؤيدة في البندين الثاني والثالث من هذه المعاهدة بدون أن يطلبوا أو يسمحوا لأيّ أحد أن يطلب

منهم أيّ مكوس أو ضرائب أخرى على أشخاصهم أو بضائعهم غير المحددة في المعاهدات المذكورة .

البند الثاني عشر : أما بخصوص إجراء أصول الدين الكاثوليكي المسيحي في الدولة العثمانية وحرية قسوسه والمتمسكين به وحفظ وإصلاح كنائسه وحرية التعبد والمتعبدين والتردّد على الأماكن المقدّسة بأورشليم وغيرها وحماية هذه الأماكن والحج اليها ، فإن الباب العالي السلطاني يجدّد ويؤيد تبعاً لقاعدة ارجاع كل أمر الى ما كان عليه جميع الامتيازات الممنوحة للدين الكاثوليكي بمقتضى البند التاسع من المعاهدة السابقة وبمقتضى جميع الفرمانات والأوامر الأخرى الصادرة من بادىء أمره .

البند الثالث عشر : يرسل كل من الطرفين الى الطرف الآخر سفراء من الدرجة الثالثة لمناسبة هذا الصلح ، وعند تبليغ تولي جلالة ملوك الدولتين على كرسي أجدادهم. ويصير مقابلة هؤلاء السفراء على حسب الرسوم المتبعة وبالأبهة والاعتبار والمعاملة التي كانت حاصلة قبل الحرب ويكون لهم حق التمتع بما يخوّله لهم قانون الملل وبالامتيازات المرتبة بوظيفتهم بمقتضى المعاهدات السابقة. ويكون الحال كذلك للسفراء المعينين الآن لدى الباب العالي العثماني ومن يخلفهم مع مراعاة اختلاف درجاتهم ورتبهم وبالنسبة لجميع الموظفين المعينين معهم وتابعيهم وخدامهم ومساكنهم. وبما أن كثيراً من السعاة المكلفين بحمل الرسائل والمكاتبات من وإلى الحكومة الامبراطورية الملوكية صار التعدّي عليهم وسلب ما معهم قبل الحرب فالباب العالي العثماني لا يترك أي طريقة للتعويض عليهم كما انه سيتخذ الاحتياطات القوية الضامنة لذهاب هؤلاء السعاة وإيابهم تحت حمايته بكل طمأنينة .

البند الرابع عشر : قد صار تحرير نسختين من هذه المعاهدة مطابقتين لبعضهما ، إحداهما باللغة الفرنساوية التي استعملت لسهولة التفاهم ويصير التوقيع عليها من مندوبي ملك النمسا وامبراطور ألمانيا ، والثانية باللغة التركية ويصير إمضاؤها من مندوبي جلالة السلطان الأعظم ثم يصير مبادلتهما بمعرفة وكلاء

الدول المتوسطة وارسالهما الى الطرفين العاليين المتعاقدين. وبعد إمضائهما بثلاثين يوماً أو أقل ان أمكن يصير تبادل براءة اعتمادهما محلاة بامضاء جلالة الملكين الأفخمين بواسطة سفراء الدول المتوسطة وتسليمها الى مندوبي المتعاقدين مرفقة بصور المعاهدات والأوراق التي تجددت وتأيدت وصارت أبدية الوجود بمقتضى هذه المعاهدة مصدقاً عليها بأنها طبق الأصل اه .

الا أن الروسيا لم تتبع النمسا حليفتها في طريق الصلح بل استمرت على محاربة الدولة بمفردها. وفي ١٦ ربيع آخر سنة ١٢٠٥ (٢٣ دسمبر سنة ١٧٩٠) استولى القائد سوواروف على مدينة اسماعيل عنوة وارتكبت فيها من الأعمال الوحشية ما تقشعر منه الأبدان من قتل وفتك وسبي ، ولم يرحموا النساء ولا الأطفال ولما وصل خبر سقوط هذه المدينة الى الاستانة هاج الشعب ضد حسن باشا البحري الذي كان مكلفاً بحمايتها وطلبوا من السلطان قتله فأمر بذلك .

ثم توسطت انكلترا والبروسيا وهولاندا بين الدولة والروسية ودارت المخابرات مدة ثم تم الصلح بين الطرفين في ١٥ جمادى الأولى سنة ١٢٠٦ (١٠ يناير سنة ١٧٩٢) على أن تمتلك الروسيا بلاد القرم نهائياً وجزء من بلاد القوبان وبسارابيا والأقاليم الواقعة بين نهري بوج ودينستر، بحيث يكون هذا النهر الأخير فاصلاً بين المملكتين، وتتنازل لها الدولة عن مدينة أوزي (أوتشاكوف) وأمضيت بذلك معاهدة في مدينة ياش [1] أطلق عليها اسم هذه المدينة نسبة إليها .

بعض اصلاحات داخلية

وبعد تمام الصلح مع النمسا والروسيا أخذت الدولة في إصلاح داخليتها وخصوصاً العسكرية والبحرية فعين أحد المتقربين من الذات السلطانية ،واسمه كوشك حسين باشا ، قبودانا عاما. وكان من الشبان الأذكياء الذين درسوا أحوال أوروبا ووقفوا على دخائل سياستها حتى وثق به السلطان وثوقاً تاماً وزوجه إحدى أخواته فبذل جهده في مطاردة قراصنة البحر لتسهيل التجارة وشمر عن ساعد الجد في

(١) هي مدينة ياسي ويسميها الأتراك ياش .

إصلاح الثغور وبناء القلاع الحصينة لحمايتها ،ثم أنشأ عدة مراكب حربية على شاكلة أحدث المراكب الفرنساوية والانكليزية واستحضر عدداً عظيماً من مهرة المهندسين من السويد وفرنسا لصب المدافع في معامل الطوبخانة العامرة وأصلح مدرسة البحرية ومدرسة الطوبجية التي أسسها البارون دي توت المجري وترجم لتلامذتها مؤلفات المعلم فوبان الفرنساوي في فن الاستحكامات وأضاف الى مدرسة الطوبجية مكتبة جمع فيها أهم ما كتب في الفنون الحربية الحديثة والرياضيات لتكون التلامذة على اطلاع تام في كل ما يختص بترقية شأن الطوبجية. ثم وضع نظاماً للجنود المشاة وشرع في تنسيق فرق جديدة وتدريبها على النظام الأوروبي، فأنشأ أول فرقة منتظمة في سنة ١٧٩٦ وجعل عددها ١٦٠٠ جندي تحت قيادة ضابط انكليزي دخل في الدين الاسلامي وسمي انكليز مصطفى. وكان القصد من ترتيب العساكر النظامية الاستغناء بهم عن جنود الانكشارية الذين صاروا عالة على الدولة ومن عوامل تأخرها بعد أن كانوا أهم عوامل تقدمها وقت الفتوحات المستمرة التي كانوا يعودون منها بكثير من الغنائم حتى اعتادوا النهب وصاروا لما لم يجدوا بلاداً مفتتحة حديثاً لسلب أهاليها يتعدون على أهالي الاستانة والعواصم الأخرى بالسلب والنهب وغير ذلك فضلاً عن عصيانهم المرّة بعد الأخرى وعزلهم الصدور والوزراء وتعدّيهم على السلاطين بالعزل أو القتل لما يرون منهم معارضاً لفسادهم أو ضعفاً في معاقبتهم .

هذا وقد كانت الدولة في أشد الحاجة والافتقار لهذه الاصلاحات الداخلية، فان روابط الولاء بين الولاة والعاصمة كانت ضعفت وسعى كل في الاستقلال أو في عدم دفع الأموال الاميرية الى الخزينة السلطانية مع نضوبها بسبب الحروب واغتيالها لأنفسهم ،واستبد المماليك بمصر برئاسة الأمراء المصرية وأشهرهم مراد بك وابراهيم بك وعثمان بك البرديسي وغيرهم مما هو مذكور تفصيلاً في تاريخ الجبرتي .

عصيان بازوند اوغلي

وكـذلك ظهرت في هـذه الأثنـاء فتنة عثمان بـاشـا والي ودين الملقب بازوند اوغلي [1] وانضمام كثير من أهالي الصرب اليه واستظهاره على جنود الدولة التي أرسلت لاقماعه وأخيراً سافر إليه كوجك حسين باشا بنفسه، وبعد عدة مناوشات كان الحرب فيها سجالاً بينهما خشي هذا الوزير من دسائس أرباب الغايات أن تعصى كافة ايالات البلقان فتدارك الأمر ومنح بازونداوغلي ولاية ودين طول حياته وبذلك حسمت الفتنة سنة ١٢١٢ الموافقة سنة ١٧٩٧ .

دخول الفرنساويين مصر

وفي سنة ١٢١٣ (سنة ١٧٩٨م) أمرت الجمهورية الفرنساوية بونابرت [2]

---

(١) قال جودت باشا في تاريخه ان هذا الاسم أصله باسبان وحرف في الاستعمال فصار بازوند وأقول : ان باسبان معناها الحارس .

(٢) ولد هذا الرجل الشهير في ١٥ أغسطس سنـــة ١٧٦٩ بمدينة اجاكسيو بجزيرة كورسيكا ثم دخل المدارس الحربية وترقى الى وظيفة ملازم ثاني طوبجي سنة ١٧٨٥ ،واشتهر في استخلاص مدينة طولون من قبضة الانكليز ثم عين قائداً عاماً للجيش المحارب في ايطاليا سنة ١٧٩٦.وبعد أن قهر الجيوش النمساوية عاد الى باريس حيث كلف بفتح مصر ولما أتم مأموريته عاد الى فرنسا لتتميم نواياه في أغسطس سنة ١٧٩٩ وتولى بها قيادة جميع الجيوش وعين بعد قليل رئيساً للحكومة (قنصل). وفي ١٨ مايو سنة ١٨٠٤ نودي به امبراطوراً على فرنسا باسم نابليون الأول وفي ٢ دسمبر من السنة المذكورة أتى البابابيوس السابع الى مدينة باريس وتوجه بيده في حفلة عمومية.وقهر جيوش أوروبا التي تألبت عليه عدة مرات وانهزم أخيراً في سنة ١٨١٤ واستعفى في ١١ ابريل وسافر الى جزيرة البه التي عينت منفى له بجوار ايطاليا ولم يلبث ان عاد منها ونزل بخليج جوان بجنوب فرنسا في أول مارس سنة ١٨١٥ فتألبت عليه الدول أجمع وقهرته في واقعة وترلو ببلاد البلجيك في ١٨ يونيو سنة ١٨١٥ وأرسل أسيراً الى جزيرة سانت هيلانه احدى جزائر افريقيا التابعة للانكليز.وتوفي بها في ٥ مايو سنة ١٨٢١ ودفن فيها ثم نقلت جثته الى باريس في سنة ١٨٤٠ ودفنت بسراي الانفاليد في قبر من الرخام الأحمر وقد زرته في يوليو سنة ١٨٩٥ .

القائد الشهير بالمسير الى مصر لفتحها بغير اعلان حرب على الدولة العلية وأوصته بكتمان هذا الأمر حتى لا تعلم به انكلترا فتسعى في إحباطه مع أن القصد منه لم يكن الا منع مرور تجارة الانكليز من مصر الى الهند وبالعكس فجهز في مدينة طولون جيشاً مؤلفاً من ٣٦ ألف مقاتل أغلبهم من العساكر المدرّبين في الحروب التي جرت بين فرنسا وايطاليا وانتهت بمعاهدة كامبوفورميو وعشرة آلاف بحري تحملهم دونانمة مركبة من ٣٠ سفينة حربية و٧٢ قراويت [1] و٤٠٠ مركب حمل وأضاف الى جيشه ١٢٢ عالماً على اختلاف العلوم والمعارف لدرس القطر المصري والبحث عما يلزم لاصلاحه واستغلاله .

وفي ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ رحل بونابرت بهذا الجيش بدون أن يعلم أحداً بوجهته فوصل جزيرة مالطه في ١٠ يونيو واحتلها بعد أن دافع من فيها من رهبان القدّيس حنا الأورشليمي ،وفي ١٧ محرم سنة ١٢١٣ (١ يوليو) وصل أمام مدينة الاسكندرية وأنزل عساكره على بعد أربع فراسخ منها وبعد أن دخلها عنوة ترك بها القائد كليبر وسار هو قاصداً مدينة القاهرة عن طريق الصحراء الممتدّة غرب فرع رشيد فقابله مراد بيك بشرذمة من المماليك عند مدينة شبرا خيت بالبحيرة في ٢٩ محرم الموافق ١٣ منه ،فهزمه بونابرت وواصل السير حتى وصل الى مدينة انبابة مقابل القاهرة وحصلت بينه وبين ابراهيم بيك ومراد بيك أمراء المماليك واقعة الأهرام الشهيرة في ٧ صفر الموافق ٢١ يوليو التي أظهر فيها المماليك من الشجاعة ما أدهش الفرنساويين وبعد أن بذلوا وسعهم في الدفاع عن مصر، لا أقول بلادهم بل غنيمتهم ،تقهقروا أمام المدافع الفرنساوية فدخل بونابرت وجيوشه مدينة القاهرة بعد أن أعلن بها أنه لم يأت لفتح مصر بل انه حليف الباب العالي أتى لتوطيد سلطته ومحاربة المماليك العاصين أوامره كما قال الانكليز عند دخولهم مصر سنة ١٨٨٢ .

وأرسل القائد (دسكس) الى الصعيد لاقتفاء أثر مراد بك فتبعه حتى وصل جزيرة فيله (قصر أنس الوجود) في ٢٥ رمضان سنة ١٢١٣ (٢ مارس سنة

---

(١) لم أفهم معناها (المحقق)

١٧٩٩) ووجه فرقة أخرى احتلت مدينة القصير على البحر الأحمر في ٢٤ ذي الحجة من هذه السنة (٢٩ مايو) من السنة المذكورة. وبذلك صار القطر المصري من البحر الأبيض المتوسط الى أقاصي الصعيد في قبضته ،ثم أسس المجلس العلمي للبحث عما يجعل احتلاله بوادي النيل دائمياً .

لكن لم يلبث ان وصله خبر واقعة أبي قير البحرية التي دمر فيها نلسن [١] أمير البحر الانكليزي الشهير جميع المراكب والسفن الحربية الفرنساوية في ١٧ صفر سنة ١٢١٣ (أول أغسطس سنة ١٧٩٨) وتسلطن الانكليز على البحر المتوسط وقطع المواصلات بينه وبين فرنسا. وذلك ان وقت خروج المراكب الفرنساوية من طولون كان نلسن المذكور يحاصر مدينة قادس باسبانيا فترك الحصار وأخذ يبحث عن الدونانمة الفرنساوية فلم يعثر عليها الا بعد أن احتلت جزيرة مالطة ومدينة الاسكندرية كما سبق .

ولما علمت الدولة العلية باحتلال الفرنساويين القطر المصري أخذت في الاستعداد لمحاربتهم لا سيما وانها كانت مطمئنة البال هادئة البلبال من جهة النمسا والروسيا اللتين كانتا مشتغلتين بمحاربة الجمهورية الفرنساوية خوفاً من امتداد مبادئها الحرّة الى بلادهما فتفلّ عروشهما كما حصل للويس السادس عشر ملك فرنسا. ومن جهة أخرى عرضت عليها الدولة الانكليزية مساعدتها على اخراج الفرنساويين من مصر لا رغبة في حفظ أملاك الدولة بل خوفاً على

---

(١) ولد هذا الأميرال سنة ١٧٥٨ ودخل البحرية وسنه ١٢ سنة وامتاز بين أقرانه وتقدم بسرعة حتى عين وكيل أميرال في سنة ١٨٩٧ وفي سنة ١٧٩٨ حاول الاستيلاء على جزيرة تنريف احدى جزائر كناريا التابعة لاسبانيا فلم ينجح وتبع الدونانمة الفرنساوية حتى أحرقها في أبي قير وفي ٢١ أكتوبر سنة ١٨٠٥ قابل دونانمتي فرانسا واسبانيا بالقرب من رأس الطرف الأغر المشهور بترافلجار فحاربهما وانتصر عليهما وقتل في هذه الواقعة ونقلت جثته الى لوندره ودفنت في كنيسة وستمنستر المعدة لدفن ملوك انكلترا ومشاهير رجالها وزرت قبره في يوليو سنة ١٨٩٥ وأقيم له بلوندرة عدة تماثيل أشهرها ما أقيم في ساحة ترافلجار .

طريق الهند من أن تكون في قبضة دولة قوية يمكنها معاكستها ، فقبلت الدولة العلية مساعدتها بكل ارتياح. وكذلك عرضت عليها الروسيا امدادها بمراكبها الحربية وانضمام دونانماتها الى الدونانماتين العثمانية والانكليزية فقبلت أيضاً وأعلنت الحرب رسمياً على فرنسا في ٢١ ربيع الأوّل سنة ١٢١٣ (٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨) وأخذت في جمع الجيوش بمدينة دمشق وبجزيرة رودس لارسالها الى مصر ، وأتت الدونانمة الروسية من البحر الأسود الى بوغاز الاستانة وخرجت الى البحر الأبيض مع الدونانمة العثمانية وذلك بمقتضى معاهدة أبرمت بين هذه الدول الثلاث التي اتفقت لأوّل مرة على عمل حربي مع ما بين الدولة العلية والروسية من العداوة القديمة المستمرّة .

ولما شعر بونابرت باجتماع الجيوش لمحاربته تحقق أنه ان لم يفاجىء الدولة العلية في بلاد الشام قبل أن تتم استعداداتها الحربية تكون عواقب الحرب وخيمة عليه وان من يحتل مصر لا يكون آمناً عليها الا إذا احتل القطر السوري فلهذه الدواعي عزم بونابرت على فتح بلاد الشام وقام من مصر ومعه ثلاثة عشر ألف مقاتل قاصداً بلاد الشام من طريق العريش فاحتلها في أواخر شعبان سنة ١٢١٣. ثم دخل مدينة غزة في ١٩ رمضان وارتحل عنها في ٢٣ منه ووصل الرملة في ٢٥ منه ومنها الى يافة فوصلها في ستة وعشرين رمضان (٧ مارس) . ولما آنس منها المقاومة حاصرها ودخلها عنوة في يوم أوّل شوّال ،ثم رحل منها قاصداً مدينة عكا. وقبل مزاولته ليافا ارتكب أمراً شنيعاً لم يسبق في التاريخ وهو أمره بقتل جميع الجرحى والمرضى من عساكره حتى لا يعوقوه في سيره. ثم حاصر مدينة عكا من جهة البر وهاجمها مراراً لكن لم يتمكن من فتحها لوصول المدد اليها تباعاً من طريق البحر واستيلاء الأميرال الانكليزي (سدني سميث) [1] على مدافع

(١) أميرال انكليزي ولد سنة ١٧٦٤ وتوفي سنة ١٨٤٠ كلفه الأميرال هودجين عندما كان محتلاً لمدينة طولون بحرق الدونانمة الفرنساوية فحرقها في سنة ١٧٩٣ ،ثم أخذ أسيراً في فرنسا وبقي بها سنتين مسجوناً بسجن التامبل بباريس ثم هرب فساعد على الدفاع عن مدينة عكا وعين أميرالاً سنة ١٨٢١ ثم اعتزل الأعمال وقضى باقي عمره في تأسيس ومساعدة الأعمال الخيرية .

الحصار التي أرسلها من مصر لاطلاقها على الأسوار ،ولتيقظ أحمد باشا الجزار قائد حاميتها لافساد الألغام التي ينشئها الفرنساويون لنسفها وفي أوائل أبريل بلغه تحرك جيش دمشق العثماني لانجاد مدينة عكا فأرسل القائد كليبر مع فرقة من الجيش لمحاربته ومنعه من الوصول اليها فالتقى هذا القائد بالعثمانيين عند جبل طابور [1] وأحاطوا به احاطة السوار بالمعصم وكادوا يفوزون لولا مجيء بونابرت إليه بثلاثة آلاف مقاتل ومهاجمته لهم من الخلف فتفرق الجيش العثماني في ١٦ أبريل ثم عاد بونابرت الى عكا فوصله خبر تقدّم الجيش المجتمع في جزيرة رودس فقطع بعدم النجاح وعاد بمن بقي من جيوشه الى القاهرة ودخلها في ٢١ مايو من السنة المذكورة .

وفي يوليو نزل جيش رودس العثماني بأبي قير وتحصن بها وكان يبلغ عدده ١٨ ألف مقاتل فسار بونابرت من القاهرة لمحاربتهم فتغلب عليهم والتجأ من لم يقتل منهم الى المراكب في ٢٤ صفر سنة ١٢١٤ (٢٨ يوليو) وأسر قائدهم الأكبر مصطفى باشا وكثيراً من الجنود .

وفي ٢٢ أغسطس سافر بونابرت من الاسكندرية قاصداً فرنسا خفية مع بعض قوّاده حتى لا يضبطه الانكليز القاطعون بمراكبهم سبل البحر الأبيض على الفرنساويين .وذلك أن الأميرال الانكليزي أرسل اليه عدّة نسخ من الجرائد الفرنساوية المذكور بها خبر تغلب النمساويين على فرنسا ووقوع الفوضى في داخليتها ،فأراد بونابرت الرجوع اليها لاستمالة الخواطر إليه وتأليف حزب يعضده في الوصول الى غرضه وهو أن يعين رئيساً للجمهورية أو أكثر من ذلك خصوصاً وقد نال اسماً عظيماً في محاربات ايطاليا والنمسا قبل مجيئه لمصر وحاز فخراً أثيلاً بسبب فتحه وادي النيل،فغادره تاركاً القائد (كليبر) وكيلاً عنه ويقال انه أذنه باخلاء القطر لو رأى تغلب القوى الخارجية عليه لعدم إمكان مساعدته بالمال أو الرجال نظراً لوجود السفن الانكليزية تشق عباب البحر الأبيض طولاً

---

(١) هو جبل تابور ويقع في فلسطين الى الجنوب الشرقي من مدينة الناصرة وارتفاعه ٥٨٨ متراً وعليه تجلى الرب على عيسى كما يعتقد المسيحيون .

وعرضاً. فبقي الجيش الفرنساوي بمصر بدون مراكب تحميه من نزول الانكليز والعثمانيين الى الثغور أو تأتي إليه بالمدد أو مجرّد الأخبار من فرنسا ونقص عدده الى خمسة عشر ألفاً بعد من مات ببر الشام بالطاعون والحرب وظاهر أن هذا العدد غير كاف لحماية السواحل وحفظ طريق الصالحية والمحافظة على الأمن في الداخل. ولذلك يئس القائد كليبر من حفظ مصر واتفق مع الباب العالي والاميرال سدني سميث في ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ على أن تنسحب العساكر الفرنساوية بسلاحها ومدافعها وترجع الى فرنسا على مراكب انكليزية. لكن بعد أن ابتدا الفرنساويون في إخلاء القلاع أرسل الأميرال كيث الانكليزي الى كليبر يخبره أن الحكومة الانكليزية لم تقبل هذا الاتفاق الّا إذا ألقى الفرنساويون سلاحهم بين أيادي الانكليز فاغتاظ القائد الفرنساوي لذلك وسار لمحاربة الجيش التركي الذي أتى الى مصر تحت قيادة الوزير يوسف باشا لاستلامها من الفرنساويين. فتقابل الجيشان عند المطرية في ٢٣ شوّال سنة ١٢١٤ (٢٠ مارس سنة ١٨٠٠) وبعد محاربة عنيفة فاز كليبر بالنصر وعاد الى القاهرة فوجدها في قبضة ابراهيم بيك أحد الأمراء المصرية. وكان دخلها حال اشتغال الفرنساويين بالمحاربة فأطلق القنابل عليها وخرب منها جزءاً عظيماً واستمرّ الحرب في شوارعها نحو العشرة أيام مما هو مذكور في تاريخ الجبرتي تفصيلاً عن ذكر حوادث الشهر المذكور (راجع جزء ثالث صحيفة ٩٠ وما بعدها) . وبعد ذلك ساد الأمن بالقاهرة .

وفي ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠ (٢١ محرم سنة ١٢١٥) قتل شخص حلبي اسمه سليمان القائد كليبر في بستان سراي الألفي بالأزبكية (الموجود محلها الآن فندق شبرد) وهرب ، فبحثوا عليه حتى وجدوه مختفياً ببستان مجاور للبستان الذي حصل فيه القتل فضبطوه وبعد تحقيق طويل قتلوه هو ورفاق له ثلاثة اتهموا معه في القتل وبعد دفن القائد كليبر عين مكانه الجنرال (منو) وكان قد اعتنق الدين الاسلامي وتسمى عبد الله منو .

خروج الفرنساويين من مصر

ولما علم الانكليز والعثمانيون بموت كليبر وخروج بونابرت ومعه أمهر القوّاد من مصر أيقنوا بالغلبة عليهم وأنزلوا بأبي قير ثلاثين ألف مقاتل تحت قيادة الجنرال (ابركرومبي) في أوائل سنة ١٨٠١. فسار القائد منو لمحاربتهم فانهزم أمامهم في ٢١ مارس ورجع الى مدينة الاسكندرية ليتحصن بها فقطع الانكليز سدّ أبي قير، المانع لمياه البحر الأبيض من الاغارة على أرض مصر حتى يحصر القائد منو وجيوشه في الاسكندرية، غير مبالين بما ينجم عن قطع هذا السدّ من الخراب والدمار لجزء ليس بقليل من الوجه البحري .

ثم سار الانكليز والأتراك الى القاهرة عن طريق الصالحية وحصروا من بقي منها من الفرنساويين. ولتحقق القائد (بليار) أن لا مناص له من التسليم خابر القائدين العثماني والانكليزي وطلب منهما اخلاء وادي النيل بالشروط السابق تدوينها باتفاق العريش في ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ فقبلا منه وأمضيا معه اتفاقاً بذلك في ١٦ صفر سنة ١٢١٦ (٢٨ يونيه سنة ١٨٠١) .

فأخلى المدينة في ٢٨ صفر من السنة المذكورة (١٠ يوليو) وخرج منها بجميع أسلحته ومدافعه ومهماته .

وبعد أن أقاموا في برّ الجزيرة أربعة أيام ساروا الى ثغر رشيد تتبعهم فرق من الجنود الاسلامية والانكليزية لمنع تعرض الأهالي لهم. وفي أواخر ربيع الأول أبحروا من رشيد على مراكب انكليزية .

أما القائد منو فبقي محصوراً في الاسكندرية ولم يقبل التسليم الا في ٢٢ ربيع الآخر سنة ١٢١٦ (١ من شهر سبتمبر سنة ١٨٠١) بعد أن وقعت بينه وبين العثمانيين والانكليز موقعة عظيمة قتل فيها كثير من الطرفين فخرج منها مع من بقي معه وسافر الى بلاده على مراكب الانكليز. وبذلك انتهت الحرب ورجعت البلاد الى حاكمها الشرعي ومالكها الأصلي وخليفة رسول رب العالمين بعد أن وطىء هامتها الأجنبي وارتكب فيها من الأعمال ما يضيق نطاق هذا الكتاب عن وصفه، نسأله تعالى أن يمنّ عليها بالتخلص من الأجانب المحتلين لها الآن عسكرياً

ومدنياً كما حررها من ربقة الفرنساويين فان (مصر كنانة الله في أرضه من أرادها بسوء أهلكه الله إنه هو السميع المجيب) .

وبعد ذلك تخابر بونابرت الذي كان تعين رئيساً للجمهورية الفرنساوية بلقب قنصل مع سفير الدولة العلية المدعو أسعد أفندي وأظهر له ضرر اتحاد الدولة مع الروسيا وانكلترا خصوصاً وأن الروسيا قد احتلت جزائر اليونان الواقعة ما بين جنوب ايطاليا وبحيث جزيرة موره وجنود انكلترا باقية بمصر مماطلة في إخلائها، هي وما احتلته من ثغور الشام. وأخيراً أقنعه بوجوب تجديد العلاقات الودّية مع فرنسا فكاتب السفير العثماني دولته بذلك وبعد الحصول منها على الأذن أمضى مع بونابرت مشروع معاهدة بتاريخ أوّل جمادى الآخرة سنة ١٢١٦ (٩ اكتوبر سنة ١٨٠١) و١٧ فانديمير [1] من العام العاشر للجمهورية الفرنساوية أساسها اخلاء مصر وتأييد امتيازات فرنسا السابقة في الشرق وهذا نصها نقلا عن قاموس فيليب جلاد .

البند الأوّل : ينعقد السلم والولاء فيما بين الجمهورية الفرنساوية والباب

(١) ڤانديمير Vendemiaire : هو أول شهور السنة الجديدة التي اخترعتها الثورة الافرنسية ويبدأ من ٢٢ سبتمبر وينتهي في ٢١ اكتوبر . واليوم الثالث عشر منه مشهور في التاريخ الافرنسي لغلبة نابليون على الفريق الذي ثار على الكونڤنسيون . والكونڤنسيون هو المجلس الثوري الذي خلف المجلس التشريعي في ٢١ سبتمبر ١٧٩٢ وحكم فرنسا حتى ٢٦ اكتوبر ١٧٩٥ . وهو الذي أعلن الجمهورية وحكم على الملك لويس السادس عشر بالموت . وكان يضم ثلاثة احزاب : الجيرنديين والجبليين والسهليين وحيث انه عدَّ مسئولاً عن الخسارة الخارجية فعهد الجبليون بالادارة الى لجنة سلام شعبي ، فحكمت هذه اللجنة بالارهاب فسقطت في ٩ تيرميدور Thermidor (هو الشهر الحادي عشر من شهور الجمهورية ويبدأ في ٢٠ يوليو وينتهي في ١٨ أوغست) . وخلال الحقبة الثالثة من التيرميدور استطاع الكونڤنسيون أن يسحق الملكيين في مقاطعتي ڤنده Vendée والجنوب ، كما استطاع أن ينتصر على ثورات المتحدين وعلى الاتحاد الأوروبي ضدفرنسا . وكان أول انتصار للكونڤنسيون اعلان الجمهورية وانشاء معاهد عالية كثيرة وهو الذي أقر النظام العشري .

العالي فيزول بناء على ذلك ما كان بينهما من العدوان ابتداء من اليوم الذي تتبادل فيه التصديقات على هذه البنود الابتدائية. وبعد أن تجري مبادلة التصديق تنجلي في الحال العساكر الفرنساوية عن مملكة مصر وتردّ المملكة المذكورة الى الباب العالي المحفوظة أراضيه وممالكه له بالتمام والكمال كما كانت في الحرب الحالية ، على أنه من المقرّر أن كل ما يسمح به من الامتيازات في الممالك المصرية لسائر الممالك الأجنبية بعد انجلاء الفرنساويين عنها يكون مسموحاً بها للفرنساويين أيضاً .

البند الثاني : تعترف جمهورية فرنسا بتشكيل جمهورية السبع جزائر وبلاد البندقية السابقة وتكفل استمراره ويقبل الباب العالي كفالة فرنسا وروميا بذلك .

البند الثالث : ستتفق الجمهورية الفرنساوية والباب العالي العثماني على تعيين طريقة نهائية تختص بأموال رعاياهما وأمتعتهما التي حجزت أو أخذت مصادرة أثناء الحرب، ويطلق سراح الوكلاء السياسيين والوكلاء التجاريين والأسرى على اختلاف درجاتهم حال حصول التصديق على هذه البنود الابتدائية .

البند الرابع : ان المعاهدات الكائنة فيما بين فرنسا والباب العالي حتى قبل الحرب الحاضرة تجدّدت بتمامها ،وبناء على ذلك حق لجمهورية فرنسا أن تتمتع في كافة أنحاء الممالك العثمانية بجميع الحقوق التجارية وحقوق الملاحة التي كانت متمتعة بها قبلاً أو سيتمتع بها غيرها من الدول الأكثر تفضيلاً في مستقبل الأيام .

وتبادل التصديقات على هذه البنود في ظرف ثمانين يوماً ،وحرر عن باريس في ١٧ فانديمير من العام العاشر لجمهورية فرنسا الموافق يوم غرّة جمادى الآخرة سنة ١٢١٦. وعقب ذلك أبرم بونابرت مع عامل الجزائر معاهدة بتاريخ (١٧ ديسمبر سنة ١٨٠١) وأخرى مع تونس بتاريخ (٢٣ فبراير سنة ١٨٠٢) قاضيتين باحترام سفن فرنسا التجارية كما كان في زمن السلطان سليمان القانوني .

ولما دارت المخابرات بين فرنسا وانكلترا للوصول الى مصالحة أميان [1]

(١) مدينة شهيرة بشمال فرنسا تبعد عن باريس بمسافة ١٣٣ كيلومتر ويبلغ عدد سكانها ثمانين ألفاً من النفوس وبها معامل كثيرة لغزل القطن وحياكته وكثير من المدارس =

أرادت انكلترا ادخال الباب العالي فيها حتى تثبت اشتراكها وتحالفها معها بصفة دولية فلم تقبل الدولة ولا فرنسا بذلك وأصرّ بونابرت على الاتفاق مع الدولة رأساً. وتم الاتفاق بينهما في ٢٣ صفر سنة ١٢١٧ (٢٥ يونيه سنة ١٨٠٢) على أن ترجع مصر الى الدولة مع كافة ما كان لها من الحقوق، وأن يقام في جزائر اليونان جمهورية مستقلة تحت حماية الباب العالي (وكان ذلك بالاتفاق مع الروسيا)، وتعهدت الدولة العلية بردّ ما صودر من أملاك الفرنساويين ببلادها ومنح فرنسا جميع امتيازاتها السابقة المضمونة لها بمعاهدة سنة ١٧٤٠، وأن يكون لمراكبها التجارية حق الملاحة في البحر الأسود أسوة بمراكب الروسيا، وبعد ذلك أخلت انكلترا جيوشها عن مصر والاسكندرية في ذي القعدة سنة ١٢١٧ (شهر فبراير سنة ١٨٠٣).

وفي هذه الأثناء حصلت في داخلية الدولة بعض اضطرابات بسبب شروع السلطان سليم الثالث في تنظيم الجيوش على النظام الجديد فان الانكشارية لم ينظروا لهذه الاصلاحات العسكرية بعين الارتياح لخوفهم من أن تكون مقدّمة لالغاء وجاقاتهم. فلما مات الجنرال دوبايت الفرنساوي الذي كان استحضر لتدريب النظام في سنة ١٧٩٧ سعى الانكشارية مع بعض العلماء المغايرين لكل أمر مستحدث بدون نظر الى ما يجره من النفع لدى جلالة السلطان وتحصلوا على لغو الفرق المنتظمة، فأخذ القبودان كوجك حسين باشا نحو ٦٠٠ منهم وشكلهم على هيئة أورطة منظمة على نفقته الخصوصية وأجزل إليهم الهبات حتى أتى الشبان للانضمام

= الابتدائية والتجهيزية ومدرسة تجهيزية للطب والصيدلة وبها مكتبة عمومية بلغ عدد ما بها من الكتب في السنة الأخيرة ستين ألف مجلد وبها أيضاً محكمة ابتدائية وأخرى استئنافية وفي ٢٥ مارث سنة ١٨٠٢ أمضيت بها معاهدة بين فرنسا وانكلترا وهولاندا واسبانيا ملخصها ان حفظت فرنسا جميع فتوحاتها ما عدا مدينتي روما ونابولي وجزيرة البه، وردت انكلتره ما أخذته من المستعمرات من اسبانيا وهولاندا وفرنسا ما عدا جزيرة سيلان بجنوب الهند وجزيرة ترينتي بامريكا الوسطى . اقول : لا ادري ماذا يقصد المؤلف من قوله : مدرسة تجهيزية للطب .

اليها باختيارهم ،وأخد الانكشارية يقفون أمام سرايه وقت تعليم العساكر ويهزؤون بهم تارة ويهدّدونهم أخرى وحسين باشا لا يعبأ بهم بل جدّ في طريقه وسار في مشروعه .ولما سار بونابرت من مصر الى الشام سافر هو الى عكا مع فرقته فكانت العساكر النظامية في مقدمة المدافعين ومن أشدّهم بأساً على جيوش الفرنساويين، ولما عادوا من مدينة عكا تخفق عليهم رايات النصر أمر السلطان أن تكون نفقتهم على الحكومة وأن يزاد عددهم لما تحققه جلالته من فائدة النظام في الجندية بإزاء جيوش أوروبا المنتظمة.ثم انتهز فرصة وجود أكبر قوّاد الانكشارية بمصر لمحاربة الفرنساويين وأصدر أمراً سامياً (خط شريف) قاضياً بفصل المدفعية عن الانكشارية وتنظيمها على الطراز الأوروبي وكذلك البحرية.وبإنشاء أورطتين سواري وألايين مشاة منتظمين ويكون مقرهم في الاستانة وأن يكون لكل منهم موسيقى عسكرية وإمام لتعليم الدين وإقامة الصلاة وأن يُبنى قشلاقان [1] أحدهما باسكدار والآخر ببيوكدره ،وأن يخصص للصرف عليهم جميع الاقطاعات العسكرية التي تنحل بموت أصحابها وتعود للحكومة.ثم أصدر أوامره الى عبد الرحمن باشا والي بلاد القرمان بتأليف عدّة ألايات وتدريبها على النظام الجديد فصدع بالأمر بكل اهتمام حتى لم تمض ثلاث سنوات الا وقد تم تنظيم ثمانية ألايات كاملة العدد والعدد .

الفتن الداخلية وأسبابها

ولنأت هنا على تلخيص ما كان واقعاً ببلاد الصرب والأرنؤد من الفتن ليكون القارئ مطلعاً على حالة الدولة الداخلية ، وما بها من موجبات التقهقر ، التي أساسها الأصلي عدم السعي وقت الفتح في محو عصبيات الأمم المختلفة بعد الاستيلاء عليها ببذل الجهد في إضعاف ثم تلاشي لغتهم وعوائدهم حتى يصير

---

(١) قيشلاق،التي أصبحت قشلة،وأصلها قيشلق،ومعناها اللغوي المأوى الخاص بالشتاء،ثم أصبحت تطلق على قلاع الجنود أو مراكزهم السكنية عامة.والارطه هي الفوج ويتألف من ألف جندي الى ألف وخمس مئة جندي،والآلاي يتألف من فوجين فما فوق .

الكل أمة واحدة عثمانية فنقول .

لما فتحت بلاد الصرب نهائياً بعد واقعة (قوص أوه) الشهيرة أعطيت كافة أراضيها إقطاعات الى الفرسان العثمانية (سباه) أي انها تبقى تحت يد ملاكها الأصليين المسيحيين بشرط دفع جعل أو خراج معين لمن أعطيت له ،وترك لهم حق انتخاب مشايخ بلادهم ،فاستبد معهم ملتزمو الاقطاعات وعاملوهم معاملة نفرت قلوبهم وأوجدت فيهم محبة الاستقلال فكثر منهم قطاع الطرق .

ولما انتشبت الحرب الأخيرة بين الدولة والنمسا والروسيا هاجر كثير منهم الى بلاد المجر وانخرطوا في سلك الجندية النمساوية لمحاربة الدولة ،ولما وضعت الحرب أوزارها عادوا الى بلادهم بعد أن تمرّنوا على فنون الحرب وضروب القتال وأشربوا حب الاستقلال والحرية ،وبعد عودتهم اضطهدهم الانكشارية لرفعهم السلاح ضدّ دولتهم في صفوف أعدائها ،ولو أن الباب العالي عفا عنهم عفواً عمومياً ،الا أن هذه الفئة المفسدة اتخذت ذلك سبباً لنهب قرى الصرب والتعدّي عليهم بكافة أنواع الاهانة .

ولما اشتكى الأهالي من هذه المظالم أمرت الدولة والي بلغراد بمعاقبة الانكشارية وإخراجهم من أراضي الصرب قاطبة فلم يمتثلوا هذه الأوامر ،ولذا حاربهم الوالي بمساعدة السباه وتغلب عليهم وأخرجهم من ولاية بلغراد بعد أن قتل رئيسهم دلي أحمد فالتجأوا الى بازوند أوغلي الذي سبق ذكر تمرّده واستقلاله تقريباً بولاية (ودين) وهو توسط لهم لدى الباب العالي واستحصل لهم على الاذن بالعودة الى بلغراد بشرط ملازمة الهدوء والسكينة ، لكنهم لم يرجعوا عن غيهم بل بمجرّد عودتهم استأنفوا اضطهادهم للصرب ثم تطاولوا الى محاصرة مدينة بلغراد بمساعدة بازوند أوغلي ودخلوها عنوة وقتلوا واليها وانتشروا في أطراف البلاد يعيثون في الأرض فساداً ..

ولما ضاق الصربيون ذرعاً اجتمعوا للدفاع عن أرواحهم وأموالهم وأعراضهم وانتخبوا لهم رئيساً من أهلهم وهو جورج بتروفتش [1] وطاردوا الانكشارية

---

(١) ولد هذا الثائر الصربي بمدينة بلغراد سنة ١٧٧٠ وكان يلقب بقره جورج أي الأسود =

حتى أبعدوهم عن الأراضي والقرى وصار لا يمكنهم الخروج من المدن لتربص الأهالي لهم .

ثم أرسل الباب العالي الى بكير باشا والي بوسنه يأمره بمساعدة الصرب ومحاربة الانكشارية وطردهم ثانيةً من بلغراد فأتى بجيشه وحاصرها مع بتروفتش حتى دخلاها وأخرجا الانكشارية منها .

وبعد ذلك رجع بكير باشا الى ولايته ،ومن ذلك الحين لم ترجع السكينة الى بلاد الصرب بل تألبوا جماعات تحت رئاسة بتروفتش للدفاع عن أنفسهم ولم يهدأ لهم بال حتى تحصلوا على الاستقلال الاداري ثم السياسي كما سيأتي في موضعه .

وفي هذه الأثناء كانت الاضطرابات سائدة في بلاد الأرنؤود لقيام علي باشا والي يانيه على الباب العالي واستئثاره بالسلطة حول ولايته . أما علي باشا المذكور فهو ابن أحد بيكوات الأروام الذين اعتنقت عائلاتهم الاسلام في بدء الفتح العثماني ثم صار رئيساً لاحدى العصابات التي تألفت بإيعاز الروسيا ودسائسها لقطع السبل وإيقاف حركة التجارة في جبال اليونان والأرنؤود بدعوى الوطنية وما ذلك في الحقيقة الا للسلب والنهب ثم رأى ان موالاة الدولة أنفع لصالحه فعدل عن طريقته الأولى ونبذ وسوسة الأجانب ظهرياً ،وطلب من الباب العالي تعيينه حاكماً على الجهة التي ولد بها من بلاد ابيروس العليا باليونان فقبل منه الباب العالي هذا الطلب رغبة منه في إطفاء الفتن الداخلية وكلفه بمحاربة والي

= وهو أول من جمع كلمة الصربيين على مقاومة الدولة العلية وطلب الاستقلال. وفي سنة ١٨٠٦ نال بعض امتيازات استرجعتها الدولة فيما بعد وطردته منها سنة ١٨١٣ فهاجر الى روسيا حيث أكرمته الحكومة وعينته قائداً في جيوشها . وفي سنة ١٨١٧حاول الرجوع الى الصرب لإثارة الفتن فقبض عليه (ميلوش أورسوفتش) وقتله وأرسل رأسه الى الأستانة علامة على ولائه للدولة. وينسب الى جورج المذكور أنه قتل أباه وأخاه بمجرد ما آنس منهم الميل الى الدولة العثمانية .

اشقودره ووالي (دلوينو) [1] اللذين عصيا الدولة طمعاً في الاستقلال، فحاربهما وتغلب عليهما .

ثم بعد محاربة الروسيا عين في سنة ١٧٨٧ دربندباشي ـ أي محافظاً ـ على السبل والطرق من تعدّي العصب المتسلحة التي تكثر عادة في البلاد أثناء الحروب. وبعدها وفي سنة ١٧٨٨ عين والياً على يانيه، وفي سنة ١٧٩٧ لما استولت فرنسا على كافة السواحل والثغور التابعة لجمهورية البندقية راسلهم علي باشا مؤكداً لهم حسن ولائه لبونابرت وحكومته ولم يكن ذلك منه الا لحفظ البلاد العثمانية من تعدّي الفرنساويين .

ولما أعلنت الدولة الحرب على فرنسا بسبب احتلال مصر احتل صاحب الترجمة ثغر (بوترنتو) [2] وسار لفتح مدينة بروازه [3] فقابله عدد من الفرنساويين. فحاربهم وفاز عليهم بالنصر ودخل المدينة عنوة .

ثم في سنة ١٨٠٢ كلفه الباب العالي بمحاربة قبيلة (السوليين) [4] التي عصت الدولة واعتصمت بالجبال المنيعة فسار إليها بجيشه المؤلف من الأرنؤود ومسلمي الأروام الناشئين بين قلل الجبال ووهادها ،وحاصرهم من كل صوب ،حتى اذا لم يروا بدّا من التسليم أو الموت طلبوا الأمان في غضون سنة ١٨٠٣ بشرط أن يؤذن لهم بالمهاجرة إلى جزائر اليونان المستقلة فأذن لهم. وفي أثناء انسحابهم انقضت عليهم جيوشه الغير منتظمة وقتلت منهم خلقاً كثيراً. وبذلك ساد الأمن في كافة بلاد الأرنؤود وابيروس وجبالها وضربت السكينة أطنابها في جميع البلاد ومفاوزها وطرقاتها وكافأه السلطان على إيجاد الأمن في هذه المسالك الوعرة بان قلده رتبة

---

(١) دلوينو : ثغر في شمال البانيا الى الغرب من اشقودره .

(٢) بوترنتو : ثغر في البانيا .

(٣) بروزه : مدينة على رأس خليج في البانيا .

(٤) هم سكان بلدة صغيرة في وسط جبال الأرنؤود تبعد عن مدينة يانيه بمسافة ٤٥ كيلومتر الى الشمال تدعى سولي اشتهروا بمقاومتهم الدولة العلية وعدم الرضوخ لها واعتصامهم بالجبال فطار صيتهم في جميع أنحاء أوروبا .

(روملي واليسي) ـ أي والي الروملي ـ وبما أن هذه الرتبة تخول للحائز عليها حق قيادة الجيوش حال اشتغال الصدر الأعظم في مهام الدولة الأخرى سار علي باشا في ثمانين ألف مقاتل لمحاربة أهالي مقدونيا الذين ثاروا طلباً للاستقلال ، بناء على إيعاز الروسيا ،وتغلب عليهم بعد محاربات عنيفة وأدخلهم كرهاً في طاعة الدولة. وكانت هذه الخدمة الجليلة من موجبات زيادة نفوذه فداخله الغرور وأوجست منه الدولة خيفة لما ظهر لها من ميله الى الاستقلال. ولما أحس هو بذلك خشي أن يناله أذى منها فتحصن في بلاد ابيروس وأخضع لسلطانه من بها من الأمراء وصار كحاكم مستقل بها وسنذكر ما حلّ به من الدمار جزاء نبذه طاعة الدولة في حينه .

ولم تكن بلاد الروملي خالية من الاضطرابات ، بل وصل اليها شرّ العصابات المتسلحة وانتشرت فيها أزيد من انتشارها في باقي ولايات الدولة بأوروبا حتى لم يتمكن الانكشارية من كبح جماحهم بل فاز المفسدون عليهم في عدّة وقائع ، وصارت البلاد في كرب عظيم وبلاء شديد ، وهدّد هؤلاء الثائرون مدينة أدرنه نفسها مع مناعتها .

فأراد السلطان تجربة الجيوش المنتظمة في محاربتهم وأرسل في سنة ١٨٠٤ آلاياً من الأستانة مع فرقة من المدفعية وأخرى من الخيالة وثلاثة الآيات من التي نظمها والي بلاد القرمان ، فقامت هذه الجنود بما عهد إليها خير قيام ولم تقو العصب على الوقوف أمامها كما هو محقق ومثبوت من أن العسكري المنتظم يقاوم عشرة أو أكثر من الغير منتظمين . وبعد قليل طهرت بلاد الروملي من أدران الفساد وعادت السكينة الى ربوعها ورجعت الجنود المنتظمة الى الاستانة مكللة بالظفر ، فانشرح السلطان من نجاح مشروع هذا النظام الجديد وأغدق عليهم العطايا والهبات. ثم أصدر في شهر مارس سنة ١٨٠٥ أمراً سامياً (خط شريف) الى جميع الولايات بتركية وأوروبا بجمع جميع الشبان من الانكشارية والآهالي البالغين سنّ الخمسة والعشرين وادخالهم العسكرية وتربيتهم على النظام الجديد، فلم يقبل الانكشارية هذا الأمر وأظهروا التمرّد . ولذا أرسل السلطان الى عبد الرحمن باشا والي بلاد القرمان الذي كان من أكبر المعضدين للاصلاح العسكري أن يأتي الى الاستانة

بجيوشه المنتظمة ليوجهوا الى البلاد التي امتنع بها الانكشارية عن تنفيذ الأمر السلطاني. فأتى الى القسطنطينية في أوائل سنة ١٨٠٦. وبعد أن مكث نحو شهر استعرض السلطان في خلاله الجنود النظامية سافر عبد الرحمن باشا وجنوده قاصداً مدينة أدرنه في أواسط يوليه من السنة المذكورة. ولما وصل إليها وجد الانكشارية ثائرين وأبوابها مؤصدة أمامه فعاد الى الأستانة بعد حصول عدّة وقائع حربية بينه وبين الثائرين. ولما رأى السلطان امتداد الثورة واتحاد بعض العلماء والطلبة ضد النظام الجديد أذعن لمطلب الانكشارية وأرجع العساكر النظامية الى ولايات آسيا وعزل الوزراء وعين أغاة الانكشارية صدراً أعظم، ومع ذلك فلم تنته هذه المسألة بسلام بل جرت بعد قليل الى عزل السلطان كما سيجيئ.

وفي غضون ذلك كانت بلاد الصرب قائمة قاعدة في طلب الاستقلال، وحصلت بين أهلها وبين العساكر الشاهانية عدّة محاربات كان النصر فيها تارة لفريق وطوراً للفريق الآخر واستمر الحال على هذا المنوال الى أواخر سنة ١٨٠٦، فعرض عليهم والي أشقودره أن الباب العالي يمنحهم ادارة مستقلة لكن بما أن أغلب أراضيهم معطاة الى العساكر السباه فيدفع الصربيون تعويضاً قدره ستمائة ألف فلورين لتوزع على أصحاب الالتزامات بصفة تعويض على تركهم التزاماتهم للادارة الصربية فقبل زعيمهم جورج بتروفتش بذلك لكن رفض الباب العالي هذا الاقتراح وأبى إلا إدخالهم في طاعته كما كانوا. وعند ذلك انتشب الحرب بين الدولة العلية والروسيا التي سيأتي بيان أسبابها.

هذا ولنرجع الى ذكر علاقات الباب العالي وفرنسا والروسيا وانكلترا بعد خروج الفرنساويين من مصر فنقول إن بونابرت أرسل إلى بلاد الشرق الجنرال سبستياني لتجديد ربط الاتحاد والوداد مع الدولة العلية، فسافر الى الاستانة حاملاً خطاباً من بونابرت الى السدة السلطانية، وفي أثناء اقامته بالاستانة تمكن بمساعيه من عزل أميري الأفلاق والبغدان المنحازين للروسيا فعزلا في ٥ جمادى الثاني سنة ١٢٢١ (٢٠ أغسطس سنة ١٨٠٦) وعين بدلهما من المخلصين للدولة العلية فساء ذلك الروسيا وخشيت من امتداد نفوذ فرنسا في الشرق، فأرسلت

جيوشها لاحتلال هاتين الولايتين بدون اعلان حرب بدعوى أن تغيير أميريهما مضر بحقوق جوارها، فانتشبت نيران القتال بينها وبين الدولة واتحدت انكلترا مع الروسيا في هذه الحرب لتأييد طلباتها فأرسلت إحدى دونانماتها تحت قيادة اللورد (دوق وورث) أمام الدردنيل وأرسل سفيرها السير (اربوثنوت) بلاغاً الى الباب العالي يطلب منه تحالف الدولة العلية وانكلترا وتسليم الأساطيل العثمانية وقلاع الدردنيل الى انكلترا، والتنازل عن ولايتي الأفلاق والبغدان الى الروسيا وطرد الجنرال (سبستياني) من الاستانة واعلان الحرب على فرنسا، والا تكن انكلترا مضطرة لاجتياز الدردنيل واطلاق مدافعها على الاستانة. فلم تقبل الدولة هذه المطالب بل أخذت في تحصين البوغاز وإقامة القلاع على ضفتيه. لكن لم يكن الوقت كافياً لتحصينه بكيفية تجعل المرور منه غير ممكن وفي ١٢ ذي الحجة سنة ١٢٢١ (٢٠ فبراير سنة ١٨٠٧) قرن الانكليز القول بالفعل واجتاز الأميرال اللورد (دوك وورث) بوغاز الدردنيل بدون أن يحصل لمراكبه ضرر يذكر من مقذوفات القلاع ووصل إلى فرضة (جاليبولي) ودمر كافة السفن الحربية العثمانية الراسية بها ومكث خارج البوسفور ينتظر تنفيذ لائحته التي سبق ذكرها.

وبورود الخبر الى الدولة بذلك وقع الرعب في قلوب سكان الاستانة خشية من وصول السفن الانكليزية الى البوسفور وهناك تكون الطامة الكبرى لوجود أغلب السرايات الملوكية ودواوين الحكومة على ضفتيه. ووقع الوزراء في حيص بيص فأقرّوا بعد مداولات طويلة أن يذعنوا لطلب انكلترا وأرسلوا الى الجنرال سبستياني يدعونه للخروج من الاستانة خوفاً من تفاقم الخطب، فقابل الفرنساوي الرسول العثماني محاطاً بجميع مستخدمي السفارة والضباط الفرنساويين المستخدمين بجيوش الدولة وبحريتها وأجابه قائلاً إني لا أخرج من الأستانة الا مكرهاً، ثم طلب أن يقابل السلطان مقابلة خصوصية فأجيب طلبه. ولما قابله أظهر له استعداد فرنسا لمساعدة الدولة وان الامبراطور نابليون قد أصدر أوامره الى جيوشه المعسكرة بسواحل الأدرياتيك للسفر الى الاستانة لمساعدة الدولة على مقاومة انكلترا ورفض طلباتها، فاقتنع جلالته بعدم جواز الانصياع لطلبات

الانكليز وانها لو رأت من الدولة العلية مقاومة أذعنت هي لسحب مطالبها خوفاً على تجارتها من البوار لو صدرت الأوامر بعدم قبولها في الممالك المحروسة .

فأخذ في تحصين العاصمة وبناء القلاع حولها وتسليحها بالمدافع الضخمة ، وشكل الفرنساويون النازلون بالاستانة فرقة من مائتي مقاتل أغلبهم من المدفعية وكذلك الاسبانيون لمضادّة سفيرهم المركيز دالمنييرا لسياسة انكلترا في الشرق. واهتم كل من في الأستانة في هذا العمل الوطني حتى الشيوخ والأطفال والنساء وبذل الانكشارية من الاهتمام أكثر مما كان يؤمل منهم. وكان السلطان بنفسه يناظر الأشغال ويحث المشتغلين بها على مواصلة الليل بالنهار لاتمام القلاع لصدّ هجمات الأعداء. فلم يمض بضعة أيام حتى صارت المدينة في مأمن من كل طارىء ووقفت عدة سفن في مدخل البوسفور لمنع كل مهاجم ، مع استمرار الأشغال في بوغاز الدردنيل. فلما رأى الأميرال الانكليزي استحالة دخوله البوسفور وقرب انتهاء تحصينات الدردنيل خشي من حصر مراكبه بين البوغازين وقفل راجعاً الى البحر الأبيض في ٢٠ ذي الحجة سنة ١٢٢١ (أول مارس سنة ١٨٠٧) فنجا منه بمراكبه بعد أن قتل من رجاله ستمائة وغرق من سفنه اثنتان من مقذوفات قلاع الدردنيل واجتمع بمراكب الروسيا عند مدخل البوغاز .

ثم أراد الأميرال الانكليزي أن يأتي عملاً يمحو مالحقه من العار بسبب فشله في هذه المأمورية فقصد ثغر الاسكندرية ومعه خمسة آلاف جندي بري تحت قيادة الجنرال فريذر فاحتلها في ١٠ محرم سنة ١٢٢٢ (٢٠ مارس سنة ١٨٠٧)، ثم سير فرقة الى ثغر رشيد لاحتلاله فانهزمت وعادت بخفي حنين. ثم أعاد الكرة عليها في شهر أبريل وحاصر المدينة في ٨ صفر (١٧ أبريل) لكن لم يقو على فتحها لارسال محمد باشا المدد إليها. وأخيراً رحلوا عن الديار المصرية ونزلوا في مراكبهم في ١٠ رجب سنة ١٢٢٢ (١٣ سبتمبر سنة ١٨٠٧) لعدم امكانهم التفرّغ لفتحها مع اشتغالهم بالحروب في أوروبا ولوجود الحكومة المصرية في قبضة ممدن مصر وباعثها من رمسها ومعيد مجدها ، من له عليها الأيادي البيض طول الدهر ، الأمير الجليل المرحوم (محمد علي باشا) مؤسس العائلة

الكريمة الخديوية وثالث جد لخديوينا الحالي (افندينا عباس باشا حلمي الثاني).

محمد علي باشا والي مصر

ولنأت هنا على كيفية حصول محمد علي باشا على ولاية مصر بعبارة وجيزة وعلى من يريد معرفة تاريخه بالتطويل أن يرجع لمؤلفنا كتاب البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية المطبوع بمطبعة بولاق الأميرية سنة ١٣٠٨ هـ .

ولد هذا الرجل العظيم الشأن في مدينة قوله [1] سنة ١١٨٢هـ (سنة ١٧٦٩م) وتوفي والده وهو صغير فربّاه عمّ له حتى بلغ أشده فزوجه ابنته ثم اشتغل بتجارة الدخان وربح منها كثيراً .

ولما دخل الفرنساويون مصر كما سبق شرحه أتى محمد علي مع من أرسل من الجنود لمحاربتهم ،وشهد واقعة أبي قير وعينه خسرو باشا الذي عين والياً بعد خروج الفرنساويين برتبة (سرجشمه) أي قائد فرقة تبلغ اربعة آلاف مقاتل. ومن ثم أخذ في استمالة قلوب الجند إليه للاستعانة بهم عند سنوح الفرصة.ثم وقع النفور بينه وبين الوالي لنسبة خسرو باشا اليه الاتحاد مع المماليك فسعى الوالي بالايقاع به لكن لم يتمكن من التنفيذ لقيام جنود الأرنؤد عليه (وربما كان ذلك بايعاز من محمد علي) وطردهم إياه من القاهرة لعدم دفعه مرتباتهم، واختار الأهالي بعده طاهر باشا والياً مؤقتاً حتى يعين الباب العالي بديلاً لخسرو باشا لكن لم يلبث ان قام الانكشارية عليه وقتلوه لدفعه مرتبات الأرنؤود دونهم. وأراد الانكشارية تنصيب أحد الذوات العثمانيين واسمه أحمد باشا ،وكان آتياً لمصر قاصداً التوجه الى الأقطار الحجازية فلم يقبل محمد علي بذلك وأراد

---

(١) بلدة قديمة من بلاد مقدونية،وطن اسكندر الأكبر ،واسمها عند اليونان نيابوليس أي البلد الجديدة واقعة على بحر جزائر الروم بها ميناء متسعة وتجارتها ليست بقليلة ويبلغ سكانها ثمانية آلاف نسمة من المسلمين .وتبعد مقدار ١٢٨ كيلومتر عن مدينة سلانيك جنوباً.وهي وطن المرحوم الحاج محمد علي باشا مؤسس العائلة الخديوية ولد بها سنة ١٧٦٩. وتوفي بالقاهرة في ١٣ رمضان سنة ١٣٦٥ (٢ أغسطس سنة ١٨٤٩م) ودفن في الجامع الذي بناه بالقلعة .

انتهاز هذه الفرصة للحصول على ما كان يكنه صدره وهو الاستئثار بوادي النيل، وكاتب أمراء المماليك فأتى عثمان بيك البرديسي وغيره للقاهرة .

ولما وجد محمد على أن عدد من أتى منهم كاف لمحاربة الانكشارية حاصر أحمد باشا في منزله وألزمه الخروج من مصر ثم سلط الأرنؤد على الانكشارية فحاربوهم في مصر القديمة وقتلوا أغلبهم وفرّ الباقون أوبذلك لم يبق بمصر منازع لمحمد علي ثم سار هو والبرديسي الى دمياط لمحاربة خسرو باشا الذي كان متحصناً بها فحارباه وأسراه في ١٤ ربيع الأول سنة ١٢١٨ (٤ يوليو سنة ١٨٠٣) وعادا به الى القاهرة حيث سجناه بالقلعة. وبعد ذلك بقليل عاد من انكلتره محمد بيك الألفي أحد زعماء المماليك. وكان ذهب إليها ليطلب منها مساعدته على الاستقلال بمصر. ويقال إنه وعدها بتسليم بعض الثغور لو حصل على مرغوبه فخشي محمد علي باشا من اتحاده مع البرديسي وعمد الى إيجاد النفرة بينهما .

ولما أحسّ الألفي بما يدبره له سافر الى الصعيد ثم أهاج محمد علي الأهالي بمصر على البرديسي فحاصروه في منزله وأطلق محمد علي المدافع عليه حتى أخرجه من مصر هو وكافة المماليك .ثم أخرج خسرو باشا من سجنه وأرسله الى رشيد ومنها الى اسلامبول بناء على طلب الأعيان ،وأقام الجند مكانه من يدعى خورشيد باشا ومحمد علي وكيلاً له لكن لم يلبث أن انتخب الأهالي محمد علي والياً وكتبوا الى الباب العالي فأصدر فرماناً بذلك وصل مصرفي ١٠ ربيع الثاني سنة ١٢٢٠ (٨ يوليه سنة ١٨٠٥) .

ثم سعى الانكليز لدى الباب العالي وطلبوا عزله أو نقله الى ولاية لتوسمهم فيه المعارضة لمشروعاتهم المجحفة باستقلال مصر فصغى الباب العالي الى وساوسهم وأمر بنقله الى ولاية سلانيك فلم يقبل علماء مصر ولا قوّاد الجيوش بذلك وكتبوا الى الدولة يلتمسون منها ابقاءه في ولاية مصر ،فقبل السلطان وأرسل إليه فرماناً بتثبيته وصل إليه في ٢٤ شعبان سنة ١٢٢١ (٦ نوفمبر سنة ١٨٠٦) ،وفي ٧ رمضان (١٨ نوفمبر سنة ١٨٠٦) توفي محمد بيك الألفي. وفي شوّال (٣١ دسمبر سنة ١٨٠٦) توفي عثمان بيك البرديسي وبذلك صفا الجوّ لمحمد علي باشا ولم يبق له

منازع من الأمراء المماليك الا أنه كان مضطراً لمراعاة من بقي منهم ومن جنودهم المنتشرين في أغلب جهات القطر للافساد لا لحفظ الأمن الى أن أجهز عليهم في واقعة القلعة الشهيرة التي حصلت في يوم الجمعة ٥ صفر سنة ١٢٢٦ (٢٩ فبراير سنة ١٨١١) . ولنرجع لذكر ما حصل بالأستانة من الحوادث بعد خروج المراكب الانكليزية من الدردنيل فنقول :

عزل السلطان سليم الثالث

إنه في هذه الأثناء كانت رحى الحرب دائرة بين العثمانيين والروس فدخل والي بوسنه بجيوشه الى بلاد الصرب لمنع الثائرين من اللحاق بالجيش الروسي وسار الصدر الأعظم وفرقتان من الانكشارية وجيوش آسيا المنتظمة الى مدينة (شومله) ، وكان مصطفى باشا البيرقدار حاكم مدينة (روستجوق) يستعدّ للاغارة على بلاد الأفلاق بخمسة عشر ألف جندي قام هو بتنظيمهم وتدريبهم وخصص نفراً ليس بقليل من النظام الجديد للبقاء في قلاع الدردنيل والبوسفور لدفع الطوارىء البحرية.وفي غضون ذلك توفي المفتي الذي كان معضداً للسلطان على ادخال الاصلاحات العسكرية وتولى مكانه قاضي عسكر الرومللي وكان على الضدّ من سلفه، فاتحد مع مصطفى باشا قائم مقام الصدر الأعظم المتغيب في محاربة الروس ولفيف من العلماء على السعي في إبطال النظام العسكري الجديد قائلين انه بدعة مخالفة للشرع وللوصول الى غايتهم هذه أخدوا يغرون العساكر الغير منتظمة التي كانت أضيفت الى الفرق المنتظمة حتى اذا ألفوا النظام أدرجوا ضمن العساكر النظامية وأدخلوا في آذانهم أنهم لم يأتوا من بلادهم إلا لإجبارهم على الانخراط في سلك النظام واكراههم على لبس الملابس الغربية والتزيي بزيّ النصارى مع ما في ذلك من مخالفة القرآن الشريف والشرع المنيف على زعمهم .

ولما ملات هذه الأوهام عقول هؤلاء السذج وأشربت قلوبهم هذه الاضاليل أرسل مصطفى باشا القائم مقام الى إحدى القلاع الموجود بها جنود منتظمة وغير منتظمة رسولاً أظهر أنه آت لإلباس الغير منتظمين الملابس النظامية فهاجوا

وماجوا وقصدوا قتل الرسول فمنعهم المنتظمون ـ وحصلت بينهم معركة سالت فيها الدماء ،ثم انتشرت هذه الفتنة وامتدّ لهيبها الى جميع القلاع وحصلت عدّ معارك بين الفريقين كانت نتيجتها قتل رسول السوء والتجأ الجنود النظامية الى ثكناتهم . ولما بلغ السلطان خبر هذه الحادثة أبهم عليه مصطفى باشا القائم مقام الأمر وأفهمه أنها حادثة غير مهمة .

وبعد هذا النجاح أخذت الجنود الغير منتظمة تستعدّ بإيعاز مهيجيها لأمر آخر ذي بال ،واجتمعوا في الجهة المعروفة ببيوكدره [1] وانتخبوا لهم رئيساً منهم اسمه قباقجي أوغلي وهو أخذ في الاستعداد للدخول الى الأستانة . وفي صبيحة يوم ٢٧ مايو سنة ١٨٠٧ دخل هو ومن معه من الجنود الغير منتظمة،وانضم اليهم نحو مائتين من البحرية وثمانمائة من الانكشارية حتى إذا وصل هذا الجمع الى المحل المعروف باسم (آت ميدان)[2] أتوا بقدور الانكشارية وصفوها ،علامة على العصيان ،وقرىء عليهم أسماء جميع المعضدين لمشروع النظام العسكري من الوزراء أوالذوات والأعيان فانتشر الثائرون الى منازلهم وقتلوهم وأتوا برؤوسهم ووضعوها أمام القدور . ولما بلغ السلطان خبر هذه الثورة أصدر على الفور أمراً بالغاء النظام الجديد وصرف العساكر النظامية لكن لم يكتف الثائرون بل قرروا عزل السلطان خوفاً من أن يعود لتنفيذ مشروعه وساعدهم على ذلك المفتي الذي هو في الحقيقة المحرّك لهذه الثورة فأفتى بأن كل سلطان يدخل نظامات الافرنج وعوائدهم ويجبر الرعية على اتباعها لا يكون صالحاً للملك . واستمرّت هذه الثورة يومين ثم نؤدي في ٢١ ربيع الآخر سنة ١٢٢٢ (٢٨ يونيه سنة ١٨٠٧) بفصل السلطان سليم الثالث فعزل . وكانت مدة حكمه ١٩ سنة وبقي الى أن توفي في ٤ جمادى الأولى سنة ١٢٢٣ (٢٨ يونيو سنة ١٨٠٨) وعمره ٤٨ سنة تقريباً وأقيم بعده مصطفى الرابع .

---

(١) بيوكدره : كلمة مركبة من كلمتين : بيوك ومعناها الكبير ،ودره ومعناها الوادي .وهي ضاحية من ضواحي استانبول .

(٢) آت ميداني : إذا خفضت لفظة آت فمعناها اللحم وإذا فخمت (ا ط) فمعناها الفرس ، وهذا هو المقصود هنا ،أي ميدان الخيل .



٢٩- السّلطان الغازي
مصطفى خان الرابع

ابن السلطان عبد الحميد الأوّل المولود سنة ١١٩٣هـ (سنة ١٧٧٩م)، وكلف المفتي بتبليغ السلطان سليم خبر عزله فذهب إليه وبلغه ذلك مظهراً أسفه من هذه الحادثة الجبرية، فقبل السلطان وذهب الى سرايه الخصوصية وتفرّق الجنود النظامية شذر مذر وأهمل هذا المشروع الجليل لعدم موافقته لأغراض الانكشارية ومن حازبهم .

ولم يكن السلطان مصطفى إلا كآلة يديرها مبغضو النظام الجديد كيف شاؤا تبعاً لأهوائهم فثبت الوزراء الذين لم يقتلوا في الثورة في وظائفهم، واعتمد تعيين قباقجي أوغلي حاكماً لجميع قلاع البوسفور فأعاد الانكشارية قدورهم الى ثكناتهم دلالة على ارتياحهم مما حصل وخلودهم الى الراحة والسكينة .

ولما وصلت أنباء هذه الثورة الى الجيوش العثمانية المشتغلة بمحاربة الروس عند نهر الطونة شمل الانكشارية السرور لإبطال النظام الجديد. ولما رأوا من قائدهم العام وهو الصدر الأعظم حلمي ابراهيم باشا عدم الاستحسان لما حصل قتلوه وأقاموا مكانه جلبي مصطفى باشا فوقع الفشل في الجيوش، ولولا وجود أغلب جيوش الروسيا في ألمانيا لمحاربة الإمبراطور نابليون الذي كانت تخرّ عروش الملوك أمامه سجداً لكانت نتائج هذه الحروب أوخم مما سبقها. ومن حسن الحظ أيضاً أن وصل في أثناء ذلك خبر انتصار نابليون على الروس ومحالفيهم في واقعة (فريدلاند) [1] في ٦ ربيع الثاني سنة ١٢٢٢ (٣ يونيه سنة ١٨٠٧)

(١) مدينة صغيرة ببلاد بروسيا الشرقية لا يتجاوز عدد سكانها أربعة آلاف نسمة واشتهرت بانتصار نابوليون الأول بها على جيوش الروس .

فتقهقرت الجنود الروسية المحتلة لولاية البغدان من غير ما حرب ولا قتال .

وعقب ذلك حصل الصلح بين فرنسا والروسيا بمقتضى معاهدة (تلسيت) [1] في أوّل جمادى الأول سنة ١٢٢٢ (٧ يوليو سنة ١٨٠٧) التي جاء البند الثاني والعشرين وما بعده منها أن الروسيا تكف عن محاربة الدولة حتى يتوسط نابليون بين الطرفين، وانه بمجرّد ما أمضيت الهدنة الابتدائية تخلي جيوش الروسيا ولايتي الأفلاق والبغدان بدون أن تدخلها الجيوش العثمانية حتى يتم الصلح نهائياً، وجاء في المعاهدة السريّة التي اتفق عليها نابليون واسكندر الأوّل قيصر الروسيا إن لم يقبل الباب العالي توسط فرنسا بسبب الحوادث الأخيرة التي حدثت بالاستانة أو إن لم يتم المقصود بكيفية مرضية بعد قبول هذا التوسط بخمسة وثلاثين يوماً فتتحد فرنسا مع الروسيا على سلخ جميع الولايات العثمانية بأوروبا ما عدا الاستانة وما حولها وتقسيمها فيما بينهما مع إرضاء النمسا بجزء يسير. وكيفية ذلك التقسيم أن يكون لفرنسا بلاد بوسنه وألبانيا (الأرنؤود) وأبيروس وبلاد اليونان ومقدونيا وللنمسا بلاد الصرب وللروسيا الأفلاق والبغدان والبلغار واقليم تراس لغاية نهر ماريتسا (راجع مؤلف المسيو لافاليه على تاريخ الدولة العلية) .

ولا يخفى ما في هذه المعاهدة من الإضرار بحقوق الدولة العلية والتخلي عنها وتركها بمفردها أمام الروسيا، رغماً عن وعود فرنسا السابقة التي كانت سبباً في إثارة هذه الحرب. وناهيك ما جاء في المعاهدة السرّية من تقسيم الأملاك المحروسة فيظهر للمطالع أن كل وعود الأجانب للشرقيين وعود عرقوبية وسراب كاذب يحسبه الظمآن ماء. وإن إظهارهم لنا الولاء والصداقة لم يكن إلا لنوال أمانيهم والفوز بغاياتهم، فالعاقل من لم يتمسك بذيل وعودهم ولا يخالج فكره

---

(١) قرية بشرق بروسية على نهر (نيمن) الفاصل بين الروسيا والبروسيا وبها اجتمع نابوليون الأول بامبراطور الروسيا اسكندر الأول واتفقا على تقسيم أوروبا بينهما، ثم حال دون اتمام مشروعهما عدم الاتفاق على الاستانة، اذ كل منهما كان يود جعلها من نصيبه. وينسب لنابوليون أنه قال، إن الاستانة مفتاح العالم من استولى عليه أمكنة أن يسود على العالم بأسره .

أن دولة أوروبية تودّ خيراً أو تبغي صلاحاً لدولة أو أمة شرقية مطلقاً ـ والحوادث التاريخية التي ذكرت وستذكر في هذا الكتاب أكبر شاهد، فلعلها تكون عبرة لمن تذكر .

هذا ثم أرسل نابليون في ٣ جمادى الأولى سنة ١٢٢٢ (٩ يوليو سنة ١٨٠٧) الجنرال (جلليمينو) أحد أركان حربه الى الجيوش العثمانية والروسية المتحاربة لتبليغهم المعاهدة المذكورة وعرض توسط الدولة الفرنساوية عليهم فقبل الفريقان بذلك. وفي ١٩ جمادى الثانية سنة ١٢٢٢ (٢٤ أغسطس) أمضيت بينهما بحضور المندوب الفرنساوي هدنة ابتدائية. ومع ذلك فلم تخل الروسيا ولايتي الأفلاق والبغدان. وهو أوّل إخلال بشروط معاهدة تلسيت ولذا لم يمكن الفريقان أن يتفقا على شروط الصلح النهائي لكن لم يستأنف القتال إلا بعد سنتين لاشتغال كل فريق منهما بما هو أهمّ من ذلك .

ولنرجع الى ذكر ما حصل في الاستانة بعد نجاح ثورة قباقجي أوغلي فنقول: إنه لم يمض قليل حتى وقع الخلاف بين رؤساء الثورة فاتحد أولا قباقجي أوغلي مع المفتي على عزل القائم مقام مصطفى باشا، فعزل وأبعد الى خارج البلاد وأقيم مكانه من يدعى طاهر باشا، ثم عزل لرغبته المحافظة على حقوق وظيفته وسافر الى روستجق والتجأ الى حاكمها مصطفى باشا البير قدار. وكان هذا الأخير من محازبي السلطان سليم ويودّ ارجاعه لمنصة الأحكام، فكاشف بذلك جلبي مصطفى باشا الصدر الأعظم وباقي الوزراء وأقنعهم بوجوب مجازاة المفتي وقباقجي مصطفى على تهييج الجنود الغير منتظمة وعزل السلطان والاستئثار بالسلطة. فوافقه على هذا الأمر كل من كاشفهم به وأصدر الصدر حكماً على قباقجي مصطفى قاضياً باعدامه ووكل على تنفيذه أحد رجال المؤامرة واسمه حاجي علي وهو تعهد بالقبض عليه عنوة وسار الى الاستانة في مائة فارس بينما كان البيرقـدار قاصدها في ستة عشر ألف جندي عن طريق أدرنه. ولما وصل حاجي الى ضواحي الأستانة علم أن قباقجي مصطفى مقيم في قصر له خارج المدينة فهاجمه وقتله ثم أبرز لجنوده حكم الصدر الأعظم وأخبرهم أنه عين قائداً لهم فلم يقبلوا بذلك بل أحاطوا به وبمن معه من الفرسان وكادوا يأسرونه لولا

ما أظهره من الشجاعة التي تمكن بها من التخلص واللحاق بالبيرقدار وكان قد وصل هو والصدر الأعظم الى الأستانة وعسكر خارجها .

ولما علم السلطان بهذه الوقائع خشي من تعدّي الثورة عليه ووصول ضررها إليه، وأمر بعزل المفتي وصرف جنود قباقجي مصطفى الغير منتظمة التي عضدته على عزل السلطان سليم، فأظهر البيرقدار الاكتفاء بما حصل ولم يكاشف أحداً بعزمه على إعادة السلطان سليم، الى عرش الخلافة العظمى وأشاع أنه عازم على العودة الى روستجق لكن في صبيحة ٤ جمادى الأولى سنة ١٢٢٣ (٢٨ يونيو سنة ١٨٠٨) ألقي القبض على شلبي مصطفى باشا الصدر الأعظم وسار بجيوشه الى السراي السلطانية وطلب إرجاع السلطان سليم الثالث الى الملك، فأمر السلطان مصطفى بقتله وإلقاء جثته الى الثائرين كي يكفوا عن الثورة لما يعلمون أن الذي يريدون ارجاعه قد دخل في خبر كان لكن أتى الأمر على عكس ما كان يؤمل، فقد زاد الثائرون هياجاً ونادوا على الفور بعزل السلطان مصطفى الرابع وحجزه في نفس السراي التي كان محجوزاً بها السلطان سليم فعزل بعد أن حكم ثلاثة عشر شهراً وقتل في سرايه بعد ذلك بقليل وأقيم بعده محمود الثاني .



٣٠-

السلطان الغازي
محمود خان الثاني

ابن السلطان عبد الحميد الأوّل ولد في ١٣ رمضان سنة ١١٩٩ (٢٠ يوليو سنة ١٧٨٥) وافتتح أعماله بأن قلد مصطفى باشا البيرقدار منصب الصدارة العظمى ووكل اليه أمر تنظيم الانكشارية وإجبارهم على اتباع نظاماتهم القديمة المسنونة من عهد السلطان سليمان القانوني وأهملت شيئاً فشيئاً فبعد أن انتقم البيرقدار ممن قاوموه عند ارجاع السلطان سليم وكانوا سبباً في قتله استدعى جميع ذوات الدولة ووزرائها وأعيانها لمجلس حافل ولما لبوا دعوته قام فيهم خطيباً وأظهر لهم ما كانت عليه حالة الانكشارية وما وصلت اليه وما يجب أن تكون عليه من النظام وضرورة تقليدهم الأسلحة النارية المخترعة حديثاً والتي كان استعمالها في جيوش الروسيا سبب انتصاراتهم الأخيرة على جيوش الدولة، ثم ختم كلامه بأن عرض عليهم عدّة اقتراحات مهمة منها إلزامهم بملازمة ثكناتهم العسكرية خصوصاً غير المتزوّجين منهم وقطع علائف ومرتبات الساكنين خارجاً عنها وجعل تمرينهم على التعليمات العسكرية المسنونة في قانون السلطان سليمان إلزامياً، وتسليحهم بالأسلحة الجديدة النارية وتمرينهم على الأصول العسكرية الجديدة المستعملة في جيوش أوروبا والتي أكسبتهم قوّة عظيمة وغير ذلك من الاصلاحات والترتيبات التي لو اتبعت لأصبح جيش الانكشارية أقوى جيوش العالم كما كان في بادىء الأمر قبل تسلطن الخلل عليه وتدخله في الأمور الداخلية والخارجية ونصب الوزراء والملوك وعزلهم بلاحق مطلقاً. فأقرّ الجميع على كل ما جاء في مشروع البيرقدار وحرروا محضراً بذلك ثم لم يكتف هو بذلك بل استحصل على فتوى بضرورة تنفيذ نظامات الانكشارية

بكل صرامة ، وأصدر أوامره بذلك وأدخل أغلب ضباط الجيوش المنتظمة التي أمر بابطالها في جيش الانكشارية بالوظائف العالية . فأخذوا تنفيذ رغائبه بكل اعتناء وشدة فاغتاظ الانكشارية لذلك واتحدوا على مقاومته وتضافروا على الايقاع به ولم يكن للبيرقدار معين في تنفيذ قرار الجمعية الا ستة عشر ألف مقاتل أتت معه من روستجق وثلاثة آلاف جندي تحت قيادة عبد الرحمن باشا رئيس الجنود المنتظمة سابقاً وبعض سفن حربية تحت امرة أمير البحر رامز باشا .

ثم لم يمض قليل حتى ساروا إلى فيليبه وأظهروا التمرّد والعصيان فأرسل البيرقدار اثني عشر ألف مقاتل من جيوشه لمحاربتهم ولم يبق الا أربعة آلاف والثلاثة آلاف القائد لهم عبد الرحمن باشا . ولذلك انتهز الانكشارية هذه الفرصة وقاموا كرجل واحد في ٢٧ رمضان سنة ١٢٢٣ (١٦ نوفمبر سنة ١٨٠٨) وساروا الى سراي السلطان مصطفى بقصد ارجاعه الى عرش الحكومة فاعترضهم البيرقدار وقاومهم مقاومة عنيفة ولما أحس بأن الضعف قد داخل جيوشه وخشي من فوز الثائرين وعزل السلطان محمود أمر بقتل مصطفى الرابع وإلقاء جثته للثائرين كما فعل مصطفى الرابع مع السلطان سليم الثالث . فلما رأى الانكشارية جثة السلطان مصطفى زادوا هياجاً وأضرموا النار في السراي الملوكية لكي يلجئوا البيرقدار على الفرار منها لكن فضل الصدر الأعظم الموت على التسليم لهذه الفئة الباغية والانصياع لطلباتها وبقي يدافع هو ومن معه حتى مات حرقاً. ويقال إنه تحصن في أحد الأبراج ثم اشعل ما كان به من البارود ومات هو ومن معه تحت أنقاضه. ولو صحت هذه الرواية أو تلك فكلتاهما تشهدان على ما كان متصفاً به من الشهامة والشجاعة وأنه يخدم مبدأ لا شخصاً ، وهذا المبدأ هو إصلاح الجندية وتدريبها على النظامات المستحدثة لتحققه ان الانكشارية مهما كانت قوّتهم ومنعتهم لا يقوون على الثبات أمام الجيوش المنتظمة المتقلدة أجود الأسلحة وأتقنها .

هذا وفي أثناء دفاع البيرقدار كان أمير البحر رامز باشا قد أحضر ثلاث سفن حربية وأوقفها بممرّ البوسفور وسلط مدافعها على ثكنات الانكشارية ثم نزل الى البر مع فريق من البحارة والمدفعية وسار بهم لمساعدة البيرقدار ،

بينما كان عبد الرحمن باشا آتياً مع فرقته المؤلفة من ثلاثة آلاف جندي لمؤازرة الوزير.لكن كان قد سبق السيف العذل وقتل مصطفى باشا السـبيرقدار الا أن رامز باشا وعبد الرحمن باشا ومن معهما ما فتئوا يقاتلون الانكشارية حتى انهزموا أمامهم في جميع الجهات بعد أن استمرّ اطلاق البنادق والمدافع في الاستانة طول اليوم.وفي آخر النهار ارتأى رامز باشا البحري العفو عن الثائرين جميعاً لو ألقوا سلاحهم وسلموا أنفسهم لرحمة السلطان فلم يوافقه عبد الرحمن باشا بل أراد اتخاذ هذه الثورة وسيلة لاعدام الانكشارية وإبطال طائفتهم كلية ووافقه السلطان محمود على ذلك .

وبناء على هذا القرار سارت جيوش السلطان في صبيحة اليوم التالي تتقدّمها المدافع تقذف الصواعق على الانكشارية من كل صوب وحدب .ولما رأى الثائرون أن لا مناص لهم من الهلاك أضرموا النار في جميع جوانب المدينة . ولما كانت أغلب أماكنها من الخشب علا لهيب النيران وكاد الحريق يلتهمها بأجمعها فاضطر السلطان للاذعان لطلبات الانكشارية حتى يمكنه انقاذ المدينة من الدمار العاجل مؤجلاً ابطال هذه الفئة المفسدة الى فرصة أخرى وبذل جهده في إخماد النيران التي كادت تلتهم المدينة بأسرها لو لم يتداركها السلطان محمود بحكمته واستمرّ الانكشارية في ثورتهم وهيجانهم .

معاهدة بخارست مع الروسيا

وبعد انتهاء هذه الفتة وجه السلطان اهتمامه لاصلاح الشؤون الداخلية والاستعداد لاهلاك طائفة الانكشارية.وللتفرّغ لذلك عقد الصلح مع دولة الانكليز في ٢٤ ربيع الثاني سنة ١٢٢٤ (٨ يوليو سنة ١٨٠٩) وافتتح المخابرات مع الروسيا بدون أن يتوصل الى اتفاق مرض للطرفين فاستؤنفت الحركات العدوانية ودارت رحى الحرب بين الجيشين وكانت نتيجتها أن انهزم الصدر الأعظم ضيا يوسف باشا الذي عين في هذا المنصب الرفيع بعد موت مصطفى باشا البـيرقدار ،مع أنه هو الذي انتصر الفرنساويون عليه بمصر بالقرب من المطرية سنة ١٧٩٩ ،وهذا مما يدل على عدم إلمامه بفنون الحرب.واستولى الروس على

مدائن اسماعيل وسلستريه وروستجق ونيكوبلي وبازارجق في سنتي ۱۸۰۹ و۱۸۱۰ ثم عزل وتولى مكانه من يدعى أحمد باشا، وهو سار الى الروس في ستين ألف مقاتل في سنة ۱۸۱۱ وانتصر عليهم واضطرّهم لاخلاء مدينة روستجق فأخلوها في ۱۳ جمادى الثانية سنة ۱۲۲۶ (٥ يوليو من السنة المذكورة) مكرهين بعد أن هدموا قلاعها وأسوارها بالألغام وأضرموا النار في منازلها وعبروا نهر الطونة راجعين الى شاطئه الأيسر فتبعهم أحمد باشا بجيوشه، وبعد عدّة وقائع لا حاجة لذكرها تفصيلاً عاد الروس فاحتلوا روستجق ثانية .

وفي هذه الأثناء فترت العلاقات بين الروسيا ونابوليون لعدم تنفيذ شروط معاهدة تلسيت وكانت الحرب بينهما قاب قوسين أو أدنى، فسعت الروسيا في مصالحة الدولة. ولعدم وقوف وزراء الدولة على ماجريات الأمور السياسية باوروبا قبلوا افتتاح المخابرات وعينت الدولة مندوبين من قبلها اجتمعوا مع مندوبي الروسيا في مدينة بخارست. وبعد مداولات طويلة توصل الفريقان الى إمضاء معاهدة عرفت في التاريخ باسم معاهدة بخارست أمضيت في ١٦ جمادى الأولى سنة ۱۲۲۷ (۲۸ مايو سنة ۱۸۱۲) أهمّ شروطها بقاء ولايتي الأفلاق والبغدان تابعتين للدولة ورجوع الصرب الى حوزتها مع بعض امتيازات قليلة الأهمية عديمة الجدوى وحفظت الروسيا لنفسها اقليم بساربيا وأحد مصبات الدانوب .

ولقد اعتبرت فرنسا هذه المعاهدة خيانة من الدولة للروابط القديمة الموجودة بين الدولتين إذ بابرامها تمكنت الروسيا من استعمال الجيوش التي كانت مشتغلة بمحاربة العثمانيين في صدّ إغارات فرنسا عن بلادها والزام نابليون القهقرى بعد حرق مدينة موسكو واهلاك أغلب جيوشه عند عبورهم نهر (بيريزينا) [1] عائدين الى بلادهم مكسورين مدحورين. ونسى نابليون أن الدولة لم تأت أمراً جديداً بل اقتدت بما فعله هو في تلسيت من التخلي عنها والزامها على ايقاف

(۱) نهر بيريزينا Berezina هو أحد روافد نهر دنيبر وطوله ٥٨٧ كم وهو مشهور في التاريخ بسبب هذا العبور الذي استمر من ٢٦ الى ٢٩ نوفمبر ۱۸۱۲ .

الحرب فضلا عما جاء بمعاهدة تلسيت من الشروط السريّة القاضية بتجزئة الدولة العلية الأمر الذي كاد يخرج من حيز الفكر الى حيز الوجود لولا طلب القيصر اسكندر الأوّل ضم مدينة القسطنطينية إليه ليكون له بوغاز البوسفور والدردنيل وبالتالي مفاتيح أوروبا بل مفاتيح العالم بأسره ،وعدم قبول نابليون بذلك خوفاً على مملكته الشاسعة من تعدّي الروس .

ومن الغريب أن جميع دول أوروبا لا تأنف من استعمال أنواع الغش والخديعة في سياستهم حتى صارت لفظة سياسية عندهم مرادفة للكذب والمين والتظاهر بغير الحقائق ،ولو عاملتهم احدى الدول الشرقية لا بمثل هذه السياسة التي يتبرأ منها الشرقيون بل بالصداقة مع المحافظة على الحقوق،فما دام حقنا منافياً كما هو الغالب لمطامعهم في بلادنا،رمونا بما اتصفوا به ونحن برآء منه .

هذا ولما بلغ رؤساء ثورة الصرب خبر معاهدة بخارست القاضية بارجاعهم الى سلطة الدولة العلية المطلقة بعد ما بذلوه من الأموال والأرواح في اعطائهم نوعاً من الاستقلال الاداري ووعد قيصر الروسيا بمساعدتهم احتدموا غيظاً ولم يقبلوا الرجوع الى حالتهم الأصلية وآثروا الفناء في الدفاع عن استقلالهم. فسيرت الدولة إليهم الجيوش فأخضعتهم الى سلطانها قهراً وعاد الموظفون العثمانيون الى مراكزهم كما كانوا قبل الثورة واسترجع جنود السباه اقطاعاتهم الأصلية فهاجر زعماء الثورة الى النمسا والمجر منتظرين أوّل فرصة لاهاجة الأمة ثانية طلباً للاستقلال الا أحدهم المدعو (ميلوش أوبرينوفتش)[1] ، فانه بقي في بلاده وأظهر الولاء للدولة حتى عينته بوظيفة شيخ بلد لاحدى القرى وظل يهيج أفكار الأهالي على الثورة ويبث فيهم روح الحرية حتى إذا أنس منهم الاستعداد للقيام كرجل واحد انتهز فرصة عيد الزحف في سنة ١٨١٥ الذي يحتفل به

---

(١) أحد زعماء الثورة الصربية ولقبه الحقيقي تيودور فتش وسمي أوبروفتش نسبة لابرن زوج والدته وكان أبوه من رعاة الخنازير أما هو فثار أولاً باتفاق قره جورج الذي سبق ذكره،ثم لما هاجر جورج الى الروسيا صار هو رئيساً للحركة الثوروية وقتل قره جورج ليتخلص من منافسته.وباقي تاريخه يعلم من سياق هذا الكتاب .

المسيحيون في يوم الأحد السابق لعيد الفصح حيث كان جميع أهالي قريته والقرى المجاورة مجتمعين ونشر بينهم لواء العصيان ودعاهم الى الثورة فلبوه مسرعين وانضم إليهم جميع الأهالي وعاد المهاجرون الى أوطانهم وامتد العصيان في جميع أنحاء بلاد الصرب .

وبعد أن استمرّ القتال سجالا بينهم وبين الجيوش العثمانية نحو السنتين قبل ميلوش أوبرينوفتش بالنيابة عن الأمة الصربية الرجوع الى سلطان الدولة بشرط أن لا تتداخل في شؤونهم الداخلية ولا في تحصيل الضرائب بل يعين لادارة البلاد وتوزيع الضرائب وتحصيلها مجلس مؤلف من اثني عشر عضواً ، ينتخبهم الأهالي من أعيان الأمة وهم ينتخبون رئيساً لهم من بينهم يكون كحاكم عمومي وتكتفي الدولة بالمراقبة واحتلال الحصون والقلاع . فقبل الباب العالي هذه الشروط وعين من يدعى مرعشلي باشا والياً للصرب وأعطيت إليه تعليمات شديدة تقضي عليه بمعاملة الصربيين بالرفق واللين كي يحافظوا على ولاء الدولة ولا يسعوا في فصم ما بقي بينهما من عرى التابعية (سنة ١٨١٧) ثم عين ميلوش أوبرينوفتش رئيساً لمجلس الصرب الذي يمكننا أن نسميه من الآن مجلس نوّابهم وأطلقوا عليه اسم (سوبرانيا) وصارت الصرب مستقلة تقريباً واستبدّ ميلوش كملك مطلق التصرّف لا سلطة للوالي العثماني عليه مطلقاً اكتفاء باحتلال الحصون والقلاع ، ولم يكن له منافس في السلطة الا قره جورج أكبر زعماء الثورة الذي هاجر الى بلاد الروسيا فأكرم القيصر مثواه ومنحه رتبة جنرال عسكري ونشان (سانت [1] آن) ولذلك خشي ميلوش من نفوذه ومساعدة الروسيا له فأصرّ على قتله وتربص له حتى إذا حضر مختفياً الى بلاد الصرب قاصداً بلاد اليونان بناء على طلب زعمائها أرسل إليه ميلوش من قتله ثم أرسل رأسه الى الأستانة علامة على حسن ولائه واخلاصه للدولة العلية صاحبة السيادة الاسمية على بلاده .

---

(١) سنت آن : أي القديسة حنه .

الوهابيون ومذهبهم

الوهابيون قوم من العرب اتبعوا طريقة عبد الوهاب وهو رجل ولد بالدرعية [1] بأرض العرب من بلاد الحجاز، كان من وقت صغره تظهر عليه النجابة وعلوّ الهمة والكرم وشب على ذلك واشتهر بالمكارم عند كل من يلوذ به.

وبعد أن درس مذهب أبي حنيفة في بلاده سافر الى أصفهان ولاذ بعلمائها وأخذ عنهم حتى اتسعت معلوماته في فروع الشريعة وخصوصاً في تفسير القرآن ثم عاد الى بلاده في سنة ١١٧١ هجرية فأخذ يقرّر مذهب أبي حنيفة مدّة ثم أدّته ألمعيته الى الاجتهاد والاستقلال فانشأ مذهباً مستقلاً لتلامذته فاتبعوه وأكبوا عليه ودخل الناس فيه بكثرة، وشاع أمره في نجد والاحساء والقطيف وكثير من بلاد العرب مثل عمان وبني عتبة من أرض اليمن. ولم يزل أمرهم شائعاً ومذهبهم متزايداً الى أن قيض الله لهم عزيز مصر محمد علي باشا فأطفأ سراجهم في سنة ١٢٣٢ وكسر شوكتهم وأخفى ذكرهم (!!) وهاك رسالة من كلامهم تدل على بعض مذهبهم ومعتقداتهم وهي منقولة حرفياً من الجزء الثاني عشر صحيفة ٨٣ من كتاب الخطط الجديدة التوفيقية تأليف العالم العلامة فقيد الوطن المرحوم علي مبارك باشا المتوفي ليلة الثلاث ٥ جمادى الأولى سنة ١٣١١ (١٤ نوفمبر سنة١٨٩٣):

اعلموا رحمكم الله أن الحنيفية ملة ابراهيم أن نعبد الله مخلصاً له الدين وبذلك أمر جميع الناس وخلقهم له كما قال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والأنس الا ليعبدون﴾، فإذا عرفت أن الله خلق العباد للعبادة فاعلم أن العبادة لا تسمى عبادة الا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمى صلاة الا مع الطهارة. فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت كالحدث إذا دخل في الطهارة كما قال الله تعالى ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت

---

(١) الدرعية ليست من بلاد الحجاز بل من بلاد نجد والشيخ محمد بن عبد الوهاب من قرية العيينة وانما التجأ الى آل سعود في الدرعية. وهو لم يدرس المذهب الحنفي بل درس المذهب الحنبلي والوهابيون يعملون بمذهب أحمد بن حنبل، وقد اختلط الأمر على المؤلف من قول الشيخ محمد: ان الحنيفية ملة ابراهيم ... (المحقق).

أعمالهم وفي النار هم خالدون﴾ . فمن دعا غير طالب منه ما لا يقدر عليه الا الله من جلب خير أو دفع ضرّ أشرك في العبادة . كما قال تعالى ﴿ ومن أضلُّ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ وقال تعالى ﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير﴾ فاخبر تبارك وتعالى أن دعاء غير الله شرك فمن قال يا رسول الله أو يا ابن عباس أو يا عبد القادر زاعماً أنه باب حاجته الى الله وشفيعه عنده ووسيلته اليه فهو المشرك الذي يهدر دمه وماله الا أن يتوب من ذلك. وكذلك الذين يحلفون بغير الله أو الذي يتوكل على غير الله أو يرجو غير الله أو يخاف وقوع الشرّ من غير الله أو يلتجىء الى غير الله أو يستعين بغير الله فيما لا يقدر عليه الا الله فهو أيضاً مشرك . وما ذكرنا من أنواع هو الذي قال الله فيه : إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وهو الذي قاتل رسول الله المشركين عليه وأمرهم باخلاص العبادة كلها لله تعالى : ويصح ذلك أي التشنيع عليهم بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله تعالى في كتابه، أوّلها أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله يقرّون أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لجميع الأمور والدليل على ذلك قوله تعالى ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾ وقوله تعالى ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون﴾ اذا عرفت هذه القاعدة وأشكل عليك الأمر فاعلم انهم بهذا اقّروا ثم توجهوا الى غير الله يدعونه من دون الله فاشركوا . القاعدة الثانية : انهم يقولون ما نرجوهم الا لطلب الشفاعة عند الله، نريد من الله لا منهم ولكن بشفاعتهم ، وهو شرك والدليل على ذلك قول الله تعالى ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرّهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل اتنبئون الله بما لا يعلم

في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ وقال الله تعالى ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون . إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار﴾ وإذا عرفت هذه القاعدة فاعرف القاعدة الثالثة وهي: ان منهم من طلب الشفاعة من الأصنام ومنهم من تبرأ من الأصنام وتعلق بالصالحين مثل عيسى وأمه والملائكة والدليل على ذلك قوله تعالى ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً﴾.ورسول الله لم يفرّق بين من عبد الأصنام ومن عبد الصالحين بل كفر الكل وقاتلهم حتى يكون الدين كله لله.واذا عرفت هذه القاعدة فاعرف القاعدة الرابعة وهي: انهم يخلصون لله في الشدائد وينسون ما يشركون والدليل على ذلك قوله تعالى ﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر إذا هم يشركون﴾ وأهل زماننا يخلصون الدعاء في الشدائد لغير الله فإذا عرفت هذا فاعرف القاعدة الخامسة وهي: أن المشركين في زمان النبيّ أخف شركاً من عقلاء مشركي زماننا لأن أولئك يخلصون لله في الشدائد وهؤلاء يدعون مشائخهم في الشدائد والرخاء والله أعلم بالصواب (انتهى) .

محاربة محمد علي باشا للوهابيين

ولما رأى السلطان محمود أنه من الضروري قمع هذه الفئة التي يخشى من امتدادها على تفريق كلمة الاسلام الأمر الذي جعله الأوروبيون مطمح أنظارهم للتمكن من فصم عرى اتحادهم وامتلاك بلادهم،ولبعد ولايات الشام وبغداد عن مركز الفتنة كلف محمد علي باشا والي مصر ومؤسس عائلتها الخديوية بمحاربتها واسترجاع مكة المشرّفة والمدينة المنوّرة من أيدي زعمائها وأرسل اليه فرماناً بذلك في ذي القعدة سنة ١٢٢٢ (دسمبر سنة ١٨٠٧) ولما كان ارسال الجيوش الى بلاد العرب عن طريق البرّ أمراً متعسراً ان لم يكن مستحيلاً لانتشار الوهابيين في جميع الطرق وقطعهم المواصلات عزم محمد علي باشا على ارسالهم بطريق البحر الأحمر، فأمر بانشاء السفن في السويس لنقل الجنود الى فرضة ينبع

فكانت الأخشاب الصالحة لعمل المراكب تقطع في جميع جهات القطر ويؤتى بها الى الورش التي أقيمت في بولاق فتجهز فيها ثم تنقل على ظهور الجمال الى السويس فتركب بكل سهولة .

ولما استعدَّت المراكب وجمعت الجيوش والكتائب أضمر هذا الشهم على إبادة طائفة المماليك ليخلص البلاد من شرّهم ويمكنه التفرّغ لاصلاحها وإخراج مشروعاته المفيدة من حيز الفكر الى حيز العمل .

ابادة المماليك

ولتتميم هذا المشروع أعدّ حفلة في القلعة في يوم الجمعة ٥ صفر سنة ١٢٢٦ (أوّل مارس سنة ١٨١١) لتسليم ولده طوسن باشا الفرمان المؤذن بتقليده قيادة الجيش المزمع ارساله الى بلاد العرب لمحاربة الوهابيين والسيف المهدى اليه من قبل الحضرة السلطانية وفي اليوم المعهود طلع جميع رؤساء المماليك الى القلعة في موكب منتظم ولما دخل الجميع من باب الغرب وانحشروا في المضيق الموصل منه الى الباب الأوسط أغلقت الأبواب وأطلقت عليهم البنادق من خلف الأسوار ومن أعلاها حتى قتلوا عن آخرهم وفي الوقت نفسه نهبت جنود محمد علي باشا منازلهم بالمدينة وقتلت من تخلف منهم عن الحضور ثم أرسل الى عماله في الأقاليم بقتل جميع المماليك القاطنين خارج العاصمة فقتلوهم وصاروا يتنافسون في ارسال رؤوسهم اليه وبذلك طهرت مصر من أدران هذه الفئة،ولو لم يكن لمحمد علي باشا من الأيادي البيض على مصر سوى تخليصها من شرّ المماليك لكفى لتخليد ذكره وتمجيد اسمه .

وبعد ذلك سافر طوسن باشا بجيوشه الى بلاد العرب وحارب الوهابيين واستخلص المدينة المنوّرة بعد أن نسف أسوارها بالألغام ودخلها عنوة وكتب لوالده بذلك. ثم حصره الوهابيون في مدينة الطائف فسافر محمد علي باشا الى مدينة مكة في ٢٨ شعبان سنة ١٢٢٨ (٢٦ أغسطس سنة ١٨١٢) وقبض على الشريف غالب شريف مكة المكرمة وأرسله الى مصر وأقام مكانه الشريف يحيى ابن سرور واحتل عدّة مراكز مهمة من مراكز الوهابيين فتضعضع حالهم

خصوصاً وقد توفي زعيمهم سعود في ١٩ ربيع الآخر سنة ١٢٢٩ (١٠ ابريل سنة ١٨١٤) فساد الأمن في طريق الحج وأتى الناس أفواجاً لتأدية فريضة الحج في الحجة سنة ١٢٢٩ وحج محمد علي باشا وجميع من معه ثم عاد الى مصر فوصلها في ١٥ رجب سنة ١٢٣٠ (٢٣ يونيو ١٨١٥) .

× وقبل عودته كان قد سار طوسن باشا الى بلاد نجد لمهاجمة الوهابيين في مدينة (الدرعية) عاصمة زعيمهم فاحتل مدينة الرس الواقعة على مقربة من الدرعية ثم راسله عبدالله بن سعود الذي تولى زعامة الوهابيين بعد موت أبيه وأرسل إليه رسولا يدعى الشيخ أحمد الحنبلي يطلب منه الكف عن القتال والخضوع لأمير المؤمنين وترك [دعوتهم]، فأجابه طوسن باشا بأنه لا يمكنه إجابة ملتمسه الا بعد أخذ رأي والده واتفقا على مهادنة عشرين يوماً ريثما يخابر طوسن باشا والده . عند ذلك أتى إليه خبر عودة والده الى مصر فأخذ على نفسه اتمام الصلح واخبار والده بعد اتمامه . فاتفق مع عبدالله بن سعود الوهابي على أن يحتل طوسن باشا بجيوشه مدينة الدرعية ويردّ الوهابيون ما أخذوه من المجوهرات والنفائس من الحجرة الشريفة النبوية خصوصاً الكوكب الدري الذي زنته مائة وثلاثة وأربعون قيراطاً من الماس وكتب لوالده بذلك فأتى اليه الردّ بتكليف عبد الله بن سعود بالتوجه الى الاستانة وان لم يقبل يرسل إليه جيشاً جديداً لمحاربته .

وفي هذه الأثناء جمع طوسن باشا خبر تمرّد الجنود على والده بالعاصمة ونهبهم المدينة فرجع هو أيضاً الى العاصمة منيطاً قيادة جيوشه لأحد من كان معه من القوّاد،ووصل هو الى القاهرة في غاية ذي القعدة سنة ١٢٣٠ (٣ نوفمبر سنة ١٨١٥) .

وبعد استتباب الأمن في العاصمة أخذ محمد علي باشا في تجهيز حملة جديدة لمحاربة الوهابيين فجهزها وجعل قائدها بكر أولاده ابراهيم باشا فسار هذا الشبل الى بلاد العرب من طريق قنا فالقصير فجدّة وأبحر من فرضة بولاق في ١٢ شوّال سنة ١٢٣١ (٥ سبتمبر ١٨١٦) فوصل ينبع في ٩ ذي القعدة من السنة المذكورة (١ اكتوبر ١٨١٦) ومنها قصد المدينة المنوّرة لزيارة قبر خاتم المرسلين سيدنا محمد ﷺ ثم سار بجيوشه الى بلاد نجد بعد أن رتب النقط في خط رجعته

الى فرضتي ينبع وجدّة لعدم انقطاع وصول المدد اليه فاحتل الرس ومدينة عنيزة وغيرها وفي ٢٩ جمادى الأولى سنة ١٢٣٣ (٦ أبريل سنة ١٨١٨) وصل أمام مدينة الدرعية وكان بها عبدالله بن سعود ومعظم جنوده .

ولما كانت هذه المدينة متسعة الأرجاء ولا يمكن لابراهيم باشا محاصرتها بكيفية تضطرها الى التسليم أشار عليه أحد أركان حربه من الفرنساويين المدعو المسيو (فسيير) بحصار القرى الأربع المحيطة بالمدينة الواحدة بعد الأخرى حتى اذا احتلها أمكنه محاصرة المدينة الأصلية بكل سهولة، فاتبع ابراهيم باشا هذا الرأي لما فيه من المطابقة على أصول الحرب. ومع ذلك فاستمرّ الحصار عدّة أشهر لكن لما رأى عبدالله بن سعود أن المصريين قد احتلوا ثلاث قرى من ضواحي المدينة مال الى التسليم وطلب من ابراهيم باشا في ٧ ذي القعدة سنة ١٢٣٣ (٩ سبتمبر سنة ١٨١٨) ايقاف القتال للمفاوضة في الصّلح فأوقفه وأتى عبدالله بن سعود الى ابراهيم باشا في معسكره فأكرمه وأحسن وفادته وبعد محادثة طويلة قبل الوهابي تسليم مدينة الدرعية إليه بشرط عدم تعرضه للأهالي بسوء وبالسفر الى الاستانة كرغبة الحضرة السلطانية وبردّ الكوكب الدرّي وما بقي من المجوهرات والتحف التي أخذها الوهابيون حين استيلائهم على المدينة سنة ١٢٢٠ هجرية .

ثم سافر عبدالله بن سعود الى الاستانة من طريق مصر فوصل القاهرة في يوم الاثنين ١٧ محرم سنة ١٢٣٤ (١٦ نوفمبر ١٨١٨) .

وبعد أن قابل محمد علي باشا بسراي شبرا سافر قاصداً الأستانة في ١٩ من الشهر المذكور (١٨ نوفمبر سنة ١٨١٨) وقتل بالقسطنطينية بمجرد وصوله[1] .

ولما هدأت الحال في بلاد الحجاز ونجد وضرب الأمن أطنابه بها واستؤصلت شأفة الوهابيين منها عاد ابراهيم باشا الى مصر فوصل القاهرة في يوم الخميس ٢١ صفر سنة ١٢٣٥ (٩ دسمبر سنة ١٨١٩) .

---

(١) لا يستغرب عدم تعليق المؤلف على جريمة قتل عبد الله بن سعود ، وعدم وفاء السلطان بعهده له ، إذا أخذنا بالاعتبار زمن تأليف الكتاب ونظرة الكثير من المسلمين الى الحركة الوهابية في ذلك الزمن ، وتحامل المؤلف على الحركة الوهابية ، بل عدم فهمه لحقيقتها . (الناشر) .

وفي يوم الخميس دخلها بموكب حافل ماراً من باب النصر الى القلعة وزينت المدينة سبعة أيام متوالية .

وبعد ذلك أمكن عزيز مصر التفرغ لاصلاح البلاد فنظم الجندية على النظامات الأوروبية، وعاونه على ذلك الكلونيل سيف الفرنساوي الذي تسمى فيما بعد باسم سليمان باشا ثم شرع في فتح بلاد السودان ففتحها ولده اسمعيل باشا الذي مات بها حرقاً، وبطل الحجاز ابراهيم باشا من سنة ١٨٢٠ الى سنة ١٨٢٣ .

عصيان علي باشا والي يانيه

سبق لنا ذكر تحصن علي باشا في اقليم أبيروس وما جاورها واستخفافه بالدولة وأوامرها ونقول إن الدولة لم ترد المسارعة في مجازاته لاشتغالها بما هو أهم منه من الشؤن الداخلية والخارجية . فحمل هذا التغاضي على الخوف وزاد في عدم احترام الأوامر التي ترد إليه من الاستانة حتى وصلت به الحالة الى الامتناع عن دفع الخراج وعدم ارسال من يطلب منه من الشبان للعسكرية. وأخيراً أرسل أحد أتباعه الى الاستانة لقتل بعض خواص السلطان لعدم مساعدته له في الديوان السلطاني فقتله رسول السوء في احدى شوارع الاستانة العلية. ولما ظهر أن ذلك بإيعاز علي باشا أمر السلطان بمحاكمته وكتب بطلبه الى القسطنطينية لمعاقبته أو تبرئته حسب ما يظهره التحقيق فامتنع عن الحضور وجاهر بالعصيان غير مبال ببطش الدولة وراسل زعماء اليونان الذين كانوا ابتدأوا في الهياج والاضطراب طلباً للحريّة: لكن تداركت الدولة الأمر قبل تفاقم الخطب وأرسلت اليه جيوشاً كافية لقمعه تحت قيادة من يدعى خورشيد باشا، فحاربه هذا القائد وحصره يانيا مدّة وضايق عليه الحصار حتى يئس من وصول المدد إليه من زعماء اليونان .

ولما رأى أن لا مناص له من التسليم فاتح خورشيد باشا في ذلك في يناير سنة ١٨٢٢ ثم اجتمع به في ١٣ جمادى الأولى سنة ١٢٣٧ (٥ فبراير) التالي للاتفاق على شروط التسليم فأبرز له خورشيد باشا الفرمان السلطاني القاضي بقتله جزاء تمرّده وعصيانه على الدولة التي والت عليه نعمائها ورفعته الى أعلى الدرجات. وفي الحال أحاط به الجند وقبضوا عليه وأوردوه الحمام ثم جزوا رأسه وأرسلوها

الى الأستانة. وبذلك انتهت فتنته وعادت السكينة الى ربوع بلاد الأرنؤد .

ثورة اليونان وطلبها الاستقلال

قد علم المطالع من سياق هذا الكتاب أن الدولة العلية كانت كلما فتحت إقليماً اكتفت من أهله بالخراج غير متعرّضة لهم في دينهم أو لغتهم أو عوائدهم، وأظهرنا مضارّ هذه الطريقة التي تحفظ بها كل أمة لغتها ورابطها وعصبيتها حتى إذا ساعدتها الظروف نشطت من عقالها وقامت من رقدتها طالبة نصيبها من شمس الاستقلال المنعشة، فلما قامت الثورة الفرنساوية على دعائم الحرية والمساواة والإخاء وانتشرت مبادئها في جميع أنحاء أوروبا التي وطئها نابوليون بجيوشه تعدّت منها الى غيرها ووصلت فصائلها الى بلاد اليونان فوجدت من أفكار وألباب سكانها مغرساً طيباً فنمت وأينعت وامتدّت فروعها الى سهلها وجبلها واجتمع تحت ظلها الوارف زعماء الأمة اليونانية لكنهم أيقنوا أنهم لا يقوون على طلب الاستقلال الا اذا كان من أبنائهم شبان متعلمون يبثون المبادىء الجديدة بين جميع طبقات الأمة فيعلمون أن لهم حقوقاً يطالبون بها وواجبات يطالبهم الغير بها. ولذلك عمد أغنياؤهم إلى ارسال أولادهم إلى مدارس الممالك الأوروبية ليتحلوا بالعلوم والمعارف وليكونوا رؤساء الأمة ودعاة حرّيتها في المستقبل. ثم ألفوا عدّة جمعيات لنشر العلم بها بين أفراد الأمة وبث روح الوطنية بينهم وشكلوا جمعيات أخرى سياسية محضة وجعلوا مراكزها في الروسيا والنمسا وأهمّ هذه الجمعيات الجمعية السرّية المسماة (هيتيري) [1] وقيل أن تشكيلها كان

---

(١) كلمة يونانية معناها جمعية أخوية أطلقت على جمعتين أسست احداهما في مدينة ويانه عاصمت النمسا بدعوى تأسيس المدارس ونشر العلوم بين اليونان. والثانية لقصد سياسي محض وهو السعي في استخلاص بلاد اليونان من الحكومة العثمانية وبقيت سرية الى سنة ١٨٢١ حيث ابتدأت الثورة جهاراً. وكان مركزها أولاً بمدينة أودسا ثم انتقلت الى مدينة كييف وكلتاهما ببلاد الروسيا، الأمر الذي يدل على أن للروسيا ضلعاً مهما في تأسيسها والصرف عليها .

بتحريض من اسكندر الأوّل [1] قيصر الروسيا لإيجاد المشاكل الداخلية في الدولة كي يتسنى له تنفيذ وصية بطرس الأكبر القاضية بجعل مدينة القسطنطينية مفتاح الممالك الروسية .

وكانت هذه الجمعية أشبه شيء بجمعيات الكربوناري [2] التي انتشرت أثناء ذلك في الممالك اللاتينية، أي فرنسا والبرتغال واسبانيا وايطاليا، لتحرير هذه الأمم بمبادىء الثورة الفرنساوية وانتشرت جمعية الهتيري بين جميع اليونان المجتمعين في اقليم مورا والمتفرقين في باقي أملاك الدولة حتى بلغ عدد أعضائها في أوائل سنة ١٨٢١ نيفاً وعشرين ألفاً وجميعهم من الشبان الأقوياء القادرين على حمل السلاح كاملي العدد متأهبين للثورة عند أوّل إشارة تبدو لهم من رؤسائهم ومما ساعد على امتداد جذورها بهذه الكيفية الغريبة اشتغال الدولة بمحاربة علي باشا والي يانيا الذي سبق ذكره .

وانتهزوا فرصة تفرغها لقمعه لنشر لواء العصيان ومقاتلة الجنود العثمانية المحتلة لحصونهم وقلاعهم . وبمجرد انتهاء فتنة والي يانيا، بقتله في ٥ فبراير سنة ١٨٢٢ كما مر، وجهت الدولة خورشيد باشا الى بلاد اليونان لاخضاعها فتغلبوا

---

(١) هو ابن الامبراطور بولص الأول ولد سنة ١٧٦٧ وتولى بعد قتل أبيه في ٢٣ مارث سنة ١٨٠١ وأدخل في بلاده عدة اصلاحات داخلية منها ابطال المصادرة والتعذيب وتخفيف الضرائب وأسس عدة مدارس جامعة ولطف قانون العقوبات وحارب نابوليون الأول باتحاده مع جميع أوروبا عدة مرات، وانهزم أمام فرنسا في وقائع متعددة وأخيراً لما قصد نابوليون بلاده وتقهقر أمام مدينة موسكو التي أحرقها الروس اتحدت أوروبا ضده بناء على ايعاز المترجَم واستظهروا على فرنسا ودخل اسكندر الأول مدينة باريس في ٣١ مارس سنة ١٨١٤ ثم لما عاد نابليون من منفاه الأول حاربه اسكندر المذكور مع جميع أوروبا وانتصروا عليه في ١٨ يوليه سنة ١٨١٥ في واقعة وترلو .

واشتهر الامبراطور المذكور بمضادته لاستقلال الأمم . ولذلك ألف مع البروسيا والنمسا الاتحاد المقدس لمعارضة كل أمة تود الاستقلال وتوفي عن غير عقب من الذكور في دسمبر سنة ١٨٢٥ .

(٢) جمعية سرية نشأت بإيطاليا في أوائل هذا القرن لطرد الأجانب منها وتوحيدها ثم انتقلت الى فرنسا سنة ١٨١٨ على ما يظهر، وانتشرت فيها بكيفية غريبة وكانت من أكبر أسباب =

عليه في واقعة الترموبيل [1] وفرقوا شمل جنوده في ذي الحجة سنة ١٢٣٧ (أغسطس سنة ١٨٢٢) أما هو فآثر الموت على تحمل عار هذه الموقعة بعد ما ناله من الفخر في قهر والي يانيا،فانتحر ومات مسموماً .

ومما زاد في أهمية انهزام خورشيد باشا أن البحارة اليونانيين تمكنوا في يوم ٢٧ رمضان سنة ١٢٣٧ (١٧ يونيو سنة ١٨٢٢) من حرق الدونانمة التركية في ميناء جزيرة ساقز ، واستشهاد ثلاثة آلاف بحري بسببها بعد أن استخلصت جزائر ساموس وساقز وغيرهما من أيدي ثائري اليونان، ومجازاة سكانها ومساعديهم بقتل الرجال وسبي النساء وارتكاب أنواع السلب والنهب ،مما كان له دوي في أوروبا واستمال الرأي العام بها لمساعدة اليونان وبقي الحرب ذلك سجالاً الى سنة ١٨٢٤ .

سفر الجنود العثمانية الى اليونان

ولما رأى السلطان محمود ما ألم بجيوشه في هذه الحروب المستمرة والمناوشات الغير منقطعة وثبات اليونانيين أمام الجيوش العثمانية واعتصامهم بالجبال وعدم قدرة الجنود على اللحاق بهم في جبالهم الوعرة أراد أن يحيل مأمورية محاربتهم على محمد علي باشا والي مصر، نظراً لما أبداه هو وولده الشهم الهمام ابراهيم باشا في محاربة الوهابيين من جهة وليشغله عما كان يظن أنه ينويه من طلب الاستقلال من جهة أخرى.اذ توهم الباب العالي أنه لو لم تكن هذه وجهته

= سقوط حكومة شارل العاشر ملك فرنسا الذي أراد إرجاع بعض النظامات القديمة المخالفة لروح الحرية ويقال ان لفييت الشهير كان من أكبر زعمائها . اقول : انه يقصد بـ لفييت الماريشال الافرنسي الشهير لا فاييت La Fayette الذي اشترك بالثورة الافرنسية،ثم انه حارب مع الامريكان للحصول على الاستقلال.

(١) مضيق شهير ببلاد اليونان دافع فيه ليونيداس ملك اسبارطه دفاع الأبطال عن وطنه لما هاجمهم اكزرخس ملك العجم وجموعه سنة ٤٨٠ قبل المسيح،وفي هذه الواقعة ثبت ليونيداس ومن معه حتى قتلوا عن آخرهم ثم نقلت عظامه الى مدينة اسبارطه حيث أقيم له أثر عظيم تخليداً لذكره وتمجيداً لاسمه .

الحقيقية لما بذل وسعه في تنظيم جيش جديد مؤلف من الشبان المصريين الذين جعل اعتماده عليهم بدل أخلاط الترك وتدريبهم على النظام الأوروبي بمساعدة ضباط من الفرنساويين، فلهذه المناسبات أصدر السلطان فرماناً بتاريخ ٥ رجب سنة ١٢٣٩ (٦ مارس سنة ١٨٢٤) بتعيين محمد علي باشا والياً على جزيرة كريد وإقليم موره وهما بؤرتا هذه الثورة .

فلم يسع محمد علي باشا الا الإذعان لأوامر متبوعة الأعلى خوفاً من حمل امتناعه على العصيان والاستقلال الأمر الذي ما كانت قواه الحربية تساعده على إتمامه . وفي الحال أصدر أوامره باستعداد سبعة عشر ألف جندي كلهم مصريون من المشاة للسفر، وعدد من الفرسان والمدفعية. وعين بكر أولاده مخضع الوهابيين وفاتح السودان قائداً عاماً لهذه الحملة.وأرفقه بسليمان بيك (هو الكولونيل سيف الذي سبق ذكره) الفرنساوي منظم الجيوش ليساعده بمعلوماته العسكرية التي تحصل عليها أثناء وجوده ضمن جيوش نابوليون الشهيرة بحسن الترتيب وكمال النظام .

فاستعدت هذه الارسالية للسفر من ثغر الاسكندرية وأبحرت منه تحت قيادة بطل مصر ابراهيم باشا في ١٩ ذي القعدة سنة ١٢٣٩ (١٦ يوليو سنة ١٨٢٤) على سفن مصرية تكتنفها سفن حربية مصرية أيضاً من سفن الدونانمة التي أنشأها محمد علي باشا في البحر الأبيض لحماية ثغور مصر من هجمات الأعادي ، كما حصل من الانكليز سنة١٨٠٧. فسارت السفن باسم الله مجرايها الى جزيرة رودس للاجتماع بالدونانمة العثمانية .ثم ترك ابراهيم باشافيها سليمان بك الفرنساوي مع حامية كافية من تعدي الثائرين عليها وقصد هو جزيرة كريد فاحتلها. ومنها قام الى سواحل بلاد موره يحاول انزال جنوده فيها، وبعد العناء الشديد تمكن من انزالهم في ميناء مودون ولم يكن باقياً في أيدي العثمانيين اذ ذاك من جميع اليونان الا هذه المدينة ومدينة كورون ولو لم تكن مساعدة أوروبا لليونانيين بالمال والرجال لما أمكنهم مقاومة الجنود العثمانية، فانه لما شرعت اليونان في طلب الاستقلال شكلت في أوروبا عدّة جمعيات دعيت بجمعيات محبي اليونان وجمعت كثيراً من المال أرسلت به الى الثائرين كميات وافرة من الأسلحة

والذخائر. وتطوّع كثير من أعضائها في عدد المحاربين ومن ضمنهم كثير من مشاهير أوروبا وأمريكا مثل وشنطون ابن محرّر أمريكا الشهير واللورد بيرون الشاعر الانكليزي وغيرهما من فحول الرجال الذين وقفوا حياتهم للدفاع عن الحريّة في أي زمان ومكان انتصاراً لمبادئهم لا لأمة معلومة أو رجل معلوم. ومما ساعد على دخول بعض الشبان المشهورين في جيوش اليونان القصائد الحماسية التي نشرها فيما بينهم (فيكتور هوجو) [1] الشاعر المحلق الفرنساوي و (كازيمير دلافين) [2] الناظم الشهير.

ولم يلبث ابراهيم باشا ان أمد مدينة (كورون) التي كان يحصرها اليونانيون بالرجال والذخائر في ٣ شعبان سنة ١٢٤٠ (٢٣ مارس سنة ١٨٢٥) ثم فتح مدينة (ناورين)، [3] الشهيرة بعد حصار شديد ودخلها منصوراً في ٢٨ رمضان سنة ١٢٤٠ (١٦ مايو سنة ١٨٢٥) وبعد قليل فتح مدينة (كلاماتا) [4]. وفي ٢٣ مايو احتل مدينة (تريبولتسا) [5]. ثم استدعاه رشيد باشا الذي كان محاصراً مدينة (ميسولونجي) [6] لمساعدته على فتحها وكانت قد أعيته في ذلك الحيل لوقوعها على البحر ووصول المدد إليها تباعاً من جهة البر. فقام ابراهيم باشا بجيوشه ملبياً دعوته واتبع في فتحها الطريق التي أرشده سليمان بيك الفرنساوي إليها في محاصرة

---

(١) فيكتور هوكَو Victor Hugo أديب وشاعرافرنسي ولد سنة ١٨٠٢ ومات ١٨٨٥ ودفن في مقبرة العظماء في باريس.

(٢) كازيمير ديلافيني Casimir Delavigne : ولد سنة ١٧٩٣ ومات سنة ١٨٤٣ وهو عضو في المجمع العلمي الافرنسي.

(٣) مدينة ببلاد اليونان على بحر أرخبيل قليلة السكان اشتهرت في التاريخ بتدمير مراكب انكلترا وفرنسا والروسيا للدونانمة المصرية العثمانية في ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧ مساعدة لليونان للحصول على استقلالها السياسي بدون اعلان حرب كما هي عادة الأمم المتمدنة.

(٤) كلاماتا Kalamai وتقع في نهاية الخليج الغربي من شبه جزيرة مورا.

(٥) تريبولتسا Tripolis وتقع في وسط جزيرة مورا.

(٦) ميسولونجي هي ميسولونجيون Mesolongion : وتقع في رأس الخليج الواقع شمال شبه جزيرة مورا.

والمصريون في ١٤ رمضان سنة ١٢٤١ (٢٢ أبريل سنة ١٨٢٦) وفي يونيو من السنة التالية فتح العثمانيون مدينة آتينا وقلعتها الشهيرة (أكروبول) رغماً عن دفاع اللورد كوشران القائد البحري الانكليزي الذي عين من قبل اليونانيين قائداً عاماً لجيوشهم البرّية والبحرية لعدم اتفاقهم على تعيين أحدهم .

تداخل الدول

وبينما يستعدّ ابراهيم باشا لفتح ما بقي من بلاد اليونان في أيدي الثائرين إذ تدخلت الدول بين الباب العالي ومتبوعيه بحجة حماية اليونانيين في الظاهر ولفتح المسألة الشرقية وتقسيم بلاد الدولة بينهم في الباطن . وبيان هذا التدخل ان الدولة لامت الروسيا أكثر من مرة على مساعدتها الثائرين وحماية من يلتجىء منهم الى بلادها وهي لا تصغي لهذا اللوم ولا تنصت للحق، بل استمرّت على مساعدتهم طمعاً في نوال بغيتها الأصلية وهي احتلالها الاستانة وجعلها مركزاً للديانة الأرثوذكسية كما ان مدينة رومة مركزاً للديانة الكاثوليكية ثم استمرت المخابرات بين الدولتين مدة بدون فائدة لرغبة الروسيا التدخل بين التابع والمتبوع وعدم قبول الباب العالي أي تدخل أجنبي في شؤونه الداخلية بين رعاياه . ولما توفي القيصر اسكندر الأول في ١٨ ربيع الثاني سنة ١٢٤١ أول دسمبر سنة ١٨٢٥ وتولى بعده نقولا الأول[1] اهتم بمسألة اليونان متبعاً خطة سلفه السياسية وباتحاده

---

(١) هو ثالث أولاد بولص الأول، وتولى بعد موت أخيه اسكندر الأول في سنة ١٨٢٥ بسبب تنازل أخيه الأكبر قسطنطين عن حقه في الملك وكان أشد ملوك الروسيا عداوة للدولة العلية فحاربها وأمضى معها وفاق (آق كرمان) ثم معاهدة أدرنه في ١٤ سبتمبر ١٨٢٩ وحارب العجم وأخذ منها عدة ولايات . ثم لماحصلت حرب الشام بين مصر والدولة العلية أبرم مع الدولة معاهدة خونكاراسكله سي سنة ١٨٣٣ القاضية بمساعدتهالدولة. وكان من أكبر مساعدي اليونان على الاستقلال كما أنه محا ما كان باقياً لبولونيا من الاستقلال الاداري. وساعد النمسا على قهر بلاد المجر وألزمها البقاء تحت سلطة النمسا في سنة١٨٤٩ . وأخيراً تسبب بزيادة عدم احترامه لحقوق الدولة العلية في حرب القرم التي اتحدت فيها فرنسا وإنكلترا مع الدولة ضده وانتهت بسقوط قلعة سيبستابول في أيدي المتحالفين وإمضاء معاهدة باريس في ٣٠ مارث سنة ١٨٥٦ المدرجة في هذا =

مع انكلترا التي كان قصدها منع الحرب بين الدولتين اضطر الباب العالي الى التصديق على معاهدة (آق كرمان) في ٢٨ صفر سنة ١٢٤٢ (١ اكتوبر سنة ١٨٢٦) وملخصها: أن يكون للروسيا حق الملاحة في البحر الأسود والمرور من البوغازين بدون أن يكون للدولة وجه في تفتيش سفنها وأن تنتخب حكام ولايتي الأفلاق والبغدان بمعرفة الأعيان لمدة سبع سنوات مع عدم جواز عزلهما أو أحدهما الا باقرار الروسيا وأن تكون ولاية الصرب مستقلة تقريباً وأن لا تحتل العساكر التركية الا قلعة بلغراد وثلاث قلاع أخرى. ولم يذكر بهذه المعاهدة شيء عن اليونان لايجاد سبب للاشكال في المستقبل، بل اتفقت الروسيا وانكلترا على استعمال كل نفوذهما لوضع حد للحروب المستمرة بها ولو كره الباب العالي ووافقتهما دول النمسا والبروسيا وفرنسا، وهذا نص اتفاق آق كرمان .

اتفاق آق كرمان

البند الأول : جميع قيود واشتراطات معاهدة الصلح المبرمة في بخارست بتاريخ (٢٤ اكتوبر سنة ١٨٣١) قد تقررت بهذا الاتفاق الحالي من حيث قوتها الجوهرية ومبناها كما لو كانت معاهدة بخارست هذه ذكرت فيه كلمة فكلمة إذ أن الغرض من الايضاحات التي هي موضوع هذا الاتفاق الحالي ليس الا تحديد معنى بنود المعاهدة المذكورة بالضبط وتقوية دعائمها .

البند الثاني : حيث أن ما جاء في البند الرابع من معاهدة بخارست بخصوص تحديد تخوم الدولتين في الجزيرتين العظيمتين الموجودتين بالدانوب أمام مدينتي اسماعيل وكلي اللتين مع استمرارهما ملكاً للباب العالي كان تقرر بقاء جزء منهما قاحلاً غير آهل بالسكان علم فيما بعد عدم امكان تنفيذه نظراً للموانع الناشئة عن فيضان النهر، حيث ثبت بالتجربة ضرورة إقامة حدّ فاصل ثابت ذي امتداد كاف بين سكان الشواطىء المملوكة للطرفين لمنع حصول أي اختلاط بينهم فتنقطع بهذه الواسطة كافة المنازعات والارتباكات المستمرة التي تنتج

= الكتاب. وتوفي هو أثناء الحرب في ٢ مارث سنة ١٨٥٥ .

عنها فتعهد الباب العالي العثماني مجاملة لحكومة الروسيا الملوكية ورغبة في اظهار صريح رغبته المخلصة في توثيق عري الصلات الحبية بين الدولتين ومراعاة لحسن الجوار بأن يجري ويحافظ على النظام الذي اتفق عليه بهذا الصدد في القسطنطينية بين مبعوث الروسيا ووزراء الباب العالي في المؤتمر المنعقد بتاريخ (٢١ أغسطس سنة ١٨١٧) وفقاً للنصوص المدونة، وعلى ذلك فالنصوص المذكورة في هذا المحضر بالنسبة لموضوع بحثنا كأنها جزء متمم للاتفاق الحالي.

البند الثالث: بما أن التعهدات والعقود المختصة بالامتيازات التي تتمتع بها البغدان والأفلاق قد تقرّرت بقيد خصوصي في البند الخامس من معاهدة بخارست فالباب العالي يتعهد تعهداً صريحاً بأن يراعي تلك الامتيازات والتعهدات والعقود في كل حين بالصداقة التامة ويعد بأن يجدد الخطوط الشريفة المحرّرة في سنة ١٨٠٢ التي خصصت وضمنت الامتيازات المذكورة وذلك في مسافة ستة شهور تمضي من تاريخ التصديق على الاتفاق الحالي وزيادة على ذلك فانه بالنظر الى المصائب التي تحملتها هاتان الولايتان بسبب الحوادث الأخيرة. وبالنظر الى اختيار بعض أشراف البغدانيين والأفلاقيين لأجل أن يكونوا لهاتين الامارتين ونظراً لأن حكومة الروسيا الملوكية قد قبلت هذا الانتخاب فقد حصل الاعتراف من الباب العالي والروسيا بأن الخطوط الشريفة المذكورة سابقاً الصادرة في سنة ١٨٠٢ يجب من كل بدّ تكملتها بواسطة القيود المدونة بالعقد المنفصل المرفق بهذا الذي اتفق عليه بين مندوبي الطرفين السياسيين والذي يعتبر جزءاً متمماً للاتفاق الحالي.

البند الرابع: اشترط في البند السادس من معاهدة بخارست أن تحدّد التخوم بين الدولتين المتعاقدتين من جهة آسيا بالكيفية التي كانت عليها سابقاً قبل الحرب وأن تعيد حكومة الروسيا الامبراطورية الى الباب العالي الحصون والقلاع الكائنة ضمن هذه التخوم التي فتحتها جنود الروسيا أثناء الحرب. فبناء على هذا الشرط ونظراً لكون حكومة الروسيا الامبراطورية قد أخلت وأعادت بعد الصلح مباشرة الحصون المشار إليها التي كانت أخذت في أثناء الحرب من جنود الباب العالي، فقد اتفق الطرفان بأنه من الآن فصاعداً تبقى التخوم الآسيوية

بين المملكتين كما هي عليه الآن وأنه قد تحدّد ميعاد سنتين لاتخاذ الوسائل الناجعة من الطرفين في المحافظة على سكينة وأمن الرعايا التابعة لكل منهما .

البند الخامس : بما أن الباب العالي العثماني يرغب في أن يبرهن للحكومة الروسية الامبراطورية على ميله الودي وتيقظه التام لاتمام كافة شروط معاهدة بخارست فسيشرع في إجراء جميع قيود البند الثامن من المعاهدة المذكورة المختصة بالأمة الصربية التي لكونها من قديم الزمان تابعة للباب العالي وتدفع له الخراج تستحق أن تنال في كل حين بواعث رحمته واكرامه، فعلى هذا ينظم الباب العالي مع مندوبي الامة الصربية الطرق التي يحكم بأنها أكثر موافقة لتأمين تلك الأمة على الامتيازات التي اشترطت لصالحها فإن التمتع بهذه الامتيازات يكون في آن واحد مكافأة عادلة وأعظم باعث لصداقتها التي برهنت عليها هذه الأمة نحو المملكة العثمانية. وحيث رؤي أن ميعاد ثمانية عشر شهراً ضروري للشروع في التحقيقات التي يقتضيها هذا الموضوع بناء على العقد المنفصل المرفق معهذا، المتفق عليه بين مندوبي الطرفين السياسيين، فتقرر الطرق السالف ذكرها بالاتفاق مع الوفد الصربي المنتدب الى القسطنطينية ويصدر بها فرمان عالي محلى بالخط الشريف الهمايوني ويجري مقتضاه بالدقة في أقصر مدّة ممكنة وغايتها مدّة الثمانية عشر شهراً السالف ذكرها. وهذا الفرمان يرسل لحكومة الروسيا الامبراطورية وحينئذ يعتبر كجزء متمم للاتفاق الحالي .

البند السادس : حيث أنه بمقتضى الاشتراطات الخصوصية المذكورة في البند العاشر من معاهدة بخارست جميع قضايا وطلبات رعايا أحد الطرفين التي كانت أخرت بسبب حصول الحرب يجب الشروع فيها وانهاؤها أيضاً. وحيث أن الديون التي يمكن أن تكون لرعايا كل طرف على الطرف الآخر وكذا المسائل المختصة بالخراج يجب فحصها والفصل فيها بالمطابقة للعدالة من كل الوجوه وتصفيتها تماماً بالسرعة، فقد اتفق على أن جميع قضايا وطلبات الرعايا الروسيين بسبب الخسائر التي تكبدوها بأسباب غزو قراصنة المغاربة والمصادرات التي حصلت في وقت انقطاع العلاقات بين الدولتين في سنة ١٨٠٦ والاجراءآت الأخرى التي من هذا القبيل بما فيها ما وقع منذ سنة ١٨٢١ يعمل عنها تصفية

ويعطي عنها التعويضات العادلة. وللوصول لهذا الغرض ينتدب الطرفان بدون امهال مأمورين يحققون الخسائر ويعينون مقدار التعويض اللازم عنها. ولما تنتهي أعمال هؤلاء المأمورين يرسل المجموع الذي يتكون من التعويضات السابق ذكرها إجمالياً لسفارة الروسيا بالقسطنطينية في ميعاد ثمانية عشر شهراً من ابتداء تاريخ التصديق على الاتفاق الحالي وبمثل ذلك يكون الحال بالنظر لرعايا الباب العالي .

البند السابع : حيث أن القيام بتعويض الخسائر التي حصلت لرعايا وتجار دولة الروسيا الامبراطورية ،بسبب قراصنة ايالات الجزائر وتونس وطرابلس، والعمل بشروط المعاهدة التجارية بكل دقة وصحة وبالبند السابع من معاهدة ياش، من أهم واجبات الباب العالي بمقتضى العبارات الصريحة المذكورة في البند الثاني عشر من معاهدة بخارست الذي بانضمامه الى البند الثالث يقوي ويؤكد جميع الاتفاقات السابقة، فالباب العالي يكرر بكل صراحة وعده باتمام تعهداته من الآن فصاعداً بالصداقة التامة للغاية وينبني على ذلك ما يأتي :

أولاً : يعتني الباب العالي اعتناء تاماً بمنع قراصنة المغرب من تعطيل التجارة والملاحة الروسية بأي حجة كانت . فإذا حصل منهم شيء فبمجرد علم الباب العالي بحدوثه يتعهد من الآن بأن يقوم بإعادة جميع المأخوذات التي استولى عليها أولئك بدون أدنى تأخير وأن يعوّض على الرعايا الروسيين ما لحقهم من الخسائر وأن يحرر بهذا الصدد فرماناً صارماً الى بلاد المغاربة بحيث لا تدعو الضرورة تكراره مرّة ثانية، وفي حالة ما إذا لم ينفذ مفعول هذا الفرمان فيدفع مقدار التعويض من الخزينة الملوكية في مسافة الشهرين المنصوص عنهما في البند السابع من معاهدة ياش ابتداء من تاريخ يوم الطلب الذي يقدم بهذا الشأن من وزير الروسيا بناء على التحقيق الذي يكون قد أجراه .

ثانياً : يعد الباب العالي بأن يلاحظ بغاية الدقة جميع شروط المعاهدة التجارية السابق ذكرها وأن يمحي جميع الموانع المضادّة للمبنى الصريح لهذه الاشتراطات، وأن لا يتسبب في إحداث العراقيل في طريق ملاحة السفن التجارية الحاملة للعلم الروسي في جميع بحار ومياه المملكة العثمانية بدون استثناء مطلقاً. وبالاختصار

أن يسعى في تمتع تجار الروسيا وقباطين مراكبها وجميع رعاياها عموماً بالامتيازات والخصوصيات وكذلك بالحرية التامة في التجارة بما أن هذه الأمور نص عنها نصاً صريحاً في المعاهدات الموجودة بين الطرفين .

ثالثاً : حيث أنه بمقتضى البند الأوّل من المعاهدة التجارية الذي يضمن لجميع الرعايا الروسيين عموماً حرية الملاحة والتجارة في جميع ممالك الباب العالي سواء كان براً أو بحراً وفي كل مكان يريدون الملاحة والتجارة فيه، وحيث انه بالنظر للقيود المذكورة في بندي (٣١ و٣٥) من المعاهدة المشار إليها التي تضمن حريّة المرور من قنال القسطنطينية للسفن التجارية المشحونة بالمؤنات أو ببضائع أخرى أو بمحصولات الروسيا أو بمحصولات الممالك الأخرى الغير تابعة للدولة العثمانية وكذلك حرية التصرف في هذه المؤنات والبضائع والمحصولات فالباب العالي يتعهد بأن لا يقيم عقبات ولا موانع في أن المراكب الروسية المشحونة بالغلال أو بمؤنات أخرى عند وصولها في قنال القسطنطينية وفي وقت الاقتضاء تتمكن من نقل ما بها الى مراكب أخرى، سواء كانت روسية أو تابعة لأمم أخرى أجنبية لكي تنقل خارجاً عن ممالك الباب العالي .

رابعاً : يجيز الباب العالي بناء على توسط حكومة الروسيا الامبراطورية قياساً على ما سبق دخول البحر الاسود لمراكب الحكومات المتحابة مع الدولة العثمانية التي لم تحصل لغاية الآن على هذا الامتياز بحيث أن توريد التجارة الى الروسيا بواسطة هذه السفن وتصدير المحصولات عليها لا يمكن أن يحصل له أدنى تعطيل .

البند الثامن : بما أن الغرض من الاتفاق الحالي هو إيضاح وتكملة معاهدة بخارست فيصدق عليه من جلالة امبراطور وبادشاه جميع الروسيا ومن جلالة ملك وبادشاه العثمانيين بواسطة اعتمادات صريحة موشاة على حسب العادة بعلامتهما الخصوصية .ويصير تبادل التصديق بين مندوبي الطرفين السياسيين في ميعاد أربعة أسابيع أو أقل ان أمكن ابتداء من اليوم الذي يتم فيه هذا الاتفاق.

تحريراً بآق كرمان في ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٢٦ .

العقد المنفصل المختص بالافلاق والبغدان

بما أن ولاة البغدان والأفلاق يختارون من بين أشراف الوطنيين فانتخابهم يكون في كل من هاتين الولايتين من الآن فصاعداً بتصديق وإرادة الباب العالي بواسطة جمعيات الديوان العمومية بحسب عادة البلاد القديمة وديوان كل ولاية بصفة أنهم نائبون عن الأمة باتحادهم مع عموم السلطان. ينتخبون لوظيفة وال أحد الأشراف العريقين في الأقدمية والذين يكونون أكثر كفاءة للقيام جيداً بأعباء ولايتهم ثم أنهم يقدّمون الى الباب العالي محضراً بمن وقع عليه الانتخاب فإذا قبل الباب العالي تعيينه فيعين والياً ويستلم براءة تثبيته. واذا اتفق أنه لاسباب قوية وجد المنتخب غير موافق لرغبة الباب العالي في هذه الحالة بعد تحقيق هذه الأسباب بمعرفة الدولة العلية والروسية يسمح للاشراف المذكورين بأن يشرعوا في انتخاب شخص آخر موافق. ومدة تولية الوالي تحدد دائماً كما في الماضي بسبع سنوات كاملة من تاريخ يوم التعيين ولا يمكن رفعهم قبل هذا الميعاد. واذا ارتكبوا في مدة حكمهم بعض جنايات فالباب العالي يخبر عنها وزير الروسيا وبعد إجراء التحقيق بواسطة الطرفين وظهور ادانة الوالي يسمح برفعه في هذه الحالة فقط .

الولاة الذين يتمون مدّة تعيينهم التي هي سبع سنوات بدون أن يبدو منهم أي أمر يوجب شكوى مهمة وحقيقية سواء كان بالنسبة للدولتين أو بالنسبة لولايتهم يعينون من جديد لسبع سنوات أخرى إذا طلبت دواوين الولاية تعيينهم من الباب العالي وإذا اتضح رضا عموم الأهالي عنهم .

اذا اتفق أن أحد الولاة استعفى قبل انتهاء ميعاد السبع سنوات بسبب الهرم

أو المرض أو لأي سبب آخر فالباب العالي يخبر بذلك حكومة الروسيا ويحصل الاستعفاء بموجب اتفاق الدولتين عليه من قبل .

عزل أي وال بعد انتهاء مدته أو تنازله يستوجب سقوط عنوانه ويمكنه أن يعود ثانياً الى طبقة الأشراف بشرط أن يبقى ساكتاً ومطمئناً ولكن لا يجوز له أن يصير عضواً في الديوان ولا أن يؤدي أي وظيفة عمومية ولا أن ينتخب والياً ثانياً .

أولاد الولاة المعزولين أو المستعفين يحفظون صفة الاشراف ويمكنهم أن يشتغلوا بمصالح البلاد وأن ينتخبوا ولاة في حالة عزل أو استعفاء أو موت أحد الولاة . ولغاية تعيين خلف له يعين ديوان تلك الولاية قائم مقام يكلف بادارة تلك الولاية .

من حيث أن الخط الشريف المحرر في سنة ١٨٠٤ ألغى الأموال الأميرية والتعيينات السنوية والمطالب الرسمية التي أدخلت منذ سنة ١٧٨٣، فالولاة بالاشتراك مع إشراف دواوينهم يعينون ويجددون الأموال الأميرية والضرائب السنوية في ولايتي البغدان والأفلاق مع اعتبار الضرورات التي تدوّنت بموجب الخط الشريف المحرر في سنة ١٨٠٢ أساساً لذلك . ولا يجوز للولاة في أيّ حالة كانت أن يقصروا في الاجراء بغاية الدقة بمقتضى هذا النظام وعليهم أن يصغوا للملحوظات وزير جلالة السلطان وقناصل الروسيا على أوامرهم سواء كان في هذا الموضوع أو في المحافظة على امتيازات البلاد وخصوصاً في ملاحظة القيود والبنود المدخلة في العقد الحالي .

يعين الولاة بالاتحاد مع دواوينهم عدد العساكر في كل ولاية بمقدار ما كان يوجد منهم قبل حوادث سنة ١٨٢١ ومتى تعين هذا العدد فلا يمكن أن يزاد فيه بوجه ما ، مالم يعترف الطرفان بأهمية الضرورة الملجئة الى ذلك . ومن الواضح أن تكوين العساكر وتشكيلهم يستمر بالكيفية التي كانوا عليها قبل تلك الحوادث وأن يستمر انتخاب الأغوات (الضباط) وتعيينهم على حسب الطريقة المتبعة قبل الوقت المذكور . وأخيراً فان العساكر وأغواتهم لا يقومون مطلقاً الا بالوظائف التي تحدّدت لهم في حال الأصل ولا يجوز لهم التدخل في أمور البلاد ولا في أي أعمال أخرى .

الاغتصابات التي وقعت في أراضي الأفلاق من جهة ابرايل وجيرجيو[1] أو فيما بعد نهر الأولتا[2] يصير ،إعادتها لمالكيها ويحدّد ميعاد لهذه الاعادة في الفرمانات المختصة بها التي تصدر لأصحاب الشأن .

الأشراف الذين رأوا أنفسهم مجبورين على ترك وطنهم بسبب الفتن الأخيرة يمكنهم أن يعودوا إليها باختيارهم بدون أن يحصل لهم أدنى تشويش من أيّ شخص ويشرعون في التمتع الكامل المطلق بحقوقهم واختصاصاتهم وأموالهم وأملاكهم كما في الماضي .

ويمنح الباب العالي لولايتي البغدان والأفلاق مدة سنتين يعفيهما في أثنائهما من الأموال الأميرية والتعيينات السنوية الملزمتين بدفعها إليه ، وذلك بالنظر الى المصائب التي أثقلت كاهلها بسبب القلاقل الأخيرة ، ومتى انتهت مدة الاعفاء السالف ذكرها فالجزية والتعيينات المذكورة يصير تسديدها بحسب المعدّل المعين بالخط الشريف المحرّر في سنة ١٨٠٢ ولا يمكن زيادتها في حال من الأحوال .

ويمنح الباب العالي أيضاً لسكان الولايتين حرّية الاتجار بجميع محصولات أراضيهم وصناعتهم فيتصرّفون في ذلك كيف يشاؤون ما عدا القيود المختصة من جهة بالتعيينات الواجبة سنوياً للباب العالي الذي يعتبر هاتين الولايتين كمخازن له، ومن جهة أخرى بمؤونة القطر نفسه. أما جميع تعليمات الخط الشريف المحرر في سنة ١٨٠٢ المختصة بهذه التعيينات وبتسديدها بالانتظام وبالأثمان الجارية التي تخصم لهم على حسابها، والتي تحديدها في حالة التنازع يختص بدواوين كل ولاية، فيجري مقتضاها بكل دقة وتعتبر في المستقبل بضبط تام .

وينبه على الأشراف أن ينفذوا أوامر الولاة وأن ينقادوا لهم تمام الانقياد. وأما من جهة الولاة فانهم لا يمكنهم أن يعاملوا الاشراف بعنف بالميل مع أهوائهم

(١) جاءت من قبل هكذا جيورجيو .

(٢) هو من روافد نهر الطونة ويصب فيه بالقرب من مدينة نيكوبلي .

وأن لا يعاقبوهم بدون وجه حق وبدون أن يكونوا ارتكبوا جرائم مثبوتة ولا يترتب عليهم عقاب الا بعد أن يحاكموا بحسب قوانين وعوائد البلاد .

بما أن الانقلابات التي وقعت في السنين الأخيرة بولايتي البغدان والأفلاق كان لها تأثير سيء جداً بالنظام في فروع الادارة المختلفة الداخلية، فعلى الولاة أن يشتغلوا بدون أدنى إمهال مع دواوينهم في اتخاذ التدابير اللازمة لتحسين حالة الولايتين المعهود ادارة شؤونهما الى مهارتهم. وهذه التدابير يعمل عنها نظام عمومي لكل ولاية يجري مقتضاه بدون تأخير. أما الحقوق والامتيازات الأخرى لولايتي البغدان والأفلاق وجميع الخطوط الشريفة التي تختص بهما فانه يستمر مراعاتها ما دام الاتفاق الحالي لا يغير منها شيئاً .

فلهذا نحن الموقعين على هذا المفوّضين السياسيين عن جلالة امبراطور وبادشاه جميع الروسيا المؤيدين بالأوامر الجليلة الملوكية بالاتحاد مع المفوّضين السياسيين عن الباب العالي العثماني قد قررنا ونظمنا الأصول المذكورة أعلاه بخصوص البغدان والأفلاق، وتلك الأصول هي نتيجة البند الثالث من الاتفاق المقرر لمعاهدة بخارست الذي أبرم مشتملاً على ثمانية بنود في المؤتمرات المنعقدة بآق كرمان بيننا وبين المفوضين السياسيين العثمانيين فبناء على ذلك الخ .

العقد المنفصل الخاص بالصرب

بما أن قصد الباب العالي الوحيد هو أن يجري مفعول الاشتراطات المذكورة في البند (٨) من معاهدة بخارست بكل صداقة، فقد سمح للمندوبين الصربيين في القسطنطينية بأن يقدموا له طلبات امتهم بخصوص المواضيع الأكثر موافقة لتشييد دعائم الاطمئنان ورفاهية البلاد فكان هؤلاء المندوبون قد عرضوا في بادىء الأمر في عريضتهم ما تتمناه الأمة بالنسبة لبعض هذه المواضيع مثل حرية الأديان وانتخاب رؤسائها واستقلال إدارتها الداخلية وانضمام الاقسام المنفصلة عنها وتوحيد الأموال الأميرية المتنوعة الى نوع واحد وتسليم ادارة استغلال العقارات المملوكة لبعض المسلمين الى الصربيين بشرط أن يدفعوا عنها جعلاً معيناً ضمن الخراج وحرية التجارة والتصريح للتجار الصربيين بالسفر في الممالك العثمانية

ببطاقات الجواز الخصوصية بهم وتشييد الاسبتاليات (المشافي) والمدارس والمطابع وأخيراً منع المسلمين الغير داخلين في زمرة العسكرية من التوطن بالصرب لكن عند فحص الطلبات المبينة سابقاً وتنظيمها قد حصلت موانع أوجبت تأجيلها، وبما أن الباب العالي لا يزال ثابتاً للآن بعزم راسخ في أن يمنح الأمة الصربية الفوائد المشترطة في البند (٨) من معاهدة بخارست فسيقرر بالاتحاد مع المندوبين الصربيين بالقسطنطينية الطلبات المذكورة أعلاه الصادرة عن أمة صادقة ومنقادة له وكذا جميع الطلبات الأخرى التي ترفع إليه بواسطة الوفد الصربي ما دامت لا تناقض في شيء لصفة التابعية للدولة العثمانية .

على الباب العالي أن يخبر الدولة الروسية الامبراطورية عن طريقة الاجراء التي يقتضيها البند (٨) من معاهدة بخارست وأن يرسل لها الفرمان المحلى بالخط الشريف الذي به تمنح الفوائد السابق الكلام عليها .

فلهذا نحن الموقعين على هذا المفوضين السياسيين عن جلالة امبراطور وبادشاه جميع الروسيا مؤيدين بالأوامر الجليلة الملوكية باتحادنا مع المفوضين السياسيين عن الباب العالي العثماني قد قررنا ونظمنا الأصول المذكورة أعلاه التي هي نتيجة البند (٥) من الاتفاق التفسيري والمقرر لمعاهدة بخارست المبرمة بيننا وبين المفوضين السياسيين العثمانيين في المؤتمرات المنعقدة بآق كرمان والمشتمل على ثمانية بنود فبناء على ذلك الخ .

واقعة ناورين

وفي ٨ رجب سنة ١٢٤٢ (٥ فبراير سنة ١٨٢٧) عرضت انكلترا رسمياً على الدولة العلية توسط جميع الدول بينها وبين متبوعيها فلم تقبل ذلك بل أجابت سفير الانكليز بتاريخ ١٥ القعدة سنة ١٢٤٢ (١٠ يونيو سنة ١٨٢٧) بعد التروي والتأمل في عاقبة هذا التدخل انها لم تسمح ولن تسمح به مطلقاً. فاغتاظت الدول من هذا الجواب الحق واتفقت كل من فرنسا وانكلترا والروسيا بمقتضى وفاق تاريخه ١١ الحجة سنة ١٢٤٢ (٦ يوليو سنة ١٨٢٧) على الزام الباب العالي بالقوّة بمنح بلاد اليونان استقلالها الاداري بشرط أن يدفع اليونانيون جزية

معينة يتفق على مقدارها فيما بعد كما يتفق على حدود الفريقين. وأمهل الباب العالي شهراً لإيقاف الحركات العدوانية ضد اليونان والا فتضطر الدول لاتخاذ طرق أخرى لنفاذ مرغوبها، ولما بلغت صورة هذه المعاهدة الى الباب العالي لم يحفل بها. وبعد انقضاء الشهر أصدرت الدول الثلاث أوامرها الى قوّاد أساطيلها التوجه لسواحل اليونان وطلبت بعد ذلك من ابراهيم باشا الكف فوراً عن القتال، فأجابهم أنه لا يتلقى أوامر إلا من سلطانه أو أبيه. ومع ذلك فانه قبل إيقاف الحرب مدّة عشرين يوماً ريثما تأتيه تعليمات جديدة. وتربص هو وجنوده على أهبة القتال. واجتمعت سفن الثلاث دول المتحالفة في ميناء ناورين لمنع الدونانمتين التركية والمصرية من الخروج منها.

وفي ٢٨ ربيع أول سنة ١٢٤٣ (١٩ اكتوبر سنة ١٨٢٧) تكامل اجتماع سفن الدول المتحدة وكانت الدونانمة الفرنساوية تحت قيادة الأميرال (ريني) والروسية تحت امرة الأميرال (هيدن). وكان اللورد كودرنجتون أميرالاً للأساطيل الانكليزية وقائداً عاماً لمراكب الدول بالنسبة لأقدميته في الوظيفة عن زميليه الفرنساوي والروسي، ولم تلبث السفن مقابلة لبعضها حتى انتشبت نيران الحرب بين الفريقين لسبب واه وسلطت جميع السفن الأوروبية مدافعها على المراكب التركية والمصرية بعد أن استمر القتال عدة ساعات. والسبب في حدوث هذه الموقعة على ما جاء به المؤرخون أن إحدى الحراقات التركية اقتربت في أثناء المناورات الابتدائية من إحدى البوارج الانكليزية فأرسل قبطانها ضابطاً في زورق ليستعلم عن سبب اقترابها فأطلق عليه أحد الجنود التركية رصاصة قتلته. وعند ذلك اقتتلت السفينتان وامتدّ لهيب الحرب الى باقي السفن حتى انتهت بانتصار الدول المتحدة. وما كانت تقصد فرنسا بتظاهرها هذا الا اكتساب الاسم والفخر بعد ما ألم بها عقب حروب نابوليون وارجاعها الى حدودها الأصلية سنة ١٨١٥ وتدخلت انكلترا خوفاً من استئثار فرنسا بالنفوذ في الشرق ولذا فلم تعد فوائد هذه الواقعة إلاعلى الروسيا فقط.

ولما وصل خبر هذه الحادثة التي حصلت بدون إعلان حرب كما هي العادة

بين الدول المتمدنة الى الباب العالي أرسل بلاغاً الى سفراء هذه الدول الثلاثة يقيم فيه الحجة ضدّ هذا العمل المخالف للقوانين الدولية ويطلب بـه أن تمتنـع الدول كلية عن التدخل في شؤون الممالك المحروسة وأن تدفع له تعويضاً عن الخسائر التي نجمت من تدمير المراكب العثمانية فلم يجاوب السفراء على هذا البلاغ بل قطعوا العلائق مع الباب العالي ونزلوا الى مراكبهم مسرعين في ٨ دسمبر سنة ١٨٢٧. وفي ١٨ منه نشر السلطان في جميع الولايات منشوراً عاماً (خط شريف) يبين فيه سوء مقاصد الدول عموماً، والروسيا خصوصاً، نحو الدولـة العلية ، أي الدولة الاسلامية الوحيدة ، مثبتاً للأهالي على أن الباعث على هـذا العدوان الدين لا السياسة وختمه بحض المسلمين على القتال دفاعاً عن الدين والملة والوطن، فاغتاظت الروسيا لذلك وأعلنت الحرب على الدولة في ١١ شوّال سنة ١٢٤٣ (٢٦ ابريل سنة ١٨٢٨) .

خروج العساكر المصرية من موره

هذا ولما رأى ابراهيم باشا تألب الدول على الدولة العلية وأن فرنسا أمرت بارسال جيش عظيم لمحاربته وتتميم استقلال اليونان اتفق في ٢١ محرم سنة ١٢٤٤ (٣ أغسطس سنة ١٨٢٨) بناء على أوامر والده مع الدول المتحدة على إخلاء موره والرجوع الى مصر على ما بقي من السفن المصرية غير تارك فيها سوى ألف ومائتي جندي للمحافظة على مودون وكورون وناورين ريثما تستلمها العساكر العثمانية. وفي ٢٦ صفر (٧ سبتمبر التالي) ابتدأ انسحاب الجنود المصرية وكانت كلما أخلت محلا دخله الفرنساويون الذين نزلوا ببلاد اليونان في ١٧ صفر (٢٩ أغسطس) تحت قيادة الجنرال (ميزون). وبذلك انتهت مأمورية ابراهيم باشا التي كادت تتم على يديه ومن معه من الجنود المصرية لولا اتفاق الدول على سلخ هذه الولاية المهمة من أملاك الدولة، سعياً وراء اضعافها حتى يتمكنوا من تنفيذ مـآربهم. وفي ٨ جمـاد أوّل سنة ١٢٤٤ (١٦ نوفمبر سنـة ١٨٢٨) عقدت الدول الثلاث مؤتمراً في مدينة لندن لتقرير أحوال اليونان ودعت إليه الدولة

فأبت عن ارسال مندوب من طرفها حتى لا يعد ذلك إقراراً منها على ما يتفق عليه وما فعلوه من مساعدة اليونان على الاستقلال .

فلم تعيا الدول بهذا الإباء بل اجتمع مندوبوها في اليوم المعين واتفقوا على استقلال موره وجزائر سكلاده [1] واجتماعها على هيئة حكومة مستقلة يحكمها أمير مسيحي تنتخبه الدول ويكون تحت حمايتها، وعلى أن تدفع الحكومة اليونانية للباب العالي جزية سنوية قدرها خمسمائة ألف قرش. فلم يقبل الباب العالي هذا القرار الصادر من دول غير مختصة فيما يقع بينه وبين متبوعيه واشتغل بمحاربة الروسيا التي أعلنت الحرب عليه بعد أن دمرت دونانمته وقبل أن يتم استعداد الجيش النظامي الجديد الذي أخذ في انشائه وتدريبه بعد الغاء طائفة الانكشارية كلية. ولنقف هنا هنيهة نأتي فيها بذكر ما حصل عند الغائها من الحروب الداخلية وكيفية الوصول الى هذه الغاية الحميدة .

إلغاء طائفة الانكشارية

لما تحقق السلطان محمود أفضلية النظامات العسكرية المستعملة في جيوش أوروبا وسمع بما أتته الجنود المصرية المنتظمة من الأعمال الباهرة في محاربة موره وعلم أن انتصارات ابراهيم باشا على اليونانيين لم تكن الا نتيجة النظام العسكري، زاد تعلقه باصلاح العسكرية وأراد اتمام المشروع الذي لم يمكن السلطان سليم الثالث اتمامه، فجمع جميع ذوات وأعيان المملكة وكبار ضباط الانكشارية في بيت المفتي في أوائل سنة ١٨٢٦ مسيحية (سنة ١٢٤١ هجرية) .

ولما تكامل الحضور خطب فيهم الصدر الأعظم سليم محمد باشا مظهراً ما وصلت إليه حالة الانكشارية من الضعة والانحطاط وعدم الانقياد لرؤسائها حتى صارت من أكبر دواعي تأخر الدولة العلية بازاء تقدّم الدول الأوروبية المستمرّ، بعد أن كانت هذه الفئة من أكبر عوامل تقدّم الدولة وامتداد فتوحاتها. ثم أبان لهم ضرورة إدخال النظام العسكري في أورط الانكشارية اذ لا يمكنها

---

(١) هي مجموعة من الجزائر أمام شبه جزيرة مورا شرقاً .

بحالتها الحالية الوقوف أمام الجيوش الأوروبية المنتظمة .

فلما اقتنع الحاضرون بإصابة فكره وضرورة إصلاح الجندية وأقرّوا على هذا المبدأ الحسن قام كاتب سر (مكتوبجي) الصدر الأعظم وتلا عليهم مشروعاً محتوياً على ستة وأربعين بنداً ذكر بها بكل ايضاح كيفية التنظيمات المراد إدخالها. وبعد إقرار الجمعية عليه حرر بذلك محضراً ختمه جميع الحاضرين حتى ضباط الانكشارية وأفتى بجواز العمل بها شرعاً ومعاقبة من يعارض في انفاذها ثم تلا المشروع على جميع ضباط الانكشارية فأقرّوا عليه. لكن لم تكن موافقتهم الا ظاهرية فقط فانه لما ابتدىء في تعليم الضباط بمعرفة من تعين من ضباط الافرنج بصفة معلمين تنبه الانكشارية الى عواقب الأمر وعلموا أنه لو تم هذا النظام كان سبباً في ضياع كافة امتيازاتهم من جهة، وألزموا بمراعاته مع ما فيه من سلب حرّيتهم من جهة أخرى، أخذوا يستعدّون للثورة والعصيان ليوقفوا تنفيذه كما فعلوا قبلاً واستمالوا بعض الرعاع الذين اتبعوهم طمعاً في السلب والنهب .

ولما كان يوم ٨ ذي القعدة سنة ١٢٤٠ (٢٤ يونيو سنة ١٨٢٦) تعرّض بعضهم للجند وقت التمرين فأصدر السلطان أمره بمعاقبة كل متعرض لهم بالقتل. ولذا تجمع المتعصبون في مساء ذلك اليوم وتآمروا على العصيان .

وكان السلطان في سراي بشكطاش فحضر على الفور سرايته وجمع العلماء وأخبرهم بما ينويه الانكشارية فاستقبحوا عملهم وشجعوه على المقاومة فاستدعى ألآيات الطوبجية التي نظمها نوعاً عقب توليته واستعدّ لقتال الثائرين وعزم على عدم التساهل معهم خوفاً من تفاقم شرورهم واسترسالهم في التمرّد والطغيان .

وفي صباح ٩ ذي القعدة (٢٥ يونيو) أخرج السلطان العلم النبوي الشريف وسار بجنود الطوبجية يتقدّمه العلم الى ساحة (آت ميداني) حيث كان الثائرون مجتمعين في هرج ومرج لا مزيد عليهما وتبعه كثير من العلماء والطلبة. ولم يمض قليل حتى أحاطت الطوبجية بالميدان واحتلت جميع المرتفعات المشرفة عليه وسلطت مدافعها على الانكشارية من كل صوب فخرج جميع الانكشارية وتجمهروا

قاصدين الهجوم على المدافع للاستيلاء عليها فقذفت عليهم من صيب قللها ما أوقعهم في الفشل وأيقنوا معه أن لا طاقة لهم على مقاومتها فعكفوا الى ثكناتهم طالبين النجاة لكن أنى لهم ذلك وقد سلطت أفواه المدافع عليها فهدمتها وأشعلت فيها النيران حتى دمرتها على من التجأ إليها وبذلك انتهت هذه الفتنة المريعة .

وفي اليوم التالي صدر فرمان سلطاني بابطال فئتهم كلية وملابسها وإصطلاحاتها واسمها من جميع الممالك المحروسة ونودي بذلك في الشوارع وصدرت الأوامر الى جميع الولايات بالتفتيش على كل من بقي منهم وإعدامه أو نفيه الى أطراف البلاد حتى لا تبقى منها باقية. ومن ثم أخذ السلطان في ترتيب وتنظيم الجيوش بهمة لم يمسسها ملال، وعين لادخال هذه التنظيمات لجنة من أكابر الوزراء وقلد حسين باشا الذي كانت له اليد الطولى في ابادة الانكشارية قائداً عاماً لهم (سرعسكر). وبذل السلطان ومشيروه اهتمامهم حتى لم تمض السنة الا وقد تم تنظيم عشرين ألفاً وتمت المعدات لابلاغهم في ختام السنة التالية مائة وعشرين ألفاً .

الحرب مع الروسيا ومعاهدة أدرنه

هذا ولنرجع الى ذكر الدولة الروسية وبيان ما تم بالنسبة لليونان واستقلالها فنقول: بمجرد ما أعلنت الروسيا الحرب سارت جيوشها التي كانت منتظرة ومتأهبة على الحدود واجتازت نهر (بروث) الفاصل بين أملاك الدولتين واحتلت مدينة (ياش) عاصمة البغدان .

وفي ٢٨ القعدة سنة ١٢٤٣ (١٣ يونيو سنة ١٨٢٨) دخلت (بوخارست) عاصمة الأفلاق وقبضت على حاكمي الولايتين وصارت ادارتهما في أيدي مندوبين من طرفهما وبعد ذلك احتلت الجيوش الروسية البلاد العثمانية الى نهر الطونه وعدة مدن واقعة على ضفتيه واجتازته بدون كثير ممانعة ثم حاصرت مدينة (وارنه) براً وبحراً لعدم وجود مراكب عثمانية تحميها من جهة البحر بعد واقعة ناورين، وأتى القيصر نقولا بذاته لمراقبة الحصار وبعد قليل سار في جيش عظيم لمحاصرة السرعسكر حسين باشا في مدينة (شومله) واحتل مدينة (اسكي استانبول) للتمكن من كمال محاصرتها. لكن لم يلبث أن رفع عنها

الحصار لما شاهده من انتظام الجيوش الجديدة وجمع كل قواه حول مدينة وارنه. وقد تمكن القبودان باشا عزت محمد من إدخال المدد اليها بحراً رغماً عن مراقبة السفن الروسية ودخل هو أيضاً إليها وتولى الدفاع عنها وأتى من جهة البر السر عسكر حسين باشا لاشغال المحاصرين لها. ولذلك كاد القيصر ييأس من دخولها لولا خيانة أحد القوّاد المدعو يوسف باشا فانه سلمها الى الروس في أوّل ربيع الثاني سنة ١٢٤٤ (١١ اكتوبر سنة ١٧٢٨) والتجأ الى بلادهم فراراً من العقاب وليتمتع بثمرة خيانته. ومن جهة آسيا احتل الروس عدّة قلاع وحصون أهمها قلعة قارص الشهيرة ثم توقف القتال بسبب اشتداد البرد وتراكم الثلوج أوبالاختصار فقد شهد الروس أنفسهم أن نتائج الحرب كانت أقل مما كانوا ينتظرون وما ذلك الا لإلغاء طائفة الانكشارية وترتيب الجيوش الجديدة وإطاعتها لأوامر رؤسائها إطاعة عمياء.

ومما يؤيد ذلك ما كتبه المسيو (بوتزودي بورجو) [1] سفير الحكومة الروسية بباريس في رسالة مؤرخة في نوفمبر سنة ١٨٢٨ وملخصها أن الجنود الروسية لاقت من الجيوش العثمانية الجديدة ما لم تعانه قبلا من الانكشارية. ولو تأخرت الروسيا في إشهار الحرب على الباب العالي سنة واحدة لما أمكنها أن تتحصل على النتائج التي تحصلت عليها في هذه السنة اهـ.

وفي ذلك برهان كاف على إصابة رأي السلطان محمود الغازي واصالة فكره في إلغاء طائفة الانكشارية. لكن لم تكن الجيوش المنتظمة كافية لاستمرار القتال لقلة عددها بالنسبة لجيوش الروسية الكثيرة العدد. ولذلك لما استؤنف القتال

---

(١) ولد هذا السفير في جزيرة كورسيكا سنة ١٧٦٣ قبل ضمها لفرنسا ، وكان معادياً للحكومة الفرنساوية ، فاتحد مع من يدعى (باوولي) على تسليمها للانكليز في سنة ١٧٩٣ ورحل الى انكلترا بعد استرجاعها. ثم دخل في خدمة الروسيا في سنة ١٨٠٣. وفي سنة ١٨٠٥ طرده القيصر بناء على طلب نابليون الأول وأعاده في سنة ١٨١٣. وبعد سقوط نابليون عين سفيراً للروسيا بباريس من سنة ١٨١٤ الى سنة ١٨٣٠ ثم في لوندرة وأخيراً اعتزل الأعمال واستوطن في باريس حيث توفي في سنة ١٨٤٢ .

في ربيع سنة ١٨٢٩ كان الفوز غالباً للجيوش الروسية رغماً عما بذله القوّاد العثمانيون من المهارة في ضروب القتال وما أظهرته الجنود المنتظمة من الثبات والانتظام .

ولنقل باختصار بدون تفصيل جميع الوقائع التي حصلت بين الجيشين في فصلي الربيع والصيف أن الجيوش الروسية اجتازت نهر الطونه، ثم اخترقت جبال البلقان بعد أن تغلبت على من عارضها من الجيوش العثمانية وأخيراً وصلت الى مدينة أدرنه واحتلتها عنوة. وعند ذلك لم يبق أمامها عائق يوقفها عن التقدم الى مدينة الأستانة المحمية الا عدم رغبة الدول في سقوطها في أيدي الروسيا واتفاقها ضمناً على إضعاف الدولة العلية الى حدّ لا يمكنها معه التقدم والارتقاء مع بقائها عقبة في سبيل الروسيا وحاجزاً بينها وبين البحر الأبيض المتوسط. ولذلك لما رأت أن الروس قد اقتربوا منها وصاروا على طريقها وسيصلون إليها لا محالة لو لم يتدخلوا بشدّة تخابرت مع الدولتين المتحاربتين فأوقفت الروسيا جيوشها ودارت المخابرات بينهما بتوسط مملكة بروسيا حتى تم الصلح وأمضيت به معاهدة بمدينة أدرنة في ١٥ ربيع الأوّل سنة ١٢٤٥ (١٤ سبتمبر سنة ١٧٢٩ هذا نصها .

البند ١ : كل عداوة ومجافاة بقيت لغاية الآن بين الدولتين تنقطع من تاريخ هذا اليوم، سواء كانت برّية أو بحرية، ويخلفها الصلح الأبدي والمحبة وحسن الموافقة بين جلالة امبراطور وبادشاه جميع الروسيا وبين عظمة امبراطور وبادشاه العثمانيين وكذا بين الوارثين والمتعاقبين على عرش المملكتين. ويبذل الطرفان الساميان المتعاقدان ما في وسعهما من الانتباه الزائد لمنع جميع ما من شأنه توليد الشقاق بين رعاياهما، ويقومان بتنفيذ جميع شروط معاهدة الصلح الحالية بغاية العناية ويعتنيان أيضاً بأنها لا تنكث بأي كيفية سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة .

البند ٢ : حيث أن جلالة امبراطور وبادشاه جميع الروسيا يريد أن يبرهن لعظمة امبراطور وبادشاه العثمانيين على إخلاص ميوله الودّية فيعيد الى الباب العالي إمارة البغدان بحدودها التي كانت عليها قبل ابتداء الحرب التي انتهت بالمعاهدة الحالية وإمارة الأفلاق ومقاطعة قره‌جه ادوه بدون أيّ استثناء والبلغار

واقليم دوبروجه [1] من الدانوب لغاية البحر ، مع مدائن سيلستريه وحرصو وماجين وايزا كنجه وتولتتا وباباطاغ وبازارجق ووارنه وبرافودي وجميع المدن والضياع والقرى التابعة لها، وجميع بلاد البلقان من أمينه بورنو لغاية قزار، والاقليم الممتدّ من بلاد البلقان الى البحر الأسود مع مدائن سليمنا وتشامبولي وايدا وكرنيات وميسيمبزيا واوكهيولي وبورجاس وسيزيبولي وقرق قلدس وأدرنة ولوله وبورجاس، وأخيراً جميع البلاد والضياع والقرى، وعموماً جميع الأمكنة التي احتلتها جنود الروسيا من بلاد الروملي .

البند ٣ : يستمرّ نهر بروث لأن يكون الحدّ الفاصل بين الدولتين من النقطة التي يمس فيها تخوم البغدان لغاية التقائه مع الدانوب، ومن هذا المكان تتجه التخوم بمحاذاة مجرى الدانوب لغاية مصب ماري جرجس بحيث أن جميع الجزائر المتكوّنة بفروع هذا النهر المختلفة تكون ملكاً للروسيا. وأما الشاطىء الأيمن منه فيبقى تابعاً للباب العثماني كالسابق، ومع ذلك فقد اتفق على أن الشاطىء الأيمن المذكور من المكان الذي فيه ينفصل فرع ماري جرجس عن فرع سولينيه يبقى غير مسكون على بعد ساعتين من هذا النهر وأن لا يشيّد به مبان من أي نوع كان، وكذلك في الجزائر التي تبقى في ملك دولة الروسيا. ويستثنى من ذلك الكورنتينات التي تعمل فيها. ولا يسمح مطلقاً بأن يشيد فيها أي بناء آخر، ولا استحكامات ومراكب الدولتين التجارية يكون لها الحق في الملاحة بالدانوب في جميع طوله والمراكب الحاملة للعلم العثماني يمكنها أن تدخل بدون ممانعة في مصبي قبلي وسولينيه أما مصب ماري جرجس فتمرّ فيه مراكب الدولتين الحربية والتجارية. ولكن المراكب الحربية الروسية لا يمكنها عند صعودها في الدانوب

---

(١) دوبرجه : كان هذا الاسم يطلق على الاقليم الشرقي من رومانيا الذي يحده من الشمال ومن الغرب نهر الطونة وينتهي جنوباً بالقرب من ڤارنا ويحده شرقاً البحر الاسود .

وبعض هذه البلدان قد مر ذكرها وبينّا أماكنها، وما لم نذكره فانه إما أنه ليس مذكوراً على الخرائط لصغره، أو لأن الأسماء قد تغيرت أو تحرفت الى حد الضياع. وعلى كل حال فكل هذه المدن موجودة في القسم الشرقي من بلغاريا ورومانيا وهذا كل ما يجب أن يعرف .

أن تتجاوز محل التقائه مع البروث .

البند ٤ : بما أن مقاطعات الكرج والأمريثيا ومنكريل وجوريل وغيرها من مقاطعات القوزاق منضمة من سنين عديدة وعلى الدوام الى المملكة الروسية، وبما أن هذه الدولة قد اكتسبت بالمعاهدة المبرمة مع دولة العجم ببلدة تورامان جاي في ١٠ فبراير سنة ١٨٢٨ خلاف ذلك خانات أريفان وناخيتشيفان، فالدولتان العليتان المتعاقدتان قد علمتا ضرورة تحديد ممالكهما في هذه الجهة بحيث أن هذا التحديد يكون معيناً تعييناً تاماً ضامناً لاجتناب كل اختلاف أو نزاع في المستقبل. وقد شرعتا من جهة أخرى في اتخاذ الطرق الفعالة لردّ هجمات وصدّ غارات الأمم المجاورة التي كانت تجريها لغاية الوقت الحاضر والتي كانت غالباً السبب الوحيد في نقض الصلات الودية وحسن المجاورة بين الدولتين. وبناء على ذلك فقد اتفق بين حكومتي الدولة الامبراطورية الروسية وبين الباب العالي العثماني بأن تكون حدود ولايات المملكتين بآسيا من الآن فصاعداً خطاً يتبع الحدود الحالية لاقليم جوريل من ابتداء البحر الأسود ثم يصعد لغاية حدود مقاطعة أميريثيا، ومن هناك يعرج نحو الاتجاه الأكثر استقامة لغاية مكان التقاء حدود ولايات اخلتزيك وقارص مع ولايات الكرج، بحيث تكون مدينة اخلتزيك وقلعتها في شمال هذا الخط على مسافة ليست بأقل من ساعتين، أما جميع البلدان الكائنة في الجنوب والغرب من خط التحديد المذكور القريبة من ولايتي قارص وطرابزون بما فيها الجزء الأعظم من ولاية اخلتزيك فانها تبقى على الدوام تحت حكم الباب العالي، وأما البلاد الكائنة في الشمال والشرق من الخط المذكور القريبة من الكرج وأميريثيا وجوريل، وكذلك جميع شواطيء البحر الأسود من مصب نهر قوبان لغاية ميناء ماري نقولا بما فيها هذه الميناء فانها تبقى الى الأبد تحت حكم المملكة الروسية، فبناء على ذلك ترد حكومة الروسيا الامبراطورية الى الباب العالي باقي ولاية اخلتزيك وكذا مدينة وولاية قارص وأيضاً مدينة وولاية بايزيد ومدينة وولاية أرضروم وجميع الأماكن المحتلة لها جيوش الروسيا والتي توجد خارجاً عن الخط المذكور أعلاه .

البند ٥ : حيث أن امارتي البغدان والأفلاق قد قبلتا أن تكونا تحت سيادة

الباب العالي بمقتضى القوانين الأساسية للامارتين، وبما أن دولة الروسيا قد ضمنت نجاحهما، فقد صار الاتفاق على أنهما تحفظان جميع الامتيازات والاختصاصات التي ضمنت لهما سواء كانت بمقتضى القوانين الأساسية للبلاد أو بحسب نص المعاهدات المبرمة بين الدولتين أو المؤيدة بالخطوط الشريفة الصادرة في أزمنة مختلفة. وبناء على ذلك تتمتع هاتان الدولتان بالحرية الدينية وبالأمن العمومي ويكون لهما إدارة أهلية مستقلة بحرية التجارة وأما القيود اللازم اضافتها الى الاشتراطات المتقدّمة لضمان تمتع هذين الاقليمين بحقوقهما فقد اتفق عليها في العقد المنفصل المرفق بهذا المعتبر كجزء من المعاهدة الحالية .

البند ٦ : بما أن الظروف التي حصلت من ابتداء عقد اتفاق آق كرمان لم تسمح للباب العالي بالاهتمام في تنفيذ ما جاء بالعقد المنفصل المختص بالصرب الملحق بالبند (٥) من الاتفاق المذكور فهو يتعهد بكيفية جلية بأن يقوم بتتميمها بدون أدنى إمهال وبالضبط الأتم، وخصوصاً في أن يعيد الستة أقسام المنفصلة عن الصرب اليها حتى تتمتع هذه الأمة الصادقة الطائعة بالراحة والرفاهية. أما الفرمان الموشى بالخط الشريف الذي يصدر بتنفيذ القيود المذكورة فيرسل الى دولة الروسيا الامبراطورية وتعلن به رسمياً في ميعاد شهر من تاريخ التصديق على هذه المعاهدة .

البند ٧ : يتمتع رعايا الروسيا في سائر أنحاء المملكة العثمانية برّاً وبحراً بحرّية التجارة التامة التي تكفلها لهم المعاهدات المبرمة سابقاً بين الدولتين العظيمتين المتعاقدين ولا يصح مس حرية التجارة بأيّ وجه كان ولا يمكن أن تعطل في أي حال من الأحوال ولا بأي حجة كانت ولا يضيق نطاقها مطلقاً ولا بسبب أي قرار أو تعديل سواء كان من جهة الادارة أو من جهة القضاء في داخلية البلاد. والرعايا والسفن والتجار الروسيون يكونون في حمى من كل شدّة في المعاملة. ويبقى الرعايا الروسيون تحت السلطة القضائية والبوليس الخاصين بوزير وقناصل الروسية، وأما المراكب الروسية فلا يحصل بها مطلقاً أيّ تفتيش من جهة الحكومة العثمانية لا في شاسع البحار ولا في داخل أي ميناء أو مورده[1] مما

(١) لعله يقصد بالموردة المصدّرة .

يدخل تحت حكم الباب العالي.وكل أنواع المتجر أو الغلال المملوكة لأحد رعايا الروسيا يمكن بيعها بكل حرية بعد تسديد عوائد الجمارك عنها بمقتضى التعريفات أو أن تنزل الى البر في مخازن صاحبها أو عميله بل ويصح نقلها على سفن أخرى أيا كانت جنسيتها بدون أن يحتاج التابع الروسي في هذه الحالة لأن يشعر الحكومة المحلية ولا أن يطلب إذناً بذلك مطلقاً.وقد اتفق اتفاقاً صريحاً على أن أنواع القمح الآتية من الروسيا تتمتع بنفس هذه الامتيازات وان نقلها من أراضي الدولة لأي جهة لا يحصل فيه أقل صعوبة أو ممانعة مطلقاً ولا بأي حجة.وما عدا ذلك فيتعهد الباب العالي بأن يتيقظ بكل اعتناء الى عدم حصول أي تعطيل مهما كانت طبيعته للتجارة والملاحة في البحر الاسود على الخصوص.وللوصول الى هذا الغرض يعترف ويعلن بأن المرور في قنال القسطنطينية وببوغاز الدردنيل يكون بحرية تامة وانهما مفتوحان للسفن الروسية الحاملة للعلم التجاري سواء كانت مشحونة أو مصبرة وسواء كانت آتية من البحر الأسود بقصد الدخول في البحر الأبيض المتوسط أو عابرة من البحر الأبيض المتوسط تريد الدخول في البحر الأسود.وما دامت هذه السفن تجارية فمهما كانت كبيرة ومهما كان قدرها لا تكون معرضة لأدنى مانع أو لأي تعدّ كما تقرّر ذلك أعلاه.وتتفق الدولتان على اتخاذ أنجح الطرق للتوقي من أي تأخير في تخليص المراسلات الضرورية فبناء على نفس هذه القاعدة يعلن بأن المرور من قنال القسطنطينية وبوغاز الدردنيل يكون حراً ومفتوحاً لجميع المراكب التجارية التابعة للممالك الموجودة في حالة الصلح مع الباب العالي سواء كانت متوجهة نحو الموانىء الروسية التي على البحر الأسود أو آتية مشحونة أو مصبرة.وذلك بمقتضى الشروط عينها التي اشترطت بخصوص السفن الحاملة للعلم الروسي .

وأخيراً بما أن الباب العالي يعترف بما لحكومة الروسيا الامبراطورية من الحق في أن تتأكد من الضمانة التامة لهذه الحريّة التجارية ومن الملاحة في البحر الاسود بتلك الكيفية،فهو يعلن على رؤوس الاشهاد بأنه لا يحصل في ذلك مطلقاً من جهته أدنى عائق مهما كان ولا بأي حجة كانت.ويتعهد خصوصاً بأنه لا يستبيح لذاته من الآن فصاعداً إيقاف أو إلقاء القبض على السفن المشحونة أو المصبرة

سواء كانت روسية أو تابعة للممالك التي لا تكون الدولة العثمانية معها في حالة حرب معلن حينما تكون مارة بقنال القسطنطينية وبوغاز الدردنيل لأجل أن تتوجه من البحر الأسود الى البحر الأبيض المتوسط أو بالعكس .

واذا حصل لا سمح الله مخالفة لبعض الاشتراطات التي اشتمل عليها البند الحالي بدون أن تنال طلبات وزير الروسيا بهذا الشأن الترضية التامة في أسرع وقت فالباب العالي يعترف مقدماً لحكومة الروسيا الامبراطورية بأن لها الحق في أن تعتبر هذا الخلف كعمل عدائي وأن لها الحق في أن تقابل الدولة العثمانية بمثله.

البند ٨ : بما أن الوفاقات التي اشترطت سابقاً في البند السادس من اتفاق آق كرمان، التي موضوعها تنظيم وتصفية طلبات الرعايا والتجار التابعين للطرفين بخصوص تعويضات الخسائر التي نشأت في أزمنة مختلفة من حرب سنة ١٨٠٦ لم تنفذ، وبما أن التجارة الروسية من منذ عقد اتفاق آق كرمان المتقدّم ذكره قد حصل لها خسائر جسيمة أخرى بسبب الترتيبات التي صدرت بخصوص الملاحة في البوسفور، فقد اتفق وتقرّر بأن الباب العالي العثماني يدفع لحكومة الروسية الامبراطورية تعويض هذه الأضرار والخسائر ، في مدة ثمانية عشر شهراً وفي مواعيد تعين فيما بعد، مبلغ مليون وخمسمائة ألف دوقة هولاندية بحيث أن تسديد هذا المبلغ يمنع كل طلب أو ادعاء صادر من احدى الدولتين المتعاقدتين بخصوص الظروف المذكورة أعلاه ضد الأخرى .

البند ٩ : بما أن طول مدة الحرب التي انتهت بخير بعقد هذه المعاهدة قد تسبب عنه لحكومة الروسيا الامبراطورية مصاريف جسيمة فالباب العالي يعترف بضرورة تقديم تعويض موافق لتلك الحكومة. ولهذا فانه عدا عن تنازله عن قطعة صغيرة من الأراضي في آسيا المذكورة في البند (٤) والتي قبلت حكومة الروسيا باستلامها من أصل التعويض المذكور فان الباب العالي يتعهد بأن يدفع لها مبلغاً من النقود يقدر فيما بعد باتفاق الطرفين .

البند ١٠ : بما أن الباب العالي قد أعلن تمسكه التام باشتراطات المعاهدة المبرمة في لوندره بتاريخ ٦ يوليو سنة ١٨٢٧ بين الروسيا وبريطانيا العظمى

وفرنسا فهو يقبل ايضا بالعقد الذي تقرّر في ٢٢ مارس سنة ١٨٢٩ باتحاد جميع هذه الممالك فيما يتعلق بخصوص أساس المعاهدة المذكورة. وهذا العقد يشتمل على التنظيمات القنصلية المختصة بتنفيذها نهائياً. في حال تبادل التصديق على معاهدة الصلح الحالية وبعد استلام كل طرف نسخته يعين الباب العالي مفوّضين سياسيين لكي يتفقوا مع مفوّضي حكومة الروسيا الامبراطورية وحكومتي انكلتره وفرنسا بقصد إجراء تنفيذ الاشتراطات والتنظيمات التي سبق الكلام عليها .

البند ١١ : بعد التوقيع على معاهدة الصلح الحالية بين الدولتين مباشرة وتبادل تصديق الملكين عليها، يشرع الباب العالي في أخذ الاحتياطات الضرورية لتنفيذ الاشتراطات التي تحتوي عليها بالسرعة وبوجه الدقة وخصوصاً بندي (٣ و٤) الخاصين بالحدود المعينة لفصل المملكتين عن بعضهما، سواء كان في أوروبا أو في آسيا، وكذا بندي (٥ و٦) المختصين بإمارات البغدان والافلاق والصرب. ومتى جاء الوقت الذي فيه يمكن اعتبار هذه البنود المختلفة كأنها تنفذت فحكومة الدولة الروسية الامبراطورية تشرع في الجلاء عن أراضي الدولة العثمانية بناء على القواعد المقرَّرة بعقد منفصل يكون جزءاً متمماً من معاهدة الصلح الحالية. أما ادارة ونظام الأمور التي تكون قد تقرّرت في هذه الامارات في الحال تحت رعاية الدولة الروسية الامبراطورية فانها تبقى ثابتة لغاية انجلائها انجلاء تاماً من الأقاليم المحتلة. والباب العالي العثماني لا يمكنه أن يتداخل فيها بأي كيفية كانت .

البند ١٢ : بعد التوقيع على معاهدة الصلح الحالية تعطى الأوامر في الحال الى قوّاد جيوش الطرفين البرّية والبحرية بمنع الحرب. أما الوقائع التي تحصل بعد التوقيع على المعاهدة الحالية فتعتبر كأنها لم تحصل ولا تستدعي أدنى تغيير في الشروط التي تشتمل عليها . وبمثل ذلك جميع الأماكن التي تأخذها جيوش احدى الدولتين العظيمتين المتعاقدتين في هذه المدّة فانها تعاد بدون أدنى امهال .

البند ١٣ : بما أن الطرفين الفخيمين المتعاقدين قد أعادا فيما بينهما روابط المودّة الخالصة فإنهما يمنحان عفواً عمومياً لجميع رعاياهما، مهما كانت ظروف أحوالهم وجنسيتهم، وكانوا قد اشتركوا في أثناء الحرب، التي انتهت بحمد الله

في هذه الأيام،في الأعمال العسكرية أو تظاهروا سواء بسلوكهم أو بآرائهم بالميل نحو أحد الطرفين المتعاقدين .

وبناء على هذا فأي شخص من أولئك لا يحصل له تكدير ولا يحاكم لا بالنسبة لشخصه ولا في أمواله بسبب سلوكه السالف.ولكل منهم أن يسترد الأملاك التي كان يمتلكها سابقاً وأن يتمتع بها مطمئناً تحت حماية القوانين وإلّا فله الخيار بأن يتخلص منها في مدّة ثمانية عشر شهراً لكي ينتقل بعائلته وأمواله المنقولة الى أي قطر شاء بدون أن يقاسي ظلماً أو موانع بأي وجه كان .

وما عدا ذلك فانه يمنح لرعايا الطرفين القاطنين في البلاد المعادة الى الباب العالي أو المتنازل عنها لدولة الروسيا الملوكية مدة ثمانية عشر شهراً أيضاً،ابتداء من تاريخ تبادل التصديق على معاهدة الصلح لكي يتصرفوا في مملوكاتهم المكتسبة سواء كان قبل الحرب أو في مدة وقوعه متى رأوا ذلك موافق لهم،وليخرجوا بنقودهم ومنقولاتهم من ممالك احدى الدولتين المتعاقدتين إلى ممالك الأخرى وبالعكس .

البند ١٤ : جميع أسرى الحرب مهما كانت جنسيتهم وظروف أحوالهم رجالاً كانوا أو نساء الذين يوجدون عند الدولتين يجب إخلاء سبيلهم بدون أقل فدية أو دفع شيء عنهم.وذلك بعد تبادل التصديق على معاهدة الصلح الحالية مباشرة.ويستثنى من ذلك النصارى الذين يعتنقون الديانة المحمدية برضاهم واختيارهم في ممالك الباب العالي.وكذلك المسلمون الذين يعتنقون برضاهم واختيارهم الديانة النصرانية في ممالك الدولة الروسية .

وهكذا يكون الإجراء أيضاً في شأن الرعايا الروسيين الذين يقعون بأي كيفية كانت في الأسر بعد التوقيع على هذه المعاهدة ويوجدون في ممالك الباب العالي.وكذا دولة الروسيا الامبرطورية تتعهد من جهتها أيضاً بأن تعمل بموجب الطريقة عينها بالنظر لرعايا الباب العالي .

ولا يقتضي مطلقاً دفع المبالغ التي تكون أنفقتها احدى الدولتين العظيمتين المتعاقدتين على الأسارى بل كل منهما يزوّدهم بجميع ما يكون ضرورياً لهم

لسفرهم لغاية الحدود وهناك يحصل التبادل فيهم بواسطة مأمورين معينين من كلا الطرفين .

البند ١٥ : جميع المعاهدات والاتفاقات والاشتراطات المقرّرة التي أبرمت في أعصار مختلفة بين حكومة الروسيا الامبراطورية والباب العالي العثماني ما عدا البنود التي تخالف المعاهدة الصلحية الحالية فانها تبقى معمولاً بها بكل قوّة معانيها ومبانيها، ويتعهد الطرفان الفخيمان المتعاقدان بأن يعتنيا بملاحظتها الملاحظة التامة وعدم مخالفتها مطلقاً :

البند ١٦ : المعاهدة الحالية هذه يصدّق عليها الخ .

ملحق مختص بولايتي الافلاق والبغدان تاريخه ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٩

زيادة على اتفاق الحكومتين العظيمتين المتعاقدتين على جميع ما اشترط بالعقد المنفصل عن الاتفاق المبرم في آق كرمان المختص بكيفية انتخاب ولاة البغدان والأفلاق فقد اعترفنا بضرورة إعطاء ادارة هاتين الامارتين أساساً أعظم ثباتاً وأكثر موافقة للصالح الحقيقي في هاتين الولايتين. وللوصول لهذا الغرض قد اتفق وتقرر نهائياً بأن مدّة حكم الولاة لا تكون أبداً مقصورة على سبع سنوات كما كان حاصلاً في الماضي بل إنهم يتقلدون من الآن فصاعداً هذا المنصب مدّة حياتهم ما عدا أحوال الاستعفاء أو العزل بسبب الارتكابات المنصوص عنها في العقد المنفصل المذكور .

ينظم الولاة الأحوال الداخلية لولاياتهم بكمال الحرية بالاستشارة مع دواوينهم بدون أن يتمكنوا من مس الحقوق المضمونة للقطرين بالخطوط الشريفة بأدنى شيء وبدون أن يكونوا مشوّشين في إدارتهم الداخلية بأي مخالف لهذه الحقوق. ثم إن الباب العالي يعد ويتعهد بأنه يتيقظ تيقظاً تاماً الى عدم مس الامتيازات الممنوحة الى البغدان والأفلاق بأي كيفية كانت بواسطة قوّاده المجاورين لحدودهما وأن لا يتحمل أيّ تدخل منهم في أحوال الإمارتين وأن يمنع كل توغل من سكان الشاطىء الأيمن من نهر الطونة في التخوم البغدانية أو الافلاقية ويعتبر كجزء مكمل لهذه التخوم جميع الجزائر المجاورة للشاطىء الأيسر من الدانوب. ومجرى

هذا النهر يعتبر حدّاً للامارتين من ابتداء مدخله في الممالك العثمانية لغاية التقائه مع نهر البروت .

ولأجل التثبت جيداً من عدم استباحة تخوم البغدان والأفلاق فان الباب العالي يتعهد بأن لا يبقى بها أي مكان محصن وأن لا يسمح بتشييد أي بناء لرعاياه المسلمين على الشاطىء الأيسر للدانوب. وبناء على ذلك فقد تقرّر تقريراً لا تغيير معه في امتداد جميع هذا الشاطيء وفي الأفلاق الكبيرة أو الصغيرة وكذا في البغدان لا يمكن لأي مسلم أن يتخذ مسكناً ثابتاً في بقعة منها وإنما يقبل فيها التجار الحاملون لفرمانات فقط ليشتروا على حسابهم الخاص من تينك الولايتين المحصولات الضرورية لمقطوعية القسطنطينية أو أشياء أخرى .

أما البلاد التركية الواقعة على الشاطىء الأيسر للدانوب فانها تسلم الى الأفلاق لتنضم من الآن فصاعداً الى هذه الولاية. وكذا الحصون الموجودة من سابق على هذا الشاطىء لا يمكن اعادتها ثانياً ويجبر الذين يمتلكون عقارات غير مغتصبة من الغير سواء كانت في هذه المدن أو في أي نقطة غيرها على الشاطىء الأيسر المذكور على بيعها للوطنيين في مدّة ثمانية عشر شهراً. وحيث أن حكومة الامارتين متمتعة بجميع امتيازات الادارة الداخلية المستقلة فيمكنها بكل حرية أن تقيم كردونات (حواجز) صحية وقورنتينات (محاجر) بمحاذاة طول الدانوب وفي أمكنة أخرى على حسب البلاد التي تحتاج لذلك بدون أن يتمكن أحد من الأجانب الآتين إليها سواء كان مسلماً أو نصرانياً أن يتخلى عن ملاحظة القواعد الصحية بكل دقة. أما من جهة مصلحة القورنتينات وكذا من جهة التيقظ للأمن بالحدود واستتباب النظام في المدن والأرياف وتنفيذ القوانين والقرارات فإنه يمكن لحكومة كل ولاية أن تستخدم عدداً من الحرس المسلمين الذين تدعو إليهم الضرورة ليقوموا بأعباء هذه الوظائف. وعدد هؤلاء الحراس والاعتناء بشأنهم يقرّر بمعرفة الولاة بالاتفاق مع دواوينهم بمقتضى القواعد القديمة .

حيث ان الباب العالي مشغوف برغبته المخلصة بأن يدخل في الامارتين جميع أنواع الراحة الممكنة لهما ولوقوفه على أنواع الظلم والتعدّيات التي تحصل فيهما بسبب المؤن المطلوبة للقسطنطينية وللقلاع القائمة على ضفاف الدانوب

واحتياجات الترسخانة فهو قد تنازل بالكلية عن حقه في هذا الخصوص. وبناء عليه فالأفلاق والبغدان قد عوفيتا أبدياً من تقديم الحبوب والمحصولات الأخرى والأغنام وأخشاب البنآء التي كانتا ملزمتين بتوريدها سابقاً. وبهذه المثابة لا يطالب سكان هاتين الولايتين في أي حال من الأحوال بعمال للاشتغال بتشييد الحصون ولا لأي سخرة مهما كان نوعها ولكن لكي تعوّض الخزينة الملوكية عن الخسائر التي يمكن أن تتكبدها من ترك كل حقوقها المذكورة فقد تقرّر أن يدفع كل من البغدان والأفلاق سنوياً للباب العالي نظير ذلك مبلغاً من النقود يتعين مقداره فيما بعد باتفاق الطرفين. هذا بخلاف الجزية السنوية التي يجب على الامارتين دفعها الى الباب العالي باسم خراج وغيره بمقتضى عبارة الخطوط الشريفة المحرّرة في سنة ١٨٠٢. وكذلك فانه عند تجديد الولاة بسبب الموت أو الاستعفاء والعزل القانوني للمقلد فالولاية التي يحصل فيها ذلك تجبر بأن تدفع للباب العالي مبلغاً مكافئاً للخراج السنوي للولاية المقرّر بالخطوط الشريفة وما عدا هذه المبالغ فلا يطلب من البلاد ولا من الولاة أي خراج آخر ولا تعيين ولا هدية بوجه من الوجوه .

بما أن التوريدات المنوّه عنها أعلاه قد ألغيت فسكان الامارتين يتمتعون بحرية التجارة تمتعاً تاماً بمحصولات أرضهم وبصناعتهم (المشترط ذلك بالعقد المنفصل من اتفاق آق كرمان) بدون أدنى تضييق ما خلا التحوطات التي يتخذها الولاة بالاتحاد مع دواوينهم ويرون أنه من الضروري تقريرها لعدم وقوع القحط في البلاد ويمكنهم أن يسافروا بحرية على الدانوب بمراكبهم الخصوصية مصحوبين ببطاقة الجواز من حكومتهم ويتوجهوا للاتجار في المدن والموانىء الأخرى التابعة للباب العالي بدون أن يحصل لهم تعب أو نصب من جباة الخراج ولا أن يكونوا معرضين لأي أمر آخر ظلمي .

وزيادة على ذلك فان الباب العالي عندما تأمل جميع المصائب التي تحملتها البغدان والأفلاق وتحرّكت فيه عواطف الانسانية بكيفية خصوصية قد قبل بإعفاء سكان هاتين الإمارتين من دفع الخراج السنوي وتوريده للخزينة مدّة سنتين ابتداء من اليوم الذي تنجلي فيه الجيوش الروسية تماماً عن الإمارتين .

وأخيراً فان الباب العالي لما له من الرغبة في تمكين الرفاهية في المستقبل بالامارتين بجميع الكيفيات فهو يتعهد تعهداً صريحاً بأن يوافق على اللوائح الادارية التي تقرّرت بناء على رغبات مجالس أعيان السكان، وذلك في مدّة احتلال جيوش الدولة الامبراطورية للامارتين وبأنه يعتبر اتخاذ تلك القرارات في المستقبل أساساً لسن الأحكام الداخلية في الولايتين ما دامت هذه القرارات لا تشتمل على أدنى مخالفة لحقوق سيادة الباب العالي كما هو مفهوم .

فلهذا نحن الموقعين على هذا المفوّضين السياسيين عن جلالة امبراطور وبادشاه جميع الروسيا بالاتفاق مع المفوّضين السياسيين عن الباب العالي العثماني قد قررنا بخصوص البغدان والأفلاق الشروط المذكورة أعلاه التي هي نتيجة (البند ٥) من معاهدة الصلح المبرمة في أدرنه بيننا وبين المفوّضين السياسيين العثمانيين وبناء على هذا فالعقد الحالي المنفصل قد تحرر الخ

فيظهر للمطالع أن أهمّ ما جاء بهذه المعاهدة أن نهر البروث يبقى حدّاً بين المملكتين كما كان قبلاً،وأن تتنازل الدولة العلية للروسيا عن مصبات نهر الطونه وما حولها من الأراضي وعن وادي الخور والقلعة التي به في حدود الأناطول لتكون مانعاً للتواصل بين بلاد الدولة وقبائل الجركس المستقلة لتتمكن الروسيا من الاستيلاء على بلادهم في المستقبل، وأن يكون للروسيا حق الملاحة من البحر الأسود الى البحر الأبيض أي حق المرور من بوغازي البوسفور والدردنيل بدون أن يفتش عمال الدولة مراكبهم ، وأن تعطي الدولة الى تجار الروس الذين أصابهم ضرر بسبب الحروب تعويضاً مالياً قدره ستة عشر مليون فرنك تقريباً ، وأن يكون تعيين أمراء ولايتي الافلاق والبغدان لمدّة حياتهم وعدم عزلهم الا لأسباب قوية وباتحاد الروسية والدولة مع حفظ جميع الحقوق والامتيازات المعطاة لهاتين الولايتين بمقتضى العهود السابقة،وأن تمنح ولاية الصرب الامتيازات المبينة في معاهدة (آق كرمان) . أما بخصوص اليونان فقبل السلطان التصديق على كل ما جاء في الاتفاق الذي أمضي بين الدول في لوندره سنة ١٧٢٧ م وأن يعين بعد اتمام الصلح مندوبا مرخصاً من طرفه للاتفاق مع مندوبي فرنسا والروسيا

وانكلترا على حدود هذه المملكة اليونانية الجديدة التي أوجدتها رغبة الدول في إضعاف الدولة الاسلامية الوحيدة، وتخليص جميع المسيحيين الموجودين ببلادها من سلطتها وتحريضهم على طلب الاستقلال مكافأة لها على عدم تعرضها لدينهم وعوائدهم ومجازاة لها على هذه الغلطة السياسية ولا أقول غير ذلك، لأن عملها هذا منطبق كل الانطباق على قواعد العدل وأصول الانسانية الا أن السياسة في عرف الدول الاوروبية لا تعترف بهذه المبادىء الجليلة بل تنظر الى الغاية المقصودة بقطع النظر عن طريق الوصول إليها وقد قالوا في أمثالهم الجارية حتى على ألسنة الأطفال أن الغاية تبرر الواسطة أياً كانت هذه الواسطة ولو ألحقت الخراب والدمار، لا ببعض الأفراد، بل بأمة بأجمعها أو بأكثر من أمة واحدة.

هذا ثم أضيف إلى هذه المعاهدة ذيل ذكر فيه أن مبلغ التعويض الذي اتفق على دفعه للتجار الروسيين يدفع على أربع سنوات وأن تدفع الدولة مبلغ خمسة ملايين جنيه انكليزي تعويضاً حربياً للروسيا على عشرة أقساط سنوية متساوية، وأن تبقى الجيوش الروسية في الممالك العثمانية، ثم تنسحب منها تدريجياً فتنجلي عن مدينة أدرنه بعد دفع القسط الأوّل. وترجع الى ما وراء جبال البلقان بعد دفع الثاني. وإلى ما وراء نهر الطونه بعد دفع الثالث. وتخلي إمارة البلغار ولا تتخلى تماماً عن ولايتي الأفلاق والبغدان الا بعد دفع آخر قسط، أي بعد عشر سنوات وأن يرحل جميع السكان المسلمين القاطنين بهاتين الولايتين ويبيعوا ما لهم بها من العقار والمنقول في مسافة ثمانية عشر شهراً.

وأخيراً في ٧ الحجة سنة ١٢٤٥ (٣٠ مايو سنة ١٨٣٠) أعلن الباب العالي بتصديقه على الشروط المدوّنة في الاتفاق الذي أمضي بين الدول في لوندره في نوفمبر سنة ١٨٢٨ القاضي باستقلال اليونان.

يتضح للمطالع من ذلك أن الروسيا وان لم تأخذ شيئاً يذكر من أملاك الدولة بمقتضى هذه المعاهدة الا أن ما وضعته فيها من الشروط كانت تقصد بها إضعاف الدولة بكيفية لا يمكنها معها إتمام النظامات العسكرية ولا تجديد عمارتها البحرية التي دمرت في واقعة ناورين، كما سبق وأتى لها ذلك وهي ملتزمة بدفع هذه الغرامة الحربية الفادحة بالنسبة لماليتها، والجيوش الأجنبية محتلة جزءاً عظيما من

بلادها وفصلت عنها اليونان تماماً والأفلاق والبغدان والصرب تقريباً وما بقي لها أثقلت كاهله الضرائب اللازمة للحرب الداخلية والخارجية .

هذا ثم سار السلطان في خطة الاصلاحات الداخلية بهمة لا يعتريها ملال وعزيمة لا يقعدها كلال ، فأبطل طوائف السلاحدارية والعلوفه جيه وباقي الطوائف الغير منتظمةُ وصار الجيش كله مؤلفاً من جنود منتظمة مسلحة بأتقن الأسلحة وألغيت جميع الامتيازات السابقة. ولم تؤثر على السلطان أي معارضة بل كان يجازي كل من آنس منه أقل انتقاد على الاصلاحات الجديدة باشدّ العقاب وصارم العذاب، حتى انه لما رأى ان جماعة البكطاشية محازبة للانكشارية واستعملت نفوذها في تهييج الأهالي أمر بالغائها وابطال جميع تكاياها فالغيت وشتت أعضاؤها في أطارف الدولة حتى لا يخشى من تجمعهم بالأستانة وقتل ثلاثة من رؤسائها النافذي الكلمة بناء على فتوى شرعية. ومن جهة أخرى أخذ في تغيير العوائد القديمة واتباع المستحسن من عوائد أوروبا فاستبدل العمامة بالطربوش الرومي وتزيى بالزي الأوروبي وأمر بأن يكون هو الزيّ الرسمي في العسكرية والمدنية وأسس وساماً دعاه وسام الافتخار. وأخيراً تجوّل بذاته في ممالكه بأوروبا ليستطلع أحوالها ويقف على حقائق الأمور وشكاوى الأهالي. وبالاختصار فانه سار سير من يريد مجاراة أوروبا في نظاماتها وعدم الوقوف حال تقدم الدول الأخرى بسرعة لعلمه أن الوقوف في مثل هذه الظروف هو عين التأخر. ولو لم يكن له من الأيادي البيض على الممالك المحروسة إلا الغاء طائفة الانكشارية لكفى ذلك لتخليد اسمه في بطون التاريخ مشكوراً ممدوحاً الى أبد الآبدين. وزيادة على ذلك أحيا ما أقامه السلطان مصطفى الثالث من مدارس الطوبجية بعد أن صارت دوارس وانشاء مدرسة حربية لتخريج الضباط على مثال مدرسة سانسير الفرنساوية [1] التي أسسها نابوليون الأوّل بفرنسا لتربية أولاد

(١) هي قرية صغيرة بالقرب من قصر فرساي بضواحي باريس، أسس بها لويز الرابع عشر في سنة ١٦٨٠ مدرسة مجانية لتربية ٢٥٠ بنتاً من بنات الاشراف الفقراء ولما حصلت الثورة الفرنساوية أبطلت هذه المدرسة. وفي سنة ١٨٠٨ أنشأ بها نابوليون الأول المدرسة الحربية الشهيرة التي لم تزل قائمة حتى الآن .

الضباط والإشراف على النظامات العسكرية الحديثة .

احتلال فرنسا لجزائر الغرب

وفي أواسط سنة ١٨٣٠ نفذت فرنسا ما كانت تنويه من مدّة ضدّ ولاية الجزائر بدعوى منع تعدي قراصنة البحر المسلمين على مراكبها التجارية. والحقيقة ليكون لها مركز حربي بشمال افريقيا حتى لا تكون انكلترا صاحبة السيادة بمفردها على البحر الأبيض المتوسط باحتلالها معاقل جبل طارق وجزيرة مالطة. واتخذت لذلك سبيلاً وقوع الخلاف بينها وبين عامل الدولة العلية عليها المدعو حسين باي بسبب بعض ديون كانت مطلوبة لبعض تجار الجزائريين على الحكومة الفرنساوية وحجزها جزأ منها بدعوى أن هؤلاء التجار مديونون لتجار فرنساويين وخروج المسيو دوفال قنصل فرنسا عن حدّ الأدب مع الأمير حسين باي في حفلة عمومية بحضرة جمهور من الأمراء والوزراء، حتى اضطر حسين باي حفظاً لناموسه أن يضرب القنصل بمنشة كانت بيده فبمجرد ما حصل خبر هذه المسألة الى آذان ولاة الأمور بباريس عدوها إهانة لشرفهم وأرادوا اتخاذها وسيلة لتنفيذ ما كانوا مضمرين عليه من مدّة وقرروا في مجلس الوزراء المنعقد تحت رئاسة الملك نفسه في ١٣ شعبان سنة ١٢٤٥ (٧ فبراير سنة ١٨٣٠) وجوب الاستيلاء على هذا الاقليم. ثم أرسل إليها جيشاً مؤلفاً من نحو ثمانية وعشرين ألف مقاتل، وعمارة بحرية مؤلفة من مائة سفينة ، وثلاثة سفن تحمل سبعة وعشرين ألف جندي بحري . ولما علمت انكلترا بذلك خشيت على نفوذها من مشاركة فرنسا واحتجت ضدّ هذا المشروع . ولما لم يفد احتجاجها شيئاً أوعزت الى الباب العالي أن يأمر عامله على الجزائر بالتساهل مع فرنسا وتقديم ما تطلبه من الترضية والتعويضات. فأرسل الباب العالي مندوباً من طرفه لتبليغ هذه التعليمات الى عامل الجزائر، لكن لم يصل هذا المندوب الى محل مأموريته بل قبضت السفن الفرنساوية على المركب الحاملة له وأوصلتها الى ميناء طولون تحت الحفظ ولم تسمح لها بالخروج الا بعد اتمام مقصدهم. وفي ٢٠ ذي الحجة سنة ١٢٤٥ (١٢ يونيو سنة ١٨٣٠) نزلت عساكر فرنسا بالقرب من مدينة الجزائر وانتشب القتال بين الفريقين في

(١٩ يونيو). وبعد محاربة شديدة فاز الفرنساويون بالغلبة. وفي ١٤ محرم سنة ١٢٤٦ (٥ يوليو) احتلوا القلعة المسماة (سلطانية قلعة سي) الواقعة أمام مدينة الجزائر. وفي تلوه دخلت الجيوش مدينة الجزائر نفسها بعد خروج حسين باي منها وأعلنت فرنسا امتلاكها لها. وبعد ذلك أخذت ترسل الجيوش تباعاً الى الجزائر لفتحها وما زال الأهالي يقاومونها تحت امرة الوطني الشهير السيد عبد القادر الجزائري الذي دافع عن بلاده مدّة سبع عشرة سنة وسلم نفسه في ٢٤ رجب سنة ١٢٦٣ (٨ يوليو سنة ١٨٤٧). ولم تزل الأهالي غير راضية عن الاحتلال الفرنساوي حتى الآن، ولم تدع فرصة للتخلص منه الا اتخذتها، لكن لم تقو حتى اليوم على التخلص من ربقة الأجنبي [١] .

محمد علي باشا وحرب الشام الأولى

لم يكن اهتمام والي مصر ومؤسس العائلة الكريمة الخديوية بشؤون بلاده وإدخال النظامات الجديدة فيها بأقل من اهتمام السلطان محمود في إصلاح داخلية مملكته، التي مصر لا تزال ولن تزال ان شاء الله جزءاً منها، فأنشأ عدة ترع عظيمة لاصلاح الري أهمها ترعة المحمودية الخارجة من النيل وواصلة الى اسكندرية لتسهيل الملاحة وشرب أهل الثغر، وأقام جسوراً على النيل لحفظ البلاد من الغرق ونظم وأقام المدارس والورش الصناعية حتى صار لا يأتي بلوازم جيوشه من الخارج بل يصنع جميعه بالورش المصرية من المركوب والطربوش الى البندقية والمدفع. وأنشأ عدَّة سفن حربية بدل التي دمرها التمدن الأوروبي في ناورين، لكن لم تكن ماليته تكفي لمصاريف هذه الأعمال فاستعان على إتمامها

---

(١) مساحة الجزائر ٢٣٧٠٣٩١ كم ونفوسها نحو ١٥ مليون نسمة ، واشهر مدنها الجزائر العاصمة ووهران وقسنطينة وعنابه وسطيف . وقد تعاقب على هذه البلاد كثير من الأقوام من فنيقيين ونوميديين وروماں وفندال وعرب وأتراك. ثم غلب عليها الافرنسيون سنة ١٨٣٠ ولم يحكموها مستعمرة بل جعلوها جزءاً من فرنسا وأخيراً استقلت سنة ١٩٦٢ وأصبحت جمهورية . فمن شاء الاطلاع على تاريخ هذه البلاد فليرجع الى كتابي : الجزائر العربية أرض الكفاح المجيد . (المحقق) .

بالضرائب الفادحة واستعمال الأنفار تسخيراً بلا عوض (العونة) ولجهل الأهالي بأن فوائد أتعابهم ستعود عليهم آجلاً باضعاف ما يدفعونه عاجلاً تمكن بعض أرباب الغايات من استمالتهم للمهاجرة الى بلاد الشام فهاجر منهم خلق كثير والتجأوا الى عبدالله باشا والي عكا المشهور بالجزار .

ولما طلب منه محمد علي باشا ارجاعهم خوفاً من كثرة عدد من يتبعهم الى الشام امتنع من ذلك بدعوى ان الاقليمين تابعان لسلطان واحد وسواء أقام بعض سكان أحدهما في الآخر أو بالعكس ما دام أحد الاقليمين لم يكن حائزاً على امتيازات مخصوصة كحالة مصر الآن .

ولذلك أمر محمد علي باشا في سنة ١٢٤٧ (سنة ١٨٣١) باعداد الجيوش والتأهب للسفر الى بلاد الشام عن طريق العريش وعن طريق البحر في آن واحد لمحاصرة عكا من الجهتين قبل أن يأتيها المدد. وعين ولده ابراهيم باشا قائداً عاماً للجيوش المزمع سفرها وسليمان بيك الفرنساوي قائم مقام له. فسار هذا الشبل بحراً في ٢٦ جمادى الأولى سنة ١٢٤٧ (٢ نوفمبر سنة ١٨٣١) الى مدينة حيفا تحف به الدونانمة المصرية في أكمل نظام وأتم هندام. وكانت الجيوش البرية قد سبقته من طريق العريش وفتحت في مسيرها مدائن غزة ويافا وبيت المقدس ونابلس. وجعل ابراهيم باشا مدينة حيفا مقرّاً لأعماله ومركزاً لأركان حربه ومستودعاً للمؤن والذخائر ثم ارتحل عنها لمحاصرة مدينة عكا، فحاصرها براً وبحراً في ٢٠ جمادى آخر سنة ١٢٤٧ (٢٦ نوفمبر سنة ١٨٣١) حتى لا يأتيها المدد بحراً فلا يقوى على فتحها كما حصل لبونابرت من قبل حين حاصرها سنة ١٧٩٩ .

فلما علم الباب العالي بدخول الجيوش المصرية الى بلاد الشام وحصارها لمدينة عكا اعتبر ذلك عصياناً من محمد علي باشا وأوعز الى والي حلب المدعو عثمان باشا بالسير لمحاربة المصريين وبالحري ابراهيم باشا وردّه الى حدود مصر. فجمع هذا الوالي نحو عشرين ألف جندي وقصد مدينة عكا لكن لم يمهله ابراهيم باشا ريثما يأتي إليها بل ترك حول عكا عدداً قليلا من الجنود لاستمرار الحصار وسار هو بمعظم الجيش لملاقاة الجيش العثماني. فالتقى الجمعان بالقرب

من مدينة حمص وانتصر المصريون على العثمانيين بسبب استعدادهم وكمال نظامهم .

ثم عاد ابراهيم باشا الى مدينة عكا وشدّد عليها الحصار ودخلها عنوة في ٢٧ الحجة سنة ١٢٤٧ (٢٨ مايو سنة ١٨٣٢) وأخذ عبدالله باشا الجزار سبب هذه الحرب أسيراً وأرسله الى مصر .

وبمجرد وصول خبر سقوط مدينة عكا في أيدي المصريين أمر السلطان محمود بجمع كل ما يمكن جمعه من الجيوش المنتظمة فجمع في أقرب وقت نحو ستين ألف مقاتل وعين حسين باشا الذي امتاز في مكافحة الانكشارية قائداً لها.فسار الى بلاد الشام بكل تأن وبطء حتى أمكن ابراهيم باشا الاستعداد لملاقاته فتغلب أوّلاً على مقدمته وانتصر عليها في ١٠ صفر سنة ١٢٤٨ (٢٩ يونيو سنة ١٨٣٢) واقتفى أثرها حتى دخل مدينة حلب.الشهباء في ١٨ صفر (٧ يوليو المذكور)

ولما علم حسين باشا بانهزام المقدمة تقهقر بمن معه من الجيوش وتحصن في أهم مضايق جبال طوروس الفاصلة بين الشام والأناطول ويسمى هذا المضيق بمضيق بيلان، وهو مشهور في التاريخ لمرور الاسكندر المقدوني منه حين أتى لفتح بلاد الشام ومصر ومرور الافرنج حين أتوا من طريق القسطنطينية لفتح بيت المقدس واستخلاصه من أيدي المسلمين أثناء الحروب الصليبية،فلحقه ابراهيم باشا وفاز عليه فوزاً عظيماً وفرق شمل جيوشه في غرة ربيع أول سنة ١٢٤٨ (٢٩ يوليو من السنة المذكورة) وتبع من بقي منهم الى أن نزلوا بمراكبهم في ميناء اسكندرونة. فجمع السلطان جيشاً آخر وقلد رئاسته الى رشيد باشا،الذي امتاز مع ابراهيم باشا في حرب موره خصوصاً في محاصرة وفتح مدينة (ميسولونجي)، وأرسله الى بلاد الأناطول لصدّ هجمات ابراهيم باشا عن القسطنطينية نفسها إذ كان ابراهيم باشا قد اجتاز جبال طوروس واحتل اقليم (اطنه) وما وراءه الى مدينة قونية في وسط الأناطول.والتقى بالقرب من هذه المدينة برشيد باشا وجيشه فانتصر عليه وأخذه أسيراً في ٢٧ رجب سنة ١٢٤٨ (٢٠ دسمبر سنة ١٨٣٢) وعند ذلك ساد القلق في الاستانة وخيف تقدم ابراهيم باشا بجيوشه المصرية اليها.أما هو فسافر حتى وصل الى ضواحي مدينة بورصة .

ولما تواترت أخبار انتصار المصريين على العثمانيين خشيت الدول أن يكون

قصد محمد علي باشا احتلال الأستانة واسقاط عائلة بني عثمان والاستئثار بالخلافة الاسلامية فيحصل اضطراب عمومي في التوازن الأوروبي. وكانت الروسيا أشد قلقاً من غيرها لخوفها من سقوط الاستانة في قبضة من يمكنه الذب عنها أكثر من الملوك العثمانيين فلا يمكنها تنفيذ وصية بطرس الأكبر. ولذلك عرضت على الدولة العلية مساعدتها بالرجال وأنزلت فعلاً على شواطىء الأناطول خمسة عشر ألف جندي لحماية الأستانة. فاضطربت فرنسا وانكلترا وخشيت سوء عاقبة تداخل الروسيا بصفة عسكرية وألحت على الباب العالي بسرعة الاتفاق مع محمد علي باشا قبل تفاقم الخطب واتساع الخرق على الراقع وتوسطت بينهما فقبل الباب الهمايوني بهذا التوسط .

معاهدة كوتاهيه

وبعد مخابرات ومداولات لا حاجة لتفصيلها اتفق الطرفان على أن يخلي المصريون اقليم الاناطول وترجع جيوشهم الى ما وراء جبال طوروس. وتعطى لمحمد علي باشا ولاية مصر مدّة حياته ويعين هو والياً على ولايات الشام الأربع (عكا وطرابلس وحلب ودمشق) وعلى جزيرة كريد وأن يعين ابنه ابراهيم باشا والياً على اقليم أطنه. وصدرت بذلك ارادة سنية في ٥ مايو سنة ١٨٣٣ ودعيت هذه المعاهدة بمعاهدة كوتاهيه، نسبة الى المدينة التي كان بها ابراهيم باشا عند اتمامها. وبذلك انتهت هذه المسألة مؤقتا اذ لم يقبل السلطان بهذه التسوية الا ليتمكن من الاستعداد للحرب وارجاع ما أخذ منه قهراً .

معاهدة خونكار اسكله سي

ولقد تمكنت الروسيا أثناء وجود عساكرها بأرض الدولة من ابرام معاهدة هجومية ودفاعية مع الباب العالي في ١٨ محرم سنة ١٢٤٩ (٧ يونيو سنة ١٨٣٣) دعيت بمعاهدة (خونكار اسكله سي) تعهدت بها الروسيا بالدفاع عن الدولة لو هاجمها المصريون أو غيرهم ليكون لها بذلك سبيل في شؤون الدولة الداخلية .

حرب الشام الثانية

ولم تكن هذه التسوية الا وقتية فان محمد علي باشا لم يقبل بها الا خوفاً من إجبار الدولة له على ترك فتوحاته مع كونه عازماً على تتميم مشروعه، وهو الاستقلال التام عند سنوح الفرصة. وكذلك لم يقبل السلطان محمود بها الا لتفريق جيوشه وعدم امكانه صدّ هجمات ابراهيم باشا عن الاستانة الا بمساعدة الروسيا الأمر الذي سعى في تلافيه بإبرام هذه المعاهدة، حتى اذا استعد لاسترداد ما فقد كرها أغار على بلاد الشام وجعل مصر ولاية عثمانية بدون أقل امتياز .

ولما كانت هذه أفكار كل فريق منهما كان لا بد من اشتعال نار الحرب بينهما ثانية عاجلاً أو آجلاً ولقد كان من أهم دواعي استئناف هذه الحروب عصيان أهل الشام على محمد علي باشا ومعاملته اياهم بكل صرامة لاخضاعهم لسلطانه، ثم عصيان الدروز وامدادهم بالمال والسلاح من الخارج سرّاً لاضعاف شوكته. وفي أثناء ذلك فاتح محمد علي باشا بعض وكلاء الدول بمصر بأنه يرغب أن تكون مصر والشام وبلاد العرب له ولأولاده من بعده، فأبلغ الوكلاء ذلك لدولهم وهي خابرت الدولة العلية بذلك بكيفيات مختلفة، فعضدت فرنسا مطالبه وحسنت له الدول الأخرى محاربته بكل شدّة واخضاعه خوفاً من تطلعه الى غير ما في يده من الأقاليم. ولتغلب نفوذ سفير فرنسا قبل الباب العالي إرسال مندوب من طرفه الى محمد علي باشا للاتفاق على حل مرض للطرفين وأرسل الى مصر من يدعى سارين افندي أحد موظفي الخارجية، فأتى هذا المندوب الى مصر في غضون سنة ١٢٥٣ (سنة ١٨٣٧) وقابله واليها بكل تجلة وإكرام .

وبعد مداولات طويلة اتفقا على أن تعطى له ولايتي مصر والعرب ارثاً لأولاده. وبلاد الشام الى جبال طوروس مدّة حياته. وعاد سارين أفندي الى الاستانة بهذا الوفاق فلم يقبله الباب العالي بل أصر على أن تكون جبال طوروس ومفاوزها في أيدي العثمانيين لا المصريين. وصمم محمد علي باشا على عكس ذلك بما أن هذه المفاوز بمثابة أبواب لبلاد الشام بأجمعها فلو احتلتها الدولة العلية أمكنها الاغارة على بر الشام في أي وقت أرادت .

واقعة نصيبين

وبذلك عاد الخلف الى ما كان عليه وصارت الحرب قاب قوسين أو أدنى، وأوعز الباب العالي الى حافظ باشا، الذي عين سر عسكر الجيوش المجتمعة في سيواس بأرمينية بعد موت رشيد باشا أسير قونية الذي مات قبل أن يأخذ بثار هذه الواقعة ويمحو ما لحقه فيها من الفشل، الى أن يتقدم الى ولايات الشام بكل سرعة فتقدّم إليها في أوائل سنة **١٢٥٥** الموافقة سنة **١٨٣٩**م وعبر نهر الفرات عند مدينة (بلاجيق) [١] في ابريل من السنة المذكورة، ثم التقى الجيشان بعد عدّة مناورات بالقرب من بلدة تدعى نصيبين [٢] وهي المشهورة في جميع كتب الافرنج باسم (نزيب) في ١١ ربيع الثاني سنة **١٢٥٥** (**٢٤** يونيو سنة **١٨٣٩**). وفاز المصريون بالنصر وتقهقر الجيش العثماني تاركاً في أيدي المصريين **١٦٦** مدفعاً وعشرين ألف بندقية وغيرها من الذخائر والمؤن وكان هذا اليوم مشهوداً يجعل الولدان شيباً .

ومن غريب المصادفة أن المسيو (دي مولتك) [٣] القائد البروسياني الذي طار صيته في الآفاق وملأ ذكره الأوراق في الحرب التي حصلت بين فرنسا والبروسيا في سنة ١٨٧٠ كان من ضمن أركان حرب الجيش العثماني وولى الأدبار

---

(١) بلاجيق أو بيرەجك : وتقع بالقرب من الحدود السورية شمال شرق حلب .

(٢) نصيبين أو نزيب Nizip : تقع الى الجنوب الغربي من بيرەجك .

(٣) هو القائد الألماني الشهير، ولد سنة ١٨٠٠ وتربى في احدى المدارس (بكوبنهاج) عاصمة الدانمرك ثم التحق بجيش البروسية وحضر في احدى مدارسها الحربية. ولامتيازه في الهندسة وما يلحقها عيّن في أركان حرب البروسيا ثم ساح في الشرق وتوظف بالجيش العثماني وبعد أن حضر واقعة نصيبين عاد الى بلاده وترقى تدريجياً حتى وصل الى وظيفة رئيس أركان حرب البروسيا، ومن ثم أخذ في تنظيم الجيش حتى صار أول جيش في في أوروبا فكانت له اليد الطولى في الانتصار على الدانمرك سنة ١٨٦٤ وعلى النمسا سنة ١٨٦٦ وعلى فرنسا سنة ١٨٧٠ حتى استحق محبة الاهالي له وأقيم له تمثالان في حياته. وفي سنة ١٨٨٨ اعتزل الأعمال لهرمه وتوفي سنة ١٨٩١ .

مع باقي الضباط بدون أن يتمكن من أخذ ملابسه وأوراقه الخصوصية .

ولم يصل خبر هذه الحادثة الى آذان السلطان محمود الثاني ،فانه توفي الى رحمة الله وانتقل من دار الشقاء الى دار الهناء في يوم ١٩ ربيع الثاني سنة ١٢٥٥ (٢ يوليو سنة ١٨٣٩) فجأة بدون أن يعلم بها لعدم وجود الأسلاك البرقية في هذا العهد بالغاً من العمر ٥٥ سنة وتولى بعده ابنه عبد المجيد .



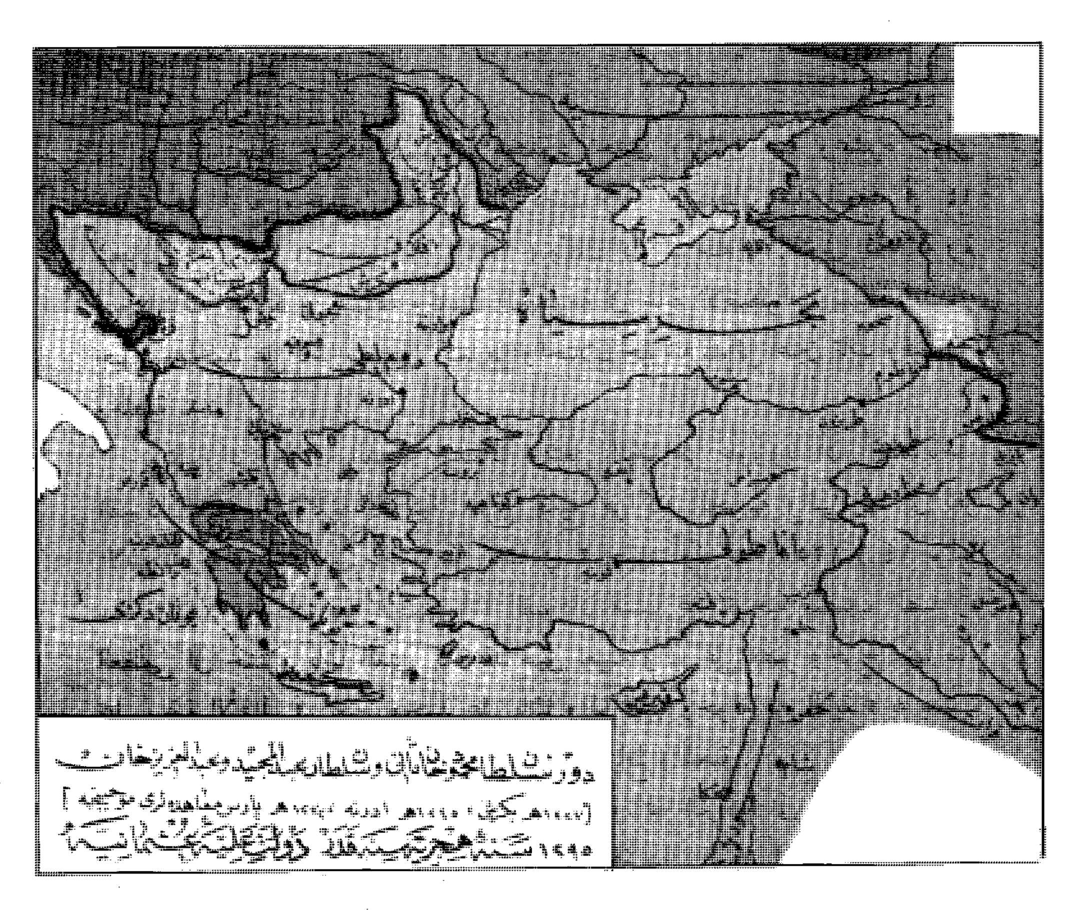
٣١-

السلطان الغازي عبد المجيد خان

وكانت مدة خلافة السلطان محمود احدى وثلاثين سنة وعشرة شهور ومات عن أربع وخمسين سنة تقريباً،وكانت ولادة السلطان عبد المجيد في ١٤ شعبان سنة ١٢٣٧ (٦ مايو سنة ١٨٢٢) وكان اذ ذاك سنه ١٧ فتولى الخلافة ولم يبلغ الثامنة عشرة من عمره، وكانت الحكومة في غاية الاضطراب بسبب انتصار جيوش محمد علي باشا بنصيبين كما مر واحتلال جيوشه لمدائن عين تاب وقيصرية وملطية .

ومما زاد أحوال الدولة ارتباكاً وشغل الخواطر بأوروبا أن أحمد باشا، القبودان العام للدونانمة التركية ،خرج بجميع مراكبه الحربية وأتى بها الى ثغر الاسكندرية وسلمها الى محمد علي باشا في ٢ جماد أوّل سنة ١٢٥٥ (١٤ يوليو سنة ١٨٣٩)،وكان فعل أحمد باشا القبودان مسبباً عن توجيه منصب الصدارة العظمى الى خسرو باشا الذي كان قد سبق تعيينه والياً على مصر وخرج منها بناء على رغبة الأهالي في تعيين محمد علي باشا والياً عليها وخوفه من الايقاع به بسبب ما كان بينه وبين محمد علي باشا من علائق الارتباط والمحبة .

لما علم قناصل الدول بالاستانة بتسليم الدونانمة التركية الى محمد علي باشا خشوا زحف ابراهيم باشا على القسطنطينية فترسل الروسيا جيوشها لمحاربته بناء على معاهدة (خونكار اسكله سي)،لا سيما وقد فقدت الدولة جميع جيوشها البرية وسفنها الحربية،فأرسلوا الى الباب العالي لائحة اشتراكية بتاريخ ١٦ جماد أوّل سنة ١٢٥٥ (٢٨ يوليو سنة ١٨٣٩) ممضاة من سفراء فرنسا وانكلترا والروسيا والنمسا والبروسيا يطلبون منه أن لا يقر شيئاً في أمر المسألة المصرية الا باطلاعهم



الدولة العثمانية في عهد السلطان محمود الثاني والسلطان عبد المجيد وعبد العزيز بموجب معاهدة بخارست ١٢٢٧ هـ ومعاهدة أدرنه ١٢٤٥ ومعاهدة باريس ١٢٧٢ هـ وحتى سنة ١٢٩٥هـ.

واتحادهم وأنهم مستعدون للتوسط بينه وبين محمد علي باشا لحل هذه المسألة المهمة. فقبل الباب العالي هذه اللائحة واجتمع السفراء عند الصدر الأعظم في ١٨ جماد أوّل (٣٠ من الشهر المذكور) وتداولوا فيما يجب إعطاؤه لمحمد علي باشا. فأبدى سفيرا انكلترا والنمسا ضرورة إرجاع الشام للدولة العلية وعارضهم في هذا الرأي سفيرا فرنسا والروسيا وطلبا أن يمنح محمد علي باشا ملك مصر وولايات الشام الأربع. لكن انحاز سفير البروسيا إلى الرأي الأوّل فتقرر بالأغلبية. ثم طلب المسيو (دي مترنيخ)[1] أكبر وزراء النمسا أن يعقد مؤتمر دولي في مدينة (فيينا)[2] أو (لوندره) لإتمام المداولات بشأن المسألة المصرية فلم يقبل منه ذلك عند الكل سيما فرنسا وانكلترا فلم يقبلا ذلك ولم يميلا لهذا الطلب لعدم ثقتهم بالمسيو (دي مترنيخ). وكذلك الروسيا لم تقبل تخويل مؤتمر دولي حق تحديد علاقاتها مع الباب العالي بل أعلنت أنها مصرّة على التمسك بنصوص معاهدة (خونكاراسكله سى) وهي حماية الدولة بعساكرها ومراكبها وبالتالي احتلال معظم أملاكها بدون حرب لو تعدى إبراهيم باشا حدود الشام. فعند ذلك طلبت كل من فرنسا وانكلترا من الباب العالي التصريح لمراكبها بالمرور من بوغاز الدردنيل لحمايته عند الضرورة من الروسيا ومن العساكر المصرية، وجاء الأميرال (ستو بفورد) بنفسه إلى القسطنطينية للحصول على هذا التصريح. ولما علم باقي السفراء بهذا الطلب اضطربوا وخشوا حصول شقاق بين الدول المتوسطة وأعلن سفير الروسيا بأنه إذا دخلت المراكب الفرنساوية والإنكليزية البوغاز يقطع علاقاته السياسية مع الباب العالي ويسافر في الحال. وكانت حكومته أرسلت له مركباً حربياً ليسافر عليه إذا اقتضى الحال

---

(١) سياسي نمساوي شهير ولد سنة ١٧٧٣ وتقدم سريعاً وعين سفيراً للنمسا في باريس سنة ١٨٠٦ وانتخب رئيساً لمؤتمر ويانه في سنة ١٨١٤ وسنة ١٨١٥ الذي عقد لتسوية حالة أوروبا بعد سقوط نابوليون. واشتهر هذا الوزير بمعارضة انتشار الحرية في أوروبا ولذلك اعتزل الأعمال بعد حركة سنة ١٨٤٨ العمومية وبقي في العزلة الى أن توفي سنة ١٨٥٩ .

(٢) رجع المؤلف يكتب فينا بالفاء لا بالواو .

ذلك. وكتبت النمسا إلى وزارتي لوندره وباريس بأن طلبهما هذا مخل بسلم أوروبا وأنهما لو أصرّا عليه تخرج من التحالف وتحفظ لنفسها حرية العمل: فلما علم الباب العالي بذلك خاف من تفاقم الخطب ورفض طلب حكومتي فرنسا وانكلترا وطلب منهما إبعاد مراكبهما عن مدخل البوغاز. فلهذه الأسباب وعدم الإتفاق بين وزراء الدول توقفت المخابرات إلى أوائل شهر رجب سنة **١٢٥٥** (سبتمبر سنة **١٨٣٩**) حتى عرض اللورد (بونسونبي) سفير انكلترا على الباب العالي أن دولته مستعدّة لإكراه محمد علي باشا على ردّ الدونانمة التركية بشرط أن يكون لها حق إدخال مراكبها في خليج اسلامبول لصدّ الروسيا عند الضرورة. فلما علمت بذلك حكومة فرنسا أرسلت إلى الأميرال (لالاند) قائد اسطولها في مياه تركيا أمراً بتاريخ ١٨ دسمبر سنة **١٨٣٩** أنه لا يشترك مع مراكب انكلترا في أيّ حركة عدوانية ضدّ حكومة محمد علي باشا، فعلم الكل أنه لا بد من حصول خلاف بين فرنسا وانكلترا بخصوص المسألة المصرية. وأخذت الدول حذرها مما عساه يحصل من الأمور التي تنشأ بسبب هذا الخلاف فأعلنت النمسا بأنها لا ترغب التداخل لعدم نجاح طلبها المختص بانعقاد مؤتمر دولي في فيينا أو برلين، وأعلنت بروسيا والروسيا بأنهما يقبلان كل ما تقرره الدول في هذا الشأن بشرط أن يكون موافقاً لرغبة الباب العالي وأن يكون قبوله لهذا القرار صادراً عن كمال الحرية. فكأن الدول قبلت ما اتفقت عليه فرنسا وانكلترا بالاتحاد مع الباب العالي، ولكن لم يتم الاتفاق بين هاتين الدولتين لسعي انكلترا في إرجاع المصريين إلى حدودهم الأصلية وعدم قبول فرنسا ذلك ورغبتها في مساعدة محمد علي باشا. وذلك أن فرنسا كانت تود أن تكون ولايتا مصر والشام له ولذريته وإقليما أطنه وطرسوس له مدة حياته. وأما انكلترا فكانت لا تريد أن يعطى إلا ولاية مصر، لكن رغبة في إرضاء فرنسا قبلت أن يعطى مدة حياته نصف بلاد الشام الجنوبي بشرط أن لا تكون مدينة عكا من هذا النصف. فرفضت فرنسا هذا الاقتراح وقالت كيف نحرمه من كل فتوحاته خصوصاً بعد أن قهر الجيوش العثمانية في واقعة نصيبين وإننا لو جردناه منها لتركنا له باباً للحرب مرة أخرى وهو أمر لا تكون عاقبته حسنة، لأنه يوجب تداخل حكومة الروسيا في أمر الدولة العلية بمقتضى

العهود ولا تكون نتيجة ذلك إلا حرباً عامة، فالأولى منعاً لسفك دماء العباد أن تعطى لمحمد علي باشا البلاد التي فتحها لأنه أقوم بإدارتها وأحق بها لما تكبده في فتحها من المشاق الصعبة والمصاريف الزائدة وبذل الأرواح. ولما علمت الدول بوقوع الخلاف بين فرنسا وانكلترا أعلنت النمسا وبروسيا رسمياً أنهما ينحازان إلى إحدى الدولتين التي لا تحرم الدولة من أملاكها وبعبارة أخرى إلى انكلترا.

وأما الروسيا فأرادت أن تنتهز فرصة عدم اتحاد الدولتين لتقرير نفوذها في الشرق وحق حمايتها على الدولة العلية دون غيرها وأرسلت إلى لوندره البارون (دي برونو) بصفة سفير فوق العادة فوصلها في أواخر سبتمبر سنة ١٨٣٩ وعرض على حكومتها بالنيابة عن قيصره أن الروسيا مستعدة لأن تترك لإنكلترا حرية العمل في مصر وتساعدها على إذلال محمد علي باشا بشرط أن تسمح لها بإنزال جيش بالقرب من اسلامبول في مدينة (سينوب) الواقعة على شاطىء البحر الأسود ببر الأناضول، لكي يتيسر لها إسعاف الباب العالي لو أراد إبراهيم باشا الزحف على القسطنطينية. فصغى اللورد بالمرستون[1] إلى كلام سفير الروسيا ومال إلى هذا الرأي ميلاً شديداً ولولا استقباح الرأي العام له لقبله كل القبول وسلم به كل التسليم، لكنه لما رأى عدم موافقة الرأي العام لهذا المشروع اقترح على الروسيا أن تعلن اولاً بتنازلها عما تخوله لها معاهدة (خونكاراسكلهسي) من حق حماية الدولة العلية، فرفضت الروسيا ذلك وأجلت المخابرات بشأن تسوية المسألة المصرية إلى شهر يوليو سنة ١٨٤٠ لعدم اتفاق الدول على حالة مرضية للكل وافية بغرض الجميع لتباينهم في الغايات والمقاصد. وفي خلال هذه المدة أرسلت الروسيا المسيو

---

(١) سياسي انكليزي شهير ولد سنة ١٧٨٤ وبعد أن أتم دراسته في مدرسة كمبردج العليا انتخب في مجلس العموم سنة ١٨٠٦ وانضم الى حزب المحافظين. وفي سنة ١٨٣٧ تحول عنهم وانخرط في سلك الأحرار وصار وزيراً للخارجية من سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٤١ ومن سنة ١٨٤٦ الى سنة ١٨٥١ ومن ١٨٥٥ الى ١٨٥٨ وأخيراً من سنة ١٨٥٩ الى تاريخ وفاته الواقع في سنة ١٨٦٣. واشتهر بمقاومة محمد علي باشا الكبير حتى يمكن القول إن مساعيه كانت السبب الوحيد في اخفاق مشروع هذا الرجل العظيم وعدم نجاح مقصوده.

(برونو) ثانية إلى لوندره ليطلب تعديل المشروع الأول بأن يخول لكل من انكلترا وفرنسا الحق في إرسال ثلاث سفن حربية في بحر (مرمره) للاشتراك مع الجيش الروسي في حماية اسلامبول لو هاجمها إبراهيم باشا،فلم تفز الروسيا بمرامها في هذه المرة أيضاً .

هذا ولما علم محمد علي باشا بهذه المخابرات وتحقق أن الدول الأوروباوية عموماً وانكلترا خصوصاً ساعية في إرجاع جيوشه إلى مصر وجبره على رد كل ما فتحه من البلاد وأن فرنسا لا يمكنها مساعدته فضلاً عن تعصب باقي أوروبا ومضادتها بأجمعها له،أخذ في الاستعداد لصد القوّة بالقوّة بحيث لا يسلم شبراً من الأرض التي صرف ماله ورجاله في فتحها إلا مضطراً.وكلف سليمان باشا بتفقد سواحل الشام وتحصينها بقدر الإمكان لا سيما مدينتي عكا وبيروت.وأمر بتعليم كافة الأهالي جميع الحركات العسكرية وحمل السلاح لكي يسهل له حفظ الأرض الداخلي بواسطتهم وصدّ المهاجمين بواسطة الجيش المتدرب على الحرب. ولزيادة جيشه استدعى من الأقطار الحجازية والنجدية الجيوش المصرية المحتلة لها وأخذ أيضاً في توفير الأموال من بعض وجوه مصاريفها،وأطلق سراح محمد ابن عون شريف مكة الذي كان قد ألزمه الإقامة بمصر من مدّة.وبالجملة تخلى عن بلاد العرب وتركها هملاً كما كانت لاحتياجه إلى المال والرجال لأنها كانت تكلفه سنوياً مبلغاً قدره سبعمائة ألف جنيه مصري تقريباً بلا فائدة.ثم أرسل إلى ولده إبراهيم باشا الأوامر المشددة بأن يجتهد في إطفاء كل ثورة جزئية يبديها سكان الجبل من أي طائفة خوفاً من اشتداد الخطب في الداخل حين الاحتياج للانتباه لما يأتي من الخارج .

ثم في أوائل سنة ١٨٤٠ عاودت النمسا الكرة وطلبت من الدول اجتماع مؤتمر في مدينة فيينا لتسوية هذه المسألة التي أقلقت بال الجميع فقبلت الدول عقده في مدينة لوندره لا فيينا.وطلبت فرنسا أن يكون للباب العالي مندوب خصوصي في هذا المؤتمر مراعاة له لماله من السيادة العظمى على البلاد المتنازع بخصوصها .

فلما اجتمع هذا المؤتمر طلبت فرنسا إبقاء الشام كلها تحت يد محمد علي باشا فعارضتها الحكومة الإنكليزية في ذلك وأصرّت على ما طلبته أوّلاً وهو أنه

لا يعطى له إلا النصف الجنوبي منها،لكنها قبلت أخيراً بناء على إلحاح فرنسا إدخال عكا ضمن هذا القسم، بشرط أن يكون له مدّة حياته فقط ولا ينتقل إلى ورثته بل يعود إلى الدولة العلية. وقبلت الروسيا والنمسا والبروسيا ذلك لكن لم تقبله فرنسا بحجة أن حرمان ورثة محمد علي باشا من بلاد صرف السنين الطوال في فتحها ليتركها لهم بعد موته مما يزيد في حنقه على دول أوروبا وربما لم يقبل هذا القرار المجحف فتلتزم الدول بإكراهه وسفك دماء العباد ظلماً، الأمر الذي لم تجر هذه المخابرات إلا لمنعه، فشددت انكلترا وخصوصاً اللورد بالمرستون وزيرها الأوّل وأبت الا رجوع ما يعطى لمحمد علي باشا من البلاد الشامية إلى الدولة العلية بعد موته. فمن عدم الاتفاق وتشتت الآراء وبعد الوفاق لم ينجح هذا المؤتمر وبقيت الحالة على ما هي عليه. ثم لما تولى المسيو (تيرس)[1] رئاسة الوزارة الفرنساوية

(١) هو سياسي شهير ولد في مرسيليا في ١٦ ابريل سنة ١٧٩٧ وتعلم الشريعة في مدارس مرسيليا واكس واشتغل بالمحاماة الى سنة ١٨٦١، ثم سافر الى باريس واشتغل بالتحرير في الجرائد وكتب تاريخ الثورة الفرنساوية في ١٠ مجلدات طبعت من سنة ١٨٢٣ الى سنة ١٨٣١، وكان من أكبر الساعين في قلب حكومة لويس العاشر في شهر يوليو سنة ١٨٣٠، ولما تولى لويس فيليب أريكة الملك بعد هذه الثورة عينه مأموراً في الخزينة ثم ولاه وزارة المالية ثم نظارة الداخلية في وزارة المارشال سولت الأولى في ١١ اكتوبر سنة ١٨٣٤، ثم صار رئيساً لمجلس النظار أول مرة في ٢٢ فبراير سنة ١٨٣٦ وعهدت اليه أيضاً نظارة الخارجية واستمرت وزارته الى ٦ سبتمبر سنة ١٨٣٦، ثم عاد الى منصة الاحكام في أول مارث سنة ١٨٤٠ ، فطلب تحصين مدينة باريس والقيام بتجهيزات عسكرية مهمة خوفاً من الارتباكات الناشئة من تداخل الدول بين محمد علي باشا والسلطان ثم استقال لاختلافه في الرأي مع ملكه بخصوص المسألة المصرية وحينئذ ابتدأ في تاريخه عن القنصلية والامبراطورية، ثم في سنة ١٨٤٨ طعن في سياسة لويس فيليب الخارجية وساعد على عزله وانتخب عضواً في الحكومة المؤقتة وفي سنة ١٨٥١ عارض لويس نابليون في تأسيس امبراطورية ثانية فسجنه لما أعاد الامبراطورية من ٩ دسمبر سنة ١٨٥١ الى ٧ يوليو سنة ١٨٥٢ ثم في سنتي ٦٥ و٦٦ أخذ يندد على سياسة الامبراطور وصرفه النفقات الباهظة في حرب ايطاليا وحملة المكسيك، وفي سنة ١٨٧٠ كان ضد الحرب لتحققه من عدم استعداد حكومة فرنسا. ولما حصل ما أنبأ به =

في أوّل مارس سنة ١٨٤٠ لم يتبع خطة أسلافه في إنهاء المسألة المصرية بالاتحاد مع انكلترا بل أراد أن يضع لها حدّاً باتفاقه رأساً مع الباب العالي ومحمد علي باشا بأن يلزم الباب العالي أن يترك لمحمد علي باشا ولايات مصر والشام له ولذريته ويهدّده بمساعدة فرنسا لوالي مصر إن لم يذعن الباب العالي لهذه المطالب.

فأرسل لمحمد علي باشا يخبره بأن لا يقبل مطالب انكلترا بل يقوّي مركزه في الشام ويتأهب للكفاح وأن فرنسا مستعدة لنجدته لو عارضته انكلترا.

معاهدة ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠.

فلما علم اللورد بالمرستون بهذه المخابرات حنق على الحكومة الفرنساوية وبذل جهده في الاتفاق مع الروسيا وبروسيا والنمسا لإرجاع محمد علي باشا إلى حدودمصر وإلزامه بالقوة إن لم يطع. ولقد نجح بالمرستون في مسعاه وأمضى بتاريخ ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ مع من ذكر من الدول معاهدة صدّق عليها مندوب الدولة العلية مقتضاها.

أولاً: أن يلزم محمد علي باشا بإرجاع ما فتحه للدولة العلية ويحفظ لنفسه الجزء الجنوبي من الشام مع عدم دخول مدينة عكا في هذا القسم.

ثانيا: أن يكون لإنكلترا الحق بالإتفاق مع النمسا في محاصرة فرض الشام ومساعدة كل من أراد من سكان بلاد الشام خلع طاعة المصريين والرجوع إلى الدولة العلية، وبعبارة أخرى تحريضهم على العصيان لإشغال الجيوش المصرية في الداخل كي لا تقوى على مقاومة المراكب النمساوية والإنكليزية.

= من تغلب البروسيا ألح بالمدافعة عن باريس وسعى لدى الدول للمساعدة في اقامة هدنة فلما لم يفلح عادالى فرنسا وانتخب في مجلس نوابها. ثم في ١٧ مارث سنة ١٨٧١ تعين رئيساً للسلطة الاجرائية فتمكن من دفع الغرامة الحربية قبل ميعادها وخلص بذلك وطنه من احتلال الأجنبي. وفي ١٦ أغسطس أطال مجلس النواب مدته ثلاث سنين ولقبه بلقب رئيس الجمهوريه. ثم استقال في ٢٤ مايو سنة ١٨٧٣ لمعاكسة الأحزاب له وخلفه المارشال ماكماهون. وله تآليف سياسية شهيرة واشتهر أيضاً في الخطابة وتوفي في سنة ١٨٧٩ واحتفلت الأمة الفرنساوية بجنازته احتفالاً عظيماً.

ثالثاً : أن يكون لمراكب الروسيا والنمسا وانكلترا معاً حق الدخول في البوسفور لوقاية القسطنطينية لو تقدمت الجيوش المصرية نحوها .

رابعاً :أن لا يكون لأحد الحق في الدخول في مياه البوسفور ما دامت القسطنطينية غير مهددة .

خامساً :يجب على الدول الموقع مندوبوها على هذا الإتفاق أن تصدق عليه في مدة لا تزيد عن شهرين بحيث يكون التصديق في مدينة لوندره .

وشفعت هذه المعاهدة بملحق مصدّق عليه من مندوب الدولة العلية مبين فيه الحقوق والامتيازات التي يمكن منحها لمحمد علي باشا. وقبل إمضاء هذه المعاهدة ابتدأت انكلترا في تحريض سكان لبنان من دروز ومارونية ونصيرية على شق عصا الطاعة. وأرسل اللورد بونسونبي سفيرها لدى الباب العالي ترجمانه المستر وود إلى الشام لهذه الغاية وأعلم بذلك اللورد بالمرستون برسالة تاريخها ٢٩ ربيع الثاني سنة ١٢٥٦ (٣٠ يونيو سنة ١٨٤٠) محفوظة في سجلات المملكة. وبمجرد وصول المستر وود إلى محل مأموريته أخذ في نشر ذلك بين الأهالي: ولقد نجح في مأموريته وأشهر الجبليون العصيان وتجمعوا متسلحين وامتنعوا عن تأدية الخراج والمؤن العسكرية، لكن لم تتسع هذه الثورة الابتدائية لتداركها في أولها. فأرسل المدد من مصر واهتم كل من إبراهيم باشا وسليمان باشا الفرنساوي وعباس باشا الأول[1] في إخمادها فاطفئت قبل أن يتعاظم أمرها وعادت السكينة في كافة الأنحاء .

ومن ثم أخذ سليمان باشا الفرنساوي في تحصين مدينة بيروت لعلمه أنها أول ميناء معرضة لمراكب الانكليز، وكذلك بنى القلاع لحماية كل الثغور ووضع بها المدافع الضخمة، ولكن لسوء الحظ لم تجد هذه الاستحكامات نفعاً أمام مراكب

---

(١) هو عباس باشا الأول ابن طوسن باشا ابن محمد علي باشا الكبير ولد في جدة سنة ١٨١٦ حين كان والده ببلاد العرب لمقاتلة الوهابيين وتولى على الأريكة المصرية في ٢٧ الحجة سنة ١٢٦٤ (٢٤ نوفمبر سنة ١٨٤٨) بعد موت عمه ابراهيم باشا، وتوفي في ١٨ شوال سنة ١٢٧٠ (١٤ يوليه سنة ١٨٥٤)، واختلف في سبب وفاته، قيل بالسكتة وقيل مقتولاً.

الإنكليز والنمسا كما سيجيء. ولما علمت الحكومة الإنكليزية أن المرحوم محمد علي باشا مهتم في إرسال العساكر والذخائر من طريق البحر إلى الشام أرادت أن تعارضه وتعاكسه إما بأخذ دونانمته أو تشتيتها وتفريقها ليتعذر إرسال المدد براً لوجود الصحراء الرملية الفاصلة بين مصر والشام من طريق العريش، فأرسلت أوامرها في أوائل شهر يوليو سنة ١٨٤٠ إلى الكومودور نابير بأن يتوجه بمراكبه إلى مياه الشام ومصر لاستخلاص الدونانمة التركية لو خرجت من ميناء الإسكندرية وأسر أو إحراق الدونانمة المصرية لو قابلها. فلما علمت فرنسا بهذا الخبر أرسلت إحدى بوارجها البخارية إلى بيروت لتبليغ قائد الجيوش المصرية هذا الخبر المشؤوم. فرجعت في الحال المراكب المصرية إلى الإسكندرية حتى إذا وصل الكومودور نابير لم يجدها فاغتاظ لذلك ويقال أنه قبل أن يبارح مياه بيروت أرسل إلى سليمان باشا كتاباً بتاريخ ٢٤ يوليو يظهر له فيه تكدره من اجراءآت القواد المصريين في الشام ومعاملتهم الثائرين بالقسوة وأنهم إن لم يكفوا عن أعمالهم البربرية (على زعمه) اضطر للتدخل وإنزال عساكره إلى بيروت، فأجابه سليمان باشا بأنه لا يقبل ملحوظاته ويعلمه بأنه لا يخاطبه من الآن فصاعداً وإذا كان عنده ملحوظات مثل هذه فليبدها لمحمد علي باشا.

ولم يبتدىء شهر أغسطس سنة ١٨٤٠ إلا وقد ورد خبر معاهدة ١٥ يوليو إلى مصر والشام ووردت الأوامر إلى الدونانمة الإنكليزية بمحاصرة سواحل الشام وأسر المراكب المصرية، حربية كانت أو تجارية، فعاد نابير إلى بيروت بعد أن أخذ في طريقه كل ما قابله من المراكب ووصلها في ١٥ جمادى الثانية ١٢٥٦ (١٤ أغسطس ١٨٤٠) وأعلن العساكر المصرية بإخلاء بيروت وعكا في أقرب وقت، ونشر في أنحاء الشام منشورات لإعلام الأهالي بما قرّرته الدول من بقاء الشام لمصر ما عدا عكا وتحريضهم على العصيان على الحكومة المصرية وإظهار ولائهم للدولة العلية العثمانية.

وفي اليوم المذكور (١٥ جماد الثاني) بلغت هذه المعاهدة رسمياً إلى محمد علي باشا وأتت إليه بعد ذلك قناصل الدول الأربع المتحدة وعرضوا عليه باسم دولهم أن تكون ولاية مصر له ولورثته وولاية عكا له مدة حياته، وأمهلوه عشرة

أيام لإعطاء جوابه، فطلب منهم كتابة بذلك فلبوا طلبه .ثم في اليوم التالي أفهموه أن فرنسا لا يمكنها مساعدته قط وأن الدول مصممة على تنفيذ ما اتفقت عليه ولو أدّى ذلك إلى حرب أوروبية لكنه أصرّ على عدم القبول والدفاع عن حقه إلى آخر رمق من حياته وفي يوم ٢٥ جماد الثاني ١٢٥٦ (٢٤ أغسطس ١٨٤٠) الذي هو غاية الميعاد المعطى له حضر إليه القناصل ومعهم مندوب الدولة وأخبروه بأنه لا حق له الآن في ولاية عكا وأن الدول لا تسمح له إلا بولاية مصر فقط له ولذريته فاحتدم عليهم غضباً وطردهم من عنده قائلاً لهم كيف يجوز أن أسمح لكم بالمقام في بلادي وأنتم وكلاء أعدائي في هذه الديار، فانصرفوا وأعطوه عشرة أيام أخر لابداء جوابه بحيث إن لم يجاوب تكون الدول غير مسؤولة عما يحصل له من الضرر .وبعد انقضاء هذه المدة بدون أن يبدي لهم جوابه كتب القناصل بذلك إلى سفراء الدول باستانبول فاجتمعوا مع الصدر الأعظم وقرّروا باتحادهم أخذ مصر والشام من محمد علي باشا .

وفي أثناء هذه المدة كانت فرنسا اتباعاً لرأي المسيو تيرس تستعد للقتال مساعدة لمحمد علي باشا ولكن لسوء حظ الأمة المصرية كانت هذه الاستعدادات غير كافية ولا تتم إلا بعد ستة أشهر لعدم وجود السلاح والذخائر الكافية للحرب لا سيما وأن فرنسا تكون في هذه الحالة مقاومة لأكبر دول أوروبا .

ولما تحقق أهالي فرنسا أن حكومتهم لا تقوى على مساعدة محمد علي باشا فعلاً بعد أن جرأته على المقاومة ووعدته بالمساعدة هاج الرأي العام على المسيو تيرس المعضد لهذه السياسة التي عادت على مصر بالضرر العظيم حتى التزم للاستعفاء في يوم ٣ رمضان سنة ١٢٥٦ (٢٩ اكتوبر سنة ١٨٤٠)،لكن لم يجد استعفاؤه لمصر نفعاً لوقوفها بمفردها أمام أربع دول من أعظم الدول شأناً وأعلاها مكانة وأكثرها قوّة إذ أرسلت فرنسا أوامرها لدونانمتها أوّلاً بالإنسحاب إلى مياه اليونان ثم بالعودة إلى فرنسا وترك مصر والشام لمراكب انكلترا تحرق موانئها بمقذوفاتها الجهنمية .

وكان رجوع الدونانمة الفرنساوية في ٩ اكتوبر سنة ١٨٤٠،أي قبل استعفاء المسيو تيرس بعشرين يوماً .

هذا ولم تشترك الدول الأربع في محاربة محمد علي باشا بل قامت انكلترا وحدها بهذا العمل وساعدتها النمسا والدولة ببعض مراكبها وعساكرها البرية للنزول إلى البر إذا اقتضى الحال ذلك .

وأما دولـة البروسيا فلم يكن لها مراكب إذ ذاك والروسيا لم ترد الابتعاد عن القسطنطينية .

ولما وصل إلى سليمان باشا بلاغ الكومودور نابير وعلم بمنشوراته للأهالي أعلن في الحال بجعل البلاد تحت الأحكام العسكرية وذلك خوفاً من قيام الجبليين اتباعاً لمشورة الإنكليز وأدخل في مدينة بيروت العدد الكافي من الجند وأرسل لابراهيم باشا أن يحضر إليه بجيشه الذي كان معسكراً بقرب مدينة (بعلبك) ليشتركا في المدافعة عن موانئ الشام، فوصل إبراهيم باشا إلى بيروت وعسكر في ضواحيها. وفي ١٢ رجب سنة ١٢٥٦ (٩ سبتمبر سنة ١٨٤٠) وصل الأميرال (ستو بفورد) الذي كان يجول بمراكبه أمام الإسكندرية إلى مياه بيروت ليشترك مع الكومودور نابير في إطلاق المدافع على موانئ الشام. وفي اليوم التالي وصلهما العساكر البرية وكانت مؤلفة من ألف وخمسمائة من المشاة الإنكليزية وثمانية آلاف بين أتراك وأرنؤود .

وفي يوم ١٤ رجب (١١ سبتمبر) أنزلت هذه العساكر إلى البر في نقطة تبعد نحو ستة أميال في شمال بيروت ولم يتمكن إبراهيم باشا من منعهم لوجود هذه النقطة تحت حماية المدافع الإنكليزية .

وفي ظهر ذلك اليوم بعد نزول هذه العساكر إلى البر أُرسل إلى سليمان باشا بلاغ من الأميرالين الانكليزي والنمساوي بأن يخلي مدينة بيروت حالاً فطلب منهم مسافة أربع وعشرين ساعة كي يتداول مع ابراهيم باشا في هذا الأمر الجلل، فلم يقبل طلبه وابتدأ في إطلاق المدافع على المدينة واستمرّ إطلاقها حتى المساء، وابتدىء أيضاً في اليوم التالي قبل الفجر ولم تقطع إلا بعد هدم أو حرق أغلب المدينة وأحرقت كذلك كل الثغور الشامية قصد استخلاصها من محمد علي باشا وإرجاعها إلى الدولة العلية كما كانت، مع أن محمد علي باشا لم يأت بأمر يدل على رغبته في الخروج من تحت ظل الراية العثمانية بل لم يزل مؤكداً إخلاصه

وولاءه للدولة ولم يطلب إلا بقاء هذه الولايات له ولذريته مع تبعيتهم للباب العالي ودفعهم الخراج له اعترافاً ببقاء تلك التبعية .ولولا تقلب الأحوال بينه وبين السلطان لتم بينهما الإتفاق على أحسن وفاق وحقنت دماء العباد ويدل على رغبة الطرفين في ذلك إرسال الباب العالي ساريم بيك أولاً وعاكف أفندي ثانياً إلى محمد علي باشا لحل هذه المسألة .

ولا يخفى أن محمد علي باشا هو الذي خلص مصر من فئة المماليك الباغية ونشر بجميع جوانبها لواء الأمن وتسبب في ازدياد الزراعة ونمو التجارة حتى توفرت لمصر أسباب التمدن وتيسر بهذه الكيفية لقوافل التجارة الأوروباوية المرور بين الإسكندرية والسويس بدون خوف من تعدّي أحد عليها.وله الفضل أيضاً في استئصال شافة الوهابيين من بلاد العرب وإعادة الأمن إلى طريق الحجاج واستخلاص مدينتي مكة والمدينة منهم بعد أن استحال إذلالهم على أيدي العساكر الشاهانية فضلاً عن أنه هو الذي فتح بلاد الروم.ولولا ما حصل لأعادها إلى الدولة العلية بعدما يئست من رجوعها إليها، وهو الذي أعاد الأمن إلى ربوع الشام بعد احتلاله لها ومنع تعدّي البدو على الحضر.كما أنه أبطل القتال المستمر الذي كان لا ينقطع دائماً بين الدروز والمارونية الأمر الذي لم يحصل مثله قبل احتلاله ولا بعده [1]. وقد انحرف الأمير الكبير بشير عن موافقة إبراهيم باشا بعد أن حافظ على ولائه مدة،رغبة في أن يعطي له من لدن الباب العالي اسم أمير الجبل وينادى له بذلك على رؤوس الأشهاد، فانعكس عليه أمره وعاد عليه شؤم خيانته. فعزل عن إمارة الجبل وألزم بمفارقة الشام فانتبه من غفلته وندم على ما كان منه حيث لا ينفعه الندم ثم أوصلته إحدى السفن الإنكليزية إلى بيروت فقابله هناك

---

(١) أريد بذلك ما حصل في بلاد الشام من تعدي الدروز على المارونية بل وعلى كافة المسيحيين من الطوائف الأخر سنة ١٨٦٠ وقتلهم إياهم واحراقهم بيوتهم وانتهاكهم حرمة كنائسهم وعرض نسائهم ولولا حماية عبد القادر الجزائري لنصارى دمشق لقتلوا عن آخرهم الأمر الذي أوجب تدخل فرنسا واحتلال عساكرها البلاد الشامية مدة سنتين تقريباً ولولا نزاهة نابليون الثالث لصار هذا الاحتلال أبدياً . أقول : شارك عبد القادر موقفه كثيرون ، وساعدوا في إطفاء نار الفتنة .

الأميرال ستوبفورد، وبعد أن عنفه على تذبذبه الذي حصل منه ونفاقه الذي أدّاه إلى أن يتبع الأقوى شوكة، وعدم حفظه للعهود،أمر بإرساله وتابعيه مع قليل من عائلته إلى جزيرة مالطة ولم يجبه إلى ما طلبه من إرساله إلى إيطاليا أو فرنسا فوصل هذه الجزيرة في ٦ رمضان سنة ١٢٥٦ (أول نوفمبر سنة ١٨٤٠) وكان عمره إذ ذاك خمساً وثمانين سنة ومضى ما بقي من عمره مفكراً في أسباب زوال النعمة وسوء عاقبة التذبذب وأن الأحوط للإنسان والأجدر به أن يحافظ على عهوده لأنه لو مات مع المحافظة عليها لمات بالشرف والمجد ولو عاش مع الخيانة والتلوّن لعاش مع الفضيحة والعار وتوفي في سنة ١٢٦٧ (سنة ١٨٥٠) في القسطنطينية ودفن في غلطه.

إخلاء المصريين لبلاد الشام

هذا ولنقل بالاختصار أن المراكب الإنكليزية والعساكر المختلطة التي أنزلت إلى البر في عدة مواضع تمكنت من أخذ جميع المدن الواقعة على البحر وإخراج المصريين منها حتى لم ير محمد علي باشا بدأً من الإذعان إلى مطالب أوروبا وأنه من العبث المحض مقاومة الدول المتحدة،فأصدر أوامره إلى ولده إبراهيم باشا بعدم تعريض عساكره للقتال والموت بلا فائدة وباستدعاء الجنود المعسكرة في حدود الشام والانجلاء عنها مع اتخاذ أنواع الاحتراس الكلي من العرب وسكان الجبل. فبلغ إبراهيم باشا هذه الأوامر إلى القوّاد جميعهم وأخذ الجنود في الرجوع من كل فج. وصاروا يتجمعون حول قائدهم الأعظم الذي قادهم غير مرة إلى النصر والظفر. وبعد ذلك قسم الجيش عدّة فرق كل منها تحت أمرة أحد ممن اشتهر من القوّاد بالبسالة والتبصر في عواقب الأمور وسار الكل راجعين إلى مصر تاركين البلاد التي سفكوا فيها دماءهم وتركوا فيها قبور إخوانهم.

وكان ابتداء الجيش في الرجوع إلى مصر في شوّال سنة ١٢٥٦ (أواسط شهر دسمبر سنة ١٨٤٠) ووصل الكل إلى القاهرة بعد أن ذاقوا مرارة النصب وتحملوا أنواع الذل والتعب وقاسوا شديد الوصب مما تكل عن وصفه الأقلام ولا تحيط بنعته الأوهام ويكدّر الأذهان فضلاً عن موت كثير منهم في الطريق بسبب مناوشات

العرب[1] الذين زادت قحتهم وجراءتهم لما تحققوا عدم تمكن المصريين من العودة وراءهم واقتفاء آثارهم ومع ذلك فقد تمكن سليمان باشا من إرجاع مائة وخمسين مدفعاً بخيولها إلى مصر وكثير من خيول السواري التي هلك قسم عظيم منها بسبب العطش وشدّة التعب .

وأما إبراهيم باشا وفرقته فلم يمكنهم العودة إلى القاهرة من طريق صحراء العريش لشدّة ما لاقوه أثناء مرورهم في فلسطين من معارضة العرب لهم وسدّهم الطريق عليهم واحتلالهم جميع القناطر[2] المبنية على الأنهر حتى اضطر لمحاربتهم في كل يوم بل وفي كل ساعة .

وأخيراً وصل مدينة غزة بعد أن استشهد في الطريق ثلاثة أرباع من معه وكثير من المستخدمين[3] الملكيين الذين أرادوا الرجوع إلى وطنهم مع عـائلاتهم فلما وصل غزة كتب لوالده إشعاراً بقدومه وطلب منه إرسال ما يلزم له من المراكب لنقل فرقته إلى الإسكندرية وما يلزم لمؤونتهم وملبسهم .

وفي أثناء هذه المدّة عرض الكومودور نابير على محمد علي باشا أن الحكومة الإنكليزية تسعى لدى الباب العالي في إعطاء مصر له ولورثته لو تنازل عن الشام وردّ الدونانمة التركية إلى الدولة العلية فامتثل لهذا الأمر وقبل هذه الشروط لحفظ مصر لذريته ،وتم بينهما الاتفاق في ٢ شوّال سنة ١٢٥٦ (٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤٠) .

ولم يقبل الباب العالي هذا الاتفاق إلا بعد تردّد وإحجام وتداول عدّة مخاطبات بينه وبين وكلاء الدول الأربع المتحدة المجتمعين بمدينة لوندره بصفة مؤتمر، وصدر بذلك فرمان همايوني في تاريخ ٢١ ذي القعدة سنة ١٢٥٦ (١٤ يناير سنة ١٨٤١) هذا نصه نقلاً عن قاموس جلاد :

«رأينا بسرور ما عرضتموه من البراهين على خضوعكم وتأكيدات أمانتكم وصدق عبوديتكم لذاتنا الشاهانية ولمصلحة بابنا العالي .فطول اختباركم وما لكم

---

(١) يقصد بالعرب البدو .

(٢) القناطر أي الجسور .

(٣) المستخدمين الملكيين أي الموظفين المدنيين .

من الدراية بأحوال البلاد المسلمة إدارتها لكم من مدة مديدة لايتركان لنا ريباً بأنكم قادرون بما تبدونه من الغيرة والحكمة في إدارة شؤون ولايتكم على الحصول من لدنا الشاهاني على حقوق جديدة في تعطفاتنا الملوكية وثقتنا بكم فتقدّرون في الوقت نفسه إحساناتنا إليكم قدرها وتجتهدون ببث هذه المزايا التي امتزتم بها في أولادكم. وبمناسبة ذلك صممنا على تثبيتكم في الحكومة المصرية المبينة حدودها في الخريطة المرسومة لكم من لدن صدرنا الأعظم ومنحناكم فضلاً على ذلك ولاية مصر بطريق التوارث بالشروط الآتي بيانها :

متى خلا منصب الولاية المصرية تعهد الولاية إلى من تنتخبه سدّتنا الملوكية من أولادكم. الذكور وتجري هذه الطريقة نفسها بحق أولاده وهلم جرّا وإذا انقرضت ذرّيتكم الذكور لا يكون لأولاد نساء عائلتكم الذكور حق أياً كان في الولاية وإرثها. ومن وقع عليه من أولادكم الإنتخاب لولاية مصر بالإرث بعدكم يجب عليه الحضور إلى الأستانة لتقليده الولاية المذكورة على أن حق التوارث الممنوح لوالي مصر لا يمنحه رتبة ولا لقباً أعلى من رتبة سائر الوزراء ولقبهم ولا حقاً في التقدّم عليهم بل يعامل بذات معاملة زملائه. وجميع أحكام خطنا الشريف الهمايوني الصادر عن كلخانة[1]. وكافة القوانين الإدارية الجاري العمل بها أو تلك التي سيجرى العمل بموجبها في ممالكنا العثمانية وجميع العهود المعقودة أو التي ستعقد في مستقبل الأيام بين بابنا العالي والدول المتحابة يتبع الإجراء على مقتضاها جميعها في ولاية مصر أيضاً وكل ما هو مفروض على المصريين من الأموال والضرائب يجرى تحصيله بإسمنا الملوكي.

ولكي لا يكون أهالي مصر وهم من بعض رعايا بابنا العالي معرّضين للمضار والأموال والضرائب غير القانونية يجب أن تنظم تلك الأموال والضرائب المذكورة بما يوافق حالة ترتيبها في سائر الممالك العثمانية وربع الإيرادات الناتجة من الرسوم الجماركية ومن باقي الضرائب التي تتحصل في الديار المصرية يتحصل بتمامه

---

(١) كلخانة : هي گل خانه ومعناها اللغوي بيت الورد ، وقد أطلقت على مكتب الرسائل السلطانية .

ولا يخصم منه شيء ويؤدى إلى خزينة بابنا العالي العامرة، والثلاث أرباع الباقية تبقى لولايتكم لتقوم بمصاريف التحصيل والإدارة المدنية والجهادية[1] وبنفقات الوالي وبأثمان الغلال الملزومة مصر بتقديمها سنوياً إلى البلاد المقدّسة (مكة والمدينة). ويبقى هذا الخراج مستمراً دفعه من الحكومة المصرية بطريقة تأديته المشروحة مدّة خمس سنوات تبتدىء من عام ١٢٥٧، أي من يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٤١، ومن الممكن ترتيب حالة أخرى بشأنهم في مستقبل الأيام تكون أكثر موافقة لحالة مصر المستقبلة ونوع الظروف التي ربّما تجدّ عليها.

ولما كانت واجبات بابنا العالي الوقوف على مقدار الإيرادات السنوية والطرق المستعملة في تحصيل العشور وباقي الضرائب وكان الوقوف على هذه الأحوال يستلزم تعيين لجنة مراقبة وملاحظة في تلك الولاية فينظر في ذلك فيما بعد ويجرى ما يوافق إرادتنا السلطانية.

ولما كان من اللزوم أن يعين بابنا العالي ترتيباً لصك النقود لما في ذلك من الأهمية بحيث لا يعود يحدث فيها خلاف لا من جهة العيار ولا من جهة القيمة اقتضت إرادتي السنية أن تكون النقود الذهبية والفضية الجائز لحكومة مصر ضربها بإسمنا الشاهاني معادلة للنقود المضروبة في ضربخانتنا[2] العامرة بالأستانة، سواء كان من قبيل عيارها أو من قبيل هيئتها وطرزها.

ويكفي أن يكون لمصر في أوقات السلم ثمانية عشر ألف نفر من الجند للمحافظة في داخلية مصر ولا يجوز أن تتعدى ولايتكم هذا العدد، ولكن حيث أن قوّات مصر العسكرية معدّة لخدمة الباب العالي كأسوة قوّات المملكة العثمانية الباقية فيسوغ أن يزاد هذا العدد في زمن الحرب بما يرى موافقاً في ذلك الحين. على أنه بحسب القاعدة الجديدة المتبعة في كافة ممالكنا بشأن الخدمة العسكرية بعد أن تخدم الجند مدّة خمس سنوات يستبدلون بسواهم من العساكر الجديدة، فهذه القاعدة يجب اتباعها أيضاً في مصر بحيث ينتخب من العساكر الجديدة الموجودة

---

(١) الجهادية أي العسكرية.

(٢) ضربخانة: مصنع المسكوكات.

في الخدمة حالاً عشرون ألف رجل ليبدؤوا الخدمة ، فيحفظ منها ثمانية عشر ألف رجل في مصر وترسل الألفان إلى هنا لأداء مدّة خدمتهم. وحيث أن خمس العشرين ألف رجل واجب استبدالهم سنوياً فيؤخذ سنوياً من مصر أربعة آلاف رجل حسب القاعدة المقررة من نظام العسكرية حين سحب القرعة، بشرط أن تستعمل في ذلك واجبات الإنسانية والنزاهة والسرعة اللازمة، فيبقى في مصر ثلاثة آلاف وستمائة جندي من الجنود الجديدة والأربعمائة يرسلون إلى هنا. ومن أتمّ خدمته من الجنود المرسلة إلى هذا الطرف ومن الجنود الباقية في مصر يرجعون إلى مساكنهم ولا يسوغ طلبهم للخدمة مرّة ثانية. ومع كون مناخ مصر ربما يستلزم أقمشة خلاف الأقمشة المستعملة لملبوسات العساكر فلا بأس من ذلك فقط يجب أن لا تختلف هيئة الملابس والعلائم[1] التمييزية ورايات الجنود المصرية عن مثلها من ملابس ورايات باقي الجنود العثمانية. وكذا ملابس الضباط وعلائم امتيازهم وملابس الملاحين وعساكر البحرية المصرية ورايات سفنها يجب أن تكون مماثلة لملابس ورايات وعلائم رجالنا وسفننا.

وللحكومة المصرية أن تعين ضباطاً برّية وبحرية حتى رتبة الملازم، أما ما كان أعلى من هذه الرتبة فالتعيين إليها راجع لإرادتنا الشاهانية.

ولا يسوغ لوالي مصر أن ينشىء من الآن فصاعداً سفناً حربية إلا بإذننا الخصوصي. وحيث أن الامتياز المعطى بوراثة ولاية مصر خاضع للشروط الموضحة أعلاه، فعدم تنفيذ أحد هذه الشروط موجب لإبطال هذا الامتياز وإلغائه للحال. وبناء على ذلك قد أصدرنا خطنا هذا الشريف الملوكي كي تقدّروا أنتم وأولادكم قدر إحساننا الشاهاني فتعتنوا كل الاعتناء بإتمام الشروط المقرّرة فيه وتحموا أهالي مصر من كل فعل إكراهي وتكفلوا أمنهم وسعادتهم مع الحذر من مخالفة أوامرنا الملوكية وإخبار بابنا العالي عن كل المسائل المهمة المتعلقة بالبلاد المعهودة ولايتها لكم اﻫ».

---

(١) يقصد بالعلائم جمع علامة ، والجمع الصحيح هو علامات . والقصد فيها شارات الرتب العسكرية الخ .

ولقد منحه الباب العالي أيضاً ولايات النوبة ودارفور وكردفان وسنار مدّة حياته، بدون أن تنتقل إلى ورثته كمصر، بمقتضى فرمان شاهاني أصدر في اليوم الذي أصدر فيه الفرمان الأول، أعني في ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ هذا نصه :

« إن سدّتنا الملوكية كما توضح في فرماننا السلطاني السابق قد ثبتكم على ولاية مصر بطريق التوارث بشروط معلومة وحدود معينة، وقد قلدتكم فضلاً على ولاية مصر ولاية مقاطعات النوبة ودارفور وكردفان وسنار وجميع توابعها وملحقاتها الخارجة عن حدود مصر ولكن بغير حق التوارث، فبقوّة الاختبار والحكمة التي امتزتم بها تقومون بإدارة هاته المقاطعات وترتيب شؤونها بما يوافق عدالتنا وتوفير الأسباب الآيلة لسعادة الأهلين وترسلون في كل سنة قائمة إلى بابنا العالي حاوية بيان الإيرادات السنوية جميعها .

وحيث أنه يحدث من وقت لآخر أن تهجم الجنود على قرى المقاطعات المذكورة فيأسرون الفتيان من ذكور وأناث ويبقونهم في قبضة يدهم لقاء رواتبهم، وحيث أن هذه الأمور مما تفضي معها الحال ليس فقط لانقراض أهالي تلك البلاد وخرابها بل إنها أمور مخالفة للشريعة الحقة المقدّسة، وكلا هاتين الحالتين ليست أقل فظاعة من أمر آخر كثير الوقوع، وهو تشويه الرجال ليقوموا بخفر الحريم، ذلك مما لا ينطبق على إرادتنا السنية مع مناقضته كل المناقضة لمبادىء العدل والإنسانية المنتشرة من يوم جلوسنا المأنوس على عرش السلطنة العلية، فعليكم مداركة هذه الأمور بما ينبغي من الاعتناء لمنع حدوثها في المستقبل. ولا يبرح عن بالكم أن فيما عدا بعض أشخاص توجهوا إلى مصر على أسطولنا الملوكي قد عفوت عن جميع الضباط والعساكر وباقي المأمورين الموجودين في مصر. نعم ان بموجب فرماننا السلطاني السابق تسمية الضباط المصرية لما فوق رتبة المعاون يستلزم العرض عنها لأعتابنا الملوكية، إلا أنه لا بأس من إرسال بيان باسم من رقيتم من ضباط جنودكم إلى بابنا العالي كي ترسل لهم الفرمانات المؤذنة بتثبيتهم في رتبهم. هذا ما نطقت به إرادتنا السامية فعليكم الإسراع في الإجراء على مقتضاها اهـ » .

فقبل محمد علي باشا كل هذه الشروط ولو عن غير رضا، ثم طلب من الدول

أن تساعده في تخفيف بعضها وتغيير البعض الآخر فقبلت ذلك، وأرسلت إلى الباب العالي لائحة بتاريخ ١٣ مارس سنة ١٨٤١ طلبت منه بها أن يعامله على حسب ما هو مدوّن بملحق معاهدة ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ وبلائحة ٣٠ يناير سنة ١٨٤١، فتنازلت الحضرة السلطانية بمقتضى لائحة أرسلت للدول بتاريخ ١٩ أبريل سنة ١٨٤١ بتحوير فرمانها الصادر في ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ هذه صورتها:

«إن الحضرة السلطانية الفخيمة تلقت ما تعطفت عليها به الدول المتحالفة من النصائح هذه الدفعة أيضاً، وبمناسبتها قد منحت محمد علي باشا إحساناً جديداً هو التكرم منها بإعطائه الامتيازات الآتية. ولكنها قد اشترطت عليه الانقياد التام إلى جميع الوثائق والمعاهدات المبرمة حالاً والتي ستبرم استقبالاً فيما بين الباب العالي والدول المتحالفة. وعلى ذلك أصبحت ولاية مصر تنتقل بالإرث لمحمد علي باشا وأولاده وأولاد أولاده الذكور بصورة أن يتولى الأكبر فالأكبر فيقلده الباب العالي منصب الولاية كلما خلا هذا المنصب من وال. وقد تنازل الباب العالي عن استيلائه على ربع إيرادات مصر وسيعين فيما بعد قيمة الخراج الواجب على ولاية مصر دفعه وترتيب مقداره وطريقة تحصيله بما يناسب حالة إيرادات الولاية. أما عما خص التسميات في الرتب المختلفة في العسكرية المصرية فمرخص لمحمد علي باشا أن يمنحها من نفسه حتى رتبة الأميرالاي[1] فقط. أما التسمية لما فاق على هذه الرتبة فيجب عليه أن يعرض بشانه إلى الباب العالي.

أما ما كان متعلقاً بالإدارة الداخلية وكان اتباعه واجباً في مصر كاتباعه في سائر الممالك العثمانية، فيظهر أن محمد علي باشا لا يرغب التكلم بشأنه بما ينبغي من الصراحة مع كونه قد سبق تقرير ذلك في العقد المفرد التابع لمعاهدة المحالفة، ولكن كي لا يدع الباب العالي سبيلاً للدول المتحالفة بالتضرر منه بأمر من الأمور كما لو حدث أن ارتكب محمد علي في المستقبل أعمالاً مخالفة لنقطة مهمة مسندة على المعاهدة المحكي عنها، قد قرّر وزراء الباب العالي والحالة على ما ذكر أمراً شديد الأهمية هو أن تطلب بادىء بدء الإيضاحات والتقريرات الصريحة

(١) أي لواء.

بهذا الصدد. ولذلك تحرر هذا لسعادتكم رجاء إعطاء الإيضاحات والتقريرات المذكورة من قبلكم خطاً ا هـ » .

ولما أقرّت الدول على هذا التحوير بمقتضى لائحة تاريخها ١٨ ربيع الأول سنة ١٢٥٧ (١٠ مايو سنة ١٨٤١) أصدرت الحضرة الشاهانية فرماناً آخر في ١١ ربيع آخر سنة ١٢٥٧ (٢ يونيو سنة ١٨٤١) مؤيداً لما في الفرمان السابق. وفي غرّة جمادى الآخر سنة ١٢٥٧ (٢١ يوليو سنة ١٨٤١) صدر فرمان آخر بجعل مقدار ما تدفعه الحكومة المصرية إلى الدولة العلية سنوياً ثمانين ألف كيسة[1]

ثم أخذت فرنسا وانكلترا تسعيان في إبطال شروط معاهدة (خونكاراسكله سي) القاضية بأن يكون لمراكب الروسيا حق المرور من بوغازي البوسفور والدردنيل في أي وقت شاءت .

---

(١) واستمر دفع الخراج بهذه الكيفية لغاية سنة ١٢٨٢ هـ ثم زيد مقداره الى مائة وخمسين ألف كيسة أعني ٧٥٠٠٠٠ جنية عثماني بمقتضي فرمان صادر بتاريخ ١٢ محرم سنة ١٢٨٣ (٢٧ مايو سنة ١٨٦٦) عقب تنازل الدولة العلية لمصر عن مدينتي سواكن ومصوع ومديرية التاكة وتغيير ترتيب الوراثة في خديوية مصر في عهد الخديوي الأسبق المرحوم اسمعيل باشا بأن حصرت الوراثة في الأكبر من أولاده ثم أولاد الأكبر ثم في أخوته عند عدم وجود ولد له ثم أولاد الأخوة على هذا الترتيب. وفي أول يوليو سنة ١٨٧٥ (٢٧ جمادى الأولى سنة ١٢٩٢) صدر فرمان بتحويل ادارة مدينة زيلع الى الخديوي المرحوم اسمعيل باشا بزيادة خمسة عشر ألف جنيهاً عثمانياً على الجزية. وفي ١٠ شعبان سنة ١٣٠٨ (٢١ مارس ١٨٩١) صدر أمر عال من الخديوي المرحوم توفيق باشا بالتعهد عن نفسه وعن خلفائه في الحال والاستقبال بأن تدفع الحكومة المصرية للخواجات روتشيلد وأولاده بلوندره وروتشيلد اخوان بباريس والبنك الملوكاني العثماني من أصل الويركو الواجب على الحكومة المصرية للحضرة الشاهانية مبلغ ٢٨٠٦٢ جُنيهاً انكليزياً و١٨ شلناً و٤ بنسات سنوياً ، لمدة ستين سنة ، تبتدئ من ١٠ أبريل سنة١٨٩١.
أقول : لفظ خواجه الذي جمعه على خواجات والذي معناه اللغوي المعلم أو الاستاذ كان يستعمل زمن الدولة العثمانية بمعنى السيد لغير المسلم وما زال عوام المصريين يستعملونه الى اليوم للغاية ذاتها .

وبعد مخابرات طويلة اتفقت الدول أجمع بما فيها الروسيا على أن لا يكون لأحداهن هذا الحق مطلقاً بل تبقى بوغازات الأستانة مقفلة أمام جميع الدول وأمضيت بذلك معاهدة بتاريخ ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٢٥٧ (١٣ يوليو سنة ١٨٤١) بين الباب العالي والنمسا وفرنسا وبريطانيا العظمى والروسيا والبروسيا دعيت بمعاهدة البوغازات. وبذلك تساوت الروسيا بباقي الدول وفقدت كل ما اكتسبه بمساعيها السابقة وهاك صورة هذه المعاهدة :

البند الأوّل : إن جلالة السلطان يعلن عزمه وتصميمه على حفظ واتباع القاعدة القديمة في المستقبل التي بموجبها منعت جميع مراكب الدول الأجنبية الحربية من المرور من بوغازي البوسفور والدردنيل. وإنه ما دام في حالة السلم لا يسمح لأي مركب حربي أجنبي بالمرور من هذين البوغازين .

ويعلن كل من جلالة امبراطور النمسا وملك المجر وبوهميا وملك الفرنساويين وملكة بريطانيا العظمى وإرلانده المتحدة وملك البروسيا وإمبراطور جميع الروسا باحترام هذا العزم الصادر من جلالة السلطان واتباع القاعدة المقررة سابقاً .

البند الثاني : وقد تقرر أنه مع الإقرار بعدم جواز مس هذه القاعدة المقررة قديماً فإن السلطان يحفظ لنفسه الحق كما كان له ذلك في السابق في إصدار فرمانات بجواز مرور بعض السفن الحربية الخفيفة لتكون في خدمة سفارات الدول المتحابة .

البند الثالث : وكذلك يحفظ جلالة السلطان لذاته الشريفة الحق في تبليغ صورة هذا الاتفاق لجميع الدول التي بينها وبين الباب العالي العثماني صلة مودّة ودعوتهم إلى القبول بأحكامه .

البند الرابع : يصير التصديق على هذا الاتفاق في مدينة لوندره وتتبادل التصديقات عليه بعد شهرين أو قبل ذلك إن أمكن .

وبمقتضى ذلك قد أمضاه مندوبو الدول المذكورة وبصموا عليه أختامهم تحريراً في مدينة لوندره في ١٣ يوليو سنة ١٨٤١ ميلادية .

الإمضاءآت

مسألة لبنان ومقتلة المارونية

بمجرد إخلاء الجيوش المصرية لبلاد الشام وجبال لبنان وعدم شعور سكانها بسطوة إبراهيم باشا وبطشه تحركت فيهم العداوة الدينية القديمة الكامنة في نفوسهم خوفاً من شدة بأس إبراهيم باشا وعدم رأفته في معاقبتهم، وزادت الدسائس الأجنبية لإضرام نار الشقاق وبذر الفتن الداخلية توصلا لغاياتهم الشخصية، وكانت فرنسا مساعدة للمارونية الكاتوليك، وانكلترا معضدة للدروز ضدّهم لتلجئهم على ترك المذهب الكاتوليكي واعتناق المذهب البروتستانتي[1] فيدخلوا بذلك تحت حمايتها الفعلية، ولم يعد لفرنسا حجة لحمايتهم لسبب مذهبي. وظن كل فريق من هؤلاء التعساء أن الدولة التي تغرّره تود صلاح حاله وترقيه في المدنية ولم تفقه لدخائل هذه السياسة الخبيثة التي لا يتأخر أصحابها أمام إهراق دماء الأبرياء توصلاً لمآربهم.

وبهذه الدسائس ساد الهياج في جميع أنحاء لبنان وظهر ما تكنه صدور سكانه من الأحقاد الجنسية والدينية حتى تعدّى الدروز على المارونية في سنة ١٢٥٧ هجرية (سنة ١٨٤١) ودخلوا دير القمر وارتكبوا فيه ما تقشعر منه الأبدان من النهب والسلب وقتل النساء والولدان وسبي الحرائر ولولا تدخل الجيوش بشدّة لامتدّت الثورة.

لكن لم يرق ذلك في أعين أرباب الغايات، بل ما انفكوا يوالون دسائسهم

---

(١) يظن المؤلف ان الدروز مسيحيين والحقيقة خلاف ذلك.

ويلقون بذور الفساد ويتعهدونها بالمداومة والمثابرة حتى قام الدروز ثانية في سنة ١٢٦١ هجرية (سنة ١٨٤٥) وقتلوا المسيحيين وتعدوا على قسس الكاثوليك الفرنساويين وقتلوا رئيس أحد الأديرة واسمه (شارل دي لوريت) واثنين من رهبان الدير وحرقوا جثثهم، ثم أضرموا النار في الدير حتى صار قاعاً صفصفاً، بعد أن نهبوا كل ما به من المنقولات والأمتعة بدون أن يحصل أقل أذى للمرسلين البروتستانت الامريكانيين والإنكليز، الأمر الذي يدل دلالة واضحة على أن هذه المذابح لا تخلو من تأثيرهم حتى يثبتوا للمارونية الكاثوليك أنهم لو اعتنقوا المذهب البروتستانتي لا يلحقهم ضرر ويصيرون في مأمن من تعدي الدروز فيستميلونهم للتمذهب بمذهبهم ولا يبقى لفرنسا وجه لحمايتهم. وبسبب هذه الاضطرابات المتعاقبة لم ير الباب العالي بدأ من التدخل في إدارة الجبل لمنع هذه الفتن، فعزل الأمير بشير الشهابي بعد خروج العساكر المصرية من الشام كما مر وعين مكانه والياً عثمانياً. وأبطل بذلك جميع امتيازات سكان الجبل الممنوحة لهم قديماً بمقتضى عدة معاهدات وما منح لهم أخيراً باتفاق الدول عقب جلاء العساكر المصرية عنه لتحققه أن وجود الشعوب المختلفة القاطنة به تحت حكم وال واحد أقطع للمفاسد وأمنع لظهور الضغائن الدينية بين الموارنة والدروز. فلم تقبل الدول ذلك بل اضطر الباب العالي بناء على مساعيها أن يعيد للجبل بعض امتيازاته واتفق مع سفراء الدول على أن يكون للوالي العثماني قائم مقام[1] أحدهما ماروني والآخر درزي يتولى كل منهما النظر في شؤون أبناء جنسه وذلك في سنة ١٢٥٨ هجرية (سنة ١٨٤٢).

لكن لم تنجح هذه الطريقة أيضاً لاختلاط سكان بعض القرى من موارنة ودروز فسلخ الباب العالي إقليم الجبائل[2] الآهل بالموارنة من حكومة الجبل وضمه إلى ولاية طرابلس بلا امتيازات كباقي أقاليم الجبل، فعارض بطريق الموارنة في ذلك وأرسل إلى جميع القناصل يحتج ضدّ هذا العمل المنافي للاتفاق الأخير

(١) قائم مقامين.

(٢) الجبل.

مدعياً أن الدولة لم ترد بذلك إلا إضعاف العنصر الماروني وتقوية العنصر الدرزي. فبناء على هذه الشكوى أرسل الباب العالي، بصفة وال على الشام، رجلاً اتصف بالاستقامة وأصالة الرأي يدعى أسعد باشا للنظر في تسوية هذه المسألة فارتأى ضرورة إعادة الأمير بشير الشهابي إلى إمارة الجبل كما كان فلم يقبل الباب العالي هذا الحل وانتدب آخر يدعى خليل باشا لتحقيق تشكيات الطرفين وتقديم تقرير عما يراه حاسماً للنزاع فاختلف مع أسعد باشا في الرأي وقال بأفضلية اعتبار جبل لبنان كباقي الولايات العثمانية بدون أدنى امتياز.

ولعدم قبول القناصل بهذا الرأي اتفقوا أخيراً في غضون سنة ١٢٥٩ هجرية (سنة ١٨٤٣) على أن يعين في القرى المختلطة وكيلان أحدهما درزي والآخر ماروني، ويكون كل منهما تابعاً للقائم مقام الذي على مذهبه، فلم يقبل الدروز إلا أن يكون لهم السيادة على المارونية في الجهات المختلطة وهؤلاء آثروا التتبع لإحدى الولايات العثمانية المحضة على أن يكونوا تحت سيادة الدروز.

واستحسن الباب العالي هذا الرأي الأخير، لكن لم يرق ذلك في أعين الدروز ولا في أعين المغرين لهم، فهاجوا ثانياً وقاموا على المارونية وحصلت مذبحة جمادى الأولى سنة ١٢٦١ هجرية (سنة ١٨٤٥) السابق ذكرها، فأرسلت الدولة جيوشها واحتلت البلاد سهلاً وجبلاً بصفة عسكرية وأجرت فيها الأحكام العرفية ثم دارت المخابرات بين الدول العظمى والباب العالي لتقرير ما يضمن السلام في الحال والاستقبال، فاجتمعت آراؤهم أخيراً بعد مداولات طويلة وأخذ وردّ على أن يبقى في القرى المختلفة وكيلان درزي وماروني ويعين لكل من القائمي مقام مجلس يشاركه في الإدارة مع بقائه تحت رئاسته، ويشكل كل من هذين المجلسين من عشرة أعضاء: خمسة قضاة وخمسة مستشارين، إثنان منهما من الدروز وإثنان من المارونية وإثنان من المسلمين وإثنان من المدنيين وإثنان من المتمذهبين بمذهب الأروام الأرثوذكس. ويكون من اختصاصها توزيع الضرائب بالسواء بدون نظر إلى اختلاف دين أو مذهب. أما تحصيلها فيكون بمعرفة القائمي مقام ووكلائهما في القرى والضياع.

ومن اختصاصهما أيضاً النظر في القضايا الحقوقية والجنائية وإن امتنع مندوب

أي طائفة عن الإقرار على قائمة توزيع الضرائب بدعوى أنها مجحفة بحقوق أبناء طائفتهم يرفع الأمر للوالي العثماني فيحكم فيها نهائيا، وقبل تنفيذ أحكامها يمضي عليها القائم مقام المختص، وجعل راتب كل عضو من أعضاء المجلسين ألف وخمسمائة فرنك في السنة، وراتب القائم مقام ٤٨[1] ألف فرنك سنوياً وكل من وكلائه ألف وثمانمائة فرنك.

وبذا انتهت مسألة لبنان مؤقتاً بما أن الدروز لم يقبلوا هذه التسوية الا مؤملين نوال زيادة عما فيها طبقاً لوساوس مندوبي انكلترا لهم بأنهاستمنحهم مع الوقت السيادة على جميع الشعوب الساكنة بلبنان، واستمرّت الفتن جارية مجراها حتى حصلت مذبحة سنة ١٢٧٧ هـ (سنة ١٨٦٠) وتدخلت فرنسا عسكرياً لحماية المارونية وانسحبت ثانياً بعد توطيد الأمن وحفظ حقوق الموارنة كما سيجيء.

الاصلاحات الداخلية

هذا وسار السلطان عبد المجيد خان على خطة والده المرحوم السلطان الغازي محمود خان في الإصلاحات الداخلية، حتى تجاري الدولة العثمانية باقي الدول في التمدّن والعمران فأصدر عقب توليته منصب الخلافة العظمى بقليل أمراً سامياً قرىء علناً في جمهور من الوزراء والأعيان في يوم ٢٦ شعبان سنة ١٢٥٥ هـ (٤ نوفمبر سنة ١٨٣٩) وهذا نصه مترجماً من كتاب أحمد مدحت المسمى (أس إنقلاب):

---

(١) اني أرى مبالغة في هذه الرواتب بالنسبة الى ذاك الزمن لأن الليرة الذهبية الافرنسية كانت تساوي عشرين فرنكاً وكانت من حيث وزنها وقيمتها تنقص نحو فرنك واحد عن الليرة العثمانية والليرة الانكليزية. ومعنى ذلك ان راتب القائم مقام الذي هو ٤٨ ألف فرنك كان يعني مبلغ ٢,٤٠٠ ليرة ذهبية سنوياً أو مئتي ليرة شهرياً وهذا كثير. اذ أن راتب القائم مقام من الدرجة الأولى في كافة البلاد العثمانية حتى في أوائل القرن العشرين لم يكن يتجاوز عشرين ليرة ذهبية، أي عشر هذا الراتب ومن أين للبنان أن يعطي هذه الرواتب الضخمة وكيف تتحمل ميزانيته ذلك؟! ولذا فإني أعتقد أن المبلغ هو ٤٨ ألف قرش أي ٤٨٠ ليرة بمعدل كل شهر أربعين ليرة. (المحقق).

فرمان الكلخانة

«لا يخفى على عموم الناس أن دولتنا العلية من مبدأ ظهورها وهي جارية على رعاية الأحكام القرآنية الجليلة والقوانين الشرعية المنيفة بتمامها. ولذا كانت قوة ومكانة سلطتنا السنية ورفاهية وعمارية أهاليها وصلت حدّ الغاية. وقد انعكس الأمر منذ مائة وخمسين سنة بسبب عدم الانقياد والامتثال للشرع الشريف ولا للقوانين المنيفة بناء على طروء الكوارث المتعاقبة والأسباب المتنوعة فتبدّلت قوتها بالضعف وثروتها بالفقر. وبما أن الممالك التي لا تكون إدارتها بحسب القوانين الشرعية لا يمكن أن تكون ثابتة كانت أفكارنا الخيرية الملوكية منحصرة في إعمار الممالك واتحاد ورفاهية الأهالي والفقراء من يوم جلوسنا السعيد وصار التشبث في الأسباب اللازمة بالنظر إلى مواقع ممالك دولتنا العلية الجغرافية ولأراضيها الخصبة ولاستعداد وقابلية أهاليها، لتحصل بمشيئة الله تعالى الفائدة المقصودة في ظرف خمس أو عشر سنين. واعتماداً على المعونة الإلهية واستناداً على الإمدادات الروحانية النبوية، قد رؤي من الآن فصاعداً أهمية لزوم وضع وتأسيس قوانين جديدة تتحسن بها إدارة ممالك دولتنا العلية المحروسة، والمواد الأساسية لهذه القوانين هي عبارة عن الأمن على الأرواح وحفظ العرض والناموس والمال وتعيين الخراج وهيئة طلب العساكر للخدمة ومدّة استخدامهم، لأنه لا يوجد في الدنيا أعز من الروح والعرض والناموس والمال. فلو رأى إنسان أن هؤلاء مهدّدون وكانت خلقته الذاتية وفطرته الأصلية لا تميل إلى ارتكاب الخيانة، فوقاية لحفظ روحه وناموسه لا بد أن يتشبث في بعض اجراءآت للتخلص منها. وهذا الأمر لا يخفى أنه مضرّ بالدولة والملة كما أنه إذا كان أميناً على ماله وناموسه لا يحيد عن طريق الاستقامة وتنحصر أفكاره وأشغاله في القيام بواجب الخدمة لدولته وملته، وكما أنه في حال فقدان الأمن على المال لا يميل الشخص إلى دولته وملته. ولا ينظر للانتفاع بأملاكه بل كما أنه لا يخلو دائماً من الفكر والاضطراب، فلو قدر العكس، أعني لو كان الإنسان آمناً على ماله وأملاكه، فلا شك أنه يشتغل بأموره وتوسيع دائرة تعيشه وتتولد يوماً فيوماً عنده الغيرة على الدولة والمملكة وتزداد محبته للوطن وبهذا يجتهد في تحسين حاله.

وأما مادة تعيين الخراج فكل دولة لا بد أن تكون محتاجة إلى العساكر وسائر المصاريف المقتضية للمحافظة على ممالكها وهذا لا تتيسر إدارته إلا بالنقود،والنقود لا تتحصل إلا من الخراج فلا غرو أن النظر إلى تحسين هذه المادة من أهم الأمور

هذا ولو أن أهالي ممالكنا المحروسة تخلصوا لله الحمد قبل الآن من بلوى اليد الواحدة التي كانت متسلطة على الإيرادات الوهمية، لكن أصول الالتزامات المضرة المعتبرة من ضمن أسباب الخراب التي لم يظهر منها ثمرة نافعة في أيّ حال لم تزل جارية للآن،وهذا يعد كتسليم مصالح المملكة السياسية وإدارتها المالية ليد رجل،وبالأحرى أن نقول بوضعها تحت قهره وجبره، فإنه إن لم يكن رجلاً أميناً لا شك أنه ينظر إلى فائدته الشخصية وتكون كل حركاته وسكناته عبارة عن غدر وظلم،فيلزم بعد الآن تعيين خراج مناسب على قدر اقتدار وأملاك كل فرد من أفراد أهالي المملكة ولا يؤخذ شيء زيادة عن المقرر من أحد ما وتحديد وبيان سائر مصرف عساكر دولتنا العلية البرية والبحرية وكل لوازماتهم بموجب قوانين إيجابية والإجراء بمقتضاها .

وأما مسألة الجندية فلكونها من المواد المهمة حسب ما ذكر ومع كونه مفروضاً على ذمة الأهالي تقديم العساكر اللازمة للمحافظة على الوطن،لكن الجاري للآن هو عدم النظر والالتفات إلى عدد النفوس الموجودة بالبلدة بل يطلب من بعض البلدان زيادة عن تحملها ومن البعض الآخر أنقص مما تتحمل .وهذا فضلاً عما فيه من عدم النظام فإنه موجب لاختلال موارد منافع الزراعة والتجارة.واستخدام العساكر إلى نهاية العمر أمر مستلزم لقطع التناسل، فعلى تقدير طلب أنفار عسكرية من كل بلد يلزم وضع وتأسيس أصول مستحسنة لاستخدام العساكر أربع أو خمس سنوات بطريق المناوبة.والحاصل أنه بدون تدوين هذه القوانين النظامية لا يمكن حصول القوّة والعمار والراحة فإن أساس جميع ذلك هو عبارة عن المواد المشروحة، ولا يجوز بعد الآن إعدام وتسميم أرباب الجنح جهاراً أو خفية بدون أن تنظر دعاويهم علنا بكل دقة بمقتضى القوانين الشرعية ولا يجوز مطلقاً تسلط أحد على عرض وناموس آخر.وكل إنسان يكون مالكاً لماله وملكه ومتصرفاً فيهما بكمال الحرية ولا يمكن أن يتدخل في أموره شخص آخر،وإذا فرض ورفعت تهمة على

أحد وكانت ورثته بريئي الساحة منها فبعد مصادرة أمواله لا تحرم ورثته من ميراثهم الشرعي. وتمتاز سائر تبعية دولتنا العلية من المسلمين وسائر الملل الأخرى بمساعداتنا هذه الملوكية بدون استثناء، وقد أعطيت من طرفنا الملوكي الأمنية التامة في الروح والعرض والناموس والمال بمقتضى الحكم الشرعي لكل أهالي ممالكنا المحروسة وسيعطى القرار اللازم باتفاق الآراء عن المواضيع الأخرى أيضاً. وستزاد أعضاء مجلس الأحكام العدلية على قدر اللزوم وتجتمع هناك وكلاء ورجال دولتنا العلية في بعض الأيام التي ستعين، وجميعهم يبدون أفكارهم وآراءهم بالحرية التامة بدون تحاش، وتتقرر القوانين المقتضية المختصة بالأمن على الروح والمال وتعيين الخراج، وستجري المكالمة اللازمة عنها بدار شورى باب السر عسكرية. وكلما تقرر قانون يعرض لطرفنا الملوكي لتتويج عاليه بخطنا الملوكي حتى يكون دستوراً للعمل إلى ما شاء الله. وبما أن هذه القوانين الشرعية ستوضع لإحياء الدين والدولة والملك والملة فسيؤخذ العهد والميثاق اللازم من قبلنا الملوكي بعدم وقوع أي حركة مخالفة لها وسنحلف قسماً بالله العظيم في أودة[1] الخرقة الشريفة بحضور جميع العلماء والوكلاء وسيصير تحليفهم أيضاً. وعلى هذا فكل من خالف هذه القوانين الشرعية من الوكلاء والعلماء أو أيّ إنسان كان مهما كانت صفته سيجرى توقيع العقاب اللازم عليهم بدون رعاية رتبة ولا خاطر. وسيصير تدوين قانون جزاء مختص بذلك. ولكون كافة المأمورين لهم راتب واف الآن فإن وجد منهم من يكون راتبه قليلاً سيصير ترقية حاله.

هذا ولينظر في مادة الرشوة الكريهة بتدوين قانون شديد لذلك، لأنها أعظم سبب لخراب الملك وممقوتة شرعاً. ولكون الإصلاحات المشروحة آنفاً ستزيل طوارىء الفقر والفاقة كلية. فكما أنه سيصير إعلان إرادتنا الملوكية هذه للأستانة ولكافة أهالي ممالكنا المحروسة يلزم أن تبلغ أيضاً لسفراء الدول المتحابة الموجودين بالأستانة ليكونوا شهوداً على دوام هذه الإصلاحات إلى الأبد إن شاء الله تعالى. ونسأل مالك الممالك أن يلهمنا التوفيق جميعاً وأن يصب على كل من خالف

(١) أوده أو أوطه : لفظ تركي معناه غرفة والخرقة الشريفة هي ثوب النبي ﷺ.

هذه القوانين المؤسسة سوط عذاب النقمة،وأن لا ينجح له أعمالاً مدى الدهر آمين. حرر في يوم الأحد ٢٦ شعبان سنة ١٢٥٥» .

لكن أشغلته عن إتمام هذه الإصلاحات حرب الروسيا التي قامت بسبب اختلاف فرنسا والروسيا على حماية الأماكن المقدّسة بأورشليم ودعيت بحرب القرم .

ولما انتهت هذه الحرب أصدر السلطان فرماناً جديداً ببيان الإصلاحات المقتضى إدخالها في الممالك المحروسة في ١١ جمادى الآخرة سنة ١٢٧٢ (١٨ فبراير سنة ١٨٥٦) وهذا نصه مترجماً من كتاب (أس انقلاب) .

الإصلاحات الخيرية

« من أهمّ أفكارنا السامية سعادة أحوال كافة صنوف التبعة التي أودعها الله إلى يدنا الملوكية المؤيدة،ولما بذلناه من هممنا الملوكية في هذا الشأن من يوم جلوسنا المقرون باليمين قد تزايد عمار وثروة مملكتنا العلية يوماً فيوماً وشوهدت جملة فوائد نافعة، ولكون تأييد وتوسيع نطاق النظامات الجديدة التي توفقنا إلى الآن لوضعها وتدوينها بالموافقة للموقع العالي الحائزة له دولتنا العلية بين الدول المتمدنة مطلوبنا إيصالها إلى درجة الكمال ،وقد تأيدت بعناية الله تعالى ،و بمساعي عموم تبعتنا الملوكية الجميلة وبهمة ومعاونة الدول المتحابة،حقوق دولتنا العلية الخارجية، ولذا فهذا العصر بعد بالنسبة لدولتنا العلية مبدأ زمن الخير.وبما أن من أهمّ رغائبنا المجبولة على التشفقة تقدّم الأسباب والوسائل الداخلية المستلزمة تزايد قوّة سلطتنا العلية وعمار ممالكنا السنية وحصول تمام سعادة أحوال كافة صنوف تبعة دولتنا العلية الملوكية المرتبطة بعضها ببعض بروابط الوطنية القلبية والمتساوية الماهية في نظر شفقتنا الملوكية من كل الوجود، قد أصدرنا إرادتنا الملوكية هذه بإجراء الأمور الآتية الذكر .

وهي اتخاذ التدابير المؤثرة نحو تأمين كافة التبعة الملوكية من أي دين ومذهب كانوا بدون استثناء على الروح والمال وحفظ الناموس وإخراج جميع التأمينات التي وعد بها بمقتضى الترتيبات الخيرية وخطنا الملوكي السابق تلاوته في الكلخانه من حيز القوّة إلى حيز الفعل وتقرير وإبقاء كافة الامتيازات والمعافيات الروحانية

التي منحت وأحسن بها في السنين الأخيرة والتي منحت من قبل أجدادنا العظام للطوائف المسيحية وكافة الملل الغير مسلمة الموجودين تحت ظل جناح عاطفتنا السامي بممالكنا المحروسة الملوكية. وقد صار الشروع في رؤية وتسوية الامتيازات والمعافيات الحالية للعيسويين وسائر التبعة الغير المسلمة في مهلة معينة بحيث يهتمون بعرضها إلى جانب بابنا العالي بعد المذاكرة بمعرفة المجالس التي تشكل بالبطريكخانات تحت ملاحظة بابنا العالي بحسب الإصلاحات التي يستدعيها الوقت وآثار المدنية المكتسبة وموافقة إرادتنا الملوكية. ويصير توثيق الرخصة التي أعطيت لأساقفة الطائفة المسيحية من قبل ساكن الجنان السلطان أبي الفتح محمد خان الثاني وخلفائه العظام وما صار تأمينهم عليه من قبلنا بحسب الأحوال والظروف الجديدة. وبعد إصلاح أصول الانتخابات الجارية الآن للبطاركة يصير إجراء كافة الأصول اللازمة في نصبهم وتعيينهم بالتطبيق لأحكام براءة البطريكية العالي مدى الحياة، ويصير استيفاء أصول تحليف البطاركة والمطارنة والأساقفة والحاخامات بالتطبيق للصورة التي تتقرر بين بابنا العالي وجماعة الرؤساء الروحانية المختلفة. ويصير منع كافة الجوائز والعوائد الجاري إعطاؤها للرهبان مهما كانت صورتها. وتخصص إيرادات معينة بدلها للبطاركة ورؤساء الطوائف. ويصير تعيين معاشات بوجه العدالة بموجب ما يتقرر وبحسب أهمية رتب ومناصب سائر الرهبان ولا يحصل السكوت على أموال الرهبان المسيحيين المنقولة والغير منقولة. بل يصير إحالة حسن المحافظة عليها على مجلس مركب من أعضاء تنتخبهم رهبان وعوام كل طائفة لإدارة مصالح طوائف المسيحيين والتبعة الغير مسلمة. والبلاد والقرى والمدن التي تكون جميع أهاليها من مذهب واحد لا يحصل إحداث موانع في بناء سائر المحلات التي تكون مثل مكاتب وإسبتاليات ومدافن مختصة بإجراء عاداتهم حسب هيأتها الأصلية، وعند لزوم إنشاء هذه المحلات مجدّداً بحسب استصواب البطاركة ورؤساء الملة يلزم رسمها وبيان صفة إنشائها وتقديم ذلك إلى بابنا العالي، وإما أن يجرى المقتضى فيها بموجب إرادتنا السنية الملوكية المتعلقة بقبول الصور السابق عرضها، وإما أن يصير بيان المعارضات المختصة بذلك في ظرف مدّة معينة. وإذا وجدت طائفة من مذهب منفردة بمحل وليست مختلطة مع مذاهب أخرى فلا

تصادف صعوبات في إجراء الخصائص المتعلقة بنفاذ عوائدها في هذا المحل علنا. وإذا كانت قرية أو بلدة أو مدينة مركبة أهاليها من أديان مختلفة يمكن كل طائفة منهم ترميم وتعمير كنائسها واسبتالياتها ومقابرها بحسب الأصول الموضحة بالمحلات المخصصة لهم الموجودة محلات سكنهم بها. وأما الأبنية المقتضى إنشاؤها مجدّداً يلزم أن تعرض البطاركة والمطارنة لبابنا العالي باسترحام الرخصة اللازمة عنها،فإن لم يوجد لدى دولتنا العلية موانع في الامتلاك تصدر بها رخصتنا السنية وكافة المعاملات التي تحصل فيما يماثل كل هذه الأشغال تكون مجاناً من قبل دولتنا العلية في التأمين على إجراء عوائد كل مذهب بكمال الحرية مهما كان مقدار العدد التابع لهذا المذهب. وتمحى وتزال إلى الأبد من المحررات الرسمية الديوانية كافة التعبيرات والألفاظ المتضمنة تحقير جنس لجنس آخر في اللسان أو الجنسية أو المذهب من أفراد تبعة سلطنتنا السنية .ويمنع قانوناً استعمال كل وصف وتعريف يمس الشرف أو يستوجب العار بين أفراد الناس ورجال الحكومة. وبما أن عوائد كل دين ومذهب موجود بممالكنا المحروسة جارية بالحرية فلا يمنع أي شخص من تبعتنا الملوكية من إجراء رسوم الدين المتمسك به ولا يؤذى بالنسبة لتمسكه به ولا يجبر على تبديل دينه ومذهبه .ولكون انتخاب وتعيين خدمة ومأموري سلطنتنا السنية منوطاً باستنساب إرادتنا الملوكية فيصير قبول تبعة دولتنا العلية من أيّ ملة كانت في خدماتها ومأمورياتها بحيث يكون استخدامهم في المأموريات بالتطبيق للنظامات المرعية الإجراء في حق العموم بحسب استعدادهم وأهليتهم. وإذا قاموا بإيفاء الشروط المقررة بالنظامات الملوكية المختصة بالمكاتب التابعة لسلطنتنا السنية بالنسبة للسنّ والامتحانات يصير قبولهم في مدارسنا الملكية والعسكرية بلا فرق ولا تمييز بينهم وبين المسلمين .وعدا ذلك فإن كل طائفة مأذونة بإعداد مكاتب أهلية للمعارف والحرف والصنائع ، إنما طرق التدريس وانتخاب المعلمين يكون تحت ملاحظة مجلس المعارف المختلط المعينة أعضاؤه من طرفنا الملوكي. وتحال كافة الدعاوى التجارية أو الجنائية التي تقع بين المسلمين والمسيحيين وسائر الملل الغير مسلمة أو بين التبعة المسيحية وسائر التبعة الغير مسلمة مع بعضهم على

الدواوين المختلطة والمجالس التي تعقد من قبل هذه الدواوين، واستماع الدعاوى يكون علناً بمواجهة المدّعي والمدّعى عليه وتصدّق شهادة الشهود الذين يقدّمانهم بمجرد تحليفهم اليمين حسب قواعدهم ومذاهبهم. والدعاوى المختصة بالحقوق العادية يصير رؤيتها بالمجالس المختلطة بالولايات والمديريات بحضور كل من القاضي والوالي. ويكون إجراء هذه المحاكمات بهذه المحاكم والمجالس علناً. وإذا وجدت دعاوى مثل حقوق الميراث التي تقع بين اثنين من المسيحيين أو سائر التبعة الغير مسلمة ورغب أصحاب الدعاوى رؤيتها بمعرفة المجالس أو بطرف البطريك أو الرؤساء الروحانيين بغير إحالتها على الجهة التي يرغبونها، والمرافعات التي يصير إجراؤها بحسب قانون التجارة والجنايات، يصير إنهاؤها بكل سرعة بعد ضبطها وتنقيحها وترجمتها للألسن المختلفة المتداولة في ممالكنا المحروسة الملوكية ونشرها أولاً فأولا. ومباشرة إصلاح كافة السجون المخصوصة لحبس مستحقي التأديبات الجزائية ومن تنحصر فيهم الشبهة في مدة قليلة حسب ما تقتضيه الإنسانية والعدالة، وتلغى كافة المعاملات المشابهة للإيذاء والجزاءآت البدنية. ومن يكون مسجوناً لا يعامل بغير المعاملات الموافقة لنظامات الضبط المدوّنة من قبل سلطنتنا السنية. وفضلاً عن منع الحركات التي ستقع مخالفة لها بالكلية فإنه سيصير تأديب من يأمر بإجراء ما يخالف ذلك من المأمورين ومن يجريه من الخدماء بمقتضى الجزاءآت. وستنظم الضبطيات بصورة تستدعي الأمنية الحقيقية والمحافظة على أموال وأرواح كافة التبعة الملوكية سواء كانوا بدار السلطنة السنية أو بالولايات والمدن والقرى وكما أن مساواة الخراج تستوجب مساواة سائر التكاليف والمساواة في الحقوق تستدعي المساواة في الوظائف فالمسيحيون وسائر التبعة الغير مسلمة يسحبون نمرة قرعة مثل المسلمين. ويجبرون على الانقياد للقرار الصادر أخيراً وتجري عليهم أحكام المعافاة من الخدمة العسكرية بتقديم البدل الشخصي أو النقدي. ويصير تدوين القوانين اللازمة لاستخدام التبعة الغير مسلمة في أقرب وقت من الزمن ونشرها وإعلانها. وتنتخب أعضاء المجالس الموجودة بالولايات والمديريات من التبعة المسلمة والمسيحية وغيرهما بصورة صحيحة. ولأجل التأمين على ظهور الآراء الحقيقية سيصير التشبث في إصلاح الترتيبات التي تجري في حق تشكيل

هذه المجالس لاستحصال دولتنا العلية على الأسباب والوسائل المؤثرة للوقوف على الحقيقة وملاحظة صحة نتيجة الآراء والقرارات التي تعطى عن ذلك. وبما أن مواد القوانين المدوّنة في حق بيع وتصريف العقارات والأملاك هي متساوية، ولأجل أن تمنح الأجانب الفوائد الجاري منحها للأهالي سيصرّح لهم بالتصرف بالأملاك بعد الاتفاق الذي سيبرم بين دولتنا العلية والدول الأجنبية. ولكون التكاليف والخراج الموزع على كافة تبعة سلطنتنا السنية لا ينظر فيه إلى أجناسهم ومذاهبهم بل جاري تحصيله بصفة واحدة، فيلزم المذاكرة في التدابير السريعة لإصلاح سوء الاستعمال الواقع في أخذ واستيفاء هذه التكاليف وبالأخص العشور. وما دام أن أصول أخذ العشور جارية على التوالي بدون واسطة فبدلاً عن إلزام دولتنا العلية بالإيرادات يصير اتخاذ هذه الصورة بدلاً عنها. وما دامت الأصول الحالية جارية فمن يتعرض من مأموري دولتنا العلية أو من أعضاء مجالسها للدخول في الالتزامات الجاري إعلان مزادها علناً أو أخذ حصة منها يمنع ويترتب عليه الجزاء الشديد وتتعين التكاليف المحلية بصفة لا تضر بالمحصولات ولا بالتجارة الداخلية على حسب الإمكان. وللحصول على المبالغ المناسبة التي تتخصص لأجل الأشغال العمومية يصير علاوة عوائد مخصوصة على الولايات والمديريات التي تنتفع من الطرق والمسالك المنشأة بها براً وبحراً بقدرها، وبما أنه وضع أخيراً ترتيب خصوصي في حق تنظيم وتقديم دفاتر إيرادات ومصروفات سلطنتنا السنية في كل سنة فيصير الاعتناء بإجراء كامل أحكام ذاك الترتيب ومباشرة حسن تسوية المعاشات التي يصير تخصيصها لكل من المأمورين. وبمعرفة مقام الصدارة الجليل يصير جلب مأمور من المأمورين الذين سيعينون من طرفنا الملوكي مع رؤساء كل طائفة لأجل أن يتواجدوا بالمجلس الأعلى للمذاكرة في المواد المختصة بعموم تبعة سلطنتنا السنية، وهؤلاء المأمورين يعينون لمدة سنة وعندما يباشرون مأموريتهم يصير تحليفهم اليمين ولهم أن يبدوا آراءهم وملحوظاتهم بكل حرية في اجتماعات مجلسنا الأعلى العادية والتي تكون فوق العادة بدون أن يحصل لهم أدنى ضرر. وتجري أحكام القوانين المختصة بالإفساد والارتكاب والظلم في حق كافة تبعة سلطنتنا العلية مهما كانت جنسيتهم ومأمورياتهم، وذلك بالتطبيق للأصول المشروعة.

ويصير تصحيح أصول العملة وتعمل الطرق المؤدية لاعتبار مالية الدولة مثل فتح البنوك وتعيين الأسباب التي تكون منبعاً لثروة ممالكنا المحروسة المادية وتخصيص رأس المال المقتضى وفتح الجداول[1] والطرق اللازمة لتسهيل نقل محصولات ممالكنا ومنع الأسباب الحائلة دون توسيع نطاق التجارة والزراعة وإجراء التسهيلات الحقيقية لذلك. ويلزم النظر في الأسباب المؤدية لاستفادة العلوم والمعارف الأجنبية ووضعها على التعاقب في موقع الإجراء. فيا أيها الصدر الأعظم الممدوح الشيم يلزمكم إعلان هذا الفرمان الجليل العنوان الملوكي حسب أصوله بدار السعادة، ولكل طرف من ممالكنا المحروسة، وإجراء مقتضيات الخصائص المشروحة حسب ما توضح آنفاً وبذل جل الهمة في استحصال واستكمال الأسباب اللازمة والوسائل القوية للدوام والاستمرار على رعاية أحكامها الجليلة من الآن فصاعداً. ويلزمكم معرفة ذلك وإعتماد علامتنا الشريفة. حرر في أوائل شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٧٢ هـ (١٨٥٦) اهـ».

حركة سنة ١٨٤٨ بجميع أوروبا

في سنة ١٢٦٥ (سنة ١٨٤٨) حدثت بأوروبا حركة أفكار عمومية للحصول على نظامات دستورية ووضع حدّ لاستبداد الملوك فابتدأت بباريس في شهر فبراير من السنة المذكورة وكانت نتيجتها إسقاط حكومة لويس فيليب[2] الملوكية والمناداة بالجمهورية الثانية. ثم سرت منها إلى جميع الأمم والشعوب، فقام الأهالي في برلين وڤيينا وبراغ[3] وغيرها من العواصم طلباً للحرية حتى أوجب الحال

---

(١) يقصد بها الأنهار والقنوات.

(٢) ولد سنة ١٧٧٣ ولما قامت الثورة مال إليها طمعاً في الحصول على الملك ثم هاجر حينما ألغيت الملوكية كلية وبقي خارجاً عن بلاده الى سنة ١٨١٤ فعاد مع لويس الثامن عشر. وفي ٣١ يوليو سنة ١٨٣٠ انتخب ملكاً على فرنسا بعد عزل شارل العاشر الذي خلف أخاه لويس الثامن عشر بعد موته في سنة ١٨٢٤ وبقي ملكاً حتى ألجأه الثورويون الى الاستعفاء في ٢٣ فبراير سنة ١٨٤٨ وهاجر الى انكلترا حتى توفي سنة ١٨٥٠.

(٣) مدينة عظيمة باوروبا الوسطى يبلغ عدد سكانها ٢٥٠٠٠٠ نسمة وهي عاصمة بلاد =

استعمال الجنود ضدّ الأهالي وإطلاق المدافع عليهم في هذه العواصم،وامتدّت أيضاً إلى بلاد بولونيا التي سبق تقسيمها بين الروسيا والنمسا والبروسيا وإلى بلاد المجر التي صارت تابعة لمملكة النمسا بعد إنسلاخها عن الدولة العثمانية كما مرّ في موضعه .

لكن لما كانت الروسيا لا تود رجوع مملكة بولونيا إلى سابق وحدتها،وكذلك لا ترغب انفصال المجر عن النمسا وتشكلها بهيئة حكومة مستقلة خوفاً من أن تكون حجر عثرة في طريق تقدمها نحو الأستانة أرسلت جيوشها إلى بولونيا لإطفاء شرر الثورة قبل امتدادها وساعدت النمسا على محاربة المجر لإدخالها في طاعتها كما كانت،وطلبت من الدولة العلية بإلحاح كاد يفضي إلى القتال تسليم من التجأ إلى بلادها من زعماء المجر فامتنعت الدولة عن تسليمهم طبقاً لقانون الدول القاضي بعدم تسليم المجرمين السياسيين .

اتفاق بلطه ليمان

وكان من نتائج حركة سنة ١٨٤٨ العمومية أن طمحت أنظار أهالي الأفلاق والبغدان للاستقلال والانضمام إلى سكان ترنسلفانيا وبكوفين لتكوين مملكة رومانية جديدة، فثارتا على أميريها واضطرتاهما إلى الفرار وأقامتا مكانه حكومة مؤقتة فأرسلت الدولة العلية جيوشها تحت قيادة عمر باشا أحد قوّادها المشهورين لإعادة الأحوال إلى ما كانت عليه،فأرسلت الروسيا عساكرها إلى بلاد البغدان في ٢٢ رجب سنة ١٢٦٥ (١٣ يونيو سنة ١٨٤٨) وطردت الحكومة المؤقتة واحتلت إمارة الأفلاق فعارضت الدولة واحتجت ضدّ هذا الاحتلال وصارت الحرب بينهما أقرب من حبل الوريد .ثم دارت بينهما المخابرات للوصول إلى ما يمنع الحرب واتفقتا أخيراً في أوّل مايو من السنة المذكورة على أن يبقى حق

= بوهيميا الداخلة من ضمن مملكة النمسا والمجر مع بعض الامتيازات.وفي سنة ١٨٦٦ أمضي فيها بين النمسا وألمانيا الصلح الذي أخرج النمسا عن الاتحاد الألماني وجعل للبروسيا السيطرة على كل ألمانيا . وأقول : هي الآن عاصمة تشيكوسلوفاكيا.

تعيين الأمراء بهاتين الولايتين للدولة العلية كما كان، وأن يحتل البلاد جيش مؤلف من جنود تركية وروسية مدّة سبع سنوات حتى يستتب الأمن وسمي هذا الإتفاق باتفاق (بلطه ليمان)[1] نسبة إلى المحل الذي أمضي فيه .

أسباب حرب القرم

قد علم مما سبق أن المنافسات كانت دائمة بين قسوس الارثوذكس والكاتوليك بشأن التملك، أو بالحري إقامة شعائر دينهم في الكنائس المعتبرة عندهم في مدينة أورشليم، مهد الديانة المسيحية كما أنها منشأ الديانة الموسوية. وبسعي فرنسا الحائزة بمقتضى عدّة معاهدات قديمة وخصوصاً بمقتضى الامتيازات الممنوحة لها في سنة ١٧٤٠ لحماية جميع قسوس الكاتوليك بالممالك المحروسة تحصل هؤلاء القسوس على امتياز امتلاك هذه الكنائس. وكانت الروسيا تسعى من جهة أخرى لتجريد الكاتوليك من هذا الامتياز وإعطائه للارثوذكس، لما بينها وبينهم من الوحدة المذهبية لتتمكن بواسطتهم من بث سياستها ونشر نفوذها بين رعايا الدولة العلية المتمسكين بهذا المذهب البالغ عددهم زيادة عن عشرة ملايين من النفوس، وبالتالي يكونون لها بمثابة آلة صماء تحرّكها كيف تشاء لترويج مقاصدها. ولاشتغال فرنسا بحروب الثورة ثم الحروب النابوليونية مدّة ٢٢ سنة تقريباً من سنة ١٧٩٣ إلى سنة ١٨١٥، وضعف الحكومات الملوكية بعد ذلك، وحصول ثورة سنة١٨٤٨، لم يمكنها التمسك بحقوقها هنالك، فتعدّى على امتيازات قسوسها كهنة الارثوذكس. ثم لما عين نابوليون الثالث[2] رئيساً للجمهورية الفرنساوية الثانية باسم البرنس

(١) فرضة صغيرة على بوغاز البوسفور من تركية أوروبا بالقرب من الاستانة واشتهرت بامضاء هذه المعاهدة بها .

(٢) هو ابن لويس بونابرت أخي نابوليون الأول الذي كان عينه أخوه ملكاً لهولاندا ولد في مدينة باريس في ٢٠ ابريل سنة ١٨٠٨ وهاجر مع والديه بعد سقوط الامبراطورية الأولى وأقام في بلاد سويسرة ودخل في جيشها بوظيفة ضابط واشترك في ثورات إيطاليا. وفي سنة ١٨٣٦ حضر الى مدينة ستراسبورج وأراد احداث ثورة لقلع لويس فيليب وتعيينه مكانه فلم يفلح وقبض عليه، وبعد أن سجن مدة أبعد خارج فرنسا وأنزل في =

لويز نابوليون فاتح الدولة العلية في هذه المسألة لإرضاء الرأي العام في فرنسا واستمالته إليه، فعين الباب العالي لجنة مشكلة من عدة أعضاء مختلفي المذهب لفصلها بمقتضى المعاهدات القديمة. وهذه اللجنة قرّرت بعد عدّة اجتماعات متوالية بأولوية الكاتوليك في امتلاك عدّة كنائس وأديرة، فعارضت الروسيا في نفاذ هذه الاتفاقية المؤرخة في ١٤ ربيع الثاني ١٢٦٨ (٦ فبراير سنة ١٨٥٢) وهدّدت الباب العالي بالحرب لو أمر بنفاذها فتردّدت الدولة في إنفاذها لكن من جهة أخرى شدّدت فرنسا في التمسك بحقوقها التي قررتها اللجنة الأخيرة. وحيث أن الدولة اعتمدت هذا القرار فلا بد من تنفيذ ما اعترفت بصحته، ولذلك اضطرت الدولة العثمانية لتنفيذ مضمون قرار اللجنة الأخيرة.

فاتخذت الروسيا هذا الخلاف ذريعة لتنفيذ وصية بطرس الأكبر وأرسلت البرنس (منشيكوف) من سان بطرسبورج إلى الأستانة بصفة سفير غير اعتيادي

= الولايات المتحدة وفي سنة ١٨٤٠ أتى الى فرنسا ثانياً ونزل بثغر بولونيا فضبط-وحكم عليه مجلس السناتو بالسجن المؤبد وسجن في قلعة هام الى سنة ١٨٤٦، فهرب والتجأ الى بلاد البلجيك. ولما حصلت ثورة فبراير سنة ١٨٤٨ أتى مسرعاً الى فرنسا وبذل جهده حتى عين رئيساً للجمهورية. وفي ٢ دسمبر سنة ١٨٥١ منع مجلس النواب من الاجتماع وسجن أعضاءه وعمل كل الوسائط حتى عين رئيساً للجمهورية لمدة عشر سنين وزيدت اختصاصاته. وفي ٧ نوفمبر سنة ١٨٥١ أبطلت الجمهورية وصار هو امبراطورا باسم نابوليون الثالث وفي مدته حصلت عدة حروب لم تعد على فرنسا بأقل فائدة سوى قتل عساكرها المدربة وإثقال كاهلها بالديون فحارب المكسيك بأمريكا وأراد جعلها امبراطورية وتعيين البرنس مكسمليان أخي امبراطور النمسا امبراطوراً عليها فلم يفلح. وقتل أهالي المكسيك الامبراطور مكسمليان وانسحبت العساكر الفرنساوية. وحارب الروسيا في القرم وحارب الصين وفتح ما بقي من بلاد الجزائر وأخيراً حارب البروسيا وانهزم في واقعة سيدان في ٢ سبتمبر سنة ١٨٧٠ وأخذ أسيراً الى ألمانيا فنادت فرنسا بالجمهورية الثالثة في أربعة منه وهي الجمهورية الباقية للآن. وتوفي في ٩ يناير سنة ١٨٧٢ وانتهت الحرب بانهزام فرنسا وسلخ ولايتين من بلادها وضمها الى ألمانيا. وأقول: وفي سنة ١٩٤٧ أعلنت الجمهورية الرابعة وفي سنة ١٩٥٨ أعلنت الجمهورية الخامسة وهي التي ما زالت قائمة الى اليوم ١٩٨٠ م.

للمخابرة في مسألة الأماكن المقدّسة ظاهراً. وفي الحقيقة لم يكن القصد من إرساله إلا إيجاد أسباب الشقاق للتوصل إلى إعلان الحرب بحجة مقبولة لدى الدول كما سيظهر ذلك فيما بعد. فسافر هذا السفير من عاصمة الروسيا في أوّل جمادى الأولى سنة ١٢٦٩ (١٠ فبراير سنة ١٨٥٣) ماراً باقاليم الروسيا الجنوبية قاصداً دار الخلافة العظمى وأخذ يراقب تجمع الجيوش بقرب التخوم العثمانية ويستعرضها باحتفال زائد لزيادة الإيهام والتأثير على أفكار رجال الدولة وعظمائها.

وفي أثناء ذلك عمل القيصر نيقولا على سبر أفكار (السير هاملتن سيمور) سفير انكلترا لدى حكومته مظهراً له ضرورة اتحاد دولتي الروسيا وانكلترا معاً على إضعاف نفوذ فرنسا في الشرق وأخذ الاحتياطات لتجزئة بلاد الدولة العلية، حيث صار من المستحيل على زعمهم شفاء هذا المريض (يعني بذلك دولتنا العثمانية المحفوظة). وخوفاً من تشتت تركته بعد وفاته عرض عليه أنه يتساهل مع انكلترا لو ساعدته على نفاذ مشروعه في إعطائها القطر المصري وجزيرة كريد، فلم يجبه السفير الانكليزي جواباً شافياً بل بالعكس أجاب القيصر أن الأولى معالجة هذا المريض وتعهده بالعناية حتى ينقه من مرضه ويعود لسابق قوّته لأنه لو مات حصلت حروب تهدر فيها الدماء أنهاراً عند تقسيم تركته، ولم يكن ذلك من الدولة الانكليزية حباً بتقوية الدولة العلية أو شغفاً ببقائها بل خوفاً من امتداد الروسيا في الشرق واحتلالها الأستانة فتشارك انكلترا في ملك البحار الذي انفردت هي به.

ومن جهة أخرى خابر نابليون الثالث حكومة الملكة فكتوريا[1] بشأن الاتحاد مع الباب العالي لتنفيذ العهود السابقة المختصة بالأماكن المقدّسة حتى لا ينتشر نفوذ الروسيا بين رعايا الدولة العلية الارثوذكس الذين ربما بلغ عددهم أحد عشر مليوناً من النفوس لا سيما وأن حماية الروسيا على أورشليم وما جاورها مما يجعل انكلترا في وجل على أقرب طرقها لمستعمراتها الهندية وهي طريق مصر فاقتنعت

---

(١) ولدت هذه الملكة سنة ١٨١٩ وتولت سنة ١٨٣٧ وتزوجت في سنة ١٨٤٠ بالبرنس البرت أحد أمراء ألمانيا ورزقت منه بثمانية أولاد وتوفي زوجها سنة ١٨٦١ ولم تزل حاكمة الى يومنا هذا ١٨٩٦ . وأقول : توفيت سنة ١٩٠١ .

انكلترا بضرورة مقاومة نفوذ الروسيا في هذه الأصقاع خصوصاً وقد اطلعت على مقاصد القيصر التي كاشف بها السير هاملتن سيمور سفيرها لديه .

ولما رأى امبراطور الروسيا عدم إصغاء انكلترا لطلباته فاتح سفير فرنسا المسيو (كستلباجاك) في أمر التساهل معها على تقرير الأمور في بلاد فلسطين طبق مرادها، وعرض عليه أن تتساهل الروسيا هي أيضاً مع فرانسا في مقابلة ذلك بل وتساعدها على امتلاك القطر التونسي لتقوية نفوذها في بلاد الغرب ومراقبة اجراءآت انكلترا في جزيرة مالطه، لكنه لم يجد من السفير الفرنساوي أذناً صاغية كما كان يؤمل لأن مساعي نابليون الثالث كانت موجهة لإرجاع مجد فرنسا السابق إليها وجعلها صاحبة الكلمة في جميع أحوال أوروبا كما كانت في عهد عمه نابليون الأول .

هذا ولما وصل البرنس (منشيكوف) إلى الأستانة بعد أن أجرى على الحدود عدّة تظاهرات حربية كان معه عدة ضباط عظام برية وبحرية صاروا يرافقونه أثناء زياراته الرسمية للوزراء لزيادة التأثير على عقولهم. وتظاهر بعدم مراعاة الأصول والعوائد المتبعة في مقابلة جلالة السلطان ولولا توسط سفيري فرنسا وانكلترا لانتشبت الحرب بسبب هذه الإجراءآت المغايرة لآداب السياسة. فتحقق للعموم من ذلك أن قصد الروسيا الوحيد هو إعلان الحرب على الدولة العلية وتقسيم ممالكها المحروسة. ولذلك أرسلت فرنسا دونانمتها البحرية إلى مياه اليونان فألقت مراسيها في فرضة سلامين[1] في ٢٤ ربيع الثاني سنة ١٢٦٩ (٤ أبريل سنة ١٨٥٣) استعداداً للحوادث التي لم تكن في الحسبان أما انكلترا فأذنت لمراكبها بالتربص في مالطة لحين صدور أوامر جديدة لها. وفي أثناء ذلك كان البرنس منشيكوف يبذل جهده لدى الباب العالي للحصول على تجديد شروط معاهدة (خونكاراسكله سي) القاضية بأن يكون للروسيا حماية جميع المسيحيين الموجودين ببلاد الدولة وكان الباب العالي يماطله في الإجابة. وأخيراً أعاد السلطان رشيد باشا إلى منصب

---

(١) جزيرة صغيرة ببلاد اليونان تبعد عن الساحل بنحو أربعة كيلومترات وشهيرة بانتصار (تميستوكل) اليوناني على مراكب الفرس بالقرب منها في سنة ١٤٨٠ قبل المسيح .

الصدارة الذي سبق عزله منه إرضاء للروسيا ومنعاً لأسباب الشقاق فظهر من ذلك أن السلطان قد عدل عن سياسة المسالمة وعزم على رفض طلبات الروسيا وأيد ذلك رشيد باشا فإنه رفض طلبات البرنس منشيكوف قطعياً .

ولما رأى البرنس منشيكوف هذا العدول أرسل للباب العالي بلاغاً نهائياً بتاريخ ٢٦ رجب سنة ١٢٦٩ (٥ مايو سنة ١٨٥٣) بطلبات دولته وطلب الإجابة عنها في مدّة خمسة أيام. ولما انقضت بدون أن يجاب طلبه أطالها ثمانية أيام أخرى. ولما انقضت هذه المدّة أيضاً بدون أن يحصل على مرغوبه الذي رفضه جلالة السلطان مع الإعلان باحترام حقوق الكنيسة الارثوذكسية قطع السفير الروسي العلاقات مع الباب العالي وبارح الأستانة على إحدى مراكب الروسيا في ١٧ شعبان سنة ١٢٦٩ (٢٦ مايو) المذكور مهدّداً الدولة باحتلال الجنود الروسية لإمارتي الأفلاق والبغدان إذا صممت على التوقف .

ولما أبلغت الدولة صورة هذا البلاغ الأخير إلى اللورد (ستراتفورد) سفير انكلترا وهو أبلغها إلى حكومته تغيرت أفكار انكلترا من جهة الروسيا وتحققت سوء نيتها نحو الدولة العلية فانضمت إلى فرنسا وأرسلت إلى دونانمانها بمالطة أن تنضم إلى الدونانمة الفرنساوية وتتحد معها في كافة أعمالها ،ومن ثم ظهر لجميع أوروبا أن فرنسا وانكلترا متحدتان على حماية الممالك العثمانية المحروسة ضدّ أطماع الروسيا. ثم أصدرت هاتان الدولتان أوامرهما إلى مراكبهما بالاقتراب من بوغاز الدردنيل لمدّ يد المساعدة للدولة العلية إذا اقتضى الحال. فقامت المراكب ورست في فرضة بزيكا[1] في ٢٢ رمضان سنة ١٢٦٩ (١٨ يونيه سنة ١٨٥٣) .

وبعد انسحاب البرنس منشيكوف من الأستانة أرسل المسيو دي نسلرود[2]

(١) فرضة متسعة عند مدخل بوغاز الدردنيل على شاطئ آسيا وتبعد نحو ٢٧٥ كيلومتر عن مدينة الأستانة وهي ذات أهمية حربية عظمى .

(٢) سياسي روسي شهير كان يثق به الامبراطور اسكندر الأول لأنه كان مساعداً له على سياسة الاتحاد المقدس المبني على إكراه الأمم الساعية في الاستقلال على البقاء تحت الحكومات الملوكية واشترك في كافة المعاهدات المهمة مثل معاهدتي أدرنة وخونكاراسكله سي وتوفي سنة ١٨٦٢ .

وزير خارجية الروسيا بلاغاً آخر إلى الباب العالي وأبلغ صورته إلى جميع الوزارات يقول فيه: إنه إن لم تقبل الدولة العلية اقتراحاته الأخيرة تحتل الجيوش الروسية ولايتي الأفلاق والبغدان حتى تعود الدولة عن إصرارها وترضخ لطلبات دولته. ولما أجيب بالرفض في هذه المرة أيضاً اجتازت عساكر الروسيا نهر البروث الفاصل بين أملاك الدولتين في ٢٥ رمضان سنة ١٢٦٩ (٢ يوليو سنة ١٨٥٣) واحتلت الولايتين فعلاً إذ لم يخطر ببال الروسيا أن الدول الغربية تتألب مع الدولة العلية على محاربتها لحماية الدولة. ومن جهة أخرى كان يظن أن فرنسوا جوزيف[1] امبراطور النمسا والمجر يعضده على الدولة العلية لماله عليه من الأيادي البيض في أقماع الثورة المجرية سنة ١٨٤٨.

وحقيقة كان مركز فرنسوا جوزيف حرجاً لأنه كان لا يدري أيّ الطريقين يسلك، أيتحد مع الروسيا على الدولة العلية لمجرّد مقابلة الجميل بمثله مع مخالفة هذا التحالف لمصالح بلاده أم يراعي المصلحة السياسية فقط التي لا تلائمها الإحساسات القلبية في الغالب. وأثناء تردّده هذا بذل جهده في التوفيق بين الروسيا وجارتها منعاً للحرب فيتخلص هو من هذه المسألة بدون أن يرمى بكفران الجميل، وأوعز إلى الدول بجمع مؤتمر ينعقد بمدينة ويانه تحت رئاسة ناظر خارجيته لإصلاح ذات البين بين الدولتين المتعاديتين وأن يطلب منهما عدم إعلان الحرب حتى تتم مأمورية هذا المؤتمر بل تتربص جيوشهما على ضفتي نهر الطونة، فقبلت الدول ذلك وانعقد المؤتمر في غضون شهر ذي الحجة سنة ١٢٦٩ (شهر أغسطس سنة ١٨٥٣) بويانه. واهتم مندوبو البروسيا والنمسا بالاتحاد مع مندوبي فرنسا وانكلترا في التوفيق بين الخصمين وإصلاح ذات بينهما منعاً لسفك الدماء واشتعال نيران الحرب التي ربما عمت أوروبا بأسرها وعظم خطبها وتحرّكت بسبب اشتغال الدول بهذه الحروب والأفكار الثوروية التي هاجت في سنة ١٨٤٨ وكادت تقلب جميع

---

(١) ولد هذا الامبراطور في ١٨ أغسطس سنة ١٨٣٠ وتولى الملك في ٢ دسمبر سنة ١٨٤٨ عقب استقالة عمه الامبراطور فردينان الأول وتنازل والده عن حقه في الملك وتزوج ببنت دوك بافيير في ٢٤ ابريل سنة ١٨٦٤ ولم يزل مالكاً حتى الآن.

الحكومات الملوكية. وبعد عدّة جلسات أقرّ المؤتمر على صورة وفاق قبلته الروسيا لعدم ظهور عبارته وغموض إنشائه لتؤوّله فيما بعد على ما ينطبق على غايتها ويوافق أغراضها، ورفضها الباب العالي لهذا السبب بعينه ولرغبته في عدم وجود عراقيل في المستقبل بسبب تأويل عباراته. وبذلك انفض المؤتمر بدون جدوى وتحقق الجميع سوء مقاصد الروسيا، وشجعت فرنسا وانكلترا الباب العالي على عدم التسليم بطلبات الروسيا والثبات في الدفاع عن حقوقه واعدة إياه بالمساعدة المادية على الروسيا. فأرسل الباب العالي إلى البرنس جورتشاكوف[1] قائد الجيوش الروسية المحتلة لولايتي الأفلاق والبغدان بلاغاً تاريخه أوّل محرم سنة ١٢٧٠ (٤ اكتوبر سنة ١٨٥٣) باخلاء هاتين الولايتين في ظرف خمسة عشريوماً وإلا فتعتبر بقاء الجيوش فيها إعلاناً للحرب. وأمرت عمرباشا سر عسكر الجيوش العثمانية[2] بعبور نهر الطونة وابتداء الحرب بعد هذا الأجل إن لم تكن الجيوش الروسية قد أخلتها تماماً.

ولما لم تعر الروسيا هذا البلاغ أذناً صاغية اجتاز عمر باشا النهر في أوّل صفر سنة ١٢٧٠ (٣ نوفمبر سنة ١٨٥٣). وبعد موقعة عظيمة هائلة انتصرت الجيوش العثمانية على الجيوش الروسية وأخرجتها من معاقلها الكائنة على ضفة النهر اليسرى قهراً وفاز عمر باشا وجيوشه فوزاً مبيناً أدهش جميع العالم لعدم توقع انهزام الروسيا، لكن بسبب الشتاء الشديد والبرد الكثير الثلج في هذه البلاد عاد عمر باشا إلى الحصون بدون أن يقتفي أثر الجنود الروسية المنهزمة لعدم إمكان ذلك مادياً. وكذلك على حدود الروسيا من جهة بلاد قافقاس بآسيا اجتاز العثمانيون التخوم تحت قيادة عبده باشا واحتلت قلعة سان نقولا عقب انتصارها على الروس ثم

---

(١) قائد روسي ولد سنة ١٧٩٥ وتوفي سنة ١٨٦١ وامتاز في حرب القرم وهو ابن عم البرنس جورتشاكوف السياسي المعروف.

(٢) قائد عثماني شهير نمساوي الأصل ولد ببلاد كرواسيا ١٨٠٦ وخدم مدة في الجيش النمساوي ثم هاجر الى البوسنه ودخل في دين الاسلام واستخدم في الجيش الشاهاني وترقى تدريجياً حتى وصل الى أعلى الرتب العسكرية وخدم الدولة العلية بكل صداقة واخلاص وانتصر على الروس في واقعة أوباتوريا في حرب القرم وتوفي سنة ١٨٧١.

وقفت الحرب بسبب الشتاء بعد انتصار الروس في واقعة أخرى بدون أن يتمكنوا من استرجاع هذه القلعة. وعندما شاهد الامبراطور نقولا هذا الحال الذي ما كان ليخطر له على بال، اجتمع مع فرنسوا جوزيف امبراطور النمسا وفاوضه في خوفه من نجدة الدول الغربية (فرنسا وانكلترا) للدولة العلية وسأله المساعدة والتحالف عليها، معتمداً في ذلك على مساعدته له سنة ١٨٤٨ ضدّ ثائري المجر، فلم يقبل الامبراطور ذلك وأظهر له شديد أسفه من عدم إجابة طلبه لعدم ملاءمته لمصالح البلاد التي ألقيت مقاليدها إليه.

واقعة سينوب البحرية

وفي هذه الأثناء تقدّمت السفن الفرنساوية والانكليزية من فرضة بزيكا إلى بوغاز البوسفور برضا الباب العالي لتكون أقرب إلى البحر الأسود وإلى حماية الأستانة لو حاول الروس الهجوم عليها بحراً. وأرسلت فرنسا إلى دار السعادة سفيراً حربياً فوق العادة وهو القائد (باراجي ديليه) للسعي في الصلح. وفي الحقيقة لدرس أحوال الدولة العسكرية استعداداً للقتال التي كانت تستعدّ له فرنسا ضدّ الروسيا وقابله جلالة السلطان المعظم باحتفال زائد في ١٥ الحجة سنة ١٢٦٩ (١٩ سبتمبر سنة ١٨٥٣) هو وجميع أركان حربه.

وفي ٢٨ صفر سنة ١٢٧٠ (٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٣) فاجأت الدونانمة الروسية تحت أمرة الأميرال ناشيموف الدونانمة التركية الموجودة في ميناء سينوب على البحر الأسود ودمرتها عن آخرها تقريباً، مع أنها كانت تعهدت لدولتي فرنسا وانكلترا بعدم إتيان أي أمر عدواني في البحر الأسود إذا تربصت دونانماتهما في البوسفور ولم تدخل هذا البحر. ولما حصلت هذه الواقعة على حين غفلة أمرت فرنسا وانكلترا مراكبهما بالدخول في البحر الأسود وأعلنت الروسيا رسمياً ـ أي أعلمت ـ أنه لو تعدّت إحدى المراكب الروسية على موانىء الدولة أو على إحدى مراكبها تكون مراكب الدولتين مضطرة لمنعها بالقوّة. ودخلت سفنها الحربية في البحر المذكور في ربيع الثاني سنة ١٢٧٠ (٤ يناير سنة ١٨٥٤) ومن ذلك الحين صار لا بد من الحرب قريباً بين هذه الدول والروسيا لحماية الدولة العثمانية من عدوان الروسيا وأطماعها

لا حباً في الدولة بل خوفاً من امتداد نفوذ الروسيا وبسط يدها على الأستانة .

وبعد ذلك أرسل نابليون الثالث جواباً بتاريخ ٢٩ يناير سنة ١٨٥٤ إلى الامبراطور نقولا بخط يده يشرح له فيه ماهية المسألة من أصلها وما أتته الروسيا من المماطلة والتلاعب فيها وما اقترفته من الغدر والخيانة ويعرض عليه عقد مؤتمر للنظر في الصلح بشرط خروج العساكر الروسية من ولايتي الأفلاق والبغدان وتعهد له بسحب مراكبه ومراكب انكلترا من البحر الأسود لو أخلت هي هاتين الولايتين، كل ذلك بعبارة مقبولة يظهر من خلالها ميل فرنسا إلى الصلح مع الاستعداد للحرب. فأجابه القيصر بما يشف عن عدم إمكانه الرجوع عن خطته إذ إخلاء عساكره للولايتين يعدّ إحجاماً أمام عساكر الدولة. وهذا أمر لا يقبله هو قط ما دام عنده جندي واحد. وختم خطابه بعبارة مؤدّاها أنه لم يأت في ذلك أمراً مستغرباً فانه لا يظن أن نابوليون الثالث كان يفعل غير ذلك لو كان في هذا المركز الحرج .

وبهذا صار لا بدّ من الحرب وترك سفراء الروسيا لدى فرنسا وانكلترا مقرّ وظائفهما بناء على أمر سيدهما .

وخوفاً من اتحاد النمسا والبروسيا مع فرنسا وانكلترا عليه أرسل الامبراطور نقولا المسيو أورلوف بمأمورية خصوصية إلى ويانة وبرلين ليطلب من امبراطور النمسا وملك البروسيا أن يكونا على الحيادة إن لم يرغبا في مساعدته، فلوقي أورروف في ويانه بما لم يجعل لدى القيصر شك في اتحاد النمسا مع أعدائه، وفي برلين ما حمله على الفكر بأن فريدريك غليوم ملك البروسيا[1] يكون له أكثر مما يكون عليه. ثم في ١٢ جمادى الثانية سنة ١٢٧٠ (١٢ مارس سنة ١٨٥٤) أمضي بين فرنسا وانكلترا والدولة العلية في مدينة الأستانة اتفاق على محاربة الروسيا وحماية الدولة العلية .

---

(١) ولد سنة ١٧٩٥ وتولى الملك سنة ١٨٤٠ بعد أخيه فريدريك غليوم الثالث ولم يأت في التاريخ أمراً يذكر وفي سنة ١٨٦٠ ضعفت قواه العقلية فعين غليوم الأول الشهير قيما عليه حتى توفي في السنة التالية، فخلفه الى أن توفي هو أيضاً سنة ١٨٨٨ بعد ان لم شتات ألمانيا وأسس الامبراطورية الألمانية عقب انتصاره على فرنسا في سنتي ١٨٧٠ و ١٨٧١

ومما جاء به أن ترسل فرنسا خمسين ألف جندي وانكلترا خمسة وعشرين ألفاً بشرط أن تنجلي جميعها عن بلاد الدولة بعد خمسة أسابيع تمضي من يوم عقد الصلح مع الروسيا .

وفي ٢٧ جمادى الثانية سنة ١٢٧٠ (٢٧ مارس سنة ١٨٥٤) أرسل نابوليون الثالث رسالة إلى مجلس النوّاب يخبره باعلان الحرب على الروسيا بالاتحاد مع انكلترا .

وفي ١٢ رجب سنة ١٢٧٠ (١٠ ابريل) من السنة المذكورة اتفقت فرنسا وانكلترا بمقتضى معاهدة مخصوصة أمضيت في مدينة لوندرة على أنهما يحفظان أملاك الدولة العلية ويمنعان ضم أيّ جزء منها إلى بلاد الروسيا، وأن يقدّما ما يلزم لذلك من المال والرجال لو دعى الحال لإرسال جيوش أكثر من المقرّر في معاهدة الأستانة ، وأن لا تتخابر إحداهما مع الروسيا بشأن الصلح أو توقيف القتال إلا بالاتفاق مع حليفتها .

وبعد ذلك أخذت الدولتان المتحالفتان في جمع الجيوش وما يلزم لها من المؤن والذخائر والسفن اللازمة لنقلها، وجعلت الجيوش الفرنساوية تحت قيادة المارشال دي سانت ارنو[1] والانكليزية تحت أمرة اللورد رجلان[2] ونزلت الجيوش المتحدة في غضون ابريل ومايو سنة ١٨٥٤ في فرضة غاليبولي والأستانة .

وقبل وصول الجيوش البرية كان القتال قد ابتديء فعلاً في البحر الأسود، وذلك أن الأميرال الإنكليزي دنداس أرسل إحدى مراكبه المسماة فوريوس

---

(١) قائد فرنساوي ولد سنة ١٧٩٨ واشتهر في محاربة العرب في بلاد الجزائر التي اكتسب فيها رتبه تدريجياً الى أن وصل الى رتبة فريق، ثم رقاه نابليون الثالث الى رتبة مارشال التي تعادل رتبة المشيرية الرفيعة عندنا لمساعدته له على قلب الحكومة الجمهورية في دسمبر سنة ١٨٥٢ ، وتوفي سنة ١٨٥٤ في حرب القرم بسبب مرض عادي .

(٢) قائد انكليزي شهير ولد سنة ١٧٧٨ ، وكان من أركان حرب الدوك دي ولنجتون الذي انتصر على نابليون الأول في وترلو، وحضر هذه الموقعة الشهيرة معه وقطع بها أحد ذراعيه، وتوفي في القرم سنة ١٨٥٥ بالكوليرا .

إلى ميناء أودسا[1] لحمل القنصل والرعايا الانكليزية في ٨ رجب سنة ١٢٧٠ (٦ ابريل)، فاطلقت القلاع قنابلها عليها مع أنها كانت حاملة العلم الأبيض علامة على أنها تقصد مخابرة سلمية خلافاً لأصول الحرب الدولية فاتفق الأميرال الانكليزي مع زميله الفرنساوي الأميرال هاملين على إطلاق مدافعهما على المدينة إن لم يقدّم لهما حاكمها اعتذاراً كافياً على هذا العمل العدائي فقصدا الميناء في ٢٢ رجب (٢٠ ابريل) وأبلغا طلبهما إلى الحاكم وأمهلاه ٢٤ ساعة .

ولما انقضى يوم واحد وعشرين بدون أن يأتيهما جواب ابتدأ قذف القنابل على المدينة في صبيحة ٢٤ رجب (٢٢) منه، واستمرّ إطلاقها حتى دمرت قلاع المدينة والتهمت النيران جزأ منها ثم انسحبت الأساطيل من أمامها واصطفت أمام مينا سباستوبول ودعت الدونانمة الروسية للقتال. ولما لم تخرج للمحاربة كلف الأميرالان الأميرال ليونس بضرب الثغور الروسية الواقعة على البحر الأسود، فقام بهذه المأمورية. وفي أثناء ذلك أعلن الامبراطور نقولا الحرب على الدول المعادية له في ١٣ رجب سنة ١٢٧٠ (١١ ابريل سنة ١٨٥٤) .

وأصدر أوامره إلى المارشال برنس (بسكيفتش) قائد الجيوش المعسكرة على ضفة نهر الطونة الأيسر بعبور النهر ومحاصرة مدينة (سلستريا)، فصدع المارشال بالأمر وحاصر المدينة مدّة خمسة وثلاثين يوماً، من ١٥ مايو إلى ٢٠ يونيو سنة ١٨٥٤ (من ١٧ شعبان إلى ٢٣ رمضان سنة ١٢٧٠)، بدون أن يقوى على إذلالها مع أن الجيش المحاصر كان مكوّناً من ستين ألف مقاتل ولم يكن بداخلها من الجنود العثمانية إلا خمسة عشر ألفاً (ضمنهم كثير من المصريين) تحت قيادة موسى باشا من مشاهير قوّاد الدولة الذي استشهد في الدفاع عنها .

---

(١) مدينة بجنوب الروسيا على البحر الاسود يبلغ عدد سكانها ٢٥٠ ألف نسمة وحركتها التجارية عظيمة جداً وبها كثير من المدارس العالية والجمعيات العلمية، وكان اسمها حاجي بيك. ولما فطنت كاترينه الثانية الى أهميتها أمرت سنة ١٧٩٥ بتوسيعها وتسميتها أودسا تذكارا لمستعمرة يونانية قديمة كانت بالقرب منها تدعي أودسوس. وينسب فضل تحسينها وجعلها بهذه الحالة الى الدوك دي ريشليو الفرنساوي الذي عين حاكما لها في سنتي ١٨٠٣ و١٨٠٤ .

ولما علم محالفو الدولة بتلك المقاومة التي أوقعت في قلوبهم اعتبار الجنود المظفرة وألزمتهم الاعتراف بشجاعتهم وقوّة بأسهم زحفوا بجيوشهم إلى مدينة وارنه بقصد مدّ يد المساعدة إلى المدينة المحصورة، لكن لم ينتظرهم المارشال الروسي بل رفع الحصار عن المدينة وعاد بخفي حنين، فاقتفى عمر باشا أثره وعبر نهر الطونة خلفه بعد أن هزم مؤخر جيشه عند مدينة (جورجيو)، وكان في عزمه احتلال ولايتي الأفلاق والبغدان عقب جيوش الروسيا التي كانت ابتدأت في إخلائها، لكن كانت الجيوش النمساوية قد احتلتها ومنعت عمر باشا من اتباع عساكر الروسيا حتى اجتازت نهر البروث الفاصل بين الولايتين وأملاك الروسيا بسلام.

النمسا وحرب القرم

ولنذكر هنا بطريق الإيجاز المخابرات السياسية التي أدّت إلى احتلال النمسا للولايتين.

سبق شرحنا علاقات النمسا والروسيا ومقابلة الامبراطورين في مدينة أولمتس[1] وأبنّا أن النمسا كانت لا تودّ مساعدة الروسيا كما صرّح بذلك امبراطورها، ولكنها من جهة أخرى لا ترغب مساعدة الدول الغربية بل غاية أمانيها أن تكون حكماً بينهم وتبذل قصارى جهدها في عدم امتداد أملاك الروسيا من جهة الطونة وأن تجعل لنفسها نوع سيادة على جميع البلاد الواقعة على ضفافه، ولذلك بمجرد ما علمت باتفاقي الأستانة ولوندره أبرمت مع البروسيا اتفاقاً بتاريخ ٢٢ رجب سنة ١٢٧٠ (٢٠ ابريل سنة ١٨٥٤) بأن تسيرا باتفاق في المسألة الشرقية وبلغت صورته للدول.

وفي ١٧ رمضان سنة ١٢٧٠ (١٣ يونيه من السنة المذكورة) اتفقت فرنسا وانكلترا والدولة العلية مع النمسا على أن تحتل الجيوش النمساوية ولايتي الأفلاق

(١) مدينة ببلاد النمسا يبلغ عدد سكانها عشرين ألفاً وبها مدرسة قديمة العهد جداً أسست سنة ١٢٥٧ ثم نقلت الى مدينة برون سنة ١٧٧٨ وأعيدت الى أولمتس ثانية سنة ١٨٢٧ ولم تزل بها حتى الآن.

والبغدان إذا أخلتها الروسيا وأن تتحد معهما في محاربة الروسيا لو اجتازت جيوشها جبال البلقان .

وبمقتضى هذه الاتفاقات دخلت جيوش النمسا في هاتين الولايتين بمجرد انسحاب جيوش الروسيا منها أولاً بأول ولم تعترض الروسيا ضدّ هذا الاحتلال خوفاً من إغضاب النمسا ودخولها في التحالف المنعقد ضدّها لتفضيلها وجود جيوش النمسا فيهما على وجود الأتراك أو الفرنساويين لعدم ميل النمسا للحرب وبرجوع جيوش الروسيا خلف نهر البروث وحيلولة جيوش النمسا بينها وبين نهر الطونة زال الخوف من هذه الجهة ثم اجتمع قوّاد الجيوش المتحالفة في مدينة وارنه في ٢٥ شوّال سنة ١٢٧٠ (٢١ يوليو سنة ١٨٥٤) بصفة مجلس حربي وقرّروا ضرورة نقل ميدان القتال في أراضي الروسيا، لا سيما وقد تفشت الكوليرا بين عساكرهم .وأجمعوا على إرسال العساكر إلى بلاد القرم ومحاصرة ثغر سباستوبول الشهير بمناعة حصونه وقلاعه فأرسلت إلى بحيث جزيرة القرم ستين ألف جندي من الفرنساويين والأتراك والإنكليز والمصريين ، انزلوا في فرضة (ايباتوريا)[1] في ٢٠ الحجة سنة ١٢٧٠ (١٣ سبتمبر سنة ١٨٥٤) .

وفي ٢٧ الحجة (٢٠ سبتمبر) حصلت أول موقعة بينهم وبين جيوش الروسيا كانت الدائرة فيها على الروسيا واحتل الفرنساويون عقبها المرتفعات المشرفة على نهر (الما) ،ويقال إن المارشال دي سانت أرنو ضرب خيمته في نفس المحل الذي كانت فيه خيمة القائد الروسي البرنس منشيكوف .

ولم تتبع الجيوش المتحالفة عساكر الروسيا في إنكسارها وتقهقرها نحو مدينة سباستوبول بل تربصت في مكانها ويقول العارفون إنها لو اقتفت أثرها لدخلت المدينة بدون كبير عناء لعدم تكامل استحكاماتها، لكن منع المتحالفين عن ذلك اعتقادهم في قوّة الروسيا ومناعة المكان .

وفي ٣ محرم سنة ١٢٧١ (٢٦ سبتمبر) هاجم المتحالفون فرضة (بلكلاوا)[2]

---

(١) ايباتوريا هي ايباتوريا Jev Patorija : ثغر يقع الى الغرب من جزيرة القرم .

(٢) بلكلاوا هي بلگورود Belgorod : وهي ثغر يقع في الخليج الكائن الى الجنوب من مدينة أوديسا .

ودخلوها عنوة في يوم ٥ محرم (٢٨ سبتمبر) لاحتياجهم إليها كميناء أمين لنزول الجنود والمؤن والذخائر الآتية لهم من أوروبا. وفي أثناء ذلك أمكن الروس إتمام تحصين مدينة سباستوبول براً وبحراً بكيفية جعلت الاستيلاء عليها من المستحيلات بهمة القائد الشهير تودلين[١] .

وفي ٦ محرم (٢٩ سبتمبر سنة ١٨٥٤) توفي المارشال دي سانت ارنو قائد عموم الجيوش الفرنساوية وخلفه الجنرال كانروبر[٢] وكان موته بسبب الحميات التي تفشت في الجيوش، ونقلت جثته على السفينة الحربية التي أقلته عند مجيئه من فرنسا إلى الأستانة حيث كانت امرأته بانتظاره فأجريت له التعظيمات العسكرية اللائقة برتبته ومنها إلى مرسيليا فباريس ودفن في سراي الأنفاليد[٣] .

وفي يوم ١٦ اكتوبر من السنة المذكورة قررت الحكومة الفرنساوية إعطاء امرأته بصفة استثنائية مبلغ ٢٠ ألف فرنك سنوياً معاشاً لها .

وفي ١٧ محرم (١٠ أكتوبر) ابتدىء اطلاق النار على سباستوبول .

---

(١) قائد روسي ولد سنة ١٨١٨ وتعلم الفنون الحربية في مدرسة أركان حرب، وابتدأت شهرته في بلاد القافقاس سنة ١٨٤٨ وازدادت في اقامة الحصون والاستحكامات حول سباستوبـول تحت نيران الأعداء. وفي سنة ١٨٧٧ ولي ادارة حصار بلفنه ففتحها كما سترى وتوفي في سنة ١٨٨٤ .

(٢) ولد هذا القائد الشهير في سنة ١٨٠٩ ودرس الفنون الحربية في مدرسة سان سيروترقى منها الى رتبة ملازم ثاني، وفي يناير سنة ١٨٥٠ ترقى الى رتبة لواء وفي سنة ١٨٥٣ أعطيت إليه رتبة فريق وفي ١٨ مارث سنة ١٨٨٦ ترقى الى رتبة مشير (مارشال) واشترك في حرب ايطاليا سنة ١٨٥٩ وأخذ أسيراً في ألمانيا مع المارشال بازين. وبعد انتهاء الحرب اشتغل بالسياسة نوعاً مع حزب البونابرتيين. وتوفي في ٢٧ يناير سنة ١٨٩٥ .

(٣) تأسست هذه السراي سنة ١٦٧٠ في عهد الملك لويس الرابع عشر لتكون ملجأ لمن يصاب بعاهات دائمية من الجند أثناء الحرب تمنعه من القيام بالخدمة، وكان تأسيسها من طلب الوزير لوفوا ودفنت بها جثة نابوليون الأول حينما نقلت في سنة ١٨٤٠ من جزيرة سانت هيلانه التي توفي بها ، وأقول : وفي هذا البناء كنيسة فخمة جداً من حيث نقوشها ورسومها وفيها دفن نابليون وغيره من عظماء العسكريين . وهو من الأبنية الفخمة التي تزار ويستعمل الآن دائرة لحاكم باريس العسكري .

وفي ٢٤ محرم (١٧ اكتوبر) هوجمت بكل شدّة بدون جدوى ، إذ تقهقرت الجيوش المتحالفة أمام العدوّ وخرج خلفهم الجنرال (لبراندي) قاصداً مدينة بلكلاوا ، وارتدّ على أعقابه بعد موقعة هائلة حصلت في ٢ صفر سنة ١٢٧١ (٢٥ اكتوبر سنة ١٨٥٤) .

وفي ١٣ صفر (٥ نوفمبر) خرج الروس من قلاعهم وهاجموا الجيش الإنكليزي على مرتفعات (انكرمان [1]) وكان الانكليز لا يتجاوز عددهم عشر الروس لكنهم ثبتوا حتى أسعفهم الفرنساويون والعثمانيون بالنجدة فعاد الروس بخفي حنين. وهذه الموقعة شهيرة في التاريخ الحربي لما أتاه خيالة الانكليز ومشاتهم من الثبات وقوّة الجأش .

وبعد ذلك أوقف القتال بسبب دخول البرد وانتشار الامراض في الجيوش المحاصرة واستمرت أعمال الحصار والدفاع حول مدينة سباستوبول وداخلها .

وفي هذه السنة أرسلت فرنسا وانكلترا دونانماتهما الى بحر بلطيق والبحر الأبيض الشمالي[2] والاوقيانوس الباسيفيكي لضرب الثغور الروسية ، لكن لم تعد هذه الإرساليات البحرية بفوائد تعادل مصاريفها . فقط استولى الأميرال (نابير) الانكليزي في ٢٢ القعدة سنة ١٢٧٠ (١٦ أغسطس سنة ١٨٥٤) على جزيرة (رومرسند) في بحر بلطيق بمساعدة القائد الفرنساوي براجي ديليه وأسر حاميتها .

وفي أواخر هذه السنة دارت المخابرات ثانياً في مدينة ويانه للوصول الى الصلح وإيقاف أضرار الحرب قبل اشتدادها ، وذلك أن فرنسا وانكلترا عرضتا على النمسا ان تتحد معهما ضدّ الروسيا بمعنى انها تتعهد بحماية ولايتي الافلاق والبغدان ضدّ الروسيا ، وأنه لا يجوز لاحدى الدول الثلاث المخابرة مع الروسيا إلا باطلاع حليفتيها الأخيرتين وأن فرنسا وانكلترا يساعدان النمسا بالقوة لو أعلنت الحرب بينها وبين الروسيا بسبب هذه المعاهدة فقبلت النمسا هذه الاقتراحات مبدئياً وعرضتها على ملك بروسيا اتباعاً لشروط الوفاق الذي عقد بينهمافي برلين وسبق ذكره في موضعه ،

---

(١) الصواب أقكرمان وتقع الى الجنوب من ثغر بلكلاوا الذي مر ذكره .

(٢) يقصد بحر الشمال .

فلم يقبلها فريدريك غليوم بل ألح على فرنسوا جوزيف برفضها لكن لم يصغ هذا الأخير لإلحاحه بل صدق عليها نهائياً في ١١ ربيع أول سنة ١٢٧١ (٢ دسمبر سنة ١٨٥٤) وأعلن البرنس (غورتشاكوف) الذي خلف المسيو (مياندورف) في سفارة الروسيا بمدينة ويانه أنه ان لم تقبل الروسيا الصلح قبل ختام السنة وتتعهد للدول الأربع بطلباتها وهي :

أولاً : عدم استئثار الروسيا بحماية مسيحي الدولة العلية وحماية ولايتي الافلاق والبغدان .

ثانياً : حرية الملاحة لجميع الدول في نهر الطونه .

ثالثاً : تعديل المعاهدات المختصة بالمرور في بوغازات الأستانة وخصوصاً معاهدة سنة ١٨٤١ .

رابعاً : وضع قاعدة جديدة لتوازن القوى في البحر الأسود.فتكون هذه المعاهدة الثلاثية الجديدة نافذة المفعول .

فأظهر البرنس غورتشاكوف ارتياحه لاجابة هذه الطلبات غير أنه اعتذر بعدم وجود تعليمات لديه تبيح له التصديق عليها وطلب مهلة قليلة لتبليغ صورة هذه الطلبات لدولته وطلب تعليمات جديدة منها .ثم في ٢٨ دسمبر اجتمع سفراء انكلترا وفرنسا والروسيا والنمسا عند وزير خارجية ويانه وقرروا إعطاءه المهلة المطلوبة . وبذلك انتهت هذه السنة والآمال متجهة نحو الوصول الى صلح عمومي يكون وراءه حقن دماء العباد واستمرت الاستعدادات حول سباستوبول وداخلها مدّة الشتاء.وفي ٢٩ جمادى الاولى سنة ١٢٧١ الموافق ١٧ فبراير سنة ١٨٥٥ هاجم الروس العثمانيين ومن كان معهم من الجنود المصرية التي أرسلت من مصر للمساعدة وقت الحرب طبقاً للفرمانات في مدينة أوباثويا [1] فردّهم عمر باشا القائد العثماني على أعقابهم بعد أن قتل منهم عدداً عظيماً.وقتل في هذا اليوم سليم باشا الشهير بأبي طربوش قائد الفرقة المصرية.ومما جعل لهذه الواقعة تأثيراً شديداً على الامبراطور نقولا أن الجيوش الأوروبية لم تساعد العثمانيين فيها بل كان النصر بمجرد فضل الجيوش الإسلامية التي كثيراً ما فازت على الروس وغيرهم بالغلبة. ويقال إن ما

(١) هي مدينة ايباتوريا التي مر ذكرها .

أصاب الأمبراطور الروسي من الكدر عقب هذه الكسرة كان من أكبر دواعي المرض الذي أصابه في ١٠ جماد الثاني الموافق ٢٨ فبراير من السنة المذكورة فلم يمهله الا ثلاث ليال وألحقه برمسه في صبيحة ١٢ جمادى الثاني الموافق ٢ مارس عن تسع وخمسين سنة بعد أن حكم الروسيا وملحقاتها ثلاثين سنة.وخلفه على سرير الملك ابنه اسكندر الثاني [1] .

---

(١) ولد هذا الامبراطور سنة ١٨١٨ وتولى الملك في ٢ مارث سنة ١٨٥٥ بعد موت أبيه الامبراطور نقولا فتمم حرب القرم وأمضي معاهدة باريس في ٣٠ مارث سنة ١٨٥٦ ثم أخذ في اصلاح الشؤون الداخلية والاستعداد للأخذ بالثأر،فجعل التعليم والخدمة العسكرية اجبارية.وفي سنة ١٨٦١ أصدر أمراً بعدم استرقاق المزارعين وتمليكهم منفعة الأراضي التي يزرعونها مقابل دفع جعل معين لملاكها الأصليين وأجاز لهم شراء العين وباع اقليم الاسكا بامريكا الى حكومة الولايات المتحدة بخمسة وثلاثين مليون فرنك ليتفرغ لبلاده.وفتح مدينة سمرقند وأخضع امارات خيوه وبخارى وخوقند وغيرها من بلاد آسيا.وفي سنة ١٨٦٣ سلب امتيازات بولونيا.وفي سنة ١٨٧٦ ساعد الصرب على محاربة الدولة العلية ثم أعلن الحرب عليها وبعد عدة انتصارات أمضي معها معاهدة برلين في ١٣ يوليه سنة ١٨٧٨ لكن رغما عن اصلاحاته العديدة امتدت فروع النهلست في أيامه وسعوا في قتله مراراً وقتلوه أخيراً في ١٣ مارث سنة ١٨٨١ وخلفه ابنه اسكندر الثالث الذي توفي في أول نوفمبر سنة ١٨٩٤ وتوفي بعده ابنه نقولا الثاني الموجود الآن .

أقول : لقد مر ذكر خيوه وبخارى وأما خوقندKoKand فانها تقع في بلاد الاتحاد السوفييتي الآن الى شمال افغانستان وشرق طاشقند وشمال شرق بخارى وسمرقند وهي من البلاد الاسلامية المشهورة .

حزب النهلست هم جماعة اتخذوا هذا الاسم من الأصل اللاتيني الذي يعني (لاشيء) وهم ينكرون كل الاعتقادات وهدفهم هدم كل شيءٍ من غير أن يفكروا بتعويضه بشيء جديد ، وقد انتشرت هذه العقيدة في روسيا في القرن التاسع عشر فكانت النواة للشيوعية الحاضرة .

وأقول : بدل كلمة توفي التي جاءت بحق نقولا الثاني يجب أن يكون تولى . وقد قتله الشيوعيون مع جميع أفراد أسرته سنة ١٩١٧ .

هذا وفي ٧ جمادى الأولى سنة ١٢٧١ الموافق ٢٦ يناير سنة ١٨٥٥ أمضى فكتور عمانويل[1] ملك البيمونتي بإيطاليا بمساعي وزيره الشهير المسيو دي كافور[2] معاهدة هجومية ودفاعية ضدّ الروسيا وأرسلت الى بلاد القرم جيشاً مؤلفاً من ثمانية عشر ألف مقاتل تحت امرة الجنرال (لامارمورا) للاشتراك في فتح قلعة سباستوبول وإذلال الروسيا،واستمرّت المناوشات بدون كثير فائدة لاحد الطرفين.ثم حصل خلاف بين اللورد (رجلان) القائد العام الانكليزي والجنرال (كانروبر) القائد العام الفرنساوي أفضت إلى تنازل القائد الفرنساوي في ٢٢ شعبان سنة ١٢٧١ الموافق

---

(١) هو محرر ايطاليا من ربقة الأجانب وموجد وحدتها،ولد سنة ١٨٢٠ وعين ملكاً بعد استقالة والده شارل البرت عقب انهزامه أمام جيوش النمسا في ٢٣ مارث سنة ١٨٤٩ ومن ثم اتحد مع وزيره الأول المسيودي كافور لضم شتات ايطاليا فاتحد مع نابوليون الثالث وحاربا النمسا وأخذ منها اقليم لومبارد ، ثم انضم اليها أغلب ولايات ايطاليا الوسطى.ولم تأت سنة ١٨٦٦ الا وانضمت جميع أجزاء ايطاليا ما عدا مدينة رومه. وفي ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٧٠ دخلها الايطاليون وبذلك تمت وحدتها وصارت رومه عاصمة لها.وتنازل لفرنسا عن مدينة نيس وولاية سافوا نظير مساعدتها له.وتوفي سنة ١٨٧٨ ، وأقول : هو ڤيكتور عمانوئيل الثاني . ولومبارديا هي الجزء الشمالي الغربي من ايطاليا وكان يضم اقليم ساڤوا ، الكائن في جنوب شرق فرنسا وتحده ايطاليا شرقاً . ومدينة نيس تقع على الحدود الافرنسية ـ الايطالية ، أيضاً على شاطئ البحر الأبيض وهي مدينة سياحية مشهورة في العالم كله ويسمى شاطئها الذي يمتد من مونتيكارلو حتى مرسيليا الشاطئ الأزرق أو اللازوردي .

(٢) هو السياسي الشهير الذي له اليد الطولى في توحيد ايطاليا وإليه يرجع معظم الفخر في جمع شتاتها،ولد سنة ١٨١٠ بمدينة تورينو بايطاليا وخدم أولاً في العسكرية ثم تركها واشتغل بالعلوم السياسية والاقتصادية حتى عين وزيراً للتجارة سنة ١٨٤٩ وأضيفت الى عهدته وزارة المالية أيضاً في سنة ١٨٥١.وفي السنة التالية صار رئيساً لمجلس الوزراء وتوفي في ٦ يونيو سنة ١٨٦١ قبل أن يرى نتيجة أعماله،وقبل وفاته زاره الملك فكتور عمانويل فأوصاه باحتلال روما مع عدم مس استقلال البابا فيما يختص بالأمور الدينية، فاحتلها في ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٧٠ أثناء اشتغال فرنسا بمحاربة ألمانيا .
وأقول : مدينة تورينو Torino تقع في الشمال الغربي من ايطاليا .

١٠ مايو سنة ١٨٥٥ عن القيادة العامة واكتفائه بقيادة فرقة ونيطت قيادة الجيش الفرنساوي إلى الجنرال بليسيه الذي اشتهر في الجزائر بمعاملة المسلمين بكل شدّة وتوحش. وهو بعد قليل اتفق مع اللورد رجلان واحتلوا مدينة (كريش) وبوغاز بريكوب [١] وبحر آذاق ليمنعوا وصول المدد إلى سباستوبول ومن ذلك الحين أيقن الجميع بقرب سقوط سباستوبول، ففي ٢١ مضان سنة ١٢٧١ الموافق ٧ يونيو سقطت القلعة المعروفة بالقمة الخضراء (ماملون ڤير)، وفي ٢ شوّال الموافق ١٨ يونيو، هاجم الفرنساويرن حصن (ملاكوف) وعادوا بدون أن يتمكنوا من الاستيلاء عليه بعد أن توفي كثير منهم وكذلك لم يفلح الانكليز في هجومهم في اليوم المذكور على قلعة (جران ريدان) [٢]. وبعد هذه الخيبة بعشرة أيام توفي اللورد رجلان بالكوليرا وشيعت جنازته باحتفال زائد وأرسلت جثته لتدفن ببلاده بما يليق لها من التجلة والاكرام وخلفه في القيادة العامة على الجيوش الانكليزية الجنرال جمس سمسبون. وفي ١٢ الحجة سنة ١٢٧١ (الموافق ٢٦ أغسطس) انتصر المتحدون في واقعة (تراكيتو) وفي يوم ٣ الحجة (الموافق ١٧ منه) ابتدأ اطلاق المدافع على حصن ملاكوف بدون انقطاع تقريباً إلى ظهر ٢٥ الحجة الموافق ٨ سبتمبر. وفي اليوم المذكور احتل الجنرال (ماك ماهون) [٣] الفرنساوي القلعة المذكورة بعد أن دافع عنها الروس دفاع الابطال، واحتل الانكليز قلعة جران ريدان ثم التزموا

---

(١) بريكوب هي پيريكوپ Per_ekop وتقع الى الشمال الغربي من شبه جزيرة القرم.

(٢) ماملون ڤير وملاكوف وجران ريدان كلها قلاع في شبه جزيرة القرم وقد تغيرت اسماؤها.

(٣) ولد هذا القائد الشهير سنة ١٨٠٨ وتخرج في مدرسة سان سير الحربية وترقى الى رتبة ملازم ثاني سنة ١٨٢٧ ثم ترقى تدريجاً الى أن وصل الى رتبة فريق سنة ١٨٥٢. وفي سنة ١٨٥٩ أنعم عليه برتبة مارشال (مشير) واليه يرجع معظم الفخر الذي حازته فرنسا في موقعة (ماجنتا) بإيطاليا في ٤ يونيو سنة ١٨٥٩ ولذلك منحه نابوليون الثالث لقب (دوك دي ماجنتا وفي ٢٤ مايو سنة ١٨٧٣ انتخب رئيساً للجمهورية الفرنساوية عقب استقالة المسيو (تيرس). وفي ٣٠ يناير سنة ١٨٧٩ قدم استعفاءه الى مجلس النواب لظروف ومناسبات سياسية وبقي معتزلاً الاعمال الى أن توفي في ١٧ اكتوبر سنة ١٨٩٣.

باخلائها بعد نسفها بالبارود لعدم إمكانهم البقاء فيها لانهيال المقذوفات الروسية عليهم انهيال الأمطار. وفي مساء هذا اليوم المشهود أخلى الروس مدينة سباستوبول بعد أن أحرقوها عن آخرها. وفي يوم ٢٦ الحجة (الموافق ٩ سبتمبر) احتلتها الجيوش المتحدة أو بالحري احتلوا أطلالها.

وبعد ذلك سارت الجيوش المتحدة نحو مدينة (قلبرون) فاحتلتها في ٢ صفر سنة ١٢٧٢ (الموافق ١٤ اكتوبر). وفي اليوم التالي هدم الروس قلاع مدينة أوتشاكوف وأخلوها قاصدين داخلية البلاد ولولا ابتداء فصل الشتاء الذي يأتي مبكراً بهذه البلاد لما وجدت الروسيا من الجيوش ما يكفي لا يقاف أعدائها عن المدينة (كيف)[1] المقدّسة لديهم.

هذا وفي أثناء سنة ١٨٥٥ أطلقت دونانمات فرنسا وانكلترا قنابلها على عدّة ثغور في بحر بلطيق وعطلت التجارة الروسية بالمرة وكذلك حاصرت مدخل البحر الأبيض الشمالي ومنعت المراكب التجارية من الدخول فيه بالكلية.

وفي المحيط الباسفيكي احتلت الجيوش المتحدة ميناء (بترو باولوسك)[2] الشهيرة التي ستكون في المستقبل من أهم ثغور العالم بعد امتداد الخط الحديدي المشروع في مده في أراضي سيبريا لتوصيلها باوروبا. ولم يكن للروسيا سلوان عن جميع هذه المصائب المتوالية الا استيلاؤها على قلعة قارص المعلومة الواقعة على حدود آسيا الصغرى في ١٨ ربيع الأول سنة ١٢٧٢ (الموافق ٢٨ نوفمبر) سنة ١٨٥٥.

وبعد ذلك لم تحصل وقائع حربية مهمة بل دخلت المسألة في دور سياسي لتحقق اسكندر الثاني عدم الفوز خصوصاً وان النمسا قد أظهرت له العداوة جهاراً بعد سقوط سباستوبول وانضمت مملكة السويد إلى التحالف الأوروبي ضدّها.

---

(١) كيف هي كييف Kiev وهي من أشهر مدن الاتحاد السوفييتي، وتقع الى الجنوب الغربي من موسكو والى الشمال الشرقي من رومانيا.

(٢) بتروباولوسك هي ثغر Petropavlovsk ويقع في شرق شبه جزيرة كامشتكا Kamchatskiy - الكائنة في أقصى بلاد الاتحاد السوفييتي الى الشرق والى شمال جزر اليابان.

وبيان ذلك أن البرنس غورتشا كوف السفير الروسي بويانه أتته تعليمات في أواخر سنة ١٨٥٤ تجيز له المخابرة، وجعل أساسها الطلبات الدولية الأربع التي سبق ذكرها، فقبلت الدول مع حفظ الحرية لها في الأعمال الحربية، وانعقد مؤتمر جديد في ويانه في شهر فبراير سنة ١٨٥٥ حضره اللورد (رسل) من قبل انكلترا والمسيو دروان دي لويس[1] من قبل فرنسا والبرنس غورتشا كوف عن الروسيا والكونت (دي بوول) عن النمسا والوزير عالي باشا عن الدولة العثمانية، وبعد عدّة اجتماعات متوالية انفض المؤتمر على لا شيء، لأن المندوبين الفرنساوي والانكليزي طلبا زيادة على الطلبات الأربعة الأصلية أن يكون البحر الأسود حراً لجميع الدول وأن لا يكون للروسيا فيه سوى ثمان مراكب حربية فقط فلم يمكن البرنس غورتشاكوف التصديق على ذلك تمسكاً بالأوامر المرسلة إليه. ولمناسبة اشتغال الروسيا بمحاصرة سباستوبول واشتداد الحروب حولها من جهة وحصولها على بعض انتصارات جزئية على أعدائها أبطأت في ارسال التعليمات الجديدة إليه طمعاً في تغير الأحوال وتحسنها فترفض طلبات الدول بقلب قوي، لكن خاب ظنها فسقطت سباستوبول في ٢٥ الحجة سنة ١٢٧١ (٨ سبتمبر سنة ١٨٥٥). وبذا تظاهرت باقي الدول ضدّها خصوصاً مملكة السويد التي كانت تستعمل معها الروسيا طرق التهديد والوعيد للحصول على بعض امتيازات تختص بالصيد على شواطىء النرويج فابرمت مع فرنسا وانكلترا معاهدة هجومية ودفاعية ضدّ الروسيا في ١٠ ربيع الأول سنة ١٢٧٢ (الموافق ٢٠ نوفمبر) سنة ١٨٥٢، وأعلنتها رسمياً لجميع

(١) سياسي فرنساوي ولد بباريس سنة ١٨٠٥ وتربى بمدرسة لويز الكبير ولما أتم دروسه بها دخل في الوظائف السياسية. وفي سنة ١٨٤٩ عين سفيراً بلوندره. وفي أثناء حكومة نابليون الثالث عين ناظراً للخارجية مرتين الأولى من سنة ١٨٥٢ الى سنة ١٨٥٥ واستعفى لعدم موافقته على حرب القرم لتحققه انها في صالح الانكليز ولم يعد منها على فرنسا أقل فائده. والثانية من سنة ١٨٦٢ الى سنة ١٨٦٦ واستقال أيضاً لرغبته في تدخل فرنسا عسكرياً بين النمسا والبروسيا حتى لا تفوز البروسيا بالسيادة على جميع إمارات ألمانيا واخراج النمسا من التحالف الألماني وعدم موافقة الامبراطور له. وتوفي سنة ١٨٨٠.

الدول، وبذلك تحققت الروسيا أنه صار من المستحيل عليها الانتصار على جميع هذه القوى المتألبة ضدّها ومالت إلى السلم قلباً وقالباً منتظرة أقل مفاتحة من الدول الغربية فتلبيها بالقبول .

وفي أواخر سنة ١٨٥٥ عرضت النمسا على جميع الدول المتحدة بلسان أكبر وزرائها الكونت (دي بوول) أن يرسل إلى الروسيا بلاغاً نهائياً بطلبات الدول الأصلية مع ما سبق عرضه من الاقتراحات أثناء المؤتمر الذي انعقد أخيراً بمدينة ويانه في مارث وأبريل سنة ١٨٥٥، وان لم تجب الروسيا جميع هذه الاقتراحات يستأنف القتال في ربيع سنة ١٨٥٦ بكل شدّة وصرامة وتنضم إلى الجيوش المحاربة جيوش النمسا ومملكة السويد والنرويج .

فاقرّت الدول على ذلك وقبلت الروسيا هذه الاقتراحات الأكثر تأثيراً على نفوذها مما رفضته في السابق. وبعد مخابرات طويلة تم الاتفاق على أن ينعقد مؤتمر سام جديد في مدينة باريس لتقرير السلم نهائياً وأمضي بذلك اتفاق في مدينة ويانه بتاريخ ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٢٧٢ الموافق أول فبراير سنة ١٨٥٦ وانعقد هذا المؤتمر فعلا في باريس في يوم ١٨ جمادى الثانية (الموافق ٢٥ فبراير) المذكور والأيام التالية، واختار لرئاسته الكونت (ولوسكى)[1] وزير خارجية فرنسا وتوالت اجتماعات هذا المؤتمر إلى ٢٣ رجب سنة ١٢٧٢ (الموافق ٣٠ مارث سنة ١٨٥٦) وفيه أمضيت جميع بنود معاهدة باريس الشهيرة التي أوصلت نابليون الثالث إلى أوج فخاره وأعادت لفرنسا سابق مجدها اذ أنها لم تشترك في مثل هذه الحرب من عهد نابوليون الأول وحفظت للدولة العلية أملاكها من غوائل الروسيا .

واليك نص المعاهدة حرفياً نقلاً عن الجزء الخامس من كنز الرغائب في منتخبات الجوائب :

---

(١) سياسي فرنساوي ولد سنة ١٨١٠ ودخل الجيش الفرنساوي بعد سنة ١٨٣٠ ثم اشتغل بالسياسة سنة ١٨٤٠ وعين سفيراً بلوندره سنة ١٨٥٤ ثم وزيراً للخارجية في السنة التالية واستمر بها خمس سنين وفي سنة ١٨٦٠ عين وزيراً للمدافعة عن مشروعات الحكومة أمام المجالس النيابية. وفي سنة ١٨٦٥ عين رئيساً لمجلس شورى القوانين وتوفي سنة ١٨٦٨ .

معاهدة باريس

(٢٥ فبراير- ٣٠ مارس ١٨٥٦ م)

بسم الله القادر على كل شيء

ان امبراطور الفرنسيس وملكة المملكة المتحدة من بريطانيا العظمى وارلاندا وامبراطور جميع الروسيا وملك سردينيا وسلطان البلاد العثمانية لرغبتهم في إنهاء غوائل الحرب وتلافي ما نشأ عنها من الصروف والمكاره قـرَّ رأيهم على أن يتفقوا مع امبراطور أوستريا بمقتضى قواعد مقررة على استتباب الصلح وتوطيده وتعهدوا جميعاً باستقلال السلطنة العثمانية وإبقائها تامة. ولهذا القصد نصب المشار اليهم نواباً عنهم مطلقي التصرّف، فكان من طرف امبراطور الفرنسيس مسيو الكسندر كونت كولونا ولوسكي ومسيو فرنسوا اودلف بارون دبورغيني، ومن طرف امبراطور اوستريا مسيو شارلس فرديناند كونت دبوا شونستان ومسيو يوسف الكسندر بارون دهبنر، ومن طرف ملكة المملكة المتحدة من بريطانيا الكبرى وارلاندا الأكرم جورج وليام فريدريك كونت كلارندون وبارون هيدد هندون والاكرم هنري رشارد شارلس بارون كولي، ومن طرف امبراطور جميع الروسيا مسيو الكسيس كونت ارلف ومسيو فليب بارون برونو، ومن طرف ملك سردينيا مسيو كاملي ينسور كونت كافور ومسيو صلفاطور مركيز فيلا مارينا، ومن طرف سلطان الدولة العثمانية محمد أمين عالي باشا الصدر الأعظم في السلطنة العثمانية ومحمد جميل بك متسماً بالنيشان المجيدي السلطاني من ثاني طبقة. فاجتمع هؤلاء النوّاب المفوض إليهم إبرام الصلح تفويضاً تاماً في مجلس باريس وبعد أن وقع الاتفاق بينهم على هذا المقصد الحميد رأى أمبراطور الفرنسيس وامبراطور اوستريا وملكة المملكة المتحدة من بريطانيا الكبرى وارلاندا وامبراطور جميع الروسيا وملك سردينيا وسلطان الدولة العثمانية أن في المصلحة التي يؤول نفعها الى أوروبا ينبغي أن يدعى ملك بروسيا الذي وقع على

معاهدة سنة ١٨٤١ الى الاشتراك معهم في هذا التنظيم الجديد ولعلمهم بما يحصل من ذلـك من زيادة الفائـدة لتقوية هذا السعي الخيري طلبوا منه أن يرسل من قبله نواباً يفوّض اليهم مطلق التصرف في المجلس المذكور. فمن ثم ورد من طرفه مسيو اوثون تيودور بارون مانتفيل ومسيو مكسمليان فريدريك شارلس فرنسوا كونت هتزفلدت ولدنبرغ شونستان ثم بعد أن أبرزوا ما بأيديهم من المحرّرات المؤذنة بتفويضهم ووجدت صحيحة اتفقوا على هذه المواد الآتية :

المادة ١ : من يوم تاريخ الامضاء بقبول هذه المعاهدة الحاضرة يكون صلح وموّدة بين كل من امبراطور الفرنسيس وملكة المملكة المتحدة من بريطانيا الكبرى وارلندا وملك سردينيا وسلطان الدولة العثمانية من جهة ومن امبراطور جميع الروسيا من جهة أخرى وكذا بين ورثتهم وخلفائهم ودولهم ورعاياهم على الدوام .

المادة ٢ : حيث قد حصل الفوز والمرام باستتباب الصلح بين المشار إليهم ينبغي أن تخلى البلاد التي فتحت في مدّة الحرب أو التي تبوّأ عساكرهم وذلك من كلا الطرفين ويجري له ترتيب مخصوص في أسرع وقت .

المادة ٣ : قد تعهد امبراطور جميع الروسيا بأن يردّ لسلطان الدولة العثمانية مدينة قارص وقلعتها وكذا سائر المواضع التي استولت عليها عساكر الروسيا وهي من ملحقات بلاد الدولة العثمانية .

المادة ٤ : قد تعهد امبراطور الفرنسيس وملكة بريطانيا العظمى وارلاندا وملك سردينيا وسلطان الدولة العثمانية بأن يردّوا الى امبراطور جميع الروسيا مدائـن سيفاستبول وبالقلافة وقاميش ويوبانورية وقرطش وينى قلعه[1] وكثيرون مع مراسيها وكذا سائر المواضع التي تبوّأتها عساكر الدول المتفقة .

المادة ٥ : يصدر عفو تام واف من طرف امبراطور الفرنسيس وملكة بريطانيا العظمى وارلاندا ومن امبراطور جميع الروسيا وسلطان الدولة العثمانية لجميع الذين تصدّوا من رعاياهم للاشتراك في وقائع الحرب والحزب مع العدوّ ومفهوم

(١) اسماء لم يفهم منها غير سيفاستوبول ولكن القرينة تقضي بأن تكون كل هذه القلاع في القرم أو ما حولها .

ذلك يشمل بالنص الصريح أي حزب كان من رعاياهم ممن حارب واستمر مدّة الحرب في خدمة المحارب .

المادة ٦ : يردّ من أخذ أسيراً في الحرب من كلا الطرفين على الفور .

المادة ٧ : قد صدر اعلان وتصريح من لدن امبراطور الفرنسيس وامبراطور اوستريا وملكة بريطانيا العظمى وارلاندا وملك بروسيا وامبراطور جميع الروسيا وملك سردينيا بأن للباب العالي اشتراكاً في فوائد الحقوق الاوروباوية العامة وفي منافع اتفاق أوروبا وقد تعهدوا بأن يحترموا استقلال السلطنة التركية وابقائها تامة وتكفلوا جميعاً بالمحافظة على هذا التعهد وكل أمر يفضي الى الاخلال بذلك يعتبرونه من المسائل التي ينبني عليها مصلحة عامة .

المادة ٨ : إذا حدث بين الباب العالي وإحدى الدول المتعاهدة خلاف خيف منه على اختلال الفهم وقطع صلتهم فمن قبل أن يعمد الباب العالي وتلك الدول المنازعة له الى أعمال القوة والجبر يقيمان الدول الأخرى الداخلة في المعاهدة وسطاء بينهما منعاً لما يتأتي عن ذلك الخلاف من الضرر .

المادة ٩ : سلطان الدولة العثمانية ،لعنايته بخير رعاياه جميعاً قد تفضل باصدار منشور غايته اصلاح ذات بينهم وتحسين أحوالهم بقطع النظر عن اختلافهم في الاديان والجنس وأخذ في ذمته مقصده الخيري نحو النصارى القاطنين في بلاده. وحيث كان من رغبته أن يبدي الآن شهادة جديدة على نيته في ذلك عزم على أن يطالع الدول المتعاهدة بذلك المنشور الصادر عن طيب نفس منه فتتلقى الدول المشار إليها هذه المطالعة بتأكيد ما لها من النفع والفائدة ولكن المفهوم منها صريحاً انها لا توجب حقاً لهذه الدول في أي حال كان على أن تتعرض كلا أو بعضاً لما يتعلق بالسلطان ورعاياه أو بادارة سلطنته الداخلية .

المادة ١٠ : الاتفاق الذي جرى في الثالث عشر من جولاي (تموز) سنة ١٨٤١ ، وهو الذي تقرر فيه ما للسلطنة العثمانية من الترتيب القديم بخصوص سدّ البوغاز ومضيق جناق قلعة ،قد أعيد الآن النظر فيه بمواطأة الجميع وما جرى من الحكم به لهذه الغاية على مقتضى الأصول ما بين أهل المعاهدة يلحق الآن بهذه المعاهدة الحاضرة ويبقى معمولاً به كانه من متمماتها .

المادة ١١ : البحر الأسود يكون على الحيادة (وفي الأصل نوتر) ومباحاً لتجارة جميع الأمم ،ويمنع ماؤه ومراسيه منعاً دائماً عن السفن الحربية سواء كانت للدول التي لها تملك في شاطىء البحر أو لغيرها ما عدا ما استثنى ذكره في المادتين الرابعة عشرة والتاسعة عشرة من هذه المعاهدة .

المادة ١٢ : التجارة في مراسي البحر الأسود ومياهه مطلقة عن كل مانع فلا تكون عرضة لشيء سوى التنظيمات المختصة بالصحة ورسوم الكمارك [1] والشرطة أعني الضبطية ،ويكون اجراؤه على وجه يفيد التجارة تسهيلاً واتساعاً.ومن أجل تأمين المصالح المتجرية والبحرية التي يديرها جميع الناس ترخص الروسيا والباب العالي في نصب قناصل في مراسيهم (موانيء) الكائنة على سواحل البحر المذكور على ما تقتضيه الحقوق المتداولة بين الأمم .

المادة ١٣ : حيث قد تقرر في المادة الحادية عشرة أن البحر الأسود يكون على الحيادة لم يبق لزوم ولا غرض لانشاء مسافن (أي ترسانات) بحرية حربية ولا لابقائها،فمن ثم تعهد امبراطور جميع الروسيا وسلطان الدولة العثمانية بأن لا ينشآ ولا يبقيا شيئاً من هذه المسافن في ذلك الساحل .

المادة ١٤ : قد اتفق امبراطور جميع الروسيا وسلطان الدولة العثمانية على تعيين عدد السفائن الخفيفة اللازم ابقاؤها في البحر الأسود لمصالح تلك السواحل فمن ثم ينبغي أن يكون هذا الاتفاق ملحقاً بهذه المعاهدة الحاضرة ويكون معمولاً بصحته كأنه من مكملاتها فلا يلغى ولا يغير ما لم يقع عليه رضا الدول الموقعة على هذه المعاهدة .

المادة ١٥ : من حيث قد تقرر في الشروط التي جرت في مجلس ويانه أصول وقواعد تختص بالسفر في الأنهار الفاصلة بين عدَّة ممالك أو المارة فيها اتفقت الآن الدول المتعاهدة على أن تكون هذه الأصول جارية أيضاً في المستقبل على نهر الدانوب (الطونه) وفوهاته من دون فرق ورسمت بأن هذا الشرط يعدّ من الآن فصاعداً

---

(١) ذكرها في موضع سابق (جمارك) والصواب هو (كَمارك) ولكن المصريين الذين يكتبون الـ (گ) جيماً ويلفظونها(گ) قد أخذ العرب عنهم كتابة جمرك ولكنهم بعكس المصريين يلفظونها ج وليس گ وهذا غلط .

من الحقوق العمومية لأهل أوروبا واتخذته تحت كفالتها ولا ينبغي أن يكون السفر في النهر المذكور عرضة لمانع ما ولا لتأدية ضريبة غير مقررة في الشروط المقيدة في المواد الآتية،فمن ثم لا يوجب «جُعَل» على مجرد السفر في النهر ولا ضريبة على الأمتعة التجارية التي تكون في السفن.أما ترتيب الشرطة والكورنتينة الذي يراد إنشاؤه لاجل تأمين البلاد التي يفصلها هذا النهر أو يخترقها فيكون اجراؤه على وجه يفيد المراكب سهولة في السفر على قدر الامكان وما عدا هذا الترتيب فلا يحدث شيء من الموانع للسفر مطلقاً أياً كان.

المادة ١٦ : من أجل تحقيق الشروط المذكورة في المادة المتقدمة تعقد مأمورية نواب من طرف فرنسا واوستريا وبريطانيا العظمى وبروسيا والروسيا وسردينيا والبلاد العثمانية،من كل واحد،ويحال على عهدتهم أن يرسموا ويجروا الأعمال اللازمة لإزالة الموانع والعوائق من فوهات الطونة ابتداء من «استشا».وكذا من أماكن البحر المجاورة التي فيها الرمل وغيره.والمقصود بذلك جعل هذه المواضع في كل من النهر والبحر صالحة للسفر وخالية عن كل ما يعوقه على قدر الطاقة والامكان ومن أجل استيفاء المصاريف التي تقتضيها هذه الأعمال وانشاء ما يلزم انشاؤه ، لتيسير السفر وتأمينه عند فوهات الطونه،يرسم أهل المأمورية بحسب أكثرية أصواتهم بنحو ضريبة معلومة وجُعلٍ موافق.وذلك بشرط أن تعامل جميع مراكب الأجيال بالتسوية وهذا الأصل يجري في هذا المقصد كما في غيره.

المادة ١٧ : تعقد مأمورية من نوّاب أوستريا وبافاريا والباب العالي وورتمرغ،من كل واحد،وينضم إليها أهل مأمورية أقاليم الطونه الثلاثة التي يكون نصبها باستصواب الباب العالي وهذه المأمورية تكون راهنة دائمة ويختص بها:(أوّلاً) أن تجري التنظيم اللازم لسفر النهر وللشرطة.(ثانياً) أن تزيل الدواعي المانعة من اجراء الشروط التي تقررت في معاهدة ويانه على الطونة.(ثالثاً) أن ترسم وتجري الاعمال اللازمة في جميع مجاري النهر.(رابعا) أن تحافظ بعد انقضاء مدة المأمورية الأوروباوية على وقاية المراكب وتيسير سفرها في فوهات الطونه وفي غير ذلك من الأماكن المجاورة له من البحر.

المادة ١٨ : قد صار من المعلوم أن المأمورية الاوروباوية توفي عملهاوان المأمورية الساحلية تتم الأعمال المقررة في المادة المتقدمة في القسمين الأوّل والثاني في مدّة عامين. وبعد اطلاع الدول المتعاهدة على ذلك تجري فيه مذاكرتهم جميعاً حتى اذا دوّنت لديها ما جرى تحكم بالغاء المأمورية الأولى، ومن ذلك الوقت فما بعده يكون للمأمورية الساحلية الراهنة ماكان للمأمورية الأوروباوية من القدرة والتفويض .

المادة ١٩ : من أجل توكيد اجراء التنظيمات التي يرسم بها باتفاق واحد على موجب الأصول المشروحة آنفا يكون لكل من الدول المتعاهدة حق في أن ترسي دائماً في فوهات الطونه سفينتين خفيفتين .

المادة ٢٠ : في مقايضة المدن والموانىء والأراضي على ما ذكر في المادة الرابعة من هذه المعاهدة الحاضرة رضي امبراطور جميع الروسيا لاجل زيادة التأمين على الحرية في سفر الطونه بتعديل حدود بلاده في بسارابيا فيكون هذا التخم الجديد من البحر الأسود على كيلومتر واحد من شرقي بحيرة برناسولا ويتصل بطريق أكرمان الى وادي طراجان ويجاوز جنوب بلغراد ويستمر في طول مسافة نهر الفلبوق الى علوسار تسيكا ويتصل بكاتاموري على بروت [١] وعند الوصول الى هذا الحد لا يحدث تغيير على التخم القديم بين السلطنتين وتعيين رسم هذا التخم الجديد يكون بمعرفة نوّاب من طرف الدول المتعاهدة.

المادة ٢١ : الأرض التي تخلت عنها الروسيا تكون ملحقة بولاية ملدافيا (الأفلاق) [٢] تحت سيادة الباب العالي ولسكان تلك الأرض أن يتمتعوا بالحقوق والخصائص الممنوحة للولايات ويرخص لهم في مدّة ثلاث سنين في نقل مواطنهم والتصرّف في أملاكهم بلا مانع .

المادة ٢٢ : ولايتا ولاخيا وملدافيا أي الأفلاق والبغدان تبقيان متمتعين تحت

---

(١) ان عدم كتابة هذه الأسماء بالحروف اللاتينية يجعل أكثرها غير مفهوم لا سيما وان كثيراً من الأسماء في أوروبا الشرقية التي توالت عليها أيدي العثمانيين والروس وأهل البلاد كان للبلد الواحد منها اسمان أو أكثر .

(٢) ملدافيا Moldavie والأفلاق والفلاخ ثلاثة مسميات لشيء واحد .

رئاسة الباب العالي وكفالة الدول المتعاقدة بالامتيازات والاعفاءآت الحاصلة لهم الآن فلا مقتضى لأن تحميهم الدول الكافلة بحماية مخصوصة ولا يكون حق مخصوص للتعرض في أمورهم الداخلية .

المادة ٢٣ : الباب العالي متعهد بأن يحفظ لهاتين الولايتين إدارة أهلية مستقلة ويبقي لهم الحرية في التدين والأحكام الشرعية والمتجر وسفر البحر والأنهار وما عندهم الآن من القوانين والأحكام معمولاً به ينظر فيه ،ولهذا الغاية تجرد مأمورية مخصوصة يكون تألفها باطلاع الدول المتعاهدة واتفاقهم وتجتمع من غير ابطاء في بخارست (بكرش) مع مأمورية الباب العالي ويكون من هم[1] هذه المأمورية البحث عن أحوال الولايتين وعرض القواعد اللازمة للتنظيم في المستقبل .

المادة ٢٤ : سلطان الدولة العثمانية وعد بأن يعقد في الحال في كل من الولايتين المذكورتين ديواناً [2] مخصوصاً ويكون تأليفه مبنياً على توكيد ما فيه إيصال النفع والخير لجميع الناس على اختلاف درجاتهم ،ويطلب من كل من هذين الديوانين أن يبين مقاصد الأهلين واستدعاهم في شأن ترتيب الولايتين .ونسبة تلك المأمورية الى هذين الديوانين تقرر في مجلس باريس .

المادة ٢٥ : بعد أن تعتبر الآراء التي يبديها الديوانان تنهي[3] المأمورية الى مجلس المذاكرة ما باشرته هي من العمل وذلك من دون إمهال ولا إهمال،ويقرّر المقصد الأخير مع الدولة السائدة ويحصل الاتفاق عليه في باريس بين الدول المتعاهدة وبموجب خط شريف مطابق لشروط هذه المعاهدة يجري تنظيم أحوال هاتين الولايتين، فتجعل من الآن فصاعداً تحت كفالة جميع الدول الموقعة على هذه الشروط .

المادة ٢٦ : قد قرّ الرأي على أن يكون في الولايتين المذكورتين عسكر [4] أهلي

---

(١) مز هم : أي من واجبات .

(٢) يقصد بالديوان : لجنة أو هيئة .

(٣) تنهي : بمعنى ترفع .

(٤) أي : جيش وطني .

يرتب لأجل تأمين داخل البلاد وحفظ تخومها فلا يورد ما نع ما لترتيب غير اعتيادي لأجل الذبّ عن الوطن الا ما يدعى اليه الاهلون بالاتفاق مع الباب العالي دفعاً لعدوان من يتطاول عليهم من الأجانب .

المادة ٢٧ : إذا وقع ما يوجب الخوف على سلب الراحة والطمأنينة داخل الولايتين يتفق الباب العالي مع الدول المتعاهدة على اتخاذ وسائل لدفع ذلك الخلل وإقرار الطمأنينة ولا يكون مسوغ لمداخلة عسكرية من غير أن يقع عليه رضا الدول أولاً .

المادة ٢٨ : إقليم الصرب يبقى متعلقاً بالباب العالي على وفق مضمون الخط الهمايوني الذي نص على حقوقه واعفاءآته ويكون من الآن فصاعداً تحت مجموع كفالة الدول المتعاهدة فمن ثم يحق للاقليم المذكور أن يحافظ على استقلاله بحكومة أهلية وبالحرية في التدين والأحكام والمتجر والابحار (سفر البحر) .

المادة ٢٩ : حق الباب العالي في إقامة الخفراء المحافظين كما تم الشرط عليه الآن في التنظيمات الداخلة هو مصون ثابت فلا يكون مسوغ لمداخلة عسكرية في بلاد الصرب من دون أن يقع عليه رضا الدول المتعاهدة أولا .

المادة ٣٠ : امبراطور جميع الروسيا وسلطان الدولة العثمانية يبقيان ضابطين لما هو في ملكهما في آسيا كما كان من قبل الحرب ومن أجل تدارك ما عسى أن يقع من القال والقيل في ذلك يحقق رسم التخوم ويعدل من دون إيجاب ضرر على أحد الفريقين ولهذه الغاية ترتب جماعة مؤلفة من مأمورين من طرف الروسيا وآخرين من طرف الدولة العثمانية ومأمور فرنساوي وآخر انكليزي ويكون إرسالهم عقب استرداد السفارة بين ديوان الروسيا والباب العالي ويجب انهاء أشغالهم في مدة ثمانية أشهر من ابتداء اثبات هذه المعاهدة الحاضرة .

المادة ٣١ : البلاد التي تبوّأتها [1] في مدة الحرب جيوش امبراطور الفرنسيس وامبراطور أوستريا وملكة مملكة بريطانيا العظمى وارلاندا وملك سردينيا الى مدّة المعاهدة التي ختمت في اسلامبول في ١٢ مارس سنة ١٨٥٤ بين فرنسا وبريطانيا

(١) أي استولت عليها .

العظمى والباب العالي .

وفي ١٤ جون من السنة المذكورة بين أوستريا والباب العالي .

وفي ١٥ مارس سنة ١٨٥٥ بين سردينيا والباب العالي،تخلى بعد مبادلة اثبات هذه المعاهدة الحاضرة في أسرع وقت.فأما تعيين المدّة واتخاذ الوسائل لاجراء ذلك فيرتب باتفاق بين الباب العالي وبين الدول التي تبوأت عساكرها تلك الأرضين .

المادة ٣٢ : المتجر في جلب البضائع وارسالها الى الخارج يبقى ما بين الدول كما كان من قبل الحرب الى أن تجدد المعاهدة التي كانت بين الدول المتحاربة من قبل الحرب أو تبدل بشروط أخرى وتكون رعاياهم معاملة في سائر الأمور الأخرى أحسن المعاملة .

المادة ٣٣ : المعاهدة التي تمت هذا اليوم بين امبراطور الفرنسيس وملكة مملكة بريطانيا العظمى وارلاندا وامبراطور جميع الروسيا من جهة جزائر الالاند[1] تكون ملحقة بالمعاهدة الحاضرة وتبقى كذلك معمولاً بصحتها كأنما هي جزء متمم لها .

المادة ٣٤ : قد قرّ الرأي على إثبات هذه المعاهذة وتجري مبادلته في باريس في مدة أربعة اسابيع أو قبل ذلك اذا أمكن وبناء على ذلك علّم عليها النواب المرخص لهم ووضعوا عليها أختام دولهم.حرر في باريس في ٣٠ شهر مارس سنة ١٨٥٦ .

(أسماء الذين وقعوا على ما ذكر)

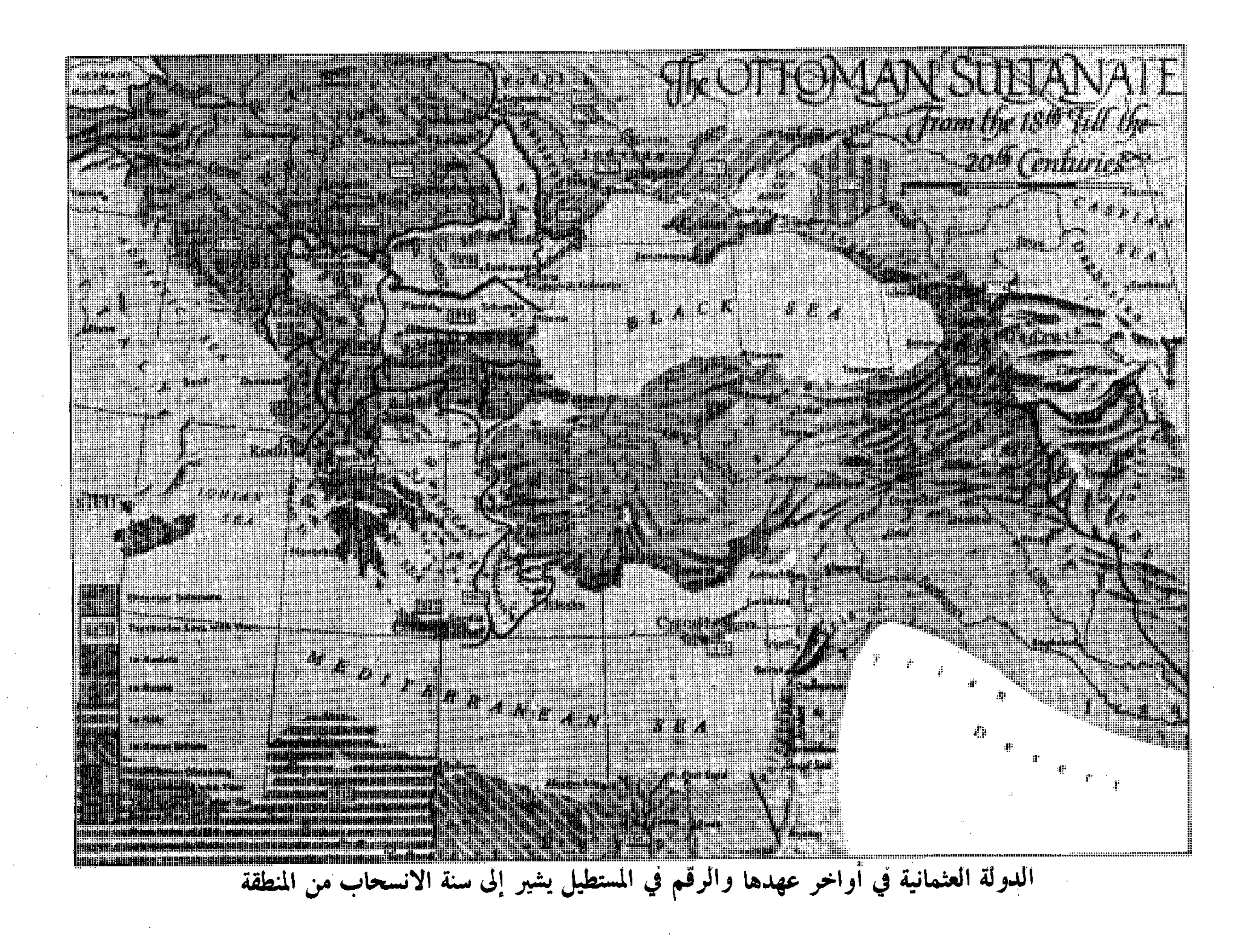
ولوسكي	يورغيني	بول شونستان هبنر	كلارندون
كولي منتوفل	هتر فلدت	اورلوف	برلوكافور
وقيل لامارينا	عالي	محمد جميل	

مادة ملحقة بما تقدم : شروط المعاهدة المتعلقة بالبواغيز[2] مما وقع عليه اليوم لا تكون جارية على سفائن الحرب التي في خدمة الدول المتحاربة لاخلاء الأرض التي تبوأتها العساكر وانما تكون معمولاً بها عقب الاخلاء.حرر في باريس في ٣٠شهر مارس سنة ١٨٥٦ أسماء الموقعين كما ذكر آنفا .

---

(١) جزائر الالاند Aland أرخبيل فنلندي في بحر البلطيك .

(٢) بواغيز : جمع بوغاز ومعناه المضيق .



الدولة العثمانية في أواخر عهدها والرقم في المستطيل يشير إلى سنة الانسحاب من المنطقة

وبعد إمضاء هذه المعاهدة اجتمع المؤتمر في الخمسة أيام الأولى من شهر إبريل وقرر رفع الحصار البحري عن موانىء الروسيا وأن تسحب فرنسا وانكلترا وبيمونتي (سردينيا) عساكرها من بلاد القرم في مسافة ستة أشهر وأن يعطى للنمسا قدر هذه المدة لإخلاء ولايتي الافلاق والبغدان وثلاثة أشهر لتسليم مدينة قارص وقلعتها الى الدولة العلية وأن اللجنة التي تعين لفصل الحدود بين الدولة والروسيا في جهات بسارابيا تجتمع في أول رمضان سنة ١٢٧٢ الموافق ٦ مايو سنة ١٨٥٦ في مدينة غلاتس [١] للبدء في عملها .

ولما انتهت أعمال المؤتمر الذي اجتمع لأجلها اقترح عليه المسيو ولوسكي النظر في بعض الشؤون الأوروبية التي يخشى منها على السلم فقرر عدة أمور لا تدخل في موضوعنا فاضر بنا عنها صفحاً لعدم الاطالة .

ولا يخطر ببال أحد من حضرات القراء الأفاضل أن هذه الحرب حصلت لمحض صالح الدولة العلية بل لم يكن القصد منها سوى إضعاف الروسيا وعدم توغلها في أراضي الدولة العثمانية. ولما انتهت الحروب على حسب رغائب الدول أخذوا في إيجاد الأسباب الموجبة ضعف الدولة نفسها حتى لا تقوى على معارضتهم وتبقى كحاجز بين الروسيا والبحر الأبيض المتوسط ليس الا. ولذلك ساعدت الدول ولايتي الافلاق والبغدان على انضمام كل للاخرى وتكوين حكومة شبه مستقلة تسمى حكومة الإمارات المتحدة يكون لها أمير واحد ومجلس نوّاب تحت حماية جميع الدول، وتأيد ذلك بوفاق أمضي في باريس في ٢٩ محرم سنة ١٢٧٥ الموافق ١٩ أغسطس سنة ١٨٥٨ وانتخبت الولايات البرنس كوزا [٢] أميراً لهما واعترف الباب العالي بهذا الانتخاب حسماً للنزاع، ثم أوجدوا مشاكل كثيرة في بلاد الصرب والجبل

---

(١) غلاتس هي Galati وتقع على نهر الدانوب الى الشمال الشرقي من بخارست عند منعطف النهر نحو البحر الاسود .

(٢) هو سياسي روماني ولد سنة ١٨٢٠ وترقى في جيش البغدان الى رتبة ميرالاي (كولونيل) ثم انتخب أميراً على ولايتي الأفلاق والبغدان وأكره على الاستعفاء سنة ١٨٦٦ وانتخب مكانه البرنس شارل الموجود الآن . أقول : أي يوم كتب هذا الكتاب .

الأسود سعياً وراء منحهما الاستقلال تماماً وفصلهما كلية عن الدولة ولتكون هذه الولايات بمثابة موانع في طريق الدولة وعقبات بينها وبين ممالك أوروبا وبثوا بذور الفساد في بلاد البوسنه والهرسك فاضطربت وقامت مطالبة بامتيازات كبلاد الصرب والجبل الأسود .

ومما زاد في أحوال الدولة ارتباكاً تدخل الدول في الشؤون الداخلية ومنعها الدولة العثمانية من محاربة الثائرين بتهديدها بقطع العلائق السياسية ونزول سفرائهم الى مراكبهم بل وإرسال بعض السفن الحربية لتقرير مطالب الثائرين ، كما أرسلت فرنسا والروسيا مراكبهما في سنة ١٨٥٨ الى سواحل الجبل الأسود لمنع الجيوش العثمانية من الدخول بهذا القطر ومعاقبة أميره على مساعدة ثائري البوسنة والهرسك ومن ذا كله وما سنذكره يتضح جلياً أن الدولة كانت في أحرج المراكز لعدم وجود مخلص لها أو صديق بين جميع الدول المسيحية المتألبة عليها سياسياً لإضعافها وعرقلة جميع مساعيها الاصلاحية في داخلية بلادها وتداخلها في أمورها الداخلة المحضة حتى خيل للمتأمل أن سفراء الدول بالاستانة صاروا شركاء لوزراء الدولة في جميع الأعمال .

وفي أوائل سنة ١٨٥٨ توفي الصدر الأعظم رشيد باشا وخلفه في هذا المنصب الخطير خصوصاً في هذه الظروف السياسي الشهير عالي باشا ،وولي فؤاد باشا وزيراً للأشغال الخارجية وكان كل منهما على جانب عظيم من الحذق في الأعمال السياسية ومتحققاً من مقاصد أوروبا السيئة نحو الدولة الإسلامية الوحيدة، فعملا على تسوية جميع المسائل الداخلية بحكمة وسداد رأي حتى لم يدعا لسفراء الدول حقاً في التدخل فلم يمض طويل زمن حتى عادت السكينة الى بلاد بوسنه وهرسك لوعد أهاليها بإصلاح أحوالهم واستبدال العساكر الغير منتظمة الموجودة بها بجيوش منتظمة. وكذلك أنهيا بحكمتهما مسألة الجبل الأسود بتحديد التخوم بمعرفة لجنة مشكلة من أربعة أعضاء فرنساوي وروسي وعثماني وجبلي ،وقبلا قرار هذه اللجنة مع اجحافه بحقوق السلطنة ، لكن لما كان السكون وانتظام الأحوال لم يروقا أصلاً في أعين أعداء الدولة والذين ألقوا شباك مفاسدهم في جزيرة كريد فاصطادوا بها ضعاف العقول

من اليونان بطعم الاستقلال والانضمام الى مملكة اليونان المستقلة فحصلت عدّة وقائع سالت فيها الدماء بين المسلمين والمسيحيين وكادت الثورة تمتدّ بها لولا فضل تساهل وزراء الدول بعزل واليها وتعيين من يدعى سامي باشا مكانه لتقرير الأمن وإرضاء المسيحيين من سكان الجزيرة، فرجعت السكينة الى ربوعها وأمكن فؤاد باشا أن يجاوب سفراء الدول على ملاحظاتهم بخصوص هذه المسألة أن لا حق لهم بالتداخل حيث لا اضطرابات أو قلاقل توجب هذا التدخل الغيرالشرعي.وبمجرد ما انتهت مسألة كريد مؤقتاً كما هي عادة المسائل التي توجدها الدول بدسائسها في شرقنا حدثت في مدينة جدة نازلة أكثر أهمية من تلك وهي قيام المسلمين بها على المسيحيين في يوليو من السنة المذكورة (١٨٥٨) وقتلهم بعضهم وإصابة قنصل فرنسا وكاتبه إصابة شديدة وقتل زوجته، مما جعل باباً للاوروبيين لرمينا بالتعصب الديني.فلما علم فؤاد باشا بهذه الحادثة لم يشعها بل أرسل من يدعى اسمعيل باشا ببعض الجند لتحقيقها ومجازاة القاتلين بالإعدام بدون طلب تصريح من الاستانة كما جرت به العادة.لكن قبل وصول هذا المندوب علمت الدول بهذه المذبحة وأرسلت فرنسا وانكلترا لائحة للباب العالي بالاشتراك يخبرانه بها أنهما أرسلتا مراكبهما إليها بتعليمات شديدة فأجابهم فؤاد باشا بأن الدولة لم تهمل واجبها بل رخصت لاسمعيل باشا باجراء اللازم وأن الدولة مستعدّة لتقدير التعويضات الواجب دفعها لمن لحقهم ضرر بالاتحاد مع من تعينهم الدولتان لهذا الغرض.

اطلاق الانكليز المدافع على مدينة جدة

وفي هذه الأثناء أتى نامق باشا والي مكة إلى جدّة وقبض على المجرمين وحاكمهم فحكم على كثير منهم بالاعدام، لكن لم يمكن تنفيذ هذه الأحكام الا بعد استئذان الدولة.وفي غضون محاكمتهم وصلت الى ميناء جدّة سفينة حربية انكليزية اسمها سيكلوب وطلب ربانها من نامق باشا تنفيذ الحكم فوراً وأمهله أربعة وعشرين ساعة وإن لم يعدم المحكوم عليهم يطلق مدافعه على المدينة.ولما أجابه نامق باشا بعدم امكانه إجابة طلبه سلط مدافعه على هذه المدينة واستمر اطلاقه عليها نحو عشرين ساعة.ولولا وصول السفينة المقلة اسماعيل باشا المندوب العثماني لدمرت المدينة

عن آخرها فإنه لما وصل هذا المندوب أوقف ضرب النار ونزل معه العساكر العثمانية والانكليزية وأمر بشنق المحكوم عليهم بالاعدام فشنقوا وانتهت هذه المسألة ورجعت العساكر الإنجليزية الى سفينتهما بدون أن يجدوا علة للبقاء، وما الفضل في حسم كل هذه النوازل الا لفؤاد باشا صاحب الرأي الصائب .

حادثة الشام واحتلال فرنسا لها

وقد ظهر فضله واعترف به العدّو قبل الصديق وجاهر كل ذي ذمة بأن هذا الرجل من أهمّ سياسي عصره في مسألة الشام التي حصلت في سنة ١٢٧٦ الموافقة سنة ١٨٦٠ وأوجبت تدخل الدول عموماً وفرنسا خصوصاً بحجة حماية المارونية. وبيان ذلك، أنه لما حسمت جميع المشاكل واستتب الأمن نوعاً في ولايتي الافلاق والبغدان وولايات الصرب والجبل الأسود بتساهل الباب العالي واعترافه بانتخاب كوزا والياً لولايتي الأفلاق والبغدان معاً وبتولية ميشيل أميراً على الصرب بعد والده (ميلوش) الذي انتخبه نواب الأهالي في جمعيتهم العمومية المسماة اسكو بشينا حتى لا تدع للدول سبيلاً للتدخل، وجّه أرباب الغايات مساعيهم الى بلاد الشام لاستعدادها لقبول بذور الفساد أكثر من باقي الولايات بسبب تعدد الجنسيات واختلافهم في الدين والمشرب ووجود العداوة بينهم خصوصاً بين المارونية والدروز، فقامت بينهم أسباب الشقاق ودواعي الخلف الى أن تعدّى المارونية بالقتل على الدروز في أواخر سنة ١٨٥٩ وقام الدروز للأخذ بالثأر ثم امتدت الفتنة الى جميع أنحاء الشام. وكثر القتل والنهب وحصلت عدة مذابح في طرابلس وصيدا واللاذقية وزحله ودير القمر ومنها الى مدينة دمشق الشام. وامتاز الأمير عبد القادر الجزائري[1]

(١) هو الأمير الجزائري الذي دافع عن بلاده حين احتلها الفرنساويون سنة ١٨٣٠ دفاعاً لم يسمع بمثله بلاد الشرق التي وطئتها الأجانب واستمر في دفاعه سبع عشرة سنة متوالية انتصر في خلالها عدة مرات واعترفت له فرنسا وجميع الأمم بالبسالة والشجاعة، ولما استشهدت أغلب عساكره وكثر توارد الجيوش الفرنساوية تباعاً الى الجزائر وأيقن أن لا مناص له من التسليم سلم نفسه في ٢٣ دسمبر سنة ١٨٤٧ الى القائد (لاموريسيير) =

بحماية كثير من المسيحيين فكافأته فرنسا بمنحه وسام اللجيون دونور[1] من درجة جران كوردون ،واتهم الاوروبيون عثمان بك قائمقام حاصبيا بتسهيل المذبحة وكذلك اتهموا أحمد باشا والي دمشق بمساعدة الدروز وقتل كل من التجأ الى دار الحكومة من المسيحيين وأذاعوا هذه المفتريات على رجال الدولة في جميع الأرجاء تمويهاً وتغريراً ليكون لهم سبب مقبول لدى الرأي العام في بلادهم إذا تداخلوا فعلياً وجرّ تداخلهم الى حرب عظيمة كحرب القرم . .

فعرضت فرنسا على الدول أنها مستعدة لإرسال جيوشها الى بلاد الشام لقمع الفتنة ومجازاة مثيريها وحماية المارونية ،فلم تقبل الدول هذا الاقتراح بادىء الرأي خوفاً من عدم خروج فرنسا من الشام لو احتلتها عسكرياً وضحت أموالها ورجالها. ولما حصلت مذبحة دمشق التي قتل فيها نحو ستة آلاف نسمة على ما يقولون أرسلت

= بعد أن وعده باسم فرنسا أن الحكومة لا تتعرض له مطلقاً بل تبيح له التوجه أينما يريد. لكن لم يعترف نابليون الثالث بهذا الوعد بل سجنه نحو ست عشرة سنة وأفرج عنه سنة ١٨٦٣ بشرط أن لا يعود الى الجزائر وعين له مائة ألف فرنك سنوياً،فهاجر الى مدينة بورصة ثم الى مدينة دمشق وبها أقام الى أن انتقل الى رحمة مولاه في سنة ١٨٨٣ جزاه الله عن الدين الاسلامي وجميع المسلمين خير الجزاء .

أقول : إن فرنسا لم تسجن الأمير عبد القادر بمعنى السجن لقد عاش في فرنسا ، معززاً مكرماً في قصور أولها في طولون ثم في قصر بو Pau ثم في قصر امبواز Amboise ، وكان هو وحاشيته يعيشون عيشة رفاهية . وقد زرت قصري بو وامبواز ، لأنهما من القصور المعروضة لزيارة السياح ، ورأيت صوراً كبيرة للأمير ولبعض أفراد حاشيته تزين الجدران . وكان نابليون الثالث يحترم الأمير كثيراً ، وإن ما لقيه الأمير من إكرام فرنسا لم يحظ بمثله غيره ، وظل أحفاد أحفاده يتمتعون براتب يأخذونه من فرنسا لم تقتطعه عنهم الا يوم استقلت الجزائر ومن شاء المزيد بهذا الصدد فليقرأ كتابي : الجزائر العربية أرض الكفاح المجيد . (المحقق) .

(١) هو نيشان أسسه بونابرت في ١٩ مايو سنة ١٨٠٢ حين كان قنصلاً أولاً قبل أن يصير امبراطوراً ويلقب نابوليون الأول ولقد طرأت على نظام هذا النيشان عدة تغييرات تبعاً لتغير هيئة الحكومة ،لكن لم يزل باقياً لتعلق الأهالي به لأنه يذكرهم انتصاراتهم العديدة على أوروبا وأقول : هو وسام جوقة الشرف من درجة الوشاح الأكبر .

جميع الدول الى الباب العالي تهدده بالتدخل إن لم يضع حداً لهذه الفتن،لكن بلاغاتهم لم تكن اشتراكية لعدم اتحادهم ،فجمع فؤاد باشا جميع الوزراء وأظهر لهم ضرورة تعزيز الجيش العثماني بهذه البلاد وإخماد الثورة قبل أن تتفق الدول على التدخل عسكريا ،فتقرر رأيه بالإجماع وانتدب هو لقيادة الجيوش بها ومجازاة كل من تظهر إدانته .

فسافر هذا الشهم على جناح السرعة ووصل الى بيروت في ٢٨ الحجة سنة ١٢٧٦ (١٧ يوليوسنة ١٨٦٠) ومنها قصد مدينة دمشق في خمسة آلاف جندي وشكل مجلساً حربياً وحاكم رؤساء الفتنة بكل صرامة وشنق كثيراً ممن ظهرت لهم يد عاملة فيها سواء كان من الدروز أو المسيحيين أو المسلمين أو من نفس كبار مستخدمي الحكومة وبذل همته في إعادة الأمن الى البلاد .

وفي أثناء ذلك اتفقت الدول على أن ترسل فرنسا الى الشام ستة آلاف مقاتل لمساعدة الجيش العثماني على إعادة السكينة لو عجز عن تأدية هذه المهمة.وفي ٢٢ محرم سنة ١٢٧٧ (١٠ أغسطس سنة ١٨٦٠) نزلت الجنود الفرنساوية الى بيروت تحت قيادة الجنرال (دوبول) فوجدت السكينة ضاربة أطنابها في ربوع الشام ولم تجد سبيلاً لعمل أيّ حركة عسكرية لاظهار شجاعتها ونظامها .

ومما يدل على تعنت الدول وتعمدهم مشاركة الدولة في أمورها الداخلية على أي حال اتفاقها في باريس بمقتضى اتفاق تاريخه ١٥ محرم ١٢٧٧ (٣ أغسطس ١٨٦٠) على أنه يجوز إبلاغ الجيش المحتل الى اثني عشر ألفاً مع بقاء هذه الجيوش الى أن يستتب الأمن ويجازى الساعون بالفساد على ما جنت أيديهم ، كأن الدولة أهملت في مجازاتهم وفي إرجاع السكينة الى البلاد ، مع أنه لم يكن ثمة ضرورة لارسال جيش أوروبي الى الشام مطلقاً لقيام فؤاد باشا بمهمته أحسن قيام .ومع ذلك صمم القائد الفرنساوي على إرسال فرقة من ألف وخمسمائة جندي الى جبل لبنان لاعادة المارونية الى بلادهم وحمايتهم من تعدّي الدروز. واستمر الاحتلال الفرنساوي الى ٢٧ القعدة سنة ١٢٧٧ (٦ يونيوسنة ١٨٦١) وفيه سحبت الجيوش الفرنساوية آتية الى بلادها بعد ان أوهمت مسيحيي الشام انها حمتهم من تعدّي المسلمين المتعصبين المتوحشين على زعمهم ،ونسيت فرنسا ما أتته جنودها في بلاد الجزائر من الأعمال الفظيعة التي

يأبى القلم تسطيرها خصوصاً ما أتاه الجنرال بيليسيه من اعدام قبيلة بنسائها وأطفالها حرقاً داخل الغار الذي التجأوا إليه .

ولكن أبت سياسة أوروبا المسيحية الا التعامي عن كل ما يأتونه مع الشرقيين وتجسيم أقل حادث يحدث في الشرق، ولو بإيعازهم ترويجاً لسياستهم، ونسوا أقوال المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى السلام المسطرة في نسخ الانجيل المتداولة بين أيدي جميع الطوائف المسيحية القاضية بأن يعامل الانسان غيره بما يريد أن يعامله الغير به .

وفي أثناء ذلك انعقدت بمدينة بيروت لجنة أوروبية مشكلة من مندوبين معينين من قبل الدول الموقعة على معاهدة باريس. وبعد مداولات طويلة اتفقوا مع فؤاد باشا على أن يعطوا للمسيحيين الذين حرقت دورهم مبلغ خمسة وسبعين مليون (١) قرش بصفة تعويض، وأن يمنح أهالي الجبل حكومة مستقلة تحت سيادة الدولة العلية يكون حاكمها مسيحي المذهب، وأن يكون للباب العالي حامية من ثلثمائة جندي تقيم في حصن على الطريق الموصل من دمشق الى بيروت .

ثم عين بالإجماع من يدعى داود افندي الأرمني الجنس أميراً للجبل لمدّة ثلاث سنوات لا يمكن عزله الا باتفاق الدول وبذلك انتهت أيضاً هذه المسألة بحسن مساعي فؤاد باشا كما انتهت باقي المسائل التي سبقتها ولو بكيفية مجحفة بحقوق الدولة الا أنه بهذا التساهل منع تدخل الدول بصفة شديدة وألزم فرنسا بسحب جيوشها من الشام .

وبعد خروج الجيوش الفرنساوية من بيروت بعشرين يوماً توفي السلطان عبد المجيد خان وانتقل الى رحمة مولاه في ١٧ ذي الحجة سنة ١٢٧٧ ﻫ (٦ يونيو سنة ١٨٦١) ودفن رحمه الله في قبر أعدّ له في حياته بجوار جامع السلطان سليم وعمره أربعون سنة وكسور، ومدّة حكمه ٢٢ سنة ونصف ، وهو الذي أنشأ النيشان المجيدي العلي الشأن وقدّمه على نيشان الافتخار الذي أسسه السلطان الغازي محمود الثاني، وفي يوم موته بويع بالخلافة لأخيه .

---

(١) أي ٧٥٠,٠٠٠ ليرة ذهبية .



-٣٢

السلطان الغازي
عبد العزيز خان

المولود في ١٤ شعبان سنة ١٢٤٥ (٨ فبراير سنة ١٨٣٠) وفي ١٨ ذي الحجة سنة ١٢٧٧ (٧ يونيه سنة ١٨٦١) توجه في موكب حافل الى ضريح سيدي أبي أيوب الأنصاري،وهناك تقلد السيف السلطاني على ما جرت به العادة.ومنه سار لزيارة قبر السلطان الغازي محمد الثاني فاتح الاستانة ثم قبر والده السلطان محمود الثاني رحمهم الله جميعاً.وكانت فاتحة أعماله أنه أقر الوزراء في مراكزهم ما عدا ناظر الجهادية رضا باشا فإنه أبدل بنامق باشا.وهاك ترجمة أمر بقاء الوزراء المؤرخ ٢٣ ذي الحجة سنة ١٢٧٧ (٢ يوليو سنة ١٨٦١) نقلا عن منتخبات الجوائب (جريدة شبه رسمية) :

وزيري سمير المعالي محمد أمين عالي باشا ،

قد صار هذه المرة بالارادة الأزلية،إرادة جناب مالك الملك جلوسنا على تخت أجدادناالعظام المؤيد بالسعادة والبخت. ولكون درايتك وصداقتك من المجرب أبقي خطب الصدارة الجسيم في عهدة رويتك وكذا سائر الوكلاء [١] والمأمورين مقررين على مناصبهم،ثم إني بإكمال سعادة الحال بمنة تعالى لدولتنا العلية واستحصال رفاهية الحال والراحة لاتباع سلطنتنا السنية إجمالاً بلا استثناء،وبحصول هذه الأمنية الخيرية وبكون القوانين الأساسية العدلية المؤسسة على تأمين النفس والعرض والمال لجميع سكان الممالك المحروسة مؤكدة ومؤيدة من طرفنا أعلن (ما ذكر) للجميع.ومن حيث أن الشريعة الشريفة التي هي عدالة محضة مدار لتأيید السلطنة السنية اوأساس

---

(١) أي الوزراء .

لشوكتها حالة كون أحكامها المنيفة لجميعنا دليلاً على طريق السلامة كانت الدقة الزائدة في الأمور الشرعية مطلوباً لنا قطعاً ،ولما كان الباعث لبقاء كل دولة ولتزايد شوكتها وراحتها كون رعيتها مطاوعة للقوانين الموضوعة ،وأن لا يتجاوز الصغار والكبار منها دائرة وظيفتها وحقها كان محققاً لدينا أن الذين يسلكون في هذا الطريق يكونون مظهراً للمكافأة، كماأن الذين يوجدون في حركات مخالفة تحيق بهم المجازاة. وبناء على هذا كون الداعين والعباد والمأمورين جميعاً في دولتنا العلية أن يستقيموا في خدمتهم ويوفوا وظائف مأموريتهم بالصداقة، هو من جملة أوامرنا المؤكدة السلطانية ومن المسلم كون المصالح العظيمة الدولية قريناً لحسن النتيجة بتوفيق حضرة موفق الأمور وبإقدام أركان الدولة واتفاقهم. وإن إيصال الأمور لدولتنا العلية مدنية كانت أو مالية إلى درجة الانتظام والمضبوطية انما هو بكمال التشبث بهذه القاعدة المسلمة، يعني كونه منوطاً بالاهتمام والغيرة من طرف الجميع على وجه الاستقامة والخلوص ومن طرفنا نحن أيضاً منوط بالهمة والنظارة على أي وجه كان وبالاتباع التام من جانب كل دائرة وادارة لهما المخصوصة السلطانية التي تصرف في حق اندفاع المشكلات المالية عن قريب بعون الله تعالى ،وهي التي عرضت منذ مدة ناشئة عن أسباب مختلفة ،وكذا يعلم بأنه لم يكن لذاتنا فكر وأمل سوى إعادة شأن دولتنا وزيادة اعتبارها المالي ورفاهية أتباعنا الغرض المتعاقب من خصوص المتصرفات الكاملة في استحصال أموال الدولة وصرفها والاصلاحات الموجبة لوقايتها من التلف والسرف عبثاً، والدقة في محافظة عساكرنا البرية والبحرية ،التي هي إحدى أسباب الشوكة لدولتنا العلية واستكمال رفاهيتهم في كل حال ومحل وصرف المجهود وقتاً فوقتاً في تأكيد المناسبات والموالاة مع الدول الأجنبية الذين هم محبو سلطنتنا السنية ،وكذا الرعاية لاحكام المعاهدات المنعقدة مستمرة. والحاصل أن علم الجميع بأن وظائف الاستقامة والعفة والصداقة والغيرة هي أساس العمل والباعث للفلاح والسلامة في ادارة الدولة في كل جهة وفرع ،لها كل ذلك من ارادتنا القطعية. واني أعلن أيضاً حيث كان مرادي السلطاني لا يقبل الاستثناء كان الذين هم من الأديان والاجيال المختلفة يرون عموماً من طرفنا الهمايوني دقة متساوية في العدالة والتأمين والهمة وحسن الحال. وأكرر أن التوسع التدريجي الذي هو ترقيات صحيحة توجب غبطة

حال الجميع في ظل سلطنتنا لاسباب الثروة واليسار العظيمة التي أنعم الله بها على ملكنا، وكذا قضية الاستقلال المهمة لدولتنا العلية من أعز الأفكار عندنا وفقنا جميعاً الفياض المطلق بحرمة حبيبه الأكرم آمين. في ٢٣ ذي الحجة سنة ١٢٧٧ ا هـ .

ويؤخذ من نص هذا الامر أن السلطان رحمه الله كان يود السير على خطة أسلافه من إصلاح الأحوال ومعاملة جميع الرعايا على السواء بدون نظر لجنسهم أو دينهم حتى لا يكون لدول أوروبا سبيل للتدخل في شؤون الدولة بحجة طلب هذه المساواة. ثم أنشأ نشان شرف جديد لمكافأة من يقوم بخدمة الدولة والملة والدين بكل صداقة وأمانة، ودعاه بالعثماني نسبة الى السلطان الغازي عثمان الأول رأس هذه الدولة المحروسة الملحوظة بالعناية الربانية يحيطها سياج التعطفات الإلهية حتى أن تألب جميع الدول المسيحية عليها لم يزدها إلا رسوخاً وثباتاً، وقد أراحها هذا التدخل نوعاً ما بفصل بعض العناصر المغايرة للعنصر الاسلامي في الجنس والدين عنها فانها كانت أهم الشواغل للدولة مع عدم وصول أي فائدة منها إليها .

ولنذكر هنا قبل تفصيل ما حصل بالدولة من الاصلاحات تحت رعاية السلطان عبد العزيز ما جرى من المناقشات ودار من المخابرات بين الباب العالي والدول بشأن إمارات الجبل الأسود والصرب والافلاق والبغدان فنقول :

الجبل الأسود : إنه لما تجزأت مملكة الصرب الأصلية عقب موت الملك دوشان وقتل ولده أوروك استقل أحد أشراف الصرب ببلاد الجبل الأسود [1] واسمها تشيرنا جوره وجزء عظيم من بلاد الصرب وجعل مقرّ حكومته مدينة اشقودرة ثم لما فتحها العثمانيون وطردوه منها تحصن بالجبل وبه أمكنه صدّ هجمات العثمانيين عنه لوعورة المسالك وصعوبة المفاوز. وبذلك لم يتيسر للدولة ضم هذا الإقليم بنوع قطعي مطلقاً .

---

(١) الجبل الاسود Monténégro ويسميه الأتراك قره طاغ. وهو اقليم صغير في يوگوسلاڤيا على شاطئ الأدرياتيكي الى الشمال من ألبانيا . استقل سنة ١٨٧٨ بموجب معاهدة برلين وأصبح مملكة سنة ١٩١٠ وانضم الى يوگوسلاڤيا سنة ١٩١٨ وهو اليوم احدى جمهوريات يوگوسلاڤيا وعاصمته تيتوگراد .

وفي سنة ١٤٩٩ انتقلت حكومة الجبل إلى أيدي رئيس الأساقفة وانحصرت السلطة الدينية والملكية في شخص واحد وابتدأت العلاقات بينه وبين الروسيا لاتحاد الدين والمذهب. وبحسن سياسة الإمبراطور بطرس الأكبر صارت هذه العلاقات الحبية شبيهة بتابعية سياسية اذ صار يتظلم إليه الأهالي لو اعتدى عليهم حاكمهم أو مسهم بسوء .

ونفس رئيس الأساقفة كان يتوجه عند تنصيبه الى مدينة سان بطرسبورج [1] ليثبته القيصر في وظيفته الدينية بصفة رئيس ديني لجميع الأورثوذكس .

ولما تعين البرنس (دانيلو) أو دانيال[2] حاكماً لهذا الجبل فصل السلطة الملكية عن الدينية مع بقاء وظيفة رئيس الاساقفة في العائلة الأميرية ومن بعدها في أقدم العائلات الشريفة . ولتجرّد دانيلو عن الصفة الدينية تقرّب من النمسا جارته لتساعده على حفظ استقلاله، بما أن الدولة العلية أرادت اتخاذ هذا التغيير في حكومة البلاد سبباً للتدخل فيها وتقرير سيادتها عليها وأرسلت القائد الشهير عمر باشا لمحاربة دانيلو سنة ١٨٥٣ قبل أن يشتغل بمحاربة الروسيا، ولولا توسط النمسا والروسيا لاحتل عمر باشا جميع بلاده ، لكن ظروف الأحوال اضطرّت الباب العالي لايقافه قبل تتميم مأموريته اتباعاً لمشورة أوروبا .

ولما انعقد مؤتمر باريس بعد انتهاء حرب القرم كما مر طلب الامير دانيلو من مندوبي الدول الاعتراف باستقلاله فلم يحز طلبه قبولاً لديهم بل نصحوا له بالانقياد للدولة وهي في مقابلة ذلك تعطيه جزءاً قليلاً من بلاد الهرسك لتوسيع حدوده وتمنحه رتبة مشير وترتب له مرتباً مالياً على سبيل المساعدة فحنق لعدم نوال استقلاله، لكنه التزم بالانصياع لنصائح أوروبا خوفاً من عدم مساعدتها له لو حاربته الدولة .

---

(١) سن بطرسبورگ : عاصمة روسيا القديمة وقد سميت سنة ١٩١٤ بيتروگراد وسميت سنة ١٩٢٤ لينين گراد . وهي تقع في شمال غرب روسيا على بحر البلطيك ومعنى گراد مدينة .

(٢) ولد هذا الأمير سنة ١٨٢٨ وتربى في مدينة ويانه عاصمة النمسا وتولى بعد بطرس الثاني وتوفي مقتولاً سنة ١٨٦٠ .

وفي سنة ١٨٥٨ حصلت عدّة وقائع حربية بين أهالي الجبل وعساكر الدولة بسبب عدم الاتفاق على الحدود فتدخلت الدول ومنعت الحرب وعينت لجنة من مندوبيها ومندوب من طرف الدولة وآخرمن حكومة الجبل لفصل الحدود ففصلتها، ثم قتل البرنس دانيلو في ٢٥ محرم سنة ١٢٧٧ (١٣ أغسطس سنة ١٨٦٠) عن بنت وأخ فاستلم زمام الأحكام البرنس نيقولا ابن أخيه ميركو، ولمناسبة حصول بعض حركات ثورية في بلاد الهرسك ثار لمساعدتهم كثير من أهالي الجبل بإيعاز من البرنس ميركو فسحقهم عمر باشا الذي أرسله الباب العالي لاخماد ثورة الهرسك، ثم حاصر إمارة الجبل من جميع جهاتها وأمر البرنس نيقولا أن يحل الجيوش التي جمعها على الحدود والا يضطر هو لتفريقها ولما لم يصغ الأمير لهذا البلاغ أغار عمر باشا على بلاد الجبل من ثلاث جهات في آن واحد وجعل الثلاث فرق تحت قيادة عبده باشا ودرويش باشا وحسين عوني باشا.

وبهذه المناورة العسكرية المهمة التقت الجيوش الثلاثة في قلب الجبل بعد أن هزمت وفرقت كل ما وقف في طريقها، ولم يكن بذلك للبرنس نيقولا بدّ من إمضاء الشروط التي عرضت عليه من قبل عمر باشا للتوقيع عليها فأمضاها رغم أنفه في ٤ ربيع الأول سنة ١٢٧٩ (٣٠ أغسطس سنة ١٨٦٢).

ومن أهمّ ما جاء بها أن لا يقيم ميركو والد البرنس نيقولا، في بلاد الجبل مطلقا وأن تبني الدولة حصوناً وقلاعاً على الطريق الموصلة بين مدينة اشقودره وبلاد الهرسك مارة ببلاد الجبل، وبدأت الجنود العثمانية على الفور في بناء حصن داخل بلاد الجبل على هذا الطريق الأمر الذي لم يسبق لها أصلاً في هذه البلاد.

لكن تعرضت الدول لنفاذ هذه المعاهدة بحجة انها مجحفة بحقوق أمة مسيحية وطلبت من الباب العالي بكل الحاح، خصوصاً فرنسا والروسيا، عدم إبعاد البرنس ميركو عن بلاده فتساهل شفقة منه لكنه صمم على بناء الحصون بالصفة المشروحة ومع ذلك فخوفاً من تدخل الدول بالقوة، كما حصل في بلاد الشام، أعلن الباب العالي الأمير، في ٢٣ رمضان سنة ١٢٨٠ (٢ مارس سنة ١٨٦٤)، أنه يتنازل عن بناء القلاع بأرضه مؤقتاً، اذا تعهد الأمير بحفظ هذه الطريق والتعويض مالياً عما يسلب من أموال التجار

العثمانيين، فأجاب الأمير نيقولا هذا الطلب منشرحاً بما أن وجود الجيوش العثمانية في وسط بلاده يضعف استقلالها ويميت همتهم وشجاعتهم.

ولم يهدم العثمانيون القلعة التي أقيمت في وسط بلاد الجبل الا في محرم سنة ١٢٨١ (يونيو سنة ١٨٦٤) بعد أن أقاموا على الحدود قلعة منيعة على قمة عالية تصل مقذوفات مدافعها الى أبعاد شاسعة من بلاد الجبل وبذلك انتهت هذه الحروب وهدأت بلاد الهرسك أيضاً.

بلاد الصرب [1] : انه بمقتضى المعاهدات السابقة ومعاهدة باريس الأخيرة المؤرخة ٣٠ مارس سنة ١٨٥٦ تكون جميع بلاد الصرب مستقلة تحت سيادة الباب العالي ويكون للدولة حق في وضع حامية في ست قلاع بما فيها قلعة مدينة بلغراد عاصمة الصرب، واشترط فيما بعد أن لا يسكن المسلمون خارجاً عن هذه الحصون (انظر لهذا التعصب).

لكن لم تتبع هذه النصوص تماماً بل أقام كثير من المسلمين بين منازل المسيحيين

---

(١) بلاد الصرب : في الأصل هي الاقليم الشمالي الشرقي من يوگوسلافيا ويدخل فيه بلگراد ثم انه امتد حتى استولى على أكثر البلاد المعروفة اليوم باسم يوگوسلافيا وهو اليوم احدى الجمهوريات اليوگوسلافية وعاصمته بلگراد. وبعد أن تنازعته الامبراطورية البيزنطية ثم اليونان ثم البلغار استقل سنة ١١٨٠. وبعد حرب قوص أوه سنة ١٣٨٩ دخلت بلاد الصرب في الحكم العثماني وظلت حتى سنة ١٨١٥ وفي سنة ١٨٣٠ أصبحت امارة مستقلة تابعة للدولة العثمانية وفي سنة ١٨٥٦ ضمنت أوروبا ، بموجب معاهدة باريس ، الامتيازات التي منحتها الدولة العثمانية للصرب. وفي سنة ١٨٧٥ ثارت الصرب على الدولة وانتهى الأمر بأن أصبحت الصرب دولة مستقلة سنة ١٨٧٨ بموجب معاهدة برلين وتوسعت حدودها سنة ١٨٨٢ وأصبحت مملكة بالارث. ثم انها بعد حرب ضد تركيا سنة ١٩١٢ وحرب ضد بلغاريا سنة ١٩١٣ اتسعت رقعتها على حساب هاتين الدولتين اتساعاً كبيراً، وفي الحرب العالمية الأولى اكتسحها كل من الألمان والبلغار ، ولما انتهت الحرب باندحار المانيا وحلفائها استرجعت الصرب استقلالها وأصبحت مركزاً لمملكة تضم الصرب والكروات والسلاف وصارت سنة ١٩٢٩ تسمى يوگوسلافيا وهي اليوم جمهوريات اشتراكية متحدة. وتضم يوگوسلافيا أكثر من ستة ملايين مسلم.

ووزع الباشا القائد للحامية عدّة قره قولات [1] في المدينة لحمايتهم. ولما حصلت ثورة الهرسك سنة ١٨٦١ وما بعدها، وتبعها حرب الجبل الأسود، خشي الباب العالي من مساعدة الصربيين للثائرين فجمع على الحدود عدداً عظيماً من جيوش الباشيبوزوق [2] ولعدم انتظام هؤلاء الجنود حصلت عدّة مشاجرات بينهم وبين أهالي الصرب سالت فيها الدماء. ولما وصل خبر هذه المناوشات الى بلغراد تذمر الأهالي وأظهروا العداوة للعثمانيين وحدث في غضون ذلك أن تعدى أحد الأهالي في ١٢ الحجة سنة ١٢٧٨ (١٠ يونيو سنة ١٨٦٢) على جندي عثماني فقتله الجندي وتعصب كل فريق لأحد الفريقين وحصلت مقتلة كادت تعم البلد فتدخل القائد العثماني بجنوده، وبعد أن احتمى جميع المسلمين الساكنين بين النصارى في القلعة مع نسائهم وأطفالهم سلط الباشا مدافع القلعة على المدينة وأطلقها عليها مدّة أربع ساعات متواليات، ثم تدخل القناصل بين الفريقين فأبطلوا اطلاق القنابل. وقبل الباشا إخلاء قره قولات المدينة واقتصار المسلمين على السكن داخل حدود القلعة. وبعد هذه الحادثة أرسل البرنس ميشيل خطاباً بتاريخ ١١ محرم سنة ١٢٧٩ (٩ يوليو سنة ١٨٦٢) الى اللورد (رسل) ناظر خارجية انكلترا يطلب منه التوسط لدى الباب العالي لحسم هذه النازلة فأجابه اللورد بما يؤخذ منه عدم تعضيد الحكومة الإنكليزية له في طلباته وأنها تنصح له بالانصياع لأوامر الدولة صاحبة السيادة.

ثم بناء على إلحاح فرنسا والروسيا انعقد بالاستانة مؤتمر من مندوبي الدول الموقعة على معاهدة باريس، وبعد مناقشات طويلة طلب في خلالها مندوب فرنسا الجلاء العثمانيين من قلعة بلغراد بدون أن يعضده باقي المندوبين، تقرّر بالأغلبية إخلاء قلعتين من الجنود العثمانية وبقائها في أربع قلاع فقط وهي بلغراد وسمندريه وفتح [3]

---

(١) قرهقولات: جمع قره قول أو كركول أو كركون، بمعنى مخافر. ولفظ كركون ما زال يستعمل حتى اليوم في البلاد السورية بمعنى المخفر.

(٢) جيوش الباشبوزق: أي الجيش الشعبي.

(٣) هذا الاسم قد انمحى ويوجد في المكان الذي كانت توجد فيه هذه المدينة مدينة باسم=

اسلام وشباتس ،وأن لا يتداخل القواد العثمانيون في ادارة البلاد الداخلية مطلقاً وأن يلزم المسلمون القاطنون خارج القلاع الأربع المذكورة ببيع ممتلكاتهم والمهاجرة عن البلاد أو الإقامة في حدود الحصون .وعلى حكومة الصرب أن تدفع لهم تعويضات عن ذلك وأمضى بذلك اتفاق بتاريخ ١١ربيع أول سنة ١٢٧٩(٦ سبتمبر سنة ١٨٦٢)، أبلغ الى الصرب في دسمبر من السنة المذكورة وغني عن البيان أن تحظير الاقامة في الصرب على المسلمين من أقبح ضروب التعصب التي يرمينا بها الأوروبيون،ولكن سيحفظ التاريخ هذه الحوادث الدالة على براءتنا منه واتصافهم به دون غيرهم .

ولايتي الافلاق والبغدان : ذكرنا أن هاتين الولايتين انتخبتا البرنس كوزا أميراً عليهما خلافاً لشروط معاهدة باريس وأن الباب العالي تساهل في الاعتراف بهذا الانتخاب بنوع الاستثناء بشرط أنه بعد هذا البرنس تعود الأمور الى ما جاء بمعاهدة باريس .ونقول الآن«كوزا» تسمى بعد ذلك بالبرنس (جان السكندر الأوّل) وفي أواخر سنة ١٨٦١ صدر فرمان يجيز له توحيد ادارة الإمارتين أيضاً وبأن يكون لهما مجلس نواب واحد ووزارة واحدة ثم سعى هذا الأمير في إصلاح الشؤون الداخلية وحوّل أنظاره الى مسألة الأوقاف المخصصة للاديرة والكنائس وبعض الاديرة الخارجة عن البلاد مثل دير جبل طورسينا وديراثوس [1] ببلاد الترك والأماكن المقدّسة بمدينة أورشليم فإن هذه الأملاك بلغت نحو جزء من ثمانية من مجموع أطيان البلاد وإيرادها يذهب خارجها الى بطريرق الاستانة ليوزع على هذه الأديرة فقال

= تورنو سيڤيرين Turno Severin وتقع على يمين نهر الدانوب الى شرق من بلگراد . وشباتس هي شاباتس Sabac وتقع الى الجنوب الغربي من نهر ساڤا الى الجنوب الغربي من بلگراد .

(١) دير أثوس Athos ينسب الى جبل أثوس الواقع في مكدونيا من بلاد اليونان اليوم ويقع في جنوب شرق شبه الجزيرة الأقرب الى تركيا وهي احدى الاصابع الثلاث الممتدة من شبه الجزيرة التي تقع سلانيك في غربها . وقد انشئ هذا الدير في القرن العاشر وهو يحوي أربعة آلاف راهب أرثوذكسي ويتمتع باستقلال اداري وله دستور جمهوري ، وكان تابعاً للمملكة اليونانية .ويحوي هذا الدير مخطوطات ذات شأن ورسوم فنية .

البرنس بضم جميع هذه الأوقاف الى جانب الحكومة وهي تقوم بدفع مبلغ معين لنفقات الكنائس الداخلية والاعمال الخيرية الأهلية فقط ولا تدفع شيئاً للأديرة الخارجية، وعضده مجلس النوّاب وعموم الأهالي في هذا المشروع، لكن عارضه فيه بطريرق الاستانة وجميع الرهبان وتداخلت الدول والباب العالي فعضده فريق وعارضه أخر. وأخيراً لما رأى الأمير أن الإقدام أضمن لنجاح مشروعه أصدر أمراً سامياً في سنة ١٨٦٣ بمصادرة أملاك الأوقاف بأجمعها وخوفاً من اعتراض الباب العالي عرض عليه في ٣٠ ربيع الأوّل سنة ١٢٨٠ (١٤ سبتمبر سنة ١٨٦٣) دفع مبلغ أربعة وثمانين مليون قرش[1] الى بطريرق الاستانة تكون فائدته السنوية بمثابة تعويض عما كان يخص الاديرة الخارجية من إيراد الأوقاف بشرط أن هاته الاديرة تقدم حساباً عن الأوجه التي صرفت فيها هذه الفائدة، وأن تخصص حكومة رومانيا مبلغ عشرة ملايين قرش يبنى بها في الاستانة مستشفى ومدرسة لجميع المسيحيين أيا كان مذهبهم فلم يقبل البطريق ذلك. وبعد مداولات طويلة وتبادل مخاطبات سياسية كثيرة اقترح الباب العالي على حكومة رومانيا أن تبلغ التعويض الى مائة وخمسين مليون قرش فقبلت، لكن أصرّ القسوس على إبائهم ولم يعبأ الامير بهذا الاباء بل جدّ في طريق الاصلاح وعرض على مجلس الأمة أمر مصادرة الأوقاف فصدق عليه في ١٢ ربيع الثاني سنة ١٢٨٠ (٢٦ دسمبر سنة ١٨٦٣) ثم في ١٧ الحجة سنة ١٢٨٠ (٢٤ مايو سنة ١٨٦٤) قرر هذا المجلس أن يكون تعيين القسوس على اختلاف درجاتهم بمعرفة حكومة الإمارة وشكل لمعاقبتهم، لو وقعت منهم أمور مغايرة للقوانين الدينية، مجلساً دينياً (سينود) وأناط محاكمتهم في الأمور الدنيوية بمجلس التمييز الأعلى.

وبذلك استقل الاكليروس في رومانيا استقلالاً تاماً ولم يبق لبطريرق الاستانة أقل سيطرة عليه وأيد الباب العالي هذه التغييرات واعترف ضمناً بأن لحكومة رومانيا الحق في تغيير نظاماتها وقوانينها الداخلية بدون استشارة الباب مسبقاً، واعتماداً على ذلك أدخل البرنس عدة اصلاحات مهمة تباعاً فحوّر قانون الانتخابات بكيفية خولت حق الانتخاب لكثير من الأهالي لم يكن هذا الحق ممنوحاً لهم من قبل وجعل

---

(١) أي ٨٤٠,٠٠٠ ليرة ذهبية.

التعليم اجبارياً، وفتح عدّة مدارس عالية مدنية وعسكرية ومستشفيات. وأصدر قانوناً بجعل قيد المواليد والوفيات وعقود الانكحة مختصاً بالمأمورين الملكيين بعد أن كان تابعاً للكنائس. لكن لعدم توفر الثروة في البلاد وكثرة الضرائب تذمر عليه الأهالي فاستعمل الشدة في معاقبة كل من أظهر عدم الرضا من أعماله حتى كثرت الشكوى منه، وكتب اليه الصدر الأعظم فؤاد باشا بتدخل الدولة لرفع المظالم عن الأهالي لو استمرّ الحال على هذا المنوال .

ولما زاد في طغيانه وصار يصدر الأوامر العالية واللوائح بدون عرضها على مجلس النوّاب تآمر عليه عدّة من الأعيان تحت رئاسة المسيو روزتي مدير جريدة (رومانول) وحصروه في قصره في مساء يوم ٦ شوّال سنة ١٢٨٢ (٢٢ فبراير سنة ١٨٦٦) وألزموه الاستقالة فقدم استعفاءه. ثم اجتمع بباريس في ٢٢ شوّال الموافق ١٠ مارس مندوبون من الدول المصادقة على عهدة سنة ١٨٥٦ للنظر في كيفية انتخاب خلف للامير جان اسكندر الأوّل فاجمعوا الا الروسيا على وجوب توحيد حكومة الولايتين خلافاً لما جاء في المعاهدة المذكورة بشرط أن لا يكون الأمير عليها أجنبياً بل من أشرف أبناء البلاد، لكن لم يذعن أهالي رومانيا لهذا القرار بل انتخبوا في ٣ الحجة (٢٠ أبريل) البرنس شارل دي هوهنزولرن من عائلة بروسيا الملوكية أميراً لهم وهو ملك هذه البلاد الآن وأعطى له لقب ملك بعد حرب الروسيا الأخيرة كما سيجيء .

أما السبب في تشبث الدول في تقوية هذه الإمارة وسعي الروسيا في عدم ضم الولايتين المكونتين لها إلى بعضهما أن الدول ترى هذا الرأي لتكون إمارة رومانيا بمثابة حاجز حصين ضدّ تقدم الروسيا نحو الاستانة، خصوصاً وأن أهالي رومانيا لم يكونوا من العنصر السلافي الروسي فيصعب على الروسيا استمالتهم الى سياستها لتمسكهم بجنسيتهم وخوفهم من تغلب الجنس الصقالبي (السلافي) عليهم . وهذا السبب عينه كان الباعث لدول أوروبا على تشكيل إمارة البلغار لتكون حاجزاً ثانياً بعد رومانيا وعلى مساعدة البلغار ضدَّ الروسيا في هذه السنين الأخيرة .

فؤاد باشا الصدر الأعظم واصلاحاته

قد ذكرنا أنه لما تولى السلطان عبد العزيز منصب الخلافة العظمى أبقى محمد أمين عالي باشا في الصدارة العظمى لكن لم يلبث أن أقاله تبعاً للظروف في جمادى الأولى سنة ١٢٧٨ (نوفمبر سنة ١٨٦١) وعين فؤاد باشا صدراً أعظم، ولم تدم صدارته الأولى بل فصل عنها. وبعد بعض تقلبات أعيد إليها بعد بضعة شهور فبذل جهده في اصلاح المالية ، التي كانت على شفا الافلاس بسبب الديون الكثيرة التي اقترضتها الدولة في أيام السلطان محمود الثاني وعبد المجيد بسبب إنشاء القوائم ، التي هي عبارة عن أوراق صغيرة ملوّنة بألوان مختلفة كل منها بقيمة معلومة من النقود . ولبيان سوء الأحوال المالية نقول إنه لما انتشبت حرب استقلال اليونان ودمرت الدول دونانمتها ظلماً وتعصباً التزمت الدولة، لتجديد مراكبها وتقوية جيوشها، الى اصدار القوائم المالية .فأصدرت أوّلاً في سنة ١٨٣٠ أوراقاً بمبلغ اثنين وثلاثين ألف كيسة بفائدة ثمانية في المائة سنوياً تستهلك في ثماني سنوات ثم بسبب حروب الشام بين مصر والدولة ما تيسر لها استهلاك هذا القدر بل أصدرت أوراقاً بلا فائدة وامتنعت عن دفع الفائدة عن الأوراق الأصلية ، وتوالى بعد ذلك إصدار الأوراق في كل سنة تقريباً .

ولما تربع السلطان عبد المجيد في دست الخلافة أراد سحب القوائم إلا أن حرب القرم وما جرته على الدولة من المصاريف الباهظة منعه عن تتميم مشروعه واضطرّته الأحوال الى الاستدانة من أوروبا للقيام بأعباء الحرب ، ثم استغرقت المصاريف كل القرض فأصدر قوائم جديدة . واستمر الحال على هذا المنوال ، وكل سنة تزداد الديون الخارجية والقوائم الداخلية حتى ولي فؤاد باشا منصب الصدارة فاقنع جلالة السلطان عبد العزيز بضرورة إبطال القوائم وتسوية جميع الديون بكيفية منتظمة، فأصدر السلطان فرماناً عالياً في ٢٠ رجب سنة ١٢٧٨ (٢١ يناير سنة ١٨٦٢) لفؤاد باشا باصلاح المالية وإعمال ميزانية سنوية لايرادات ومصروفات الدولة. ثم في ١٩ الحجة سنة ١٢٧٨ (١٧ يونيو سنة ١٨٦٢) أصدر إليه فرماناً آخر أهم ما جاء به سحب القوائم بأجمعها وتصفية جميع الديون السائرة ودفع بدل القوائم نقوداً ذهبية أو فضية بقيمة أربعين في المائة وسهاماً جديدة بقيمة الستين في المائة الباقية .

واقترضت الدولة لاتمام هذه العملية المالية ثمانية ملايين جنيهاً انكليزياً، ولما لم تف اقترضت ثمانية أخرى بواسطة البنك العثماني الذي تأسس في هذه الغضون ولكثرة المصاريف في الاصلاحات الداخلية وغيرها كثرت الديون وتراكمت وصار دفع الكوبونات (الفوائد) حملاً ثقيلاً على عاتق ميزانية الدولة، فأمر السلطان بالاقتصاد من جميع فروع الميزانية حتى من المبالغ المخصصة لسرايته الخاصة. وبذلك أمكن ناظر المالية مصطفى فاضل باشا[1] القيام بدفع الفوائد. وأخيراً لعدم موافقة ناظر المالية لفؤاد باشا على مشروعاته المالية عزل مصطفى باشا فاضل وعين كاني باشا مكانه، فقدم هذا الأخير بالاتحاد مع فؤاد باشا تقريراً الى السلطان بتاريخ ٢١ شوّال سنة ١٢٨١ (١٩ مارس سنة ١٨٦٥) قاضياً بانشاء هذا التقرير وسجل بمقتضاه أربعون مليون جنيهاً عثمانياً لكن لم يأت زمن دفع الكوبون إلا والخزينة ناضبة لا يوجد بها ما يكفي لدفعه فاضطرّت الدولة الى إصدار سهام جديدة بواسطة البنك العثماني بمدينتي باريس ولوندره فأصدرها البنك في شعبان سنة ١٢٨٢ (دسمبر سنة ١٨٦٥) بفائدة ١٢ في المائة. ولضعف الثقة بمالية الدولة لم يقدم أصحاب الأموال على الاكتتاب ولم يتحصل من هذه السهام الجديدة إلا ما يكفي لدفع الكوبون المستحق فقط. ولاستمرار هذا الضيق وعدم وجود النقود الكافية للمصروفات الضرورية سعى به أرباب الغايات لدى جلالة السلطان وأفهموه أن هذا العسر ناشىء عن سوء تدبير فؤاد باشا للمالية فعزله واستبدله بمحمد رشدي باشا وأصدر له فرمانا بذلك بتاريخ ٢١ محرم سنة ١٢٨٣ (٥ يونيو سنة ١٨٦٦)، فسعى مرتين في اصدار قرض لتسوية الديون السائرة ولم ينجح، وأخيراً اتفق مع البنك العثماني على أن يدفع البنك فوائد الديون

---

(١) هو نجل المرحوم ابراهيم باشا نجل المرحوم محمد علي باشا الكبير والي مصر، ولد سنة ١٢٤٥هـ وتوجه الى أوروبا مع أخيه المرحوم أحمد باشا والخديوي الأسبق اسماعيل باشا وتوظف بوظائف عالية بالاستانة، فأحيلت اليه نظارة المعارف سنة ١٢٧٩ ثم المالية. وفي أوائل سنة ١٢٨٧ عين ناظرا للعدلية (الحقانية) وبعد ذلك بقليل أنعم عليه بالنيشان العثماني المرصع وتقلد بعد ذلك عدة مناصب أخرى، وتوفي في ٤ ذي القعدة سنة ١٢٩٢ ودفن بالاستانة.

المقيدة في السجل العمومي كل ثلاثة أشهر وتتنازل له الدولة لوفائها عن بعض ايرادات معينة، وبذلك أمكن دفع الكوبونات أوّلاً فأوّلاً واتقى شرَّ تأخير دفعها الذي يعدّ في عرف المالية إفلاساً، وصارت الدولة تقترض ما يلزمها من البنوكة بدون اصدار أسهم عمومية.

بعد أن استقرّت أحوال الدولة المالية أو كادت تحركت الفتن السياسية أوّلاً بسبب عدم قبول حكومة الصرب باتفاق ١١ ربيع الأوّل سنة ١٢٧٩ (٦ سبتمبر سنة ١٨٦٢) (راجع صحيفة ٥٢٣) القاضي ببقاء الجيوش العثمانية محتلة لأربع قلاع بداخل بلاد الصرب كما سبق ذكر ذلك، وطلبها من الدول بكل إلحاح إبطال هذا الشرط والجلاء عساكر الدولة عنها قطعيا، فلم تقبل الدولة بل هدّدت الصرب بالحرب لو مست عساكرها المحتلين بسوء ولكن اشتعال نار الفتن بكريد أشغلها عن إخضاعها وقبلت أخيراً في ذي القعدة سنة ١٢٨٣ (مارس سنة ١٨٦٧) سحب عساكرها فكمل استقلال الصرب ولم يبق على أميرها إلا لقب ملك.

ومثل ذلك حصل بخصوص الاعتراف بانتخاب البرنس شارل دي هوهنزولرن البروسي، فإن الدولة بعد أن جمعت جيشاً جراراً على حدو رومانيا لفسخ الانتخاب وإلزام الأهالي باتباع نصوص المعاهدات اضطرّتها ثورة كريد الى العدول عن هذه الخطة والاعتراف بانتخابه. ولقد أصابت الدولة في ذلك لأن وجود مثل هذه الامارة في طريق الروسيا يفيدها وقت الحرب خصوصاً اذا لم يكن أميرها مصافياً للروسيا ولا متحداً معها في المذهب والجنس.

ثورة كريد

أما ثورة جزيرة كريد فنشأت من دسائس اليونان بها وسعيهم في ضمها إليهم لكن يظهر أن مصلحة الدول البحرية لم تسمح لهم هذه المرَّة بتأييد مطالب اليونان بل كانت كلها مضادَّة لسلخ هذه الجزيرة عن أملاك الدولة العلية.

ولذلك منعت الدول مملكة اليونان من مساعدة الجزيرة الثائرة وأرسلت الدولة العثمانية لقمعها جيشاً عرمرماً، وأرسل المرحوم اسمعيل باشا خديوي مصر الأسبق فرقة لمساعدتها على مقتضى الفرمانات، وأظهرت الجيوش المصرية بها شجاعتها المعتادة

وفازت بالنصر في عدَّة مواقع مهمة خصوصاً في واقعة ارقاذي (اركاديون [1]) حتى استحقوا ثناء خديويهم عليهم وشكره لهم، فأرسل لهم بكريد رسالة قرئت على جميع العساكر والضباط المصريين وكان المحرر لها المرحوم عبد الله باشا فكري الذي كان اذ ذاك ناظر قلمي التحريرات والعرضحالات. وقد أردنا إيرادها حرفياً لرقة مبانيها ودقة معانيها شاهدة بفضل المصريين في براعة التحرير كما تشهد لهم بالنصر والفوز العظيم وها هي بحروفها :

«الى من باشروا واقعة«ارقاذي»من الضباط الجهادية وأفراد العساكر المصرية سلام من الله وتسليم ورضوان كريم يهدى لاوّلكم وآخركم ويسدى لمأموركم وآمركم ،لا زلتم محفوفين من الله بنصره محفوظين بأمره غالبين على عدوّكم بقهره متقلبين في نعمته وبرّه ،ولا انفكت عزائمكم في كروب الحرب عزائم وصوارمكم في قطوب الخطوب بواسم وأعلامكم للنجح والتمكين علائم وأيامكم للفتح المبين مواسم ورياح القهر والدمار على عدوّكم سمائم ونسمات النصر والفخار في رواحكم وغدوّكم نواسم (وبعد) ،فما زلت أتشوق من أخبار شجاعتكم ما يسر الخواطر وأتشوف من آثار براعتكم ما يقر النواظر واثقاً بعزمكم وحزمكم في المضايق مبتهجاً بما أبديتموه من حسن السوابق حتى ورد فابور[2] الشرقية من طرف حضرة الباشا ناظر الجهادية بيوميات الوقائع العسكرية ،مشتملة على واقعة ارقاذي وتفصيلاتها وما كان من رسوخ أقدامكم وثباتها وأقدامكم في جهاتها واقتحامكم مضايق حصونها واستحكاماتها وتسخير مستعصماتها وتدمير أشقياء العصاة وكماتها حتى زلزلت صياصيها وذللت نواصيها ودنا لكم قاصيها ودان عاصيها. فهكذا تكون رجال الجهاد وأبطال الجدال والجلاد وهكذا تفتح الحصون ويبرز سرّ النصر المصون وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. فقد أسفر لكم بحمد الله وجه التهاني وأثمر فيكم بعون الله غرس الأماني وأيدتم ما ثبت للعساكر المصرية من حسن الأمور العسكرية ،فحصل لي من

---

(١) أركادي هي الاقليم الشمالي الغربي من شبه جزيرة مورا وعاصمته تريبوليس .

(٢) فابور هي تعريب كلمة ڤابور Vapeur التي تعني البخار وقد استعملت في العامية العربية بابور أو وابور بمعنى الباخرة ،وهي المقصود هنا .

الأنس والسرور بهذه البشارة ما لا تقدر الألسن أن تصف مقداره ولا يتسع له مجال الإشارة وتأيد فيكم حسن أنظاري وظهرت ثمرات أفكاري وتحققت أنكم الآن بعون الله الكريم لا تزالون عن هذا الطريق القويم ولا تزالون في تأييد ما لكم من المجد القديم.وقد شاع حديث نصرتكم بين الأهل والديار وسارت الركبان بمحاسن هذه الأخبار كما نقلته صحائف الوقائع الى جميع الأقطار فانشرحت صدور أهلكم وإخوانكم وفرحت بكم جميع أهل بلدانكم وابتسمت ثغور أوطانكم وافتخرت بأحاديث شجعانكم وارتاحت أرواح الشهداء من أقرانكم والمأمول في ألطاف الله العلية وبركات السلطنة السنية ثم في حميتكم الملية وغيرتكم الوطنية أن يزول حال الاختلال [1] عن قرب وينتهي أمر القتال والحرب ويطيع الجميع ويسهل كل صعب منيع ،وتعودوا لوطننا العزيز ظافرين بالنصر والتعزيز وقد قرب حصول الأمل ونجاح العمل ومضى الأكثر وبقي الاقل والحرب للرجل العسكري والبطل الجريء سوق عظيم وموسم كريم تشتري فيه غوالي المعالي بأعالي الغوالي وتنال فيه منازل الأكارم في ظلال السيوف الصوارم ويدرك الفخر الصادق بمرامي المدافع والبنادق،وقد علمتم أن الشجاعة وإن كانت تبلغ الآمال لا تقصر الآجال كما أن الجبن وان كان يورث العار لا يؤخر الأعمار ،وإنما هي آجال محدودة وأنفاس معدودة لا تقبل التغيير ولا التقديم والتأخير والشجاعة صبر ساعة ثم ينكشف الغبار وتسفر الأخبار ويتناقل حديث الشجعان ويخلد في تواريخ الزمان،فدوموا على إبداء الاجتهاد وقوموا بأداء حقوق الجهاد واثبتوا على الشجاعة والاقدام وثبات القلوب والاقدام وانجزوا بمعونة الله تمام هذا المرام وكما جودتم براعة المطلع فاحسنوا براعة الختام . اهـ» .

ولم يكن اهتمام الدولة العلية ورجالها بأقل من اهتمام الجنود المصرية المظفرة، فبعد أن وجهت إليها الجيوش أرسلت اليها مندوباً سامياً للمفاوضة مع الثائرين اسمه كريدلي محمد باشا لمعرفته أحوال البلاد،لكن لم ينجح في مأموريته لما كان بينه وبين أعيان الجزيرة من الشحناء بسبب ولايته السابقة على تلك الجزيرة .

ثم في ٦ شوال سنة ١٢٨٣ (١١ فبراير سنة ١٨٦٧) استقال محمد رشدي باشا

---

(١) الاختلال بمعنى الاضطراب والثورة .

من منصب الصدارة فعين السلطان مكانه محمد أمين عالي باشا ثانياً وأبقى محمد رشدي باشا المذكور في وظيفة السر عسكرية وأعاد محمد فؤاد باشا الصدر الأسبق الى نظارة الخارجية ،وكانت أوّل أعمال هذه النظارة أن استدعت كريدلي محمد باشا من جزيرة كريد وأرسلت عمر باشا بطل القرم اليها بوظيفة قائد عام لجميع الجيوش المحاربة بها فحارب الثائرين بكل شدّة وصرامة وعند ذلك تداخلت بعض الدول وطلبت إرسال لجنة دولية الى الجزيرة لتسوية الأحوال فرفض الباب العالي هذا الطلب لعدم اتفاق الدول عليه واقترح من نفسه ارسال مندوب سام سياسي للنظر في شؤون الجزيرة وسافر اليها بهذه الصفة الصدر الأعظم عالي باشا في ٤ اكتوبر سنة ١٨٦٧،وهناك بذل جهده في تسكين خاطر الأعيان بمنحهم الرتب والنياشين ثم أقال عمر باشا لعدم اتفاقه مع رجال البحرية المراقبين لشواطىء الجزيرة وأقام حسين عوني باشا مكانه وعينه والياً للجزيرة.وبعد أن رتب الأحوال عاد الى الاستانة في أوائل سنة ١٨٦٨ لاضطراد المخابرات السياسية بشأن تظاهر مملكة اليونان لمساعدة الثائرين وطلبها ضم الجزيرة إليها بأي طريقة ولو أدّت الحال الى الحرب ،لكن لم تساعدها الدول على ذلك وأظهرت لها الجفاء وتهدّدتها بما لا تحمد عقباه لو أثارت نار الحرب .

واخيراً انعقد بباريس مؤتمر من مندوبي الدول الموقعة على عهدة سنة ١٨٥٦، وبعد مداولات وتبادل عدّة محررات أصدر السلطان إرادة سنية بتاريخ ١٢ جماد الثاني سنة ١٢٨٦ (١٩ سبتمبر سنة ١٨٦٩) يمنح الجزيرة بعض امتيازات واعفاء أهلها من دفع أموال سنتين كانت متأخرة عليهم ومن الخدمة العسكرية،وبذلك انتهت هذه الثورة مؤقتاً اذ اليونان لا تترك أيّ فرصة لتحريضها على الثورة لضمها إليه .

سفر السلطان عبد العزيز لمصر

ومما امتاز به السلطان عبد العزيز خان عما عداه من السلاطين العثمانيين تفقده ممالكه المحروسة بنفسه وسياحته خارجاً عنها ، فقد سافر رحمه الله الى وادي النيل في ١٤ شوّال سنة ١٢٧٩ يصحبه في معيته الشريفة الأمراء الأماجد: مراد أفندي الذي

تولى منصب الخلافة بعد المرحوم السلطان عبد العزيز، وعبد الحميد أفندي خليفتنا الحالي، ورشاد أفندي، ويوسف عز الدين أفندي، والوزيران فؤاد باشا ومحمد باشا، فزار الاسكندرية ومحروسة مصر ثم عاد الى دار السعادة باليمن والإقبال. وكان سفره من الاستانة بعد أن افتتح المعرض العثماني الذي أقيم بها لتنشيط الصنائع الوطنية في ١٠ رمضان سنة ١٢٧٩ (١ مارس ١٨٦٣) بحضور ضيفه الكريم اسمعيل باشا، خدوينا الأسبق.

سفر السلطان لباريس

وفي ١٩ صفر سنة ١٢٨٤ (٢٢ يونيو سنة ١٨٦٧) سافر قاصداً مدينة باريس الزاهية الزاهرة على دعوى الامبراطور نابوليون الثالث لحضور المعرض العام الذي أقيم فيها، ودعا إليه الأمبراطور أغلب ملوك الدنيا وكان من ضمن المدعوين خديوي مصر اسماعيل باشا، فأبحر من الاسكندرية في ٧ من شهر صفر المذكور على سفينة المحروسة ليكون بباريس حين قدوم جلالة السلطان عبد العزيز إليها ثم عاد جلالة السلطان المعظم الى مقرّ خلافته عن طريق وارنه في ٦ ربيع الثاني سنة ١٢٨٤ (٧ أوغست ١٨٦٧) بعد أن تغيب عنها ستة أسابيع ألفى في خلالها من حسن الملاقاة وكرم الوفادة مـا طبع عليه الفرنسويون واشتهر عنهم.

أما الاصلاحات التي اجريت في داخلية الممالك المحروسة في خلافته فيعد منها ولا تعد، فنها القانون القاضي بجواز انتقال الأراضي الميرية (الخراجية) والموقوفة لورثة صاحب المنفعة الصادر في ١٧ محرم سنة ١٢٨٤ (٢١ مايو ١٨٦٧) وهو يشبه لائحة الأطيان السعيدية المصرية.

وضع مجلة الأحكام العدلية

والقوانين التي أجازت للاجانب امتلاك العقارات وكافة الحقوق العينيـة والتصرّف فيها بجميع الممالك المحروسة بعد أن كانت ممنوعة عنهم كلية، وذلك في سنة ١٢٨٥ الموافقة سنة ١٨٦٩، ومنها وضع مجلة الأحكام الشرعية ليعمل بها في المحاكم النظامية التي أنشئت وكان جارياً إصلاحها، وكان وضع هذه المجلة بمعرفة

لجنة من أشهر متشرعي هذا العصر.وإليك نص التقرير الذي قدمته الى محمد أمين عالي باشا، الصدر الأعظم في غرة محرم سنة ١٢٨٦ (٥ مايو ١٨٦٧) منقـولاً من منتخبات الجوائب :

«لا يخفى على حضرة الصدر العالي أن الجهة التي تتعلق بأمر الدنيا من علم الفقه، كما أنها تنقسم الى مناكحات ومعاملات وعقوبة، كذلك القوانين السياسية للأمم المتمدنة تنقسم الى هذه الاقسام الثلاثة ويسمى قسم المعاملات منها القانون المدني لكنه لما زاد اتساع المعاملات التجارية في هذه الاعصار مست الحاجة الى استثناء كثير من المعاملات كالسفتجة التي يسمونها حوالة وكأحكام الافلاس وغيرهما من القانون الأصلي ووضع لهذه المستثنيات قانون مخصوص يسمى قانون التجارة وصار معمولاً به في الخصوصيات التجارية فقط، وأما سائر الجهات فما زالت أحكامها تجري على القانون المدني.ومع ذلك فالدعاوى التي ترى في محاكم التجارة اذا ظهر شيء من متفرعاتها ليس له حكم في قانون التجارة مثل الرهن والكفالة والوكالة يرجع فيه الى القانون الأصلي، وكيفما وجد مسطوراً فيه يجري الحكم على مقتضاه وكذا في دعاوى الحقوق العادية الناشئة عن الجرائم تجري المعاملة بها على هذا المنوال أيضاً.وقد وضعت الدولة العلية قديماً وحديثاً قوانين كثيرة تقابل القانون المدني وهي وإن لم تكن كافية لبيان جميع المعاملات وفصلها الا أن المسائل المتعلقة بقسم المعاملات من علم الفقه هي كافية وافية للاحتياجات الواقعة في هذا الخصوص ولقلما يرى بعض مشكلات في تحويل الدعاوى السابق الى الشرع والقانون غير أن مجالس تمييز الحقـوق لما كانت تحت رئاسة حكام الشرع فكما أن الدعاوى الشرعية تصير رؤيتها وفصلها لديهم كذلك كانت المواد النظامية التي تحال الى تلك المجالس ترى وتفصل بمعرفتهم أيضاً وبذلك يجري حل تلك المشكلات من حيث أن أصل القوانين والنظامات الملكية ومرجعهما هو علم الفقه، وكثير من الخصوصيات المتفرعة والأمور التي ينظر فيها بمقتضى النظام ويفصل ويحسم على وفق المسائل الفقهية، والحال أن أعضاء مجالس تمييز الحقوق لا اطلاع لهم على مسائل علم الفقه، فإذا حكمت حكام الشرع الشريف في تلك الفروع بمقتضى الأحكام الشرعية ظن الأعضاء انهم يفعلون ما يشاؤون خارجاً

عن النظامات والقوانين الموضوعة وأساءوا بهم الظن فيصير ذلك باعثاً على القيل والقال .

ثم ان قانون التجارة الهمايوني هو دستور العمل في محاكم التجارة الموجودة في ممالك الدولة العلية،وأما الخصوصيات المتفرعة عن الدعاوى التجارية التي لا حكم لها في قانون التجارة فيحصل بها مشكلات عظيمة،لأنه اذا صارت المراجعة في مثل هذه الخصوصيات الى قوانين أوروبا وهي ليست موضوعة بالارادة السنية فلا تصير مدار الحكم في محاكم الدولة العلية،واذا أحيل فصل تلك المشكلات الى الشريعة الغراء فالمحاكم الشرعية تصير مجبورة على استئناف المرافعة في تلك الدعوى وحينئذفالحكم على قضية واحدة في محكمتين كل منهما تغاير الأخرى في أصول المحاكمة ينشأ عنه بالطبع تشعب ومباينة،ففي مثل هذه الأحوال لا يمكن لمحاكم التجارة مراجعة المحاكم الشرعية.واذا قيل لاعضاء محاكم التجارة أن يراجعوا الكتب الفقهية فهذا أيضاً لا يمكن لأن هؤلاء الاعضاء على حدّ سواء مع مجالسس تمييز الحقوق في الاطلاع على المسائل الفقهية .

ولا يخفى أن علم الفقه بحر لا ساحل له،واستنباط درر المسائل اللازمة منه لحل المشكلات يتوقف على مهارة علمية وملكة كلية وعلى الخصوص مذهب الحنفية لأنه قام فيه مجتهدون كثيرون متفاوتون في الطبقة،ووقع فيه اختلافات كثيرة.ومع ذلك فلم يحصل فيه تنقيح كما حصل في فقه الشافعية بل لم تزل مسائله أشتاتاً متشعبة فتمييز القول الصحيح من بين تلك المسائل والأقوال المختلفة وتطبيق الحوادث عليها عسير جداً وما عدا ذلك فإنهبتبدل الأعصار تتبدل المسائل التي يلزم بناؤها على العادة والعرف،مثلاًكان عند المتقدمين من الفقهاء اذا أراد أحد شراء دار اكتفى برؤية بعض بيوتها [1] وعند المتأخرين لا بد من رؤية كل بيت منها على حدته وهذا الاختلاف ليس مستنداًالى دليل بل هو ناشىء عن اختلاف العرف والعادة في أمر الانشاء والبناء وذلك أن العادة قديماً في انشاء الدور وبنائها أن تكون جميع بيوتها متساوية وعلى طرز واحد فكانت رؤية بعض البيوت على هذا تغني عن رؤية سائرها،وأما في هذا

(١) يقصد غرفها

العصر فحيث جرت العادة بأن الدار الواحدة تكون بيوتها مختلفة في الشكل والقدر لزم عند البيع رؤية كل منها على الانفراد.وفي الحقيقة فاللازم في هذه المسألة وأمثالها حصول علم كاف بالمبيع عند المشتري ومن ثم لم يكن الاختلاف الواقع في مثل المسألة المذكورة تغييراً للقاعدة الشرعية وانما تغير الحكم فيها بتغير أحوال الزمان فقط، وتفريق الاختلاف الزماني والاختلاف البرهاني الواقع هنا وتمييزها محوج الى زيادة التدقيق وإمعان النظر،فلا جرم أن الاحاطة بالمسائل الفقهية وبلوغ النهاية في معرفتها أمر صعب جداً ولذا انتدب جمع من فقهاء العصر وفضلائه لتأليف كتب مطولة مثل كتاب الفتاوى التاتارخانية،والعالمكيرية المشهورة الآن بالفتاوي الهندية. ومع ذلك فلم يقدروا على حصر جميع الفروع الفقهية والاختلافات المذهبية.وفي الواقع فإن كتب الفتاوي هي عبارة عن مؤلفات حاوية لصور ما حصل تطبيقه من الحوادث على القواعد الفقهية وأفتيت به الفتاوي فما مر من الزمان. ولا شك أن الإحاطة بجميع الفتاوى ألتي أفتى بها علماء السادة الحنفية في العصور الماضية عسر للغاية ولهذا جمع ابن نجيم رحمه الله تعالى كثيراً من القواعد الفقهية والمسائل الكلية المندرج تحتها فروع الفقه ففتح بذلك بابا يسهل التوصل منه الى الاحاطة بالمسائل ولكن لم يسمح الزمان بعده بعالم فقيه يحذو حذوه حتى يجعل أثره طريقاً واسعاً وأما الآن فقد ندر وجود المتبحرين في العلوم الشرعية في جميع الجهات.وفضلاً عن انه لا يمكن تعيين أعضاء في المحاكم النظامية لهم قدرة على مراجعة الكتب الفقهية وقت الحاجة لحل الاشكالات فقد صار من الصعب أيضاً وجود قضاة للمحاكم الشرعية الكائنة في الممالك المحروسة.

بناء على ذلك لم يزل الأمل معلقاً بتأليف كتاب في المعاملات الفقهية يكون مضبوطاً سهل المأخذ عارياً من الاختلافات حاوياً للأقوال المختارة سهل المطالعة على كل أحد،لأنه اذا وجد كتاب على هذا الشكل حصل منه فائدة عظيمة عامة لكلّ من نواب الشرع ومن أعضاء المحاكم النظامية والمأمورين بالادارة فيحصل لهم بمطالعته انتساب الى الشرع،ولدى الإيجاب تصير لهم ملكة بحسب الوسع يقتدرون بها على التوفيق ما بين الدعاوى والشرع الشريف، فيصير هذا الكتاب معتبراً مرعي الاجراء في المحاكم الشرعية مغنياً عن وضع قانون لدعاوى الحقوق التي ترى في المحاكم

النظامية.ومن أجل الحصول على هذا المأمول عقدت سابقاً جمعية علمية في إدارة مجلس التنظيمات وحرر حينئذ كثير من المسائل ولكن لم تبرز الى حيز الفعل فصدق مضمون قولهم أن الأمور مرهونة لأوقاتها حتى شاء الله تعالى بروز ما في هذا العصر الهمايوني الذي صار مغبوطاً من جميع الأعصار بظهور مثل هذه الآثار الخيرية المهمة،ولأجل حصول هذا الأمر مع سائر الآثار الحسنة الكثيرة التي هي من التوفيقات الجليلة السلطانية المشهودة بعين الافتخار للبرية،أحيل على عهدتنا مع ضعفنا وعجزنا اتمام هذا المشروع الجميل والأثر الخيري السديد لتحصل به الكفاية في تطبيق المعاملات الجارية على القواعد الفقهية على حسب احتياجات العصر،وبموجب الارادة العلية اجتمعنا في دائرة ديوان الأحكام وبادرنا الى ترتيب مجلة مؤلفة من المسائل والأمور الكثيرة الوقوع اللازمة جداً من قسم المعاملات الفقهية،مجموعة من أقوال السادة الحنفية الموثوق بها،وقسمت الى كتب متعددة وسميت بالأحكام العدلية.وبعد ختام المقدّمة والكتاب الاوّل منها أعطيت نسخة منهما لمقام مشيخة الاسلام ونسخ أخرى لمن له مهارة ومعرفة كافية في علم الفقه من الذوات الفخام،ثم بعد إجراء ما لزم من التهذيب والتعديل فيها بناء على بعض ملاحظات منهم حررت منها نسخة وعرضت على حضرتكم العلية والآن حصلت المبادرة الى ترجمة هذه المقدّمة والكتاب الى اللغة العربية وما زال الاهتمام مصروفاً الى تأليف باقي الكتب أيضاً فلدى مطالعتكم هذه المجلة يحيط علمكم العالي بأن المقالة الثانية من المقدّمة هي عبارة عن القواعد التي جمعها ابن نجيم ومن سلك مسلكه من الفقهاء رحمهم الله تعالى،فحكام الشرع ما لم يقفوا على نقل صريح لا يحكمون بمجرّد الاستناد إلى واحدة من هذه القواعد،الا أن لها فائدة كلية في ضبط المسائل،فمن اطلع عليها من المطالعين يضبطون المسائل بادلتها وسائر المأمورين يرجعون اليها في كل خصوص.وبهذه القواعد يمكن للإنسان تطبيق معاملاته على الشرع الشريف أو في الأقل التقريب.وبناء على ذلك لم تكتب هذه القواعد تحت عنوان كتب أو باب بل أدرجناها في المقدّمة والأكثر في الكتب الفقهية أن تذكر المسائل مخلوطة مع المبادىء لكن في هذه المجلة حرر في أوّل كل كتاب مقدّمة تشتمل على الاصطلاحات المتعلقة بذلك الكتاب،ثم نذكر بعدها المسائل الساذجة على الترتيب.ولاجل ايضاح تلك المسائل الأساسية أدرج ضمنها كثير من

المسائل المستخرجة من كتب الفتاوي على سبيل التمثيل .

ثم إن الأخذ والعطاء الجاري في زماننا أكثره مربوط بالشروط ،وفي مذهب الحنفية ان الشروط الواقعة في صلب العقد أكثرها مفسد للبيع ومن ثم كان أهمّ المباحث في كتاب البيوع فصل البيع بالشرط وهذا الأمر أوجب مباحثات ومناظرات كثيرة في جمعية هؤلاء العاجزين.ولذا رؤي مناسباً ايراد خلاصة المباحثات الجارية في ذلك على الوجه الآتي :

فنقول : إن أقوال أكثر المجتهدين في حق البيع بالشرط يخالف بعضها بعضاً،ففي مذهب المالكية اذا كانت المدّة جزئية ،وفي مذهب الحنابلة على الاطلاق ،يكون للبائع وحده أن يشرط لنفسه منفعة مخصوصة في المبيع.لكن تخصيص البائع بهذا الأمر دون المشتري يرى مخالفاً للرأي والقياس.أما ابن أبي ليلى وابن شبرمة ممن عاصروا الإمام الأعظم رضي الله عنه وانقرضت أتباعهم فكل منهما رأى في هذا الشأن رأياً يخالف الرأي الآخر ، فابن أبي ليلى يرى أن البيع اذا دخله أي شرط كان فقد فسد البيع والشرط كلاهما.وعند ابن شبرمة آن الشرط والبيع جائزان على الاطلاق. فمذهب ابن أبي ليلى يرى مبايناً لحديث (المسلمون عند شروطهم) ومذهب ابن شبرمة موافق لهذا الحديث موافقة تامة لكن المتبايعين ربما يشرطان أيّ شرط كان جائزاً أو غير جائز قابل الاجراء أو غير قابل.ومن الأمور المسلمة عند الفقهاء أن رعاية الشرط إنما تكون بقدر الإمكان فمسألة الرعاية للشرط قاعدة تقبل التخصيص والاستثناء ولذا اتخذ طريق متوسط عند الحنفية وذلك أن الشرط ينقسم الى ثلاثة أقسام : شرط جائز وشرط مفسد وشرط لغو ؛ بيان هذا أن الشرط الذي لا يكون من مقتضيات عقد البيع ولا مما يؤيده وفيه نفع لأحد المتعاقدين مفسد والبيع المعلق به يكون فاسداً والشرط الذي لا نفع فيه لأحد العاقدين لغو والبيع المعلق به صحيح، لأن المقصود من البيع والشراء التمليك ،والتملك أي أن يكون البائع مالكاً للثمن والمشتري مالكاً للمبيع بلا مزاحم ولا ممانع والبيع المعلق به نفع لأحد المتعاقدين يؤدي إلى المنازعة لأن المشروط له النفع يطلب حصوله و الآخر يريد الفرار منه فكان البيع لايتم،لكن بما أن العرف والعادة قاطع للمنازعة جوّز البيع مع الشرط المتعارف على الاطلاق،أما المعاملات التجارية فهي من أصلها في حال مستثنى كما تقدّم وأكثر

ذوي الحرف والصنائع قد تعارفوا على معاملة مخصوصة تقررت بينهم والعرف الطارىء معتبر فلا يبقى ما يوجب البحث الا بعض شروط خارجة عن العرف والعادة تشترط في المعاملات المتفرقة في الأخذ والعطاء وليس لهذه المعاملات شأن يوجب الاعتناء بالبحث عنها فما مست الحاجة في تيسير معاملات العصر الى اختيار قول ابن شبرمة الخارج عن مذهب الحنفية، ولهذا حصل الاكتفاء بذكر الشروط التي لا تفسد البيع عند الحنفية في الفصل الرابع من الباب الأوّل كما وقع في سائر الفصول. قد ذكر في المادة السابعة والتسعين بعد المائة والمادة الخامسة بعد الثمانين أنه لا يصح بيع المعدوم والحال أن ماكان مثل الورد والخرشوم من الأزهار والخضراوات والفواكه التي يتلاحق ظهور محصولاتها يصح فيه البيع اذا كان بعض محصولاتها ظهر وبعضها لم يظهر لأنه لما كان ظهور محصولاتها دفعة واحدة غير ممكن وانما تظهر أفرادها وتتناقص شيئاً بعد شيء اصطلح الناس في العامل على بيع جميع محصولاتها الموجودة والمتلاحقة بصفقة واحدة ولذا جوّز الامام محمد بن حسين الشيباني رحمه الله تعالى هذا البيع استحساناً وقال اجعل الموجود أصلا والمعدوم تبعاً له وأفتى بقوله الامام الفضلي وشمس الأئمة الحلواني وأبو بكر بن فضل رحمهم الله تعالى، وحيث أن إرجاع الناس من عادتهم المعروفة عندهم غير ممكن كما أن حمل معاملتهم بحسب الامكان على الصحة أولى من نسبتها الى الفساد وقع الاختيار لترجيح قول محمد رحمه الله في هذه المسألة كما هو مندرج في المادة السابعة بعد المائتين.

وفي بيع الصبرة كل مدّ بكذا عند الإمام الأعظم رضي الله عنه يصح البيع في مدّ واحد فقط وعند الإمامين رحمهما الله تعالى يصح في جميع الصبرة فمهما بلغت الصبرة يأخذها المشتري ويدفع ثمنها بحساب المدّ بسعر ما جرى عليه العقد، وحيث أن كثيراً من الفقهاء مثل صاحب الهداية قد اختاروا قول الإمامين في ذلك تيسيراً لمعاملات الناس حررت هذه المسألة في المادة العشرين بعد المائتين على مقتضى قولهما. وأكثر مدّة خيار الشرط عند الإمام رحمه الله تعالى ثلاثة أيام وعند الإمامين تكون المدّة على قدر ما شرط المتعاقدان من الأيام ولما كان قولهما هنا أيضاً أوفق للحال والمصلحة وقع عليه الاختيار وذكر بدون مدّة الأيام الثلاثة في المادة الثلاثمائة. وهذا الخلاف جار أيضاً في خيار النقد إلا أن عدم تقييد المدّة

بثلاثة أيام وصحة تقييدها بأكثر من ذلك هو قول محمد رحمه الله تعالى فقط وإنما أختير قوله في هذه المسألة أيضاً مراعاة لمصلحة الناس كما ذكر في المادة الثالثة عشرة بعد الثلاثمائة .

وعند الإمام الأعظم أن المستصنع له الرجوع بعدعقد الاستصناع وعند الإمام أبي يوسف رحمه الله أنه إذا وجد المصنوع موافقاً للصفات التي بينت وقت العقد فليس له الرجوع، والحال أنه في هذا الزمان قد اتخذت معامل كثيرة تصنع فيها المدافع والبواخر (الفابورات) ونحوها بالمقاولة، وبذلك صار الاستصناع من الأمور الجارية العظيمة فتخيير المستصنع في إمضاء العقد أو فسخه يترتب عليه الإخلال بمصالح جسيمة،وحيث أن الاستصناع مستند إلى التعارف ومقيس على السلم المشروع على خلاف القياس بناء على عرف الناس لزم اختيار قول أبي يوسف رحمه الله تعالى في هذا مراعاة لمصلحة الوقت كما حرر في المادة الثانية والتسعين بعد الثلاثمائة من هذه المجلة .

فإذا أمر إمام المسلمين بتخصيص العمل بقول من المسائل المجتهد فيها تعين ووجب العمل بقوله،وإذا صارت هذه المعروضات المبسوطة لدى حضرتكم العلية قرينة التصويب يجرى توشيح أعلى المجلة الملفوفة بالخط الشريف الهمايوني والأمر لولي الأمر.

ناظر ديوان الأحكام العدلية
أحمد جودت
مفتش الأوقاف الهمايونية
السيد خليل
من أعضاء شورى الدولة
سيف الدين
من أعضاء ديوان الأحكام العدلية
السيد أحمد حلمي
من أعضاء ديوان الأحكام العدلية

السيد أحمد خلوصي
من أعضاء شورى الدولة
محمد أمين الجندي
من أعضاء الجمعية علاء الدين بن ابن عابدين

هذا ومن جهة الأمور المتعلقة بالإمارات الممتازة فقد ابتدأت دسائس جمعيات الصقالية في بلاد البلغار، الواقعة بين نهر الطونه وجبال البلقان، لسلخها عن الدولة. وكذلك في ولايتي البوسنة والهرسك، بدعوى الاشتراك مع الروسيين في الجنس والدين. وكانت رومانيا من أقوى المساعدين لهذه الجمعيات. فكانت تأوي إليها العصب المتسلحة وتشنّ الغارة على بلاد البلغار لتحريضهم على العصيان وطلب الاستقلال لكن لم تمتدّ بها الفتن بل كان يطفأ شرارها أوّلاً بأوّل قبل أن يصير لهباً بهمة أحمد مدحت باشا الشهير والي هذا الإقليم، وكذلك الحال في بلاد البوسنه والهرسك .

أما قطرنا المصري السعيد فحصل على جملة امتيازات في عهد السلطان عبد العزيز لما كان بينه وبين اسمعيل باشا من الروابط الخصوصية وما كان له بين حاشية السلطان ووزرائه من المساعدين جعلت ولاية مصر خديوية بمقتضى فرمان تاريخه ٥ ربيع الأول سنة ١٢٨٤ (٧ يوليو ١٨٦٧) .

الفرمان الشامل لجميع امتيازات الخديوية المصرية

وفي سنة ١٢٨٣ غيرت طريقة التوارث في الخديوية المصرية وحصرت في ذرية اسماعيل باشا المذكور، ثم في سنة ١٢٨٩ أعطيت له عدة امتيازات جديدة. وفي ١٣ ربيع الآخر سنة ١٢٩٠ (١٠ يونيو سنة ١٨٧٣) أرسل إليه فرمان جديد شامل لجميع امتيازات مصر وكيفية التوارث في منصب الخديوية ولكونه جامعاً لكافة ما سبق آثرنا نشره حرفياً اكتفاءً به عن باقي الفرمانات السابقة الداخلة معناها ضمن هذا الفرمان وها هو :

«فمن المعلوم لديكم أنكم استدعيتم منا جمع الخطوط الهمايونية والأوامر الشريفة السلطانية التي صدرت منذ توجيه الخديوية الجليلة بطريق التوارث إلى

عهدة والي مصر الأسبق محمد علي باشا المرحوم إلى يومنا هذا، سواء كانت بخصوص تعديل توارث الخديوية المصرية أو بخصوص إعطاء بعض امتيازات حسبما استوجبها موقع الخديوية وأمزجة الأهالي وطبائعها الخصوصية، وجعلها فرمانا واحداً مع التعديلات اللازمة في أحكامها والتفصيلات المقتضية في عباراتها بشرط أن يكون هذا الفرمان الجديد قائم مقام الفرمانات السابقة وأن تكون الأحكام المندرجة فيها معمولاً بها ومرعية الإجراء على الدوام والاستمرار، فقد قورن إستدعاؤكم هذا بمساعدتنا الجليلة وها نحن نذكر ونبين لكم أحكامها على الوجه الآتي:

لما تحقق لدينا أن تعديل أصول توارث الخديوية المصرية التي صار تعيينها بالفرمان العالي الصادر في اليوم الثاني من شهر ربيع الأوّل من شهور سنة ١٢٥٧ (٢٦ مارس ١٨٤١) الموشح أعلاه بالخط الهمايوني وتبديلها بأصول حصر الوراثة الخديوية في أكبر أولاد خديو مصر بطريق سلسلة النسب المستقيم، بأن يصير تخصيص مسند الخديوية الجليل وتوجيهه إلى أكبر أولاد الخديو الذكور وبعده إلى أكبر أولاد هذا الأكبر الذكور وهكذا على النسب المستقيم الذكوري على الدوام، يكون مستلزماً لحسن إدارة الخديوية المصرية وجالباً لاستكمال سعادة أحوال أهاليها وسكانها، هذا مع ما حصل لدينا من استحسان مساعيكم الجميلة المصروفة في استحصال معمورية الأقطار المصرية المهمة الجسيمة ورفاهية أهاليها وحصول وثوقنا بكم واعتمادنا الكامل عليكم، فلاجل أن يكون دليلاً باهراً على ذلك قد أجرينا تعديل توارث الخديوية المصرية وتعيين وصايتها على الطريق الآتي بيانها وهي: أن خديوية مصر الجليلة وملحقاتها وجهاتها المعلومة الجارية إدارتها بمعرفتها مع ما صار إلحاقها بها أخيراً من قائمقاميتي سواكن ومصوّع وملحقاتهما يصير توجيهها بعدكم على الطريق المار ذكرها إلى أكبر أولادكم الذكور وبعده إلى أكبر أولاد من يكون خديويا على الأقطار المصرية من أولادكم، وإذا انحلت الخديوية المصرية بأن لا يكون للخديو ولد ذكر يصير توجيهها إلى أكبر إخوته الذكور وإذا لم يوجد له أخ بقيد الحياة فإلى أكبر أولاد الأخ. وهكذا تتخذ هذه الأصول قانوناً مستمراً وقاعدة مرعية أبدية في توارث الخديوية

المصرية ولا يصير انتقال الوراثة الخديوية إلى الأولاد الذكور المتولدة من أولادكم الأناث أصلاً .

ولأجل تأمين أصول توارث الخديوية المصرية سنذكر صورة تشكيل الوصاية المقتضية في إدارة أمور الخديوية فيما إذا انحلت الخديوية وكان الوارث الذي هو أكبر أولادكم الذكور صغيراً وصبياً.وهي أن الخديوية المصرية إذا انحلت وكان أكبر أولادكم الذكور أعني الوارث صغيراً وصبياً بأن يكون عمره أقل من ثمانية عشرسنة، ولو أنه يصير خديو بالفعل حسب استحقاق الوراثة، ففي الحال يصدر فرمان من طرف السلطنة السنية بتوليته على الخديوية، لكن إذا كان الخديو السالف عين ونصب وصياً ورتب هيئة وصاية لأجل إدارة أمور الخديوية لحين بلوغ الخديو اللاحق الصبي إلى سنّ الثامن عشرة سنة وكتب سند وصاية بذلك وختم عليه هو وختم أيضاً إثنان من الأمراء المصرية المأمورين بإحدى المأموريات المصرية على طريق الإشهاد وإجراء الوصاية ،هكذا فالوصي مع هيئة الوصاية المذكورة يأخذ بزمام الإدارة في الحال، وبعد ذلك تعرض الكيفية إلى الباب العالي ويصير التصديق على ذلك الوصي وهيئة الوصاية من طرف الدولة العلية بفرمان عال ويبقى الوصي وهيئة الوصاية على ما هم عليه لحين البلوغ.وأما إذا انحلت الخديوية ولم يعين الخديو السالف وصياً ولم يرتب هيئة الوصاية على الوجه المذكور تتشكل هيئة الوصاية من الذوات المأمورين على الداخلية والجهادية والمالية والخارجية ومجلس الأحكام المصرية وسردارية[1] العساكر المصرية وتفتيش الأقاليم، ويصير انتخاب وصي في الحال من هؤلاء المأمورين على الوجه الآتي:وهو أنه في تلك الساعة تصير المذاكرة والمداولة ما بين هؤلاء الذوات في حق انتخاب وصي منهم فإذا حصل اتفاقهم أو اتفاق أكثرية آرائهم على تسمية وجعل ذاتٍ منهم وصياً يتعين ذلك الذات وصياً على الخديوية،وإذا اختلفت الآراء بأن رغب نصفهم في تعيين ذات والنصف الآخر في تعيين ذات آخر يكون إجراء وصاية الذات المأمور

(١) سردار كلمة فارسية بمعنى السيد كانت مستعملة في الهند فاستعملها الانكليز في مصر وهنا تعني القائد الأعلى للجيش .(المحقق)

على المأمورية المهمة والمقدّمة في الذكر من تلك المأموريات،أعني المأمور على المأمورية المقدّم ذكرها على الترتيب المحرر آنفاً من الداخلية إلى آخره،وتتشكل هيئة الوصاية من الذوات الباقية بعده ويباشرون إدارة الأمور الخديوية مع الوصي وتعرض الكيفية بمضبطة من طرفهم إلى طرف سلطنتنا السنية ويصير التصديق عليها بالفرمان الشريف. وكما أنه لا يجوز تبديل الوصي وتغيير هيئة الوصاية قبل ختام مدّتها في الصورة الأولى، أعني فيما إذا كان تعيين الوصي وترتيب الوصاية وتركيب أعضائها بمعرفة الخديو السالف فكذلك في الصورة الثانية،أعني فيما إذا كان انتخاب الوصي بمعرفة المأمورين المذكورين لا يجوز تبديل الوصي ولا تغيير هيئة الوصاية ولا أعضائها في تلك المدة، وإذا توفي أحد من أعضاء هيئة الوصاية في ظرف تلك المدة يصير انتخاب واحد من المأمورين المصرية بمعرفة الباقين وتعيينه بدل المتوفى. وإذا توفى الوصي في تلك المدة يصير انتخاب واحد من أعضاء هيئة الوصاية بمعرفتهم على الوجه السابق وجعله وصياً وانتخاب واحد من المأمورين المصرية وإلحاقه بأعضاء هيئة الوصاية بدل الذي نصب وصياً. وبمجرّد بلوغ الخديو الصبي إلى سنّ الثامن عشرة سنة صار رشيداً وفاعلاً مختاراً فيباشر هو بنفسه إدارة أمور الخديوية المصرية مثل سلفه وهذا حسبما تقرر لدينا واقتضته إرادتنا الملوكية .

ولما كان تزايد عمران الخديوية المصرية وسعادة حالها وتأمين رفاهية الأهالي والسكان وراحتها من أهمّ المواد الملتزمة المرغوبة لدينا وإدارة المملكة الملكية والمالية ومنافعها المادية وغيرها المتوقف عليها تأسيس واستكمال وسائل الرفاهية وأسبابها عائدة على الحكومة المصرية، فنذكر بيان كيفية تعديل الامتيازات وتوضيحها بشرط بقاء كافة الامتيازات المعطاة قديماً وحديثاً من طرف الدولة العلية إلى الحكومة المصرية واستمرار جريانها خلفاً عن سلف، وتلك الكيفية هي أنه لما كانت إدارة المملكة بكل الصور والحالات سواء كانت إدارتها الملكية أو المالية أو كافة منافعها المادية وغيرها هي من المواد العائدة على الحكومة المصرية والمتعلقة بها، ومن المعلوم أن أمر إدارة أيّ مملكة كانت وحسن انتظامها وتزايد معموريتها وثروة أهاليها وسكانها لا يتيسر إلا بتوفيق معاملاتها وتطبيق إجراءآتها العمومية بالأحوال

والموقع وأمزجة الأهالي وطبائعها، فقد أعطينا لكم الرخصة الكاملة في إعمال قوانين ونظامات داخلية على حسب لزوم المملكة، وكذا لأجل تسهيل تمشية وتسوية كافة المعاملات سواء أكانت من طرف الحكومة أو من طرف الأهالي مع الأجانب وترقي وتوسع الصنائع والحرف وأمور التجارة وأمور الضبطية مع الأجانب، قد أعطينا لكم الرخصة الكاملة في عقد وتحديد المقاولات (المعاهدات) مع مأموري الدولة الأجنبية في حق الكمرك وأمور التجارة وكافة المعاملات الجارية مع الأجانب في أمور المملكة الداخلية وغيرها بصورة لا تستلزم إخلال معاهدات الدولة العلية البولتيقية (السياسية)، وكذا لكون خديو مصر حائز التصرفات الكاملة في الأمور المالية قد صار إعطاء المأذونية التامة له في عقد استقراض من الخارج بلا استئذان من الدولة العلية في أيّ وقت يرى فيه لزوم للاستقراض، بشرط أن يكون باسم الحكومة المصرية. وكذا لكون أمر محافظة وصيانة المملكة الذي هو الأمر المهم والمعتنى به زيادة عن كل شيء من أقدم الوظائف المختصة بخديو مصر فقد أعطيت له الرخصة الكاملة في تدارك كافة أسباب المحافظة وتأسيسها وتنظيمها بنسبة إلجاءآت الزمن والموقع، وكذا في تكثير أو تقليل مقدار العساكر المصرية الشاهانية بلا تحديد على حسب الإيجاب واللزوم، وكذا أبقينا لخديو مصر الامتياز القديم في حق إعطاء رتبة أمير الاي من الرتب العسكرية وإعطاء رتبة ثانية من الرتب الديوانية بشرط أن المسكوكات الجاري ضربها بمصر تكون باسمنا الملوكي وأن تكون أعلام وصناجق[1] العساكر البرية والبحرية الموجودة في الخطة المصرية كأعلام وصناجق سائر عساكرنا الشاهانية بلا فرق، وبشرط عدم إنشاء سفن زرخ أي مدرعة بالحديد فقط بدون استئذان لا غيرها من السفن الحربية فإنها جائز انشاؤها بلا استئذان. ولأجل إعلان المواد المشروحة أعلاه وتأييدها أصدرنا لكم أمرنا هذا الجليل القدر من ديواننا الهمايوني بمقتضى إرادتنا الملوكية وصار توشيح أعلاه بخطنا الهمايوني وإعطاؤه لكم متمماً ومكملاً ومصرحاً للخطوط الهمايونية والأوامر الشريفة الصادرة لحد هذا التاريخ سواء كان في

(١) والأصح أن تكتب سنجق ومعناها العلم.

تأسيس وترتيب وراثة الحكومة المصرية أو في تشكيل هيئة الوصاية أو في إدارة الأمور الملكية والعسكرية والمالية والمنافع المادية والمواد السائرة، بشرط أن تكون الأحكام المندرجة بهذا الفرمان الجديدة نافذة وباقية ومرعية الإجراء على ممر الزمان وقائمة مقام أحكام الفرمانات السالفة على ما اقتضته إرادتنا الملوكية، فيلزم أن تعلموا قدر لطف عنايتنا الملوكية وأداء شكرها بصرف جلّ هممكم في حسن إدارة أمور الخطة المصرية واستكمال أسباب وقاية أمنية الأهالي المنوطة بها واستحصال راحتهم على حسب ما جبلتم عليه من الشيم المرغوبة والغيرة والاستقامة وما اكتسبتموه من الوقوف والمعلومات في أحوال تلك الحوالي والأقطار، وأن تراعوا إجراء الشروط المقررة في هذا الفرمان الجديد وأداء المائة وخمسين ألف كيسة التي هي ويركو[1] مصر المقطوع سنوياً بأوقاتها وزمانها إلى خزينتنا الجليلة الشاهانية على الترتيب والقاعدة المرعية في ذلك . تحريراً في سنة ١٢٩٠(١٨٧٣)هـ» .

ثم وهب جلالة السلطان الأعظم إلى جناب خديو مصر مدينة زيلع وملحقاتها التابعة للواء الحديدة وأصدر له فرماناً بذلك في ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٢٩٢ هجرية وذلك بخلاف قائمقاميتي سواكن ومصوّع المذكورتين في الفرمان السابق .

علاقات تونس مع الدولة العلية

ومما يذكر من أعمال السلطان عبد العزيز المأثورة توثيقه ربط التبعية بين إيالة تونس والخلافة الاسلامية العثمانية ليثبت حقوق الدولة عليها، وذلك أنه لما بلغ مسامع جلالته أن بعض الدول تطمح إلى الاستيلاء عليها فأراد رحمه الله أن يؤيد حقوق دولته عليها جهاراً ليرتدع من ينظر إليها بسوء إذ تصير جزءاً من ممالكه المحروسة التي تعهدت الدول بصيانتها في معاهدة باريس المبرمة في سنة ١٨٥٦، فأرسل هذا الفرمان مؤرخاً في ٩ شعبان سنة ١٢٨٨ (٢٤ اكتوبر سنة ١٨٧١)، لكن لم يمنع ذلك الحكومة الفرنساوية من دخولها بخيلها ورجلها وإشهار حمايتها

---

(١) ويركو : معناه ضريبة .

عليها في سنة ١٨٨١ إذ لا قيمة للحقوق في عصرنا هذا الموسوم بعصر التمدن والحرية، وها هو بحروفه نقلاً عن الرائد التونسي أردنا درجه في هذا الكتاب إفحاماً لأشياع فرنسا في هذه الديار الذين يدعون أن فرنسا لم تهتضم للدولة العلية حقوقاً برفع حمايتها على الأيالة التونسية، بدعوى أنها لم تكن تابعة لها مطلقا:

« الدستور المكرم المشير المفخم نظام العالم مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهمات الأنام بالرأي الصائب ممهد بنيان الدولة والإقبال مشيد أركان السعادة والإجلال المحفوف بصنوف عواطف الملك الأعلى الوالي بتونس الآن، الحائز الحامل للنيشان المجيدي الشريف من رتبته الأولى مع النيشان الهمايوني العثماني المرصع، وزيرى محمد الصادق باشا أدام الله تعالى إجلاله [1] آمين.

ليكون معلوماً عند ما يصل توقيعي الرفيع الهمايوني أنه منذ وجهت وأودعت من جانب سلطنتنا السنية إدارة الأيالة التونسية، التي هي من ممالك دولتنا العلية المحروسة المتوارثة، إلى عهدتك ذات اللياقة والأهلية كما وجهت سابقاً إلى عهدة أسلافك لم تزل تظهر حسن السيرة والخدمة وتنهي إلى طرفنا الملوكي الأشرف خلوص النية والاستقامة حتى صار ذلك قريناً لعلمنا المضيء بالعالم فمأمولنا السلطاني على مقتضى الشيم المرضية التي جبلت عليها، هو الدوام في ذلك المسلك المرضي والجدّ والاجتهاد في كل ما ينمي عمران مملكتنا الشاهانية وسعادة أهاليها تبعة دولتنا العلية ورفاهيتهم وراحتهم حتى تستديم بذلك استحقاق عنايتي الشاهانية واعتمادي السلطاني المبذولين في حقك آناً فآنا، وتعرف قدر تلك العناية والاعتماد وتشكرهما. ولما كان المقصود الأصلي والمراد القطعي لسلطنتنا السنية هو ارتقاء طمأنينة الأيالة المهمة الراجعة لدولتنا العلية ونموّ عمرانها وتأسيس أبنية الأمن والراحة لسكانها يوماً فيوماً وكان من البديهيات أن السلطنة العزيزة لا يعزها ولا يؤيدها إلا صرف الهمة والعناية العائدة إلى حقوقها الأصلية لتمام استحصال هاته المطالب، وورد الطلب المندرج بكتابك المخصوص الموجه من طرفك أخيراً إلى جانب الخلافة العلية، قررت وأبقيت إيالة تونس المحدودة بحدودها القديمة

---

(١) من أراد زيادة الاطلاع على تاريخ تونس فليقرأ كتابي تونس العربية.

المعلومة بعهدتك بضم امتياز الوراثة وبالشرائط الآتية، وحيث أن مرغوبنا السلطاني على ما تقدّم بيانه إنما هو تزايد عمران تلك المملكة الشاهانية وثروة أهاليها وهي الآن في حاله مضايقة وتأخر في الواردات لكل من الحكومة والأهالي، قد سمحت السلطنة السنية بعدم إرسال ما كان يرسل باسم معلوم من الأيالة لطرف دولتنا العلية بموجب التبعية المقررة المشروعة رحمة لأهالي تلك الأيالة، ولما كانت الأيالة المشار إليها من الأجزاء المتممة لممالكنا الملوكية صدرت إرادتنا السنية بأن يكون الوالي بتونس مرخصاً له في تولية المناصب الشرعية والعسكرية المدنية والمالية والسياسية لمن يكون متأهلاً لها وفي العزل عنها بمقتضى قوانين العدل وفي اجراء المعاملات المعلومة مع الدول الأجنبية كما كانت سابقاً، فيما عدا المواد السياسية العائدة إلى حقوقنا المقدّسة الملوكية، ونعني بها ما كان كعقد الشروط المتعلقة بأصول السياسة والحرب وتغيير الحدود ونحوها مما يكون إجراؤه راجعاً إلى حقوق سلطنتنا السنية. وعند حلول القدر المحتوم في الولاية وتقديم المعروض بطلب الفرمان الشريف من الوارث الأكبر من عائلتك لطرف سلطنتنا السنية يرسل له الفرمان الشريف مع منشور الوزارة والمشيرية الهمايوني كما استمر العمل بذلك إلى الآن بشروط أن تستمر الخطبة باسمنا السلطاني وتزين به السكة التي تضرب هناك علامة علنية للارتباط القديم الشرعي لايالة تونس بمقام الخلافة الجليل، وأن يبقى السنجق على لونه وشكله، ومهما وقع حرب لسلطنتنا السنية مع أجنبي يرسل العسكر من تلك الأيالة الشاهانية بقدر الاستطاعة طبق ما جرت به العادة القديمة في الجميع ومع تلك المواد يكون أمر الولاية بطريق الوراثة مخصوصاً بعائلتك على أن تبقى سائر المعاملات الارتباطية مع دولتنا العلية جارية مرعية كما كانت سابقاً، وأن تجري الإدارة الداخلية لتلك الأيالة مطابقة للشرع وموافقة لقوانين العدل التي يقتضيها الوقت والحال الكافلة بتأمين السكان في النفس والعرض والمال. فاعلاً لما ذكر، أصدر هذا الفرمان الشريف الجليل القدر من ديواننا الهمايوني وأرسل موشحاً أعلاه بخطنا الميمون السلطاني فخلاصة نياتنا الشاهانية إنما هي إصلاح حالة تلك المهمة وما لآل بيتكم، وتقوية ذلك حالاً ومألا واستكمال أسباب السعادة والرفاهية والأمنية لصنوف تبعتنا المستظلين بظل عدلنا السلطاني، ومأمولنا

القطعي الملوكي ،أن يبذل من جهتك الجهد في حصول ماذكر، ثم حيث كان تمام المحافظة على حقوق سلطنتنا السنية المحققة بتونس من قديم الأزمان وعلى أمنية الأهالي القاطنين بتلك الايالة المودعة بعهدة صداقتك من حيث النفس والعرض والمال وسائر الحقوق العمومية شرائط امتياز الوراثة الأساسية المقررة فيقتضي أن تتأكد محافظتها عن تطرق الخلل دائماً سرمداً ويتباعد عن وقوع الخلل والحركة على خلافها. إذا علمت ذلك فلا بد أن تعرف أنت ومن يقام في أمر الولاية بالتوارث من أعضاء عائلتك قدر هاته النعمة العلية الشاهانية وتشكروها فعلى ذلك تسعى لتحصيل رضاي السلطاني بالغيرة ومزيد الاهتمام بإجراء هذه الشروط المؤسسة .حرر في اليوم التاسع من شهر شعبان المعظم سنة ثمان وثمانين ومائتين وألف اهـ » .

هذا ومن أراد الوقوف على علاقات الأيالة التونسية مع الدولة العلية العثمانية فليراجع الجزء الأوّل والثالث من كتاب صفوة الاعتبار تأليف الشيخ محمد بيرم ،أما نحن فقد اكتفينا بنقل صورة فرمان ٩ شعبان سنة ١٢٨٨ السالف الذكر نقلاً عن منتخبات الجوائب واللائحة المؤرخة ١٠ مايو سنة ١٨٨١ التي أرسلها الباب العالي إلى سفرائه لدى الدول الأوربية احتجاجاً على احتلال فرنسا لتونس وذلك نقلاً عن كتاب صفوة الاعتبار، وإليك نص تعريبها .

« القسطنطينية ١٠ مايو سنة ١٨٨١ إن إعلاماتي المختلفة عرفت فطانتكم الوقائع التي صارت في المسألة التونسية وقد نسبت بهجوم بعض القبائل البدويين جهة الجزائر ،ولهذا الهجوم فالحكام التونسيون أعلنوا بأنهم حاضرون ليضبطوه من غير تراخ ، فالدولة الفرنساوية حكمت بأنه يلزمها إرسال عدد وافر من العساكر الذين قد استولوا على جزء كبير من الولاية ولم يبعدوا عن المركز إلا بعض فراسخ، فمن غير التفات إلى ما كنا أكدنا به على حضرة الباشا ليأخذ التدابير اللازمة لتمهيد الراحة في المواضع الثائرة فدولة الجمهورية لا تريد أن تنظر للمخالطة الاقترانية بتونس مع السلطنة العثمانية التي هي محسوبة جزءاً متمماً للسلطنة المذكورة وأظهرت بأنها لا تقبل قولنا للاتفاق الودادي معها لقطع الاختلاف الذي وقع وترتيب حقوق

الباب العالي مع منافع فرنسا في ذاك المحل وترتيب الأشياء الموجودة من زمن قديم ولا نقدر أن نزيد في إيضاحها كما يلزم وهي سيادة السلطان التي ليس فيها اختلاف على هاته الولاية،وهي سيادة لا تنكرها ولا دولة عموماً،وهذا الحق بقي إلى الآن صحيحاً ولم ينقطع من زمن فتحها وهو إذ ذاك سنة ١٥٣٤ بخير الدين باشا،وفي سنة ١٥٧٤ بقليج علي باشا وسنان باشا وكانت الدولة العلية أرسلت إلى تلك المواضع قوّة عظيمة براً وبحراً ومن زمن ذلك الفتح فالتأسيسات التي فعلها الباب العالي هي أن جميع ولاة تونس يتوارثون الولاية من ذريّة الوالي الأوّل المسمى من السلطان ويتقلدون إلى الآن المنصب منه، وفرمانات الولاية تبقى في خزنة الديوان وكذلك جميع المكاتيب التي تأتي منهم للباب العالي فإنها تارة تكون في شأن مخالطتهم مع الدول الأوروباوية وتارة تكون في شأن أحوالهم الداخلية والتي لهاته المدّة الأخيرة، فإن الباب العالي من استحفاظه على حقوقه زيادة على كونه يسمي الوالي العام فإنه يرسل من القسطنطينية إلى تونس قاضياً وباشكاتب الولاية[1] ولم يكن إلا من ترحم الدولة العلية أن منحت الوالي أن يسمي هو بنفسه هذين المتوظفين، وأيضاً فاتباعاً للمذهب وخصوصية سيادة السلطان فإن الخطب يذكر فيها اسم جلالته ويضرب على السكة أيضاً وفي وقت الحرب ترسل تونس الإعانة إلى التخت. وعلى حسب العادة القديمة يأتي إلى القسطنطينية دائماً أناس رسميون ليقدّموا تعظيمات الوالي وخضوعه لأعتاب السلطنة وليقبلوا أيضاً الإذن اللازم من الباب العالي لأمور عظيمة في الولاية ثم إن الباشا الموجود الآن والأهالي التونسيين طلبوا زيادة في التفضل وأعطى ذلك لحضرته السامية بالفرمان المؤرخ في سنة ١٨٧١ وتعرف به جميع الدول. والآن قد استغاث الوالي بجهده سيده الحقيقي ليعينه على الحالة الرديئة التي وقعت فيها تونس الآن،وهاته الأشياء التحقيقية لا ينكرها أحد فهل تريدون أن تعرفوا الآن تقريرها بالتاريخ وبالمكاتبات الرسمية؟ هو سهل لكن نقتصر على المهمّ منها لئلا يطول الكلام في هذا التلغراف ففي المعاهدات

---

(١) باشكاتب : تعني رئيس الكتاب وقد أصبح هذا المنصب منصب رئيس الوزراء، وظل يطلق عليه لفظ باشكاتب حتى نهاية زمن الحماية .

القديمة التي بين تركيا وفرنسا تعدّد ألقاب الحضرة السلطانية، ويكون منها لقب سلطان تونس. (فانظر مثلاً) معاهدة ١٠ صفر سنة ١٠٨٤ هـ ١٦٦٨ م وفي هاته المعاهدات أيضاً يوجد بأن كل المعاهدات التي بين الدولتين تجري أيضاً في تونس، وفي نصف القرن السابع عشر، أي في ١٥ صفر سنة ١١٦٦ (٢٢ دسمبر ١٧٥٢) أرسل السلطان فرماناً للباي والحاكم الكبير بالولاية في رضا الباب العالي بأن قنصل فرنسا يجمع خدمات قناصل الدول الذين لم يكن لهم إذ ذاك نوّاب بالقسطنطينية كالبرتقال وكتالوني [1] وإسبانيا وفينيسيا وفرنسا وغيرهم. والقنصل وكالته هي حماية السفن تحت الراية الفرنساوية في المراسي المشهورة بالولاية والفرمان يمنع تدخل قناصل الانكليز والهولنديين وغيرهم من التدخل في خدمة نائب فرنسا. وكذلك سند منع التعدّي بين الباب العالي والنمسا المؤرخ في ٩ رمضان سنة ١١٩٧ هجرية (٨ اغست ١٧٨٢) المتقرّر بمعاهدة ستوفا في ١٢ ربيع الآخر سنة ١٢٠٥ (١٩ دسمبر ١٧٩٠)، فإنه يأذن حكام الجزائر وتونس وطرابلس الغرب بأن يجمعوا على اسم السلطان سفن المتجرية [2] لسلطنة الرومان الفخيمة، وأيضاً فإن الاتفاق الذي تقدّم هذا السند وتم في ١٥ شوّال سنة ١١٦١ هـ (١٨ يونيو سنة ١٧٤٨) بالإذن من السلطان، وكان هذا الإتفاق وقع بين الحكام المذكورين والسلطنة فإن الوالي العام بتونس وهو إذ ذاك في رتبة بكلر بك ونال اسم علي باشا يذكر في مقدّمة كل مكتوب يمضي عليه منه هاته الكلمات بعينها وهي (مولانا السلطان الغازي محمود). وعلى ذكر واقعات ذاك الزمان استطرد لكم الأذن الصادر من الباب العالي في ١٥ ربيع الأوّل سنة ١٢٤٥ هـ (١٤ سبتمبر ١٨٢٩) لحكام الجزائر وتونس وطرابلس الغرب فإنه يأمرهم أن لا يتداخلوا في الخلاف الواقع بين سلطنة النمسا ومملكة المغرب. وكذلك الأذن الصادر من القسطنطينية لوالي تونس في ١٤ صفر سنة

---

(١) كاتالوني : Catalogne هي المنطقة الشمالية الشرقية من اسبانيا وأشهر مدنها برشلونه وتمتد حتى النهاية الشرقية من جبال البيرينه . وكانت فيما مضى مستقلة عن اسبانيا وأهلها يطالبون اليوم ، بين حين وحين بالانفصال عن اسبانيا .

(٢) السفن التجارية .

١٢٤٧ هـ (٢٥ يوليو ١٨٣١) فإنه يأمر بترتيب العسكر النظامي بالولاية على نمط الترتيب العسكري النظامي العثماني ،وأيضاً قد أتى مكتوب معين بالطاعة من الباشا التونسي لجلالة السلطان في سنة ١٨٦٠ ،وذلك الباشا هو الذي سماه السلطان والياً عاماً. وقد انتشر هذا المكتوب في جميع صحف أوروبا من غير أن يعارض ولا من جهة واحدة. ونزيدكم شيئاً آخر وهو أنه في سنة ١٨٦٣ في واقعة القرض التونسي الذي وقع في باريس من غير رضاء الباب العالي كان رسيودوارواندولويس وزير خارجية الأمبراطور نابليون الثالث قد أعلن رأيه بناء على شكايات الدولة العثمانية وقال إنه يلزَم إما الباشا بتونس أو الصراف الذي يريد عقد القرض معه ،أن يطلب رضاء الباب العالي ليصح هذا القرض. وللمدافعة عن حقوق الباب العالي فإن الوزير الفرنساوي أرسل يقول هذا الكلام للصرّاف المشار إليه ،وها نحن نضع بثبات الكلام السابق لدى ميزان العدل والحق الذي للدول الممضين على معاهدة برلين وإنا المتحققون بأن فكر الدولة محيط بدلائل كثيرة في الواجبات العمومية التي يقتضيها المؤتمر المحترم، وأنهم يريدون أن يفصلوا بالعدل قولنا الذي قدّمناه وأنهم يتحفظون على حقوق الباب العالي الأخرى المحفوظة بالمعاهدة المذكورة ويصلحون الحال بين الدولتين فرنسا وتركيا في علائقهما التي لهما في هاته الولاية المرؤوف بها التونسية المتممة للسلطنة العثمانية. والمرغوب من جنابكم أن تتكلم مع وزير الخارجية في مضمون هذا التلغراف وتشرح له ما تراه نافعاً ، ولكم الأذن بأن تعطوا نسخة من هذا لجناب الوزير إذا طلبكم اهـ» .

الامضاء

(مصطفى عاصم)

ولنذكر هنا أنه بسبب انخذال فرنسا في حربها مع بروسيا في سنة ١٨٧٠ وتشكيل الامبراطورية الألمانية ومساعدة الروسيا لألمانيا مساعدة معنوية كانت من أقوى أسباب نجاحها طلبت الروسيا من الدول إبطال الشروط المقيدة لحريتها في البحر الأسود من معاهدة سنة ١٨٥٦ التي أمضيت بباريس عقب حرب القرم ، ولضعف فرنسا عن معارضة هذه الطلبات انعقد مؤتمر في مدينة لونده للنظر

فيها، وأيد مطالب الروسيا بمقتضى وفاق تم بين مندوبي الدول في ١٣ مارس سنة ١٨٧١ قبل توقيع فرنسا على معاهدة فرنكفورت[١] بقليل، وبذلك انتقمت الروسيا من فرنسا أيَّ انتقام لمساعدتها انكلترا والدولة العلية عليها في حرب القرم بأن تركتها وحيدة أمام قوى ألمانيا ومنعت الدول من مساعدتها ولو سياسياً.

وأخيراً بإبطال أهم شروط معاهدة باريس المزرية بشرفها، فأبطلت نتائج تلك الحرب وجعلت كل ما صرف فيها من أموال وأهرق فيها من دماء هباء منثوراً وإليك نص التعديل:

«مما تقرّر في معاهدة سنة ١٨٧١ التي أمضيت في لندرة في ١٣ مارس من السنة المذكورة فيما يتعلق بإعادة النظر في معاهدة سنة ١٨٥٦ المنعقدة في باريس فيما يتعلق بالسفر في البحر الأسود والطونة.

(١) فصل ١١ و١٣ و١٤ من معاهدة ٣٠ مارس سنة ١٨٥٩ المنعقدة في باريس يكون تعديلها بالصورة الآتية.

(٢) يبقى منع السفن الحربية من المرور في جناق قلعه والبوغاز كما هو منصوص في معاهدة ٣٠ مارس سنة ١٨٥٦، إلا أنه يسوغ للحضرة السلطانية أن تاذن بمرور السفن الحربية للدول المتحابة إذا رأت لزوم مرورها مع المحافظة على نص معاهدة باريس التي انعقدت في ٣٠ مارس سنة ١٨٥٦.

(٣) البحر الأسود يبقى مفتوحاً كما في السابق لتسير فيه السفن التجارية الأجنبية. انتهى».

---

(١) مدينة بالمانيا واقعة على نهر ماين كانت إحدى المدائن الأربع الحرة ومقرا للمجمع الجرماني العمومي وبها كنيسة شهيرة كانت امبراطورة ألمانيا تتوج فيها، وبها الآن كثير من المدارس العالية وتجارتها عظيمة جداً وبها نشأت عائلة روتشلد الشهيرة بالثروة واجتمع بها عدة مجامع دينية. وفي ١٠ مايو سنة ١٨٧١ أمضيت بها معاهدة صلح بين فرنسا وألمانيا أهم شروطها سلخ اقليم الالزاس وجزء من اقليم اللورين من فرنسا وضمها الى ألمانيا وتعهد فرنسا بدفع غرامة حربية قدرها خمسة مليارات من الفرنكات عبارة عن مائتي مليون جنيهاً. أقول: إن خمسة مليارات فرنك تساوي ٢٥٠ مليون ليرة افرنسية ذهباً.

وعقب التوقيع على اتفاق ١٣ مارس السالف الذكر توفي القائد الشهير عمر باشا في ١٨ ابريل، ثم الصدر الأعظم محمد أمين علي باشا،وبعد موته وجه هذا المنصب الخطير إلى محمود باشا في ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٢٨٨ (٨ سبتمبر سنة ١٨٧١) ولبث في الوزارة إلى ٢٣ مارس سنة ١٨٧٣ ،ثم عقبه أحمد مدحت باشا ثم محمد رشدي باشا،فأحمد أسعد باشا، فحسين عوني باشا .

وأخيراً عادت الصدارة إلى محمود باشا في ٢٥ رجب سنة ١٢٩٢ (٢٧ أغسطس سنة ١٨٧٥) .

ومن أعماله المضرّة عدم ضبط المالية حتى عجزت عن سداد الكوبونات في أوقاتها واضطر إلى الإعلان رسمياً بتوقيف دفع الفوائد في ٦ أغسطس سنة ١٨٧٥ ،وهو ما يسمونه في عرف المالية إشهار الأفلاس كما فعلت مملكة البرتغال في سنة ١٨٩٢. ولسوء إدارته تألب العلماء والطلبة وطلبوا عزله فعزل في ١٧ ربيع الثاني سنة ١٢٩٣ (١٢ مايو سنة ١٨٧٦)وأسند منصب الصدارة إلى محمد رشدي باشا،وهو الملقب بالمترجم الذي سبق تعيينه في هذا المنصب عدة مرات وعين معه بفرمان واحد حسن خير الله أفندي شيخاً للإسلام وبما أن عزل السلطان عبد العزيز كان بدسيسة هذين الشخصين وغيرهم فسنرجىء الكلام على كيفية عزله وموته إلى بعد ذكر مسألة برزخ السويس الذي تم فتحه في سنة ١٨٦٩ .

مسألة قنال السويس

إن أهمية إيصال البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط لم تخف على أحد بل الكل مسلم بها،ولذلك فطن لها قدماء المصريين وأوجدوا اتصالاً بين البحرين لكن على غير الصورة التي عليها قنال السويس الآن فقد قال هيرودوت[1] المؤرخ اليوناني الشهير حين زار وادي النيل«إن طول الخليج الموصل بين البحرين مسيرة

(١) هو المؤرخ اليوناني الشهير الملقب بأبي التاريخ.ولد سنة ٤٨٤ قبل الميلاد وراد بلاد اليونان ومصر وآسيا ليطلع على عوائد أهلها وأخلاقهم حتى يكتب تاريخهم عن رؤية وخبرة. وتوفي حوالي سنة ٤٢٠ قبل الميلاد .

أربعة أيام وعرضه كاف لمرور سفينتين من أكبر السفن في آن واحد بكل سهولة، وهو يتفرع عن فرع النيل الذي يصب عند مدينة بيلوزة (القائمة مدينة بورسعيد بالقرب من أطلالها) ويبتدىء عند مدينة بوباستيس (الموجودة أطلالها بالقرب من الزقازيق ويطلق عليها اسم تل بسطه) ويتجه شرقاً حتى يصل إلى البحر الأحمر اهـ».

فيظهر من هذا الشرح أن المراكب كانت تأتي من البحر الأبيض فتصعد فرع النيل الشرقي إلى قرب الزقازيق ثم تدخل في الخليج حتى تصل إلى البحر الأحمر وظل هذا الاتصال باقياً حتى انهالت رمال الصحراء الشرقية على الخليج فردمته ويقال إن أبا جعفر المنصور العباسي أمر بإبطاله عندما خرج عليه الحجاج وتحصن في المدينة المنورة حتى لا تأتي إليه المؤن بسهولة عن طريق هذا الخليج.

ثم خطر ببال السلطان مصطفى الثالث العثماني أن يعيد الاتصال كما كان وكلف البارون دي توت بدرس هذا المشروع ولم يتم بسبب موت السلطان وترك من خلفه له. ولما أتى بونابرت الفرنساوي إلى مصر أرسل لجنة علمية للتحقق من إمكان إيصال البحرين بخليج يصل بينهما بدون أن تمر المراكب في وسط البلاد المصرية فأجابته اللجنة بالإيجاب ولداعي خروجه من مصر سريعاً كما سبق شرحه لم يمكنه تنفيذ مشروعه.

وكان يظن قبلاً أن حفر خليج يصل بين البحرين مباشرة أمر مستحيل بسبب ادعاء بعض العلماء أن سطح مياه البحر الأحمر أعلى بنحو عشرة أمتار عن سطح مياه البحر الأبيض كما قرّرته بعثة علمية فرنساوية في سنة ١٧٧٩، ولم يخالفها في هذا الرأي إلا الرياضي الشهير لابلاس[1]، لكن أسقط هذا القول البحث الذي

---

(١) رياضي شهير ولد سنة ١٧٤٩ بفرنسا ونبغ في الرياضة من صغره حتى عين أستاذا لها في احدى المدارس الحربية ولم يتجاوز سنه ١٩ سنة وإليه يرجع فضل تتميم اكتشاف نيوتن الانكليزي المختص بدوران العوالم حول بعضها وله عدة مؤلفات شهيرة في جميع العلوم الرياضية وما يتعلق بها. ورقاه نابليون الأول الى درجة كونت ومنحه لويس الثامن عشر لقب مركيز وانتخب عضواً في جمعية العلوم الفرنساوية (اكادميه) وفي مجمع الانستيتوت واشتغل قليلاً بالسياسة وانتخب في السناتو سنة ١٧٩٩ ونيطت به رياسته مدة وتوفي سنة ١٨٢٧. أقول: السناتو هو مجلس الشيوخ.

اجري في أواسط هذا القرن بمعرفة بعض ضباط من الإنكليز في سنة ١٨٤٠ ولجنة من عدّة مهندسين فرنساويين في سنة ١٨٤٧ وأخيراً بمعرفة لبنان باشا في سنة ١٨٥٣ .

ولما تحقق لدى العموم بإجماع العلماء أن مسطح البحرين متساو سعى المسيو فردينان دي ليسبس قنصل فرنسا في مصر لدى المرحوم سعيد باشا[1] والي مصر إذ ذاك للحصول على فرمان يخوّله امتياز تشكيل شركة عمومية لإتمام هذا العمل .

وبعد مساع لا مزيد عليها تحصل على هذا الفرمان مؤرخاً ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ ، ومما جاء فيه أن يكون الخليج المزمع إنشاؤه ملكاً للشركة مدّة ٩٩ سنة تبتدىء من يوم فتحه للملاحة وأن يجوز لها إنشاء خليج آخر يصل بين النيل والخليج المالح، وأن تتنازل لها الحكومة عن الأراضي الأميرية الغير صالحة للزراعة التي تمر الترعة الحلوة فيها بشرط أن تزرعها الشركة على مصاريفها ،وأخيراً أن لا يعمل بهذا الفرمان ولا يبتدأ في العمل إلا بعد تصديق الباب العالي عليه .

وفي ٢٠ يوليو سنة ١٨٥٦ تعهدت الحكومة للشركة بإحضار من يلزم لها من العملة من المصريين قهراً بالطريقة التي كانت متبعة في الأعمال العمومية وأن تدفع لهم الشركة الأجر من طرفها لمن عمره أقل من اثنتي عشرة سنة قرشاً صاغاً يومياً ، ومن زاد سنه عن ذلك تكون أجرته من قرشين ونصف إلى ثلاثة قروش وذلك خلاف الجراية التي تعطي لكل واحد منهم وقيمتها قرش صاغ ،واشترط على الشركة إنشاء اسبتاليات (مشافي) وترتيب أطباء لمعالجة المرضى على طرفها ،ولولا هذه الشروط لما أمكن الشركة إتمام هذا المشروع وعدم وجود شرط مثله كان سبباً في عدم نجاح مشروع فتح برزخ بناما لأن الشركة لم تجد عمالاً بهذه الصفة يكونون موجودين

---

(١) هو رابع أولاد محمد علي باشا الكبير تولى على مصر سنة ١٢٧٠هـ الموافقة سنة ١٨٥٤ ميلادية وكانت ولادته سنة ١٨٢٢ ميلادية وتوفي سنة ١٢٧٩هـ (سنة ١٨٦٣ ميلادية) ومن آثاره لايحة الأطيان الخراجية وقانون المعاشات لجميع الموظفين ومنح الأهالي حرية التجارة بعد أن كانت خاصة بالحكومة .لكن هذه المنح الجليلة لم تعادل ما لحق مصر من الضرر المالي والسياسي بايجازاته حفر قنال السويس الذي قرب المسافة بين أوروبا والشرق وكان سبباً فيما نطلب منه تعالى أن يخلصنا منه وهو الاحتلال الأجنبي .

دائماً في العمل بأجرة تافهة كهذه ولما صدرت سهام الشركة لم يقبل الجمهور على شرائها لمعارضة الجرائد الانكليزية لهذا المشروع فبقي في أيديها مائة وسبعة وسبعون ألف وستمائة وإثنان وأربعون سهماً قيمة كل منها خمسمائة فرنك، أي أن ثمنها عبارة عن ثلاثة ملايين وخمسمائة وخمسين ألف جنيه مصري وزيادة فحسن المسيو دي ليسبس للمرحوم سعيد باشا أن يشتريها للحكومة المصرية فاشتراها.

ولما طلب منه عشري ثمنها عند الابتداء في العمل اقترضه له، وربما كان هذا أوّل ديون مصر التي تربو الآن على مائة مليون وستة ملايين من الجنيهات المصرية، ولم ينتظر المسيو دي ليسبس تصديق الدولة بل ابتدأ في العمل.

ولما لاحظت الدولة العلية على أن ذلك مخالف لنص الفرمان المعطى للشركة من سعيد باشا أجابها أن هذه أعمال ابتدائية ضرورية لتخطيط المشروع ولا تعتبر بدأ في العمل. وأخيراً بعد أن دارت المخابرات عدّة سنوات بين الشركة والباب العالي والحكومة الفرنساوية التي تدخلت لحماية هذا المشروع الفرنساوي أرسل الباب العالي إلى المسيو دي ليسبس بلاغاً في ٦ ابريل سنة ١٨٦٣ مفاده أن الدولة ترى أن امتلاك الشركة للأراضي الواقعة على ضفتي الترعة الحلوة وزراعتها بمعرفتها مما يضر بحقوق السلطنة في مصر، إذ يجعل لدولة أجنبية حقوقاً في مصر خصوصاً إذا أنشئت بها مستعمرات زراعية يؤتى لها بالزراع من الخارج، ولذلك لا تصدّق على هذا المشروع إلا إذا ضمنت جميع الدول حرية القنال المراد إنشاؤه كما ضمنت بوغازي الأستانة، وأن تترك الشركة حقوقها في الترعة العذبة وما على ضفافها من الأراضي، وأن لا يُستعمل المصريون قهراً في أشغال الشركة إذ كان يستغل بها في هذه الأثناء نحو ستين ألف مصري بطريق السخرة وأمهلت الدولة الشركة ستة أشهر لإعطاء الجواب وإلا يسقط حقها في جميع الأراضي الممنوحة لها.

ولما انقضى هذا الأجل ولم تجب الشركة بشيء أعلنتها الحكومة المصرية بسقوط حقها في ١٢ اكتوبر سنة ١٨٦٣ فارعد المسيو دي ليسبس وأزبد وتدخلت فرنسا وكاد الأمر يفضي إلى ارتباكات سياسية فقبلت الحكومة المصرية بحكم

نابوليون الثالث امبراطور فرنسا ظناً منها أنه ينصفها ضدّ الشركة وغاب عنها إنه لا بد أن يميل إلى الشركة بعاملي الجنسية والسياسية ولو لم يكن الحق من جانبها. وحقيقة إنه اتخذ هذه الفرصة وسيلة للحكم للشركة بمبالغ وافرة كانت سبباً في إتمام المشروع، فأصدر حكمه في ٦ يوليو بعد أن استشار لجنة من أهل الدراية بالأحكام القانونية حضرها نوبار باشا بصفة مندوب عن خديو مصر، ولا حاجة لذكر الحكم بأسبابه بل يكتفي بالقول أنه حكم بما يأتي:

(أوّلاً) أن تدفع الحكومة المصرية للشركة مبلغ ثمانية وثلاثين مليون فرنكاً في مقابلة إبطال الشرط القاضي عليها بإحضار العمال.

(ثانياً) ثلاثين مليون فرنكاً نظير ترك الأراضي التي رخص للشركة باحيائها وزراعتها.

(ثالثاً) ستة عشر مليون في مقابلة تخلي الشركة عن الترعة الحلوة وفوائدها، وتلتزم الحكومة زيادة على ذلك بحفرها من القاهرة إلى الوادي وبجعلها صالحة للملاحة في جميع أوقات السنة وعلى الشركة تطهيرها سنوياً بمعرفتها في مقابلة ثلثمائة ألف فرنك تأخذها من الحكومة، ويكون للشركة الحق في أخذ سبعين ألف متر مكعب من المياه في كل أربع وعشرين ساعة فيكون مجموع هذه المبالغ أربعة وثمانين مليون فرنكاً عبارة عن ثلاثة ملايين جنيه وأربعمائة وثلاثة وستين ألف جنيه يدفع على جملة أقساط بالكيفية الآتية من ابتداء سنة ١٨٦٤ لغاية سنة ١٨٦٧: يدفع مبلغ ستة ملايين ونصف من الفرنكات سنوياً، وفي كل من سنتي ١٨٦٨ و١٨٦٩ مائتان وأربعون ألف جنيه، ومن سنة ١٨٧٠ لغاية سنة ١٨٧٩ ثلاثة ملايين وستمائة ألف فرنك سنوياً عبارة عن مائة وأربعين ألف جنيه سنوياً.

ولما تم الحكم على الوجه المذكور الظاهر إجحافه بحقوق مصر حررت الشروط النهائية بين الحضرة الخديوية الإسماعيلية والمسيو دي ليسبس رئيس الشركة والنائب عنها في ٢٢ فبراير سنة ١٨٦٦ وتقدّمت للباب العالي فصدر عليها الفرمان السلطاني مؤرخاً ١٩ مارس سنة ١٨٦٦ (٢ ذي القعدة ١٢٨٢ هـ).

وبعد ذلك عدلت مواعيد الدفع بكيفية أرجح للشركة وزيادة على ذلك جميعه تنازلت الشركة للحكومة عن أرض الوادي التي قدر مساحتها ثلاثة وعشرون

ألفاً وسبعمائة وثمانون فداناً في مقابلة عشرة ملايين من الفرنكات ،وكانت قد اشترتها الشركة قبلاً من الحكومة بمبلغ مليون واحد وسبعمائة وسبعين ألف فرنك تقريباً فيكون ربحها من هذه المسألة فقط زيادة عن ثمانية ملايين،ولذلك فيمكننا القول بأنه لولا نقود مصر وفلاح مصر الذي ما زال يجبر على الاشتغال قهراً بأجرة زهيدة رغماً عن الشروط السالفة الذكر لما أمكن دي ليسبس أن يتم هذا المشروع الذي كان سبباً فيما نحن فيه من الاحتلال الأجنبي وما سنراه نحن وأولادنا إن لم تساعدنا المقادير .

والأغرب مما ذكر أنه لما تم فتح البرزخ أرادت الحكومة الاستيلاء على كمرك بور سعيد كما تسمح لها المعاهدات الابتدائية فامتنعت الشركة وتداخلت حكومة فرنسا وقبلت الحكومة المصرية أن تدفع لها ثلاثين مليون فرنك لمنع هذه المعارضة العارية عن الأساس،وبذلك يكون ما دفع من الحكومة المصرية بسبب عدم تبصر رجالها مائة واثنين وعشرين مليون فرنكاً منها أربعة وثمانون قيمة ما حكم به نابليون للشركة وثمانية قيمة ربحها من أراضي الوادي وثلاثون في مقابل تنازلها عن المعارضة في كمارك بور سعيد .

ولما توفر المال لدى الشركة أخذت في بذل الهمة لإنجاز القنال،وفي شهر مارس سنة ١٨٦٩ توجه الخديو إسمعيل باشا إلى أوروبا لدعوة ملوكها لحضور الاحتفال الذي صمم جنابه على إجرائه إظهاراً لسروره من إتمام هذا العمل المضر بمصر مالياً وسياسياً وما دعاهم إلا ليستميلهم لأغراضه السياسية .

الاحتفال بفتح قنال السويس

ولما عاد إلى بلاده أخذ في الاستعداد لاستقبال الزائرين بما يليق بمقامهم، ولما لم يكن بمصر تياترو وكان وجوده أمراً لا بد منه على زعمه لتمام الإنتظام أمر المهندس فرنس النمساوي الذي رقي فيما بعد إلى رتبة باشا ببناء تياترو الأوبرا والتياترو الصغير الذي كان بالقرب من الأول وهدم عند بناء عمارة البوسطة الجديدة .ولضيق الوقت استمر العمل ليلاً ونهاراً حتى تم بناؤهما، وجعل أكثر بناء التياترو الكبير من الخشب ثم أرسل درانت باولينو باشا لمقاولة أحسن جوق

من الممثلين والممثلات .

وأخذ أيضاً يجهز ما يلزم لإقامة الملوك والوزراء من السرايات اللائقة بمقامهم وأنشأ لهم سراية في مدينة الإسماعيلية الجديدة،أنشأتها الشركة على نفقة الحكومة بمليونين من الفرنكات .

وفي ١٧ سبتمبر سنة ١٨٦٩ قدم الوافدون على البرزخ وفي مقدمتهم امبراطورة فرنسا[١] وامبراطور النمسا ووليا عهد ألمانيا وإيطاليا فقضوا الليلة في مدينة بورت سعيد في غاية السرور ،وفي صباح اليوم التالي قام الجميع على الوابورات البحرية التي أعدّت لذلك ونزلوا في مدينة الإسماعيلية حيث قضوا الليلة فيما لا يوصف من الملاهي والمراقص والزينات،وفي اليوم الثالث ساروا جميعاً إلى السويس ثم أتوا إلى القاهرة ومنها رجع كل إلى بلاده إلا من أراد السياحة إلى الجهات القبلية لمشاهدة آثار مصر القديمة وقد وجه الخديو كل همته إلى إكرام امبراطورة فرنسا وتوفير أسباب الراحة لها أثناء سياحتها في صعيد مصر فاصحبها بنجله[٢] دو لتلو حسين باشا،وبأعظم رجال هذا العصر صاحب الدولة والوطنية رياض باشا ،وعين

(١) ولدت هذه الامبراطورة المسماة (أوجيني) بمدينة غرناطه باسبانيا في ٥ مايو سنة ١٨٢٦ من عائلة أثيلة في الشرف عريقة في المجد اسمها عائلة (مونتيخو) ولشهرتها في الجمال والتربية والكمال تزوجها الامبراطور نابوليون الثالث في ٢٠ يناير سنة ١٨٥٢ ،وولدت منه غلاماً في ١٦ مارس سنة ١٨٥٦ ولم يمل اليها الفرنساويون لحبها الاستبداد ومساعدتها زوجها على الاستئثار بالسلطة وينسب لها تحريضه على محاربة البروسيا في سنة ١٨٧٠ ولما هزم نابليون الثالث في واقعة (سيدان) وأعلنت الجمهورية الثالثة الحالية في ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٠ هاجرت الى انكلترا مع ابنها ثم لحقها زوجها وأقام معها الى أن توفي في ٩ يناير سنة ١٨٧٣ .وفي أول يونيه سنة ١٨٧٩ قتل ابنها الوحيد في محاربة للزولوس بجنوب أفريقيا حيث كان ضابطاً في الجيش الانكليزي وبعد أن احتفلت بدفنه في بلاد الانكليز ، سافرت الى بلاد الزولوس لزيارة المحل الذي قتل فيه ولم تزل عائشة حتى الآن . (زمن تأليف الكتاب) .

(٢) دولتلو أي صاحب الدولة وهو لقب تشريف يخاطب به كل من نال رتبة الباشاوية أو كان وزيراً (المحقق) .

لخدمتها ستة عشر وابوراً بحرياً اختص بعضها لركوبها ومعيتها والبعض الآخر لإحضار كل ما يلزم لها من المأكل والمشرب والفواكه وغير ذلك من القاهرة يومياً. واستمرت مشمولة بالتفات الحضرة الخديوية مدة الاثنين وعشرين يوماً التي قضتها في هذا السفر ولم تزل كذلك حتى عادت إلى بلادها مسرورة شاكرة.

وقد قال سعادة المرحوم علي باشا مبارك في الصحيفة الأخيرة من الجزء الثامن عشر من الخطط الجديدة التوفيقية ما يأتي :

«وقد طار ذكر هذا المهرجان حتى ملأ البقاع وتحدّث الناس في ترتيبه ونظامه ومصرفه لأنه فريد في ذاته لم يجر على مثال سابق عليه، والذي تعجب الناس منه غاية العجب هو استعداد موسيو يوسف بنطليني التلياني المتعهد بمأكول جميع من حضر هذا المحفل كل إنسان على حسب مقامه فكان هو ورجاله يؤدون الخدمة بغاية النشاط والانتظام مع مراعاة الواجب والأدب وكان الناس يتعاقبون على السفر الإفرنجية والعربية فوجاً بعد فوج وفي كل مرة تتغير أدوات السفرة بغيرها وتقدم ألوان الأطعمة على التعاقب في أسرع زمن مع مراعاة مقتضيات خدمة كل سفرة عربية كانت أو افرنجية. واستمرت هذه الحالة في الخيم والصواوين والوابورات وجميع المحلات المعدة لذلك مدة أربع عشرة ساعة والذي صرفته الحكومة للمتعهد المذكور في مقابلة المأكول والمشروب ولوازمهما من أدوات ومهمات وخدمة وخدم هو مبلغ مائتين وخمسين ألف بنتو، وهذا خلاف أجر نقل مهماته ورجاله ذهاباً وإياباً فإنها كانت على الحكومة أيضاً. وقد بلغ ما صرف على هذا المهرجان من أجر سفر أشخاص ومنقولات ومأكولات وغير ذلك مليوناً و١١١٩٣ جنيهاً انكليزياً. فلو أضيف إلى ذلك أجر سكة الحديد وما صرف على وابورات البحر في النيل والخليج المالح مع ما صرفته الحكومة على المباني في مدن القنال والقاهرة وثغر الإسكندرية وغيرها وما صرف في الزينة ومهماتها وشراء عربات ومهمات للسكة الحديدية لأجل المهرجان المذكور لبلغ مصرف هذا المهرجان ما يزيد عن مليون ونصف من الجنيهات وذلك قدر السدس من إيراد مصر سنة كاملة اهـ[1]».

(١) ومما يوجب الاستغراب أكثر مما مر أن الخديو الأسبق لم يكتف بما صرفه عند الاحتفال =

عزل السلطان عبد العزيز

هذا ولنأت هنا على ذكر هذه الحادثة المفجعة مع بيان الأسباب التي تنسب لها بقدر ما وصل إليه بحث هذا العاجز فنقول:

بعد الحوادث التي مر ذكرها اقتنع السلطان، رحمه الله، أن تحالف الدول مع الدولة في حرب القرم، وما بعدها لم تكن نتيجته إلا إضعافها بالتدخل في شؤونها الداخلية ومساعدة الطوائف المسيحية الخاضعة لها على الانشقاق عنها وبث روح الفتن والفساد في ممالكها تحت غطاء الحرية ونشر العلوم، وأن كل ذلك يعود بالنفع على الروسيا جارتها القوية وعدوّتها القديمة لا سيما وقد عدّل الدول بعد الحرب الفرنساوية الألمانية أهم بنود معاهدة باريس التي أبرمت بعد حرب القرم لحفظ التوازن في البحر الأسود وعدم مراعاتها عقب إبرامها في حق ولايتي الأفلاق والبغدان. فلهذه الأسباب علم جلالة السلطان أن الأولى والأنجح لسياسة الدولة هو التباعد عن الدول الغربية والتحالف مع الروسيا وعضده في هذا الفكر الصدر الأعظم محمود نديم باشا، فأكثر السلطان من الاجتماع مع الجنرال أغناتيف سفير الروسيا بالاستانة. والمتواتر وإن لم تثبته أوراق رسمية أنهما كانا يسعيان لوضع أساس معاهدة هجومية ودفاعية يكون من أهمّ بنودها الاختصاص بجميع بلاد الشرق وتتبع الولايات الاسلامية أو التي يغلب فيها العنصر الإسلامي للدولة العلية الإسلامية وضم جميع الأقاليم المسيحية أو التي يسود فيها هذا العنصر للدولة الروسية. ولما شاع هذا المشروع لم يرق في أعين الدول الأوروبية التي لها مصالح في الشرق، وخصوصاً انكلترا. فأخذ عمالهم وسفراؤهم الظاهرون والسريون يلقون الوساوس في عقول السذج من أهل الأستانة وينسبون السلطان للتبذير والاسراف

= بهذا الخليج بل باع الأسهم التي كان اشتراها المرحوم سعيد باشا الى انكلترا بأربعة ملايين جنيه مع أنها تساوي الآن ثمانية عشر مليوناً. وحيث أنه كان قد رهن أرباحها مدة طويلة تنتهي في يوليو سنة ١٨٩٤ فتعهد للحكومة الانكليزية بأن يدفع لها سنوياً فائدة عن ثمن هذه الأسهم تبلغ قيمتها سنوياً نحو مائتي ألف جنيه. ولم تزل الحكومة تدفع هذه الفوائد وستستمر على دفعها الى منتصف السنة القابلة سنة ١٨٩٤ .

وعدم الأهلية لإدارة مهام الملك، وربما استعان هؤلاء المغررون بطرق أخرى المطالع بها أدرى،وما زالوا يوسوسون ويلقون بذور الفساد حتى أقنعوا الوزراء بوجوب عزله،وأن إقالته من الأعمال واجبة لإنتظام الدولة وسيرها على المحور المستقيم. وصادفت دسائسهم أذناً صاغية عند بعض العلماء لما خالج صدورهم من عدم الميل للسلطان بسبب عدم اتباعه بعض العوائد المألوفة لديهم مثل خروجه من ممالكه وزيارة معرض باريس وحضوره التشخيصات التياترية والباللوات (المراقص). وكيفية خلعه على أصح الروايات ان المؤامرة التي أوصلت إلى هذه النتيجة حصلت بين كل من محمد رشدي باشا الصدر الأعظم، وحسين عوني باشا ناظر الحربية،وأحمد باشا قيصرلي ناظر البحرية،وأحمد مدحت باشا وشيخ الإسلام حسن خيرالله أفندي.وقبل الشروع في تنفيذ ما صمموا عليه أصدر شيخ الاسلام فتوى بوجوب ذلك هذا نصها.

الفتوى بعزله

إذا كان زيد الذي هو أمير المؤمنين مختل الشعور وليس له إلمام في الأمور السياسية،وما برح ينفق الأموال الميرية في مصارفه النفسانية في درجة لا طاقة للملك والملة على تحملها وقد أخل بالأمور الدينية والدنيوية وشوشها وخرب الملك والملة وكان بقاؤه مضراً بها فهل يصح خلعه؟

الجواب: يصح.

كتبه الفقير حسن خير الله
عفى عنه

ثم أناطوا حسين عوني باشا بأمر خلع السلطان عبد العزيز وشيخ الإسلام وباقي الوزراء بمبايعة السلطان مراد.وفي يوم الإثنين ٦ جمادى الأولى سنة ١٢٩٣ (٣٠ مايو سنة ١٨٧٦) أخذ ناظر البحرية في تجهيز المراكب لحصر السراية السلطانية بحراً،فاستغرب السلطان حصول المناورات بالبحر تحت شبابيكه بدون سابقة علمه،فأرسل يستعلم عن السبب فأجيب بأن دواعي الحال أوجبت ذلك.ثم أخبر أحمد باشا قيصرلي الصدر الأعظم ومدحت باشا بسؤال السلطان فعزموا

على تنفيذ مشروعهم في مساء ذلك اليوم خوفاً من أن يكون السلطان قد شعر بسيئ قصدهم ، واتفقوا على تكليف من يدعي رديف باشا بحصر السراية براً ، وتعهد أحمد باشا قيصرلي بحصرها بحراً.وفي الساعة الثانية بعد غروب ذلك اليوم اجتمع المتآمرون في ديوان السر عسكرية وتوجه رديف باشا مع ألاي من الجند مؤلف من ٢٥٠٠ عسكري وأمر سليمان باشا رئيس المدرسة الحربية بخفر باب السراي مع مائة من تلامذة هذه المدرسة راكبين خيولهم ومسلحين بالبنادق الجديدة، ولما تم حصارها براً وبحراً وأخبر المتآمرون بذلك. توجه حسين عوني باشا في عربة إلى مقر السلطان مراد وأركبه معه وعادا معاً إلى السر عسكرية حيث كان بانتظارهما شيخ الإسلام والشريف عبد المطلب وجميع أعيان الدولة من عسكريين وملكيين،ولما دخلاها أحاطت بالسراية فرقة من الجنود لمنع من فيها من الخروج ثم حصلت المبايعة للسلطان الجديد مراد خان الخامس من جميع الحاضرين على الأسلوب المتبع .



چاوش باشی



٣٣-

السّلطان
مُـرَاد خان الخامِسْ

وهو ابن السلطان عبد المجيد،وكانت ولادته في ٢٥ رجب سنة ١٢٥٦ (٢٢ سبتمبر ١٨٤٠).

هذا ولما تم أمر المبايعة أرسل مخصوص إلى رديف باشا يخبره بذلك ويسلمه صورة الفتوى القاضية بعزل السلطان عبد العزيز، فقصد رديف باشا باب الحريم واستدعى جوهر آغا رئيس آغاوات السراي وكلفه بأن يبلغ السلطان أن الأمة قد عزلته،وأنه مأمور بتوصيل السلطان المخلوع إلى سراي طوبقبو وسلمه صورة الفتوى ليطلعه عليها فلم يصدّق السلطان الخبر إلا بعد أن نظر من الشبابيك ورأى العساكر محيطة بسرايته براً وبحراً إحاطة السوار بالمعصم.

وعند ذلك أيقن أن التوقف لا يكون وراءه إلا الإكراه على الخروج فنزل مستسلماً،وبمجرّد خروجه أحاطت به العساكر وأنزلوه مع ابنه يوسف عز الدين أفندي في زورق ووالدته في ثان وباقي أولاده وأمهاتهم في ثالث ثم خفرتهم الزوارق الحربية إلى أن أوصلتهم إلى سراي طوبقبو حيث كانت العساكر مصطفة على حافتي الطريق من البرّ[1] إلى باب السراي.

وفي الساعة الحادية عشرة ليلاً أطلقت المدافع من البر والبحر إيذاناً بخلع السلطان عبد العزيز وتنصيب السلطان مراد الخامس،ونادى المنادون بذلك في الشوارع فهرع الأهالي أفواجاً إلى سراي السر عسكرية وبايعوا السلطان مراد ولم يحصل أدنى مقاومة من أحد ولم تحتج إحدى الدول على هذه الثورة الداخلية، وذلك مما يؤيد أن جميع القناصل كان عندهم علم بما حصل قبل وقوعه وأنه

(١) الأصح أن يقول : من البحر الى باب السراي .

ربما كان ذلك باتفاقهم .

وفي الساعة الثالثة صباحاً ذهب السلطان مراد في عربة بين صفوف الأهالي إلى سراي بشكطاش حيث استمرّت المبايعة ثلاثة أيام متوالية .

وفاة السلطان عبد العزيز

ولقد اختلفت الأقوال في كيفية موت هذا السلطان وكثرت الروايات عن ذلك فمن قائل أنه قتل نفسه لعدم انتظام قواه العقلية بعد خلعه، ومن قائل أن الذين تآمروا على خلعه ارتكبوا هذا الأمر الفظيع فقتلوه خيفة أن يسعى في الرجوع إلى منصة الأحكام، أما الحقيقة فغمضة نترك كشف الستار عنها لمن يأتي بعدنا ونكتفي بذكر الرواية التي تناقلتها الألسن والجرائد في ذلك الحين .

وذلك أنه شاع أو أشاع أرباب الغايات أن قد أصابته رحمه الله أمراض دماغية يوم خلعه فاضطربت أحواله وكان يتخيل أن البواخر الراسية في البوغاز تطلق النار على العدوّ فزاده ذلك قلقاً ولم يستطع الرقاد في ليلة الأحد التالية لعزله، فلما أصبح الصباح ذهب إلى الحمام كعادته ثم إلى البستان ثم رجع إلى حجرته وصار يأمر بفتح الشبابيك والأبواب ثم يخرج إلى البستان ويعود ثم يخرج ثانياً كأن الدنيا ضاقت أمامه برحبها، ثم حاول الخروج إلى شاطىء البحر فرآه الضابط الذي كان يحرس الباب فقال له بلطف لا إذن بالخروج يا سيدي فهدّده بغدّارة كانت في يده ثم دخل ويقال أن هذه الحادثة كانت سبباً في ازدياد أعراض الخلل، واستشهد أصحاب هذا الرأي ببعض خدّامه وحجابه فقالوا أنه رحمه الله كان يتوهم أن عدوّاً هاجم عليه وأنه يجب على العساكر أن تمانعه وتطارده وعلى البواخر أن توجه نيرانها على هذا العدوّ المفاجىء .

وأخيراً طلب من إحدى الجواري مقصاً ومرآة ليقص أطراف لحيته كما كانت عادته فاحضرتهما له من والدته وانصرفت، ثم رأى والدته تنظره من وراء فغضب وأمرها بالانصراف وبعد ذلك حضر أحد أعوانه فأخذ يحادثه في مسألة مهاجمة العدوّ التي كان يتخيلها .وفي أثناء الحديث أخذ المقص وقطع به عرقاً من ذراعه الأيمن فحاول العون منعه ولما لم يتمكن ذهب وأخبر والدته. ولما خرج العون قفل السلطان الشبابيك والأبواب وقطع عرق ذراعه الأيسر واضطجع

على متكأ حتى تصفى دمه ولما شاع هذا الخبر وعلا صريخ الجواري أتى الوزراء وبعد أن شاهدوا الحالة استدعوا لجنة طبية من مشاهير الأطباء ومن ضمنهم أطباء سفراء الدول وبعد الكشف عليه طبع الكشف ووزع على العموم ونشر في الجرائد ليعلم الناس كيفية موته .

وفي الساعه الخامسة عربياً نقلت جثته إلى سراي طوبقبو (وكان رحمه الله قد نقل منها إلى سراية أخرىٰ في يوم السبت السابق لوفاته بناء على طلبه) وهناك غسلت وجهزت .

وفي الساعة العاشرة شيعت جنازته ودفن بجوار أبيه السلطان محمود رحمهما الله .

ومما يوجد شكاً في أنه قتل نفسه بسبب اختلال قواه العقلية ما كتبه للسلطان مراد قبل وفاته بيوم واحد يطلب منه الانتقال من طوبقبو فإنه لا يؤخذ من عبارته أن به أقل اضطراب عقلي وإليك صورة هذه الكتابة نقلاً عن منتخبات الجوائب :

بعد اتكالي على الله تعالى وجهت اتكالي عليك فأهنئك بجلوسك على تخت السلطنة وأبين لك ما بي من الأسف على أني لم أقدر على أن أخدم الأمة حسب مرادها فأؤمل أنك أنت تبلغ هذا الأرب وأنك لا تنسى أني تشبثت بالوسائل الفعالة لصيانة المملكة وحفظ شرفها وأوصيك بأن تتذكر أن من صيرني إلى هذه الحالة هم العساكر الذين سلحتهم أنا بيدي، وحيث كان من دأبي دائماً الرفق بالمظلومين وشملهم بالمعروف الذي تقتضيه الإنسانية أرغب إليك أن تنقذني من هذا المكان الضيق المعنَّى (بتشديد النون) الذي صرت إليه وتعين لي محلاً أكثر ملاءمة لي، وأهنئك بأن الملك انتقل إلى ذرّية أخي عبد المجيد خان . الإمضاء (عبد العزيز)

ومن جهة أخرى فإن استدعاء الوزراء لأطباء القناصل يدل أيضاً أنهم كانوا معتقدين أن الأمة تصدّق[1] قولهم بأنه قتل نفسه فعمدوا إلى تقوية قولهم بهذا الكشف الطبي الموقع عليه أطباء السفارات ،ممايعتبر إقراراً من الدول وتصديقاً لروايتهم. ومع ذلك فلا يمكن الجزم الآن بأنه قتل شهيد الدسائس أو انتحر تخلصاً من الحياة بعد خلعه لعدم وجود الأدلة الكافية على القطع في هذه المسألة حتى اليوم .

---

(١) الأصح أن يقول : لا تصدق قولهم .

قتل حسن بك لكل من حسين عوني باشا ومحمد راشد باشا

حسن بك المذكور هو ابن اسمعيل بك، أحد أعيان الجراكسة المهاجرين من بلادهم بعد دخولها ضمن أملاك الروسيا، وكان ياوراً ليوسف عز الدين أفندي نجل السلطان عبد العزيز الذي كان مشيراً للاوردي الهمايوني الخاص. ولما توفي السلطان عبد العزيز أراد حسين عوني باشا السر عسكر إبعاده عن الأستانة فألحقه بأحد الألايات بمدينة بغداد وأمره بالسفر على عجل فامتنع فحبس بحسب الأصول العسكرية ثم أظهر الرغبة في السفر وطلب إمهاله يومين لا غير للتأهب للسفر فأفرج عنه. وفي مساء يوم الخميس ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٢٩٣ (١٦ يونيه سنة ١٨٧٦) تسلح بأربعة مسدسات وخنجر ماض وقصد منزل عوني باشا فقيل له إنه بمنزل مدحت باشا فذهب إليه، ولما سأل الخدم عن حسين عوني باشا قالوا له إنه مع سائر الوكلاء (النظار) في مجلس مخصوص فأوهمهم أن معه تلغرافاً مهماً يختص بالحربية يريد توصيله فوراً للسر عسكر، ثم انتظر برهة وطلع إلى المحل المجتمع فيه الوكلاء فوجد حارساً بالباب منعه عن الدخول فقال له من أنت قال سالم آغا خادم الصدر الأعظم فقال إذهب وناد خادم حسين عوني باشا لأني مستعجل فنزل سالم آغا وعندها دخل حسن بك الغرفة وأطلق غدّارته على حسين عوني باشا فأصابه برصاصتين فقام للدفاع عن نفسه فأجهز عليه بالخنجر وأصاب محمد راشد باشا ناظر الخارجية برصاصة في عنقه أفقدته الحياة، ثم قام أحمد باشا قيصرلي ناظر البحرية وقبض على يد حسن بك فاثخنه جراحاً حتى فر مع باقي الوزراء إلى غرفة أخرى تابعة لدائرة الحريم ووضعوا خلف الباب بعض أمتعة ثقيلة، ثم جاء أحمد آغا رئيس خدم مدحت باشا وأراد القبض عليه فقتله، ثم حاول

فتح الباب الذي اختفى باقي الوزراء خلفه ولما لم يمكنه أطلق رصاصتين نفذتا من الخشب بدون أن تصيبا أحداً ،ثم أخذ كرسياً وصار يكسر في الثريات لإطفاء النور وأخذ شمعداناً ليحرق به الأستار ويوقد النار في المنزل ليمكنه الهروب لكن لم يتمكن من ذلك إذ حضرت عدّة من عساكر الضبطية فقبضوا عليه بعد أن قتل شكري بك ياور الصدر الأعظم وأحد أنفار العساكر ،ثم سيق إلى ديوان السر عسكرية.وفي صباح الجمعة تشكل مجلس حربي تحت رئاسة رديف باشا فحكم عليه بالتجريد من الرتب والقتل شنقاً ،وجرد في الحال من الرتب وعلامات الشرف.وفي فجر يوم السبت شنق على شجرة في ساحة بايزيد وبقي مشنوقاً إلى صباح الإثنين وعلى صدره ورقة تبين أسباب شنقه ليكون عبرة لغيره.ويقال إنه عند استجوابه أمام المجلس لم يبد أقل تأسف على قتل عوني باشا[1] وراشد باشا[2] بل على من قتلهم من الجند والضباط وعدم تمكنه من قتل ناظر البحرية أحمد باشا قيصرلي .

هذا ولا يعقل أن الباعث لحسن بك على قتل الوزراء مجرّد الانتقام لإرساله إلى بغداد إذ لو كان الأمر كذلك لاكتفى بقتل ناظر الحربية مع أن هذا الأمر

---

(١) ولد عوني باشا في ولاية قونية سنة ١٢٣٦ هجرية وبعد أن تعلم المبادئ أتى الاستانة ودخل المكتب الحربي سنة ١٢٥٣.وفي سنة ١٢٥٨ صار ملازماً ثم أخذ يترقى شيئاً فشيئاً الى أن وصل لرتبة فريق في أواخر شعبان سنة ١٢٧٨ هجرية.وفي سنة ١٢٨٠ وجهت اليه قائمقامية السر عسكر مع مشيرية الأوردي الهمايوني الخاص.وفي سنة ١٢٨٥ عين سر عسكر عموم الجيوش الشاهانية.وفي سنة ١٢٩٠ عين صدراً أعظماً ثم بعد تقلبه في عدة مناصب مهمة رجع الى السر عسكرية في ربيع الآخر سنة ١٢٩٢ وقتل وهو بهذه الوظيفة .

(٢) هو ابن حسن حيدر باشا من أعيان درامه وكان والده مستخدماً بالحكومة المصرية ثم سافر الى الاستانة أيام ولاية المرحوم عباس باشا الأول وأرسله والده الى أوروبا مع الخديو اسمعيل باشا الأسبق وأخويه ولما عاد منها عين بوظيفة مترجم،ثم ترقى في الوظائف الملكية الى أن بلغ رتبة الوزارة وأحسن عليه بالنيشان العثماني الأول المرصع وتقلد عدة وظائف مهمة وقتل وهو وزيراً للخارجية .

بعيد الإحتمال أيضاً، ويغلب على الظن أن ما حمله على هذا الفعل إلا تعلقه بالسلطان الشهيد وعائلته، ولتواتر الإشاعات أن السلطان عبد العزيز مات مقتولاً بدسيسة هؤلاء الوزراء بايعاز من بعض الدول ذوات الصالح الأكبر في الشرق أراد قتلهم انتقاماً لسلطانه المرحوم الذي ذهب فريسة الدسائس الأجنبية .

عزل السلطان مراد

السلطان مراد الخامس هو ابن السلطان عبد المجيد خان، ولد في ٢٥ رجب سنة ١٢٥٦ وارتقى منصب الخلافة في ٧ جمادى الأولى سنة ١٢٩٣ (٣١ مايو ١٨٧٦) وكان متعلماً مهذباً ميالاً للإصلاح محباً للمساواة بين جميع أصناف رعيته، مقتصداً في مصرفه غير ميال للسرف والترف، يشهد بذلك الفرمان الذي أرسله إلى الباب العالي بإبقاء الوزراء وجميع المأمورين في وظائفهم ومبيناً فيه خطة الإصلاح الذي يريد إجراؤه وها هو بنصه :

وزيري سمير الحمية محمد رشدي باشا :

إنه لما وقع الآن بإرادة جناب مالك الملك الأزلية وبإجماع الرعية ورغبتها جلوسنا على تخت أجدادنا العظام جدّدنا إبقاء خدمة الصدارة في عهدتكم، اعتماداً على ما جرب من رؤيتكم وحميتكم، وأقررنا جميع الوكلاء والمأمورين في مأموريتهم وخدمتهم، وقد عرف الناس أجمع أن ما طرأ من مشكلات الأحوال على الدولة في أمورها الداخلية والخارجية ولد في أفكار العامة قلة الأمنية فافضى ذلك لمضرّتهم مالاً وملكاً وتنوعت بناء عليه أشكال عدم استراحتهم فكان من الواجب أن نتخذ على الفور طريقاً لاستئصال هذه الحال وإصلاحها تأميناً وتنشيطاً للمملكة وعموم تبعة الدولة، في صورة تتكفل مادياً ومعنوياً بسعادتهما وسلامتهما. ولا شك أن هذا يتوقف على تأسيس أصول إدارة الدولة على أساس صحيح ومتين وهو الذي ما برحت أفكارنا محصورة في النظر إليه ونوايانا معطوفة عليه. فلذا كان جل مأثورنا الخالص (أولاً) إجراء الأحكام الشرعية وتقييد إدارة الدولة العمومية بقوانين قوية موافقة لنفس الأمر ولقابلية الأهالي، والحالة هذه أن يتذاكر الوكلاء في كيف يلزم أن تكون تلك القاعدة السالمة الثابتة وما هو الأساس الذي تبنى عليه لتكون

كافلة لعموم رعيتنا السلطانية التمتع بتمام الحرية بدون استثناء وتؤهلهم لأنواع الترقي وتميل كل فرد منهم للاتحاد بالفكر والنية على المحبة والمحافظة على الوطن والدولة والملة، فيبادرون للاستئذان على ما يقرّ عليه القرار. (ثانياً) إن المهم اللازم نظراً لهذه النية الأساسية إنما هو تجديد تنظيم نظامات وإدرات شورى الدولة والأحكام العدلية والمعارف العمومية وأمور المالية وسائر المأموريات فينبغي إذاً النظر في تنظيم ذلك بالتتابع. (ثالثاً) لما كانت المصالح الأميرية هي إحدى الأحوال المعظمة التي أوقعت أمور الدولة في إشكال، كان من الواجبات وعلى حساب ما سيشرع به من التنظيمات إدخال المعاملات المالية تحت التأمين، أي أنها تربط بقاعدة وثيقة وتوضع تحت نظارة قويمة تمنح العموم تأميناً على عدم وقوع مصروف خارج عن الميزانية. وإعانة لهذا التدبير قد نزلنا من تخصيصات خزينتنا الخاصة ستين ألف كيس وتركنا كذلك إلى خزينة المالية إدارة معدن الفحم في أركلي وسائر المعادن وبعض المعامل وحاصلاتها بأجمعها. فبناء عليه يلزم الاعتناء كذلك بإجراء مثل هذه التعديلات والتصرّفات في سائر الجهات تسهيلاً، ولحصول الموازنة في الأمور المالية. (رابعاً) فلتدم كافة معاهداتنا مع الدول المتحابة مرعية الإجراء ويصرف المجهود بتأكيد الحب والموالاة وتزييد المصافاة فيما بين دولتنا العلية وجميع الدول فنسأل جناب الحق المعين أن يوفقنا للخير أجمعين في ١٦ جمادى الأولى سنة ١٢٩٣ (٩ يونيو ١٨٧٦) اهـ.

لكن لم يتح له الدهر إتمام هاتيك المشروعات الجليلة ذات الفوائد الجزيلة، بل ظهرت عليه علامات الاضطراب العصبي عقب توليته بنحو أسبوع، ثم ازدادت شيئاً فشيئاً، خصوصاً بعد ما بلغه خبر قتل حسين عوني باشا ومحمد راشد باشا بالصفة التي سبق شرحها، حتى لم يتمكن من تمييز الوزراء عن بعضهم. ومع ذلك فكان الصدر الأعظم يخفي هذا الأمر عن العموم لكن ذاع خبره لعدم إجراء الاحتفال بتسليمه السيف السلطاني في جامع أبي أيوب الأنصاري حسب العادة، ولعدم مقابلته قناصل الدول ليقدّموا إليه أوراق تجديد تعيينهم لدى حكومته. وأخيراً لما اشتدّ عليه الحال استدعى الوزراء الطبيب ليدزورف النمساوي الشهير بمداواة الأمراض العقلية فحضر، وبعد أن فحص جلالته ولازمه عدّة أيام متفرساً

كل ما يبدو منه من الأقوال والإشارات واستعلم عن عاداته وكيفية معيشته قال بتعسر برئه من هذا المرض، فتشاور الوزراء في الأمر ثم عرضوا على أخيه عبد الحميد أفندي أن تسلم إليه مقاليد الأحكام حيث حكم الأطباء بعدم لياقة أخيه السلطان مراد لإدارة مهامها،فأجابهم حفظه الله وأطال عمره أن الأولى عدم التسرّع في الأمور ربما يمنّ الله عليه بالشفاء ويعود إلى ما كان عليه من شدّة الذكاء وتوقد الذهن، فامتثل الوزراء لكن لما رأوا أن الحالة في ازدياد اجتمعوا في يوم الأربعاء ١٠ شعبان سنة ١٢٩٣ (٣١ أغسطس سنة ١٨٧٦) وقرروا بوجوب المبايعة لمولانا السلطان عبد الحميد خان الثاني أدامه الله، وأرسلوا رقيماً لوالدة السلطان مراد يخبرونها بذلك فأجابت باستحسان ما قرروه.ثم في صباح يوم الخميس اجتمع الوزراء ثانية واستدعوا شيخ الإسلام خير الله أفندي وجميع الذوات والعلماء والأمراء والأعيان واستفتوا مولانا شيخ الإسلام في الأمر فأفتى بوجوب عزله وهاك نص الفتوى :

* * *

صورة استفتاء الوزراء في وجوب خلع السلطان مراد خان الخامس

إذا جنّ إمام المسلمين جنوناً مطبقاً ففات المقصود من الإمامة فهل يصح حل الإمامة من عهدته؟ الجواب: يصح والله أعلم .

كتبه الفقير حسن خير الله
عفى عنه

٣٤-



السلطان الغازي
عبد الحميد خان الثاني

وبعدها أرسلوا في طلب مولانا الجديد فحضر إلى سراي طوبقبو وبايعه الحاضرون، ومنها إلى سراي بشكطاش حيث بايعه جميع من حضر من رؤساء روحانيين وغيرهم.

أما السلطان مراد فتوجه إلى سراي جراغان التي كان بناها المرحوم السلطان عبد العزيز واستشهد بها، ثم أخطرت الولايات وزينت المدينة ثلاثة أيام توالى فيها إطلاق المدافع في الأوقات الخمس من الطوابي والمراكب الحربية.

وفي يوم ١٨ شعبان سنة ١٢٩٣ (٧ سبتمبر سنة ١٨٧٦) تقلد مولانا السلطان أعزه الله السيف المنيف في جامع أبي أيوب الأنصاري على ما جرت به العادة. وكان ذهابه إلى هذا الجامع في موكب حافل لم يسبق له مثيل. وزار جلالته أثناء عودته جدث والده المرحوم السلطان الغازي عبد المجيد المدفون بجامع السلطان سليم ثم زار ضريح السلطان محمد الفاتح رحمه الله فقبر جدّه السلطان محمود مبيد الانكشارية طيب الله ثراه، وأخيراً قبر عمه شهيد الشهداء السلطان عبد العزيز غفر الله له.

وبعد ذلك استلم إدارة الأعمال بهمة ونشاط وأظهر للوزراء رغبته في إصلاح الأمور في خط همايوني أرسله جلالته إلى الباب العالي إشعاراً بجلوسه مؤرخاً ٢١ شعبان سنة ١٢٩٣ (١٠ سبتمبر سنة ١٨٧٦) وإليك نصه:

« وزيري سمير المعالي محمد رشدي باشا

إنه لما اعتزل أخي الأكرم حضرة السلطان مراد الخامس عن مشاغل السلطنة والخلافة وفرغ منها جلسنا بموجب القانون العثماني على تخت أجدادنا العظام.

وقد وجهنا لعهدتكم مسند الصدارة العظمى ورئاسة مجلس الوكلاء إبقاءً

وتجديداً بناء على ما لذاتكم من الروية المسلم بها والحمية المجربة ومالكم من الوقوف والاطلاع على مهام أمور الدولة وكذلك أقررنا جميع الوكلاء في مناصبهم .

وإنني شديد الاتكال في جميع الأحوال على تسهيلات جناب موفق الأمور وتوفيقاته الصمدانية وقصارى آمالي ومقاصدي معطوفة بالحصر لتأييد أساس شوكة دولتنا ومكانتها بحيث تنال صنوف تبعتنا بلا استثناء الحرية. ويتنعمون جميعاً بنعمة العدالة والرفاهية. فأؤمل في هذا الأثر ويعاونوننا عليه. وقد عرف الناس أجمع بأن حال البحران والاغتشاش[1] الملم بدولتنا له جهات وأسباب متنوّعة وصور وأشكال متعدّدة، فإذا أمعنا النظر في ذلك من أيّ جهة كانت تجتمع مباديه وأسبابه في نقطة واحدة، وهي عدم جريان القوانين والنظامات المؤسسة على الأحكام الجليلة والشرعية التي هي المسند الأساسي في دولتنا على حقها وتمامها واتباع كل فرد أهواء نفسه في إدارة الأمور. أما اتساع ميدان عدم الانتظام الطارىء على إدارة دولتنا ملكاً ومالاً وما حصلت عليه أمور ماليتنا من عدم الأمنية في الأفكار العمومية وتعذر وصول المحاكم إلى الدرجة المتكفلة بتأمين حقوق الناس وتأخر استفادة مملكتنا حالة كونها قابلة لأنواع وسائل العمران كالحرف والصنائع والتجارة والزراعة، كما هو مسلم، فهو من عدم الثبات الذي وقع على كل ما شرع به من الإجراءآت وكل ما حصل من التشبثات الصادرة عن نية خالصة لمقصد إعمار مملكتنا ورفاهية حال رعايانا وتبعتنا وسعادة حالهم ونوالهم بدون استثناء الحرية الشخصية وكون ذلك بأجمعه صار عرضة لتغييرات متنوّعة منعت إنتاج المقصد الأصلي، فلا ريب في أنه تولد ونشأ عن عدم الثبات باتباع القانون والنظام. وإذا كان من أهم ما يلزم أن التدابير الواجب وضعها أوّلاً فأوّلاً في مطلب قوانين المملكة المقتضى وضعها وتنظيمها في صورة تتكفل بأمنية العموم وثقتهم ينبغي أن يبتدأ بها من هذه النقطة المهمة، وهي أن يترتب مجلس عمومي تكون أفعاله وآثاره مستوجبة لثقة العموم واعتمادهم، ويكون موافقاً لقابلية مملكتنا وأخلاق أهلها، كافلاً بالتمام تأمين إجراء القوانين حرفاً فحرفاً. سواء أكانت القوانين الموجودة أو التي تتأسس

---

(١) كان الأتراك يستعملون هذه الكلمة بمعنى الاضطراب .

من الآن فصاعداً توفيقاً لأحكام الشرع الشريف المقدّسة ولما هو بالحقيقة ضروري ومشروع لمملكتنا وملتنا، وناظراً في موازنة وإردات الدولة ومصاريفها. فليبحث الوكلاء في هذا المطلب ويتذاكروا فيه بتدقيق وتأمل ويعرضوا قرارهم لدينا ويستأذنوا عنه. ثم لما كانت مسألة توديع المأموريات إلى غير أهلها من المأمورين وتبدلاتهم المتوالية من غير سبب مشروع هي من جملة الأمور الباعثة على إيقاع جريان القوانين والنظامات كما ينبغي في حيز الإشكال،وهذا مما يأتي بكبير المضرّة ملكاً ومصلحة، فينبغي أن يتعين من الآن فصاعداً مسلك مخصوص لكل نوع من الخدم والمأموريات وتتخذ قاعدة ثابتة ليستخدم بمقتضاها في كل عمل من يكون أهلاًله، ولا يعزل أحد أو يبدل من مأموريته بلا موجب على وجه أن تكون كافة الوكلاء ومأموري الدولة كباراً وصغاراً مسؤولين عن الوظائف الموكولة لهم كل بحسب درجته. وكما هو معلوم لدى الخافقين إن ترقيات ملل أوروبا المادية والمعنوية إنما هي حاصلة بقوة الفنون والمعارف،ولما كان استعداد كافة صنوف تبعتنا وما فطروا عليه من الذكاء والحمد لله يؤهلهم من كل وجه للترقيات، وأهمّ ما لدينا من الأمور الإسراع بتعميم المعارف.وأخص ما نتمناه والحالة هذه أن يحصل الاجتهاد بإبلاغ تخصيصات المعارف إلى الدرجة الكافية حسبما يساعد الإمكان ،وأن تستحصل الوسائل الموصلة لتعميم نشر أصول المعارف على الفور ويبادر عاجلاً لإصلاح الأصول الملكية والمالية والضبط في الولايات بحيث توضع ضمن دائرة الانتظام في صورة مناسبة للقاعدة التي تتخذ في المركز، وحيث أن الحادثة التي ظهرت في العام الماضي في أطراف هرسك وبوسنه بإغراء أرباب الأغراض قد انضم لها أيضاً مسألة عصيان الصرب.والدم المهرق من الطرفين إنما هو دم أولاد وطن واحد وكان دوام هذه الحال التي يرثى لها موجباً لكدرنا وتأثرنا الشديد يلزم التشبث بالتدابير المؤثرة المفضية لاستئصالها.وفيما نؤيد مجدداً كافة أحكام المعاهدات المنعقدة مع الدول المتحابة نؤثر رعايتها على الوجه الأحسن فينبغي المثابرة بالاجتهاد على إزدياد روابط الحب والمسالمة المتبادلين بيننا وبين الدول. ونسأل حضرة الرب المتعال أن يقرن مساعينا جميعاً بتوفيقاته السبحانية في كافة الأحوال آمين» .

في يوم الأحد ٢١ شعبان سنة ١٢٩٣ .

ثم أصغى لمشورة نبهاء وزرائه الميالين لمنح الدولة العثمانية نظاماً دستورياً شوروياً يحفظ لجميع رعايا الدولة حقوقهم ويكون بمثابة رابطة بين جميع الشعوب والملل المكوّنة منها الممالك العثمانية، فيكون الجميع سواء في الحقوق والواجبات وتبطل بذلك المنافسات والضغائن الجنسية (العرقية) والدينية لاشتراك الجميع في نظر شؤون الدولة ووضع القوانين الملائمة لحالة الأهالي ودرجة ارتقائهم في سلم المدنية والعمران ويتنبه كل منهم إلى الدسائس الأجنبية ولفظ الخائنين من بينهم لفظ النواة.

ولهذه الدواعي أصدر حفظه الله إرادة سنية بموجب قرار سائر الوكلاء (النظار) في ٥ شوّال سنة ١٢٩٣ (٢٤ اكتوبر سنة ١٨٧٦) بتنظيم مجلس عمومي (برلمان) يكوَّن من مجلسين أحدهما ينتخب الأهالي أعضاءه ويسمى مجلس المبعوثان، والآخر تعين أعضاؤه من طرف الدولة ويسمى مجلس الأعيان.

وقد ازداد تعلق جلالة السلطان الأعظم بتأييد النظامات الجديدة الشوروية ووثق الأهالي ببلوغ أمانيهم ولمّ شعث الأمم المختلفة وإيجاد أمة واحدة عثمانية تكون كرجل واحد أمام العدوّ وحاجزاً حصيناً ضدّ تدخل الدول بحجة إصلاح أحوال الشعوب المسيحية. بما أن كل شعب يسن له بمعرفة النوّاب عن الجميع قوانين تلائم أحواله المذهبية ويعيش الكل في راحة بال ورغد عيش. ثم لما استعفى محمد رشيد باشا من منصب الصدارة بسبب تقدمه في السن ووهن قواه عن مزاولة الأعمال في هذه الظروف المهمة وجهت الصدارة إلى أحمد مدحت باشا أول القائلين بهذه الإصلاحات في ٤ ذي الحجة سنة ١٢٩٣ (٢١ دسمبر سنة ١٨٧٦). وبعد تعيينه بأربعة أيام صدر إليه فرمان سلطاني مرفق معه القانون الأساسي للدولة مشتمل على مائة وتسع عشرة مادة يأمره بنشر هذا القانون في جميع أنحاء الدولة ومباشرة العمل بأحكامه من يوم نشره وأعلن القانون الأساسي بالأستانة، وقرىء في مجمع حافل في يوم ٢٣ دسمبر سنة ١٨٧٦، وأطلقت المدافع من جميع القلاع والمراكب استبشاراً. وهو قانون قد جمع فأوعى، أهمّ ما به أنه ضمن لجميع رعايا الدولة الحرية والمساواة أمام القانون وأباح حرية التعليم مع جعله إجبارياً على جميع

العثمانيين، وحرية المطبوعات، وبين اختصاصات مجلسي المبعوثان والأعيان وكيفية الإنتخاب ومن يجوز أن ينتخب أو يُنتخب وأن جميع الرعايا يطلق عليهم اسم عثماني ومن هو ذاك العثماني وأن الدين الرسمي هو دين الإسلام واللغة الرسمية اللغة التركية، وأن الدولة جسم واحد لا يمكن تفريقه أو تجزيئه. ومما فيه أيضاً إبطال المصادرة في الأموال على العموم والتعذيب في التحقيق والسخرة على وجه العموم، ووضع ميزانية سنوية تعرض على هيئة المبعوثان ثم الأعيان وإذا أقر كلاهما عليها تكون واجبة الإجراء وعدم جواز عزل القضاة إلا بسبب شرعي وكيفية نظام الولايات وحدود المأمورين الخ... مما يطول ذكره هنا وهاك صورة الخط الشريف الهمايوني الصادر بتنفيذ القانون الأساسي:

وزيري سمير المعالي مدحت باشا،

إن التدنيات العارضة منذ أزمان على قوّة دولتنا العلية قد نشأت من الانحراف عن الطريق المستقيمة في إدارة الأمور الداخلية أكثر مما نشأ من الغوائل الخارجية ومن ميل الأسباب الكافلة أمنية التبعة من حكومتهم المتبوعة إلى الانحطاط، فلذا كان والدي الماجد المرحوم عبد المجيد خان أعلن مقدّمة للإصلاحات خط التنظيمات الذي منح فيه للعموم الأمن على نفوسهم وأموالهم وأعراضهم وناموسهم كما يوافق أحكام الشرع الشريف المقدّسة، فما عشناه إلى الآن ضمن دائرة الأمن وما وفقنا به اليوم بوضع وإعلان هذا القانون الأساسي الذي هو ثمرة الآراء والأفكار المتداولة بالحرية المستندة على تلك الأمنية ما هو إلا من جملة آثار تلك التنظيمات الخيرية، فلذلك أردّد خاصة في هذا اليوم المسعود اسم المرحوم المشار إليه وموفقيته بعنوان محيي الدولة ولا ريب، بأنه لو كان الأوان الذي تأسست فيه التنظيمات المذكورة موافقاً لاستعداد زماننا هذا وإلجاآته لكان المرحوم المشار إليه أسس إذ ذاك أحكام هذا القانون الأساسي الذي نشرناه الآن وأجراه، ولكن جناب الحق علّق حصول هذه النتيجة المسعودة الكافلة بإتمام سعادة حال ملتنا لعهد سلطنتنا، فنقدّم بناء على هذه الدلالة لجناب الرب الكريم الحمد والشكر العظيم، على أن التغييرات التي وقعت بالطبع في أحوال داخلية دولتنا العلية والتوسعات التي حصلت في مناسباتها الخارجية أوصلت عدم كفاءة شكل إدارة الحكومة

لدرجة البداهة. ولما كان أقصى مقاصدنا الخيرية إزالة الأسباب المانعة للآن الاستفادة الواجبة من ثروة ملكنا وملتنا الطبيعية ومن قابليتها الفطرية، وتقدّم صنوف التبعة في طرق الترقي بالتعاون والاتحاد اقتضى لأجل الوصول إلى هذا المقصد ان تتخذ الحكومة قاعدة سالمة ومنتظمة وهذا أيضاً يتوقف على تأمين هذه الفوائد وتقريرها، بمعنى أن قوة الحكومة تحافظ على حقوقها المقبولة والمشروعة وعلى منع الحركات غير المشروعة أعني بها منع ومحو الخطيئات وسوء الاستعمالات المتولدة من الحكم الاستبدادي الفردي أو الأفراد القلائل ليستفيد جميع الأقوام المركبة هيئتنا منهم نعمة الحرية والعدالة والمساواة بلا استثناء وذلك حق ومنفعة حريان بالهيئة الإجتماعية المدنية.

ولما كان ربط القوانين والمصالح العمومية بقاعدتي المشورة والمشروطية[1] المشروعتين والثابت خيرهما مما تحتاج إليه هذه الأصول أوعزنا في خطنا الذي أذعنا به جلوسنا لزوم ترتيب مجلس عمومي. وبما أن القانون الأساسي اقتضى بتنظيمه في هذا المطلب قد ترتب بالمذاكرة في الجمعية المخصوصة التي تعينت مركبة من متخيري الوزراء وصدور العلماء ومن سائر رجال ومأموري دولتنا العلية وجرى عليه التصديق في مجلس وكلائنا بعد إمعان نظر التدقيق، وكانت المواد المندرجة فيه إنما هي متعلقة بحقوق الخلافة الإسلامية الكبرى والسلطنة العثمانية العظمى وحريّة العثمانيين ومساواتهم وصلاحية الوكلاء والمأمورين ومسؤوليتهم. وبما للمجلس العمومي من حق الوقوف، وباستقلال المحاكم الكامل، وبصحة الموازنة المالية وبالمحافظة على مركز الحقوق في إدارة الولايات واتخاذ أصول توسيع المأذونية، وكان جميع ما ذكر مطابقاً لأحكام الشرع الشريف ولاحتياج الملك والملة وقابليتهما في يومنا هذا وكانت أخص آمالنا في طلب سعادة العامة وترقياتها، مساعدة لهذا الفكر الخيري وموافقة له، فاستناداً على عون الله وإمداد روحانية جناب رسول الله قد قبلنا هذا القانون الأساسي وأرسلنا به لطرفكم بعد أن صادقنا عليه، فبادروا لإعلانه في جميع أنحاء الممالك العثمانية وأطرافها ليكون

(١) المشروطية: بمعنى الحرية الدستورية.

دستوراً للعمل إلى ما شاء الله، وباشروا بإجراء أحكامه منذ اليوم متخذين أسرع التدابير لتنظيم ما تقرّر فيه وتسطر من النظامات والقوانين كما هو مطلوبنا القطعي ونسأل جناب الحق المتعال أن يجعل مساعي المجتهدين في سعادة حال ملكنا وملتنا مظهراً للتوفيق في كل الأعمال .

تحريراً في ٧ ذي الحجة سنة ١٢٩٣ (٢٤ دسمبر ١٨٧٦) .

لكن لم ير أحمد مدحت باشا هذه الهيئة الشوروية التي بذل جهده لمنحها البلاد، فإنه عزل من منصب الصدارة في٢١ محرم سنة ١٢٩٤(٥ فبراير سنة ١٨٧٧) أعني بعد تعيينه بأقل من شهرين ونفي خارج الممالك المحروسة بناء على ما ألقي في حقه من الدسائس لدى جلالة السلطان الأعظم من إنه يودّ إرجاع السلطان مراد إلى عرش الخلافة العظمى ،بدعوى أن عزله كان على غير وجه شرعي وأنه حافظ لقواه العقلية لا يمنعه مانع عن القيام بمهام الدولة ،وعزى إليه أيضاً أنه يسعى في فصل السلطة الدينية عن السلطة الدنيوية أي الخلافة الإسلامية عن السلطنة العثمانية بحيث لا يكون السلطان خليفة جميع المسلمين في المعمورة بل يكون سلطاناً على الأمة العثمانية ليس إلا ،وبني نفيه بناء على المادة ١١٣من القانون الأساسي التي جاء في آخرها بعد التكلم على إعلان الإدارة العرفية أي تعطيل القوانين والنظامات الملكية مؤقتاً في كل جهة ظهرت فيها أمارات الاختلال والعبث بالأمن العام ما نصه : «ومن ثبت عليهم بتحقيقات إدارة الضابطة الموثوقة أنهم أخلوا بأمنية الحكومة ، يكون إخراجهم من الممالك المحروسة وتبعيدهم عنها منحصراً بيد إقتدار الحضرة السلطانية» ثم وجهت الصدارة إلى محمد أدهم باشا مع تغيير وتبديل في أغلب الوكلاء وأرباب الوظائف المهمة .

البرلمان العثماني الأول

وفي ٤ ربيع الأوّل سنة ١٢٩٤ (١٩ مارس سنة ١٨٧٧) فتح البرلمان العثماني الأوّل في سراي بشكطاش ،وعندافتتاحه تليت خطبة أنيقة عن لسان جلالة السلطان وبحضوره شرحت فيها جميع الأسباب التي أدّت إلى انحطاط الدولة وتأخرها سلمياً وسياسياً ،وبعدتشخيص الداء بين فيها الدواء وما يلزم للمملكة من الإصلاحات

ونشر التعليم والمساواة بين الجميع والعدل في الأحكام، ولأهميتها في بابها وجمعها كل ما يمكن أن يقال في مثل هذا الحال أتينا على درجها هنا، وقد صدق من قال: إن كلام الملوك ملوك الكلام، وها هي :

« يا أيها الأعيان والمبعوثان،

إنني أبث الممنونية بافتتاح المجلس العمومي الذي اجتمع المرّة الأولى في دولتنا العلية، وجميعكم تعلمون أن ترقي شوكة واقتدار الدول والملل إنما هو قائم بواسطة العدالة ، حتى أن ما انتشر في العالم من قوّة دولتنا العلية وقدرتها في أوائل ظهورها كان من مراعاة العدل في أمر الحكومة ومراعاة حق ومنفعة كل صنف من صنوف التبعة، وقد عرف الناس أجمع تلك المساعدات التي أبداها أحد أجدادنا العظام المرحوم السلطان محمد خان الفاتح في مطلب حرّية الدين والمذهب، وكافة أسلافنا العظام أيضاً قد سلكوا على هذا الأثر فلم يقع في هذا المطلب خلل بوقت من الأوقات وغير منكر أن المحافظة منذ ستمائة عام على ألسنة صنوف تبعتنا ومليتهم ومذاهبهم كانت النتيجة الطبيعية لهذه القضية العادلة، والحاصل بينما كانت ثروة الدولة والملة وسعادتهما صاعدتين في درجة الترقي في تلك الأعصار والأزمان بظل حماية العدالة ووقاية القوانين، أخذنا بالإنحطاط تدريجياً بسبب قلة الانقياد للشرع الشريف والقوانين الموضوعة وتبدّلت تلك القوّة بالضعف، وقصارى الأمر أن المرحوم والدي الأكبر السلطان محمود خان أزال عدم الانتظام الذي هو العلة الكبرى للانحطاط الذي طرأ منذ أعصار على دولتنا، ورفع من الوجود عائلة الانكشارية المتولدة منه وقلع شوك الفساد والاختلال الذي مزق جسم الدولة والملة، وكان هو السابق لفتح باب إدخال مدنية أوروبا الحاضرة إلى ملكنا. وهكذا والدي الماجد المرحوم عبد المجيد خان قد اقتفى هذا الأثر فأعلن أساس التنظيمات الخيرية المتكفلة بالمحافظة على نفوس أهالينا وأموالهم وأعراضهم وناموسهم ومنذ ذلك اليوم اتسعت تجارة ممالكنا وزراعتها وزادت واردات دولتنا أضعافاً في أمد قليل، ومن ثم وضعت القوانين والنظامات التي هي مدار لما يعوزنا من الإصلاحات وأخذ تحصيل المعارف والفنون بالامتداد وبينما شبّ في دولتنا

أمل النجاح بناء على هذه المقدّمات الحسنة ولا سيما بناء على الأمنية الداخلية ظهرت حرب القريم[1]، فكان ظهورها مانعاً لدوام المساعي بتنظيم أحوال الملك والتبعة ومع أن خزينة دولتنا كانت حتى ذلك الوقت غير مديونة للخارج بقرش واحد اضطررنا للاستقراض الخارجي دفعاً للاحتياج والضرورة، فتعذر والحالة هذه تقابل وارداتنا مع مصاريف الحرب المبرمة وبهذا السبب فتح باب الدين، نعم انه في هذه المسألة بواسطة اتفاق الدول المفخمة التي صادقت على مشروعية حقوقنا وبانضمام معاوناتها الكاملة الفعلية التي لا تبرح مدى الدهر زينة لصحائف التواريخ، قد أنتجت الحرب تلك المصالحة التي وضعت تمام ملكية دولتنا واستقلالها تحت ضمان دول أوروبا العهدي وغلب على الظنّ أن هذه المصالحة قد مهدت لمستقبلنا زماناً مساعداً على وضع أعمالنا الداخلية في طريقها وسلوك جادّة الترقي الحقيقي، إنما الأحوال المتعاقبة ساقتنا بكليتنا إلى عكس ذلك الانتظار. والأمل أن توالي الحوادث الداخلية المتتابعة الظهور بمفاعيل التحريكات والتسويلات لم تخوّلنا وقتاً للنظر في إصلاحات ملكنا وتنظيماته بل أوقعت زراعتنا وتجارتنا في وقوف عظيم لاضطرارنا في كل عام لجمع معسكرات فوق العادة في أنحاء مختلفة ووضع الصنف الأكثر نفعاً من أهالينا تحت السلاح، وأمر مسلم ومعلوم أنه مع كل ما صادفنا من المشاكل والموانع قد قطعنا مادياً وأدبياً مسافة كلية في سبيل النجاح وتزايد وارداتنا على التوالي منذ عشرين عاماً دليل على ترقي المملكة وازدياد رفاهية حال الأهالي ثم وإن كانت المضايقة الحاضرة قد تولدت من الأحوال التي عددناها، فمع هذا كان ممكناً تخفيف غائلة الضرورة وحفظ الاعتبار المالي لوسلكنا في الإدارة المالية طريقاًقويماً، بيد أنه كل ما اتخذ من التدبير المالي في صورة الإصلاحات لم يصلح الحال وإنما زاد العمل إثقالاً وقد طلبت الاستفادة من الحال قبل التفكر ماذا يكون الاستقبال؟ فدوام هذه الغوائل وتعاقبها من الجهة الواحدة ومداركة وإنشاء الأدوات والأسلحة الجديدة الحربية التي هي أعظم أسباب شوكة دولتنا واقتدارها، وعدم وضع وارداتنا ومصاريفنا تحت موازنة اقتصادية من الجهة

---

(١) يكتب الأتراك القرم أحياناً بالياء.

الأخرى،أفضتا إلى انتقاض إدارتنا المالية درجة فدرجة فأنتجت ما نحن فيه الآن من المضايقة الخارقة للعادة. وأعقب ذلك ظهور وقوعات هرسك المنبعثة من أثر الفساد والتحريك التي تجسمت أخيراً. ثم افتتحت بغتة محاربات بلاد الصرب والجبل الأسود وظهرت في عالم السياسة أيضاً فتن واختلالات كبيرة وفي ذلك الزمان الذي فيه تهوّرت دولتنا في بحران عظيم وقع جلوسنا بإرادة جناب الحق الأزلية على تخت أجدادنا العظام ولما كانت درجة المخاطر والمشكلات التي حاقت بأحوالنا العمومية غير قابلة القياس مع ما تقدّمها من الغوائل التي تهوّرت بها دولتنا حتى الآن قد اضطررت لأجل المحافظة قبل كل شيء على حقوقنا أن أزيد معسكراتنا في جميع الجهات حتى وضعت تحت السلاح نحو ستمائة ألف عسكري لاعتقادي بأن ملاشاة هذه الاختباطات[1] بالكلية واستئصالها بعون الله تعالى والتفتيش على طريقة لإصلاحات مهمة في دولتنا نضع بواسطتها مستقبلنا تحت الأمنية المتمادية إنما هو فرض على ذمتي وأمر واضح بأنه إذا نهجنا في الإدارة سبيلاً حسناً ستتقدم بأقرب وقت تقدّماً كبيراً في النجاح بحسب القابلية التي أحسن بها الحق تعالى على ملكنا وبحسب الاستعداد المتصفة به أهالينا وأمر محقق أن تأخرنا عن اللحوق[2] والترقيات الحاضرة في عالم المدنية كان لإهمالنا المداومة على الإصلاحات المحتاج ملكنا إليها، ولعدم المثابرة على القوانين والنظامات المتعلقة بها. ومنشأ ذلك ليس هو إلا صدور هذه الأشياء من يد الحكومة الاستبدادية بدون استناد على قاعدة المشورة. والحال أن ترقي الدول المتمدّنة ونجاحها وأمنية الممالك وعمرانها إنما هو ثمرة تأسيس مصالحها وقوانينها العمومية بالاتفاق وإجماع الآراء كما هو مسلم، فبناء عليه رأيت أن تحرّي أسباب الترقي في هذه الطريق واستناد قوانين المملكة على الآراء العمومية هو ألزم مالدينا، فلذاقد أعلنت القانون الأساسي. أمامقصدنا من تأسيسه فليس هو عبارة عن دعوة الأهالي للحضور في رؤية المصالح العمومية وإنما بالأحرى

---

(١) القصد من ملاشاة هذه الاختباطات : القضاء على الاضطرابات .

(٢) لعله يريد بهذه الجملة أن يقول : إن تأخرنا عن اللحاق بالترقيات الحاضرة ...

لاعتقادنا القطعي بأن هذه الأصول هي وسيلة مستقلة لإصلاح إدارة ممالكنا ومحو سوء الاستعمالات واستئصال قاعدة الاستبداد وفضلاً عما في هذا القانون الأساسي من الفوائد الأصلية فهو كذلك مهَّد لأساس حصول الاتحاد والأخوة بين الأنام، وجامع لمقصد تأسيس أمر الائتلاف والسعادة بين الخاص والعام. أما أجدادنا العظام ففي الفتوحات التي وفقوا إليها قد جمعوا تحت حكومتهم في هذه الدولة الوسيعة الممالك أقواماً عديدة فلم يبق سوى أمر واحد فقط، وهو ربط هذه الأقوام المختلفة اختلافاً كلياً في الأديان والأجناس بقانون مفرد وحسن مشترك. وحيث قد تيسر الآن هذا الأمر بعون جناب الحق الذي لا نهاية لألطافه ومقدرته الإلهية فيقتضي إذاً من الآن فصاعداً أن تكون كافة تبعتنا أولاد وطن واحد يعيشون بأجمعهم تحت جناح حماية قانون واحد وينعتون بالعنوان المخصوص منذ ما ينيف عن ستمائة سنة لأهل بيت سلطنتنا السنية المسطر كثير من آثار شوكتهم في صحف تواريخ البرية مؤملاً أن الاسم العثماني الذي ما برح حتى الآن علم القوة والاقتدار[1] المشتهر، يكون من بعد الآن شاملاً لدوام المنافع المختلفة الموجودة بين جميع تبعتنا وحفظها وحيث أنني بناء على ما ذكر من الأسباب والمقاصد قد عزمت عزماً ثابتاً على أن أنهج السبيل الذي سلكته، ولا آلو جهداً في توطيده وتشييده، فأترقب منكم إذاً المعاونة فعلاً وعقلاً للإستفادة من مشروع القانون الأساسي الذي بني على قاعدتي العدل والسلامة، والمفروض عليكم إذاً القيام بأعباء الوظائف القانونية المحوّلة لعهدتكم وحميتكم بصداقة واستقامة بدون احتراز من أحد، غير ملتفتين إلى شيء آخر سوى سلامة دولتنا ومملكتنا وسعادتهما لأن ما يعوزنا اليوم من الاصلاحات وما يترقب الجميع اتخاذه في ملكنا من التنظيمات هو في غاية الأهمية والاعتناء وبما أن وضع ذلك على الفور في موقع الإجراء مرهون على اتفاقكم بالأفكار والآراء فلذا شورى الدولة مثابر الآن على تنظيم لوائح القوانين اللازمة، لكي تتحول في اجتماعكم في هذه السنة إلى مجلسكم لأجل المذاكرة،

(١) في الافرنسية مثل يقول : Fort comme un Turc أي قوي مثل تركي . فكان الأتراك مضرب المثل في القوة .

وهي لائحة نظامات داخلية مجلسكم ولوائح قانون الانتخاب وقانون الولايات وإدارة النواحي العمومي وقانون الدوائر البلدية وقوانين أصول المحاكمات المدنية وترتيب المحاكم وصورة ترقي الحكام وتقاعدهم ووظائف عموم المأمورين وحق تقاعدهم، وقوانين المطبوعات وديوان المحاسبات ولائحة قانون ميزانية السنة السابقة، فمطلوبنا القطعي والحالة هذه مطالعة هذه القوانين بالتتابع والمذاكرة عليها وإعطاء قراراتها وكما أن النظر عاجلاً في إصلاحات وتنظيمات المحاكم والعساكر الضبطية اللتين هما الواسطة المستقلة لتأمين حقوق العموم من أهمّ ما يلزم، فوضع ذلك في موقع الإجراء أيضاً متوقف على توسيع مخصصاتهما المقررة وتزييدها. ومن حيث أن ادارتنا المالية قد أمست عرضة للعسر والمشاكل الكثيرة حسبما يتضح لديكم من الميزانية المعطاة إلى مجلسكم فأوصيكم أن تسعوا مهتمين بالاتفاق لتعيين التدابير التي تهدينا قبل كل شيء إلى التخلص من هذه المشاكل وإلى وسائل إعادة اعتبار ماليتنا، ومن ثم لتعيين تلك التخصيصات التي تخرج هذه الإصلاحات المستعجلة إلى الفعل. ولما كان ترقي الزراعة والصناعة اللتين هما من أعظم الإصلاحات والاحتياجات في ملكنا وتبعتنا وإيصال المدنية والثروة إلى درجة الكمال موقوفاً على قوة المعارف والعلوم فستعطى بمنّه تعالى إلى مجلسكم في اجتماع السنة الآتية لوائح القوانين المتعلقة بإصلاح المكاتب[1] وبتنظيم درجات لتحصيل وبما أن حصول تأثيرات أحكام القوانين على الوجه الأتم سواء أكانت القوانين المذكورة أعلاه أو القوانين التي توضع من الآن فصاعداً في موقع الإجراء يتوقف على وضع أقضية انتخاب مأموري الإدارة تحت أهمية عظيمة، فهيئة دولتنا ستمعن نظر التدقيق المخصوص في هذا المطلب، وفي مطلب صورة مكافأة وحماية المأمورين المتصفين بالعفة والاستقامة اللتين ضمنهما القانون الأساسي، وحيث كانت قضية انتخاب المأمورين ذات بال وأهمية لدينا اعتمدنا على تأسيس مكتب مخصوص تكون مصاريفه من خزينتنا الخاصة لمقصد الحصول على مأمورين جديرين بالإدارة العمومية على وجه أن تلامذته تقبل في مأموريات الإدارة والسياسة

(١) أي المدارس

حتى الدرجةالعليا، ويدخل إليه من كل صنوف تبعتنا بدون استثناء مذهبي، وترقيهم يكون بحسب درجة أهليتهم كما يتضح من نظامه الأساسي المعلن قبلاً. وقد وقع لدينا موقع التقدير والتحسين في صورة خارقة للعادة ما أبدته عموم تبعتنا الصادقة من آثار الحمية وما تحملته جنودنا من أنواع المتاعب والمشاق المشفوعة بالغيرة والبسالة في أثناء الغوائل الداخلية التى تهوّرنا بها منذ عامين تقريباً، ولا سيما في أثناء الحرب مع الصرب والجبل الأسود على أن تشبثاتنا المجردة لمحافظة حقوقنا في هذه الحوادث قد أنتجت استحصال قرار مصلحة الصرب والمذاكرات الجارية مع الجبل الأسود، وسيتحوّل لمطالعتكم في اجتماع مجلسكم المرّة الأولى ما تتخذه من المعاملات بناء على تلك المذاكرات فأوصيكم إذاً بتعجيل قراراتها. أما السلوك مع الدول المتحابة بالصداقة والرعاية. لما كان من أهمّ المعاملات المألوفة والمعتنى بها لدى دولتنا، فلم نزل اليوم حريصين على مراعاة هذه القاعدة الودادية. ولما طلبت انكلترا منذ بضعة شهور عقد مؤتمر في مقرّ سعادتنا لأجل المسائل الحاضرة وروّجت كافة الدول المعظمة أيضاً أساسات هذا الطلب والاقتراح وافق بابنا العالي على عقده نعم أنه لم يأت هذا الاجتماع باتفاق قطعي، ولكن ما تأخرنا عن إثبات نوايانا الخالصة وإظهارها بإجراء مـأثوراتهم ونصائحهم الموافقة لأحكام معاهدات الدول ولقواعد الملل وحقوقها ولمقتضيات أحوالنا وحقوقنا المبرمة. أما أسباب عدم الاتفاق فلم تكن في الأساس، وإنما بالأحرى كانت في صور الإجراءآت وأشكالها لاستحساننا أساسياً لزوم إيصال الترقيات الكلية التي وقعت منذ بداية التنظيمات حتى الآن في أحوال مملكتنا العمومية وفي إدارة كل شعبة من شعب دولتنا إلى حال أكمل، ولم تزل مساعينا حتى اليوم مصروفة لهذا المقصد، على أن وظيفتي التوقي من الأحوال التي تخل بشأن مملكتنا واستقلالها. وقد تركت إثبات صدق نيتي وسلامتها لدى الجميع إلى تمادي الأيام والزمان. أما النتائج التي ولدتها هذه الحال فقد أفضت بي إلى زيادة التأسف وزوالها سريعاً مما يكفل بكمال ممنونيتي على أن مقصدنا في جميع الأوقات مقصور على دوام السلوك في منهج المحافظة على استقلالية حقوقنا، وسيكون هذا المسلك مركز النظر في تصرّفاتنا الآتية وأؤمل أن مآثر الاعتدال وحسن النية التي أظهرتهما دولتنا قبل انعقاد المؤتمر وبعده تتكفل

بمضاعفة حسن المعاشرة والمناسبات الودادية الرابطة سلطنتنا السنية بجمعية الدول الأوروباوية ،ونسأل حضرة الحق المتعال أن يجعل مساعينا جميعاً مظهراً للتوفيق في كافة الأحوال اهـ».



حرب الروسيا وبيان أسباب لائحة الكونت اندراسي [1]

وفي أوائل سنة ١٨٧٥ هاجت الخواطر في بلاد الهرسك بناء على تحريض مجاوريها من الصرب وسكان الجبل الأسود طلباً للاستقلال الإداري مثل الأمارتين المذكورتين، وربما كان للنمسا يد في هذه الفتنة إذ كان مطمح أنظارها الاستيلاء على ولايتي البوسنة والهرسك معاً لمجاورتهما لبلادها فقدّم أهالي الهرسك أوّلاً عريضة للباب العالي يطلبون تخفيض الضرائب الحالية عموماً، وبدلية العسكرية [2]

---

(١) سياسي مجري شهير ولد سنة ١٨٢٣ وتربى في مدرسة (بودابست) الكلية واشتغل بالسياسة. وفي سنة ١٨٤٨ كان من أهم دعاة الثورة وساعد المسيو (كسوث) على طلب الحرية والمحاربة للحصول عليها. وفي أثناء الثورة سافر الى الاستانة وتحصل من جلالة السلطان عبد المجيد على وعد بالمساعدة ومنها قصد بلاد الانكليز وهناك وصله خبر الحكم عليه بالاعدام غيابياً فلم يجسر بالعودة الى بلاده وبعد أن أقام خارجاً عنها نحو عشر سنوات أذن له بالرجوع اليها فعاد الى وطنه سنة ١٨٥٩ ولما تم الوفاق بين المجر والنمسا على أن يكون لكل من الأمتين حكومة مستقلة ومجلس نواب مخصوص انتخب اندراسي وكيلا لمجلس الأمة ثم رئيساً لمجلس وزراء المجر وحضر بهذه الصفة تتويج فرنسوا جوزيف ملكاً على المجر. ثم عين وزيراً لخارجية النمسا والمجر سنة ١٨٧١. ولما انتشبت الحرب التركية الروسية سنة ١٨٧٧ لزم الحياد ولم يساعد الدولة العثمانية حسب رغبه أهالي المجر فنفر أبناء وطنه منه ودعوه بخائن الوطن لاختلاسه ولايتي البوسنه والهرسك منها بدون حق. ثم أبرم مع ألمانيا التحالف الذي صار ثلاثياً بانضمام ايتاليا اليه واستقال من الأشغال سنة ١٨٧٨ طلباً للراحة، وتوفي سنة ١٨٩٠ .

(٢) البدلية العسكرية هـي أن يدفع من وجبت عليه خدمة العلم مبلغاً معيناً من المال ليعفى نفسه من الخدمة وهي طريقة مستعملة في كثير من بلاد العالم (المحقق) .

خصوصاً. وأن يعدهم السلطان وعداً صريحاً بعدم ترتيب ضرائب جديدة عليهم في المستقبل وأن يشكل لبلادهم بوليس خصوصي (جندرمه)[1] من أهالي البلاد. فلم يجبهم الباب العالي لطلباتهم بل عزز الحامية، ولما تظاهر الأهالي بالعصيان وأشهروا السلاح ضد عساكر الدولة أصدرت أوامرها بقمعهم فوراً فأخمدت الثورة رغماً عن مساعدة الصرب والجبليين لهم سرّاً وعلناً وتعضيد جمعيات الصقالبة إياهم بالمال والسلاح.

وفي ١٢ دسمبر سنة ١٨٧٥ قضت المراحم السلطانية بتسكين خاطرهم فأصدر فرماناً بفصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية وتعيين قضاة من الأهالي بطريق الانتخاب وتوحيد الضرائب والمساواة فيها بين المسيحيين والمسلمين لكن أبت الدسائس الخارجية وعصب الصقالبة إلا استمرار القتال لاشتغال الدولة في الداخل وإضعاف جيوشها، فلم يذعن الثائرون بل تمادوا في غيهم وطلبوا أول كل شيء انجلاء العساكر التركية عن جميع بلادهم كما انجلت عن بلاد الصرب واستمرّ القتال بينهم وبين الجنود العثمانية التي كان يقودها دولتلو الغازي مختار باشا إلى النصر حتى لم يقو الثائرون على الوقوف أمامهم، ولما رأت النمسا أن الثورة قد انطفأت أو كادت، ولم يعد لها سبيل للتدخل عسكرياً تنفيذاً لمآربها كما سترى، أوعز الكونت اندراسي وزيرها الأول إلى ألمانيا والروسيا بالاشتراك معها في تحرير لائحة سياسية إلى الباب العالي بتعضيد طلبات الثائرين.

وبعد تبادل المخابرات بين هاته الدول اتفق رأيها على تحرير هذه اللائحة المسماة في كتب السياسة بلائحة الكونت اندراسي، لكن تقرر أن يكون إرسالها للدول الغربية، أعني فرنسا وانكلترا لا للباب العالي. وأرسلت لهما فعلاً مؤرخة ٣٠ دسمبر سنة ١٨٧٥ فطلبت الدولة العلية من انكلترا تبليغها الصورة المرسلة إليها لترى فيها

---

(١) البوليس هو غير الجندرمه. فالبوليس هو الذي يسمى اليوم بالشرطي وهو موظف مدني ويعمل داخل المدن. والجندرمه هو الذي يسمى دركي وهو موظف مدني أيضاً ولكن عمله يكون خارج المدن أي في الأرياف. وفي بعض البلاد لا يوجد درك بل تقوم الشرطة مقامهم (المحقق).

رأيها، فبلغتها إليها سفارة انكلترا في الأستانة بصفة غير رسمية .

وأهم ما جاء بها أن الدول ترغب تشكيل قومسيون[1] من أهالي الهرسك يكون نصفه من المسيحيين والآخر من المسلمين لمراقبة تنفيذ ما جاء في الفرمان السلطاني المؤرخ ١٢ دسمبر السابق ذكره ،وأن يتعهد السلطان لجميع الدول بإجراء ما ذكر في الفرمان المذكور من الإصلاحات .

وبعد اطلاع أرباب السياسة في الأستانة على هذه اللائحة ارتأى السلطان الموافقة على ما بها حسماً للنزاع وحتى لا يكون للدول سبيل للتدخل بصفة أشدّ،وزيادة على ذلك فقد أصدر الخليفة الأعظم عفواً عاماً عن جميع المتهمين والمشتركين في هذه الثورة،ومن الغريب أن أهالي البوسنة والهرسك لم يقبلوا هذا العفو العمومي بل أصرّوا على طلب انجلاء الجنود الشاهانية عن بلادهم أو بالأقل يكون احتلالها قاصراً على بعض قلاع وحصون معينة.وأن يملك ثلث الأراضي للمسيحيين وأن يعفوا من الضرائب مدّة ثلاث سنوات،وأن تدفع لهم الحكومة العثمانية تعويضاً عما هدم من البيوت والكنائس أثناء الحرب،بشرط أن يكون دفع هذه التعويضات للجنة أوروباوية .

وعقب ذلك بقليل حدث بمدينة سلانيك حادثة نسبها الأوروبيون إلى تعصب الإسلام الديني،مع أن منشأها تعصب المسيحيين ضدّ المسلمين وتعرّضهم للحرية الدينية التي يتظاهرون دائماً بالدفاع عنها إيهاماً وتغريراً،لتكون لهم حجة للتدخل في بلاد الشرق وتفريق الكلمة بين الشرقيين فيسهل استيلاؤهم على بلادهم .

حادثة سلانيك ولائحة برلين

وتفصيل هذه الحادثة أن فتاة بلغارية مسيحية اعتنقت الدين الحنيفي الإسلامي طائعة مختارة وأتت إلى سلانيك في ٥ مايو سنة ١٨٧٦ لإثبات إسلامها شرعاً، فتعرّض لها بعض أوباش الأروام في الطريق حين توجهها إلى دار الحكومة واختطفوها من أيدي المحافظين عليها بالقوّة، وأخفوها أوّلاً في محل قنصلاتو أمريكا ثم في

---

(١) قوميسون : أي لجنة .

أحد بيوت كبرائهم ،ولما اشتهر هذا الخبر بين المسلمين هاجوا وماجوا وتجمعوا في فسحة دار الحكومة طالبين البحث عن البنت وتخليصها من أيدي المخفين لها،فوعدهم الوالي بإجراء شؤون وظيفته. ثم لما رأى المسلمون عدم نجاح بحث الحكومة تجمعوا ثانياً في اليوم الثاني في أحد الجوامع مشدّدين النكير على الحكومة. وفي أثناء هذا الهياج حضر قنصلا فرنسا وألمانيا ويقال إنهما دخلا الجامع ،ولتواتر الإشاعة بأن البنت في بيت قنصل ألمانيا ازداد الهياج وفي أقل من القليل بلغت الحدّة منتهاها من المجتمعين وتعدّوا على القنصلين بالقتل .

ولما وصل خبر هذه الحادثة إلى الدول اضطرب وزراؤها وتبادلوا المخابرات البرقية للاتفاق على اتخاذ سببٍ للتدخل .

وفي ١١ منه اجتمع البرنس غورشاكوف وزير الروسيا والكونت أندراسي وزير النمسا بالبرنس دي بسمارك بمدينة برلين وأخذوا في المداولة معاً يومي ١١ و١٢ منه. وفي ١٣ منه حرروا لائحة إلى الباب العالي معروفة في كتب السياسة بلائحة برلين، وصدّقت عليها دولتا ايتاليا وفرنسا، مفادها التشديد على الباب العالي بتنفيذ ما جاء في الفرمان السلطاني المؤرخ ١٢ دسمبر سنة ١٨٧٥ وتعيين مجلس دولي لمراقبة تنفيذه وإجراء كل ما فيه إصلاح حال المسيحيين في هذه الولايات وأن تبرم الدولة مع الثائرين هدنة قدرها شهران أو ستة أسابيع على الأقل للوصول إلى اتفاق مرضٍ لهم، وأنه إن لم تتفق مع الثائرين في خلال هذه الهدنة تكون الدول الموقعة عليها مضطرة لاستعمال القوّة لإجبار الباب العالي على تنفيذ هذه اللائحة. فيرى في ذلك المطالع أن الدول كانت متفقة على محاربة الدولة لتقسيم أملاكها فيما بينهم أو بالأقل سلخ جميع الولايات التي بها مسيحيون،إذ أن الدول المسيحية لا يمكنها أن تخفي تألمها من وجود بعض المسيحيين تحت سلطة المسلمين، فالمسألة إذن كما ذكرنا وكرّرنا سياسية دينية أو بالحري دينية أكثر منها سياسية .

هذا أما الباب العالي فلم يقبل هذه الطلبات المجحفة بحقوقه على رعاياه ولم يرعه هذا التهديد والوعيد، لعلمه أنه يبعد اتفاق الدول على العمل لاختلاف أطماعها، ولعدم موافقة انكلترا على هذه اللائحة .

ثورة البلغار وجواب اللورد دربي

لا يخفى أن كثيراً من أعيان الروس وأعضاء العائلة الملوكية بها شكلوا عدّة جمعيات لنشر النفوذ الروسي بين الطوائف التي تنسب حقيقة أو قولاً إلى العنصر الصقالبي (السلافي) ومن أكبر رؤسائها الجنرال أغناتيف الشهير ، وقد بذلت هذه الجمعيات المعضدة من نفس الإمبراطور والحكومة مساعيها لإثارة البوسنه والهرسك فنجحت كما رأيت وسترى،وكان لها عدّة فروع في بلاد البلغار لتوزيع المال والسلاح سراً على المسيحيين من سكانها وتحريضهم على عصيان الدولة وطلب الإستقلال.ولها أيضاً مركز مهم في مدينة « ويانة » عاصمة النمسا كانت ترسل منها الأسلحة وغيرها عن طريق رومانيا ،مما يثبت أن للنمسا ضلعاً في هذه الحركات العصيانية.وبهذه المساعي الخبيثة الشيطانية كفر البلغاريون نعمة الدولة عليهم التي لم تتصدّ لهم في بادىء الأمر بتغيير دينهم أو إماتة لغتهم،بل ساعدتهم بعدم تعرضها لهم على حفظ جنسيتهم (قوميتهم) وقاموا يطالبون بالاستقلال بناء على إيعاز أرباب الدسائس من الأجانب.وحيث كانت الدولة أنزلت ببلاد البلغار بعض عائلات الجركس المهاجرين هرباً من حكومة الروسيا والاحتماء تحت ظل جلالة الخليفة الأعظم فقد أفهم المهيجون البلغاريين أن الدولة تبغي إقطاع أراضيهم لهؤلاء الجراكسة واستبعاد المسيحيين لهم، فحصلت عدّة حركات عصيانية في سبتمبر واكتوبر سنة ١٨٧٥ أطفئت بسرعة، وأرسلت الدولة عدّة ألايات من الباشبوزوق منعاً لعودة الثائرين للعصيان.وفي أوائل شهر ابريل سنة ١٨٧٦ أتى إلى البلغار عدد عظيم من دعاة الثورة والفساد وعقدوا اجتماعاً في إحدى مدنها حضره مندبون من اللجان المركزية في ويانة وبخارست عاصمة رومانيا، التي كانت لم تزل تحت

سيادة الدولة العلية ،وقرروا جميعاً في هذا النادي وجوب المبادرة إلى إثارة العصيان مغررين البلغاريين بأن الروسيا مستعدّة لمدّهم بالجيوش لو تغلبت عليهم جيوش الدولة وتدفع لهم أيضاً قيمة ما يتلف من مساكنهم ومزروعاتهم ،وأن يكون ابتداء الثورة قتل المسلمين وإيقاد النار في مدينة أدرنة في مائة موضع وفي مدينة فيليبه في ستين موضعاً ،ثم يهجم ثلاثة آلاف نفر على مدينة بازار جق .

وفي أول مايو سنة ١٨٧٦ نفذ أغلب هذا القرار وحصلت عدّة مذابح في كثير من القرى قتل فيها كثير من المسلمين لتجردهم عن السلاح وعدم إمكانهم ردّ القوة بمثلها ولما وصل هذا الخبر إلى الوالي أرسل إلى الأستانة يطلب الجيوش لاتساع نطاق الثورة شيئاً فشيئاً وعدم كفاية العساكر الموجودة تحت أمره، ثم وزع كثيراً من الأسلحة على المسلمين ونظمهم بهيئة رديف[1]. ولما أتى إليه المدد أمكنه قمع الثورة بواسطة الألايات المنتظمة والباشبوزوق والرديف واستعمال الشدّة مع من يضبط من الثائرين .ولما كادت تخيب مساعي دعاة الفساد أشاعوا بأوروبا أن العساكر العثمانية ارتكبت مالا يرتكبه المتبربرون وأسدلوا غطاء الغرض على ما اقترفه البلغاريون من قتل المسلمين في بادىء الأمر، وهولوا في المسألة وجعلوا الحبة قبة ليستميلوا الرأي الأوروبي اليهم وفتح المسألة الشرقية، وتكلم بعض وزراء الدول بما يمس كرامة الدولة العلية في مجالس نوابهم وشدّدوا عليها النكير خصوصاً المستر غلادستون زعيم حزب الأحرار ببلاد الانكليز ، فإنه ألقى الخطب الرنانة وألف الرسائل المطولة طعناً على الدولة ناسباً إليها ما لم يسمع بمثله في التاريخ ،ناسياً ما فعلته حكومة بلادهم مع الإيرلانديين وأهالي أوستراليا الأصليين الذين أعدمتهم عساكرها والمهاجرون من سكانها رمياً بالرصاص، وبهذه المساعي الخبيثة هاج الرأي العام خصوصاً في انكلترا ضد الدولة العلية حتى أرسل اللورد دربي ناظر خارجية انكلترا رقيماً إلى السير هنري ليوث سفيرها بالأستانة بتاريخ ١٨ سبتمبر سنة ١٨٧٦ ضمّنه خلاصة تقرير كان أرسله المستر بارنج سكرتير سفارة انكلترا بالأستانة الذي كلف بتحقيق ما نسب للمسلمين،

---

(١) الرديف هو الاحتياط .

وأمره في آخر هذا الرقيم بعد لوم الدولة على ما ينسبه الأجانب إليها من التقصير أن يطلب مواجهة السلطان عبد الحميد الذي جلس منذ قريب على تخت السلطنة العثمانية ويطلب منه باسم ملكة دولة انكلترا التعويض على الثائرين وبناء ما هدم من الكنائس والبيوت على مصاريف الدولة ومساعدة الأهالي الذين اشتد بهم الفقر على إعادة الأعمال ومجازاة المأمورين الذين أمروا بإجراء هذه الفظائع وإناطة إدارة هذه البلاد لوال عادل ذي همة ونشاط بشرط أن يكون مسيحياً. وإن كان مسلماً فيكون له مستشارون من المسيحيين يمكن النصارى من السكان الاعتماد عليهم والثقة بهم إلى آخر ما جاء بهذا الرقيم المسطر في الكتاب الأزرق، وإليك نصه نقلاً عن مجموعة الجوائب :

«قد وصل إلى دولة سعادة الملكة محرراتكم عدد ٩٦٤ في خامس هذا الشهر، جملتها نسخة من تقرير مستر بارنغ المشتمل على استقصائه عن المنكر الذي جرى منذ قريب على النصارى سكان البلغار وكانت الدولة مترقبة من سباق تقرير المومأ إليه الذي بعثتم به أن تسمع بأن الجرائر التي اقترفها الباشبوزوق والجراكسة في تلك البلاد كانت فظيعة، فيسوءها الآن أن تعلم من هذا التقرير التام أن ما كانت ترقبه كان في محله ثم أن بعض الأخبار التي شاعت بخصوص هذه الجرائم وإن كان غير صحيح إلا أنه لم يبق ريب في أن تصرّف والي أدرنه بكونه أمر جميع المسلمين بان يتقلدوا السلاح هو الذي سبب حشد قوم من الفتاك واللصوص فارتكبوا الجرائم، بدعوى أنهم يحاولون إطفاء الفتنة. وهذه الجرائم وصفها المستر بارنغ بأنها أفظع شيء شان تواريخ هذا القرن. وقد تبين أيضاً أن أكثر أصحاب الأمر والنهي في الولاية قد أجازوا هذا المنكر أو غضوا النظر عنه فلم يبالوا بإصلاح الحال أو أنهم أصلحوا مالا يعبأ به. ومع أنه قبض على ١٩٥٦ نفس من البلغاريين لاشتراكهم في العصيان الذي لم يقارنه خطر فلم تجر عقوبة على قتله الرجال الذين لم يوجد معهم سلاح وعلى قتلة النساء والأولاد إلا عشرين نفساً منهم، فالظاهر أن أصحاب الأمر والنهي في الأستانة لم يطع لهم أمر وأنهم لم يطلعوا على حقيقة الحال، وما كان لدولة الملكة أن تظن أنه من الممكن أن الباب العالي يرقي أولئك

المأمورين الذين أفعالهم معرّة وضرر على المملكة العثمانية ،أو أنه يمنحهم نياشين.
وقد روي أن القتل الذي جرى في باتاق[1] كان في ٩ مايو الماضي وبقي إلى ٢١ من جولاي (تموز) مكتوماً عن الباب العالي أو غير مبال به،فلم يعرف هذا الأمر إلا من تقرير مستر بارنغ المذكور،حيث علم منه أن ثمانين نفساً من النساء والبنات أخذن إلى قرى المسلمين وذكر أسماءها ولم يزلن فيها وإن جثث المقتولين بقيت غير مدفونة وما أحد بذل الجهد في الاطلاع على مرتكب هذه الشرور.ولا حاجة لي هنا إلى إيراد ما فصله مستر بارنغ في تقريره،مما يدل على أن أهل هذه الولاية المنحوسة كانوا هدفاً للاعمال الصادرة عن غلوّ ونهب وسلب.وما بدا حتى الآن سعي بليغ في تعويض هؤلاء المضيمين عن الضرر الذي لحق بهم ولا في تأمينهم في المستقبل إذ لم يرجع إليهم ما فقدوه من الماشية والأمتعة ولم تزل كنائسهم وبيوتهم خراباً وهم يتضوّرون جوعاً،وقد هلك عنهم رزقهم من الحرث والأعمال.
وما بقي من قراهم سالماً يأمن من أن يأتي عليه ما أتى على القرى الخربة ولم يزل العدوان فاشياً كما اعترف به مدير عورت[2] الآن والباب العالي عاجز أو متقاعس، وقد اخبرت جنابكم بما أحدثه شيوع هذه الشنائع من أهل بريطانيا من الغيظ المحنق وعندي من اليقين أن مثل هذا الإحساس سرى أيضاً إلى جميع سكان أوروبا،فالآن أقول إن الباب العالي ليس في وسعه أن يغالب الأفكار العمومية في غير ممالكه ولا أن يظن أن دولة بريطانيا أو غيرها من الدول التي وقعت على معاهدة باريس تظهر عدم المبالاة بما أصاب فلاحي البلغار من الرزء والجور الناشىء عن الانتقام.ومهما يكن من الملاحظات السياسية فلا يمكن إباحة هذه الأفعال،فلا بد من التعويض على من أصيبوا بهذا الرزء وكفالة تأمينهم وسلامتهم في المستقبل،وهذا أحد الشروط التي ينبغي عليها حل المسائل المعترضة الآن،فمن أجل إبلاغ رأي دولتنا بنوع مؤثر إلى حضرة السلطان الذي جلس منذ قريب على

---

(١) باتاق Batak تقع في الجنوب الغربي من بلغاريا وعلى مقربة من الحدود اليونانية والحدود اليوگوسلافية (المحقق) .

(٢) لم أفهم ماذا يقصد من عورت ولعل هذا اللفظ اسم لجريدة أو مجلة .(المحقق)

تحت سلطنة العثمانية ، ينبغي أن تطلبوا مواجهته وتبلغوه على وفق مراد الدولة خلاصة تقرير مستر بارنغ وتذكروا له أسماء شوكت باشا وحافظ باشا وطوسون بك وأحمد أغا وغيرهم من المأمورين الذين صرّح بأعمالهم المنكرة، واطلبوا باسم الملكة ودولتها التعويض والعدالة وألحوا ببناء ما هدم من الكنائس والبيوت وبإسداء المساعدة اللازمة لإعادة الأعمال والأشغال ولإغاثة الذين حاق بهم الفقر، واذكروا على الخصوص أنه لا بد من البحث عن الثمانين امرأة وإعادتهنّ إلى أهلهنّ وكذلك ألحوا باجراء عبرة على الذين اشتركوا في تلك الأفعال الشنيعة أو تساهلوا فيها. وينبغي أن يمتحن أولئك الذين أعطوا نياشين ورتباً لأوهام باطلة في حقيقة سلوكهم وتصرّفهم ويجردوا عن منزلتهم إن كان ذلك لم يقع فعلاً، ويبذل السعي البليغ في إعادة الثقة والأمن، ولهذه الغاية يظهر من الصواب أن تلك الجهات التي جرى فيها الهرج والمرج تجعل تحت مأمور ذي همة وإقدام يعين لهذا الخصوص. فإذا لم يكن من النصارى يلزم أن يكون معه مشيرون منهم، بحيث تركن إليهم النصارى وتثق بهم. وهذا الأمر يكون مؤقتاً من دون أن يكون مانعاً لما تتفق عليه الدول في المستقبل. واذكروا أيضاً بكلام أكيد بليغ تهامل المأمورين في تلك الجهات وعدم الكفاية من استقصاء أديب أفندي ومن تقريره الذي أبلغ إلى الدول إبلاغاً رسمياً إذ لا يعتمد عليه. ومن أجل أن يكون طلبكم مفهوماً ا تركوا مع الصدر الأعظم عند انتهاء محاورتكم معه تذكرة هذه الملاحظات التي فوّضت إليكم بأمر الملكة لتعرضوها على مسامع السلطان».

الامضاء دربي

فليتأمل القارىء إلى نسبة التوحش للدولة التي لم تأت غير ما تأتيه غيرها من الدول لو حصلت بها ثورة داخلية، مع أن الروسيا ارتكبت وما زالت إلى الآن، ترتكب مع يهود بلادها ما لم يسمع به أيام تيمورلنك من الطرد والنهب والمصادرة، وكذلك مع أهالي بولونيا. وليتذكر المطالع ما فعلته فرنسا في الجزائر، والنمسا والروسيا معاً في بلاد المجر سنة ١٨٤٨، وما فعلته انكلترا نفسها في ايرلاندا، ويحكم بعد ذلك بأن دعوى دول أوروبا بنشر الحرية والمدافعة عنها حقيقة بالاعتبار أو أنها مجرّد شباك لا تقصد بها إلا التدخل في الشرق والتهامه قطعة بعد أخرى.

وتخليص المسيحيين منهم من سلطان المسلمين الذين ما ارتكبوا معهم إثماً إلا عدم التعرّض لدينهم ولغتهم والمحافظة على جنسيتهم فقوبلوا بالكفران .

حرب الصرب والجبل الأسود

قد علم القارىء مما سلف أن الروسيا كانت تسعى بالاشتراك مع باقي الدول المسيحية لإيجاد الاضطرابات الداخلية في بلاد الدولة العلية الإسلامية لإضعافها، ولما رأت أن مساعيها في البوسنه والهرسك من جهة وبلاد البلغار من جهة أخرى كادت تعود بالخيبة والفشل،أوعزت إلى أميري الصرب والجبل الأسود باعلان الحرب على الدولة حتى إذا حارباها وفازا عليها بالغلبة (الأمر لا يتصوره العقل) دخلت بجيوشها الجرارة في ميدان القتال وأتمت إذلال الدولة العلية حماها الله من مكايدهم.وإن نصر الله الجيوش الإسلامية على الصرب والجبل الأسود تدخلت الروسيا بجيوشها لمساعدتها ضدّ الدولة صاحبة السيادة عليهما، فكان قصد الروس حينئذ إعلان الحرب على الدولة باتفاق الدول،إن لم تكن جميعها فالمانيا والنمسا بالتحقيق،إذ كانت أنظار الأخيرة تطمح إلى توسيع حدودها من جهة بلاد البوسنه والهرسك. ويساعدها البرنس دي بسمارك وزير ألمانيا الأوّل على ذلك ليوجد للنمسا مصالح في الشرق ويجعل لها فائدة في المدافعة عن الأستانة من أن تحتلها الروسيا. ولا يظن القارىء أن عمل بسمارك هذا مبني على إخلاص للدولة العلية، معاذ الله،بل إنه يريد معاكسة الروسيا في الشرق وعدم تمكينها من احتلال الأستانة انتقاماً منها لمنعه عن محاربة فرنسا ثانياً سنة ١٨٧٥ للاجهاز عليها حين ما رأى نشأتها بعد حرب سنة ١٨٧٠ وسنة ١٨٧١ وقيامها بدفع الغرامة الحربية البالغ قدرها مائتي مليون جنيهاً قبل المواعيد المحدّدة في معاهدة فرانكفورت .

هذا ولما أوعز إلى الصرب والجبل الأسود بإعلان الحرب على الدولة أخذ أميراهما بالاستعداد وشراء الأسلحة والمدافع وجمع الجيوش وتدريبها، وأرسلت الروسيا أحد قوّادها الجنرال (تشرنايف) الذي فتح مدينة (تشقاند)[1] في

---

(١) مدينة قديمة اسلامية بأواسط آسيا كثيرة العمارة والتجارة يبلغ عدد سكانها ١٢٥ ألف =

أواسط بلاد آسيا إلى بلاد الصرب ليقود زمام جيوشها، فذهب إليها مع كثير من الضباط الروسيين الموظفين في الجيش العامل وكانوا يقالون مؤقتاً من خدمة الجيش الروسي للالتحاق بالجيش الصربي، وبذا كانت الروسيا هي التي تحارب الدولة العلية باسم الصرب. وكان الحال كذلك في إمارة الجبل. ولما رأت الدولة هذه الاستعدادات جمعت جيشاً جراراً مؤلفاً من أربعين ألف مقاتل بمدينة (نيش) لصدّ الصربيين لو تعدّوا الحدود.

وفي ٨ يونيه سنة ١٨٧٦ أرسل الباب العالي إلى أميري الصرب والجبل يطلب منهما الإفادة عن سبب جمع هذه الجيوش فأجابه بأن ذلك لمنع تعدّي قبائل الأرنؤود على حدودهم وحفظ الأمن في الداخل من جهة ولجمع الدولة جيوشها على حدود بلادهما من جهة أخرى، مع أن الدولة لم تجمع عساكرها إلا بعد أن آنست منهما العداء، ومع ذلك فاكتفت الدولة بهذا الجواب الركيك المعنى والمبنى.

ثم لما كملت استعدادات الإمارتين الحربية طلب البرنس ميلان أمير الصرب من الدولة أن تناط جيوشه بإخماد الثورة في البوسنه والهرسك، بما أن وجود العساكر العثمانية بهما مهدد لأمن بلاده، وطلب البرنس نقولا أمير الجبل أن تتنازل له الدولة عن جزء من أراضي الهرسك. ولما لم تقبل الدولة هذه الطلبات، التي لم يقدم على طلبها إلا كل عالم برفضها جاعلها سبباً للحرب المصمم عليها، اجتازت الجيوش الصربية الحدود تحت قيادة الجنرال (تشرنايف) الروسي في أوّل يوليه سنة ١٨٧٦، وكذلك جيوش الجبل الأسود بدون أن تتعرض لهم الدول، بأن تقيم الحجة على هذا العمل العدائي، بل تربصت حتى إذا فاز أعداء الدولة عضدت الدول طلباتهم. وان باؤوا بالخسران حفظت لهم بلادهم ومنعت الدولة من مجازاتهم على تعدّيهم بدون سبب إلا دسائس الروسيا والدول المعضدة لها.

ولنذكر هنا بكل اختصار ملخص الأعمال الحربية والوقائع العسكرية التي حصلت بين جيوش الدولة المظفرة والعساكر المصرية التي أرسلت للاشتراك

= نسمة واحتلها الجنرال تشرنايف الروسي سنة ١٨٦٥ ولم تزل تابعة لروسيا. أقول: وتكتب: طاشقند.

معها في الحرب ومقاسمتها النصر والفخر من جهة، وعساكر الثائرين وضباطهم الروسيين من جهة أخرى فنقول :

إن الحرب مع الجبل الأسود لم يتسع نطاقها لوعورة جبالها ولعدم إمكان حصول وقائع مهمة بها بين جيوش منتظمة بل كان كل ما حصل بها عبارة عن مناوشات يكون فيها كل من الفريقيين طوراً غالباً وتارة مغلوباً، فإنه كان يتعذر على الجيوش العثمانية اقتفاء أثر الثائرين في المفاوز الوعرة ويستحيل على الجبليين اجتياز صفوف الجيوش المحدقة ببلادهم من كل فج. ولذلك فلم تعد مساعدة الجبليين بفائدة تذكر على الصرب ،أما من جهة الصرب فقد أجمع المؤرخون العسكريون أن الجنرال تشرنايف ارتكب خطأ عظيماً وإثماً كبيراً في عدم جمع جيوشه في النقطة الوحيدة التي تصل بلاد البوسنه والهرسك بباقي بلاد الدولة العلية فيتحد مع ثائري هاتين الولايتين ويمكنه بكل سهولة الانضمام إلى عساكر الجبل الأسود ،إلا أنه لم يتبع هذه الخطة التي أشار بها عليه بعض القوّاد بل جزأ قوته إلى أربع فرق أغار هو بإحداها على الطريق المؤدية إلى«صوفية» عاصمة بلاد البلغار الآن،وكان ينسب إليه أنه يريد أن يعين والياً مختاراً عليها، لكن ما شهده البلغاريون من بسالة رجال الدولة منعهم عن مساعدته فخاب مسعاه. وبسبب تفريق جيوشه لم يأت يوم عاشر يوليه إلا وقد انهزمت الفرق الأربع بهمة وشجاعة عثمان باشا الغازي وعبد الكريم باشا السردار الأكرم.

وبعد أن ردّت جيوش الثائرين على عقبها فكر عبد الكريم باشا في توجيه قواه لافتتاح مدينة بلغراد عاصمة الصرب، ولذلك صمم أوّلاً على احتلال مدينتي الكسيناس[١] ودليجراد[٢] ،الواقعتين على طريق العاصمة، وفصل الفرقة القائد لها

---

(١) مدينة الكسيناس Alexsinac تقع الى الشمال الغربي من مدينة نيش والى شرق نهر موراڤا . (المحقق) .

(٢) مدينة دليگراد Deligrad تقع الى الشمال الغربي من مدينة الكسيناس بالقرب من نهر موراڤا .(المحقق) .

تشرنايف عن الفرقة التي كانت معسكرة بمدينة زايتسا[1] وتحت قيادة (لاشانين). وحيث أن فصل هاتين الفرقتين وقطع كل اتصال بينهما لا يكون إلا باحتلال مدينة (نياشيواز)[2] صدر أوامره إلى أحمد أيوب باشا وسليمان خيري باشا بالتوجه نحوها من جهتين مختلفتين وفتحها بعد الانضمام إلى بعضهما، فصدعوا بأمره وفتحوا المدينة عنوة في يوم ٣ أغسطس بعد أن انتصروا في عدّة وقائع مشهورة، ثم استراحت الجيوش نحو أسبوعين بدون محاربات مهمة.

ومن ٢٠ أغسطس استؤنفت الحرب ثانية بكل شدّة واستمرت أربعة أيام متوالية لم يمكن الجيوش المظفرة في أثنائها فتح مدينة الكسيناس، ولذلك أقر رأيه بعد مشاورة من معه من القوّاد على عدم إضاعة الوقت أمام هذه المدينة الحصينة ومدينة دليجراد وانتقال الجيوش على ضفة نهر (موراوا) اليسرى بدون أن يشعر بهم العدوّ والسير نحو مدينة بلغراد تواً، وبعد هذا القرار أمر أحمد أيوب باشا بعبور هذا النهر.

وفي أثناء هذه المناورة المهمة التي ربما كان يتوقف عليها النجاح استمرت المناوشات مع الجيش الصربي من ٢٥ إلى ٢٩ أغسطس حتى تمت بدون أن يشعر العدوّ مطلقاً بذلك إلا لما اجتازت جميع الجيوش العثمانية النهر ولم يجد أمامه أحداً، فلما علم بإتمام هذه الحركة العسكرية المهمة عبر النهر بجيوشه خلف العثمانيين في أوّل سبتمبر سنة ١٨٧٦ فلاقوه لقاء العدوّ القادر وصوبوا إليه مدافعهم حتى اوقعوا الفشل في صفوف الصربيين وولى كثير منهم الأدبار وركنت ألايات برمتها إلى الفرار قبل أن يصاب منها نفر واحد.

وفي مساء هذا اليوم الذي لم يقم بعده للصرب قائمة والذي جعل الجيوش على مقربة من بلغراد، إذ لم يعد يمنعها مانع عن الوصول إليها واحتلالها، وردت أوامر سرّية من الأستانة إلى عبد الكريم باشا بتوقيف القتال وعدم الزحف على

---

(١) مدينة زاتيسار Zajecar تقع الى الشمال الشرقي من مدينة نيش على نهر بيلي تيموك Beli Timok.

(٢) نياشيواز Knjazevac تقع بين نيش وزايتسار.

عاصمة الصرب ريثما تأتيه أوامر جديدة لتدخل الدول بين الفريقين. وبيان ذلك أن البرنس ميلان أمير الصرب طلب من قناصل الدول لديه في ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٦ مخابرة دولهم بأن تتوسط بينه وبين الدولة العلية منعاً لسفك الدماء وخوفاً من أن يلحقه عار الغلبة. فأبلغت القناصل دولهم هذا الطلب وهي فاتحت الباب العالي في هذا الخصوص فلم يجبها حتى فرق عبد الكريم باشا جميع الجيوش الصربية ولم يبق له معارض في طريق بلغراد فأوعز إليه سراً بالتوقف مؤقتاً وأبلغ سفراء الدول في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٧٦ أنه لا يقبل الصلح إلا بعدّة شروط أهمها: أولاً ـ أن يأتي أمير الصرب إلى مقر الخلافة العظمى ليقدّم واجبات الخضوع والعبودية إلى السدة العلية السلطانية: ثانياً ـ إن القلاع الأربع التي خوّل حق احتلالها إلى الصرب في سنة ١٨٥٢ م ١٢٨٣هـ، مع بقائها تابعة للدولة تحتلها ثانياً الجيوش العثمانية ثالثاً ـ أن يلغى الرديف في بلاد الصرب وأن لا يزيد عدد الجيش الصربي عن عشرة آلاف مقاتل وبطاريتي مدافع لحفظ الأمن الداخلي ليس إلا. فلما وصل هذا الجواب إلى الدول لم تقبل هذه الاقتراحات قولاً بأنها مجحفة بامتيازات الصرب إجحافاً كلياً. وزيادة على رفضها زادت على ما اقترحته بخصوص الصرب طلبات أخرى بخصوص البوسنه والهرسك والبلغار التي أطفئت ثورتهم من مدة. وبعد أن اتفقت جميع الدول الست الموقعة على معاهدة سنة ١٨٥٦ القاضية بالمحافظة على سلامة الدولة العلية (التي معناها في عرفهم تقسيمها) أرسل اللورد دربي وزير خارجية انكلترا إلى السير هنري ليوت سفيرها في الأستانة رسالة بإمضائه أمره بتوصيلها إلى الباب العالي، فأوصلها إليه في ٢٥ سبتمبر المذكور مضمونها: أن طلبات الدولة العلية لا يمكن قبولها بالكلية وأن الدول ترغب إرجاع حالة الصرب والجبل الأسود إلى ما كانت عليه قبل الحرب، وأن تمضي الدولة مع الدول الست اتفاقاً بتأسيس إدارة وطنية مستقلة في البوسنه والهرسك حتى يكون للأهالي حق مراقبة أعمال مأموري الحكومة وموظفيها وكذلك في بلاد البلغار وإيقاف الحرب فوراً مع الصرب. وبعد أن تداول وزراء الدولة في هذه الطلبات التي لا تقبلها أيّ دولة فازت على عدوها بالنصر في ميادين القتال وأهرقت دماء رجالها حفظاً لكرامتها وشرفها من تعديّ هذا العدوّ تخومها بدون أن تبدي الدول حراكاً، أجاب الباب العالي

على هذه المذكرة السياسية بأنه لا يرى وجهاً لإعطاء هذه الولايات امتيازات إدارية بما أن مجلس المبعوثان سيشكل قريباً ويكون فيه مندوبون منتخبون من جميع الولايات بدون استثناء، وأن الدولة لا ترى ضرورة لإبرام اتفاق جديد مع الدول بهذا الخصوص ولم تذكر شيئاً عن الهدنة مطلقاً. ولما لم تصغ الدول لهذه الطلبات العادلة أوعز الباب العالي إلى السر عسكر عبد الكريم باشا باستمرار القتال فاستدعى السر عسكر القائد درويش باشا الذي كان معسكراً بفرقته في نيش. ولما حضرت العساكر أمر بالهجوم على مدينة «جونيس» التي جعلها الجنرال تشرنايف مقراً لمعسكره. فهجمت عليها الليوث الإسلامية في ٢٩ اكتوبر سنة ١٨٧٦ وبعد قتال عنيف تقهقر الصربيون وأنصارهم وأخلوا هذه المدينة ومدينة (دليجراد)، وزحفت الجيوش العثمانية محفوفة بالنصر على مدينة بلغراد عاصمة بلاد الصرب .

ولما وصل خبر هذا الفتح المبين إلى آذان ولاة الأمور في الروسيا و هو خلاف ما كانوا يتوقعونه، أرسل البرنس (غورشاكوف) الى الجنرال أغناتيف بالاستانة، بعد أن اتفق مع باقي الدول رسالة برقية في مساء ٣٠ اكتوبر يأمره بأن يطلب من الباب العالي إيقاف الحرب فوراً ومهادنة الصرب والجبل الأسود مدة ستة أسابيع أو شهرين. وإن لم يجب هذا الطلب في مسافة ثمانية وأربعين ساعة ينسحب هو وجميع موظفي السفارة من الأستانة فقبلت الدولة هذا الطلب منعاً للعراقيل السياسية ومنحت لمحاربيها هدنة مدة شهرين مدّت فيما بعد الى شهر مارس سنة ١٨٧٧ .

مؤتمر الاستانة

وفي ٥ اكتوبر سنة ١٨٧٦ عرض وزير خارجية انكلترا على باقي الدول المنتحلة لنفسها حق التدخل في شؤون الدولة العلية اجتماع مؤتمر في مدينة الاستانة لتسوية حالة مسيحيي الدولة بكيفية ثابتة منعاً لحصول الحرب بينها وبين الروسيا التي كانت شارعة في جمع جيوشها والاستعداد للحرب، فلم تجاوب الدول على هذا الاقتراح بجواب صريح لخوفها من عدم امتثال أحد الطرفين لقرارات المؤتمر فتضطر للتألب ضدّه كما حصل في حرب القرم سنة ١٨٥٦، لكن لما رأت أن الخطر قد ازداد والحروب قربت حتى صارت قاب قوسين أو أدنى. خصوصاً وان قيصر الروسيا ألقى في مدينة

موسكو خطاباً في ١٢ نوفمبر سنة ١٨٧٦ أثنى في خلاله على شجاعة أهالي الجبل الأسود وثبات الصربيين. ولما وصل إليها منشور بتاريخ ١٣ منه من البرنس غورشاكوف مفاده أن الروسيا قد أمرت بجمع جزء من جيوشها على الحدود لحماية المسيحيين ببلاد الدولة بأي طريقة كانت بما أنها لم تر نتيجة من المخابرات السياسية، إلا تمكن الدولة من جمع جيوشها من جميع ولاياتها بآسيا وأفريقية، أذعنت جميع الدول لطلب انكلترا وأرسلت كل منها مندوباً أو مندوبين. وأرسلت انكلترا اللورد سالسبوري وكلفته بأن يمر على باريس وبرلين وويانه ورومه عند ذهابه للاستانة ليستطلع أفكار وزرائها قبل انعقاد المؤتمر ويجري الجميع على أتم وفاق. ولما وصل المندوبون الى الأستانة عقدوا جملة اجتماعات ابتدائية من ١١ دسمبر الى ١٧ منه لتقرير طلباتهم قبل عرضها بصفة رسمية في المؤتمر ولم يقبلوا مندوبي الدولة العلية في هذه المداولات، الأمر الذي يشف عن تحيزهم الى الروسيا التي كانت هذه الاجتماعات في سفارتها، فقرر المندوبون أن تقسم بلاد البلغار الى ولايتين يكون ولاتها من المسيحيين الاجانب أو التابعين للدولة، وأن الجنود العثمانية لا تحتل الا القلاع وبعض المدن الكبيرة وأن تشكل قوة (جندرمه) من المسيحيين يكون ضباطها بين مسيحيين ومسلمين تعينهم الدولة، وأن تشكل لجنة دولية لمدة سنة لمراقبة تنفيذ الاصلاحات المبينة في لائحة الكونت اندراسي، وأن تعطى هذه الامتيازات الى ولايتي البوسنه والهرسك وأن يشترط في الصلح الذي يعقد مع الصرب والجبل الأسود أن تتنازل لهما الدولة عن بعض الأراضي. وأخيراً اذا لم تقبل الدولة هذه الاقتراحات (المستحيل قبولها) ينسحب جميع أعضاء المؤتمر من الاستانة علامة على قطع العلائق السياسية مع الدولة العلية والشروع في اتخاذ الطرق الإجبارية لإكراهها على قبول اقتراحاتها.

وفي يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧٦ أجتمع المؤتمر بصفة رسمية في سراي البحرية تحت رئاسة صفوت باشا ناظر خارجية الدولة، وانتخب هو رئيساً له لانعقاد المؤتمر في الأستانة، وعضوية كل من أدهم باشا سفير الدولة العلية ببرلين، والكونت (فرنسوا دي بورجوان) والكونت (دي شودوردي) عن فرنسا، والبارون (وزر) عن ألمانيا، والكونت (كورتي) عن ايطاليا، والكونت (زيكي) من أشراف المجر، والبارون (كاليس) النمساوي عن النمسا، والجنرال (اغناتيف) عن الروسيا، واللورد

(سالسبوري) والسير (هنري ليوت) عن انكلترا.وفي يوم انعقاده اطلقت المدافع من جميع القلاع والمراكب إيذاناً باعلان القانون الاساسي الذي ساوى بين جميع رعايا الدولة كما سبق ذكره في بابه.وبعد أن اجتمع عدَّة دفعات جمعت الدولة مجلساً عـاماً من ذوات الدولة وأعيانها ورؤساء الديانات في ١٨ يناير سنة ١٨٧٧ وعرضت عليهم اقتراحات المؤتمر فقال الكل بوجوب رفضها.ومن الغريب أن وكيل بطريرق الأرمن وحاخام اليهود كانا من أشدّ المعارضين في قبولها وقالا بما مؤدّاه أن جميع أبناء طوائفهم مستعدّون للدفاع عن شرف الدولة العلية واستقلالها استعداد المسلمين لذلك إذا الكل صاروا عثمانيين متساويين أمام القانون طبقاً للقانون الأساسي.ثم انفض الجمع وبلغ عدد الحاضرين نحو مائتين أجمعوا على وجوب الحرب حفظاً لشرف الدولة.

وفي يوم ٢٠ من الشهر المذكور اجتمع المؤتمر الدولي،فتلا صفوت باشا على الحضور ما قررته الجمعية العمومية في يوم ١٨ منه،ثم قال لهم أن الدولة مستعدَّة لقبول تشكيل مجالس انتخابية في البوسنه والهرسك والبلغار يكون انتخابهم لمدّة سنة فقط ونصف أعضائها من المسلمين والنصف الآخر من المسيحيين،وأنها مصرّة على رفض اللجان المختلطة كل الرفض.لان ذلك يدل على عدم ثقة الدول بوعود جلالة السلطان ومصرة أيضاً على عدم إعطاء الصرب والجبل الأسود شيئاً مـن أراضيها .

وبعد أن تكلم بعض الأعضاء مهدداً الدولة العلية انفض المؤتمر ثم اجتمع في مساء يوم ٢١ بدون حضور مندوبي الدولة العلية وأمضوا مضبطة أعمال المؤتمر .

وفي ٢٣ منه سافر المندوبون والسفراء علامة على قطع العلائق بدون أن يقابلوا جلالة السلطان،وتأخر الجنرال اغناتيف قليلاً عن إخوانه بسبب الزوابع في البحر الأسود،وأخذ كل من الطرفين يستعد للقتال والحرب والنزال .

إخلاص المجر للدولة العلية

ومما يحسن ذكره في هذا المقام أن أهالي المجر مع بقائهم أجيالاً تابعين للسلطنة العثمانية كما مر كانوا أشد الأمم إخلاصاً للدولة العلية بل كان المجريون الأمة المسيحية الوحيدة التي خالج فؤادها الإخلاص والولاء للامة العثمانية في هذا الوقت الحرج

الذي كانت فيه جميع الدول المسيحية متألبة عليها، وما ذلك الا لكون الدولة حمت من التجأ إليها من رؤساء الثورة المجرية سنة ١٨٤٨ وامتنعت عن تسليمهم الى النمسا والروسيا رغماً عن تهديداتهم ،ولولا ذلك لأعدم جميع زعماء المجر وخصوصاً الوطني الشهير (كسوت)، بخلاف الروسيا فانها ساعدت النمسا بخيلها ورجلها على إقماع الثورة وإذلال الأمة المجرية بعد أن كادت تفوز بالنجاح وتتمتع بالحرية وتنفصل عن النمسا تمام الانفصال كما كانت أمنيتها .

فلما ظهر عداء الروسيا للدولة العلية جهاراً أثناء انعقاد مؤتمر الاستانة تجمهر تلامذة المدارس العليا في بودابست عاصمة المجر وتباحثوا في الكيفية التي يعربون بها عن ولائهم للدولة العلية فأقروا على إرسال وفد من اثني عشر تلميذاً منهم ليقدم سيفاً ثميناً لعبد الكريم باشا قائد عموم الجيوش التركية .

فأتى الوفد الى الاستانة في أوائل يناير سنة ١٨٧٧ وطلب مقابلة السردار الاكرم فأذن لهم ولما مثلوا أمامه فاه أحدهم بخطبة مناسبة للمقام ذكر فيها ما للدولة من الأيادي البيض على بلادهم بحمايتها زعماء حريتها وتمنى له ولدولته العلية الفوز والنجاح على الروس أعداء الحرية ومبيديها في بلاد لهستان (بولونيا) والمجر، ثم قدم له السيف فاقتبل عبد الكريم باشا السيف بكل ارتياح وارتجل صفوت باشا ناظر الخارجية الذي كان حاضراً هذه المقابلة خطاباً بليغاً أتى فيه على سابقة ارتباط الأمتين العثمانية والمجرية، وتأسف على إصغاء المجر للدسائس الاجنبية وانفصالها عن الدولة العلية وقال في الختام إن انفصال الايالات المسيحية عنها واحدة بعد الأخرى لم يكن إلا نتيجة حسن معاملاتها للسكان المسيحيين وعدم إجبارهم على اعتناق الدين الاسلامي وترك دين وعوائد أجدادهم الأولين.

لما انفض مؤتمر الاستانة بعد رفض الدولة والأمة لطلباته غير الحقة وانسحاب أعضائه مع جميع القناصل من الاستانة، ما عدا الجنرال اغناتيف الروسي، كتب البرنس غورشا كوف الى سفراء الروسيا لدى فرنسا وانكلترا والنمسا وألمانيا وايطاليا نشرة بتاريخ ٣١ يناير سنة ١٨٧٧ يشرح فيها رفض الدولة العلية لقرار المؤتمر ويطلب منهم الاستفسار من الدول عما يرغبون إجراءه مع الدولة بعد ذلك

حتى يكون عملهم باتفاق قبل أن يجزم سيده الامبراطور بما يجب عليه اتباعه لتحسين حال المسيحيين ويصمم على تنفيذ رغائبه بالقوّة، وكذلك أرسل صفوت باشا الى سفراء الدولة لدى الدول منشوراً بتاريخ ٢٥ منه أبان فيه ما أتاه أعضاء المؤتمر من عقد عدَّة جلسات ابتدائية بدون حضور مندوبي الدولة واتفاقهم على ما يجب عرضه على الباب العالي قبل انعقاد المؤتمر بصفة رسمية حتى كأن المجلس لم يعقد إلا لعرض طلبات متفق عليها من قبل وطلب التصديق عليها ليس إلّا. ثم قال في ختامه أن الدولة لا يمكنها ولن يمكنها التصديق على شيء من هذه الاقتراحات المزرية بشرفها ومحطة بقدرها أمام أمتها وطلب منهم تسليم صور منه الى الدول المعينين لديها،فاحتار وزراء الدول في كيفية حسم هذه النازلة أمام إصرار الدولة على عدم الرضوخ لطلباتهم. وبينما هم يضربون أخماساً في أسداس أبرمت الدولة الصلح مع إمارة الصرب على شروط أهمها أن تخلي العساكر العثمانية بلاد الصرب فتعود الى ما كانت عليه قبل الحرب بشرط أن لا تبني الامارة قلاعاً جديدة وأن يرفع عليها العلم العثماني بجوار العلم الصربي علامة على بقاء السيادة.

أما الجبل الأسود فلم يتم معه الصلح لطلبه تنازل الدولة له عن بعض الأراضي بحيث يصير له ميناء على البحر الادرياتيكي، بل اكتفت الدولة بتجديد أجل الهدنة معه.

وفي مارس سنة ١٨٧٧ لما رأت الروسيا عدم ورود جواب اليها من الدول عما تنوي إجراءه مع الدولة وأنها إن لم تبادر باشعال نيران الحرب تضيع منها الفرصة بعد أن تجشمت المصاريف الطائلة في الاستعداد إليه،اذ قد تم الصلح مع الصرب وربما تصالح الباب العالي قريباً مع الجبل الأسود، فتسود السكينة ولا يعود لها وجه للمداخلة لا سيما وأن مسيحي الدولة يصبحون عما قليل راضين عنها بسبب مساواتهم مع المسلمين بمقتضى القانون الأساسي، أرسل البرنس غورشاكوف الى سفيره في لوندره في ١١ مارس صورة لائحة لاطلاع الحكومة الانكليزية عليها حتى اذا صادقت عليها عرضها على باقي سفراء الدول بلندره، وإذا حازت لديهم قبولاً يصير التوقيع عليها منهم وإرسالها للباب العالي للعمل بها والا فتصير الدول حرة في اجراء ما يلزم لراحة رعايا الدولة المسيحيين. فصدقت عليها انكلترا ابتداء، ثم اجتمع جميع السفراء في ٣١ منه بنظارة الخارجية، ما عدا سفير الدولة العلية ذات الشأن (تأمل)، وأمضوا هذه

اللائحة بعد تعديلها قليلاً وأرسلوها إلى الباب العالي، وهذا نصها نقلاً عن منتخبات الجوائب .

لائحة لوندرة

«ان الدول التي اتفقت على إجراء الصلح في الشرق واشتركت في مؤتمر الاستانة تعترف ان آكد الوسائل للحصول على هذه الغاية التي وطنت نفسها عليها هو دوام الاتفاق الذي حصل بينها، ومن لوازم هذا الاتفاق تحقيق المنفعة التي قصدوها لتحسين أحوال النصارى سكان الممالك العثمانية (وفي الأصل تركية)، ولإجراء الإصلاح في بوسنه وهرسك والبلغار الذي قبله الباب العالي بشرط أنه هو الذي يجريه فعلا، وكذلك عندها علم بإجراء الصلح مع الصرب. أما من جهة الجبل الأسود فان الدول ترى أن تعيين الحدود وحريّة السفر في البوجانا[1] أمر مرغوب لاحكام الاتفاق وإدامته كما انها ترى أن هذا الاتفاق الذي تم أو سيتم بين الباب العالي وهاتين الولايتين هو وسيلة الصلح الذي هو غاية مرامها، ولهذا تدعو الباب العالي لإحكامه وتوكيده بأن يجعل عساكره في حالة السلم، ما عدا العساكر التي لا بد منها لابقاء الأمن والطمأنينة، وأن يسرع من دون تأخير في إجراء الإصلاح لتطمين سكان الولايتين وغيرها مما جرت المذاكرة على شروطه في المؤتمر، وكذلك تعترف أن الباب العالي صرّح بأنه يجري من هذه الصلاحيات ما هو الأهم. وعندها علم أيضاً باللائحة التي نشرها الباب العالي في ١٣ من فبراير (شباط) سنة ١٨٧٦ وبالاعلان الذي أصدره مدّة انعقاد المؤتمر بواسطة سفرائه وبناء على هذه المقاصد الحسنة التي أبداها ومنفعته الظاهرة في إجراء الإصلاحات حالاً، قام بخاطر الدول أن لها أسباباً تحملها على أن ترجو أن الباب العالي يستفيد من هذه الفترة الحاضرة فيبذل همته في اتخاذ الوسائل التي يحصل بها تحسين أحوال النصارى التي اتفقت الدول على وجوبها لأجل بقاء السلامة والطمأنينة بأوروبا، فاذا أخذ في هذا المشروع يكون معلوماً عنده أن شرفه ونفعه أيضاً يوجبان المحافظة عليه بالوفاء والإخلاص والإنجاز، فمن رأي الدول

(١) لم أفهم معنى هذه الكلمة وهل هي مقاطعة أو انها وسيلة للسفر .

والحالة هذه أن تكون مراقبة بواسطة سفرائها بالأستانة وأعمالها في الولايات للمنوال الذي ينجز به مواعيد الدولة العثمانية، فإذا خابت آمالها مرة أخرى ولم تحسن حال رعية السلطان على وجه يمنع من إعادة الارتباكات التي تتعاقب في الشرق وتكدر موارد السلم فيه، ترى من الصواب أن تعلن أن مثل هذه الأمور لا تناسب مصلحتها ومصلحة اوروبا عموماً، ففي مثل هذه الحال تستبقي لنفسها أن تنظر بالاتفاق في اتخاذ الوسائل التي تراها الأصلح لتأمين خير النصارى ولإبقاء السلم عموماً».

حرر في لوندره في ٣١ مارس سنة ١٨٧٧ .

مونستر	دربي
بوست	ل . ف . مينارايا
ل . داركور	شوفالوف

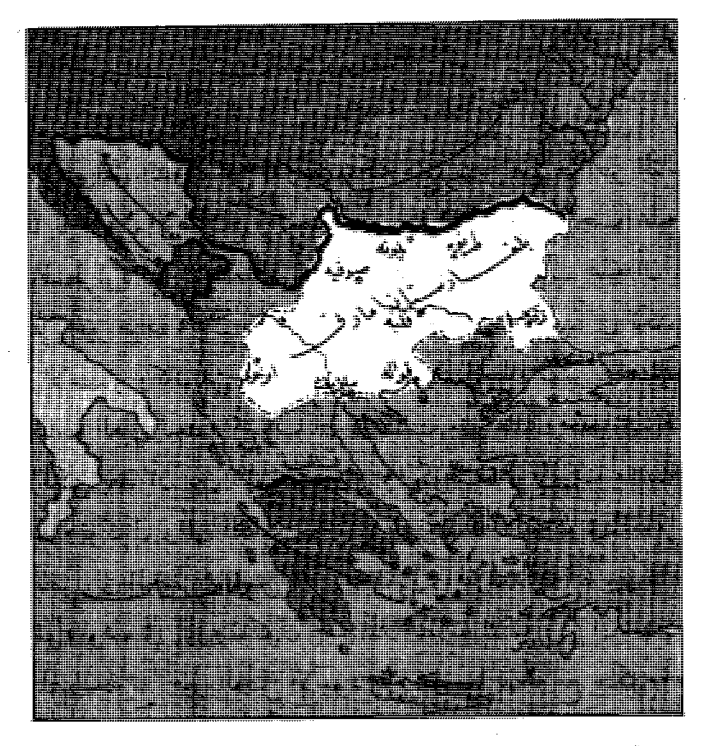
وقد أتينا على ذكر هذه اللائحة ليرى القارىء تعصب الدول لحماية المسيحيين بالدولة، مع أنه لو تداخلت الدولة في شؤون إحداها وطلبت من فرنسا مثلا عدم التعرض لما يمس الأمة الإسلامية بالجزائر أو مساواة المسلمين بها بالمسيحيين واليهود لشدّدوا النكير عليها ورموها بالتعصب الديني المتصفين هم به دون غيرهم، ولكن هي القوة قضى التمدن الغربي الحديث أن تسود على كل حق تحت راية الانسانية والمساواة وما هي إلا ألفاظ لا معاني لها الا فيما يلائم مصالحهم وما نحن بمغرورين .

ولما وصلت هذه اللائحة الى الباب العالي وانتشر خبرها بين العموم أيقن الكل ان لا بد من الحرب اذ من المستحيل أن توافق عليها أيّ دولة تغار على شرفها ووجودها بين العالم السياسي. وأصدرت الدولة منشوراً الى سفرائها لدى الدول الست بقصد تبليغه لها، يشف بعبارة صريحة عن عدم تصديقها على هذه اللائحة، وقد أتى فيه محرروه من العبارات المؤثرة الدالة على تعصب الدول ما رأينا معه ضرورة نشره برمته، وها هو نقلا عن مجموعة الجوائب :

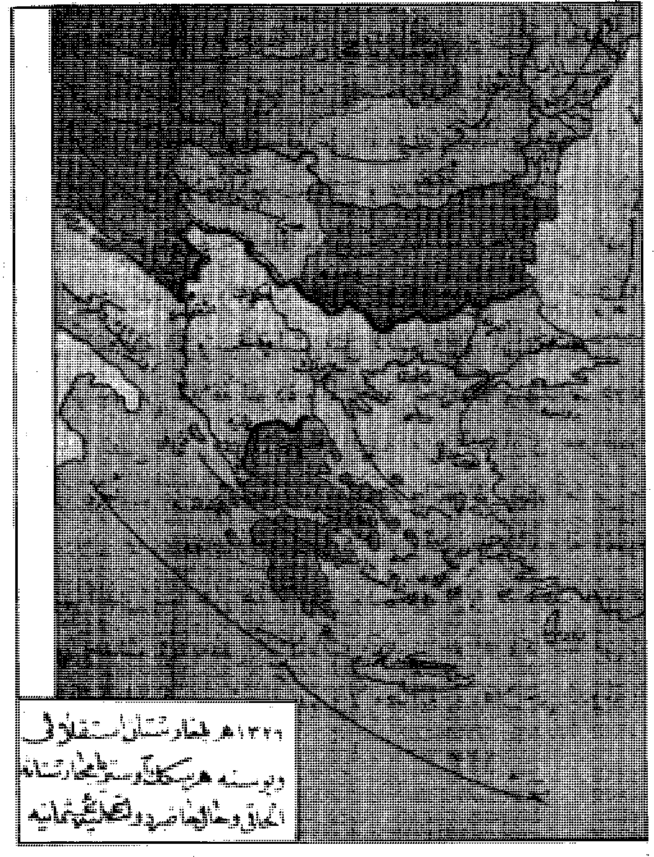
قد وصل الى الباب العالي البروتوكول الذي وقع عليه في لندرة في ٣١ مارس سنة ١٨٧٧ ناظر الخارجية بلندره وسفراء المانيا وأوستريا وفرنسا وإيطاليا والروسيا، مع الاعلام الذي ألحق به من ناظر الخارجية الموما إليه ومن سفيري ايطاليا والروسيا،

وبعد اطلاع الباب العالي على ذلك تأسف جداً على أنه رأى أن الدول العظام لم تر من الواجب أن تشرك الدولة العلية في المذكرات التي تثار فيها المسائل المهمة المتعلقة بالدولة، مع أن المراعاة التي أبدتها الدولة في جميع الأحوال لنصائح الدول والتكفل الذي قرن مصالحها بمصالحهم وأصول الانصاف التي لا نزاع فيها والتعهد الخطير الشان، تحمل الدولة على أن تظنّ أنه كان من اللازم أن الدول تدعوها الى هذا العمل المراد به ان اجراء الصلح في الشرق والاتفاق العام يبنيان على أساس راسخ عادل، وحيث جرى الأمر على خلاف المأمول رأى الباب العالي أنه من الواجب عليه أن يعارض فيه وأن يبين لما عسى أن يحدث منه في المستقبل من المحذور، ولو أن الدول أمعنت النظر فيما اعترض من الخطر ومن تغيير الحال بعد انعقاد المؤتمر في استانبول لأمكن الوصول الى هذا الاتفاق المروم. أما في اثناء انعقاد المؤتمر فإن الباب العالي كان معتمداً على القانون الأساسي (وفي الأصل كونستيتوسيون) الذي تفضل بـه سلطاننا المعظم متكفلاً بتحقيق إصلاح عام لم يعهد له نظير منذ ابتداء الدولة السلطانية، فرأى أنه من الواجب عليه أن ينكر الطلب المشط في تمييز بعض الولايات بالاصلاح دون غيرها وينبذ أيضاً كل ما من شأنه أن يجحف باستقلال الدولة العلية وبسلامة ممالكها. وهذا عين ما أعلنته دولة انكلترا وقبلته سائر الدول، فإن هذا الاعلان بني على استقلال الدولة وعلى أن يكون في بعض الولايات تنظيمات تتكفل بمنع سوء الادارة من قبل المأمورين وقصرهم عن التصرّف المطلق فهذه التنظيمات المطلوبة محققة فعلا في المنهاج السياسي الجديد الذي انشئ في الممالك من دون فرق في لغات أهلها ولا في مذاهبهم، ثم عقد مجلس المشورة العثماني في الاستانة فاجتمعت فيه أعضاؤه بانتخاب جرى على وجه الاختيار والحرية، فان كان أحد يعارض في طريقة هذا الاصلاح الذي لقرب عهده يظنّ تأخير الثمرة المطلوبة منه، يقال له أن هذه المعارضة هي ضدّ ما رامته الدول من الاصلاح. أما التأمين في داخل المملكة فإن الصلح استقرّ بين الباب العالي والصرب، وما زالت المفاوضة جارية مع وفد الجبل الأسود، وفيها أظهر لهم الباب العالي مساهلة عظيمة، وفي خلال ذلك طرأ من سوء البخت أمر جديد وهو مبالغة دولة الروسيا في تجهيز عساكرها فأوجب ذلك على الباب العالي أن يستعدّ لدفع الخطر عنه، مع أن أقصى مرامه أن يتشبث بالوسائل المؤدية الى السلم والسلامة

وأن يوافق الدول على قدر ما يمكنه وأن يزيل من خواطر الناس الريب في إخلاص ما نواه من الاصلاح وأن يستريح من الفتن التي توجب عليه بذل المال لغير طائل. فاضطراره الى الاستعداد للدفاع والحالة هذه أوجب عليه أن يستعين بسكان الممالك على غير مراده، وأن يقدم على حرب ربما تكون سبباً في تكدير سلم جميع الأقطار والأمصار وكان من الضروري أن الدول العظام تهتم بهذه الحال. وكان مما استصوبه الباب العالي لبعض أسباب أن لا يطلب منها طلباً رسمياً أن تعتني بهذه المسألة المهمة، ولكن بعد أن بين اللورد دربي والكونت شوفالوف ما بيناه عند توقيعهما على البروتوكول رأى الباب العالي لزوم مطالعة الدول في انهاء هذه الارتباكات التي تفضي الى الخطر، مما ليس في طاقته إنهاؤه، فأوّل ذلك أن يبين لها جواباً عما قاله الكونت شوفالوف في البروتوكول هذه الملاحظات الآتية (١) أن الباب العالي في نهجه طريقة المصالحة مع أمير الجبل الأسود على نحو ما نهجه مع حكومة الصرب أفاد، عن طيب نفس منذ نحو شهرين، أن الدولة العلية تبذل جهدها في الاتفاق معه ولو كان في ذلك بعض خسارة عليها، وحيث أن الباب العالي يرى أن الجبل جزء من الممالك العثمانية، خيَّره في تعديل التخوم بما فيه نفع لحكومة الجبل وطمع في أن ذلك ينهي الخلاف في المستقبل فصار الحصول على المأمول متعلقاً بالجبل. (٢) ان الدولة العلية شرعت فعلاً في إجراء الاصلاحات التي وعدت بها لكن هذا الإجراء لا يكون على وجه التخصيص والترجيح وفاقاً لما تقرر في القانون الأساسي، فهو في حرية الدولة أن تنهجه على الوجه المذكور (٣) ان الدولة مستعدة لأن تجعل عساكرها على قدم السلم عندما ترى أن دولة الروسيا فعلت مثل ذلك وإن المراد من حشد عساكرها مجرد الدفاع وانها ترجو من علاقة المودة والمراعاة الحاصلة بينهما أن دولة الروسيا لا تصر وحدها على أن تظن أن رعية الدولة العلية من النصارى معرضون من طرف حكومتهم لخطر يوجب غزو بلادها وما يعقبه من الغوائل (٤) أما من جهة ما يحتمل حدوثه من الاختلال مما يمنع صرف عساكر الروسيا فإن الدولة العلية تجيب عن هذا الشرط الأليم الذي نشأ عن هذا الظن بأن تقول: إنه قد ثبت عند دول أوروبا أن الاختلال الذي حدث في بعض الولايات وكدّر أحوالها انما نشأ من إغواء المغوين من الخارج، فالدولة العلية غير مسؤولة عنه ولا مطالبة به، فلا حق لدولة الروسيا في أن تعلق صرف



(البلاد العثمانية
بعد معاهدة اياستفانوس)



استقلال بلغاريا

عساكرها على حدوث الاختلال.(٥) أما ارسال مأمور مخصوص من الدولة العلية الى سان بطرسبورج للمفاوضة في صرف العساكر، فإن الدولة لا ترى سبباً لرفض فعل يدل على المجاملة والملاطفة مما توجبه طريقة المعاملات السفارية من كلا الطرفين، لكنها لا ترى تناسباً بين هذا الفعل وبين وضع السلاح الذي لا يجب تأخيره لأيّ سبب كان إذ يمكن إنجازه بمجرّد خبر بالتلغراف فالدولة العلية تطلب من الدول أن تتبصر فيما أوجب رقم البروتوكول وفي خطر هذه الحال الحاضرة التي لا مسؤولية منها عليها. ومن الغريب أن الدول رأت من اللزوم أن تذكر في البروتوكول أن من مصلحتها المشتركة إجراء الاصلاح في بوسنه وهرسك والبلغار، وأنه بالنظر الى حسن مقاصد الباب العالي والى ظهور الفائدة له من الاصلاح تؤمل أن يبادر الى إجرائه فعلاً في تلك الولايات من دون إمهال كما جرت عليه المذاكرة في المؤتمر،وانه متى شرع فيه أوّل مرة يكون معلوماً عنده أن شرفه ومصلحته يقضيان بالاستمرار فيه. فالباب العالي لا يقبل الاصلاح المخصوص بالولايات الثلاث المذكورة وليس عنده شك أيضاً أن مصلحته،ومن الواجب عليه،أن يقضي حقوق رعيته من النصارى قضاء كافياً، ولكن لا يسلم أن الاصلاح يكون مقصوراً على النصارى فقط. بل يجب أن يكون شاملا لجميع سكان الممالك المحروسة رعية الدولة العلية المتصفين بالولاء والطاعة حتى يكونوا بمنزلة جسم واحد. وعلى هذا فالباب العالي محقوق بأن يدفع الأوهام التي تثيرها عبارة البروتوكول من جهة إخلاص قصده ونيته نحو رعيته المسيحيين،وأن يعترض على عدم المبالاة المفهومة من فحوى هذه العبارة بباقي رعيته من المسلمين وغيرهم،فمن المنكران الاصلاح الذي من شأنه أن يشمل المسلمين بالراحة والمنفعة يكون في عيون أهل أوروبا البصيرة المنصفة مما لا يبالى به ولا يلتفت اليه. ولذاكان من قصد الدولة (وفي الأصل تركية) اليوم إحداث تنظيمات مخصوصة يحصل بها لجميع رعاياها التأمين على حقوقهم ومنافعهم المعنوية والمادية على التساوي من دون فرق وتحسب من موجبات شرفها أن تحافظ على القانون الأساسي وذلك آكد ضمان وعهد. ولكن اذا رأت نفسها مضطرة الى دفع المقاصد المراد بها إبقاء العداوة بين رعاياها وحملهم على عدم الثقة بها لم تكن محقوقة بإيجاب ما بني عليه البروتوكول من قصد الإصلاح، كيف وقد قال أن قصد الدول أن تراقب بواسطة

سفرائها بالأستانة ،وعمالها في الولايات ،المنوال الذي تنجز به مواعيد الدولة العثمانية.
وقال ايضاً اذا كان هذا الأمل يخيب مرة أخرى فإنها (أي الدول) تستبقي لنفسها أن تتخذ بالاتفاق الوسائل التي تراها أولى وأحرى لتأمين منافع النصارى واستتباب السلم عموماً،فهذا يوجب على الدولة العلية أن تقيم الحجة عليه وتنكره أشد الانكار فإن الدولة من حيث كونها مستقلة لا تذعن بأن تكون تحت مراقبة الدول مفردة كانت أو مجموعة لأنها لما كانت علاقتها مع الدول المتحابة مبنية على الحقوق المتعارفة بين الأمم وعلى المعاهدات لم يكن لها أن تعترف أن سفراء الدول وعمالها الذين وظيفتهم المحاماة عن مصالح رعاياهم يكون لهم حق المراقبة على وجه رسمي ، فهذا أمر مهين لها ولم يعهد له نظير لدى سائر الدول،وهو أيضاً مناقض لما تقرر في معاهدة باريس التي اتفقت عليها الدولة العلية مع سائر الدول،فإنها تصرّح بعدم المداخلة وتتخذه أصلاً من أصول السياسة. فلا يصح اذاً الغاء شيء منها من دون موافقة الباب العالي فإذا كانت الدول تحتج بتلك المعاهدة فليس لكونها تخولها حقوقاً ليست في حيازتها من دونها ولكن لتذكر الدول بالاسباب الخطيرة التي حملتها منذ عشرين سنة حباً لبقاء السلم العام في أوروبا على أن تتعهد بحفظ حقوق سلطنة الدولة العلية عن الإنهاك. أما ما تقرر في البروتوكول من أن الدول اذا رأت الاصلاح غير منجز يكون لها أن تتشبث بالوسائط الفعالة لانجازه فإن الدولة ترى في ذلك إجحافاً بشرفها وحقوقها وتخويفاً من شأنه أن يجرّد أفعالها التي تأتيها عن رضاء ومبادرة عمالها من الاستحقاق وسبباً يزيد في ارتباكاتها في الحال والاستقبال. فعلى كل حال لا يعوق الدولة العلية شيء عن أن تجزم باقامة الحجة على البروتوكول المذكور وأن تعتبره بالنظر الى ما يتعلق بها خالياً من الإنصاف ومجرداً عن الأوصاف التي تجعله موجباً.
وحيث ظهر لها أن موضوعه إثارة الظنون والاتهام ونقض حقوق الدولة الذي هو نقض أيضاً لحقوق الناس عموماً وطنت نفسها على الدفاع صوناً لوجودها، فهي تعلن الآن اتكالاً على الباري تعالى واعتماداً على العدل أنها تنكر كل ما يحكم به عليها أحد من دون مواطأتها وجازمة بأن تحافظ على المقام الذي أقامها فيه القادر عز وجل وقدّره لها فلا تزال تدفع كل ما من شأنه أن يجحف بالأصول العمومية وبصحة ذلك العهد الذي أوجبته الدول على أنفسها. ولاعتقادها بأن البروتوكول

من قبيل المعدوم تراجع ضمائر الدول الذين تعتقد فيهم بقاء الصداقة والمودّة كما كان في سالف الزمن. وفي الجملة فإن الوسيلة الوحيدة لازالة الخطر الذي يخاف منه على السلم هي المبادرة الى وضع السلاح والجواب الذي صرّحت به الدولة آنفاً عن سفير الروسيا، يسهّل للدول الحصول على هذه النتيجة ولا شك، أن الدول لا تريد أن تكلف الدولة بما يخلّ بحقوقها ويوجب عليها الأضرار والخسائر. فأنت مكلف بقراءة اللائحة على ناظر الخارجية وترك نسخة منها عنده ا هـ .

إعلان الحرب

لم يسع الروسيا بعد رفض الباب العالي للائحة لوندره وتصميمه على الدفاع عن شرف الدولة وعدم الانصياع لطلبات أوروبا المسيحية الغير حقة الا اعلان الحرب ولكن قبل إعلانه أمضت مع إمارة رومانيا (الافلاق والبغدان) معاهدة سرّية بتاريخ ١٦ أبريل سنة ١٨٧٧ وضعت رومانيا بمقتضاها جميع مخازنها ومؤنها وذخائرها تحت تصرّف الروسيا. ثم في ٢٤ منه كتب البرنس غورشاكوف الى توفيق بك المكلف بمصالح الباب العالي في سان بطرسبورج كتاباً يقول فيه أن سيده الامبراطور رأى نفسه مضطراً بكل أسف أن يعتمد على قوّة السلاح لتنفيذ مطالبه وكلفه بأن يخبر دولته بأن الروسيا تعتبر نفسها من هذا اليوم في حالة الحرب مع الدولة وأن يخبره عن عدد مستخدمي السفارة ليعطي لهم جواز السفر علامة على قطع العلاقات بسبب الحرب، فابلغ توفيق بك هذا الخطاب الى الباب العالي، وكان المسيو نيليدوف الذي نيطت به أعمال السفارة الروسية بعد سفر الجنرال اغناتيف قد ترك الاستانة في اليوم الذي قبله، قطعاً للعلاقات السياسية، فكتب الباب العالي نشرة تلغرافية الى سفرائه لدى الدول الموقعة على معاهدة باريس في سنة ١٨٥٦ بتاريخ ٢٥ إبريل يكلفهم بإخبار الدول المعنيين لديها بإعلان الروسيا بمحاربتها للدولة بدون توسط الدول طبقاً للمادة الثامنة من معاهدة باريس المذكورة التي نصها (إذا حدث بين الباب العالي وإحدى الدول المتعاهدة خلاف خيف منه على اختلال إلفتهم وقطع سلطتهم، فمن قبل أن يعتمد الباب العالي، وتلك الدولة المنازعة له، على أعمال القوّة والجبر،

يقيمان الدول الأخرى الداخلة في المعاهدة وسطاً بينهما منعاًلما ينشأ عن ذلك الخلاف من الضرر) .

وبعد ذلك أصدرت الدولة أوامرها الى جميع رؤساء الجيوش بملاقاة العدّو بما جبلت عليه العساكر الشاهانية من البسالة والثبات. وأصدر سيدنا شيخ الاسلام فتويين بتاريخ ٨ جمادى الأولى سنة ١٢٩٤ الموافق ٢١ مايو سنة ١٨٧٧ إحداهما بوجوب القتال على كل مسلم، والثانية بإضافة لفظة (غازي) على اسم جلالة السلطان في الأوامر وعلى المنابر ، بناء على ما جاء في الحديث الشريف (من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا) .

أما دول أوروبا فأظهروا جميعاً عدم المساعدة للدولة ولو أدبياً وقلبوا لها ظهر المجن، بعد ماأوصلوا المسألة الى الحرب بتداخلهم الغير شرعي واقتراحهم على الباب العالي ما لا يمكنه قبوله. وإن قال معترض مخاتل أن انكلترا اعترضت على هذه الحرب بجواب أرسله اللورد دربي الى اللورد اغسطوس ليفتوس سفير انكلترا في عاصمة الروسيا بتاريخ أول مايو سنة ١٨٧٧ فنقول: إن ذلك لم يكن حباً للدفاع عن الدولة العلية، فإنها لم تحرّك مركباً ولا جندياً لموآزرتها إنما كان احتجاجها خوفاً على مصالحها وعلى حرية الملاحة في بوغاز السويس من أن تعبث بها أيدي الروسيا بحجة أن مصر جزء من الدولة العلية وعساكرها متحدة مع جيوش الدولة في محاربتها. لكنها كفت عن المعارضة والتزمت الحيادة كباقي الدول بمجرد ما أجابها البرنس غورشاكوف بتاريخ ٧ مايو أن الروسيا ليس من قصدها أن تحصر خليج السويس ولا أن تتعرض لمنع سير السفن فيه، فإنها تعتبره بمنزلة مصلحة عمومية تشترك فيها تجارة جميع الأمم، فيجب أن يبقى دائماً سالماً من التعرض. أما مصر فانها جزء من الممالك العثمانية وعساكرها مختلطة بالعساكر التركية ومن ثم يسوغ للروسيا أن تعتبرها محاربة لها. ومع ذلك فإن الروسيا لا تتخذها هدفاً لأعمالها الحربية لما فيها لأوروبا عموماً وإنكلترا خصوصاً من المصالح .

الأعمال الحربية

إن ما حصل بين الجيوش العثمانية وعساكر الروسيا من الوقائع الحربية لم يزل مسطوراً في ذهن القرّاء لقرب عهده، فان جميعنا يعلم ما أتاه الغازي عثمان باشا عندما حصرته جنود الروسيا في مدينة (بلفنه) [1] من الأعمال التي شهد له بها العدوّ قبل الصديق، وما أتاه الغازي أحمد مختار باشا في جهات قارص وأرضروم ولذلك كان يمكننا أن نضرب صفحاً عن تفصيل هذه الوقائع بدون إخلال بموضوع هذا الكتاب .لكن آثرنا تتميماً للفائدة أن نأتي على تلخيصها بغاية الإيجاز فنقول :

إنه قبل إعلان الحرب رسمياً باربع وعشرين ساعة اجتازت عساكر الروسيا خلافاً لأصول الحرب تخوم رومانيا قاصدة بلاد الدولة العلية التي يفصلها عن رومانيا نهر الدانوب ،فاحتجت الدولة ضدَّ تحالف رومانيا مع الروسيا مع أنها لم تزل صاحبة السيادة عليها ولكن أين المجيب والكل يد واحدة.ولما لم تجد الدولة من أوروبا أذناً مصغية أرادت معاقبة رومانيا على هذه الخيانة فأرسلت بعض سفنها الحربية في الطونة لاطلاق قنابلها على سواحلها فكان هذا الجزاء حاملاً لها على التظاهر بالعدوان والمناداة بالاستقلال في ١٤ مايو سنة ١٨٧٧ والاشتراك فعلاً مع الروسيا في الحرب وانضمام جيشها البالغ ستين ألف جندي تقريباً الى الجيش الروسي .

هذا ومن تأمل في خريطة الدولة العلية يرى أنه يفصلها عن الروسيا ورومانيا حاجزان طبيعيان أهمّ من الحواجز والمعاقل الصناعية وهما نهر الدانوب وجبال البلقان ،فلو اجتيز الأوّل أمكن جيوش الدولة التحصن في الثاني ولذلك كانت الحرب أوّلاً على شاطىء الدانوب وبعد عدَّة وقائع حربية ومناورات عسكرية اجتاز الجنرال (زمرمان) الطونه في ٢٢ يونيه .

وفي ٢٧ منه عبر الجيش الروسي بأجمعه النهر وقصد مدينة (ترنوه) فاحتلها . وفي أواسط يوليو احتل البارون (دي كرودر) مدينة نيكوبلي واحتل الجنرال

(١) بلفنه Pleven تقع اليوم في شمال بلاد بلغاريا بالقرب من الحدود الرومانية والى الشمال الشرقي من صوفيا .

(جور كو) مضايق البلقان الموصلة لمضيق شيبكا [1] الشهير وعند وصول هذه الأخبار إلى الأستانة استولى الرعب والقلق على سكانها، اذ لو اجتاز الروس مضيق شيبكا لخيف على دار السعادة نفسها من الوقوع في قبضة العدوّ لا قدّر الله ولولا وضع الاستانة في ١١ جمادى الأولى سنة ١٢٩٤ (٢٤ مايو سنة ١٨٧٧) تحت الاحكام العرفية وتوقيف سير القوانين النظامية لحصل بها من الفتن والقلاقل ما يكون عوناً ومعيناً للعدوّ على التقدم للأمام، لكن انتباه القوة الضابطة منع كل أمر مخل بالراحة. وقد نسب هذا التقهقر المستمر أمام جيوش الروسيا الى عدم كفاءة السردار الأكرم عبد الكريم باشا وناظر الحربية رديف باشا، فعزلا في ٢٢ يوليو وتعين محمد علي باشا[2] قائداً عاماً للجيوش العثمانية واستدعى سليمان باشا الذي الذي كان يحارب سكان الجبل الأسود وانتصر عليهم في عدة مواقع لحضوره مع جيوشه المدربة للمساعدة على صد الروس، وعين محمود باشا داماد(صهر)الحضرة السلطانية ناظراً للحربية مؤقتاً. ثم أحيل عبد الكريم باشا ورديف باشا وغيرهم من الضباط العظام، الذين نسب إليهم إهمال أو تقصير وغير ذلك مما سهل على الروس اجتياز الدانوب فجبال البلقان، وحكم على أغلبهم بالنفي الى جهات مختلفة .

وفي أثناء ذلك أتى الغازي عثمان باشا من معسكره بمدينة (ودين) لمساعدة مدينة نيكوبلي، ولما وصله خبر سقوطها في أيدي الروس قصد مدينة (بلفنه) لاهمية موقعها الحربي ووجودها على ملتقى الطرق العمومية الموصلة بين مضايق جبال البلقان وبلغاريا الغربية والطونه وأقام حولها المعاقل والحصون المنيعة التي جعلت الاستيلاء عليها من رابع المستحيلات، لكن لاستخفاف الروس بهذه الاستحكامات هاجموها في ٢٠ يوليو فارتدوا على أعقابهم خاسرين، ثم أعادوا الكرة عليها في ٣٠

---

(١) شيبكا Sipka تقع في وسط بلغاريا ، في نصف الطريق بين صوفيا وبين البحر الاسود. والمؤلف لا يقصد بالمضيق مضيقاً بحرياً بل هو مضيق جبلي (المحقق) .

(٢) هو روسي الأصل ومسيحي الدين ثم اعتنق الدين الاسلامي .وفي سنة ١٢٦١ دخل في سلك العسكرية وفي سنة ١٢٨٧ وصل الى رتبة فريق . ولما ابتدأت الحرب الروسية أحسن اليه برتبة المشيرية وأرسل الى جهات الروملي .

منه بقوّة عظيمة مؤلفة من ثلاثين أورطة [1] من المشاة وقدرها من الخيالة ومائة وستة وثمانين مدفعاً،فعادوا بخفي حنين بعد أن خضبوا الأرض بدمائهم وأفعموا الوديان بجثثهم، وحينما وصل خبر هذا الفوز المبين تلغرافياً الى مسامع السلطان الشريفة أصدر في الحال فرماناً عالياً باظهار الممنونية له ولجميع الجيوش المؤتمرة به تاريخه ٢٠ رجب سنة ١٢٩٤ (٣١ مايو سنة ١٨٧٧) وهاك ترجمته:

مشيري سمير الصداقة عثمان باشا،

لقد أعليت الشأن العثماني وصيت عساكرنا وناموسهم بغزوك الجديد المضاف الى خدماتك السالفة الموسومة بشعار البسالة،فالحق تعالى ومفخر الأنبياء يعضدانك في الدارين. وسلم على كافة الأمراء والقوّاد وعلى جنودي المنصورة بالأفراد،أولئك الجنود قرّة باصرة افتخاري والمقدّمون على أولادى. فلا جرم أنهم بغزواتهم الغضنفرية يستفزون سلطانهم للسرور والممنونية والله المسؤول أن ينيلهم النجاح والسعادة الأبدية ويوفقهم في سبيل المحافظة على اللواء العثماني لمثل هذه الغزوات ويوصلهم صوريا ومعنوياً لمراتب المكافآت العاليات. وقد منحتكم النيشان العثماني مكافأة لخدمتكم وأمرت بتوجيه الرتب وإجراء التلطيفات للامراء والضباط كما عرضتم، وأنتم مأذونون بأن تعدوا فيما بعد الأمراء والقوّاد وتبشروهم فوراً بالمكافآت التي يستحقونها متى امتازوا بأثر فداء خارق للعادة ،وأن تعرضوا ذلك لدار السعادة،على أنه تقرر لدي أن يرسل لطرف حميتكم مأمور مخصوص ليبين لكم جميعاً ممنونيتي وتشكري اهـ.

واقعة بلفنه

وبعد تقهقر الروس أمام بلفنه ووصول المدد من جميع الجهات،أمكن العثمانيين الهجوم بعد الاقتصار على الدفاع وانقسم الجيش الى ثلاث فرق: الأولى انضمت إلى عثمان باشا في بلفنه للدفاع عنها. والثانية تحت إمرة محمد علي باشا السردار الأكرم جعلت وجهتها محاربة الجيش القائد له البرنس اسكندر ولي عهد القيصر. والثالثة تحت أمرة سليمان باشا الذي اشتهر أولاً في محاربة ثائري البوسنه والهرسك

---

(١) اصطلاح مصري لوحدة عسكرية لا أعرف عدد جنودها .

وأخيراً في محاربة الجبل الأسود ووجه اهتمامه لاسترداد مضايق شيبكا من أيدي الروس. وكادت الفرقتان الأخيرتان تتم مأموريتهما فتتحد الجيوش العثمانية وتسير معاً لارجاع الروس الى التخوم وقهرهم على اجتياز نهر الطونه خائبين لولا خيانة دي هوهنزولرن أمير رومانيا ومجيئه الى ميدان القتال بنحو مائة ألف مقاتل ملئت قلوبها غلا للدولة العلية صاحبة السيادة، ومجيء قيصر الروس بنفسه لتشجيع العساكر على الحرب وبث روح الثبات والإقدام فيهم. فانقلبت الحال ولم تجد العثمانيون انتصاراتهم المتعددة على الروس حوالي بلفنه وأمام مضيق شيبكا لتوارد المدد يومياً من الروسيا. ثم صمم الروس على محاصرة بلفنه محاصرة أصولية لتيقنهم من استحالة أخذها هجوماً نظراً لمناعة المعاقل والحصون التي أقامها عثمان باشا حولها. وأناطوا هذه المأمورية بالجنرال (تودلين) الذي اشتهر بالدفاع عن مدينة سباستوبول في الحرب السابقة، فجمعوا حولها العدد الكافي من العساكر والمدافع لاتمام حصارها والإحاطة بها إحاطة السوار بالمعصم. وبعد عدَّة وقائع تم حصارها في ٢٤ اكتوبر سنة ١٨٧٧ وصار وصول المدد اليها مستحيلاً وابتدأت الأعمال للاستيلاء على الحصون الأمامية. واستمر القتال حولها ولا شيء يثني عثمان باشا وجيوشه عن الدفاع حتى تفد ما كان عنده من الذخائر والمؤن فعزم على الخروج بجيوشه والمرور من وسط الأعداء فيسلموا ويسلم معهم، أو يموتوا شهداء الدفاع عن بيضة الاسلام. ولما عقد على هذا العزم استعد لانفاذه حتى إذا كان يوم ١٠ دسمبر سنة ١٨٧٧ أخلت العساكر العثمانية جميع القلاع المحيطة بالمدينة وخرجوا جميعاً من جهة واحدة مهللين ومكبرين، فقابلهم العدو بمقذوفاته الجهنمية. أما الليوث العثمانية فلم تعبأ بهم بل استمرت في سيرها عدواً نحو الاستحكامات التي كان أقامها الروس حول المدينة على ثلاثة خطوط متعاقبة ونفذوا كالسيل المنهمر من أعالي الجبال الذي لا يعوقه شيء في اندفاعه على مدافع الخط الأول والثاني وكادت تستولي على الخط الثالث وتتخلص من هذا الحصار وتفوز بالنصر المبين لولا أن أصيب قائدهم عثمان باشا الغازي برصاصة نفذت من ساقه الأيسر وقتلت حصانه فسقط هذا الشجاع على الأرض وظنت عساكره انه استشهد وبمجرد ما شاع خبر موته الغير حقيقي استولى الفشل على جميع الجنود وأرادت الرجوع الى المدينة. وحيث كان قد احتلها الروس عقب خروجهم منها قابلهم

بالنيران من الخلف فصار العثمانيون بين نارين. وبعد أن دافعوا عن أنفسهم دفاعاً شهد الأعداء بأنه من خوارق الأمور التزموا برفع الراية البيضاء علامة على التسليم. فاوقف الروس إطلاق النيران وتقدم اللواء توفيق باشا رئيس أركان حرب الجيش العثماني القائد له عثمان باشا وطلب مقابلة القائد العام الروسي. ولما قابله سأله عما اذا كان معه اذن بالكتابة من عثمان باشا يجيز له الاتفاق على التسليم، فأجابه أن عثمان باشا جريح ويود لو أتى إليه أحد قوّاد الروس للاتفاق معه فقبل القائد (جانتسكي) ذلك وأرسل الجنرال (استروكوف) فتوجه هذا الجنرال الى عثمان باشا في البيت الذي كان دخل فيه للاستراحة وقال له بعد التحية إن القائد الذي أرسله لا يمكنه أن يمنحه أيّ شرط ولا أن يقبل التسليم الا اذا ألقى العثمانيون أسلحتهم لعدم وجود أوامر عنده من القائد العام الغراندوك نيقولا أخي القيصر. ولما أجابه عثمان باشا بالإيجاب عاد الجنرال استروكوف الى مرسله وأخبره بذلك فأتى الى مقر عثمان باشا، وبعد أن هنأه على ما أتاه من الأعمال التي تشهد له بعلوّ المكانة وتخلد له اسماً في التاريخ طلب إصدار أوامره الى جيوشه بالقاء السلاح فامر بذلك ثم سلم سيفه.

وبعد ذلك أتى إليه بعربة فركبها قاصداً مدينة بلفنه وفي أثناء سيره قابله الغراندوك نيقولا ومعه البرنس شارل أمير رومانيا فأوقف العربة وسلما عليه مصافحة. وفي صبيحة اليوم الثاني توجه عثمان باشا الغازي متكئاً على طبيبه الخاص الى المحل الذي نزل به القيصر اسكندر الثاني بعد دخوله مدينة بلفنه لمقابلته. وعندما دخل على الامبراطور قام إجلالاً له وسلم عليه وأظهر له إعجابه من دفاعه ومحاولته الخروج من بين صفوف المدافع المحيطة به. ثم قال له إني اردّ اليك سيفك علامة على احترامي لك وإكباري لشجاعتك وأجيز لك أن تحمله في بلادي وعند انصرافه سلم اليه الجنرال (ماجور استين) سيفه ثم عاد إلى منزله. وفي ١٦ دسمبر أنزل في قطار مخصوص إلى مدينة كركوف [١] حيث أمر بالاقامة الى انتهاء الحرب ولنذكر هنا إظهاراً لفضل عثمان باشا وجيوشه أن عدد من كان معه لا يزيد عن خمسين ألفاً، ولم يكن معهم من

---

(١) مدينة كركوف Krakov هي اليوم من بلاد بولونيا وتقع في جنوب البلاد بالقرب من الحدود التشيكوسلوفاكية (المحقق).

المدافع سوى ٧٧ مدفعاً مع أن الجيش الروسي الذي خصص لحصار بلفنه بلغ ١٥٠٠٠٠ جندي و ٦٠٠ مدفعاً.ومن ذلك يظهر للقارىء شجاعة العثمانيين وثباتهم أمام العدو .ومما يؤثر عنهم ايضاً انهم لم يسلموا أعلامهم مطلقاً بل حرقوا بعضها ووضعوا البعض الآخر في صناديق من حديد ودفنوها في باطن الأرض ومن قارن هذه الحادثة بحادثة مدينة (متس) [1] التي سلمها المارشال الفرنساوي بازين [2] للعدو، مع أن جيوشه ومدافعه كانت تعادل أو تزيد عن جيوش ومدافع العدو وسلمها مع ما فيها من الجيوش والمدافع بدون أن يسعى في الخروج كما فعل عثمان باشا، يتحقق له أنه لولا محاربة الدولة العلية البوسنه والهرسك والبلغار ثم الجبل الأسود والصرب قبل محاربتها الروسيا لفازت بلا شك ولا مرية في هذه الحرب الأخيرة، ولكن النصر بيد الله يؤتيه من يشاء .

الاعمال الحربية في الاناطول

أما من جهة آسيا فكان النصر أوّلاً في جانب العثمانيين حتى ردّوا غارة الروس عن بلادهم وتبعوهم الى داخل بلاد الروسيا،وذلك أن الجنرال (لويس مليكوف)

---

(١) مدينة متس Metz مدينة افرنسية تقع في الشمال الشرقي من فرنسا بالقرب من الحدود الألمانية .

(٢) مارشال فرنساوي ولد سنة ١٨١١ ولما بلغ العشرين من عمره دخل العسكرية بدرجة عسكري وسافر الى بلاد الجزائر فترقي فيها تدريجياً حتى وصل الى رتبة لواء سنة ١٨٥٤. وأعطيت اليه رتبة فريق في حرب القرم ثم رتبة مشير (مارشال) في محاربة المكسيك.وفي حرب سنة ١٨٧٠ جعل قائداً عاماً للجيش المحافظ على مدينة متس وضواحيها فسلم جيوشه ومهماته للبروسيا في ٢٨ اكتوبر سنة ١٨٧٠ ثم حوكم أمام مجلس عسكري في سنة ١٨٧٣ وحكم عليه بالاعدام بعد التجريد من جميع رتبه ونياشينه وعفت عنه الحكومة مستبدلة الاعدام بالسجن المؤبد فجرد وسجن ثم هرب وأقام بمدينة مدريد (المسماة في كتب العرب مجريط) حتى توفي سنة ١٨٨٨ . أقول: وقد استسلم بازين Bazaine للالمان في حرب ١٨٧٠ وهي الحرب التي أعلنها نابليون الثالث على المانيا فخسرها بعد معركة سيدان Sedan وألغيت الأمبراطورية في فرنسا وعادت جمهورية .

حاصر مدينة قارص والجنرال (درهو جاسوف) وجه اهتمامه لفتح مدينة با يزيد [1]
بينما كان باقي الجيش الروسي يجري عدة مناورات عسكرية لاسقاط مدينتي أردهان
وباطوم [2] ثم قام الجنرال لوريس مليكوف ببعض جيوشه لمساعدة الجنرال دوفيل
على أخذ اردهان .

وفي ١٧ مايو فتحاها عنوة وعادا لتشديد الحصار على قلعة قارص وقد احتل
الجنرال درهو جاسوف مدينة بايزيد في ٢٠ مايو وانتصر على العثمانيين في ١٠
يونيه.وفي ٢١ منه وفي أثناء ذلك تمكن أحمد مختار باشا من ترتيب الجيوش التي
أتت إليه من كل فج وأغلبها غير منتظم واحتل مرتفعات (زوين) وتسمى بالتركية
(كروم دوزي) بقوّة عظيمة ،وأرسل اسمعيل حقي باشا من جيش الأكراد لمهاجمة
الجنرال درهو جاسوف ،فاراد الجنرال لوريس مليكوف اسعافه فانتصر عليه مختار
باشا انتصاراً عظيماً في ٢٥ أغسطس سنة ١٨٧٧ لم يسع الروس بعده الا التقهقر بغاية
الفشل ورفع الحصار عن مدينة قارص قاصدين مدينة الكسندروبول [3] الروسية.
وتقهقر كذلك الجنرال درهو جاسوف الى تخوم الروسيا يتبعه اسمعيل حقي باشا
بقوّة عظيمة .

وبعد ذلك انتصر العثمانيون على الروس في ستة وقائع مشهورة منها:واقعة
كدكلر التي لما بلغ السلطان خبرها أرسل الى أحمد مختار باشا فرمانا بإظهار ممنونيته
تاريخه ١٨ شعبان سنة ١٢٩٤ : (٢٨ اوغست ١٨٧٧) وهاك ترجمته :

مشيري سمير الحمية أحمد مختار باشا

لقد زينتم مهمّ صحائف تاريخنا العسكري بغالبيتكم التي أحرزتموها في محاربة

---

(١) بايزيد وتسمى اليوم دوغوبايزيد Dogubayzit وتقع في شرق الأناضول بالقرب من الحدود الايرانية الى الجنوب الشرقي من قارص .

(٢) باطوم : ميناء على شاطئ البحر الأسود وهي اليوم داخلة في الاتحاد السوفييتي ،وتقع أردهان في البلاد التركية الى جنوبها شرقاً كما تقع قارص الى جنوب شرق أردهان .

(٣) لم أعثر على كل من زوين والكسندروبول ولعل لينيناكان Leninakan ، التي تقع الى الشمال الشرقي من قارص هي الكسندروبول ،وهي الآن من بلاد الاتحاد السوفييتي .

كدكلر [1] ، أما جنودنا الذين ما برحوا نصب أعيننا فقد أثبتوا ،على الوجه الأتم في هذه الحرب التي أظهروا بها الثبات والاقدام في صورة خارقة للعادة ، امتلاكهم للخصلة العثمانية ، على أن مقابلتهم في جميع الوجوه للتدابير الماهرة التي أجراها العدوّ في ميدان الحرب بحيث أسفرت نتيجتها عن اكتسابهم حرباً ذات شأن وظفر كانت برهاناً جلياً على كمال انتظامهم العسكري فأضحت لدينا هذه المظفريات باعثة لكمال التقدير والتحسين ، فأتشكر أنا وهيئة الدولة والملة معاً منكم جميعاً . وقد أمرت بترفيع رتب الأمراء الذين شهدتم باستحقاقهم حسبما أنهيتم، وسأتوفق ان شاء الله لأن أعلق بيدي نياشين الظفر في صدور سائر أفراد الأمراء والضباط . وقصارى المسؤول من جناب الناصر الحقيقي حضرة العادل المطلق الشاهد على صدق دعوانا الحقة في هذه الحرب الحاضرة أن يتعاهد بعد الآن أيضاً بعناية وبمدد روحانية سيدنا الرسول الأمين الذي هو العروة الوثقى في الحاجات عسكرنا بالنصر المبين في حروبهم وغزواتهم وأن يجعلهم مسرورين بحماية العلم الاسلامي ، هذا وأسلم على رفقائكم في السلاح فرداً فرداً والحق تعالى لا يعزب عنكم نصرته البالغة الصمدانية اهـ .

وبسبب ما ذكر اضطرب الغراندوك ميخائيل ، حكمدار عموم بلاد القوقاز ، وأرسل يطلب المدد والذخائر ، وظلت الجيوش الروسية تدافع حتى أتت اليها عدَّة لواءآت من المشاة وعدد عظيم من المدافع .

---

(١) كدكلر : لم أعثر عليها .

سقوط قارص

وفي أواخر شهر سبتمبر سنة ١٨٧٧ اتخذ الجنرال لوريس مليكوف خطة الهجوم ثانياً ،ولعدم ارسال جيوش جديدة إلى مختار باشا واستشهاد عدد كبير من جنوده في هذه الوقائع المستمرّة لم يمكنه مقاومة الجيوش الروسية الجديدة التي لم يضنها التعب بل رجع القهقرى قاصداً مدينة أرضروم فتبعه القائد الروسي وهزمه في موقع يقال له (آلاجه طاغ)[1]. ثم حاصر مدينة قارص ثانياً وفتحها عنوة في ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٧ بعد أن حاول من بها الخروج من وسط المدافع الروسية ،وغنم منها ثلاثمائة مدفع تقريباً .

أما مختار باشا بعد أن حاول مساعدة قارص وانتصر عليه الأعداء في موقعة (دوه بيون) في ٤ نوفمبر عاد الى أرضروم حيث حصره العدوّ ومنع وصول المدد إليه .

وبمجرد وصول خبر سقوط قارص في نوفمبر وبلفنه في ١٠ دسمبر أيقن الصربيون أن الفوز والنجاح سيكونان في جانب الروسيا ولم يتأخروا في اعلان الحرب على الدولة صاحبة السيادة عليهم التي لم ترتكب نحوهم إثماً الا احترام دينهم ولغتهم ،وأوصل هذا الاعلان الى الباب العالي المسيو كريستين سفير الصرب في الاستانة في ١٤ دسمبر سنة ١٨٧٧ أعني بعد سقوط بلفنه بأربعة أيام ،وسارت عساكرهم على الفور للانضمام إلى جيوش الروسيا التي بعثهم إلى هذه الحرب اذ

---

(١) آلاجه طاغ : هناك جبل في شمال أرضروم اسمه جبل الله أكبر ولعله سمي بذلك بعد هذه الهزيمة ولا يوجد جبل في هذه النواحي باسم آلاجه بل هناك بلد اسمه آلاجه يقع إلى الشمال الشرقي من أنقره والى جنوب صامسون (المحقق) .

أن البرنس ميلان لم يعلنها الا بعد أن تقابل مع امبراطور الروسيا واتفق معه على ما يعطي له بعد الحرب جزاء خيانته .

وقابل الباب العالي هذا العدوّ الجديد مقابلة عدوّ منتظر من يوم لآخر .

وفي ٢٠ دسمبر سنة ١٨٧٧ أرسل الباب العالي لأهالي الصرب منشوراً يظهر لهم فيه غدر حكومتهم وخيانتها وانها تسوقهم الى الدمار والبوار بدون سبب مطلقاً ويخبرهم بأن جلالة السلطان متبوعه الاعظم قد أمر بعزله من منصب الامارة جزاء عدم محافظته على العهود، بعد أن عفت عنه الدولة أكثر من مرة، فلم يعبأ البرنس بهذا العزل بل استمر على محاربة متبوعه الى أن انتهت الحرب وثبت في وظيفته وزيدت امتيازاته بمساعدة الدول ومنح لقب ملك كما سترى . ومن جهة أخرى فإن امارة الجبل الاسود لم تتفق مع الباب العالي على الصلح قبل إعلان الروسيا الحرب كما ذكرنا . ولذلك اشترك جيشها في القتال بكيفية كانت نتيجتها تعطيل جزء ليس بقليل من عساكر الدولة في محاربته وعدم إمكان هذا الجزء محاربة الروسيا في جهات البلقان ومن ذلك يتضح للمطالع ما كان بين الجيشين المتحاربين من التفاوت هذا تساعده رومانيا والصرب والجبل الأسود جهاراً وجميع المسيحيين التابعين للدولة العلية باوروبا سراً والدول تتمنى له النجاح والفلاح، وذلك بمفرده لا مساعد ولا صديق وجيوشه أضناها التعب والنصب في محاربة الامارات والولايات المسيحية التي ثارت قبل الحرب إطاعة للدسائس الخارجية . ومع هذه المميزات فقد فازت الجيوش العثمانية أكثر من مرة ودافعت دفاعاً اضطر العدو قبل الصديق إلى الاقرار بشجاعتها والاعتراف بثباتها . في واقعة بلفنه وغيرها، مما يعد منها ولا تعد، ما يكفي لقطع لسان كل مكابر خوّان .

ولما توالت الحوادث المذكورة طلب الباب العالي من الدول التوسط بينه وبين الروسيا لابرام الصلح وحقن دماء العباد وأرسل بذلك منشوراً الى الدول الست العظام فلم يرد له جواب شاف، بل كانت كل منها تودّ انكسار الدولة تماماً قبل التدخل في الصلح حتى يمكنها التهام قطعة من أملاكها نظير توسطها .

وبعد ذلك استمر القتال في قلب الشتاء بدون انقطاع رغماً عن تكاثر الثلج وصعوبة مرور المدافع . وبسبب سقوط مدينة بلفنه وخلوّ الجيوش الروسية التي كانت

محاصرة لها من الأشغال وجهت جميع جيوشها الى ما وراء جبال البلقان للاغارة على بلاد البلغار والروملي الشرقية واحتلال مدائنها الحصينة بمساعدة الجيش الصربي. فاجتاز الجنرال (جوركو) جبال البلقان ودخل مدينة صوفيا عاصمة البلقان في ٤ يناير سنة ١٨٧٨ ثم احتل مدينة فليبه في مساء ١٥ من هذا الشهر، وأخيراً دخلت مقدمة فرقة الجنرال سكوبلف[1] مدينة ادرنة في ٢٠ منه، ومنها سار الروس نحو الاستانة وتقدموا بدون أن يجدوا معارضة تذكر الى مسافة خمسين كيلومتراً فقط من عاصمة الخلافة العظمى.

وفي هذه الأثناء كان أهالي الجبل الأسود قد احتلوا مدينة انتيباري ووصلوا الى ضواحي اشقودره ودخل الصربيون مدينة نيش. ولذلك لم تر الدولة العلية بداً من طلب الصلح وقبول ما يطلبه العدو لعدم قدرتها على استمرار القتال وتبديد جيوشها ووصول العدوّ الى ضواحي الاستانة.

وحيث قد انتهينا من ذكر الوقائع الحربية بغاية الإيجاز فلنشرح الآن ما جرى بين الطرفين المتحاربين والدول من المخابرات السياسية، تاركين شرح تفصيلات هذه الحرب بحذافيرها الى حضرات الضباط المصريين الأفاضل الذين رافقوا المرحوم حسن باشا وحضروا أغلب وقائعها وعلموا أسباب انتصار الروس العسكرية وغيرها. واننا نرجو أنهم لا يعدموننا ذلك وكلهم من الفضلاء النبلاء الذين يمكنهم بيان ما لا يمكننا ذكره لعدم خبرتنا في الأمور العسكرية، ويكونون بذلك قد قاموا بخدمة عظيمة نحو الملة الاسلامية عموماً.

أما ما تحمله المسلمون من أنواع الإيذاء والتعدّي من قبل البلغاريين بمجرد سماعهم باقتراب الجيوش الروسية فمما يعجز القلم عن وصفه، ولذا هاجر أغلب المسلمين الى الاستانة هرباً مما كانوا ينتظرونه ووقع فيه فريق منهم من النهب والقتل

---

(١) قائد روسي ولد سنة ١٧٤٣ واشتهر في محاربة وفتح عدة أقاليم بأواسط آسيا. وفي سنة ١٨٧٣ احتل مدينة خيوه عنوة وامتاز في هذه الحرب الروسية الأخيرة وبعد انقضائها عاد الى بلاد تركستان وحارب بعض قبائلها وتوفي بغتة في مدينة موسكو سنة ١٨٨٢ غير بالغ الأربعين من عمره.

وتركوا أملاكهم وأمتعتهم قاصدين ملجأ الخلافة الاسلامية أفواجاً حتى غصت شوارع الاستانة بهم وأعيت الحكومة الحيلة في تقديم ما يلزم لها من الملبس والمأكل والوقود في هذا الشتاء القارس. ولذلك تشكلت عدّة جمعيات لمساعدتهم فجمعت أموالاً طائلة من جميع الأهالي مع اختلاف أديانهم ومذاهبهم. ولم يلبس هؤلاء المساكين ان أصيبوا بداء التيفوس فمات كثير منهم ولولا إسراع الدولة في ابرام الصلح وتوزيعهم على ولايات الأناطول لهلكوا عن آخرهم اذ أنهم كانوا يؤثرون الموت على العودة الى بلادهم التي احتلها الروس وساد فيها المسيحيون، وكان ذلك منتهى أمل الروسيا التي كانت تودّ مهاجرة المسلمين عن جميع الولايات المصممة على منحها الاستقلال .

المخابرات الابتدائية والهدنة

هذا أما ما حصل في بلاد مقدونية وتساليا وغيرها وفي جزيرة كريد من الفتن بدسائس مملكة اليونان فلا يعتد به لقلة أهميته، ووعد قناصل الدول الثائرين بالنظر في طلباتهم عند اتمام الصلح مع الروسيا .

وفي أوائل شهر يناير سنة ١٨٧٨ عين الباب العالي كلا من نامق باشا وسرور باشا مرخصين من طرفه لمخابرة الغراندوق نيقولا في أمر توقيف القتال وأرفقهما بمأمورين عسكريين وهما نجيب باشا وعثمان باشا (خلاف بطل بلفنه) لما يختص بالامور العسكرية .

وفي ١٤ يناير سافر هؤلاء المندوبون الى قزانلق [١] لمقابلة البرنس الروسي فوصلوا إليها في ١٩ منه لتعطيل السكك الحديدية. وبعد أن عرضوا ملخص مأموريتهم أجابهم أنه سيطلب الاستعلامات اللازمة من جلالة القيصر ويعطيهم الجواب النهائي في مدينة أدرنه التي دخلها الروس في ٢٠ منه كما ذكرنا. ولما وصلوا اليها في معية البرنس ابتدأت المخابرات . وفي ٢٠ منه صار التوقيع على اتفاقين أحدهما بين الغراندوق نيقولا وسرور باشا ونامق باشا مفاده منح الاستقلال الإداري للبلغار ،

(١) مدينة في وسط بلغاريا تقع الى الشمال الشرقي من صوفيا .

والاستقلال السياسي للمملكتين (رومانيا) وللجبل الأسود مع تعديل في حدودهم وإعطائهم بعض أراض من أملاك الدولة وتقرير غرامة حربية للروسيا تدفع نقداً أو يستعاض عنها ببعض القلاع والحصون . والآخر بين نجيب باشا وعثمان باشا ومندوبين عسكريين من قبل الغراندوق يختص ببيان شروط المهادنة .

وأوقفت الحركات العدوانية من الساعة السابعة من يوم ٣١ يناير سنة ١٨٧٨ ثم أعلن الباب العالي في ٥ فبراير برفع الحصار عن سواحل الروسيا الواقعة على البحر الأسود ثم عاد الغراندوق نيقولا الى سان بطرسبورج عاصمة الروسيا حيث قوبل بكل احترام واجلال .

ولما علمت الدولة بالهدنة والاتفاق على مبادئ الصلح طلبت النمسا من انكلترا عقد مؤتمر من مندوبي الدول الموقعة على معاهدة باريس المبرمة في سنة ١٨٥٦ ينظر في شروط الصلح خوفاً من أن يكون لها ما يجحف بحقوق الدول الأخرى فقبلت انكلترا هذا الطلب واقترحت أن يكون اجتماع هذا المؤتمر في مدينة باد [١] . ثم توقفت هذه المخابرات بسبب محاولة الروسيا ورغبتها في إنهاء الصلح بدون توسط باقي الدول فانها لم تبلغ صورة هذه الاتفاقيات الى الدولة العلية ولا باقي الدول الا بعد إمضائها بثمانية أيام ولم تنشر في الجريدة الرسمية الا في ١٥ فبراير سنة ١٨٧٨ .

وفي هذه الفترة اضطربت الأفكار في أوروبا وأشيع أن العساكر الروسية قد احتلت الاستانة ومع تكذيب هذه الاشاعة رسمياً فقد أمرت انكلترا دونانمتها الراسية في خليج (بزيكا) [٢] بالتوجه الى الاستانة لحماية رعاياها،وفي الحقيقة لمراقبة

---

(١) مدينة جميلة بامارة باد وتسمى أوبادن بالتكرار وبها حمامات معدنية حارة يقصدها كثير من الناس للاستحمام بها ولا يزيد عدد سكانها الأصليين عن ثلاث عشر ألف نسمة . أقول : إن مدينة بادن في سويسرا ، وبادن بـادن في ألمانيا الغربية وفي كلا البلدين مياه معدنية . والمقصود هنا بادن بادن .

(٢) بزيكا : لم أعثر على خليج بهذا الاسم لأن المؤلف لم يذكر أين يوجد هذا الخليج لا سيما وان الخلجان كثيرة في شواطئ تركيا واليونان والجزر المحيطة بهما . (المحقق) .

حركات الروسيا ومنعها بالقوّة لو أرادت احتلال الاستانة .

ولما كان الباب العالي قد أباح للدونانمة الانكليزية المرور من بوغاز الدردنيل أثناء مخابرات أدرنه أراد الأميرال الانكليزي المرور بمقتضى التصريح القديم فمنعه حكمدار القلعة (سلطانية) .

ولذا أرسل الأميرال الى نظارة البحرية يخبرها بذلك فأمرته بالمرور بالقوّة. وكتب وزير الخارجية الى الباب العالي يعلمه بعزمها خوفاً من الطولة وضياع الوقت في المخابرات للحصول على هذا الجواز.فجمع وزير الخارجية سرور باشا الذي خلف صفوت باشا الوزراء الحاليين والاقدمين وبعد مباحثة طويلة اكتفى الباب العالي باقامة الحجة ضدّ انكلترا ودخلت المراكب الانكليزية أمام الاستانة في مياه البوسفور .

ولنذكر قبل شرح المخابرات السياسية التي كانت نتيجتها إبرام معاهدة سان استفانوس [1] ثم تعديلها بمقتضى معاهدة برلين بعض ما حصل في الاستانة من الأمور الخطيرة فنقول : إن مجلسي المبعوثان والأعيان دعيا للاجتماع للنظر في شؤون الدولة فاجتمعا معاً بهيئة برلمنت (مجلس نيابي) في ٧ ذي الحجة سنة ١٢٩٤(؟ دسمبر ١٨٧٧) وألقي عليهما خطاب عن لسان جلالة مولانا السلطان الاعظم شارح حالة الدولة وما وصلت إليه من العسر بسبب الحرب القائمة بينها وبين الروسيا واليك ترجمته نقلا عن مجموعة الجوائب :

يا أيها الاعيان والمبعوثان ،

إنني أكتسب الممنونية بفتح المجلس العمومي وبمشاهدة مبعوثي الملة ،وكما هو معلوم لديكم أنه لما أعلنت دولة الروسيا الحرب على دولتنا في العام الماضي اضطررنا للمقابلة والمدافعة وما زالت الحرب قائمة على أن الوقوعات العظيمة الغير مسبوقة قد أثقلت جداً مشكلات الحرب لأن الاختلال الذي شب في هرسك منذ عامين ونصف قد ظهر أيضاً في غيرها من بعض المواقع وقسم من أهاليها المتمتعين بالمساعدات

---

(١) سان استيفانوس أو ايا استيفانوس ، ومعناها القديس اسطفان ، هي قرية أو ضاحية من ضواحي استانبول على الضفة الاوربية وتقع على بحر مرمرة (المحقق)

المخصوصة كالتساوي في الحقوق الشاملة كامل تبعتنا والمحافظة على ملتهم ولغتهم على الوجه الأتم سلكوا كيفما كان الحال طريقاً غير مشروعة فاضرّوا أنفسهم والوطن واخوتهم الوطنيين وأهالي المملكتين.كذلك أعلنوا الخصومة لدولتنا بدون سبب مشروع حالة كونهم في غبطة ببقاء استقلالية ادارتهم الداخلية.ومع هذا جميعه فالبلاد غير متأخرة عن صرف أسباب المقاومة التي اضطّرت اليها على حسب مقدرتها.وكما أن العثمانيين كافة أثبتوا بواسطة آثار الحمية التي أظهروها في هذه الحرب امتلاكهم الاحساسات الوطنية في صورة خارقة للعادة كذلك أضحى ثبات عساكرنا وبسالتهم مستوجبين تحسين العموم وتقديرهم ولم أزل أطلب معاونة تبعتنا وحميتهم لأجل المحافظة على حقنا المشروع .

على أن حصول استعداد الوصول لاكمال ترتيبات العساكر الملكية وابراز العثمانيين غير المسلمين الشوق القلبي والاشتراك الفعلي في المحافظة على الوطن هو معدود من وقوعات دولتنا السارّة .وبما أن المساعدات التي نالتها التبعة غير المسلمة قد تقوت بكليتها بالقانون الأساسي وأضحت متساوية أمام القانون وفي حقوق البلاد ووظائفها،فاشتراكها اذاً في الخدمة العسكرية التي هي أعظم الوظائف والمدخل الموصل الى حق المساواة صار أمراً طبيعياً فإذا كانت آثار معرفة الوظيفة المبرزة في هذا المطلب حرية بالتحسين وأضحى ادخال الأهالي غير المسلمة كذلك في سائر الصنوف العسكرية أمراً مقرراً، وبما أن إجراء فعل القانون الأساسي ونفوذه على الوجه الأتم ،إنما هو الواسطة الوحيدة لسلامة دولتنا، كانت أكبر آمالي معطوفة أوّلاً : لاستفادة صنوف تبعتنا بالتمام من سعادة المساواة الكاملة ومن ترقيات بلادنا المدنية والعصرية. ثانياً : للاصلاحات المالية ، ولا سيما لإيفاء تعهداتنا ولتقسيم كل نوع من أنواع التكاليف والمال الأميري (ويركو) وتحصيله في صورة موافقة لقواعد الثروة منزهة عن إضرار الأهالي.ثم لتوفيق بعض مسائل الحقوق الأساسية لاحتياجات العصر لمقصد جريان العدل الكامل في المحاكم ولاصلاح الأوقاف ولتسهيل مطلب التصرف في الأراضي ولترتيب النواحي الذي هو أساس الادارة الملكية وتقرير وظائفها ولتكميل تنظيمات الضابطة،لكن واأسفا أن الحرب الحاضرة قد عوقت

اتمام مفاعيل مقاصدنا هذه الخالصة. على أن مصائب هذه الحرب قد تجاوزت حدودها الطبيعة، فكم من الأهالي غير المدافعين الذين بمقتضى القانون الحربي ليسوا بمسؤولين عن شيء، وكم من النساء والصبيان أمسوا عرضة للمظالم الغادرة والدموية التي لا تتحمل سماعها المرحمة البشرية فأؤمل والحالة ما ذكر أن الزمان المستقبل لا يمانع رؤية الحقانية.

أما قوانين اللوائح المتعلقة بترتيبات الدوائر البلدية ووظائفها في دار السعادة والولايات تلك التي تحوّلت في العام الماضي الى مجلسكم فقد تقرر أمرها وصادق مجلس الأعيان والمبعوثان على نظاماتها الداخلية ووضعت في موقع الإجراء وقد يوجد فيما بين لوائح القوانين التي هيأتها شورى الدولة لوائح مهمة متعلقة بقوانين أصول حقوق المحاكمة والانتخابات العمومية ووظائف وكلاء الدولة ومجلسهم وقانون الديوان العالي وديوان المحاسبات، فقصارى ما أدعوكم لامالة نظر اهتمامكم إليه إنما هو المذاكرة على هذه اللوائح بافرادها وحل بعض المسائل المختلفة المتعلقة بقوانين الولايات والمطبوعات والأموال الأميرية والادارة العرفية اللواتي جرى عليها البحث في الاجتماع السابق والمذاكرة، كذلك على قانون ميزانية واردات ومصاريف السنة الآتية.

أما عدم تناسي دولتنا الاصلاحات الداخلية في مثل هذا الزمان المشغولة فيه بحرب عظيمة أقيمه كدليل فعلي على نوايانا بالترقي.

يا أيها المبعوثان،

إن ايجاد الحقائق في المسائل القانونية والسياسية وتأمين منافع البلاد يتوقفان على تعاطي أرباب المشورة أفكارهم بالحرية التامة، وبما أن القانون الأساسي يأمركم بذلك فلا أرى احتياجاً لأمر أو لترغيب آخر.

أما مناسباتنا مع الدول المتحابة فهي جارية على صورة إخلاص، هذا ونسأل الحق جل وعلا أن يجعل مساعينا مقرونة بتوفيقاته اهـ.

وفي ١٧ ذي الحجة ٢٣ دسمبر ١٨٧٧ من السنة المذكورة قدّم نوّاب الامة عريضة شكر على الخطاب السلطاني المذكور، ولبلاغته وأهمية ما جاء به من الأفكار

العالية والآراء الصائبة الدالة على المحبة والاخلاص الوطني بين جميع الطوائف على اختلاف أجناسهم وأديانهم، أتينا على ترجمته نقلاً عن مجموعة الجوائب .

«نسأل المولى خير الناصرين أن يثبت الحضرة الملوكية على سرير العدل مع التوفيق وعلو الشأن وطول العمر وكمال الصحة والعافية، فنطق [1] تلك الحضرة في أثناء رسم افتتاح المجلس العمومي اللازم اجتماعه في هذه السنة على حسب حكم القانون الاساسي الذي هو فرمان حرية العثمانيين وبرهان صلاحهم وسلامتهم المتلو يوم الخميس ابتداء كانون الاوّل (٧ ذي الحجة سنة ١٢٩٤) [2] في حضور الحضرة الملوكية صار سماعه من هيئة المبعوثان بغاية الدقة والتأمل، ولما كان من النعم الكبرى تمثل المبعوثان في حضور الحضرة السامية وصدور الاوامر من جنابه العالي بالمحظوظية من رؤياه المبعوثان حصل لعموم تبعة العثمانيين مزيد السرور مع الفخر والشرف ومن الوجوب المثابرة على محافظة الحقوق العثمانية المشروعة بمناسبة المحاربة التي فتحها الروس في هذه الأحوال الحاضرة، فانها واجبة بالطبع لكل دولة وملة ولا سيما قد اشتدت مشاكل الحرب باعلان البغي والخصام من قسم من التبعة العثمانيين غير المسلمين الذين هم في غاية الراحة وسعادة الحال من كل الوجوه منذ أعصار مضت فانهم حافظون حقوقهم ومذاهبهم وألسنتهم ونائلون المساعدات والمساوات عموماً على الدوام خصوصاً أهالي المملكتين فإنهم في أعلى الدرجات متميزون بامتيازات واسعة مخصوصة .وما فعلته الروسيا وأرباب البغي التابعون لها في أثناء ذلك من أنواع الغدر والمظالم المحسرة للقلوب في حق كثير من أولاد الوطن هو من الشقاوة المخالفة للحرية والحقوق الملية والقواعد الانسانية والمدنية. وحيث أن محافظة الدولة وحماية حقوق الملة واستكمال استقلال المملكة على ضدّ الحالة الحاضرة موكول لعهدة الحضرة السلطانية ولازم لها على كل حال وكانت المسألة محتاجة للدقة فوق العادة والمسارعة في التدابير العاجلة من كل نوع بلا ضياع وقت نقول: إن جميع

---

(١) نطق بمعنى خطاب .

(٢) مر معنا أن ٧ ذي الحجة ١٢٩٤ هـ (١٣ دسمبر ١٨٧٧ م) .

العثمانيين متحدو الأفكار في معرفة أن المبادرة في إجراء مقتضى الارادة الملوكية التي تصدر في هذا الباب بغاية السرعة هي من الوجوب وقد تجاسروا على بذل أرواحهم في سبيل المدافعة عن الوطن والملة في هذه الحرب زيادة عن الطاقة فما أبرزوه بمقتضى وظائفهم المرتبة عليهم من آثار الخدمة والغيرة قد استحسن لدى الدولة السنية وكان ذلك موجباً لزيادة اشتياقهم واهتمامهم أضعافاً مضاعفة،لأن ما بدامنهم من البسالة ضدّ الروسيا حيَّر أفكار الجميع وإنما علو الهمم التي يقربها جميع العالم من كل وجه مقرون باليمن،وهو لا يكون لودارت على حقها التدابير السياسية والعسكرية والوسائط الاجرائية على حسب ما أبرزه مولانا المعظم وتبعته الشاهانية من كل وجه.وحيث أن تشكيل العساكر الملكية من المواد المهمة الواجبة أساساً قد تشكر عموم تبعة الدولة العثمانية لما صدرت به الارادة السنية في هذا الباب وستصير المبادرة في المذاكرة في هذا الأمر الى أن يرد قانون اللوائح المختص بكيفية استخدام صنوف سائر العسكرية من الأهالي غير المسلمين على مقتضى أحكام القانون الأساسي، فعدم كمال اجراء نفوذ أحكام هذا القانون والتوفيق لابقاء الاصلاحات المهمة، كإصلاح أحوال أمور المالية وحصول سعادتها وتقسيم الويركو وتحصيله وتنظيم المحاكم واصلاح الأوقاف وتسهيل تصرفات الأراضي وتشكيلات النواحي وانتخاب المأمورين وتنظيمات الضبطية والوظائف التي حالت بينها الغوائل الحاضرة من الحالات التي توجب الأسف،ومن المسلم أن حضرة مولانا المعظم لم يؤخر آثار نظر ما في الاصلاحات الداخلية مع هذه الغوائل العظمى كما هو مشاهد من نياته الحسنة وأفكاره الخالصة،ونلتمس من الألطاف الإلهية دفع هذه الغوائل الحاضرة بعناية التوجهات الملوكية واتحاد عموم العثمانيين وإقدامهم وغيرتهم على حسب وظائفهم ومما هو غني عن البيان أنه سيصير الاجتهاد في التدقيق والمذاكرات في القوانين واللوائح الموعود باحالتها على هيئة المبعوثان الموجبة لعمار الملك ورفاهية أهله والتدقيق في حل المسائل المختلفة في بعض القوانين واللوائح التي بقيت من الاجتماع السابق.وعموم الملة ناظرون الى حضرة مولانا المعظم بنظر الاعتبار حيث رخص في إرادته السنية بهيئة المبعوثان الترخيص التام فيما هم مأمورون به في القانون الأساسي من اتخاذ أفكارهم بالحرية التامة في المسائل القانونية والسياسية مع تجديد

المساعدة في ذلك وهم سيشرعون في اتخاذ الأفكار بغاية الدقة والحرية التامة في الخصوصيات المتعلقة بحالنا واستقبالنا، ومن المعلوم أن جريان المناسبات مع الدول المتحابة بصورة خالصة مما يوجب التشكر. وقد بادرت هيئة المبعوثان بأداء ما وجب الشكر ليكون في إحاطة الحضرة المعظمة الملوكية، والامر في كل حال لحضرة سيدنا ومولانا المعظم اهـ.

حل مجلس النواب

واستمر اجتماع مجلس النوّاب العثماني الى أن قرر السلطان بالاتحاد مع جميع أعيان الدولة وجوب إرجاء اجتماعه لأجل غير محدّد لعدم ملائمة الظروف لوجوده. وأعلن ذلك رسمياً إليه في يوم ١٤ فبراير سنة ١٨٧٨، وعقب فضه ضبط كثير من اعضائه ونفوا خارج البلاد بسبب تنديدهم باعمال الحكومة واعتراضهم على إجرآآتها ولم يجتمع بعد ذلك الى الآن.

أما الوزارات فتعاقبت بسرعة غريبة مع أن الحكمة كانت تقضي بعدم تغييرها وبقاء الوزراء في مناصبهم في مثل هذه الظروف الخطيرة، ففي ٧ محرم سنة ١٢٩٥ (١١ يناير ١٨٧٨) عزل أدهم باشا وعين مكانه أحمد حمدي باشا واستبدل أغلب النظار (الوكلاء) بغيرهم وفي غرة صفر من السنة المذكورة أي بعد ذلك بثلاثة وعشرين يوماً ألغي لقب الصدر الأعظم واستبدل بلقب رئيس الوكلاء، ووجه هذا المنصب الى أحمد رفيق باشا الذي كان ناظراً للمعارف في الوزارة السابقة.

وفي ١٥ ربيع الثاني سنة ١٢٩٥ (١٨ ابريل سنة ١٨٧٨) ولي الصادق محمد باشا مسند رئاسة الوكلاء.

وفي ٢٧ جمادى الأولى الموافق ٢٩ مايو ألغي لقب رئيس الوكلاء وأعيد لقب الصدر الأعظم وأسند الى محمد رشدي الملقب بالمترجم الذي تقلد هذا المنصب أكثر من مرة ولم يلبث في هذا المنصب الا ستة أيام، وعزل في ٤ جمادى الأخيرة (٥ يونيو) وعين مكانه صفوت باشا الذي كان وزيراً للخارجية أثناء انعقاد مؤتمر الاستانة قبل إعلان الحرب من الروسيا، واستمر هذا الوزير متقلداً منصب الصدارة العظمى الى دسمبر سنة ١٨٧٨، حيث أحيل هذا المنصب الى عهدة خير الدين باشا.

حادثة جراغان

وفي يوم ١٧ جمادى الأولى (١٩ مايو) حصلت بالاستانة حادثة كادت تكون سبباً لدخول عساكر الروس اليها واحتلالها عسكرياً، وذلك أن شخصاً يدعى علي سعاوي أفندي، بخاري الأصل أتى الى الاستانة لطلب العلم وتحصل على نصيب وافر من العلوم العربية حتى صار على جانب عظيم من الفصاحة في الانشاد والخطابة، لكنه كان ميالاً الى إثارة الفتن وإلقاء الدسائس فنفي أوّلاً سنة ١٢٨٧ (١٨٧٠) ومكث خارجاً عن البلاد تسع سنوات ثم عاد الى الاستانة بمسعى مدحت باشا وعين ناظراً على المكتب السلطاني الذي يتعلم فيه أولاد جلالة مولانا السلطان عبد الحميد ثم عزل لعدم تحسن أحواله وتدخله في الأمور السياسية وبعد عزله أخذ يدبر في طريقة لإثارة فتنة في الاستانة لعزل السلطان عبد الحميد وإعادة السلطان مراد الى عرش الخلافة، وانتهز لذلك فرصة اشتغال الدولة بالمخابرات السياسية واضطراب الأفكار بسبب احتلال الروس لضواحي الاستانة ووجود نحو ١٥٠٠٠٠ ألف نفس من المسلمين المهاجرين من البلاد التي وطئتها عساكر الروسيا بخيولها، ومنهم من هو غير راض عن الحالة الحاضرة، واتفق مع نحو مائتين منهم على تنفيذ ما يكنه صدره من الفتن. واجتمعوا في اليوم المذكور قبل الظهر وانقسموا الى قسمين القسم الأوّل منهم قصد سراية جراغان من جهة البحر تحت رئاسة زعيم يقال له صالح بك. والثاني تحت رئاسة علي سعاوي أفندي من جهة البر. وكانوا جميعهم متزيين بزيّ المهاجرين. ثم اجتمع القسمان عند باب السراية وحاولوا الدخول فيها فمنعهم الحارس فقتلوه ودخلوا السراية وصاروا يفتشون على السلطان مراد حتى عثروا عليه في حجرته، وسلمه سعاوي أفندي طبنجة (مسدس) .

وفي أثناء ذلك أتت فرقة من الجنود من سراي يلدز المقيم بها السلطان عبد الحميد وحاصرت الثائرين من جهة البر كما حاصرتها قوارب المراكب البحرية من جهة البحر. ولم يمض الا قليل حتى قتل الجند جميع من دخل السراية من الثائرين وفي مقدّمتهم رئيس العصابة علي سعاوي. وبعد إطفاء هذه الفتنة والقبض على من بقي حياً منهم نقل السلطان مراد وعائلته الى قصر داخل ضمن سراي يلدز العامرة، وبذلك

هدأت الأفكار وعادت الناس الى فتح دكاكينهم بعد أن أغلقوها وأمنت الدولة امتداد الفتنة ودخول عساكر الروسيا الى الاستانة بدعوى حماية من بها من المسيحيين.

حريق الباب العالي ومخابرات الصلح

وبعد ذلك بثلاثة أيام، أي في يوم ٢٠ جمادى الأولى (٢٢ مايو) التهمت النيران جزأ عظيماً من الباب العالي نفسه وأحرقت دائرة شورى الدولة وتوابعها ودائرة الأحكام العدلية والتشريفات والداخلية وغيرها مع جميع ما فيها من الأمتعة والفروشات والأوراق الرسمية.

ومن المظنون أن هذا الحريق لم يكن الا بفعل أرباب الثورة انتقاماً مما أصابهم من الخذلان في حادثة جراغان.

هذا ولنرجع الى مخابرات الصلح فنقول: إن بعد إمضاء الهدنة ومقدمات الصلح في أدرنه ووصول المراكب الانكليزية الى مياه الاستانة خوفاً من احتلال الروس لها، طلب القائد الروسي من الدولة إدخال بعض أورط من المشاة بالاستانة وكتب البرنس غورشاكوف بذلك الى جميع سفراء دولته لدى الدول العظمى في ١٠ فبراير قائلاً أنه من حيث أن انكلترا أدخلت بعض مراكبها في البوسفور لحماية رعاياها، وحذت هذا الحذو بعض الدول الأخرى وطلبت من الباب العالي التصريح لمراكبها بالدخول فالروسيا لا ترى بدّاً من إرسال جزء من جيوشها المعسكرة حول الاستانة الى داخل المدينة لحماية جميع المسيحيين فاضطربت انكلترا لهذا البلاغ وكتبت الى سفيرها بسان بطرسبورج تحتج ضدّ هذا الطلب مبينة أن لا تشابه بين إرسال السفن الانكليزية الى البوسفور واحتلال الاستانة عسكرياً بواسطة الجيش الروسي وكلفته أن يخبر حكومة الروسيا بأنها لا تسمح مطلقاً باحتلال الأستانة وأنه لو دخلت العساكر الروسية اليها تكون مسؤولة عما ينجم عن ذلك من الأخطار. ولما وصلت هذه الرسالة الى مسامع البرنس غورشاكوف أحجم عن مشروعه وبعد مخابرات طويلة قال إنه لا يدخل عساكره الى الأستانة الا لو أنزلت انكلترا بعض عساكرها الى البر، وما دامت دولة الملكة لا ترغب ذلك فلا خوف على الاستانة من احتلال الروس، وبذلك انتهى هذا الإشكال وبقيت الجنود الروسية معسكرة خارج المدينة لا تتعدّى الحدود التي

رسمت لها بمقتضى اتفاقية ٣١ يناير الماضي .

وفي أثناء ذلك ابتدأت المخابرات بين الباب العالي والغراندوك نيقولا الذي عاد من سان بطرسبورغ بمدينة أدرنه للوصول الى الصلح النهائي، وعينت الدولة كلا من صفوت باشا الذي أعيد في غضون ذلك الى نظارة الخارجية وسعد الله بك سفيرها لدى امبراطور ألمانيا ببرلين، لكن قبل وصولهما الى أدرنة كان توجه اليها نامق باشا ليطلب من الغراندوك عدم دخول الجيوش الروسية الى الاستانة خوفاً من اضطراب بها يفضي الى الحرب بداخلها وتدميرها بما أن المسلمين لا يمكنهم رؤية الاستانة في أيديهم بدون أن يتركوا السكون ويعولوا على الدفاع عنها الى آخر رمق من حياتهم، فأظهر له الغراندوك بعض الصعوبات مع علمه بالمخابرات المتداولة بين الروسيا وانكلترا بهذا الشأن وأخيراً قبل عدم احتلال الاستانة بشرط أن تحتل مقدمة الجيش الروسي خط بيوك جكمجه[1] وكوجك جكمجه من ضواحي الاستانة وأن تنسحب العساكر العثمانية الى ما وراء هذا الخط. وأن ينقل مركز المخابرات من مدينة أدرنه الى قرية سان اسطفانوس الواقعة على بحر مرمره فقبلت الدولة هذين الشرطين منعا لاحتلال الاستانة. وفي ٢٤ فبراير سافر الغراندوك الى هذه القرية التي علم اسمها في جميع العالم ولم تكن قبل ذلك شيئاً مذكوراً وصحبه اليها نحو ألف جندي بصفة حرس، ولم يلبث هذا القدر أن أخذ في الازدياد بتوارد عدّة ألايات حتى بلغ من بها نحو عشرين ألف مقاتل بدون أن يكون للدولة سبيل لمنعهم .

ثم إن المندوبين العثمانيين أتيا الى سان اسطفانوس وابتدأت المداولات بينهم وبين الجنرال اغناتيف الذي انتدبته الروسيا لهذه الغاية، وبعد عدّة اجتماعات أخبرهما المندوب الروسي بوجوب التصديق على الشروط المتقدمة منه قبل يوم ٣ مارس سنة ١٨٧٨ الموافق عيد جلالة القيصر كما هي رغبة الغراندوك والا فتبطل الهدنة وتتقدم العساكر الروسية الى الاستانة. ولذلك لم يتيسر للمندوبين العثمانيين أن يفحصا ما جاء في هذه الشروط فحصاً مدققاً لضيق الوقت ولتهديد الجنرال اغناتيف لهم

---

(١) بيوك چكمجه : أي چكمجه الكبيرة وكوچوك چكمجه أي چكمجه الصغيرة ، وهما ضاحيتان بالقرب من استانبول على بحر مرمرة بالجانب الغربي .

وقطع العلاقات وسوق العساكر عند أدنى معارضة تبدو منهما. وفي يوم ٣ مارس جمع الغراندوك عساكره الموجودة بسان اسطفانوس للاستعراض احتفالاً بعيد الامبراطور ولما أتت الساعة العاشرة صباحاً ولم يأت اليه خبر إمضاء المعاهدة توجه الى قاعة اجتماع المندوبين وطلب منهم التصديق عليها في هذا اليوم والا فتسير العساكر المنتظمة للاستعراض نحو الاستانة في مساء اليوم المذكور، فاضطرّ المندوبان العثمانيان الى التوقيع عليها بدون حصول مداولة في كثير من بنودها. وفي الساعة الخامسة مساءً خرج الجنرال اغناتيف ومعه صورة المعاهدة ممضاة من مندوبي الدولة الى الغراندوك وكان واقفاً أمام الجيوش تحف به أركان حربه وسلّمه الصورة فصاح الجند صيحة الاستبشار وأقام لهم أحد القسوس صلاة حافلة في ميدان الاستعراض، نزل في أثنائها جميع القوّاد والضباط عن ظهور خيولهم وجثوا على الأرض هم وجميع الجنود شكراً لله على هذا الفوز غير المنتظر.

ومن غريب ما يحكى عن الجنرال اغناتيف أنه طلب في ٣ مارس المذكور أن يضاف الى الشروط بند يقضي بأن الدولة العلية تكون ملزمة بالدفاع عن صالح الروسيا لو تشبثت الدول في عقد مؤتمر لتحوير هذا الصلح، فرفض المندوبان العثمانيان هذا الطلب بعد أن كتبا بذلك تلغرافياً الى الباب العالي وأتاهما الجواب بالرفض. وبذلك تم الصلح. وفي مساء ذلك اليوم كتب جلالة السلطان تلغرافاً الى القيصر يهنئه بعيده وورد إليه الردّ من القيصر بالشكر والثناء والدعاء باستمرار المحبة والاتحاد بين الدولتين. وهاك نص معاهدة سان اسطفانوس نقلاً عن منتخبات الجوائب:

إن حضرة قيصر الروسيا وحضرة سلطان المملكة العثمانية قد عين كل منهما مرخصين لأجل تقرير وعقد مقدّمات الصلح رغبة في تأمين بلادهما ورعاياهما من وقوع ما يخل بالراحة والأمنية فيما بعد، وطلباً لحصول وفوائد المسالمة والراحة العمومية حالاً فالمرخصان اللذان نصبهما القيصر أحدهما الكونت نقولا اغناتيف وهو حائز رتبة أمير اللواء وياور القيصر ومن أعضاء المجلس الخصوصي وعنده نيشان روسي مرصع وهو نيشان (صان علكساندر نويسكي)[1] ونياشين أجنبية

(١) علكساندرنويسكي: هي تحريف من الكسندرنويسكي أي القديس اسكندر.

متعدّدة ،والمرخص الآخر مسيو نليدوف من قرناء الدائرة الامبراطورية ومن أعضاء شورى الدولة وعنده نيشان (صانت ان) [١] من الطبقة الأولى مع السيوف المختصة به وعدّة من النياشين الروسية والاجنبية. والمرخصان اللذان عينهما حضرة السلطان أحدهما صفوت باشا ناظر الأمور الخارجية حامل النيشان العثماني والثاني سعد الله بك سفير الدولة العلية في مركز امبراطورية ألمانيا وهو حامل النيشان المجيدي من الطبقة الأولى والنيشان العثماني من الطبقة الثانية ،فهؤلاء المرخصون من بعد أن اطلعوا على المحرّرات الرسمية المتعلقة بكيفية ترخيصهم ووجدوها مطابقة للاصول والعادة قرروا المواد الآتي ذكرها فيما بينهم :

المادة الأولى : إنه بموجب الخريطة المربوطة بهذه المعاهدة وبمقتضى الشروط والوجوه الآتي ذكرها تقرر تصحيح حدود ممالك الدولة العلية والجبل الأسود وذلك لأجل إنهاء المنازعات والمصادمات المتتابعة الوقوع فيما بينهما ، فالحدود تمتد من جبل (دوبر ويجه) على الوجه الذي عينه المؤتمر الذي كان عقد في الاستانة الى (غوريتو) (وبيلكه) والحد الجديد يستطيل الى(غاجفة)[٢] ،وعلى هذا (متوتر كياغا جقو) تبقى في تصرّف الجبل الأسود،وتمتدّ الحدود أيضاً من مجمع أنهر (بيوه) و (تاره) وتمر من نهر (درين) [٣] الى جهة الشمال وتنتهي الى مجمع هذا النهر مع النهر المسمى (فيم) [٤] وأما حدود الجبل المذكور الشرقية فتبتدىء من نهر (فيم) الى (بريرة بولره)ومن (روستراق) الى (سوق بلانينا) (وبيهور وروستراق) تبقيان داخل الجبل،فعلى ذلك يكون تخطيط الحدود هكذا أعني من الجبال المتسلسلة الجامعة لروغوه و (بلاوا) و (كوزنرة) الى شلب (باقلني) ومن رؤوس جبال (قوبر بونيق) و (باباور) و(بورور)) حذاء حدود بلاط الأرناؤوط الى أعلى

---

(١) هي سنت آن : أي القديسة حنه .

(٢) غاچقه Gacko تقع في شمال غرب البانيا والى جنوب شرق سراجيڤو .

(٣) درين وتاره يلتقيان بالقرب من الحدود الألبانية الشمالية ويصبان في بحر الأدرياتيك وبيوه لم أعثر عليه .

(٤) نهر ليم Lim وليس فيم هو الى الشرق من نهر تارا . (المحقق)

ذروة جبل (پروقلتي) ومن هذه النقطة الى كثيب (بيسقاشيق) وينتهي الحدّ على الخط المستقيم الى عين الماء في (جيسني هوتي)، ويفصل فيما بين جيسني هوتي و(جيسني قاستراني) ويتجاوز ماء (اشقودره) الى أن ينتهي لنهر (بويانه).وهكذا مع النهر الى مصبه في البحر. وبموجب ذلك تبقى نكسيك وغاجقه واشبوزي ويود غوريجه وزابلياق وبار [1] ضمن الجبل المذكور. وقد يصير تعيين حدود إمارة الجبل قطعياً بمعرفة لجنة مركبة من بعض مأموري دول أوروبا بشرط أن تكون وكلاء الباب العالي والجبل معهم أيضاً. فهذه اللجنة تلاحظ منافع الطرفين وأمنية البلاد الكائنة في الجهتين ثم تشير في الخريطة الى التعديلات التي ترى لها لزوماً وتعلم أنها الحق وتوضح في ذلك ما رأته من صالح الجهتين. ثم لا يخفى أن أمر سير السفن في نهر بويانه لم يزل يجلب النزاع فيما بين الباب العالي والجبل الأسود فلأجل قطع هذا النزاع سيصير تحرير نظام ذلك بمعرفة اللجنة المذكورة.

المادة الثانية : ان الباب العالي يثبت استقلال إمارة الجبل الأسود على الوجه القطعي ثم فيما يأتي تتقرر فيما بين دولة الروسيا والدولة العلية والامارة المذكورة كيفية المناسبات التي ستكون بين الباب العالي والجبل الأسود وقضية تعيين وكلاء من طرف الامارة في الاستانة والبلاد العثمانية المقتضية ويتقرر أيضاً أمر إعادة أرباب الجنايات الذين يفرّون من بلاد الدولة العلية الى الجبل ومن الجبل الى بلاد الدولة، وأمر إطاعة أهل الجبل المقيمين أو المارّين في بلاد الدولة العلية وانقيادهم الى نظامات ومأموري الدولة طبق الحقوق الجارية بين الدول والعادات والمعاملات القديمة التي كانت تجري بحقهم في بلاد الدولة. وستنعقد أيضاً مقاولة فيما بين الباب العالي والجبل الأسود لأجل توضيح وتنظيم المسائل المتعلقة بالانشاءآت العسكرية في قرب الحدود وأحوال ومناسبات الأهالي المتجاورة هناك واذا اختلف الباب العالي مع الجبل الأسود في بعض مسائل ولم يكن فصلها باتفاقهما فتحكم بينهما دولتا الروسيا وأوستريا

---

(١) إن أكثر هذه الأسماء اما أنه قد نسخ أو حرّف بحيث لم يعد بالامكان الاهتداء اليها أو انها بلاد صغيرة جداً لا تذكر على الخرائط. ومثلها بقية الأسماء الآتية، ولم يعد يضر اهمالها لأن الحدود كلها قد تغيرت واستقرت على الشكل الذي هي عليه الآن (مح).

ومن بعد هذه المعاهدات اذا وقعت مباحثة أو مصادمة فيما بين الباب العالي والجبل ما عدا المطاليب الملكية الجديدة ينبغي أن يفوّضا أمرها الى دولتي الروسيا وأوستريا، وهما باتفاقهما يفصلانها بينهما وقد تقرر أنه من بعد إمضاء مقدّمات الصلح الى عشرة أيام يجب على عساكر الجبل الأسود أن تخرج من البلاد الغير داخلة في ضمن الحدود المذكورة أعلاه.

المادة الثالثة : إن إمارة الصرب تكون مستقلة ويكون حدها بموجب الخريطة المربوطة لهذه المعاهدة مجرى نهر (درين) وتبقى (كوجك ازورنيق) و (سقار) في إدارة الصرب، ويمتدّ هذا الحدّ الى منبع نهر (رازوه) الكائن جوار (استايلاق) على حسب الحدود القديمة، وتبتدئ الحدود الجديدة من هنا، أعني مع مجرى نهر (رازوه) الى نهر (راسقه) ومنه الى يكي (بازار) ومن يكي بازار يصعد الخط الفاصل ويمرّ من جوار قريتي (مهنتره) و(ارغويج) الى أعلى النهر المذكور حتى ينتهي الى منبعه ويمتدّ الى (بوسور بلاتينا) الكائنة في واد (ايبار) وينزل مع الماء الجاري الذي يصب في النهر المذكور ومنه يسير مع أنهر (ايبار) و(سيديج) و(لاب) الى منبع نهر (ياتنسه) الكائن في جبل (غراباشينجه بلانينا)، وبعدها يمر من التلال الفاصلة بين نهري (قربوه) و(ترينجة) ومن أقصر الطرق الموجودة على مصب نهر (ميو واجقه) حتى ينتهي أيضاً الى نهر (ويرنجه) ويسير مع هذا النهر ويقطع ميو واجقه وبلانينا[1] ويصل إلى جهة موراوه في قرب قرية (قاليمانس)، ومن هنا يسير الى قرب قرية (استابقوجي) ويجتمع هناك مع نهر (بلوسينه) وهكذا مع النهر الى موراوه، ويمتدّ من النهر الى جهة فوق حتى يصل الى (قوتقاويجه) ويقطع سوق بلانينا ويجتمع بنهر (نيساوه) ويتصل بقرية (قرونراج) ومنها يمر من أقصر الطرق ويمتدّ على حدود الصرب القديمة الى جنوب شرق (قره ول بور)، وعلى هذا الخط يتصل بنهر الطونه، وتقرر إخلاء (اطه قلعة) وهدمها وترتيب لجنة مركبة من مأموري الدولة العلية والصرب لأجل تعيين خط الحدود على الوجه القطعي في برهة ثلاثة أشهر، ويكون ذلك بمعاونة مأمورين من طرف دولة الروسيا وهذه اللجنة

---

(١) يكتبها مرة بلانينا ومرة بلا تينا

تفصل أيضاً المسائل المتعلقة بجزائر نهر (درين) وتقطعها وحينما تبتدئ هذه اللجنة بتعيين الحدود الفاصلة بين بلاد الصرب والصقالبة ينبغي أن يكون وكيل واحد من طرف الصقالبة يشترك معهم في هذا الأمر .

المادة الرابعة : إن المسلمين الذين لهم أملاك في البلاد التي صار الحاقها بالصرب اذا لم يريدوا الاقامة هناك فلهم الخيار ان أحبوا أجروا أملاكهم وإن أحبوا أقاموا لجنة مركبة من مأموري الدولة العلية والصرب بإعانة مأمورين من طرف دولة الروسيا في ظرف سنتين، وهذه اللجنة تفصل أيضاً في برهة ثلاث سنين أمر فراغ الاملاك الميرية [1] والموقوفة والمسائل المتعلقة ببعض الأشخاص الذين لهم علاقة ونفع في الأملاك المذكورة، وذلك يكون غب انعقاد المعاهدة فيما بين الدولة العلية والصرب. والأناس المقيمون أو الذين يجولون في بلاد الدولة العلية من تبعة الصرب تكون المعاملة معهم على القواعد الكلية بمقتضى الحقوق الكائنة بين الدول. وقد تقرّر أنه من بعد إمضاء مقدّمات الصلح الى خمسة عشر يوماً يجب على عساكر الصرب أن تخرج من البلاد التي ليست داخلة في ضمن الحدود المذكورة أعلاه .

المادة الخامسة : إن الباب العالي قد أثبت استقلال رومانيا، أعني المملكتين ولها أن تطلب من الدولة العلية تضمينات (ضمانات) الحرب وتجري المذاكرة بهذا الشأن فيما بينهما. وعندما تنعقد المعاهدة بين الدولة العلية ورومانيا رأساً تنال تبعة رومانيا الأمن والامتياز طبق تبعة دول أوروبا .

المادة السادسة : تقرّر أن تكون البلغارستان أعني بلاد الصقالبة إمارة مختارة في إدارتها تدفع مبلغاً معلوماً الى الدولة العلية ويكون مأمورو الحكومة والعساكر الملية من المسيحيين ويصير تعيين حدودها على الوجه القطعي بمعرفة لجنة مركبة من مأموري الدولة العلية والروسيا وذلك قبل خروج عساكر الروسيا من الروملّلي وهذه اللجنة تبين هناك في الخريطة التعديلات التي ينبغي إجراؤها وتلاحظ ملية أكثر الأهالي وتوضح المنافع المحلية تطبيقاً لفنّ تخصيص الأراضي وتقرّر تعيين وتبيين

---

(١) أي أملاك الدولة .

مقدار اتساع ملك الصقالبة في خريطة وجعلها أساساً في قطع الحدود، وخط الحدود يبتدىء من حدود الصرب الجديدة ومن غرب (ورانثره) الى سلسلة الجبل الأسود ومن جهة الغرب يمرّ من غرب (قومانوه) و (قوجاني) و (قلقان دلن) الى جبل (قوارب) ومن هناك يمر من نهر (وبوجيجه) الى درينه ويلتفت الى جهة الجنوب الى حدود غرب قضاء (أخرى) حتى ينتهي الى جبل (ليناس) ومنه يمر من غربي كوريجه واستاوره ويتصل بجبل (غراموس)، وكذلك يمرّ من ماء (قاستريا) ويلتصق بنهر (موغلينجه) ويسير مع النهر الى (يكيجه) ويمر عن نهر (واراد يكيجه) ومن مصب نهر (واردار) وقرية (غاليقو) الى قراء (بارغه) و (صارى كوي) وهناك يمرّ من وسط عين الماء المعبر عنه (بشيك كل) الى مصب نهري (استروما) و (قره صو) ومن السواحل الى (بوروكل) ويمتد الى الشمال الغربي ويمرّ من سلسلة جبل (رودوب) الى جبلي (جالتبه) و (اوشوه) ويمرّ من جبال (اشك قولاج) و(جيبليون) و(قره قولاس) (وجيقلر) الى نهر (ارده) ويلتفت لجهة الجنوب ويمر من قراء سوكوتلي وقره حمزة وارنادكوي واقارجي واينجه الى (تكه دره سي) في قرب (أدرنه) ومن (تكه دره سي) و (جورلي دره سي) الى (لوله برغوسي) ومن هنا وعن نهر (صوجق دره) الى قرية (سوركن) ومنها من التلال ويقطع (حكيم طابيه سي) حتى يتصل في ساحل البحر الأسود ويبتدئ أيضاً من (منقاليه) ويترك السواحل ويمر من شمال حدود لواء طولجي ومن فرق راسوه الى نهر الطونه .

المادة السابعة : إن أمير الصقالبة يصير انتخابه من طرف الأهالي بالحرية التامة والباب العالي يثبته بانضمام آراء الدول ولا يجوز انتخاب أحد من أقارب دول أوروبا الجالسين على سرير الملك للامارة المذكورة، وحينما تنحل الامارة كذلك يكون انتخاب الأمير الجديد على هذا المنوال وهاته الشروط. وقد تقرر أنه ينبغي من قبل انتخاب الأمير أن يجتمع مجلس معتبري الصقالبة إما في (فلبه) وإما في (طرنوي) تحت نظارة مأمورين من طرف الروسيا وفي حضور مأمورين من طرف الدولة العلية وتؤسس نظامات هذه الادارة المستقلة توفيقاً لأمثالها، أعني لنظامات المملكتين التي تنظمت في سنة ١٨٣٠ غب انعقاد مصالحة (أدرنه) وعند تأسيس تلك النظامات

ستصير وقاية حقوق ومنافع الأهالي من المسلمين والروم والاولاخ وغيرهم الموجودين والمختلطين مع الصقالبة.وتقرر أيضاً إحالة تأسيس هذه الادارة الجديدة في البلغارستان مع ما يلزم من النظر في صور إجرائها لعهدة مأمورين موظفين من طرف دولة الروسيا من هنا الى سنتين وفي انقضاء السنة الأولى من تأسيس الادارة الجديدة اذا لم يحصل اتفاق في هذا الشأن فيما بين الروسيا والباب العالي ودول أوروبا يكون للدول المشار اليهم حق أن يوظفوا مأمورين برفق مأمورين الروسيا.

المادة الثامنة: ليس لعساكر الدولة العثمانية حق بعد هذا للاقامة في البلغارستان، وسيصير هدم القلاع القديمة الكائنة هناك بمعرفة الحكومة المحلية، وإن الباب العالي له حق أن يتصرّف بالادوات الحربية الموجودة في قلاع الطونه التي صار إخلاؤها من العساكر بموجب سند المتاركة الذي تحرر في ٣١ كانون الثاني والآلات الحربية الكائنة في مدينتي شمني ووارنه وجميع الأملاك المتعلقة بالحكومة العثمانية كيفما شاءت وتبقى عساكر الروسيا في البلغارستان مقيمة الى أن ينتهي ترتيب العساكر الملية المحلية الكافية لحفظ الراحة وتوطيد الأمنية،واذا اقتضت الحال يقومون فعلا بإعانة المأمورين.وسيصير تعيين عدد العساكر الملية بالاتفاق فيما بين الدولة العلية ودولة الروسيا وإن مدّة إقامة عساكر الروسيا في البلغارستان تكون سنتين والعساكر التي تبقى هناك بعد خروج جميع عساكر الروسيا من بلاد الدولة العلية تكون عبارة عن ست فرق مشاة وفرقتين خيالة وجميعها خمسون ألفاً.ومصروف هؤلاء العساكر يكون على بلاد الصقالبة ويكون لها طرق مراسلات في المملكتين في شطوط البحر الأسود من جهة وارنه وبرغوس وفي مدّة اقامتها هناك يكون لها المخازن المقتضية على الشطوط المذكورة.

المادة التاسعة : ان المرتب السنوي الذي يلزم على البلغارستان إيفاؤه الى الدولة العلية يتسلم الى البنك الذي يعينه الباب العالي،وهذا البنك يصير تعيينه بمعرفة دولة الروسيا والدولة العلية وسائر الدول وذلك في انتهاء السنة الأولى من ابتداء اجراء أصول الادارة الجديدة، ومقدار ذلك المرتب يتأسس بالنظر لايراد البلاد والأراضي التي تكون في إدارة الامارة على الحساب المتوسط.والبلغارستان تتعهد بالقيام بالتعهد الذي على الدولة العلية الى شركة سكة الحديد في طريق وارنه وروسجق غب المذاكرة

مع الباب العالي وإدارة الشركة المذكورة.ومسألة سكة الحديد الأخرى الموجودة ضمن الإمارة يصير فصلها بمعرفة الدولة العلية وحكومة الصقالبة وادارة الشركة .

المادة العاشرة : إن الباب العالي له حق أن ينقل ويجلب عساكر ومهمات وذخائر من الطريق المعينة في داخل البلغارستان الى الأيالات العثمانية التي وراء البلغارستان،ولاجل عدموقوع مشاكل في هذا الخصوص وتأمين الإيجابات العسكرية العثمانية سيوضع نظام،بالاتفاق مع الباب العالي والإمارة من ابتداء تعاطي هذه المعاهدة الى ثلاثة أشهر،في ذلك.وهذا الحق المتعلق بالمرور والعبور يختص بالعساكر النظامية فقط دون الباشبوزوق والجراكس والعساكر المعاونة.والباب العالي كذلك له أن يتعاطى البوسطة عن طريق الإمارة ويستعمل مسالك التلغراف في مخابراته. فهذان الأمران كذلك يصير تعيينهما وتنظيمهما في المدّة والشروط المحررة أعلاه .

المادة الحادية عشرة : إن المسلمين وغيرهم من أصحاب الأملاك اذا أرادوا الإقامة في خارج الامارة لهم أن يحفظوا أملاكهم ويؤجروها أو يفوّضوا أمر إدارتها الى من يريدونه،ثم إن مأمور الدولة العلية ومأمور الصقالبة يجتمعان تحت نظارة مأمور الروسيا ويفصلون المسائل المتعلقة بتصرّف الأملاك وفي منافع مسلمي الصقالبة وذلك يكون في ظرف سنتين.والأملاك الميرية والموقوفة يصير تعيين أمرها إما بالبيع وإما باستعمالها على الوجه الذي يكون فيه النفع الزائد لجهة الباب العالي. ويصير تعيين ذلك بمعرفة لجان مخصوصة محدودة في السنتين المذكورتين،والأراضي التي تبقى بدون صاحب عند انقضاء السنتين يصير طرحها في المزاد وتباع ويؤخذ ثمنها ويدفع الى أيتام وأرامل المصابين في الأحوال الأخيرة من المسلمين والمسيحيين .

المادة الثانية عشرة : إن القلاع الكائنة على نهر الطونة يصير هدمها جميعاً ولا يبقى من بعد هذا على سواحل الطونة قلعة ما مطلقاً،ولا يجوز وجود سفن حربية في مياه رومانيا والصرب والصقالبة سوى السفن الصغيرة والفلوكات المختصة والمستعملة في الأمور الانضباطية فقط وحقوق ووظائف وامتيازات لجنة الطونه المختلطة تبقى بتمامها على أصلها .

المادة الثالثة عشرة : إن الباب العالي يتعهد بتنظيف البحر في مضيق (سنه)

وإرجاعه الى حاله السابق ليصلح لمرور السفن منه ويتعهد أن يضمن العطل والضرر الذي حصل للتجار بسبب منع مرور السفائن من نهر الطونه مدّة الحرب، وسيصير خصم ٥٠٠٠٠٠ فرنك من أصل دين لجنة الطونه الى الباب العالي لأجل هذا الأمر.

المادة الرابعة عشرة : إن الاصلاحات التي تبلغت الى مرخصي الباب العالي في أوّل جلسة مؤتمر الاستانة ينبغي حالاً وضعها في موقع الاجراء في بوسنه وهرسك مع التعديلات التي ستقرر فيما بين دولة الروسيا وأوستريا ويجب أن لا يطلب من هاتين الأيالتين بقايا الأموال الميرية وأن لا يؤخذ شيء من الواردات الى ابتداء شهر مارس سنة ١٨٨٠ بل تصرف كلها في الاحتياجات المحلية ويسدّ بها عوز الأهالي والعيال الذين أصيبوا في الأحوال الأخيرة. ومن بعد انقضاء المدّة المذكورة يتعين المبلغ الذي يلزم على الأهالي دفعه في كل سنة الى الحكومة المركزية بالاتفاق فيما بين الدولة العلية ودولتي الروسيا وأوستريا.

المادة الخامسة عشرة : يتعهد الباب العالي بإجراء أحكام النظام الأساسي الذي وضع في سنة ١٨٦٨ المختص بجزيرة كريد طبق مطلوب الأهالي الذي بينوه مقدّماً ويلزم إجراء الاصلاحات المماثلة لنظامات كريد في (ترحالة) و(يانية) وفي سائر جهات الروم ايلي، التي ليس لها نظامات مخصوصة، ويصير تشكيل لجنة مركبة من الأهالي المحلية في كل إيالة لأجل ترتيب وتأليف النظامات الجديدة، ثم يصير تقديمها إلى الباب العالي، والباب العالي يتذاكر مع دولة الروسيا في ذلك.

المادة السادسة عشرة : ان خروج عساكر الروسيا من الارمنستان وارجاع تلك البلاد الى الدولة العلية يمكن أن يفضي الى المناقشة والاختلاف فيما بينهما، فلهذا يتعهد الباب العالي حالاً باجراء الاصلاحات على حسب الاحتياجات المحلية في الولايات التي سكانها أرمن وتأمين المسيحيين من تعدّي الأكراد والجراكسة.

المادة السابعة عشرة : ان الباب العالي سيعلن العفو العمومي عن المتهمين في الأحوال الأخيرة ويطلق سبيل المحبوسين والمنفيين بسبب ذلك.

المادة الثامنة عشرة : ان الباب العالي يتعهد بالتبصر بعين الدقة الى ما بينه وكلاء الدول المتوسطة في خصوص قضاء قوتور وتعيين الحدود الايرانية على الوجه القطعي.

المادة التاسعة عشرة : إن مبالغ التضمينات الحربية التي طلبها حضرة قيصر

الروسيا هي في مقابلة الأضرار والخسائر التي تكبدتها دولة الروسيا بسبب هذه الحرب ،والباب العالي قد تعهد بدفعها ،فمن هاته المبالغ اولاً ٩٠٠,٠٠٠,٠٠٠ روبل في مقابلة مصروف العساكر والادوات الحربية والاشياء التي بليت، وثانيا ٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ روبل لأجل الأضرار الحاصلة في سواحل بلاد الروسيا الجنوبية وفي اخراجات البضائع التجارية وفي طرق الحديد،وثالثاً ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ روبل في مقابلة الضرر الحاصل من الهجوم على قوقاس ،ورابعاً ١٠,٠٠٠,٠٠٠ روبل لأجل الخسائر التي حصلت لتبعة الروسيا المقيمين في الممالك العثمانية ولتأسيساتها. فعلى ذلك تكون هذه المبالغ من حيث المجموع عبارة عن ١,٤١٠,٠٠٠,٠٠٠ روبل (يعني ٢٤٥,٢١٧,٣٩١ ليرة عثمانية وريال مجيدي أبيض [١] ونصف) هذا وإن القيصر المشار إليه قد لاحظ ضيق حال الدولة العلية من جهة المال ،وتأمل في مقاصدها التي نوّهت عنها في هذا الشأن ووافق بالقبول على أن تترك الدولة العلية الأراضي المحررة أسماؤها أدناه عوضاً عن القسم الأكثر من المبالغ المذكورة .

أولاً : لواء طولجي ، يعني قضاء كيليا ،وسنة ومحمودية وايساقجي وطولجي وماجين وبابا طاغي وخرسوه وكوستنجه ومجيديه والجزائر الكائنة في نهر طونه، قد تركتها الدولة العلية جميعاً الا أن الدولة الروسية ليس لها فكر بالحاق هاته البلاد الى ملكها بل انها تحفظ حق مبادلة هذه البلاد بقطعة بساربيا التي أخذت منها بموجب معاهدة سنة ١٨٥٦ فحدود قطعة بساربيا من جهة الجنوب طرف من أراضي كيليا ومصب نهر الطونه، والجهات التي يصطادون بها السمك في النهر يصير تفريقها بمعرفة مأمورين من طرف الروسيا ومن حكومة المملكتين في برهة سنة واحدة اعتباراً من تاريخ تعاطي هذه المعاهدة .

ثانياً : أردهان وقارص وباطوم وبا يزيد مع الأراضي الحاوية عليها الى جبل صوغانلي سيصير تسليمها الى دولة الروسيا وحينئذ الحدود الفاصلة تكون هكذا: أعني يبتدئ الخط الفاصل من الجبال التي فيما بين المياه الجارية والمنصبة في نهري (هوبا) و (جورق) ويمر من الجبال المتسلسلة الواقعة في جنوب قضاء وارتوين

---

(١) كل خمسة ريالات كانت تساوي ليرة ذهبية والريال عشرون قرشاً .

ومن جوار قريتي (والات) و (بشاكت) ومن فوق (درونيك) و (كقي) و(هوجه زار) و (بجقين طاغ) ومن الجبال الفاصلة للمياه التي تختلط بنهري (تورقم) و (جورف) ومن فوق قراء (يالي) و (هين) و (لم كليسا) الى أن ينتهي لنهر تورتم ،ومن هنا يمر من سيوري طاغ ويتصل بقرية نريمان ويلتفت الى وجهة الجنوب حتى يصل الى (زوين) ومن زوين يمر من غربي طريق اردوست خراسان الى جنوب جبل صوغانلي ويتصل بقرية (كليجمان) ومنها يمر من جبل (تريا) ومن قرية خمير ومن أون رست مسافة ،ومن تلال (طاندور) ومن جنوب وادي با يزيد وينتهي في الجهة الجنوبية من (قازلي كول) وهذا المحل هو الحدّ الفاصل قديماً فيما بين حدود أراضي الدولة العلية وأراضي دولة إيران ،وإن الأراضي التي صار الحاقها بممالك الروسيا ومذكورة في الخريطة المربوطة لهذه المعاهدة يصير تعيين حدودها قطعياً بمعرفة مأمور من طرف الروسيا ومأمور من طرف الدولة العلية وهما يلاحظان قواعد تخطيط الأراضي وقضية تأمين حسن ادارة القضوات .

ثالثاً : إن الأراضي التي صار تركها لدولة الروسيا كما هو محرر أعلاه قد اعتبرت بمبلغ ١,١١٠,٠٠٠,٠٠٠ روبل ،وأما الباقي من التضمينات وهو ٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ روبل ما عدا ١٠,٠٠٠,٠٠٠ روبل التي هي مقابلة خسائر تبعة الروسيا وتأسيساتها ،ستتفق دولة الروسيا مع الدولة العلية على قضية دفعها وتأمين إيفائها .

رابعاً : إن العشرة ملايين روبل التي تخصصت لتبعة الروسيا ومؤسساتها يصير تسويتها هكذا : أعني أن سفارة الروسيا في الاستانة تجري التدقيقات اللازمة بهذا الشأن على مستدعيات أرباب العلاقة وتعرض الكيفية الى الباب العالي ،والباب العالي يجري التسوية على مقتضى عرض السفارة .

المادة العشرون : إن الباب العالي يتعهد بأن يستعمل التدابير المؤثرة سريعاً في خصم الدعاوى المنازع فيها منذ سنين عديدة المتعلقة بتبعة الروسيا ،وانه اذا اقتضى الأمر يدفع تضمينات وينفذ أحكام الاعلامات .

المادة الحادية والعشرون : إن اهالي البلاد التي تسلمت الى الروسيا إن أرادوا الهجرة منها لهم أن يبيعوا أملاكهم وأراضيهم ويهاجروا ،وقد أعطى لهم مهلة في ذلك

ثلاث سنين من تاريخ تعاطي هاته المعاهدة، فالذين لا يبيعون أملاكهم في هذه المدّة ولا يهاجرون يدخلون في حكم الروسيا عند انقضاء تلك المدة، والأملاك الميرية والموقوفة يصير بيعها على حسب الأصول التي يعينها مأمور الروسيا ومأمور الدولة العلية في بحر السنين المذكورة وهما يتممان أيضاً كيفية نقل الأدوات الحربية الموجودة في المحلات التي هي الآن في يد الروس سواء كانت من البلاد التي تسلمت الى دولة الروسيا أو غيرها .

المادة الثانية والعشرون : إن القسيسين والزوّار الذين يسكنون أويسيحون في الممالك العثمانية في الروم ايلي والأناطول من تبعة الروسيا سينالون الحقوق والامتيازات التي ينالها القسيسون والزوّار من تبعة سائر الدول سوية، وسفارة الروسيا الكائنة في الاستانة وقناصلها يحمون حقوق الاشخاص المذكورة وذواتهم ومؤسساتهم ،والرهبان وغيرهم الموجودين في الأماكن المقدسة وبالخصوص في (اينوروز) فهم حائزون حقوقهم التي كانوا حائزين عليها في السابق ويحفظون الديورة الثلاثة الكائنة في (اينوروز) مع مشتملاتها المتعلقة بهم كسائر الديورة والمؤسسات المذهبية الكائنة لغيرهم هناك سوية .

المادة الثالثة والعشرون : ان المعاهدات والمقاولات التي كانت موجودة فيما بين الدولة العلية والروسيا المتعلقة بالتجارة والمحاكمة وبتبعة الروسيا المقيمين في الدولة العلية وتعطلت أحكامها بسبب هذه الحرب ينبغي أن تجري أحكامها كما في السابق ،وإن دولتي الروسيا والعثمانية قد أعادوا المناسبات التي كانت قبل هذه الحرب في الأمور التجارية وغيرها بمقتضى أحكام المعاهدات والمقاولات المذكورة ما عدا المواد التي نسختها هاته المعاهدة .

المادة الرابعة والعشرون: إن خليج الاستانة وخليج [1] جناق قلعة سواء كان في زمن الحرب أو زمن الصلح يكون مفتوحاً للسفن التجارية التي تريد المرور منه الى بلاد الروسيا من الدول التي تكون على الحياد والباب العالي ليس له من بعد هذا

---

(١) يقصد بالخليج المضيق .

أن يضع الحصر غير المؤثر على الشطوط الموجودة فيما بين البحر الأسـود وبحر الآزاق والمخالف لمضمون معاهدة باريس التي صار إمضاؤها في ٤ ابريل سنة ١٨٥٦.

المادة الخامسة والعشرون : ان عساكر الروس يخرجون من بلاد الدولة العلية الكائنة في أوروبا (الروم ايلي) ما عدا البلغارستان،وذلك من تاريخ انعقاد الصلح القطعي الى ثلاثة أشهر.هذا وان العساكر المذكورة لهم أن يأتوا الأساكل الموجودة في البحر الأسود وبحر مرمرة عند السفر للركوب في السفائن التي تحضرها أو تستأجرها دولة الروسيا حتى لا يكونوا مجبورين على تمديد مدة الإقامة في الممالك العثمانية وفي رومانيا وأما خروج عساكر الروسيا من الأناطول فيكون بعد انعقاد الصلح القطعي بستة أشهر ولهم أن يأتوا الى طرابزون لأجل الركوب في السفن ومن هناك يسافرون الى القريم أو القوقاس .

المادة السادسة والعشرون : إن أصول الادارة والاوامر التي وضعتها دولة الروسيا في البلاد التي دخلتها عساكرها والتي ينبغي تسليمها الى الدولة العلية بموجب هاته المعاهدة تكون باقية وجارية الى حين توجه العساكر منها، وليس للباب العالي المشاركة في الأحكام ولا للعساكر العثمانية الدخول اليها قبل ذلك.بناء على هذا فإن أمير عساكر الروسيا يخبر الضابط الذي يعينه الباب العالي عن سفر عساكرالروسيا، وليس للباب العالي أن يجري الأحكام من قبل أن تتسلم له القلاع والايالات .

المادة السابعة والعشرون : إن الباب العالي لا يجازي أحداً بسوء من تبعته الذين دخلوا في المناسبات مع دولة الروسية في زمن الحرب،وليس لمأموري الدولة العلية أن تمنع أو توقف أحداً من الأهالي الذين يرغبون أن يسافروا مع العساكر .

المادة الثامنة والعشرون : إن أسرى الحرب يصير إرجاعهم تحت نظارة مأمورين مرتبين من طرف الدولتين ،وذلك عقب تعاطي مقدمات الصلح .وهؤلاء المأمورين يسافرون الى اودسه وسيواستابول ،وأما مصروف أسرى العساكر العثمانية فتدفعه الدولة العلية في ظرف ستة سنوات على ثمانية عشر قسطاً بموجب الدفتر الذي يحرره المأمورون المذكورون.وأما قضية مبادلة الأسرى فيما بين حكومتي رومانيا والصرب وإمارة الجبل الأسود فيصير إجراؤها على هذا الأساس،إلا أنه يصير

تنزيل العدد الذي تسلمه الدولة العلية من العدد الذي تسلمته من الأسرى .

المادة التاسعة والعشرون : إن حضرة امبراطور الروسيا والحضرة السلطانية سيثبتون هذه المعاهدة،ووثائق التثبيت تكون معاطاتها في سان بطرسبورج بظرف خمسة عشر يوماً أو بوجه أسرع من ذلك ان أمكن،وكذلك يجري التصديق رسماً على الشروط المذكورة في هذه المعاهدة على حسب الأصول الجارية في المعاهدات الصلحية وإن الدولتين المتعاهدتين من تاريخ تعاطي المعاهدة يعدّون أنفسهم رسماًبأنهم متعهدون بأن مرخصين الطرفين قد أمضوا هذه المعاهدة كما يأتي تصديقاً لمضمونها .

حـرر في اياستفانوس في ١٩ شباط الرومي و ٣ اذار (مارس) الافرنجي سنة ١٨٧٨ .

(محل الامضا)

كونت اغناتيف   صفوت   نليدوف   سعد الله

إن معاهدة مقدّمة الصلح التي صار إمضاؤها في هذا اليوم،أعني١٩ شباط و ٣ اذار سنة ١٨٧٨ قد حصل سهو بها في الجملة الأخيرة من المادة الحادية عشرة فلذلك زيدت العبارة الآتية واعتبرت جزأ متمماً للمعاهدة المذكورة وهي (إن الذيـن يقيمون أو يسيحون في الممالك العثمانية من أهالي البلغارستان يكونون تابعين للقوانين العثمانية) .

اياستفانوس في ١٩ شباط و ٣ اذار سنة ١٨٧٨

صفوت   اغناتيف   سعد الله   نليدوف

ومن تأمل الى خريطة الدولة العلية يتضح له أن الروسية قد محت تركية أوروبا بأجمعها تقريباً من العالم السياسي،ولم يبق للدولة بها الا أربع قطع صغيرة لا اتصال بين ثلاثة منها إلا بطريق البحر ولا بين الثالثة والرابعة الا بطريق ضيقة تمر بين أراضي الصرب والجبل الأسود ولا يزيد اتساعها في بعض المواضع عن خمسة كيلومترات بحيث يتيسر لاحدى الامارتين منع الجيوش العثمانية من المرور وقطع الطريق عليها كلية،والقطعة الأولى هي مدينة الاستانة وضواحيها ،والثانية مدينـة سلانيك والبحيث جزيرة القريبة منها ،والثالثة مكونة من بلاد ابيروس وجزء من بلاد الارنؤود ،والرابعة

من إقليمي البوسنه والهرسك .وما بقي من أملاكها أعطي منه جزء للصرب وآخر للجبل الأسود وشكل الباقي بصفة إمارة مستقلة إدارياً تسمى إمارة بلغاريا تمتدّ من الطونه الى البحر الأسود شرقاً وبحر الأرخبيل جنوباً وتحيط بمدينة الاستانة من جميع جهاتها البرية ،وزد على ذلك ما اشترط من احتلال الجنود الروسية لبلاد بلغاريا مدّة سنتين لاستتباب الأمن بها .

أما في آسيا فأخذت قلاع قارص وباطوم وبا يزيد الى حدود أرضروم تقريباً .

واعترف الباب العالي ضمن هذه المعاهدة باستقلال كل من الصرب والجبل الأسود ورومانيا استقلالا سياسياً تاماً وبالتنازل لمملكة رومانيا عن إقليم الدبروجه مقابل سلخ اقليم بساربيا من رومانيا وضمها الى الروسيا لتنظيم حدودها، حتى يكون كل من نهري البروث والطونه من ابتداء اتحاد البروث معه الى البحر الأسود فاصلاً بين رومانياوالروسيا.ولم يراع في هذه التقسيمات صالح الأمم المراد سلخها عن الدولة ولا حدودها ، بل أضافوا الى امارة البلغار بلاداً كثيرة أغلب سكانها من الأروام والصرب،والى الصرب والجبل الأسود بلاداً بها كثير من الأرنؤود المسيحيين والمسلمين.ولذلك كان كل من هذه الأمم غير راض عن هذه المعاهدة التي لم يراع فيها إلا صالح سياسة الروسيا.وحرروا عدّة مكاتبات موقع عليها من كثير من أعيانهم وأرسلوها الى سفراء الدول طالبين النظر في هذه المعاهدة وصون حقوقهم ،وكذلك كان الرأي العام الأوروبي ناقماً على الروسيا لوجود امارة البلغار المراد انشاؤها محيطة بالاستانة من كل جهة مع أنها عبارة عن ولاية روسية ،خصوصاً وأن جيوشها ستحتلها مدّة سنتين وهيهات إن أخلتها بعد هذا الميعاد .

أما انكلترا فكانت أكثر الدول تخوّفاًمن نتائج هذه المعاهدة لوجود عساكر الروسيا على مقربة من بوغاز البوسفور وخوفاً من ازدياد نفوذ الروسيا في الهند بعد ظهورها على الدولة العلية .

ولذا كانت أشد معارضة من غيرها في معاهدة سان اسطفانوس وتودّ تعديلها رغماً عن الروسيا لتظهر أمام الهنود بمظهر القوة والبأس ونفوذ الكلمة في أوروبا بما أن سلطتها على بلاد الهند مبنية على الوهم أكثر من قوّة السلاح ،ومعارضة النمسا

سببها رغبتها في مشاركة الروسيا في بقايا دولة الاسلام بأوروبا باحتلالها اقليمي البوسنه والهرسك ليكون لها بذلك سبيل في المستقبل الى الاستيلاء على مينا سلانيك الضرورية لعدم وجود موانئ بحرية لمملكتها سوى مدينة (تريسته) التي تدعي ايطاليا أحقيتها فيها وتطمح أنظارها الى احتلالها يوماً ما .

أما المانيا فكانت مساعدة أدبياً للروسيا، ويقال انها عرضت على النمسا احتلال البوسنه والهرسك برضا الروسيا لكنها رفضت هذا الاحتلال ما لم يكن بقبول جميع الدول، إذ أنها كانت ترى احتلالها لهما بدون رضا الباب العالي وباقي الدول يسبب لها عراقيل كثيرة في المستقبل. وكانت فرنسا على الحياد المطلق لقرب انخذالها في حرب البروسيا وميلها الى السكون لتعويض ما فقدته من المال والرجال في هذه الحرب المشؤمة .

وكذلك ايطاليا لم يكن لها صالح في هذه المسألة ولا تودّ الاشتباك في حرب أوروبية لقرب عهد تمام استقلالها وسعيها في تقوية وحدتها السياسية. فيتضح من ذلك أن المعارضة كانت منحصرة أولاً في انكلترا لا حباً في الدولة العلية الإسلامية بل خوفاً على نفوذها في الهند وثانياً في النمسا لعدم اشتراكها في منافع هذه المعاهدة .

ولهذه الأسباب كانت انكلترا أوّل منبه للروسيا على أن كل شرط يتفق عليه بينها وبين الدولة ويكون مخالفاً لنصوص معاهدة سنة ١٨٥٦ المبرمة في باريس أو يختص بمنفعة عمومية أوروبية لا يعمل به الا بعد تصديق الدول الضامنة لمعاهدة باريس المذكورة .

وكتبت بهذا المعنى الى الحكومة الروسية بتاريخ ١٤ و ٢٩ يناير سنة ١٨٧٨ اي قبل التوقيع على الاتفاقيات التي أمضيت في مدينة أدرنه في ٣١ من الشهر المذكور بين الدولة والروسيا وقبلت بكل انشراح اقتراح النمسا في ٥ فبراير القاضي باجتماع مؤتمر دولي في مدينة بادن للنظر في اتفاقيات أدرنة كما سبق في موضعه .

ثم في ٧ مارس دعت النمسا جميع الدول ثانية لعقد مؤتمر في مدينة برلين للغاية نفسها واختارت برلين ليكون المؤتمر تحت رئاسة البرنس بسمارك المعضد لها على احتلال البوسنة والهرسك، فقبلت الدول هذه الدعوة الا انكلترا، فإنها علقت

قبولها على أن يكون من اختصاص المؤتمر المزمع انعقاده النظر في جميع بنود معاهدة سان اسطفانوس سواء كانت مختصة بمنفعة عمومية أوروبية أو لا. وعارضت الروسيا في هذا الاشتراط ودارت المخابرات بينهما والنمسا للتوفيق بين الطرفين. واشتدّت العلاقات بين الروسيا وانكلترا وأخذت هذه تستعد للحرب وعينت اللورد نابير اوف مجدلا قائداً عاماً للجيوش البرية واللورد ولسلي [١] رئيساً لأركان حربه وأمرت بجمع الرديف واستعداد المراكب الحربية واشترت أربع مدرعات كانت أوصت عليها بعض الدول في معاملها، وجمعت أغلب سفنها الحربية في جزيرة مالطه لتكون على مقربة من الاستانة. وكذلك أمرت باحضار عدد ليس بقليل من جيوشها الهندية الى هذه الجزيرة للغاية نفسها، ذلك ما دعا اللورد دربي وزير الخارجية الى تقديم استعفائه بما أنه كان ميالاً لسياسة الملاينة معارضاً لكل ما من شأنه ازدياد النفور بين دولته والروسيا خلافاً للورد بيكونسفيلد [٢] كبير الوزراء وباقي زملائه. ولما قبل استعفاؤه عين اللورد سالسبوري وزيراً للخارجية وكان أشدّ الناس ميلا لإكراه الروسيا على تعديل معاهدة سان اسطفانوس ولو بالقوّة لإضرارها بالمصالح الانكليزية.

وفي صبيحة تعيينه أي في اليوم الأوّل من شهر ابريل سنة ١٨٧٨ أرسل الى جميع سفراء انكلترا لدى الدول العظام منشوراً بين فيه مضار المعاهدة المذكورة وأوجه خللها وضرورة نظرها برمتها في مؤتمر دولي، وكانت هذه النشرة سبباً لعدم نجاح

---

(١) اللورد نابير هو الذي حارب طيودوس ملك الحبش وفتح حصن مجدلا الشهير فأضيف الى اسمه تذكاراً لانتصاره. وأما اللورد ولسلي فهو الذي حارب العرابيين في التل الكبير وانتصر عليهم في سبتمبر سنة ١٨٨٢ .

(٢) سياسي انكليزي شهير ولد سنة ١٨٠٥ واشتغل أولاً بتأليف الروايات ثم بالكتابة في الجرائد، وأخيراً ترشح للانتخاب فدخل مجلس العموم وامتاز فيه بالبراعة في الخطابة وكان من حزب المحافظين ثم دخل في الوزارة وعين وزيراً للمالية في سني ١٨٥٢ و١٨٥٩ و١٨٦٦ وصار رئيساً لحزب المحافظين بعد موت اللورد دربي، وعين رئيساً للوزارة في سنة ١٨٦٨، ثم خلفه غلادستون وعاد الى رئاسته ثانياً سنة ١٨٧٤ وبقي الى سنة ١٨٨٠. وحضر مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨. وتوفي سنة ١٨٨١ وصار بعده اللورد سالسبوري رئيساً لحزب المحافظين ولم يزل كذلك حتى الآن .

مأمورية الجنرال اغناتيف في ويانه، وكان أرسل اليها للسعي في الاتفاق مع النمسا على عدم اشتراكها مع انكلترا لو انتشبت الحرب بينها وبين الروسيا بسبب معاهدة سان اسطفانوس، وهي أي الروسيا تتعهد لها باعطائها إقليمي البوسنه والهرسك. فلمارأت النمسا من انكلترا هذا الثبات والاستعداد للحرب براً وبحراً لم تجب مندوب الروسيا بجواب شاف حتى ترى ما تقضي السياسة الانكليزية بعرضه عليها فتنحاز الى الفريق الذي تكون سياسته أكثر ملاءمة لصالحها الخصوصي.

وحينما وصل منشور اللورد سالسبوري الى سان بطرسبورغ وعرض السفير الانكليزي صورته على البرنس غورشاكوف أخذ يفكر في طريقة للتخلص من هذه المشكلة بدون وصول الى الحرب والقتال مع استمرار الاستعداد له اذا دعت الحاجة. واكتتب كثير من البلديات وأغنياء الروس بل وعموم الأهالي بمبالغ وافرة لإنشاء عمارة بحرية وتسليح المراكب التجارية بالمدافع للقبض على سفن انكلترا التجارية والإضرار بمصالحها. ثم في ٩ ابريل أجاب البرنس غورشاكوف على لائحة سالسبوري بمنشور أرسله الى جميع سفراء دولته لدى الدول العظام وكلفهم بتبليغه إليها في أقرب وقت، وأرفق هذا المنشور بلائحة دحض فيها جميع اعتراضات اللورد سالسبوري على معاهدة سان اسطفانوس مراعياً في ذلك صالح الروسيا تاركاً باقي المصالح ظهرياً.

وبعد ذلك انقطعت المخابرات وأخذ كل من الفريقين يستعد للحرب وأحضرت انكلترا الى مالطه عدة ألايات من الجنود وكانوا لم يسبق لهم الحضور لأوروبا قبل هذه الدفعة. واشتغلت الروسيا بإخماد هيجان مسلمي البلغار الذين أخذوا يؤذون كل من يعثروا به من جنود الروسيا ويدافعون عن أنفسهم ضدّ تعدّيات مسيحي البلغار ويقابلونه بمثل ما يرتكبه البلغاريون معهم من أنواع التعدّي والظلم اعتماداً على مساعدة الروس لهم ولاحتماء هؤلاء الوطنيين في الجبال صعب على الروسيا قمعهم، فامتدت هذه الحركات الثوروية الى جميع جهات البلغار وضواحي صوفيا الى حدود الصرب. واستمر الحال على هذا المنوال الى أواخر شهر مايو والجنود الروسية محتلة جميع ضواحي الاستانة والمراكب الانكليزية أمامها من جهة البحر. ولما أقبل

فصل الصيف فشت الامراض بين عساكر العدوّ ومات منهم عدد كثير. فلهذه الاسباب ولنضوب خزينة الروسيا وعدم إمكانها احتمال هذه الحالة، التي وان لم تكن حال حرب بالمرة، فلم تكن أيضاً حالة سلمية. ولمناسبة اشتداد المرض على البرنس غورشاكوف وزير الروسيا الأوّل استقل الامبراطور بسياسة بلاده وكتب الى خاله غليوم الاوّل[1] أمبراطور ألمانيا بالمثابرة على التوسط بينه وبين انكلترا للوصول الى وضع حد لهذه الحالة غير المرضية التي لو استمرت لجعلت الروسيا على شفا الإفلاس. وأوعز الى انكلترا مبدئياً في نظر جميع بنود معاهدة سان اسطفانوس الا أنه يود أن يعلم قبلاً ما تريد انكلترا إدخاله عليها من التعديلات حتى تكون على بينة من الأمر قبل ارسال مندوبها الى المؤتمر.

فجدّدت المخابرات وانقشعت الغيوم المتراكمة في جو أوروبا السياسي، وبعد أن توجه المسيو شوفالوف الى سان بطرسبورغ للمفاوضة مع أرباب السياسة هناك وعرض طلبات انكلترا عليهم شفاها. إذ أن المكاتبات ربما تكون نتيجتها تأخير هذه الحالة السيئة، عاد إلى لوندره. وفي ٣٠ مايو سنة ١٨٧٨ تم الاتفاق بين هذا السفير واللورد على ما تريد إدخاله على معاهدة سان اسطفانوس من التعديلات وحررت بذلك لائحة أمضى عليها الفريقان، وأضيف عليها ذيل بناء على طلب النمسا التي سبق عرض هذا الاتفاق عليها قبل التوقيع عليه. ويظهر من الاطلاع على هاتين الورقتين الرسميتين أن انكلترا صادقت على أهمّ شروط معاهدة سان اسطفانوس وقبلت تشكيل إمارة

---

(١) ولد هذا الامبراطور سنة ١٧٩٧ وعين وصياً على أخيه فريدريك غليوم الرابع حين أصيب بضعف قواه العقلية سنة ١٨٥٧. ثم عين ملكاً على بروسيا بعد موت أخيه المذكور في سنة ١٨٦١ وحارب الدانمارك سنة ١٨٦٢ والنمسا سنة ١٨٦٦ وانتصر عليها في واقعة (سادوا) وفي سنة ١٨٧٠ حارب فرنسا الحرب المشهورة وفاز على نابليون الثالث في سيدان في أول سبتمبر سنة ١٨٧٠. وفي ١٨ يناير سنة ١٨٧١ توج امبراطوراً على ألمانيا بسراي فرساي بضواحي باريس أثناء حصار هذه المدينة. وفي أكتوبر من السنة المذكورة أمضى معاهدة فرانكفورت التي أخذ بمقتضاها إقليمي الالزاس واللورين. وكان من أكبر مساعديه في هذه الأمور البرنس دي بسمارك والدوك دي مولتك، وتوفي سنة ١٨٨٨.

البلغار الجديدة بعد تقليل مساحتها وتشكيل الجزء الجنوبي منها بهيئة ولاية مستقلة تقريباً لا تلبث أن تنضم الى امارة البلغار وأبقت سواحل بحر الروم تابعة للدولة العلية بما فيها مدينة «قوله»[1] خوفاً من أن تتخذها الروسيا مع الزمن مرسى لمراكبها، وهو الأمر الذي تسعى انكلترا جهدها في منعه حفظاً لسيادتها على البحار .

احتلال انكلترا لجزيرة قبرص

لكنها مع ذلك لم تكن مطمئنة البال مرتاحة البلبال من قوّة الروسيا بل لم تزل تخشى تقدّمها نحو الاستانة مرة أخرى أو نحو بلاد الأناطول فتمتلك منابع نهري الفرات والدجلة ثم تسير شيئاً فشيئاً الى الجنوب متبعة مجرى هذين النهرين العظيمين فتصل الى بغداد فالبصرة فخليج فارس الموصل لبحر الهند، ولذلك ظهرت للدولة العلية في مظهر الصديق المخلص وكتبت الى المسيو (ليارد) سفيرها بالاستانة في أعمال الفكرة للوصول الى اقناع الباب العالي بوجوب إبرام معاهدة دفاعية مع حكومة انكلترا لصدّ الروسيا لو تقدّمت نحو بلاد الاناطول، ويتعهد الباب العالي لحكومة جلالة الملكة باجراء الاصلاحات اللازمة لتحسين حال المسيحيين بهذه الجهات حتى لا يميلوا للروسيا ولا يقبلوا عساكرها بصفة منقذين كما حصل في بلاد البلغار، وأن تسمح الدولة العلية لانكلترا باحتلال جزيرة قبرص وإدارة شؤونها لتكون على مقربة من حدود الروسيا ويتسنى لها صدّ هجماتها لو مست الحاجة وتعدَّت الجيوش الروسية الحدود التي ستحدّد لها في مؤتمر برلين المزمع انعقاده قريباً. فقام المستر لايارد بهذه المأمورية، وربما كانت ابتدأت المخابرات بهذا الشأن قبل ذلك حتى لم يأت يوم ٤ يونيو سنة ١٨٧٨ الذي تولى فيه صفوت باشا منصب الصدارة العظمى كما مر في موضعه إلا وتم الاتفاق على هذه المعاهدة الدفاعية، وقبل الباب العالي تسليم انكلترا جزيرة قبرص غنيمة باردة اعتماداً على وعد هيهات أن تقوم به انكلترا لو دعت الضرورة إلا أن وجود الاضطراب بالاستانة والخوف من احتلال الروس وظروف الحال هوّنت على الدولة قبول هذا الاقتراح وتضحية هذه الجزيرة رغبة في حفظ باقي أملاكها وتعديل معاهدة سان اسطفانوس بكيفية أرجح لصالحها. أما صالح انكلترا في احتلال هذه الجزيرة فظاهر لمن له أقل اطلاع على الماجريات

(١) ثغر في اليونان على بحر ايجه وهو مسقط رأس محمد علي الكبير خديوي مصر

السياسية وسياسة انكلترا الاستعمارية وعلى موقع الجزيرة المذكورة،فلا يخفى أن الهند بالنسبة لانكلترا بمنزلة الروح من الجسد وسياستها دائرة على حفظ هذه المستعمرة من التعدّي وحفظ الطرق المؤدية لها،فباحتلالها إقليم رأس الرجاء الصالح في طرف إفريقيا الجنوبي صارت آمنة على هذا الطريق وان كانت بعيدة،لكن لما كانت طريق مصر والسويس أخصر الطرق الموصلة لهندها العزيزة احتلت بوغاز جبل طارق، فسادت على الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط ثم باحتلالها جزيرة مالطة سادت على الجزء الأوسط منه،وكان اذاً من المحتم عليها احتلال احدى النقط المهمة في شرق هذا البحر لتسود عليه من جميع أطرافه وتجعله بحيرة انكليزية. ولما رأت ارتباك الدولة العلية بعد هذه الحرب،التي كان يمكن لدول أوروبا منعها،لو اتبعوا نصوص معاهدة باريس وكانوا لهامخلصين،أرادت انتهاز هذه الفرصة العديمة المثال لأخذ هذه الجزيرة لتكون على مقربة من بوغاز السويس واسكندرية مصر من جهة ولميناء اسكندرونه التي في عزمها إنشاء خط حديدي منها الى خليج فارس لتنقيص المسافة بينها وبين مستعمراتها الهندية من جهة أخرى.وقد تم لها ذلك بحسن سياستها وحذق رجالها واحتياج الدولة لمساعدتها في هذه الظروف الخطيرة ولم تحدّد إنكلترا في هذا الاتفاق ميعاداً لجلائها عنها.ثم في أوّل يوليو أثناء انعقاد مؤتمر برلين اتفقت انكلترا مع الباب العالي على إضافة ذيل الى اتفاق ٤ يونيو يبين فيه كيفية إدارة الجزيرة والخراج الذي يدفع عنها وحدّدت أجل خروجها منها تحديداً جعلت به احتلالها ابدياً إذ انها علقت خروجها منها على خروج الروسيا من مدينتي باطوم وقارص اللتين أضيفتا الى أملاك الروسيا إضافة قطيعة،فصار احتلال قبرص بذلك احتلالاً قطعياً،ومع ذلك أيّ ضمان لدى الدولة العلية على خروج الانكليز من قبرص لو أخلت الروسيا هاتين المدينتين أو احداهما؟ مع استحالة ذلك تقريباً وإليك نص معاهدة ٤ يونيو سنة ١٨٧٨ نقلاً عن مجموعة الجوائب:

لما كان كل من ملكة مملكة بريطانيا وارلانده المتحدة وامبراطورة الهند وجناب السلطان المعظم متصفين بينهما بالمقاصد الودادية لاحكام وتوسيع العلاقة الحبية الكائنة الآن بين السلطنتين جزما بعقد معاهدة دفاعية لتأمين الأراضي في آسيا(الاناطول)

فيما بعد التي تخص الحضرة العلية السلطانية ، وبناء على هذه الغاية انتخبا وعينا المرخصين الآتي بيانهما :

عينت ملكة مملكة بريطانيا وارلانده المتحدة وامبراطورة الهند حضرة الانورابل « وستين هنري ليارد» سفيرها الأعلى لدى الباب العالي .

وعينت الحضرة العلية السلطانية حضرة دولتلو صفوت باشا ، ناظر الخارجية للدولة العلية .

وبعد أن أظهر كل منهما المحررات المرخصة لهما في إجراء هذه المصلحة ووجدت مطابقة للاصول اتفقا على المواد الآتية :

المادة الأولى : إذا كانت الروسيا تستولي على باطوم أو اردهان أو قارص أو احداهـا وأرادت بعد ذلـك أن تستولي على بعض الأراضي الكائنـة في آسيا التابعة للحضرة السلطانية كما تقرر أمرها في المعاهدة الصلحية الباتة فان انكلترا تتعهد بأن تتحد مع الحضرة العلية السلطانية لحماية تلك الأراضي بقوّة السلاح، وفي مقابلة ذلك تعد الحضرة السلطانية انكلترا بأن تجري في ممالكها الاصلاحات اللازمة التي سيحصل الاتفاق بعد هذا بينهما على كيفية إجرائها وأن تحمي المسيحيين وغيرهم من رعيتها القاطنين في بلادها. ولغاية تمكين انكلترا من اتخاذ الوسائط والتدابير اللازمة لاجراء ما تعهد به رضي السلطان المعظم بأن انكلترا تستولي على جزيرة قبرص وتدير أمورها.

المادة الثانية : تجديد إمضاء هذه المعاهدة من طرف الدولتين المذكورتين يكون بعد تاريخ إمضاء هذا بشهر واحد أو أقل اذا أمكن، وقد صار إمضاء هذه المعاهدة وختمها في قسطنطينية في الرابع من شهر جون الافرنكي من سنة ١٨٧٨ .

الإمضاء ا . هـ . ليارد

صفوت

قد حصل الاتفاق بين كل من الانورابل« سراوستن هنري ليارد»وحضرة فخامتلو دولتلو صفوت باشا الصدر الأعظم للحضرة العلية السلطانية حالة كونهما مرخصين من دولتهما على تذييل المعاهدة المذكورة التي أمضيت في ٤ جون سنة ١٨٧٨ .

صار من المعلوم بين الدولتين المذكورتين بأن دولة انكلترا رضيت بالشروط

الآتية فيما يتعلق بالاستيلاء على قبرص وإدارتها .

أولاً : يبقى في الجزيرة محكمة شرعية يناط لعهدتها النظر في متعلقات المصالح الدينية التي تخص مسلمي الجزيرة لا غير .

ثانياً : إن نظارة الأوقاف بالأستانة تعين أحد المأمورين المسلمين ليقيم في الجزيرة لينظر باتفاقه مع مأمور تعينه دولة انكلترا على ادارة الأملاك والعقارات والجوامع والمساجد والمقابر والمدارس والمكاتب وغيرها من الادارة الدينية في الجزيرة .

ثالثاً : إن دولة انكلترا تدفع الى الباب العالي الزائد من ايراد الجزيرة بعد أداء مصاريفها، وهذه الزيادة تعتبر بمناسبة الزيادة التي تحصلت في الجزيرة في السنين الخمس الماضية وقدرها سنوي ٢٢,٩٣٦ كيساً (١١٤,٦٨٠ ليرة عثمانية) وبعد هذا يبالغ في تحقيقها ،ويستثنى من ذلك إيراد الأملاك الميرية التي تباع أو تؤجر في المدّة المذكورة .

رابعاً : يسوغ للباب العالي أن يبيع أو يؤجر بدون مانع الأملاك أو الأراضي وغيرها من العقارات التي هي أملاك ميرية أو أملاك همايونية التي ايرادها غير داخل ضمن ايراد الجزيرة .

خامساً : يسوغ لمأموري دولة انكلترا في الجزيرة أن يشتروا جبراً بأسعار مناسبة الأراضي أو الأملاك التي يرون شراءها لازماً لاجراء أشغال نافعة .

سادساً : اذاكانت الروسيا تعيد الى تركيا قارص أو بقية الجهات التي انتصرت عليها ودخلت في حوزتها في ارمينيا في الحرب الأخيرة تخلي انكلترا جزيرة قبرص، فتكون المعاهدة المذكورة الممضاة في ٤ جون منسوخة وملغاة الاجراء .

تحريراً في قسطنطينية في ١ جولاي (تموز) سنة ١٨٧٨ .

الامضاء ا . هـ . ليارد — صفوت

ومن الغريب أن خبر هذه المعاهدة لم يشع الا في ٧ يوليو لما أشرفت أعمال مؤتمر برلين على النهاية وكتمت انكلترا خبرها بكل اجتهاد ولم تعرضها على البرلمان الا بعد أن تحققت أن العلم بها أصبح لا يضرّ بسير مداولات المؤتمر ولا يتيسر لمندوبي الدول الاعتراض عليها ، خوفاً من انفصام عرى المؤتمر ورجوع الأمور الى ما كانت

عليه من الشدّة واقتراب الحرب،وكذلك أخفت الاتفاق الذي أمضي بينها وبين الروسيا في ٣٠ مايو الى أن اجتمع المؤتمر كما سيأتي .

هذا ولما أبلغت انكلترا البرنس بسمارك أنها قد اتفقت مع الروسيا ولو لم تطلعه رسمياً على صورة الاتفاق دعا بسمارك كافة الدول العظام تلغرافياً في ٣ يونيو سنة ١٨٧٨ لارسال مندوبيهم للاجتماع في برلين في يوم ١٣ يونيو وأجابت الدول بالقبول في اليوم نفسه أو في صبيحة اليوم التالي،واشترطت فرنسا في قبولها عدم تعرّض المؤتمر للمسائل التي لم ينص عنها في معاهدة سان اسطفانوس وخصت بالذكر القطر المصري وبلاد الشام.وفي يوم ١٣ يونيو انعقد المؤتمر تحت رئاسة البرنس دي بسمارك وعضوية كل من السياسيين المذكورة أسماؤهم في أوّل المعاهدة وأرسلت بعض الأمم ذوات الشأن مندوبين من طرفها لتقديم طلباتها ورغباتها الى المؤتمر ولو لم يكن مصرّح لهم بحضور الجلسات الا إذا طُلبوا للاستفهام منهم عن بعض أمور تخص من أرسلهم، فأرسلت حكومة رومانيا المسيو براسيانو والمسيو كوجولنيسيانو وأرسلت الصرب المسيو ستيش،وأناب أمير الجبل الأسود البرنس بيتروفتش والمسيو رادوفتش،وحكومة اليونان المسيو دلياني والمسيو رنجاني، وكذلك طائفتا الأرمن واليهود وشاه العجم الذي أرسل الى برلين أحد سفراء دولته ليدافع عما قرر اعطاؤه اليه في معاهدة سان اسطفانوس .

وفي أوّل جلسة قدّم مندوبو الدول العظام الأوراق المؤذنة بتعيينهم وقرر المؤتمر بعض الاجراءآت الابتدائية مثل تعيين الكتبة وكاتب السرّ وحافظ الأوراق الى غير ذلك ،ثم توالت جلساته الى يوم ١٣ يوليو سنة ١٨٧٨ أي مدّة شهر كامل، انعقدالمؤتمر في خلاله عشرين مرة.وليكون المطالع على بينة مما حصل في هذه الجلسات نذكر له ما حصلت فيه المداولة في كل جلسة من الأمور المطروحة أمامه بكل اختصار .

ففي الجلسة الأولى عين الرئيس وباقي موظفي المؤتمر وتليت بعض خطب شكر وثناء وطلب في آخرها اللورد بيكونسفيلد أن تسحب الروسيا عساكرها من ضواحي الأستانة فعارضه البرنس غورشاكوف وطلب انسحاب الدونانمة الانكليزية أولاً من مياه البوسفور، واشتدّ الخلاف بينهما اشتداداً كاد يفضي الى عدم نجاح المؤتمر

لولا تداخل البرنس بسمارك بحكمته وتقريره أن هذه مسألة يجب الاتفاق عليها بين الروسيا وانكلترا خارجاً عن المؤتمر فانتهى الاشكال، ويظهر أنه لم تحصل مكالمة بهذا الشأن فيما بعد لبقاء الجيوش والدونانمة في مركزيهما. وفي الجلسة الثانية المنعقدة في ١٧ يونيو عرض المركيز دي سالسبوري على المؤتمر قبول مندوبي اليونان، وتنوقش في حدود امارة البلغار .

وفي الجلسة الثالثة، المنعقدة في ١٩ منه تنوقش في مسألة قبول مندوبي اليونان في المؤتمر .

وفي الرابعة والخامسة والسادسة، المنعقدة في ٢٢ و ٢٤ و ٢٥ استمرت المناقشة في مسألة البلغار .

وفي السابعة، المنعقدة في ٢٦ منه تمت المناقشة في مسألة البلغار وتنوقش في حدود الصرب .

وفي الثامنة، المنعقدة في ٢٨ منه تداول المؤتمر في احتلال دولة اوستريا والمجر البوسنه والهرسك وتوسيع حدود الصرب والجبل الأسود .

وفي التاسعة، المنعقدة في ٢٩ منه حصلت المداولة فيما يختص بمملكة اليونان والولايات اليونانية الباقية للدولة العلية وولاية الرومللي الشرقية

وفي العاشرة، المنعقدة في أوّل يوليو استمرت المناقشة في الرومللي الشرقية .

وفي الحادية عشرة، المنعقدة في ٢ منه تداول المؤتمر في حرية الملاحة في نهر الطونة وفيما يختص بالحصون والمعاقل القائمة على ضفتيه وفي الغرامة الحربية .

وفي الثانية عشرة، المنعقدة في ٤ منه اعترض مندوبو الدولة العلية على احتلال دولة اوستريا والمجر لاقليمي البوسنه والهرسك وتحدّدت امارة الجبل الأسود واستمرت المداولة بمسألة نهر الطونه وابتدأت المناقشة في مسائل الطوائف الدينية الغير اسلامية عموماً ومسألة الأرمن خصوصاً .

وفي الجلسة الثالثة عشرة، المنعقدة في ٥ منه تداول المجلس في توسيع حدود مملكة اليونان وبقاء امتيازات قبائل المرديت .

وفي الرابعة عشرة، المنعقدة في ٦ منه تنوقش في وجوب قبول مندوب العجم

وسماع أقواله وفي حدود الروسيا من جهة آسيا وفي مسألة الأرمن والبوغازات (البوسفور والدردنيل) وجلاء العساكر الروسية عن الولايات المحتلة لها باوروبا وآسيا، وفي البند الخامس عشر في معاهدة سان اسطفانوس المختص بالاصلاحات المراد اجراؤها لتحسين حالة المسيحيين الباقين تحت حكم سلطان العثمانيين .

وفي الجلسة الخامسة عشرة، المنعقدة في ٨ منه تداول المؤتمر في وجوب تنازل الدولة العلية عن وادي قوتور لبلاد العجم، وتم اتفاق أعضائه على مسألة الأرمن وتحددت تخوم رومانيا والصرب والبلغار والرومللي الشرقية واستمرت المناقشة في مسألة الطوائف الغير اسلامية الأخرى وتبودلت الآراء في الطرق الواجب اتخاذها لتنفيذ قرارات هذا المؤتمر .

وفي الجلسة السادسة عشرة، المنعقدة في ٩ منه استمرت المداولة في إعطاء قوتور للعجم وفي طرق تنفيذ قرارات المؤتمر وتنوقش في تحديد سنجق صوفيا وفي كيفية تحرير المعاهدة النهائية .

وفي الجلسة السابعة عشرة، المنعقدة في يوم ١٠ منه تحددت تخوم الروسيا في جنوب باطوم وحصلت المكالمة في اخلاء الأراضي الباقية للدولة من الجيوش الاجنبية وعرض مشروع قاض بجعل مضيق شيبكا المشهور حراً غير تابع لدولة أو امارة ليقام فيه بناء لدفن كل من قتل فيه من الجنود وجدّدت المداولة في الطرق الضامنة نفاذ هذه القرارات وتلي جزء من مشروع المعاهدة المراد التوقيع عليها .

وفي الجلسة الثامنة عشرة، المنعقدة في يوم ١١ منه استمرت المداولات في طرق تنفيذ المعاهدة وتلي جزء من مشروعها وتحدَّدت تخوم الروسيا من جهة آسيا وسمعت اقتراحات انكلترا بالنسبة لبوغازي البوسفور والدردنيل وتبودلت الآراء فيما كانت تدفعه الصرب ورومانيا من الجزية النقدية وفي توزيع دين الدولة العلية العمومي وفي إرسال لجنة أوروبية لتسكين الثورة في البلغار .

وفي الجلسة التاسعة عشرة، المنعقدة في يوم ١٢ منه تلي جواب الروسيا على اقتراحات انكلترا المختصة بالبوغازين وتمت تلاوة المعاهدة .

وفي الجلسة المتممة للعشرين، المنعقدة في يوم ١٣ يوليو سنة ١٨٧٨ (١٣ رجب سنة ١٢٩٥ وقع جميع المندوبين على صورة المعاهدة النهائية وكان توقيعهم باعتبار

ترتيب حروف المعجم الافرنكي من أوّل اسم كل دولة من الدول العظام، بأن وقع أوّلاً مندوبو المانيا ثم النمسا والمجر ثم فرانسا ثم بريطانيا العظمى ثم ايطاليا ثم الروسيا ثم الدولة العثمانية، وقد جمعت محاضر هذه الجلسات بأجمعها ونشرت في الكتاب الأزرق الانكليزي في مجلد لا ينقص عدد صفحاته عن ٢٥٠، فعلى من أراد الوقوف على ما حصل فيها تفصيلاً من المناقشات والمداولات الاطلاع عليها حيث يجد بها ما يشفي غليله ويقف على آراء الدول أجمع فيما يختص بالمسألة الشرقية، واليك نص معاهدة برلين نقلاً عن مجموعة الجوائب :

معاهدة برلين ١٨٧٨ م

بسم الله القادر على كل شيء

لما كان حضرة سلطان العثمانيين وحضرة ملكة مملكة بريطانيا المعظمة وارلانده وامبراطورة الهند وحضرة امبراطور جرمانيا وملك بروسيا وحضرة امبراطور اوستريا وملك بوهيميا وملك هنكاريا وحضرة رئيس جمهورية فرنسا وحضرة ملك ايطاليا وحضرة امبراطور جميع الروسيا يريدون ،لأجل إقرار الراحة العامة في اوروبا. إنهاء المسائل التي ظهرت في الشرق بسبب تقلبات الأحوال فيها في هذه السنين الثلاث ،وبسبب الحرب التي أعقبتها معاهدة اياسطفانوس، استقر رأيهم جميعاً على عقد موتمر يكون أحسن الوسائل لأجل الاتفاق بحسب ما تقرّر في معاهدة اياسطفانوس ،وبناء على ذلك عينت الذوات الملوكية المشار إليهم وحضرة رئيس جمهورية فرنسا مرخصين وهم :

حضرة ملكة مملكة بريطانيا العظمى وارلانده امبراطورة الهند، عينت الاونورابل بنيامين دزرائيلي الذي هو كبير وزراء انكلترا، والانورابل روبرت آرثر تالبت غاسكون سيسل مركيز سالسبوري الذي هو ناظر خارجية انكلترا والاونورابل لورد اودوليم ليوبولد روسل الذي هو سفير من الطبقة الأولى لانكلترا لدى حضرة امبراطور جرمانيا وملك بروسيا .

وعين حضرة امبراطور جرمانيا وملك بروسيا البرنس بسمارك كبير الوزراء في بروسيا ،وبرنارد ارنست دوبولوي مستشار الخارجية ،والبرنس هوهنلوه شلنغفورست سفير ألمانيا لدى رئيس جمهورية فرنسا .

وعين حضرة امبراطور أوستريا وملك بوهيميا وملك هنكاريا الكونت اندراسي وزيره الخاص ووزيره في الأمور الخارجية ،والكونت لويس كاروليـي سفيره

لدى امبراطورة جرمانيا وملك بروسيا،والبارون(هنري دوما يمول)سفيره لدى ملك ايطاليا .

وعين حضرة رئيس جمهورية فرنسا موسيو وليم هنري وادنجتون أحد أعضاء مجلس الأعيان ووزيره في الأمور الخارجية، وشارلس رايموند كونت دوصان فاليه من أعضاء مجلس الأعيان وسفير فرنسا لدى امبراطور جرمانيا وملك بروسيا، وفيلكس دسيرز المكلف بادارة الأمور السياسية في دائرة الخارجية .

وعين حضرة ملك ايطاليا الكونت لويس كورتي أحد أعضاء مجلس الأعيان ووزيره في الأمور الخارجية،وادورد كونت دولوني سفيره لدى امبراطور جرمانيا وملك بروسيا.

وعين امبراطور جميع الروسيا البرنس الكسندر غورجيقوف وزيره في الأمور الخارجية، والكونت دوشوفالوف من قرناء الحضرة الامبراطورية ومن أعضاء المجلس الخاص وسفيره لدى دولة بريطانيا ، وبول ذوبريل سفيره لدى جرمانيا وملك بروسيا .

وعين حضرة سلطان العثمانيين الكسندر قره تيودوري باشا وزيره في الأمور النافعة،ومحمد علي باشا المشير في عساكره، وسعد الله بك سفيره لدى امبراطور جرمانيا وملك بروسيا.فاجتمعوا في برلين بحسب إشارة دولة أوستريا وهنكاريا وبموجب استدعاء دولة جرمانيا ومعهم سائر المحررات المؤذنة بالترخيص، فبعد أن وجدت مطابقة للاصول وقع بينهم الاتفاق على المواد الآتية :

المادة ١ : صارت الآن البلغار إمارة مستقلة في أمورها الداخلية (ادارة مختارة) تدفع خراجاً في كل سنة الى الباب العالي وتكون تحت تابعية الحضرة السلطانية ويكون لها حكومة مسيحية وعساكر وطنية .

المادة ٢ : تكون إمارة البلغار عبارة عن الأراضي الآتي ذكرها وهي أن حدود تلك الأراضي من جهة الشمال تبتدىء من حدود الصرب القديمة وتمرّ عن يمين ساحل نهر الطونة وتنتهي الى محل في شرق سيلستريا،وهذا المحل سيصير تعيينه من طرف المؤتمر الذي يشكل من مأموري دول أوروبا ،ومن هنا أيضاً يتصل الحد في البحر الأسود ويمر من جنوب منقاليا التي صار إلحاقها برومانيا.أما من جهة الجنوب

فإنه يبتدئ من مصب النهر ويمر من جوار القرى المسماة (هوجه كوي) و (سلامكوي) و (ايواجق) و (قولبه) و (صوجيلق) على شاطىء النهر الى جهة فوق المحاذية لوادي (قامجق)، ومن جنوب (بلبيه) و (كمجالق) على بعد من (جنكه) مقدار مترين ونصف ويتجاوز (دلي قامجي) ويمر من شمال (حاجي محله) ويصعد الى ذروة المحل الكائن فيما بين (تيكنلك) و (ايدوس بره سا) ومنه الى بلقان قرين اباد (وبلقان) (ويره زويقة)،ومن بلقان (قرغان) الواقع في شمال المحل المسمى (قوتل) الى أن يتصل بمحل (تيمورقبو). وعلى هذا يكون مروره من سلسلة البلقان الكبير الأصلية ويمتدّ على جميع مساحته الى أن ينتهي الى ذروة (قوزيقه)،ومن هنا يترك ذروة البلقان ويلتفت الى جهة الجنوب ويسير من بين قريتي (بيرتوب) و(دوزنجي) ويغادر قرية (بيرتوب) المذكورة الى البلغار وقرية دوزنجي الى شرق الروم ايلي ويتصل بنهر (طوزلي دره) ويسير مع مجرى النهر الى مصبه في نهر (طوبولينجه) ثم الى نهر (اسموسكيو) الذي يصب في نهر طوبولينجه المذكور بجوار قرية (بتريجوه) ويترك من الأراضي الكائنة في نهر اسموسكيو المذكور مقدار كيلومتر و ٢ الى شرقي الروم ايلي ويمرّ من مقسم المياه فيما بين اسموسكيو ونهر (قامنيفه) ويلتفت الى الجنوب الغربي من التل المسمى (وونجاق) وينتهي رأساً الى النقطة المذكورة في خريطة أركان حرب دولة أوستريا عدد ٨٧٥ ،ومن هنا يقطع بخط مستقيم الجهة العليا من وادي اهتمان ويمر من بين بوغدينه و (قره ولي) ويتصل بالخط في مقسم أنهر المريج فيما بين اسقر وقمرلي وحاجيلر ويسير مع الخط المذكور من تلال و (لنيا) و (موغيلا) الى الممر الواقع في نقطة عدد ٥٣١ والى المحلات المسماة (ازمايليقا) و(ره وسومناتيقه) ويدخل من بين (سيوري طاش) و(قادرتبه) ويتصل بحدود لواء صوفية،ومن هنا يبتدئ من (قادرتبه) الى جهة الجنوب الغربي ويمر من بين نهر قره صو ونهر (استروما قره صو) ويسير مع خط مقسم المياه،ومن تلال الجبال المسماة (تيمورقبو) و(اسقوفنيه) و (قاضيمسار بلقان) و(حاجي كدك) تجاه بلقان قابتنبيق ويتصل بحدود لواء صوفية القديمة. وكذلك يمر من بلقان فابتنبيق المذكور ومن بين وادي (ريلسقارقا) ووادي (بسقرارقا)ويسير مع خط مقسم المياه ويدور تل (ودينجه بلانينا)

وينزل الى وادي (استروما) في المحل الذي يختلط به نهر استروما مع نهر ريلسقارقا، ويدع قرية(براقلي) للدولة العلية ويصعد من جنوب قرية (بلشينقة) إلى فوق ويمر من أقصر خط الى سلسلة (غولما بلانياتا) وتل (غينقة) ويتصل بحدود لواء صوفية ويترك كامل منشأ صوهارقا للدولة العلية، ويلتفت الى جهة الغرب من جبل (رجينقا) ويدور جبال قارونا يابوقا وحدود لواء صوفيه القديمة من جبل (قرني وره) ويمر من فوق مياه (اكريصو) و (لبنيقة) ويطلع الى تلال (بابنا بولانا) حتى ينتهي أيضاً الى جبل (قرني وره) المذكور ومن هذا الجبل يمر من تلال (ارسترزر) و(ويله غوصو) و(مسيد بلانينا) ومن بين (اوستروما) و(موراوه) مع خط مقسم المياه الى غاسينا وقرنه طراوه ودار قوسقه ودرانيقة بلان ،وبعدها من فوق دوشا قلادانق ومن مقسم أنهر صوقوه وموراوه ويذهب رأساً الى المحل المدعو (استول)،ومن هنا ينزل الى الطريق الموصلة الى صوفيه وبيروته ويقطع في هذه الطريق ألف متر،ومنه عن طريق ويدليا بلانينا ويصعد على خط مستقيم الى جبل (رادوجينا) الكائن في سلسلة البلقان الكبير ويترك قرية دويقنجي الى صربستان وقرية (سناقوس) الى البلغار،ثم يلتفت الى جهة الغرب ويدور تلال البلقان المسمى (سبروق) من صوب استاره بلانينا ويتصل بشرقي حدود إمارة الصرب القديمة بجوار (تولا اسميلوه قوفه) ويسير على هاته الحدود حتى ينتهي الى نهر الطونة عند (راقويجه).ثم إن هذه الحدود جميعها سيصير تعيينها بمعرفة لجنة مركبة من وكلاء الدول الممضية على المعاهدة،وحصل الاتفاق أوّلاً على أن هاته اللجنة تنظر بالاعتناء في خصوص محافظة حدود بلقان شرقي الروم ايلي الكائن تحت سلطة الدولة العلية وثانياً أن لا يصير انشاء استحكام في أطراف (صماقو) بمسافة ١٠ كيلومتر .

المادة ٣ : يكون انتخاب أمير البلغار من أهلها بحرية تامة وإقرار الباب العالي برضى دول أوروبا العظام،ولا يصح انتخاب أمير عليها من بيوت الدول المذكورة، فإذا توفي عن غير ولد يكون انتخاب أمير بعده على الشروط والأصول المقررة .

المادة ٤ : بعد انتخاب الأمير تجتمع أعيان البلغاريين في طرنوي لترتيب أحكام ونظامات تخص الامارة.وفي الجهات التي يكون سكانها من الترك وأهل رومانيا

والروم وغيرهم، يلزم مراعاة حقوقهم ومصالحهم فيما يتعلق بقضية الانتخاب وترتيب الأحكام الأساسية .

المادة ٥ : المواد الآتية تكون أساساً للحقوق العمومية في البلغار، وهي أن الاختلاف في المذاهب والاعتقادات لا يخرج أحداً من الأهلية والجدارة من تمتعه بالحقوق المدنية والسياسية أو بدخوله في الوظائف الميرية أو العمومية ونواله الشرف أو استعماله الصنائع والحرف المختلفة كيفما كان مقرّه، فان الحرية أو مباشرة جميع الأعمال الدينية ينبغي تأمينها لجميع الناس القاطنين في البلغار من أهلها ومن الأجانب أيضاً ولا يسوغ اتخاذ مانع لترتيب درجات أرباب المذاهب المختلفة أو لعلاقتهم مع رؤسائهم الروحانيين .

المادة ٦ : تكون إدارة (البلغار المؤقتة) تحت ادارة مأمورين من دولة الروسيا الامبراطورية الى أن تنتظم فيها القوانين الاساسية ويستدعى مأمور من طرف السلطنة العثمانية والقناصل الذين تنتخبهم الدول الذين وقعوا على هذه المعاهدة بقصد مراقبة أعمال (الادارة المؤقتة) المذكورة، فاذا حصل خلاف بين القناصل المذكورين فابرام العمل يكون على حسب أكثرية الآراء كما أنه اذا حصل خلاف بين أكثرية آراء المذكورين والمأمورين من طرف امبراطورية الروسيا أو المأمورين من طرف الحضرة السلطانية تجتمع سفراء الدول بالاستانة الذين وقعوا على هذه المعاهدة في مؤتمر (كنفرانس) ليقرّ رأيهم على انهاء الخلاف المذكور .

المادة ٧ : تشكيل (الادارة المؤقتة) المذكورة لا يبقى أكثر من تسعة أشهر اعتباراً من يوم التوقيع على هذه المعاهدة، وبمجرد انتخاب الأمير تصير مباشرة إجراء الأحكام الجديدة فتصير تلك الأحكام دستوراً للعمل وتكون الامارة قد حازت استقلاليتها الادارية (ادارتها المختارة) حوزاً تاماً .

المادة ٨ : جميع المعاهدات التجارية والسَفرية والاتفاقات التي جرت بين الدول الاجنبية وبين الباب العالي والتي لم يزل عملها جارياً تبقى مرعية الاجراء مع امارة البلغار، فلا يصح تبديل شيء منها مع احدى الدول المذكورة بدون رخصة منها ولا يسوغ وضع شيء من الضرائب على البضائع التي ترسل الى احدى الجهات في مرورها

على البلغار،وتكون معاملة جميع الأهالي ورعايا الدول وتجارتهم في الامارة على قدم مساواة تامة وتبقى امتيازات وخصائص الاجانب المقرّرة في المعاهدات (التي أمضيت بين الدول والباب العالي) مرعية الاجراء في الامارة ما دام لم يحصل تعديلها برضا الدول .

المادة ٩ : الويركو السنوي الذي يجب على امارة البلغار أن تدفعه في كل سنة الى متبوعها الحضرة السلطانية يكون دفعه الى البنك الذي يعينه الباب العالي ويكون تعيين المبلغ عند ختام السنة الأولى من جريان نظاماتها الجديدة باتفاق بين الدول الموقعة على هذه المعاهدة.وهذا الويركو يحسب بمناسبة ايراد الامارة وحيث انها ستحمل جانبا من ديون السلطنة العمومية يلزم للدول أيضاً أن يتذاكروا على مقدار الدين الذي يعين على الامارة وذلك عند مذاكرتهم في أمر الويركو.

المادة ١٠ : جميع التعهدات والاتفاقات التي وعدت السلطنة العثمانية باجرائها مع شركة سكة الحديد بين وارنه وروسجق تدخل في عهدة امارة البلغار اعتباراً من مبادلة التوقيع على هذه المعاهدة،أما تسوية الحسابات السابقة التي كانت بين الشركة المذكورة وبين الباب العالي فأمرها يكون بين الباب العالي وحكومة البلغار والشركة المذكورة،وكذلك دخل في عهدة البلغار وسائر تعهدات الباب العالي مع دولة أوستريا وهنكاريا ومع الشركة المنوط بعهدتها تشغيل سكك الحديد في الروم ايلي فيما يتعلق باتمام السكك المذكورة واتصالها في الأراضي التي دخلت الآن في حوزة البلغار،ويكون عقد شروط الاتفاقات اللازمة لتسوية هذه المسائل بين دولة أوستريا وهنكاريا والباب العالي والصرب وامارة البلغار عند اقرار الصلح .

المادة ١١ : بعد هذا لا تبقى العساكر العثمانية في البلغار.وهدم سائر القلاع والحصون يكون على مصروف حكومة الامارة في ظرف سنة واحدة أو اقل من ذلك إن أمكن.وينبغي لتلك الحكومة أن تتخذ وسائط معجلة لذلك ولا يسوغ لها أن تبني بدلها حصوناً جديدة.ويكون للباب العالي حق في أن يتصرّف في المهمات الحربية وغيرها من الأشياء التي هي ملك له الباقية في حصون الطونه التي أخلتها العساكر العثمانية بموجب الهدنة التي حصلت في ٣١ يناير (كانون الثاني) وكذلك التي في

شمله [1] (شمنى) ووارنه .

المادة ١٢ : المسلمون وغيرهم الذين لهم أملاك في البلغار ويريدون السكنى خارجاً عنها يبقون متمتعين باملاكهم فيمكنهم والحالة هذه ايجارها الى غيرهم وادارتها بمعرفة من ينتخبونه ،وتشكل لجنة مؤلفة من الترك والبلغاريين لتسوية جميع المسائل المتعلقة بكيفية نقل وتشغيل أملاك الوقف لحساب الباب العالي والمسائل المتعلقة بالذين لهم مصالح فيها وهذه التسوية تكون في ظرف سنتين.ثم إن البلغاريين الذين يسافرون أو يسكنون في باقي أطراف الممالك العثمانية يكونون تحت الأحكام والقوانين العثمانية .

المادة ١٣ : تشكل على جنوب البلقان ولاية تحت اسم (ولاية الروم ايلي الشرقية) وتكون تحت تابعية الحضرة السلطانية تابعية سياسية وعسكرية بشرط أن تكون مشمولة باستقلالية ادارتها ويكون واليها نصرانياً .

المادة ١٤ : حدود (ولاية الروم ايلي الشرقية) تكون متصلة بحدود البلغار من جهتي الشمال والشمال الغربي والولاية المذكورة تكون عبارة عن الأراضي الكائنة ضمن الدائرة الآتي ذكرها. فحدّ هذه الولاية يبتدئ من البحر الأسود ويسير على النهر الواقع في جوار القرى المسماة (هوجه كوي وسلام كوي وايواجق وقولبه وصوجيلق) الى جهة فوق محاذياً لوادي (دلي قامجق) ويمر من فوق (جكنه) مقدار مسافة ٢ كيلومتر ونصف تقريباً ويتصل بجنوب قراه (بلبيه) و(كمجالق) ثم يصعد الى التل الكائن فيما بين (تبكنلك) و(ابدوس) و(برؤسا) ويمر من بلقان (قرين اباد) وبره زويجه و(قزغان) حتى يصل الى (تيمورقبو) بالجهة الشمالية من (قوتل). وبعدها يدور جميع سلسلة البلقان الكبير وينتهي الى (قوزيقه) وفي هذه النقطة أعني من ذروة البلقان الكائن على غربي حدود الروم ايلي ينزل إلى جهة الجنوب ماراً من بين قرية بيتروب التي تركت البلغار وبين قرية دوزانس الباقية في الروم ايلي ويصل الى نهر (طوزلي دره) ويسير مع النهر الى مجمعه مع نهر طوبولينقا ،وكذلك يمر مع هذا النهر الى مجمعه مع نهر

(١) يكتبها المؤلف أحياناً شمله أو شومله أو شوملا وهنا كتبها شمنى .

(سموسقيو) في جوار قرية (بتريسووا) وعلى هذا يترك للروم ايلي الشرقية في شطوط مجاري هاته الأنهر محلاً مقدار ٢ كيلومتر ثم يتبع الخطوط الفاصلة للمياه ويسير الى جهة فوق على طول أنهر (سمو وسقبور) و (قامنيقا) ويلتفت الى الجنوب الغربي في تل (ووانجاق) ويصل الى المحل المبين في خريطة أركان حرب دولة أوستريا عدد ٨٧٥ ثم يقطع على خط عمودي مجرى نهر (ايجمان دره)من الأعلى، ويمر من بين (بوغدينا) و(قارولا) حتى يصل الى الخط الفاصل الكائن فيما بين نهري (اسقر) و(ماريقا) ويسير على طول الموضح في الخريطة المذكورة تحت رقم ٥٣٠ من تلال (ولينا موجيلا) و(جمابليقا) و(روه سومناتيقا) ويجتمع بحدود لواء صوفية فيما بين (سبوري طاش)و(قادر تبه) فعلى هذا تفرق حدود الروم ايلي والبلغار من جبل (قادر تبه)، ثم الخط الفاصل المذكور يمر الى قدام من بين أنهر ماريقا وتوابعه وبين أنهر (مستاقره صو) واتباعه تابعاً استقامة الخطوط الفاصلة لهذه المياه ويتوجه الى جهتي الجنوب الشرقي والجنوب ماراً من تلال جبل (دسبوط) الى صوب جبل (كروشوا) وهذا الجبل كان مبدأ الحدود التي عينتها معاهدة اياسطفانوس ثم الخط المذكور يتبع الخط المعين في المعاهدة المذكورة أعني أنه يبتدئ من هذا الجبل ويمر على سلسلة (قره بلقان) من تلال (قولا قلى طاغ واشك جبلى وقره وقولاس وايشيقلر) ويسير جهة الجنوب الشرقي حتى ينتهي الى نهر (واردا)، ويسير مع هذا النهر على طوله حتى يصل الى قرية (اطهقلعة) وتبقى هذه القرية في سلطة الدولة العلية، ومن هنا يصعد ذروة جبل (بش تبه) ثم ينزل ويمر من جسر (مصطفى باشا) ويتجاوز نهر المريج من جهة فوق بمسافة خمسة كيلومتر ثم يتوجه الى جهة الشمال مع بين الأنهر الصغار التي تصب في نهري (خاتلي دره) و(مريج)، ويسير على خط مقسم المياه الى المحل المسمى (كودلر بايري) ومن هنا يلتفت الى جهة الشرق ويمتد الى (صقار بايرى) ومنه الى وادي (طونجه) والى (بيوك در بند)، ويترك (بيوك دربند) و(صوجاق) الى جهة الشمال ثم يسير من بين الأنهر التي تصب في نهر طونجه من جهة الشمال وفي نهر المريج من جهة الجنوب على خط مقسم المياه ويصعد الى تل (قيبلر) وتبقى قيبلر في الروم ايلي الشرقية، ثم يلتفت الى جهة الجنوب ويمر من بين المياه الكائنة فيما بين نهر المريج من جهة الجنوب وبين

قريتي (بلورن) و (التلي) التي تصب في البحر الأسود ويصل الى جنوب قرية (المالي) ويدور تلال (ووسنه) و (زواق) من شمال المحل المسمى (كراكلق) ويسير مع الخط الفاصل فيما بين نهري (دوكه) و(قره اغاج) حتى يتصل بالبحر الأسود .

المادة ١٥ : يكون للحضرة السلطانية حق في أن تباشر محافظة الحدود البرية والبحرية ، وذلك بأن تبني في تلك الحدود استحكامات وتقيم فيها عساكر . ولتأمين الراحة العمومية في ولاية (الروم ايلي الشرقية) يشكل فيها ضبطية أهلية وعساكر داخلية. ومذاهب الأهالي الذين تولف منهم هذه العساكر والضبطية تكون مرعية ويكون تعيين ضباطهم من طرف الحضرة السلطانية. وقد تعهدت الحضرة السلطانية بأن لا توظف في حصون الحدود عساكر غير نظامية كالباشي بوزق والجراكسة. وفي جميع الأحوال لا يسوغ للعساكر النظامية المذكورة أن تتعدى على الأهالي وعند مرورهم في الولاية (لاستقرارهم في الاستحكامات) لا يسوغ لهم الاقامة فيها .

المادة ١٦ : يكون للوالي حق في أن يستدعي العساكر العثمانية اذا حصل ما يخل بالراحة الداخلية والخارجية ، فاذا وقع ما يوجب ذلك يخبر الباب العالي نوّاب الدول بالاستانة عن قراره وعن السبب الذي أحوجه إليه .

المادة ١٧ : يكون تعيين والي (ولاية الروم ايلي الشرقية) مدة خمس سنين من طرف الباب العالي باتفاق الدول .

المادة ١٨ : بمجرد مبادلة التوقيع على هذه المعاهدة تشكل لجنة أوروباوية للنظر في تراتيب ادارة (ولاية الروم ايلي الشرقية) بالاتفاق مع الباب العالي ومن خصائصها أن تبين في ظرف ثلاثة أشهر وظيفة مأمورية الوالي وماله من الاستطاعة وترتيب الولاية الادارية والنظامية والمالية ويكون ابتداء أشغالها تنظيم اختلاف أحكام الولايات وما حصل عليه المذاكرة في الجلسة الثامنة من المؤتمر الذي عقد في الاستانة وبعد أن يحصل القرار على جميع المصالح المتعلقة بالولاية المذكورة يصدر فرمان من طرف الحضرة السلطانية فيبلغه الباب العالي الى الدول .

المادة ١٩ : يناط بعهدة اللجنة الأوروباوية المذكورة بالاتفاق مع الباب العالي ادارة المالية في الولاية الى أن تنجز القوانين الجديدة المراد وضعها .

المادة ٢٠ : جميع المعاهدات والاتفاقات والمعاملات التي جرى تداولها بين الباب العالي والدول الأجنبية أو التي ستعقد فيما بعد يكون معمولاً بها في (ولاية الروم ايلي الشرقية) كما هو جار في سائر السلطنة العثمانية،وجميع الامتيازات والخصائص التي حازتها الأجانب على اختلاف وظيفتهم ومصلحتهم تبقى محترمة في الولاية المذكورة.وقد تعهد الباب العالي بأن جميع أحكام السلطنة هناك فيما يخص المذاهب المختلفة يكون معمولاً بها ومرعية الاجراء .

المادة ٢١ : تبقى حقوق الباب العالي وتعهداته فيما يتعلق بسكك الحديد في الروم ايلي الشرقية معمولاً بها ومرعية الاجراء .

المادة ٢٢ : تكون قوّة الروسيا في البلغار وفي (ولاية الروم ايلي الشرقية) مؤلفة من ست فرق من المشاة وفرقتين من الخيالة وجميع ذلك لا يزيد على ٥٠٠٠٠ نفر وتكون مصاريفهم على الولايات التي يتبوَّؤنها ،وتبقى علاقتهم ومواصلتهم مع الروسيا بواسطة رومانيا بحسب الاتفاق الذي يحصل بين الحكومتين المذكورتين وفضلاً عن ذلك تكون بواسطة مراسي البحر الأسود مثل وارنه وبورغاس حتى يمكن لهم أن يتخذوا هناك مخازن للوازمهم مدّة إقامتهم. وتقرّر أيضاً أن إقامة العساكر الامبراطورية في (ولاية الروم ايلي الشرقية) والبلغار تكون مدّة تسعة أشهر اعتباراً من يوم مبادلة التوقيع على هذه المعاهدة وقد تعهدت دولة الروسيا الامبراطورية أنه قبل انقضاء هذه المدّة تمنع مرور عساكرها من رومانيا فتخلو منهم إمارة البلغار.

المادة ٢٣ : قد تعهد الباب العالي بأن يجري في جزيرة كريد النظامات التي تقرّرت فيها في سنة ١٨٦٨ والتعديلات التي يرى من العدل اجراءها وكذلك يجري في بقية الولايات نظامات وقوانين على ما تقتضيه المصالح الداخلية كما في كريد مما لم ينص عليه في هذه المعاهدة نصاًخصوصياً الا فيما يتعلق بالغاء الضرائب كما هو جار الآن في كريد،ويشكل من طرف الباب العالي لجان مخصوصة يكون أكثر أعضائها من الأهالي للنظر في متعلقات النظامات اللازم اجراؤها في كل ولاية ثم تعرضها على الباب العالي للتروّي فيها.وقبل أن يعمل بها وتجعل دستوراً للعمل يلزم الباب العالي أن يستشير اللجنة الأوروباوية المنعقدة للنظر في أحوال الروم ايلي الشرقية .

المادة ٢٤ : اذا فرض انه لم يقع اتفاق بين الباب العالي ودولة اليونان فيما يتعلق

بتعديل الحدود كما تقرر في المادة ١٣ من مضبطة مؤتمر برلين فدول جرمانيا وأوستريا وهنكاريا وفرنسا وبريطانيا العظمى وايطاليا والروسيا تحفظ لنفسها عرض التوسط بين الفريقين تسهيلا للمذاكرات .

المادة ٢٥ : تتبوّأ عساكر أوستريا وهنكاريا ولايتي بوسنه وهرسك ويناط بها أيضاً أمر ادارتهما، وحيث انها لا تريد أن تتولى ادارة سنجقية يكي بازار الممتدة بين الصرب والجبل الأسود على الخط الجنوبي الشرقي ما وراء ميتر ووسته فالادارة العثمانية تبقى معمولاً بها هناك، وحيث أن المراد إقرار الأحوال السياسية الجديدة وحرية المواصلات وتأمينها، فدولة أوستريا وهنكاريا تحفظ لنفسها الحق بأن يكون لها «قشل»وطرق تجارية وعسكرية في جميع الجهات المذكورة. ولهذه الغاية تحفظ لنفسها هي والدولة العثمانية أن تتفقا على المواد المتعلقة بهذه المسألة .

المادة ٢٦ : قد اعترف الباب العالي باستقلال الجبل الأسود وكذلك اعترفت به بقية الدول الموقعين على هذه المعاهدة الذين لم يعترفوا به سابقاً .

المادة ٢٧ : اتفق الموقعون على هذه المعاهدة على أن استقلال الجبل الاسود يكون مربوطاً بالمواد الآتية وهي : لايسوغ التمييز في الاعتقادات الدينية في الجبل فلا يخرج أحداً من الأهلية والجدارة لجميع ما يتعلق بتمتعه بالحقوق المدنية والسياسية أو بدخوله في الوظائف الميرية أو العمومية أو نواله الشرف أو استعماله الصنائع والحرف المختلفة كيفما كان مقرّه، فلجميع الأهالي التابعين للجبل الأسود وللأجانب ايضاً الحرية التامة في جميع المتعلقات المذهبية ولا يسوغ اتخاذ مانع ما في ترتيب درجات أرباب المذاهب المختلفة أو في علاقتهم مع رؤسائهم الروحانيين .

المادة ٢٨ : قد صار تعيين حدود الجبل الأسود كما سيأتي : وهي : انها تبتدئ من (ايلينو برودو) وتسير الى شمال (قلوبوق) وتمر من فوق (تره بنيجه) وتصل بمحل (غرانقارو) وتبقى (غرانقارو) ضمن لواء هرسك، ومنها يصعد الخط الفاصل إلى جهة فوق من نهر (غرانقارو) ويصل إلى محل يبعد عن النهر الذي يصب في (سييلقه) مقدار كيلومتر فقط، ومن هنا يسير على أقصر طريق ويصعد الى التلال التي في جوار (تره بنيجه) ثم يذهب الى (بيلاتوه) ويترك هذه القرية للجبل ثم يسير

من التلال الى جهة الشمال، وعلى قدر الامكان يمر بعيداً عن طريق (بيلكه) و(قوريتو) و(غاجقه) مقدار ٦ كيلومتر ويصل الى الطريق الكائنة فيما بين (سوينا بلانينا) وجبل قوريله، ومنها عن جهة الشرق يمتد الى جبل أورلين ويترك قرية (وارتقويجي) الهرسك ثم يمتد من الشمال الشرقي، ويدع (روانه) داخل الجبل ويمرّ من تلال (لبرسليك) و(ولجاق) ويسير من أقصر طريق وينزل الى نهر (بيوه) ويتجاوز هذا النهر ويصل الى (تاره) الكائنة بين (قرقويقه) وبين (وندوينه)، ومن (تاره) يصعد الى (موجقواق) ويتصل بمحل (سقوج زرو) ومن هنا الى قرية (صوقولار) ويجتمع بالحدود القديمة ثم يمر الى تلال مقرابلانينا، وتبقى قرية مقراد داخل الجبل ويمر أيضاً من السلسلة الأصلية الى الطريق المذكورة في خريطة أركان حرب أوستريا تحت رقم ٢١٦٦ ومن فوق مقسم المياه الواقع بين (ليم) و(درين) وبين (سيونه زم) ثم يتصل بالحدود الجديدة بعد مروره فيما بين قبيلة (قاجي دره قالويجي) وبين (قوسقارجنة) و(قلامنتي) و (غرودى) وبعد ذلك ينزل الى صحراء (بودغوريجة) ويترك قبائل(قوسقارجنه وقلامنتي وغرودي وهوتي) لبلاد الأرناؤوط ويتصل (ببلاونيقه)، ومن هنا يمرّ من جوار جزيرة (غوريقه طوبال) ويتجاوز ماء اشقودره ويسير رأساً من (غوريقه) طوبول[1] الى التلال ويمرّ من مقسم المياه الكائن فيما بين (مغورد) و (قاليمد) مع خط المقسم المذكور ويترك (ميرقويق) داخل الجبل وينتهي الى بحر ونديك (فينيسيا) عند قرية (فروجي) ثم يلتفت الى الشمال الغربي ويمر في الساحل من بين قرى (سوسانه) و (زويسي) ويتصل بمنتهى الحدود الجديدة في جهة الجنوب الشرقي فوق (ورسوته بلانينا) .

المادة **٢٩** : انضمام انتواري[2] (باري) وخطوط البحر التي تخصها الى الجبل الأسود مشروط على الصورة الآتية: وهي أن يعاد على الدولة العثمانية الأراضي الكائنة على جنوب تلك الجهة الى بويانا، من ضمنها دولستجو، ويضم الى دلماتيا مرسى سيزا والاراضي المتعلقة بها الى غاية حدودها الجنوبية كما هي مبينة بالتفصيل في الخريطة،

---

(١) الاصح ان تكون طوبال .

(٢) يكتب المؤلف اسم هذا الثغر انتيباري وانتيغاري والتواري وانتواري والصواب هو انتيڤاري .

ويكون للجبل [1] الحرية المطلقة التامة للسفر في نهر بويانه ولكن لا يسوغ له أن يبني على النهر حصوناً أو استحكامات الا ما لزم للمحافظة على اشقودره خاصة فتكون تلك الحصون والحالة هذه غير خارجة عن دائرة مسافتها حول المدينة المذكورة بستة كيلومتر (٦٠٠٠ م أو نحو عشرة أميال[2])ولا يكون له بواخر حربية ولا راية ولا يسوغ لأي دولة كانت أن تدخل بواخرها الحربية الى مرسى التواري، أما الحصون الكائنة في أرض الجبل بين النهر وشط البحر فتهدم بالكلية ولا يسوغ اعادة بنائها ويفوّض لعهدة أوستريا وهنكاريا ادارة البحرية والصحية في التواري وفي شطوط الجبل وعلى الجبل أن يستعمل القوانين والاصطلاحات البحرية على موجب القوانين والاصطلاحات الجارية في دلماسيا (باوستريا)،وقد تعهدت أوستريا وهنكاريا بأن تحمي بواخر الجبل الأسود التجارية ويلزم للجبل أن يتفق مع أوستريا وهنكاريا على مد سكة الحديد وانشاء طرق عادية في الأراضي التي دخلت حديثاً في حوزته وعلى تأمين حرية المواصلة عليها .

المادة ٣٠ : المسلمون وغيرهم الذين يملكون عقارات في الأراضي التي انضمت الى الجبل الأسود ويريدون أن يستوطنوا خارجاً عن الامارة لهم حق بأن يبقوا مالكين عقاراتهم بايجارها أو تشغيلها بواسطة من يختارونه،وتشكل لجنة مؤلفة من مأمورين من العثمانيين وأهل الجبل الأسود لتسوية المسائل التي تتعلق بكيفية نقل الأملاك أو حرثها أو إدارتها،سواء هي من أملاك الوقف أو الاملاك الميرية التي للباب العالي فتجرى تسوية جميع متعلقات الذين لهم مصلحة فيها،وهذه التسوية تكون في ظرف ثلاث سنين .

المادة ٣١ : على امارة الجبل الأسود أن تتفق مع الباب العالي على ما يتعلق بتعيين وكلاء من طرفها في الاستانة أو في جهات أخرى من السلطنة العثمانية مما يرى لازماً، أما أهل الجبل المقيمون في السلطنة العثمانية أو المسافرون فيها فيكونون تحت أحكام

---

(١) أي لأهل الجبل الأسود .

(٢) العشرة أميال تساوي ١٦,٠٠٠ متر وليس ٦٠٠٠ متر .

الدولة العثمانية على حسب الأصول المقررة بين الدول وعلى حسب العوائد المقررة مع الجبل .

المادة ٣٢ : يلزم أن عساكر الجبل الأسود تخلي الأراضي التي هم الآن مستولون عليها مما لم يدخل في حدود امارة الجبل الجديدة وذلك في ظرف عشرين يوماً اعتباراً من يوم التوقيع على هذه المعاهدة أو أقل من هذه المدّة اذا أمكن ،كذلك يلزم للعساكر السلطانية أن تخلي في المدّة المذكورة الأراضي التي دخلت الآن في حوزة الجبل .

المادة ٣٣ : حيث أنه يلزم الجبل الأسود أن يتحمل جانباً من الديون العثمانية العمومية في مقابلة الأراضي الجديدة التي دخلت في حوزته بموجب شروط الصلح فتعين نوّاب الدول الأجنبية في الاستانة هذا المبلغ بالاتفاق مع الباب العالي على أصول عادلة .

المادة ٣٤ : لما كان الموقعون على هذه المعاهدة معترفين باستقلالية إمارة الصرب فقد ربطتها بالشروط المحررة في المادة الآتية .

المادة ٣٥ : لا يسوغ التمييز في الاعتقادات الدينية في الصرب ضد أحد حتى يخرجه من الأهلية والجدارة لجميع ما يتعلق بتمتعه بالحقوق المدنية والسياسية أو بدخوله في الوظائف الميرية أو العمومية أو نواله الشرف أو استعماله الصنائع والحرف المختلفة كيفما كان مقرّه،فلجميع الأهالي التابعين للصرب والأجانب أيضاً الحرية التامة في جميع المتعلقات المذهبية ولا يسوغ اتخاذ مانع ما في ترتيب درجات أرباب المذاهب المختلفة أو في علاقتهم مع رؤسائهم الروحانيين .

المادة ٣٦ : إمارة الصرب تكون مالكة للاراضي الموجردة في ضمن الحدود الآتي ذكرها وهي أن الخط الفاصل يمر على طول الخط الحالي ومن مصب نهر (درينا) في نهر صاوا ويذهب مع المجرى ويترك (ازرونبق وزخار) للامارة ولا يترك الخط المذكور،أعني الحدود القديمة الى (قابونيق)،ثم يفترق في ذروة جبل قابونيق عن الخط المذكور ويسير من جنوب الجبل على طول حدود نيش الشرقية ويمر من تلال (ماريقا وماردار بلانينا) وهذه التلال هي الخط الفاصل بين أنهر (ايلبار وسينيقيا وطوبليقا)،وعلى هذا تبقى پره بولاد للدولة العلية وبعده يسلك خط مقسم المياه الى جهة الجنوب من بين (برونيقا) و(مدودجا) ويترك وادي (مدود

جاكله) للصرب ويصعد الى تل (قولجاق بلانينا) ويكون هو الخط الفاصل فيما بين الأنهر المسماة (بولجينا وترنيقا وموروا) ويصل الى تل (بولجنيقا) ثم يذهب من تجاه (قاينا بلانينا) الى مجمع أنهر (قوانسقا وموراوه) ويتجاوزه ويسير على الخط الفاصل فيما بين مياه النهر الذي يختلط بنهر موراوه في جوار (قوانسقا) و (تره دوس) ويتصل (ببلانينا ايليجه) فوق (ترغوبست) ومن هنا، أعني من ذروة جبل إيليجه يمتد الى ذروة جبل (قلتروق) ويمر من المحلات المدروجة في الخريطة تحت عدد ١٥١٦ و ١٥٤٧ ومن (بابينا غورا)، وينتهي الى جبل (قرني وره) ثم يبتدئ من هذا الجبل ويجتمع بحدود البلغار، يعني يمر من تلال (استره سرو ويلوغلو ومسيد بلانينا) ويسير على خط مقسم المياه الواقع فيما بين استروما و (موراوه)، وينتهي الى المحلات المدعوة (غاسينا وقرنه يراوه ودار قوسقوه ودراينيقه بلان) وبعدها يمرّ من فوق (دشاني قلادنق) ومن أعلى مقسم مياه (صوقوه وموراوه) ويذهب رأساً الى (استول) ومن هنا ينزل الى قرية (سفوزه) من جهة شمالها الغربي ويقطع طريق (بيروت) بمسافة مقدار ألف كيلومتر وعن صوفيه ويصعد على خط مستقيم الى (ويدليق بلانينا) ويمر من جبل (رادوجينا) الواقع في سلسلة البلقان الكبيرة ويترك قرية (دوقنجي) لإمارة الصرب وقرية (سناقوس) الى البلغارستان ثم يسير من ذروة هذا الجبل الى جهة الشمال الغربي ويمرّ من بلقان (سبروق) ومن استارا (بلانينا) ويصعد الى تلال البلقان وفي جوار (قولا اسميلجوه قوقه) يتصل بحدود الصرب الشرقية القديمة ويسير على هذه الحدود الى نهر الطونه وينتهي عند النهر في (راقويجه) .

المادة ٣٧ : لا يغير شيء من الشروط الحالية فيما يخص العلاقات التجارية الكائنة بين الممالك الأجنبية وبين إمارة الصرب إلى أن يجري بدلها اتفاقات جديدة، ولا يسوغ أن يؤخذ على البضائع التي تمر في الصرب مرسلة الى جهة أخرى شيء من العوائد أو الرسومات. أما المزايا والامتيازات الشاملة الآن رعايا الدول الاجنبية في الصرب وحقوق الاحكام وحماية القناصل لرعاياهم على الأصول المعمول بها الآن فتبقى مرعية الاجراء الى أن يحصل اتفاق بين إمارة الصرب والدول الأجنبية على تعديلها .

المادة ٣٨ : التعهدات التي تعهد بها الباب العالي مع دولة اوستريا وهنكاريا أو مع شركة سكة الحديد في الروم ايلي أو فيما يتعلق باتمام السكك الحديدية وتشغيلها في الأراضي التي دخلت في حوزة الصرب تبقى مرعية الاجراء عند امارة الصرب، وعند التوقيع على هذه المعاهدة يجري اتفاق بين دولة أوستريا وهنكاريا والباب العالي والصرب وامارة البلغار على قدر ما يخصها لتسوية هذه المسائل .

المادة ٣٩ : المسلمون الذين يملكون عقارات في الأراضي التي انضمت الى الصرب ويريدون أن يستوطنوا خارجاً عن الامارة لهم الحريه بأن يبقوا مالكين عقاراتهم بمؤجراتها أو تشغيلها بواسطة من يختارونه، وستشكل لجنة مؤلفة من مأمورين من العثمانيين والصربيين لأجل تسوية جميع المسائل التي تتعلق بكيفية نقل وإدارة الأملاك المتعلقة بالوقف أو الأملاك الميرية التي للباب العالي، وكذلك تسوية جميع متعلقات الناس الذين لهم مصلحة فيها . وهذه التسوية تكون في ظرف ثلاث سنين .

المادة ٤٠ : تكون معاملة رعية الصرب القاطنين في السلطنة العثمانية أو المسافرين فيها بحسب أصول الأحكام والقوانين المتداولة بين الدول الى أن تحصل معاهدة بين الدولة العثمانية والصرب .

المادة ٤١ : يلزم لعساكر الصرب اخلاء جميع الأماكن التي لم تدخل في حوزة امارتهم في ظرف خمسة عشر يوماً اعتباراً من يوم التوقيع على هذه المعاهدة، كذلك يلزم للعساكر السلطانية أن تخلي في المدة المذكورة الأماكن التي دخلت في حوزة الإمارة .

المادة ٤٢ : حيث أنه يتعين على الصرب حمل جانب من الديون العثمانية العمومية في مقابلة الأراضي الجديدة التي حازتها بموجب هذه المعاهدة فسفراء الدول الأجنبية في الاستانة يعينون مبلغ قيمة الأراضي المذكورة على صورة عادلة بالاتفاق مع الباب العالي .

المادة ٤٣ : لما كان الموقعون على هذه المعاهدة معترفين باستقلالية رومانيا فربطتها بالشرطين الآتيين .

المادة ٤٤ : لا يسوغ التمييز في الاعتقادات الدينية في رومانيا ضد أحد حتى بدخوله في الوظائف الميرية أو العمومية أو نواله الشرف أو استعماله الصنائع والحرف

المختلفة كيفما كان مقره، فلجميع الأهالي التابعين لرومانيا والأجانب أيضا الحرية التامة في جميع المتعلقات المذهبية ولا يسوغ اتخاذ مانع ما في ترتيب درجات أرباب المذاهب المختلفة أو في علاقتهم مع رؤسائهم الروحانيين، فتكون معاملة رعايا جميع الدول سواء كانوا من التجار أو غيرهم في رومانيا بدون تمييز في المذهب على قدم مساواة تامة .

المادة ٤٥ : إمارة رومانيا تعيد على حضرة امبراطور الروسيا أراضي بيسارابيا التي كانت انفصلت من الروسيا بموجب معاهدة باريس التي أمضيت في سنة ١٨٥٦ ، وحدودها في الجهات الغربية من مجرى نهر البروث، وفي الجنوب من نهر (كيليا) وفم (ستاري استانبول) .

المادة ٤٦ : يضم الى رومانيا الجزر الثلاث التي على الطونة وجزر (يلان طاغ) وسنجقية طولجي، وهي تشمل أقضية كيليا وسولينا ومحمودية وزانجة وطولجي وماجين وبابا طاغ وهرسوا وكوستنجه ومجيدية، وما عدا ذلك يعطى لها أيضاً الأراضي الكائنة على جنوب الدبروجه الى أن تصل الى خط يبتدئ من شرقي سيلستريا ويمتد الى البحر الأسود على جنوب منغاليه. ويكون تعيين تخوم تلك الحدود في تلك المواقع بمعرفة اللجنة الأوروباوية المنوط بعهدتها تعيين حدود البلغار .

المادة ٤٧ : مسألة تقسيم المياه والصيد تعرض على لجنة الطونه الأوروباوية فتكون حكماً عليها .

المادة ٤٨ : لا يجوز وضع رسومات أو عوائد في رومانيا على السلع التي ترد إليها بقصد إرسالها الى جهة أخرى .

المادة ٤٩ : يسوغ لرومانيا أن تعقد مع الدول الاجنبية اتفاقاً لتسوية مسألة امتيازات وظائف قناصلهم فيما يتعلق بحماية رعاياهم في الامارة، الا أن الحقوق الحالية تبقى مرعية الإجراء ما دام لم يحصل اتفاق عمومي بين الامارة والدول .

المادة ٥٠ : تبقى رعية رومانيا القاطنون في الممالك العثمانية أو المسافرون فيها أو رعايا العثمانيين المسافرين في رومانيا أو القاطنون فيها متمتعين بالحقوق التي تشمل رعايا بقية الدول الأوروباوية الى أن تعقد معاهدة لتسوية امتيازات القناصل ووظائفهم بين الدولة العثمانية ورومانيا .

المادة ٥١ : تعهدات الباب العالي ووظائفه فيما يتعلق باتمام الاشغال النافعة وما أشبهها في الأراضي التي دخلت في حوزة رومانيا تعود الى عهدة رومانيا .

المادة ٥٢ : لأجل زيادة تأمين حرية السفر في نهر الطونه التي اعترف انها من المصالح الأوروباوية قرّ رأي الموقعين على هذه المعاهدة بأن جميع الحصون والاستحكامات الموجودة الآن على النهر من عند المحل الذي يقال لـه (أبـواب الحديد) الى فم النهر تهدم بالكلية، فلا يسوغ بعد هذا بناء غيرها، ولا يجوز سفر احدى البواخر الحربية على الطونه الى (أبواب الحديد) الا البواخر الصغيرة المعينة لخدمة الضبطية في النهر وخدمة الكمارك، ولكن يسوغ لبواخر الدول الموجودة في فم نهر الطونة لاجل الحراسة أن تسافر في النهر الى غاية (غلاتس) .

المادة ٥٣ : تبقى لجنة الطونه الأوروباوية مقررة في وظائفها ولرومانيا فيها نائب وتجري عمال وظائفها الى (غلاتس) بحرية تامة مستقلة عن مداخلة مأموري تلك الأراضي، وتبقى أيضاً سائر معاهداتها واتفاقاتها وأشغالها وأعمالها وقراراتها فيما يتعلق امتيازاتها وخصائصها ووظائفها ثابتة الاجراء .

المادة ٥٤ : قبل نهاية الأجل المقرر لبقاء لجنة الطونة الأوروباوية بسنة واحدة يلزم للدول أن يتفقوا على تطويل سلطتهم أو على التعديلات التي يرون إجراءها من اللازم .

المادة ٥٥ : جميع النظامات المتعلقة بالسفر في النهر وبوظائف الضبطية فيه من (أبواب الحديد) الى (غلاتس) يكون ترتيبها وتنسيقها من طرف اللجنة الاوروباوية بمساعدة نواب من طرف الممالك الكائنة بسواحل النهر ويصير تأليفها بالنظامات الموجودة أو التي ستحدث في أمور النهر اسفل من (غلاتس) .

المادة ٥٦ : يلزم للجنـة الطونه الأوروباوية أن تتفق مع الدول فيما يتعلق بتنوير الفنارات الكائنة على جزر (يلان طاغ) .

المادة ٥٧ : قد فوض لاوستريا وهنگاريا الاشغال اللازم اجراؤها لإزالة موانع السفر التي تحدث من (أبواب الحديد) والشلالات ويلزم على الممالك المجاورة للنهر من الجهة المذكورة أن تجري جميع التسهيلات اللازمة لمصلحة تلك الأشغال، أما المواد المقررة في المادة الرابعة من معاهدة لندره التي أمضيت في ١٣ مارس سنة

١٨٧١ فيما يتعلق بأخذ ضرائب مؤقتة لسد مصاريف تلك الأعمال والأشغال فتبقى منوطة بدولة أوستريا وهنكاريا .

المادة ٥٨ : الباب العالي يسلم الى امبراطورية الروسيا في آسيا (الأناطول) أراضي أردهان وقارص وباطوم مع مرسى باطوم وجميع الأراضي الكائنة بين تخوم الروسيا والتركية القديمة والتخوم الآتي بيانها. وهذه الحدود الجديدة تبتدئ من البحر الاسود على حسب الخط المقرر في معاهدة اياسطفانوس الى نقطة في الجهة الشمالية الغربية من (خورده) وعلى جنوب (أرتوين) وتمتد على خط مستقيم الى نهر (جورك)، وبعد عبوره هذا النهر يسير شرقي (اشمشين) ويستمر على خط مستقيم في الجنوب ، وهناك يلاقي حدود الروسيا المشروحة في المعاهدة المذكورة وذلك في نقطة على جنوب (ناريمان) مع بقاء مدينة (اولتي) في حوزة الروسيا ثم يبتدئ الخط بالقرب من (ناريمان) الى جهة الشرقية ، ويكون مروره من (تربنيق) ، وبعد دخول مدينة (تربنيق) في حوزة الروس يسير الى (بنك شاي) مجاريا نهره الى أن يصل الى (باردوز)، وبعد دخول مدينة باردوز ويكي كوي في عهدة الروسيا يؤخذ نقطة من غرب قرية (قره أونجان) تجعل الحدود عليها على خط الى أن يصل الى (مجنجرت)، ومنها على خط مستقيم الى أن يصل الى تلال (قباداغ) فيستمر على خط مصب نهر (الاركس) في الشمال ومصب نهر (مراد صوي) في الجنوب الى أن يصل الى حدود الروسيا القديمة .

المادة ٥٩ : امبراطور الروسيا يصرح هنا بأن غاية مقصده أن يجعل (باطوم) مرسىً حراً (معنى حراً أن تكون البضائع معفاة من جميع رسومات الدخول أو الخروج)

المادة ٦٠ : تعيد الروسيا على تركيا أودية الشغراد ومدينة (بايزيد) التي سلمت للروسيا بموجب المادة ١٩ من معاهدة اياسطفانوس ، وقد سلم الباب العالي الى مملكة ايران مدينة (قطور) [١] وأراضيها كما قرّ عليه رأي اللجنة الانكليزية والروسية التي نيط بعهدتها تعيين تخوم تركيا وايران .

المادة ٦١ : الباب العالي يتعهد بأن يجري بدون تأخير في الولايات التي سكانها

---

(١) يكتبها المؤلف أحياناً قوتور .

من الأرمن سائر الاصلاحات والتحسينات التي تحتاج اليها أمورها الداخلية وأن يتعهد بتأمينهم من تعدّي الجراكسة والأكراد عليهم، ويفيد الدول الأجنبية المرّة بعد المرة بالتشبثات التي اتخذها لهذه الغاية، وهي تراقب كيفية إجرائها.

المادة ٦٢ : حيث أن الباب العالي أظهر رغبته في ابقاء أصول حرية الديانة وتوسيع مداها توسيعاً مطلقاً. فان الموقعين على هذه المعاهدة ينزلون هذه الرغبة منزلة الفعل، فلا يسوغ التمييز في الاعتقادات الدينية في جميع اطراف السلطنة العثمانية حتى يخرج أحد من الأهلية والجدارة بجميع ما يتعلق بتمتعه بالحقوق المدنية والسياسية أو بدخوله في الوظائف الميرية أو العمومية أو نواله الشرف أو استعماله الصنائع والحرف المختلفة كيفما كان مقرّه. ويؤذن لجميع الناس بأن يؤدّوا الشهادة في جميع المحاكم بدون تمييز أحد في الدين. واستعمال سائر الأمور الدينية يكون بحرية فلا يكون مانع ما لترتيب درجات أرباب المذاهب المختلفة أو لعلاقتهم مع رؤسائهم ويكون الاكليروس (أصحاب الرتب الكنائسية) والزوّار والرهبان من جميع الأمم الذين يسافرون في الممالك العثمانية في الروم ايلي والاناطول حائزين حقوقاً واحدة وامتيازات وخصائص واحدة، وفوّض الى القناصل ونوّاب الدول الاجنبية في تلك الممالك حق في حماية أولئك المذكورين وحماية محلاتهم الدينية والخيرية حماية رسمية في الأماكن المقدّسة أوغيرها، أما الحقوق المسلمة لفرنسا فلم تزل مرعية الإجراء وصار من المعلوم المقرّر هنا أنه لا يسوغ تبديل حال من الأحوال الحاضرة في الاماكن المقدّسة. أما زوّار جبل اثوس من أيّ جنس كانوا فيبقون حافظين لاملاكهم وامتيازاتهم ومنحهم السابقة ويبقون متمتعين بمساواة تامة في الحقوق والمزايا .

المادة ٦٣ : تبقى معاهدة باريس ألتي أمضيت في ٣٠ مارس سنة ١٨٥٦ ومعاهدة لندره التي أمضيت في ١٣ مارس سنة ١٨٧١ مرعية الاجراء، وذلك فيما يتعلق بالمواد التي لم تنسخها ولم تعدلها هذه المعاهدة .

المادة ٦٤ : يقع التصديق على هذه المعاهدة بعد ثلاثة أسابيع أو أقل ان أمكن. وللشهادة بذلك أثبت الموقعون أسماءهم على هذه المعاهدة بعد أن وضعوا عليها أختامهم .

(تحريراً في برلين في يوم الثالث عشر من شهر جوليه (تموز) من سنة ١٨٧٨) .

الإمضـــــــاء

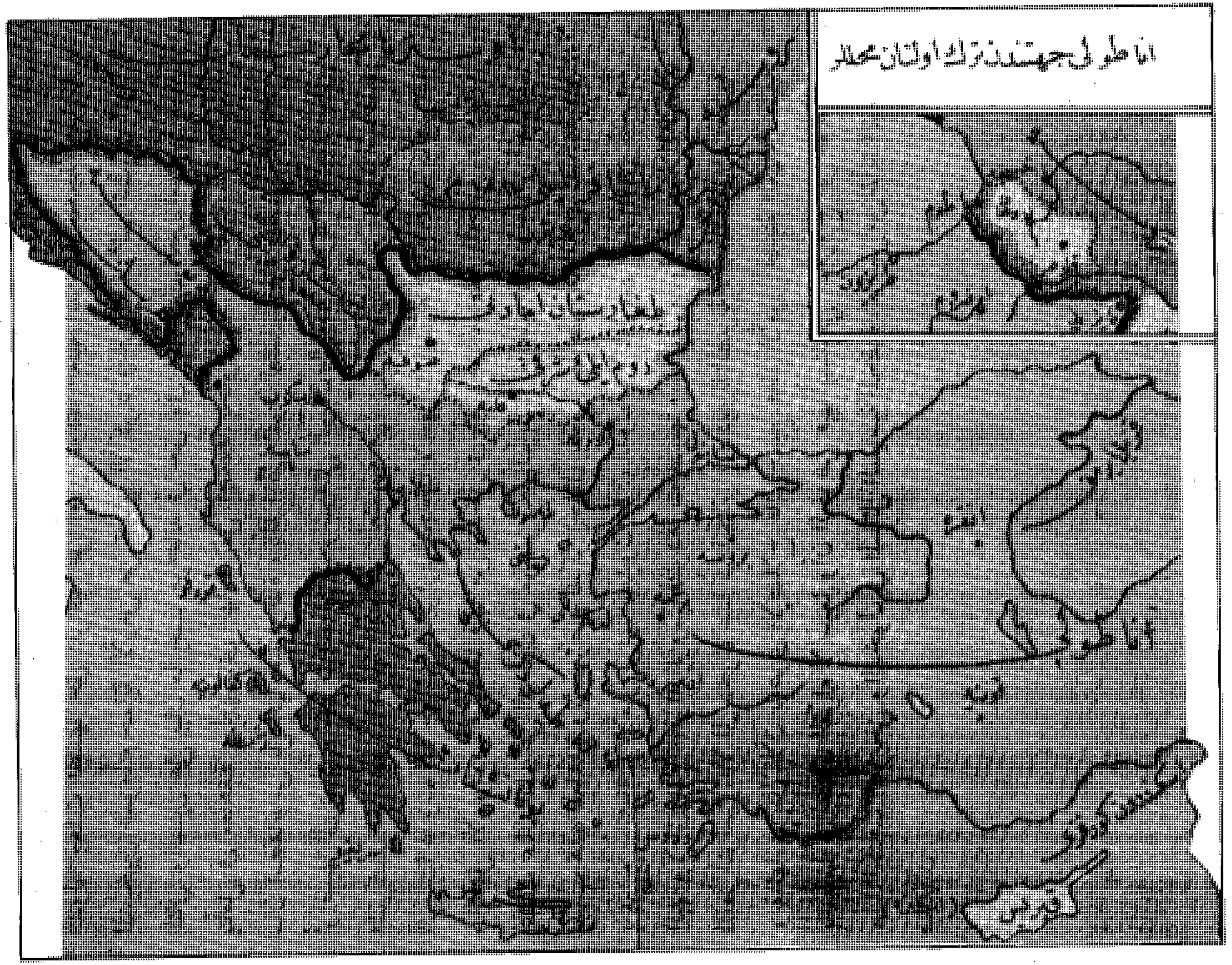
فون بسمارك	سالسبوري
فون بولوي	اودروسل
هوهنلوه	كورتي
اندراسي	لاوني
كاروليبي	غور جيقوف
هايمرل	شوفالوف
وادنطون	دوبريل
صان فاليه	قره تيودوري
ديبريس	محمد علي
بيكنسفيلد	سعد الله

ومن تأمل نصوص هذه المعاهدة يرى أن الدولة العلية لم تربح منها شيئاً يذكر، فأهم ما جاء فيها أن صارت حدود إمارة البلغار لا تتجاوز جبال البلقان لكن فصلت ولاية الروم ايلي الشرقية بأجمعها عن الدولة وحظر عليها إقامة جيوشها بها وصار تعيين واليها باتفاق الدول وردّت سواحل الأرخبيل بما فيها ميناء قوله الى الباب العالي فصار ما سمحت أوروبا ببقائه له من البلاد بتركية أوروبا متصلا ببعضه، لكن سلمت ولايتي البوسنه والهرسك الى مملكة النمسا والمجر لاحتلالها وإدارتها لأجل غير محدود، أو بعبارة أخرى ملكتا لها تمليكا تاماً باتفاق جميع الدول. ومن جهة أخرى أضيف الى مملكة اليونان جزء ليس بقليل من الأراضي لتوسيع حدودها من جهة الشمال مع أنها لم تشترك في الحرب. ولم يكن لها أدنى حق في طلب أقل تعويض سواء كان نقدياً أو مستبدلاً بأراض. وكذلك وسعت حدود الصرب والجبل الأسود وأعطيت لأمير الجبل ميناء مهماً على بحر الادرياتيك وهي ميناء انتيفاري (باري) [1] وزيادة على ذلك تعرض المؤتمر للاصلاحات الداخلية المراد اجراؤها لتحسين حال المسيحيين وخصوصاً الأرمن (انظر بند ٦١).

(١) باري غير انتيفاري فالأولى جنوب شرق ايطاليا والثانية غرب يوگوسلافيا، وكلاهما على الأدرياتيكي متقابلتان.

ومن الغريب أنها ألزمت الدولة العلية أن تفيد الدول الأجنبية المرّة بعد المرّة عن الاجرآءات التي اتخذتها للوصول الى هذه الغاية وعلى الدول مراقبة ذلك.أي أن الدول جعلت لنفسها حق المراقبة على أمور دولتنا العلية الداخلية بحجة حماية المسيحيين عموماً وحماية الأرمن من تعدي الأكراد والجراكسة، ثم أتت في البند الثاني والستين على بيان ما يجب مراعاته في حق باقي الطوائف الغير اسلامية.فمن يتأمل في معاهدة برلين يرى أنها لم تقلّ اجحافاً بحقوق الدولة العلية عن معاهدة سان اسطفانوس بل إنها أشدّ وطأة وتأثيراً على نفوذ العثمانيين،إذأعطت كثيراً من أراضيها الى دول لم تشترك قط في الحرب مثل اليونان والعجم،ودولة النمسا والمجر اشتركت وانتصرت عليها العساكر العثمانية مراراً في بادئ الأمر،ولولا مساعدة الروسيا لها وسوقها جيوشها الجرّارة لنجدتها لأجهزت الدولة العلية عليها كالصرب والجبل الأسود وناهيك ما فيها من التدخل في أمورها الداخلية المحضة. والى هنا نمسك عنان القلم عن الدخول في موضوع ما ألمّ بالدولة العلية المحروسة من المصائب بسبب هذه المعاهدة ولا نتعرّض لذكر إخلال بلغاريا بها بطردها أميرها اسكندردي باتمبرج وانتخاب الأمير فرديناند بدون قبول الدول،ولا الى ضم الروم ايلي الشرقية اليها ولا الى عدم احترام الروسيا لبنودها بتحصينها ميناء باطوم،ولا الى احتلال فرنسا للقطر التونسي،ولا الى دخول عساكر انكلترا الى ديارنا المصرية لاخماد الثورة العرابية وبقائها بها الى الآن بدعوى الإصلاح.فان جميع هذه الأمور حديثة العهد منطبعة بأسبابها في عقول القرّاء لا سيما وأن الخوض فيها يستدعي الخروج عن موضوع هذا الكتاب التاريخي والدخول في المسائل السياسية المحضة،مما ليس من شأننا التوسع فيه الآن .

* * *



الدولة العثمانية بموجب معاهدة برلين

الدستور العثماني

« النهضة الوطنية والاصلاحات في الدولة العلية »

توفي السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٦٦ م والدولة العلية في إبان مجدها وأوج عظمتها وكانت ممالكها تحد شرقاً بالحدود الهندية وغرباً بالمحيط الاطلانطي وكانت أوروبا ترهب سطوته وتخشى قوته .

فخلفه من بعده ملوك لم يتعقبوا خطواته ولم ينهجوا منهجه ،لا سيما وقد تألبت عليها الدول الأوروبية واختلفت عليها الفتن الداخلية فبدأت في الانحطاط وانسلخت منها أجزاء كثيرة ،وكانت أحياناً تنحط الى أن تولى الخلافة السلطان سليم الثالث سنة ١٧٨٩ والبلاد في اختلال ، والأحكام في ضعف والانكشارية قابضون على زمام الأمور يولون من شاؤوامن السلاطين ويخلعون من شاؤوا ويقتلون من لم يسر وفاق أهوائهم وأغراضهم ، والبلاد في فوضى كادت تمزق شملها . فهاجه حب الإصلاح وصرح بميله الى تنظيم الجند على النمط الحديث وتسليحهم بالاسلحة الحديثة الاختراع . فلم يوافق ذلك الانكشارية فبطشوا به فمات والاصلاح في مهده .

على أن الفكرة رسخت في أذهان العثمانيين فتلقاها السلطان محمود وعمد الى الاصلاح من الوجهة الادارية والعسكرية . فبدد جند الانكشارية وأحل محلهم جيشاً منظماً . وأخذ يبعث بمنشورات الإصلاح الى الولاة والحكام . ولكنه توفي ولم يتمم من فروع الاصلاح الا تنظيم الجند تنظيماً غير تام .

وكانت فكرة الإصلاح قد سرت بين فئة من رجال الدولة فأقاموا يبثونها على عهد السلطان عبد المجيد والسلطان عبد العزيز ،وأعظمهم شأناً وأعلاهم يداً مصطفى

رشيد باشا وعالي باشا وفؤاد باشا .

فلما توفي السلطان محمود وخلفه السلطان عبد المجيد نشر خط الكلخانة المشهور سنة ١٨٣٩ م أي في ٢٦ شعبان سنة ١٢٥٥ هجرية فكانت له ضجة اهتزت لها أوروبا وأخذ رجال الدولة منذ اصدار ذلك الخط الهمايوني ينظمون القوانين الخاصة لكل فرع من فروع القضاء .

ثم تألفت لجنة جمعت أعاظم الاساتذة العثمانيين فألفوا المجلة الشرعيةالتي صدرت الارادة الشاهانية من السلطان عبد العزيز عام ١٢٨٩ هجرية بالسير حسب نصوصها ،وسن قانون الأراضي سنة ١٢٧٤ هجرية وقانون الطابو سنة ١٢٧٥ هـ وقانون الجزاء سنة ١٢٧٤ هـ . وكل هذه القوانين مقتبسة من القوانين الفرنسية مع مراعاة نصوص الشريعة الاسلامية .

ثم وضع قانون التابعية العثمانية وتنظيم المحاكم الشرعية والمحاكم النظامية والمحاكم التجارية ونظامات الادارة الملكية ونظام ادارة الولايات ونظام شورى الدولة ،ووضعوا نظاماً للمعارف ونظاماً للمطبوعات ونظامات أخرى للمطابع والطبع وحقوق التأليف والترجمة ونظامات للرسومات وآخر للمعادن وغيره للطرق والمعابر وغير ذلك مما يقتضيه سير الحضارة ويلائم حالة الأمة. وبالجملة فانهم لم يتركوا شيئاً من لوازم إدارة الدولة حتى دونوا له قانوناً .

فمجموع هذه القوانين والنظامات كان معروفاً في بلاد الدولة العلية بالدستور .

ومع ذلك فكان الحكم مطلقاً وإرادة السلطان فوق كل قانون .وفي المدة الوجيزة التي جلس فيها السلطان مراد على سرير الملك كان مدحت باشا وحزبه الحر قد انتهى من إعداد القانون الأساسي وترتيب نظام مجلس المبعوثين .

القانون الأساسي والسلطان عبد الحميد

خلع السلطان مراد سنة ١٢٩٣ هجرية الموافق ١٨٧٦ م وجلس السلطان عبد الحميد على عرش الخلافة وكان قد وعد رئيس الأحرار مدحت باشا قبل جلوسه على العرش بمنح القانون الاساسي وإمتاع الامة العثمانية بالحرية .

إلا أن عبد الحميد أظهر حين جلوسه علامات دلت على إخلافه وعده . فمن ذلك أنه جمّع أعداء الأحرار وأضداد القانون الأساسي وعينهم في السراي لتقوية مركزه ، مع أنه وعد مدحت باشا بتعيين الشاعر العثماني الكبير نامق كمال بك زعيم الانقلاب باشكاتبا ، وضياء باشا الأديب السياسي الشهير مشيراً للمابين [1] فأخلف وعده . كما انّه كان يسعى جهده لاستمالة الرأي العام إليه . فكان يخدع الأهالي . الا أن الأحرار لم ينخدعوا واستعدوا للمناضلة في سبيل القانون الأساسي .

وكانت الدولة في ذلك الوقت تحارب الصرب فهزمتها واستولى العثمانيون على قلعة (الكسناج) فطلب أمير الصرب توسط الدول فراجعت الباب العالي بعد أن قررت وقف الحرب لمدة بموافقة الباب العالي . وقد اشترط الباب العالي شروطاً لعقد الصلح مجملها أن يحضر أمير الصرب الى الاستانة ويعرض طاعته على السلطان والا تجند الصرب أكثر من ١٠٠٠٠ جندياً . وأن تحتل الجنود العثمانية القلاع الصربية كلها وأن تهدم جميع الاستحكامات المقامة في ميدان القتال وأن تدفع الصرب التعويضات الحربية وأن يقوم بانشاء الخطوط الحديدية في الصرب شركات عثمانية بموافقة الباب العالي .

---

(١) ديوان القصر السلطاني

ولكن هذه الدول رفضت هذه الشروط وطلبت من الباب العالي إبقاء الصرب على ما كانت عليه قبل الحرب،ومنح البوسنه والهرسك التي كانت ثائرة أيضاً ادارة مستقلة مع منح البلغار مثلها .

فكان ذلك سبباً لطمع الصربيين فقرروا محاربة الدولة ونظم جيوشهم المهندسون الروسيون ولكن كان الانهزام نصيبهم فاستولى العثمانيون على الكسناج ودلغراد وساروا نحو العاصمة بلغراد . فاستنجد أمير الصرب بالروسيا فأمر قيصرها سفيره في الاستانة بتقديم بلاغ شديد اللهجة الى الباب العالي . وقررت بعد ذلك عقد مؤتمر في الاستانة للنظر في أمر البلقان .

وبالجملة فقد كان مركز الدولة العلية حرجاً للغاية لأن أوروبا كلها تألبت عليها وكان يشتم من بلاغ سفير الروسيا رائحة الحرب فقرر الوكلاء اذ ذاك منح القانون الأساسي للتخلص من هذه الغوائل واقتنع السلطان عبد الحميد بوجوب تنفيذه لأنه كان من المستحيل قبول طلبات أوروبا،ولاتقاء الأخطار التي تنجم من رفض تلك الطلبات كان الواجب اجراء بعض الاصلاحات.والاصلاح الذي لا تتمكن أوروبا من انتقاده هو تنفيذ القانون الأساسي .

وفي ذلك الوقت تعين مدحت باشا صدراً أعظم وذلك لأن الدول الأوروبية كلها تثق به لعلمها أنه رئيس الأحرار وواضع القانون الأساسي .

وقرر السلطان عبد الحميد تعيين مدحت باشا كي ينظر في مسألة المؤتمر الأوروبي الذي قررت الدول عقده في الاستانة .

فكان أول ما قام به مدحت باشا هو إنهاء المنازعات بين الدولة وبين الصرب والجبل الأسود وبلغاريا ، فتمكن من إنهائها في زمن قصير وبدأ يسعى جهده لاعلان القانون الأساسي في الساعة التي سيجتمع فيها المؤتمر الدولي في الاستانة .

وفي اليوم السابع من شهر ذي الحجة سنة ١٢٩٥ (٢٤ دسمبر ١٨٧٧) اجتمع الوكلاء والعلماء والامراء وغيرهم في الباب العالي، ثم أقبل مدحت باشا وقرأ الارادة الشاهانية التي منحت الأمة العثمانية الدستور والحرية . فهتفوا له جميعاً وحياه العثمانيون من صميم قلوبهم.واذ ذاك أطلقت القنابل تحية للقانون الأساسي وكان

أعضاء المؤتمر الدولي مجتمعين في الطوبخانة. وبينما كانوا يتباحثون في النقط التي سيتناقشون فيها سمعوا القنابل وهي تدوي فقام صفوت باشا ناظر الخارجية وقال للاعضاء « ان الأمة العثمانية قد نالت مطالبها الشرعية وهي تتمتع بحريتها الشرعية فلا لزوم لهذا الاجتماع بعد هذا الانقلاب » فوجم الجميع وظلوا ساكتين فطلب سفير الروسيا المناقشة في الموضوع ،ولكن المندوبين العثمانيين انسحبا وخرجا وقد قام العثمانيون بمظاهرة ضد اجتماع المؤتمر الدولي وطلبوا الحرب ..

اجتماع مجلس المبعوثين الأول

اجتمع مجلس المبعوثين لأول مرة سنة ١٨٧٧ م في سراي طولمه باغجة وافتتحه السلطان عبد الحميد بخطابة مطولة بحث فيها بعد مقدمة تاريخية عن الامتيازات التي منحت للعناصر غير المسلمة، ثم القروض التي عقدت بعد حرب القرم ثم الاختلالات المالية التي حدثت أثناء حكم السلطان عبد العزيز في عصيان البوسنة والهرسك، ثم وجوب منح القانون الأساسي لتخليص الدولة من الاضمحلال والانقراض ثم قال :

« عليكم أيها الأعضاء هذه السنة أن تضعوا النظامات الداخلية للمجلس وقانون الانتخاب وقوانين ادارة الولايات والنواحي وقانون البلدية وأصول المحاكمات المدنية . وقانون ترقية الموظفين وقانون المطبوعات وديوان المحاسبات والتدقيق في الميزانية » .

على أنه لم يكد ينتظم مجلس المبعوثين وينظر في شؤون الدولة حتى صدرت الارادة الشاهانية بفضه، فتقوضت كل أركان ذلك البناء وابتليت الأمة بطور استبداد جديد لم تعهد نظيره حتى في عصور الظلمات .

هدم السلطان عبد الحميد ما بناه الأحرار ،ولكن رغماً من ذلك لم تمت الفكرة في رؤوس العثمانيين، فإن هذا الجسم على قوته الكامنة بل على ضعفه الظاهر لم يقو على تحمل أذى الحكومة الحميدية بما انتابته من ضروب الظلم ،لا سيما وألوية الحكومات الدستورية قد انتشرت من أقصى المغرب الى أقصى المشرق وكواكب الحرية قد سطعت في كل مكان .

فبدأ الأحرار يعملون ليل نهار حتى انتصروا ذلك الانتصار الباهر عام ١٩٠٨ فنالت الأمة العثمانية الدستور بجهاد جيشها الباسل .

انتشرت الفكرة الوطنية من عهد مدحت باشا وساعد على انتشارها قصائد الشاعر العظيم نامق كمال بك الذي أدركه الموت في سجن ماغوسه .

ألف نيازي بك أول عصابة في رسنة وسار على أثره أنور بك ورائف بك وحسن بك وصلاح الدين بك .

أما إدارة الحركة فكانت في سلانيك والجمعية العمومية للاتحاد والترقي في باريس .

وكان الجميع يجتهدون لنشر الأفكار الحرة والمبادئ الدستورية .

ومما ساعدهم على نشر أفكارهم أنه لم يكن بينهم خائن فقويت حركتهم واتسعت حتى أصبح لا يمكن بقاؤها تحت طي الخفاء .

وكانت لجنة الاتحاد والترقي وقفت مقدماً على القوى التي يمكنها أن ترتكن عليها فوجدتها كافية ، وهذه القوى مؤلفة من الفيلقين الثاني والثالث المعسكرين في (مناستر واسكوب وادرنه وازمير) ، ومن الفيلق الرابع المعسكر في أرض روم .

فكان من المستحيل على الحكومة الحميدية إرسال الفيلق الأول المعسكر في الاستانة لمحاربة الدستوريين ، لأنه لا يمكن تجريد العاصمة من الجند ، ومع ذلك فكان أغلب الضباط منضمين الى الدستوريين .

وكان جنود الفيلق الثاني والثالث أكثر من غيرهما . فبدأ الدستوريون يؤلفون عصابات وطنية لمقاومة الحكومة اذا حاولت عرقلة مساعيهم .

فقامت عصابة نيازي بك ، ثم ظهرت عصابة أنور بك ورائف بك وحسن بك وغيرهم .

وانتهى الدستوريون من وضع الخطة في أواخر شهر يونيو سنة ١٩٠٨ ، فأرسلت الحكومة الحميدية شمسي باشا لاقتفاء أثر عصابة نيازي بك ، ولكنه قتل قبل أن يبدأ في مهمته . وأرسلت أيضاً من أزمير ثلاثين فرقة من فرق الرديف فانضمت الى الدستوريين وقوت صفوفهم .

وفي يوم ٢١ و٢٢ و ٢٣ يوليه أرسل الدستوريون التلغرافات الى الصدر الأعظم من سالونيك ومناستر وأسكوب وسيريس، هددوا فيها الاستانة بالزحف عليها اذا لم يعلن الدستور . فلما وصلت هذه التلغرافات الى السلطان عبد الحميد أصدر الارادة الشاهانية بمنح الدستور والقانون الأساسي .

الحادثة الارتجاعية وخلع عبد الحميد

تفرق شمل المستبدين منذ إعلان الدستور وازداد النفور بينهم وبين لجنة الاتحاد والترقي فأخذوا يفكرون في اجتثاث أصول الفساد الذي يزعمونه فشجعوا أولاً الجرائد على الكتابة ضد الجمعية .

ثم قامت حامية الاستانة بايعاز من أركان السراي ، ولخصوا مطالبهم في شكل ديني كي ينضم اليهم أهالي الاستانة وها هي مطالبهم :

(١) إحياء الشريعة .

(٢) عزل الصدر الأعظم وناظري الحربية والبحرية .

(٣) طرد احمد رضا بك وحسين جاهد بك وجاويد بك ورحمي بك وطلعت واسماعيل حقي بك الخ . من المجلس .

(٤) عزل محمود مختار باشا لأنه لم يشترك معهم .

(٥) العفو عنهم .

فعقد مجلس المبعوثين اجتماعاً فوق العادة ، ومع أن عدد الأعضاء (لم) يتجاوز الخمسين فانهم قرروا إجابة مطالب الثوار وانتخبوا وفداً منهم ليبلغ السلطان قرارهم . فتعين اذ ذاك توفيق باشا صدراً اعظم وأدهم باشا ناظراً للحربية . وقرر العفو عن الجنود فبدأ أولئك يطلقون البنادق احتفالاً ،وكان يبلغ عدد أولئك ثلاثين ألفاً .

واجتمع المجلس مرة أخرى بعدها فقرر قبول استقالة الرئيس احمد رضا بك .

وانقلبت لهجة الجرائد انقلاباً إجبارياً فباتت تتكلم عن السلطان عبد الحميد كما كانت تتكلم عنه أيام الاستبداد .

وكانت الحالة كذلك في الاستانة فوردت الأنباء بمجيء الجنود من الروم ايلي

لحماية الدستور ومجلس المبعوثين .

ثم حاصر جيش الحرية الاستانة ، فأوفد المبعوثون وفداً لمقابلته .

ودخل الجيش تحت قيادة محمود شوكت باشا الاستانة وحاصر يلديز وحدثت هناك موقعة كبيرة انتهت بتسليم حامية يلديز .

ولكن السلطان عبد الحميد استمر على المقاومة فقرر جيش الحرية أن يحمل الحملة الأخيرة . فأطلقت القنابل على حامية الباب العالي والنادي العسكري واستولت عليهما .

ثم قبضت على الكثيرين من أنصار الحكم القديم الذين أثاروا الفتن،ومن بينهم مراد بك الداغستاني ،وأعدم الجواسيس رمياًبالرصاص ويقدر عدد القتلى بـ ١٢٠٠ قتيل ،وحاصرت الجنود الدستورية بعدها قشلاقات اسكودار فاستولت عليها . ولم يبق إذ ذاك أي خطر على القانون الأساسي ،فعادأعضاء البرلمان إلى الأستانة واجتمعت الجمعية العمومية لتتداول في أمرالسلطان عبد الحميد .

وكانت النتيجة عزل السلطان عبد الحميد وتولية السلطان رشاد مكانه .

وتم يوم ٢٧ ابريل سنة ١٩٠٩ تتويج السلطان رشاد باسم السلطان محمد الخامس ، وبالجملة فإن انصار الاستبداد أثاروا فتنتهم الأخيرة،فوقع الدستور في أزمة شديدة وتشتت شمل عشاقه وحماته وترقب الملأ أن يعيد السلطان عبد الحميد ما فعله مع الدستور الأول . ولكن كانت الروح الدستورية قد قويت في قلوب العثمانيين وارتكزت على قوة الجند فاحتمل أنصار الدستور تلك الضربة بالصبر والثبات وتجدد النزاع الطبيعي بين الاستبداد والحرية وانتهى بخلع السلطان عبد الحميد .



-٣٥

خليفة المسلمين وسلطان العثمانيين

محمد رشاد خان الخامس

ولد جلالته سنة ١٨٤٤ م وقد قضى أغلب عمره في قصر زنجيرلي كوي محوطاً بالجواسيس الذين يرصدون حركاته ويقدمون التقارير المشوهة عنه . فظل كذلك الى حين حدوث الانقلاب العثماني وتخلص مع الشعب العثماني من الاستبداد والمراقبة إذ دالت دولة الجواسيس وثل عرش الاستبداد .

الا أن عبد الحميد الذي طبع على الاستبداد لم يرقه أن يرى أمته متمتعة بالحرية راقية أوج الكمالات منظمة أمورها بنفسها مقيمة العدل . فسولت له نفسه إحداث تلك الفتنة الارتجاعية لتقويض صروح الادارة الدستورية . ولولا أن أدرك الاستانة في ذلك الوقت بطل الحرية وقائد جيش الفدائيين محمود شوكت باشا وبطلا الحرية نيازي بك وأنور بك لتم له ما اراده ولذهبت أتعاب حزب الاتحاد والترقي الذي جاهد في سبيل الحرية ثلاثين عاماً أدراج الرياح .

اجتمع المجلس العمومي اجتماعاً سرياً وخلع عبد الحميد بموجب فتوى من شيخ الاسلام هذا نصها .

« اذا اعتاد زيد الذي هو إمام المسلمين أن يرفع من الكتب الشرعية بعض المسائل »
« المهمة الشرعية ،وأن يمنع بعض هذه الكتب ويمزق بعضها ويحرق بعضها ،وأن »
« يبذر ويسرف في بيت المال ويتصرف فيه بغير مسوغ شرعي ،وأن يقتل الرعية »
« ويحبسهم وينفيهم ويغربهم بغير سبب شرعي وسائر أنواع المظالم، ثم ادعى أنه تاب »
« وعاهد الله وحلف أنه يصلح حاله، ثم حنث وأحدث فتنة عظيمة جعلت أمور المسلمين »
« كلها مختلة وأصر على المقاتلة ،وتمكن منعة المسلمين من إزالة تغلب زيد المذكور. »
« ووردت أخبار متوالية من جوانب بلاد المسلمين انهم يعتبرونه مخلوعاً وأصبح بقاؤه »

« محقق الضرر وزواله محتمل الصلاح . فهل يجب أحد الأمرين خلعه أو تكليفه »
« بالتنازل عن الإمامة والسلطنة على حسب ما يختاره أهل الحل والعقد وأولي الأمر »
« من هذين الوجهين ؟»

الجواب : يجب　　　　كتبه الفقير
السيّد محمد ضياء الدين
عفي عنه .

فلما قرئت هذه الفتوى الجليلة على الأعيان والمبعوثين سألهم سعيد باشا رئيس الأعيان الذي كان يرأس الجلسة اتختارون خلعه أم تكليفه بالتنازل فأجابوا بصوت واحد : الخلع الخلع .

وهذه ترجمة قرار هذا المجلس العمومي (المؤلف من الأعيان والمبعوثين) :

« يوم الثلاثاء سابع ربيع الآخر سنة ١٣٢٧ و ١٤ نيسان سنة١٣٢٥ (٢٧ ابريل سنة ١٩٠٩ م) الساعة السادسة ونصف (عربي) (الواحدة بعد الظهر زوالي) قرئت الفتوى الشرعية الموقع عليها بتوقيع شيخ الاسلام محمد ضياء الدين افندي في المجلس العمومي المؤلف من المبعوثين والأعيان ورجح بالاتفاق وجه الخلع الذي هو أحد الوجهين المخير بينهما فأسقط السلطان عبد الحميد خان من الخلافة الاسلامية والسلطنة العثمانية وأصعد ولي العهد محمد رشاد أفندي باسم السلطان محمد خان الخامس إلى مقام الخلافة والسلطنة » .

خلع عبد الحميد سنة ١٩٠٩ فبويع بالخلافة الاسلامية الخليفة الشوري العادل أمير المؤمنين محمد رشاد الخامس .

فلما ولي الخلافة أعاد اليها عهد عمر بن عبد العزيز ،إذ سار في المؤمنين سيرته ، فكان من كل قلب قاب قوسين أو أدنى . وعمل على خدمة الأمة فأعزته وأخذ بيدها فاحبته وأجلها فأجلته وكانت الكلمة التي امتاز بها عهده السعيد تلك التي قالها على مسمع من وزرائه « إننا جميعاً خدام الشعب » .

ولم يمض على توليته الخلافة الا قليل حتى ألف بين قلوب الأمة في ظل الدستور ، فكان لعناصر هذه الأمة أباً رحيماً وراعياً حكيماً . ولقد رأى العثمانيون جميعاً من

حكيم تدبيره وسياسته ما ملأ قلوبهم ثقة وتعلقاً به وحباً وإقداراً له. فكان عهده فاتحة لرقي الممالك العثمانية وإصلاحها.

ومنذ ارتقاء جلالته على العرش تسلم حزب الاتحاد والترقي ادارة الحكومة العثمانية، وإنا لنذكر الاصلاحات التي تمت منذ الثلاث السنين الماضية والاتحاديون يديرون الحكومة العثمانية:

الاصلاحات الداخلية

تسلم حزب الاتحاد والترقي ادارة الحكومة واعداؤه من رجال العهد الماضي يعدون بالمئات. أولئك المنافقون الذين ارتكبوا من الأعمال المضرة في العهد البائد ما تقشعر منه الأبدان. وكانت الحكومة في اختلال تام والأمة قد فقدت أسباب الأمن والموظفون لا يتقاضون مرتباتهم والديون الخارجية لا تدفع اقساطها في أوقاتها واشتعلت في الولايات نيران الفتن والمشاغبات.

تلك هي حال الحكومة عندما تسلمها حزب الاتحاد والترقي. أما حال العناصر العثمانية المختلفة فكان على أسوأ ما يكون وكل عنصر كان يتأهب للفتك بأخيه. وكان بين المبعوثين لأول مرة من لم يفهم معنى الحرية ولا يعرف واجباته نحو الأمة ولا الفائدة من الاجتماع بمجلس المبعوثين.

تسلم حزب الاتحاد والترقي الحكومة في ذلك الوقت وبدأ في اعماله واصلاحاته بهمة لا تعرف الكلل ولا الملل.

كان أول ما ابتدأ في تنفيذه من الوسائل النافعة تعميم المساواة بين أفراد الأمة بوضعهم جميعاً في مستوى واحد امام قانون واحد.

ومن المعلوم أن هناك بعض بقاع في الدولة العلية لا يمكن الانسان فيها أن يخرج من منزله الا بعد أن يرخي الظلام سدوله، وهناك بلاد لا يستطيع الانسان أن يسير فيها نهاراً الا وهو مدجج بالسلاح. وغيرها حيث لا يمكن الانسان أن يتجول الا اذا اصطحب معه أربعين أو خمسين رفيقاً. كما كان هناك بلاد يحارب أهلها بعضهم بعضاً. فبدأ حزب الاتحاد والترقي يسعى سعياً متواصلاً لازالة تلك العوائق وتذليل

هذه المصاعب باخضاع الجميع لسطوة القانون حيث تتوطد بذلك أركان الجامعة العثمانية .

ولقد وفقت الحكومة لجمع الأسلحة من الأشقياء الذين يلجأون الى الجبال في الروم ايلي . فأثار أولئك من أجل ذلك ثورات جديدة قاومتها الحكومة وأخمدتها، فعادت السكينة في انحاء الدولة العلية وعمَّ الأمن وانتشرت الطمأنينة .

الاصلاحات المالية

قبض حزب الاتحاد والترقي على ادارة الحكومة العثمانية والخزانة خاوية على عروشها فبدأ في إصلاحها، وتمكن من وضع ميزانية لمالية الحكومة العثمانية فكانت عبارة عن خمسة وعشرين مليوناً واردات وثلاثين مليوناً مصروفات . وكانت قد تراكمت الديون من جهة ولم تحصل الضرائب منذ سنين من جهة أخرى . فلما وضعت الميزانية المذكورة لم يكن أحد يعتقد إمكان تحصيل ٢٥ مليوناً من بلاد الدولة، ولكن كان المتحصل عقب اعلان الدستور لأول مرة ٢٦ مليوناً ونصفاً سنة ١٩١٠ .

وفي سنة ١٩١١ بلغ المتحصل ثلاثين مليوناً .

ولقد زادت واردات جميع مصالح الحكومة ؛ وبالجملة فان المواد الأساسية لايرادات الحكومة نمت وازدادت الى درجة كبيرة .

وكانت ايرادات الكمارك سنة ١٩١٠ ثلاثة ملايين ونصفاً فوصلت الى خمسة ملايين سنة ١٩١١ وكانت واردات العشور سنة ١٩١٠ ستة ملايين فأصبحت سبعة ملايين ونصفاً .

الاصلاحات الحربية

لو لم يهتم حزب الاتحاد بتنظيم الجيوش العثمانية الى تلك الدرجة التي أصبح يفوق فيها أعظم جيوش دول أوروبا نظاماً وتدريباً لفاجأ الأعداء الدولة العثمانية من كل ناحية . ولو لم يقف الجيش العثماني على حدود الروم ايلي صادًّا الأعداء عن التقدم لقاء الأعداء وسخروا من الدولة العلية .

* * *

وبالجملة فإن حزب الاتحاد قد عرف أدواء الأمة وعلاجها فنجح في تقليل الهجرة وعدد المهاجرين في الروم ايلي وقلل من العشور في الأناضول. وقصارى القول إن الحزب قد نجح في مداواة هذه الأمراض نجاحاً باهراً .

ولقد وزع حزب الاتحاد المبالغ الجسيمة على سكان الجزيرة والموصل والاناضول لاحياء أراضيهم وتعميم الزراعة بينهم بعد الموات .

فلا عجب اذا ابتهج المسلمون في شرق الأرض وغربها بارتقاء جلالة مولانا السلطان الاعظم محمد الخامس عرش الخلافة العثمانية .

نسأل الله أن يمد في عمر جلالته ويزيده توفيقاً ويجعل عهده المحبوب عهد إسعاد للدولة والملة آمين .

(تم الكتاب كما صنفه المؤلف)





أواخر سلاطين بني عثمان

بقلم الدكتور احسان حقي

إن آخر من ذكره المؤلف من سلاطين آل عثمان هو السلطان محمد رشاد الخامس وقد جاء ذكره استدراكاً في هذه الطبعة التي بين أيدينا لأن المؤلف ذكر في المقدمة السلطان عبد الحميد الثاني على اعتبار أنه خليفة المسلمين وانه حيٌّ يرزق ويعمل لخير البلاد. ومن هذا يبدو بأن هذا الكتاب كتب قبل سنة ١٩٠٩ ثم أعيد طبعه سنة ١٩١٢ ، أي بعد مرور ثلاث سنوات على خلافة محمد رشاد ، كما جاء في حديث المؤلف عن هذا السلطان ، ولذا فإنه لم يذكر عنه شيئاً ذا شأن ولم يتعرض لما كانت تعانيه البلاد من اضطرابات ورثها عن اسلافه ومن ذلك ظهور الحزبية في الدولة وضياع طرابلس الغرب واستقلال أكثر دول البلقان ثم ظهور النزعة التركية بقوة وعنف. وأعني بذلك سعي حزب الاتحاد والترقي الذي استلم الحكم في البلاد الى تتريك الشعوب غير التركية المشتركة مع العثمانيين مثل العرب والشركس والأكراد والأرمن وبالتالي نشوب الحرب العالمية الأولى التي كان فيها القضاء على الدولة العثمانية بعد أن عاشت ست مئة سنة .

لقد تولى محمد رشاد العرش والدولة في احتضار ولكنها كانت متماسكة، وشاء القدر ألّا تلفظ أنفاسها في عهده وألّا يشهد مأتمها بل أن يكون ذلك من نصيب خليفته .

لم يكن حظ محمد رشاد من أعداء الاسلام بأفضل من حظ من سبقه من سلاطين آل عثمان بل كان في نظر أعداء الإسلام خليفة أولئك السلاطين الذين نشروا الاسلام في العالم على حساب النصرانية وهم احفاد أولئك الذين تشبعوا بروح العداء للحق المبين وللدين الحنيف. وبالتالي فإن واجبهم الاستمرار في العداوة حتى يقضوا على

هذه السلطنة الاسلامية ، ومن سوء طالعه أنه اعتلى العرش وجناح الدولة مهيض وقد أضاعت كثيراً من بلادها في اوروبا بعد معاهدتي سان استيفانوس وبرلين ، وسوس القوميات ينخر في جسم الدولة والأيدي الأجنبية تلعب بالقلوب والجيوب والبلاد في حالة إفلاس بسبب الحروب المتواصلة والاوربيون قد تسلطوا على مالية الدولة بحجة استيفاء مالهم عليها من ديون . ولم يمضِ على جلوس محمد رشاد على العرش ثلاث سنوات حتى اعتدت ايطاليا سنة ١٩١١ ، بتحريض من الدول المسيحية وبالاتفاق معها وبمعاونتها ، على طرابلس الغرب ـ ليبيا ـ وانتزعتها منها بعد حرب دامت سنة بذلت فيها الدولة كل جهد وطاقة ومال ورجال حتى لم يبق ما تبذله ، ثم جاءت حرب البلقان التي تولى كبرها كل من الصرب والبلغار والرومان مدفوعين بأيدي الدول الغربية المسيحية عامة وروسيا ، التي كانت ولا تزال عدوة الاسلام والمسلمين ، خاصة . ثم جاءت ثالثة الاسافي واعني بها الحرب العالمية الأولى التي اضطرت الدولة العثمانية على خوضها مرغمة .

وعلى الرغم من أن كفة الدولة العثمانية وحلفائها ، المانيا والنمسا والبلغار ، لم تكن لتعادل كفة الانكليز والافرنسيين والطليان والروس ، في بادئ الأمر ، ثم الولايات المتحدة ، بعد ذلك ، فقد استطاع العثمانيون أن يقاوموا أربع سنوات هلك فيها الزرع والضرع،فقد رأيت الجندي التركي يحارب وهو جوعان وعريان والأمراض تفتك به ولكنه كان يحارب بقوة الإيمان وباسم الاسلام ولذا فقد كانت كل المصائب تهون لديه . ولكن كان لا بد لهذه المأساة ، التي رصد لها الغرب كل امكاناته ، من نهاية فخرت الدولة صريعة سنة ١٩١٨ واستسلمت لاعدائها تحت ضربات حقدهم .ولولا استسلام البلغار أولاً والنمسا بعد ذلك لما حصل ما حصل ولكنها إرادة الله .

لقد كان من حظ محمد رشاد الا يشهد مأتم سلطنته لأنه مات قبل الاستسلام بشهور ولكني اعتقد أنه كان يقدر حدوث هذه المأساة ، لأن البلاد كانت على شفا جرف وعلى وشك الانهيار من كل جانب ونتائج مثل هذه الحال لم تكن لتخفى على محمد رشاد لا سيما وقد بلغني انه كان عالماً بالتاريخ .

يوسف عز الدين

كانت ولاية العهد بعد محمد رشاد للأمير يوسف عز الدين ، لأن ولاية العهد في الدولة العثمانية كانت من حق أكبر أفراد الأسرة المالكة سناً ، بعد الجالس على العرش وليس من حق أكبر أولاد الجالس على العرش .

وكان يوسف عز الدين شخصية محبوبة من جميع الأوساط ،وكان الناس يرجون منه الخير للبلاد ،على الرغم من أنهم لم يروا منه خيراً ولا شراً ،ولم يكن أولياء العهد يتدخلون في الأمور السياسية ولكنه كان محبوباً ،ولعله كان من سوء حظ البلاد والعباد أن مات سنة ١٩١٦ وقد قيل ، آنذاك ، أنه مات مسموماًقتله الاتحاديون لأنه لم يكن يرى رأيهم ولا يوافقهم على سياستهم،وأشيع أنه مات منتحراً إثر نوبة جنون أصابته كالتي أصابت أباه عبد العزيز فانتحر .

محمد وحيد الدين السادس بن مراد

١٩١٦ ـ ١٩٢٢

بعد وفاة يوسف عز الدين صارت ولاية العهد الى الأمير وحيد الدين فخلف أخاه محمد رشاد على العرش باسم محمد السادس ولم تمضِ على خلافته بضعة شهور حتى استسلمت الدولة العثمانية واستولت جيوش الأعداء على كل البلاد من شرقها الى غربها ومن شمالها الى جنوبها،ولم يسلم من أيديهم وتعدياتهم الا شرق الاناضول لأن روسيا كانت قد انسحبت من الحرب سنة ١٩١٧ بعد أن فرضت عليها الشيوعية ولذا فإنها لم تستطع أن تحرك ساكناً لتستولي على شرق الاناضول ولولا ذلك لما بقي بلد من بلاد الدولة العثمانية لم يدخل في حوزة اعدائها .

أراد وحيد الدين أن ينقذ ما يمكن انقاذه من البلاد فاستعان بمصطفى كمال وعهد إليه بإنقاذ البلاد كما سنرى ذلك مفصلاً ،ولكنه وضع ثقته في غير موضعها ،فلما رأى أن مصطفى كمال أخذ يعمل لحسابه الخاص وليس لحساب الدولة،ورأى أن الأمور تسير على غير ما كان يرجو تنازل عن العرش سنة ١٩٢٢ واعتزل الحياة السياسية ومات سنة ١٩٢٦ وأوصى أن يدفن في دمشق في تكية السلطان سليم حيث يوجد قبور لكثير من آل عثمان .

عبد المجيد بن عبد العزيز

واعتلى عرش السلطنة العثمانية ، بعد تنازل السلطان محمد وحيد الدين ، ولي العهد الذي اصبح السلطان عبد المجيد وبعد أن أصبح مصطفى كمال سيد الموقف جرد السلطان من السلطة الزمنية وجعله خليفة،أي أشبه بشيخ إسلام ولكن من غير سلطة روحية أيضاً.ثم ألغى الخلافة سنة ١٩٢٤ وطرد عبد المجيد فذهب ليعيش في منفاه في مدينة نيس الافرنسية على الشاطىء اللازوردي .

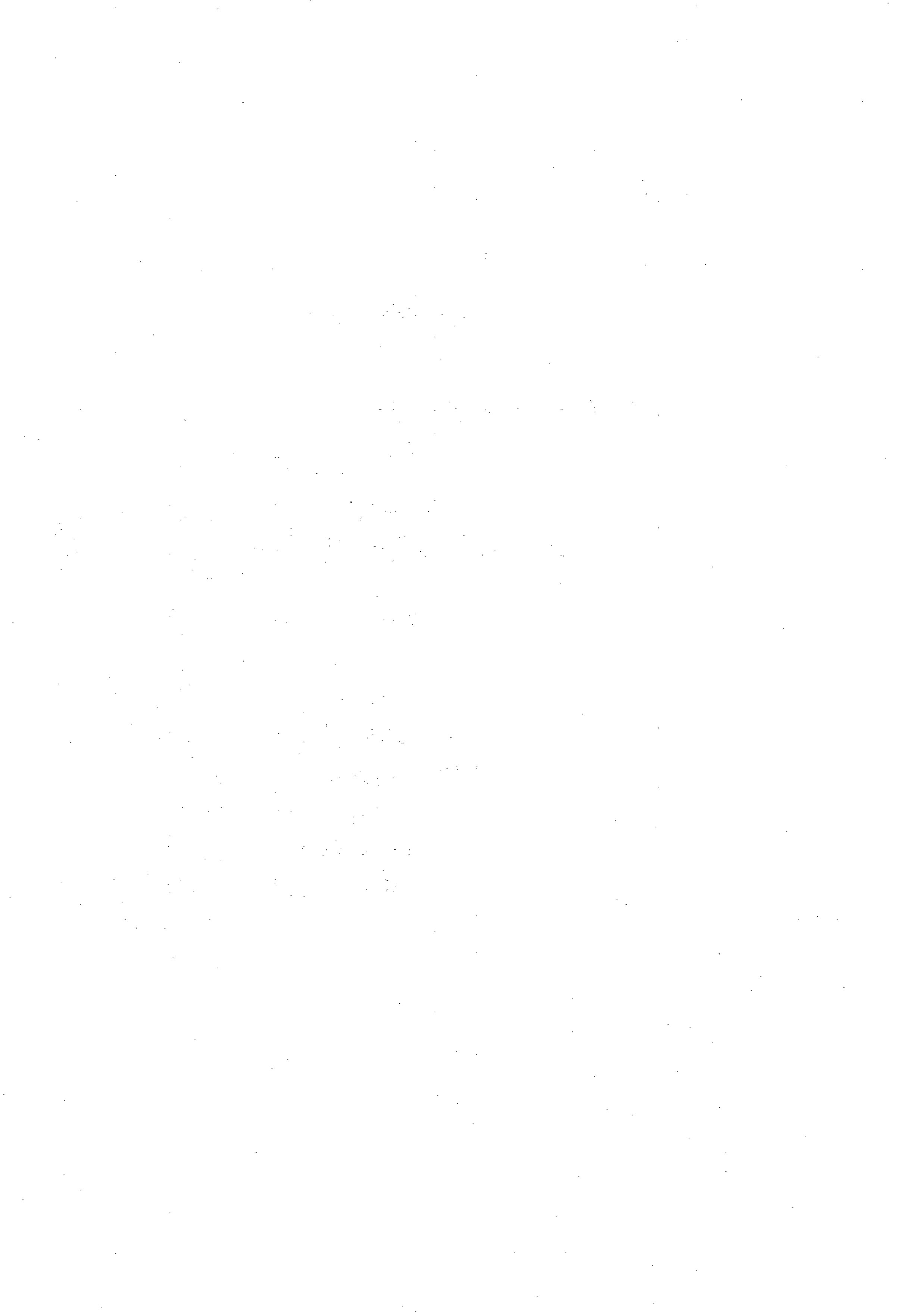
وبإلغاء الخلافة قضى مصطفى كمال على امبراطورية عظيمة كانت ملء عين الزمان وسمعه، وقتل أمجاداً ، وقضى على ثقافة ، ونحر أقواماً طالما ازهقوا أرواحاً بريئة صادقة في بناء هذه الامبراطورية ، وطالما أراقوا دماءً زكية في سبيل إعلاء مجد الإسلام وكلمته .

* * *

مَلاحِقُ الكِتَاب

بقلم المحقق الدكتور احسان حقي

١ ـ خاتمة الدولة العثمانية .
٢ ـ هل الاتحاديون هم الذين أضاعوا البلاد ؟
٣ ـ ما هي الأسباب التي أدت الى انهيار الدولة العثمانية ؟
٤ ـ هل كان العثمانيون مخربين ؟
٥ ـ هل كان العثمانيون مستعمرين ؟
٦ ـ هل كان عبد الحميد مستبداً ؟
٧ ـ سياسة عبد الحميد الاسلامية .
٨ ـ الثورة التركية ومصطفى كمال .
٩ ـ كيف استقبل المسلمون الثورة الكمالية ؟
١٠ ـ ما هي نتائج الثورة الكمالية ؟
١١ ـ لماذا دعم الغرب الثورة الكمالية ؟
١٢ ـ الانكشارية أو الجيش المحترف ؟
١٣ ـ الخاتمة .



خاتمة الدولة العثمانية

بعد جهاد وجلاد شاقين ، في الداخل والخارج ، استمرا ستة قرون متوالية كانت خاتمة المطاف الحرب العالمية الأولى ، التي دامت اربع سنوات ونيف ، امتدت من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩١٨ ، وثبت فيها العثمانيون ، أمام اعدائهم ، ثبوت الجبال ودافعوا عن دينهم ووطنهم وكرامتهم دفاع الأبطال.انتهت تلك الحرب بمأساة مفجعة اذ استيقظ المسلمون كلهم على كابوس مزعج انطوى على أعظم فاجعة أصيبوا بها وأكبر مصيبة نزلت بهم ، منذ ظهور الاسلام والى تلك الساعة ، فقصمت ظهورهم وكبلتهم بحبلي الخيبة والخسران،إذ رأوا بنيان دولة الخلافة ينهار كما تنهار بيوت الكرتون، لا بل وقد أصبحت هذه الدولة ذات العز الباذخ والشأن الرفيع الشامخ ، التي كانت ملئ عين الزمان وسمعه ، أثراً بعد عين وكأنها لم تغن بالأمس واصبحت أرضها موطناً لاعدائها أو موطئاً لاقدامهم .

لقد كانت الصفعة قاسية جداً وأليمة جداً لأنها لم تكن مرتقبة ولا محسوبة فنحن كنا نعلم أننا في حرب مع أعداء أقوياء، وكنا نقدر الربح والخسارة ونحسب حسابهما ولكننا لم نكن نقدر الخسارة وحدها لا سيما بعد أن رأينا الدولة تقف في وجه الأعداء أربع سنوات وتكاد لا تتزحزح عن أماكنها في جميع الجبهات ثم نراها تنهار وتخر ، في بضعة شهور ، وكأن عاصفة اقتلعتها من جذورها أو فيضاناً طفا عليها فجرفها . إننا نحن الذين شهدوا تلك المأساة ندرك أبعادها إدراكاً تاماً ونشعر بالآمها ولا نستطيع التعبير عنها باللسان ولا بالقلم لأنها أكبر وأعظم من أن توصف .

كان من البديهي بعد أن اندحرت الدولة في ميادين الحرب أن تستقيل الوزارة

العثمانية القائمة ، وزارة الاتحاد والترقي ، التي كان يرأسها طلعت باشا وتألفت وزارة جديدة برئاسة أحمد عزة باشا الأرناؤوط وأرسلت هذه الوزارة وفداً وزارياً الى مدينة مودروس Moudros في جزيرة ليمنوس Limnos ، الكائنة في بحر ايجه ، بين البرّين التركي واليوناني ، لمفاوضة الانكليز على شروط الهدنة ، وهي لم تكن هدنة بالمعنى الصحيح بل كانت إملاءً واستسلاماً . وكان هذا الوفد برئاسة وزير البحرية ، رؤوف بك بطل الدارعةالحميدية المشهور . وقبل أن أتابع الحديث عما تم بعد ذلك لا بد لي من كلمة استطرادية تتعلق برؤوف بك المذكور لمعرفتي به معرفة شخصية فأقول : كان اسم رؤوف بك يتردد على أسماعنا وافواهنا ونحن أطفال كما كان اسم برباروس خير الدين باشا يتردد على أسماع وافواه بني زمنه ، فهو قائد الدارعة الحميدية التي كانت فخر الاسطول العثماني ،وقد تولى الوزارة التي خلفت وزارة طلعت باشا ، ثم تولى رئاسة الوزارة التركية في مطلع عهد مصطفى كمال ولكنه خالفه حينما رآه يتنكر لوعوده التي قطعها على نفسه حينما قام بالثورة وهي المحافظة على الخلافة والاسلام ،ولما اشتد الخلاف بين الرجلين اضطر رؤوف بك الى الفرار من تركيا لينجو برأسه فحكم عليه بالموت غياباً . وعلى الرغم من اختلافه مع مصطفى كمال فقد ظل رطب اللسان بحقه فلا يشتم ولا يثلب ولا ولا يطعن ولا يشنع أو بالأحرى كان يتجنب الحديث عنه ويحفظ لنفسه خط الرجعة ويتحدث عن الشعب التركي فقط . وفي سنة ١٩٣١ زار الهند فاستقبل في الأوساط الشعبية استقبالات حسنة تليق بماضيه وقد زار جامعة عليكَره ، حيث كنت ، آنذاك ، استاذاً فيها ، فطلب اليه أن يلقي كلمة يتحدث فيها عن تركيا الحديثة فألقى كلمة في المسجد الجامع باللغة التركية ترجمتها له الى الاردية وكان مما قاله : كانت تركيا بلداً مسلماً وهي الآن كذلك وستظل كما كانت . فهو لم يتكلم عن الحكومة بل تكلم عن الشعب وكان صادقاً فيما قال . وفي سنة ١٩٣٣ اجتمعت به في باريس مرات عديدة في دار صديقي وصديقه عبد الباقي بك العمري المصري الذي كان يقيم في باريس منذ سنة ١٩١٤ ، اثر حملة الانكليز في مصر على الموالين للدولة العثمانية واعتقالهم ، وظل يعيش في باريس الى أن توفيت زوجته سنة ١٩٣٦ فعاد الى بلده وتوفي فيها سنة ١٩٣٩ . وكان يحضر مجالسنا مع رؤوف بك رحمي بك والي أزمير ، زمن

الحرب ، الذي كان يلقب بالملك غير المتوج بسبب ما كان له من نفوذ في الدولة . وفي سنة ١٩٣٦ رضي مصطفى كمال عن سيرة رؤوف بك فعفا عنه وعينه سفيراً لتركيا في لندن ولا أدري متى توفي .

أعود الى الحديث عن الدولة العثمانية وأقول : بعدما اندحرت الدولة في الحرب رأى حكامها ، زعماء حزب الاتحاد والترقي ، أنهم خسروا المعركة نهائياً وأنه لا سبيل للمكابرة بل لا بد لهم من أن ينهجوا نهجاً جديداً وان الخطوة الأولى هي أن يتواروا عن الأنظار. فعقدوا اجتماعاً قرر فيه ثمانية منهم مغادرة البلاد على اعتبار أنهم هم المسئولون الأوائل عن الحرب وعما أصاب الدولة من انهيار وانهم إذا سلموا من أيدي أعدائهم فقد لا يسلمون من أيدي أبناء البلاد أنفسهم لأن الناس في مثل هذه الحالات يحكمون بالعواطف وتسيطر عليهم الغوغائية . وهؤلاء الثمانية هم : طلعة باشا رئيس الوزارة ، انور باشا وزير الحربية ، احمد جمال باشا وزير البحرية وقائد الحملة العثمانية على الجبهة المصرية والحاكم بأمره في سوريا الكبرى الممتدة من جبال طوروس الى قناة السويس ، عزمي بك والي بيروت ، بدري بك مدير شرطة استانبول ، الدكتور ناظم بك والدكتور بهاء الدين بك من كبار رجالات الحزب ومدحة باشا امين سر حزب الاتحاد والترقي . غير أن هذا الأخير وافق على مغادرة البلاد مسايرة لصديقه طلعة باشا ولكنه لم يكن ، في قرارة نفسه ، راغباً بهذه الهجرة .

فلما رأى طلعة باشا أن مدحة بك لا يرغب بالهجرة إلا مسايرة له قال له : إذا كنت لا ترغب بمغادرة البلاد فابق حيث أنت وأنا راض عنك فبقي وركب السبعة المذكورون ، في أوائل نوفمبر ١٩١٨ ، سفينة حربية المانية حملتهم الى جزيرة القرم التي كانت تحت السيطرة الالمانية ، آنذاك ، وهناك استقبلتهم السلطات الألمانية بالترحاب ووضعت تحت نصرفهم قطاراً يحملهم الى برلين التي اختاروها داراً لهجرتهم .

وكان هؤلاء الفارون ، منذ أن غادروا استانبول ، يتحدثون فيما بينهم بما يجب

عليهم فعله ، فكان طلعة باشا يرى أن حياتهم السياسية قد انتهت وأن المنطق يقضي عليهم بأن يعتزلوا السياسة ويعيشوا في عالم المجهول فقد عملوا ما فيه الكفاية واخطأوا من حيث أرادوا الخير والصواب ، وكان من رفاقه ، ولا سيما المدنيين ، من يرون رأيه وأما العسكريون وخاصة أنور باشا الذي كان مملوءاً شباباً وحماسة فإنه كان يرى غير ذلك ويفضل أن يغتنم ما بين روسيا والدول الغربية من عداء وأن يستثمر هذا العداء ويستمر في القتال حتى تستطيع الدولة العثمانية أن تحتفظ بأكبر جزء ممكن من البلاد وأن تعقد صلحاً مشرفاً مع الأعداء .

ولما لم ير استعداداً من رفاقه للسير في خطته فر خلسة من القطار ، وهم في طريقهم الى برلين ، وذهب الى القفقاس حيث كان أخوه نوري بك يقاتل الروس ، وكان يأمل إثارة مسلمي داغستان واذربيجان وأن يقيم إمارة اسلامية في تلك الربوع . وبعد أن درس الوضع هناك ذهب الى موسكو فاستقبله الروس استقبالاً حسناً وانزلوه قصراً فخماً واتفق معهم على محاربة الانكليز وحلفائهم ثم لحق به كل من أحمد جمال باشا وبدري بك ولكنهما عادا الى برلين . وجاء هو مرتين الى برلين ليقنع رفاقه بالتعاون مع الروس ولكنهم أبوا ونصحوه باجتناب الشيوعيين لأنهم خداعون غدارون ولكنه لم يسمعهم ،ولعله كان يعلم علمهم ولكنه لم يكن يرى غير هذا الطريق يسلكه .

أدرك أنور باشا بعد أن اختلط بالروس أنهم يخدعونه وأن الهوة بينه وبينهم عميقة جداً ، فهو يريد أن يعيد إلى تركيا شأنها وإسلامها وهم يريدون أن يقضوا على هذه الدولة التي أزعجتهم كثيراً أو أن يبعدوها عن الاسلام على أقل تقدير وأنهم باستضافته والمفاوضة معه إنما ارادوا حجزه في روسيا لكي لا يزعج خطط مصطفى كمال الذي كان على اتفاق معهم واشترط عليهم الاّ يمدوا أنور باشا بالسلاح . وكان الروس يدركون من ماضي الرجلين أن مصلحتهم مع مصطفى كمال وليست مع أنور باشا لا سيما وأن الانكليز أيضاً كانوا يؤيدون مصطفى كمال .

بعد أن استيقن أنور باشا أن صداقة الروس كانت خداعاً وملقاً وأنه وقع في شركهم ، رأى من العار أن يعود خاسئاً ويستجدي الحياة استجداء وصمم على أن يستمر في خطته حتى ينال احدى الحسنيين فإما النصر وإما لقاء الله . فكتب رسالة

الى جمال عزمي بك والى طرابزون السابق وهو غير عزمي بك والي بيروت ، يوصيه بزوجته ودخل بخارى يسانده الحزب الاميري فيها وبطش بدعاة الشيوعية وأعوانها ولا سيما بحزب (مجددي) الشيوعي وحارب الروس وانتصر عليهم في معارك كثيرة تناقلت الأنباء العالمية أخبارها . فلما رأى الروس ذلك ورأوا أن الحماسة قد اشتدت ضدهم وأن العاقبة قد تكون وخيمة عليهم اذا تهاونوا بالامر ، جمعوا جيوشاً كبيرة لمقاومة هذه الثورة الجائحة التي لو كتب لها النجاح لكانت قضت على الامبراطورية الروسية وأرجعتها الى حجمها الحقيقي وهو إمارة موسكو . وحدث ، في ٤ أوغست ١٩٢٢ أنه بينما كان أنور باشا في قرية بالجوال [١] شرقي بخارى وقد تفرق عنه الجند بسبب عيد الأضحى ، أن هاجمه الروس بأعداد كبيرة فخرج اليهم بنفسه وظل يقاتلهم حتى قتل .

لقد مات أنور باشا ميتة شريفة تليق برجل مثله ولم يشأ أن يعيش عالة على أحد على الرغم من أن ملك الأفغان ، امان الله خان ، دعاه مرات كثيرة مع الرجاء والالحاح بأن يأتي اليه لينظم له جيشه ووعده بأن يجد عنده كل ترحيب وتكريم ولكنه اعتذر عن القبول وفضل هذه النتيجة الشريفة على حياة الاستجداء .

أما أحمد جمال باشا فقد استجاب لدعوة أمان الله خان وذهب إلى افغانستان وأخذ يعمل في تنظيم جيشها وجاء إلى موسكو فاحتجزه الروس بشكل لطيف لأنهم لم يكونوا يريدون لأفغانستان نهضة ووعياً ، ولكنه استطاع أن ينجو منهم بلباقة إذ أنه ابدى استعداده للذهاب إلى تركيا لاستمالة الناس إلى جانبهم فسمحوا له بالذهاب عن طريق القفقاس . ولما كان في تفليس تصدى له شخص من الأرمن فقتله ويقال بأن الروس هم الذين دبروا اغتياله لكي يتخلصوا منه إذ أنهم لم ينخدعوا بوعده . وقتل الأرمن طلعة باشا في برلين كما قتلوا غيره من رجالات حزب الاتحاد والترقي المسئولين عما أصاب الأرمن ، زمن الحرب ، من قتل وتشريد .

كانت هذه صفحة من صفحات العهد العثماني ولكنها لم تكن آخرها ولا كانت

---

(١) هكذا ذكر الامير شكيب ارسلان هذا الاسم في حاضر العالم الاسلامي الذي استقيت منه بعض هذا الحديث .

أقواها صدمة على نفوس المسلمين لأن الناس كانوا قد نسوا رجال العهد العثماني وعلقوا آمالهم بالحركة الكمالية التي كانوا يعتقدون أنها ستعيد اليهم الشيء الكثير من آمالهم . فماذا كان ؟ كان ما شهده كثير من أبناء جيلي منذ بدايته ولكن لا بد لي أن أذكره للأجيال الصاعدة .

استيقظ العالم الاسلامي ، سنة ١٩١٨ ، على أكبر فاجعة نزلت به ، كما اسلفنا ، وأخذ يمسح عينه ويفتح أذنيه وهو غير مصدق ما يرى وما يسمع ويتساءل : أصحيح أن دولة الخلافة الاسلامية ، التي كانت درع المسلمين الواقي ورمز العظمة والشأن قد زالت من الوجود ؟ اصحيح أنه لم يبق للمسلمين بلد مستقل يعتزّون به ؟ إنها والله لأكبر نائبة وأعظم داهية .

وفي الوقت الذي استيقظ المسلمون على هذا الكابوس المزعج استيقظ العالم المسيحي على ألذ حلم حلموا به وأعظم أمنية تمنوها وأغلى غاية سعوا إليها وبذلوا في سبيلها كل ثمين أجيالاً طوالاً واعني بذلك زوال دولة الخلافة . ولم يخف المسيحيون سواء منهم من كان من أهل البلاد أو غريباً عنها شعورهم بهذه الفرحة ، وهم أقلية في البلاد الإسلامية ، بل أخذوا يعلنونها صراحة على ألسنة كبارهم وصغارهم ، مسؤوليهم وعامتهم ، فقال الجنرال اللنبي ، قائد الحملة الانكليزية على الجبهة المصرية الفلسطينية ، حينما دخل القدس : الآن انتهت الحروب الصليبية (أقول : ويا ليتها انتهت بل هي ما زالت مستمرة) . ووقف الجنرال گورو القائد الافرنسي على ضريح صلاح الدين الأيوبي ، في دمشق ، وقال : « ها قد عدنا يا صلاح الدين » . وبصرف النظر عما في هذين التصريحين ، في بلاد إسلامية ، وفي القرن العشرين ، من عدم اللباقة واللياقة وصِغَر النفس أيضاً فانهما يدلان على ما تكنه صدور القوم من الحقد والحسد والغطرسة والخداع ، لا سيما وأنهما دخلا بلادنا حليفين ولم يدخلاها فاتحين .. وقد كان هذان التصريحان سياطاً لاذعة على جلود العرب الذين خدعوا بأقوال الغربيين ووعودهم وظنوهم سيحققون لهم امبراطورية عربية مستقلة عاصمتها مكة وملكها الشريف حسين بن علي وإذا بهم قد أصبحوا مستعمَرين لهؤلاء الذين ظنوهم أصدقاء وأمسوا أضيع من ذات النحيين .

وبينما كان العالم المسيحي يقيم الأفراح ، في كل العالم ، احتفاء بهذا النصر ، كان العالم الاسلامي ، من حدود الصين الى حدود الأطلسي في مأتم صامت يبكي عزاً ضائعاً وملكاً مسلوباً وكرامة مهدورة وجاناباً مهيضاً وذلة وانكساراً وينظر الى السماء يلتمس الفرج ويستدر الرحمة أو يشتكي ويتوجع كما قال أحمد شوقي :

الهنـــــد والهـــــة ومـــصر حزينـــــة
تبكـــــي عليـــكِ بمدمـــع سحـــاح
والشام تـــسأل والعـــراق وفـــارس
أمحـــا مـــن الأرض الخلافَـــةَ مـــاح ؟!

* * *

هل الاتحاديون هم الذين اضاعوا البلاد ؟

يتهم كثير من الناس جماعة حزب الاتحاد والترقي بأنهم هم الذين أضاعوا البلاد وقضوا على السلطنة العثمانية وهدموا هذا البناء الاسلامي الشامخ . وعلى الرغم من أن الاتحاديين قد ارتكبوا كثيراً من الأخطاء وعلى الرغم من أن الدولة العثمانية زالت إبان حكمهم فإن الإنصاف يقتضينا أن نقول :

إن الاتحاديين كانوا ثوريين متوثبين يريدون الخير لبلادهم إلا أنهم كانوا مثل كل الشبان متحمسين لغايتهم فأخطأوا الصواب أو أنهم استعجلوا الخير فوقعوا في الشر . لم يكن الاتحاديون هم الذين أضاعوا البلاد بل قد استلموا البلاد وهي في حالة احتضار وكان موتها وشيكاً لا بل كان يجب أن تكون قد ماتت قبل قرن من الزمن أو على أقل تقدير قبل أن يتسلم السلطان عبد الحميد الثاني مقاليد الحكم ، وكل ما كانوا يستطيعون فعله هو أن يدفعوا عنها هذه النتيجة المؤلمة لو كانوا اهل خبرة ورأي وحكمة ولم يكونوا أهل حماسة وغرور ، لقد كان باستطاعة الاتحاديين أن ينفخوا في البلاد روحاً جديداً لو كان لديهم الحنكة والادارة وأن يعمدوا الى اللامركزية فيعطوا العرب والأرمن والأكراد وحتى لبنان استقلالاً داخلياً ، ولو فعلوا ذلك لكانوا اصفعوا كل الأجانب وقضوا على دسائسهم ، لا بل لقد كان بالامكان إعطاء كل بلد عربي استقلالاً على حدة كما هو حاصل اليوم ،ولو فعلوا ذلك لما وجدوا من يجرؤ على طلب الانفصال والاستقلال التام. ولو وقع هذا لكان خيراً مما أصيبت به الدولة من زوال لأن الاتحاديين لم يكونوا يجهلون بأن الغرب كان مقرراً إزالة الدولة العثمانية واقتسامها فلو فعلوا هم ما كان الغرب يريد فعله لقطعوا الطريق عليه ولأبقوا للدولة كيانها ولكنهم ساروا بالعاطفة وبحماسة الشبان وعمدوا الى

القوة والبطش فضاعوا وأضاعوا البلاد . وآفة الشباب الغرور .

لقد تسلم الاتحاديون البلاد وليس فيها شيء سليم : الأعداء متربصون لها من كل جانب ، وأجزاء البلاد تنسلخ عنها جزءاً بعد جزء وما لم يكن قد انسلخ كانت البرامج موضوعة لسلخه مثل طرابلس الغرب والبلقان . والبلاد تئن تحت وطأة الديون ، والدولة عاجزة عن أن تفرض هيبتها على كثير من أجزاء البلاد . فالجزيرة العربية بأقسامها الثلاثة : اليمن والحجاز ونجد تكاد تكون شبه مستقلة وعُمان وعدن والسلطنات والكويت يسيطر عليها الانكليز سيطرة فعلية وإن كانت إسماً تابعة للدولة ، والعراق في حالة اضطراب مستمر ومصر مستقلة فعلاً وسوريا ولبنان في قلق دائم والدسائس الغربية تستهوي شبان البلاد فماذا يستطيع الاتحاديون أن يفعلوا تجاه كل هذه العقبات ؟

الشيء الوحيد الذي كانوا يستطيعون أن يفعلوه هو أن يعطوا بأيديهم وبرضاهم ما كان مقرراً ان يؤخذ منهم غصباً ولو فعلوا لكانوا كسبوا صداقة هذه الأقوام التي يظل لهم بها ارتباط اسمي . ولكن الاتحاديين اختاروا طريق العنف والشدة فخسروا المعركة وكان من المعلوم انهم سيخسرونها .

وبالتالي فإن الاتحاديين لم يضيعوا البلاد بل استلموها وهي ضائعة فكان من سوء حظهم أن كانت تصفية هذه الشركة المفلسة على أيديهم ، وكان ذلك نتيجة طبيعية لما كانت عليه البلاد من سوء حال .

إننا لا نستطيع أن نتهم الاتحاديين بأنهم كانوا يريدون تخريب البلاد إذ ليس من المعقول أن يهدم المرء بيته ، ولكننا نتهمهم بأنهم لم يكونوا رجال سياسة يستطيعون أن يقفوا أمام دهاء دول الغرب ومؤآمراتها فخدعوا وساروا بغير الطريق التي كان يجب عليهم أن يسيروا فيها فأخطأوا .

ما هي الأسباب التي أدّت الى انهيار الدولة العثمانية ؟

إذا كان بعض الناس يعطون للدول أعماراً كأعمار المخلوقات ويقولون إن الدول تشيخ وتهرم فتموت بفعل مرور الزمن فأنا لست أرى هذا الرأي ولا أرى الدول تشبه المخلوقات ذات الأعمار المحدودة. وإنما عمر الدول يتجدد بتجدد الأجيال. فإذا كانت الأجيال التي تعيش في دولة ما من الدول حية قوية نشيطة عاملة واعية عاشت الدولة ما عاشوا متمتعين بهذه الصفات لأن عمر الدولة يتجدد مع كل جيل. واما اذا كانت هذه الأجيال ضعيفة كسولة متواكلة مهملة ماتت دولتهم بموتهم لكي تعيش في غيرهم ممن يصلحون للحياة ، فالدولة لا تموت بذاتها اذ ليس فيها ما يموت وإنما تموت بأهلها .

فبعد أن تقرر لدينا هذا يجب علينا أن نبحث عن الأسباب التي أدّت الى زوال الدولة العثمانية بعد أن سيطرت على العالم بضعة قرون كانت فيها ملئ عين الزمان وسمعه لا بل كانت فمه القائل ويده الباطشة ولسانه الناطق .

وترجع هذه الأسباب ، في نظري ، الى :

١ ـ زواج السلاطين بالاجنبيات وتسلط هؤلاء الاجنبيات على عواطف أزواجهن وتصريفهم في سياسة بلادهن الأصلية وتحكمهن بمقدرات الدولة . فكم من الملوك قتلوا أولادهم أو اخوانهم بدسائس زوجاتهم وارتكبوا أعمالاً تضر بمصلحتهم إرضاء لزوجاتهم .

٢ ـ تعدد الزوجات والمحظيات اللواتي كان الأجانب والحكام يقدمونهن هدية للسلطان كأنهن السلع أو التحف واللواتي كان السلاطين إذا رأوا كثرتهن في

قصورهم يهدونهن احياناً إلى قادتهم أو خواصهم على سبيل التكريم . وكان من البديهي أن يحصل بين أولاد الأمهات وأمهات الأولاد ، سواءً أكانت الامهات زوجات أو محظيات ، تحاسد وتباغض يؤديان إلى قتل السلاطين أولادهم وإخوانهم والى أمور غير معقولة ومقبولة عقلاً وشرعاً .

٣ ـ تفكك روابط الأسرة السلطانية بسبب كثرة النساء حتى أصبحت عادة قتل السلطان إخوانه أو أولاده ، يوم يتولى العرش ، أمراً معروفاً ومألوفاً . وكأنه يضحي بخراف احتفاء بهذا اليوم من غير أن يشعر بوخز ضمير أو لسعة ألم.

ولذا فقد كان أفراد الأسرة السلطانية يعيشون في خوف مستمر ويتربص بعضهم بالبعض الآخر الدوائر ولا يبالون بأن يشقوا عصا الطاعة في وجه السلطان سواء أكان أخاً أم أباً أم ابناً وذلك ليس حباً بالسيطرة فقط بل لانقاذ أعناقهم أحياناً من الغدر .

٤ ـ تدخل نساء القصر بالسياسة وشفاعتهن لدى أزواجهن السلاطين برفع الخدم إلى منصب الوزارة أو إيصال المتزلفين إلى مراتب الحل والعقد ، كرئاسة الوزارة وقيادة الجيش . وفي كثير من الأحيان لا يكون لهؤلاء الرجال من ميزة يمتازون الا تجسسهم لحسابهن .

٥ ـ بقاء أولياء العهد مسجونين في دور الحريم فلا يرون من الدنيا شيئاً ولا يعلمون شيئاً ، وكثيراً ما كانوا لا يتعلمون شيئاً أيضاً لأنهم لم يكونوا يدرون الى ما سيصيرون فإما أنهم يذهبون ضحية مؤآمرة قبل أن يصلوا الى العرش وإما انهم يصلون الى العرش لكي يجدوا فئة من الناس تسيطر عليهم وتتحكم بهم أو يسحبون عن العرش ويقتلون أو تسيرهم نساء القصر أو يسيرهم جهلهم .
وتسليم أمور الدولة الى غير الأكفاء من الناس إذ كان طباخ القصر وبستانيه وحطّابه والخصي والخادم يصلون الى رتبة رئاسة الوزارة أو القيادة العامة للجيش . فماذا ينتظر من جاهل أن يفعل ؟

٦ ـ احتجاب السلاطين وعدم ممارستهم السلطة بأنفسهم والاتكال على وزراء جهال . فقد كان سلاطين آل عثمان حتى السلطان سليم الأول يتولون قيادة

الجيش بأنفسهم ، فيبعثون الحماسة والحمية في صدور الجنود ، ثم صار السلاطين يعهدون بالقيادة الى ضباط فصار الجنود يتقاعسون ويتهاونون تبعاً للمثل القائل « الناس على دين ملوكهم » .

٧ ـ تبذير الملوك حتى بلغت نفقات القصور الملكية في بعض الأحيان ثلث واردات الدولة .

٨ ـ خيانة الوزراء ، اذ أن كثيراً من الأجانب المسيحيين كانوا يتظاهرون بالاسلام ويدخلون في خدمة السلطان ويرتقون بالدسائس والتجسس حتى يصلوا إلى أعلى المراتب، وقد أبدى السلطان عبد الحميد استغرابه من وفرة الأجانب الذين تقدموا الى القصر يطلبون عمـلاً فيه حتى ولو بصفة خصيان وقال : لقد وصلني في أسبوع واحد ثلاث رسائل بلغة رقيقة يطلب أصحابها عملاً في القصر حتى ولو حراساً للحريم، وكانت الرسالة الأولى من موسيقي افرنسي والثانية من كيمائي الماني والثالثة من تاجر سكسوني . وعلق السلطان على ذلك بقوله : من العجب أن يتخلى هؤلاء عن دينهم وعن رجولتهم في سبيل خدمة الحريم . فهؤلاء وأمثالهم كانوا يصلون الى رئاسة الوزارة ،ولذا فقد قال خالد بك مبعوث أنقره في المجلس العثماني بهذا الصدد : لو رجعنا الى البحث عن أصول الذين تولوا الحكم في الدولة العثمانية وارتكبوا السيئات والمظالم باسم الشعب التركي لوجدنا تسعين في المئة منهم ليسوا أتراكاً .

٩ ـ غرق السلاطين والأمراء في الترف والملذات .

١٠ ـ الحروب الصليبية التي شنت على الدولة والتي لم تنقطع منذ ظهورها الى يوم انهيارها .

١١ ـ الامتيازات التي كانت تمنح للاجانب اعتباطاً بسخاء وكرم لا مبرر لهما بل كانت تمثل التفريط بحق الوطن في أقبح صوره ، فقد منحت الدولة العثمانية ، وهي في أوج عظمتها وسلطانها ، امتيازات لدول أجنبية جعلتها شبه شريكة معها في حكم البلاد . ولا أرى سبباً لهذا الاستهتار الا الجهل وعدم تقدير الأمور قدرها الحقيقي وتقدير قوة ودهاء الدول التي منحت هذه الامتيازات

والعاقل لا يستهين بعدوه مهما كان صغيراً وضعيفاً .

١٢ ـ الغرور الذي أصاب سلاطين بني عثمان الذين فتحت لهم الأرض أبوابها على مصراعيها يلجونها كما يشاؤون. وإن من يقرأ كتاب الملك سليمان القانوني الى ملك فرنسا لا يجد فيه ما يشبه كتاب ملك الى ملك او امبراطور عظيم الى ملك صغير أو حتى إلى أمير ، بل يجده وكأنه كتاب سيد الى مسود . ومن يطالع صيغ المعاهدات ، في أوج عظمة الدولة ، وما كان يضفى فيها على سلاطين بني عثمان من ألقاب يكادون يشاركون بها الله تعالى في صفاته بينما تكون ألقاب الاباطرة والملوك عادية ، أقول إن من يطالع صيغ هذه المعاهدات يدرك إلى أي حد بلغ بهؤلاء السلاطين الجهل والغرور .

١٣ ـ إدخال الدين في كل صغيرة وكبيرة من أمور الحياة والسير بعكس ما يأمر به الدين ، باسم الدين ، حتى أصبح الدين ألعوبة في أيدي قبضة من الجهال يحللون ويحرمون على هواهم ، ومثال ذلك إدخال أمر تغيير اللباس في نطاق الدين ثم لما أراد أحدهم إنشاء مطبعة في استانبول ووجد معارضة من قبل علماء الدين لجأ إلى السلطان والى حاشيته يطلب إليهم أن يقنعوا هؤلاء الجهال بفائدة المطابع فأمر السلطان شيخ الاسلام بأن يفتي بأن المطبعة نعمة من نعم الله وليست رجساً من عمل الشيطان كما أفتى العلماء من قبل فافتى شيخ الاسلام بجواز إنشاء مطبعة شريطة ألا تطبع القرآن الكريم ولا كتب التفسير والحديث والفقه . وقد أنشئت أول مطبعة في استانبول سنة ١٧١٢ أي بعد أن كان قد مضى على اختراع المطبعة ما يزيد على قرنين ونصف القرن وبعد أن أنشأت فرنسا المطبعة الوطنية بنحو قرنين .

هذه الأسباب هي التي قضت على الدولة العثمانية وأنزلتها من شامخ عزها الى حضيض المذلة والهوان . وإن من يدرس ، بإنعام نظر ، كل سبب من هذه الأسباب المذكورة آنفاً ويرى مدى تأثيره الواسع في المحيط الدولي لا يعجب من انهيار هذه الدولة العظيمة تحت سياط هذه الضربات بل يعجب كيف استطاعت أن تعيش ستمئة سنة وهي تتحمل هذه الضربات القاسية التي نزلت بها والتي لو نزلت على جبل لصدعته، ولكنها عاشت بفضل اختلاف اعدائها على تقسيمها فيما بينهم وبفضل

إيمان أهلها وتمسكهم إلى حد ما بالاسلام . ومن المؤسف المحزن أن يهدم أبناء أولئك المؤمنين بتنكرهم للدين وبتخاذلهم ما بناه آباؤهم وأجدادهم بجدهم وجهدهم وبما قدموه من تضحيات بالدماء والأرواح .

إن مصير تركيا لم يتقرر بعد وإذا كانت روسيا لم تستطع أن تسيطر عليها حتى اليوم بقوة السلاح فإنها تحاول أن تستولي عليها بالدعاية وبنشر الشيوعية في ربوعها وبين أبنائها ، وإذا حدث هذا ، لا سمح الله ، فلن يكون لأية دولة الحق في أن تتدخل في الأمر كما كانت تتدخل من قبل فيكون حلم بطرس الأكبر قد تحقق على أكمل وجه .

وليس لتركيا ما ينجيها من هذه العاقبة الوخيمة إلا الرجوع إلى الدين . فالدين هو الحصن الوحيد الذي يمكن أن يحمي هذه الدولة الصغيرة من شرور الأعداء وكما اضطر الاتحاديون أن يعودوا الى سياسة عبد الحميد الإسلامية بعد أن تنكروا لها ودعوا الى سياسة طورانية فسوف يضطر رجال تركيا اليوم إلى العودة إلى الاسلام ليحموا بلادهم ويصونوها .

إن الأتراك لم يتنازلوا عن إسلامهم بل إن الحركة الاسلامية اليوم في تركيا اقوى منها في أي وقت مضى ،وقد اتفق لي أن كنت سنة ١٩٧٤ في لاهور في زيارة صديقي الزعيم الإسلامي الباكستاني المغفور له ابي الأعلى المودودي واذا برجل من رجالات تركيا يزوره وحيث أن كلاً منهما لا يعرف لغة الآخر فقد كنت المترجم بينهما ، وعلمت من هذا التركي الفاضل ، الذي نسيت اسمه ، أن الحركة الاسلامية في تركيا على أشدها وأن العلمانيين هم رجال الحكومة وأما الشعب فهو بأكثريته مسلم متعصب ومتمسك باسلامه ،ويتبنى قضايا العالم العربي والاسلامي بحماس بالغ. فعلى الحكومة أن تفيد من هذا الروح الاسلامي وأن تستغل هذه الطاقة التي هي أقوى طاقة إذا فجرت تزيل الجبال . لقد انتصر العثمانيون باسلامهم وتلاشوا بانحرافهم عن الاسلام أو بالأحرى بانحراف حكامهم عن أحكام الاسلام وإن كانوا ظلوا يرددون الاسلام بافواههم وليس لهم اليوم الا الاسلام لكي يعودوا سادة محترمين .

هل كان العثمانيون مخربين ؟

بعض الناس ، ولا سيما اولئك الذين يعيشون متأثرين بالدعايات الأجنبية أو الذين تلقوا علومهم من الأجانب فقط من غير أن يرجعوا إلى التراث ، يتهمون العثمانيين بأنهم مخربون بدليل أنهم تركوا البلاد على حالها كما وجدوها .

وهذا القول بقدر ما يدل على الافتراء فانه يدل على الجهل بالتاريخ لأن العثمانيين لم يكونوا من هذه الناحية دون غيرهم بالنسبة الى زمانهم ، فلم تكن بلادهم دون بلاد أوروبا عمراناً ، وحينما نقول : بلادهم إنمانعني بلاد الامبراطورية بما فيها مصر وسوريا والعراق والشمال الافريقي وأوروبا الشرقية وغيرها . واذا ما علمنا بأن العثمانيين هم ورثة حضارة وعمران الامويين والعباسيين والفاطميين والأيوبيين وغيرهم وان هؤلاء قد خلفوا من العمران ما هو من أبدع آيات زمانه وأن العثمانيين قد حافظوا على هذا التراث وزادوا عليه ، أدركنا أن تهم التخريب افتراء محض .

وعلى الرغم من أن العثمانيين كانوا أمة حرب وقتال لا بل كانوا أعظم أمة حربية ، فانهم لم يكونوا مخربين قط بل كانوا ، إذا ما قسناهم بغيرهم من الأقوام ، أمة عمرانية من طراز رفيع وإن ما بنوه من تكايا ومدارس ومشافي وجسور ومطاعم مجانية للفقير، وقصور وخانات وحمامات لأكبر دليل على نزعتهم العمرانية . وإن المساجد التي بنوها وبلغوا درجة الكمال في اتقانها وجمالها والتي ما زالت قائمة من حدود النمسا إلى أقصى حدود مصر وما فيها من ضخامة وفخامة وجمال وتناسق لأكبر دليل على ما كانوا يتمتعون به من ذوق فني وحب للعمران .

وإذا تجاوزنا ناحية العمران إلى الناحية الفنية نجد الفضل يرجع الى العثمانيين

في تحسين وتجميل أنواع الخطوط العربية وضبطها في قواعد علمية حتى غدا الخط العربي فناً من الفنون الجميلة وهذا ليس من شأن المخربين.

وأما في الحرب فهم أهله وأربابه وإن ما فعله محمد الفاتح من إزلاق السفن من البحر الى البر ثم الى البحر[1] ثم اختراع المدفع السلطاني دليلان على ما كان عليه العثمانيون من سلامة العقل والتفكير ومن كان مفكراً لا يكون مخرباً.

ثم إن الشيء الذي يجب ألا نسهو عنه حينما نتحدث عن الدولة العثمانية هو أنه يجب علينا أن نقيّمها ونقيّم أعمالها بالنسبة إلى زمانها وإلى ما كانت عليه الدول الأخرى من سوء حال بالنسبة الى الأزمان السابقة لا أن نقيمها بالنسبة إلى زماننا.

ثم إننا حينما نطلق لفظ مخرب على أمة من الأمم إنما نعني أمة متوحشة تلجأ إلى الهتك والفتك تهدم البلدان وتعتدي على السكان وتقطع الأشجار وتردم الآبار وترتكب المظالم في البلاد التي تستولي عليها ولم تكن هذه حال الدولة العثمانية بل كانت على العكس من ذلك تماماً.

إن الدولة العثمانية لم تكن دولة مخربة فإنها كانت، بفضل الدين الإسلامي، أرقى بلاد العالم، آنذاك، من الناحية الاجتماعية فكانت عنايتها بالنظافة لا مثيل لها وكانت حماماتها تعم المدن الصغيرة بل الكبيرة في الوقت الذي كان فيه قصر فرساي، على عظمته، خالياً من مرحاض ومن حمام، وإن أول من أدخل الحمامات الى القصور هو نابليون الأول بعد رجعته من مصر ولكن الفرق بين العثمانيين وبين الغربيين هو أن الغربيين تعلموا منا ثم ساروا في إصلاح أنفسهم خطوات الى الأمام بينما لم يترك الغربيون للعثمانيين مجالاً لكي يخطوا خطوة واحدة الى الأمام بل أشغلوهم بحروب متواصلة، ومع ذلك فقد فعلوا ما قدروا عليه ولم تكن البلاد العثمانية على وسعتها أسوأ حالاً من غيرها من بلاد العالم، وكل ما في الأمر أن الخطوة العثمانية جاءت متأخرة عن خطوات بعض الأمم الغربية الا أنها لم تكن مهملة فقد أُنشئت فيها المرافئ ومدت الخطوط الحديدية وانتشرت أسلاك البرق وفتحت المدارس متنوعة المناهج.

---

(١) انظر فتح القسطنطينية.

ولولا إخلاص رجالات الدولة العثمانية لكان من الصعب عليها أن تأتي بأي عمل إصلاحي ،وهي تنفق كل ميزانيتها على الحروب التي كانت دول الغرب تتعمد إثارتها لكي لا تترك للسلطنة العثمانية وقتاً للراحة أو للتفكير في العمران .

وإن من يقرأ التاريخ يعلم أن النهضة الغربية العمرانية هي وليدة مئتي سنة على أكثر تقدير ،وكانت البلاد قبل ذلك حتى العواصم الأوروبية أشبه بالقرى المتأخرة بينما كان الناس في بلادنا ينعمون بكثير من أسباب الراحة والرفاهية وفي باريس ولندن ، حتى الآن ، أحياء قائمة تدل على هذه الحقيقة .

إن العمران هو وليد الكهرباء والآلة والاسمنت وهذه كلها حديثة عهد في عمر الزمن .

* * *

هل كان العثمانيون مستعمرين ؟

من الأمور التي أراد أهل الغرب أن يوقروها في نفوسنا هو أن العثمانيين كانوا مستعمرين ،وفي كل بلد حلها الغربيون المستعمرون أعلنوا أهلها أنهم إنما أتوا إليهم لانقاذهم من المستعمر العثماني . فحينما دخل الافرنسيون الجزائر أعلن قائد الحملة أنه جاء لانقاذ الجزائر من الاستعمار وكانت النتيجة أنهم قضوا على استقلال الجزائر واستعمروها ١٣٠ سنة أسوأ استعمار،ولما دخل نابليون مصر أعلن أنه جاء لإنقاذ المصريين من استعمار المماليك،ولما استولى المستعمرون على بلاد الدولة العثمانية أخذوا يوقرون في نفوس أهل البلاد أن الدولة العثمانية كانت في بلاد العرب مستعمرة وسار الأطفال الذين تلقوا هذه الدروس عن المستعمرين والمغرضين والحاقدين على النهج وصدقوا هذا القول ولا يزال إلى يومنا هذا يوجد أناس يسمون الحكم العثماني في بلاد العرب استعماراً .

وإذا كان العهد العثماني قد مضى وانقضى فإن واجب الإنصاف يقتضينا أن نزيل من الأذهان هذه التهمة المغرضة التي أراد أعداء الإسلام تثبيتها في نفوس الناشئة لكي يباعدوا بينهم وبين الأمة التركية المسلمة .

فالعثمانيون لم يكونوا إخواناً للعرب ومساوين لهم في الحقوق والواجبات بل العالم كله يعرف أن تسامح الدولة العثمانية مع العناصر الغريبة ، عنصراً وقومية وديناً ، قد بلغ حداً لم يبلغه أي قوم في العالم . فالعثمانيون مسلمون والمسلمون لا يفرقون بين أبيض وأسود ولا بين عربي وتركي ولا بين مسلم وغير مسلم في المعاملة .

فإذا صح أن نقول بأن العثمانيين كانوا مستعمرين في بلاد العرب يصح أن نقول

الأمويين مستعمرين في سوريا والعباسيين مستعمرين في العراق والفاطميين مستعمرين في الشمال الافريقي والأيوبيين مستعمرين في مصر وسوريا وهلم جرا. وإذا كان هذا باطلاً بالبديهة كان القول بالاستعمار التركي باطلاً ايضاً. فالأتراك كانوا مسلمين والمسلم أخو المسلم أينما كان هذا بالاضافة الى أن العرب كانوا شركاء الأتراك في الحكم فكان منا الوزراء ومنا الولاة ومنا القادة ولم يكن ما يفرق بيننا وبين التركي، لا بل كانت اللغة العربية هي اللغة الرسمية المستعملة في البلاد العربية في القضاء والادارة إلا ما كان منها ذا علاقة ببلاد الأتراك. وإذا كان الأتراك لم يفرقوا بين التركي وبين العربي والبلغاري والروماني واليوناني وغيرهم وكانوا يولونهم الوزارات والامارات وهم على دينهم أحياناً أو بعد إسلامهم في بعض الأحيان فكيف يصح أن نقول بأن العثمانيين كانوا مستعمرين ؟! .

إن الإسلام هو قومية المسلم فحينما يكون الإسلام تذوب القوميات ولو تنبه المسلمون إلى هذه الناحية وعملوا على تحقيقها لما أصابهم ما أصابهم من ذل وهوان بتأثير أقوال مغرضة ليس لها من هدف إلا تفكيك الرابطة الاسلامية التي هي حمى المسلمين الذي يجب أن يظلوا محتمين به وإلا تشتتوا .

كتب عبد الرحمن عزام باشا في الأهرام بتاريخ ١٩٤٤/١٠/٢٢ يقول :

« لما وصل العثمانيون إلى شرق أوروبا وكلها سجون أبدية يتوالد فيها الفلاحون للعبودية ، فكسروا أغلال السجون وأقاموا مقامها صرح الحرية الفردية ، فهم الذين قضوا على نظام الاقطاع والارستقراطية ليحل محله نظام المواطن الحر والرعية متساوية الحقوق ، فوصل في دولتهم الرقيق التركي والصقلي وغيره الى أكبر مقام في الدولة كما وصل النابه من عامة الناس ، حتى مجهول الأصل ، الى مقام الصدارة العظمى والقيادة العليا ، وتعلمت أوروبا الشرقية على أيدي محرريها سيادة القانون على الأحساب والأنساب والطوائف والنحل .

فترتب على ذلك تطور هائل في اتجاه الحرية والديمقراطية الغربية الحديثة . وكانت القرون الأولى لسيطرة آل عثمان عصوراً ذهبية شمل فيها الناس الأمن والرخاء والسلام الروحي ، ولم يكن فوز آل عثمان مستمداً ، كما يظن بعض الناس ،

من السيف والشجاعة بل كان مما هو أعظم من السيف ومن الشجاعة ، وهو احترام الحق والوفاء بالعهد والخضوع لسلطان القانون والشرع .

ولو كان الأمر كما تصوره الذين ينخدعون بآثار دور الانحطاط من استخدام الطوائف والغيرة بين العناصر والبطش لتغطية الضعف لاستحال أن يدوم ملك آل عثمان ستمئة سنة منها مئتا سنة لا يسندهم فيها إلا سيف مبتور .

لقد رويت ليَّ في رحلاتي بالبلقان وملدافيا أمثلة باقية في لغة العامة من عدل آل عثمان بين بيوت الملك الذي طال أمده وتنوعت رعاياه وقد ثقلت كفته بالخير والرحمة والمروءة والشرف » .

هذا بعض ما قاله أمين سر جامعة الدول العربية بحق آل عثمان .

هل كان عبد الحميد مستبداً ؟

كان السلطان عبد الحميد وهو على العرش الملك الصالح المصلح والعادل المنصف فلما خلع صار الرجل الغاشم الظالم المستبد المتعطش إلى الدماء حتى لقب بالملك الأحمر ، فأي القولين أصدق ؟

أما أنا فإني لا أستطيع أن أثبت أو أنفي أحد الأمرين لأني لا أعلم الغيب ، ولكني اميل بحسب معلوماتي ومطالعاتي وأقوال من عاشرتهم ممن يعرفون السلطان شخصياً أنه كان ملكاً مثل غيره من الملوك في زمانه ،ولكنه يمتاز على غيره بالدهاء وبعد النظر والصلاح. فعبد الحميد لم يكن ملكاً ديمقراطياً مثل ملك انكلترا أو السويد مثلاً بل كان ملكاً أوتوقراطياً يملك ويحكم وإذا كان قد ظهر منه شيء من الاستبداد فتلك كانت شيمة الملوك في ذاك الزمان،وتلك كانت مقتضيات الحكم في دولة تنهشها الذئاب من كل جانب،بيد اننا لو قسنا استبداد عبد الحميد باستبداد بعض حكام اليوم الذين لا يزيدون عن شيوخ قرى بالنسبة إليه نجد استبداده رحمة وحناناً بالنسبة الى مظالمهم .

ولكي نأخذ فكرة سليمة عن السلطان عبد الحميد ننقل فيما يلي ما قاله زعيم الاسلام المغفور له جمال الدين الأفغاني مما ذكره المخزومي في كتاب : خاطرات جمال الدين الأفغاني صفحة ٦٤ و ٦٥ فهي فصل الخطاب قال :

« ان السلطان عبد الحميد لو وزن أربعة من نوابغ هذا العصر لرجحهم ذكاءً ودهاءً وسياسة . فلا عجب إذا رأيناه يذلل ما يقام لملكه من الصعاب من دول الغرب . إنه يعلم دقائق الأمور السياسية ومرامي الدول الغربية . وهو معد لكل هوة تطرأ

على الملك مخرجاً وسلماً . وأعظم ما أدهشني ما أعده من خفيّ المسائل وأمضى العوامل كي لا تتفق أوروبا على أمر خطير في الممالك العثمانية . كان يريها عياناً محسوساً أن تجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن أن تتم إلا بخراب الممالك الأوروبية بأسرها ، وكلما حاولت دول البلقان الخروج على الدولة بحرب كان السلطان يسارع بدهائه العجيب لحل عقد ما ربطوه وتفريق ما جمعوه » .

هذا ما قاله السيد جمال الدين الأفغاني وأقول :

وكان عبد الحميد يدرك أن روسيا التي قامت على أنقاض الدول الاسلامية التي ابتلعتها مثل بخارى وحيوه وطاشقند وغيرها ، تخشى الدولة العثمانية دولة الخلافة الاسلامية ،ولذا فإنها كانت تحاول تقويض دعائمها وتشتيت شملها لكي تسلم لها غنائمها. وكانت روسيا تبني سياستها على الانتصار للمسيحية ضد دولة الخلافة الإسلامية التي تزعم أنها تعمل للقضاء على المسيحية ، وبذلك كانت تثير النعرات الدينية التي سبقتها أوروبا الغربية إلى إثارتها . كان عبد الحميد يدرك هذا ويعلم أن حجة روسيا أقوى من حجته لدى الدول المسيحية ولذا فإنه كان يلجأ الى التفريق بين هذه الدول لكي لا تتفق عليه . وكان عليه أن يقاتل في جبهتين : الجبهة الداخلية والجبهة الخارجية . أما الجبهة الخارجية فانها كانت تتألف من جميع دول أوروبا المسيحية وأما الجبهة الداخلية فانها كانت تتألف من العناصر القومية التي عمل الغرب على تحريضها على الثورات ، ولم يكن يملك إلا الحيلة والدهاء .

وإذا ظهر من السلطان عبد الحميد ما يمكن أن يوصف بالاستبداد فذلك لأن مقتضيات الزمن كانت تدعو الى ذلك ،ثم إنه كان يخشى أن يصيبه ما أصاب عمه السلطان عبد العزيز وأخاه السلطان مراد اللذين ما زال دمهما المهراق يترقرق أمام عينيه وكان يخشى أن يحل به ما حل بهما لا سيما وان العثمانيين كانوا قد تعودوا قتل الملوك لأتفه الأسباب،وكان قاتلهما أو المتهم بقتلهما أوالموحي به ما زال حياً ألا وهو مدحة باشا رئيس حزب تركيا الفتاة والذي كانوا يسمونه (أبو الأحرار) . وهو رئيس الوزارة أيضاً ومتهم بالعمالة لانكلترا ولروسيا .

فكان على عبد الحميد أن يتخذ الحيطة للدفاع عن نفسه قبل كل شيء ولذا فقد

استهل عهده بأن قلّم أظفار مدحة باشا بأن عزله من رئاسة الوزارة ونفاه من البلاد وفرق شمل أعوانه ثم أمر بقتله فخنق في سجنه في مدينة الطائف .

لقد كان عبد الحميد يقاتل على جبهتين ، كما أسلفنا ، فلا عجب إذا صدرت عنه بعض أعمال العنف لصيانة الدولة من أعدائها. وإذا كنا لا نستطيع أن ندعي أن عهد عبد الحميد كان ديمقراطياً ، فاننا لا نستطيع أن نتهمه بأنه كان استبدادياً صرفاً بل كان عهداً يساير زمانه ولم يكن أحد يشعر بالحرج في عهد عبد الحميد أو يشتكي الظلم والاستبداد إلا الذين يشتغلون بالسياسة ويتآمرون على الدولة بحسن نية أو سوء نية .

* * *

سياسة عبد الحميد الاسلامية

تبوأ عبد الحميد عرش السلطنة والبلاد ، كما ذكرنا ، في أسوأ حال ، فالدول الغربية أصبحت منذ مؤتمر باريس المنعقد في ١٨٥٦ تتدخل في أمور الدولة بكل حرية . وتنظر هذه الدول الى الدولة العثمانية نظرتها الى مريض على فراش الموت يجب البحث في تقسيم تركته ، والخزينة في حالة افلاس وقد بلغت ديونها حتى عام ١٨٧٥ ثلاثة مليارات وثلاثة عشر مليون فرنك ذهبي ،وهو مبلغ كبير جداً بالنسبة لذلك الزمن ،حتى ان الدول قد أحجمت عن عقد قرض مع السلطنة على الرغم من الفائدة الباهظة التي كانت تتقاضاها اذ كانت تبلغ ٢٥ ٪ ، والقوميات ترفع رأسها ، والحروب تشب على الدولة وتزيد نفقاتها على عجزها وإفلاسها ، ودول الغرب المسيحية تصر على السلطنة لتحقيق الاصلاحات في البلاد ومعنى الاصلاحات ترك الحبل على الغارب للاقوام المسيحية الموجودة في الدولة .

حاول السلطان عبد الحميد حينما تبوأ العرش أن يعمل على ارضاء الغرب فأعلن الدستور الذي يساوي فيه بين العناصر والأقوام وكان شعاره (حرية ، أخوة ، عدالة ، مساواة) أي أنه زاد على الشعار الافرنسي كلمة العدالة التي هي أساس كل شيء ولكنه رأى أن غاية الغرب ليست اعلان المساواة بل غايته القضاء على السلطنة ،وما مطالبتها بالمساواة وغيرها الا حيل لإنهاكها وتفريق شملها.فلما رأى عبد الحميد هذا أدرك أن لا شيء ينقذ السلطنة الا القوة ولكن من أين له القوة ،والقوة تحتاج الى المال والخزينة مفلسة ؟ ! .

اذن لا بد من الاتكال على قوة معنوية هي قوة الاسلام فاهتم بالدعوة الى الجامعة

الاسلامية وقد نجحت سياسته واستطاع أن يحكم البلاد ثلاثاً وثلاثين سنة كانت السلطنة على ضعفها ووهنها والمؤامرات التي تحاك لها في الداخل والخارج محترمة المكانة مرهوبة الجانب . وفي نطاق هذه السياسة قرب اليه كثيراً من رجالات الاسلام مثل جمال الدين الأفغاني والشيخ أبو الهدى الرفاعي من حماة وأحمد عزة العابد من دمشق والشيخ محمد ظافر من الجزائر والشيخ سعيد من حمص والشيخ أحمد اسعد القيصرلي من المدينة المنورة والسيد فضل الله من مليبار بالاضافة الى فريق من أشراف مكة المكرمة وعلى رأسهم الحسين بن علي وعلي حيدر وعبد الاله باشا وصادق باشا وغيرهم ،وأجرى على الجميع مرتبات كما أجرى مرتبات على غيرهم ممن تخلف في بلده وكان له نفوذ إسلامي . لقد فعل ما فعل من قبيل تأليف القلوب ولكنه لم يكن مخدوعاً بأحد بل ينزل كل واحد على قدره ،وكان لا يأمن للشريف حسين وحينما أصر الاتحاديون عليه لتعيينه شريفاً على مكة بدل الشريف علي قال لهم : إني أبرأ من تبعة كل ما سيعمله هذا الرجل لأني أعرف حقيقته[1] .

وقد تجاوز عبد الحميد هذه المرحلة من تقريب العناصر غير التركية وعهد الى كثير من العرب بأعلى المناصب في الدولة منهم احمد عزة باشا العابد الكاتب الثاني في المابين وقد بلغ نفوذه مبلغاً فاق الصدارة ، وشفيق بك المؤيد المفوض في الديون العامة وشفيق بك الكوراني رئيس الشرطة ، وعرب حقي باشا وسليم بك ملحمة ونجيب بك ملحمة وسليمان البستاني وقد بلغوا كلهم رتبة الوزارة وكلهم من سوريا ولبنان ،وطالب باشا النقيب وأحمد باشا الزهير (من أعضاء مجلس شورى الدولة) وهما عراقيان . وكان الفريق محمد باشا والفريق محيي الدين باشا ولدا الأمير عبد القادر الجزائري وفؤاد باشا المصري من مرافقي السلطان . وكان المشير أركان حرب شفيق باشا وأخوه الفريق وهيب باشا من أركان اساتذة المدارس العسكرية والحكومية وهما لبنانيان من قرية المتين . وكان شكري باشا الأيوبي الدمشقي ناظراً للاعمال العسكرية. والدكتور يوسف رامي من قرية فالوغا في لبنان امير لواء والدكتور الياس مطر من بيروت استاذاً للتشريح في الكلية الطبية في استانبول . والاستاذ سليم باز من دير

---

(١) حاضر العالم الاسلامي .

القمر بلبنان استاذاً في كلية الحقوق وغيرهم كثير .

وبالاضافة الى ذلك فقد اتخذ السلطان عبد الحميد من العرب حرساً خاصاً انزلهم حول قصره والبسهم عمائم خضر .

ولم يكتف بذلك بل إنه عمد الى تزويج أميرات البيت المالك من غير الأتراك ورفع أزواجهن إلى رتبة داماد(أي صهر) وهم : الشريف علي حيدر الذي طمع في عهد الانتداب الافرنسي أن يكون ملكاً على سوريا ، وصالح بك خير الدين باشا التونسي ، وأحمد نامي شركسي الأصل ولبناني الجنسية وقد صارسنة ١٩٢٦ رئيساً لدولة سوريا .

وكما قرب السلطان العرب إليه فإنه لم يهمل الأقوام المسلمة الأخرى فجمع حوله طائفة من الأكراد والأرناؤوط أمثال اسماعيل باشا الكردي ودرويش باشا الألباني وغيرهما وعني عناية خاصة بتربية الناشئة من أولاد العشائر فأنشأ مدرسة العشائر في استانبول لتوثيق عرى الاخوة بين العشائر ودار الخلافة .

هذا بعض ما فعله السلطان عبد الحميد في سبيل جمع كلمة رعايا الامبراطورية العثمانية حول مبدأ واحد وهدف واحد وهو الاسلام وهو عمل عظيم ، ولكن بقدر ما كانت هذه السياسة ناجحة ومفيدة في تدعيم أركان الدولة فانها كانت أشبه بناقوس الخطر بالنسبة الى دول الغرب التي تخشى كلمة الاسلام وتحاربها بكل قواها لأن انتصار الاسلام يعني في نظرها اندحاراً للمسيحية ولذلك فقد عملت على إزالة عبد الحميد أولاً ثم على القضاء على الإمبراطورية بعد ذلك .

* * *

الثورة التركية ومصطفى كمال

سبق أن ذكرت أن كبار رجال حزب الاتحاد والترقي الذين كانت في أيديهم مقدرات البلاد قد فروا من البلاد ومنهم من كان يرجو أن يعود إليها فاتحاً ومنهم من كان ينوي اعتزال السياسة وإفساح المجال لغيره . وأما القادة العسكريون الذين لا علاقة لهم بالسياسة ويأتون في الدرجة الثانية بين القادة،أمثال جمال باشا المرسيني المشهور بالصغير ومصطفى كمال باشا ووهيب باشا وفخري باشا وكاظم قره بكر وغيرهم فقد عاد من كان منهم خارج البلاد الى بلاده وبقي فيها من كان فيها .

وكان السلطان محمد وحيد الدين يدرك أن وجود تركيا لازم لدول الغرب لاقامة التوازن بينها وان انكلترا وفرانسا لن تسمحا بالقضاء على تركيا قضاءً مبرماً لأنهما بذلك تفسحان المجال أمام روسيا للاستيلاء على الأناضول وبالتالي على مضيقي البوسفور والدردنيل مفتاحي العالم ، بل كل ما تريدانه هو تشذيب أطراف الدولة العثمانية وجعلها دويلة صغيرة مثل دول البلقان وباقي الدول التي كانتا تنويان خلقها في المنطقة على انقاض الدولة العثمانية . واستناداً على هذا التفكير السليم كان السلطان محمد وحيد الدين يعلم بأن استرجاع بعض ما أخذ لا يتم بالهبة بل لا بد من القتال في سبيله لاسترجاعه وبالتالي لا بد من القيام بثورة في البلاد وحيث أن السلطان كان يعرف مصطفى كمال اذ كان مرافقاً له يوم ذهب ، وهو ولي عهد ، إلى برلين ليقدم للامبراطور گيوم سيفاً مهدى إليه من السلطان محمد رشاد ، فقد اتخذه يوم عاد من الجبهة الفلسطينية مدحوراً مرافقاً له ثم عهد اليه سراً بأن يقوم بثورة في شرق الأناضول حتى يتسنى لرجال السياسة

أن يحاوروا ويناوروا أثناء عقد الصلح ليأخذوا أكثر ما يمكن أخذه من الأعداء . وللتغطية على هذه الثورة عن عيون الأعداء عامة والانكليز خاصة الذين كانوا يسيطرون على استانبول ، عينه مفتشاً عاماً لجيوش الأناضول بصلاحيات واسعة وزوده بمبلغ عشرين ألف ليرة عثمانية ذهباً ، كما أخبرني بذلك أحد كتاب المابين المطلعين على دخائل الأمور ، وهو مبلغ ضخم بالنسبة إلى ذاك الزمن وإلى ما كانت عليه خزينة الدولة من عجز وإفلاس . ذهب مصطفى كمال بمهمة معينة لحساب الدولة العثمانية ولكنه خان الأمانة وغدر بالسلطان وعمل لحساب نفسه عملاً بالقول المأثور : أرسلته لي خاطباً فتزوج .

وقد ذكر شيخ الاسلام المغفور له صبري أفندي ، الذي حضر كل فصول هذه المأساة ، في الجزء الأول من كتابه : « موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين » بما معناه قال : كنت آنذاك شيخ الاسلام ومشيخة الاسلام تأتي في رأس الوزارات بعد رئاسة الوزارة ولذا فإن شيخ الإسلام كان ينوب عن رئيس الوزارة في الاجتماعات الوزارية اذا تغيب الرئيس عن حضور الاجتماع .

وقد ابلغتنا لجنة الحلفاء العليا المقيمة في باريس والمؤلفة من رؤساء وزارات كل من انكلترا وفرنسا وايطاليا واليونان ، في مساء ١٤ مايو ١٩١٩ قراراً يقضي بنزول الجيوش اليونانية في أزمير ويحذروننا من المقاومة التي يعتبرونها مقاومة لجميع الحلفاء ونقضاً للهدنة ،وفي اليوم الثاني أي في ١٥ مايو نزل اليونان في أزمير.

وكان السلطان قد عهد لمصطفى كمال بالوظيفة الكبيرة ، التي نوهنا بها ، وزوده بامتيازات أخرى من المساعدات المالية والمنشورات السرية . وغادر استانبول ، في ١٧ مايو ١٩١٩ عن طريق البحر مصطحباً معه عدداً من العسكريين والمدنيين الذين اختارهم لمساعدته ووصل مدينة صامسون في ١٩ مايو ، وبعد أن جمع حوله فلول الجيش والأهلين بدأ ثورته . وهنا يقول صبري أفندي ما معناه :

اطلع الحلفاء المحتلون على ما يرمي اليه السلطان من إرسال مصطفى كمال الى الأناضول فاحتجوا الى الوزارة القائمة في استانبول المحتلة مستندين الى أحكام الهدنة المعقودة في عهد الوزارة السابقة وطالبوها باستدعاء الرجل،وحيث أن الشكايات قد

كثرت ضده من الولاة بسبب ما يتمتع به من صلاحيات واسعة فقد دعوناه الى استانبول بلسان وزير الحربية ولكنه لم يجب . ثم تكرر الاحتجاج من قيادة الاحتلال وتمادت اصوات الشكاية من الولاة الى وزارة الداخلية وتكررت منا دعوة مصطفى كمال الى العاصمة واستمر هو في عدم الإجابة،وإزاء ذلك هدد الحلفاء الوزارة بالرجوع الى الحرب فاضطرت الوزارة الى إقالته وأنا يومئذ رئيساً للوزارة بالنيابة بسبب غياب رئيس الوزارة فريد باشا في أوروبا لحضور مؤتمر الصلح .

قررت الوزارة إقالة مصطفى كمال من منصبه وعرضت القرار على السلطان محمد وحيد الدين لكنه لم يوافق عليه موصياً بالاكتفاء بدعوته الى العاصمة والاستمرار في الدعوة ففعلنا،وتمادى المطل من مصطفى كمال والرفض من السلطان بالتوقيع على الاقالة ، كما استمر احتجاج الحلفاء الى الوزارة طالبين البت بالأمر . وأخيراً قررت الوزارة في ٨ يوليو ١٩١٩ البت بأمر الرجل وذهبت أنا الى القصر وقابلت السلطان ومكثت في حضرته من المساء حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وهو يماطلني بانتظار الجواب البرقي من مصطفى كمال إذ كان رئيس الديوان يكلمه برقياً من غرفة ثانية في القصر ، فلما انقطع الأمل من نزول مصطفى كمال عند طلب الوزارة اضطر السلطان مكرهاً الى التوقيع على قرار الوزارة بإقالته ، فكان جوابه على إبلاغه القرار بالإقالة أن أعلن استقالته من الجيش بعبارة تنم عن التمرد . وعلى الرغم من أن السلطان وافق على قرار الإقالة بعد تعيينه بشهرين وبضعة أيام إلا أنه كان كارهاً ذلك بدليل أنه لم يصدر ضده أي أمر بل أقال في ٢ اكتوبر الوزارة التي طلبت إقالته وأنا منها في منصب الرئاسة بالنيابة ... وأتى بوزارتين ملائمتين لحركة مصطفى كمال . وبعد مضي أكثر من سنة على الثورة لم تجن البلاد الا الدمار والخراب وتقدم اليونان نحو قلب الأناضول حتى كادوا يطرقون أبواب أنقره أعيد تكليف فريد باشا بتأليف الوزارة وعلى الرغم من أن وزارته السابقة هي التي بعثت بمصطفى كمال إلى الأناضول فانها في هذه المرة أصدرت حكمها عليه بالعصيان والتمرد على السلطان استناداً الى فتوى أصدرها شيخ الاسلام عبد الله دري زاده،ولكن السلطان ما لبث أن أقال هذه الوزارة وكلف توفيق باشا ، وهو من أنصار مصطفى كمال ، بتأليف

وزارة جديدة دامت في الحكم نحو سنتين خدمت فيهما أغراض مصطفى كمال . فلما قويت شوكة مصطفى كمال تنكر للسلطان وطلب إليه أن يتنازل عن الحكم ويكتفي بالخلافة المجردة من السلطة على أن يظل مقيماً في استانبول وتنتقل السلطة الى أنقرة، فرفض السلطان وتنازل عن العرش سنة ١٩٢٢ وخلفه عبد المجيد خليفة لا ملكاً ثم خلع سنة ١٩٢٤ واخرج من البلاد .

وقد ظل السلطان وحيد يحسن الظن بمصطفى كمال رغم التحذيرات وظل مصطفى كمال يستغل إخلاص السلطان وصدق وطنيته والسلطان ليس بغافل بل راض بكل شيء يكون فيه خير البلاد وقد قيل له مرة : « إنه لا يستبعد أن يغتصب هذا الرجل عرشك » . فقال : « ليخدم الوطن وليغتصب عرشي » وشاعت كلمة سمعتها وأنا في بلادي تنسب إلى أحد الانكليز وهي : « إن السلطان وحيد الدين أراد أن يكيد الانكليز بمصطفى كمال فكاد الانكليز به للسلطان » .

هذا موجز ما قاله سماحة شيخ الاسلام صبري أفندي وأنا اقول : إن من ينعم النظر في الثورة الكمالية يجد أن الانكليز قد لعبوا فيها أدواراً رئيسية مع ثلاثة أطراف. الطرف الأول هو مصطفى كمال الذي تبنوه وساعدوه للوصول إلى ما وصل إليه شريطة أن يلغي الخلافة ويفعل في تركيا ما فعل . والطرف الثاني هم اليونان الذين كانوا حلفاءهم في الحرب وخرجوا منها بلا غنيمة فطوحوا بهم في مغامرة كانوا يقدرون لها الفشل فأغروهم بالاستيلاء على أزمير على أن تكون نصيبهم من غنائم الحرب وهم في الواقع لا يريدون أن يمكنوهم من شيء لأنهم يعلمون بأن استيلاء اليونان على شيء من أرض تركيا يعني استيلاء روسيا عليه على اعتبار أن القومين يدينون بالارثوذكسية وروسيا هي حامية الأورثوذكسية في العالم ، ولكن الانكليز ارادوا أن يعطوا اليونان درساً بهذه المغامرة لكي يرضوا من الغنيمة بالإياب ثم إنهم يخلقون من مصطفى كمال بطلاً محرراً لبلاده ، والطرف الثالث هي الحكومة التركية نفسها التي استعملوها أداة للتفريق بين السلطان وبين مصطفى كمال وقد نجحوا في تمثيل هذه الأدوار الثلاثة نجاحاً تاماً .

أما مصطفى كمال فهو وحده من بين هذه الأطراف الثلاثة الذي كان يعلم ما يراد منه كما انه كان يعلم النتائج لأنه كان على صلة بالانكليز منذ سنة ١٩١٧ يوم كان

قائداً عثمانياً في جبهة فلسطين فقد أخبرني ابراهيم بك صبري بن صبري أفندي شيخ الاسلام الذي مر ذكره بما يلي : « اتصل الانكليز بمصطفى كمال يوم كان قائداً في فلسطين وطلبوا إليه أن يقوم بثورة على السلطنة ووعدوه أن يساعدوه على ذلك فاتصل مصطفى كمال بقائدين عثمانيين من زملائه كانا يتوليان قيادة جيشين قريبين منه وفاتحهما بالأمر (وقد ذكر لي ابراهيم بك اسمي القائدين المذكورين ولكني انسيتهما لأني لم اسجلهما عندي اذ اني لم أكن أتوقع أن احتاج الى ذكرهما) فلما سمعا الخبر استعظماه واستنكراه وقالا له : « بما انك لم تحاول العصيان الذي يوجب الاعدام فاننا سنكتم الأمر وننصحك أن تعتبره منسياً وأنك لم تفاتحنا به ولا سمعناه منك » .

وانتهى الأمر بالنسبة الى هذين القائدين عند هذا الحد وأما بالنسبة الى مصطفى كمال الذي قبل ، وهو القائد العثماني ، أن يتآمر مع الانكليز لارتكاب مثل هذه الخيانة فانه لم ينته ، ولا شك ، بدليل ما وصل إليه ، ولا يستبعد أن يكون الانكليز هم الذين دعموه لدى السلطان ، بطريقة غير مباشرة ، لكي يعينه مفتشاً عاماً لجيوش شرق الأناضول ليسهلوا مهمته .

قد يتساءل المرء : كيف يساعد الانكليز مصطفى كمال على القيام بثورة في بلاد هم يسيطرون عليها ؟ والجواب قد مر معنا وهو أن أمم الغرب كانت منذ زمن بعيد تريد تحطيم الدولة العثمانية وتريد اقتسام تركة (الرجل المريض) وقد عقدت هذه الدول مئة معاهدة لتقسيم هذه التركة ولكنها لم تكن تتفق على ما يصيب كلاً منها كما انها لم تكن قد افترستها . فلما نشبت الحرب العالمية الأولى وانهارت الدولة العثمانية رأت هذه الدول ، وعلى رأسها انكلترا وفرنسا ، أن بقاء تركية دولة صغيرة غير إسلامية يضمن لها مصالحها أكثر مما لو استولت عليها واستعمرتها كما فعلت بالبلاد العربية لأنها ستبقى حاجزاً بين العالم الحر وبين روسيا ، التي وان كانت في تلك الأيام ضعيفة فانها لا بد لها من أن تسترجع قوتها في يوم من الأيام وتقوم فتطالب بإعادة تقسيم الغنيمة ،وانها لن تسكت عن سيطرة انكلترا على الممرين المائيين ولذا فإن هذه الدول الغالبة رأت من الأصلح وجود دولة صغيرة ضعيفة وغير مسلمة

صديقة للغرب كالدولة التركية الحالية التي صنعتها على يدي مصطفى كمال من أن تكون هي المسيطرة .

وهكذا فقد نال الغرب بغيته وأصبحت تركيا دولة صغيرة علمانية وتنكرت حتى لواقعها فهي قد أعلنت أنها دولة غير إسلامية مع أن ٩٥ ٪ من سكانها مسلمون وتنكرت لآسيويتها مع أن مالها في أوروبا من مناطق لا يتجاوز عشر مساحتها، فقد ذكر سماحة شيخ الاسلام صبري أفندي في كتابه المذكور آنفاً أموراً منها أنه لما كان مصطفى كمال على فراش الموت أوصى بألاّ يصلى عليه صلاة الجنازة ولكنهم صلوا عليه إجابة لرجاء أخته . ثم انه لما دعيت تركيا لحضور المؤتمر الإسلامي الذي عقد في القدس سنة ١٩٣١ رفضت الحكومة التركية حضوره لأنها غير مسلمة ، ولما دعيت لحضور المؤتمر الآسيوي الذي عقد في دهلي رفضت حضوره بحجة أنها ليست بدولة آسيوية .

هذه شذرات عن الثورة الكمالية ونتائجها وعما كان للأيدي الغربية من دور فيها نقلناه بكل تجرد وإخلاص خدمة للتاريخ .

* * *

كيف استقبل المسلمون الثورة الكمالية ؟

لما قام مصطفى كمال ، بوحي من السلطان وحيد الدين ، بثورته التي أرادها السلطان عثمانية اسلامية وجعلها مصطفى كمال غربية علمانية ، لم يكن المسلمون يعلمون عن أسرارها وخفاياها شيئاً فخدعوا بظاهرها وبالدعايات التي كانت ترافقها وأولوها كل دعم وتأييد واكبروا همة وإخلاص باعثها وذلك لأن العالم الإسلامي كان قد فقد صوابه بعد انهيار الدولة العثمانية دولة الخلافة الاسلامية وكان على استعداد تام لتأييد أية حركة تقوم في أية ناحية من العالم لنصرة الاسلام وإعادة الخلافة أو أنه كان كالغريق يرفع يديه إلى السماء ليتمسك بحبال الهواء .

لقد عايشت الحركة الكمالية منذ يومها الأول وأدركت كل أدوارها وقد أخذت بها وخدعت كما أخذ غيري وخدع من المسلمين إذ ظنناها حركة إسلامية ولم يكن من شيء يعزينا عما نحن فيه ، بعد اندحار الدولة العثمانية ، الا الاسلام . فقد أصبحنا غرباء في أوطاننا أشقياء في بلادنا تعساء في مجتمعنا. أو نحن كالأيتام على مأدبة اللئام ليس لنا وطن ندعيه لأن الغريب يستعمره ولا لنا دولة نستند اليها لأن الأغراب يحكموننا. وصرنا نسمع سفهاء الناس يشتمون ديننا في وجوهنا ومن كان منهم مهذباً ولم يشتم قال لنا : لقد ولى زمانكم ونحن اليوم أسيادكم وإن لم يقولوها بألسنتهم قالوها بأفعالهم. وكنا نتطلع يمنة ويسرة فلا نجد على سطح الأرض كلها ، وعلى كثرة عدد المسلمين فيها ، دولة اسلامية واحدة مستقلة حرة نستطيع أن ندعيها أو ننتسب اليها لنعتز بها بل كان العالم الإسلامي كله مستعمرات غربية أو شبه مستعمرات .

لهذه الأسباب كان سرورنا بالثورة الكمالية عظيماً ولا حدود له لأننا كنا

نستطيع أن نقول بأنه قام مسلم من بين المسلمين يقف في وجه الغرب ويعلن ثورته عليه وانه غداً سيعيد إلى المسلمين الخلافة الإسلامية ويعيد إلينا شأننا وعظمتنا. وكما سررنا وانتعشنا بثورة مصطفى كمال فقد سررنا وانتعشنا بثورة أنور باشا ولكن سرورنا بثورة مصطفى كمال كـان أعظم لاسباب كثيرة منها :

١ - إن بلاد الأناضول متصلة ببلادنا العربية اتصالاً مباشراً وان وجود دولة إسلامية الى جوارنا أفضل من وجود دولة غربية عدوة .

٢ - إن الدولة العثمانية هي أمنا التي غذينا بلبانها وكنا جزءاً منها فرجوع الحياة اليها هو بعث لنا .

٣ - إن مصطفى كمال يعمل للخلافة الاسلامية بينما أنور باشا يعمل لاقامة دولة إسلامية وليس هذه كتلك .

٤ - إن السلطان يؤيد حركة مصطفى كمال ولم نسمع أنه كان يؤيد حركة أنور باشا .

٥ - إن هالة الدعاية التي أحيطت بها الثورة الكمالية كانت أعظم وأحكم من هالة الدعاية التي رافقت حرب أنور باشا .

٦ - إن الثورة الأنورية ماتت سنة ١٩٢٢ بموت قائدها ولم يبق أمامنا إلا الثوره الكمالية .

٧ - إن الغربيين أرادوا أن يصرفوا تفكير العالم الإسلامي الى الثورة الكمالية لكي يستهلكوا آلام المسلمين ويخففوا على نفوسهم أثر الصدمة التي أنزلوها بهم بازالة الخلافة فأولوا الثورة الكمالية كل عنايتهم ودعموها برعايتهم لأنهم كانوا يعلمون نتائجها مسبقاً على اعتبار انهم هم الذين صنعوها .

وكما أن الغربيين قد نجحوا في مخططهم وجعلوا العالم الاسلامي كله يسير فخوراً بضع سنوات وراء الثورة الكمالية فقد استغل مصطفى كمال عواطف المسلمين وأموالهم الى أبعد حدود الاستغلال وكسا ثورته لباساً إسلامياً، سواءً بأحاديثه وتصريحاته وخطبه، أو بمعاملته لزعماء المسلمين. فمن ذلك أنه استعان بالزعيم الليبي الشهير السيد أحمد السنوسي وجعله مستشاراً له وكان يبرق إليه ، كما قال لي صديقي الأمير شكيب ارسلان ، إذا اراد شن هجوم على مكان ما قائلاً : إننا ننوي الهجوم

غداً أو بعد غد على مكان ما فاقرأوا البخاري الشريف على نية النجاح والتوفيق، واستغل أيضاً أعمال وأقوال جمعية الخلافة الهندية التي قامت بزعامة الاخوين شوكة علي ومحمد علي واستغل الشعراء فمدحوه والأدباء فأثنوا عليه ومشايخ الطرق فرفعوه الى مقام الولاية .

كان مصطفى كمال يبطن غير ما يظهر وينوي أن يفعل غير ما يقول إذ أنه ما كاد ينتصر نهائياً ويطمئن الى مصيره حتى ألغى الخلافة وطرد الخليفة من البلاد وطرد السيد أحمد السنوسي وتنكر لكل القيم الاسلامية وسار بسيرة ليس فيها أية مصلحة للاسلام ولا للمسلمين لا بل ليس فيها أية مصلحة لتركيا نفسها ،فها هي تركيا بعد مضي ستين سنة على هذه الثورة ما زالت بلداً نامياً ضعيفاً لا حول له ولا طول فالحركة العلمية فيها ضعيفة والأمية سائدة والحياة الاجتماعية متأخرة والحالة الاقتصادية في الحضيض ،وكل ما فعلته هذه الثورة أنها أشغلت الناس بأمور جانبية تافهة مثل إلغاء الطربوش وسفور النساء ولو كان هذان الأمران تركا للزمن لتكفل بتحقيقهما من غير ثورة كما حدث في كل البلاد الإسلامية حتى في أشدها تعصباً ومحافظة مثل اندونيسيا وباكستان والهند وأفغانستان وحتى إيران حيث كان ذكر المرأة على اللسان في هذه البلدان يعد عورة ، فأصبحت المرأة في هذه البلاد وفي بحر سنوات قليلة قد تخطت التركية وهي تماشي الغربية . وإذا كان السفور قد تحقق في بعض المدن التركية الكبيرة حيث لم تكن المرأة متحجبة حجاباً كاملاً فإن المرأة في بعض المدن الكبيرة الأخرى وفي الأرياف ما زالت كما كانت وما زالت متأخرة ولم ينفع السفور في تقدمها .

أقول قولي هذا لا انتصاراً للحجاب أو تسفيهاً للسفور بل تقريراً للواقع . فاللباس والأثاث للمرأة والرجل إنما تفرضه الحياة الاجتماعية والبيئة والحاجة وليس الثورات ، وقد حكمت الكنيسة على جاندارك بالكفر لأنها لبست البنطلون وها نحن نرى اليوم ، كل نساء العالم يلبسن البنطلون ولا يعترض على ذلك أحد ولا تنكره الكنيسة لا بل فان كثيراً من الناس يفضلون البنطلون للمرأة على لبس القصير

من الثياب ،وذلك لأن الحياة الاجتماعية قد تغيرت وخرجت المرأة من دارها لتعمل خارجه أعمالاً كثيرة وأصبحت تسافر وتمارس ألعاباً رياضية وتركب الخيل وتسوق السيارة وتعمل في المصنع والحوانيت فلبست من اللباس ما يتفق وحاجاتها ،ومثلها الرجل الذي اختلف لباسه اليوم عما كان عليه قبل نصف قرن اختلافاً بيناً ،وكل هذه الأمور لا يحتاج تغييرها وتبديلها إلى ثورة ولا الى قوانين بل الزمان وحده هو الكفيل بتغييرها لما هو أصلح وأنسب للحياة وحاجاتها .

ما هي نتائج الثورة الكمالية؟

خرج مصطفى كمال من ثورته منصوراً يكلل هامته تاج العز والفخار لأنه أعاد الى تركيا حياتها واستقلالها وقد تقبل نصف العالم الاسلامي هذا النصر بسرور عظيم لأنهم خدعوا بظاهره وهذا النصف هو النصف الجاهل أو الغبي أو الذي لا يعرف من الأمور إلا ظاهرها، وأما النصف الآخر العاقل المفكر الذي ينظر إلى خلفيات الأمور بمنظار الحقيقة فقد أدرك مدى الكارثة التي حلت بالعالم الاسلامي كله وليس بتركيا وحدها .

لقد أشغل مصطفى كمال المسلمين بأمور جانبية تافهة أرضى بها الشبان التواقين إلى الأخذ بالمظاهر وأخذ المعول وهدم الكيان التركي من جذوره . واذا جاز لنا أن نسمي ما قام به مصطفى كمال ثورة فهي ولا شك ثورة على الدين وعلى الثقافة وعلى التاريخ وعلى العالم الإسلامي عامة والأمة التركية بصورة خاصة .

لقد أبطل مصطفى كمال الأبجدية العربية وأحلّ محلها الأبجدية اللاتينية فقطع بعمله هذا صلة الأمة التركية بالعالم الإسلامي وقطع صلتها بماضيها وهدم أمجادها وقضى على ثقافة ترجع الى ألف سنة فيها الكثير الجيد من العلوم والفنون والأدب والشعر والتاريخ .

لقد قضى مصطفى كمال على الأمة التركية وطمس معالمها وعراقتها وخلقها امة جديدة وكأنها ليست من هذا العالم أو كأنها كما يقول المثل مقطوعة من شجرة . ولم يقدم البلاد ولا أهلها خطوة واحدة الى الامام بل أرجعها خطوات الى الوراء من

كل ناحية بدليل تقدم بعض البلاد التي كانت جزءاً من الدولة العثمانية وفصلت عنها وقد تقدمت ، بفعل الزمن ، خطوات واسعة في الفن والأدب والعلم والعمران . وما دامت تركيا لم تتقدم فهي اذن متأخرة .

ثم إنه بقضائه على الخلافة جردها من سلاح ماض كان في يدها تهزه متى شاءت في وجه الأعداء وكانت الدولة العثمانية حتى في أخريات أيامها ، يوم لم يكن لها حول ولا طول ، مرهوبة الجانب يخشاها القريب والبعيد ويحترمها العدو قبل الصديق لأنها كانت تحمل صولجان الاسلام الذي كانت تهدد به العالم فأصبحت اليوم بفضل مصطفى كمال دولة ثانوية مثل غيرها من الدول الصغيرة ليس لها وزن سياسي الا بقدر ما لمركزها الاستراتيجي من أهمية وبقدر حاجة الدول إليه وليس لها مركز علمي ولا اقتصادي حتى ولا سياحي على الرغم من جمال تركيا وما فيها من جبال وبحار وغابات وأنهار لو كانت في بلاد أخرى لاستغلت أحسن استغلال في السياحة والاقتصاد .

إننا إذا اخذنا في تقييم هذه الثورة نجد أنها كانت وبالاً على تركيا وعلى العالم الاسلامي لأنها قضت على كل ثروات تركيا المعنوية وسلبتها عظمتها التي كانت تقوم على الاسلام وعلى اللغة العربية وهي عظمة لن تعود ابداً .

إن ما فعله مصطفى كمال كان في مصلحة الغرب وليس في مصلحة تركيا ولا في مصلحة الشعب التركي . لقد قطع مصطفى كمال كل صلة للاتراك باخوانهم المسلمين حتى أنه غير أسماء الناس وغير اسمه . لقد قضى مصطفى كمال على هذه الأمة بالعقم الأبدي وأجهض مقدماً كل حركة إصلاحية يمكن أن تقوم في البلاد لخير البلاد وخير أهلها .

لقد كانت الخلافة ، على ضعف الخلفاء ، وتخاذلهم وجهل بعضهم لا بل ورذائلهم ، سلاحاً ماضياً بيد المسلمين يزعج الغربيين فعملوا حتى قضوا عليه . ولو كان مصطفى كمال أبقى على الهيكل الاسلامي ولم يمس اللغة لكان خلق تركيا خلقاً

جديداً سليماً ولكانت اليوم سيدة العالم الإسلامي كما كانت من قبل ولو تقلصت أطرافها .

وإذا نظرنا الى السياسة التي انتهجها السلطان الظاهر بيبرس والسياسة التي انتهجها مصطفى كمال نجد الفرق بين تفكير الرجلين بعيداً جداً إذ بينما استند بيبرس على الخلافة وأحياها في مصر، بعد أن تلاشت في بغداد فرفع بذلك من شأن نفسه ومن شأن المسلمين في كل مكان وكانت الخلافة له ولخلفائه من بعده قوة ودعماً ودرعاً واقياً، نجد مصطفى كمال قد استند على الانكليز لهدم الخلافة ليرفع نفسه ويهدم تركيا.

لقد كان باستطاعة مصطفى كمال ، بعد أن انتصر على اليونان أن يتنكر للغربيين ويقلب لهم ظهر المجن فيخدم بذلك بلده وأمته ولم يكن الغربيون يستطيعون ، آنذاك ، أن ينالوه بأذى لأن العالم كله كان معه ولكنه لم يفعل لأن الخطة الغربية كانت تساير هواه وهذا من سوء حظ المسلمين وحظ البلاد التركية في الدرجة الأولى .وما تشاؤون إلا أن يشاء الله .

* * *

لماذا دعّم الغرب الثورة الكمالية أو لم يناهضوها ؟

قد يتساءل المرء ، حينما يرى دول الحلف الغربي ، التي هزمت ، في حرب دامت أربع سنوات ونيف ، الامبراطورية العثمانية ومعها امبراطوريتين قويتين هما المانيا والنمسا ومملكة البلغار ، كيف عجزت عن الانتصار على ثورة قام بها قائد عثماني هو نفسه كان قد انهزم أمام الانكليز في جبهة فلسطين ثم عند جبال طوروس يوم كانت إمكاناته أكثر وقوته أكبر ؟

وهو تساؤل وجيه ومعقول لا سيما وأن مصطفى كمال ظل نحو سنتين في شرق الأناضول وهو لايستطيع أن يتقدم لمواجهة أعدائه بل كان أعداؤه اليونان هم الذين يتقدمون حتى وصلوا مشارف انقره .

وللجواب على هذا السؤال نقول : إن الفرق بين الحالين كان كبيراً جداً وذلك لأن الحلف الغربي كان في الحالة الأولى يريد دحر الدولة العثمانية ، دولة الخلافة الاسلامية ، التي كانت قذى في عيون أهل الغرب وحسكةً في حلوقهم ، ولذا فقد وضع ، في ميدان المعركة ، كل طاقاته وإمكاناته وعمد الى كل السبل فسلكها وعمل بكل الوسائل حتى بلغ ما يريد ، بينما الأمر لم يكن كذلك مع ثورة مصطفى كمال ، إن أهل الحلف الغربي ، وعلى رأسهم انكلترا وفرنسا كانتا حريصتين كل الحرص على انتصار مصطفى كمال على اليونان لأسباب مر ذكرها كما أنهما كانتا حريصتين على بقاء بلاد الأناضول لأصحابها على أن تكون تابعة للغرب بعيدة عن الإسلام والمسلمين وكانتا تعلمان مسبقاً أن مصطفى كمال سيحقق لهما هذه البغية .

كانت دول الغرب حريصة على القضاء على الدولة العثمانية لأنها دولة إسلامية

قادرة باسم الاسلام على أن تهدد العالم كله وليس الغرب وحده إذا استعملت هذا السلاح المعنوي استعمالاً صحيحاً وسليماً . ولذا فإن كل الحروب التي شنها أهل الغرب على الدولة العثمانية وكل المعاهدات والاتفاقات التي عقدوها كانت تدور حول هذه النقطة وهذا الهدف .

إن الحروب الصليبية بدأت منذ ظهر الاسلام ولكنها ظهرت بثوب عملي في القرن الحادي عشر الميلادي، يوم ضعفت البلاد الإسلامية ،واشتدت يوم بدأت الدولة العثمانية تغزو أوروبا في عقر دارها . ومع أن دول الغرب مجتمعة ظلت أكثر من ثلاثة قرون تعمل للقضاء على هذه الدولة الاسلامية دون أن تبلغ ما تريد ، على الرغم مما أصاب الدولة العثمانية من تضعضع ، فانها قد ذهلت وارتبكت حينما تم لها هذا النصر بهذا الشكل الذي حدث والذي لم تكن تتوقعه ولا تتصوره أيضاً وذلك بأن ترى الامبراطورية العثمانية ومعها حليفاتها تنهار أمامها في بحر أسابيع أو شهور قليلة ، بعد أن ثبتت أمام ضرباتها أربع سنوات لا بل وانتصرت عليها مرات .

قلت في بحر أسابيع لأن الحرب في سنواتها الأولية كانت سجالاً بين المتخاصمين، لا بل كانت في بعض الجبهات انتصاراً للحلف العثماني ولم يكن ما يبعث على الاعتقاد بحدوث هذا الانهيار،ولكن وقوف العرب الى جانب الحلف الغربي وحماقات ارتكبها بعض رجال الاتحاد والترقي وامكانات الحلف الغربي المادية والمعنوية الواسعة واستسلام البلغار المفاجئ، كل أولئك غيرت وجه الحرب فاسفرت عما اسفرت عنه من انهيار ثلاث امبراطوريات كانهيار قصور الكرتون أو بيوت الرمال .

فهذا النصر الساحق الذي أحرزه الحلف الغربي على الحلف العثماني قد فرّح الغربيين ولكنه ادهشهم وأذهلهم ايضاً لا بل قد كانت دهشتهم أكبر من فرحتهم إذ كان شأنهم شأن الفقير المعدم الذي تهبط عليه ثروة كبيرة فجأة من السماء لم يكن يحلم بها فيحتار في أمره ويحتار فيما يفعل بهذه الثروة الطارئة وكيف ينفقها .

أدرك الغربيون بعد أن تم لهم هذا النصر أن اللقمة التي امامهم أكبر من أفواههم وأنهم لا يستطيعون استراطها بله هضمها وأنه لا بد لهم من اعادة النظر على برامجهم

السابقة ، وعلى الرغم من أنهم كانوا قد اقتسموا تركة (الرجل المريض) فيما بينهم مرات وأنهم باعوا جلد الدب قبل أن يصطادوه الا أن أوضاعهم اليوم تختلف عما كانوا عليه من قبل اذ مات أحد الورثة قبل موت الامبراطورية العثمانية واعني به امبراطورية موسكو بنشوب الثورة الشيوعية فيها ،وماتت ايضاً كل من الامبراطورية الألمانية والامبراطورية النمسوية بسبب تحالفهما مع الدولة العثمانية . فاصبحتا في جانب التركة لا في جانب الورثة ،ولذا فقد كان من البديهي أن يتغير التقسيم وتتغير الأهداف لا سيما وأنه لم يعد في الميدان إلا انكلترا وفرنسا ، وأما إيطاليا واليونان فقد كان بالامكان إرضاؤهما بالقليل لأن إيطاليا كانت في بداية الحرب حليفة للدولة العثمانية ثم تركتها وانضمت الى الحلف الغربي وهي لم تهضم بعد البلاد الليبية التي استولت عليها سنة ١٩١١ ولم تكن الدولة العثمانية قد اعترفت بعد بتنازلها عنها ، واليونان دولة صغيرة لا حول لها ولا طول وبالتالي فليس لها حساب . وأما امريكا ، التي كانت السبب في انتصار الحلف الغربي ، فانها كانت ، بشخص رئيسها ولسن ، تريد الحرية للجميع فإذا لم تصل إلى هذه الغاية تركت الدنيا لأهل الدنيا وانصرفت وهذا ما حدث . وكان كليمنصو رئيس وزراء فرنسا يقول : أنا في حيرة من أمري بين رجلين : الأول يظن نفسه المسيح والثاني يحسب نفسه نابليون . ويعني بذلك ولسن رئيس الولايات المتحدة ، الذي كان مشبعاً بالروح الانساني ، ولويد جورج ، رئيس وزراء بريطانيا الذي كان مليئاً بالغرور .

غير أن الذي كان يخيف الغالبين هي روسيا التي وإن كانت قد خرجت من الحرب مغلوبة بسبب نشوب الثورة الشيوعية فيها ، تلك الثورة التي كان الفضل الأكبر في نجاحها لألمانيا ، التي زودت لينين بالمال والسلاح وأرسلته الى روسيا ليقلب الحكم فيها ، فإن حلفاءها القدامى أي انكلترا وفرنسا ومن معهما ، كانوا يعلمون بأن ضعفها لن يطول أمده وأنه لا بد لها من أن تنهض وتقف على ساقيها ثم لا بد لها من أن تطالب بإرثها وأن تسعى إلى تحقيق مطامعها في البحر الأسود وفي الممرين المائيين، ولذا فقد كان لا بد للانكليز وهم سادة البحار ، آنذاك ، من أن يفكروا بهذه النتيجة وأن

يتداركوا عواقبها قبل حلولها . وكان الحل هو إبقاء الأناضول لاصحابها .

فمن جهة كانت انكلترا وفرنسا تخشيان الدب الروسي الرابض على حدود الأناضول، ومن جهة ثانية كانتا قد تقاسمتا البلاد العربية فأخذت فرنسا سوريا ولبنان وأخذت انكلترا العراق وفلسطين بالإضافة الى ماكانت تسيطر عليه من قبل من شواطئ الجزيرة العربية بدءاً بمستعمرة عدن فالمحميات فمسقط فمشيخات الخليج العربي بما فيها البحرين والكويت .

وفي الوقت الذي اتفقت فيه الدولتان الانكليزية والافرنسية على هذا التقسيم سراً كانتا قد أعطتا فلسطين للصهيونيين لتكون وطناً قومياً لهم، ووعدتا الشريف حسين بامبراطورية عربية تشمل الوطن العربي كله ، أو أن الشريف حسين ظن أن رغبته حقيقة واقعة وأن مطالبه أوامر تعطى لحلفائه فتنفذ، فبات خالي البال مرتاح الخاطر يعيش هو وكل العرب في حلم لذيذ معتمدين على صدق الحلفاء وإخلاصهم ويصدقون كل ما يقال لهم، ويكتفون من العهود بالوعود لا بل بالوعود الغامضة، ولم يكونوا يدرون أن عهود أهل الغرب الكلامية هراء والمكتوبة منها قصاصات ورق يمكن تمزيقها وحرقها في كل وقت حتى اذاكانوا مغلوبين فكيف بهم اذاكانوا غالبين ؟

اقتنع الشريف حسين بحسن نوايا حليفته بريطانيا على الرغم من أن تصرفات رجالها كانت تدل بوضوح على المراوغة والخداع . ولكن أنى للمسلم الشريف أن يسيء الظن بمن يتودد إليه ويظهر له الاخلاص ؟

ظل الشريف حسين ثابتاً على مبدئه محسناً الظن بالانكليز على الرغم من أن رجال الثورة الشيوعية ، بعد أن استلموا الحكم في البلاد ، فضحوا الاتفاقية السرية (اتفاقية سايكس ــ بيكو) المعقودة بين انكلترا وفرنسا وروسيا لتقسيم الامبراطورية العثمانية ، وعلى الرغم من أن جمال باشا نبه العرب في الكلمة التي القاها في بيروت بتاريخ ١٩١٧/١١/٣٠ إلى هذه الحقيقة . وقد أعرب مندوبا انكلترا وفرنسا المقيمان في الحجاز صراحة عن سوء نية حكومتهما حينما رفضا حضور الحفلة التي أقيمت في جدة احتفاءً بمبايعة الشريف حسين ملكاً على البلاد العربية . وقد تمت المبايعة

في مكة المكرمة في ١٩١٦/١١/٤ وأقيم الاحتفال في جدة لكي يتسنى لهذين المندوبين حضوره ولكنهما لم يحضرا لأن حكومتيهما لم تعترفا بالشريف حسين ملكاً على البلاد العربية بل ملكاً على الحجاز ورفضتا منحه لقب صاحب الجلالة بل دعته بصاحب السيادة وأحياناً بصاحب السمو .

كانت الأمور ، اذن ، ظاهرة منذ البداية ولكن الشريف حسين لم يعد قادراً على الرجوع كما أنه كان صادقاً في ثورته وظل يحسن الظن بانكلترا .

فلما انجلت الحرب ورأى العرب أنفسهم أنهم أصبحوا أكثر فرقة وشتاتاً مما كانوا عليه من قبل وانهم أصبحوا محكومين بأسماء مخترعة ،منها الانتداب والحماية والتحالف والاستعمار والقوة ، بعد أن كانوا شركاء الدولة العثمانية في الحكم ، اسقط في أيديهم وكانت ردة فعلهم عنيفة ويأسهم من حلفاء الأمس عظيماً ولكنهم لم يتحركوا بل ظلوا يعيشون بالآمال،اللهم إلا ما قيل عن مراسلات جرت بين الشريف حسين وبين مصطفى كمال ومراسلات جرت بين بعض رجالات سوريا وبين مصطفى كمال أيضاً ولكنها دفنت في المهد . وبدهي أن هذه المراسلات لم تكن تنفع شيئاً لأن مصطفى كمال نفسه كان بحاجة إلى المعونة من جهة ثم إنه لم يكن من الناس الذين يحبون العرب أو يعطفون عليهم من جهة ثانية .

ولعل السبب في عدم قيام العرب بحركة هو تقطيع أوصالهم وانعدام القيادة الموحدة فيهم وفقدان التنظيم السياسي وعدم وجود جيوش نظامية ثم وجود جيوش فرنسية وانكليزية في البلاد وهي لم تعد جيوشاً حليفة بل اصبحت جيوشاً غازية .

وبينما كان العرب غارقين في بحور تأملاتهم يستجدون عطف حلفائهم تنبه السلطان وحيد الدين للأمر وأدرك أن بقاء الأناضول بلداً مستقلاً أمر لازم لأعداء الدولة العثمانية كما أنه أدرك بأن الحصول على الاستقلال لن يتم الا بالسعي إليه فاوعز الى مصطفى كمال بأن يقوم بثورة مسلمة وكان ماكان مما أسلفنا ذكره .

هذا ما كان من أمر المغلوبين وأما ما كان من أمر الغالبين فقد ادركت انكلترا ، وهي التي تحتل استانبول ، انها لا تستطيع ابتلاع البلاد العثمانية كلها وان حصتها من البلاد العربية كافية لها وأن تماديها في استفزاز الشعور الاسلامي قد ينقلب عليها

ويضر بمصالحها ولا سيما في شبه الجزيرة الهندية الباكستانية ، التي كان يهمها امرها كثيراً ، وأن الثورة التركية انما هي الخطوة الأولى وربما تبعتها ثورات وبالتالي فإنه لا بد من الهاء العالم الاسلامي بهذه الثورة ، التي علق عليها المسلمون كل آمالهم في إحياء الخلافة ، وعلق الغربيون عليها آمالهم بأن تكون هدماً للخلافة واجتثاثاً لجذور الاسلام من البلاد حتى لا تقوم لها قائمة ،ولذا فان نجاحهـا كان يهم الانكليز أكثر مما يهم المسلمين ، لأنها بهذه الثورة تصرف العرب عن التفكير بانفسهم وتعلق آمالهم على الثورة التركية ، من جهة ، وتكون ، من جهة ثانية ، قد ثبتت أقدامها وأقدام حليفتها فرنسا في البلاد العربية فإذا صحا العرب لا يجدون لأنفسهم مخرجاً مما وقعوا فيه .

عمل الانكليز جهدهم لإنجاح الثورة التركية بدليل أنهم لم يساعدوا اليونان بشيء،وبما قاموا به من دعاية للثورة ذاتها ولشخص مصطفى كمال حتى جعلوا الناس يظنون أن الخلافة الاسلامية أصبحت في متناول أيديهم وأنها قد استعادت مجدها وأن مصطفى كمال هو نور الدين زنكي أو صلاح الأيوبي أو حتى عمر بن الخطاب ونسي المسلمون مصائبهم فرحاً بانتصارات مصطفى كمال التي اعتبروها الخطوة الأولى نحو تحقيق آمالهم الاسلامية . غير أن ما حدث بعد ذلك خيب آمال المسلمين، ولكن الفرصة كانت قد فاتت ولم يعد بمقدورهم أن يفعلوا شيئاً بعد أن تفرق شملهم، وبعد أن انتزع عبد العزيز بن السعود الملك من الحسين، خليفة المسلمين المنتظر، فأخذه الانكليز وسجنوه في قبرص الى أن توفي وجازوه جزاء سنمار .

كان الغرب عامة والانكليز خاصة يفضلون وجود دولة تركية ضعيفة مشذبة الأطراف بعيدة فكراً ومبدأ وروحاً عن البلاد العربية المجاورة على أن يسيطروا هم على الأناضول لأن وجود **أية دولة أوروبية في الأناضول باسم الاستعمار أو الحماية أو الانتداب سيجعل الاحتكاك مع الروس مستمراً بينما وجود دولة تركية ضعيفة سائرة في ركاب الغرب أضمن للغرب وأنفع له .**

وإذا كان الانكليز قد نكثوا عهودهم مع العرب لأنهم أدركوا ضعفهم وشتات

كلمتهم وعدم اتفاقهم على رأي ولأنهم كانوا يعلمون بأنهم لن يتنازلوا عن دينهم ولا عن قوميتهم الاسلامية فانهم قد ساعدوا مصطفى كمال، أو إن شئت فقل أنهم لم يناهضوه، لأنهم كانوا يعلمون أنه سيعطيهم كل ما يطمعون به وذلك لأن الاستعمار لم يعد، في أيامنا هذه، استعمار أرض وسماء وسيطرة عسكرية وحكماً مباشراً بل أصبح استعمار أفكار ومبادىء وأهداف، وقد أصبحت تركيا مستقلة في ظاهرها وفيما لا يضر الغرب ولكنها مستعمرة في أفكارها ومبادئها.

لقد جرب الانكليز العرب وامتحنوا إخلاصهم فوجدوهم لا يصلحون لصداقتهم لأنهم صادقون مع أنفسهم وإذا كان الملك حسين قد رضي بالسجن والنفي ولم يرض بأن يسجل التاريخ عليه أنه رضي بالوطن القومي اليهودي، مع أن رضاه أو عدمه لم يكن ليقدم ولا ليؤخر شيئاً، فمن البدهي الا يكون أداة طيعة في أيدي أهل الغرب ولذا فقد لاقى منهم العداوة والبغضاء.

لقد فرح المسلمون في العالم كله بنجاح الثورة التركية ولكن فرحتهم لم تطل بعد أن أدركوا ابعادها ومراميها ورأوا نتائجها ولمسوها في أنفسهم وفيما يعانون من أوضاع. ويحاول اليوم كثير من الأتراك المخلصين الرجوع الى ماضيهم ولكنهم لا يستطيعون لأن الثورة قد ضربت بينهم وبين ما يبتغون سداً منيعاً لا يقدرون على النفوذ منه بعد أن قطعتهم الثورة من جذورهم وأبعدتهم عن تاريخهم ولغتهم وثقافتهم.

لقد ربح أهل الغرب بهذه الثورة شيئاً كثيراً لم يكونوا يحلمون به ولكن هذا الربح لم يأتهم مجاناً وهم نائمون بل لقد عملوا له قروناً «وأن ليس للانسان الا ما سعى».

الانكشارية أو الجيش المحترف

لا بد لنا قبل أن نختم هذه التعليقات من أن نقول كلمة بالانكشارية الذين رأينا ما كان لهم في بداية امرهم من أثر طيب في حروب الدولة العثمانية مع أعدائها ثم رأيناهم وقد أصبحوا أداة شر وتخريب وعصابات إجرام وفتك إذ استبدوا بالسلاطين وبالوزراء والقادة يرفعون ويخفضون ويولون ويعزلون ويقتلون ويفتكون ويأمرون وينهون وليس من رادع يردعهم أو مانع يمنعهم وكأنهم حكومة ضمن حكومة والحكومة الشرعية لا تستطيع أن تأتي بحركة أو أن تعترض على عمل أو تحول دون شر بل كانت تنزل عند رغبتهم مكرهة وتنفذ إرادتهم طائعة لا بل وتجزيهم على شرورهم أحسن الجزاء وكانت كلما تساهلت معهم تمادوا في غيهم حتى أصبحوا هم الحكام، والحكومة أداة لتنفيذ أغراضهم وأوامرهم.

لقد كانت فكرة ايجاد جيش الانكشارية أي الجيش المحترف فكرة عسكرية عبقرية وهي ليست فكرة جديدة مبتدعة، في حد ذاتها، بل هي فكرة قديمة مارستها كل الشعوب، ولكن العثمانيين ألبسوها لباساً نظامياً بعد أن كانت بلا رابط ولا نظام إذ كان المرء يلتحق بالجيش الذي يريده متى شاء وينفصل عنه متى أراد وقد يعمل في جيش ما ثم يتركه ويعمل في جيش عدو له ولا يلام ولا يعاقب على ما يفعل فجاء العثمانيون ونظموا هذه الفوضى إذ جعلوا هذا الجيش المحترف جيشاً نظامياً مرتبطاً بالدولة العثمانية ويعمل لها.

قلت إن فكرة الجيش المحترف ليست فكرة مبتدعة بل قد مارستها كل الشعوب

فالجيوش التي قادها جنكيز خان وهولاكو وتيمورلنك واسكندر المقدوني ونابليون الأول وغيرهم من القواد العظام لم تكن جيوشاً وطنية قومية ترتكز على قومية واحدة ووطن معين أو جنس واحد بل كانت جيوشاً مأجورة مختلطة من أقوام كثيرة ، وفي كثير من الأحوال كان قواد من قوم ما يعملون في جيوش قوم آخر لحساب هذا القوم وصالحه حتى ضد مصلحة وطنهم الأصلي ولا يرون في ذلك حرجاً . وأول جيش ، في العالم ، قام على عقيدة وطنية قومية هو الجيش الاسلامي القائم على رابطة العقيدة الاسلامية .

هذا وقد أدرك الماريشال بيتان ، في القرن العشرين فوائد الجيش المحترف فكتب كتاباً بعنوان :«نحو جيش محترف»وحيث كان ديغول في معيته فكان يتولى جمع مسودات هذا الكتاب وتنسيقها وترتيبها ثم طبعه باسمه . وقد غضب الماريشال آنذاك على ديغول لهذا العمل ولكنه عفا عنه وسكت وظل الكتاب باسم ديغول . أدرك الماريشال بيتان ، وهو الجندي الفذ ، بعد خبرة طويلة بأن الجندي العادي الذي يؤخذ لخدمة العلم قد لا يكون دائماً مستعداً للتضحية وللموت حتى ولو كان مخلصاً لوطنه ولأمته لأنه قد يكون تحت عوامل نفسية أو صحية أو اجتماعية لا تؤهله أن يكون جندياً صالحاً وانما يكون قد تقدم لخدمة العلم لأنه واجب وطني لا مناص منه ، بينما يدخل الجندي المحترف الجيش وهو على بينة من أمره ويكون حب الحرب والقتال رغبة في نفسه وطبيعة من طباعه ، وهذا ما دعا الماريشال إلى كتابة كتابه المذكور لبيان هذه الحقيقة ولدعوة الأمم الى ممارستها .

واذا كان الماريشال بيتان قد قال ما قال فهو أيضاً لم يأت بجديد بدليل أن العالم لم يخل في يوم من الأيام من الجيوش المحترفة اذ كانت الجيوش تتألف من قوميات كثيرة تحارب كلها جنباً الى جنب بكل إخلاص وصدق لتنفيذ رغبة القائد مهما كانت هذه الرغبة حتى ولو كانت ضد مصلحة قوم الجندي المحارب وذلك لأن مفهوم القومية والوطنية لم يكونا معروفين في الماضي كما هما الآن .

فلما استقرت الأوضاع في أوروبا وظهرت القوميات في نطاقها المعروف الآن لم

يعد باستطاعة شخص ما يتمتع بقومية معينة أن يعمل بحرية في خدمة قومية أخرى ولصالحها بل أصبح ذلك جرماً يعاقب عليه بالموت،ولما لم يكن بد للأمم الكبيرة من الاستعانة بالجيوش المأجورة فقد وجد الغربيون في المستعمرات الآسيوية والافريقية ضالتهم وصاروا يسوقون من أبناء المستعمرات جيوشاً يحاربون بها أعداءهم وقد فعلت جيوش المستعمرات فعل الجيوش المرتزقة ،لا بل نستطيع أن نقول إنه لولا جيوش المستعمرات لما استطاعت انكلترا وفرنسا الصمود أمام الدولة العثمانية على ماكانت عليه من وهن، فقد ساق الانكليز جيوشاً من الهند واستراليا ونيوزيلندا وغيرها من المستعمرات ، وساقت فرنسا جيوشاً من المغاربة والجزائريين وافريقيا السوداء . وهذه الجيوش هي التي كانت تتلقى الصدمة الأولى . وفي كثير من الأحيان ، كان أبناء المستعمرات ، يقاتلون لحساب المستعمرين ، أقواماً تربطهم بهم روابط العقيدة واللغة والقومية والدين .

وكان أبناء المستعمرات شبه الانكشارية يحترفون القتال مكرهين أو لقاء أجر معلوم وذلك لحاجتهم إلى العيش أو إلى الموت لأن العيش كان يعوزهم في بلادهم .

وبالتالي لقد أثبتت التجارب أن الجيوش المحترفة ، في زمان لم تكن للقومية وللعقيدة من القدسية ما لهما اليوم ، هي أفضل أنواع الجيوش وعلى أيديها كانت تتم أعظم الفتوحات وجلائل الأعمال ، لأن الجندي المحترف كان فدائياً بكل معنى الكلمة إذ أن كل ما كان يهمه هو أن يحارب وأن يقاتل ولا يبالي بما يصيبه لأنه كان يعتبر الجندية حرفة ، والموت والجندية توأمان متلازمان .

ومن الجيوش الافرنسية فرقة تسمى : (فرقة الأجانب) ألفها الافرنسيون سنة ١٨٣١ بعد أن استولوا على الجزائر وأفرادها من المتطوعين من قوميات مختلفة وكثيراً ما يكونون من الذين ارتكبوا جرائم في بلادهم ففروا منها والتجؤوا الى فرنسا ودخلوا هذه الفرقة وتعد هذه الفرقة من أفضل الجيوش المحاربة .

وخلاصة الحديث هو أن الجيش المحترف هو من أفضل الجيوش بعد جيش العقيدة وإذا كان الانكشارية قد أساؤوا إلى الدولة العثمانية أكثر مما أحسنوا فليس

ذلك ذنب الفكرة ، في حد ذاتها ، بل هو ذنب الدولة التي لم تعرف أن تقبض عليهم قبضة حازمة صارمة وأن تضعهم في المكان الذي يجب أن يكونوا فيه وأن تبعث فيهم روح الجندية الحقيقية القائمة على الطاعة . ولو اقتدى السلاطين الذين جاؤوا بعد السلطان سليم الأول الذي فتك برؤوس الانكشارية الذين تمردوا عليه في ايران وقتل مفتي الجيش الذي حرضهم على العصيان ، لاستقامت لهم الأمور ولكان هذا الجيش من أفضل الجيوش ولكن ضعف السلاطين وتخاذلهم وغرقهم هم وأعوانهم في اللهو والخلاعة شجع الإنكشارية على التطاول عليهم على رأي الشاعر القائل :

إذا كان رب البيت بالطبل ضارباً
فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

لقد تخلص السلطان محمود من سيطرة الإنكشارية ولكنه قوض أركان دولته بالقضاء عليهم ولو كان حصيفاً لكان نظمهم وضبطهم ليكونوا أداة صالحة لا أن يقضي عليهم ويترك البلاد بلا جيش قوي .

على كل حال لقد أصبح هذا الحديث حديث امس الغابر إذ قد مضى عهد الجيوش المرتزقة والجيوش المحترفة وأصبحت الجيوش جيوشاً وطنية،ولكن الاتحاد السوفيتي أحيا في مستعمراته فكرة الجيوش المحترفة القائمة على العقيدة الشيوعية وها هي الجيوش الشيوعية تعمل في كل بلاد العالم بأمر موسكو ولصالحها لأن روسيا هي وطن الشيوعي من أي بلد كان والشيوعية هي دين كل شيوعي أينما كان .

الخَاتِمَة

لقد توالى على عرش الدولة العثمانية ستة وثلاثون سلطاناً كان منهم سلاطين عظام يمتازون بالحنكة والحكمة والارادة والادارة والشجاعة والاخلاص والعفة والتقشف وغير ذلك من الصفات الطيبة، وهم ممن لا يأتي الدهر بمثلهم إلا على فترات من الزمن ، وكان منهم بين بين كما كان آخرون ليس لهم من ميزة يمتازون بها تؤهلهم للوصول إلى العرش إلا كونهم ينتسبون إلى الأسرة المالكة فدُفعوا الى العرش دفعاً وهم لا يصلحون له ولا يصلح لهم .

وكان من السلاطين من ارتكب من الأعمال ما تقشعر منه الأبدان، وكان منهم سفاكون ظالمون ومبذرون ومسرفون ومهملون وجاهلون وجبناء وأغبياء وغارقون في بحور اللهو والخلاعة، ومع هذا كله فلم يشوه التاريخ سمعة واحد من أولئك ولا من هؤلاء ولم يحمل عليه حملته الشعواء التي حملها على السلطان عبد الحميد الثاني . ولعل السبب في ذلك هو أن الأعداء كانوا يهابون السلطان القوي العظيم فلا يجرؤون على ثلمه أو مسه بكلمة سوء، كما انهم كانوا يحتقرون السلطان الضعيف فلا يرونه أهلاً لكي توجه اليه سهام النقد والتجريح . غير أن السلطان عبد الحميد كان فذاً من هذه الناحية إذ كان عظيماً فهابوه واحترموه وقدروه حق قدره وهو على العرش، فلما خرَّ عن العرش وجدوها فرصة للإجهاز عليه حتى لا تقوم له قائمة بعد ذلك ابداً . واذا كان أعداؤه قد تجرأوا للطعن به فذلك لأنهم كانوا يعلمون بأن الدولة العثمانية قد نضجت وأنه يجب الإجهاز عليها في شخص هذا السلطان لكي

تسقط بين أيديهم لقمة سائغة وأنهم إذا فعلوا ذلك فلن يؤاخذوا ولن يؤخذوا بما يقولونه وما يفعلونه ومايفترونه، فكانت الحملة عليه تتناسب مع عظم قدره .

كان لا بد للاتحاديين وللذين ساهموا في خلعه عملاً أو فكراً ، من أن يروجوا ضده أقوالاً تبرر عملهم ليحطوا من منزلته وقد وجدوا في الغربيين الذين كانت الفكرة الإسلامية تزعجهم وترهبهم ، والتي كان السلطان عبد الحميد يتبناها ويهدد بها ، أنصاراً وأعواناً لهم على نشر أخبار السوء المختلفة التي من شأنها أن تحط من قدر هذا السلطان العظيم وتشوه سمعته أمام الرأي العام العالمي عامة وأمام الشعب العثماني خاصة . وكان الناس أمام هذه الشائعات فريقين : فريق أعمى أصم لا يبصر إلا بعين غيره ولا يسمع إلا بإذن غيره ، وفريق صاحب غرض وغاية لا يهمه إلا أن يروج لغرضه صدقاً أو كذباً . ولما كانت الرياح قد ظلت تعصف ، بعد خلع السلطان ، مدة طويلة في اتجاه رأي الحزب الغالب الذي لا يمكن مخالفته ، فقد وقر في نفوس كثير من الناس ، ولا سيما الشبان منهم ، الذين يتلقفون الأخبار من الأفواه وليس عندهم القدرة على التمييز بين صحيحها وسقيمها وهم ليسوا على علم بالواقع ليتبعوه ، كان ما يقال عن السلطان عبد الحميد هو الصدق الذي لا ريب فيه ولا شك فآمنوا به كحقيقة مسلمة لا تحتاج الى اثبات أو دليل . وجاء من بعدهم جيل جديد لم يشهد الماضي ولم يعرف عنه شيئاً ولم ير أمامه من المراجع ما يرجع إليه بهذا الشأن غير ماكتبه أعداء السلطان من أبناء البلاد أو من الغربيين فنقلوه عنهم وهم يحسبون أنهم ينقلون تاريخاً بينما هم في الحقيقة ينقلون روايات خيالية هي من نبع تفكير كاتبيها .

لقدكتبت كتب كثيرة عن السلطان عبد الحميد حتى أصبحت الكتابة عنه ، في تلك الحقبة ، تجارة للكسب وكلما بالغ الكتاب في الكلام وأتوا بالعجب العجاب والمنكر من القول ولفّقوا الروايات الخيالية ، عن حياة هذا السلطان ، كانت كتبهم أكثر رواجاً وشيوعاً ، وكل الذين كتبوا استقوا معلوماتهم من نبع واحدٍ هو نبع العداوة والبغضاء والكيد والشماتة وكل ما كتبوه يدين السلطان ويتهمه بالظلم

والاستبداد وحبه لإراقة الدماء ، وأخذ التابعون عن السابقين أقوالهم من غير تمحيص ولا تدقيق فجاءت مشوهة عن غير قصد . وكان السابقون أحد شخصين إما أنهم أصحاب أهواء وغايات وإما أنهم مأجورون فرسموا للسلطان عبد الحميد صورة قبيحة جداً دونها صور الوحوش المفترسة حتى صار يعرف باسم : السلطان الأحمر لأنه ، على رأيهم ، انغمس في الدماء من قمة رأسه الى أخمص قدميه . وقد ظلت هذه الصورة مستولية على عقول الناس عامة وعلى الكتاب والأدباء خاصة ، ردحاً من الزمن ولم يخطر ببال واحد من الذين عايشوا زمن عبد الحميد أو جاؤوا في الفترة التي جاءت بعده مباشرة وكتبوا عنه شيئاً أن يرجع إلى مراجع جديدة ليرسم صورة صادقة عن هذا العاهل الذي ظلمه التاريخ والمؤرخون .

غير أنه بعد مضي أكثر من نصف قرن على خلع السلطان وبعد أن ذهب الاتحاديون وانمحت دولة الخلافة ولم يعد الغربيون يبالون بما قيل وما يقال عن الرجل ولا عن غيره من سلاطين آل عثمان ، بعد أن هدموا بناء هذه الامبراطورية ودكوا أركانها ، بعد هذا كله أخذت الأذهان تتفتح والعقول تثوب إلى صوابها لتحاكم الأمور بالمنطق والمعقول وتسعى إلى كشف الحقائق ونفض الغبار عنها على ضوء الواقع والحقيقة وليس على ضوء المصالح الخاصة والاغراض والغايات الشخصية ، تبين أن ما قيل عن هذا السلطان كان من نوع الدعاية ، وظهر من شبان الجيل الحاضر أساتذة أخصائيون بالتاريخ هداهم البحث العلمي إلى تغيير الاتجاه السابق ونبذ الأقوال التي لا تستند على واقع وهم يكتبون الآن ، تاريخ الدولة العثمانية عامة وتاريخ السلطان عبد الحميد خاصة على ضوء المعطيات العلمية الراهنة البعيدة عن العصبية والتعصب واعتقد أن كتبهم ستظهر قريباً الى عالم الوجود لكي تسد فراغاً كبيراً في المكتبة العربية لا بل في المكتبة العالمية المكتظة بكتب الدعاية .

اتهم السلطان عبد الحميد بالظلم والاستبداد والتعسف والبطش وإراقة الدماء . وأنا لا أريد أن أدافع عنه ولا أن أنفي عنه كونه قتل أو سجن أو عذب أناساً بحق أو بغير حق ، فأنا لا أعرف شيئاً من هذا لأني لم أشهده وقد ذهب الرجل إلى ربه وهو

ليس بحاجة الى من يدافع عنه ولا ينفعه دفاع أحد من الناس بل أعماله هي التي تدافع عنه أو تدينه، ولكن التاريخ أولى أن يعرف على حقيقته لا كما كتبه أصحاب أغراض.
وهنا أتساءل فيما إذا صح ما نسب اليه من ظلم واستبداد، هل كان فذاً فيما فعل؟ وأي ملك أو أمير أو حاكم لم يكن، في ذاك الزمن، يفعل ذلك؟ لا بل أي حاكم في أيامنا هذه، وفي بعض البلاد التي تدعي الديمقراطية والحرية الفكرية، لا يفعل أكثر مما نسب الى السلطان عبد الحميد؟ فالسجون في بعض البلاد مليئة بالأبرياء والأحكام الكيفية التي تصدرها المحاكم الخاصة من أقبح مظاهر الاستبداد.

ومن البدهي أن يسود الظلم والاستبداد في بلاد لا سيادة فيها للقانون.

وإذا قلت هذا القول فإني لست أقصد به الدفاع عن السلطان عبد الحميد لما يقال انه ارتكبه من مظالم على اعتبار أن غيره من الملوك ظالمون، بل أقصد به أن هذا كان شأن بعض الحكام منذ الخليقة وإلى اليوم.

لست أدري كم قتل عبد الحميد من الناس ولكني لا اعتقد أن عددهم يتجاوز العشرات في بحر ثلاث وثلاثين سنة قضاها في الملك وكل الذين قتلوا بجريمة التآمر على الدولة وخيانة الوطن، فأي قانون في العالم لا يقتل خائن الوطن؟ أما كون الذين اتهموا بالخيانة هم ليسوا خائنين في الواقع وانما هم طلاب حرية فذلك شيء آخر لأن خيانة الوطن والإخلاص لهما مفهومان نسبيان فالفئة الحاكمة هي دائماً مقياس الوطنية ومن وقف في وجهها فهو الخائن. وهذا المقاس ثابت لا يتغير وقد ينقلب الوضع، بين عشية وضحاها، وتصبح الفئة الحاكمة خارج الحكم ويصبح الفريق الآخر حاكماً ويصبح من كان خائناً وطنياً والوطني خائناً. فنحن إذن، لا نريد أن نبحث فيما اذا كان الذين قتلوا كانوا خونة حقاً أو غير خونة بل نقول إنهم حسبوا خونة بالنسبة الى الفئة الحاكمة فنالوا جزاء الخائن..

ولعل من أقبح ما اتهم به السلطان عبد الحميد هو أنه كان يقتل مخالفيه غرقاً في البحر، وقد هول أصحاب هذا القول بهذا الأمر تهويلاً كبيراً الى حد أنهم جعلوا

الناس يعتقدون بأن الغرق في البحر هو الذي يستحق أن يطلق عليه اسم الموت وأما الشنق والخنق والخازوق والدفن في التراب حياً والرمي بالرصاص والإذابة بالأسيد وغيرها من الأمور التي تؤدي الى الموت فهي ليست موتاً . وبصرف النظر عن أن الموت بأية وسيلة كانت هو موت فان تهم إغراق الناس بالبحر تهمة كاذبة من أساسها ولربما لم تخطر ببال أحد سوى مروجيها ،إذ من المعلوم أن الذين قاموا بالحركات القومية المناهضة للدولة العثمانية هم الأقوام غير التركية وعلى رأسهم العرب وقد أنشأ هؤلاء الجمعيات السرية وألفوا الأحزاب العلنية وعقدوا المؤتمرات ووزعوا النشرات وأصدروا الجرائد داخل البلاد وخارجها وكتبوا الكتب وقالوا بالسلطان في حياته وبعد خلعه أكثر مما قاله مالك في الخمر، ولكن أحداً منهم لم ينقل إلينا خبر الإغراق ولم نر أو نسمع ، في طول البلاد وعرضها ، إنساناً ادعى أن أباه أو أخاه أو خاله أو عمه أو قريبه أو حتى جاره أو صديقه أخذ وأغرق في البحر ، ولكن على الرغم من عدم وجود شاهد على هذه الجريمة فإن الناس قد تلقفوا هذا القول وصدقوه وكأنه أمر مسلم به لا يحتاج إلى دليل أو إثبات .

أنا لا أقول بأن السلطان عبد الحميد كان ملاكاً أو كان معصوماً لأنه لو كان كذلك لما بقي على العرش هذه المدة الطويلة ، في زمن كان الملوك العوبة بأيدي الجند ، بل أقول إنه كان مثل غيره من الملوك من هذه الناحية ولكن كان يمتاز على كثير منهم بدهائه وذكائه وإخلاصه وحنكته وحكمته وعقيدته الإسلامية . تولى عبد الحميد العرش والدولة في حالة احتضار فلم يمسكها إلا دهاؤه وذكاؤه وإذا لم يكن للسلطان عبد الحميد من فضل إلا كونه رفض أن يعطي اليهود وطناً قومياً في فلسطين لقاء خمسين مليون ليرة ذهبية ووعود بمساعدات أخرى لكفاهُ فخراً واغتفر له كل سيئة ارتكبها ان كانت له سيئات .

لقد ظلمنا العثمانيين إذ سميناهم مستعمرين ونحن منهم ، وظلمناهم إذ قلنا إنهم مخربون ونحن منهم ، وظلمناهم اذ قلنا أنهم اساؤوا إلى البلاد ونحن منهم ، وظلمنا

عبد الحميد وسلقناه بالسنة حداد والصقنا به ما هو براء منه، جرياً وراء دعايات مغرضة وهو من أفضل ملوك بني عثمان، ولكن ذنبه الوحيد أنه جاء متأخراً في الزمن ولو جاء قبل قرن من زمنه لأصلح كثيراً من الأمور.

وبالتالي ليس التاريخ أهواء وخيالات ولا هو دعاية وغايات بل هو وقائع وحقائق، يجب أن تعلم وأن تقال كما هي لكي تكون دروساً وعبراً.

الدكتور إحسان حقي

السَلاطِينُ العُثمانيُّون

١ ـ عثمان بن ارطغرل ١٢٩٩ ـ ١٣٢٦ .

٢ ـ أورخان بن عثمان ١٣٢٦ ـ ١٣٦٠

٣ ـ مراد خداوندگار ابن اورخان ١٣٦٠ ـ ١٣٨٩

٤ ـ با يزيد الأول يلدرم ابن مراد ١٣٨٩ ـ ١٤٠٣ قتل أخاه الأصغر يوم تولى العرش لكي لا يفسد عليه أمره .

وهنا حدثت فترة ملوك طوائف ثم جاء :

٥ ـ محمد الأول چلبي ابن با يزيد ١٤٠٣ ـ ١٤٢١ قتل أخوته الأربعة حرباً

٦ ـ مراد الثاني ابن محمد ١٤٢١ ـ ١٤٥١ قتل عمه مصطفى وأخاه مصطفى

٧ ـ محمد الثاني الفاتح ابن مراد ١٤٥١ ـ ١٤٨١ قتل اخاه الرضيع

٨ ـ با يزيد الثاني ابن محمد الثاني ١٤٨١ ـ ١٥١٢ تنازل عن الملك لابنه سليم

٩ ـ ياوز سليم بن با يزيد ١٥١٢ ـ ١٥٢٠ قتل خمسة من اولاد اخوانه وقتل أخاه كركود ، وأخوه أحمد قتل وهو يحاربه .

١٠ ـ سليمان القانوني الأول ابن سليم ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦ قتل بعض أولاده وبعض أحفاده بدسيسة زوجته .

١١ ـ سليم الثاني ابن سليمان ١٥٦٦ ـ ١٥٧٤

١٢ ـ مراد الثالث ابن سليم الثاني ١٥٧٤ ـ ١٥٩٥ قتل إخوته الخمسة

١٣ ـ محمد الثالث ابن مراد ١٥٩٥ ـ ١٦٠٣ كان له ١٩ اخاً خنقهم قبل دفن أبيه ودفنهم معه تجاه ايا صوفيا

١٤ ـ أحمد الأول ابن محمد الثالث ١٦٠٣ ـ ١٦١٧ حجر على أخيه ولم يقتله .

١٥ ـ مصطفى الأول اخو أحمد الأول ١٦١٧ ـ ١٦١٨ .

١٦ ـ عثمان الثاني ابن أحمد الأول ١٦١٨ ـ ١٦٢٢ قتل أخاه محمداً ،خلع ثم قتل .

مصطفى الأول (ثانية) ١٦٢٢ ـ ١٦٢٣ خلع ثانية .

١٧ ـ مراد الرابع ابن السلطان أحمد الأول ١٦٢٣ ـ ١٦٤٠

١٨ ـ ابراهيم الأول ابن السلطان أحمد الأول ١٦٤٠ ـ ١٦٤٨ خلع ثم خنق

١٩ ـ محمد الرابع ابن ابراهيم الأول ١٦٤٨ ـ ١٦٨٧ خلع .

٢٠ ـ سليمان الثاني ابن ابراهيم الأول ١٦٨٧ ـ ١٦٩١

٢١ ـ أحمد الثاني ابن ابراهيم الأول ١٦٩١ ـ ١٦٩٥

٢٢ ـ مصطفى الثاني ابن محمد الرابع ١٦٩٥ ـ ١٧٠٣

٢٣ ـ احمد الثالث ابن محمد الرابع ١٧٠٣ ـ ١٧٣٠

٢٤ ـ محمود الأول ابن مصطفى الثاني ١٧٣٠ ـ ١٧٥٤ .

٢٥ ـ عثمان الثالث (لم يذكر اسم أبيه) ١٧٥٤ ـ ١٧٥٧ .

٢٦ ـ مصطفى الثالث ابن احمد الثالث ١٧٥٧ ـ ١٧٧٤

٢٧ ـ عبد الحميد الأول ابن أحمد الثالث ١٧٧٤ ـ ١٧٨٩

٢٨ ـ سليم الثالث ابن مصطفى الثالث ١٧٨٩ ـ ١٨٠٧ خلع .

٢٩ ـ مصطفى الرابع ابن عبد الحميد الأول ١٨٠٧ ـ ١٨٠٨ خلع ثم قتل .

٣٠ ـ محمود الثاني ابن عبد الحميد الأول ١٨٠٨ ـ ١٨٣٩ .

٣١ ـ عبد المجيد الأول ابن محمود الثاني ١٨٣٩ ـ ١٨٦١ .

٣٢ ـ عبد العزيز بن محمود الثاني ١٨٦١ ـ ١٨٧٦ خلع وقتل مسموماً

٣٣ ـ مراد الخامس ابن عبد المجيد الأول ١٨٧٦ ـ ١٨٧٦ خلع لخلل في عقله .

٣٤ ـ عبد الحميد الثاني ابن عبد المجيد الأول ١٨٧٦ ـ ١٩٠٩ خلع ومات ١٩١٧.

٣٥ ـ محمد رشاد الخامس ابن عبد المجيد الأول ١٩٠٩ ـ ١٩١٨

٣٦ ـ محمد وحيد الدين السادس ابن مراد الخامس ١٩١٨ ـ ١٩٢٢ تنازل عن العرش ومات ١٩٢٦ .

٣٧ ـ عبد المجيد ـ بن عبد العزيز الثاني ١٩٢٢ ـ ١٩٢٤ خلع .

فهرست

(للمعالم والأعلام والمواقع والكلمات الأعجمية)[1]

(١) النجمة فوق الرقم تشير إلى الصفحة التي ترجم فيها العلم أو فسرت الكلمة .

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ث ـ

ـ ج ـ

ـ ح ـ

ـ خ ـ

ـ د ـ

ـ ذ ـ

ـ ر ـ

ـ ز ـ

ـ س ـ

ـ ش ـ

ـ ص ـ

ـ غ ـ

ـ ك ـ

ـ ل ـ

ـ م ـ

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

ـ و ـ

ـ ي ـ

فهرس الأشكال والخرائط

محتوى الكتاب



Iç oğlan çavuşları *Zülüflü baltacı* *Eski saray baltacısı* *Müezzin*

Osmanlılarda resmî kıyafetler - ressam Brindesi serisi 22



Hademe *Ruus halifesi* *Kethüda kâtibi* *Vezir mektupçusu* *Reis kesedarı* *Çavuş*

Osmanlılarda resmî kıyafetler - Arif Paşa serisi 11



Selâm ağası *Sakallı ağası* *Kaftan ağası* *Çama*

Osmanlılarda resmî kıyafetler - Arif Paşa serisi 12



Darussaade ağası *Sultan Mahmud II* *Silahdar ağa* *Baş*

Osmanlılarda resmî kıyafetler - Arif Paşa serisi 2

Silahdar Ağa – ضابط المسلحين أو ضابط المسلحة – سلاحدار آغا

Osmanlılarda

Resmi Kiyafetler – في لباس العثمانيين الرسمي – عثمانلى لرده رسمي قيافتلر

Arif Pasa Serisi – عارف باشا سريسي –

Bas Çuhadar – رئيس الجوخدارية – باش چوخدار

Darussaade ağasi – ضابط استانبول[1] – دار السعادة آغاسي

Selam Ağasi – ضابط التشريفات – سلام آغاسي

Keftan Ağasi – ضابط القفطان (اللباس الخارجي) – قفطان آغاسي

Çamasir Ağasi – ضابط اللباس الداخلي – چماشير آغاسي

Mehter Takimi – جوقة نافخي البوق – مهتر طاقمي

Setirlar – حاملو السواطير – ساطيرلر

Sadrlazam – رئيس الوزراء – صدر أعظم

Kapicilar Kahyasi – معاون البوابين – قبو جيلر كاهيه سي

Çavus Basi – رئيس الرقباء – جاويش باشي

Iç Oglan Çavuslari – الرقباء على غلمان الداخل – اچ اوغلان جاويشلري

Eski Saray Baltacisi – جنود درك السراى القديمة – اسكي سراى بلطه جيسي

Müezzin – المؤذن – مؤذن

Akçakoca Bey – وكيل الخرج – اقچه قوجه بك

Konur Alp – .... – كانور الب

Hademe – الخادمة – خادمه

Ruus Halifasi – خليفة المدير – رؤس خليفة سي

Kethuda Katibi – كاتب القيم على المنزل – كتخدا كاتبي

Vezir Mektupçusu – أمين سر الوزير – وزير مكتوبجيسي

Reis Kesedari – رئيس ديوان – ريس كيصه دارى

Çavus Kesedari – ضابط ديوان – جاويش كيصه دارى



زلفلی قیافتی (خدمهٔ خاصه) دن



چوقدار قیافتی



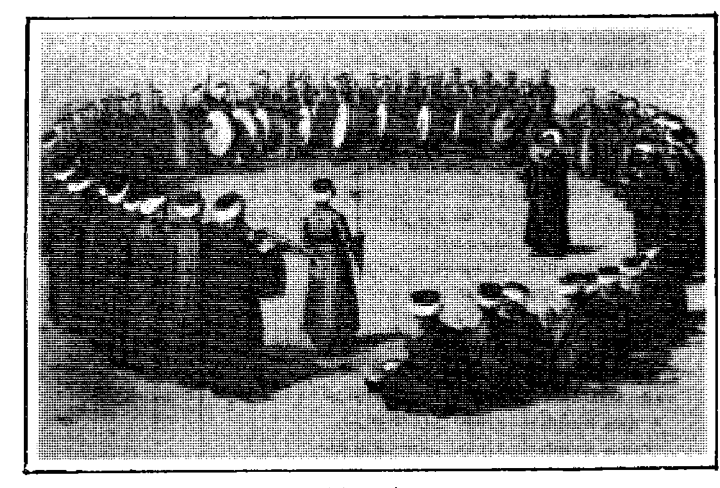
Sâtırlar *Sadrıâzam* *Kapıcılar kâhyası* *Çavuş başî*

Osmanlılarda resmî kıyafetler - Arif Paşa serisi 3



Akçakoca Bey *Sultan Osman I* *Konur Alp*

Osmanlılarda resmî kıyafetler - Arif Paşa serisi 1



Mehter takımı

Osmanlılarda resmî kıyafetler - Arif Paşa serisi 16